شي ناي آن

أبطال على شاطئ البحيرة

رواية من الأدب الصيني

الجزء الأول



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

أبطال
على شاطئ البحيرة

أبطال على شاطئ البحيرة

رواية من الأدب الصيني

الجزء الأول

شي ناي آن

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

دار النشر باللغات الأجنبية
24 شارع باي وان تشوانغ
بكين - الصين

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

طبعة الدار العربية للعلوم ناشرون الأولى
1433 هـ - 2012 م

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الصيني
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
دار النشر باللغات الأجنبية - بكين
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

ردمك 978-614-01-0560-7

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961+)
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961+) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

تقديم

كان المؤلفون في العصور القديمة يتخذون من أعمال الأباطرة والملوك موضوعات لكتاباتهم، ولكن على العكس من ذلك نجد أن معظم شخصيات رواية "أبطال على شاطئ البحيرة" أفراد مجموعة شجاعة من الأبطال أجبرهم الظلم أو أشياء أخرى على اللجوء إلى المعاقل الجبلية في ليانغشان. إن اختيار الموضوع واندفاع الرواية له مسحة هدامة إلى حد ما بالنسبة لهم.

"أبطال على شاطئ البحيرة" تصف أفعال 108 أبطال، بقيادة سونغ جيانغ، في جبل ليانغشان. كان سونغ جيانغ، في الحقيقة، شخصية تاريخية قاد ثورة فلاحية في المنطقة التي هي حاليا مقاطعات شاندونغ، وخبي، وخنان، وجيانغسو في السنوات الأخيرة لأسرة سونغ الشمالية (960-1127م). وتوجد أوصاف بعض مآثره البطولية في سجلات تاريخية مثل "تاريخ أسرة سونغ"، وكتب تاريخ كاملة مثل "تتمة للتاريخ كمرآة"، ومنها انتفاضة ليانغشان، والهجوم على مقر الحاكم، وقبول العفو، وحملة مقاومة فانغ لا. وعلى الرغم من أن سونغ جيانغ ترك أثرا قليلا في كتب التاريخ، بوسعنا أن نتخيل من خلال تلك المرجعيات القليلة كم أزعجت الانتفاضة تحت قيادته البلاط الإمبراطوري بشدة.

بعد أن قضى جيش جين على أسرة سونغ الشمالية في تقدمه نحو الجنوب، واصلت فلول قوات سونغ جيانغ التي اندمجت في جيش أسرة سونغ، مقاومة جين في الشمال. وهناك العديد من الإشارات لذلك في الوثائق التاريخية. على سبيل المثال، في "الملاحظات العشوائية لعام كويشين" التي كُتبت في الفترة الانتقالية بين أسرتي سونغ ويوان، حيث يوجد جزء عنوانه "في مدح سونغ جيانغ ورجاله الستة والثلاثين"، والذي يثني على أعمالهم في مقاومة الغزاة من جين. ويذكر بالاسم العديد من رفاق سونغ جيانغ، ومنهم تشانغ هينغ، يان تشينغ، لو جيون يي، هوا رونغ، وو يونغ، داي زونغ، سون لي، يانغ شيونغ. نشط بعض أبطال ليانغشان في جبال تايهانغ التي كانت قاعدة للمقاومة ضد جين. ويمكن أن نجد إشارات إلى "جمعية تايهانغ الوطنية والصالحة" في العديد من السجلات القديمة. إضافة إلى ذلك، قيل إن بقايا معبد لسونغ جيانغ يرجع تاريخه إلى فترة أسرة سونغ الشمالية وأسرة جين، يقع بجرف موتيان (شمال شرقي قرية شيجيو حاليا، ناحية تايتو، محافظة يانغتشنغ، مقاطعة شانشي) في جبال تايهانغ. يفترض أن المعبد يشتمل على صور صلصالية لسونغ جيانغ ورفاقه الستة والثلاثين، مما يشهد بوجود الارتباط الحتمي بينهم وبين "جمعية تايهانغ الوطنية والصالحة". في "رواية إحياء أسرة سونغ العظيمة"، التي نشرت في فترة حكم جياجينغ (1522-1567) لأسرة مينغ، توجد سلسلة أحداث تخص انتصار قوات مقاومة جين بقيادة غوان شنغ في منطقة جينان الواقعة شمالي مقاطعة شاندونغ حاليا. هذا دليل آخر، من الحكايات الشعبية، على أن سونغ جيانغ ومجموعته كانوا جزءا من مقاومة نظام جين.

بيد أن هذا النشاط من مقاومة الأبطال لأسرة مغتصبة للعرش، قُلل من شأنه، وفي النهاية تم تجاهله في الكتابات التي تشير إليهم، والتي ظهرت في أسرة يوان (1271-1368)، وقد كان الموضوع من المحرمات، حيث لا يوجد أثر لذلك في "حكايات فترة شيوانخه"، التي نشرت في زمن أسرة يوان. إلى جانب ذلك، يبدو الارتباط ضعيفا بين الأبطال ومقاومة جين في جبال تايهانغ، حيث توجد العديد من الإشارات الجغرافية الخاطئة في الرواية. على سبيل المثال، الجرف الصلصالي الأصفر الذي تعرضت فيه رحلة قافلة عيد الميلاد لخدعة، مذكور بوضوح في إحدى طبعات الرواية أنه في جبال تايهانغ، ولكن طبعة أخرى ذكرت أن قافلة عيد الميلاد سافرت من بكين إلى كايفينغ، فلم يكن ثمة سبب للمرور عبر جبال تايهانغ. ويبدو أن المؤلفين لم يكترثوا، في محاولة لربط سلسلة أحداث جبال تايهانغ بالأحداث التي وقعت بجوار ليانغشان، حيث إن المكانين يبعدان عن بعضهما كثيرا.

سونغ جيانغ ورجاله النشطاء يصفهم 24 نوعا من الدراما الشعرية لأسرة يوان والتي تسمى تساجيوي، ولكن 18 منها لا نعرف عنها إلا عناوينها، حيث فقدت نصوصها. غير أن حقيقة وقوع الإعصار الأسود في 13 عنوانا تشير إلى أن لي كوي كان شخصية مشهورة على نحو خاص. في النصوص الست الباقية من تساجيوي، يخرج سونغ جيانغ وعصبته من ليانغشان لمعاقبة المسؤولين الأشرار ولرد العدالة إلى عامة الناس. لا يوجد عنصر مقاومة لنظام جين، أو أية قصة انتفاضة للناس ضد اضطهاد المسؤولين. في تساجيوي في أسرة يوان، تم تحويل سونغ جيانغ ورجاله في الواقع إلى لعب الدور الذي يلعبه المسؤولون الشرفاء في سياقات أخرى. في تساجيوي التي ظهرت في أوائل أسرة مينغ، استمرت عقدة الدراما الشعرية كما في تساجيوي للأسرة السابقة، مع إضافة التأكيد على "التخلي عن الجانب الرجعي والعبور إلى الجانب المضيء". وكان هناك أيضا الاقتناع بأن إمبراطور مينغ سوف يأتي يوما ما ويطرد الهمج، ويمنح الأبطال العفو ويعترف بأعمالهم البطولية. كان ذلك دعاية واضحة لدعم تأسيس الأسرة الجديدة.

على الرغم من أن "أبطال على شاطئ البحيرة" مجموعة من القصص من الأساطير والدراما الشعبية لأسرتي سونغ ويوان، إلا أنها أيضا تحمل في جوهرها سمة الإبداع للمؤلف الفردي. وقد بلغت الرواية، من حيث البناء الكلي للرواية وحبكتها وشخوصها والاستخدام الفني للغة، براعة فنية لم تبلغها من قبل قصص سونغ جيانغ. إن "أبطال على شاطئ البحيرة" لا تحكي فقط عن مجموعة من القتلة واللصوص الخارجين على القانون في البراري - كما تصفهم سجلات أسرة يوان - وليست عن زمرة من المنتقمين الذين يستأصلون الشر ويستعيدون النظام - كما تصورهم تساجيوي في أسرة يوان - وإنما هي في الحقيقة عمل لانتفاضة الشعب ضد اضطهاد المسؤولين في الظروف الاجتماعية والسياسية للإقطاع.

متى ظهرت "أبطال على شاطئ البحيرة" في شكل كتاب لأول مرة؟ ومن كتبها؟ ما زال هذان السؤالان موضع جدل بين العلماء. إلى الآن، هناك اتفاق على أن "أبطال على شاطئ البحيرة" نتاج الفترة التي شهدت نهاية أسرة يوان وبداية أسرة مينغ، وأن المؤلف هو شي ناي آن. هذا يستند إلى

الدليل الأول على أن كاتبيها هما لوه قوان تشونغ وشي ناي آن. وتقول "الملاحظات البيليوغرافية للمائة نهر" لقاو رو، في مقدمة المؤلف لطبعة سنة 1541 (العام التاسع عشر لفترة حكم جياجينغ لأسرة مينغ): ""الأبطال على شاطئ البحيرة المخلصون والصالحون" تقع في مائة فصل، كتبها في الأصل شي ناي آن من تشيانتانغ، ورتبها لوه قوان تشونغ". وتتضمن ببليوغرافيا جمعها لانغ ينغ مادة تقول: "كلتا الروايتين المعروفتين باسم "الممالك الثلاث" و"سونغ جيانغ" حررهما لوه قوان تشونغ من هانغتشو، ومن ثم إنّ المؤلف لا بد أن يكون شخصا آخر. وإن مؤلف "سونغ جيانغ" يُذكر على أنه شي ناي آن من تشيانتانغ".

الدليل الآخر على هوية لوه قوان تشونغ يوجد في "تتمة سجل الأشباح" لجيا تشونغ مينغ في أوائل أسرة مينغ، كما يلي: لوه قوانَ تشونغ من أبناء تاييوان، يحمل لقب "الهائم في البحيرات والبحار". كان منزويا بطبيعته، وكاتبا للأغاني الشعبية بلغة سرية، أصلية وعذبة. هو صديق حميم لي على الرغم من الاختلاف بيننا في العمر، وقد فقدنا الاتصال ببعضنا بضع سنين بسبب الغليان في ذلك العصر حتى سنة 1364، عندما التقينا لآخر مرة. منذ ذاك مرت ستون سنة ولم أسمع عنه مرة أخرى.

من الوثائق المذكورة أعلاه، يمكن أن نضع سنة ميلاد لوه قوان تشونغ قرابة 1323م، ومن ثم فإن عمره كان خمسين سنة عندما سقطت أسرة يوان. هذا يعني أن مؤلفي "أبطال على شاطئ البحيرة" لوه قوان تشونغ وشي ناي آن، عاشا في الفترة ما بين نهاية يوان وبداية مينغ. تذكر تلك السجلات شي ناي آن على أنه كاتب المادة في الرواية، ولوه قوان تشونغ على أنه المحرر أو المرتب والجامع. وتحمل بعض طبعات الرواية التي ظهرت في أسرة مينغ اسمي الرجلين على أنهما المؤلفان، وبعضها تحمل اسم أحدهما أو الآخر، وبعضها لا تحمل اسم مؤلف. طبعة الرواية ذات السبعين فصلا لجين شنغ تان من أواخر أسرة مينغ تقدم شي ناي آن على أنه المؤلف الوحيد. وبعد ذلك اختفى اسم لوه قوان تشونغ تدريجيا، تاركا فقط اسم شي ناي آن.

يمكن الاعتماد على سجلات قاو رو ولانغ ينغ، ولكن تبقى ثلاث إشكاليات. الأولى؛ حقيقة أن الكتاب القدامى كانوا يستخدمون غالبا اسم كتابة واسما مستعارا، وقد عبر تشو ليانغ قونغ الذي عاش في أوائل عهد أسرة تشينغ، عن شكوكه في المؤلف الحقيقي لرواية "أبطال على شاطئ البحيرة" على النحو التالي: "حيث إن ثمة شكوكا في أن كاتبا من تلك الأيام تجرأ ووضع اسمه الحقيقي على عمل كهذا، لا أدري على أي أساس يمكن أن ننسب "أبطال على شاطئ البحيرة" إلى شي ناي آن". ومن ثم، نحن بحاجة إلى دليل أكثر صلابة يُشير للمؤلف الحقيقي. الإشكالية الثانية هي أنه بافتراض أن لوه قوان تشونغ وشي ناي آن هما الاسمان الحقيقيان لمؤلفي العمل، وأن لوه قوان تشونغ هو الشخص المذكور باسم لوه قوان تشونغ في "تتمة سجل الأشباح" ككاتب لمسرحيات تساجيوي، الأغاني الشعبية واللغة السرية، فلماذا لا يوجد ذكر لأي من "الممالك الثلاث"، و"أبطال على شاطئ البحيرة" أو "انتفاضة الساحر وقمعها بواسطة الأفذاذ الثلاثة"، وهي

ثلاث روايات طويلة تنسب إلى لوه قوان تشونغ وكان لها تأثير أعظم من أعماله الدرامية تساجيوي؟ إضافة إلى أنه لم يكن غريبا أن يحمل الفرد اسمه الذاتي في العصور الغابرة. الإشكالية الثالثة هي أن الوثائق المبكرة التي تذكر كتاب "أبطال على شاطئ البحيرة" يرجع تاريخها جميعا إلى فترة حكم جياجينغ، وأبكر طبعة موجودة للكتاب نشرت خلال فترة حكم جياجينغ. هذه الطبعة معنونة "الأبطال على شاطئ البحيرة المخلصون والصالحون"، لا تزال صفحتان فقط، 17 و36 بالمجلد العاشر، للكتاب موجودتين منها. كل نسخ الكتاب الأخرى يرجع تاريخها إلى فترة حكم وانلي (1573-1620)، أو بعد ذلك. على هذا، إذا قلنا إن "أبطال على شاطئ البحيرة" ظهرت أولا في شكل كتاب في أواخر أسرة يوان أو بداية أسرة مينغ، فلن نجد طبعة محددة لنفحصها. ومن ثم، إن الجدل بأن مؤلفها هو شي ناي آن في الفترة من نهاية أسرة يوان حتى بداية أسرة مينغ ما زال موضع نقاش ويحتاج مزيدا من البحث قبل أن نصل إلى ذلك الاستنتاج.

تبدو مصادر أسرة مينغ عن حياة شي ناي آن غير واضحة. يقول هو ينغ لين، وهو عالم من أسرة مينغ: "يقال إن اسم الأسرة (لمؤلف "أبطال على شاطئ البحيرة") كان شي، وإن لقبه ناي آن، واسمه غير معروف". في تقديم الطبعة المنقحة من "أبطال على شاطئ البحيرة" لجين شنغ تان، يوجد جزء من المفترض أن شي ناي آن يناقش فيه الحياة والاتجاهات والظروف التي أبدع فيها الرواية. ولكن، حيث إن هذا التقديم من اختلاق جين شنغ تان، فلا قيمة له بالنسبة إلى بحوثنا لشي ناي آن. فمع ارتفاع قيمة دراسات الأدب العامي في القرن العشرين، إن الأساطير والملفقات ذات العلاقة بشي ناي آن تضاعفت، والنتيجة أننا فعلا لا نعرف شيئا عن حياة الرجل، وعلينا أن ننتظر أدلة بحث نصية أصلية.

لقد هُجرت "أبطال على شاطئ البحيرة" عدة مرات خلال أسرتي مينغ وتشينغ، كونها تمدح أعمال مقاومة الاضطهاد، وتمتدح "مطاريد الغابات الخضْراء". بالطبع، كان الحكام الإقطاعيون يعتبرون تلك الأعمال "لصوصية". غير أن الرواية نجحت في أن تنتشر في طبعات بعدد متفاوت من الفصول وفي لغة معقدة أو مبسطة، وهو ما يوضح شعبيتها العالية على مدى قرون. بيد أن روعة "أبطال على شاطئ البحيرة" الفنية تكمن في روح مقاومة الاضطهاد العنيف القوية فيها، التي يُعبر عنها في صور ناطقة. عندما تقرأ كيف يسحق الحصيف لو متنمرا محليا بقبضته الحديدية لضرب حارس بوابة المدينة الغربية، أو كيف يدفع غاو كيو بقسوة لين تشونغ إلى الزاوية، وكيف يرد الأخير ويهرب من ضريح الرب بالجبل، لا يمكن إلا أن تشعر بإحساس استثنائي بالبهجة. إن الحصيف لو ولين تشونغ ليسا إلا اثنين من 108 مطرودين يائسين لاذوا بجبل ليانغشان. تحكي الرواية كيف قاوم عشرات منهم الظروف المأساوية والظلم الذي ارتكبه المسؤولون والحكام الفاسدون بحقهم حتى اضطروا للفرار واحدا بعد الآخر إلى ليانغشان. وبنظرة موضوعية، البحث عن ملاذ في هذا الجبل الوحشي انعكاس للتنافر الطبقي في تلك الفترة الإقطاعية، ويكشف بوضوح الظروف الحقيقية التي انتفض فيها عامة الشعب ضد الاضطهاد.

المكان الذي كان الأبطال يتعبدون فيه، ويقيمون فيه الحفلات، ويصدرون الأوامر يسمى ردهة الولاء. أمام الردهة عمودان عليهما لوحة عليها بيتا الشعر التاليان: "كن مستقيما ومخلصا بحماسة، لا تشتهِ الثروة ولا تؤذِ الناس". خارج الردهة، كان ثمة شجرة عُلّقت عليها راية صفراء مشمشية مكتوب عليها: "العمل من أجل السماء في قضية العدالة". كان شعار سونغ جيانغ وعصبته المسلحة في ليانغشان هو "الإخلاص والاستقامة". كانوا يقصدون بالإخلاص الولاء لإمبراطور سونغ، وكانت "السماء" في شعارهم تعني أيضا إمبراطور سونغ. وقد جعلوا مهمتهم فرض العدل نيابة عن الإمبراطور. في مناسبة عيد التسعة المزدوجة، يكتب سونغ جيانغ قصيدة تسي في ردهة الولاء، تقول كلماتها: "فقط عندما يهبط الإمبراطور ليمنحنا عفوا يصبح قلبي ممتلئا". أغراض الأبطال هي التالية: نيل عفو إمبراطوري، وحماية الشعب والبلاد، والقيام بأعمال نبيلة. بيد أنه من بين عصبة مكوّنه من مائة وثمانية رجال، كان بعضهم ليست لديهم رغبة في عفو إمبراطوري، ودعوا إلى الإطاحة بعائلة تشاو ووضع عشيرتهم على العرش. كان من هؤلاء لي كوي، الذي اقترح "تدمير العاصمة الشرقية والاستحواذ على العرش". وعندما يسمع سونغ جيانغ يترنم بقصيدته حول الأمل في العفو، ينفجر لي كوي غضبا ويقلب طاولة الطعام. ولكن معارضة سونغ جيانغ للمسؤولين والحكام الفاسدين، من دون عداء للإمبراطور نفسه، ظلت الموقف السياسي الرئيس للأبطال، وفي الحقيقة للرواية نفسها. تشهد على ذلك حقيقة أن أبكر قطعة موجودة من الرواية تحمل عنوان "الأبطال على شاطئ البحيرة المخلصون والصالحون". هناك تناقض فاجع في الرواية بقدر التناقض في عدم معارضة الأبطال للإمبراطور بينما هم في منفاهم بالغابات الخضراء يخوضون صراعا مسلحا ضد قوات الحكومة. المأساة الأخيرة هي أن الأبطال يحصلون على عفو ويُكَلفون بمهمة شن حملة ضد أسرة لياو المعادية وضد انتفاضة فانغ لا، ولكن بعد استنفاد الغرض منهم، يتم التخلص منهم بقرارات من البلاط.

إن نجاح "أبطال على شاطئ البحيرة" كرواية يتمثل في حقيقة أنها تصف انعطافات مسيرة مغامرات أبطال ليانغشان بطريقة حية وواقعية. لين تشونغ - وهو مدرب قوات حرس القصر البالغ عددهم 800 ألف فرد - لديه بيت دافئ صغير، وكل ما يريده حياة هادئة. غير أن هذا الطموح المتواضع يبدده كابوس كالواقع، عندما يقع ابن رئيسه في العمل غاو كيو في غرام زوجته، ويلجأ إلى كل صنوف الحيل ليوقعه في الشَرَك ويأتي له بالموت. لين تشونغ، مدفوعا باليأس، يقتل عدوه ويفر إلى ليانغشان. ينحدر سونغ جيانغ من عائلة لملاكي الأراضي، وينال قدرا من التعليم ويصبح موظفا في مكتب حكومة المحافظة. هو مخلص ومحترم بطبيعته ومستعد دائما لمساعدة الآخرين في الشدائد، ينقذ تشاو غاي من الخطر عندما تتعرض قافلة عيد الميلاد لكمين. لاحقا، يكتشف أن خليلته الغادرة يان بوه سي على وشك أن تخونه، ويقتلها في نوبة غضب. بسبب ذلك، يُلقى به في السجن. يجتهد سونغ جيانغ ليكون مواطنا مخلصا وابنا بارا، بيد أن الحقيقة القاسية تجبره، خطوة بعد خطوة، على السير في الاتجاه المعاكس. في النهاية، ينتهي هو الآخر إلى عكس إرادته ويلوذ بجبل ليانغشان. وفي الواقع، يحتل أعلى مقعد في ردهة الولاء. الرجل الآخر الذي أجبر على الفرار

إلى ليانغشان هو الحصيف لو. لو في الأصل عسكري من درجة متدنية يقتل طاغية محليا لحماية شخص ضعيف. هؤلاء الناس الذين يمثلون الاستقامة والعدل، ومواجهاتهم مع قوى الظلام والشر من الطبقة الحاكمة انعكاسات كلاسيكية للصراع بين المضطهدين (بكسر الهاء) والمضطهدين (بفتح الهاء). غير أن هؤلاء لم يكونوا النمط الوحيد من الناس في ليانغشان، فالآخرون كانوا هائمين فقدوا سبل عيشهم، مثل زعماء عصابات قطاع الطرق يان شون، وانغ ينغ، وتشنغ تيان شو الذين كان معقلهم في جبل الريح الصافية. الأول من هؤلاء الرجال كان في الأصل تاجرا للغنم والخيل، تحول إلى قاطع طريق بعد أن فقد ماله. كان وانغ ينغ سائق عربة سُجن بسبب سرقته لزبائنه، فكرس جهوده للسطو. تشنغ تيان شو كان في الأصل صائغ فضة، بيد أن حبه لفنون القتال قاده ليصبح مغامرا. هؤلاء الثلاثة سرقوا وقتلوا عابري السبيل غير مبالين بأن من يقعوا في أيديهم أناس طيبون أو سيئون. عندما سرق تشاو غاي ورجاله قافلة عيد الميلاد للمكتسبات السقيمة لمسؤول جشع، بدا ذلك "سرقة الغني"، وهكذا يمكن أن تُسمى سرقة عادلة. ولكن، لأن اللصوص قسموا الغنائم بينهم لإثراء أنفسهم، فلا يمكن اعتبارها "عطاء للفقراء". كان فكر تشاو غاي والآخرين أدنى كثيرا من فكر الحصيف لو وسونغ جيانغ ولين تشونغ. يبقى نمط آخر من الآبقين في ليانغشان، يمثلهم تشو تونغ، ضابط سلاح الفرسان بمحافظة يونتشنغ، وتشين مينغ، قائد الفرسان في تشينغتشو. كان هؤلاء جميعا مسؤولين حكوميين من مرتبة عليا أو دنيا، وقد أجبرهم جميعا أبطال ليانغشان على الانضمام إلى عصبتهم. ومن ثم يمكننا القول إن قادة الأبطال كانوا مجموعة متنافرة. ولكن، تحت القيادة السياسية ونظرا للقدرة التنظيمية لسونغ جيانغ، كانوا قادرين أن يصبحوا قوة سياسية وعسكرية متينة. الأكثر أنه لا يمكن الجدل في أن الرواية تقدم تصويرا واقعيا لمسيرة تلك الأحداث.

تتمثل القوة الأخرى لرواية "أبطال على شاطئ البحيرة" في تصويرها الحي والحيوي للعديد من أنماط الشخصيات. وقد صارت تلك الشخصيات أسماء مشهورة في الصين، ومنها الحصيف لو، لين تشونغ، وو سونغ، لي كوي، سونغ جيانغ، شي شيو، يان تشينغ. كما أن المهارة الفنية الإبداعية للمؤلف في رسم صور تلك الشخصيات غير مسبوقة في تاريخ القصة الصينية الدارجة. يتيح المؤلف، بشكل عام، للشخصيات أن تكشف عن نفسها من خلال أفعالها، ومن النادر وجود شخصية جامدة أو ساكنة. وإذا أخذنا لين تشونغ كمثال نجد أن كل المتناقضات في شخصيته تتفاعل معا في سلسلة من الحوادث، فهو يتصرف في كل موقف منها بطريقته الفريدة جدا؛ من لقائه الحصيف لو في حديقة الخضراوات لمعبد شيانغقوه الكبير في العاصمة الشرقية، مرورا بسلسلة من التقلبات، منها "دخول الحرم الداخلي للنمر الأبيض بالخطأ"، و"النفي إلى طريق تسانغتشو"، و"الحصيف لو يصنع مجزرا من غابة الخنزير البري"، و"ملاذ من العاصفة الثلجية في معبد روح الجبل". وحتى في الحوادث البسيطة لا تكون الشخصية ساكنة، حيث تُوصف كلماتها وأفعالها بقوة. على سبيل المثال، في معركة التلاكم بين الحصيف لو والجزار تشن، تُوصف المشادة الأولية أمام محل الجزار بتفصيل كبير، مع إبراز قوة شخصية الحصيف لو مع اشتداد غضبه من الجزار. وصف الصفعات الثلاث التي

قام بها لو يعطي ومضات لنفسيته، ويوفر وصفا قويا لمَقته للشر، وللرقة الكامنة تحت مظهره الخشن. الذي يستحق الذكر هو الطريقة التي تتكلم بها الشخصيات، فذوو الخلفية العسكرية يتكلمون لغة متشابهة، بينما أسلوب كلام لين تشونغ ويانغ تشي مختلف، وطريقة الحصيف لو في الكلام بعيدة كل البعد عن كل الشخصيات السابقة ومناسبة لشخصيته الفظة. يختلف كلام لي كوي عن كلام لو. وقد قال الروائي الحديث العظيم لو شيون ذات مرة: "أعجب غوركي بمهارة بلزاك في تقديم الكلام في رواياته، معتبرا أنه لم يصور الشخصيات كثيرا بقدر جذبه القارئ للتركيز على الكلمات، ومن خلال الكلمات ترى الشخصية. الصين ليس بها روائي يستخدم هذا الأسلوب، بيد أن هناك مواضع في "أبطال على شاطئ البحيرة"، و"حلم القصور الحمراء" يمكن للقارئ فيها أن يفهم الشخصية من خلال كلامها".

لقد تأثر بناء "أبطال على شاطئ البحيرة" بالتقاليد التاريخية، فالعنوان ذاته يبين أن المؤلف قصد وصف أفعال الأبطال الذين سكنوا جبل ليانغشان. تدور الرواية كلها حول وصف زعامة سونغ جيانغ لأبطال ليانغشان. يصف النصف الأول تقلبات وتغيرات أبطال متعددين للرواية، ويتناول النصف الثاني بشكل رئيس الأعمال البطولية للأبطال تحت قيادة سونغ جيانغ. في النصف الأول، شخصية كل من الحصيف لو، لين تشونغ، وو سونغ، سونغ جيانغ، تشاو غاي وغيرهم، لها مكان مستقر، ولكن يظل ثمة توتر في كل موقف، مما يجعلهم جميعا يلوذون في النهاية إلى جبل ليانغشان. الفصل الأخير هو الأداة الفنية التي تمزج قصصهم معا، والتي تحول دون جعل القص مشتتا ومضطربا.

انتشر تأثير "أبطال على شاطئ البحيرة" إلى مدى بعيد، فالرواية وفرت للأجيال التالية تجربة فنية ثرية لإبداع الرواية، وأتاحت مصادر مادة لعلماء الأدب اللاحقين. وكثير من الأعمال الدرامية استقت موضوعها من "أبطال على شاطئ البحيرة"، كما يعود خط كثير من الروايات إليها. على سبيل المثال، جاءت "جين بينغ مي" من الفصل 23 إلى 26 في "أبطال على شاطئ البحيرة"، وتتمة لها ظهرت في أوائل أسرة تشينغ. إضافة إلى ذلك، بعض شخصيات رواية "القصة الكاملة لأسرة يويه"، يعتقد أنهم جيل لاحق لأبطال ليانغشان، ويمكن النظر إلى هذا العمل على أنه استمرار لقصة ليانغشان من زاوية مقاومة جين. بيد أن تأثير "أبطال على شاطئ البحيرة" لا ينحصر في مجال الأدب، فقد أثرت أيضا على انتفاضات الفلاحين والمنظمات الشعبية السرية. لي تسي تشنغ الذي قاد انتفاضة فلاحية في نهاية أسرة مينغ، وهونغ شيو تشيوان الذي أسس مملكة تايبينغ السماوية، وسونغ جينغ شي الذي كان أحد زعماء جيش الراية السوداء (قوة انتفاضة في نهاية أسرة تشينغ)، كلهم رفعوا شعار "الدفاع عن العدالة نيابة عن السماء". وكانت المنظمات الشعبية السرية التي تقاوم ضد أسرة تشينغ تسمي أماكن اجتماعاتها "ردهات الولاء". كل ذلك يوضح تأثرهم برواية "أبطال على شاطئ البحيرة". ومن المعروف أيضا أن بعض قادة انتفاضات الفلاحين درسوا استراتيجيات وتكتيكات أبطال ليانغشان. ومن ثم، إنّ تأثير الرواية في هذا الحقل كانت له دلالات إيجابية وسلبية. إضافة

إلى روح الشهامة والشعور بأن الظلم يجب أن ينال عقابه، اللذين كانا سائدين في رواية "أبطال على شاطئ البحيرة"، وكذلك تحاملها على المرأة، انتشرت في المجتمع الصيني إلى حد لا يمكن تجاهله.

يوجد عدد كبير من النسخ الباقية للرواية المطبوعة في أسرة مينغ، وهي موجودة بتنوع كبير، والعلاقة بين الواحدة منها والأخرى مرتبكة، ولكن من المناسب تقسيمها إلى صنفين؛ المعقد والبسيط، على أساس اللغة المستخدمة في وصف الأحداث، وليس على أساس وجود قليل أو كثير من الأحداث. الرواية الأكثر قدماً من حيث التعقيد يرجع تاريخها إلى سنة 1589، وتتكون من مائة فصل مع مقدمة لعالم أعطى نفسه اسم تيان دو واي تشن. بعد ذلك تأتي طبعة في 120 فصلا، تشتمل على رحلة مقاومة تيان هو ووانغ تشينغ، وطبعة من 70 فصلا تفصل كل شيء بعد حادثة جلوس الأبطال بترتيب المكانة. وأقدم نسخة بسيطة موجودة نشرت في مقاطعة فوجيان سنة 1594 عن دار نشر ردهة قمة التوأم لأسرة يوي من جيانيانغ في 24 مجلدا وتشتمل على 120 فصلا. هذه النسخة المعنونة "الطبعة الجديدة الموضحة تماما للقصة الكاملة للأبطال على شاطئ البحيرة المخلصين والصالحين إضافة إلى حادثتي تيان هو ووانغ تشينغ". وعلاوة على ذلك، توجد طبعات في 110، 115، 124 فصلا، وطبعات في 25 و30 مجلدا. الطبعات البسيطة تتسم ليس فقط بلغتها المباشرة المستقيمة، ولكن أيضا بحقيقة أنها تتضمن حادثتي تيان هو ووانغ تشينغ. أما عن أيهما الأقدم، النسخ البسيطة أم المعقدة، فلا يزال العلماء مختلفين. بيد أن ثمة شيئا واحدا مؤكدا، وهو أن حادثتي تيان هو ووانغ تشينغ أضيفتا إلى الرواية لاحقا، وأن النسخ المعقدة، من مائة فصل، هي الأكثر قرباً إلى المصدر. لقد استأصل جين شنغ تان كل شيء بعد حادثة كابوس لو جيون يي باعتبارها الجزء الأخير. وهو أيضا غير الفصل الأول وجعله المقدمة، وزخرف لغة الكتاب كله بشكل معين. وقد ظهر العمل الجديد مشتملا على 70 فصلا. كان ذلك نجاحا، وصار من أشهر الطبعات في أسرة تشينغ. الفصول السبعون الأولى من الترجمة التي بين أيدينا تعتمد على نسخة جين شنغ تان، والثلاثون الأخرى تعتمد على نسخة رونغ يوي تانغ المكونة من 100 فصل والتي نشرت لأول مرة في أسرة مينغ (أعادت نشرها دار نشر الأدب الشعبي سنة 1975).

كانت أول ترجمة لرواية "أبطال على شاطئ البحيرة" إلى اللغة اليابانية، وكان ذلك في القرن الثامن عشر، وقام بها كانزان أوكاجيما اعتمادا على نسخة لي تشوه وو ذات الفصول المائة، وقد نشرت سنة 1759. في سنة 1790، نشرت طبعة يابانية أخرى، زادت على الأصلية عشرين فصلا، وكان عنوانها "الأبطال على شاطئ البحيرة المخلصون والصالحون الشائعة". في القرن العشرين، ظهر العديد من الطبعات اليابانية في 70 و100 و120 فصلا، ولكن الأكثر تأثيرا كانت النسخة المعتمدة على طبعة رونغ يوي تانغ التي ترجمها جيرو كاوايوكي وشيغيرو روميزو. وكانت الترجمة الكاملة الأولى للإنجليزية تلك التي قامت بها الكاتبة الأمريكية بيرك بوك، التي عنونت طبعتها ذات الفصول السبعين "كل الرجال إخوة"، ونشرت في كل من نيويورك ولندن بشكل مستقل سنة 1933. وكانت الترجمة

الفرنسية الكاملة الأولى تلك التي قام بها جاك دار الذي نشرت طبعته ذات المائة والعشرين فصلا سنة 1978، وفي العام ذاته نال العمل جائزة أدبية في فرنسا. وكانت الترجمة الروسية الكاملة الأولى تلك التي قام بها أ. روغاتشيف الذي نشرت دار موسكو لنشر الأدب طبعته ذات الفصول السبعين سنة 1955. ونُشرت في بودابست سنة 1961 طبعة مجرية قام بها سزونغور بارناباس. إضافة إلى ذلك، ظهرت ترجمات للرواية باللغات اللاتينية، الألمانية، الإيطالية، التشيكية، البولندية، الفيتنامية، الكورية، التايلاندية. وقد نشرت دار النشر باللغات الأجنبية للصين طبعة إنجليزية سنة 1980، وطبعة إسبانية سنة 1992.

شي تشانغ يوي
أستاذ بمعهد الأدب
للأكاديمية الصينية للعلوم الاجتماعية

الفصل الأول

تشانغ المعلم السماوي يصلي للخلاص من الطاعون؛
والماريشال هونغ يطلق سراح الشياطين من غير قصد

خمس سلالات طُوِيَ عهدها على النزاع والقتال هنا،
تبعثر الغيم، وضاءت سما، والمطر الهتّان غنى لنا،
وازدهر العلم وخيراته، والناس بالحرير ماجوا سنى
وغرّد اللحن هنا.. أو هنا.. في كل بيت شعَّ نور الهنا
حتى العصافير على غصنها تزقزقت أصواتها بالمنى

هذه الأبيات الشعرية نظمها في عهد حكم الإمبراطور شين زونغ من سلالة سونغ مثقّف يدعى شاو ياو فو، وهو معروف أيضا باسم المعلم كانغ جيي. ومنذ أواخر عهد أسرة تانغ، وعلى مدى خمس سلالات متعاقبة، اعصوصبت الشرور واضطربت الأوقات. فجاءت إلى الحكم سلالة بعد أخرى لم يدم عهد كل منها غير سوانح قصيرة من زمن. ولكم كانت هذه الأبيات الشعرية صادقة إذاً:

تشو؛ لي، شي، ليو، وغيو أنجبت ليانغ، تانغ، جين، هان وتشو
خمسة عشر إمبراطورا هنا وجدوا كأنهم في مدى الزمان ما كانوا
خمسون عاما مضت والحرب ديدنهم والبغض والشرّ، لا هانت ولا هانوا

في الزمن المناسب انعطفت طريق السماء انعطافة جديدة. ففي جيامانيغ ولد تاي زو إمبراطور السطوة العسكرية. خضّب السماء وميض أحمر مع إطلالة هذا الحكيم على الوجود، وانتشر الشذا يفعم الجوّ في صباح اليوم التالي. لقد كان في الحقيقة إله الرعد تنزّل إلى الأرض، قوياً شهماً، وأرفع منزلة من أي إمبراطور آخر عرفته هذه البسيطة.

هبّ يضرب بهراوة تماثله طولا، يضرب بقسوة حتى اعترفت بسلطانه أربعمائة ولاية ومقاطعة. طهّر الأرض من أرجاسها، وأرخى سدول السلام على السهول المركزية، وأطلق على إمبراطوريته اسم سونغ الكبرى وجعل بلاطه في بيانليانغ. وكان تاي زو أول ثمانية عشر إمبراطوراً من أباطرة سونغ، ومؤسس سلالة حاكمة، وقد امتدّ سلطانه على مدى أربعمائة سنة.

وهذا ما دعا المعلم شاو ياو فو أن يكتب في مديحه: "تبعثر الغيم وضاءت سما". فقد كان الزمن بالنسبة إلى الشعب وكأنه يعاين السماء مرة أخرى.

في ذلك الوقت في هواشان، الجبل المقدس الغربي، ترعرع ناسك تاوي يدعى تشين توان. كان رجلا فاضلا أُعطي هبة التنبؤ بالمستقبل عن طريق الجوّ. وذات يوم فيما كان ممتطيا حماره

يهبط عن الجبل متجهاً إلى حاضرة مقاطعة هوايين سمع مسافرا على الطريق يجهر بالقول "لقد سلّم الإمبراطور تشاي شي زونغ عرشه للماريشال تشاو في العاصمة الشرقية.

صفع تشين جبهته بيديه وضحك منشرح الأعطاف فسقط عن حماره. وحين استفسروه عن سبب فرحته أعلن قائلا: "لسوف تترسخ قواعد الإمبراطورية وطيدة الأركان من الآن فصاعداً. وهذا ينسجم مع إرادة السماء فوق، وشرائع الأرض تحت، وقلوب الرجال بين فوق وتحت".

رضي الماريشال تشاو باعتلاء العرش عام 960، وأسس عهده الملكي. فحكم طوال سبع عشرة سنة، وعمّ السلام أرجاء البلاد. وخلفه على العرش شقيقه الأصغر، تاي زونغ، فحكم اثنتين وعشرين سنة. وبعد تاي زونغ جاء تشين زونغ الذي خلفه رين زونغ.

كان الإمبراطور رين زونغ في الواقع تجسيدا جديدا لحافي القدمين الخالد. حين نزل وولد على الأرض أنشأ يبكي آناء الليل وأطراف النهار فما انقطع له دمع. فأصدر القصر الملكي إعلانا يدعو فيه أي رجل يتمكن من شفائه للإدلاء بدلوه. وتأثرت السماء فأرسلت النجم الكبير من الذهب الأبيض في لبوس رجل شيخ أعلن أنه قادر على شفاء الأمير من نحيبه المتواصل، ورفع الإعلان من حيث أقاموه. فأوصله الضابط المسؤول إلى القصر، فأمر الإمبراطور أن يؤذن له برؤية رين زونغ في أجنحة القصر الداخلية.

دخل الشيخ، وحمل الطفل، وفي أذنه همس بثماني كلمات. ومن فوره كفّ الإمبراطور عن البكاء، واختفى الشيخ في هبة من هواء دون أن يكشف عن اسمه. فماذا كانت تلك الكلمات الثماني؟ كانت كما يلي: "لكل واحد من الشؤون المدنية والعسكرية نجمه الخاص".

والحقيقة أن إمبراطور السماء اليشمي بعث بنجمين من مجموعة النجوم المبشرة بالخير للعمل على خدمة إمبراطور المستقبل. وغدا باو تشنغ، حاكم كايفينغ والعضو الأرفع منزلة في أكاديمية التنين البياني نجم الشؤون المدنية. وغدا دي كينغ نجم الشؤون العسكرية والجنرال الكبير الذي قاد حملة ضد مملكة شيا الغربية.

حكم رين زونغ بمساعدة هذين الوزيرين إمبراطوراً على مدى اثنين وأربعين عاماً، خلع في غضونها أسماء خاصة على تسع فترات من حكمه. فخلال السنوات التسع الأولى، أو فترة تيانشينغ، سارت الأمور في رخاء، وكان حصاد الغلال وفيرا، وغمرت السعادة الناس في أعمالهم، ولم يلتقط أي منهم الأشياء التي يفقدها المواطنون في الطرقات، ولم توصد الأبواب في بهمة الليل. وكان ذلك عهد "الفيض الأول." ومنذ بداية فترة مينغداو إلى العام الثالث من هوانغيو مرت تسع سنوات أخرى من الرخاء وكان ذلك عهد "الفيض الثاني".

ومنذ العام الرابع من هوانغيو إلى العام الثاني من جياويو، وهي تسع سنوات أخرى، ظلّت الحقول تغدق خيراتها. وكان ذلك عهد "الفيض الثالث".

هذه العهود الثلاثة من السنوات التسع، ومجموعها سبع وعشرون سنة، عرفت بعصر "الفيوض الثلاثة". ونعم الناس طوال هذه الفترة بسعادة لا مثيل لها. فما كان أحد يدري أن ذروة السعادة تنجب الحزن والأسى.

في العام الثالث من عهد جياويو ضرب الطاعون البلاد. فلم تنج قطعة من أرض، بدءاً من جنوب العاصمتين، من آثار العدوى. وانغمر البلاط الإمبراطوري بعرائض الاسترحام وطلبات النجدة التي انصبّت عليه من كل مقاطعة وولاية.

مات أكثر من نصف الجنود والقاطنين في العاصمة الشرقية وضواحيها. ووزّع باو تشنغ، المستشار وحاكم كايفينغ، الوصفات الطبية المعتمدة رسمياً وأنفق ماله الخاص على الأدوية في محاولة لإنقاذ الشعب. وضاع ذلك كله أدراج الرياح. راح الطاعون يتسلطن ويتفشّى. وتشاور جميع الموظفين المدنيين والعسكريين الكبار. واحتشدوا من بعد في قاعة الساعة المائية مترقبين بزوغ الفجر؛ موعد انعقاد البلاط، للاستغاثة بالإمبراطور.

في ذلك النهار، اليوم الثالث من الشهر الثالث للسنة من عهد جيايو، في الفسحة الثالثة من فترة الحراسة الخامسة، اعتلى الإمبراطور رين زونغ عرشه في القصر الإمبراطوري. وبعد أن قدّم الموظفون احتراماتهم هتف رئيس التشريفات صائحا:

- إن كانت لأحدكم سؤالة فليقدمها. وإن لم يكن لديكم ما تعرضون ينفضّ الاجتماع.

اقترب الوزير الأول تشاو تشي ونائبه وين يان بو، وأعلنا قائلين: "الطاعون يتفشى بعنفوانه في العاصمة. وكثر ضحاياه بين الجنود والشعب. من جلالتكم نلتمس، وبروح من التسامح والكرم، أن تخففوا من أحكام السجن وتقللوا من فرض الضرائب، وأن ترفعوا صلواتكم إلى السماء وتسألوها إنقاذ الشعب من هذه المحنة".

أصدر الإمبراطور أمره على الفور إلى أكاديمية هانلين باستصدار مرسوم بالعفو العام عن جميع المساجين وإلغاء الضرائب كافة؛ وأمر من بعد أن يرفع كل معبد ودير في العاصمة الصلوات للحدّ من انتشار ذلك الوباء.

أما الطاعون فازدادت شدته عصفاً. وتضايق الإمبراطور كثيرا ونادى مرؤوسيه للاجتماع. انبرى وزير جليل واستأذن بالإصغاء له أولا وعرف فيه الإمبراطور فان تشونغ يان، نائب رئيس وزرائه.

وقع فان إلى ذقنه ساجداً، ونهض، وقال: "الطاعون يهلك القسم الأعظم من جنودنا ومواطنينا. لم يفلت من براثنه إنسان. في رأيي المتواضع، إذا أردنا الخلاص من هذا الوباء وجب على جلالتكم أن تستنجدوا بالمعلم السماوي للتاويين، وهذا الذي انحدر من صلب بابوي يرجع إلى زمن هان. مُروه أن يسافر في الليل والنهار ويحط رحاله هنا، في العاصمة، ويقيم قداسا كبيرا في الحقيقة الإمبراطورية وهكذا يتخلص الشعب من الوباء".

وافق الإمبراطور رين زونغ على اقتراح فان. فأصدر أوامره إلى مثقفي أكاديمية هانلين أن يصدروا مرسوما مهره شخصيا بتوقيعه، وأحرق حزمة من عيدان البخور الملكي، ووجّه أن يسافر الماريشال هونغ خين بصفته مبعوثه الخاص إلى جبل التنين والنمر في ولاية شينتشو من مقاطعة جيانغشي ويعثر على تشانغ المعلم السماوي. وفي الوقت الذي راح البخور فيه يحترق في البهو الإمبراطوري، أودع الإمبراطور نفسه المرسوم بين يدي الماريشال هونغ، وأمره بالانطلاق من فوره.

أخذ هونغ المرسوم الملكي وخرج من حضرة الإمبراطور. اعتلى صهوة جواده وقد حمل

المرسوم في حقيبة على ظهره وعيدان البخور في صندوق ذهبي، ونصل عن العاصمة الشرقية على رأس رتل من عدة عشرينات من الرجال توجّهوا صوب قويشي مباشرة، وهي حاضرة ولاية شينتشو.

وصلوها بعد عدة أيام. وحيا الموظفون، كبارهم وصغارهم، الماريشال هونغ. وأرسلوا كلمة إلى رئيس الدير والتاويين الآخرين في معبد النقاء الأسمى على جبل التنين والنمر للتأهب لاستقبال المرسوم الملكي.

في اليوم التالي، رافق الموظفون الماريشال هونغ إلى سفح الجبل الذي هبط عنه موكب من التاويين الضاربين على الطبول، والقارعين الأجراس، والعازفين أنغاما إلهية، والحاملين بخوراً وشموعاً وأعلاماً ومظلات، لاستقبال المبعوث الإمبراطوري. واكبوه إلى المعبد حيث ترجّل عن حصانه. وتجمهر حوله التاويون جميعا، من رئيس الدير إلى أصغر مترهبن، ورافقوه إلى قاعة النقاءات الثلاثة، والتمسوا أن يضع المرسوم الملكي على مذبح.

استوضح الماريشال هونغ من رئيس الدير: "أين المعلم السماوي؟".

أجاب رئيس الدير: "يجب أن تفهم، يا ماريشال، إن معلمنا معروف باسم الصفاء النقي. وهو من طينة ممجدة ومحال أن نعكر هدوءه بمثل هذه الأمور الدنيوية كاستقبال الضيوف ووداعهم. لقد أقام كوخا من القش في قنّة الجبل، وهنالك يستغرق في التأمل وتهذيب روحه".

- ولكنني أحمل مرسوما إمبراطوريا. فكيف أعثر عليه؟

- اترك المرسوم هنا في هذه القاعة. فما من أحد فينا تؤاتيه الجرأة على فتحه. ونرجو أن تتفضل إلى الدير لتتناول قليلا من الشاي. وفي وسعنا مناقشة الأمور في أثناء ذلك.

فعل الماريشال هونغ ما اقترحه عليه رئيس الدير. ولم يكد يتخذ مجلسه بين مضيفيه في الدير حتى جهزت المائدة بالشاي وأطباق مختلفة من مأكولات خالية من اللحم. وبعد أن أكلوا وارتووا التفت الماريشال إلى رئيس الدير وخاطبه قائلا: "تقول إن المعلم السماوي يعيش في كوخ من القش في قنّة الجبل؟ لم لا تطلب إليه النزول إلى هنا لاستلام المرسوم الملكي؟".

- هو هنالك مقيم في القمة لا يريم، ينزّه نفسه عن كل ما هو أرضي. ولكن، لمعلمنا السماوي معرفة غير عادية "بالوسيلة". ففي وسعه أن يمتطي السحب والضباب. وليس هناك من يعلم في الحقيقة أين يكون. ونحن، التاويين العاديين، لا تتاح لنا رؤيته إلا في الندرى. فكيف نطلب إليه النزول إلى هنا؟

- لا مناص من رؤيته. فالطاعون يفتك بالعاصمة، والإمبراطور أرسلني بمرسوم إمبراطوري وبخور ملكي لأدعوه إلى إقامة احتفال ديني كبير يمكن أن يقضي على الطاعون وينقذ الشعب. فماذا في طوقي أن أفعل؟

- أول الأمر تبرهن عن تقواك. لا تقرب اللحم، واغتسل، والبس ثيابا قطنية بسيطة. ضع المرسوم على ظهرك، واحمل بخوراً محترقاً، وسر على قدميك وحيدا مصعدا إلى القمة. وهنالك خرَّ على ركبتيك ساجدا، واهتف ببغيتك بصوت عال. ولعلّه يقيِّض لك أن تلتقي المعلم السماوي. وأما إذا لم تكن طويتك سليمة ذهبت رحلتك عبثاً. ولن يتيسّر لك أن تراه.

- لم آكل غير الخضار منذ خرجت من العاصمة. أفلا يبرهن هذا عن سلامة طويتي؟ سأفعلنَّ ما قلت لي، وأتخذنَّ سبيلي إلى الجبل متى ابتسم الليل عن كوكب النهار.

ولجأ كل منهم إلى مضجعه في تلك الليلة.

في فترة الحراسة الخامسة من صبيحة اليوم التالي جهّز التاويون للماريشال ماء معطراً وطعاماً من الخضار والحبوب والفواكه. اغتسل بالماء المعطر، واعتطف ثيابا جديدة من القطن، وانتعل صندلا من القش، وتناول فطوراً خاليا من اللحم، ولفّ المرسوم الإمبراطوري في قطعة من الحرير الأصفر شدّها إلى ظهره. وحمل البخور المشتعل في مبخرة فضية. ورافقه عدد من التاويين إلى الجبل وراء المعبد ودلّوه على الطريق.

قال رئيس الدير: "لا تتراجع إن كنت تبغي خلاص الشعب، يا ماريشال. سرْ قدما في فيض من الورع".

ودّع الماريشال هونغ التاويين، واستجار الإله الأسمى أن يمدده بالعون، وأخذ طريقه إلى الجبل وحيدا. تسلّق الممر المتعرّج المفروش بالعشب طوال ليلين أو ثلاثة ، واجتاز مجموعة من الذرى. وما أسرع أن آلمته قدماه، وانهدّت من التعب ساقاه. وأحسّ أنه لن يطيق القيام بخطوة أخرى. لم يتذمّر بصوت عال، لكنه غمغم في نفسه: "موظف حكومي رفيع الشأن مثلي. في العاصمة أضطجع على حشيتين مزدوجتين وأتناول طعامي من صحاف مخصصة للمآدب. ورغم هذا لا أملك هناك ما يكفي من حيوية. فماذا تراني أفعل هنا في صندل من القش، وأنا أعرج في هذا الممر الجبلي؟ من ترله يدري أين هو المعلم السماوي على أية حال؟ وفيم كتب عليَّ أن أعاني هذه العذابات؟

راح يلهث بشدة، وقد ثقلت كتفاه، قبل أن يسير خمسين خطوة أخرى. وهبت ريح عصوف في ذيَّالك الوادي. وحين استكانت إلى هدوء، أرعدت زمجرة فيما وراء أشجار الصفصاف، ووثب إليه نمر ضخم الجثة، ناتئ العينين، صدره أبيض، وفراؤه مخطّط.

صاح الماريشال: "آواه!"، وتدحرج على قفاه من وهلة الذعر.

دار النمر يمنة ويسرة وعيناه إليه شاخصتان. وزمجر من جديد، وقفز ينحدر عن المنحدر الخلفي. واستلقى الماريشال هونغ تحت شجرة، وأسنانه تصطك، وقلبه يرنّ مثل دلو في بؤر ما فيها شيء من ماء. أجنَّه الخوف كمن يعاني من صدمة قوية، وترنَّحت ساقاه فكأنه ديك مهزوم، فما استطاع أكثر من إرسال الأنين.

بعد انصراف النمر بزمن يمكن أن يشرب فيه قدحا من الشاي تمكَّن الماريشال من الوقوف على قدميه. حمل المبخرة وأشعل البخور من جديد، وتابع سبيله في الجبل باحثا عن المعلم السماوي.

صعد الماريشال قرابة أربعين أو خمسين خطوة أخرى. وصعّد زفرة حرّى: "لو لم يحدد الإمبراطور لمهمتي زمنا محسوبا ما كتب عليَّ أن أقاسي مثل هذا الرعب".

لم يكد ينتهي من كلامه حتى قذفت به ريح جفول، والتقطت أذناه صدى هسيس مرنان. وهذه

أفعى كبيرة، ثخينة مثل دلو ومبقّعة ببقع بيضاء، تنسلُّ خارجة من أجمة من الخيزران والكرمة على منحدر الجبل.

هتف الماريشال:

- أنا رجل قاضٍ عليه الموت!

سقط على ظهره إلى جانب صخرة لها شكل ظهر الحلزون، مفلتاً مبخرته من يده.

سعت الأفعى الكبيرة مسرعة باتجاه الصخرة، ومن بعد لوت نفسها على شكل لفة وعيناها تطلقان شرارات ذهبية. وفتحت فمها الوسيع، ورقّصت لسانها، ونفثت بخاراً مسموماً في وجه الماريشال.

ذهب قلب الماريشال هونغ شعاعاً، فهربت أنفاسه الثلاثة، وتشعبت أرواحه السبع. رنت إليه الأفعى، وانزلقت عن الجبل وغابت عن النظر. وعندها استطاع الماريشال أن يشدّ من جذعه.

تمتم يقول:

- أفزعتني الأفعى حتى الموت!

طفح رأسه بالبثور. فلعن رئيس الدير:

- يا للفظاظة! يحتال عليّ ويرعبني على هذا النحو! إن لم أعثر على المعلم السماوي في ذروة الجبل فسأسوي أموري مع رئيس الدير غبّ عودتي!

مرة أخرى، حمل المبخرة الفضية وسوى ثيابه، وأصلح وضع المرسوم على ظهره، وركّز قبعته، وهمَّ أن يسترسل في خطواته حين سمع أنغام مزمار تدفّ إليه في عذوبة من وراء شجر الصفصاف. راحت الألحان تقترب شيئا بعد شيء. وتهادى ثور أصفر اللون فوق المرتفع. وكان ثمة مترهبن صبيّ يبتسم من حيث جلس على ظهره نافخا في مزمار معدني.

ناداه الماريشال: "من أين أنت؟ هل تعرف من أكون؟".

أكمل الصبي نفخ مزماره. وألقى الماريشال سؤاله عدة مرات. فضحك الصبي وأشار إليه بمزماره. وقال: "جئت تفتش عن المعلم السماوي، أليس كذلك؟".

ذهل الماريشال: "أنت راعي بقر. فكيف عرفت؟".

أجاب الصبي مبتسما: "حين كنت أقوم بخدمة المعلم السماوي في كوخه المصنوع من القش هذا الصباح عالنني قائلا: لقد أرسل الإمبراطور ماريشالا إليَّ حاملا بخورا ملكيا ومرسوما إمبراطوريا يسألني الذهاب إلى العاصمة الشرقية وإقامة احتفال ديني عظيم يطرد الطاعون. سأركب غرنوقا وأعتلي السحب وأذهب إليه هذا النهار. لا بدّ أنه ذهب. فهو غير موجود في الكوخ. فلا جدوى من صعودك إلى القمة. فالجبل يعجّ بالأفاعي السامة والحيوانات المتوحشة. وقد ترديك حتفك".

استوضح الماريشال: "أتنبئني بالحقيقة؟".

ضحك المترهبن وما انفجرت منه شفة عن جواب. تابع عزفه على المزمار، واختفى وراء عطفة في الطريق.

تساءل الماريشال: "كيف يؤتى لمثل هذا الولد أن يعرف أموراً كثيرة؟ لا ذرارة من شكّ أن

المعلم السماوي أنبأه. هذا صحيح".
وتردّد قائلا: "لقد ارتعبت كثيرا وكدت ألفظ أنفاسي. لعلّه يحسن أن أعود أدراجي".
حمل المبخرة وقفل عائدا مسرع الخطوات على الطريق التي عليها جاء. واستقبله التاويون ودعوه للإقامة في الدير.
استوضح رئيس الدير: "هل التقيت المعلم السماوي؟".
- أنا موظف عظيم الرفعة ومرموق المكانة في البلاط الإمبراطوري، فكيف تبعث بي إلى ممر جبلي وتجعلني أعاني صعوبات عديدة؟ كدت ألفظ أنفاسي. ففي منتصف الطريق، أولا، وثب نمر ضخم ناتئ العينين أبيض الصدر أهلكني رعباً. ومن بعد، وقبل أن أجتاز حفرة أخرى، زحفت أفعى كبيرة مبرقشة بالبياض من غابة خيزران وكرمة وسدّت طريقي. لو لم أكن مجدودا ما رجعت أدراجي إلى العاصمة حيا. هذه خطيئتكم أيها التاويون. تجعلونني هزأة!
قال رئيس الدير: "أفي وسعنا، نحن التاويين الحقيرين، أن نبدي لوزير رفيع المقام شيئا من قلّة الاحترام؟ المعلم السماوي كان يختبر تقواك. صحيح أن الأفاعي والنمور في الجبل كثيرة، غير أنها لا تؤذي الناس".
- آنئذ أعجزني السير. وفيما أنا أهمّ بمتابعة طريقي على المرتقى، رأيت على شرف من الأرض مترهبنا صبيا يقتعد ظهر ثور أصفر اللون وينفخ في مزمار معدني. سألته: "من أين أنت؟ وهل تعرفني؟". فردّ مجيبا: "أعرف عنك كل شيء". وقال إن المعلم السماوي أخبره أنه سيركب غرنوقا ويمتطي السحب إلى العاصمة الشرقية في هذا الصباح. ولهذا السبب رجعتُ.
صاح رئيس الدير: "يا لحظك السيّئ! أيها الماريشال، أضعت فرصتك الذهبية. فذلك الصبي هو المعلم السماوي".
- فتى ريفي على هذا الغرار؟!
- المعلم السماوي في هذا الجيل ليس شيئا مألوفا. فرغم صغر سنه يحوز قدرة خارقة في امتلاك "الوسيلة". وليس مخلوقا بشريا عاديا، لأنه قادر على الظهور بالصورة التي تروق في عينيه. والناس يسمونه سيد "الوسيلة".
- رأيته ولم أعرفه! يا لعاري!
- هوّن عليك، يا ماريشال. إذا قال المعلم السماوي إنه ذاهب، فلن تدوس قدماك تربة العاصمة حتى يكون الاحتفال الديني العظيم قد انتهى بصورة ميمونة.
شعر الماريشال بدبيب الراحة عند سماعه هذا القول. وأمر رئيس الدير أن تقام مأدبة على شرفه.. ووضع المرسوم الإمبراطوري، بناء على اقتراح الرئيس، في علبة للوثائق الملكية كي يحفظ في المعبد بصورة مؤقتة. وأحرق البخور الملكي في قاعة النقاءات الثلاثة. وأقيمت في الدير مأدبة كبيرة من أطباق نباتية لا لحم فيها. فأكل الطاعمون وشرب الشاربون إلى أن نشرت الظلمة رداءها الأغدف. فأوى كل منهم إلى مثواه.
بعيد الفطور في صبيحة اليوم التالي، دعا رئيس الدير والكهنة والمشرفون الماريشالَ وحاشيةً

كبيرة العدد. طافوا بأراضي المعبد واستمتعوا بالمشاهد الخلابة.

في قاعة النقاءات الثلاثة عرضت على ناظريه تحف لا يمكن للكلمات أن تغدق عليها وصفا. وقام من بعد بزيادة قاعة السموات التسع، وقاعة مجموعة النجوم المبشرة بالخير، وقاعة القطب الشمالي، فضلا عن نزهة في الطرف الأيسر من تلك الأراضي. وفي غضون جولة أخرى على الطرف الأيمن، تفحّص قاعة الجوهر الفرد الكبير، وقاعة الموظفين الثلاثة، وقاعة طرد الشرير.

واكبوه في تلك الأثناء إلى الأراضي القائمة في مؤخرة الممشى الأيمن. وهنالك رأى بناء جدرانه في احمرار الفلفل القانئ. وعلى نافذتيه الأماميتين شعريات لونها قرمزي. وكان ثمة قفل شبيه بذراع رجل يشدّ بابيه بقوة. وهنالك دستة من شرائح من الأوراق ألصقت على طول الشق حيث تلتقي درفتا البابين. مختومة بأختام قانية لا حصر لها. وتحت الطنف الأمامي صحيفة حمراء مخطوط عليها حروف من ذهب تقول كلماتها: "ختم قاعة الشياطين".

سأل الماريشال: "ما هذا المكان؟".

فأجاب رئيس الدير: "قاعة حبس فيها معلم سماوي سابق بعض الشياطين".

- وفيم هذه الأختام الكثيرة على الأبواب؟

- سجن معلم سماوي معروف باسم المعلم الملكي للوسيلة الشياطين هنا في عهد تانغ. وكان كل معلم سماوي لاحق يضيف ختمه على هذه الأختام، ويمنع أيَّ معلم سماوي خلف له من فتح هذين البابين. لو هربت هذه الشياطين فسيكون الأمر مروِّعاً. لقد حكمت تسعة أجيال من المعلمين السماويين من ذلك الحين، وأقسم الجميع على أن يحتفظوا بالباب مغلقا. وملأوا القفل بالبرونز المذاب. فمن يعلم ماذا يوجد هنالك؟ كنت مسؤولا عن هذا المعبد على مدى ثلاثين عاماً، ولا أعرف غير ما أسمعوني إياه.

انشده الماريشال هونغ، وهجس في نفسه: "لا ريبة أني أحب أن أرى شيطانا". والتفت إلى رئيس الدير قائلا: "افتح البابين. يطيب لي أن أرى الشيطان كيف يبدو".

أجاب رئيس الدير: "هذا ليس في وسعي، يا ماريشال. فقد حظره المعلم السماوي للجيل الأول. ولا يجرؤنَّ اليوم أحد على ذلك".

ضحك الماريشال: "هراء. اختلقت القصة لخداع الناس. هيأت لهذا المكان عامدا كيما تقول إن لديك شياطين مسجونة برهانا على سلطان سحرك التاوي. وأنا قرأت كتبا كثيرة، ولكن أحدا منها لم يتحدث البتة عن كيف تحبس الشياطين. الأرواح لا تقطن إلا في الأصقاع السفلية. ولا أصدق أن لديك شيطانا سجينا هنا. افتح، ودعني أنظر".

تضرّع رئيس الدير: "هذه القاعة لا ينبغي أن ينفتح بابها. ذلك معناه كارثة".

غضب الماريشال هونغ، وأشار بإصبعه إلى التاويين وزمجر: "إن لم تصدعوا بما قلت سأقدم تقريرا إلى البلاط أعلن فيه أنكم منعتموني من تسليم المرسوم الإمبراطوري، ورفضتم أن تفسحوا لي المجال لرؤية المعلم السماوي. وسأوضح كيف أنكم أعددتم هذه القاعة واختلقتم قصة احتباسكم الشياطين داخلها لتضليل الجمهور. وسأعمل على إبطال أوامركم الدينية وأسمكم جميعا بميسم

المجرمين وأنفيكم إلى منطقة مهجورة موحشة!".

خاف رئيس الدير من نفوذ الماريشال هونغ. لم يكن لديه خيار سوى أن يصدر أمره إلى بعض الكهنة الحدادين بانتزاع الأختام وتحطيم القفل. وبعدها فُتح البابان ودخل الجميع القاعة.

كانت الظلمة سائدة. فطلب الماريشال دستة من المشاعل شاهد على ضوئها القاعة خاوية إلا من منضدة حجرية في وسطها، ترتفع عن الأرض قرابة ست أقدام، واتخذ لها قاعدة سلحفاة حجرية غرق نصفها في الأرض الترابية الرطبة. قرّب هونغ المشاعل من المنضدة. كانت مقدمتها محفورة بكتابات تنينية وعنقائية وإشارات ملغزة ورموز لا يمكن لأحد أن يفهم معناها. ثم مدّ نظره إلى ورائها. هنالك كانت هذه الكلمات الأربع مكتوبة بحروف كبيرة: "تفتح حين يجيء هونغ".

سر الماريشال أيّما سرور. وخاطب رئيس الدير قائلا: "حاولت منعي، ومع هذا أجد اسمي مكتوبا هنا منذ مئات السنين: تفتح حين يجيء هونغ. هذا واضح تماما. ما الخطأ في أن ألقي نظرة؟ أعتقد أن الشياطين موجودة تحت هذا الحجر بالضبط. أحضر مزيدا من الرجال والمعاول والرفوش وليحفروا هنا".

انذهل رئيس الدير رعبا: "لا يسعنا أن نفعل هذا، يا ماريشال. قد يحدث شيء رهيب. والأمر غير مأمون!".

صاح الماريشال غاضبا: "ماذا تراك تعرف، على أية حال؟ مكتوب بكل وضوح على المنضدة أن في المستطاع رفعها عند مجيئي. فكيف تمنعني؟ جئ بهؤلاء الرجال".

توسل رئيس الدير أربع أو خمس مرات: "لن ينجم عن هذه الفعلة خير".

لكن الماريشال لم يعره أذنا صاغية. استدعي العمال. وبعد جهد طويل مرير دفعوا المنضدة عن مكانها ورفعوا الملحفاة الحجرية عن الأرض.

وعندها شرعوا يجرفون التربة. وحين بلغوا في الحفر أربع أقدام رأوا لوحا حجريا كبيرا مساحته حوالى عشر أقدام مربعة. أمرهم الماريشال هونغ أن يرفعوه من مكانه. توسّل رئيس الدير: "لا ينبغينَّ ذلك". ولكن الماريشال لم يلتفت إليه. رفع الرجال اللوح الحجري فبدت حفرة بعمق مائة ألف قدم. وضجّ في الآذان صوت هادر، واندفعت سحابة سوداء من باطن تلك الحفرة مزّقت نصف زاوية السقف، وشقت طريقها ناحية السماء، وتفرقت إلى أكثر من مائة شعاع ذهبي تبعثر في كل ناحية وصوب.

صرخ الجميع من الرعب، وطرحوا الأدوات من أيديهم، واندفعوا هاربين من القاعة وهم يسقطون الناس ذات اليمين وذات اليسار. جحّظ الماريشال هونغ عينيه، وفغر فمه في يأس. واستحال لون وجهه إلى لون التراب. أعجل من خطواته ناحية الوصيد حيث وقف رئيس الدير يتفجّع وينوح.

سأل هونغ: "من تكون هذه الشياطين التي أفلتت من عقالها؟".

أنّ رئيس الدير: "أواه، يا ماريشال، أنت لم تكن تدري". في هذه القاعة ترك معلم الوسيلة تحذيرا خطيا يقول: حبس في هذا المكان ستة وثلاثون نجما من الأرواح السماوية واثنان وسبعون نجما من العفاريت الأرضية، فبلغ المجموع مائة وثمانية شياطين، يحول بينها وبين الفرار لوح

حجري حفرت أسماؤها عليه وكتبت بإشارات سحرية تشبه أشكال التنانين والعنقاوات. إذا أطلق عقالها على الأرض فلا نهاية لشرورها. وها أنت أطلقتها الآن فماذا نحن فاعلون؟".

ارتعش الجنرال وتفصّد العرق البارد منه. جمع حوائجه على عجل، وهبط عن الجبل مع رجاله، وأخذ طريقه إلى العاصمة. ودعه رئيس الدير والتاويون، ثم رجعوا إلى المعبد قافلين حيث أصلحوا السقف وأعادوا المنضدة الحجرية. ولن نتحدث عنهم بعد الآن.

في طريق العودة، وخشية من أن ينهال الإمبراطور عليه توبيخا، حذّر الماريشال رجاله من أن يتفوّه أحدهم بكلمة حول هروب الشياطين. كانت المسيرة هادئة. مشوا ليل نهار، وما لبثوا أن وصلوا إلى بيانليانغ، العاصمة الشرقية. وحين دخلوا المدينة قيل لهم: "أقام المعلم السماوي احتفالا دينيا عظيما في الحديقة الملكية طوال سبعة أيام وسبع ليالٍ، ووزّع تعويذات كثيرة. وشُفِي المرضى وانجاب عنا الطاعون. وغادر المعلم السماوي الإمبراطور وآب إلى جبل التنين والنمر، راكبا غرنوقا وممتطيا متن السحب".

حين انعقد مجلس البلاط في صبيحة اليوم التالي رفع الماريشال هونغ تقريره إلى الإمبراطور، وقال: "ركب المعلم السماوي غرنوقا وامتطى السحب، وهذا ما أوصله قبلي. وكان علينا أن نسير على أقدامنا كل مرحلة من مراحل الطريق. وهذا ما أخّرنا عن الوصول حتى الآن".

استحسن الإمبراطور تقريره، وكافأ الماريشال، وأمره أن يستأنف عمله. ولن نزيد شيئا في هذا الخصوص.

حكم الإمبراطور رين زونغ اثنتين وأربعين سنة، ومات من دون أن يخلف ولدا، فانتقل العرش إلى ابن الأمير يون رانغ من بو آن. وباعتباره حفيدا لتاي زونغ، فقد عرف باسم ينغ زونغ، وهو اسم خلع عليه بعد وفاة أبيه. وبعد أربع سنوات من حكمه تنازل عن العرش لصالح ولده شين زونغ الذي حكم طوال ثماني عشرة سنة، ثم أعطى العرش لولده تشي زونغ. وقد عمّ السلام خلال هذه الفترة بطولها أرجاء البلاد، ولم يقع ما يثير الشغب أو يعكر صفو الأمن.

لكن لا تعجلنّ. إن صحَّ أنه لم يحدث شيء، فماذا ترانا نروي في هذا الكتاب؟ لا تقلقن، يا قارئنا، فإن نجوم الأرواح السماوية الستة والثلاثين هبطت على الأرض، وظهرت بين الناس نجوم العفاريت الأرضية الاثنان والسبعون. واختبأ الشجعان في القلاع. وتجمع الأبطال على شواطئ البحيرات.

لماذا؟ إن شئت أن تعرف ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثاني

وانغ مدرّب السلاح يذهب خفية إلى ولاية يانآن؛
وشي جين التنانين التسعة ينزل الدمار بقرية عائلة شي

خلال حكم الإمبراطور تشي زونغ الذي امتدّ زمنا طويلا بعد رين زونغ، في بيانليانغ العاصمة الشرقية، في ولاية كايفينغ التي عرفت سابقا باسم مقاطعة شيوانوو، عاش شاب وغد اسمه غاو. لم يكن يرجى منه خير بصفته الابن الثاني في العائلة. فهو يصرف جلّ اهتمامه إلى المثاقفة بالرمح والعصا، كما كان لاعب كرة قدم ماهرا. وكان التلاعب بالكلمات يستهوي الناس في العاصمة فأطلقوا عليه لقب غاو كيو، أو غاو الكرة. وبعد فترة من الزمن، حين كتب له النجاح، أبدل كلمة "كيو" بكلمة أخرى لها رنة الصوت ذاته لكن معناها أكثر رقة.

كان في قدرة غاو كيو العزف على الآلات الموسيقية والغناء والرقص بالإضافة إلى براعته في استخدام السلاح. كما تعلم شيئا من الشعر وأساليب قرضه، أما في مجال الفضيلة والسلوك الحسن فهو إمّعة يجهل كل شيء. كان يقضي أوقاته كلها يتسكع في المدينة وضواحيها. وقد اضطر ابن المعلم وانغ، وهو صاحب متجر للحديد، أن ينفق مبلغا ضخما من المال بسبب منه على المسارح وأوكار القمار والمواخير.

وهذا ما حدا بالأب أن يرفع شكوى خطية ضد غاو إلى ولاية كايفينغ. فضرب الوالي غاو عشرين ضربة، وطرده من المدينة، وحظّر على الناس في العاصمة الشرقية أن يطعموه أو يستضيفوه. وكان الحلّ الوحيد أمام كيو أن يعرض خدماته على ليو شي تشيوان، المعروف باسم ليو الأرشد، وهو يدير بيتا للقمار في ولاية لينهواي، إلى الغرب من نهر هوايخه. وكان هذا الأخير يحيط نفسه ببطانة من المتبطلين والرعاع من كل ناحية وصوب.

أقام غاو كيو لدى ليو ثلاث سنوات. وبعدها تضرّع الإمبراطور تشي زونغ إلى السماء في جنوبي المدينة. فبشّرت الرياح والأمطار بخير وفير. وكان الإمبراطور نزوعا إلى عمل الخير، فأصدر عفوا عاماً. وهكذا قُدّر لغاو كيو أن ينكفئ إلى العاصمة. وكتب ليو الأرشد رسالة تعريف به إلى دونغ جيانغ شي أحد أقربائه ممن يديرون مخزنا للأعشاب الطبية بالقرب من جسر العوارض الذهبية، ونفح غاو بمبلغ من المال يكفيه مؤونة السفر، وأخبره أن دونغ سيكتنفه برعايته.

ودّعه غاو، وألقى صرته على كتفه، وانثنى إلى المدينة حيث سلّم الرسالة إلى دونغ. ألقى الصيدلي نظرة سريعة على غاو، وقرأ الرسالة.

روّأ في الأمر مهمهما:

- أنّى لي أن أؤوي هذا الرجل في بيتي؟ كان الأمر يختلف لو أنه مستقيم الخلق شريف.

فالأولاد قد يتخذونه قدوة. وهو مجرّد متسكع، وفتى لا يؤمن له جانب؛ نُفي بسبب من تطاوله على حرمة القانون، ولا يبدو أنه قابل للإصلاح. إن أبقيته هنا فقد يعلّم الأولاد أمورا سيئة. وإن لم أفعل فقد أغضب ليو الأرشد.

لم يكن أمامه خيار غير أن يستقبل غاو في بيته متظاهرا بالانشراح. وجعل دونغ يؤدب له طوال عشرة أيام حين ومضت في رأسه فكرة. أهداه حلة من الثياب، وناوله رسالة توصية، وقال:

- الحال في بيتي واهنة ضعيفة لا تكاد تكفي لاستبقائك هنا. سأرسلك إلى سو الصغير، عالم البلاط. في رفقته قد تتوفر لك فرصة للنجاح. ما رأيك في هذا؟

شكره غاو جزيل الشكر. واستدعى دونغ خادما أعطاه الرسالة وبعثه برفقة غاو إلى منزل عالم البلاط. وهنالك أعلن البواب عن حضور غاو. فجاء العالم وحيّاه. وعرف من رسالة التوصية أن ضيفه ليس أكثر من وغد.

همس العالم في طوية نفسه:

- لا يسعني إبقاء هذا الرجل هنا. كرمى لدونغ سأبعث به إلى وانغ جين تشينغ، رفيق الأمير الصغير، يخدم لديه تابعا له. فالأمير الصغير يستهويه هذا الطراز من الفتيان.

كتب إلى دونغ جوابا وأجاز لغاو أن يقضي الليلة لديه. وفي اليوم التالي أنشأ رسالة أخرى بعث بها مع خادم رافق غاو إلى منزل الأمير الصغير.

كان وانغ متزوجا من الأخت الصغرى للإمبراطور تشي زونغ قبل اعتلائه سدّة العرش إبّان حكم الإمبراطور شين زونغ. وكان الأمير الصغير مولعا بالمغامرين من الرجال، ويتخذ لنفسه منهم حاشية. استلطف غاو لحظة وقعت عليه عيناه برفقة الخادم الذي حمل رسالة العالم. فكتب جوابا فوريا يعلن فيه قبوله تابعا له. ومنذ تلك اللحظة أقام غاو مع الأمير، يروح ويجيء كأحد أفراد أسرته.

يقول المثل المأثور: "الأصدقاء البعيدون يزدادون بعدا، والأصدقاء القريبون يزدادون قربا". احتفاء بعيد ميلاده أمر الأمير الصغير أن تقام مأدبة دعا إليها الأمير دوان، أصغر أشقاء زوجته. كان دوان الابن الحادي عشر للإمبراطور شين زونغ وشقيقا للإمبراطور الحاكم تشي زونغ. وكان الابن الملكي التاسع، وهو اللقب الذي عرف به، مسؤولا عن البطانة الإمبراطورية. كان يافعا ووسيما وحاد الذكاء، وهاويا موهوبا لمختلف ضروب التسليات. وكانت مآثره تتضمن المزهر، والشطرنج، وحسن الخط، والرسم، وكرة القدم. وكان بالإضافة إلى ذلك موسيقيا بارعا، ومغنيا وراقصا لا يشقّ له غبار.

في ذلك النهار، أولم الأمير الصغير مأدبة مما لذّ وطاب من مشهيات البر والبحر. أجلس دوان الأمير الملكي التاسع في مقعد الشرف الأوسط وجلس قبالته. وبعيد عدة أكواب من الشراب وطبقين من الطعام خرج الأمير دوان يريح نفسه. تردد قليلا في المكتبة خلال عودته حيث انضمّ الأمير الصغير إليه. استرعى انتباه دوان لَيْثان على شكل مثقّلة أوراق منحوتان من اليشم. كانا منحوتين على أروع ما يكون من الدقة والأناقة.

رفعهما الأمير دوان ولم تطاوعه نفسه على إعادتهما. فغمغم قائلا: "يا للروعة!".

قال الأمير الصغير: "لقد صنع الفنان نفسه منصبا من اليشم منحوتا على شكل تنين توضع

عليه أقلام الكتابة. وهو ليس في متناول يدي الآن، غير أني سأعثر عليه غدا وأرسله إليك مع هاتين المثقّلتين".

- ما ألطفك! أنا واثق أن التنين منحوت أروع من الليثين.

- سأرسلها إلى القصر غدا. وسترى ذلك بنفسك.

شكره الأمير دوان ورجعا إلى المأدبة حيث عكفا على الطعام حتى انتشرت العتمة وأغدف الظلام. كانت الخمرة قد لعبت برأس كل منهما عند الفراق. وودّع الأمير دوان وقفل إلى قصره.

في اليوم التالي، وجد الأمير الصغير منصب أقلام الكتابة المنحوت على شكل تنين، فوضعه في صندوق ذهبي صغير مع المثقلتين المنحوتتين من يشم على شكل ليثين، ولفّ الصندوق بحرير ذهبي، وكتب رسالة مفسَّرة، وطلب إلى غاو أن يسلّم الهدايا. عجّل غاو إلى قصر الأمير دوان مباشرة، فأعلن البواب عن حضوره إلى الخادم الذي خرج لملاقاته.

- من أي مسكن رسمي أنت؟

انحنى غاو كيو: "أرسلني الأمير وانغ لأسلّم هذه الأشياء المصنوعة من اليشم إلى الأمير الملكي".

- سعادته في الساحة الوسطى يلعب كرة القدم مع بعض المخصيين الشبان. في وسعك أن تدخل.

- هلا أرشدتني إلى الطريق.

أوصل الخادم غاو إلى الفناء الداخلي. فوجد هنالك أربعة أو خمسة من المخصيين الشبان يرفسون بأقدامهم طابة الأمير دوان الذي يرتدي سترة حريرية ناعمة من طراز تانغ ورداء أرجوانيا موشى بالتنين الإمبراطوري. كان الثوب مطويا ومربوطا من الأمام نحت حزام خصر الأمير. وكانت عنقاوات طائرة موشاة بخيوط ذهبية تزخرف حذاءه.

تهيب غاو مقاطعتهم. وقف وراء بعض الخدم منتظرا. وشاء الحظ أن ينجده. مرت الطابة بالأمير دوان فلم يستطع إيقافها، وتدحرجت بين الحشد ووصلت إلى غاو كيو. استجمع غاو أطراف شجاعته فجأة ورفس الطابة فأعادها إلى الأمير "بمراوغة بارعة وضربة لولبية قوية".

انشرحت أسارير دوان، فاستوضح: "من أنت؟".

ركع غاو على ركبتيه قائلا: "رسول من قبل وانغ وصيف الأمير. بناء على أمر من سيدي حملت لسموكم هديتين من اليشم. ولديّ معهما رسالة".

ابتسم الأمير الملكي: "صهري يراعي مشاعر الآخرين على الدوام".

قدم غاو كيو الرسالة. وفتح الأمير دوان الصندوق وشخص إلى القطع المصنوعة من اليشم، ثم أعطاها إلى القهرمان، وخاطب غاو قائلا: "وهكذا فأنت تجيد قذف الكرة. ما اسمك؟".

صالب غاو ذراعيه على صدره في تجلّة واحترام، وخرّ من جديد على ركبتين: "خادمكم يدعى غاو كيو. أمضيت فترة من الزمن ألعب الكرة في الحقول".

قال الأمير: "رائع. تعال، شاركنا اللعب".

- رجل في مثل مركزي! لا أجرؤ على اللعب مع سموكم.
- لم لا؟ هذه عصبة السحب المحلقة المعروفة بحلقة المهارات المتعددة. وهي مفتوحة لكل طارق.

استرسل غاو كيو في رفضه. وحين ألحّ صاحب السمو الملكي خرّ ساجدا، واستغفر عن وقاحته، ثم وثب إلى الملعب. لعب عدة تمريرات بالكرة، فصاح الأمير مستحسنا. فاندفع غاو كيو يبدي مهارته. متعة كان النظر إلى حركاته وأسلوبه في اللعب. بقي قريبا من الكرة حتى ظُنّ أنها التصقت بقدميه.

فُتن الأمير دوان. فما أذن لغاو بالرحيل، بل استبقاه في القصر تلك الليلة. وأمر في اليوم التالي بإقامة مأدبة أرسل يدعو إليها الأمير الصغير.

حين لم يرجع غاو في تلك الليلة طفق الأمير الصغير يتساءل عما إذا كان أهلا للثقة. ولكن البواب أعلن قائلا: "رسول من قبل الأمير الملكي التاسع يحمل دعوة لسيادتكم للاشتراك في وليمة في القصر".

خرج الأمير الصغير واستلم الرسالة وقرأ فحوى الدعوة. ثم وثب إلى صهوة جواده وذهب إلى القصر. ترجّل، واتجه مباشرة إلى الأمير دوان.

شكر الأمير الصغير الأمير الملكي التاسع على هديتيه المصنوعتين من اليشم، ودخلا معا غرفة الطعام.

قال الأمير دوان: "غاو كيو الذي لديك يجيد اللعب بكرة القدم. أريد أن ألحقه بخدمتي. ما رأيك؟".

- إذا كان في وسعه أن يقدم لسموكم أية فائدة فليخدم في القصر مهما كلف الأمر.

رفع الأمير دوان قدح شرابه وشكر الأمير الصغير. وانهمك الاثنان في الحديث، وظلا يأكلان حتى خيّم المساء. وعندما رجع الأمير الصغير إلى بيته لن نتحدث عنه أكثر مما تحدثنا.

لنتحدثنَّ بالأحرى عن غاو كيو. فبعد أن انخرط في خدمة الأمير دوان جعل إقامته في القصر، وصار يتناول الطعام مع الأمير، ويرافقه في كل يوم، ولا يفارقه لحظة. وقبل انقضاء شهرين على ذلك مات الإمبراطور تشي زونغ دون أن يخلّف ولياً للعهد. واجتمع الموظفون المدنيون والعسكريون الكبار ونصبوا الأمير دوان إمبراطورا، فعُرف باسم الإمبراطور خوي زونغ، وحمل لقب الكاهن الأسمى للنقاء اليشمي، والحاكم التاوي للحقيقة الحكيمة.

قبل خوي زونغ العرش وسارت الأمور رخيّة. وذات يوم، خاطب غاو كيو قائلا: "يطيب لي أن أرفع من مرتبتك، لكنْ يجب أن تأتي عملا جديرا بالمكافأة والتقدير على الحدود أولا. سأكلف مجلس الشؤون العسكرية أن يدرج اسمك في قائمة المرشحين لوظيفة إمبراطورية".

ولم تمر ستة شهور حتى غدا في مقدوره أن يجعل من غاو ماريشالا على الحرس الإمبراطوري.

اختار غاو كيو يوما وساعة ميمونين لاستلام وظيفته. وجاء جميع ضباط الحرس الإمبراطوري

القوي، فرسانا ومشاة، ممن سيخدمون تحت إمرته ليقدّموا فروض الولاء. وأبرز كل واحد منهم هويته وسجله. تفحص غاو قائمة الضباط اسما بعد اسم. ضابط واحد هو ولنغ جن، مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري القوي، لم يحضر في ذلك النهار. فقد سجل قبل خمسة عشر يوما باعتباره مريضا، ولم يلتحق بالخدمة لعلّة عدم إبلاله من مرضه.

ثارت نقمة الماريشال غاو، فصاح: "هراء! تمرّد صراح! لقد أرسل هويته، أليس كذلك؟ ذلك الوغد يدعي المرض. جيئوني به حالا!".

وأرسل غاو ضابطا إلى منزل وانغ جن لاعتقاله.

لم يكن وانغ جن قد تزوج ، فهو يقطن مع والدته العجوز التي ذرّفت على السنين. خاطبه الضابط قائلا: "استلم الماريشال مهام منصبه هذا النهار. وفي أثناء تفقده قائمة الضباط لم تكن أنت موجودا. فأعلن رئيس الأركان أنك مريض في البيت، وأن لك معذرة مسجلة في سجله المخصوص. وكان الماريشال غاو نافد الصبر، فلم يصدّق ما قيل له. أصرّ أنك تخادع وطلب أن نعتقلك. أرجو أن تذهب معي، يا مدرب السلاح. وإلا أوقعتني في ورطة".

لم يكن أمام وانغ جن سوى الذهاب إلى مركز القيادة، على الرغم من مرضه وتقديم نفسه للماريشال. سجد أربع مرات، وحيا غاو باحترام وتجلّة، ثم انتصب على ركبتيه وانتحى ركنا.

سأله غاو: "أأنت ذلك الريفي الذي كان أبوه يدعى وانغ شنغ، وكان مدربا للسلاح في حامية المقاطعة؟".

أجاب وانغ جن: "أنا ذلك الإنسان المتواضع".

صاح غاو: "وغد. كان والدك بائع أدوية جوالا يقذف بالهراوة لاجتذاب أنظار الناس. ماذا تراك تفقه في الفنون العسكرية؟ لا مرية أن القائد السابق عميت أبصاره فجعل منك مدربا للسلاح. كيف تزدريني ولا تتواجد خلال التفقد؟ من يسندك حتى تدعي المرض وتتراخى في بيتك متكاسلا؟".

- خادمك المتواضع لا يجرؤ على شيء من هذا! أنا لم أسترد عافيتي، وشرفي!

- مجرم! إذا كنت مريضا، فكيف استطعت المجيء؟

- حينما يأمرني الماريشال أطيع الأمر.

غضب غاو فزمجر صارخا: "أيها الحراس. اقبضوا على هذا الشاب واضربوه علقة شديدة".

كان عدد كبير من الضباط الصغار من أصدقاء وانغ جن، فتوسلوا إلى رئيس الأركان قائلين:

- اليوم يوم سعيد باستلام الماريشال مهام منصبه. رجاؤنا أن تطلق سبيل مدرب السلاح.

صاح غاو:

- كرمى لهؤلاء الضباط أصفح اليوم عنك، أيها المجرم. وغدا أسوي الأمر معك.

شكره وانغ جن. وعندها، رفع رأسه وأطال النظر إلى غاو كيو. وفيما هو يبرح بوابة مبنى القيادة أطلق زفرة حرّى. "حياتي في خطر. إذاً هذا هو ماريشالنا غاو. مخادع ولاعب كرة قدم، غاو الثاني! حين كان يتعلم كيف يثاقب بالعصي أنزل به والدي هزيمة منكرة أوثقته إلى فراشه ثلاثة أشهر كاملة. وهو يبغضنا منذ ذلك الحين. ولأن منزلته سمت الآن في هذا العالم وعين قائدا للحرس

الإمبراطوري فمؤكد أن يطلب الثأر. من كان يخطر له في بال أن أقع تحت إمرته؟ يقول المثل القديم: لا تخشينَّ الموظفين إلا أولئك الذين يرأسونك مباشرة! كيف يسعني أن أصمد له؟ وماذا في مقدوري أن أفعل؟".

رجع إلى البيت يعتصره الأسى، وروى لوالدته كل شيء. وأمسك كل منهما برأسه وجعلا ينتحبان.

قالت الأم:

- يا بنيَّ، من بين الست والثلاثين وسيلة للخلاص من هذا المأزق أفضلها الرحيل. لكنني أخشى أن لا يكون هناك مكان تذهب إليه.

قال وانغ جن:

- أصبت، يا أماه. فكّرت في الأمر مليا، وهذا ما أشعر به أيضا. حامية الحدود في ولاية يانآن برئاسة العجوز تشونغ. وقد أبدى كثيرون من ضباطه ممن زاروا العاصمة إعجابهم بمهارتي في السلاح. فلم لا ألقي بقدري بين أيديهم؟ يانآن مكان يحتاج إلى الرجال. هنالك أكون في مأمن.

وصلت الأم إلى اتفاق مع ولدها بعد مناقشة الأمر مليا.

قالت الأم: "يجب أن نرتحل سرا يا ولدي. فماذا نفعل بهذين الرقيبين الواقفين الرابضين عند الباب، العسكريين اللذين أرسلتهما القيادة؟ إذا اكتشفا الأمر فلن يكون في وسعنا الرحيل".

قال وانغ جن: "هوّني عليك، يا أمّاه. أعرف كيف أتخلص منهما".

حين عسكرت العتمة نادى إليه العريف تشانغ، وقال: "أصِب عشاءك أولا. ومن بعد، أريدك أن تذهب وتؤديني خدمة".

- أين تريد خادمك المطيع أن يذهب، يا مدرب السلاح؟

- نظرا لملازمتي فراش المرض طوال الأيام القليلة الماضية نذرت على نفسي أن أحرق البخور في معبد الجبل المقدس وراء بوابة البلح الحامض إذا تحسنت صحتي. أريد أن أقوم بهذا العمل قبل أي شيء آخر غدا. فأخبر الليلة الكاهن المسؤول عن القرابين أن يفتح بوابة المعبد في وقت مبكر من صباح الغداة. فسأكون أول المتعبدين. وأريدك أن تشتري لي ثلاثة أنواع من لحوم الأضاحي. وفي وسعك قضاء الليل في المعبد مقيما على انتظاري.

وعد العريف تشانغ أن ينفذ ما عُهد به إليه. تناول عشاءه، وجهز كل شيء، وخرج إلى المعبد.

في تلك الليلة، حزمت الأم والولد حاجياتهما وثيابهما، وحريرهما وفضتهما، ووضعاها جميعا في أشياء يمكن حملها على الكتفين، وملأ خرجين بعلف للحصان.

في فترة الحراسة الخامسة قبيل طلة الفجر استدعى وانغ جن العريف لي وقال له: "خذ هذه النقود الفضية إلى المعبد. ابتع والعريف تشانغ ثلاثة أصناف من لحوم الأضاحي؛ اطبخاها وانتظراني. سآتي إليكما حالما أشتري بعض نسخ القرابين الورقية والشموع".

أخذ العريف لي الفضة وقصد إلى المعبد. أعدّ وانغ جن الحصان، ووضع على سرجه الخرجين، وربطهما جيدا، وخرج من الباب الخلفي، وأعان أمه على الركوب. وخلّفا في البيت جميع

الأدوات المنزلية الثقيلة. واستوثق جن من إغلاق البوابتين الأمامية والخلفية بالمفتاح، ورفع عصا التحميل على كتفيه، ومشى وراء الحصان.

كانت فترة الحراسة الخامسة فاغتنما فرصة الظلمة المنتشرة قبيل الفجر وهجرا المدينة عن طريق البوابة الغربية، وسلكا الطريق المؤدية إلى ولاية يانآن.

لنرجعنَّ أدراجنا إلى العريفين. اشتريا لحم الأضاحي، وطبخاه، وانتظرا في المعبد حتى ساعة متأخرة من الصباح. غير أن وانغ جن لم يظهر. فانتاب القلق العريف لي. رجع إلى البيت فوجد البوابتين مغلقتين. لم يستطع الدخول، سواء من البوابة الأمامية أو البوابة الخلفية. فاستفسر من الجيران طوال ساعات مديدة، غير أن أحدا منهم لم يشاهد مدرب السلاح. وراح الوقت يتأخر. ذهبت الظنون بفكر العريف تشانغ في المعبد كل مذهب فعجل قاصدا منزل وانغ جن. وجعل الجنديان يفتشان حتى ران الغسق. ولما جثم الليل لم يكن وانغ جن أو أمه قد ظهرا في البيت من جديد.

في اليوم التالي، استفسر العريفان عن وانغ جن في بيوت أقربائه، فما عثرا له على أثر. خشيا مغبّة الأمر، فأسرعا يرفعان بذلك تقريرا إلى قيادة الحرس الإمبراطوري: "هرب مدرب السلاح وانغ جن وأمه. ولا نعرف وجهتهما".

صرخ غاو كيو غاضبا: "إذاً، لقد هرب المجرم، سنرى إلى أي مدى يستطيع الهروب".

وأعلم كل ولاية أو مقاطعة بوجوب اعتقال وانغ جن حيثما عُثر عليه باعتباره فاراً من الجندية. ولما كان العريفان قد اعترفا بالأمر طواعية فلم تصدر بحقهما أية عقوبة. وسوف نكفّ عن الحديث عنهما.

لنتحدثنَّ بالأحرى عن مدرب السلاح وانغ جن ووالدته. كانا يأكلان ويشربان حينما يجوعان ويظمآن، ويتوقفان حين يجنهما الليل ويسافران مع انبلاج الفجر. وذات يوم، قرابة المساء، بعد أن أمضيا أكثر من شهر كامل على الطريق، قال وانغ جن الذي يحمل حملا على كتفيه وراء الحصان الذي ركبته أمه: "وهبت لنا السماء من لدنها رحمة. فقد أفلتنا من الخطر الذي انتشر مثل شبكة فوق الأرض والسماء. ولم يبق بيننا وبين ولاية يانآن غير مسافة قصيرة. فإذا أرسل الماريشال غاو من يعتقلني فلن يصلوا إلينا الآن".

كان السرور قد غمر قلبي الأم والابن فمرا بخان لم يسترع انتباههما. ولم تكن على مرمى بصرهما أية قرية. لقد تأخر الوقت، فلم يعرفا أين يقضيان ليلتهما. وفي تلك البرهة لمحا ضوءاً يتوهج في أيكة بعيدة.

قال وانغ جن: "هذا مفترج. سنمضينَّ إلى هناك. وفي وسعنا أن نعتذر عن إزعاجنا أصحاب المكان، ونطلب إليهم زاوية نقضي بها الليل، ومن بعد نتابع طريقنا في الصباح".

دخلا الأيكة، فعثرا على عزبة ضخمة محاطة بسور من تراب، وقد أحدقت بهذا السور من الخارج مائتان أو ثلاثمائة شجرة صفصاف كبيرة. دقّ وانغ جن على البوابة زمنا طويلا. وخرج إليه أخيرا أحد الخدم. أنزل مدرب السلاح حمله عن كتفيه وبادره بالتحية.

سأله الرجل: "ما هي بغيتك؟".

قال وانغ جن: "أصارحك بالحقيقة فأقول أنا وأمي حاولنا أن نجتاز أكبر مسافة ممكنة فمررنا بخان. ويخال لنا أنه ليس ثمة خان آخر أو قرية في جوار هذا المكان. رجاؤنا أن تستضيفونا هذه الليلة. وسنرتحل غدا صباحا. وسرنا أن ندفع ما تطلبون لقاء هذا المبيت. ونرجو ألا نكون متطفلين على لطفكم وكرمكم".

قال الخادم: "رويدكما لحظة. سأسأل مالك المثوى. فإذا رضي أجزت لكما الدخول".

- معذرة لإزعاجك، يا أخي.

رجع الرجل في غضون لحظات، وأعلن: "سيدي يدعوكما إلى الدخول".

ساعد وانغ جن أمه على الترجل عن الحصان. وحمل عصا كتفيه وقاد الحصان ولحق بالخادم إلى فناء درّاسة الحنطة. هنالك ألقى حمله، وربط حصانه إلى شجرة صفصاف. ودلفت الأم وولدها إلى غرفة مسقوفة بالقش. فوجدا مالك الأرض في انتظارهما.

كان قد تخطّى الستين من عمره، واشتعل شعره ولحيته شيبا، وارتدى قلنسوة وثوبا مسترخيا حزمه عند الخصر بنطاق حريري أسود اللون، وانتعل في قدميه حذاءً جلديا مصبوغا.

سجد وانغ جن في احترام.

قال الشيخ متعجلاً: "لا ضرورة لهذا السجود، فأنتما مسافران يتعرضان لعناصر الطبيعة. أرجو أن تجلسا".

أنهت الأم والابن واجبات التحية والاحترام، وجلسا.

سأل مالك المثوى: "من أين أنتما؟ فيم وصولكما في ساعة متأخرة من النهار؟".

قال وانغ جن: "خادمك المتواضع يدعى تشانغ. ونحن من سكان العاصمة. أنفقنا نقودنا وعجزنا عن متابعة عملنا، فاتخذنا طريقنا إلى ولاية يانآن للانضمام إلى بعض الأقارب. تعجلنا سبيلنا على الطريق هذا النهار، فمررنا بخان لم نلتفت إليه. إذا أذنت لنا بالمبيت هنا هذه الليلة فسنرحل في الصباح وندفع ما هو مألوف أجراً لمبيتنا وطعامنا".

- من غير ريب! من يحمل حاجيات معه خلال السفر؟ لا أظن أنك أصبت أنت وأمك شيئا من الطعام؟

وأمر المحترم مالك المثوى خادمه بإحضار ما يؤكل.

سرعان ما مُدَّت مائدة في القاعة، ودخل الخادم وفي يده صينية فوقها أربعة أطباق من الخضار وطبق من اللحم. وضعها على المائدة وأدفأ قليلا من الخمر الذي أحضره من قبل.

قال المحترم مالك المثوى: "طعامنا بسيط هنا في الريف. فأستميحكما عذراً".

نهض وانغ جن على قدميه وشكره: "نحن نثقلك بالمتاعب. ولا نعرف كيف نجازيك وبأي شيء نكافئك".

قال المحترم: "ليس هناك ما يدعو إلى مثل هذا الحديث. فلنشرب".

اغتبق وانغ جن وأمه ستة أو سبعة أقداح من الخمر نزولاً عند رغبته الملحة. وبعدها وضع الطعام لهما فأكلا. وبعد أن رفعت الأطباق ونظفت المائدة نهض مالك الأرض ورافقهما إلى غرفة

الضيوف.

قال وانغ جن: "أفي مقدوري أن أزعجك فأتأكد ما إذا كان الحصان الذي ركبته والدتي قد نقل إلى الإسطبل وأعطي طعاما؟ ثق أننا سندفع لقاء هذا".

أجاب المحترم: "هذا أمر يسير. لدينا خيول وبغال هنا. سآمر أحد الخدم أن ينقل حصانك إلى الإسطبل ويطعمه مع الحيوانات الأخرى".

شكره وانغ جن، ورفع عصاه على كتفيه، وحمل حاجياته إلى غرفة الضيوف. وأشعل خادم مصباحا، وأحضر ماء حارا يغسل به المسافران أقدامهما. وقفل مالك الأرض إلى جناحه. وشكر وانغ جن وأمه الخادم، وأغلقا الباب واستلقيا يطلبان الراحة.

استغرقا في النوم الليل بطوله. وعندما تبين الخيط الأبيض من الخيط الأسود فجر اليوم التالي لم يخرجا من غرفتهما، فاقترب مالك الأرض من باب غرفتهما، فتناهى إلى سمعه صوت والدة وانغ جن يغور في نواحه.

نادى الشيخ عليهما: "بزغ الفجر، يا ضيفيّ. ويستحسن أن تنهضا".

أسرع وانغ جن خارجا، وحيا مضيفه. وقال: "نهضت من نومي منذ زمن. أثقلنا عليك الليلة الماضية. ولم يكن هذا عدلا".

- من كان يطلق أنينه الآن؟

- أصدقك القول، إن أمي مهدودة القوى من جراء الركوب. وشرع قلبها يوجعها من جديد ليلة البارحة.

- في هذه الحال، لم لا تبقيان عدة أيام أخرى؟ لا تقلقا. أعرف دواء ناجعا لأوجاع القلب. سأبعث خادما إلى حاضرة المدينة وأحضر لأمك دواء. أخبرها أن تطلق الوساوس من ذهنها وتلجأ إلى الراحة.

شكره وانغ جن.

هل أهملنا هذه التفصيلات التافهة؟ بقي وانغ جن وأمه في العزبة، وأخذت العجوز الدواء. وبعد ستة أو سبعة أيام شعرت بالبرء من مرضها. فحزم وانغ جن متاعهما وتأهب لمتابعة الرحلة. وبينا هو في طريقه إلى الإسطبل للاطمئنان على حصانه، وقعت عيناه في الفناء على شاب تعرى حتى وسطه وشم جسده كله بتنانين زرقاء. كان وجهه مدورا مثل طبق من الفضة. وكان في حوالى التاسعة عشرة من العمر، ويتدرب على اللعب بالعصا.

راقبه وانغ جن فترة وما عتم أن قال من دون تفكير:

- ليس هذا الأسلوب رديئا، ولكن فيه شيئا من وهن. هو لا يقارع رجلا على شيء من دراية.

سمع الشاب هذا الكلام فاستوضح غاضبا:

- من أنت فتهزأ بمهارتي؟ كان عندي ثمانية من أفضل المدربين. لا يخطرن في بالك أني أعجز عن التغلب عليك! هل لديك جرأة على مقارعتي؟

جاء المحترم خلال هذا الحديث، وصاح: "كفّ عن غطرستك".

سأل الشاب: "بأي حق يهزأ هذا الشاب من مهارتي؟".

استوضح المحترم: "هل تجيد استخدام العصا، أيها الضيف؟".

أجاب وانغ جن:

- قليلا. أفي وسعي أن أستعلم، يا سيدي، عن صلة هذا الشاب بك؟

- هو ولدي.

- إذا كان هو السيد الصغير، وطاب له أن يتعلم، فإن خادمك المتواضع يستطيع أن يجعل ساعده يشتد قليلا. أيرضيك ذلك؟".

قال المحترم مالك المثوى: "رائع".

والتفت إلى الشاب قائلا: "اسجد احتراما لمعلمك".

فما أطاعه الشاب. نبر في ضراوة: "لا تخدعنك أقوال هذا الوغد، يا أبتاه. سأسجد له باعتباره معلما لي إذا استطاع أن يهزمني بالعصيّ".

قال وانغ جن: "إن لم ينظر السيد الصغير إلى الأمر بصورة جدية، ففي مقدورنا أن نتبارى لمجرد التسلية وحسب".

وقف الشاب في وسط الفناء ولوّح بعصاه فوق رأسه مثل طاحونة هوائية. قال:

- إذاً، تعال. هاجمني إن واتتك الجرأة.

تبسّم وانغ جن ولكنه لم يأت بحركة.

قال المحترم:

- إن كانت لك رغبة في تعليم الصبي، أيها الضيف، فهلا نازلته.

ضحك وانغ جن:

- أخشى أن أجرح السيد الصغير. لن يكون هذا العمل لطيفا من قبلي.

- لا تبال. إن كسرت له يده أو قدمه فعلى نفسها جنت براقش.

- إذاً، صفحك عني.

انتقى وانغ جن عصا من منسد السلاح، ومشى صوب الفناء وتأهب للقتال. قاسه الشاب بعينيه. ورفع عصاه وأغار عليه. تراجع وانغ جن بسرعة، وهو يجرجر سلاحه. لوّح الشاب بعصاه وهجم من جديد. استدار وانغ جن فجأة ورفع سلاحه كمن سينهال به ضربا. فرفع خصمه سلاحه يتفادى به الضربة. فما كان من وانغ جن إلا أن رد السلاح بمهارة، ثم انهال به على صدر عدوّه. هوى الشاب على ظهره أرضا، وطارت عصاه من يده.

ألقى وانغ جن سلاحه من يده، وأسرع إلى نجدة الشاب قائلا: "أنا آسف!".

نهض الشاب على قدميه، وجاء بمقعد لا ظهر له، وأجلس وانغ جن عليه، وسجد له في احترام. وقال: "درست على يدي مدربين كثيرين، لكنهم لم يعلموني شيئا عمليا. يا معلّم، كل ما أرجوه هو نصحك وإرشادك".

- تطفلت وأمي على أسرتكم أياما عدة، ولم تتح الفرص لنا إظهار امتناننا. فمن حقي أن أبذل

جهدي لخدمتكم.

سر المحترم مالك المثوى كثيرا. أمر ولده أن يرتدي ثيابه، وأوى الجميع إلى قاعة خلفية. واتخذ كل منهم مجلسا. أمر الشيخ خادما أن يذبح خروفا ويهيء الصهباء والطعام والفواكه. ثم دعا وانغ جن وأمه أن يشاركاه الوليمة.

حين جلس أربعتهم صبّ الشيخ الخمرة. نهض واقفا، واقترح نخبا لوانغ جن: "بمثل موهبتك المرموقة هذه لا مراء أنك مدرب للسلاح. إن لولدي عينين ولكنه لا يرى جبل تايشان".

ضحك وانغ جن: "المرء يقول الحقيقة في حضرة رجل حقيقي. فاسم خادمك ليس تشانغ، بل هو وانغ جن. أنا مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري القوي في العاصمة الشرقية. وأنا ألهو بالرماح والعصي كل يوم. وقد تعرّض غاو كيو، الذي عين قائدا للحرس الإمبراطوري، للضرب على يدي والدي. واستبدت به رغبة في الانتقام، وأراد أن يصبّ انتقامه على رأسي أنا. ولأني تحت إمرته عجزت عن الوقوف في وجهه. فهربت وأمي. ونحن في طريقنا إلى ولاية يانآن للانضمام إلى حامية الحدود التي يقودها الجنرال العجوز تشونغ. لم يخطر لنا ببال أننا سنجيء إلى هنا، وأن تحسن وفادتنا، يا سيدي، أنت وولدك معا. لقد شفيت أمي من مرضها واستضفتها عدة أيام. وأطلنا المكثان لديكم. إذا رغب في التعلّم فخادمك يعلمه مغتبطا قلبه. فما تلقّنه حتى الآن لا يعدو مناورات مبهرجة. تبدو رائعة، ولكنْ لا غناء فيها ولا جداء في القتال. سأعلمه من البداية".

قال المحترم: "يا بنيّ، اعترف بهزيمتك. واسجد لمعلمك مرة أخرى".

وسجد الشاب.

استرسل الشيخ يقول: "إئذن لي أن أخبرك، أيها المعلم المحترم، أن عشيرتي أقامت هنا في إقليم هواين. وهنالك إلى الأمام منا جبل شاوهوا. والقرية تدعى قرية عائلة شي. والعائلات الثلاث أو الأربع مائة التي تقطنها تسمى كل منها شي. وولدي، منذ طفولته ، لم يبد بالزراعة اهتماماً. انصرف إلى اللعب بالسلاح. وحاولت أمه دون جدوى أن تخاطبه في هذا الشأن. وماتت أخيرا وقد هدها الفزع. واضطررت أن أتركه يختار طريقه الخاصة. ولا أدري مقدار المبالغ التي أنفقها على مدربي السلاح. كما أنني دفعت مبلغا لأحد الوشامين الماهرين فوشم ذراعيه وصدره برسوم التنانين؛ وعددها تسعة، ولهذا السبب عرف في الإقليم بأسره باسم شي جين التنانين التسعة. ما أروع قدومك يا معلم! وإن كان باستطاعتك إنهاء تدريبه فسأجزل لك في العطاء".

غمرت الغبطة جوانح وانغ جن. وقال: "ليطمئن بالك أيها السيد العجوز. إن كانت تلك رغبتك، فلسوف يدربه خادمك تدريبا رائعا".

شربوا واحتفلوا، وأقام وانغ جن وأمه في العزبة منذ ذلك اليوم. وجعل يدرب الشاب يوميا ويعلمه أساليب استخدام ثمانية عشر نوعا من الأسلحة: الرمح، والميتدة، والقوس الطويلة، والقوس النشاب، والجينكو، والهراوة المفصلة، والعصا، والسيف، والسلسلة، والخطّاف، والبليطة، والفأس، والرمح ثلاثي الشعب، والمطرد ، والدرع، والهراوة، والحربة، والمدمة.

وذهب مالك المثوى شي إلى حاضرة هواين ليخدم رئيسا للسجن. ولن نأتي على ذكره بعد

الآن.

تتالت الأيام، وسرعان ما انقضت ستة شهور. وغدا شي جين بارعا في استخدام ثمانية عشر نوعا من الأسلحة. وصرف وانغ جن اهتمامه كله على تعليمه، وشرح جميع الاستخدامات الرائعة لكل نوع. وحينما اشتدّ ساعد الشاب في هذه الأسلحة بأسرها هجس وانغ جن في نفسه: "على الرغم من أن الإقامة هنا تبعث على السرور، فأنا لن أبقى". كان يريد متابعة طريقه إلى يانآن، غير أن شي جين لم يترك له فرصة لذلك.

توسّل الشاب قائلا: "ابق هنا، يا معلم، سأساعدك وأمك طوال الحياة. أفلا يكفيك هذا؟".

قال وانغ جن: "شكرا على حسن نواياك، يا أخي الصغير. المكان رائع هنا. ولكني أخشى أن يبعث الماريشال غاو رجاله يتعقبونني، وعندها ستتورّط معنا. ولن يكون في هذا شيء من عدل. تتناوشنا المتاعب. شددت عزمي على الذهاب إلى يانآن والانضمام إلى حامية الحدود بقيادة الجنرال العجوز تشونغ. إنها نقطة على الحدود وهم في حاجة إليّ. وفي وسعي أن أبدأ هناك بداية طيبة".

حين فشلت مساعي شي جين ووالده في إقناع وانغ جن بالبقاء أقاما له مأدبة وداع وأهديا له لفافتين من الساتان ومائة أوقية من الفضة على طبق كبير.

وفي اليوم التالي شدّ وانغ جن متاعه إلى حمالة كتفيه وأسرج حصانه. وانطلق وأمه راحلين عن عزبة الشيخ المحترم. أعان وانغ جن والدته على ركوب الحصان، واتخذا سمتهما صوب يانآن. استدعى شي جين خادما حمل حمالة الكتفين، وسار بنفسه، وقد أحزنه الفراق، مسافة برفقة ضيفيه. وأخيرا، انحنى شي جين لمعلمه وودّعه والعبرات في عينيه. وعطف برفقة الخادم إلى العزبة. حمل وانغ جن عصا الكتفين، ومشى وراء الحصان. وانطلقت الأم وولدها غربا على طول الطريق.

لن نتحدث بعد الآن عن وانغ جن الذي ذهب لينضمّ إلى الحامية، بل سنتحدّث بالأحرى عن شي جين الذي جعل يصلّب نفسه بقسوة في كل يوم. فهو شاب لم يتزوج، وما أكثر ما كان يهبّ في منتصف الليل للتدرب على السلاح. أما خلال النهار فهو يتدرب على الرمي بالسهام وركوب الجياد فيما وراء العزبة.

وقبل انقضاء ستة شهور على ذلك مرض والده وانطرح في فراشه. فاستدعى شي جين الأطباء من داني البلاد وقاصيها، لكن أحدا منهم لم يعرف له دواء. وقضى الشيخ، فحزن الجميع عليه. وجهز شي جين نعشا وتابوتا خارجيا له، أضجع فيه والده الشيخ، وقد خُلعت عليه أبهى الحلل، واستأجر كهنة بوذيين لإقامة سبعة طقوس دينية، في كل سبعة أيام طقس واحد، للصلاة على الفقيد الراحل. كما استأجر كهنة تاويين يرتلون الصلوات لانتقال روح أبيه إلى السماء مباشرة. وأقيم أكثر من عشرة من هذه الطقوس. ومن بعد اختار يوما ميمونا لمراسم الدفن. وشارك في هذه المراسم جميع سكان القرية البالغ عددهم ثلاثمائة أو أربعمائة عائلة، وقد لبسوا ثياب الحداد. ودفن مالك المثوى شي في مقبرة الأسلاف على هضبة إلى الغرب من القرية.

لم يبق الآونة من يرعى شؤون عائلة شي جين. ولم يكن الشاب يلتفت إلى الزراعة. فهمه الوحيد هو العثور على أشخاص يباريهم في استخدام السلاح.

ومرّت ثلاثة أو أربعة شهور. وكان الزمن منتصف الشهر القمري السادس، والجوّ يلتظى حرارة. جلس شي جين على مقعد خارج العزبة يستنشق هبات من هواء منعش. لم يكن لديه ما يفعل. وكان نسيم عذب يهب من أيكة الصفصاف قبالته. فهمس في حنايا نفسه قائلا: "ما أنعش الهواء!".

فجأة، لمح رجلاً يمد رأسه من الأيكة ويسترق النظر حواليه. فصاح:

- من هناك؟ من الذي يتطلع إلى عزبتنا؟

وثب على قدميه وركض بين الأشجار. وهنالك، وراء شجرة صفصاف، اكتشف وجود لي جي قنّاص الأرانب. فسأله: "فيم تراقب العزبة؟ أعليّ تتجسّس؟".

اقترب لي جي منه، وألقى عليه التحية في وقار، وقال:

- خادمك المتواضع يفتش عن كيو القصير. أردت أن يرتشف طاسا من الخمر معي. وحين رأيت السيد الصغير جالسا هنا يستروح هبات النسيم لم أجرؤ على إزعاجه.

- أسألك، كان من عادتك أن تحضر إلينا الطرائد، ولم أتأخر يوما في تسديدك الحساب. ففيم كففت عن ذلك؟ أيدور في خلدك أني خاوي الوفاض من المال؟

- وهل يطاوعني التفكير في مثل هذا الأمر؟ لم تكن ثمة طرائد في الآونة الأخيرة. وهذا ما حال بيني وبين الحضور.

- هراء! في جبل كبير مترامي الأطراف مثل جبل شاوهوا! أتظنني أصدّق أنه خلا من غزالة أو من أرانب؟

- لم يبلغك الخبر إذاً، يا سيدي الصغير؟ لقد بنى قطاع الطرق قلعة على الجبل. هم يعدون ستمائة أو سبعمائة رجل، ويملكون أكثر من مائة حصان أصيل. وقائدهم يدعى تشو وو مجترح المعجزات الاستراتيجي. ويليه في القيادة تشين دا النمر الوثاب. أما الثالث فيدعى يانغ تشون الأفعوان المرقط بالبياض. هؤلاء الثلاثة يغيرون وينهبون ساعة يشاءون وسلطات إقليم هواين تقف عاجزة حيالهم. وقد عرضت مكافأة مقدارها ثلاثة آلاف ربطة نقدية لقاء القبض عليهم. لكن، من تراه يجسر على ذلك؟ وخادمك يرهب أن يخرج إلى القنص على الجبل. وهذا هو السبب في أني لا أجيئك بشيء من الطرائد.

قال شي جين:

- سمعت أن هنالك قطاع طرق على الجبل. لكنه لم يقع مني ببال أن أولئك الأوغاد ينشطون في العمل. قد يثيرون المتاعب ضدي. ولكني أحب الحصول على شيء من الطرائد إذا وقعت بين يديك.

انحنى لي جي وتابع سبيله.

ورجع شي جين إلى العزبة. همس في نفسه:

- أولئك الأوغاد يعملون بنشاط. وقد يعنُّ لهم الهجوم على قريتنا. وفي هذه الحال.....

أمر خدمه أن يذبحوا جاموسين وأن يحضروا قليلا من الخمرة الجيدة المصنوعة في البيت. وأحرق بادئ الأمر نسخا ورقية تشبه قوالب الذهب والفضة عطية للسماء، وأرسل صلواته استجداء

للحظ الطيب. ومن ثم دعا الفلاحين المحليين الثلاثمائة أو الأربعمائة إلى الردهة في العزبة. وبعد أن جلس الجميع حسب أعمارهم أمر الخدم أن يصبوا الشراب لهم. وقال: "سمعت أن ثلاثة من زعماء اللصوص أنشأوا عصابة من ستمائة أو سبعمائة قاطع طريق على جبل شاوهوا يغيرون ويسلبون. وباعتبار أنهم يمارسون هذا العمل على نطاق واسع، فسرعان ما سيهاجمون آجلا أو عاجلا قريتنا هذه. دعوتكم إلى هنا للتشاور: حين يجيء أولئك الأنذال يجب أن تكون كل عائلة على أتم الاستعداد. إذا قرعت عزبتنا جرس الإنذار فهبوا إلينا جميعا بكامل عددكم وعدتكم، وسنقوم بالعمل ذاته إذا هوجم أي منكم. سنساعد بعضنا بعضا، وندافع عن قريتنا. إذا جاء زعماء اللصوص فلسوف أحاسبهم بنفسي".

قال الفلاحون: "أنتَ صاحب الأمر، أيها السيد الصغير. ونحن نعتمد عليك. حين يدق ناقوس الخطر لن يتوانى أحد منا عن تلبية ندائه".

شربوا عند العشية القدح الأخير شاكرين، وتوزعوا إلى بيوتهم لتجهيز أسلحتهم. دعم شي جين بوابات العزبة وجدرانها، وهيأ كل شيء. وزّع ثياب الحرب، وجعل السيوف والخيول في متناول اليد. ولا نتحدث عن هذا الموضوع أكثر مما تحدثنا سالفا.

سنتحدث بالأحرى عن زعماء قطاع الطرق الثلاثة على جبل شاوهوا. فقد جلسوا ذات يوم يتشاورون. كان قائدهم تشو وو مجترح المعجزات الاستراتيجي من أبناء دينغيوان. وكان سلاحه عبارة عن سيفين. وبالرغم من أنه لم يكن مقاتلا بارعا لكنه موهوب في فن تخطيط المعارك واستراتيجي ماهر. وكان يليه في القيادة تشين دا من مدينة ييتشنغ. وسلاحه عبارة عن رمح فولاذي مدبب. أما الثالث، يانغ تشون، فمن إقليم شيهليانغ في بوتشو. وسلاحه عبارة عن مطرد. قال تشو وو: "سمعت أن إقليم هواين وضع جائزة قدرها ثلاثة آلاف ربطة نقدية ويحشد الرجال للقبض علينا. سنذيقهم معركة دموية حين يجيئون. مشكلتنا أننا لا نملك مالا أو حنطة. يحسن بنا أن نشن غارة وأن نسرق شيئا منها. نحتاج إلى ادخار الحنطة لطعامنا إذا حاصرتنا القوات". قال تشين دا النمر الوثاب: "هذا صحيح. لنطلبنَّ الحنطة من إقليم هواين ونشاهدنَّ ما يفعلون بهذا الخصوص". ونصح لهما يانغ تشون الأفعوان المرقط بالبياض قائلا: "إياكما والذهاب إلى هواين. الذهاب إلى بوتشنغ أفضل. وهو عملية موثوقة".

قال تشين دا: "ليست هنالك كثرة من الناس في بوتشنغ، وهم لا يملكون وفرة من المال أو الحبوب. أنا مع الإغارة على هواين. فالناس أثرياء هناك. يملكون وفرة من المال والحبوب".

قال يانغ تشون: "أنت لا تفهم، يا أخي. الوصول إلى هواين يقتضينا المرور بقرية عائلة شي. وشي جين التنانين التسعة جلف فظ. وليس من الحكمة إثارته. فلن يأذن لنا بالمرور".

قال تشين دا: "هذا حديث ضعيف، يا أخي. إذا لم يكن في مقدورنا المرور بقرية صغيرة، فكيف يتأتى لنا الصمود في وجه قوات الحكومة؟".

أجاب يانغ تشون: "يجب ألا تستهين بشي جين فهو جبار حقيقي".

قال تشو وو: "وأنا أيضا سمعت أنه شجاع لا يهاب. ويقولون إن مهارته في استخدام السلاح لا

يشقُّ لها غبار. فلنعدلنَّ عن الذهاب، يا أخويَّ".

صاح تشين دا: "سدا ثغريكما الهيَّابين. إغـراق المديح على شجاعة الآخرين انتقاص لشجاعتكما. إنه بشر رغم كل شيء. فهل يملك ثلاثة رؤوس وست أذرع؟".

ونادى على جماعته: "أحضروا حصاني. سأهاجم قرية عائلة شي، وبعدها أستولي على هواين".

حاول تشو وو ويانغ شون إقناعه بالعدول عن عزمه، فما أعارهما أذنا مصغية. وأخذ السلاح ووثب إلى ظهر حصانه واختار مائة وخمسين رجلا، وضربت الطبول وقرعت الصنوج، وهبط عن الجبل متجهاً إلى قرية عائلة شي.

كان شي جين أمام عزبته يتفقد سلاحه ورجاله وعتادهم، فأنبأه بالخطر واحد من خدمه. وما أسرع أن قرع جرس الإنذار المصنوع من خشب الخيزران. فانصبَّ الرجال من العائلات الأربعمائة التي تعيش في القرية من كل حدب وصوب متدفقين ناحية العزبة متنكبين أسلحتهم. فوجدوا شي جين يرتدي عمامة متطاولة، ومعطفاً قرمزي اللون مصنوعا من زرديات حديدية تحمي الصدر والظهر، وثوبا أسود اللون مطرَّزا، وحذاء أخضر وحزاماً جلدياً. وكان يحمل قوسا ومجموعة من السهام، ويمسك في يده سيفا ثلاثي الشعب فيه أربع ثغرات وثماني حلقات.

جاءه أحد الخدم بحصانه الأشهب المتضرّم، فامتطاه ورفع سيفه. سار أمامه أربعون خادما صلب البأس، وتبعه تسعون فلاحاً وقروياً، وانطلق الجميع قدما. وراح بقية الفلاحين يصيحون ويهزجون في المؤخرة، ثم لحقوا بهم إلى الطريق شمال القرية.

أمر تشين دا رجاله أن يعجلوا بالهبوط عن الجبل وأن ينتشروا سريعا. ورأى شي جين أنه يلبس قبعة حمراء، وبذلة ذهبية من الزرد، ورداء أحمر، وحذاء كثيف النعل. ولفَّ حول وسطه حزاما طويلا مضفورا. وكان يمتطي صهوة جواد سامق أبيض اللون، ويحمل رمحا فولاذي الحربة بطول ثماني عشرة قدما. وأطلق الرجال عن جانبيه صيحة متوحشة.

تبادل القائدان النظرات من حيث اعتلى كل منهما صهوة جواده. وانحنى تشين دا على السرج.

صاح شي جين: "أنت تقتل وتحرق، وتنهب وتسرق، وجرائمك الرهيبة جميعا عقوبتها الموت. أما بلغتك أنبائي؟ من أين أتتك الوقاحة على اقتحام عرين النمر؟".

أجاب تشين دا: "تنقصنا الحبوب في قلعتنا على الجبل. ورجونا أن نقترض شيئا منها في هواين. والطريق قادتنا إلى عزبتك الكريمة، ولا مرية أننا نهاب أن نمس نبتة واحدة من العشب هنا. إئذن لنا بالمرور. وسوف نجزيك حقك من الشكر لدى أوبتنا".

– هراء. أنا قائد السجن. وكنت عازما على ملاحقتكم أنتم قطاع الطرق، ولكنكم جئتم إليَّ. إن أذنت لكم بالمرور، وسمع الحاكم هذا النبأ ساءت العقبى بالنسبة إليَّ.

– "الرجال إخوة في البحار الأربعة". سوف نرغمك على السماح لنا بالمرور.

– كفَّ عن هذه الثرثرة الجوفاء. لو رضيت أنا بذلك، فهنالك شخص آخر لن يوافق. وعليكم أن تستأذنوه.

- من هو ذلك الشخص، أيها المحارب الطيب؟
- هو هذا السيف في يدي!

غضب تشين دا: "حذار من التطاول عليَّ كثيرا. سوف ترغمني على مقابلة الأذى بالأذى!".

لوّح شي جين بسيفه وقد احتد غضبا، ونخز حصانه وحمل على خصمه. ولمز تشين دا بدوره مطيّته وقد سدد رمحه. والتحم الرجلان وتعاركا. وبعد عدة جولات لجأ شي جين إلى المكر، فتظاهر أنه كشف صدره لخصمه، فاندفع تشين دا مهاجماً. تفادى السيد الصغير ضربة الرمح، فالتقى الجسدان. ألقى شي جين ذراعا رشيقة حول وسط تشين دا، وشدّ عليه بدرعه المزرّد، وبهزة سريعة رفعه عن سرج حصانه المزخرف وقذف به إلى الأرض. وطار حصان قائد قطاع الطرق هاربا كالإعصار. ونادى شي جين على رجاله أن يصفّدوا تشين دا. وهرب من تبقى من قطاع الطرق.

رجع شي جين إلى العزبة، وأمر بربط تشين دا إلى عمود في وسط صرحة الدار. وقرر أنه سيرسل قادة قطاع الطرق الثلاثة، بعد أسر القائدين الآخرين إلى السلطات، ويطلب المكافأة المرصودة عنهم. وزّع الخمور على رجاله، وصرفهم. فاغتبقوها وألسنتهم تمتدح شجاعته.

أما في قلعة الجبل فطفق تشو وو ويانغ تشون يتساءلان لماذا أبطأت الأنباء عليهما. أرسلا أحد الكشافة. ولم يلبث باقي قطاع الطرق أن رجعوا أدراجهم وهم يقودون حصاناً من دون فارس. هتفوا بالقائدين وهم يتسلقون الجبل: "خزي وبلاء! تشين دا لم يعر حديثكما أذنا صاغية، أيها الأخوان الكبيران. وها هو الآن أشبه بالميت".

استوضح تشو وو عما حدث. فأخبره قطاع الطرق أخبار المعركة، وأضافوا قائلين: "وهذا شي جين محارب جبار".

قال تشو وو: "لم يسمع تشين كلامي. ولا ريب أنه الآن في مصيبته".

اقترح يانغ تشون: "لنهبطنَّ بكامل قوانا ونحاربه".

أجاب تشو وو:

- هذا مستحيل. إن لم يستطع تشين مقارعته، فكيف تستطيع أنت ذلك. خطرت في بالي فكرة، فكرة على جانب من الخطورة، لكنها قد تنقذ تشين دا. وإذا فشلت فاقرأ على روحينا السلام!

- وما هذه الفكرة؟

فهمس تشو وو في أذن صاحبه.

هتف يانغ تشون: "روعة! إذاً لنذهب. ولا نهدرنَّ الوقت سدىً".

كان شي جين لا يبرح محتدا وهو في عزبته حين جاءه خادمه يلهث وأعلن قائلا: "تشو وو ويانغ تشون في طريقهما إلى هنا من قلعة الجبل".

- يا للوغدين! سأقبض عليهما معا. هاتوا حصاني، عجلوا.

قرع ناقوس الخطر فاحتشد الفلاحون. ركب مطيته وكاد أن يخرج من بوابة العزبة حين أبصر تشو وو ويانغ تشون يقتربان على أقدامهما. جَثَوا وشخصا إليه والعبرات تنحدر على وجهيهما. أوقف شي جين حصانه وصاح: "فيم تركعان هنا؟".

أجاب تشو وو باكيا:

- نحن الرجال الثلاثة الصغار أغار علينا الضباط فاضطررنا أن نلجأ إلى الجبال ونخرج على القانون. وقد نذرنا على أنفسنا أننا رغم عدم قدومنا إلى هذا الوجود في يوم واحد لكننا سنموت في يوم واحد. ولعلَّ هذا القسم بيننا لا يقارن بالأخوَّة بين غوان غونغ وتشانغ في وليو بي من العصور القديمة، غير أن قلوبنا لا تقلُّ عنهم إخلاصاً. لقد رفض اليوم الأخ الأصغر تشين دا نصيحتنا له. وأغضب سعادتك فحبسته في عزبتك الموقرة. وحيث إننا لا نستطيع أن ننقذه جئنا لنموت معه. رجاؤنا إليك أن تعمل على تسليم ثلاثتنا للحصول على المكافأة. فذلك لن يغضبنا. نطلب إليك والفرحة في قلوبنا أن ترسلنا إلى حتفنا.

همس شي جين في سره:

- يا للإخلاص! إن قبضت عليهما أيضا وطالبت بالمكافأة فلن يبقى شخص واحد في البلاد من جفاة القلوب لا يصبُّ لومه عليَّ. والمثل القديم يقول: لا ينقض النمر على فريسة سهلة.

والتفت إلى قائدي قطاع الطرق، وقال: "رافقاني!".

لحق به القائدان في جرأة حتى الردهة الخلفية. وهنالك ركعا مرة أخرى ورجواه أن يقيدهما معا. حثهما شي جين على النهوض فما أعاراه أذنا صاغية.

- الذكي يوقِّر الذكي والشجاع يعرف الشجاع.

فأجاب السيد الصغير في توكيد: "طالما أنكما على مثل هذا الإخلاص فلن أكون رجلا حقيقيا إن أسلمتكما إلى السلطات. لنفرضنَّ أني رددت إليكما تشين دا، فماذا تقولان؟".

قال تشو وو: "تسوء عقباك لا أكثر ولا أقل. هذا أمر لن تفعله. يحسن أن تسلمنا وتقبض المكافأة".

أجاب شي جين: "مستحيل. أتشاركانني طعامي وشرابي؟".

قال تشو وو: "الموت لا يرهبنا فكيف يخيفنا طعامك وشرابك؟".

غمرت الغبطة جوانح السيد الصغير. حلَّ وثاق تشين دا وأدّب مائدة لقادة قطاع الطرق الثلاثة في الردهة الخلفية. فشكره تشو وو ويانغ تشون وتشين دا على دمائته. وبعد أن تبادلوا عدة أنخاب ترنحوا بشراً وبهجة. وحين انتهت الخمرة كررَّ القادة الثلاثة شكرهم لشي جين وقفلوا عائدين إلى الجبل. وسار شي جين يودعهم حتى غادروا العزبة.

بعيد الرجوع إلى الجبل قعد تشو وو برفقة القائدين الآخرين وقال:

- لولا الخطة التي رسمنا، فهل كان واحد منا سيبقى على قيد الحياة؟ نحن لم ننقذ تشين دا وحسب، ولكن شي جين، ببسالته النادرة، أطلق سراحنا جميعا. في غضون أيام قليلة يجب أن نرسل إليه بعض الهدايا تعبيرا عن وفائنا.

لنتجاوزنَّ التفاصيلات التافهة. بعيد قرابة عشرة أيام، أرسل قادة قطاع الطرق الثلاثة، في ليلة غاب قمرها وادلهمت سماؤها، اثنين من رجالهم يحملان ثلاثين قضيبا من الذهب. قرع الرجلان على بوابة العزبة، وأعلن خادم عن وصولهما. تلفف شي جين ببعض الثياب بسرعة وذهب للقائهما.

- هل تحملان إليَّ رسالة؟
- يبعث قادتنا الثلاثة إليك خالص الاحترام. لقد طلبوا إلينا أن نسلم هذه الهدية التافهة تعبيرا عن شكرهم سعادتك لإنقاذك حيواتهم. رجاءً لا ترفضها، بل خذها راضيا.
وناولا شي جين قضبان الذهب.
شاء أن يرفض أول الأمر، ولم يلبث أن همس في نفسه: "طالما أنهم من طينة طيبة فأرسلوها إليَّ، فعليَّ قبولها". وأمر خادمه أن يقدم للرسولين خمرة فشربا حتى ما بعد انتصاف الليل، ثم أكرمهما شي جين بقليل من الفضة وصرفهما.
وبعد انقضاء أكثر من نصف شهر، عقد قادة قطاع الطرق اجتماعا، ومرة أخرى بعثوا رسولين إلى العزبة ليلا، وكانا يحملان هذه المرة سلكا من اللآلئ الثمينة الكبيرة التي غنموها في إحدى السرقات. وقبل شي جين ذلك السلك. ويكفينا الحديث عن هذا.
بعد نصف شهر، جعل شي جين يحدّث نفسه قائلا: "أولئك الثلاثة أبدوا نحوي كثيرا من الاحترام، وعليَّ أن أرسل إليهم بعض الهدايا بدوري". وفي اليوم التالي، أمر خادما أن يشتري ثلاثة أثواب من القماش الأحمر المقصَّب من حاضرة المدينة وطلب إلى خياط أن يخيط ثلاثة أثواب لقادة قطاع الطرق. وأمر أن تذبح ثلاث نعاج مسمنة وتطبخ. وأمر خادمين أن يقوما بتسليم هذه الأشياء في صندوق كبير.
كان وصيف شي جين يدعى وانغ الرابع. وكان له لسان رشيق يقارع به الضباط. وكان الخدم الآخرون ينادونه "ندُّ بودانغ" . كان وانغ أحد الرسولين. وحين وصلا بالصندوق إلى سفح الجبل جعل خفراء قطاع الطرق يستجوبونهما، ومن بعد اقتادوهما إلى القلعة. فأكرموا الرسولين بعشر أوقيات من الفضة وصبوا لهما أكثر من عشر طاسات من الخمور. وانثنى رجلا شي جين بعدها إلى العزبة.
أعلما السيد الصغير قائلين: "قادة الجبل في منتهى الامتنان".
منذ ذلك الحين، أقام شي جين علاقات على جانب من الأهمية مع قادة قطاع الطرق، وذهب وانغ الرابع مرات عديدة إلى عرين الجبل حاملا مختلف الهدايا. وأرسل القادة في مناسبات مختلفة الذهب والفضة إلى شي جين.
وتوالت الأيام. وسرعان ما حل الشهر القمري الثامن، وهو زمن الاحتفال بمنتصف الخريف. وعزم شي جين على دعوة قادة قطاع الطرق الثلاثة إلى الاستمتاع بمنظر القمر واغتباق الخمور في العزبة ليلة الخامس عشر. فبعث وانغ الرابع إلى القلعة يحمل دعوة خطية قبلها القادة الثلاثة بمنتهى السرور. وكتبوا جوابا عنها، وأكرموا وانغ بخمس أوقيات من الفضة، وقدموا له أكثر من عشر طاسات من الخمور.
خلال عودته إلى البيت التقى وانغ قاطعي الطريق اللذين يترددان إلى العزبة حاملين الهدايا. عانقاه وشداه إلى دكان لبيع الخمور في قرية جبلية صغيرة على كتف الطريق. وافترقوا أخيرا، فأكمل وانغ رحلته إلى البيت. وفي الطريق، هبت عليه ريح عاصفة جعلت رأسه يترنح. تمايل وانغ حوالى

عشر ليات حتى وصل إلى أيكة دلف إليها وألقى نفسه على مرجة معشوشة.

شاءت المصادفة أن يكون الصياد لي جي يطارد الأرانب في جنبات الجبل. عرف وانغ، فمشى إليه وقد رآه مضطجعا هناك يمدّه بالعون، لكن الخادم كان ثقيل الجسم. ولمحت عين الصياد الثاقبة انتفاخ الفضة في وشاح حزام وانغ.

همس يقول في سره: "هذا الوغد سكران. فمن أين حصل على مثل هذا المبلغ من المال؟ لم لا أسعف نفسي؟".

أخرج لي جي وشاح الفضة وهزّه. تساقطت قطع الفضة وجواب قطاع الطرق على الأرض. التقط لي جي الرسالة وفتحها. لم يكن على شيء من الثقافة، ولكنه يستطيع أن يميز أسماء تشو وو وتشين دا ويانغ تشون. وعجز عن قراءة بقية الكلمات.

خاطب نفسه قائلا: "صعب على صياد من أمثالي أن ينشئ نفسه في هذا العالم. ورغم هذا أنبأني قارئ البخت أني سأغتني هذه السنة. ولا ريبة أنها فرصتي! وجدت في مدينة هواين إعلانا يعرض مكافأة قدرها ثلاثة آلاف ربطة نقدية لقاء القبض على هؤلاء الثلاثة من قطاع الطرق. لا عجب مما حدث ذلك اليوم، حين كنت أفتش عن كيو القصير، أن ذلك الخادم التابع لشي جين خاف من أن أكون أتجسس عليه. لقد كان على صلة مع قطاع الطرق هؤلاء!".

أخذ لي جي قطع الفضة والرسالة وتوجه رأسا إلى مدينة هواين لإبلاغ السلطات.

حين هبَّ وانغ الرابع من غفوته كان قد حان أوان الحراسة الثانية. روّعه أن يرى نفسه يستحمُّ في ضوء قمر شاحب. وثب على قدميه، وأجال الطرف حواليه. كانت أشجار الصنوبر تحوطه من كل جانب. وتحسّس خصره. لم يعثر على حزامه ورسالته. فتش في كل مكان، فعثر على الحزام خاوياً ملقىً على العشب.

زمجر وانغ الرابع، وخاطب نفسه: "لا يهمني ضياع الفضة. لكن، ما أرهب أن أفقد الرسالة! من يمكن أن يكون قد أخذها؟".

وعبست ملامحه: "إذا قلت إني أضعتها أثرت نقمة سيدي. وسيطردني. الأفضل أن أقول إنه ليست هناك رسالة ولن يعرف ما حدث".

قفل الوصيف عائدا إلى العزبة. كان قد حان وقت الحراسة الثالثة حين وصلها، سأله شي جين: "ماذا أعاقك؟".

- مجاملة لك، يا سيدي، رفض القادة الثلاثة إطلاق سراحي. أغدقوا عليَّ الشراب إلى ما بعد انتصاف الليل. وهذا ما أخر عودتي.

- هل أرسلوا معك جوابا؟

- كانوا عازمين على كتابة جواب، فقلت لهم: طالما أنكم ستحضرون، ففيم تزعجون أنفسكم بتحرير جواب؟ كان خادمك سكران. ماذا يحدث لو أضعت الجواب على طريق عودتي؟ ذلك لا يحتمل المزاح.

داعبه شي جين مبتسما: "لا غرابة أن يدعوك الجميع ندّ بودانغ. فأنت متوقد الذكاء حقاً".

- خادمك لم يجرؤ على التأخر. رجعت عجلان الخطوات، ولم أتوقف لحظة واحدة.

- حسن. ابعث أحدا إلى حاضرة المدينة يحمل إلينا طعاما شهيا يناسب الخمرة التي ستقدَّم لضيوفنا.

وسرعان ما حل يوم الاحتفال بمنتصف الخريف. كان الجوّ صحواً براقاً. أمر شي جين خدمه أن يذبحوا خروفاً مسمناً وأكثر من مائة دجاجة وإوزة، وأن يجهزوا مأدبة.

أمر تشو وو وتشين دا ويانغ تشون مرؤوسيهم أن يخفروا القلعة، وهبطوا قرابة العشية عن الجبل في حراسة خمسة من الرجال. كان كل منهم يحمل مطرداً وسيفاً، وكانوا راجلين، وكانت خيولهم قد بقيت في القلعة. واتجهوا إلى العزبة مباشرة.

استقبلهم شي جين، وتبادلوا التحيات. ودعاهم السيد الصغير إلى الحديقة الخلفية حيث أقيمت المائدة. ورجاهم أن يتخذوا مجالسهم على مقاعد الشرف. وجلس هو قبالتهم، وأمر خدمه لإغلاق بوابتي العزبة الأمامية والخلفية. وشرب المضيف والضيوف، وظل الخدم يملأون الكؤوس ويقطعون الخروف إلى شرائح. ولم تكد الكؤوس تطفح عدة مرات حتى شرع القمر يعرج في مراقي السماء ناحية الشرق.

شرب الجميع واستلذوا احتفال منتصف الخريف، وتبادلوا الأحاديث عما هو قديم وحديث. وفجأة على غير انتظار، تناهت إلى أسماعهم ضجة صاخبة خارج العزبة، ولمحوا وميض مشاعل. أجفل شي جين، ونهض سريعاً. وقال: "رجائي أن تلزموا مقاعدكم، يا أصدقائي. سأذهب وأستطلع جليّة الأمر".

ونادى بخدمه قائلا: "لا تفتحوا الباب".

تسلق سلماً إلى أعلى الجدار ومدّ نظره من فوقه.

كان عمدة إقليم هواين ومسؤولان عن الأمن، وثلاثمائة أو أربعمائة جندي قد رسموا حول العزبة نطاقاً. زمجر شي جين وقادة قطاع الطرق. استطاع السيد الصغير أن يشاهد على ضوء المشاعل غابة كبيرة من الرماح المشرعة، والمطارد، والمذاري ذات الشعب الخمس، والرماح المسننة. وكان رجلا الأمن يصيحان: "لا تتركوا اللصوص يهربون!".

لو لم تحضر هذه الكتيبة للقبض على شي جين والقادة الثلاثة فما كان شي جين سيعمد إلى قتل عدد من الرجال وينضم إلى دستة أو أكثر من الشجعان. من جراء ذلك، احتشد المحاربون في أعماق عيدان القصب، وتجمعت القوارب الحربية بين أوراق اللوطس.

كيف هرب شي جين وقادة قطاع الطرق الثلاثة؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثالث

المعلم شي يغادر إقليم هواين ليلا؛
والرائد لو يلكم سيد الغرب تشنغ

سأل شي جين: "ماذا أفعل؟".

جثا تشو وو وقائدا قطاع الطرق أمامه، وقالوا: "يداك نظيفتان، يا أخانا. لا تورِّط نفسك من أجلنا. يحسن أن تشدَّ وثاقنا وتحصل على المكافأة بدلا من أن تلوث اسمك الناصع الطيب".

أجاب شي جين: "مستحيل. إذا فعلت هذا سيتراءى للجميع أنني استدرجتكم إلى هنا للحصول على المال، وسيجعلونني هزأة. معاً نحيا أو معاً نموت. لنرينَّ مبعث هذه الضجة كلها".

صعد على السلم، ونادى هاتفا: "ما تبتغون من القدوم في منتصف الليل والإغـارة على مزرعتي؟".

أجاب رجلا الأمن: "كفَّ عن ادعائك أيها السيد الصغير. فإن لي جي، من تقدّم بالاتهام، موجود معنا هنا".

صاح شي جين: "كيف تفتري على رجل شريف؟".

أجاب الصياد: "لم أعرف بادئ الأمر. عثرت على رسالة كان وانغ الرابع يحملها في الغابات، ونقلتها إلى حاضرة المدينة كي يقرأوها لي. وهذه هي النتيجة".

استدعى شي جين وصيفه وانغ: "قلت لم تكن هناك رسالة. فمن أين جاءت هذه التي يتحدث عنها؟".

- كنت سكران. ونسيتها.

صاح شي جين: "أيها النذل. أوقعتنا في مأزق حرج".

كان رجلا الأمن يخشيان براعة شي جين في القتال، فما واتت الجرأة أحدهما على أن يشق طريقه إلى المزرعة. ونصح قادة قطاع الطرق قائلين: "يحسن أن تعطيهم جوابا".

استوعب شي جين الأمر، فهتف برجلي الأمن من ذروة السلم: "حذار أن تفعلا شيئا، أيها الشرطيان. أبعدا رجالكما عن جدراني. سأربط قطاع الطرق لتسليمهم إلى المسؤولين وقبض المكافأة".

لم تساور رجلي الأمن رغبة في الاشتباك مع شي جين، فقالا:

- لسنا نريد متاعب. اخرج بهم فنذهب برفقتك إلى الحاكم.

نزل شي جين عن السلم، ومضى إلى مقدمة الردهة. اقتاد وانغ الرابع إلى الحديقة الخلفية وقتله بضربة واحدة من سيفه. ومن بعد، أمر خدمه أن يحزموا نفائسه التي يمكن حملها، وأن يشعلوا

ثلاثين أو أربعين مشعلاً. وارتدى هو وقادة قطاع الطرق عدتهم وأخذوا المطارد والسيوف عن مساند الأسلحة، وما عتموا أن أضرموا النيران في الأبنية المصنوعة من القش في مؤخر مبنى العزبة. وفي هذه الأثناء حزم الخدم ممتلكاتهم أيضا.

حين شاهد الجنود في الخارج إضرام النيران تراكضوا متدافعين إلى مؤخر العزبة. وأشعل شي جين النار في الردهة الرئيسة، وفتح البوابة الأمامية، وشنَّ هجوماً وهو يطلق صيحة مرعبة. خاض ورجاله معمعان القتال يناصره تشو وو ووانغ تشون وتشين دا ورجال حرسهم. كان السيد الصغير مقاتلا لا يشقُّ له غبار. فمن يجسر على الصمود في وجهه؟

وفيما اللهب يضيء وجه السماء، شق شي جين ورجاله لأنفسهم طريقاً بين الجنود، وما أسرع أن وجد نفسه وجهاً لوجه مع رجلي الأمن ولي جي. فالتهب غضباً. "حين يلتقي الأعداء تلتهب عيونهم". وأدرك رجلا الأمن أن الأمور تسوء بالنسبة إليهما، فدارا على أعقابهما وأسلما سيقانهما للرياح. حاول لي جي بدوره أن يفرَّ هاربا، فلم يترك له شي جين فرصة. سقط عليه وشطره نصفين بضربة واحدة من سيفه. وقتل تشين دا ويانغ تشون رجلي الأمن بضربة من مطرديهما. وانطلق حاكم المنطقة وقد هدّه الرعب هارباً بأقصى ما وثبت قوائم حصانه. وخشي الجنود خوض القتال. فتفرقوا أباديد في كل ناحية وصوب.

راح شي جين ورجاله يشقون طريقهم مباشرة إلى قلعة قطاع الطرق على جبل شاوهوا، وهم يذيقون الموت من يعترض سبيلهم. وحين وصلوها جلسوا يستريحون ويلتقطون أنفاسهم. أمر تشو وو والقائدان الآخران بذبح الثيران والخيول الصغيرة وإعداد وليمة احتفالية لن نتحدث عنها شيئاً.

أقام شي جين أياما عديدة. همس في حنايا نفسه:

– لقد أحرقت عزبتي في سبيل إنقاذ ثلاثة رجال. ادخرت نفائس قليلة، غير أن ملكيتي الواسعة تهدمت بكاملها. شعر بالقلق. كيف يطاوعه القلب على البقاء في مثل ذلك المكان؟ خاطب قائد قطاع الطرق قائلا: "لقد التحق المدرب وانغ، معلمي في السلاح، بحامية الحدود إلى الغرب من الممر. كنت أنوي البحث عنه، فأخّرتني وفاة والدي. وباعتبار أن المزرعة قد احترقت لم تبق هناك عقبة في طريقي".

فألحّ عليه قادة قطاع الطرق قائلين:

– لا ترحل، أيها الأخ. أقمْ لدينا فترة فنبحث هذا الموضوع. إن لم تشأ أن تنضمَّ إلينا، عمدنا حين تهدأ الأمور إلى إعادة بناء عزبتك، وسيغدو باستطاعتك أن تصبح من جديد مواطناً محترماً.

– نياتكم تفيض طيبة، ولكنني راغب عن البقاء. إذا استطعت العثور على معلمي والحصول على عمل، ففي مقدوري أن أتدبّر نفسي وأرتع بالسعادة بقية عمري.

سأله تشو وو:

– لم لا تقيم هنا وتغدو رئيسنا؟ أفلا يسعدك ذلك؟ لا ريبة أن حصننا الجبلي صغير صغير بالنسبة إلى رجل مثلك.

– سمعتي طاهرة لا شائبة فيها. فهل ألطخ الجسد الذي وهبني إيّاه أبواي؟ لا جدوى من

محاولتكم إغرائي على الانقلاب إلى قاطع طريق.

بعيد عدة أيام عزم شي جين على الرحيل. وضاعت نصائح قادة قطاع الطرق الثلاثة سدىً. ترك خدمه وأكثر أمواله في القلعة، وتزود ببضع قطع فضية صغيرة لفها في حزمة.

غطت قبعة لبّادية عريضة الحواف في قمتها شرابة حمراء المنديل الأسود الطري المزدان بالرسوم الذي عصب به رأسه. وربط حول عنقه منديلاً أصفر اللون، ولبس رداءً عسكريا من الحرير الأبيض شدّه عند وسطه بحزام أرجواني اللون بعرض خمس أصابع. ولفَّ ساقيه بعصائب متعاقبة من قماش أزرق وأبيض. وانتعل في قدميه صندلا مضفوراً من خيوط القنب يصلح لتسلق الجبال. وتدلى سيف عن خصره.

شدّ شي جين حزمته إلى ظهره، وحمل مطرده، وودّع قادة قطاع الطرق الثلاثة. رافقوه مع أفراد من رجالهم إلى سفح الجبل، وافترقوا عنه باكين، وقفلوا إلى قلعتهم راجعين.

سار شي جين على الدروب المؤدية إلى ولاية يانآن، يأكل حين يعضه الجوع ويشرب حين يقتله الظمأ، ولا يتوقف إلا حين ينسدل ستار الليل، ويعتسف الطريق حين يبزغ فجر اليوم التالي. تابع مسيرته على هذا الغرار، وحيدا، أكثر من خمسة عشر يوما، ووصل أخيرا إلى ويتشو.

همس في قرارة نفسه: "هذه أيضا حامية حدود. لعل معلمي وانغ مدرب السلاح موجود ههنا!".

دخل المدينة. كانت تغص بالحركة والنشاط، وفيها شوارع عديدة وأسواق مختلفة. ولمح في أحد أركان الشارع مشرب شاي صغيراً. دلف إليه واتخذ مقعداً.

اقترب منه النادل مستفسراً: "ما نوع الشاي الذي تفضله، يا سيدي؟".

- أريد قدحاً من شاي ثقيل.

لبى النادل رغبته، ووضع قدح الشاي أمامه على المنضدة.

سأل شي جين: "أين قائد حامية البلدة؟".

- في ذلك المكان، هنالك في الأعلى.

- أتعرف ما إذا كان لديهم مدرب سلاح من العاصمة الشرقية، رجل يدعى وانغ جن؟

- في المدينة عدد من مدربي السلاح. وهناك ثلاثة أو أربعة باسم وانغ. ولا أعرف إذا كان أحدهم يدعى وانغ جن.

في أثناء الحديث، اقترب رجل كبير تبدو عليه سيماء ضابط في الجيش. كان يلف رأسه بمنديل مزين برسوم صلبان معقوفة، تعصبه من الخلف حلقات ذهبية من تايوان. وكان حزام مضفور فاحم اللون يحزم ثوبه العسكري الأخضر عند وسطه. ولبس في قدميه حذاءين أصفرين مزخرفين بأربع نجاشات من الجلد البني على شكل مخلب الصقر. وله أذنان ضخمتان، وأنف مستقيم، وفم عريض، ولحية كثة تؤطر وجهه المدور. وكان له من الطول ست أقدام، وطوّق خصره بنطاق من عشرة أشبار.

حين اتخذ القادم الجديد لنفسه مقعداً التفت النادل إلى شي جين قائلا: "هذا هو الرائد. في

مستطاعك أن تستفسره عن وانغ جن. فهو يعرف جميع مدربي الأسلحة".

نهض شي جين سريعاً، وعطف ظهره منحنياً وقال: "أتأذن لي في دعوتك إلى قليل من الشاي، يا سيدي؟ رجائي أن تشاركني مائدتي".

رأى الضابط أن شي جين فتى قوي البنية تلوح في قسماته مخايل الشجاعة. مشى إليه، وردّ له التحية. وجلس الاثنان معاً.

سأل شي جين: "هل أستطيع أن أسأل عن اسمك، يا سيدي؟".

- اسمي لو دا. وأنا الرائد في هذه الحامية. ومن تكون أنت، يا أخي؟

- اسمي شي جين. وأنا من إقليم هواين في ولاية هواتشو. ومعلمي وانغ جن كان مدرباً للسلاح في الحرس الإمبراطوري القوي في العاصمة الشرقية. أيمكن أن تخبرني، يا سيدي، إذا كان موجوداً في هذه الحامية؟

- رويدك، ألست السيد الصغير شي جين من قرية عائلة شي، الشاب الذي يدعى التنانين التسعة؟

انحنى شي جين: "أنا ذلك الرجل المتواضع".

فردّ لو دا على تلطفه الجم: "لقاؤك رجلا شهيراً أفضل من سماعك باسمه. هل معلمك هو وانغ جن الذي أخطأ بحق الماريشال غاو في العاصمة الشرقية؟".

- هو عينه.

- سمعت عنه، ولكنه لا يقيم هنا. يقولون إنه برفقة الجنرال العجوز تشونغ في حامية يانآن. ويتشو مركز صغير. والجنرال الشاب تشونغ قائدنا. والأخ وانغ لا يقيم هنا معنا. وهكذا، فأنت السيد الصغير شي. سمعت عنك أنباء طيبة. تعال نشرب بعض الأقداح معاً.

أمسك شي من يده. وفيما كانا ينصرفان من مشرب الشاي هتف لو دا من فوق كتفه: "سجِّل ثمن الشاي في حسابي".

فأجاب النادل: "هوِّن عليك، أيها الرائد. فانصرف في سبيلك".

سار لو دا وشي جين على طول الشارع وقد تشابكت ذراعاهما. وبعد أن اجتازا مسافة لا تزيد عن خمسين خطوة شاهدا حشدا من الناس تحلّق حول رقعة مكشوفة من الأرض.

اقترح شي جين: "لنلقِ نظرة".

اندفعا في ملء الحشد فرأيا في وسط الحلقة رجلاً يحمل قرابة دستة من العصي. وقد تبعثرت مجموعة من أكياس المراهم والعلاجات، على كل منها سعر، فوق صينية وضعت على الأرض. كان بائع الأدوية يسترعي انتباه زبائنه بتقديم عرض من اللعب بالسلاح.

عرفه شي جين، كان مساعده الأول في التدريب لي تشونغ، الملقب بالجنرال مصارع النمر. ناداه قائلا: "يا معلم. لم تقع عليك عيناي منذ زمن طويل!".

صاح لي تشونغ: "ماذا تراك تفعل هنا، يا أخي الصغير؟".

قال لو دا: "طالما أنك معلم السيد الصغير شي، فتعال شاركنا الشراب".

- يطيب لي ذلك بعد أن أنتهي من بيع شيء من الأدوية وأجني قليلا من المال.
- من يسمح له الوقت بانتظارك؟ هيا بنا، إذا رغبت في المجيء.
- أنا أعيش عيش الكفاف، أيها الرائد. اذهبا. سألحق بكما في ما بعد. يا أخي الصغير، اذهب أنت أولاً برفقة الرائد.

تفجّر الغضب في فؤاد لو دا. أبعد المشاهدين بخشونة، وصاح: "احمل هذه التفاهات من هنا وإلا عجنتك عجناً".

تبعثر الحشد سريعاً بعدما عرف من يكون. كان لي تشونغ غضبان، غير أنه لم يجرؤ على الاعتراض. فقد كان لو دا في منتهى الوحشية. فقال لي وهو يصطنع ابتسامة: "ما أنفد صبرك!".

جمع أسلحته وأدويته وأعطى صديقه إيّاها ليحفظها له، وانطلق برفقة شي جين والرائد.

اجتازوا شارعاً، وانعطفوا في شارع آخر، وداروا في شارع ثالث إلى أن وصلوا إلى حانة شهيرة عند أول الجسر تديرها عائلة تدعى بان. كان ثمة علم تخفق به الريح على سارية برزت فوق باب الحانة عند أول الجسر كتب عليه ما يفيد أن الشراب يباع نقداً. عرجوا في السلم واختاروا غرفة نظيفة. جلس لو دا في مقعد المضيف، ولي تشونغ قبالته، في حين جلس شي جين جانباً.

حياهم النادل، وله بلو دا معرفة، تحية محترمة واستفسر: كم من الخمرة تطلب، أيها الرائد؟

- نبدأ بأربعة مكاييل.

وضع النادل أطباقاً تناسب المشروب وسأل: "ماذا تريدون أن تأكلوا، يا سيدي؟".

انفجر لو دا غيظا: "أسئلة، أسئلة. أحضر ما هو متوفر لديك، وهات الحساب أدفع لك! هل يجب أن تثرثر على هذا الغرار؟".

نزل النادل إلى الطابق السفلي. ولم يلبث أن رجع أدراجه، وأدفأ الخمرة، وغطى المنضدة بأطباق من اللحم وأصناف الطعام الأخرى.

رشف كل من الرجال الثلاثة عدة أقداح. وتشعب بهم الحديث، وقارنوا بين الأعمال الخارقة في استخدام الأسلحة. وفي اللحظة التي حمي فيها وطيس النقاش تسرب إلى آذانهم صدى بكاء من غرفة مجاورة.

التهب لو دا الغضوب غيظاً على الفور. واندفع النادل وقد ارتسم الرعب في ملامحه يرقى في السلم. فوجد لو دا منفعلاً حدة. قال وقد حنى ظهره: "إذا كان هنالك ما تبغي، يا سيدي، فأصدر إليَّ أمرك أحضره لك".

- من يبغي منك شيئا؟ أحسب أنك تعرفني. ورغم هذا تصل بك الوقاحة أن تترك الناس ينشجون في الغرفة المجاورة ويزعجوننا في أثناء تناولنا الطعام. أنا لا أبخل عليك بالدفع، أليس كذلك؟

- لا تغضب، يا سيدي، أنا لا أجرؤ على أن أسمح لأحد بازعاجك. هذان اللذان يبكيان رجل وابنته ينشدان الأغنيات في الحانات. هما يجهلان أنك تشرب هنا مع صديقيك. ولا يستطيعان حبس نواحهما على مصيرهما المرير.

- ثمة أمور غريبة تجري هناك. نادهما إليَّ.

رجع النادل في غضون لحظات برفقة فتاة في الثامنة عشرة تقريبا، يلحق بها كهل تخطى الخمسين، وكل منهما يحمل مصفاقاً خشبياً. لم تكن الفتاة على شيء من الملاحة، ولكنها تروق في عيني الناظر إليها. مسحت عينيها وانحنت ثلاث مرات. وحيا الكهل بدوره الموجودين إلى منضدة الطعام.

سأل لو دا: "من أين أنتما؟ ولِمَ تبكيان؟".

أجابت الفتاة: "سأروي لك قصتنا، يا سيدي. نحن من العاصمة الشرقية. جئت ووالديّ لزيارة أحد ذوي القربى، وما إن وصلنا حتى علمنا أنه غادر ويتشو إلى العاصمة الجنوبية. ووقعت أمي فريسة المرض في الخان وماتت. فقاسيت ووالدي أياماً عصيبة. رآني المعلم تشنغ، ويدعى سيد الغرب، فأراد اتخاذي محظية له. بعث رجالاً يتملقونني ويتهددونني، ووقع أخيرا عقداً وعد فيه والدي بثلاثة آلاف ربطة نقدية ثمناً لي. كان العقد حقيقياً والوعد زائفاً. فلم تمض ثلاثة شهور حتى أقدمت زوجته، وهي امرأة قاسية، على طردي من البيت. وما هو أكثر من ذلك أن المعلم تشنغ أمر صاحبة الخان أن تطلب إلينا إعادة الآلاف الثلاثة إليه. لم نكن قد قبضنا فلساً واحداً. فكيف نردُّ إليه ماله؟ والدي كهلٍ ضعيف. لم يستطع أن يناقش رجلاً قوياً وثرياً مثل تشنغ. لم نعرف ماذا نفعل. كان والدي قد علّمني بعض الأغنيات الشعبية وأنا صغيرة، فشرعنا نقوم بجولات على الحانات ننشد الأغاني. وأعطينا تشنغ قليلاً من النقود كل يوم، وصرنا ندخر مبلغاً قليلاً لقاء نفقات رحلتنا كيما نتمكن من العودة إلى بيتنا. وحدث أن الحانات قلّت أعمالها في الأيام القليلة الأخيرة، فعجزنا عن التسديد. ونحن خائفان من أن يجيء تشنغ يطالبنا بالدفع ويشتمنا. أوضاعنا عصيبة، وليس هنالك مكان نلجأ إليه. هذا سبب بكائنا. لم يكن في نيّتنا إزعاجكم، يا سيدي. فنرجو الصفح عنا".

سأل لو دا: "ما اسم عائلتك؟ وفي أي نزل تقيمان؟ وأين يقطن المعلم تشنغ، سيد الغرب؟".

أجاب الكهل: "اسمي جن. وأنا الثاني بين أشقائي. وابنتي تدعى اللوتسة اليشمية. والمعلم تشنغ هو الذي يبيع اللحوم عند طرف جسر تشوانغيوان. ويلقب بسيد الغرب. وأنا وابنتي نعيش في نزل عائلة لو على مسافة قصيرة داخل البوابة الشرقية للبلدة".

قال لو دا في ازدراء: "سحقاً! إذاً، المعلم تشنغ ليس أكثر من تشنغ جزار اللحوم، هذا الوغد القذر الذي يدير دكاناً لبيع اللحوم بتأييد من الجنرال الصغير تشونغ، قائد حاميتنا. وهو يغش ويتنمر على الناس أيضا، أليس كذلك؟".

التفت إلى لي تشونغ وشي جين، وقال: "انتظراني هنا ريثما أضرب ذلك النذل حتى الموت. لن أغيب طويلا".

أمسكا به متوسلين: "أفرغ غضبك، يا أخ. سنبحث هذا الأمر في ما بعد".

واستطاع أن يجعلاه يستكين إلى الهدوء.

خاطب لو دا الأب قائلا: "تعال، أيها الشيخ. سأنفحنَّك بقليل من المال، وفي وسعك في الغداة أن تعود إلى العاصمة الشرقية. ما رأيك؟".

قال الأب والبنت: "إذا كان بمقدورك أن تساعدنا، فأنت تنفحنا بهبة جديدة من الحياة. ولكننا نخاف ألا يسمح صاحب النزل برحيلنا. أمره المعلم تشنغ أن يجمع ما نحصل عليه من مال".

قال لو دا: "لا تقلقا من ذلك. سأتولى صاحب النزل برعايتي".

أخرج خمس أوقيات من الفضة وضعها على المنضدة. وخاطب شي جين قائلا: "هذا كل ما حملت معي هذا النهار. إذا كنت تحمل شيئاً من الفضة فأقرضني إيّاه، وسأعيده إليك غداً".

- لا يشغلنَّك هذا الموضوع، يا أخي. فلا حاجة أن تعيده إليَّ.

أخرج شي جين قضيباً من الفضة يزن عشر أوقيات من حزمته، ووضعه إلى جانب فضة لو دا.

تطلع الرائد إلى لي تشونغ، قائلا: "أقرضني شيئاً من المال".

تضايق لو دا من المبلغ الضئيل الذي قدّمه لي تشونغ، فشخر قائلا:

- أنت كبير القلب، أليس كذلك؟

وناول الخمس عشرة أوقية إلى الرجل المكتهل: "سيغطي هذا المبلغ نفقات رحلتكما، أنت وابنتك. عودا إلى النزل واجمعا حاجياتكما. وغدا عند الفجر أحضر لوداعكما. وليحاول صاحب النزل منعكما من الرحيل!".

شكره العجوز وابنته، وانصرفا. فأعاد لو دا أوقيتي الفضة إلى لي تشونغ.

بعدما اغتبق الرجال الثلاثة مكيالين آخرين من الخمرة نزلوا على السلّم. صاح لو دا: "سأدفع لك غداً، أيها المضيف".

فقال صاحب الخان: "لا تبال. في وسعك أن تشرب هنا على الحساب حينما تشاء، يا سيدي. خوفنا الوحيد هو عدم حضورك".

غادر الثلاثة حانة عائلة بان. وافترقوا على الدرب. رجع شي جين ولي تشونغ إلى نزليهما.

قفل لو دا إلى جناحه قرب الحامية، واندسَّ في فراشه غضبان دون أن يتعشى. ولم يجرؤ المالك أن يستفسره عن سبب نرفزته.

رجع الشيخ إلى نزله وهو يحمل الخمس عشرة أوقية من الفضة. أمَّن على ابنته في النزل، وذهب إلى بقعة نائية خارج المدينة واستأجر عربة. ومن بعد رجع أدراجه إلى النزل، وحزم متاعه ومتاع ابنته، ودفع الأجرة المترتبة عليه، فضلا عن ثمن الوقود وفواتير الأرز، وقعدا بعد ذلك يترقبان طلوع النهار.

مر الليل في هدوء لم يعكر صفوه شيء. وهبَّ الأب وابنته من نومهما من طلة الفجر، وأشعلا ناراً وطبخا فطوراً. وحين انتهيا من تناول الطعام جمعا أدواتهما. كانت السماء تتوشح بالضياء حين دلف لو دا إلى النزل، وصاح: "يا صبي! أين غرفة الشيخ جن؟".

صاح الخادم: "أيها العم جن، الرائد لو دا هنا يريد رؤيتك".

فتح الشيخ باب غرفته قائلا: "آه، أيها الرائد، رجائي أن تدخل وتستريح قليلا".

أجاب لو دا: "أستريح، لا! إذا كنتما ذاهبين فاذهبا. ماذا تنتظران؟".

استدعى الشيخ ابنته ورفع عصا التحميل على كتفيه. شكر لو دا واتجه صوب باب النزل.

فأوقفه الخادم: "إلى أين أنت ذاهب، أيها العم جن؟".
استوضحه لو دا: "أيدين لك بشيء من الأجور؟".
- سددّ ما عليه البارحة. لكن السيد تشنغ أمرني أن أجمع النقود التي أنفقها على ابنة جن.
- سأعيد نقود ذلك الجزار بنفسي. دع الشيخ يرحل.
رفض الخادم ذلك. فصفعه لو دا على وجهه صفعة أنفرت الدم من فمه. وأسقطت اللكمة التي أعقبتها سنّين من أسنانه الأمامية. زحف الخادم على أربعته، وهرول إلى داخل النزل واختبأ هناك. ولم يجرؤ الفندقي على التدخل في الموضوع.
ارتحل جن وابنته عن النزل سريعاً، وانطلقا في العربة التي استأجرها الشيخ في النهار السابق.
جلس لو دا، وقد خشي أن يحاول الخادم منعهما من الرحيل، على مقعد صغير لا ظهر له في النزل، وبقي هناك طوال أربع ساعات، وحين أيقن أن الشيخ اجتاز مسافة طويلة نهض وغادر النزل، واتجه من فوره إلى جسر تشوانغيوان.
هنالك كان تشنغ يملك غرفتين اتخذ منهما دكاناً لبيع اللحوم فضلاً عن دكتين يفرم عليهما اللحم. وقد جلس تشنغ خلف نضد بجانب الباب يراقب مستخدميه العشرة يقطعون اللحم ويبيعونه.
اقترب لو دا من الباب، وهتف منادياً: "أيها الجزار تشنغ!".
عرفه تشنغ، فخرج يسرع من وراء النضد، وحيَّاه في احترام:
- أيها الرائد، خطوة مباركة.
وأمر أحد خدمه أن يحضر مقعداً: "أرجوك أن تجلس، يا سيدي".
جلس لو دا وقال: "أمرني آمر الحامية أن أشتري عشرة كاتيات من اللحم الصافي المفروم جيداً، لاستخدامه في حشو الطعام. وينبغي ألا تكون فيه ذرة واحدة من الدهن".
هتف تشينغ: "حالاً".
والتفت إلى مساعديه قائلا: "اختاروا ضلعاً جيداً، واقطعوا منه عشر كاتيات".
قال لو دا: "لا أريد أن يلمس أولئك البلهاء اللحم. قم بذلك بنفسك".
قال تشنغ: "من دون ريب. يسرني ذلك".
وانتقى شريحة تزن عشرة كاتيات من الهبر وجعل يفرمها.
جاء خادم النزل، وقد عصب رأسه بمنديل أبيض، ينبئ تشنغ بخبر الشيخ جن. وما إن وقعت عيناه على لو دا جالساً عند الباب، حتى تهيّب الاقتراب منه. وقف تحت إفريز البيت يراقب الأمور في حذر من مسافة كافية.
عمد تشنغ بعد ما بقي ساعة يفرم اللحم إلى لفه في ورقة من أوراق اللوتس. واستفسر قائلا: "هل أوصله بنفسي، يا سيدي؟".
- توصله؟ لا! فيم العجلة؟ اقطع لي الآن عشرة كاتيات من اللحم المدهن. ينبغي ألا تخالطه ذرة واحدة من الهبر. وهذا اللحم سيستخدم في حشو الطعام.
- اللحم الخالي من الدهن يمكن استخدامه في الزلابية، لكن ما فائدة اللحم المدهن؟

حملق لو دا فيه مغضباً: "حين يصدر الآمر أمراً، فمن ترى يناقشه فيه؟".

- إذا كان في مقدورك استخدام هذا اللون من اللحم، فلسوف أفرمه لك.

واختار تشنغ شريحة من عشرة كاتيات من اللحم المدهن، وبدأ يفرمها. وحين لفها في ورقة اللوتس كان الصباح قد ولى وحان أوان الغداء.

لم توات الجرأة خادم النزل للاقتراب. كما أن الزبائن الآخرين تهيَّبوا الدنو من الدكان.

سأل تشنغ: "هل أوصل هذا اللحم إلى آمر الحامية نيابة عنك، يا سيدي؟".

- أريد الآن عشرة كاتيات من الغضروف، تفرم بصورة جيدة، ويمكن استخدامها أيضا في حشو الطعام، ولا أريد أن أرى فيها شيئاً من اللحم.

ضحك تشنغ في خراقة: "أتسخر بي؟".

وثب لو دا على قدميه، وقد حمل صرة من اللحم في كل يد، وجأر في وجه اللحام: "هذا ما أفعله حقاً، أسخر بك".

وأطاح بمحتوى الصرتين في وجه تشنغ.

أثارت قطع اللحم المفروم المتناثرة عاصفة من الغضب في صدر اللحام. واندفع الغضب من أسفل قدميه حتى جبهته. وومض في القلب لهيب لا جماح له. فاختطف سكيناً ضخمة عن نضد اللحم، ووثب هابطاً عن درج الدكان. وكان لو دا ينتظره في وسط الشارع.

لم يجسر أحد من موظفي الدكاكين المجاورة، وعددهم قرابة دستة، على التدخل. وقف المارة عن جانبي الشارع وقد أخذهم الجمود. وصعق خادم النزل فما نطق بحرف.

قفز تشنغ والسكين في يده اليمنى ناحية لو دا ماداً يده اليسرى. فقبض لو دا عليها، وخطا متقدماً، وقذف باللحام على الأرض وجعله ينبطح برفسة سريعة أصابه بها في فخذه. وخطا خطوة أخرى ووضع قدمه على صدر تشنغ. ورفع قبضة أشبه ببرميل صغير من براميل الخلّ، ورعد: "كنت مدرباً جوالاً للسلاح في خمسة أقاليم عسكرية غربية تحت إمرة الجنرال العجوز تشونغ. وقد يطلق الناس عليّ لقب سيد الغرب حقاً. أما أنت فلست أكثر من جزار لشرائح اللحم، وخسيس دنيء. فمن أين خلعت على نفسك مثل هذا اللقب؟ ومن وهبك هذا الحقّ في ملاحقة وخداع ابنة جن اللوتسة اليشمية؟".

انهال بضربة على أنف تشنغ أمالته جانباً وجعلت الدماء تنبثق غزيرة مثل الصلصة في دكان للتوابل؛ مالحة، وحامضة، ولاذعة. حاول تشنغ جاهداً أن ينهض على قدميه. وسقطت السكين من يده. صاح: "ضربة رائعة".

قال الرائد: "يا سارق الأمهات، كيف تجرؤ على الرد عليَّ؟".

لكم اللحام على حاجبه، فانشدخ الجفن وكادت العين أن تبرز ناتئة. وتدفق الدم، أحمر وأسود وأرجواني اللون، أشبه بعيّنات من القماش في مخزن تاجر للألبسة.

كان المشاهدون جميعاً خائفين من لو دا. فمنعتهم الرهبة من الاقتراب.

وتوسل تشنغ، وقد حاقت به الهزيمة، أن يبقى على قيد الحياة.

أوضح الرائد معنفاً: "أيها الوغد الحقير! لو أبديتَ شيئاً من ضروب الشجاعة لكنت قد أخليت سبيلك. وطالما أنك مخلوع الفؤاد، فأنا لن أفعل ذلك".

وأهوى بضربة جبارة على صدغ اللحام، فرنّ رأس تشنغ رنين الأجراس والنواقيس والصنوج في قداس احتفالي كبير. واستلقى اللحام على الأرض بلا حراك، تتلاحق الأنفاس خارجة من فمه من دون أن يستنشق شيئاً من الهواء. وهمدت حركته.

تظاهر لو دا بالسخط: "تلعب لعبة الموت، أليس كذلك؟ سأنزلنَّ بك مزيداً من الضرب!".

لحظ أن وجه تشنغ تبدّل لونه. فهمس في سره: "شئت أن أضرب هذا الوغد لا أكثر. من كان يخطر له في بال أن ثلاث ضربات تقتله؟ لا أشكّ في أنهم سيقبضون عليَّ ويحاكمونني. وليس هنالك من يوافيني بالطعام إلى السجن. يحسن أن أهرب من هنا".

نهض وخطا مبتعداً وهو يقف بين فينة وأخرى ويلقي نظرة إلى الوراء، وهزّ إصبعه ناحية جثمان تشنغ وصاح:

- استمرّ في ادعائك الموت. سأسوينّ الأمور معك في ما بعد.

ما واتت الجرأة أحداً من مساعدي اللحام أو الموظفين في المخازن الأخرى للقبض عليه.

عجل لو دا في العودة إلى جناحه وحزم أمتعته. أخذ بعض ثياب السفر وقليلاً من الفضة. وخلّف ثيابه القديمة وحاجياته الثقيلة. واتخذ من عصا سلاحاً، ومرق من البوابة الجنوبية مثل هبة من دخان.

حاولت أسرة تشنغ وخادم النزل عبثا رده إلى الحياة، فما أثمرت جهودهم رغم طولها. لقد مات. ذهبت زوجته وجيرانه إلى الوالي وقدموا اتهاماً بالقتل. واستدعيت المحكمة للانعقاد، واتخذ الوالي مجلسه وقرأ مذكرة الاتهام.

همس الوالي في سره: "إن لو دا رائد الحامية".

وبدلاً من أن يصدر أمراً باعتقاله، عمد إلى ركوب محفته. وذهب إلى مركز قيادته في الحامية. نزل عن كرسيه وأمر الجندي الواقف عند الباب أن يعلن عن قدومه. وأسرع في دخول الردهة الرئيسة حيث استقبله القائد. وتبادل الرجلان التحية.

استوضح القائد: "أية ريح حملتك إلينا؟".

- جئت أعلم سعادتكم أن الرائد لو دا أقدم، من دون سبب، على ضرب لحام يدعى تشنغ في الشارع فأزهق روحه. ولم أعمد إلى الأمر بالقبض عليه قبل إعلام سعادتكم أولاً.

أجفل القائد، وخاطب نفسه قائلا: "هذا لو دا عسكري داهية. لكنه فظ خشن الطباع. ارتكب اليوم جريمة قتل. فكيف أحميه من هذه الفعلة؟ يجب أن آمر بالقبض عليه واستجوابه". والتفت إلى الوالي قائلا: "كان لو دا في الأصل ضابطاً لوالدي، الجنرال العجوز. لم يكن لديّ ضابط معاون، فأرسلوه إلى هنا برتبة رائد. فإذا كان قد ارتكب جريمة قتل ففي مستطاعك القبض عليه واستجوابه وفق ما يقضي به القانون. وإذا حصلت منه على اعتراف وثبتت التهمة، فعليك أن تنبئ والدي قبل إصدار حكمك. وإلا ارتبكت الأمور كثيراً إذا ما خطر لوالدي، في قابل الأيام، أن يطلب استرداده".

فوعد الوالي قائلا: "سأنهض بهذا العبء وأرسل تقريراً رسميا إلى الجنرال العجوز قبل أن أصدر حكما".

ودع القائد، وانصرف من قيادة مركز الحامية، وركب محفته وقفل إلى الولاية. هنالك عقد محكمة وأصدر أمرا إلى مفتش الشرطة باعتقال لو دا. فانطلق الضابط برفقة عشرين رجلاً، وأخذ سمته من فوره إلى منزل لو دا.

عالنه مالك الدار قائلا: "خرج منذ قليل يحمل بعض الصرر الصغيرة وعصاً. خطر لي أن الرائد ذاهب في مهمة رسمية، فما سألته".

أمر مفتش الشرطة أن تفتح غرفة لو دا ويجري تفتيشها، فلم يعثروا فيها على أكثر من بعض الثياب القديمة وأغطية السرير. أخذ الضابط والرجال المالك معهم، وفتشوا البلدة من جنوبها إلى شمالها. لم يكن هنالك أثر للو دا. رجع مفتش الشرطة إلى الوالي برفقة المالك واثنين من الجوار رهن التوقيف. وقدّم تقريره حول هذا الموضوع: "هرب الرائد لو دا خوفاً من العقاب، وليس هناك من يعرف إلى أين. اعتقلت جاريه هذين ومالك الدار".

أمر الوالي بحبسهم، مثلما أمر باستدعاء عائلة تشنغ وجيرانه القريبين. وقام بمعونة الخبراء القضائيين والموظفين المحليين وقائد السجن بالتحري الدقيق عن الضحية. ووضعت عائلة اللحام جثمانه في نعش وحفظته في الدير مؤقتاً.

جمعت الوثائق الضرورية في ملف، وأمر الوالي رجال شرطته بالقبض على لو دا في فترة زمنية محدودة تحت طائلة إنزال عقوبة بهم. وسمح للمشتكي بالعودة إلى البيت بعد تأدية كفالة. وتعرّض الجيران القريبون الذين شاهدوا الجريمة لعقوبة الضرب لفشلهم في إنقاذ تشنغ. ولم توجه أية تهمة ضد المالك أو جاري لو دا. وعُلق في كل مكان إعلان عاجل يعرض جائزة قدرها ألف ربطة نقدية لمن يقبض على لو دا، وذكر في الإعلان عمره ومكان ولادته وأوصافه. وأطلق سراح جميع أصحاب العلاقة بهذا الموضوع، وطلب إليهم الانتظار حتى تأتيهم مذكرة بهذا الخصوص. وأعلنت عائلة تشنغ الحداد. ولن نزيد شيئاً على هذه الحادثة.

لنتحدث بالأحرى عن لو دا: اندفع متهوراً بعيد خروجه من ويتشو، مشرقاً ومغرباً، واجتاز عدة مدن، وغدت حاله كمن:

أي طعامٍ يسدُّ الجوع إن جعتُ
وأي ثوبٍ يردّ البرد في الليل
وكل درب تنجيني إذا خفتُ
وكل أنثى، إذا افتقرتُ، كالأهل
يتراكض هنا وهنالك خائفاً فزعاً لا يعرف إلى أين يسير.

بعيد أيام من التجوال وصل إلى يانمين، حاضرة إقليم في ولاية دايتشو. كانت مدينة تغصّ بالصخب وتعجّ بالناس والأسواق المزدهرة. وكانت العربات والخيول تملأ الشوارع المزدحمة بمخازن تمارس شتى أنواع التجارة. وعلى الرغم من أنها لم تكن أكثر من حاضرة إقليم، لكنها كانت

أغنى كثيرا من عاصمة الولاية.

لمح في زاوية أحد الشوارع جمهرة من الناس تراصت أمام أحد الإعلانات. كان أحد الأشخاص يقرأه بصوت عال. ولما كان يجهل القراءة والكتابة فقد اندفع قدماً مرهفاً سمعه. وإليكم ما سمع:

بأمر من قائد تاييوان العسكري ينشر هذا الإقليم الملحوظة التالية من ويتشو: مطلوب القبض على قاتل اللحام تشنغ. الاسم: لو دا، الرائد السابق في آمرية سجن ويتشو. وكل من يخبئه أو يمنحه طعاماً أو مأوى سيتعرض للعقوبة ذاتها. وكل من يلقي القبض عليه أو يحضره إلينا أو يقدم أية معلومات تؤدي إلى اعتقاله يمنح مكافأة نقدية قدرها ألف ربطة نقدية...

وبينا لو دا يقف مرهفاً أذنيه أحاطه أحدهم بذراعيه من الخلف، وصاح: "ماذا تفعل هنا، أيها الأخ تشانغ؟".

وشدّ لو دا مبتعداً به عن زاوية الشارع.

لو لم يلمحه هذا الرجل ويشده مبتعداً به، فما كان للو دا أن يحلق شعره ولحيته، وأن يبدل الاسم الذي نعته بالمجرم، وأن يحطم الأوثان في المعبد.

ونتيجة لذلك فإن هراوته البوذية شقت طريقاً خطرة، وسكين رهبته ذبحت رجالاً فاسقين.

فمن تراه كان، في آخر المطاف، ذلك الذي أحاط لو دا بساعديه؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الرابع

الحصيف لو يَدِبُّ الاضطراب في جبل ووتاي؛
والمحترم تشاو يصلح معبد وينشو

التفت لو دا يستطلع هوية الرجلِ الذي شدّه بعيداً. فوجد أنه الشيخ جن من حانة ويتشو، وهو ذلك الذي سبق أن أنقذه. لم يكفّ الشيخ عن جذبه مبتعداً به إلى أن بلغا بقعة معزولة. وتكلم عندها قائلا: "ما أشد تهورك، أنتَ يا من إليَّ أحسنتَ! فذلك الإعلان يعرض ألف ربطة نقدية للقبض عليك. فكيف تقف هنالك تحدّق النظر فيه؟ لو لم أجذبك مبتعداً بك لكانت الشرطة تمسك بك. إن عمرك وأوصافك ومكان ولادتك كلها مذكورة فيه".

- أصدقك القول، حين ذهبت إلى أول جسر تشوانغيوان ذلك النهار لمقابلة اللحام تشنغ بخصوص قضيتك قتلت ذلك الجلف بثلاث ضربات من قبضة يدي، واضطررت إلى الفرار. وظللت هائماً على وجهي حوالى أربعين أو خمسين يوما حتى الآن، وشاءت الظروف أن تطوّح الأقدار بي إلى هذه المدينة. حسبت أنكما في سبيلكما إلى العاصمة الشرقية. ماذا تراك تفعل هنا؟

- بعدما أنقذت حياتي، يا من أحسنت إليَّ، عثرت على عربة. كنت أنوي حقاً العودة إلى العاصمة الشرقية، ولكنني خفت أن يدركني ذلك الوغد، وألا تكون أنت هنالك فتنقذني منه. وهكذا بدلت رأيي واتجهت شمالاً. على الطريق التقيت جاراً قديماً من العاصمة كان قادماً إلى هنا في شأن له. فنقلني وابنتي معه. كان طيباً، فوجد لها زوجا. هي الآن زوجة رجل ثري يدعى المحترم تشاو. وقد أمّن لها ذلك المحترم بيتاً. بفضلك، أيها المحسن إليَّ، نملك الآونة ما يكفينا من طعام وكساء. ما أكثر ما تحدثت ابنتي مع ذلك المحترم، عن لطفك ودماثتك. هو مغرم بالمثاقفة كثيرا. فألحف معبراً عن رغبته في لقائك، لكن الفرصة لم تسنح للقاء من قبل. ينبغي أن تصحبني وتقيم لدينا عدة أيام. وفي مقدورنا أن نتحدث عما ينبغي أن تكون عليه خطوتنا المقبلة.

استمر الحديث بين لو دا والشيخ جن أقلّ من نصف لي حين وصلا إلى باب أحد البيوت.

دفع الشيخ جانباً الستارة المصنوعة من الخيزران وصاح منادياً: "يا ابنتي، المحسن إلينا موجود معي هنا".

برزت الفتاة وقد تبرجت وخلعت على جسدها رداء يلفت الأنظار. وتوسلت إلى لو دا أن يتخذ مجلسه في وسط الغرفة. ثم سجدت أمامه ست مرات كمن يشعل شموعاً نذرها للآلهة. وقالت: "لو لم تنقذنا، أيها المحسن، لما حصلنا على ما نملكه اليوم".

دعته إلى قاعة الاستقبال في الطابق الثاني.

قال لو دا: "هوّني عليك. ينبغي أن أرحل".

قال الشيخ: "طالما أنك هنا، أيها المحسن إلينا، فلا يمكن أن نأذن لك في الرحيل".

أخذ عصا لو دا وما يحمله من صرر، ودفعه على السلم. والتفت إلى ابنته قائلا: "لا تتركيه وحيداً. سأتدبر أمر الطعام".

قال لو دا: "هوّن على نفسك التعب. يكفيني ما يتيسر لديكما".

قال الشيخ: "لو وهبت لك حياتي ما استطعت أن أردّ جميلك عليَّ. شيء من طعام بسيط لا يستحق أن نأتي له على ذكر".

بقيت الفتاة برفقة لو دا في حين هبط الشيخ السلم، وبعث الصبي الذي استأجراه مؤخراً ينبئ الخادمة أن تشعل النار في المطهى. ومن بعد خرج مع الصبي وابتاعا سمكاً طازجاً، ودجاجة طرية، وإوزة، وسمكة مخللة، وفواكه طازجة. رجعا إلى البيت بالمشتريات، وفتح الشيخ حقاً من الخمرة، وهيأ عدة أطباق، وحملها إلى الطابق الثاني. ووضعت على المنضدة ثلاث كؤوس للخمرة، وثلاثة أزواج من عيدان الطعام. وحين وضع الطعام والفاكهة دلفت الخادمة وهي تحمل طاساً فضية للخمور أدفأت ما كان فيها.

راح الأب وابنته يملآن كأس لو دا بالتناوب. ثم تهاوى الشيخ جن على ركبتيه ساجداً. قال لو دا: "أرجوك، يا شيخي العجوز، ألا تفعل هذا. فأنت تربكني كثيراً".

قال الشيخ: "حين وصلنا إلى هنا، قبل فترة قصيرة من الزمن، دوّنت اسمك علىَ قصاصة من ورق أحمر ألصقتها على منضدة خشبية. وجعلنا نحرق عوداً من البخور أمامها كل صباح ومساء، وأسجد وابنتي في حضرتها. وأنت الآونة هنا معنا، فلم لا نسجد لك شخصياً!".

قال لو دا: "لقد مسّ إخلاصكما شغاف قلبي".

ظلّ الثلاثة يشربون حتى انغداف الليل. وتناهت إلى أسماعهم على حين بغته ضجة تدفّ من الشارع. فتح لو دا النافذة وألقى بصره من خلالها. كان هنالك حوالى عشرين أو ثلاثين رجلاً مسلحين جميعا بالعصي تجمهروا أمام البيت. وكانوا يصيحون: "أنزلوه إلى هنا".

صاح رجل على صهوة جواد: "لا تتركوا ذلك الوغد يفلت منكم!".

عرف لو دا أن الخطر أحدق به. اختطف مقعداً صغيرا وشرع يهبط السلّم.

لوّح الشيخ جن بذراعيه وسبقه على السلم، قائلا: "لا يتحركنَّ أحد منكما!".

ركض إلى الرجل الممتطي صهوة الحصان، وهمس في أذنه بضع كلمات. فضحك الرجل، وأمر رجاله أن يتفرقوا، وترجّل عن جواده بعد أن تفرق الرجال، ودلف إلى البيت وطلب الشيخ من لو دا أن يأتي إليهما. انحنى ذلك الرجل فيما كان لو دا يهبط على السلّم.

- "أن تلتقي رجلاً له شهرته أفضل من أن تسمع باسمه". أرجوك أن تقبل ولائي، أيها الرائد الفاضل.

التفت لو دا إلى الشيخ جن مستفسراً: "من يكون هذا السيد الفاضل؟ نحن لا نعرف بعضنا فلم هذا الاحترام الذي يغمرني به؟".

- إنه المحترم تشاو، سيد ابنتي. أخبره أحدهم أن شاباً صحبته إلى البيت ويقيم في الطابق

الثاني منه يتناول الخمرة، فجمع عدداً من خدمه وجاء يبغي قتالاً. وحين أوضحت الأمور له صرفهم جميعا.

قال لو دا: "إذاً، هذا ما جرى. لا تستطيع إلقاء اللوم عليه".

دعا المحترم تشاو لو دا إلى الغرفة العلوية. وجهز الشيخ جن المنضدة وهيأ الطعام والشراب من جديد وقدم المحترم تشاو للو دا كرسي الشرف. فرفض لو دا ذلك: "كيف يمكن أن أقبل بهذا؟".

– هذا دلالة متواضعة على احترامي. فلقد سمعت كثيراً عن بطولة الرائد. وأشكر حظي السعيد الذي أتاح لي فرصة لقائنا هذا النهار!

– على الرغم من أني لست أكثر من امرئ فظ اقترف إثما عظيما أجد أن المحترم لا يوبخني على دناءتي، ويود التعرف إليّ. فإذا كانت هناك وسيلة يمكن أن أؤدي بها أية خدمة، فأرجوك أن تفصح عنها.

أفعمت الغبطة فؤاد المحترم تشاو، فاستفسر عن حقيقة المعركة مع اللحام تشنغ. ثم تشعبت أمور الحديث فتباحثا في موضوع المثاقفة بالسلاح، واسترسلا في الشراب إلى ساعة متأخرة من الليل، وبعدها أوى كل منهم إلى مضجعه.

قال تشاو في صبيحة اليوم التالي:

– أخشى ألا يكون هذا المكان في مأمن من الرقباء. فلم لا تأتي وتقيم في عزبتي فترة من الوقت؟

استعلم لو دا: "وأين هي هذه العزبة؟".

– على مسافة تزيد قليلا عن عشرة ليات من هذا المكان، قريبا من قرية تدعى الكنوز السبعة.

– حسن.

فأرسل المحترم خادما يحضر حصانا للو دا. ورجع بالحصان قبيل الظهيرة. وأمر المحترم تشاو خدمه أن يحضروا متاع لو دا، وطلب إلى الرائد أن يمتطي صهوة الحصان. ودّع لو دا الشيخ جن وابنته، وانطلق برفقة المحترم.

ركب الاثنان جنبا إلى جنب وهما يتبادلان الحديث في وناء، إلى أن وصلا إلى الكنوز السبعة. ولم يمر زمن طويل حتى بلغا العزبة فترجلا عن مطيتيهما. أمسك المحترم تشاو يد لو دا وقاده إلى الردهة حيث اتخذا مجلسيهما كمضيف وضيف. وأمر المحترم بذبح نعجة وقدمت لهما أقداح الخمور.

في تلك الليلة استسلم لو دا إلى النوم في غرفة الضيوف. وفي اليوم التالي، قدم له الطعام والشراب من جديد.

قال الرائد: "لقد كنت كثير الطيبة معي، أيها المحترم. فكيف يتاح لي أن أجازيك إحساناً بإحسان؟".

فأعلن المحترم مستشهداً بقول مأثور: "الرجال إخوة مهما توزعهم البحار الأربعة. ففيم تأتي

على ذكر مجازاتي إحسانا بإحسان؟".

لكن، لم نستغرق في الحديث عن هذه الأمور التافهة!؟ أقام لو دا في العزبة ستة أو سبعة أيام. وفي أحد الأيام كان يجلس في غرفة المطالعة يتجاذب أطراف الحديث مع المحترم حين انبلج الباب عن الشيخ جن الذي دلف عجلان الخطوات. ألقى حواليه نظرة يستطلع خلاء المكان من رجل غريب، وتوجه بالحديث إلى لو دا قائلا: "لا ينبغي أن تحسبني كثير الحذر، أيها المحسن إليّ، لكن ما حدث هو أنه منذ الليلة التي أثار فيها المحترم وخدمه تلك الضجة في الشارع لأنك كنت تتعاطى الشراب في الطابق الثاني من البيت، والناس عرضة للوساوس والشكوك. وقد انتشر نبأ يقول إنك ههنا مقيم. والبارحة جعل ثلاثة من رجال الشرطة يطرحون الأسئلة على الجيران. وينتابي القلق من أنهم قد يأتون إلى هنا للقبض عليك. ويفزعني أن يصيبك مكروه، يا من غمرتني بإحسانك".

قال لو دا: "في هذه الحال يحسن أن أشد رحالي".

وقال المحترم: "قد تسوء الأمور إذا أبقيتك هنا، أيها الرائد. وإن لم أفعل ذلك خسرت ماء وجهي. طرأت لي فكرة. إنها مأمونة ويمكن أن تسبغ عليك حماية كاملة. لكن لعلك راغب عنها".

- أنا إنسان مهدد بعقوبة الموت. وأفعل كل ما ينجيني منها.

- هذا رائع. حيث أِلف بوذا وينشو أن يستغرق بالتأمل على جبل ووتاي، على مبعدة لا تتجاوز ثلاثين ليا من هنا، هنالك دير ترتفع جدرانه. يعيش فيه قرابة سبعمائة من الرهبان. ورئيسه صديقي. وكان أسلافي حماة لذلك الدير أسهموا في الإنفاق عليه. وقد وعدت أن أرعى مترهبنا، وابتعت لذلك شهادة خالية من أي اسم، ولكنني لم أعثر بعد على رجل مناسب. فإذا وافقت على الانضمام إلى سلك البوذيين أيها الرائد، فسأسدد جميع نفقاتك. ألك رغبة في حلق شعرك والصيرورة راهبا؟

أغرق لو دا في التفكير: "كيف أظل بمنجاة من الاعتقال إذا وجب عليّ الانعتاق من هذا المكان في هذا النهار؟ يحسن بي أن أقبل هذا العرض". وقال في صوت مرتفع النبرة: "سأغدو راهباً إذا شملتني برعايتك، أيها المحترم. وأنا أعتمد على فضلك الاعتماد كله".

وهكذا اتُّخذ القرار. وجُهزت في تلك الليلة الثياب والنقود والحرير. وهبّ الجميع من ضجعتهم في بكور اليوم التالي. وانطلق لو دا والمحترم في طريقهما إلى جبل ووتاي، يصحبهما عدد من الخدم يحملون الهدايا والمتاع. ووصلوا إلى سفح الجبل قبيل انتصاف النهار. ورقي المحترم تشاو ولو دا الجبل في محفتين بعد أن أرسلا خادما يعلن عن قدومهما.

حين اقتربا من بوابة الدير وجدا الشماس والمشرف ينتظران للترحيب بهما. خرجا من محفتيهما واستراحا قليلاً في الرواق الصغير ريثما يتم إعلام رئيس الدير. وسرعان ما جاء برفقة مساعده وشيخ الدير. أسرع المحترم تشاو ولو دا قُدُماً وانحنيا. ووضع رئيس الدير راحتيه فوق صدره تحية على الطريقة البوذية، وقال: "جميل منك أن تتجشم عناء هذه السفرة البعيدة، أيها الراعي الجليل".

فأجاب المحترم: "ثمة معضلة صغيرة أود أن ألقي على كاهلك عبأها".

- أرجو أن تدخلا الدير وتصيبا قليلاً من الشاي.

لحق لو دا بالمحترم تشاو إلى الردهة. ودعا رئيس الدير المحترم أن يتخذ مقعد الضيوف مجلسا. جلس لو دا على حشية تقابل رئيس الدير، فمال المحترم وهمس في أذنه: "أنت هنا لتصير راهبا. فكيف تجلس قبالة رئيس الدير؟".

قال لو دا: "لم أكن أعرف ذلك".

وهبّ على قدميه وانتصب واقفا إلى جانب المحترم.

اصطف شيخ الدير، والمتقدم، ومساعد رئيس الدير، والمشرف، والشماس، وراهب الاستقبال، والكاتب في صفين، كل بحسب درجته، في جانبي الردهة الشرقي والغربي.

وترك خدم المحترم تشاو المحفتين في مكان مناسب، وحملوا إلى الردهة عدداً من الصناديق وضعوها أمام رئيس الدير. فاستفسر قائلا: "لماذا حملت إلينا الهدايا مرة أخرى؟ لقد قدمت لنا كثيرا من الهبات".

فأجاب المحترم تشاو: "هذه أشياء صغيرة لا أستأهل عليها جزاء ولا شكورا".

وحمل بعض العلمانيين والمترهبنين تلك الصناديق وخرجوا بها.

نهض المحترم تشاو على قدميه قائلا: "ثمة طلب ألتمسه منك، أيها الرئيس العظيم. كانت تراودني منذ زمن قديم رغبة ملحة في أن أرعى عضوا جديدا في هذا الدير. وعلى الرغم من أني حصلت على شهادة بذلك منذ زمن بعيد، غير أنني حتى هذا اليوم لم أتمكن من تحقيق رغبتي. ابن عمي هذا يدعى لو. وكان في سابق العهد ضابطا عسكريا، ولكنه نتيجة لصعوبات جمة يودُّ أن يطرح عنه القضايا الدنيوية ويصير راهبا. وأرجو من صميم قلبي أن تشملوه، نيافتكم، بالحنان والغفران. وأن تقبلوا به، كرمى لخاطري، في عداد رهبنتكم. وسوف أتولى تسديد جميع النفقات. وأسعد كثيرا إن حظيت رغبتي بقبولكم".

قال رئيس الدير: "هذا من دواعي سرورنا، ويسبغ على الدير تألقا وبريقا. رجائي أن تتناول قليلا من الشاي".

جهز أحد المترهبنين أقداح الشاي ثم نقلها بعد أن فرغ الجميع من الشراب. وتشاور رئيس الدير مع الشيخ والمتقدم بشأن الاحتفال باستقبال لو دا في سلك الرهبنة. وأصدر من بعد أمره إلى المشرف والشماس أن يجهزا طعاما من الخضر والحبوب والفواكه.

خاطب شيخ الدير الرهبان الآخرين في همس سري: "هذا الرجل لا يحمل ملامح الرهبان. انظروا إلى هاتين العينين الناريتين اللتين تطلان من وجهه!".

فالتمسوا من المرحب بالضيوف قائلين: "أخرجهما من هنا قليلا. فإن لنا مع رئيس الدير حديثا".

دعا راهب الاستقبال المحترم تشاو ولو دا إلى الاستراحة قليلا في غرفة الضيوف. فاستجابا للدعوة، واقترب شيخ الدير والآخرون من الرئيس قائلين: "هذا الرجل الجديد له طلعة حيوان متوحش. فإذا قبلناه لا بد أن يوقعنا في مشاكل".

- إنه ابن عم المحترم تشاو، راعينا، فكيف نرفضه؟ احسبوا ارتياباتكم ريثما أنظر في الأمر.

أشعل رئيس الدير عودا من البخور وجلس متصالب الساقين على حشية. استرسل يتمتم تعويذة، واستغرق في التأمل، وأفاق من غشيته حين احترق العود كله.

قال رئيس الدير: "باشروا إجراءات رسامته راهبا. فهذا الرجل يمثل نجما في السماء. قلبه صادق. ورغم أن طلعته وحياته اكتنفتا بالمشاكل، فلسوف يصير من دون ريب نقي السريرة قديسا. وليس بينكم من يصلح نداً له. احفظوا كلماتي هذه. ولا يعارضني في ذلك معارض".

خاطب شيخ الدير الآخرين قائلا: "إن رئيس الدير يسدل على أخطائه سترا. ولكن ينبغي أن ننصاع لإرادته. لا نملك غير أن نقدم النصح. فإن لم يعرنا سمعا، فهذا شأنه وحده".

دعي المحترم تشاو والآخرون إلى تناول طعام الغداء في الدير. وحين انتهى الطعام قدم المشرف قائمة بها ما يحتاج إليه لو دا ليصير راهبا: حذاء خاص، وثياب، وقبعة، ورداء بلا كمين، ووسادة للسجود. فأعطى المحترم مبلغا من الفضة وترجى أن يبتاع الدير الأدوات الضرورية لمراسم الرهبنة.

بعيد يوم أو يومين جُهز كل شيء. اختار رئيس الدير يوما مؤاتيا وساعة ميمونة، وأمر أن تقرع الأجراس والطبول. واحتشد الجميع في قاعة المواعظ الدينية. والتقى قرابة ستمائة من الرهبان في أرديتهم الخاصة وقد ضموا راحات أيديهم احتراما للرئيس الجالس على المنصة، ومن بعد توزعوا في مجموعتين. واقترب المحترم تشاو وهو يحمل هدايا من الفضة وثيابا رائعة وعودا من البخور من المنصة وانحنى إجلالا.

جرى الإعلان عن الغاية من الاحتفال. واقتاد مترهبن لو دا إلى منصة رئيس الدير. وأمره المتقدم أن يخلع قبعته، وأن يقسم شعره إلى تسعة أجزاء ويعقدها ببعضها بعضا. حلقها الحلاق جميعا. واقترب بموساه من لحية لو دا.

هتف الرائد قائلا: "دع لي هذه اللحية على أقل تقدير".

وما استطاع الرهبان أن يحبسوا ضحكاتهم.

قال رئيس الدير في صرامة من حيث جلس على المنصة: "اسمعني. لا تتركنَّ نصلا واحدا من العشب، واجعل جذور الرغبة الستة تتمزق بأكملها".

وترنم مرتلا: "يجب أن يحلق كل شيء كيلا يبرز إلى الوجود من جديد".

ثم أصدر أمره قائلا: "احلقها".

أنهى الحلاق عمله سريعا. وقدم شيخ الدير الشهادة إلى الرئيس، وسأله أن يختار الاسم الذي سيعرف لو دا به في الرهبنة البوذية.

وترنم الرئيس قائلا: "شرارة واحدة من الروح أثمن من ألف قطعة من الذهب. طريقتنا البوذية عظيمة وفسيحة الجنبات. فليطلق عليه اسم الحصيف".

ملأ الكاتب الشهادة وناولها إلى الحصيف لو. وبناء على أمر من الرئيس أعطوه عباءة الراهب وطلبوا إليه أن يرتديها. ومن بعد اقتادوه إلى المنصة. فوضع الرئيس يده على رأس لو وتلا عليه

قواعد السلوك:

- اجعل ملجأك بوذا، والقانون، والنظام الرهباني. هذه هي الملاجئ الثلاثة. لا تقتل، لا تسرق، لا تزنِ، لا تقرب الخمرة أو تكذب. هذه هي الوصايا الخمس.

لم يكن لو دا يعرف أن عليه أن يجيب "سأفعل" بالنسبة إلى الوصايا الثلاث الأولى، و"لن أفعل" بالنسبة إلى الخمس الأخيرة، فقال: "سأذكر ذلك".

وضحك الجميع.

دعا المحترم تشاو الحضور جميعا إلى الاجتماع حيث أحرق البخور، وأولم وليمة من الخضار والفواكه للآلهة البوذية. وقدم الهدايا إلى كل فرد من أفراد الدير علت رتبته أو انخفضت. وقدم الشماس الحصيف لو إلى مختلف أعضاءِ الدير، ثم اقتاده إلى المبنى الخلفي حيث يتعبد الرهبان. هذا ما وقع في تلك الليلة.

في اليوم التالي عزم المحترم تشاو على الرحيل. ألقى تحية الوداع على رئيس الدير الذي حاول جهده أن يبقيه لديه. وبعد تناول طعام الفطور رافقه جميع الرهبان إلى بوابة الدير. جمع المحترم تشاو راحتيه وقال: "حضرة الرئيس، أيها المعلمون، كونوا رحومين. فابن عمي لو رجل فظ مستقيم. فإذا خمرت عن باله آداب السلوك أو تفوه بما يجرح أو خالف القوانين، فرجائي أن تشملوه بالغفران، كرمى لخاطري أنا".

قال رئيس الدير:

- هوّن عليك، يا محترم. سوف أعلمه شيئا فشيئا كيف يتلو صلواته وأدعيته، وكيف يؤدي واجباته الدينية، وكيف يمارس عبادته.

فوعد المحترم قائلا:

- سوف أعبر لكم عن امتناني في الأيام المقبلة.

ونادى على لو وسار برفقته إلى قرب شجرة صنوبر وخاطبه في همس: "ينبغي أن يتبدل أسلوب حياتك من الآن فصاعدا، يا أخي. اكبح شهوتك في كل شيء، احذر من التعالي مهما كانت الظروف. إن لم تفعل ذلك فقد يصعب علينا أن نلتقي مرة أخرى. اعتنِ بنفسك جيدا. وسأرسل إليك ثيابا دافئة بين حين وحين".

قال لو:

- ليس هناك ما يدعو إلى تحذيري يا أخي. سأحسن التصرف جيدا.

ودّع المحترم رئيس الدير والرهبان الآخرين، وركب محفته وهبط عن الجبل في طريقه إلى داره. ولحق به خدمه يحملون المحفة الأخرى الخاوية والصناديق. ورجع الرئيس والرهبان أدراجهم إلى الدير.

حين آب لو إلى غرفة التعبد طوّح نفسه على السرير واستغرق في النوم. فهزه الرهبان المتعبدون من كل جانب، وأهبوه من غفوته. خاطبوه قائلين: "لا يمكن أن تفعل هذا. غدوت اليوم راهبا، ويفترض فيك أن تتعلم كيف تجلس وتستغرق في العبادة".

قال لو مستفسرا: "ما شأنكم إذا رغبت في النوم؟".
فأعلن الرهبان موضحين: "ذلك فأل شرير".
- ما هذا الحديث عن سمك الأنقليس؟ أحب أن آكل لحم السلحفاة!
- أوه، يا للتهور!
- ليس هناك من تهور في هذا. بطن السلحفاة سمين وطيب المذاق. وهي تفتح الشهية للطعام!
واستسلم الرهبان. وتركوه يخلد إلى النوم.

أرادوا في اليوم التالي أن يشتكوا إلى رئيس الدير. فنصح لهم الشيخ بالعدول عن ذلك. قال: "إن الرئيس يحاول التستر على أخطائه حين يقول إنه سيرقى إلى مرتبة القداسة، وإن أحدا منا لن يكون له ندا. ليس هنالك ما نستطيع أن نأتيه في هذا الخصوص. فاتركوه وشأنه".تراجع الرهبان عن بغيتهم. وراح الحصيف لو يسترخي كل ليلة على سريره وينام فيرتفع له شخير رنان لأن أحدا لم يجرؤ على تأنيبه. وحين يعنّ له أن يريح نفسه فهو يثير ضجة صاخبة عندما ينهض من فراشه، فيبول ويتغوط خلف أحد الجدران فعمّت قذارته جميع الأركان.

رفع مساعد رئيس الدير تقريرا بهذا الخصوص: "لو لا يعرف شيئا من آداب السلوك، وهو لا يشبه في شيء رجلا نفض عن كاهله عبء العالم الدنيوي، فكيف لنا أن نبقي مثل هذا الشاب في الدير؟".

فأجابه الرئيس قائلا: "هراء. لا يغب عن بالك طلب المحسن إلينا. لسوف يتبدل الحصيف بعد فترة من وقت".

ولم يجرؤ أحد على الاعتراض.

وهكذا، بقي الحصيف في الدير على جبل ووتاي. ومرت أربعة أو خمسة شهور من دون أن يفطن إلى ذلك. كان الشتاء في بدايته، فشرع فكره يضطرب بعد أن هجع إلى السكون فترة من الزمن. وألقى ذات صباح مشرق على كتفيه عباءته السوداء، وشد حزامه الأسود الغريب، وارتدى حذاء الرهبنة، وخرج من الدير.

توقف في منتصف طريق الجبل يأخذ قسطا من الراحة في أحد جواسق الحدائق. اقتعد دكة واطئة على طراز "عنق الإوزة"، وهمس في سره شاتما: "في الليالي الغابرة كنت أصيب طعاما جيدا وشرابا طيبا في كل يوم. أما الآونة وقد غدوت راهبا فأنا أرتجف من الجوع. والمحترم تشاو لم يرسل إليّ طعاما منذ زمن بعيد. وفمي مرّ لا طعم فيه. أواه لو أحصل على قليل من الخمور!".

لمح عن بعد رجلا يحمل دلوين معلقين يتدليان من حمالة للكتف، وفي يده مغرفة يصعد في التلة متثاقل الخطوات مترنما بهذه الأغنية.

قدّام التلة بعض رماحْ
وسيوف شاهدها الرعيانْ
ومياه تغمر كل الساح
من نهر فاض على الأكوانْ

راقبه لو وهو يقترب منه. دلف الرجل إلى الجوسق ووضع حمله على الأرض. فسأله: "تحية يا صاحبي. ماذا وضعت في هذين الدلوين؟".

- خمرة لها مذاق طيب.
- بكم تبيع الدلو الواحد؟
- أأنت جادٌّ في حديثك، أيها الراهب، أم أنت هازل؟
- وما يدعوني إلى الهزل؟
- هذه خمرة أنقلها إلى طهاة الدير وبوابيه وحملة محفاته وناظريه وعمال حقوله، وليس إلى أحد سواهم. وقد حذرني رئيس الدير من أني إذا بعت راهبا واحدا فسيسترد مني النقود والبيت الذي أقرضنيه الدير كي أجعله مخمرة. ولا أجرؤ على بيعك شيئا منها.
- أحقاً ترفض؟
- حتى ولو أوردتني موارد الهلاك!
- أنا لا أريد قتلك، وجل ما أبتغيه شراء القليل من خمرتك.

تضايق الرجل مما رأى وسمع. فالتقط حمالته وانطلق في سبيله. واندفع لو من الجوسق وراءه، فقبض على الحمالة بيديه كلتيهما، وضرب الرجل على أربيته. فأطبق هذا على مكان الضربة بيديه وأقعى على الأرض. ولم يستطع أن ينهض من جديد إلا بعد فترة من زمن.

حمل الحصيف لو الدلوين إلى الجوسق، والتقط المغرفة عن الأرض، وأزاح الغطاءين، وجعل يغتبق الشراب. ولم يمض زمن طويل حتى فرغ الدلو مما فيه. قال: "تعال إلى الدير غدا فأنقدك ثمن ما شربت".

استرد الرجل وعيه من الألم الذي خدره. لو أن رئيس الدير اكتشف ما حدث فقد سدت السبل في وجه مورد رزقه. كيف يتمكن من السعي وراء ثمن الشراب الذي نهله لو في الدير؟ كبح جماح غضبه، ووزع ما تبقى من الخمرة في الدلوين معا. ورفع حمله على كتفه، وتناول المغرفة، وهرب نازلا عن الجبل.

قعد لو في الجوسق زمنا مديدا. تسربت الخمرة إلى رأسه. ولم يلبث أن فارق المقصورة، واستظلّ شجرة صنوبر مسترخيا من جديد فترة من الوقت. كانت نشوة الشراب تسري في جسده بأكمله. أخرج ذراعيه من كمي عباءته، ثم ربط الكمين الفارغين حول وسطه. مشى متوقلا في الجبل مؤرجحا ذراعيه، وقد تعرى ظهره الموشوم.

كان بوابو الدير يراقبونه عن بعد. وأسرعوا من خطواتهم لدى اقترابه من البوابة، وسدوا سبيله بعصيهم الخيزرانية، نابحين في وجهه: "يفترض فيك الإخلاص لبوذا. فكيف تحدو بك الجرأة أن تجيء إلى هنا وأنت على هذه الحال من فقدان الوعي؟ لا ريبة أنك أعمى. أفلم تقرأ الإعلان؟ كل راهب يخالف الأنظمة ويتناول الخمرة يجلد أربعين ضربة بالخيزران ويطرد من الدير. وكل بواب يأذن لسكران بالدخول يجلد عشر جلدات. انزل عن الجبل. عجل إن أردت اجتناب الضرب".

الحقيقة أن لو كان راهبا جديدا في المحل الأول، كما أن أخلاقه لم تعرف شيئا من التبدل في

المحل الثاني. هتف، وقد جحظت عيناه: "أيها اللصوص الملاعين! أوتبغون جلدي؟ سأحطمنكم عن بكرة أبيكم!".

ساءت الأمور حقا. انسرق أحد البوابين إلى داخل الدير وأعلم المشرف، في حين جعل الآخر يصدّ الحصيف لو عن الدخول بعصاه، أطاح لو بالعصا جانبا وأهوى على وجهه بصفعة سمع لها رنين، لم يكد الرجل يستعيد وعيه من جرائها حتى أتبعها لو بلكمة طوّحت به على الأرض يئن ويعوي.

قال الحصيف لو: "سأصفح عنك هذه المرة، أيها الوغد اللئيم!".

ودلف إلى الدير مترنحا.

كان المشرف قد استدعى جميع الناظرين والطهاة والبوابين وحملة المحفات؛ قرابة ثلاثين رجلا. تسلحوا بالعصي، وتدفقوا من الرواق الغربي، واندفعوا لملاقاة لو. واتجه الرائد السابق ناحيتهم وهو يطلق زمجرة راعدة. ما كان أحد منهم يعرف أنه ضابط سابق. وثب عليهم بوحشية نشرت الفوضى في صفوفهم، فلجأوا إلى ردهة المحاورات وأغلقوا بابها الشبكي. ورقي الحصيف لو في السلم وأهوى على الباب برفسة واحدة فحطمه.

وأشرع المحاصرون عصيهم واستعدوا للقتال.

أسرع رئيس الدير الذي نقل المشرف إليه الخبر إلى الساحة يرافقه أربعة أو خمسة من مرافقيه ونادى صائحا: "أيها الحصيف، أمنعك من ارتكاب المعصية".

كان لو سكران، ولكنه عرف رئيس الدير. ألقى عصاه من يده وخطا متقدما، وانحنى تحية: "شربت طاسين من الخمرة، ولكنني لم أرتكب ما يثير حفيظة هؤلاء الفتيان. جاءوا وهاجموني".

قال رئيس الدير: "إن كنت تكن لي شيئا من الاحترام فامض إلى جناحك على الفور واستغرق في النوم. سنتحدث في هذا الموضوع غدا".

- احترامي لك وحده يحول بيني وبين جلد هؤلاء الحمير الحقيرين!

أمر رئيس الدير مساعده أن يساعد لو في الوصول إلى قاعة الرهبان. فارتمى على فراشه وغط في النوم، وهو يشخر بصوت عال.

حدقت جماعة من الرهبان برئيس الدير، قائلين: "حذّرناك من هذا. وها أنت ترى بعينيك ما حدث. كيف يتاح لنا أن نبقي مثل هذا القط الوحشي في ديرنا؟ إنه يفسد أسلوبنا النقي في الحياة".

أعلن رئيس الدير: "صحيح أنه على شيء من الجموح. ولكنه سيغدو قديسا في مقتبل الأيام. لا نستطيعنّ الآونة شيئا. ينبغي أن نغفر له في سبيل المحسن إلينا، المحترم تشاو. سألقي عليه عظة جيدة في الغداة، وسينهي ذلك كل شيء".

ضحك الرهبان في برودة وتهامسوا في ما بينهم: "رئيسنا بعيد عن الحصافة".

رجع كل منهم إلى مأواه.

في صباح اليوم التالي أرسل رئيس الدير مساعده إلى جناح الرهبان يستدعي الحصيف لو. كان لا يبرح مستغرقا في النوم. فانتظر المساعد ريثما نهض من فراشه وارتدى مسوحه. ولكن لو اندفع

فجأة خارجاً من الغرفة عاري القدمين. فلحق به المساعد وقد استبدت به الدهشة. فوقع بصره عليه يبول وراء المعبد. فما تمالك نفسه عن الضحك. انتظر قليلا ثم قال: "الرئيس يطلب رؤيتك".

فرافقه لو إلى غرفة الرئيس الديني.

قال رئيس الدير:

- على الرغم من أنك كنت في سابق العهد ضابطا عسكريا، فقد قبلت بك كرمى لإحسان المحترم تشاو. وقد حذّرتك ألا تقتل، وتسرق، وتزني، وتشرب الخمرة، وتكذب. هذه هي الوصايا الخمس التي ينبغي على الرهبان جميعا أن يتقيدوا بها. وقبل كل شيء ينبغي على الراهب ألا يعاقر الخمرة. ولكنك رجعت عشية البارحة سكران وضربت البوابين، وحطمت الباب الشبكي أرجواني اللون، وأنت تصيح وتنبح طوال الوقت. فكيف تراك تتصرف على هذه الصورة المخزية؟

ركع لو أمامه، وقال: "لن أرتكب مثل هذه الأمور مرة أخرى".

واسترسل رئيس الدير قائلا: "أنت الآن راهب. فكيف تخرق نظامنا ضد اغتباق الشراب، وتلقي الاضطراب في وسيلة حياتنا النقية؟ لولا المحسن إلينا المحترم تشاو وما نكنّه له من الاحترام لكنت طردتك من الدير. حذار من أن ترتكب مثل هذه الأمور مرة أخرى".

ضم لو راحيته إلى بعضهما بعضا، وقال مؤكدا في حرارة: "لا أجرؤنّ على ذلك".

أمر رئيس الدير أن يقدم له طعام الفطور، ونصح له بكلمات لطيفة أن يلزم جانب الصواب. وأهدى له عباءة من فاخر القماش وحذاء رهبانيا، وطلب إليه العودة إلى جناحه.

على مدمني الخمرة ألا يكثروا من الشراب. فالمثل القديم يقول: "الخمرة تحفز على العمل، ولكنها قد تدمر كل شيء. فإذا كان الشراب يهرق في حنايا الجبان شجاعة، فماذا يمكن أن يفعل في الشجاع والمتهوّر؟".

طوال ثلاثة أو أربعة شهور لم يجرؤ لو بعيد تلك الثورة السكرى أن يبرح الدير. ولكن الجو كان صافيا ذات يوم، على حين بغتة، وأرسل الدفء في حنايا كل شيء. حدث ذلك في الشهر القمري الثاني. فخرج لو من جناحه وانسرق من بوابة الدير، ووقف يحدق مشدوها في روائع جبل ووتاي. كان النسيم المتدفق من سفح الجبل يردد صدى أصوات رنين معدنية. فآب الحصيف لو إلى جناحه، وحمل قليلا من الفضة دسها في عباءته قريبا من صدره، ثم هبط المنحدر متوانيا.

عبر تحت قوس دوّنت عليها هذه الكلمات: "ووتاي بقعة مباركة". ولمح إلى الأمام منه بلدة هي سوق تعيش فيها ستمائة أو سبعمائة عائلة يباع فيها اللحم، والخضار، والخمرة، والطحين. فهمس في سره: "ماذا تراني أنتظر؟ لو كنت أعرف بوجود مثل هذا المكان ما كنت لأتوانى عن الهبوط إليه وابتياع الخمرة بدلا من أن أعمد إلى اختطاف دلوي ذلك الشاب. لقد كبحت جماح نفسي زمنا مديدا أسأت فيه إليها. لنلقينَّ نظرة على ما يبيعون في هذا المكان!".

سمع الرنين المعدني مرة أخرى.

كان هناك إلى جانب بناء يحمل لوحة كُتب عليها "حانة الأب والابن" دكان حداد. وكان الرنين ينبعث منها، فمشى لو إليها. رأى ثلاثة رجال يضربون الحديد. فتوجه إلى أكبرهم سائلا:

"ألديهم شيء من الفولاذ الجيد، أيها المعلم الحداد؟".

ارتعب الرجل قليلا من مرأى وجه لو بما نبت عليه من شعر خشن جديد جعله كالوحش. توقف عن ضرب الحديد وقال: "أرجو أن تتخذ لنفسك مجلسا، أيها المبجّل. ماذا تريدنا أن نصنع لك؟".

- أحتاج إلى عصا بوذية وسكين مما يحمله الرهبان. ألديكم حديد من صنف ممتاز؟

- من دون ريبة أو شك. كم تريد أن تزن كل من العصا والسكين؟ سوف نصنعهما لك وفق رغبتك.

- العصا يجب أن تزن مائة كاتيا.

وضحك الحداد: "هذا وزن ثقيل. في مقدوري استصناعها لك بهذا الوزن، ولكنك ستعجز عن حملها. إن مطْرد غوان غونغ نفسه لم يكن يزن أكثر من واحد وثمانين كاتيا".

فانفجر الحصيف في نفاد صبر صائحا: "أنا لا أقل عن غوان غونغ في شيء على الإطلاق. وهو لم يكن أكثر من رجل على أية حال".

- لم أقصد سوءا، أيها المبجل. إن خمسة أو أربعين كاتيا وزن ثقيل أيضا.

- تقول إن مطرد غوان غونغ كان يزن واحدا وثمانين كاتيا؟ فاصنع لي عصاً بمثل هذا الوزن إذن.

- ستكون غليظة، أيها المبجل. ويبدو مظهرها قبيحا، ومن الخراقة أن تستعمل وهي بمثل هذا الوزن. اقبل نصيحتي، وأجزني أن أصنع لك عصا بوذية وزنها اثنان وستون كاتيا من معدن صقيل. ستكون ثقيلة جدا، فلا تلمني. أما السكين فكما قلت لا نحتاج بشأنها إلى مواصفات خاصة. سأصنعها من أفضل الفولاذ.

- وما تبغي ثمنا للاثنتين؟

- نحن لن نساوم. تستطيع الحصول عليهما بأرخص الأسعار؛ خمس أوقيات من الفضة.

- اتفقنا. وإذا مهرت في صنعها جزيتك أكثر.

وقبض الحداد الفضة. وقال: "سنشرع في العمل معَ وقتنا".

- أحمل بعض النقود الصغيرة معي. فتعال وشاركني ارتشاف طاس من الخمرة.

- اعذرني، أيها المبجل. ينبغي أن أتابع عملي. وأنا لا أستطيع أن أرافقك.

غادر الحصيف لو دكان الحداد. ولم يكد يخطو ثلاثين خطوة حتى أبصر راية حانة للشراب تتدلى من إفريز أحد المنازل. رفع ستارة الباب، ودلف إلى الحانة، واقتعد كرسيا، وضرب على المنضدة، وصاح: "أحضروا لي خمرة".

جاءه صاحب الحانة قائلا: "أعذرني، أيها المبجل. إن دكاني وأموالها استقرضتها من الدير. وقد وضع رئيس الدير لنا نظاما، نحن أصحاب الحانات. فإذا باع أحدنا لراهب خمرة يسترد منا النقود ويجردنا من امتيازاتنا. فلا تثر الدنيا ضدي".

- كل ما أبغيه هو القليل من الخمرة. ولن أقول إنني اشتريتها من هنا.

- مستحيل. أرجوك أن تطلبها في حانة أخرى. أنا آسف.
هبَّ لو على قدميه:
- إذا وجدت حانة أخرى تخدمني، فإن لدي حديثا معك في ما بعد!
غادر الحانة وسار. وما أسرع أن وقع بصره على راية حانة أخرى تخفق فوق مدخل بناء. دلف إليه، وجلس، ونادى:
- خمرة، أيها المضيف. عجِّل.
استفسر صاحب الحانة:
- كيف تكون على مثل هذا الجهل، أيها المبجل؟ أتصور أنك مطلع على تعليمات رئيس الدير. أتريد خرابي؟
أصرّ الحصيف لو على أن تقدَّم الخمرة له، غير أن صاحب الحانة بقي على صلابته لا يلين. ولم يكن أمام لو من خيار غير الخروج من الحانة. لجأ إلى أربع أو خمس حانات أخرى فرفض أصحابها تلبية طلبه.
همس في نفسه: "إن لم أجد لهذا المأزق مخرجا فلن أحصل على جرعة واحدة من الخمرة". في نهاية ساحة السوق عثر بين أشجار المشمش المزهرة على دار صغيرة علقت عليها حزمة من القش. اقترب منها فوجد أنها دكان صغيرة تبيع الخمور. دلف إليها وجلس إلى جانب النافذة وصاح: "أيها الخمار، هات خمرة لراهب جوّال".
اقترب صاحب الحانة الأخرق وتفحصه مليا: "من أين أنت، أيها المبجل؟".
- أنا راهب جوال مررت من هنا مصادفة. وأريد قليلا من الخمرة.
- إن كنت من دير جبل ووتاي، فأنا غير مأذون أن أبيعك منها.
- أنا لست من هنالك. فلا تسوّف إحضارها.
كانت طلعة لو وأسلوبه غريبين بالنسبة إلى الخمار، فقال:
- كم تريد؟
- لا تلق إلى هذا بالا. أحضرها طافحة في وعائها.
استهلك لو عشر طاسات من الخمرة، وسأل:
- ألديك شيء من اللحم؟ جئني بطبق كبير.
قال الخمار:
- لدي شيء من لحم البقر جهّزته صباحا. ولكنني بعته بأكمله.
استنشق الحصيف لو رائحة لحم مطبوخ. فخرج إلى الباحة حيث وجد كلبا يُغلى في آنية فخارية إلى جانب الجدار، فقال:
- لديك شيء من لحم الكلاب. فلم لا تبيعني منه؟
- حسبت أنك بصفتك راهبا ترفض أن تتذوقه، فما حدثتك عنه.
فأخرج لو قبضة من الفضة أعطاه إيّاها، وقال:

- أحمل وفرة من المال معي. فجئني بنصف الكلب.

اقتطع صاحب الحانة نصف الكلب ووضعه على المنضدة بالإضافة إلى طبق صغير من مرق الثوم. فأطبق لو عليه بكلتا يديه مسرورا. وطلب في الوقت ذاته عشر طاسات من الخمرة. وجد الخمرة لذيذة، فجعل يطلب المزيد. وصعق الخمار، فاستحثه قائلا: "هذا يكفيك، أيها الراهب". حملق لو فيه، هاتفا: "إني أدفع ثمن ما أشرب. فمن طلب إليك أن تدس إصبعك في هذا؟".

- ماذا تبغي مزيدا؟

- جئني ببرميل يطفح.

لم يكن أمام الخمار من خيار. ولم يمض طويل زمن حتى أتى الحصيف لو على البرميل برمته. ووضع رجل الكلب التي لم يأت عليها في عباءته، وقال وهو يهم بالخروج من الحانة: "احتفظ بما بقي لديك من فضة. فإن لي رجعة إليك غدا".

فغر الخمار المرعوب فمه وهو يراقب لو يتجه صوب جبل ووتاي.

في منتصف الطريق جلس لو في الجوسق يستريح وشرعت الخمرة تسري في جوانحه فوثب مناديا: "أنا لم أقم بأية تمرينات جيدة طوال فترة من الزمن. ومفاصلي تتخشب وتصرصر. وأنا في حاجة إلى قليل من الرياضة".

خرج من الجوسق. ودفع نهاية كل من كميه في الأخرى، وأرجح ذراعيه بقسوة إلى الأعلى والأسفل، إلى اليسار وإلى اليمين، بقوة متزايدة، فاصطدمت إحدى ذراعيه بعمود الجوسق مصادفة. وارتفعت ضجة صاخبة حين هوى العمود. وانهار نصف الجوسق كله.

سمع اثنان من البوابين الضجة فصعدا إلى مكان مرتفع يستقصيان الأمر.

فلمحا الحصيف لو يرقى في الجبل. هتفا صارخين:

- أفّ! ذلك الحيوان قد سكر مرة أخرى.

وأغلقا البوابة وأترساها. وجعلا يتلصصان النظر من شق فيها فرأيا لو يقترب منهما، وحين لمح البوابة مقفلة هبّ يضرب عليها بقبضتيه. ولكن البوابين فزعا من السماح له بالدخول.

انهال لو على البوابة ضربا فترة من الزمن، ولكن من دون جدوى. ولمح على حين فجأة وثنا بوذيا حارسا عند طرف البوابة الأيسر. فصاح: "أنت، أيها الفتى الكبير الذي لا نفع فيك. أنت ترفع قبضتك محاولا إلقاء الذعر في فؤادي بدلا من أن تساعدني في قرع البوابة! أنا لا أخافك!".

وثب على قاعدة الوثن وخلع الدرابزون في يسر فكأنه يقتلع كراثة. وأمسك بعمود حديدي وانهال به على ساق التمثال، فأطاح رذاذا من طلاء الذهب والجص.

صاح البوابان: "أف!".

وركضا ينقلان الخبر إلى رئيس الدير.

توقف لو ثم استدار فلمح الوثن الآخر عن يمين البوابة. فصرخ: "كيف تجرؤ على فتح فمك الكبير والهزء بي".

ووثب على قاعدته وضرب ساق التمثال ضربتين قاسيتين. فتهاوى التمثال على الأرض محطما

مصديا صوتا راعدا.

ضحك لو ضحكة مدوية، وهو يحمل القضيب المكسور في يده.

حين نقل البوابان الخبر إلى رئيس الدير اكتفى بالقول: "لا تثيرا غضبه. ارجعا إلى بوابتكما".

في تلك اللحظة دلف إلى الردهة شيخ الدير، والمشرف، والشماس، ورهبان مسؤولون آخرون. قالوا: "ذلك القط الوحشي ممتلئ سكرا، وقد حطم الجوسق القائم في وسط المنحدر، كما حطم تمثالي الحارسين عند البوابة. فكيف يمكن أن نطيق عليه صبرا؟".

فأجاب رئيس الدير: "معروف منذ العصور القديمة أن الملك نفسه ينأى عن السكران، الأمر الذي يحدو بي كثيرا إلى الابتعاد عنه. إذا كان قد حطم التمثالين فسنطلب إلى المحترم تشاو أن يصنع لنا بديلا عنهما. وتشاو قادر على أن يصلح الجوسق أيضا. دعوا الحصيف يفعل ما يطيب له".

احتج الرهبان قائلين: "التمثالان سيدا البوابة. ولا تستطيع أن تستبدلهما بمثل هذه السهولة".

فأجاب الرئيس: "لا تلقوا بالا إلى تمثالي البوابة. لو كانا تمثالين من تماثيل بوذا الرئيسة تعرضا للتحطيم، فما كان في مقدورنا أن نفعل شيئا بهذا الخصوص. ابتعدوا عن طريقه. أفلم تروا مبلغ وحشيته في ذلك النهار؟".

جعل الرهبان يتمتمون، وهم يغادرون القاعة: "يا لهذا الرئيس الأخرق!".

وأمروا حارسي البوابة قائلين: "لا تفتحا تلك البوابة. قفا في الداخل وأصغيا إليه".

جأر الحصيف لو: "إن لم تتيحا لي أيها الحماران اللئيمان سبيل الدخول، فسأشعل النار في هذا الدير المقرف وأحرقه بأسره!".

فنادى الرهبان مسرعين على البوابين: "ارفعا المزلاج واتركا ذلك الحيوان يدخل من البوابة. فإن لم يفعل ذلك فسيحرق الدير!".

مشى البوابان على رؤوس أقدامهما إلى البوابة، ورفعا المزلاج، ثم هربا واختبأا. وتبعثر الرهبان الآخرون.

دفع لو البوابة بكلتا يديه بعنف. فانفتحت بصورة غير متوقعة، فتعثر وسقط على وجهه.

زحف ناهضا على قدميه، وحك رأسه وأسرع إلى جناحه.

دفع ستارة الباب جانبا وترنح حتى غرفة العبادة. رفع الرهبان الذين جلسوا متصالبي الساقين على حشياتهم رؤوسهم جافلين. وما أسرع أن خفضوها من جديد. وما إن وصل الحصيف لو إلى حشيته الخاصة حتى تقيأ في صخب. كانت الرائحة المنتنة رهيبة. فهتف الرهبان، وهم يسدون أنوفهم: "لتتمجدنَّ الفضيلة!".

تسلق لو حشيته ورفع عباءته وحزامه، فسقطت ساق الكلب على الأرض. قال: "رائع! فقد بدأت أشعر وخزات الجوع".

والتقطها عن الأرض وجعل يأكل.

خبأ الرهبان وجوههم وراء أكمامهم، وحاول أولئك الذين لا يبعدون عنه كثيرا الابتعاد عن طريقه. مزق لو قطعة من لحم الكلب وقدمها إلى الراهب الجالس عن يساره، وأمره بقوله: "ذق

هذه".

فضغط الراهب نهايتي كفيه على كميه بقوة. فسأله لو: "ألا تريد شيئا منها؟".

ونقل القطعة إلى الرجل الجالس عن يمينه. فحاول هذا أن ينزلق عن حشيته ويسلم ساقيه إلى الفرار، ولكن الحصيف لو أمسك به من أذنه ودفع اللحم في فمه.

وثب أربعة أو خمسة رهبان في الناحية المقابلة من الغرفة وأسرعوا إليه، وترجوه أن يكفّ عن ذلك. فقذف فخذ الكلب جانبا وقرع رؤوسهم الجرداء بمفاصل أصابعه. وعجت غرفة العبادة بأسرها بزمجرة صاخبة. واختطف الرهبان عباءاتهم وقصع طعامهم وعجلوا بالخروج. وأعقب ذلك هجرة جماعية. وما استطاع شيخ الدير إلى إيقافهم من سبيل.

شقّ الحصيف لو طريقه خارجا وقد علت وجهه تباشير الفرح. وهرب معظم الرهبان إلى الأروقة المعمدة المسقوفة. في هذه المرة لم يبلغ المشرف والشماس رئيس الدير بما جرى، ولكنهما استدعيا جميع الرهبان القائمين على العمل، بالإضافة إلى كل ناظر، وطاه، وبواب، وحامل محفة وجداه قريبا؛ حوالى مائتين تقريبا. عصبوا رؤوسهم بمناديل كبيرة وسلحوا أنفسهم بهراوات وعصي وساروا إلى ردهة الرهبان.

أطلق لو زمجرة عالية حين وقعت أنظاره عليهم. والتجأ إلى غرفة العبادة لأنه كان أعزل من أي سلاح، وقلب منضدة المذبح القائمة أمام تمثال بوذا، وهشم قائمتين من قوائمها، وعاود الهجوم من جديد.

هجم على المهاجمين بوحشية جعلتهم يتراجعون مسرعين إلى الأروقة. وتقدم الحصيف ملوحا بقائمتي المنضدة. وأطبق عليه خصومه عن جانبيه. فاستطار لبه غضبا. تظاهر بالهجوم شرقا وضرب غربا، وتظاهر بالهجوم جنوبا وضرب شمالا. فلم يفلت من ضرباته غير الذين كانوا عنه بعيدين.

عصفت المعركة إلى اليمين من باب غرفة العبادة. وعندها رن صوت رئيس الدير قائلا: "أيها الحصيف، كفّ عن هذا القتال! وأنتم أيضا، أيها الرهبان!".

كانت الجروح قد أصابت حوالى عدة دستات من المهاجمين. وطغت عليهم الرغبة بالارتداد بسرور لدى ظهور الرئيس. وألقى لو من يديه قائمتي المنضدة. وصاح: "أيها الرئيس، أنجدني".

كان في تلك الآونة قد استرد شيئا من وعيه.

قال رئيس الدير: "أيها الحصيف، أنت توقعني في كثير من المتاعب. فقد سكرت المرة الماضية وأثرت ضوضاء أرغمتني على الكتابة إلى المحترم تشاو عنها، وقد أرسل لي رسالة يعتذر فيها عن ذلك. وهذا أنت الآن قد عصيت مرة أخرى، وعكرت صفو حياتنا النقية، وحطمت الجوسق وكسرت التمثالين. هذه الأمور كلها يمكن أن نتغاضى عنها. ولكنك طردت الرهبان من غرفة العبادة، وهذه جريمة لا غفران لها. إن بوذا وينشو كان يتعبد حيث يقوم ديرنا الآن. وطوال قرون عديدة لم

تعرف هذه الأرض المقدسة غير السكينة وروائح البخور. وليست مكانا يأوي أمثالك من الشبان القذرين. ستقيم معي خلال الأيام القليلة القادمة في غرفتي الرئاسية. وسأتدبر أمر انتقالك إلى مكان آخر".

رافق الرائد السابق رئيس الدير إلى مسكنه. وأمر الرئيس المشرف أن يعيد الرهبان إلى عبادتهم، وأن يذهب الجرحى إلى مكان للاستراحة. وأمضى الحصيف ليلته في غرفة رئيس الدير.

في الصباح التالي، تشاور الرئيس مع شيخ الدير. فاتخذا قرارا بمنح لو مبلغا من المال وترحيله عن الدير. وكان من الضروري إعلام المحترم تشاو بالأمر أولا. فكتب الرئيس رسالة أرسلها إلى عزبته مع مراسلين صدر الأمر إليهما بانتظار الجواب عنها.

تضايق تشاو من رسالة رئيس الدير. حيا في جوابه رئيس الدير باحترام، وقال: "سأعوضكم نفقات إصلاح حارسي البوابة المحطمة والجوسق. وينبغي على لو أن يذهب حيث يبعث الرئيس به".

عندها أمر رئيس الدير مساعده أن يهيّئ عباءة من قماش أسود اللون، وزوجا من أحذية الرهبان، وعشر أوقيات من الفضة، وأن يدعو لو إليه.

قال رئيس الدير: "أيها الحصيف، آخر مرة سكرت فيها أحدثت شغبا في غرفة العبادة، وأنت لا تجيد غير ذلك. وهذه المرة سكرت أيضا فحطمت تمثالي الحارسين، وحطمت الجوسق، وأحدثت هياجا في قاعة العبادة. وهذه جريمة خطيرة. كما أنك جرحت عددا من رهباننا. إن ديرنا مكان هادئ ومسالم. وتصرفك سيّئ للغاية. احتراما للمحترم تشاو سأعطيك رسالة توصية لمكان آخر حيث تستطيع الإقامة. يستحيل أن نبقيك هنا. رأيت الليلة الماضية رؤيا، وكتبت لك نبوءة من أربع جمل يمكن أن تحدد لك خطوات مستقبلك".

استفسر لو: "أين تريدني أن أذهب، أيها المعلم؟ أرجو أن تطلعني على النبوءة".

أشار الرئيس إلى الحصيف لو وتحدث. أخبره إلى أين يذهب، وخلص إلى ما يلي: سيتصارع لو مع عشرات من الأبطال وهو يضحك ويستخدم عصاه. وحيث يضرب بسيفه في غضب يتهاوى أبناء عاصون وضباط خونة.

ترى ما الذي قاله الرئيس للحصيف لو على وجه الدقة؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الخامس

الملك الصغير الثمل يرفع ستائر السرير الموشاة بالذهب؛
والراهب الموشوم لو يبعث الفوضى في قرية الدراق المزهر

قال رئيس الدير: "أيها الحصيف، لا يمكن أن تقيم هنا على الإطلاق. في العاصمة الشرقية أخ لي بوذي يدعى المعلم المشرق، وهو رئيس لدير شيانغقوه الكبير. احمل إليه هذه الرسالة، والتمس منه أن يجد لك عملا. فقد رأيت ليلة البارحة رؤيا، وألّفت شعرا نبوئيا من أربعة أبيات يهديك في مصيرك. وعليك أن تذكر هذه الكلمات".

ركع لو أمامه قائلا: "يطيب لي أن أسمع هذه النبوءة".

فترنم رئيس الدير منشدا: "باشر عملك في الغاب، وأثمر على الجبال، وازدهر بين الأمواه، لكنْ حذار من النهر!".

سجد الحصيف لو أمام رئيس الدير تسع مرات، وتنكّب حقيبته، وربط صرتيه حول خصره، ووضع الرسالة في جيبه. ورمى تحية الوداع على رئيس الدير والرهبان، وغادر جبل ووتاي، وأقام في الحانة المجاورة لدكان الحداد منتظرا انتهاء عصاه وسيفه. اغتبط الرهبان لخلاصهم منه. وأمر الرئيس الإخوة العلمانيين بتنظيف حطام التمثالين الحارسين والجوسق. ولم تمر أيام قليلة حتى أحضر المحترم تشاو شخصيا مبلغا من المال وجرى إصلاح التمثالين والجوسق. ولن نزيد في هذا الموضوع حديثا.

انتظر الحصيف أياما عديدة في الحانة. وحين انتهى سلاحاه صنع للسكين قرابا ودهن العصا. ونقد الحداد مبلغا آخر من المال، وتنكب حقيبته، وعلق السكين في وسطه، وتناول العصا، وألقى تحية الوداع على الخمار والحداد، وانطلق في سبيله.

جعل الناس الذين يمرون به يتهامسون في سرائرهم: "يا له من راهب جلف الملامح!".

سار على الدرب المؤدي إلى العاصمة الشرقية، وسافر فترة من زمن تزيد عن نصف شهر كامل. لم يحط رحالا في أي من الأديرة، وكان يقضي أغلب لياليه في الحانات، ويأكل في الفنادق خلال النهار.

وفيما هو يحث خطاه عصر أحد الأيام استغرقه التأمل في بهاء التلال والجداول فنسي مرور الوقت وانتشار العتمة. وتبين له على حين غرة أنه لن يصل إلى أي خان قبيل تراكم الظلمة، وليس برفقته سمير أو خدين. فأين يستطيع قضاء ليلته؟

أعجل خطواته على مدى عشرين أو ثلاثين ليا أخرى. وبينا هو يعبر جسرا خشبيا لمح في المنتأى، متضوئا تحت ظل سحب الشمس الغاربة الأرجوانية، بيتا في مزرعة تقوم في حرش من

الأشجار، تنهض وراءها جبال ضخمة. فهمس في جوانحه: "يجدر بي أن أقضي ليلتي في هذه المزرعة".

وبينا هو يقترب من المزرعة وقعت عيناه على عشرات من الفلاحين المنهمكين في نقل أشياء من مكان إلى مكان آخر. فوضع عند مدخل المزرعة عصاه ونادى على بعض الخدم. خاطبوه مستفسرين: "ما الذي رمى بك في مزرعتنا هذه العشية، أيها الراهب؟".

فأجاب: "لم أتمكن من الوصول إلى خان قبل انسدال الليل. آمل أن تأويني مزرعتكم هذه الليلة. وسأرحل غدا صباحا".

- نحن نؤدي عملا على جانب من الأهمية هذه الليلة. ولا تستطيعنّ البقاء لدينا.

- لن أبقى غير ليلة واحدة. وغدا أرحل.

- هيا، أيها الراهب. ابتعد عن هذا المكان إن كنت على حياتك حريصا.

- هذ حديث غريب. فيم هذه الجلبة والإقامة لن تزيد عن ليلة واحدة؟ وما وجه الخطورة في ذلك؟

- امض في سبيلك. وإلا تعرضت للاعتقال والحبس.

فقد الحصيف سيطرته على نفسه، وصاح: "ألا تستطيعون، أيها البلهاء، أن تكونوا مؤدبين؟ أنا لم أصرف في حقكم أية إهانة، وأنتم تتهددونني بالاعتقال!".

شتمه بعض الفلاحين، في حين حاول آخرون تهدئة ثائرته. رفع لو عصاه يهم بضربهم حين قدم شيخ عجوز من المزرعة. كان في الستين من عمره، يتوكأ على عصا أعلى من مستوى رأسه. وصاح بخدمه وهو يقترب من حيث يحتشدون: "فيم تتشاجرون؟".

فأجابوه: "هذا الراهب الحقير ينتوي ضربنا".

قال لو: "كنت في طريقي إلى العاصمة الشرقية قادما من جبل ووتاي. ولم أصل إلى أي خان. فطلبت أن أقيم ليلة ههنا في المزرعة. ولكن هؤلاء المغفلين الأجلاف يريدون اعتقالي".

قال الشيخ: "إذا كنت راهبا مبجلا من جبل ووتاي، فتعال رافقني".

تبعه الحصيف لو إلى المبنى الرئيس حيث اتخذ كل منهما مجلسه كمضيف وضيف. وقال الشيخ: "فلاحونا لا يعرفون أنك آت من مكان بوذا الحي، أيها المبجل. فلا تحقد عليهم. لقد حسبوا أنك راهب عادي. وأنا شخصيا احترمت بوذا دائما، كما احترمت تعاليمه ووصاياه. وعلى الرغم من أننا منهمكون في العمل هذه الليلة، فلسوف تغبطنا استضافتك هنا".

وضع لو عصاه، وهبّ على قدميه، وانحنى احتراما: "شكرا، يا معلم. أتأذن لي في الاستفسار عن اسمك الكريم؟".

- عائلتنا تدعى ليو. ولأن هذا المكان معروف باسم قرية الدراق المزهر يلقبني الفلاحون بالجد ليو من قرية الدراق المزهر. هلا تفضلت فأخبرتني باسمك المبجل، وما الاسم الذي خلعوه عليك في البوذية؟".

- اسمي لو. وقد خلع عليّ رئيس الدير لقب الحصيف.

- أرجو أن تتناول العشاء برفقتنا، أيها المبجل. هل حرمت على نفسك تذوق اللحم؟

- لم أحرم على نفسي الخمرة واللحم. أشرب الخمرة الصافية والمعتقة. وآكل لحم البقر والكلاب على حد سواء.

- طالما أنك لم تحرم على نفسك شيئا سآمر خدمي أن يقدموا لك اللحم والخمرة.

جُهزت المائدة، ووضعت عليها عصيّ الطعام. وأحضر الخدم للحصيف طبقا من لحم البقر وثلاثة أو أربعة أصناف من الخضراوات. فك عقدة الصرر التي ربطها حول وسطه وأجلس نفسه إلى المائدة الاحتفالية. أدفأ خادم الخمرة، وملأ قدح الحصيف لو. ولم يكن الراهب في حاجة إلى أية مجاملة، فما لبث أن أتى على طاس الخمرة وطبق اللحم. حملق فيه الجد ليو، من حيث جلس قبالته، مشدوها. وجلبوا إليه الأرز، فالتهمه بأكمله.

رُفعت المائدة أخيرا، فخاطبه الشيخ قائلا: "أرجو أن تلجأ إلى شيء من الراحة في الجناح المجاور، أيها المبجل. وإذا تناهت إليك ضجة خلال الليل فلا تبرح غرفتك في حال من الأحوال".

- هلا تفضلت فأنبأتني بما سيحدث هنا هذه الليلة؟

- القضية ليست مما يناقش مع رجل تبرأ من هذا العالم الدنيوي.

- لم ترتسم في وجهك دلائل التعاسة، يا جدي؟ هل أقلقك وجودي هنا بينكم. غدا تحسب ما أدين لك به فأسدده لك.

- أصغ إليّ، يا مبجل. ما أكثر ما نقدم للرهبان طعاما وشرابا. وبالأحرى إنك راهب جديد. المشكلة هي أن ابنتي ستزف هذه الليلة وتحضر إلى عائلتنا صهرا.

فضحك الحصيف: "النساء والرجال يتزوجون جميعا. فالزواج هو الحدث الأكثر أهمية في حياة المرء، وهو أمر طبيعي جدا. فما الذي يقلقك؟".

- أنت لا تفهم، أيها المبجل. نحن نرفض هذا الزواج.

تبسم لو قائلا: "يا للشيخ الساذج! إن كنت ترفض هذا الزواج، فلم وافقت عليه؟".

- ليس لديّ غير ابنة واحدة، وهي في التاسعة عشرة من عمرها. وغير بعيد عن هذا المكان يقوم مرتفع اسمه جبل الدراق المزهر، بنى عليه رئيسا عصابة حصنا في الآونة الأخيرة يضم قرابة ستمائة من الرجال. وهم يمارسون السلب والنهب، وما استطاعت شرطة تشينغتشو شيئا حيالهم. وقبيل عدة أيام قدموا إلى مزرعتنا يجمعون الإتاوة، فرأى أحد الرئيسين ابنتي. فنفحني بعشرين أوقية من الذهب وحزام من الساتان الأحمر على سبيل المهر، واختار هذه الليلة لإتمام مراسم الزواج. قالوا إنهم يحتفلون بالزواج في المزرعة. ولم أملك وسيلة تصدهم عن ذلك. أرغمت على الرضوخ. هذا مما يثير مخاوفي. لم تقلقني استضافتك هنا، يا مبجل.

- إذاً، هذا هو الأمر. لنفترض أني حاورته وأقنعته بالعدول عن الزواج من ابنتك، فما تقول في هذا؟

- هو شرير يقتل من دون أن يطرف له جفن. فكيف تستطيع أن تجعله يبدل رأيه؟

- حين أقمت على جبل ووتاي تعلمت قوانين المنطق البوذية من رئيس الدير. وفي مقدوري

الآن أن أقنع أي رجل كان، ولو كانت له صلابة الحديد. قل لابنتك أن تختبئ. وسأتحاور مع العريس في غرفتها وأجعله يعدل عن الزواج.

- يبدونّ هذا حسنا، لكن حذار من أن تشد سالفي النمر.

- أنا راغب في الحياة أيضا، ألا تعتقد ذلك؟ دع الأمر لي.

- هذا رائع. ما أسعد عائلتي باستضافة بوذا من أمثالك هبط عليها من السماء!

خاف الخدم لدى سماعهم الأمر.

استفسر الشيخ: "أتريد مزيدا من الطعام؟".

فقال لو: "لست أريد شيئا من الطعام، لكن، إذا بقيت لديك خمرة فزودني بقليل منها".

أكد له الجد ليو قائلا: "لدينا وفرة منها".

أمر خادما أن يحضر إوزة مطبوخة وطاسا كبيرة من الخمرة. فاغتبق الحصيف عشرين أو ثلاثين قدحا منها وأتى على الإوزة. وصدر الأمر إلى خادم آخر بوضع صرره في غرفة الضيوف.

تناول لو عصاه وسكينه وسأل مضيفه: "هل اختبأت ابنتك، أيها الجد؟".

- أرسلتها إلى الجيران.

- إذاً، لنذهبنّ إلى غرفة العرس.

قاده الشيخ إلى باب إحدى الغرف: "هذه هي الغرفة".

- لينصرفنّ كل منكم إلى عمله.

خرج الجد وخدمه لتهيئة وليمة الزواج. ودفع الحصيف لو جانبا جميع المناضد والمقاعد في الغرفة. ووضع سكينه عند رأس السرير وأسند عصاه إلى جانبه. وأرخى الستائر الموشاة بالذهب، وخلع عنه معطفه، ووثب إلى السرير وجلس.

كانت الظلمة تنشر رداءها الأوسد. فأمر الجد ليو خدمه بإشعال المصابيح في مقدمة المنزل ومؤخره. ومدت على الأرض المدروسة منضدة طويلة مزينة بالبخور والمصابيح والشموع. وأمر الشيخ بشرائح كبيرة من اللحم وخابية ضخمة من الخمرة الدافئة.

في حدود ساعة الحراسة الأولى ضجت أصداء طبول وأجراس من ناحية الجبل. وخرج من بوابة المزرعة الجد ليو وقد سيطر عليه القلق من الخدعة التي أقدم عليه، والخدم الذين يغسلهم عرق الخوف من شر مرتقب يستطلعون الأمر.

كشفت في البعد مجموعة من أربعين أو خمسين مشعلا أحالت الليل إلى نهار عن رهط من رجال راكبين وراجلين يسرعون الخطى صوب المزرعة. فهتف الجد ليو بخدمه أن يفتحوا البوابة على مصراعيها، وهرول لملاقاة القادمين. كان المحتشدون يحملون أسلحة مزينة بالأشرطة. وكانت ورود برية تتوج شعر الأفراد الأقل مرتبة. وكانت أربعة أو خمسة مصابيح من الشاش أحمر اللون تسير في مقدمة الموكب وتلقي الضوء على رئيس العصابة المعتلي صهوة جواده. وكان هذا الرئيس يلبس في رأسه قبعة مستدقة الرأس ملفوفة في مقدمتها، مصنوعة من لون أحمر شاحب، تتدلى منها وردة من الحرير مدسوسة تحتها بجانب أذنه. وكان جسده الضخم ملفوفا برداء حريري أخضر اللون

موشى بخيوط ذهبية وله حاشية من الصوف، ويلف وسطه بحزام أحمر موشى بالذهب. وكان ينتعل حذاء جلديا عالي الكعبين، ويمتطي صهوة جواد أبيض له عرف أجعد.

ترجل رئيس العصابة عن حصانه عند بوابة المزرعة. وتجمهر رجاله حوله مهنئين: "في قبعة جديدة براقة تغدونّ الليلة عريساً. وفي ثياب من نسيج فاخر تصيرنّ الليلة صهرا".

أسرع الجد ليو خطواته وهو يحمل قدحا من الخمرة الجيدة على صينية، وركع أمام رئيس العصابة. واقتدى الخدم به. فأنهض الرئيس الشيخ على قدميه: "أنت والد زوجتي. فلا ينبغي أن تركع أمامي".

أجابه الجد ليو: "لا تقل هذا. أنا مجرد شيء من متاع في ملكية الرئيس العظيم".

ضحك الرئيس سرورا وقد لعبت الخمرة في رأسه: "رابح أنت لأنك تتخذ مني صهرا. وأنا أفضل زوج لابنتك".

قدم الشيخ كأس الخمرة الاحتفالية للضيف المترجل، وقاده إلى المنضدة المنارة بالمصابيح المفروشة على الأرض المدروسة. فاحتج الرئيس مجاملا: "ما كان ينبغي أن تهيّئ مثل هذا الترحيب المبهظ، يا عمي".

رشف ثلاث كؤوس أخرى من الخمرة واتجه إلى ردهة الاستقبال. وأمر رجاله أن يربطوا أعنة الخيول إلى بعض أشجار الصفصاف. وشرع عدد من أفراد العصابة يضربون الطبول ويقرعون الأجراس خارج القاعة.

اتخذ الرئيس لنفسه مقعدا، وتوجه إلى الشيخ سائلا: "أين زوجتي، يا عماه؟".

- إنها تخشى الخروج. فالحياء يمنعها.

ضحك رئيس العصابة: "أحضروا مزيدا من الخمور فلسوف أرد نخبا بنخب".

ولكنه ما إن رفع كأسه بيده حتى انثنى يقول: "أريد رؤية زوجتي أولا. وسأشرب معك بعد ذلك".

كان الجد ليو قلقا بشأن تفاهم الراهب مع رئيس العصابة. فأجاب: "سأوصلك إلى غرفتها".

حمل شمعة وواكب الرئيس فالتف به حول ستارة وأوصله إلى باب غرفة العرس. وقال: "هذه هي الغرفة. أرجو أن تدلف إليها".

انثنى حاملا الشمعة. كان راغبا في الابتعاد سريعا لأنه يتشكك في نجاح الخطة التي رسمها مع الراهب.

دفع رئيس العصابة الباب فانفتح له. كانت الظلمة تسود الغرفة. فغمغم يقول: "يا لعمي من مقتصد شحيح! فهو لا يشعل مصباحا ويترك زوجتي في ظلمة دامسة. يجب أن أخبر رجالي كي يأتوه ببرميل من الزيت من حصننا في الجبل غدا".

كتم الحصيف لو الجالس وراء الستائر ضحكة كادت أن تفلت من بين شفتيه. ولم ينبس بحرف، وتحسس رئيس العصابة طريقه إلى وسط الغرفة. قال: "أيتها الزوجة، تعالي وألقي التحية عليّ. لا تخجلي. غدا أجعلك سيدة الحصن".

خطا مقتربا وهو ينادي على: "زوجتي"، ولمس ستائر الفراش الموشاة بالذهب. أبعد الستائر ومد يده من خلالها فاصطدمت ببطن لو. قبض الراهب على رئيس العصابة من رأسه المعتمر القبعة، ورمى به على الفراش وهو يجاهد للتملص. وضم الحصيف لو يده على صورة قبضة. وصاح، وهو ينزل بها ضربة على العنق والأذن: "أيها اللص المغتصب!".

صاح رئيس العصابة: "كيف تضربين سيدك؟".

فأجاب الحصيف: "إني ألقنك كيف تتعرف على سيدتك".

رماه عن الفراش ولكمه ورفسه برجله.

عوى رئيس العصابة: "النجدة!".

في الخارج، كان الجد ليو يرتعش خوفا، فقد سقطت الصيحة في الوقت ذاته الذي حسب فيه أن الحصيف يتفاهم ورئيس العصابة بصورة ودية. فاختطف الشيخ مصباحا وهرول إلى الغرفة تتأثره جماعة من العصابة. فوجدوا راهبا بدين البنية صلب العود، ليس على صدره شيء من الثياب، جالسا إلى جانب زعيمهم قريبا من الفراش يدوسه بوحشية بقدميه.

صاح أحد أفراد العصابة الذين وصلوا أولا: "أنقذوا زعيمنا".

هجم الآخرون على الحصيف وفي أيديهم الهراوات والرماح.

دفع الحصيف زعيم العصابة جانبا، واختطف عصاه عن جانب الفراش. ورد على الهجوم، رد في عنفوان جعل أفراد العصابة يصيحون ويهربون. لم يستطع الشيخ إلا أن يهتف في فزع.

في ذلك الهرج والمرج زحف زعيم العصابة خارج الغرفة، ثم ركض إلى البوابة الأمامية، واتخذ سبيله إلى حصان من دون سرج. كسر غصنا من شجرة صفصاف، ووثب على ظهر الحصان. ساطه بالغصن فما أتى الحصان حركة. هجس زعيم العصابة في سره: "وا أسفاه! هذا الحصان يزيد في بليتي أيضا! وتطلع حوله، فتبين أنه نسي في لهفته العجول أن يفك العنان عن جذع الشجرة. فعجل يرخي العنان وانطلق بالحصان الذي امتطاه من دون سرج. فركض خبباً.

صب لعنته على الشيخ، وهو يخرج من بوابة المزرعة: "أمهلني وحسب، أيها الحمار العجوز! لا تحسبن أنك نجوت من غضبتي!".

وانهال على الحصان بعدة ضربات من غصن الشجرة. فهب يرقى في الجبل متبلبل الخطوات.

قبض الجد ليو على الحصيف من ذراعه، وزمجر: "لقد صببت البلاء على أسرتي بأكملها، أيها المبجل!".

فأجاب الراهب: "صفحك عن وسيلتي الرديئة. جئني بثيابي وعباءتي، وبعدها نناقش الأمر".

رجع أحد الخدم إلى الغرفة وجاء بالثياب، فارتداها.

قال الشيخ: "كنت أرجو أن تتفاهما بصورة ودية، وأن تقنعه بالعدول عن رأيه. لم يخطر لي قط أنك تتعمد الانهيال عليه ضربا. لا ريبة ولا شك أنه يحدث الجميع عما أصابه عند وصوله إلى الحصن. وبعدها ينهمر عليّ أفراد العصابة ويسلخون جلدي وجلد عائلتي!".

- هون عليك، يا جداه. إذا أردت الحقيقة أقول إني كنت رائدا في حامية الحدود التابعة لحامية

الجنرال العجوز تشونغ في ولاية يانآن. ولأني قتلت رجلا اضطررت أن أرتدي مسوح الرهبان. إن ألفي فارس لا يمكن أن يهرقوا في فؤادي شيئا من الخوف، هذا إذا غضضنا الطرف عن بعض زعماء اللصوص التافهين.

وتوجه إلى الخدم الذين أعاروه أسماعهم قائلا: "حاولوا أن ترفعوا هذه العصا، أيها الغلمان، إن كنتم ترتابون في حديثي".

ولا جدال في أن أحدا منهم لا يستطيع أن يفعل ذلك. فالتقط الحصيف العصا وأرجحها فكأنها فتيل قنديل بين يديه.

ترجى الجد ليو: "ينبغي أن تقيم لدينا، يا مبجل. فعائلتي في حاجة إلى حمايتك!".

- هذا لا ريبة فيه. لن أترككم ولو تعرضت حياتي للخطر.

فنادى الشيخ: "هاتوا خمرة للمبجل".

والتفت إلى لو قائلا: "لا تكثر من الشراب فتتخدر أعصابك".

- حين أبلغ في الشراب تسعة من عشرة أتمكن من استخدام مهارتي بمقدار تسعة من عشرة أما حين أصل إلى النشوة التامة فسأكون في كامل مواهبي ومهارتي.

- إذا كانت الحال على ما تقول، فلتطبْ نفسا. فإن لدي وفرة من الخمر واللحوم هنا. فخذ منها ما تشاء.

دعونا نتحدث الآن عن زعيم العصابة. قعد في الحصن القائم على جبل الدراق المزهر وانتوى أن يبعث رجلا يستطلع كيف تسير الأمور مع زميله في الزعامة بخصوص زواجه حينما رجعت جماعة من أفراد العصابة لاهثي الأنفاس مشعثي الطلعة اندفعوا صوبه قائلين: "وا أسفاه! وا ويلتاه!".

فاستفسر متعجلا: "ماذا جرى؟ فيم ينتابكم الهلع؟".

- لقد نزل الضرب بقائدنا الثاني!

فشرع الزعيم المشدوه يستفسر عن الأمر. فأعلنت أصوات الواقفين في الخارج قائلين: "لقد رجع القائد الثاني!".

أسام زعيم اللصوص بصره، فرأى صديقه وقد أضاع قبعته وتمزق ثوبه وتهلهل. ترجل القائد الثاني وتوقف أمام الردهة. وتوسل قائلا: "أنقذني، يا أخي، أنقذني!".

- ماذا حدث؟

- هبطت إلى المزرعة ودلفت إلى حجرة العرس. كان ذلك الحمار الشيخ اللعين قد صرف ابنته وخبأ راهبا عملاقا بدين الجثة في فراشها. لم أكن أرتاب في شيء، فأزحت ستائر السرير، وتحسست طريقي. فشدني ذلك النذل ورماني أرضا وهو يرفسني برجلهِ فدارت بي الدنيا. وحين جاء رجالنا لنجدتي اختطف عصاه ولحق بهم. ولولا هذا لما استطعت الهرب والنجاة بحياتي. يجب أن تثأر لي، يا أخي!

قال زعيم العصابة: "إذاً، هكذا جرت الأمور. ادخل واسترح. سأقبضن على ذلك اللص الحقير وأحضره إلى هنا". وهتف برجاله صائحا: "جهزوا حصاني على الفور. ورافقوني جميعا".

ركب حصانه وحمل رمحه في يده. وهبط على الجبل يرافقه رجاله جميعا. وراح الجميع يصيحون ويعولون.

لنرجعن الآونة إلى الحصيف لو. كان ينهل الخمور في المزرعة حين نادى أحد الخدم معلنا: "زعيم العصابة يهبط على الجبل مع رجال كثيرين!".

قال لو: "لا يقلقنكم الأمر! حين أطرحهم أرضا. أسرعوا أنتم، أيها الفتيان، وشدوا وثاقهم وقودوهم إلى الحاكم واقبضوا المكافأة. أحضروا لي سيفي".

خلع الحصيف عباءته وعقد أطراف ثوبه، وعلق السيف في حزامه، وحمل العصا في يده ومشى إلى الأرض المدروسة. فلمح على ضوء عدد من المشاعل زعيم العصابة وفي يده رمح طويل تنهب به الفرس الطريق ناحية المزرعة.

صاح زعيم اللصوص: "أين هو ذلك الحمار اللعين؟ فليخرج إلي لتسوية الموضوع نهائيا!".

فشتمه لو: "أيها النذل الحقير الذي لم يعرف جلده السياط! سأعلمنك من أكون!". ولوح بعصاه وتقدم هاجما.

تفادى زعيم اللصوص الضربة. وصاح: "رويدك برهة، أيها الراهب! فصوتك مألوف لدي. ما اسمك؟".

- اسمي لو دا، أنا الرائد السابق في حامية الجنرال العجوز تشونغ. ولست سواه. ولما كنت الآن راهبا فقد غدا اسمي الحصيف لو!

ضحك زعيم اللصوص من أعماق قلبه وترجل عن حصانه، وأبعد سلاحه جانبا. صفق بيديه وألقى التحية: "أرجو أن تكون أمورك حسنة منذ فراقنا. وهكذا فأنت من أنزل بمساعدي تلك العلقة الساخنة!".

خشي الراهب في بادئ الأمر أن تكون في الأمر خدعة. وثب مرتدا عدة خطوات وأراح طرف عصاه على الأرض. ولكنه ما عتم أن ألقى نظرة متفحصة على الرجل على ضوء المشعل حتى أدرك أنه لي تشونغ الجنرال مصارع النمر الذي كان يقدم في الشوارع عروضا مختلفة بأسلحته يبيع بعدها أدويته.

أمسك لي تشونغ بالحصيف من ذراعه قائلا: "ما الذي جعلك تصير راهبا، يا أخي؟".

- سأروين لك الأمر بعد أن ندلف إلى الداخل.

ارتعب الجد ليو وقد رأى ما حدث. وهمس في نفسه: "وهكذا فإن هذا الراهب ينتمي إليهم أيضا!".

رجع لو إلى البيت في المزرعة، وارتدى عباءته، وقاد لي تشونغ إلى الردهة يحدثه عن الأيام الخوالي. وجلس الراهب في وسط الردهة ونادى على الجد ليو الذي لم يجرؤ على الاستجابة للنداء.

قال لو: "لا تخف منه، يا جداه، فهو أخي!". صبت هذه الكلمات مزيدا من الذعر في فؤاد الشيخ، فتابع تراجعه. وجلس لي تشونغ على المقعد الذي يليه في المقام. واقتعد الشيخ المقعد الثالث.

قال الراهب: "سأروي لك قصتي. بعدما قتلت سيد الغرب في ويتشو بثلاث ضربات، هربت إلى مقاطعة يانمين في ولاية دايتشو. وهناك التقيت العجوز جين الذي أنقذت حياته وأرسلته إلى العاصمة الشرقية. فذهب بدلا من ذلك إلى يانمين برفقة رجل له به معرفة. وكانت ابنته تعيش مع رجل ثري هو المحترم تشاو الذي أبدى لي كثيرا من الاحترام في لقائنا. ولكن الشرطة كانت في أعقابي، وهكذا أنفق المحترم كمية من المال وبعث بي إلى رئيس دير على جبل ووتاي حيث حلقت شعري وغدوت راهبا. ولأنني سكرت مرتين وأثرت شغبا في غرفة العبادة أعطاني رئيس الدير رسالة لرئيس شيانغقوه الكبير في العاصمة الشرقية طالبا إليه أن يجد لي عملا. وفي الليلة المنصرمة تأخر الوقت بي ليلا للعثور عن خان فعرجت على هذه المزرعة. وما خطر لي في بال أني سألتقيك، يا أخي. من ذلك الرجل الذي أنزلت به الضرب؟ وماذا تراك تفعل هنا؟".

- في اليوم الذي أعقب فراقي لك وشي جين في الحانة في ويتشو سمعت أنك قتلت اللحام تشنغ. فمضيت لأبحث الأمر مع شي جين، فوجدته قد رحل. ثم تناهى إلي أن الشرطة تتعقب آثارك. فعجلت بالرحيل بدوري. وكنت أجتاز سفح الجبل هنا حين هبط ذلك الفتى الذي ضربته عن الجبل مع رجال عصابته وقاتلني. إنه يدعى تشو تونغ، الملك الصغير، ولديه حصن على جبل الدراق المزهر. استطعت إنزال الهزيمة به، فسألني أن أقيم معه سيدا لذلك الحصن، وجعلني الزعيم الأول، وهكذا غدوت منذ ذلك اليوم خارجا على القانون.

- إذا كنت أنت الزعيم فلا نتحدث عن موضوع الزواج بابنة الجد ليو. فهي ابنته الوحيدة، وكان يأمل أن ترعاه في أيامه المتبقية له في الحياة. لا يمكن أن تأخذوها منه وتتركوه وحيدا.

عجت الفرحة في حنايا الجد ليو. فوضع أمام ضيفيه طعاما وشرابا. وقدم لكل من الآخرين لفتين مبخرتين، وشريحتين من اللحم، وطاسا كبيرة من الخمور. فأكل الجميع وشبعوا. وأعاد الجد ليو هدايا الخطبة من الذهب والساتان.

حث الحصيف لو صديقه لي تشونغ قائلا: "خذها، يا أخي، فأنا أترك هذه القضية كلها بين يديك".

قال لي تشونغ: "هذا أمر يمكن تسويته. نرجوك أن تقيم لدينا في حصننا الصغير فترة من الوقت، يا أخي. وأنت، أيها الجد ليو، أنت يجب أن تجيء أيضا".

أمر الشيخ خدمه أن يعدوا محفة للحصيف لو. فحملوه مع عصاه، وسكينه، وصرره. وامتطى لي تشونغ صهوة جواده. وركب الجد ليو محفة أصغر. وكان الصباح قد أشرق نوره فأضاء الكون.

حين وصلوا إلى الحصن نزل لو والشيخ من محفتيهما، وترجل لي تشونغ عن حصانه. فقادهما زعيم اللصوص إلى ردهة الاستقبال واتخذ كل منهم مقعدا.

استدعى لي تشونغ مساعده تشو تونغ الذي ما إن أبصر الراهب حتى هدر في نفسه غاضبا: "لم يكف أنك لم تثأر لي، يا أخي، بل دعوته إلى هنا وقدمت له مقعد الشرف!".

استعلم لي تشونغ: "أتعرف هوية هذا الراهب، يا أخي؟".

- لو كنت أعرف من يكون، فلعلي ما تعرضت للضرب! ضحك لي تشونغ: "أتتذكر أني

قال الراهب: "سأروي لك قصتي. بعدما قتلت سيد الغرب في ويتشو بثلاث ضربات، هربت إلى مقاطعة يانمين في ولاية دايتشو. وهناك التقيت العجوز جين الذي أنقذت حياته وأرسلته إلى العاصمة الشرقية. فذهب بدلا من ذلك إلى يانمين برفقة رجل له به معرفة. وكانت ابنته تعيش مع رجل ثري هو المحترم تشاو الذي أبدى لي كثيرا من الاحترام في لقائنا. ولكن الشرطة كانت في أعقابي، وهكذا أنفق المحترم كمية من المال وبعث بي إلى رئيس دير على جبل ووتاي حيث حلقت شعري وغدوت راهبا. ولأنني سكرت مرتين وأثرت شغبا في غرفة العبادة أعطاني رئيس الدير رسالة لرئيس شيانغقوه الكبير في العاصمة الشرقية طالبا إليه أن يجد لي عملا. وفي الليلة المنصرمة تأخر الوقت بي ليلا للعثور عن خان فعرجت على هذه المزرعة. وما خطر لي في بال أني سألتقيك، يا أخي. من ذلك الرجل الذي أنزلت به الضرب؟ وماذا تراك تفعل هنا؟".

- في اليوم الذي أعقب فراقي لك وشي جين في الحانة في ويتشو سمعت أنك قتلت اللحام تشنغ. فمضيت لأبحث الأمر مع شي جين، فوجدته قد رحل. ثم تناهى إلي أن الشرطة تتعقب آثارك. فعجلت بالرحيل بدوري. وكنت أجتاز سفح الجبل هنا حين هبط ذلك الفتى الذي ضربته عن الجبل مع رجال عصابته وقاتلني. إنه يدعى تشو تونغ، الملك الصغير، ولديه حصن على جبل الدراق المزهر. استطعت إنزال الهزيمة به، فسألني أن أقيم معه سيدا لذلك الحصن، وجعلني الزعيم الأول، وهكذا غدوت منذ ذلك اليوم خارجا على القانون.

- إذا كنت أنت الزعيم فلا نتحدث عن موضوع الزواج بابنة الجد ليو. فهي ابنته الوحيدة، وكان يأمل أن ترعاه في أيامه المتبقية له في الحياة. لا يمكن أن تأخذوها منه وتتركوه وحيدا.

عجت الفرحة في حنايا الجد ليو. فوضع أمام ضيفيه طعاما وشرابا. وقدم لكل من الآخرين لفتين مبخرتين، وشريحتين من اللحم، وطاسا كبيرة من الخمور. فأكل الجميع وشبعوا. وأعاد الجد ليو هدايا الخطبة من الذهب والساتان.

حث الحصيف لو صديقه لي تشونغ قائلا: "خذها، يا أخي، فأنا أترك هذه القضية كلها بين يديك".

قال لي تشونغ: "هذا أمر يمكن تسويته. نرجوك أن تقيم لدينا في حصننا الصغير فترة من الوقت، يا أخي. وأنت، أيها الجد ليو، أنت يجب أن تجيء أيضا".

أمر الشيخ خدمه أن يعدوا محفة للحصيف لو. فحملوه مع عصاه، وسكينه، وصرره. وامتطى لي تشونغ صهوة جواده. وركب الجد ليو محفة أصغر. وكان الصباح قد أشرق نوره فأضاء الكون.

حين وصلوا إلى الحصن نزل لو والشيخ من محفتيهما، وترجل لي تشونغ عن حصانه. فقادهما زعيم اللصوص إلى ردهة الاستقبال واتخذ كل منهم مقعدا.

استدعى لي تشونغ مساعده تشو تونغ الذي ما إن أبصر الراهب حتى هدر في نفسه غاضبا: "لم يكف أنك لم تثأر لي، يا أخي، بل دعوته إلى هنا وقدمت له مقعد الشرف!".

استعلم لي تشونغ: "أتعرف هوية هذا الراهب، يا أخي؟".

- لو كنت أعرف من يكون، فلعلي ما تعرضت للضرب! ضحك لي تشونغ: "أتتذكر أني

حدثتك عن رجل قتل سيد الغرب بثلاث ضربات من قبضته؟ حسن. إنه هذا الراهب!".

هز تشو تونغ رأسه صائحا: "أواه!". وخطا متقدما وركع. فرد له الحصيف تحيته قائلا: "أرجو أن لا تكون معركتنا حافزا لك ضدي". واتخذ الثلاثة مقاعدهم، وفي حين بقي الشيخ منتصبا على قدميه أمامهم.

قال لو: "اسمعني، يا أخي تشو. ثمة أمور تجهلها في موضوع زواجك من ابنة الجد ليو. فهي ابنته الوحيدة. وهو في حاجة إليها ترعاه وتحفظ له عمود العائلة. فإذا تزوجتها لن يبقى له أحد. وأعرف أنه في جوانحه يعارض هذا الزواج. ألغ فكرة هذا الزواج كرمى لي، واختر لنفسك فتاة صالحة أخرى. إليك الذهب والساتان مما قدمت هدية للعرس. فما قولك؟".

- إذا كنت أنت من يطلب ذلك، يا أخي، فلن أدخل بوابة منزلها مرة أخرى.

فذكره الحصيف لو: "الرجل الحقيقي لا ينكث بوعد قطعه على نفسه".

قطع تشو تونغ ميثاقا على نفسه فكسر أحد السهام. انحنى الجد ليو تعبيرا عن شكره، وأعاد الذهب والساتان، وهبط عن الجبل عائدا إلى مزرعته.

نحر لي تشونغ وتشو تونغ ثيرانا وأحصنة وأقاما مأدبة. واستضافا الحصيف لو عدة أيام، وأطلعاه على الأماكن الجميلة في مقدمة الجبل ومؤخره. كان جبل الدراق المزهر بقعة خلابة المناظر. وكانت له طلعة وحشية منذرة بالويل والثبور. بصخوره المنحدرة عن جميع جوانبه المفروشة بأعشاب متشابكة يعجز المرء عن تسلقها إلا من ممر وحيد.

قال الحصيف: "هذا مكان لا نظير له في الحماية والدفاع".

أيقن خلال عدة أيام أن لي تشونغ وتشو تونغ لم يكونا كريمين على الإطلاق، بل هما شحيحان مقتران إلى درجة بعيدة. فعزم على الرحيل. بذلا جهدهما في إقناعه بالعدول عن فكرته، ولكنه أبى. قال شارحا: "أنا لست أكثر من راهب. وليس في مقدوري أن أصير قاطع طريق".

قال زعيما العصابة: "إن أصررت على الرحيل، يا أخانا، فلسوف نهبط حتى سفح الجبل في الغداة. وما نستطيع أن نجمعه هنالك نعطيك إيّاه ليكون نفقات لرحلتك".

نُحرت في صباح اليوم التالي أغنام في الحصن، وأقيمت مأدبة وداع. وحين تهيأت الأمور بسطت على المنضدة مجموعة من الكؤوس الفضية والذهبية.

وبينا الطاعمون يتأهبون للجلوس والمباشرة بالشراب وصل قاطع طريق وقدم التقرير التالي: "ثمة عربتان كبيرتان وحوالى دستة من المسافرين يمرون بسفح الجبل".

حشد لي تشونغ وتشو تونغ رجالهما على الفور، تاركين شخصين يقومان على خدمة الحصيف وصب الشراب له. وخاطبه زعيما اللصوص قائلين: "يا أخانا، هلا تناولت بعض الأقداح من دوننا! سننزل لجمع بعض الثروة. وسننضم إلى مأدبة وداعك في ما بعد". وأصدرا أوامرهما إلى اللصين القائمين على خدمة الحصيف، وهبطا عن الجبل في مقدمة رجالهما.

همس الحصيف في سره: "يا للبخيلين! فهما لن يعطياني شيئا من هذا الركام الذهبي والفضي الذي بسطاه هنا، بل راحا ينتظران أن يسرقا شيئا يقدمانه لي! هذا لن يكلفهما شيئا. وعلى المسافرين

على الطريق العامة أن يدفعوا ثمن ذلك. لسوف أهرق الفزع في فؤادي هذين الأخرقين!".

أمر اللصين القائمين على خدمته أن يصبا له قليلا من الخمرة، ورشف طفاح قدحين. ثم وثب على حين غرة ناهضا على قدميه، وطرح بهما على الأرض بضربة واحدة من قبضته إنهال بها على كل منهما، وربطهما بحزامه وكعم ثغريهما بحبل مصنوع من القنب. وأفرغ كيسه من محتوياته إلا من الضروريات، ثم جمع الأواني الذهبية والفضية عن المنضدة، وداسها بقدميه فجعلها مسطحة الشكل، ودسها في الكيس. ووضع رسالة رئيس الدير في كيس صغير يضم شهادته الرهبانية يحمله قريبا من صدره. وعلق السكين في وسطه، وتناول عصاه، وغادر الحصن وقد وضع الكيس الكبير على رأسه.

عند مؤخر الجبل رمى أنظاره على طول المنحدر. كانت الهاوية عميقة وليس ثمة طريق فيها. فقال في فكره: "إذا رحلت عن طريق الدرب الأمامية فلا بد أن ألتقي اللصين! يفضل أن أتدحرج من هنا حيث العشب كثيف".

ربط الكيس والسكين معا، وأسقطهما على المنحدر، ودفع العصا وراءهما ثم تدحرج على المنحدر فتشقلب على طول الطريق المؤدية إلى سفح الجبل من دون أن يصاب بأي سوء. ووثب على قدميه، وعثر على الكيس الذي رُبطت السكين إليه، والتقط عصاه. اختار سبيله واتجه ناحية العاصمة الشرقية.

لنرجعن الآن إلى لي تشونغ وتشو تونغ اللذين التقيا عند طريق الجبل دستة من المسافرين كانوا جميعا شاكي السلاح. رفع زعيما اللصوص رمحيهما عاليا فاندفع رجالهما هاجمين. وصاح الزعيمان: "إن كنتم على شيء من الحصافة أعطونا ما تملكون واشتروا لأنفسكم طريقا مأمونة!".

اندفع أحد المسافرين، ومطرده في يده صوب لي تشونغ، وتصاولا أكثر من عشر جولات، أماما ووراء، فلم يستطع أحدهما التغلب على اللآخر. فركض تشو تونغ، وقد اشتمله غضب عاصف، مطلقا صرخة ثاقبة، فلحق به اللصوص الآخرون. فما استطاع المسافرون أن يقاوموا مثل ذلك العدد الكبير. فأطلقوا للريح سيقانهم. كانت حركة بعضهم متأنية، فتعرض سبعة أو ثمانية منهم للذبح. وغنم اللصوص العربات ومحتوياتها الثمينة، ورجعوا متماهلين إلى الجبل، مطلقين أناشيد الظفر.

حين وصلوا إلى الحصن وجدوا رفيقيهم مربوطين إلى عمود. وتبينوا أن الكؤوس الذهبية والفضية التي كانت على المنضدة اختفت جميعا. حل تشو تونغ رباط اللصين وسألهما: "أين الحصيف لو؟".

فأجابا: "لقد رمانا أرضا وربطنا. ثم جمع الكؤوس وأخذها!".

قال تشو تونغ: "ذلك اللص الحقير شرير. لقد خدعنا! على أي طريق رحل؟".

هب الجميع ينقبون المكان إلى أن عثروا على آثار قدميه تتجه صوب مؤخر الجبل وشاهدوا العشب المدعوس على المنحدر.

قال تشو تونغ: "يا له من محتال خبير، ذلك الوغد المحتال، يتدحرج على مثل هذا المنحدر الوعر!".

اقترح لي تشونغ: "فلنتعقبه ونستجوبه. سوف يشعره ذلك بالعار!".

فقال تشو تونغ: "انس هذا الأمر. لا فائدة ترجى من إغلاق الباب بعد هروب اللص. وأين ترانا نبحث؟ حتى لو عثرنا عليه وخاطبناه فلن نسترد شيئا من أموالنا. فلا أنا ولا أنت ند له في العراك، وعثورنا عليه في ما بعد يزيد الأمور تعقيدا. يحسن بنا أن ننسى الموضوع كله. في المستقبل، إذا أتيح لنا لقاء، فلسوف نتظاهر وكأن شيئا لم يقع. لنفتحن الأكياس الموجودة على العربات. وسنقسم الذهب والفضة والحرير ثلاثة أقسام. آخذ أنا قسما وتأخذ أنت قسما. والقسم الثالث يمكن توزيعه على بقية الرجال".

فقال لي تشونغ: "لقد سرق أشياء كثيرة خاصة بك. ولأني كنت السبب في حضوره إلى هنا في مقدورك أن تأخذ حصتي أيضا".

قال تشو تونغ: "يا أخي، نحن شريكان معا في الحياة والممات. ليس هنالك ما يدعو إلى أن تكون هنالك حسابات زهيدة بيني وبينك".

يا قارئيَ العزيز، تذكر ما يلي: "كان لي تشونغ وتشو تونغ يمارسان عمليات السطو والنهب من مخبئهما على جبل الدراق المزهر.

أما الحصيف لو، فما إن غادر حصن اللصوص حتى راح يغذ السير من الصباح إلى العصر، فاجتاز حوالى خمسين أو ستين ليا. وأرمضه الجوع، ولكنه لم يقع في الطريق لأي خان على أثر.

خاطب نفسه قائلا: "انطلقت باكرا مسرعا من دون أن أجهد فكري في أكثر من الرحيل ولم أحمل معي شيئا آكله. فأين تراني أعثر على طعامي؟".

تلفت حواليه. فتناهى إلى سمعه، من بعيد، صوت أجراس. همس في نفسه: "حسن. إن لم يكن هذا ديرا بوذيا فلا ريبة أنه معبد تاوي. هذه الأجراس معلقة بإفريز السقف، والريح تجعلها تقرع. هذا مكان يناسبني".

لو لم يذهب الحصيف لو إلى هناك فما كان يمكن أن تطوى حياة عشرات الرجال في الليل، وما كان المعلم القديم لجبل مقدس تلتهمه النيران. ولكن النتيجة كانت كما يلي: "نيران حمراء تتقيّأها الردهات الذهبية، ودخان أسود يتماوج في المعابد الخضراء اليشمية.

إلى أي بناء مقدس لجأ الحصيف؟ إن أحببت معرفة ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السادس

شي جين التنانين التسعة يمارس السرقة في غابة الصنوبر الأحمر؛ والحصيف لو يحرق دير واغوان ويتركه رمادا

بعدما اجتاز الحصيف لو عددا من الجسور لمح ممرا يصعد في الجبل عبر غابة فسيحة من الصنوبر. فانعطف في ذلك الممر ومشى عليه قرابة نصف لي ووصل إلى دير متقوض. من هذا الدير كانت أصداء الأجراس تنتشر. وكانت هنالك لوحة قرمزية باهتة اللون معلقة فوق أحد الأقواس خُطت عليها هذه الحروف الذهبية: "دير واغوان". سار لو قرابة أربعين أو خمسين خطوة أخرى، واجتاز جسرا حجريا، ودلف إلى بناء، واتخذ سبيله مباشرة إلى غرفة الضيوف. كانت بوابتها الأمامية مخلعة وجدرانها منهارة.

همس في سره: "مثل هذا الدير الكبير وينزل به الخراب على هذا الغرار؟".

انثنى إلى غرفة رئيس الدير. كانت تعج بروث طيور السنونو، وانتشر فوقها نسيج أحد العناكب. فضرب لو الأرض بطرف عصاه، صائحا: "راهب عابر يبغي لقمة من طعام".

وقف يصيح فترة من وقت، فما أجابه أحد.

انعطف صوب المطهى. لم يكن هنالك من مرجل فيه. وموقده الطيني منهار. حلّ لو صرنه ووضعها أمام تمثال إله المطبخ. وحمل عصاه، وهبَّ يتفقد المكان. عثر في مؤخر المطهى على حجرة صغيرة جلس فيها عدد من الرهبان الشيوخ شحبت وجوههم وغارت ملامحهم.

قال: "يا لكم من قساة، أيها الرهبان. صرخت وهتفتُ فما أعطاني أحدكم جوابا".

لوح أحد الرهبان بيده قائلا: "أخفض صوتك".

قال لو: "أنا راهب عابر أبتغي لقمة من طعام. فما الخطأ في هذا؟".

– نحن لم نتناول لقمة واحدة منه طوال ثلاثة أيام فكيف نعثر لك على شيء من هذا الطعام؟".

– جئت من جبل ووتاي. ونصف قصعة من ثريد تكفيني.

– ينبغي أن نطعمك طالما أنك جئت من لدن بوذا الحي. لكن، ما حيلتنا؟ لقد رحل جميع الرهبان الآخرين، ولم تتبق لدينا حبة من قمح. وتعرضنا للجوع طوال الأيام الثلاثة الماضية.

– كذابون! لا أصدق أنه ليست هنالك حبة من قمح في مثل هذا المكان الكبير.

– صحيح أن ديرنا كان عامرا بالخيرات ذات مرة. وكان الرهبان العابرون يمرون به من شتى أرجاء المعمور. جاءنا أحدهم مرة بكاهن تاوي وأقاما يشرفان على الدير فدمرا كل شيء. لم يكن هنالك شيء يمتنعان عن ارتكابه. فطردا جميع رهباننا. وحدنا نحن الذين تعجزنا الشيخوخة عن الرحيل بقينا هنا. وهذا هو السبب في أننا لا نملك شيئا نأكله.

- كذابون! ماذا يستطيع راهب واحد وكاهن واحد أن يأتيا من أعمال؟ أفما استطعتم أن ترفعوا شكوى إلى الحكومة؟

- أيها المبجل، أنت لا تفهم شيئا. نحن هنا بعيدون عن أي مكتب من مكاتب الحكومة. وفضلا عن هذا، فإن الجنود أنفسهم ما كانوا يستطيعون شيئا حيال ذينك الرجلين. فهما متوحشان متوحشان، والقتل والحرق المتعمد أبسط الأمور بالنسبة إليهما. وهما يقيمان في بناء يقع وراء ردهة رئيس الدير.

- وما اسماهما؟

- الراهب يدعى تسوي، ولقبه البوذي المكمِّل، ويكنى بوذا الصلبي. والكاهن التاوي يدعى تشيو. أسماه والده الابن الثاني. ويكنى الرسول الطائر من الجحيم. وتصرفات كل منهما لا تدل في شيء على أنه ممن تخلى عن هذا العالم المادي. وهما ليسا أكثر من لصين في الغابة الخضراء. كما أنهما يستخدمان الكهانة ستارا للتمويه.

بينا الحصيف لو يستجوب الرهبان الشيوخ عصفت بأنفه زفرة طعام. فأخذ عصاه وتلصص إلى مؤخر البناء. هنالك كان ثمة بخار يتسلل من جوانب غطاء مصنوع من القصب موضوع على قدر تغلي فوق موقدة طينية. رفع الغطاء فوجد كمية من الدخن تغلي في القدر. فصاح: "ويلكم من قساة، أيها الرهبان الشيوخ! تقولون إنكم لم تأكلوا شيئا طوال ثلاثة أيام. وههنا تغلون ملء قدر من الثريد! يفترض في الرهبان ألا يتنكبوا جانب الصراح!".

تضايق الشيوخ من اكتشاف لو. فأسرعوا يرفعون جميع القصع والأطباق والصحون والمغارف والدلاء. كان الجوع يعصف بالحصيف لو إلى درجة الخبال. شاهد الثريد وأراد أن يأكل. لكن الرهبان أخذوا جميع الأدوات المستعملة في الطعام. ورأى إلى جانب الموقد منضدة مخلعة قديمة مدهونة يغطيها الغبار. "الحاجة أم الإبداع". وضع عصاه جانبا، والتقط كمية من القش من جانب الموقد، ونفض الغبار، وحمل القدر بيديه، وأراق محتواها من الثريد على المنضدة.

تراكض الرهبان يختطفون الثريد، فطردهم وضربهم. هوى بعضهم على الأرض، وأسلم آخرون للريح سيقانهم. وجعل الحصيف يغترف الثريد عن المنضدة ويلتهمه. لم يكد يشرع في ذلك حتى خاطبه أحد الرهبان الشيوخ قائلا: "لم نذق شيئا من الطعام منذ ثلاثة أيام! اليوم تدبرنا أمرنا واستعطينا هذه الكمية الضئيلة من الدخن جعلنا نصنع منها قليلا من الثريد، فجئت أنت تلتهمه عن آخره!".

لم يكن لو قد ابتلع أكثر من ست أو سبع لقمات، فكف عن الأكل بعد سماعه ذلك القول.

في الخارج ثمة إنسان يغني أغنية ساخرة. غسل لو يديه، وتناول عصاه ومضى يلقي نظرة. شاهد على الطرف الآخر من جدار متقوض كاهنا تاويا لف رأسه بمنديل كبير أسود اللون، يرتدي ثوبا من القماش ربطه حول وسطه بحزام متعدد الألوان، وينتعل في قدميه حذاء من القنب، ويحمل على كتفه عصا تتدلى من أحد طرفيها سلة من الخيزران فيها بعض الأسماك وقليل من اللحم ملفوف بورقة من أوراق اللوتس، وتتدلى من طرفها الثاني جرة من الخمرة سدت فوهتها بورقة أخرى من اللوتس. كان الكاهن يترنم بهذه الأغنية:

في الشرق بيتُك، وفي الغرب أنا
لا زوج لي، وأنت لا زوج لكِ
أعيش من دون امرأة أنا هنا،
فكيف تحيين بدون زوجكِ؟

ركض الرهبان الشيوخ ملوحين بأيديهم، واقتربوا من الحصيف لو هامسين: "هذا هو الكاهن الرسول الطائر من الجحيم، أو الابن الثاني تشيو!".

اختطف الحصيف لو عصاه ولحق به. لم ينتبه الرجل أن هنالك من يتعقبه، فدلف من باب في الجدار يقع وراء غرفة رئيس الدير. وحذا لو حذوه. فوقع بصره تحت شجرة خرنوب على منضدة مفروشة بأطباق من الطعام، ثلاثة أقداح للخمر، وثلاثة أزواج من عصي الطعام. وكان ثمة راهب بدين البنية يجلس في المقعد الأوسط، حاجباه أشبه بخطين من دهان دبق، ووجهه أسود اللون كالحبر. كان منتفخا بالعضلات، يتورّم بطنه الداكن تحت صدره. وثمة امرأة تجلس بجانبه. وضع التاوي السلة الخيزرانية واتخذ لنفسه مقعدا.

مشى لو إليهما. أجفل الراهب فوثب على قدميه وصاح: "أرجو أن تجلس يا أخي، اشرب قدحا معنا".

سأل الحصيف لو، وهو يشد على العصا بيديه: "ماذا تبغيان، أنتما الاثنان، من خرابكما للدير؟".

أجاب الراهب: "أرجوك أن تجلس، يا أخي. واسمح لي بالكلام".

صرخ لو، وقد جحظت عيناه: "لنصغينَّ إليك. هيا، تكلم فإنني سامع منك".

– كان هذا الدير مكانا رائعا، وحقوله فسيحة، ورهبانه عديدون. ولكن أولئك الرهبان الشيوخ الذين يعيشون في الأروقة يحبون الطعام والشراب ويسرفون فيهما وينفقون المال على النساء. ولم يستطع رئيس الدير أن يصدهم عن هذا الأمر. اشتكوا عليه وطردوه. ونتيجة لذلك حل الخراب بالدير، وغادره الرهبان جميعا، وبيعت الحقول بأسرها. ونأمل أن نعيد النظام إلى الدير ونصلح جميع القاعات فيه.

استفسر الحصيف لو: "ومن تكون هذه المرأة؟ وفيم هي جالسة هنا تشاركك الشراب؟".

جهر الراهب: "أرجو أن تصغي إليّ، يا أخي. هذه المرأة ابنة وانغ يو جين من القرية القائمة في سفح الجبل. كان يقدم للدير هبات في كثير من الأحيان. ولكن الأمور ساءت بالنسبة إليه واضطر أن يبيع ممتلكات الأسرة كلها. ولم يكن لابنته أقارب آخرون، وزوجها مريض، فجاءت إلينا تقترض قليلا من الحبوب. ولأن والدها كان من رعاة الدير دعوناها تجرع قليلا من الخمرة. هذه هي القصة بأكملها، يا أخي. فلا تصغِ إلى ما يصرف بحقنا أولئك الحيوانات الشيوخ".

تأثر لو من حديث الراهب المهذب. فغمغم يقول: "كان أولئك الرهبان الشيوخ يحتالون عليَّ". وآب إلى المطهى وعصاه في يده. كان الرهبان قد أتوا على الثريد وجعلوا يراقبون الأحداث من بعيد.

أشار الحصيف لو إليهم قائلا في نبرة غاضبة: "إذاً، أنتم من عملوا على خراب الدير. كذبتم عليَّ". أجاب الشيوخ في صوت واحد: "لا تصدق كلام ذلك الراهب، يا أخي. إنه يحتفظ بامرأة لديه الآن. ورآك تحمل عصا وسكينا، وهو أعزل من السلاح، فما جرؤ على المشاكسة. إن لم تصدقنا فارجع إليه مرة أخرى وانظر كيف تكون معاملته إياك. احكم بنفسك، يا أخي. إنهم يشربون الخمرة ويأكلون اللحوم، في حين لا نملك نحن غير قليل من الثريد. حتى لقد أقلقنا إقدامك على التهامه".

نبر لو: "هذا صحيح". وحمل عصاه من طرفها الآخر، ورجع إلى مؤخر مبنى رئيس الدير. كان الباب القائم في زاوية الجدار مغلقا. فانهال عليه الحصيف غاضبا برفسة فتحته على مصراعيه، ودلف منه. اندفع صوبه بوذا الصلبي، أو تشيو المكمل، ومطرده في يده، يهاجمه تحت شجرة الخرنوب. فوثب لو مزمجرا وهب يعارك مستخدما عصاه سلاحا.

تعاركا أربع عشرة أو خمس عشرة جولة. لم يكن تشيو ندا للحصيف، فجعل يتفادى ضرباته ويراوغ في القتال. وصارت قواه تهرب منه، فراح يتحين الفرصة للهرب. وحين رأى الكاهن التاوي ما حصل هاجم لو من الخلف بمطرد آخر. سمع لو صدى خطواته المقتربة، ولم يجسر على الالتفات. ثم لمح خيال الكاهن على الأرض، وعرف أنه يوشك على الانقضاض عليه. فأطلق صيحته: "الآن!". وظن تشيو، والرعب يعصف بأوصاله، أن تلك الصيحة دلالة على ضربة تنهال عليه من عصا الرائد السابق. فوثب هاربا من دائرة المعركة. واستدار الحصيف لو يواجه عدوه في الزاوية. وهب يثاقف عدويه طوال أكثر من عشر جولات. ولكنه كان جائعا أنهكه الترحال، فما استطاع أن يصمد أمام قوتيهما معا. خادعهما وركض يجر عصاه وراءه. فلوح خصماه بمطرديهما، ولحقا به إلى خارج الدير. وهنالك تصاولا عشر جولات أخرى. فانتهب لو الطريق من جديد. فطارداه إلى حدود الجسر الحجري. وهنالك جلسا على حافة الجسر يستردان أنفاسهما.

تابع الحصيف لو سيره مسافة طويلة. وحين استرد أنفاسه هو الآخر انطلق يخاطب نفسه قائلا: "لقد تركت صرتي إلى جانب إله المطبخ. فكرت في الفرار فنسيت أن أعود بها. لقد غدوت الآن من دون مال يكفيني عناء الطريق، والجوع ينهش معدتي. يا للورطة الحلوة! لا أستطيع العودة لأن ذينك الوغدين يترقبانني. إنهما اثنان ضدي وحدي. لسوف أهدر حياتي هباء".

مشى متريث الخطى مسافة أخرى إلى أن بلغ غابة ضخمة أشجارها من صنوبر أحمر. فهجس في سره: "يا للغابة شريرة الطلعة!". وعلى غير انتظار، وقع بصره على رجل يمد رأسه من بين الظلال. أشخص الرجل نظره إليه، وبصق، ثم توارى من جديد بين الأشجار!

حدث لو نفسه قائلا: "ذلك العصفور لص من دون ريب، أو لقد فقدت حاسة البصر. وهو مقيم ههنا في انتظار فرصته. وحين رأى أني راهب عرف ألا فائدة ترجى مني، فبصق واختفى. سوء حظه أوقعه بين يدي. فأنا عامر بغضب لا أجد له منتفسا. سأجردنَّ ذلك الوغد من ثيابه وأبيعها وأشتري بثمنها خمرة".

أشرع عصاه في يده، وركض إلى الغابة صائحا: "أيها المتشرد في الغاب، اخرج إليَّ، عجِّل!".

حين سمع الرجل صوته ضحك وقال: "ساءت أحوالي ونفدت أموالي وهذا تواق إلى

الشجار".

اختطف مطرده وبرز من بين الأشجار، وصاح: "أيها الحمار اللعين! أنت من تبحث عن موتك بظلفك! ولست أنا من بحث عنك!".

قال لو: "سأرينّك من أكون". لوح بعصاه، وهجم. فمد الآخر خطواته إليه بمطرده. ولكنه جعل يهمس في سره خلال ذلك: "أين تراني سمعت مثل هذا الصوت من قبل؟".

قال: "صوتك مألوف لدي، أيها الراهب، فما اسمك؟".

رد عليه الحصيف مجيبا: "سأخبرك باسمي بعد أن نتعارك ثلاثمائة جولة".

هجم الرجل وقد اشتمله غضب، والتقى مطرد وعصا. جالا دستة من الجولات. وهتف الرجل في نفسه معجباً: "ذلك الراهب محارب قدير". ونادى بعد خمس جولات أخرى: "رويدك برهة. إن لديّ ما أعالنك به".

وثب المتقاتلان خارج دائرة المعركة.

استقصى الرجل: "ما هو اسمك حقا؟ أنا واثق أني أعرف نبرة صوتك".

فأخبره الحصيف باسمه. دفع الرجل مطرده جانبا، وانحمى سائلا: "ألا تعرف من يدعى شي جين؟".

ضحك الحصيف لو: "إذاً، هذا أنت، أيها المعلم الأصغر شي!".

تبادل الاثنان التحية، ودلفا إلى الغابة وجلسا. وسأل الراهب: "أين كنت منذ فراقنا في ويتشو؟".

– في اليوم التالي لمفارقتي إياك في الحانة سمعت أنك قتلت اللحام تشنغ وهربت. واكتشفت الشرطة أني ساعدتك في إرسال الشيخ جين وابنته المغنية، فاتخذت قراري بمغادرة ويتشو أيضا. ذهبت إلى يانتشو أفتش عن معلمي وانغ جين، ولكني لم أعثر له على أثر. ونفدت نقودي فجئت إلى هذا المكان، على أن أتصيد قليلا فيه، ولم يخطر لي في بال أني قد أجتمع بك هنا. ما الذي جعل منك راهبا، يا أخي؟

روى له لو القصة بأكملها من بدايتها.

قال شي جين: "إن كنت جائعا، يا أخي، فأنا جففت لحما وقليلا من الكعك المحلّى." وقدمهما للحصيف لو مسترسلا:

– تقول إنك تركت صرتك في الدير. فلنرجع ونحضرها. إذ رفضا إعادتها إلينا، سوف نتخلص من ذينك الوغدين.

قال لو: "حسن".

بعد أن تناولا كفايتهما من الطعام حملا سلاحيهما ورجعا إلى دير واغوان. وفيما هما يقتربان من المدخل شاهدا تسوي المكمل وتشيو الابن جالسين على الجسر.

صاح لو: "تعالا، أيها اللعينان! ولنتقاتل حتى النهاية!".

ضحك الراهب السمين، وهو يقول: "لقد جلدتك مرة. أفما اكتفيت؟".

ركض الحصيف غاضبا ناحية الجسر، ملوحا بعصاه.

انزعج بوذا الصلبي، فهجم بدروه مشرعا مطرده.

عرف الحصيف أن شي جين يدعمه فمده ذلك بمزيد من الشجاعة. يضاف إلى هذا أنه أكل هنيئا فسمت معنوياته كثيرا. ثاقف الراهب السمين في ثماني أو تسع جولات، فاستنزف قوى تسوي شيئا فشيئا وجعله يبحث عن وسيلة للهرب. وأدرك الكاهن التاوي تشيو أن تسوي بدأ ينهزم، فعجل بمطرده يقدم له العون.

برز شي جين من الغابة وصاح:

- لا يحاولن أحد منكما الفرار! ودفع قبعته عريضة الحافة إلى الخلف وهجم على الكاهن ومطرده في يده.

تعارك الاثنان بوحشية. وكانت المعركة بين لو وتسوي قد بلغت أوجها. ورأى لو ثغرة، فأعلن:

- هذه هي. وانهالت ضربة واحدة من عصاه طوحت بوذا الحديدي عن الجسر.

لمح الكاهن الراهب يهوي فهربت منه شجاعته. عمد إلى الخديعة بسلاحه، وولى الأدبار راكضا.

قال شي جين:

- أين تحسب نفسك هاربا؟ لحق به، وغرز مطرده في ظهر الكاهن، فسقط على جانبه. ووضع شي جين قدمه عليه وطعنه مرارا وتكرارا.

أسرع لو هابطا عن الجسر، وبضربة واحدة من عصاه قصم ظهر تسوي.

يا للوحشين المسكينين! انطوت حياتهما مثلما يطوى الحلم.

ربط الحصيف وشي جين جسدي ضحيتيهما بعضهما ببعض، وألقيا بهما في الوادي، ثم دلفا من جديد إلى الدير وأخذا صرة لو من المطهى. أما الرهبان الشيوخ فعمدوا، حين لمحوا لو يذهب في سبيله وخشوا نقمة تسوي المكمل وتشيو الابن الثاني، إلى شنق أنفسهم جميعا. وحين دخل الحصيف لو وشي جين من باب الجدار القائم وراء ردهة رئيس الدير وجدوا أن المرأة التي كانت في الدير وثبت في البئر وانتحرت.

وجدا مجموعة من الغرف فيها ثلاث أو أربع صرر للثياب. فتحها شي جين فرأى فيها أشياء ذهبية وفضية. فاختارا مجموعة منها لفّاها. وشاهدا في المطهى سمكاً وخمرة ولحماً. فأشعلا الموقد وطبخا طعاماً والتهماه.

ثم حمل كل منهما صرته. وربطا مجموعة من القصب إلى بعضها فجعلا منها مشاعل أشعلاها من الموقد. وحين التهبت رؤوسها أضرما النار في الأبنية الصغيرة القائمة في مؤخر الدير. وحين شبت النيران فيها ووصلت إلى الباب أشعلا مشاعل جديدة وأضرما النار في الردهة الرئيسة من الخلف. وعندها هبت الرياح، وسرعان ما انثال اللهيب المضطرم يتسامى صوب السماء.

راقب الحصيف لو وشي جين المشهد فترة من الوقت. الدير بأسره تلتهمه النيران بسرعة. وخاطب كل منهما الآخر في سخرية قائلا: "ما أجمل المكان هنا! ولكنه مكان لا يصلح أن نتخذ منه

مأوى لنا!".

خرجا وسارا الليل بطوله. وحين شرع الضوء يلوِّن صفحة السماء لمحا عددا من الأبنية في المنتأى. لا ريب أنها مدينة صغيرة. أعجلا إليها فرأيا حانة صغيرة إلى جانب جسر مؤلف من صفيحة واحدة من الخشب.

دخل لو وشي جين وشربا وجعلا الخادم يشتري لهما بعض اللحم الطازج والأرز، وقاما بطبخهما بنفسيهما. وفي أثناء الطعام روى كل منهما للآخر تجاربه خلال رحلته المنفردة.

استوضح لو بعدما انتهيا من تناول الطعام: "إلي أين ستذهب الآن؟".

- الأمر الوحيد الذي أستطيعه هو العودة إلى جبل شاوهوا والانضمام إلى تشو وو والزعيمين الآخرين. بعد أن أقيم فترة هنالك أتخذ بشأن خطوتي المقبلة قرارا.

قال لو: "حسن جدا، يا أخي". وغرف كمية من الكؤوس الذهبية والفضية من حقيبته أعطاها إلى شي جين.

ربط كل منهما عندئذ صرته، وحمل سلاحه، وسددا الحساب، وغادرا الحانة والبلدة. اجتازا ستة أو سبعة ليات فوصلا إلى مفترق على الطريق.

قال لو: "هنا نفترق، يا أخي. أنا ذاهب إلى العاصمة الشرقية. لا تتابعنَّ الطريق لوداعي. أنت ذاهب إلى هواتشو. فخذ تلك الطريق. سنلتقي معا مرة أخرى في يوم من الأيام. إذا عرفت أن هنالك من يمر بالمكان الذي أقيم فيه، ففي مقدورك أن ترسل إليَّ رسالة".

انحنى شي جين وألقى على الحصيف لو تحية الوداع. وذهب كلٌّ في سبيل.

سنتحدث الآونة عن الحصيف لو. فبعيد ثمانية أو تسعة أيام مشاها على الطريق وصل إلى العاصمة الشرقية. ودلف إلى المدينة، فوجدها مكانا صاخبا يعج بالضجيج. وفي وسط المدينة توجه إلى أحد السابلة مستفسرا في رقة:

- أيمكن أن ترشدني أين يقوم دير شيانغقوه الكبير؟

- هنالك، إلى الأمام، عند الجسر.

استرسل الحصيف لو في طريقه إلى الدير حاملاً عصاه. وأمعن النظر فيه شرقاً وغرباً، ثم اقترب من دارة الضيوف. وأسرع خادم يعلن عن قدومه. فهرول راهب الاستقبال يحييه. وأجفلته قليلا طلعة لو الوحشية، والعصا الحديدية التي يمسك بها في يده، والسيف الذي يتدلى عن وسطه، والصرة الملقاة على ظهره. فاستفسر قائلا: "من أين أنت، يا أخي؟".

قال الحصيف:

- أنا من جبل ووتاي. أحمل رسالة من رئيس ديري تسترحم المعلم المشرق، رئيس هذا الدير المحترم، أن يعطيني منصب راهب عامل.

- في هذه الحالة أرجو أن ترافقني.

تبعه الحصيف لو إلى غرفة رئيس الدير، وفتح صرته، وأخرج الرسالة منها.

سأله راهب الاستقبال: "كيف تراك تجهل المراسم، يا أخي؟ سيحضر رئيس الدير خلال دقيقة

واحدة. انزع سكينك، وأخرج ثوبك وحصيرك، وأشعل بخور الصدق إعراباً عن ولائك للرئيس".

استفسر الحصيف: "لماذا لم تخبرني بذلك من قبل؟".

نزع سكينه، وأخرج حزمة من البخور وحصيره وثوبا من صرته. ولكنه لم يكن يعرف ماذا يفعل بها. وضع راهب الاستقبال ثوب لو على كتفيه وطلب إليه من بعد أن يضع حصيره على الأرض.

بعيد برهة من الوقت ظهر رئيس الدير، المعلم المشرق. فخطا راهب الاستقبال إليه وقال:

- هذا الراهب جاء من جبل ووتاي حاملا رسالة من رئيس ديره.

فقال المعلم المشرق: "مضى زمن طويل منذ أن كتب لي أخي من جبل ووتاي".

همس راهب الاستقبال: "عجل، يا أخي. وقدم احترامك لرئيس ديرنا".

لم يعرف لو أين يضع حزمة البخور؛ الأمر الذي أثار ضحك راهب الاستقبال. فوضع الحزمة في المبخرة. وسجد الحصيف لو ثلاث مرات. وأوقفه راهب الاستقبال ثم قدم رسالته إلى رئيس الدير.

فضَّ المعلم المشرق الرسالة وقرأها. كانت تروي بصورة مفصلة السبب الذي حدا بالحصيف لو أن يصير راهباً، والسبب في إرساله من جبل ووتاي إلى الدير في العاصمة الشرقية. وانتهت الرسالة إلى القول: "ونترجى أن تتفضلوا مشكورين بإعطائه عملاً. رجاؤنا ألا ترفضوا طلبنا. لسوف يحقق هذا الراهب مآثر عظيمة في قابل الأيام".

أعلن رئيس الدير بعدما انتهى من قراءة الرسالة: "لقد قطعت طريقاً طويلة. استرح في جناح الرهبان. وسوف يقدمون لك طعاماً".

شكره الحصيف. وجمع حصيره، وصرته، وعصاه، وسيفه، ولحق بالمترهبن خارجاً. استدعى رئيس الدير طبقتي الرهبان لديه، وحين التأم شملهم في قاعته توجه إليهم قائلا: "إن أخي، رئيس دير جبل ووتاي لا يملك شيئا من الحذر. فهذا الراهب الذي بعث به إلينا كان ضابطا من ضباط حامية الحدود. وقد حلق شعره لأنه قتل رجلاً. وأثار الشغب مرتين في جناح الرهبان في دير ووتاي. ولم يكف عن ذلك. ولم يستطع أخي رئيس الدير أن يضع لشغبه حداً فأرسله إلينا. فهل أرفض قبوله بيننا؟ إن أخي يصرُّ على رجائه ولا أستطيع لذلك رفضا. لكني إن أبقيته هنا فقد يفسد أنظمتنا ويوقعنا في متاعب".

قال راهب الاستقبال: "على الرغم من أنه أخ لنا في الرهبنة. فهو لا يبدو على شيء من الشبه برجل تخلى عن العالم الأرضي، فكيف نبقيه بيننا؟".

وقال الشماس: "خطرت لي فكرة. إن لنا خارج بوابة النخل المر حديقة للخضراوات فيما وراء المبنى يقيم فيما رهباننا العمال المتقاعدون، أليس كذلك؟ وجنود الحامية بالإضافة إلى الأوغاد العشرين الآخرين الذين يعيشون قريبا من هنالك يدمرونها على الدوام. حتى إنهم يرعون الأغنام والخيول فيها. وذلك يوقعنا في ورطة. والراهب العجوز المسؤول عنها يقف مكتوف اليدين. فلم لا نبعث هذا الشاب إليها؟ على أقل تقدير هو لن يشعر بشيء من الخوف هناك".

قال رئيس الدير: "هذه فكرة حسنة". وأمر مساعده قائلا: "حين ينتهي هذا الأخ في غرفة

الضيوف من جناح الرهبان من تناول طعامه أحضره إلينا".

خرج المساعد، وما أسرع أن رجع برفقة الحصيف.

قال المعلم المشرق:

- أوصى أخي رئيس الدير أن نضمك إلينا. وإن لديرنا حديقة خضراوات واسعة خارج بوابة النخل المر، في جوار معبد الجبل المقدس. سوف أعهد إليك بالإشراف عليها. وينبغي على الرجال الساهرين عليها أن يزودونا في كل يوم بعشرة أحمال من الخضراوات. أما بقية ذلك فمن نصيبك.

قالو لو: "أرسلني رئيس ديري لأصير راهبا في الدير هنا. فإن لم تجعلني مشرفا أو شماسا، فكيف تجعلني مسؤولا عن حديقة للخضراوات؟".

فقال شيخ الدير متدخلا في الحديث: "أنت لا تفهم، يا أخي. لقد وصلت من توِّك. ولم تظهر شيئا من جدارة بعد. فكيف يمكن أن نعينك شماسا. إن الإشراف على الحديقة عمل على جانب من الخطورة أيضا".

صاح الحصيف لو: "أنا لن أشرف على أية حديقة للخضراوات. لن أعمل إلا مشرفا أو شماسا".

فقال راهب الاستقبال: "لأشرحنَّ الأمر لك. إن لدينا عدة أصناف من الأعضاء. فأنا، على سبيل المثال، راهب الاستقبال. وعملي هو استقبال الضيوف والرهبان من الزوار. ومنصب كل من المتقدم، والمساعد الشخصي لرئيس الدير. والكاتب، وشيخ الدير، كل منهما منصب خاص ليس من السهل الحصول عليه. والمشرف والشماس والمدير والمسؤول قيِّمون على أملاك الدير. وأنت جئت من توِّك. فكيف يمكن أن نعطيك مثل هذا المنصب الرفيع؟ إن لدينا أيضا مناصب من أمثال المشرف على مجموعات الحكم، والمشرف على القاعات، والمشرف على الغرف، والمشرف على استعطاء الهبات، والمشرف على الحمّام. هذه المناصب يشغلها أعضاء من المراتب الوسطى. ثم إن لدينا مجموعة من المسؤولين: المسؤول عن الباغودا، وعن المطهى، وعن الشاي، وعن حديقة الخضراوات، وعن المراحيض. هذه أعمال يشغلها الناظرون، وهم في العادة من أصحاب الرتب الدنيا. فإذا أشرفت على الحديقة جيدا طوال عام كامل، يا أخي، فسوف ترتفع رتبتك إلى حارس للباغودا، وإن قمت بعملك على خير وجه طوال عام كامل آخر، فسوف تصير مشرفا على الحمّام. وبعيد عمل ممتاز آخر طوال عام قد تعين مشرفا".

قال لو: " إذاً، هكذا الأمر. طالما أن هنالك مجالاً للتقدم، فسأباشر العمل منذ الغداة".

أذن له رئيس الدير بالبقاء ذلك النهار في ردهة رئيس الدير. ودوَّن إعلان بقبوله وعلَّق في المبنى لإطلاع الرهبان العمال المتقاعدين يسري مفعوله اعتبارا من اليوم التالي.

في صباح اليوم التالي جلس المعلم المشرق على منصته وأصدر الإعلان عن قبول الحصيف لو في منصب المسؤول عن حديقة الخضراوات. وقبل الحصيف هذا المنصب، وألقى تحية الوداع على الرئيس، ورمى صرته على كتفه، وعلَّق سكينه في وسطه، وحمل عصاه. ومضى برفقة حارسين من الرهبان إلى المبنى مباشرة للقيام بأعباء وظيفته.

كان يقيم في جوار حقول خضراوات الدير حوالى عشرين أو ثلاثين من المتشردين والمقامرين، ويعتاشون من بيع الخضراوات التي يسرقونها من حقول الدير. في ذلك النهار، حين همَّت مجموعة منهم للإغارة على الحقول، لمحوا إعلاناً معلقاً على بوابة غرفة الناظر كتب فيه:

عيَّن الدير الراهب الحصيف لو ناظراً على هذه الحقول من الخضراوات. واعتباراً من الغداة يصبح مسؤولا عنها. يحظر الدخول على جميع الذين لا علاقة لهم هنا.

تنادى الأوغاد إلى عقد مؤتمر للعصابة بكامل أفرادها. وتشاوروا فيما بينهم قائلين: "لقد أرسل الدير راهبا يدعى الحصيف لو يشرف على حقول الخضراوات. وهو جديد في عمله. وهذه فرصة طيبة لنثير معركة وننزل به ضربات طيبة. فلنعلِّم ذلك الوغد كيف يحترمنا".

قال أحدهم: "طرأت لي فكرة. هو لا يعرفنا. فكيف نثير معركة؟ لنستدرجه إلى طرف حفرة الغائط وكأننا نهنئه على منصبه، ثم نقبض عليه من ساقيه ونطوِّح به فيها رأساً على عقب. سيكون ذلك نكتة صغيرة لطيفة".

فوافق الأوغاد الآخرون: "حسن. حسن".

وهبوا يفتشون عن الراهب.

أما الحصيف لو فما إن وصل إلى مبنى الناظر حتى وضع صرته ومتاعه في البيت، وأسند عصاه إلى جدار، وعلَّق سكينه. وجاء الإخوة العلمانيون العاملون في الحقول لتحيته وسُلِّمت إليه المفاتيح. وألقى عليه الراهبان اللذان خفراه على الطريق والراهب الذي تقدمه في منصب الناظر تحية الوداع، وقفلوا إلى الدير.

قام الحصيف بعد ذلك بجولة في حقول الخضراوات. فرأى قرابة عشرين أو ثلاثين وغداً متجهين إليه يحملون طبقاً من المعجونات وخمرة احتفالية. خاطبوه قائلين، وهم يتبسمون ابتسامة عريضة: "سمعنا نحن الجيران أنك عينت مسؤولاً، أيها الراهب المعلم، فجئنا نقدم آيات التحية".

لم يخطر للحصيف أنها مكيدة، فرافقهم حتى حافة حفرة الغائط. وتقدم الأوغاد صوبه مجتمعين، وقد عزم أحدهم على القبض عليه من ساقه اليسرى، وآخر من ساقه اليمنى، وأن يلقياه في الحفرة.

وكانت النتيجة كما يلي: انطلقت قدم وأجفل نمر جبلي متوحش؛ وأهوت قبضة فوقع تنين بحري في ورطة مؤسية، وتحولت حديقة مسالمة إلى ساحة معركة صغيرة.

كيف سارت خطة الأوغاد ضد الحصيف؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السابع

الراهب الموشوم يقتلع شجرة صفصاف؛

ولين تشونغ يدخل خطأ الحرم الداخلي للنمر الأبيض

كان ثمة زعيمان بين العشرين أو الثلاثين وغداً المقمين خارج بوابة النخل المر. أحدهما يدعى تشانغ الثالث، الفأر الذي يجتاز الشارع؛ والآخر يدعى لي الرابع، الأفعان بين العشب. كان هذا الاثنان يرأسان العصابة التي سبق ذكرها. ومن البدهي أن الحصيف لم يتراجع خطوة واحدة أمام أفرادها.

توقفت العصابة عند حافة حفرة الغائط وهتف أفرادها مجتمعين: "جئنا نرفع إليك التهاني بمنصبك الجديد".

قال الحصيف: "طالما أنكم جيران لنا، فتفضلوا بدخول المبنى واستريحوا قليلاً".

تهاوى تشانغ ولي على ركبهما احتراماً. وترجيا أن يقترب الراهب منهما لينهضهما على أقدامهما تلطفاً منه ومنَّة. وعندها يباشران مكيدتهما.

لحظ الحصيف ذلك، فرابه الأمر. تساءل في سره: "هذه العصابة طلعة أفرادها على غير المألوف، ويرفضون الاقتراب مني. أيمكن أن يكون قد خطر لهم في بال التخلص مني؟ يحسب هؤلاء الأوغاد أن في مقدورهم شد النمر من سالفيه. حسن، سأذهب إلى هذين الاثنين، وأريهما كيف أستخدم يديَّ وساقيَّ".

اقترب الحصيف من العصابة. كان تشانغ ولي لا يبرحان راكعين على ركبهما، فصاحا: "جئنا خصيصا، نحن الأخوان الأصغران، نزجيك آيات الاحترام". وحاول كل منهما أن يمسك بالراهب من إحدى ساقيه.

قبل أن يتمكنا من مسِّ الحصيف بإحدى أصابعهما رفس بقدمه اليمنى فأسقط لي في حفرة الغائط. فهبَّ تشانغ على قدميه وعقد عزمه على الفرار، لكن رفسة خاطفة من قدم الراهب اليسرى جعلت الوغدين يتخبطان معاً في تلك الحفرة.

فغر أفراد العصابة أفواههم مجفلين، وأرادوا الهرب. فجأر الحصيف صائحا: "من يتحرك منكم فمصيره الوقوع في الحفرة". تجلَّدت أطراف أولئك الأنذال وعجزوا عن التحرك قيد أنملة.

رفع تشانغ ولي رأسيهما من الحفرة. كان يبدو أنها من دون قاع، فغطت الأقذار جسديهما. وعلقت برأسيهما يرقات. فوقفا في الحفرة ينوحان: "صفحك وغفرانك، أيها الراهب!".

زمجر الحصيف في وجوه أفراد العصابة: "أخرجوا هذين الكلبين، أيها الأنذال. وسأصفح عنكم جميعاً".

هب أفراد العصابة يساعدون زعيميهم على الخروج من الحفرة، وأوصلوهما إلى تعريشة القرع. كان الزعيمان يتنفسان رعباً لا يمكن أن تصفه كلمات.

زمجر الحصيف ضاحكاً: "أحمقان! اذهبا واغتسلا في البحيرة. وبعدها لي إليكما حديث!".

بعدما نظف الزعيمان نفسيهما خلع بعض رجالهما عنهما ثيابهما لاستبدالها بثياب جديدة.

أمر الحصيف قائلا: "هيا بنا إلى المبنى. سوف نتجاذب أطراف الحديث".

جلس بينهما، وأشار إليهما بإصبعه، وضحك ساخرا: "أيها الصعلوكان! أظننتما أن في وسعكما استحماقي؟ كيف يخطر لتافهين مثلكما أن يسخرا مني؟".

خرَّ تشانغ ولي وبقية أفراد العصابة على أقدامهم هاتفين: "لقد عاشت أسرنا ههنا على مدى أجيال وأجيال تعتاش من المقامرة والاستجداء والسرقة من حقول الخضراوات. لقد دفع الدير الناس مرات عديدة لطردنا من هذا المكان، لكن أحداً منهم لا يكتب له النجاح في ذلك. من أين أنت، أيها المبجل؟ يا لك من فتى شجاع! نحن لم نشاهدك في الدير من قبل. من الآن فصاعداً يطيب لنا أن نعمل على خدمتك".

- أنا من ولاية يانآن، إلى الغرب من ممر. وقد كنت رائداً في الجيش تحت إمرة قائد الحامية الجنرال العجوز تشونغ. ولأنني قتلت عدداً من الرجال لجأت إلى الدير وغدوت راهبا. وقبل قدومي إلى هنا أقمت على جبل ووتاي. واسم عائلتي لو. حين انتسبت إلى البوذية خلعوا عليَّ لقب الحصيف. في مقدوري أن أشقَّ لنفسي طريقا حتى ولو أحدق بي جيش من عشرات الألوف. فماذا يفعل بي عشرون أو ثلاثون من أمثالكم؟

هتف الأوغاد صائحين معربين عن احترامهم. وشكروا الراهب على رأفته بهم وخرجوا من المبنى. فدلف الحصيف إلى البيت، ورتَّب أشياءه، واندس في فراشه.

في اليوم التالي، بعد أن تبادل الأوغاد الرأي، جمعوا شيئا من المال وابتاعوا عشر زجاجات من الخمرة. وزاروا الحصيف ودعوه إلى مشاركتهم وليمة أحيوها. ومُدت منضدة في مبنى الناظر جلس الحصيف في رأسها وأخذ أفراد العصابة مقاعدهم على طرفيها. وشرب الجميع.

استوضح الراهب: "فيم تنفقون مثل هذا المبلغ من المال؟".

فأجابوا: "نحن مجدودون. طالما أنك تقيم ههنا بيننا في مقدورك أن تغدو سيدنا".

اغتبط الحصيف أيما اغتباط. وتدفقت الخمرة تدفقاً، وساد الحفل جو عامر بالحيوية والمرح. وانتشر الغناء والحديث والضحك والتصفيق. وبينا القصف في أوجه سُمعت أصوات غربان تنعب خارج البوابة.

طقطقت أسنان عدد من الرجال في ورع وخشية وهم يترنمون معاً: "الشفاه الحمر ترتفع إلى السماء واللسان الأبيض يدخل الأرض".

استفهم الحصيف لو: "فيم تحدثون هذه الضجة الجوفاء؟".

فأجاب أفراد العصابة: "حين ينعب الغراب الأسحم فمعنى ذلك حدوث معركة".

قال الراهب: "هراء!".

ضحك أحد الإخوة العلمانيين ممن يعملون في حراثة الحقول، وقال: "في شجرة الصفصاف السامقة إلى جانب الجدار ثمة عش لغراب جديد. والغربان تنعب من طلة الصباح حتى الغسق".

قال أحدهم: "لنأتين بسلّم ونخربنَّ العش".

تطوّع عدد من الرجال معلنين: "نحن نفعل ذلك".

أنهى الحصيف شرابه وخرج مع الآخرين يلقون نظرة. والحقيقة أنه كان هنالك عش غراب في شجرة الصفصاف.

قال الرجال: "أحضروا سلماً واهدموا العش. وعندها ترتاح آذاننا ويخيم عليها السكون".

وتفاخر لي قائلا: "سأتسلق الشجرة وأنفذ هذا العمل. لا أحتاج سلماً".

درس الحصيف لو الأمر، ومشى إلى الشجرة، وخلع عباءته. وانحنى وقبض على جذعها بيده اليمنى في حين أمسكت يده اليسرى بها من الأعلى وشدها بقوة فاقتلعها من الأرض مرة واحدة! تساقط الأوغاد على ركبهم صائحين: "ليس سيدنا بمخلوق عادي! إنه واحد من الجبابرة! لو لم تكن له قوة تعادل عشرة ملايين كاتيا فكيف كان يستطيع أن يقتلع الشجرة من جذورها الممتدة في الأرض؟".

قال لو: "هذا شيء طفيف طفيف. سأريكم في أحد هذه الأيام كيف يكون استخدام السلاح".

ذهب المشردون في تلك الليلة، ورجعوا في اليوم التالي، وفي الأيام التي أعقبته، حاملين لحماً وخمرة احتفاء بالحصيف بعد أن فرض احترامه عليهم. وترجوه أن يظهر مهارته في استخدام السلاح.

بعيد عدة أيام همس الحصيف في سره: "هؤلاء الشبان يحتفون بي يوماً بعد يوم. ينبغي عليَّ أن أقيم لهم مأدبة بدوري". وأرسل بعض الإخوة العلمانيين إلى المدينة يشترون بعض أطباق الفواكه وخمسة أو ستة براميل من الخمرة، ونحر أغناماً. وكان ذلك في نهاية الشهر القمري الثالث.

قال الحصيف: "بدأ الجو يدفأ". ونشر حصراً تحت شجرة دردار خضراء وطلب إلى الأوغاد أن يتحلقوها ويشاركوه الطعام والشراب.

قدمت الخمور في طاسات كبيرة واللحوم في أطباق ضخمة. وبعد أن شبع الجميع قدمت الفواكه وأقداح أخرى من الخمرة. وما أسرع أن تهالك الجميع متخمين من الطعام والشراب.

قال أفراد العصابة: "أبديت لنا قبل عدة أيام مقدار قدرتك، أيها المعلم. ولكنك لم تظهر لنا شيئا من مهارتك في استخدام السلاح. جميل منك أن تقدم لنا عرضاً".

قال الحصيف: "حسن". ودلف إلى البيت ورجع بعصاه البوذية الحديدية الصلبة وطولها خمس أقدام من طرفها إلى طرفها ووزنها اثنان وستون كاتيا.

انشده الحضور جميعاً صائحين: "وحده رجل تتحلى يداه بقوة ثور مائي يستطيع أن يحمل مثل هذا السلاح".

حمل الحصيف عصاه وهزها بعفوية فأطلقت في الفضاء فحيحاً، فابتهج المشردون وصفقوا.

وبينا الراهب يقوم ببعض التمرينات قبل إظهار مهارته بدا وجه سيد نبيل من ثغرة في جدار المبنى. وأبدى إعجابه قائلا: "يا للمهارة الحقيقية!". فتوقف الحصيف عن التلويح بعصاه، والتفت

يلقي على المتحدث نظرة.

كان السيد النبيل يرتدي عباءة من الموسلين الأسود جمعت أطرافها إلى بعضها بعضاً. وكانت حلقتان متشابكتان من اليشم الأبيض تمسكان خصلة من الشعر في مؤخر رأسه. وقد خلع على جسده ثوباً من أثواب الضباط الخضراء من حرير موشى بالورد، وشدّه في وسطه بنطاق مصنوع من خيوط مزدوجة من نسيج صوفي ثقيل مثبت بإبزيم من الفضة على صورة ظهر السلحفاة. وانتعل في قدميه حذاء أسود اللون من طراز قديم. وحمل في يده مروحة مطوية من صنع تشنغدو. كان في حدود الخامسة والثلاثين من العمر، له رأس يشبه رأس النمر، وعينان مدورتان، وذقن حاد يشبه منقار السنونو، وسالفان مثل النمر؛ طويلان بصورة تلفت النظر.

جهر: "يا للمهارة الحقيقية! يا للمهارة الحقيقية!".

فقال المشردون: "إن كان يطريه، فلا بدَّ أنه رائع!". استفسر الحصيف: "من هذا الضابط؟".

- إنه مدرب للسلاح من الحرس الإمبراطوري العظيم. ويدعى لين تشونغ.

- نادوه إلينا. أحب أن أجتمع به.

وثب مدرب السلاح لدى سماعه ذلك من خلال الثغرة في الجدار. وتبادل الرجلان التحية وجلسا تحت شجرة الدردار.

سأل لين: "من أين أنت، يا أخي الراهب؟ وما اسمك؟".

- أنا لو دا، من غربي الممر. ولأني قتلت عدداً من الرجال غَدَوْتُ راهباً. في شبابي أمضيت فترة من الوقت في العاصمة الشرقية. وأنا على معرفة بوالدك المحترم الرائد لين".

دبت الفرحة في أعطاف لين تشونغ، واعتبر على الفور الحصيف لو أخاً له بالتبني.

سأل الحصيف: "ما الذي رمى بك في هذه الأرجاء اليوم، يا مدرب السلاح؟".

- جئت وزوجتي لتونا من المعبد على الجبل المقدس القريب للقيام بإحراق البخور. وحين تناهت إلى سمعي أصداء ضحكاتكم رميت ببصري من فوق الجدار وشدني عرضك بالعصا. فقلت لزوجتي وخادمتها جين آر أن تحرق البخور من دوني، وأني سأنتظرهما عند هذه الثغرة في الجدار. لم يخطر لي أن أتشرف بلقائك، يا أخي.

قال الحصيف: "عندما جئت إلى هنا للمرة الأولى لم أكن أعرف إنساناً، وما عتَّمت أن تعرفت إلى هؤلاء الإخوة وجعلنا نلتقي في هذا المكان يومياً. واليوم، شملتني برعايتك فاتخذت مني أخاً لك بالتبني. وهذا يهرق السعادة في فؤادي".

وأمر الإخوة العلمانيين أن يحضروا مزيداً من الخمور.

وفيما هما يشربان للمرة الثالثة اندفعت الخادمة جين آر، وقد اضطربت واحمر وجهها. ووقفت عند الثغرة في الجدار وصاحت: "أسرع، يا سيدي! سيدتنا تعاني المتاعب مع رجل في المعبد!". استفسر لين تشونغ في لهفة: "أين؟".

- بينا نحن ننزل السلَّم في مقصورة الذرى الخمس سدّ علينا الطريق على حين بغتة رجل وضيع. ولم يأذن لها بالمرور.

هب لين تشونغ عجلان واستأذن الحصيف: "سألتقيك مرة أخرى، يا أخي. اعذرني!". وثب عبر الثغرة في الجدار ولحق بجين آر عائدين إلى المعبد.

حين وصل إلى مقصورة الذرى الخمس لمح عدداً من المتبطلين يحملون القوس والنشاب والعصي الطويلة وعصي الزيزفون متجمهرين تحت درابزون السلم. كانوا يراقبون شاباً وقف على بسطة السلم وقد أدار ظهره إليهم يسدُّ الطريق في وجه زوجة لين تشونغ.

كان الشاب يستحثها قائلا: "لنصعدنَّ إلى فوق. أريد أن أتحدث إليك".

قالت السيدة، وقد توردت وجنتاها: "بأي حق تسخر من امرأة حصان في زمن السلم والنظام؟".

اندفع لين قدماً، وقبض على الشاب من كتفه وأرغمه على الالتفات. وصاح، وهو يرفع قبضته: "سألقنك كيف تهين زوجة رجل طيب". ولم يلبث أن تعرف على السيد الشاب غاو، ربيب الماريشال غاو كيو، قائد الحرس الإمبراطوري.

يوم رقي غاو كيو في منصبه العسكري لم يكن لديه ولد يساعده في مختلف شؤونه وقضاياه. فتبنى ابن عمه غاو الثالث. وإذا غدا الصبي الآن ربيبه فضلاً عن أنه ابن عمه، فقد محضه الماريشال غاو كل الحب والوجد.

واستغل ذلك الشاب النذل ما لوالده المتبني من نفوذ في العاصمة الشرقية وصارت هوايته المفضلة إغواء نساء الآخرين الذين لم يجرؤ أحد منهم على الشكوى منه خشية من صلاته القوية. وخلع الناس عليه لقب"ملك الفاسقين".

حين بصر لين تشونغ أن ذلك الرجل هو المعلم الشاب غاو خذلته قواه.

قال غاو: "لا علاقة لك بهذا الموضوع، يا لين تشونغ. من طلب إليك أن تدس أنفك؟". لم يكن يعرف أن السيدة هي زوجته. لو كان يعرف ذلك لما حدث ما حدث. وحين تردد لين تشونغ في الكلام، تصلبت شجاعة غاو.

اجتذب ذلك الجدال مجموعة من المتبطلين. وقال أحدهم: "لا تغضب، يا مدرب السلاح. فالمعلم الشاب لم يعرف هويتها. ولا يعدونَّ الأمر أن يكون أكثر من سوء تفاهم".

ظل الغضب يمور في فؤاد لين تشونغ. فجعل يحدق في ذلك الخليع بعينين ملتهبتين. وراح بعض المتبطلين يسترضونه ويطيبون خاطره، في حين شرع بعضهم الآخر يستحثون غاو على مغادرة أرض المعبد، وامتطاء صهوة جواده، والرحيل.

استدار لين تشونغ وفي نيته الذهاب برفقة زوجته والخادمة جين آر حين دلف الحصيف لو، وعصاه في يده، مندفعاً على أرض المعبد ممدود الخطى في مقدمة مشرديه العشرين أو الثلاثين.

استوضحه لين تشونغ: "إلى أين أنت ذاهب، يا أخي؟".

فقال الحصيف: "جئت أمددك بالعون في معركتك".

فأوضح لين تشونغ: "لقد تبين أن الرجل ربيب الماريشال غاو. لم يعرف هوية زوجتي فتصرف حيالها في شيء من فظاظة. كدت أن ألقن ذلك الفاسق درساً، ولكنني قلت في نفسي إن ذلك يريق

ماء وجه الماريشال. أنت تعرف المثل القديم: لا تخشين موظفاً؛ في ما عدا الذين يرأسونك! وعلى أية حال، إن اسمي مدرج في جدول رواتبه. فقررت أن أدع الشاب الفاسق وشأنه هذه المرة".

هتف الحصيف لو صائحا: "قد تأخذك الخشية من الماريشال، ولكنه لا يخيفني في شيء على الإطلاق. فإذا وقعت أبصاري على جروه الفتي فسأذيقنَّه ثلاثمائة ضربة من عصاي الحديدية.

تبين للين تشونغ أن الحصيف سكران، فقال: "أنت على حق تماماً، يا أخي. لقد ألحَّ عليّ الناس جميعاً. فأذنت له في الانصراف".

- إذا واجهت مرة أخرى شيئا من المتاعب ناديني، سأعالج القضية بنفسي!

أمسك اللصوص بالحصيف السكران من تحت إبطيه قائلين: "لنرجع أدراجنا، أيها المبجل. في مقدورك علاج الأمر مع الشاب غاو في ما بعد".

توجه الحصيف لو إلى زوجة لين تشونغ في أدب، وعصاه الحديدية في يده: "صفحك، يا زوجة أخي. أرجو ألا تسخري مني". والتفت إلى لين تشونغ مسترسلاً: "إلى الغداة، يا أخي". ثم غادر المعبد برفقة رجاله.

رجع لين تشونغ وزوجته وجين آر إلى البيت. كان مدرب السلاح يموج غضبا ويأسا.

أما المعلم الشاب غاو، فلم يكد يدلف إلى المعبد على رأس عصبة أصدقائه الحميمين ويلتقي زوجة لين تشونغ حتى سلب لبه في الحال. ورجع بعدما طرده لين تشونغ إلى منزل الماريشال تعيساً.

بعيد عدة أيام زاره أصدقاؤه المتسكعون فوجدوه مضطرباً هائجاً على الحال التي تركوه عليها، فذهبوا. كان أحد أولئك المتسكعين مرافقاً يدعى فو آن، معروفاً باسم رأس نقار الخشب الجاف، ارتاب في ما يقلق المعلم الشاب غاو فرجع إليه وحيداً. كان الفاسق الشاب جالساً في غرفته شارد الذهن.

اقترب منه فو آن قائلا: "لقد ضرب الشحوب وجهك في الآونة الأخيرة، أيها المعلم الشاب. فشفتاك لا تبتسمان إلا في النَّدرى. لا ريبة أن هنالك ما يقلقك".

- كيف تعرف هذا؟

- إني أخمن الأمر لا غير.

- وهل تستطيع أن تخمن السبب في هذا القلق؟

- إنها زوجة لين تشونغ. ما رأيك في هذا التخمين؟

ضحك المعلم الشاب قائلا: "لا بأس. المشكلة أني لا أعرف كيف أصل إليها".

- القضية هينة. أنت تخشى من غضبة لين تشونغ لأنه فتى قوي الشكيمة. ولكن، هوِّن الأمر عليك. فهو مرؤوس للماريشال ويقوم بعمله تحت قيادته. فهل يجرؤ على إبداء شيء من الغضب؟ أقل ما يمكن أن يلحق به هو النفي، وأكثره الموت. ولديَ الآن خطة صغيرة يمكن أن ترمي زوجته بين يديك.

- لكم التقيت نسوة جميلات! ففيم يشغلني الهيام بها وحدها؟ لقد فتن قلبي، وغدوت شقيا. إن كانت لديك خطة مثمرة فسأجزينك عنها بسخاء".

- أحد رجالك الخلَّص، النقيب لو كيان، صديق حميم للين تشونغ. أولم في الغداة وليمة في ركن هادئ من الطابق الثاني من منزل لو كيان. واطلب إلى لو أن يدعو لين تشونغ على الشراب. وأخبر لو أن يصحبه إلى غرفة منعزلة في الطابق العلوي من حانة مقصورة المروحة. وسأمضينَّ أنا إلى زوجة لين وأقول لها: "زوجك يغتبق الخمور في منزل لو كيان وقد ألمّ به مرض مفاجئ فانهارت قواه. يحسن أن تسرعي إليه وتشمليه برعايتك". ثم أرافقها إلى منزل لو حيث تكون أنت في انتظارها. والنساء متقلبات كالماء حين ترى ما أنت عليه من وسامة رومانتية، أيها المعلم الشاب، ومن ثم تغرقها بكلماتك المعسولة، فلن تقوى على المقاومة والصمود. ما رأيك في هذه الخطة؟".

صفق غاو بيديه: "رائع. فليستدعها النقيب لو كيان إلى هنا هذه الليلة".

واتفق أن لو كيان يقيم في منزل غير بعيد عن منزل غاو. وافق على الخطة فوراً بعد أن شعر أنه مكره لا خيار له. إذا كانت هذه الخطة تهرق السعادة في قلب المعلم الشاب فهو راغب في تجاهل صداقته مع مدرب السلاح.

لنرجعنَّ الآن إلى لين تشونغ. أقام في منزله تستبدُّ به الأفكار طوال عدة أيام. وسمع ذات صباح شخصاً يناديه من الباب الأمامي: "هل مدرب السلاح موجود؟".

مضى لين تشونغ إلى الباب، فوجد لو كيان.

سأل لين تشونغ في لهفة: "أية ريح حملتك إلينا، يا أخي لو؟".

- يشغلني التفكير فيك. لِمَ لم أرك في الشوارع طوال الأيام القليلة الماضية، يا أخي؟

- فكري مبلبل. ولا أشعر برغبة في الخروج.

- تعال اشرب معي عدة أقداح، واطرح عنك همومك.

- اجلس قليلاً واشرب الشاي معي.

هبا على أقدامهما بعد أن فرغا من تناول الشاي.

نادى لو كيان على زوجة لين تشونغ في الغرفة المجاورة: "يا امرأة أخي. سأصحب الأخ لين إلى بيتي لنشرب قليلاً من الخمور". أسرعت الزوجة إلى ستارة الباب ودفعتها جانباً، وترجت: "لا تتركه يشرب كثيراً، يا أخي. لا تؤخره في العودة إلى البيت". مشى الرجلان على طول الشارع، فاقترح لو كيان: "لنعدلنَّ عن الذهاب إلى بيتي، يا أخي. في مقدورنا أن نتاول شرابنا في مقصورة المروحة".

انقلبا إلى الحانة. واختارا غرفة صغيرة، وطلبا زجاجتين من أعتق الخمرة وشيئا من الطعام الشهي. وأقاما يثرثران في وناء. وصعَّد لين تشونغ تنهيدة. فاستفسر لو كيان: "ما الأمر، يا أخي؟".

- أنت تجهل ما حدث. أنا صاحب موهبة، ولكنني لا أعرف أحداً من المسؤولين الكبار. وأخدم تحت إمرة عدد من الرجال الصغار وأضطر لاحتمال ما لا حصر له من سخافاتهم القذرة.

- هناك عدد لا بأس به من مدربي السلاح في الحرس الإمبراطوري، لكن أحداً منهم لا يمكن أن يقارن بك، والماريشال يحترمك إلى أبعد الحدود. فهل يجسر أحد على مضايقتك؟

روى لين تشونغ للو كيان قصته مع المعلم الشاب غاو قبل أيام قليلة.

قال لو كيان ملطفاً: "لم يكن المعلم الشاب يعرف أنها زوجتك. الأمر هزل في هزل. فانسه، ولنشرب".

شرب لين تشونغ ثمانية أو تسعة أقداح. وسرعان ما شعر أنه في حاجة إلى أن يريح نفسه. فنهض وقال: "سأغسل يديَّ". هبط عن السلم، وغادر الحانة. وأنجز ضرورته في زقاق صغير ناحية الشرق. وفي أثناء عودته التقى الخادمة جين آر. قالت: "كنت أفتش عنك، يا سيدي. وهذا أنت هنا!".

استفسر لين تشونغ في عجلة: "ما وراءكِ؟".

- لم تكد تذهب حتى جاءنا رجل واندفع إلى البيت وخاطب سيدتي بقوله: "أنا جار للنقيب لو. وخلال تناولنا الشراب معه ضاقت أنفاس مدرب السلاح على حين فجأة وهوى على الأرض. يحسن أن تسرعي للعناية به". وترجت سيدتي السيدة وانغ جارتنا لمراقبة منزلنا، ثم أسرعت وإياها برفقة ذلك الرجل إلى مكان يقع على شارع من بيت الماريشال، وحين صعدنا إلى الطابق الثاني رأينا مائدة ممدودة بطعام وشراب، ولكننا لم نعثر لك على أثر، يا سيدي. وحين هممنا بالانصراف خرج ذلك الشاب الذي اعترض سبيل السيدة في المعبد في ذلك النهار ونظر إليها شزرا: "رويدك برهة، يا سيدتي. فزوجك الحقيقي هنا!". وهبطت الدرج سريعاً. وكانت سيدتي تصيح مستنجدة. فلم أعثر عليك في أي مكان. والتقيت أخيراً الدكتور تشانغ بائع الأدية، فقال لي: "لقد رأيت لتوّي مدرب السلاح مع رجل آخر يدخلان الحانة". وهكذا أسرعت إلى هنا. عجل، يا سيدي، عجل!

ركض لين تشونغ مضطربا، من دون أن ينتظر جين آر متجهاً إلى منزل لو كيان، وصعد الدرج. كان الباب مقفلاً. وتناهى إليه صوت زوجته تصيح: "في زمن استتباب الأمن والنظام كيف تجرؤ على سجن امرأة رجل طيب!". وكان المعلم الشاب غاو يتوسل: "ارحميني، يا سيدتي. إن امرأة مجبولة من حديد وحجارة لا يمكن أن تكون باردة القلب مثلك!".

رعد لين تشونغ: "افتحي الباب، أيتها زوجة".

سمعت السيدة لين صوت زوجها، فأسرعت تلبي نداءه. ففتح المعلم الشاب غاو المرعوب نافذة، وتسلقها، وهرب على قمة أحد الجدران. كان قد اختفى عن الأنظار قبل أن يدخل لين تشونغ الغرفة.

سأل مدرب السلاح: "هل اعتدى ذلك الكلب عليك؟".

أجابت زوجته: "لا!".

جاش الغضب في صدر لين تشونغ فحطم أثاث غرفة لو كيان، ثم رافق زوجته فهبطا السلم. وفيما يدلفان خارج البيت أسرع الجيران المرعوبون عن جانبي الشارع فأحكموا إغلاق أبوابهم. وكانت جين آر تنتظرهما خارجا، فرجع الثلاثة إلى البيت.

سلح لين تشونغ نفسه بسكين حادة وركض باتجاه الحانة مفتشا عن لو كيان.

لم يقع لصديقه الخائن على أثر. رجع إلى بيت لو كيان وأقام ينتظره عند الباب الليل بطوله. لكن لو كيان لم يعد إلى داره. فآب مدرب السلاح إلى منزله.

استحثته زوجته قائلة: "هو لم يؤذني. فلا ترتكب أية حماقة".

زمجر لين تشونغ: "من كان يظن أن لو كيان نذل إلى هذه الدرجة! يناديني يا أخي ويتآمر ضدي طول الوقت. لن يفلت لو كيان من عقابي ولو لم أقبض على المعلم الشاب".

ترجته زوجته في يأس أن يبقى في الدار.

في هذه الأثناء اختبأ لو كيان في دار الماريشال، خائفاً من العودة إلى بيته. بقي مدرب السلاح ثلاثة أيام متعاقبة يترقبه خارج بوابة بيته، ولكن الخائن لم يظهر. كانت طلعة لين تشونغ تنذر بالويل والثبور، فما جرؤ أحد على طرح أي سؤال عليه.

في اليوم الرابع من فراق لين والحصيف رجع هذا الأخير إلى منزل الأول، وتوجه إليه مستفسراً: "أين كنت تخبئ نفسك خلال هذه الأيام القليلة المنصرمة، يا مدرب السلاح؟".

فأجاب لين تشونغ معتذراً: "كنت منهمكاً في العمل فتوانيت عن زيارتك، يا أخي. وباعتبار أنك شرَّفت منزلي الوضيع فمن واجبي أن أعزمك على بعض كؤوس الخمرة. غير أننا لا نملك في المنزل ما يليق أن نقدمه شراباً. فلم لا نخرج معاً في جولة ونترشف قدحاً أو قدحين في السوق؟".

قال الحصيف لو: "هذا رائع". خرجا، وشربا خمرة طوال النهار، وتواعدا على اللقاء في الغداة. وبعد ذلك صار لين والحصيف يشربان الخمرة يومياً. وجعل يتناسى مشكلته مع مرور الأيام.

أما المعلم الشاب غاو فقد أوثقته العلَّة إلى فراشه فلزمه بعد أن هدَّه الرعب ذلك اليوم في منزل لو كيان واضطر إلى الهرب على الجدار. وخشي أن يروي قصته للماريشال أو يخبره بما وقع له. وجاء لو كيان وفو آن لزيارة المعلم الشاب في منزله. فألفياه شاحب الوجه مضطرب الحواس.

سأل لو كيان: "فيم يخيم عليك البؤس، أيها المعلم الشاب؟".

فأجاب غاو: "لن أعمد إلى خداعكما. لقد فشلت في كلتا محاولتيَّ لاغواء زوجة لين، وتملكني الرعب بالإضافة إلى ذلك، الأمر الذي يزيدني سوءاً على سوء. إذا انطوى عمري من هذا الوجود خلال ثلاثة أشهر أو نصف عام من الآن فلا تأخذكما دهشة".

فتملقه ذانك المتذللان: "اطرح عنك يأسك. فإن هي لم تشنق نفسها على غير انتظار فنحن نضمن لك الحصول على تلك المرأة مهما كانت الظروف".

في تلك البرهة دخل الحاجب الشيخ ليطمئن على ما يتناوله المعلم الشاب من طعام. فانسحب لو كيان وفو آن وتشاورا فيما بينهما. واتفقا في الرأي على "أن هنالك وسيلة واحدة لا غير..." وبعيد خروج الحاجب من الغرفة انفردا به في ركن منعزل. وقالا: "ثمة وسيلة واحدة لا غير يمكن أن يسترد بها المعلم الشاب صحته. ينبغي علينا أن نخبر الماريشال ونجعله يأمر بقتل لين تشونغ. وعندها يغدو في مستطاع المعلم الشاب أن يحصل على زوجة لين ويسترد عافيته. إن لم نلجأ إلى ذلك فلا ريبة أنه سيموت".

أجاب الحاجب الشيخ: "هذا أمر سهل. سأعلم الماريشال هذه الليلة بالذات". فردّ الاثنان قائلين: "لقد تدبرنا خطة. ونحن في انتظار كلمة واحدة منك". في تلك الليلة التقى الحاجب الشيخ بالماريشال، وقال: "لقد اكتشفت السبب في اعتلال المعلم الشاب. السبب هو زوجة لين تشونغ".

سأل الماريشال: "متى أتيح له أن ينعم النظر إلى تلك المرأة؟".

فقال الحاجب:

- في الثامن والعشرين من الشهر الماضي، في معبد الجبل المقدس. وقد مرَّ اليوم قرابة شهر على ذلك. ثم روى للماريشال ما يجول في خاطر لو كيان.

تمتم الماريشال متفكرا:

- أوه! زوجة لين تشونغ، أليس كذلك؟ السؤال هو كيف نبعد لين تشونغ عن الطريق. أمهلني للتفكير. لا أريد أن أخسر ولدي في سبيل لين تشونغ.

- إن لدى لو كيان وفو آن خطة ناجزة.

- هكذا؟ أحضرهما إليَّ وسنبحث الأمر معاً.

استدعى الحاجب الشيخ لو كيان وفو آن إلى ردهة الماريشال. فألقيا على غاو تحية احترام وتوقير.

- هل لديكما خطة يمكن أن تبرئ ولدي من علته؟ إن كان لديكما مثل هذه الخطة فسأرقيكما في منصبيكما.

خطا لو كيان متقدماً:

- يا سيدي الكريم، الخطة تنجح إذا فعلنا كذا وكذا وكذا...

قال الماريشال: "حسن جداً، باشرا نفيذها من الغداة".

لن نزيد في هذا الموضوع حرفاً، لنرجعنّ إلى لين تشونغ. راح يغتبق الخمرة مع الحصيف لو يومياً، ثم نسي الموضوع برمته أخيراً.

وذات يوم، وبينا الصديقان يقتربان من أحد الأزقة، لمحا فتى ضخم الجثة يقف في زاوية وعلى رأسه قبعة ملمومة الأطراف، وعلى جسده ثوب عسكري قديم. كان يحمل في يده سيفاً رائعاً ربطت به باقة من العشب دلالة على أنه معروض للبيع. وكان يغمغم قائلا:

- ليس هنالك من يقدِّر له ثمناً. وا أسفاه على سيفي الثمين! لم يلق لين تشونغ إلى السيف بالاً، بل استمر في طريقه مع الحصيف مسترسلين في حديثهما. لحق الرجل بهما قائلا:

- إنه سيف فاخر. ومن العار ألا يقدر له أحد ثمناً. كان لين تشونغ والحصيف منهمكين في الحديث. فتبعهما ذلك الرجل.

صاح يقول: "مدينة مستبحرة العمران مثل العاصمة الشرقية تخلو من امرئ واحد يعرف قدر هذا السلاح العسكري". تلفت لين تشونغ بعد سماعه هذه الكلمات. واستلَّ الرجل السيف من غمده. فتضوأ براقاً تحت ضوء الشمس.

لقد ربط القدر مصير لين تشونغ بالمتاعب. قال على حين فجأة: "أرنيه".

ناوله الرجل السيف فتناوله لين تشونغ وتفحصه مثلما فعل الحصيف.

أعلن مدرب السلاح مشدوها: "سيف رائع! ماذا تطلب فيه من ثمن؟".

- الثمن ثلاثة آلاف ربطة نقدية، ولكنني أقبل بألفين.

- إنه غالٍ بمبلغ الألفين، ولن تعثر على من يدفع لك مثل هذا المبلغ. إذا رضيت ألفاً، فلسوف أشتريه منك.

- أنا في حاجة إلى مال. إن كنت تريد السيف حقاً فسأحسم خمسمائة ربطة وأبيعه بألف وخمسمائة.

- لا أملك غير ألف وحسب.

تنهد الرجل: "هذا أشبه بمن يبيع الذهب بحديد. حسن، حسن، قبلت بهذا المبلغ من دون نقصان". قال لين تشونغ: "رافقني إلى البيت وسوف أعطيك المبلغ". والتفت إلى الحصيف مسترسلاً: "انتظرني في مشرب الشاي، يا أخي. سأرجعنَّ إليك في غضون لحظات".

قال الراهب: "لا. يجب أن أعود. سألتقيك غداً".

رافق لين تشونغ بعد مفارقته الحصيف بائع السيف إلى منزله، وأحصى له الثمن فضة وناوله إياه.

استفسر مدرب السلاح: "من أين حصلت على هذا السيف؟".

- لقد ورثته عن أسلافي. وحين أصاب الفقر أسرتي لم يبق أمامي خيار. واضطررت إلى بيعه.

- وما اسم عائلتك؟

- إذا اضطررت أن أخبرك به فسأموت خجلا.

كفَّ لين تشونغ عن السؤال. وقبض الشاب النقود وذهب في حال سبيله.

قلَّب لين تشونغ السيف في يده مهمهماً: "ما أجمله من سلاح حقاً! يفترض في الماريشال غاو أن يملك سيفاً رائعاً، غير أنه لا يطلع أحداً عليه. وعلى الرغم من أنني التمست رؤيته عدة مرات، لكنه ظلَّ يرفض أن يخرجه من مخبئه. واليوم اشتريت سيفاً أيضا. وسوف نقارن السيفين ببعضهما ذات يوم".

أبقى مدرب السلاح السيف في يده طوال تلك العشية. وعندما تأخر الوقت في تلك الليلة علقه على الجدار، واستيقظ قبيل انبلاج الفجر وأنزله وراح يقلبه بين يديه معجباً.

قبيل انتصاف النهار بقليل جاءه ملازمان ونادياه من البوابة: "يا مدرب السلاح لين حملنا إليك أمراً من الماريشال. فقد بلغه أنك اشتريت سيفاً رائعاً ويريدك أن تحمله إليه لمقارنته بسيفه. الماريشال يترقب قدومك في داره".

تساءل لين تشونغ: "من تراه هذا الثرثار اللجوج الذي حمل النبأ إليه بهذه السرعة؟".

انتظر الملازمان ريثما ارتدى لين تشونغ ثيابه. وأخذ سيفه ورافقهما.

قال، وهم يغذون الخطى على الطريق: "لم تسبق لي رؤيتكما في داره من قبل".

فأجابا: "لقد نقلنا إليه مؤخراً". وما أسرع أن وصلوا إلى الدار. وتوقفوا في غرفة الاستقبال.

قال الملازمان: "الماريشال ينتظرك في الردهة الخلفية". رافقهما لين تشونغ فاجتازا ستارة مرخاة على باب إلى الردهة الخلفية. فما وقع للماريشال على أثر. وتوقف لين تشونغ مرة أخرى.

قال الملازمان: "الماريشال ينتظر مدرب السلاح في الباحة الخلفية وأمرنا أن نصحبك إليها".

لحق لين بهما عبر بوابتين أخريين أو ثلاث بوابات إلى أن وصلوا إلى باحة يسورها درابزون أخضر

من جميع جوانبها.

قاده الملازمان إلى مدخل صالون فسيح الجنبات، وقالا: "نرجوك أن تنتظر هنا، يا مدرب السلاح، ريثما نخبر الماريشال بقدومك. لن نطيل انتظارك كثيراً".

وقف لين تشونغ أمام الافريز الوحيد في حين دلف الملازمان إلى الداخل. ومرت فترة من الوقت تكفي ليشرب المرء قدحاً من شاي خلالها، ولكن أحداً منهما لم يرجع إليه. تعاظمت شكوكه، فدفع ظلّة معلقة ومدّ رأسه يلقي نظرة. هنالك، فوق الباب، كان ثمة لوحة دونت عليها هذه الكلمات الأربع: الحرم الداخلي للنمر الأبيض.

همس لين تشونغ في فكره جفلان: "ههنا تناقش القضايا العسكرية العليا. فكيف أجرؤ على الدخول!".

تراجع مسرعاً. وسمع وراءه صدى خطوات على الأرض تقعقع بصوت عال. ثمة رجل آخر قد دلف إلى الباحة. عرفه مدرب السلاح. إنه الماريشال غاو نفسه! رفع لين تشونغ سيفه بيديه، وحيا الماريشال باحترام.

جأر الماريشال: "لين تشونغ. أنا أرسل في طلبك. كيف تجرؤ على شق طريقك إلى الحرم الداخلي للنمر الأبيض! ألا تعرف هذا القانون؟ وتحمل بيدك سلاحاً، لا بدّ أنك جئت تبغي قتلي! أخبروني أنهم شاهدوك تنتظر خارج الدار منذ يومين أو ثلاثة أيام وفي يدك سكين. لا ريبة ولا شك أنك نويت شراً!".

انحنى لين تشونغ وهو يرد قائلا: "يا سيدي المحترم، أحضرني إلى هنا ملازمان أخبراني أنك أردت أن تقارن سيفك بسيفي".

صرخ الماريشال: "وأين هما؟".

- لقد دخلا القاعة قبل قليل، يا سيدي.

- أكاذيب! أكاذيب! لا يجرؤ أي ملازم على دخول القاعات الرسمية. أيها الحراس! اقبضوا على هذا الوغد! لم يكد الماريشال ينطق بهذا الأمر حتى انقض من الأبنية المحدقة بالباحة قرابة ثلاثين رجلاً من الأقوياء ورموا لين تشونغ على الأرض.

زمجر الماريشال وقد اكتنفه غضب راعد: "أنت لا تجهل القانون بوصفك مدرباً للسلاح في الحرس الإمبراطوري. ما الذي يدعوك إلى دخول الحرم الداخلي وفي يدك سيف مسلول لو لم تكن تريد قتلي؟".

أمر رجاله باقتياد لين تشونغ. فهل يبقون على حياته؟

بسبب هذا الأمر كان هنالك شغب عظيم في السهول الوسطى؛ وحدث اضطراب وحشي على وجه المياه؛ ووجب على الفلاحين أن يحملوا على ظهورهم شارات عسكرية مميزة؛ وخفقت الرايات العسكرية مثلثة الشكل على قوارب الصيد.

هل يبقى لين تشونغ في قيد الحياة أم يموت؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثامن

مدرب السلاح لين يوشَمُ وينفى إلى تسانغتشو؛
والحصيف لو يجعل من غابة الدب الوحشي مسلخا

كنا نقول إن الماريشال غاو صاح بحراسه أن يقتادوا لين تشونغ وينفذوا فيه حكم الإعدام. فهبَّ لين تشونغ يصرخ معلناً أنه بريء.

استفسر الماريشال: "لماذا دخلت الحرم الداخلي وفي يدك سيفك؟ أكيد أنك انتويت إزهاق روحي!".

اعترض لين تشونغ موضحاً: "أكان في مقدوري أن أدخل لو لم يستدعني الماريشال؟ قد رأيت ذينك الملازمين يدخلان القاعة! احتالا عليَّ بالمجيء إلى هنا!".

قال الماريشال: "هراء! عن أي ملازمين تتحدث؟ هذا اللئيم يرفض الاعتراف بجريمته". ونبح يأمر حراسه: "خذوه إلى ولاية كايفينغ. واطلبوا إلى الوالي أن يتمعن الأمر ويستجوبه. وليستخرج الحقيقة منه ويحكم عليه بالإعدام. اعتبروا السيف مصادرة رسمية وخذوه منه".

تنفيذاً لأمر الماريشال اقتاد الحراس لين تشونغ إلى ولاية كايفينغ. وشاءت المصادفة أن يكون الوالي تنغ في مجلسه، فأحضر مبعوثو الماريشال لين تشونغ إليه وسجدوا تحت المنصة الجالس عليها. ونقل أمين سر الوالي رسالة مبعوث الماريشال غاو كيو إليه ووضع السيف المصادر أمام لين تشونغ.

قال الوالي: "يا لين تشونغ، أنت مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري. ولا بدَّ أنك تعرف القانون. فكيف تدلف إلى الحرم الداخلي حاملاً سيفك؟ هذه جريمة عقوبتها الموت".

– يا سيدي الكريم، أنت تعكس الحقيقة مثل المرآة. لقد ارتكب لين تشونغ خطيئة ثقيلة! ورغم أني لست أكثر من رجل عسكري بسيط، ولكنني من دون ريب أعرف القانون. فكيف أجرؤ على دخول الحرم الداخلي؟ السبب في دخولي إليه هو التالي: في الثامن والعشرين من الشهر الماضي صحبت زوجتي إلى المعبد على الجبل المقدس لإحراق البخور. وهنالك وجدت أن ابن الماريشال غاو يراودها عن نفسها. عاتبته وطردته. فلجأ من بعد إلى تحريض النقيب لو كيان على الاحتيال عليّ ومرافقتي لتناول القليل من الخمرة، وجعل فو آن يستدرج زوجتي إلى منزل النقيب لو حيث حاول اغتصابها. اكتشفت هذه الخديعة أيضا وحطمت أثاث منزل لو كيان. وعلى الرغم من أن المعلم الشاب غاو فشل في الاعتداء عليها. فإن لديَّ شهوداً على كلتا المحاولتين. والبارحة اشتريت هذا السيف. أرسل إليَّ الماريشال اليوم ملازمين يستدعيانني وقالا إنه يريدني أن أحمل إليه السيف ليقارنه بسيفه. وهكذا دلفت معهما إلى الحرم الداخلي. وبعيد دخولهما جاء الماريشال غاو فجأة إلى

الباحة. القضية كلها عبارة عن مؤامرة لتدميري. أرجوك أن تساعدني، يا صاحب السعادة!".

سمع الوالي قصة لين تشونغ وأمر أن يصدر إعلان باستلام السجين، وأن يحاط عنقه بمخلعة خشبية، وأن يلقى به في السجن. أرسلت إليه عائلته طعاماً ورشت الحراس. وزار والد زوجته مدرب السلاح تشانغ السجن بنفسه. وأمضى فترة من الوقت يرشو الكبار والصغار.

وشاءت الظروف أن يعيش في الولاية كاتب يدعى سون دينغ. كان هذا الكاتب عادلاً لطيفاً راغباً في مساعدة الناس على الدوام، الأمر الذي جعله معروفاً باسم البوذا سون. وحين عرف مغاليق القضية عمد إلى إعلام الوالي بصورة لبقة بالأحداث التي استبانت له. قال: "لقد أخطأ لين تشونغ. وينبغي أن تساعده".

- ولكن الماريشال غاو أعلن أنه ارتكب جريمة. وهو يلحُّ عليَّ أن أدينه لدخوله الحرم الداخلي، والسيف في يده، متنوياً اغتياله. فماذا في طوقي أن أفعل؟

- هل تخضع ولاية كايفينغ للبلاط الإمبراطوري أم لعائلة الماريشال غاو؟

- كفى هراء!

- الجميع يعرفون أن غاو كيو يستخدم منصبه بصورة استبدادية ولا يحجم عن اقتراف أي شيء. وكل من يجرؤ على إثارة غضبه، مهما كان السبب تافهاً، يبعث به إلى ولاية كايفينغ. وإذا أراد أن يعدم إنساناً ننوب عنه في تنفيذ عملية الإعدام. وإذا أراد أن يقطعه إرباً تولينا عنه أعباء هذه المهمة. وهكذا أصبحنا جزءاً لا يتجزأ من عائلته.

- كيف أخفف أعباء القضية عن كاهل لين تشونغ؟ وما الحكم الذي أصدر بحقه؟

- يتضح من قضية لين تشونغ أنه بريء، رغم أننا لم نكن قادرين على اكتشاف هوية هذين الملازمين. فلم لا نجعله يعترف بدخوله الحرم الداخلي عن طريق الخطأ وسيفه إلى وسطه، ونحكم بجلده عشرين جلدة بقضيب من الخيزران، ونوشمه وننفيه إلى مقاطعة عسكرية بعيدة؟

روأ الوالي تنغ في الأمر طويلاً، وذهب للقاء الماريشال غاو ورجاه أن يوافق على مثل هذا الاعتراف من قبل لين تشونغ. وحين أدرك الماريشال أن النتيجة في غير صالحه، وأن الوالي في ما يبدو راغب عن التعاون معه، اضطر إلى الرضوخ.

في ذلك النهار ذاته عقد الوالي جلسة، واستدعى لين تشونغ، ونزعت المخلعة عن عنقه، وعوقب بعشرين جلدة من قضيب خيزراني. وأمر الوالي الواشم أن يسم وجنة السجين بميسم المجرمين. ثم حسب المسافات واختار تسانغتشو مكاناً ينفى لين إليه. وأصدرت المحكمة بالإجماع قرارها أن تعلق مخلعة خشبية زنتها سبعة كاتيات ونصف حول عنق مدرب السلاح وتُسمر سريعاً، ثم ثبت عليها خاتم الولاية. ومن بعد أصدر الوالي أمر ترحيل السجين على أن يرافقه حارسان إلى منفاه. وكان هذان الحارسان يدعيان دونغ تشاو وشيويه با.

غادر الحارسان مبنى الولاية برفقة لين تشونغ. وكان ينتظر عند البوابة عدد من جيران لين تشونغ وحموه، مدرب السلاح تشانغ. فعرجوا جميعاً إلى حانة وجلسوا.

قال لين تشونغ: "حمداً لمعونة الكاتب سون الذي جعل الضربات خفيفة، الأمر الذي يجعلني

قادراً على السير".

أمر مدرب السلاح تشانغ الخادم أن يقدم للخفيرين خمرة وفاكهة. فجرعا عدة أقداح، وقدم الشيخ لكل منهما حفنة من الفضة.

جمع لين تشونغ يديه في احترام، وخاطب والد زوجته قائلا: "لقد حاقت بي ظروف شريرة، يا عمي الممجد. تخاصمت والمعلم الشاب غاو فأصدرت المحكمة بحقي حكماً خاطئاً. ولديَّ الآن بضع كلمات أقولها: خلال السنوات الثلاث الماضية، منذ أن تفضلت وزوّجتني ابنتك، لم تسئ إليّ مرة واحدة. ورغم أنها لم تنجب لي ولداً، فنحن لم نشتجر يوماً ولم يتورد وجهانا خجلاً. وهذا أنا اليوم أقاسي من هذه المحنة. وقد حكم علي بالنفي إلى تسانغتشو، ولا يدرينَّ أحد ما إذا كنت أعيش أو أفارق هذه الحياة. وسوف تقيم زوجتي في البيت. ويشغلني القلق عليها. وأخشى أن يحاول المعلم الشاب غاو إغواءها من جديد. وهي لا تزال في مقتبل العمر. ولا ينبغي عليَّ أن أقف في طريقها. هذه هي الفكرة التي تراودني، وهي فكرة أمليها على نفسي بملء طوعي واختياري. وفي نيتي أن أكتب بحضور جيراننا الطيبين ما يشعر بإلغاء زواجنا، وألحّ عليها باختيار بعل جديد لها، وأن تقطع على نفسها عهداً ألا تناقشني في ذلك. بهذه الوسيلة وحدها أشعر بالراحة إذ أعرف أن المعلم الشاب غاو لن يقوى على إيذائها".

صاح مدرب السلاح الشيخ: "ما هذه الكلمات التي تنطق بها شفتاك، يا صهري الطيب؟ لقد ساء حظك، وأوقعتك الظروف في هذا البلاء. وهو شيء لم تجترحه يداك. سوف تذهب اليوم إلى تسانغتشو وتتخذ منها ملاذاً مؤقتاً. وعاجلاً أم آجلاً تغدق السموات عليك رحمتها وتأذن بعودتك، وترجعان زوجاً وزوجة من جديد. إن لديَّ قليلاً من مال. وسأنقل ابنتي وجين آر إلى مسكني. ومهما تكن الظروف، في مقدوري حمل عبئهما أربع أو خمس سنوات. لن أسمح أن تبقى ابنتي في الشوارع. ولن يتمكن المعلم الشاب غاو من رؤيتها ولو تقصّد ذلك. هوِّن عليك. سأتدبر كل شيء. فاذهب إلى تسانغتشو. سأرسل إليك بين الفينة والفينة رسائل وثياباً. لا تجعل أية فكرة حمقاء تسيطر على ذهنك، بل ارحل في سلام".

– جزيل الشكر، يا عمّي، على هذه التمنيات الطيبة. ولكنني لن أشعر بشيء من الراحة وأنا أربطها بنفسي. ارحمني، يا عمي، ودعني أسلك سبيلي الخاص. وعندها، إذا طواني الردى، أقوى على إغلاق عينيَّ في سلام.

غير أن مدرب السلاح تشانغ رفض الإصغاء إليه. وعارضه في ذلك جيرانه.

قال لين تشونغ: "إن لم يؤذن لي بتنفيذ فكرتي فأنا أقسم إني لن أراها مرة أخرى ولو أتيحت لي العودة حياً".

قال الشيخ: "اكتب ما تشاء إن كان ذلك يشعرك بالراحة. وعلى أية حال، فأنا لن أسمح لابنتي أن تتخذ لنفسها زوجاً آخر".

أرسل لين تشونغ يستدعي كاتباً، وابتاع رقعة من الورق. وكتب الكاتب ما أملاه عليه لين تشونغ من كلمات:

عطفا على الجريمة الخطيرة التي أدين بها، فإن لين تشونغ، مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري في العاصمة الشرقية، نفي إلى تسانغتشو. وما يمكن أن يحدث هنالك أمر لا يمكن التنبؤ به. أما زوجته (واسمها قبل الزواج تشانغ) فلا تبرح في مقتبل العمر، وهذا ما يحدو به إلى إلغاء زواجه منها. ويأذن لها أن تعقد زواجاً جديداً ويؤكد لها أنه لن يعارضها في ذلك. وهذا الإلغاء يصدر عنه طواعية من دون إكراه أو إلزام. وفي حال الريبة في هذا الموضوع تستخدم هذه الوثيقة إثباتاً لما ذكر أعلاه.

سنة.......... شهر.......... يوم..........

حين انتهت الوثيقة أمسك لين تشونغ فرشاة الكتابة ووضع اسمه تحت تاريخها، وأضاف من بعد بصمة إبهامه. وفيما هو يناول الوثيقة إلى والد زوجته دخلت امرأته راكضة تنوح وتعول إلى الحانة تتبعها خادمتها جين آر حاملة صرة من الثياب. هبَّ لين تشونغ على قدميه وأسرع لملاقاتها. قال:

- يا زوجتي، إن لديَّ ما أعالنك به. لقد حدثت والدك في الأمر. كتبت عليّ هذه البلية لأن ظروفاً شريرة حاقت بي. وسأرحل اليوم إلى تسانغتشو. ويصعب القول ما إذا كنت سأعيش أو أموت. ولست أريد أن أضيق الخناق عليك وأنت في زهرة العمر. وهذا ما دعاني إلى تدوين هذه الوثيقة. أرجو ألا تنتظريني. إذا وقعت على رجل كريم تزوجيه. ولا تؤجلي سعادتك على حسابي.

ناحت الزوجة قائلة: "وا زوجاه. أنا لم أخطئ في حقك قط. فكيف يطاوعك قلبك على فصم رباطنا الزوجي؟".

قال لين تشونغ:

- لم أقصد شراً، يا امرأة. إن لم أفعل ما فعلت فسوف يعوق كل منا الآخر. وتلحق بك أذية.

قال مدرب السلاح تشانغ: "لا تقلقي، يا ابنتي. أنا لن أسمح لك بالزواج مرة أخرى ولو أوصى صهري بذلك. وفي مقدوره الرحيل مرتاح الضمير والبال. إن لم تقدِّر له الظروف أن يعود فسوف أقوم على إعالتك طوال ما تبقى من عمر، وهكذا تقيمين على إخلاصك له".

أطلقت الزوجة الصبية لعبراتها العنان ونفثت زفرات حرى. وما إن وقعت عيناها على وثيقة الإلغاء حتى هوت على الأرض مغمى عليها. فأسرع لين تشونغ ووالدها ينهضانها. ومرت فترة من الوقت قبل أن تستعيد صوابها. بذلت جاراتها قصارى جهودهن في مؤاساتها. أمسكن بها من ذراعيها، ورجعن بها إلى البيت.

التفت مدرب السلاح تشانغ إلى لين تشونغ قائلا: "اذهب، وحاول أن تعود سريعاً. غدا أنقل زوجتك إلى مسكني. وسأعتني بها إلى حين عودتك. في مقدورك أن ترحل رخيَّ البال. اكتب إلينا بين حين وحين إذا وجدت من يمكن أن يوصل إلينا رسائلك".

نهض لين تشونغ، وشكر والد زوجته وجيرانه، ووضع صرته على ظهره، وخرج برفقة الحارسين. ورجع مدرب السلاح تشانغ والجيران إلى دورهم. ولن نأتي على ذكرهم بعد الآن.

سيكون حديثنا عن الحارسين وعن لين تشونغ. وضع دونغ تشاو وشيويه با سجينهما في

السجن، ورجعا إلى منزليهما يجمعان ما يحتاجان إليه في رحلتهما. وبينما دونغ تشاو يحزم صرته جاء خادم من الحانة القائمة في أول الزقاق وخاطبه قائلا:

- يا سيدي، هنالك سيد مهذب يرغب في الحديث إليك في حانتنا.

- من هو؟

- لست أدري، طلب إليَّ أن أدعوك وحسب.

ذهب دونغ تشاو برفقة الخادم إلى إحدى الغرف في الحانة. فوجد رجلاً يلبس قبعة مزخرفة بالصلبان البوذية المعقوفة ويرتدي ثوباً من حرير أسود. وقد انتعل في قدميه حذاء أسود وجوربين بسيطين. حين دلف دونغ تشاو داخلاً هبَّ الرجل سريعاً على قدميه وضمَّ يديه تحية. قال: "أرجو أن تتخذ مقعداً".

قال دونغ تشاو:

- لم أتشرف بلقاء سعادتك من قبل، فكيف يتاح لي أن أخدمك؟

جلس دونغ تشاو على مقعد قبالة حافة المنضدة. وأحضر النادل أقداح الخمرة وطعاماً وفاكهة ووضعها أمامهما.

سأل الرجل: "أين يقيم الحارس شيويه؟".

فأجاب دونغ تشاو: "في الزقاق الأمامي هناك". نادى الرجل على النادل ودله على عنوان شيويه، وقال له: "استدعه للقائي". رجع النادل برفقة شيويه با في غضون ما يكفي لأن يتناول المرء قدحاً من الشاي.

أوضح دونغ تشاو: "أتأذن لي في الاستفسار عن اسمك؟".

أجاب الرجل: "ستعرفه في الحال. لنشربنَّ الخمرة أولاً".

جلس ثلاثتهم، وقدم لهم النادل الخمرة فترشفوا عدة أقداح منها، ثم أخرج الرجل من كمه عشر أوقيات من الذهب وضعها على المنضدة. قال:

- خمس أوقيات منها لكل منكما. ثمة قضية صغيرة أود أن أتعبكما بشأنها.

فقالا: "ولكننا لا نعرف سعادتك من تكون. وفيم تعطينا هذا الذهب؟".

- ألستما ذاهبين إلى تسانغتشو؟

قال دونغ تشاو: "نحن نرافق لين تشونغ إلى هناك بناء على تعليمات من والي كايفينغ".

- هذا هو السبب الذي يحدوني إلى إزعاجكما. أنا النقيب لو كيان الأمين المخلص للماريشال غاو.

فقدم له دونغ تشاو وشيويه با احتراماتهما على الفور، هاتفين: "كيف يستطيع رجلان تافهان من أمثالنا الجلوس إلى منضدة واحدة مع سعادتك؟".

- تعرفان حق المعرفة أن لين تشونغ أثار سخط الماريشال. وقد أمرني الماريشال أن أهدي إليكما هذه الأوقيات العشر من الذهب. وهو يأمل أن تقضيا على لين تشونغ في أحد الأمكنة المنعزلة على الطريق - ولا ضرورة أن يكون هذا المكان بعيداً - وأن تعودا حاملين شهادة بموته من السلطات

المحلية. إذا أثارت ولاية كايفينغ أية صعوبات فلسوف يتدبَّر الماريشال نفسه هذا الموضوع. فلا ينشغلنَّ لكما بال بهذا الخصوص.

قال دونغ تشاو: "أخشى أن يكون هذا الأمر مستحيلاً. فالأمر الرسمي الصادر عن ولاية كايفينغ يلزمنا بتسليم لين حياً، لا أن نقوم بقتله. وهو ليس عجوزاً. فكيف نفسر السبب في وفاته؟ لا ريبة أننا نوقع نفسينا في ورطة. وأخشى ألا نستطيع ذلك".

قال شيويه با: "دونغ، أيها الفتى العجوز. أصغ إليّ. إذا أمرنا الماريشال غاو بقتله فمن واجبنا أن نرضخ للأمر، وألا نقول شيئا عن مثل هذه القضية، خاصة حين يبعث هذا السيد المهذب بكمية من الذهب. إذاً، اسكت. سأقتسمه معك وينتهي الأمر. إذا قمنا بهذه المهمة الصغيرة فسوف يسهرون علينا في مستقبل أيامنا. هنالك على الطريق إلى تسانغتشو غابة صنوبر واسعة الأرجاء، وهي مكان موحش رهيب. ومهما يكن من أمر، فلسوف نضع لحياته حداً هنالك".

قبض شيويه با الذهب، وقال:

- في مقدورك أن تعتمد علينا، يا صاحب السعادة. لسوف نضع حداً لهذا الموضوع في نهاية المرحلة الخامسة من رحلتنا، أو في المرحلة الثانية على أقل تقدير.

أوضح لو كيان مسروراً: "شيويه با صريح العبارة يبحث في صميم الموضوع. حين تنجز المهمة أحضرا الكتابة المرسومة على وجنة لين تشونغ بمثابة برهان. وسوف أكافئكما معاً بعشر أوقيات أخرى من الذهب. سأترقب أخباركما الطيبة. حذار من التأخير".

جرت العادة في عهد سونغ أن يوشم السجناء المنفيون في وجوههم. وكان ذلك الوشم يدعى "الكتابة الذهبية".

أتى الثلاثة على الخمرة أمامهم، وسدد لو كيان الحساب، ثم غادروا الحانة وذهب كل منهم في سبيل.

رجع دونغ تشاو وشيويه با إلى بيتيهما بعد أن اقتسما الذهب، وأنهيا حزم متاعهما. وحملا من بعد عصويهما الرسميتين، وذهبا إلى لين تشونغ في سجنه، ثم خرجوا من المدينة. ساروا قرابة ثلاثين لياً ثم توقفوا. ففي عهد أسرة سونغ لم يكن الحرس الذين يخفرون سجيناً يدفعون أجراً لقاء إقامتهم في الخانات العامة. فمضى شيويه ودونغ بسجينهما إلى خان وأمضيا الليل فيه.

في صبيحة اليوم التالي أشعل الخفيران ناراً وهيّأا فطوراً، ثم تابع الثلاثة رحلتهم إلى تسانغتشو. كان الصيف في ذروته، والشمس تسفع الوجه سفعاً. لم يشعر لين تشونغ بأية أذية من جراء الضرب الذي نزل به، ولكنه بعد مرور هذه الأيام القليلة شعر أن الحرارة تؤلم جراحه. فشرع يخطو متألماً وهو يجر قدميه جرا.

قال شيويه با: "أيها الغبي البليد! ما زال أمامنا ألف لي للوصول إلى تسانغتشو. ومن يدري متى نصل إلى هناك إذا رحنا نجاريك في خطواتك!".

أوضح لين قائلا:

- لقد قصفت قليلاً في دار الماريشال، وبعد ذلك جلدوني بالخيزران، جراحي تؤلمني في هذه

الحرارة القائظة. أرجوكما، يا سيديَّ، ألا تستعجلاني المسير".

قال دونغ تشاو: "اتئد في خطواتك، ولا تلق بالا إلى زمجرته".

ظل شيويه با يشكو ويلعن الطريق بطوله. وهبَّ يوبخ لين تشونغ في صرامة: "سوء حظنا أوقعنا على شيطان رجيم مثلك". وفيما النهار يميل إلى الغروب وصل الثلاثة إلى خان في قرية. ودخلوا من الباب، فوضع الخفيران عصويهما، وتخلصا من صرتيهما. ورمى لين تشنغ صرته على الأرض. وقبل أن يتفوه أي من الخفيرين بحرف أخرج بعض القطع الفضية من جيبه وطلب من النادل أن يحضر خمرة ولحماً وأرزاً، وأن يجهز مائدة. ثم دعا الخفيرين إلى تناول الطعام معه.

طلب دونغ تشاو وشيويه با مزيداً من الخمرة وعزما لين تشونغ على الشراب إلى أن هوى على جنبه والمخلعة الخشبية في عنقه. وسخن شيويه با بعدها قصعة كبيرة من الماء، وحين جعل الماء يغلي أهرقه في حوض صغير. وقال: "اغسل قدميك، يا مدرب السلاح. فذلك يجعلك تنام نوماً هنيئاً".

جاهد لين تشونغ للجلوس، ولكنه لم يستطع أن ينحني إلى الأمام بسبب المخلعة الخشبية.

عرض شيويه با قائلا: "سأغسل لك قدميك". فأجاب لين تشونغ سريعاً: "وكيف أقبل منك هذه المنَّة؟".

قال شيويه با: "الرجال المسافرون معاً لا ينبغي أن يتقيدوا بالرسميات في مثل هذه الأمور الطفيفة". لم يعرف لين تشونغ أن في الأمر مؤامرة. مدَّ ساقيه. فأمسك شيويه با بهما وغطسهما في الماء المغلي.

صرخ لين تشونغ: "آه"، وسحب ساقيه على الفور، كانتا قد احمرتا وانتفختا. فصاح: "ما كان ينبغي أن أزعجك!".

قال شيويه با: "كثيرون من المساجين يقومون على خدمة حراسهم، فمتى شاهدت خفيراً يقوم على خدمة سجينه؟ لقد غسلت له قدميه تلطفاً، ولكنه يجرؤ على الشكوى والتذمر؛ الماء حار جداً الماء بارد جدا... إن لم يكن هذا من قبيل الرد على الإحسان بالشرّ، فماذا تسمونه إذاً؟".

وجعل يزمجر ويشتم الليل بطوله.

لم يجرؤ لين تشونغ على الجواب، بل استرخى مستلقياً على جنبه.

أهرق الخفيران مياه الحوض الصغير، وملآه مرة أخرى، وخرجا يغسلان أقدامهما.

استسلموا للنوم حتى ساعة الحراسة الرابعة، وهبوا من ضجعتهم وبقية نزلاء الخان يغطون في النوم. أدفأ شيويه با قليلاً من الماء ليغتسل به، ثم جهز طعام الفطور. كان لين تشونغ، والدوار يعصف برأسه، عاجزاً عن تناول الطعام أو الحديث. هدده شيويه با بعصاه. حلَّ دونغ تشاو من حزامه صندلاً جديداً من القش له حلقات وشرائط من القنب المضفور. وطلب إلى لين تشونغ أن يلبسه بقدميه. كانت قدما لين تشونغ المسفوعتان مفروشتين بالقروح. كان يريد أن ينتعل صندله الطري القديم، ولكنه لم يعثر له على أثر. فاضطر إلى انتعال الصندل الجديد.

جمع النادل الحساب، وقاد الخفيران لين تشونغ خارج الخان. وكانت ساعة الحراسة الخامسة

قد حانت.

لم يكد لين تشونغ يجتاز أكثر من ثلاثة ليات حتى راحت قروحه تنزف بعد أن أثقل عليها الصندل الجديد. فشرع يجرّ نفسه جراً على الطريق وهو يئن بصورة متواصلة.

صاح شيويه با: "امش! عجّل! تابع سبيلك وإلا أعنتك على ذلك بالعصا".

ترجى لين تشونغ: "أشفق عليَّ، أيها الضابط الطيب. أأجرؤنَّ على التباطؤ عن عمد فأؤخر رحلتنا؟ إن قدميَّ تؤلمانني حتى الموت. ولا أستطيع السير عليهما".

قال دونغ تشاو: "في مقدورك الاستناد إليَّ". وأسند لين تشونغ. ولكن مدرب السلاح يسير بصعوبة، فما استطاعا أن يجتازا أكثر من أربعة أو خمسة ليات.

بدا واضحا أن لين تشونغ لا يستطيع السير أكثر مما فعل. ووقعت أبصارهم إلى الأمام منهم على غابة وحشية يغلفها الضباب. كانت هذه الغابة المشهورة باسم غابة الدب الوحشي أول الأمكنة الخطرة على الطريق الموصلة من كايفينغ إلى تسانغتشو. في عهد أسرة سونغ كان الحاقدون على سجنائهم المبعوثين إلى المنفى يرشون الخفراء لقتلهم فيها. ومن تراه يدري عدد الرجال الطيبين الذين فقدوا حياتهم في هذه الغابة؟

قال دونغ تشاو: "حتى ساعة الحراسة الخامسة لم نقطع أكثر من عشرة ليات. إذا ظللنا على هذا المعدل فلن نصل إلى تسانغتشو أبدا".

قال شيويه با: "أنا منهك القوى. فلنسترح هنا".

توغل الثلاثة في الغابة، وألقوا صررهم ووضعوها عند جذع شجرة. زمجر لين تشونغ. وتهاوى على الأرض وقد أسند ظهره إلى جذع الشجرة.

قال دونغ تشاو: "اضطررنا لانتظارك في كل خطوة نأتيها، لقد أنهكتني أنا الآخر. أريد أن أغفو قليلاً، ومن ثم نتابع مسيرتنا".

وضعا عصويهما واستلقيا إلى جانب شجرة. ولم تكد تغمض جفونهما حتى وثبا مجفلين.

سأل لين تشونغ: "ما الأمر، أيها الضابطان الطيبان؟".

- كنا على وشك أن ننام حين تذكرنا أنه ليس ثمة أبواب أو أقفال هنا. نحن نخشى أن تهرب. يشغلنا القلق فلا نستطيع أن ننام في هدوء.

- أنا رجل محترم. ولما كنت قد تعرضت للإدانة، فلن أهرب أبداً.

سخر منه دونغ تشاو قائلا: "ومن يصدق ما تقول؟ الوسيلة الوحيدة التي تشعرنا بالاطمئنان هي أن نعمد إلى تقييدك".

- إذا كان هذا رأيكما، أيها الضابطان الطيبان، فلا أمانع فيه!

أخذ شيويه با حبلاً عن وسطه وربط يد وقدم لين تشونغ ببعضهما، ثم ربط نهاية الحبل بالمخلعة الخشبية، وأخيراً بجذع الشجرة. ثم وثب مع دونغ تشاو وثبة واحدة، وانعطفا في دورة سريعة، وأمسكا بعصويهما وخطوا مقتربين من لين تشونغ، قائلين: "قتلك فكرة ليست من إبداع مخيلتنا. ففي ذلك النهار أعلمنا النقيب لو كيان بأمر الماريشال غاو. إن من واجبنا أن نقضي عليك

هنا ونرجع أدراجنا سريعاً حاملين الكتابة الذهبية. لو أننا داومنا على السير عدة أيام أخرى فستكون النتيجة واحدة، ألا وهي موتك. فإذا قمنا بالعمل هنا يغدو في مستطاعنا أن نعود في وقت أبكر. لا تلمنا فنحن أخواك. ولكننا ننفذ الأوامر. وينبغي أن تعلم ما يلي: بعيد سنة واحدة من هذا النهار تكون الذكرى الأولى لوفاتك! وقد جعلوا لنا أجلاً. ينبغي أن نسرع في العودة ونقدم تقريراً".

حين سمع لين تشونغ هذه الكلمات تهاطلت عبراته مـدراراً، وهتف: "أيها الضابطان، لم تنشب عداوة بيننا. لا تقتلاني، ولن أنساكما أبداً، سواء أكان ذلك في هذا العالم أو في العالم المقبل!".

قال دونغ تشاو: "حديث لغو. لا يمكن أن نوفرك من الموت!".

رفع شيويه با عصاه الرسمية ولوح بها في وحشية فوق رأس لين تشونغ.

وا أسفاه كيف يمكن أن تنتهي حياة أحد الأبطال مثل حلم من الأحلام!

لم تكن هنالك خانات على مدى الطريق الطويلة المؤدية إلى العالم السفلي. ففي أي مكان يمكن أن ترتاح روح شاردة في مثل ذلك الليل البهيم؟

هل بقي لين تشونغ في قيد الحياة، أم طواه الردى؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل التاسع

تشاي جين يجعل البيت المفتوح لجميع الرجال الشجعان؛
ولين تشونغ يهزم المدرب هونغ في مبارزة بالعصي

رفع شيويه با عصاه بكلتا يديه وأوشك أن ينهال بها على رأس لين تشونغ. ولكن زمجرة راعدة مثل ضربة عصا حديدية صلبة انطلقت قدماً من وراء إحدى أشجار الصنوبر في مثل لمح البصر، فاعترضت سبيل العصا وأطارتها في الفضاء صوب السماء عالياً. وبعدها وثب على مسرح الرؤية راهب سمين كبير.

رعد صارخا: "كنت أسترق السمع منذ فترة من الزمن".

كان يرتدي عباءة سوداء ويتقلد في وسطه سكيناً ويحمل عصاً بوذية هزَّها في وجه الخفيرين مهدداً.

فتح لين تشونغ عينيه في الحال فعرف الحصيف لو، فهتف به من توِّه: "يا أخي! رويدك. فلديَّ ما أقوله لك!". خفض الحصيف لو عصاه الحديدية. وفغر الخفيران فميهما دهشة وقد شل الخوف حركتهما.

أوضح لين تشونغ: "ليس الذنب ذنبهما. فالماريشال غاو أصدر إليهما الأمر عن طريق النقيب لو كيان بالإجهاز عليَّ. فكيف يستطيعان مخالفة الأمر؟ من الخطأ أن تقتلهما!".

استلّ الحصيف لو سكينه، وقطع القيود التي تربط مدرب السلاح وأنهضه على قدميه. قال: "يا أخي. شغلني القلق عليك منذ ذلك اليوم الذي افترقنا فيه، ومن ثمة اشتريت ذلك السيف. وبعد أن صدر الحكم بإدانتك لم أجد وسيلة أنقذك بها. وسمعت أنك نفيت إلى تسانغتشو، فبحثت عنك خارج ولاية كايفينغ لكن من دون جدوى. وأخبرني أحدهم أنك ألقيت في أحد السجون. ثم علمت أن النادل ذهب إلى منزل الخفيرين يقول لهما: إن أحد السادة المهذبين يرغب في الحديث إليكما في الحانة، فساورتني الشكوك. وخشيت أن يحاول هذان الوغدان إنزال الأذى بك على الطريق، فتتبعت آثاركم. وحين أنزلك هذان اللئيمان في الخان نزلت فيه بدوري. وسمعتهما يتآمران عليك همساً. وحين احتالا عليك وغطسا قدميك في ماء مغلي أردت أن أقتلهما على الفور. ولكن، كان هنالك عدد كبير من النزلاء في الخان فخشيت ألا أستطيع تنفيذ ما انتويته. كنت أعرف أن هذين الشريرين ينويان ارتكاب عمل دنيء. وانطلقتم قبيل الفجر في ساعة الحراسة الخامسة. فسبقتكم إلى الغابة وانتظرت أن أعاقبهما بالموت فيها. لقد أرادا بك شراً، ويجب أن أقتلهما".

ترجاه لين تشونغ: "لقد أنقذت حياتي، يا أخي، فليس هناك ما يدعو إلى قتلهما".

جأر الحصيف: "أيها اللئيمان الحقيران! لولا رجاء أخي هذا لكنت قد طحنت عظامكما طحناً!

سأوفر حياتيكما نزولاً عند رجوته". وأعاد السكين إلى مكانها وصاح: "ساعدا أخي، أسرعا! وتعاليا معي!". وحمل عصاه، ومشى.

كيف تراهما يرفضان؟ ترجيا مستعطفين: "أنقذ حياتنا، يا مدرب السلاح لين". حملا صرتيهما وأخذا عصويهما. ساعدا لين تشونغ وحملا صرته، ولحقا بالراهب خارجين من الغابة.

بعدما ساروا ثلاثة أو أربعة ليات شاهدوا حانة صغيرة عند مدخل إحدى القرى. فدخلوا وجلسوا وطلبوا خمسة أو ستة كاتيات من اللحم، وجرتين من الخمور، وقليلاً من الكعك المخيض باللبن والبيض. وجهز النادل المنضدة وقدم الخمرة.

التفت الخفيران إلى الحصيف قائلين: "هل تأذن لنا في سؤال؟ في أي معبد تقيم، يا مبجل؟".

أهنف الحصيف ضاحكاً: "وفيم تسألان أيها الحقيران؟ أتسألان كي تخبرا الماريشال غاو فيؤذيني؟ قد يرهبه الآخرون، أما أنا فلا أخافه! إذا التقيت ذلك الخسيس فسأضربه ثلاثمائة ضربة من عصاي الحديدية!".

صمت الخفيران فما نبسا بحرف.

أنهى الأربعة طعامهم من اللحم وشرابهم من الخمور، وحملوا متاعهم ودفعوا الحساب، وغادروا القرية.

سأل لين تشونغ: "إلى أين انتويت الذهاب، يا أخي؟".

- إذا أردت أن تقتل إنساناً يجب أن تريق دماً، وإذا أردت أن تنقذ إنساناً ينبغي أن تضمن سلامته. وأنا لا أبرح مشغول البال بشأنك، يا أخي. سأخفرك طوال الطريق إلى تسانغتشو".

زمجر الخفيران في سرهما: "أواه! إن فعل هذا فشلت خطتنا! فماذا نقول بعد أن نرجع أدراجنا؟". واضطرا إلى متابعة رحلتهما منقادين لأوامر الراهب رغماً عنهما.

منذ ذلك الوقت طفقا يمشيان حين يأمر الراهب بالسير ويستريحان عندما يشاء أن يرتاح. وهل يجرؤان على مخالفته؟ وراح هو يشتمهما حين يصفو مزاجه، ويضربهما حين يعتكر صفاؤه. فما نبس أحدهما بحرف خشية إثارة غضبه.

بعيد مسيرة مرحلتين استأجروا عربة. ارتاح لين تشونغ حيث جلس فيها، في حين سار الثلاثة الآخرون على أقدامهم. كان الخفيران شريرين لكنهما يخشيان على حياتيهما، فتابعا الطريق في حذر واحتراس.

جعل الحصيف لو يبتاع على الطريق بين الفينة والأخرى لحماً وخمرة للين تشونغ، ويأذن للخفيرين بمشاركته الطعام والشراب. وحين يصلون إلى خان فهم يلجأون إلى النوم باكراً وينهضون في ساعة متأخرة. وبدهي أن الخفيرين كانا يضرمان النار ويطهوان. أتراهما يجسران على مخالفة أوامر الراهب؟

تشاورا في ما بينهما سراً: "لقد غدونا السجينين، وصار الراهب خفيراً. وحين نرجع سينزلنَّ الماريشال غاو عقابه بنا من دون ريب".

قال شيويه با: "لقد سمعت أن راهباً جاء حديثاً أوكل إليه منصب نظارة حقول الخضراوات في

دير شيانغقوه الكبير، ويدعى الحصيف لو. لا بدَّ أنه هذا الرجل. فلنقولنَّ الصدق حين نرجع أدراجنا. سنقول إننا انتوينا التخلص من لين تشونغ في غابة الدب الوحشي، ولكن ذلك الرجل أنقذه ورافقنا على الطريق إلى تسانغتشو. وهذا هو السبب في أننا لم نتمكن من تنفيذ الخطة. وسنعيد عشر أوقيات الذهب إلى النقيب لو كيان. وليسوِّ هو القضية مع الراهب بنفسه! كل ما نبتغيه أنا وأنت أن نخرج نفسينا من هذا المأزق".

قال دونغ تشاو: "هذا هو شعوري، أنا الآخر!".

ولن نزيد حرفاً في موضوع نقاشهما.

كيما نختصر القصة نقول إنهم ظلوا يسيرون سبعة عشر أو ثمانية عشر يوماً. والراهب لا يتراخى في مراقبتهما لحظة واحدة. وسرعان ما غدوا على مسافة سبعين ليا من تسانغتشو. كانت الطريق سهلة وخالية من أية أمكنة مهجورة. وبعد أن استفسر الحصيف عن هذا الموضوع جيداً سار بالجماعة إلى غيضة من شجر الصنوبر للراحة.

التفت إلى لين تشونغ قائلا: "يا أخي، لم تعد المسافة طويلة بين هذا المكان وتسانغتشو. وهنالك كثرة من الناس على الطريق التي تخلو من أمكنة مهجورة. لقد تحققت من ذلك بنفسي. سأفترق عنك هنا. وسوف نلتقي في يوم من الأيام".

– عد أدراجك، يا أخي. وأخبر والد زوجتي أني في أحسن حال. إذا بقيت على قيد الحياة فسوف أرد لك الجميل لما طوقت به عنقي من حماية ورعاية.

غرف الحصيف عشرين أوقية أو أكثر من الفضة وأعطاها إلى لين تشونغ، ثم أعطى الخفيرين أوقيتين أو ثلاث أوقيات، قائلا: "أيها اللئيمان الحقيران! كنت أرغب في جزِّ عنقيكما على الطريق. ولكنني نزولاً عند رغبة أخي هذا وفرت حياتيكما الخسيستين. لقد وصلت الرحلة إلى نهايتها تقريبا. فلا تخطرنَّ في ذهنيكما أية أفكار شريرة!".

فأجابا، وهما يقبضان الفضة: "وهل نستطيع ذلك؟ ذلك كان من فعل الماريشال غاو".

استدارا يبغيان متابعة الطريق حين حملق الحصيف فيهما مزمجراً: "أيها الحقيران! أتحسبان رأسيكما أصلب من شجر الصنوبر هذا؟".

– نحن الخادمان المتواضعان لكل منا رأس مجبول من لحم وجلد خلعهما علينا أبوانا يلفان مجموعة من العظام.

رفع الحصيف عصاه الحديدية وأهوى على الشجرة بضربة جبارة أحدثت فيها شرخا عميقا. وانحنت الشجرة وسقطت على الأرض.

زمجر الراهب: "أيها اللئيمان الحقيران! إن خطرت لكما فكرة شريرة، فلسوف أقتلع رأسيكما مثل ما فعلت بهذه الشجرة!".

مشى الحصيف لو جاراً عصاه الحديدية وملوحاً بسلاحه الآخر، وهو ينادي: "اعتنِ بنفسك، يا أخي". مدّ الخفيران لسانيهما في انشاده، ومرت فترة من الوقت قبل أن يخطر لهما إرجاعهما إلى مكانيهما.

قال لين تشونغ: "لننطلقنَّ في سبيلنا، أيها الضابطان الطيبان!". أعلن الخفيران: "رائع! بضربة واحدة قطع الشجرة إلى نصفين!". قال لين تشونغ: "هذا أمر بسيط. هنالك في الدير اقتلع شجرة صفصاف من جذورها!". فأحنى الخفيران رأسيهما. لقد برهن لهما ذلك عن قوة الراهب وبأسه.

غادر الرجال الثلاثة الغيضة وتابعوا مسيرهم حتى انتصاف النهار. وشاهدوا على الطريق العامة حانة. فدلفوا إليها، ودعا لين تشونغ الخفيرين إلى الجلوس في رأس المائدة. فاسترخى دونغ تشاو وشيويه با للمرة الأولى في ذلك النهار.

كان في الحانة عدة موائد، وكان الندل الأربعة أو الخمسة منهمكين في التراكض من مائدة إلى أخرى يقدمون الطعام والشراب. فجلس لين تشونغ والخفيران قرابة ساعة من الزمن من دون أن يقترب منهم أحد من السقاة.

أخيراً، ضرب لين تشونغ المائدة بقبضته وصاح نافد الصبر: "أنت، يا صاحب الحان، كيف تجرؤ على إساءة معاملة زبون؟ أنت ترى أني سجين، وهذا ما يدعوك إلى تجاهلي! في طوقي أن أدفع لك ثمن ما نأكل. فما معنى هذا؟".

قال صاحب الحان: "أنت لا تفهم. فأنا لا أرمي إلى سوء".

– أنت لا تبيعني خمرة أو لحماً. فأي سوء هذا الذي تتحدث عنه؟

– أنت لا تفهم. في قريتنا ثمة رجل ثري يدعى تشاي جين يعرف في هذه الأرجاء باسم اللورد تشاي. وفي أخوية الرجال الشجعان يناديه الجميع بالإعصار الصغير. وهو منحدر من سلالة الأسرة الملكية لعهد تشو الأخير. وحين سلم الإمبراطور تشو الأخير عرشه خلع إمبراطور سونغ الأول على أسلاف تشاي" العهد الحديدي المزخرف". ومنذ ذلك التاريخ لم يقم في رأس إنسان أن يتحرش بأسرته. وقد ألف تشاي جين أن يرحب بجميع الرجال الشجعان. وهو دائم الاستقبال لأربعين أو خمسين شخصا منهم. وقد زودنا بتعليمات هنا في الحانة تقول: "قولوا لأي سجين في طريقه إلى المنفى أن يحضر إلى مزرعتي. وسوف أزوده بالمال". فإذا بعتك لحماً وخمراً في هذا النهار وأكلت حتى تتورد وجنتاك فلسوف يظن أنك تحمل ما يكفيك من مال ولست في حاجة إلى عون. إن طويتي من ناحيتك سليمة مخلصة.

التفت لين تشونغ إلى الخفيرين قائلا: "حين كنتِ أدرب الجنود على استخدام السلاح في العاصمة الشرقية ما أكثر ما سمعت العسكريين يتحدثون عن اللورد تشاي. وهكذا عرفت من أين تنحدر أرومته! لم لا نعرج عليه فنزوره؟".

تمعن شيويه با ودونغ تشاو في الأمر ملياً، وقالا: "طالما أننا هنا، فماذا نخسر من جراء هذه الزيارة؟".

جمع الثلاثة صررهم وتوجهوا إلى صاحب الحانة مستفسرين: "أين تقوم مزرعة اللورد تشاي؟ وددنا أن نزوره".

– سيروا قدماً حوالى ثلاثة ليات إلى أن تصلوا إلى جسر حجري كبير. بعيد هذا الجسر بزقاق أو زقاقين تجدان عزبة واسعة. هذه هي المزرعة".

شكر لين تشونغ والخفيران صاحب الحانة وخرجوا. وبعد أن ساروا قرابة ثلاثة ليات عثروا على جسر حجري كبير اجتازوه إلى طرف الآخر حيث كانت ثمة طريق مرصوفة عريضة. وبين غاب من الصفصاف الأخضر، لاحت لأبصارهم معالم مزرعة. وكان ثمة خندق مائي تتدفق مياهه حول أطرافها الأربعة، رصفت على ضفتيه شجرات كبيرة من الصفصاف الباكي. وعبر هذه الأشجار يتبدى جدار المزرعة الأبيض أشبه بخيال باهت اللون.

انعطفوا في عدة منعطفات على الطريق واقتربوا من المدخل. كان هنالك أربعة أو خمسة من الخدم يجلسون على لوح خشبي ثقيل يستنشقون النسيم الرطب. اقترب لين تشونغ والخفيران وانحنوا أمام الخدم. ونبس مدرب السلاح: "هل أضايقكم إن أعلمتم اللورد تشاي أن سجيناً يدعى لين في طريقه من العاصمة إلى المنفى يرغب في رؤيته؟".

قال الخدم: "حظك سيـئ. لو كان السيد في منزله فقد كنت ستحصل على خمر وطعام ونقود. ولكنه خرج منذ الصباح إلى الصيد".

- ومتى تراه يعود؟

- لسنا نعرف. قد يجنح إلى الراحة في المزرعة الشرقية، وقد لا يعرِّج عليها. لا نستطيع أن نقول ذلك عن يقين.

- إنه سوء حظي. لن أستطيع مقابلته.

والتفت لين تشونغ إلى الخفيرين قائلا: "عودا بنا".

انفصل الرجال الثلاثة عن الخدم ورجعوا على الطريق ذاتها التي قدموا منها. كان لين تشونغ يشعر باليأس يدب في أوصاله.

ساروا مسافة تزيد عن نصف لي. ولمحوا من بعيد كوكبة من الفرسان تنبثق من قلب غيضة تخبُّ خيولها ناحية العزبة. وكان سيد نبيل مهيب الطلعة يمتطي صهوة جواد مطهَّم ناصع البياض له عرف أجعد. كان له حاجبا تنين وعينا عنقاء وأسنان متضوئة وشفتان حمراوان ياقوتيتان. وكان شاربان مهدلان يؤطران فمه يترسل من تحتهما عثنون ناحل. وكان له من العمر قرابة أربعة أو خمسة وثلاثين عاماً، ويرتدي عباءة أرجوانية مشجَّرة ومطرزة على الصدر. وكان يلف حول خصره حزاماً مرصّعاً بيشم ثمين. وانتعل في قدميه حذاء أسود اللون له خطوط خضر وتخريمات من خيوط ذهبية. وكان يحمل قوساً وجعبة للسهام.

اتجه صف كوكبة الفرسان ناحية المزرعة.

تساءل لين تشونغ: "أيمكن أن يكون هذا الفارس اللورد تشاي؟". ولكنه خشي أن يطرح هذا السؤال.

عطف ذلك النبيل المهيب حصانه الأبيض من قلب خط الفرسان، فانطلق حصانه يهملج ناحية لين تشونغ.

سأل النبيل: "من يكون هذا السيد النبيل المطوقة عنقه بمخلعة؟". انحنى لين تشونغ على الفور، وأجاب: "خادمك المطيع يدعى لين تشونغ، كنت في السابق مدرباً للسلاح في الحرس

الإمبراطوري في العاصمة الشرقية. ولأنني أثرت غضب الماريشال غاو استحصل على حكم بإرسالي إلى ولاية كايفينغ وقرار بنفيي إلى تسانغتشو. وقد أخبرونا في حانة القرية أن البطل الشجاع الذي يعيش هنا، اللورد تشاي، يشرع أبوابه للرجال الموهوبين. وكنت سيّئ الحظ فما استطعت العثور عليه".

وثب السيد النبيل عن صهوة جواده واندفع إليه، صائحا: "أنا تشاي جين. ألف عذر لأنني لم أكن في بيتي للترحيب بك!". وخرَّ على ركبتيه على العشب وضم يديه تحية.

رد له لين تشونغ من فوره. أمسك به السيد النبيل من يده وأوصله إلى المزرعة. رآهما الخدم قادمين ففتحوا لهما البوابة. وقاد تشاي جين ضيفه لين تشونغ إلى ردهة الاستقبال مباشرة حيث تبادل الاثنان انحناءة الاحترام من جديد.

قال تشاي جين: "تناهت إليَّ أخبار شهرتك منذ زمن بعيد. من كان يخطر في باله أنك تجيء اليوم إلى بيتنا المتواضع! أن تتاح لي فرصة الترني إلى ملامحك النبيلة حدث من أسعد الأحداث في حياتي كلها!".

– اسم سعادتك مكلل بالشرف في كل مكان. والجميع يحترمونه الاحترام كله. ولم يقع مني ببال أن محكومتي ومروري بهذا المكان في طريقي إلى المنفى سيتيحان لي أن ألتقيكم!".

نزولاً عند إلحاح تشاي جين جلس لين تشونغ على كرسي الشرف إلى المائدة. وجلس شيويه با ودونغ تشاو. وساق الرجال الذين رافقوا تشاي جين في رحلة الصيد خيولهم إلى المبنى الخلفي وتفرقوا. ولن نتحدث عنهم بعد الآن.

أمر تشاي جين خدمه أن يحضروا الصهباء. وسرعان ما قدموا صحفة من اللحم وأخرى من الكعك المخيض باللبن والبيض وجرة من الخمرة الدفيئة. ثم جاءوا بصحفة أخرى عامرة بالأرز. وقد وضعت على كومة الأرز عشر ربطات من النقد.

قال تشاي جين: "هؤلاء السذج لا يعرفون قدر رجل رفيع المقام. كيف يبخسون قدر مدرب للسلاح؟ أف! أعيدوا هذه الأشياء، وأحضروا بدلاً منها الفواكه والخمور، واذبحوا خروفاً. عجلوا".

احتج لين تشونغ، وهو ينهض تأدباً: "أرجوك، لا تكثر، يا صاحب السعادة، هذه الأشياء تكفينا".

– لا ينبغي أن تقول هذا. وجودك بيننا له ميزة خاصة. ولا يمكن أن نقصر في واجباتنا حيالك.

ما أسرع أن رجع الخدم يحملون الفواكه والخمور. نهض تشاي جين وقدم ثلاثة أكواب تطفح خمرة. شكره لين تشنغ وشرب كوبه. وحذا حذوه الخفيران.

قال تشاي جين: "اعذرني برهة، يا مدرب السلاح". نزع قوسه وجعبة سهامه، ومشى إلى الخفيرين وسألهما أن يشاركاه الشراب. ثم جلس على مقعد المضيف. وشغل لين تشونغ مقعد ضيف الشرف. وجلس الخفيران إلى جانبه، وتبادل الجميع حديثاً عادياً فترة من الوقت عن المغامرات الجريئة ومثاقفات السلاح.

كانت الشمس قد مالت إلى الغروب وهم في حديثهم غارقون. مدت المائدة بالصهباء،

والطعام، والفواكه، والأصناف الشهية المستخرجة من البحر. وجعل تشاي جين يقترح الأنخاب ويشرب ثلاث دورات متوالية. ثم غادر مقعده ونادى: "أحضروا الحساء".

قُدم الحساء وتلته ستة أو سبعة أصناف من الخمرة، ثم دلف خادم معلناً: "وصل المعلم".

قال تشاي جين: "حسن. ادعوه للجلوس معنا ومقابلة ضيوفنا. أحضروا دورة أخرى".

دخل القادم الجديد فهبَّ لين تشونغ يحييه. مشى الرجل تياها إلى الغرفة وقد أمال قبعته جانباً وبرز صدره أمامه. فقال لين تشونغ في طوية نفسه: "لقد أشار إليه ذلك الخادم بلقب المعلم. لا ريبة أنه مدرب صاحب السعادة على استخدام السلاح".

وانحنى سريعا، وقال في لطيف نبرة: "لين تشونغ يقدم تحياته".

لم يرد الرجل على تحيته نظراً لجهله من يكون. ولم يجرؤ لين تشونغ على رفع رأسه.

خاطب تشاي جين ذلك الرجل الذي ناداه بمدرب السلاح هونغ قائلا: "هذا هو مدرب السلاح لين الذي يعلم فن استخدام الرماح والعصي في الحرس الإمبراطوري في العاصمة الشرقية. ينبغي ألا يجهل أحدكما الآخر".

خرَّ لين تشونغ من فوره على ركبتيه ساجداً.

قال مدرب السلاح هونغ في صوت خشن: "لا تسجد لي. انهض". ولكنه لم يحن رأسه.

تضايق تشاي جين. سجد لين تشونغ مرتين، ثم نهض وترجى هونغ أن يتخذ مجلسه. فاقتعد ذلك الشاب مقعد ضيف الشرف في لامبالاة؛ الأمر الذي نفر تشاي جين منه. وتهاوى لين تشونغ على المقعد المجاور. وجلس الخفيران إلى جانبه.

سأل مدرب السلاح هونغ: "فيم تبدون سعادتكم مثل هذا اللطف مع رجل منفي؟".

- هذا السيد المهذب هنا ليس رجلاً عادياً. إنه مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري القوي. فكيف تقابله بمثل هذه اللامبالاة، يا معلم؟

- لأنكم تؤثرون المثاقفة بالسلاح يتدفق هؤلاء الرجال المحكومون بالنفي إلى مزرعتكم، يا صاحب السعادة. وكل من يقول "أنا مدرب للمبارزة بالرماح والعصي" يستطيع أن يزور المزرعة ويحصل على طعام وشراب ونقود وأرز! ما أشد سذاجة سموكم!

لم ينبس لين تشونغ بحرف، ولكن تشاي جين قال: "صعب أن تحكم على الأمور من مظاهرها. ولا ينبغي أن تبدي له شيئاً من الاستخفاف".

قرصت هذه الكلمات هونغ الذي وثب على قدميه: "أنا لا أصدقه. إذا أبدى شيئا من الجرأة في مبارزتي بالعصي فسأقرّ له أنه مدرب عبقري للسلاح".

ضحك تشاي جين: "هذه ليست فكرة سيئة. ما رأيك، يا مدرب السلاح لين؟".

قال لين تشونغ: "خادمكم المتواضع لا يجرؤ على مثل هذا الأمر".

همس هونغ في سره: "إنه لا يعرف كيف يقاتل، وهذا شيء لا تنتطح فيه عنزان. هو خائف". وهكذا أصر على أن يقبل لين تشونغ تحديه.

غمرت الرغبة فؤاد تشاي جين في أن يشهد عرضاً لمهارة لين، فضلاً عن أنه تمنى أن ينزل

الهزيمة بهونغ ويغلق فم ذلك الأخرق، فهتف: "أحضروا خمرة. سنشرب أولاً. في مقدور المباراة أن تنتظر حتى يتكبد القمر قلب السماء".

دارت أكواب الخمرة ست أو سبع دورات؛ طلع القمر خلالها وأرسل ضياءه فغمر الردهة التي تضوأت وكأنها في منتصف النهار. ونهض تشاي جين، وقال: "يا مدرب السلاح، نرجوك أن تقدم لنا مباراة". خاطب لين تشونغ نفسه بقوله: "لا شكَّ أن المدرب هونغ هذا هو الذي علم تشاي جين كيف يستخدم السلاح. فإذا أنزلت الهزيمة به قد يخسر سعادته ماء وجهه".

قال تشاي جين، وقد لحظ تردد لين تشونغ: "لم يقم المدرب هونغ هنا إلا منذ فترة قصيرة من الزمن. فلم يقارنه أحد. أرجو ألا ترفض، أيها المعلم لين. ما أشد توقي إلى رؤية مهارتيكما معاً!". تفوه تشاي جين بهذه الكلمات كي لا يخشى لين أن يسبب له شيئا من الضيق، أو يتهيب الإقدام على المبارزة.

شعر لين تشونغ أخيراً بشيء من الارتياح.

صاح هونغ منتفضاً على قدميه: "تعال، تعال. سأبارزك بالعصي!".

خرج الجميع من الردهة إلى الباحة. وأحضر الخدم حزمة من العصي الخشبية وضعوها على الأرض. خلع هونغ ثوبه، وربط أطراف قميصه، واختار عصاً، ووقف موقف النزال قائلا: "تعال، هيا!".

قال تشاي جين: "أيها المدرب لين، أرجوك أن تبدأ المباراة".

وتوسل لين تشونغ: "لا تهزأ بخراقتي، يا صاحب السعادة". واختار عصاً وتوجه إلى هونغ قائلا: "أيها المعلم، أرجوك أن تعلمني".

حملق هونغ فيه كمن يود أن يبتلعه بلقمة واحدة. وخطا لين تشونغ متقدماً حاملاً عصاه بيديه الاثنتين. ضرب هونغ عصاه بالأرض بحدة واندفع صوب لين.

بعد أن جال مدربا السلاح أربع أو خمس جولات في ضوء القمر وثب لين تشونغ خارج دائرة القتال، وصاح: "أوقف المباراة".

سأل تشاي جين: "لماذا لا تظهر لنا مهارتك، يا مدرب السلاح؟".

قال لين: "لقد خسرت".

- ولكنك لم تكمل المباراة حتى النهاية. فكيف تقول إنك خسرت؟".

- إذا كنت سأتبارى وهذه المخلعة حول عنقي، فمن حقي أن أعتبر نفسي مهزوما.

ضحك تشاي جين: "يا لغباوتي. هذا أمر يمكن تسويته بسهولة".

أمر خدمه بإحضار عشر أوقيات من الفضة. وجيء بالنقود فخاطب الخفيرين قائلا: "أيمكن أن أزعجكما برفع المخلعة من عنق لين تشونغ مؤقتاً؟ وإذا جرى استفسار حول هذا الموضوع حين تصلون إلى تسانغتشو فسأتحمل أنا المسؤولية. وزِّعا هذه الأوقيات العشر بينكما".

بدا تشاي جين مهيباً متغطرس الطلعة فخاف الخفيران أن يرفضا طلبه. كانا يودان أن يلقيا حظوة لدى تشاي جين وأن يقتسما الفضة في الوقت ذاته. ولما لم يكن هنالك من خطر في هروب

لين تشونغ، فقد عمد شيويه با إلى رفع المخلعة عن عنقه.

قال تشاي جين مسروراً: "في مقدور المعلمين الآن أن يتابعا المباراة".

كانت خطوات لين وأساليبه في المبارزة على كثير من الحذر فنظر هونغ إليه ساخراً. رفع عصاه، وتأهب للقتال.

أوضح تشاي جين: "مهلاً، مهلاً". وأمر خدمه أن يحضروا كتلة من الفضة من زنة خمس وعشرين أوقية. وسرعان ما أُحضرت.

قال تشاي جين: "المباراة بين المدربين ليست مباراة عادية. فمن ينتصر بينكما يحصل على هذه الفضة مكافأة". كان يترجى بذلك أن يشجع لين تشونغ على إبراز مهارته. وأسقط كتلة الفضة من يده على الأرض.

أحس هونغ بالضيق من قدوم لين تشونغ، كما شعر برغبة ملحة في الحصول على الكتلة الفضية الكبيرة. وأكثر من هذا وذاك كان يخشى أن تنقص الهزيمة من مهابته. اتخذ وضعية القتال وقد نادى إليه شجاعته، ثم وقف وقفة يطلق عليها اسم "ارفع المشعل كيما تسفع السموات".

حدث لين تشونغ نفسه قائلا:

- سعادته يودني أن أهزمه.

كان يحمل عصاه بصورة أفقية، فاتخذ وضعية تدعى "أبعد العشب بحثاً عن الأفعى".

صرخ هونغ:

تعال، تعال!

أهوى عصاه ناحية الأرض، فتراجع لين، وخطا هونغ إلى الأمام خطوة أخرى. رفع عصاه، وأهوى بها من جديد. لحظ لين تشونغ أنه فقد توازنه فجعل عصاه تنهض عن الأرض. ولم يتمكن هونغ من حماية نفسه. حاول أن يتجنب الضربة، ولكن عصا لين حطت بقوة على ظنبوبه. فأسقط هونغ عصاه وهوى متثاقلاً على الأرض.

هتف تشاي جين منفرج الأسارير يطلب خمرة، وقدم للين تشونغ كوباً على سبيل التهنئة. ضحك المشاهدون. جاهد هونغ للنهوض على الأرض فما استطاع إلى ذلك سبيلاً. وعاونه الخدم المبتسمون في الوقوف على قدميه. فمضى يعرج وقد احمرَّ وجهه خجلاً، وخرج من المزرعة.

أمسك تشاي بلين تشونغ من يده وقاده إلى الغرفة الخلفية وقدم له خمرة. أمر خدمه أن يقدموا المكافأة له. حاول لين أن يرفض، فأصر مضيفه على أن يأخذها، فرضخ أخيراً.

تشاي جين أبقى لين تشونغ في المزرعة عدة أيام، وهو يقدم له في كل يوم خمرة فاخرة وطعاماً شهياً.

وبعيد ستة أو سبعة أيام دأب الخفيران خلالها يلحان على لين بالرحيل أقام تشاي جين له مأدبة حافلة. وكتب رسالتين أعطاهما إلى مدرب السلاح وقال:

- والي تسانغتشو صديق حميم لي. وأنا على صلة طيبة أيضا بالحارس وناظر سجن الحامية. أعطهما هاتين الرسالتين وستلقى منهما معاملة طيبة.

وأهدى إلى لين تشونغ كتلة أخرى من الفضة تزن خمساً وعشرين أوقية، ووهب لكل من الخفيرين خمس أوقيات. وشرب تشاي جين ولين تشونغ الخمر في الليل بطوله.

في بكور اليوم التالي، بعيد الفطور، أمر تشاي جين عدداً من الخدم بمرافقتهم وحمل متاعهم. ووضعت المخلعة من جديد حول عنق لين تشونغ. ورافق تشاي جين الجماعة حتى بوابة المزرعة.

خاطب لين تشونغ مودعاً:

- سأرسل إليك مع شخص ثياباً شتوية خلال عدة أيام.

قال لين تشونغ: "لا أعرف كيف أعبر عن امتناني لسعادتكم".

شكر الخفيران بدورهما تشاي جين، وانطلق الثلاثة من بعد صوب تسانغتشو. وصلوا في حدود منتصف النهار وأطلقوا سبيل حملة الأمتعة. وذهب الخفيران مباشرة إلى مركز الولاية وقدما الأمر إلى أحد الموظفين، وسرعان ما مثل لين تشونغ أمام الوالي. تقبل الوالي تحية الولاء من مدرب السلاح وأعطى إيصالاً بالاستلام وكتب أمراً بإلقاء لين تشونغ في السجن. ألقى الخفيران تحية الوداع على لين وخرجا في طريقهما إلى العاصمة الشرقية. ونكتفي ههنا بالحديث عنهما.

سنتحدث عن لين تشونغ بعد أن أوصلوه إلى السجن. ألقي به في غرفة وحيداً، وأمر أن يترقب وثيقة تسجيله. واقترب السجناء الآخرون يلقون عليه نظرة.،

خاطبوه قائلين:

- السجان وآمر السجن هنا شخصان شريران. همهما الوحيد ابتزاز المال. إذا استطعت رشوتهما فسيحسنان معاملتك. وإذا لم تكن تملك مالاً فسيلقيان بك في زنزانة تصلي فيها لحياتك وتتشهى موتك، لكن من دون جدوى! إذا دهنت يديهما بشيء من المال تتجنب مائة جلدة يستقبلان بها السجناء الجدد لتعليمهم النظام. يكفي أن تقول إنك مريض فتؤجل القضية مدة غير محددة. وإن لم تفعل ذلك تعرضت لمائة جلدة تتركك ميتاً أكثر منك حياً.

- جميل منكم أيها الإخوة أن تقدموا لي هذه النصيحة. إن كنت سأرشو، فما هو المبلغ الذي يجب أن أدفعه؟

- إن شئت أن تحسن التدبير فادفع خمس أوقيات من الفضة للسجان وخمس أوقيات أخرى للآمر. هذا مبلغ جيد.

خلال الحديث جاء السجان واستفسر: "من منكم القادم الجديد؟". خطا لين تشونغ متقدماً: "أنا ذلك الشخص الوضيع".

حين أدرك السجان أن مدرب السلاح لم يدفع شيئاً من المال اكفهر وجهه.

رعَّص إصبعه في وجه لين صائحا:

- أيها المنفي البائس! كيف لا تنحني وتحييني باحترام عندما أدخل؟ سمعت كل شيء عن تصرفاتك في كايفينغ! كيف يتأتى لك أن تتصرف بصورة متغطرسة في حضوري؟ أستطيع أن أقرأ من السطور المرسومة على وجهك أن نصيبك لن يكون غير الجوع! ولن ترتفع لك مكانة في هذا الوجود! ما تحتاج إليه هو الكثير من الضرب، أيها السجين الشرس! حسن سعدك أم ساء فأنت الآن

رهن يديَّ، أيها البائس المجزم! سأسحقنَّ عظامك وأدقنَّ لحمك بما فيه الكفاية!

انتظر لين تشونغ ريثما أفرغ السجان غضبه، وأخرج خمس أوقيات من الفضة ناوله إياها مبتسماً: "هذه هدية طفيفة، يا أخي. أرجو ألا ترفضها".

- أهي لي وللآمر معاً؟

- لك وحدك، يا أخي. وفضلاً عن ذلك، هذه عشر أوقيات لآمر السجن. سأربكك بخصوص تسليمه إياها.

ابتسم السجان ابتسامة شبعى، وقال:

- يا مدرب السلاح لين، لقد سمعت باسمك الطيب من قبل. أنت في الحقيقة شاب رائع. خدعك الماريشال غاو. لا شكَّ في هذا. ومع ذلك، في هذا الوقت الراهن، من واجبك أن تصبر على بليتك، وأنا واثق أنك ستتغلب عليها. شخص له سمعتك ومواهبك لن يبقى كسولاً فترة طويلة! ستغدونّ ضابطاً كبيراً في أحد هذه الأيام.

ضحك لين تشونغ: "سأعتمد على لطفك وكياستك كلّياً". قال السجان: "كن مطمئنا".

أعطاه لين تشونغ رسالتي تشاي جين قائلا: "أأضايقك بتسليم هاتين الرسالتين؟".

- رسالتان من اللورد تشاي؟ إذاً، ليس هنالك ما يقلق بالك. كل منهما تساوي كتلة من الذهب! سأقوم بتسليمهما الآن. وفي غضون فترة قصيرة سيرسل آمر السجن إليك للقيام بالتسجيل. وحين يأمر بجلدك مائة جلدة قل إنك مرضت خلال الرحلة ولم تسترد عافيتك بعد. سأنطق بلسانك. وينبغي أن نجعل الأمر يبدو صحيحاً.

- لك شكري الجزيل.

أخذ السجان الفضة والرسالتين وخرج مخلفاً لين تشونغ وحيداً في غرفته، فصعَّد تنهيده حرَى: "المال يوصلك إلى الآلهة. يا لهذه الحقيقة المرة!".

أعطى السجان آمر السجن خمس أوقيات من الفضة من المبلغ الذي أرسله لين تشونغ إليه. وأفضى إليه بسره قائلا: "لين تشونغ رجل ممتاز. إليك هذه الرسالة من اللورد تشاي. يبدو أن الماريشال غاو أمر بنفيه من جراء تهمة ملفقة. وليس هنالك ما نفعله بهذا الشأن...".

قال آمر السجن: "إذا كان اللورد تشاي قد أرسل إلينا هذه الرسالة، فمن واجبنا أن نرعاه رعاية حسنة".

وأمر أن يمثل لين تشونغ في حضرته.

لنرجعنَّ الآونة إلى لين تشونغ. كان مستغرقاً في التفكير في زنزانته حين نادى سجان عليه: "يطلب آمر السجن أن يمثل السجين الجديد لين تشونغ في غرفته للتسجيل".

فذهب لين تشونغ مباشرة إلى الردهة.

قال آمر السجن: "أنت سجين جديد. لقد أورثنا إمبراطور سونغ الأول النظام القديم الذي ينص على مائة جلدة تكون من نصيب كل سجين يبعث به إلى المنفى حديثاً. أيها الحراس! أعدوه للجلد!".

قال لين تشونغ: "أصيب خادمكم الوضيع بالبرد خلال رحلته إلى هنا، ولم يشف من دائه بعد. ألتمس أن تؤجل عملية الجلد فترة".

قال السجان: "هو ليس في صحة جيدة. أرجو أن تأخذك الشفقة به".

قال آمر السجن: "لما كانت علامات المرض بادية عليه، فلعلنا نستطيع تأجيل ذلك في الوقت الراهن. نستطيع أن نجلده عندما يسترد عافيته".

اقترح السجان قائلا: "انتهت اليوم الفترة المخصصة لذلك السجين الذي عهد إليه بالعناية بمعبد سجن الحامية. فلم لا نعهد بالعمل إلى لين تشونغ بدلاً عنه؟".

أصدر آمر السجن أمراً بذلك، فرافق السجّان لين تشونغ إلى زنزانته حيث جمع متاعه، ومن ثم اقتاده إلى المعبد.

قال السجان: "لقد عنيت بك عناية خاصة، يا مدرب السلاح لين، فجعلت هذه الوظيفة من نصيبك. وهي أسهل الأعمال إطلاقاً في سجن الحامية. كل ما ينبغي عليك أن تعمل هو إحراق البخور ومسح الأرض مرة في الصباح وأخرى في المساء. وسوف تكتشف سريعاً أننا لا نرحم السجناء الآخرين من بكرة الصباح حتى انسدال ستارة الليل. أما أولئك الذين لا يملكون مالاً فنلقي بهم في الزنزانة حيث يصلون للحياة ويتشهون الموت، ولكن من دون جدوى!".

قال لين تشونغ: "جزيل شكري على حمايتك لي". وأعطى السجان ثلاث أوقيات أخرى من الفضة قائلا: "ثمة قضية أخرى أريد أن أتعبك بها، يا أخي. أتستطيع فك هذه المخلعة عن عنقي؟".

قال السجان، وهو يدس النقود في جيبه: "دع هذا الأمر علي". وأسرع إلى آمر السجن ونقل إليه توسلات السجين، فرفعت المخلعة عن عنق لين تشونغ.

منذ ذلك الحين صار لين تشونغ ينام ويأكل في المعبد. ولا يفعل في نهاره أكثر من إحراق البخور ومسح الأرض. ومرَّ على هذه الحال أربعون أو خمسون يوماً لم يشعر بمرورها. وكان آمر السجن والسجان يشفقان عليه بعد رشوته إياهما. وسمحا له أن يتجول كيفما يشاء في الغدوِّ والرواح. وأرسل اللورد تشاي رجلاً حمل إليه ثياباً شتوية وهدايا أخرى. وصار يقتسم ما يتلقاه مع السجناء الآخرين.

لنختصرنَّ الحديث فنقول إنه حدث ذات يوم، والنهار قد انتصف، والشتاء يقترب وئيداً، أن كان لين تشونغ يتجول خارج بوابات السجن.

على حين فجأة تناهى إليه صوت من ورائه يناديه: "يا مدرب السلاح لين، ماذا تفعل ههنا؟".

التفت لين تشونغ ومدَّ بصره.

ونتيجة لرؤيته ذلك الشخص الذي ناداه كادت النيران وألسنة اللهب أن تضع لحياته حداً. وبين الرياح والثلوج استطاع أن يتفادى جراحات مميتة.

من كان ذلك الرجل الذي رآه لين تشونغ؟

إن أحببت معرفة ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل العاشر

لين تشونغ يحتمي من العاصفة الثلجية في معبد روح الجبل؛ والنقيب لو كيان يضرم النيران في مخزن العلف

كان لين تشونغ يدرج متمهلاً حين نادى شخص من ورائه باسمه. التفت فرأى خادم الحانة لي شياو آر. حين تعارفا للمرة الأولى في العاصمة الشرقية مدّه لين بمعونة مالية مرات عديدة. وحدث أن سرق شياو آر بعض النقود من المشربي واعتُقل. وكانوا سيرسلونه إلى الوالي حين تدخّل لين في صالحه فلم يحاكموه. وسدّد لين النقود التي سرقها فأفرجوا عنه. وعلى الرغم من أن شياو آر لم يستطع من بعد العثور على عمل في العاصمة، فقد استطاع، بالنقود التي أعطاه إياها لين كنفقات للسفر، أن يفتش عن عمل في مكان آخر. وفي هذا النهار، وبصورة غير متوقعة، التقيا مجدداً في تسانغتشو.

سأل لين تشونغ: "ماذا تفعل هنا، أيها الأخ شياو آر؟".

سجد شياو آر، وردّ مجيباً: "بعد أن أنقذتني، يا من أحسنت إليَّ، ونقدتني مالاً لرحلتي، بحثت عن عمل في كل مكان من غير طائل. وأخيراً جئت إلى تسانغتشو. وهنا قبلني مشربي يدعى وانغ مساعداً له في حانته. ولأنني جلود على العمل وفي طوقي أن أهيئ أطباقاً رائعة من الطعام والمرق جعل الزبن يمتدحونني، ونشط عملنا كثيراً. وكانت للمشربي ابنة، فزوجني إياها وتبناني في أسرته. وقد توفي هو وزوجته. ولم يبق أحد سواي أنا وزوجتي. ونحن ندير حانة قريبة من السجن. وكنت في طريقي لتحصيل بعض الديون. ماذا تفعل هنا، أيها المحسن إليَّ؟".

أشار لين إلى العلامة على وجنته، وقال: "لأنني خالفت مشيئة المارشال غاو ثار ضدي واتهمني واستصدر حكماً بنفيي إلى هذا المكان. وأنا الآونة أشرف على معبد سجن الحامية. ولا أعرف ماذا يفعلون بي في المستقبل. ولم يطف في ذهني أنني سألتقيك هنا".

شياو آر رافق لين تشونغ إلى بيته، ودعاه إلى الجلوس، ونادى على امرأته تقرأه التحية. وقال الزوجان والسعادة تفيض في جوانحهما: "ليس لنا ههنا من أقرباء. وقدومك إلينا في هذا النهار، أيها المحسن، أشبه بعطية من السماء!".

قال لين: "أنا رجل منفيّ. ألن تلطخ رفقتكما لي اسميكما بالعار؟".

قال شياو آر: "كيف تقول مثل هذا الكلام؟ الجميع يعرفون سمعتك الطيبة جئ بثيابك إلى زوجتي لتغسلها لك وترفأها".

قدم للين تشونغ طعاماً وشراباً، ورافقه في تلك الليلة إلى معبد السجن. وفي الصباح التالي جاءه مرة أخرى يدعوه إلى منزله.

منذ ذلك اليوم صار شياو آر ولين تشونغ يتزاوران مرات عديدة. ودأب شياو آر على إرسال الشاي أو الحساء إلى لين في السجن. وفاضت مشاعر لين من احترام الزوجين له وإخلاصهما المتناهي، فصار يقدم لهما بين الفينة والفينة قليلاً من المال يستخدمانه في تجارتهما.

وكيلا نطيل الحديث نقول إن الأيام مرت سراعاً. وحلَّ الشتاء. عنيت زوجة شياو آر بجميع ثياب لين تشونغ الشتوية المبطنة. وذات يوم، بينما شياو آر بالطهي في مدخل الحانة، انسرب شخص واتخذ مجلسه إلى إحدى المناضد. وسرعان ما لحق به شخص آخر منسرقاً خلسة. كان الرجل الأول ضابطاً عسكرياً على ما يبدو من طلعته. وبدا الثاني وكأنه تابع له. دلف عجلان واقتعد كرسياً.

مضى شياو آر إليهما مستفسراً: "خمرة؟".

ناول الضابط شياو آر أوقية من الفضة: "خذ هذه على الحساب. واحمل إلينا ثلاث جرار أو أربعاً من الصهباء المعتقة. وحين يصل الضيوف قدم طعاماً وأشياء طيبة. اختر أنت الأطباق. ولا حاجة إلى سؤالي".

- هل دعوت ضيوفاً، يا سيدي؟

- سأطلب إليك أن تذهب إلى سجن الحامية وتدعو آمر السجن وحارسه للمثول إلى هنا. فإن لي معهما حديثاً. وإذا سألاك شيئاً لا تزد عن القول: "سيد مهذب يسألكما الحضور للنقاش في قضايا معينة. وهو يترقب قدومكما...".

وافق شياو آر وخرج. نقل الخبر في السجن إلى السجان أولاً، ثم نقلا الدعوة معاً إلى آمر السجن، ورجع الثلاثة إلى الحانة. وتبادل السيد وآمر السجن والسجان التحية.

قال آمر السجن: "نحن لم نلتق من قبل قط. فهل نستوضحك عن اسمك، يا سيدي؟".

أجاب الرجل: "أحمل معي رسالة توصية سأعطيكما إياها بعد قليل. لكن، لنشربن قليلاً من الخمرة أولاً".

فتح شياو آر الجرار وقدم الطعام. وطلب السيد طبقاً احتفالياً من أكواب الخمور. ملأ هذه الأكواب وقدمها لضيفيه وسألهما الجلوس. وجعل شياو آر يراوح ويغادي مثل المكوك قائماً على الخدمة دون هوادة. وانصرف تابع السيد المهذب إلى تدفئة الخمرة. ودارت الأكواب عدة مرات. وجيء بأطعمة شهية تتماشى والخمور.

توجه السيد إلى شياو آر قائلا:

- خادمي سيدفئ الخمرة. فلا ضرورة لوجودك ما لم نستدعك. في ودنا أن نتحدث حديثاً خاصاً.

قال شياو آر: "حسن جداً، يا سيدي". وغادر الغرفة. وتشاور مع زوجته خارج الباب: "ثمة ما يريبني في هيئة هذين الرجلين".

- ماذا تقصد؟

- لهما نبرة أهل العاصمة الشرقية، ولكن أحداً منهما لا يعرف آمر السجن. حين دخلت عليهما بالطعام الشهي من توي سمعت السجان يغمغم شيئاً عن"الماريشال غاو". أليس هو الرجل

الذي أساء إلى مدرب السلاح لين؟ سأبقى هنا عند الباب وأراقبهما خلسة. فاذهبي وأرهفي السمع إلى ما يقولونه عند الجدار الآخر.

- لم لا تدعو مدرب السلاح لين إلى هنا من السجن لنرى ما إذا كان يعرفهما؟

- أنت لا تعرفين حدة طباعه. فمن الممكن أن يرتكب جريمة ويحرق هذا المكان. فإذا دعوته وتبين أن هذا السيد هو النقيب لو الذي ذكره لنا في ذلك النهار، فسوف لن يتركه لين ينجو بجلده. وإذا حدث شيء ما هنا فسوف نتورط فيه كلانا. يحسن أن تذهبي وترهفي سمعك. وسنتخذ قرارنا في ما بعد.

قالت الزوجة: "حسنا". مضت وأرهفت السمع فترة. ثم رجعت وقالت: "إنهم يتهامسون وقد تلاقت رؤوسهم فما سمعت حرفاً. ولكنني رأيت ذلك الرجل الذي يبدو أشبه بضابط يتناول شيئاً أبيض ملفوفاً من خادمه ويعطيه إلى آمر السجن والسجان. قد يكون شيئاً من المال. وقد سمعت السجان يقول: "دع الأمور لنا. سننتهي منه سريعاً مهما كانت الظروف".

في هاتيك البرهة انطلق صوت من داخل الغرفة صائحا: "أحضروا الحساء". فأسرع شياو آر يلبي النداء. وخلال دخوله رأى أن آمر السجن يحمل رسالة في يده. قدّم الحساء، ثم أعقبه بعدة أطباق من الطعام.

استمرت الوليمة ساعة أخرى. وبعد أن دُفع الحساب انصرف آمر السجن والسجان أولاً. وسرعان ما لحق بهما الآخران وقد أحنيا رأسيهما.

وصل لين تشونغ إلى الحانة بعد لحظات، وقال: "أيها الأخ شياو آر، أرجو أن تكون أمورك على أفضل ما يرام". فترجاه شياو آر في كلمات متسارعة: "أرجو أن تجلس، أيها المحسن إليَّ. كنت في سبيلي إلى البحث عنك. يجب أن أروي لك أمراً على جانب من الخطورة".

استوضح لين تشونغ: "ما وراءك؟".

اقتاده شياو آر إلى الغرفة الداخلية، وطلب إليه الجلوس، وروى له كل شيء عن ذينك الرجلين. وختم حديثه قائلا: "لا أعرف هوية هذين الشخصين، ولكنني لا أثق فيهما. أخشى أن يعمدا إلى إيذائك، أيها المفضال".

سأل لين: "صفهما لي".

- أحدهما متين البنية، أشقر الطلعة، حليق الوجه، في حدود الثلاثين من العمر. والآخر لم يكن فارع القوام أيضاً. وكانت له سحنة متوردة.

هتف لين تشونغ مجفلاً: "هذا الرجل الذي يبلغ الثلاثين من العمر هو النقيب لو كيان! يا للص القذر! كيف يجرؤ على المجيء إلى هنا لإيذائي؟ إن قبضت عليه فسأسحقه سحقاً!".

قال شياو آر: "حذار من أن تغص وأنت تأكل، أو تتعثر وأنت تسير، كما يقول المثل".

غادر لين تشونغ منزل شياو آر وقد اشتمله غضب شديد. وابتاع في الطريق خنجراً حاداً. حمله بيده وطفق يفتش الشوارع والأزقة، وارتعب شياو آر وزوجته مغتسلين بعرق بارد.

نهض لين في بكور الصباح التالي، وغسل وجهه ومسح فمه، ومن بعد أخذ الخنجر وشرع من

جديد يجوس الشوارع والأزقة خلسة في المدينة وضواحيها. وبقي يفتش النهار بطوله، حتى إنه لم يسقط السجن والحامية من حسابه، ولكنه لم يعثر على أحد.

رجع إلى منزل شياو آر، وقال: "لم يقع شيء هذا النهار أيضاً". قال شياو آر: "أيها المفضال، لنأملنَّ أن تقف الأمور عند هذا الحد! لكن، حذار!".

رجع لين إلى معبد سجن الحامية حيث أمضى الليل. وطاف في الشوارع على مدى أربعة أو خمسة أيام من غير طائل. وراحت نرفزته تجنح إلى هدوء شيئاً فشيئاً.

في اليوم السادس استدعى آمر السجن لين تشونغ إلى حجرته، وقال: "لقد مرَّ على وجودك هنا زمن غير قصير. كرمى للورد تشاي سنعمل على تحسين وضعك. على مبعدة خمسة عشر لياً من البوابة الشرقية للمدينة ثمة مخزن كبير للعلف تابع للجيش، وفي مقدورك في كل شهر أن تجمع الإتاوات من الناس الذين يسلمون العلف. ثمة عسكري شيخ مسؤول عن المخزن هنالك. قررت أن أكلفك بالعمل على أن يشغل هو عملك في معبد سجن الحامية. وفي مقدورك تكسُّب شيء من المال لمصروفك اليومي خارج المخزن. اذهب إلى هناك برفقة السجان وباشر عملك".

قال لين: "سأفعل ذلك، يا سيدي".

غادر الحامية أولاً وذهب إلى منزل شياو آر. ونقل إلى الزوجين الخبر: "آمر السجن يرسلني اليوم للإشراف على مخزن العلف العائد للجيش. فما رأيكما؟".

أجاب شياو آر: "إنه مكان أفضل من معبد سجن الحامية. هنالك تستطيع أن تحصل على مبلغ منتظم من المال بين حين وحين. وعادة لا يتاح لأحد الحصول على ذلك المنصب من دون أن يدفع رشوة".

– هما لم يؤذياني، بل أعطياني وظيفة طيبة أيضا. ولا أعرف ماذا أفعل.

– فيم هذه الشكوك، أيها المفضال؟ الأمور على أحسن ما يرام طالما أنه لم يقع شيء حتى الآن. المشكلة الوحيدة هي أنك ستقيم على مسافة بعيدة منا. وبعد فترة من زمن سأذهب لزيارتك حين تسنح لي فرصة ملائمة.

ألحَّ شياو آر على لين تشونغ أن يجرعا عدة جرعات من الشراب.

كيما نختصر الحديث نقول إن الصديقين افترقا، وإن لين تشونغ رجع إلى معبد سجن الحامية، وإنه جمع أمتعته، ودفع خنجره في حزامه، وحمل رمحاً وانطلق برفقة السجان إلى مخزن العلف.

كان اليوم شتوياً مريراً، والسماء ملبدة بالسحب، فشقا طريقهما والريح تعصف بهما وندف ثلج كبيرة تدور حولهما. ولما لم يكن على الطريق من مكان يبتاعان فيه خمرة، فقد وصلا إلى المخزن سريعاً.

كان المخزن مسوراً بجدار طيني، وله بوابة ببابين. فتحا البابين ودلفا إلى المبنى. فعثرا على بناء من القش مؤلف من سبعة أو ثمانية أقسام يستخدم مستودعاً للعلف. وكانت أكوام من القش مكدسة في كل مكان. وفي الوسط ينهض كوخ صغير من القش . ووجدا في داخله الجندي الشيخ جالسا بجانب نار صغيرة.

قال السجان يخاطبه: "هذا هو لين تشونغ. أرسله آمر السجن ليحل محلك. أما أنت فستعود للعناية بمعبد سجن الحامية. وتستطيع أن تسلمه واجباتك".

أعطى الجندي الشيخ مفاتيحه إلى لين تشونغ، وقال: "الأمتعة في الداخل محفوظة تحت القفل الرسمي. وأكوام القش هذه معدودة بأكلمها".

مشى برفقة لين تشونغ يعدان أكوام القش، ثم رجعا إلى الكوخ وجمع أمتعته. قال، وهو يهمُّ بالرحيل:

- سأعطيك مبخرتي، وقصعتي، وغلاياتي، وأطباقي.

قال لين: "إن لديَّ مثل هذه الأشياء في المعبد أيضا. وفي مقدورك الحصول عليها هنالك".

أشار الجندي الشيخ إلى قارورة من اليقطين معلقة على الجدار، وقال: "إذا رغبت في شراء خمرة، فهنالك سوق صغيرة على مبعدة ليين أو ثلاثة ليات على الطريق". ورحل برفقة السجان قاصدين السجن.

أما لين تشونغ فوضع صرته وشرشفه على السرير وجلس يؤرث النار في المبخرة الطينية. كان ثمة القليل من الفحم في زاوية الغرفة، فأخذ لين عدة أعواد منها. وأجال الطرف في الكوخ. كان متداعي الأركان يرتعش مع كل هبة ريح.

ساءل لين نفسه: "كيف يمكن أن أمضي الشتاء هنا؟ حين تهدأ العاصفة سأحضر بنَّاء من المدينة لإصلاح المكان".

كانت النار التي أضرمها تلتهب بقوة، ولكنه لا يبرح يشعر بالبرد. ففكر في وليجة نفسه: "قال الجندي الشيخ إنّ هنالك سوقا صغيرة تبعد حوالى ثلاثة ليات من هنا. فلم لا أذهب وأشتري قليلاً من الخمرة؟".

أخذ شيئاً من النقود من صرته، وربط قارورة اليقطين إلى طرف رمحه، وغطى المجمرة، ووضع على رأسه قبعته عريضة الحواف المصنوعة من اللباد، وأغلق باب الكوخ وراءه. وحين خرج من بوابة المبنى أغلقها وأقفلها بالمفتاح. وحمل مفاتيحه واتجه شرقاً. كان الثلج الذي افترش الأرض كتلة من ندف يشمية بيضاء. فشق لين تشونغ طريقه قدما والريح تهب على ظهره. وكانت السماء تثلج بشدة.

لم يجتز أكثر من نصف لي حين لمح معبداً قديماً. فضمَّ راحتيه أمام جبهته وانحنى: "فلتحمني الآلهة. يجب أن أحضر إلى هنا ذات يوم وأحرق بعض الأوراق النقدية على سبيل التقريب".

وسار في طريقه. رأى إلى الأمام منه مجموعة من البيوت. فتوقف، ومدَّ بصره في ملء العاصفة. كانت البيوت مسورة بسور. وثمة مجموعة من المكانس المصنوعة من القش تتدلى من أحدها دلالة على حانة تبيع الخمور. فدلف إليه.

سأل المضيف: "من أين أنت، يا سيدي؟".

أجابه لين تشونغ: "هل تعرف هذه القارورة من اليقطين؟".

تطلع الرجل إليها، وقال: "إنها تخصُّ الجندي الشيخ في مخزن العلف". قال لين: "هذا

صحيح".

قال المضيف: "إذاً، أنت هو القيم الجديد؟ أرجو أن تجلس، يا أخي. فهذا اليوم شديد زمهريره. واسمح لي أن أقدم لك شيئاً من الخمرة على سبيل الترحيب بك".

قدم له طبقاً من شرائح لحم البقر، وأدفأ طاساً من الخمرة ودعا لين إلى الطعام. ابتاع لين قليلاً من لحم البقر، وجرع بعض الأكواب، ثم ملأ القارورة بالخمرة. ولف ما اشترى من لحم، ووضع بعض القطع الفضية، وربط القارورة إلى طرف رمحه، ودس اللحم داخل قميصه.

قال لين: "لقد جشمتك المشاق، فشكرا". وخرج من خلال بوابة السور وبدأ طريق عودته ضد الريح. كان الثلج قد تكاثف هبوطه مع انسدال الليل.

راح لين يشق طريقه عبر الثلج في وجه الرياح الشمالية، وآب إلى مخزن العلف، وحين فتح البابين ودلف إلى المبنى أطلق صرخة رعب. لا ريبة أن الآلهة التي تشاهد كل شيء وتحمي الصالحين والأطهار أنقذت حياته في تلك العاصفة الثلجية. فقد انهدم الكوخ المبني من القش تحت وطأة الثلج.

تساءل لين: "ماذا سأفعل الآن؟".

وضع رمحه واليقطينة على الأرض. وخشية من أن تعمد جمرات النار في المجمرة إلى إضرام النار في المكان فتح ثغرة في جدار الكوخ المهدوم، ودفع بنفسه إلى الداخل وتحسس المكان. لكن الجمر انطفأ من جراء الثلج الذائب. وتلمس لين السرير حتى عثر على لحافه فشده إليه، وخرج إلى الليل الدامس.

همس في سره: "ليس هنالك مكان أضرم فيه النار. فكيف أتدبر أمري؟". وتذكر المعبد القديم القائم على مسافة نصف لي على الطريق. فقال في نفسه: "أستطيع قضاء الليل هنالك. وحين تلوح تباشير الفجر في الأفق أقرر خطوتي المقبلة".

لف لحافه، وألقى رمحه على كتفه ويقطينة الخمرة تتدلى من طرفه، وأغلق بوابة المبنى من جديد، وقفلها، واتجه ناحية المعبد. دلف إليه، وأقفل الباب، ووضع وراءه حجراً كبيراً وجده في إحدى الزوايا. وغرَّق في المعبد فرأى على مصطبة تمثالاً لروح الجبل عليه درع ذهبية يحوطها قاضي العالم السفلي وشيطان صغير عن جانبيه. وكانت هنالك كومة من الأوراق في زاوية. فبحث لين في أرجاء المعبد من دون أن يعثر على إنسان أو مسؤول.

وضع رمحه وقارورة اليقطين على كومة الأوراق، وحل لحافه. وخلع قبعته العريضة، ونفض الثلج عن ثيابه ومسح سترته البيضاء نصف المبللة، ثم وضعها وقبعته على منضدة المذبح. وغطى نفسه حتى وسطه باللحاف، وجرع جرعة من قارورة الخمرة بين حين وحين، وجعل يلتهم شرائح اللحم التي يحملها.

على حين فجأة، تناهى إلى سمعه صدى قرقعة صاخبة في الخارج. وثب على قدميه، ومدَّ بصره من خلال ثقب في الجدار. كان مخزن العلف بأسره يلتهب بقوة، فاختطف رمحه، وهمَّ أن يفتح الباب ويندفع صوب النيران حين التقطت أذناه أصواتاً بشرية. فاستند إلى الباب وأرهف سمعه.

كانت خطوات ثلاثة رجال تقترب من المعبد.

دفع الرجال باب المعبد، ولكن الحجر الكبير دعمه فما انفتح لهم: فوقفوا تحت الطنف يراقبون النيران.

قال أحدهم: "لم تكن خطة سيئة، أليس كذلك؟".

فأجاب الآخر: "نحن مدينان لآمر السجن ولك، أيها السجان. حين أعود إلى العاصمة وأرفع تقريري إلى الماريشال سيجعلكما من دون ريب ضابطين كبيرين. وليس أمام مدرب السلاح تشانغ الآونة أية حجة للرفض".

وقال الثالث: "لقد أولينا لين تشونغ عناية طيبة هذه المرة. ولا بد أن يسترد المعلم الشاب غاو عافيته".

قال أحد الثلاثة: "حاولنا أن نهيّئ للزواج ثلاث أو أربع مرات. وقد أخبرنا ذلك النذل تشانغ أن "صهره مات"، ولكنه لم يرضخ. وصحة المعلم الشاب غاو تزداد سوءاً. هكذا أرسلنا الماريشال خصيصاً نترجى عونكما، أيها السيدان المهذبان. ونجحنا أخيراً في هذا الأمر".

- لقد تسلقت الجدار وأضرمت شعلة من اللهب في القش. ولكم أحب أن أرى إليه يفلت منها!

- احترق المخزن بأكمله تقريبا.

- إذا استطاع النجاة بحياته، فإن إحراق مخزن علف عسكري جريمة عقوبتها الموت.

- لنرجعنَّ إلى المدينة أدراجنا.

- لنتمهلنَّ برهة أخرى. فإذا حملنا بعض عظامه إلى العاصمة سيثني الماريشال والمعلم الشاب غاو على عملنا ثناء جميلاً.

عرفهم لين تشونغ من أصواتهم. فأحدهم هو السجان والآخر النقيب لو كيان، والثالث فو آن.

همس في نفسه: "لترحمني السماء. لو لم يتهدم الكوخ لالتهمتني النيران التي أضرمها هؤلاء الأنذال!".

أزاح الحجر عن الباب في هدوء. واختطف الرمح، ودفع لين تشونغ الباب ففتحه. وزمجر راعداً: "أين تحسبون أنفسكم ذاهبين، أيها الأوغاد؟".

جمد الثلاثة الذين هموا بالرحيل في أماكنهم يعصف بهم الرعب.

رفع لين تشونغ يده وطعن السجان برمحه فأرداه قتيلاً.

هتف النقيب لو، وقد هدّه الذعر: "لا تقتلني!".

وهرب فو آن حوالى عشرين خطوة، ولكن لين تشونغ لحق به وقبض عليه وغرز رمحه في ظهره بطعنة واحدة، فهوى على الأرض.

واستدار لين. فرأى النقيب لو قد أفلت هارباً. ولكنه صاح به قبل أن يجتاز عدة خطوات: "قف، أيها اللص الخائن!". وقبض عليه من مقدمة ردائه وطوّح به على قفاه فوق الثلج.

غرز لين رمحه في الأرض، ووضع إحدى قدميه على صدر لو، واستلَّ خنجره وأشهره فوق

وجه النقيب.

جأر صائحا: "أيها التعيس القذر! لم أخطئ إليك مرة واحدة. فكيف تؤذيني على هذه الصورة؟ لم يخطئ من قال: يصفح عن القتال، ولا يصفح عن الخداع!".

ترجى لو: "لم تكن الفكرة فكرتي. أمرني الماريشال بتنفيذها! ولم أجرؤ على الرفض!".

صاح لين: "أيها الوغد الخائن! كنا صديقين منذ طفولتنا، وهذا أنت الآن جئت تدمرني! فكيف تجد لنفسك عذراً؟ ذقْ طعم هذه السكين!".

وكشف ثياب لو عن صدره، وغرز السكين في قلبه وأدارها، فتفجر الدم غزيراً، ومزق له لو قلبه وكبده.

شاهد السجان يناضل للوقوف على قدميه استعداداً للفرار، فقبض عليه في لمحة خاطفة. وصاح: "لقد عرفت الآن ما أنت عليه من نذل شرير. إليك هذه!". وقطع رأس السجان وربطه إلى طرف رمحه.

ثم رجع إلى فو آن ولو كيان وقطع رأسيهما أيضا. وضع سكينه جانباً، وربط الرؤوس الثلاثة إلى بعضها بعضاً من شعرها، وحملها إلى المعبد، ووضعها على المذبح أمام تمثال روح الجبل. ثم ارتدى ثوبه الأبيض، وشد عليه حزامه، وألقى القبعة عريضة الحواف على رأسه، وأتى على ما تبقى من خمرة في قارورة اليقطين.

قذف اللحاف والقارورة جانباً، وحمل رمحه، وغادر المعبد ووجهته الشمال. سار قرابة أربعة أو خمسة ليات حين لمح جمعاً من الناس من قرية مجاورة يسرعون بدلائهم ورماحهم لإخماد النيران.

أهاب بهم لين تشونغ صائحا: "أسرعوا وأنقذوا المكان. سأعلم المسؤولين بانتفاضة هذه النيران".

وهرول راكضاً ورمحه في يده.

تكاثف تهاطل الثلج. وبقي لين يعمل خطاه شرقاً قرابة ساعتين. كان يرتعش من شدة البرد. وقد نأى الآونة عن مخزن العلف. وقع بصره على الطريق الثلجي في غابة متفرقة من الأشجار على منزل صغير سقفه مصنوع من القش يئيد تحت ثقل كتل الثلج المتراكمة. وكانت أضواء النار تلمع من خلال الشقوق في الجدار.

اقترب لين من البيت ودفع الباب ففتحه. كان ثمة خادم شيخ وأربعة أو خمسة من الخدم الفتيان قد تراصوا حول موقدة مفتوحة تحترق فيها عصي خشبية. فدنا منهم قائلا: "السلام عليكم. أنا أؤدي مهمة لسجن الحامية. وقد بلل الثلج ثيابي. وأحب أن أجففها قرب النار إذا أذنتم لي". قال الخادم الشيخ: "لك ما تريد. فنحن لا نبالي".

قرَّب لين ثيابه من النار فجفت قليلاً. ورأى قرب النار جرة ضخمة تنطلق منها رائحة الخمرة. فقال: "أحمل بعض القطع الفضية. فهل تعطونني جرعة من هذه الخمرة؟".

قال الخادم الشيخ: "نحن نتناوب على حراسة مخازن الحبوب. وقد حانت ساعة الحراسة

الرابعة، والجو بارد. وليس لدينا من الخمرة ما يكفينا. فكيف نعطيك منها؟ لا تتحدث عن هذا".

- مجرد جرعتين أو ثلاث جرعات أطرد فيها البرد من جسدي.

- يا لك من ملحاح! قلت لا.

فاقمت رائحة الخمرة من ظمأ لين. فألح قائلا: "لا فائدة من الرفض، سوف تعطونني منها". استدار الخدم جميعاً إليه قائلين: "أكرمناك فأجزناك أن تجفف ثيابك قرب نارنا، وهذا أنت تطلب خمرتنا. إليك من هنا! إن لم تخرج شددنا وثاقك!".

غضب لين، فصاح: "أيها الأنذال اللئام!". وأطار بطرف رمحه عوداً ملتهباً أصاب وجه الخادم الشيخ، ثم ثنى الرمح بضربة أخرى فأطار اللهب فلدغ سالفيه.

انتفض الجميع مذعورين، فهاجمهم لين برمحه. وهرب الخادم الشيخ. وانشلت حركة الآخرين من الرعب. فطردهم بضربات متوالية من رمحه.

قال: "لقد ذهبوا جميعا. وفي مقدوري تذوّق هذه الخمرة الآن!".

كانت هنالك مغرفتان من جوز الهند على منصة من الطين متخذة سريراً، فتناول إحداها وراح يغرف ويشرب، وسرعان ما أتى على نصف ما في الجرة. فأخذ رمحه وسار مترنحاً عبر الباب.

تثاقل في مشيته قرابة نصف لي. فألقت به هبة من الريح إلى جانب هوة. حاول عبثاً أن ينهض على قدميه. حين يسقط السكران لا يستطيع النهوض. فاستلقى مخدَّر الحواس على الثلج.

جاء الخدم راكضين وفي رفقتهم حوالى عشرين رجلاً آخر مسلحين بالرماح والهراوات، ووصلوا إلى المنزل المبني من القش. كان لين قد ذهب. فتتبعوا آثاره إلى أن وجدوه مطروحاً على الثلج ورمحه ملقى إلى جانبه.

هتفوا صارخين: "هذا أنت هنا". قبضوا عليه وشدوا وثاقه. ولم تحن ساعة الحراسة الخامسة حتى نقلوه إلى مكان آخر.

وبسبب ذهابه إلى ذلك المكان راحت آلاف القوارب المبحرة روحة رجعة تتقاتل على البحيرات، وانتظم مئات ومئات من الأبطال في صفوف عن طرفي الحصن في البحيرة عن يسار وعن يمين.

صدقونا، إن الإصغاء إلى مذبحة والمأساة يجمدان القلب ويصبّان القشعريرة في العظام!

إلى أين ترى نقل الخدم لين تشونغ؟

إن أحببت معرفة ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الحادي عشر

تشو غوي يطلق سهما للتحذير من جوسق جانب البحيرة؛
ولين تشونغ يتسلق جبل ليانغشان في ليلة ثلجية

في الليلة التي سقط فيها لين تشونغ - "رأس النمر" - سكران على الثلج وعجز عن النهوض شدَّ الخدم وثاقه بالحبال ونقلوه إلى مزرعة. وجاء خادم آخر وقال: "سيدنا لا يبرح يغطُّ في نومه. فلنشنقه تحت برج المدخل". أفاق لين عند الصباح بعد أن نفض من رأسه آثار الخمرة. وتطلع حواليه. لا ريبة أنها مزرعة كبيرة.

صاح: "من حجزني ههنا؟". اختطف الخدم العصيَّ واقتربوا من غرفة البوابة: "ألك جرأة على التذمر!".

قال الخادم الشيخ الذي احترق سالفاه: "لا تخاطبوه! بل اجلدوه! سيستجوبه سيدنا حين يهب من رقاده".

تحلق الخدم حول لين تشونغ وانهالوا عليه بعصيهم ضرباً. فلم يتمكن من الفرار. صاح: "أتضربونني!؟ سأجعلكم تندمون على ما تفعلون!".

واقترب خادم آخر، وقال: "سيدنا قادم!".

رأى لين على نحو ضبابي رجلاً له طلعة الضباط، وقد عقد يديه وراء ظهره، يخرج من بناء ويهبط عن عتبته. نادى قائلا: "من تضربون هناك؟". أجاب الخدم: "قبضنا على لص الأرز هذا في الليلة الماضية". اقترب الرجل وتعرف على لين تشونغ. فأصدر أمره سريعاً إلى خدمه بأن يكفوا عن ضربه ويحلوا وثاقه. واستفسر قائلا: "ماذا تفعل وأنت مقيَّد هنا، يا مدرب السلاح؟". تراجع الخدم بعدما سمعوا قول السيد. لم يكن يقف أمام لين تشونغ غير تشاي جين.

توسل لين قائلا: "أنقذني، يا صاحب السعادة!".

- فيم يسيء إليك هؤلاء القرويون؟

- إنها قصة طويلة.

دخل الاثنان البناء وجلسا. وروى لين قصة مغامراته بالتفصيل، بدءاً من حريق مخزن العلف.

قال تشاي جين:

- يا لحظك السيّئ يا أخي. ولكن لقاءنا اليوم هبة من السماء. فهوِّن عليك. هذا المكان مزرعتي الشرقية. أقم عندي فترة، ثم نقرر ماذا نفعل.

أمر أحد الخدم بأن يحضر ثياباً جافة، فأبدل لين ثيابه كلها، ودعاه تشاي جين إلى غرفة دافئة وتناول معه الشراب والطعام. وبقي لين في المزرعة الشرقية ستة أو سبعة أيام ولن نزيد في هذا

الموضوع حديثاً.

ستتحدث بالأحرى عن تسانغتشو، حيث رفع آمر سجن الحامية تهمة ضد لين تشونغ بخصوص قتله السجان والنقيب لو كيان وفو آن، فضلاً عن إحراقه مخزن العلف العسكري، وانشده الوالي، أصدر هذا الأخير على الفور أمراً باعتقال لين تشونغ، وأرسل أفراداً من الشرطة يعلقون صورته في كل مدينة وقرية وحانة ومخزن، بالإضافة إلى الإعلان عن مكافأة قدرها ثلاثة آلاف ربطة نقدية لمن يلقي القبض عليه. وأثارت هذه الملاحقة اضطراباً بين السكان المحليين.

اضطرب لين كثيراً في المزرعة الشرقية حين تناهت إليه هذه الأخبار. فتوجه إلى تشاي جين قائلا: "يحسن ألا تبقيني لديك هنا، يا صاحب السعادة. فهم يفتشون المنازل واحداً واحداً. فإذا عثروا علي في المزرعة فستوقع نفسك في مأزق. أغدق عليَّ كرمك وشهامتك وأنقذني بعض المال يعينني على الترحال. سأجد لنفسي مأوى آخر. فإذا كتبت لي الحياة أجزيتك بإخلاص لا حدود له".

- إذا أصررت على الرحيل، يا أخي، فإني أقترح عليك مكاناً تلجأ إليه. وسأعطيك رسالة توصية. فما رأيك؟

- هذا لطف منك. وأين هذا المكان؟

- إنه يدعى بحيرة ليانغشان، في ولاية جيتشو، في مقاطعة شاندونغ. والمنطقة يقارب محيطها ثمانيمائة لياً. وفيها قلعة الحزام المائي وأراضي لياوآر المنخفضة. لقد أقام ثلاثة من الشجعان قلعة في هاتيك الأرجاء. الأول يدعى وانغ لون العازب المكتسي البياض. والثاني يدعى دو كيان ناطحة السحاب. الثالث سونغ وان حارس السحب. وقد ضموا إليهم عصبة من سبعمائة أو ثمانيمائة رجل يسرقون وينهبون. وكثرة من الذين ارتكبوا جرائم عقوبتها الموت يجدون لأنفسهم مأوى هنالك. وأنا على صلة طيبة بالقادة الثلاثة. ونحن نتراسل بين حين وحين، ماذا تقول لو زودتك برسالة توصية لانضمامك إليهم؟

- هذا رائع، إن كنت به تنصح. أنا شاكر لك جداً.

- المشكلة هي أن ثمة إعلانات في تسانغتشو تطلب اعتقالك، كما أن هنالك ضابطين عسكريين يفتشان المسافرين عند بوابة المدينة، وإليك السبيل التي يجب أن تتبعها...

أطرق تشاي جين متفكراً. ثم رفع رأسه قائلا: "طرأت لي فكرة. سوف نخفرك".

قال لين تشونغ: "لن أنسى لك كرمك ما حييت". أرسل تشاي جين أحد خدمه إلى بوابة المدينة حاملاً متاع لين تشونغ. ثم جمع رهطاً من عشرين أو ثلاثين خيالاً مسلحين بالأقواس والسهام، حاملين العقبان ترافقهم كلاب الصيد، وانطلق الجميع مسرورين وفي عدادهم لين تشونغ على صهوة جواد. كان الضابطان العسكريان عند بوابة المدينة قد زارا مزرعة تشاي جين قبل انتدابهما لهذا العمل، ويعرفانه حقَّ المعرفة.

حين وصلت جماعة الصيادين إلى برج البوابة نهض الضابطان عن مقعديهما وناديا قائلين: "أتخرج إلى الصيد، يا صاحب السعادة؟".

ترجل تشاي جين عن حصانه تأدباً سائلا: "ماذا تفعلان هنا؟".

- لقد وزع الوالي نشرات بخصوص اعتقال المجرم لين تشونغ. وأصدر أمره إلينا باستجواب كل عابر سبيل يجتاز هذه البوابة.

قال تشاي جين ضاحكاً: "إني أصحب لين تشونغ مع رجالي هنا. ألا تعرفانه؟".

ضحك الضابطان العسكريان: "سعادتك لا تخالف القانون. ولن تأذن له أن ينسل هارباً. نرجوك أن تعتلي صهوة جوادك".

ابتسم تشاي جين: "أتثقان بي إلى هذه الدرجة؟ إن أسرنا شيئاً من الطرائد فسأقدم لكما بعضا منها في طريق عودتي على سبيل الهدية". وألقى تحية الوداع على الضابطين، واعتلى صهوة جواده، واجتازت الجماعة بوابة المدينة.

قطعوا قرابة خسمة عشر لياً حيث يقف الخادم في انتظارهم. وطلب تشاي جين إلى لين تشونغ أن يترجل، وخلع عنه زي الصيادين، وارتدى ثيابه الخاصة التي حملها الخادم له. وربط لين سيفه إلى وسطه، ولبس قبعته حمراء الحواف، وألقى صرته على كتفه، وأخذ مطرده في يده، وحيا تشاي جين في احترام، وسار على الطريق.

ركب تشاي جين ورجاله خيولهم وذهبوا يصطادون، وقفلوا عابرين البوابة بعد هبوط الغسق. ونفحوا الضابطين ببعض الطرائد، وآبوا إلى المزرعة، ولن نزيد في قصتهم حرفاً.

سار لين تشونغ أكثر من عشرة أيام. وعند الغسق تراكمت سحب ثقيلة في السماء الشتوية وهبّت الريح. وساقطت السماء ثلجاً كثيفاً على مدى النظر. وأكمل لين طريقه. وكان الجو يزداد برودة.

قرابة المساء، وقعت عيناه في البعد، إلى جانب البحيرة، على دكان للخمور يحجبها الثلج عن النظر. فأسرع خطاه إليها، ورفع الستارة المصنوعة من القصب، ودخل. ونفض الثلج عن ثيابه، وأجال النظر حواليه. كان هنالك عدد من المقاعد. اختار لنفسه زاوية وجلس. وأسند مطرده إلى الجدار، وأنزل صرته، وعلق قبعته اللبادية وسيفه وجاءه صبي الحانة.

- كم تريد من الخمرة، يا سيدي؟

- أريد مكيالين على سبيل البداية.

فأحضر له الصبي مكيالين من برميل خشبي وضعهما على المنضدة.

سأل لين: "ألديك ما يؤكل مع الخمرة؟".

- لدينا لحم بقري نيء ومطبوخ، وإوز مدهن ودجاج مقلي بارد.

- جئني بكاتيين من اللحم البقري المطبوخ.

ما أسرع أن رجع صبي الحانة وهو يحمل طبقاً من لحم البقر، وعدة صحاف من الخضراوات، وطاساً أهرق فيها الخمرة. جرع لين ثلاث طاسات أو أربع طاسات، واختطف بصره رجل يخطو مقترباً من الباب يسفُّ النظر إلى الثلج، ويداه متشابكتان وراء ظهره.

سأل الرجل صبي الحانة: "من يكون هذا الرجل الذي يشرب هناك؟".

كان الرجل يرتدي قبعة دافئة ذات حافة طويلة، ومعطفاً مخططاً من فرو السمور، وحذاء من

جلد الوعل. كان مديد العود ، قوي العضل، تبرز عظمتا وجنتيه مثل قبضتين منضمتين، وله شارب وعثنون. وتابع مراقبته للثلج.

طلب لين تشونغ إلى الصبي أن يصب مزيداً من الخمرة قائلا: "هلا تشرب معي قليلاً!". فلبى الصبي طلبه.

سأل لين: "ما هي المسافة بين هذا المكان وبحيرة ليانغشان؟".

– ليست بعيدة، ولكن عليك أن تذهب على الماء. ليس هنالك طريق برية توصل إلى هناك. يجب أن تركب قارباً.

– إذاً، أمّن لي قارباً.

– أين لي أن أجد قارباً في مثل هذه العاصفة الثلجية، وفي مثل هذه الساعة من الليل؟

– سأغدق عليك عطائي. جد لي قارباً وانقلني إلى هناك.

– ليس هنالك من مكان أفتش فيه عن قارب.

خاطب لين تشونغ نفسه قائلا: "يا لهذا المأزق!". وجرع عدة جرعات من الخمرة. واسترسل في تفكيره: "كنت مرة مدرباً للسلاح في العاصمة. وكنت أتجول وأعاقر الصهباء في كل شارع وسوق. من كان يسنح لخاطره أن ذلك اللص غاو كيو سيوقعني في مثل هذا البلاء، وعلى وجهي وشم المجرمين، وأن أنفى إلى هذا المكان! لا أستطيع العودة إلى البيت، ولا أجد لنفسي مأوى. يا للوحدة التي أطبقت عليَّ!".

أمر الساقي أن يحضر له قلماً وحبراً. كانت الخمرة تلعب برأسه واليأس يطفح في قلبه، فدوّن هذه السطور على جدار ناصع البياض:

شهماً جريئاً كنت، والاسم "لين"،
وكنت موسوماً من المخلصينْ
شجاعتي معروفة في البلادْ
أحمي بها الناس وأرعى العباد
واليومَ صرتُ تائهاً دونَ مالْ
أمشي فتنحني أمامي الجبالْ

ألقى من يده القلم وعبَّ الشراب، فدنا الرجل المرتدي معطف السمور منه وطوَّق خصره بساعده موضحاً: "ها أنت هنا! في تسانغتشو اقترفت جريمة عقوبتها الموت، وها أنت هنا! ثمة ثلاثة آلاف ربطة نقدية لقاء القبض عليك. ما قولك في هذا؟".

– من تحسبني؟

– ألست أنت لين تشونغ؟

– اسمي تشانغ.

ضحك الرجل: "هراء! لقد كتبت اسمك على الجدار، وهذا الوشم الذهبي على وجهك. ولن ينجيك الكذب!".

- أترمي حقاً إلى القبض علي؟

ضحك الرجل من جديد: "وفيم أفعل ذلك؟ هيا، ولنتسامر على انفراد".

قاد لين إلى غرفة في مؤخر المشرب تطلُّ على المياه، وأمر الخادم أن يشعل المصباح. وتبادل ولين الانحناء، وجلسا قبالة بعضهما بعضاً إلى المنضدة.

قال الرجل: "سمعتك تسأل عن قارب ينقلك إلى بحيرة ليانغشان، يا أخي. هنالك قلعة جبلية للخارجين على القانون. ففيم ترغب في الذهاب إلى هناك؟".

- لنكن صريحين. فالشرطة تلاحقني في كل مكان، وليس هنالك مكان ألجأ إليه. وقد جئت أنضم إلى العصبة على الجبل.

- في هذه الحال أنت في حاجة إلى تعريف.

- أحمل رسالة توصية من صديق في مقاطعة هينغهاي، ولاية تسانغتشو.

- أنت لا تقصد تشاي جين الإعصار الصغير؟

- كيف عرفت ذلك؟

- إنه على صلة بقادة قلعة الجبل. وما أكثر ما يتبادلون الرسائل!

أوضح الرجل أنه حين كان وانغ لون طريد العدالة فقد قدم تشاي جين له ولرفيقه دو كيان الملجأ والمأوى. فأقاما في مزرعته فترة من الوقت، وأعطاهما فضة تكفيهما مؤونة الطريق عند انصرافهما. وكانا شاكرين له حقاً.

أوضح لين: "أنت واحد منهم، وهذا شيء لم أنتبه إليه. إني أملك عينين ولا أستطيع التعرف على جبل تايشان! أرجو أن تخبرني باسمك". وانحنى في أدب.

ردّ له الرجل تحيته: "هذا الرجل الوضيع هو حارس الزعيم وانغ. واسمي تشو غوي. أنا أنحدر في الأصل من مقاطعة ييشوي في ولاية ييتشو. وأنا معروف في الأخوية بلقب تمساح الأرض الجافة. وفيما أنا أخلع على نفسي صورة المشربي أروح أنصرف إلى عملي، ألا وهو مراقبة تحركات التجار والمسافرين. وأخبر القلعة إن كانوا يحملون بضائع ثمينة. حين سألت عن بحيرة ليانغشان خطر لي أن أستطلع المزيد عنك. وبعد أن كتبت اسمك على الجدار، تذكرت أن سكان العاصمة كانوا يتحدثون عن شجاعتك. ولم يخطر في بالي أننا سنلتقي ههنا هذا النهار. إذا كان اللورد قد أعطاك رسالة توصية، فلا ريبة أن الزعيم وانغ سيرحب برجل له سمعتك العطرة".

أولم تشو غوي للين تشونغ مأدبة من السمك واللحم والخمور والمشهيات. فأكلا وشربا في الغرفة الجانبية إلى أن انقضى نصف الليل.

سأل لين تشونغ: "كيف أعثر على قارب ينقلني إلى هناك؟".

قال تشو غوي: "ثمة قوارب هنا، يا أخي. لا يقلقنك هذا الأمر. نل قسطاً من الراحة أولاً. ومن بعد أرجو أن تستيقظ عند ساعة الحراسة الخامسة، وأن تجيء إلى هنا. وسأرافقك".

ذهب كل منهما إلى غرفته الخاصة. أيقظ تشو غوي لين من نومه عند ساعة الحراسة الخامسة. فاغتسلا ومسحا فميهما، وجرعا أربع كؤوس من الخمرة خمساً أو وتناولا قليلاً من اللحم. كانت

السماء لا تبرح متشحة بالسواد.

فتح تشو غوي نافذة في الغرفة المطلة على المياه. وتَّر سهماً صافراً في قوس موشاة بصورة عقعق وأطلقه صوب جدول في غابة من القصب على الطرف الآخر من الخليج الصغير.

سأل لين: "لماذا فعلت هذا؟".

- كان هذا سهماً تحذيرياً إلى قلعة الجبل. سوف يأتينا الآن قارب على الفور.

لم تمر لحظات حتى برز من بين القصب على الضفة الأخرى قارب سريع يقوده ثلاثة أو أربعة رجال، وتوقف تحت الغرفة المطلة على المياه. جمع لين أسلحته ومتاعه وقاده تشو غوي إلى القارب. ودفع المجذفون القارب عبر البحيرة إلى شاطئ الرمال الذهبية، وترجل هنالك لين تشونغ وتشو غوي من القارب. رافقهما أحد الرجال حاملاً أمتعة لين. بينما أعاد الآخرون القارب إلى الجدول.

شرع تشو ولين يصعدان في الجبل. كانت هنالك أشجار ضخمة على جانبي الطريق. في منتصف الطريق ثمة مقصورة. وانعطفا وراءها فشاهدا ممراً ضخماً محصناً. أمامه حوامل رصت عليها رماح وسيوف وأقواس وحراب. وفي كل جانب جذامير من الخشب وجلاميد من الصخر يساقطونها عن التل ضد الغزاة. وأسرع قطاع الطرق للإعلان عن حضورهما، ولم يلبث لين وتشو أن دخلا الممر.

مشيا بين صفين من الأعلام مثلثة الشكل وشارات المعارك، واجتازا ممرين ضيقين قبل الوصول إلى بوابة القلعة ذاتها. كان ثمة جبال سامقة على الجانبين، تقع بينها معابر ضخمة تؤلف في مجموعها سياجاً منيعاً رهيباً. وفي الوسط يقع سهل منبسط ناعم كالمرآة تبلغ مساحته قرابة أربعة آلاف قدم. وكانت بوابة القلعة الرئيسة تواجه الممر. أما الأبنية الأخرى فتنتصب عن يمين وعن يسار.

قاد تشو غوي لين تشونغ إلى قاعة الأخوية الصالحة حيث كان شاب جسور يجلس على مقعد عريض في وسطها. إنه وانغ لون العازب المكتسي البياض. أما الجالس عن يساره فهو دو كيان ناطحة السحاب. وفي مقعد عريض عن يمينه جلس سونغ وان، حارس السحب. اقترب المسافران وألقيا التحية على الزعماء في وقار، وقد انتصب لين تشونغ إلى جانب تشو غوي.

قال تشو غوي: "هذا هو لين تشونغ رأس النمر، مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري القوي في العاصمة. وقد عزم الماريشال غاو على تدمير حياته فأمر بوشمه بميسم المجرمين ونفاه إلى تسانغتشو. وهنالك التهمت النيران مخزن العلف العسكري الذي كلفوه بالإشراف عليه، وفي معركة قتل ثلاثة رجال. ولجأ إلى اللورد تشاي حيث قويت الألفة بينهما. وقد كتب سعادته رسالة توصية تنصح بانضمامه إلينا".

قدم لين تشونغ الرسالة. فتحها وانغ لون وقرأها، وطلب إلى لين أن يجلس على المقعد الرابع، وأن يجلس تشو غوي على المقعد الخامس. وأمر أحد الرجال أن يحضر خمراً، وشرب الجميع ثلاث مرات.

- أرجو أن يكون اللورد تشاي في خير صحة؟

- إنه يصطاد ويستجمُّ في ضواحي المدينة يومياً.

اعتصم وانغ لون بالصمت، وهمس في فكره:

- أنا عالم أخفقت في امتحاناتي المدنية. جئت إلى هنا بعد أن استبد بي الغضب برفقة دو كيان وغدوت قاطع طريق. ثم انضم إلينا سونغ وان في ما بعد، وألفنا هذه العصبة الكبيرة. وأنا عاجز تقريباً وغير قادر على العمل بصورة خاصة، ودو كيان وسونغ وان يملكان موهبة عادية باستخدام السلاح. وهذا الشاب هو مدرب السلاح في الحرس الإمبراطوري. ولا بد أنه رجل عسكري قدير. إذا قبلناه وعرف مقدار ما نحن عليه من فشل فلا ريبة أنه يتوق إلى تولي زمام السلطة، وسنكون عندها عاجزين عن صده. ينبغي أن أبدي شيئاً من جفوة، وألتمس عذراً وأبعده عن الجبل. وهذا يجنبنا المصاعب. لن يكون في عملي هذا شيء من الكياسة بالنسبة إلى تشاي جين في ما يتعلق بدماثته، ولكن لا مناص من ذلك".

أمر بمزيد من الخمر والطعام وأقام وليمة للين تشونغ. فاحتسى الجميع الشراب والتهموا الطعام. وحين انتهوا من ذلك، وبناء على أمر من وانغ لون، أحضر أحد الرجال صحفة فيها خمسون أوقية من الفضة البيضاء وقطعتان من فاخر الحرير وضعها أمام لين. ونهض وانغ لون على قدميه قائلا: "بعث اللورد تشاي رسالة توصي، يا مدرب السلاح، بانضمامك إلى عصبتنا. ومن سوء الحظ أننا لا نملك وفرة من الحبوب، وأبنيتنا في حال يرثى لها، وقوانا ضئيلة. وليس من العدالة أن نرفض خدماتك. ولكننا نقدم لك هذه الهدايا الطفيفة آملين ألا ترفض قبولها. اصفح عنا واعثر على مكان آخر لك في قلعة كبيرة".

قال لين تشونغ:

- هلا أذنتم لي في جواب، أيها الزعماء! لقد جئت من مكان بعيد لأضع نفسي رهن خدمتكم. وفي نيتي الانضمام إليكم نزولاً عند رغبة اللورد تشاي. ورغم أنني لا أملك موهبة، فإن رجائي هو ألا ترفضوا قبولي بينكم. وليست لي رغبة في أكثر من أن أخدمكم بحياتي. هذه هي سعادتي الكبرى. لست أريد فضة أو هدايا. أرجو أن تفهموني.

- مكاننا صغير. فكيف نخلع عليك منصباً مناسباً؟ نرجو أن تعذرنا.

تدخل تشو غوي في الحديث قائلا: "اغفروا لي تدخلي في الحديث، أيها الإخوة الكبار. على الرغم من أن قلعتنا تنقصها الحبوب، ففي مقدورنا الحصول على ما يكفينا من القرى والمدن القريبة والبعيدة. وهنالك وفرة من الطعام في الجبال وعند ضفاف الجداول، وما يكفي لبناء ألف منزل جديد عند الضرورة القصوى. وقد جاء هذا الرجل برسالة توصية من اللورد تشاي. فكيف تجابهه بالرفض؟ هذه القلعة مدينة لتشاي بالكثير الكثير. وسنقع في مأزق إذا تناهى إليه رفضنا. وما هو أكثر من ذلك أن لين تشونغ رجل مواهبه غنية. وسيكون خير عون لنا".

وافق دو كيان قائلا: "ماذا يصيبنا إن قبلنا رجلاً آخر؟ سيغضب تشاي إن لم نأخذه في حمايتنا. وقد يظنُّ أننا على كثير من العقوق. ونحن مدينون له بالكثير. فكيف نطرد رجلاً بعث به إلينا؟".

وأضاف سونغ وان مخاطباً وانغ لون: "كرمى لخاطر سعادته علينا أن نقبل لين تشونغ واحداً

من قادة قلعتنا. إن لم نفعل ذلك فإن أخوية الرجال الأشداء ستزدري تخاذلنا".

احتج وانغ لون: "لكن، ألا تعرفان يا أخويَّ أننا لا نعرف عنه الشيء الكثير على الرغم من أنه ارتكب جريمة عقوبتها الموت في تسانغتشو! ماذا لو أنه جاء يتجسس علينا؟".

قال لين: "أريد الانضمام إليكم لأنني رجل محكوم. ففيم ترتابون بي؟".

قال وانغ لون: " إذاً، حسن جداً. إن كنت راغباً حقاً في أن تغدو واحداً منا، فيجب أن تقدم شهادة عضوية".

- في مقدوري أن أقرأ وأكتب بصورة جيدة. وإن أعطيتموني ورقاً وقلماً أكتب لكم ما تشاءون.

ضحك تشو غوي: "أنت لا تفهم، يا مدرب السلاح. نحن نطلب شهادة عضوية من أي رجل مقدام يرغب في الانضمام إلى عصبتنا. وهذا معناه أن تهبط عن الجبل، وتقتل رجلاً، وتحضر إلينا رأسه إثباتاً لجدارتك. هذا ما نسميه "شهادة عضوية".

- لن يكون هذا صعباً. سأهبط عن الجبل وأنتظر. ولكنني أخشى ألا يمر بي أحد.

قال وانغ لون: "أمنحك ثلاثة أيام. إذا أحضرت شهادة العضوية خلال هذه الفترة نقبل بك. وإن لم تفعل، فينبغي أن تعذرنا".

وافق لين تشونغ على شروط الزعيم.

بعيد هذا اللقاء هبط تشو غوي عن الجبل ورجع إلى الحانة. وأخذ لين تشونغ أسلحته ومتاعه ولحق بأحد قطاع الطرق إلى دارة الضيوف حيث أمضى ليلته.

أبكر في النهوض صبيحة اليوم التالي. أكل قليلاً وشدَّ سيفه إلى وسطه وتناول مطرده وأجاز لأحد أفراد العصابة أن يهبط عن الجبل. اجتازا البحيرة في قارب، واختارا بقعة منعزلة إلى جانب أحد الممرات وهما ينتظران المسافرين. أمضيا يومهما في الانتظار، وحين انتشر الغسق لم يمر بطريقهما أحد من المسافرين. فعاود لين وقد اكفهرَّ وجهه اجتياز البحيرة مع اللص قافلاً إلى القلعة.

سأل وانغ لون: "هل حصلت على شهادة عضويتك؟". قال لين: "لا . فلم يمر بي أحد".

- إن لم تحضرها غداً فستتبخر فرصتك في الإقامة هنا.

فما أعطاه لين جواباً. رجع إلى غرفته تعيساً، وتبلع شيئاً من الطعام، وسعى إلى فراشه.

نهض في اليوم التالي والسماء ينتشر فيها الضوء، وتناول طعام الفطور مع اللص، وحمل أسلحته، وهبط عن الجبل.

اقترح اللص عليه قائلا: "لنجربنَّ الممر في الناحية الجنوبية من الجبل هذا النهار".

اجتازا البحيرة وانتظرا في الغابة. فما مرَّ بهما إنسان حتى انتصاف النهار حين لمحا عصبة من حوالى ثلاثمائة رجل تسير على الطريق. لم يجرؤ لين على الإتيان بحركة، بل انتظر مرور آخر رجل فيهم. ومرت الساعات وانتشرت الظلام، من دون أن يمرّ مسافر جديد.

خاطب لين اللص قائلا: "يالحظي التعيس! يومان كاملان لم نعثر فيهما على رجل وحيد يقطع هذه الطريق. ماذا سأفعل؟".

واساه اللص قائلا: "لا تقلق، يا أخي. فغداً يوم آخر. سأرافقك إلى الممر الشرقي".

ورجعا مرة أخرى إلى القلعة عن طريق البحيرة.

سأل وانغ لون: "أين شهادة عضويتك؟".

أرسل لين تشونغ تنهيدة حرَّى. فضحك زعيم اللصوص: "فشلت مرة أخرى. منحتك ثلاثة أيام انقضى من أصلها يومان. إن لم تحصل على الشهادة غداً فليس ما يدعو إلى لقائنا مرة أخرى. اهبط عن الجبل واختر لنفسك مأوى آخر".

رجع لين إلى غرفته وقد أضناه اليأس. تنهد هامسا: "من كان يظن أن ذلك النذل غاو كيو سيؤذيني إلى هذا الحد؟ لقد انتهى بي الطواف إلى هذا المكان، ملعوناً من السموات والأرض. يا للقدر اللعين!".

أمضى ليلته. وهبَّ في الصباح التالي مع انبلاجة الفجر، وأكل لقمة، وجمع صرته ووضعها في ركن من الغرفة. ثم أخذ سيفه ومطرده وهبط عن الجبل مع رفيقه اللص واجتازا البحيرة إلى الطريق في الناحية الشرقية.

قال لين: "إن لم أحصل على شهادة العضوية هذا النهار وجب عليَّ العثور على مأوى آخر ألجأ إليه". أخفى الاثنان نفسيهما في غيضة عند الناحية الشرقية. وحين تكبدت الشمس قبة السماء لم يكن قد مرَّ بهما إنسان أو حيوان. كانت بقايا السحب الثلجية قد انقشعت بأسرها وغدت السماء زرقاء مشرقة.

قال لين: "يبدو أن الحظ خانني من جديد. يحسن بي أن أعود أدراجي قبل أن تغرب الشمس، فألتقط أشيائي وأبدأ البحث عن مكان آخر".

قال اللص في همسة خفيضة، وهو يشير بيده: "هنالك! هذا شخص قادم!".

هتف لين: "أخيراً!".

لمح رجلاً يسير نحوهما من بعيد عند سفح الجبل. وحين اقترب منهما وثب لين ملوحاً بمطرده. فصرخ الرجل: "أواه!". ورمى العصا التي يحملها واستدار يبغي الهرب. طارده لين ولكنه كان أسرع منه في الفرار. وسرعان ما توارى وراء تلة.

زمجر لين: "هل رأيت مثل حظي! انتظرته ثلاثة أيام، وحين جاء أخيراً تركته يهرب!".

قال اللص: "إذا لم تتمكّن من قتله، فإن العصا التي تركها يمكن أن تمنحك مهلة أخرى".

- خذها واصعد في الجبل. سأقيم هنا منتظراً فترة أخرى.

لم يكد اللص يفارقه حاملاً العصا وما ربط بها من متاع حتى لمح لين فتى ضخماً يبرز من وراء منعطف، فغمغم في نفسه: "السماء ترحمني".

كان الرجل يحمل مطرداً، وكان يغلي من الغضب. جأر صارخا:

- أيها اللصوص القذرون! أين أخذتم أمتعتي؟ رويدكم أيها الأوغاد! سأعلمنكم كيف تشدون سوالف النمر!

جاء يركض. فخطا لين تشونغ للقائه.

لأن هذا الرجل اشتبك في معركة مع لين تشونغ انضم إلى بحيرة ليانغشان نمر مزوبع أبيض

الحاجبين، ولحقت بالقلعة المطوقة بالمياه عصبة من الحيوانات المتوحشة ذهبية العيون، متنافرة الوثبات.

من كان ذلك الرجل الذي اشتبك في معركة مع لين؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثاني عشر

لين تشونغ ينضم إلى عصبة قطاع الطرق عند بحيرة ليانغشان؛ ويانغ تشي يبيع سيفه في العاصمة الشرقية

رأى لين تشونغ أن الرجل يلبس قبعة لبادية عريضة الحواف من صنع فانيانغ في ذروتها شرابة حمراء، ورداء طويلاً أبيض اللون شدَّ عند وسطه بعصابة عريضة من خيوط شاقولية، وطماقاً من عصائب متناوبة بيضاء وسوداء، وجوربين من جلد الوعل، وحذاء قصيراً من جلد البقر المكسو بالشعر. كان مديد العود بالسيف الذي حمله إلى وسطه والمطرد في يده، على وجهه وحمة كبيرة زرقاء، وله سالفان أحمران خفيفان. وكانت القبعة اللبادية مشدودة إلى الوراء تتهدل على كتفيه، وقد تعرى صدره، ولفَّ رأسه بمنديل كبير معقود بأنشوطة.

صاح والمطرد في يده: "أيها اللص القذر! أين أخذت أمتعتي وممتلكاتي؟".

عصف الغضب بلين فأبى أن يعطيه جواباً. اندفع قدماً وعيناه ملتمعتان وشارباه منتصبان، ملوحاً بمطرده، ومتأهباً للعراك. كانت السحب الثلجية قد تبعثرت والسماء صفى أديمها. وكان الجدول محاطاً بطبقة من الجليد الرقيق، فتبارز الاثنان على ضفته والغضب يعمي بصريهما. التحما في ثلاثين جولة من دون أن يتفوق أحدهما على خصمه، ثم تصاولا في دستة أخرى، وحين بلغت المعركة ذروتها رن صوت على الجبل يصيح: "كفا عن القتال، أيها الشابان الشجاعان!".

وثب لين تشونغ خارج دائرة المعركة، وتوقف وخصمه عن القتال. هبط عن الجبل وانغ لون العازب المكتسي بالبياض، يرافقه دو كيان وسونغ وان وحشد آخر من اللصوص. ركبوا عند سفح الجبل عدداً من القوارب واجتزوا البحيرة.

امتدحهما وانغ لون قائلا: "براعة لا نظير لها من كل منكما! هذا هو الأخ لين تشونغ المشهور برأس النمر. وأنت، يا سيدي، يا من وجهك أزرق اللون، هل تخبرني باسمك؟".

- اسمي يانغ تشي. أنحدر من ثلاث سلالات من الجنرالات، حفيد الدوق يانغ لينغ غون. ورغم هذا فأنا أطوف حول غوانشي على وجهي. يوم كنت أصغر سناً اجتزت الامتحان العسكري، وعينت معاوناً في القصر. وحين أشادوا هضبة طول العمر أرسل الإمبراطور عشرة منا نحن المعاونين إلى بحيرة تايهو لجمع الصخور الضخمة والحجارة الملونة والعودة بها إلى العاصمة لتزيين الهضبة. لم يخطر لي أن حظي لا يعرف شيئاً من النجاح. ففي رحلة عودتي، وكنا نعبر النهر الأصفر، انقلب قاربي وغرقت جميع الصخور التي كنت أنقلها. خشيت أن أنقل الخبر إلى العاصمة، فهربت. وسمعت مؤخراً أنهم صفحوا عني. كنت في طريقي إلى العاصمة الشرقية وأنا أحمل المال والنفائس. وانتويت أن أنفق قسماً من المال في مجلس الشؤون العسكرية لمعرفة ما إذا كان في مقدوري أن

أحصل على منصب آخر. كان الفلاح الذي استأجرته يحمل ذلك على كتفه حين اختطف رجالك هذه الأشياء. وأرجو أن تعيدها إليَّ.

سأل وانغ لون:

- ألم يخلعوا عليك أيضا لقب الحيوان أزرق الوجه؟

- هذا صحيح.

- هذا أنت إذاً! يسرنا جداً أن تحضر إلى قلعتنا لنحتسي عدة أكواب من الخمرة ونعيد إليك ممتلكاتك هناك. ما رأيك؟

- إذا كنت تعرفني فلم لا تعيد إليَّ ممتلكاتي؟ في ذلك روعة تماثل دعوتك إياي للشراب.

- كنت في العاصمة الشرقية قبل عِدة سنوات، أتهيأ للامتحان، فسمعت عن شهرتك. ومن حسن حظي أني استطعت اليوم لقاءك. فكيف أدعك ترحل خاوي اليدين؟ أرجو أن تأخذ قسطاً من الراحة في قلعتنا. هذا كل ما أرجوه.

ذهب يانغ تشي برفقة وانغ لون والآخرين عبر البحيرة، وصعدوا إلى القلعة على قمة الجبل. ودعي تشو غوي بدوره للصعود إلى الجبل والاجتماع بهم. واحتشد الجميع في قاعة الأخوية الصالحة. على أربعة مقاعد عريضة إلى اليسار جلس وانغ لون ودو كيان وسونغ وان وتشو غوي. وكان هنالك مقعدان مماثلان إلى اليمين، أحدهما ليانغ تشي والآخر للين تشونغ. حين جلس الجميع أمر وانغ لون بوليمة من لحم الضأن والخمور على شرف يانغ تشي. ونكتفي بالحديث عن ذلك.

نختصر الكلام فنقول إنه عندما احتسى المحتشدون عدة أكواب من الخمرة تساءل وانغ لون في سره:

- إذا أبقينا لين تشونغ وحده هنا فهذا ليس في صالحنا. لم لا نبدي شيئاً من الكياسة ونحتفظ بيانغ تشي معه؟ وعندها نثير أحدهما ضد الآخر.

أشار إلى لين وخاطب يانغ:

- هذا الأخ كان مدرباً للسلاح في الحرس الإمبراطوري القوي في العاصمة الشرقية. وهو معروف بلقب لين تشونغ رأس النمر. الماريشال غاو لا يطيق الرجال الطيبين. فلفَّق له تهمة وجعلهم يسمونه بوشم المجرمين وينفونه إلى تسانغتشو. هنالك أحاقت المتاعب به مرة أخرى. وهو، بدوره، قدم حديثاً إلى هنا. ولا أريد احتجازك هنا إذا كنت راغباً في الذهاب إلى العاصمة لمحاولة حصولك على منصب. أنا، نفسي، وجدت أنه ليس أمامي خيار سوى أن أتخلى عن الأمور الدنيوية وأصبح خارجاً على القانون ههنا على التلال. لقد اقترفت جريمة. ورغم أنهم صفحوا عنك فلن يكون في مقدورك استعادة رتبتك، خاصة وأن ذلك النذل غاو كيو يمتلك في يديه الآن السلطة العسكرية. أتحسبه يصفح عنك؟ يحسن أن تقيم في قلعتنا الصغيرة وتشاركنا طعامنا وشرابنا ولحمنا، وتصير خارجاً على القانون مثلنا. ما قولك في هذا؟

- هذا لطف كثير منكم، أيها الزعماء. ولكن أحد ذوي القربى يعيش في العاصمة الشرقية تورط في قضيتي، ولم أشكره بعد على مساعدته لي. يخطر في بالي بعد أنه يفضل أن أذهب. وآمل

أن تردوا لي ممتلكاتي. إذا رفضتم فسأذهب من دونها.

ضحك وانغ لون:

- بدهي أننا لن نجبرك على البقاء إن لم ترغب فيه. نرجو ألا تقلق. أقم الليلة عندنا، وفي مقدورك الرحيل غدا.

سر يانغ تشي كثيرا. ظلوا يحتسون الخمرة طويلاً حتى ساعة الحراسة الثانية، ثم سعى كل منهم إلى فراشه. وفي صبيحة اليوم التالي شربوا أنخاب الوداع على شرف يانغ تشي. وبعد تناول طعام الصباح أمر الزعماء أحد رجالهم بحمل ممتلكات يانغ. ورافقوه في الهبوط عن الجبل إلى مشارف الممر، وألقوا عليه تحية الوداع. ونقله قاطع الطريق عبر البحيرة وأوصله إلى الطريق. رحل يانغ، ورجع الخارجون على القانون إلى القلعة.

في ذلك الحين وحسب وافق وانغ لون على أن يشغل لين تشونغ المقعد الرابع، وتشو غوي المقعد الخامس. ومنذ ذلك الوقت جعل أولئك الشجعان الخمسة ينهبون ويسلبون معاً. وهنا ننهي الكلام عنهم.

هبط يانغ تشي على الطريق. وعثر على فلاح يحمل له أمتعته، وطلب إلى قاطع الطريق أن يرجع أدراجه. بعيد عدة أيام وصل إلى العاصمة الشرقية. وأقام في خان وسدد أجر الفلاح وخلع أسلحته، وطلب طعاماً وشراباً. وبعيد أيام أخرى أرسل شخصاً إلى مجلس الشؤون العسكرية حاملاً مالاً وهدايا كي يحاول عن طريق إنفاق المال كيفما شاء أن يعود إلى منصب معاون في البلاط. دفع مبلغاً كبيراً من المال، ولكنه حصل أخيراً على موعد مع الماريشال غاو.

قرأ غاو جميع الوثائق المتعلقة بقضيته. قال الماريشال غاضباً: "عشرة منكم أيها المعاونون ذهبتم لنقل الصخور الضخمة. سلم تسعة منكم حمولاتهم. ووحدك أنت، أيها الحقير، فقدت حمولتك. حتى إنك لم ترفع بذلك تقديراً. وقد لجأت إلى الهرب بدلاً من ذلك. ولم نستطع إلقاء القبض عليك فترة طويلة من زمن. وأنت تريد المنصب مرة ثانية؟ كان يمكن أن يصفح عنك، ولكن في حقك سجلاً إجرامياً بعد، ولا يمكننا أن نستفيد منك!". ووشح طلب يانغ بكلمة الرفض، وطرده من مركز قيادة الحرس الإمراطوري.

رجع يانغ إلى الخان موهن العزيمة، وخاطب نفسهِ بقوله: "كان وانغ لون على حق. حدث ما حدث لأني لم أشأ تلويث اسم العائلة. أملت أن تتاح لي فرصة أن أكتسب شهرة بالرمح والسيف في منصب على الحدود، وأن أسبغ الشرف على زوجتي وأن أتيح أطيب الظروف لأولادي، وأغدق المجد على أحفادي. ولم أتوقع أن أجابه بمثل هذا الرفض. يا للماريشال غاو السامّ الوحشي!".

طغى الاكتئاب على يانغ، وتوالت عليه عدة أيام في الخان فنفدت نقوده. فهاج وماج قائلا: "وماذا ينبغي عليَّ أن أفعل؟ يجب أن أبيع سيف أسلافي الذي لم يفارق خصري. ليس هنالك من سبيل آخر. قد يكون في طوقي أن أحصل على ألفين ثمناً له. وهذا يوفر لي مصروفاً أنفق منه ريثما أحصل على منصب لنفسي".

في اليوم ذاته ربط حزمة من الأعشاب إلى السيف دلالة على أنه معروض للبيع، وحمله إلى

ساحة السوق. ولكنه، على الرغم من وقوفه في شارع معرض الخيول، لم يجد من يشتريه. فمضى عند انتصاف النهار إلى جسر تيانهانتشو المكتظ بالناس يجرب حظه هناك.

لم ينتظر طويلاً. سرعان ما رأى الناس في طرفي الساحة يتراكضون هاربين على حين بغتة مختبئين في الأزقة القريبة من النهر. كانوا يتصايحون، وهم يهربون مذعورين: "اختبئوا، عجلوا! فالنمر قادم!".

قال يانغ: "هراء! ماذا يمكن أن يفعل نمر في وسط مدينة عامرة؟".

بقي في مكانه. وما عتم أن رأى شاباً داكن البشرة، ضخم الجثة، نصف سكران، يترنح ناحيته عرف فيه نيو آر المشاكس المعروف، المشهور في المدينة باسم النمر الأجرد. كان هذا الرجل مثيراً للمشاكل، ومشاغباً، اعتقل عدة مرات من دِون أن تتمكن ولاية كايفينغ من تقويمه. وحيثما ظهر يفرُّ الناس من وجهه.

مشى متثاقل الخطوات صوب يانغ وأخذ السيف من يده: "كم تريد ثمناً له؟".

- ثلاثة آلاف ربطة نقدية لأنه سيف ثمين آل إليَّ من أسلافي.

- هذا المبلغ الضخم من المال لقاء مثل هذا الشيء التافه! بثلاثين نحاسة أستطيع أن أشتري سكيناً تشرح اللحم وتقطع خثارة الفول. ما نفع هذا السيف؟ وما وجه نفاسته؟

- هذا ليس من تلك السيوف الحديدية التي تبيعها المخازن. إنه سلاح نادر.

- وكيف ذلك؟

- قبل كل شيء هو يقطع النحاس ويثقب الحديد من دون أن يثلم له حدٌّ. وثانياً في مقدوره أن يجز خصلة من الشعر تنفخها أمامه. وثالثاً يقتل رجلاً ولا يتلطخ بدمه.

- هل تستطيع حقاً أن تقطع به العملة النحاسية؟

- أخرج هذه القطع وسأريك كيف يقطعها.

اتجه نيو آر إلى بائع فلفل قريب من الجسر وعاد يحمل عشرين قطعة من فئة ثلاثة سنتات. ركمها على درابزون الجسر وخاطب يانغ قائلا: "إذا استطعت أن تقطعها، يا رجل، فسأعطيك ثلاثة آلاف ربطة".

راح الناس يراقبونهما عن بعد والخوف يمنعهم من الاقتراب.

قال يانغ: "هذا أمر يسير". شمَّر عن ساعده، وانتضى السيف، وحدد الهدف، وأهوى بضربة واحدة فقطع كومة العملة النحاسية إلى نصفين. فأطلق المراقبون صيحة استحسان.

زمجر نيو آر: "هذا المضرب جيد! ماذا قلت بخصوص الشيء الثاني؟".

- خذ خصلة من الشعر وانفخها في وجه هذا السيف. وسوف يجزها نصفين.

- لست أصدق هذا! اقتلع الرجل البدين خصلة من شعر رأسه ناولها إلى يانغ: "هيا، انفخها، ولنر ما يصير".

حمل يانغ خصلة الشعر في يده اليسرى ونفخها نفخة قوية ضد حد السيف. فتساقطت الخصلة على الأرض وقد جُزت نصفين. فانطلقت من الحشد صيحة حادة. وتراصَّ الناس حولهما.

سأل نيو آر: "والشيء الثالث؟".
- إنه يقتل المرء من دون أن يتلطخ حده بالدماء.
- كيف تستطيع أن تفعل ذلك؟
- حين تطعن بهذا السيف رجلاً فلن تعلق به قطرة من الدم. وهذا دليل على رهافة حده.
- لا أصدق هذا الكلام! اقتل رجلاً ولنر.
- هنا، في المدينة الإمبراطورية؟ من يجرؤ على ذلك؟ سأقتل أحد الكلاب.
- قلت رجلاً ولم تقل كلباً!
- إن لم تكن في السيف راغباً، فانس هذا الأمر. وكفَّ عن مضايقتي.
- أرني كيف تستطيع أن تفعل ذلك!
- أليس لديك عمل طيب تأتيه؟ لا تستفزني.
- اقتلني إن كانت لديك جرأة!
- أنت لم تسئ إليَّ، ولسنا على شيء من الخصام. لقد برهنت عن كلامي مرتين. ففيم أقتلك؟
قبض نيو آر على ذراع يانغ تشي قائلاً: "يجب أن تبيعني هذا السيف!".
- إذا أردت شراءه، فأين ثمنه؟
- لا أملك درهماً!
- فيم تمسك بذراعي إذاً؟
- أريد هذا السيف!
- لا تستطيع أخذه!
- أعطني إيّاه!

دفعه يانغ عنه غاضباً، فوقع نيو آر على الأرض. تثاقل على قدميه وضرب يانغ في صدره. فصرخ: "أيها الجيران، شهودي أنتم على هذا. إني أبيع سيفي لحاجتي إلى المال. وهذا اللعين يحاول اغتصابه مني، وها هو يضربني!".

كان المتجمهرون خائفين من نيو آر، فلم ينبسوا بحرف.

صاح نيو آر: "وهكذا ضربتك. لنفرضنَّ أني طويت عمرك؟ ماذا تقول؟". ولوَّح بقبضة يده اليمنى تلويحة وحشية.

راوغ يانغ بعيداً عن الضربة ولطم نيو آر على جبهته. فانهار ذلك النذل. فاقترب يانغ منه وقتله بضربتين من سيفه انهال بهما على صدره. تدفق الدم بغزارة، وفاضت روح نيو آر.

أوضح يانغ:
- لقد قتلت الفاجر. لا أريد أن أقحمكم في الأمر، ولكن الرجل مات. وأرجو أن ترافقوني إلى السلطات وتكونوا لي شهودا.

تجمهر الحشد سريعاً ورافقوا يانغ إلى دار ولاية كايفينغ. أعلنوا عن أسمائهم، وسجدوا حيث كان الوالي عاقداً محكمته. ووضع يانغ السيف أمامه.

- كنت في السابق معاوناً في هذا القصر، ولأني فقدت شحنة من الحجارة الضخمة الملونة طردوني. وحين لم أعد أملك مالاً حملت سيفي في الشارع وعرضته للبيع. فأمسك بي نيو آر وراح يضربني. فقتلته في سورة من الغضب. وقد شاهد هؤلاء الجيران جميعاً وقائع الحادث.

وشهد كثيرون في صالحه.

قال الوالي:

- لما كان قد حضر من تلقاء نفسه، فلنعفه من الضرب التمهيدي. وأمر أن تحاط عنقه بمخلعة خشبية طويلة، وأن يأخذه محققان وخبير قضائي مع شهوده إلى جسر تيانهانتشو لتمثيل وقائع الجريمة. وأصدر الوالي الوثائق الضرورية لتنفيذ هذا الأمر.

وبعد أن دون الشهود إفاداتهم خطياً أخلي سبيلهم بكفالة واعدين بالمثول أمام المحكمة حين يُستدعون. وحجز يانغ تشي في سجن المحكومين.

تعاطف الحرس والسجانون معه عندما تناهى إليهم أنه قتل نيو آر النمر الأجرد. فما طالبوه بشيء من المال وأحسنوا معاملته. وقال الناس الذين يعيشون قريباً من الجسر إنه أنقذهم من كارثة وخيمة. فتكاثروا وجمعوا بعض النقود الفضية، وأرسلوا إلى يانغ تشي طعاماً، ووزعوا مبالغ من المال على سبيل الهدية بين الحراس كيفما كانت رتبهم.

اعتبره النائب العام رجلاً طيباً أزاح من شوارع العاصمة من كان يقلقها واعترف بما اقترفت يداه بملء طوعه واختياره. ولم يكن هنالك من التمس العدالة باسم نيو آر. وهكذا استخدمت الأسباب المخففة في ما يتعلق بالتهمة الموجهة إلى يانغ، وتم استجوابه عدة مرات، ثم صدر الحكم بحقه بتهمة "القتل خطأ خلال العراك".

أمضى عقوبة مدتها ستون يوماً، ثم استدعي بناء على أمر من النائب العام أمام الوالي الذي أمر برفع المخلعة عن عنقه، وأن يجلد عشرين جلدة ويوشم "بالوشم الذهبي". بصفته مجرماً، وينفى إلى الحامية في دامينغ، العاصمة الشمالية. وصودر السيف من قبل المحكمة.

صدرت الوثائق الضرورية، وانتدب خفيران. من كان يمكن أن يكونا غير تشانغ لونغ وتشاو هو. ووضعت حول رقبة يانغ مخلعة زنتها سبعة كاتيات ونصف، وأعطيت التعليمات الأخيرة إلى الخفيرين، وانطلق الثلاثة على الطريق.

حين اقتربوا من جسر تيانهانتشو دعاهم عدد من أصحاب المخازن الكبيرة ممن ادخروا مبالغ خاصة إلى الحانة لتناول الطعام والخمرة، ونفحوا الخفيرين بمقدار من الفضة. قالوا: "يانغ تشي رجل طيب أنقذ الناس من كارثة. نرجو أن تخصاه برعايتكما على الطريق إلى العاصمة الشمالية".

قال الخفيران: "نحن نعرف هذا الذي تتحدثون عنه. فلا تقلقوا".

شكر يانغ مضيفيه الذين أعطوه ما تبقى من فضة للإنفاق على رحلته، ومضى كل منهم في سبيل.

رجع معاون القصر السابق إلى الحانة حيث كان يقيم، وسدد ثمن طعامه وأجر إقامته، وجمع ثيابه وأمتعته، وعزم خفيريه على الطعام والشراب. ووصف له طبيب مرهماً يدهن به جروحه، ثم سار

على الدرب برفقة خفيريه.

ساروا ميممين شطر العاصمة الشمالية حيث كان معلم على الطريق بعد كل خمسة ليات، ومعلمان بعد كل عشرة. وصار يانغ في كل مقاطعة ومدينة من مدن الولايات يشتري طعاماً وشراباً لتشانغ لونغ وتشاو هو. وراحوا يمضون الليل في الخانات، ويتابعون السير مع انبلاج الفجر. وما أسرع أن وصلوا إلى العاصمة الشمالية، ونزلوا في خان.

كان حاكم دامينغ، العاصمة الشمالية، يملك سلطات مطلقة في ما يتعلق بالأمور المدنية والعسكرية. كان قوي الشكيمة، ويدعى ليانغ تشونغ سو، وهو صهر تساي جينغ الوزير الأول في العاصمة الشرقية. وكان ذلك النهار اليوم التاسع من الشهر القمري الثاني، وكان ليانغ قد عقد محكمته. دخل الخفيران برفقة يانغ تشي وقدما الوثائق التي حملاها من ولاية كايفينغ. قرأها ليانغ. كان التقى يانغ في العاصمة الشرقية. وها هو الآن يستجوبه عن قرب، فروى له كيف رفض الماريشال إعادته إلى منصبه السابق، وكيف حاول أن يبيع سيفه حين نفدت نقوده، وكيف قتل نيو آر. أمر ليانغ مساعديه أن يرفعوا المخلعة، وأعلن أنه سيبقي يانغ تشي في خدمته. وأصدر إيصالاً باستلام السجين، وأمر الخفيرين بالعودة إلى العاصمة الشرقية. وهنا نطوي الحديث في هذا الموضوع.

سهر يانغ على خدمة الحاكم ليانغ في مزرعته من مطلع الشمس إلى مهبط الليل. وتأثر ليانغ من الجهود التي يبذلها يانغ. وود أن يجعله ملازماً، وأن يرتب له راتباً شهرياً منتظماً. وخطر له في الوقت ذاته أن العسكريين الآخرين سيعارضون هذا الأمر. فأمر أن تقام مباراة عسكرية بين مختلف الضباط الكبار والصغار في حقل التدريب خارج البوابة الشرقية.

استدعى ليانغ في تلك الليلة يانغ وقال له: "يخطر في بالي أن أجعلك ملازماً يقبض راتباً ثابتاً. ما هي مهارتك في استعمال السلاح؟".

- قضيت فترة منصبي السابق في القيام باختبارات على السلاح. وفي القصر كنت أشغل منصب معاون عسكري. وأنا على دراية بالأشكال الثمانية عشر لفنون القتال. الأنباء التي تفيد أن سعادتكم تود أن تندبني إليها تبدد الغيوم السوداء وتأذن للشمس أن تشرق. وإذا كان في طوقي أن أبدي ولو شيئاً من التقدم، فسوف أقوم على خدمتكم بإخلاص حصان شدَّ عليه سرجه ولجامه".

اغتبط ليانغ، وأهدى إلى يانغ مجموعة من الأسلحة. ولم يقع شيء آخر من الأحداث في تلك الليلة.

في صباح اليوم التالي هبَّ نسيم لطيف وأدفأت الشمس الأرض. وكان الزمن منتصف الشهر القمري الثاني. بعيد تناول الفطور صحب ليانغ يانغ وامتطيا فرسيهما. وانطلقا يخفرهما حراس في المقدمة والمؤخرة خارجين من البوابة الشرقية. في حقل التدريب كان ثمة ضباط ورجال ومجموعة من الموظفين انتظموا لتحية الحاكم. ترجل ليانغ عن فرسه عند مقصورة الاستعراض، واتخذ مجلسه على مقعد موشى بالفضة. ووقف صفان من الضباط عن يساره وعن يمينه. وطفق قادة متوحشو الطلعة يراقبون من الأمام والخلف ومن كل جانب. وعلى منصة مركزية وقف جنرالان مشهوران: لي تشونغ المعروف بملك السموات، وون دا المعروف بالسيف البتَّار، وفي مقدور كل منهما إنزال

الهزيمة بعشرة آلاف من الأعداء، ويأمران على عدد كبير من الرجال والخيول. اقتربا معاً وهتفا تحية لليانغ.

ارتفعت راية صفراء فوق منصة الجنرالين، وعن طرفيها قرع خمسون طبلاً ذهبياً في إيقاع راعد. وأعقب ذلك ثلاثة أبواق نفخت ثلاثة أنغام رافقت إيقاع الطبول الراعدة. وخيم صمت مطبق على حقل التدريب. وارتفعت راية بيضاء فوق منصة الجنرالين، فانتظمت على الفور خمس فرق من الجنود. ثم ارتفعت فوق منصة الجنرالين راية حمراء خفقت بها الريح. ومرة أخرى رعدت الطبول، فانتظمت الفرق الخمس في تشكيلين على أهبة القتال، وقد استعدت بأسلحتها الكاملة.

خفقت الراية البيضاء، فانطلق صفان من الفرسان خبباً إلى الأمام وشدوا أعنة خيولهم.

أرسل ليانغ أمراً إلى الملازم تشو جين للمثول في حضرته. فنخز الملازم تشو، من التشكيل الأيمن، حصانه فسار به خبباً إلى السرادق. وثب عن حصانه، وغرز رمحه في الأرض، وحيا الحاكم في صوت مرنان.

أمر ليانغ: "ليعرضن الملازم مهارته العسكرية".

سحب تشو رمحه ورجع فامتطى حصانه، وسار به خبباً من جديد أمام منصة الاستعراض منعطفاً يمنة ويسرة وهو يأتي بحركات مختلفة من رمحه. فأطلق الجمهور صيحات الاستحسان.

قال ليانغ: "استدعوا يانغ تشي، العسكري الشجاع الذي نقل إلى هنا من العاصمة الشرقية".

توجه يانغ إلى السرداق وحيا الحاكم.

قال ليانغ: "أعرف أنك كنت في سابق العهد معاوناً عسكرياً في القصر في العاصمة الشرقية، ونفوك إلى هنا لارتكابك جريمة. وفي هذه الأيام يتنفس اللصوص وقطاع الطرق في حرية كاملة. وبلادنا تحتاج إلى رجال أشدّاء. هل لك قدرة على مبارزة تشو جين؟ إذا استطعت هزيمته أخلع عليك منصبه".

- إذا كنتم سعادتكم على هذا القدر من الإحسان، فلا أستطيع أن أرفض.

أمر ليانغ أن يعطى يانغ فرساً معدة للقتال، وأن يزوده صانع الدروع بسلاح. ثم أمر يانغ تشي أن يتنكب سلاحه، وأن يمتطي فرسه ويتبارز مع تشو جين.

سار يانغ إلى مؤخر السرادق وتدرَّع بالدرع التي أعطوه إيّاها في الليلة السابقة وشدها بإحكام، ووضع على رأسه خوذة، وحمل قوساً وسهاماً، وسيفاً ورمحاً، واعتلى فرسه، وخرج بها.

صاح ليانغ: "فليتنافس يانغ تشي وتشو جين بالرماح أولاً". قال تشو جين غاضباً: "كيف يجرؤ على مثاقفتي بالرماح! وهو المجرم المنفي!".

لم يدرك قطّ كيف أطاشت هذه الكلمات صواب يانغ الذي تأهب للقتال.

نال يانغ تشي في هذه المباراة قمة درجات الشرف وطارت له شهرة متألقة في صفوف الجيش.

لكن، من تراه يكون ذلك الرجل الذي أبرزته هذه المباراة؟

إن أحببت معرفة ذلك فهلمّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثالث عشر

الحيوان أزرق الوجه يقاتل في العاصمة الشمالية؛
وطليعة لجوج تتنافس على مركز الشرف في حقل التدريب

أوقف تشو جين ويانغ تشي فرسيهما تحت الرايات المثلثة متأهبين لدخول الحقل والمبارزة بالرماح.

صاح الجنرال ون دا: "رويدا!". ومشى إلى السرادق وقدم نفسه للحاكم ليانغ: "على الرغم من أننا لا نعرف من منهما أكثر مهارة من الآخر، يا صاحب السعادة، فإن رأس الرمح لا يرحم، وقد صنع خصيصاً للقضاء على اللصوص وقطاع الطرق. وهذان رجلان من أفراد جيشنا ربما يؤذي أحدهما زميله. جرح طفيف قد يشلُّ القدرة على الحركة، كما أن جرحاً بالغاً قد يؤدي إلى الموت. وستكون العاقبة وخيمة على قواتنا المسلحة. أقترح أن يرفع رأسا الرمحين، وأن يُغطى مكاناهما باللباد، وأن يمسحا بالكلس. وليلبس الفارسان رداءين أسودين عند المبارزة. والرجل الذي يحمل بقعاً بيضاء أكثر يخسر المباراة".

قال ليانغ: "فكرة رائعة!". وأصدر بذلك أمراً. رجع المتنافسان إلى مؤخر السرداق، وانتُزع رأسا رمحيهما، ولُفَّ مكاناهما بقطعتين ضخمتين من اللباد. ثم ارتدى كل منهما عباءة سوداء، وغُطِّس رأسا الرمحين في دلو من الكلس. وامتطيا فرسيهما، وخرجا إلى ميدان المباراة.

نخز تشو جين فرسه ناصباً رمحه. فخبت به لملاقاة يانغ تشي. وصفع الضابط المعاون العسكري السابق فرسه وتقدم متأهباً للقتال وهو يلوح بسلاحه. احتدم الصراع أماماً ووراء، ويمنة ويسرة، وتراجعاً ودوراناً، رجلاً ضد رجل، وحصاناً في وجه حصان. واستدام أربعين أو خمسين جولة. وبدت عباءة تشو جين مبقعة بالبياض كمن رُشَّ بخثارة الفاصولياء في أكثر من خمسين موضعا. أما يانغ فما لطخت عباءته غير بقعة واحدة بيضاءِ فوق عظم كتفه اليسرى.

اغتبط ليانغ، وصاح بتشو أن يصعد إلى السرادق، وقال: "لقد جعل منك سلفي ملازماً، ولكنني بعدما شاهدت أسلوبك في القتال أعتبرك عاجزاً عن قيادة القوات في المعارك. ستبقى ملازماً ليس غير! فليأخذنَّ يانغ تشي مكان هذا الرجل!".

دخل الجنرال لي تشنغ السرادق، واقترح قائلا: "تشو جين لا يجيد الضرب بالرماح، ولكنه لا يجارى بالسهام. وليس من العدالة في شيء أن تكسر رتبته. فهذا العمل يضعف من معنوياته. فلم لا تأمر أن يتبارى ويانغ تشي بالقوس والسهام؟".

أومأ الحاكم برأسه: "هذا قول حسن". وأصدر بذلك أمراً.

رمى تشو ويانغ رمحيهما على الأرض، وأعطوهما قوسين وسهاماً. أخذ يانغ قوسه من جعبته،

ووتَّره، ووثب على حصانه، واقترب من السرادق، وألجم الحصان، ووقف على الركاب وانحنى تحية: "يا صاحب السعادة، السهم حين ينطلق لا يعرف رحمة، بل يمكن أن ينتج جرحاً بليغاً. أرجو أن تصدر تعليماتك".

- حين يتعارك المحاربون فهم لا يفكرون في الجراح، ولو حدثت وفاة فلن تكون لها عواقب على الإطلاق.

رجع يانغ إلى ساحة القتال، وأعطي كل من المتباريين، بناء على تعليمات لي تشنغ، درعاً أضيفت إلى سلاحه.

اقترح يانغ: "تطلق عليَّ ثلاثة سهام أولاً. ثم أطلق عليك ثلاثة".

لم تكن رغبة تشو جين أكثر من إصابة خصمه بسهم قاتل. ولكن يانغ، بصفته ضابطا مجرباً، كان واثقاً من قدرته على اجتناب مراوغات خصمه، وكانت أعصابه هادئة.

خفق فوق منصة الجنرال علم أزرق. فوخز يانغ فرسه وخبَّ بها جنوباً. وانطلق تشو وراءه. ربط لجام فرسه بقربوس سرجه، وحمل قوسه بيده اليسرى وركب عليها سهماً بيده اليمنى. شد القوس إلى آخرها وأطلق السهم على ظهر يانغ الذي ما إن سمع صفيره حتى انحنى على الركاب، فمر السهم من دون أن يصيبه.

اضطرب تشو، وأسرع يلتقط سهماً آخر من جعبته، وشده إلى القوس، وصوَّبه، وأرسله إلى ظهر منافسه. لم يراوغ يانغ هذه المرة، بل صدَّ السهم بطرف قوسه وألقاه على المرج.

ارتعب تشو. وصل يانغ في هذه الأثناء إلى نهاية الحقل. أدار فرسه، ورجع معجلاً في اتجاه السرادق. لمز تشو حصانه بسرعة، واستدار، ولحق به. وراحت ثمانية حوافز تقعقع على المرجة الخضراء كمن يحطم أطباقاً ويقرع أجراساً، وفي غضبة تماثل غضبة التيفون، ركَّب تشو سهماً ثالثاً في قوسه، وشد الوتر بجماع قوته، وعيناه تقدحان شرراً وتنصبان على ظهر يانغ، وأطلقه من عقاله.

التفت يانغ وقد سمع صفير السهم واختطفه وهو في الهواء. وأسرع ناحية السرادق وألقى به.

انتشى الحاكم ليانغ فرحة، وأمر يانغ أن يطلق ثلاثة سهام على تشو. وارتفع العلم الأزرق من جديد. ألقى تشو قوسه وسهامه من يده، وحمل الدرع بقوة واتجه جنوباً. استقام يانغ على السرج، ونخز الفرس بعقبيه، وانطلق وراءه.

شدَّ قوسه الخاوية أولاً. وما إن سمع تشو صوتها وراءه حتى التفت ورفع درعه. ولم يكن هنالك من سهم!

همس في سره:

- ذلك النذل ماهر في استخدام الرماح ولكنه فاشل في إطلاق السهام. سأنتظر أن يقوم بمحاولته الثانية الخائبة وأطلب اعتباره خاسراً المباراة. وليعلن عن انتصاري أنا.

بلغت فرس تشو في هذه الأثناء الطرف الجنوبي للحقل، فاستدارت ورجعت صوب السرادق. وتبعتها فرس يانغ في الوقت ذاته الذي تناول فيه سهماً من جعبته وشدّه إلى القوس.

قال يخاطب نفسه: "إن أصبته في منتصف ظهره قضيت عليه. وهو ليس عدوي. سأصيبه في

مكان غير قاتل".

امتدت ذراع يانغ اليسرى كمن يحمل عليها جبل تايشان، وانحنت اليمنى كمن يهدهد طفلاً، وشدَّ القوس حتى آخر منازعها وأطلق سهمه. فصفر وأصاب في مثل لمح البصر كتف تشو اليسرى مثل مذنب سريع، فهوى على الأرض. وتواثبت فرسه إلى ما وراء السرادق، فتراكض الضباط والرجال لمساعدته.

غمرت الغبطة فؤاد ليانغ. فأمر أن يصدر بيان على الفور بمنح يانغ تشي المنصب الذي كان تشو جين يشغله. ابتهج يانغ، فترجَّل وخطا في اتجاه السرادق للتعبير عن شكره واستلام المنصب الجديد. ولكن رجلاً في الطرف الأيسر منه صعد الدرج على غير انتظار ووقف معترضاً. قال:

- لا تعجّل كثيراً! يجب أن تقارعني أولاً!

نظر يانغ إليه. كان باسق الطول، وله وجه مدور، وعينان بجاوان، وفم واسع ذو شفتين سميكتين، وسالفان هلباوان، وطلعة مهيبة.

خطا الرجل ناحية الحاكم وحياه في احترام عميق. وقال: "كان تشو جين مريضاً ولم يسترد أنفاسه. وهذا هو السبب في هزيمته. ورغم أني لست على شيء من المهارة، فأنا أرغب في امتحان مهارتي ضد يانغ. إذا استطاع إبداء شيء من التفوق عليَّ، ولم نأخذ بعين الاعتبار ما أصاب تشو، أتنازل له عن منصبي من دون تذمر أو شكوى حتى آخر نفس من أنفاسي".

عرف ليانغ في ذلك الرجل سو تشاو، النقيب في فصيلة الحرس في ولاية دامينغ. وكان له مزاج متفجر أشبه بكمية من الملح في لهب، وكان تواقا إلى إغداق المجد على بلاده، وأول من يلقي بنفسه في خضم القتال؛ الأمر الذي خلع عليه لقب الطليعي العجول.

نزل لي تشنغ عن منصة الجنرالات، وانتصب أمام السرادق قائلا: "كان يانغ تشي ضابطاً معاوناً في القصر، يا صاحب السعادة. ومن البدهي أن له خبرة في استخدام السلاح. كان ينبغي أن نعرف أن تشو جين لا يجاريه أو يمكن أن يكون له نداً. والنقيب سو، يمكن أن يكون له نداً".

همس ليانغ في سره: "أريد أن أخلع على يانغ تشي منصباً، ولكن ضباطي يعارضونني في ذلك. فإذا استطاع إلحاق الهزيمة بسو تشاو فلن تبقى لديهم حجة. وسيغدو في مقدوري إسكاتهم إلى الأبد".

استدعى يانغ للمثول بين يديه قائلا: "هل تبارز سو تشاو؟".

- لا أستطيع رفض ذلك إذا كانت رغبة سعادتكم.

- حسن. بدِّل عدتك وراء السرادق. وشدّ سلاحك جيداً.

وأمر صانع الأسلحة أن يزوده بأسلحة مناسبة، وأضاف: "حذار. فهذا خصم لا يستهان به". شكره يانغ. وذهب يبدل عدته.

أعطى لي تشنغ تعليماته إلى سو تشاو: "أوقعت نفسك في مركز خاص. فتشو جين تحت حمايتك. وقد هُزم. إذا أصابك ما أصابه فسينعكس أثر ذلك على هيئة ضباط دامينغ بأسرها. سأخصك بفرس خبيرة في شؤون المعارك، ومجموعة من الأسلحة. فاحذر. ولا تسمح لأي شيء أن

يلوّث شجاعتك".

شكره سو تشاو، ورجع يتأهب للمباراة.

نهض ليانغ واقترب من الدرج. أحضر له الخدم مقعداً عريضاً مصنوعاً من خيوط فضية ووضعوه قرب حاجز رصيف القمر. جلس عليه، ووقف الضباط وقفة وقار في صفين عن يمينه وعن يساره. وأمروا أن تفتح المظلة مثلثة الطبقات المصنوعة من حرير بلون الشاي والمظللة بيقطينة ذهبية وراءه.

خفقت راية حمراء فوق منصة الجنرالات، وضربت طبول ذهبية عن الجانبين إيقاعاً راعداً، وأطلق مدفع طلقاته عن كل من جانبي التشكيل فوق الميدان. برز سو تشاو وانتظر وراء البوابة المزينة بالرايات المثلثة. وبرز يانغ تشي بدوره وطار بحصانه من قلب أحد التشكيلين إلى ما وراء البوابة وكبح جماح فرسه.

خفقت الآونة فوق منصة الجنرالات راية صفراء، ورعدت الطبول مرة أخرى. فأطلق التشكيلان صيحة ثاقبة. ومن بعد خيَّم صمت عميق على الميدان، وفيما نفخت الأبواق ارتفعت راية بيضاء. كتم الجميع أنفاسهم، ووقفوا صامتين.

ارتفع فوق منصة الجنرالات علم أزرق، وزمجرت طبول الحرب للمرة الثالثة. انفتحت البوابة المزينة بالرايات في التشكيل الأيسر، وقرعت الأجراس، ودخل النقيب سو تشاو الحلبة ونخز حصانه. كانت له طلعة بطولية وهو يحمل أسلحته في يده. وكانت على رأسه خوذة كالليث من فولاذ نقي لها شرابة حمراء طويلة في مؤخرها. كان يرتدي سترة من درع حديدية مربوطة في وسطها بحزام موشى بالذهب على هيئة وجه حيوان. وكانت صفائح من البرونز تحمي صدره وظهره. وفوق هذا كله ارتدى عباءة وردية اللون موشاة برسوم دائرية، وشدت عند العنق بحبال من صوف أخضر. وانتعلت قدماه حذاء مفتوحاً من الجلد المطرز. وتدلت عن كتفه اليسرى قوس، وجعبة من السهام تعلقت بكتفه اليمنى. وحمل في يده اليمنى فأساً ذهبية وجلس منفرج الساقين على الفرس البيضاء الناصعة التي خصَّه بها الجنرال لي تشنغ وعركت المعارك وعركتها.

ومن بعد فتحت بوابة التشكيل الأيمن وقرعت الأجراس، فهبَّ يانغ تشي هاجماً ورمحه في يده. وفي حلبة القتال نخز فرسه ورفع رمحه. يا للمحارب الشجاع! كانت خوذة الفولاذ على رأسه تلتمع كالجليد تحت أشعة الشمس تجر وراءها شرابة زرقاء. وكان يرتدي درعاً من السلاسل على صورة تويج وورقة من العشب. وكان حزام صوفي يشدّ كساءه. وكانت هنالك صفائح على هيئة وجوه حيوانات على صدره وظهره تسبغ عليه وقاية إضافية، وعلى كتفيه عباءة بيضاء موشاة بالزهور، وحبال صوفية أرجوانية اللون تربطها حول عنقه. وفي قدميه حذاء جلدي بني اللون سميك النعل. وتدلت عن كتفيه قوس مقبضها من الجلد، وجعبة من السهام لها رؤوس على هيئة الإسفين. وفي يده رمح من خالص الحديد مصفَّح بالفولاذ. وامتطى صهوة فرس الحاكم ليانغ التي بلون اللهب، وهي فرس سبوح لها سرعة الريح.

أبدى الضباط على الصفين آيات الدهشة. كانت للفارسين، على الرغم من أنهما لم يظهرا شيئاً

من البراعة بعد، طلعة جليلة تخطف الأبصار.

برز ضابط على فرس اتجهت به خبباً ناحية الجنوب يحمل راية موشاة بالذهب دونت عليها كلمة "أمر"، وقال: "أمر من صاحب السعادة. يأمر كلاً منكما أن يبذل قصارى الجهد. وأي إهمال أو تقاعس مصيره العقاب. والمنتصر يحرز مكافأة سخية".

عدا المتبارزان بفرسيهما إلى منتصف الميدان واستدارا يواجه أحدهما الآخر وقد رفعا سلاحيهما. وهجم سو تشاو على يانغ تشي بوحشية ملوِّحاً بفأسه. كان يانغ مقاتلاً بدوره، فلوى رمحه، وانقذف مباشرة لملاقاته. وتشابكا في وسط الميدان أمام منصة الجنرالات. وبذل كل منهما غاية جهده. واحتدمت المعركة أماماً ووراء، وروحة ورجعة؛ وتصاولت أسلحة أربعة؛ وتطايرت ثماني قوائم على مدى أكثر من خمسين جولة من دون أن يكتب النصر لأي من المتباريين.

جلس ليانغ يراقب القتال من فوق منصة القمر وقد أصابه الانبهار. وهب الضباط عن جانبيه يطلقون هتافات التهليل بصورة متواصلة. وراح الجنود يتهامسون قائلين: "قضينا في الجيش سنوات وسنوات وخضنا معارك ومعارك، ولكننا لم نعرف لهذين المتبارزين من شبيه!".

وهبَّ لي تشنغ وون دا على منصة الجنرالات يزعقان: "مرحى! مرحى! مرحى!".

خشي ون دا أن يصاب أحدهما بجراح. فأمر ضابط الراية التي دونت عليها كلمة "أمر" أن يركب جواده، وأن يفرّق بينهما. ونفخت الأبواق على منصة الجنرالات على حين غرّة فجأة. ولكن كلاً من يانغ وسو راغب في إحراز النصر، ولا يقبل بالتوقف.

عدا حامل الراية بفرسه صائحاً: "كفى، أيها المحاربان الطيبان! فصاحب السعادة راغب في إصدار أمر!".

في تلك اللحظة، أرخى المتبارزان سلاحيهما، واستقرا على فرسيهما هامدين. رجعا إلى مركزيهما خبباً وتوقفا أمام بوابتيهما الخاصتين المظللتين بالرايات المثلثة، قبالة الحاكم ليانغ، ينتظران الأمر.

نزل لي تشنغ وون دا عن منصة الجنرالات واقتربا من رصيف القمر مخاطبين الحاكم: "يا صاحب السعادة، هذه المهارة التي أبداها هذان المقاتلان لا ينبغي أن تهدر عبثا!".

سرَّ الحاكم ليانغ، وأمر أن يمثل الاثنان في حضرته. فنقل حامل الراية الأمر إلى يانغ وسو اللذين سارا حتى السرادق وترجلا. وأخذ الجنود عنهما أسلحتهما، فدخلا السرادق وانحنيا.

أهدى ليانغ إلى كل منهما كتلة من الفضة ومجموعة من الثياب الفاخرة، وخلع على كل منهما رتبة رائد. وأمر أن تدون الوثائق الضرورية بهذا الخصوص اعتبارا من ذلك النهار.

انحنى سو ويانغ معبرين عن شكرهما، وغادرا السرادق حاملين هداياهما، وخلعا ألبسة القتال وأبدلا ثيابهما، ثم رجعا إلى السرادق ورفعا أيديهما تعبيرا عن شكرهما للضباط المحتشدين. فأمرهما ليانغ أن يقدم كل منهما آيات التوقير للآخر، وأن ينضما إلى بقية الضباط من الرتبة ذاتها.

انسحب الجنود، خافقة أعلامهم، تسبقهم الطبول المذهبة وهي تضرب نغمات النصر. وبقي ليانغ برفقة ضباطه من مختلف الرتب في السرادق الذي أقيمت فيه وليمة عامرة.

حين راحت الشمس تميل إلى الغروب انتهت الوليمة، فامتطى ليانغ جواده وبدأ رحلة العودة إلى منزله بخفرة ضباطه. مشى في المقدمة، جنباً إلى جنب، الرائدان الجديدان وقد تكللت هامتاهما بالورد الأحمر.

احتشد الشارع بوجوه تغمرها السعادة، كباراً وصغاراً، في الوقت الذي دلفت فيه البطانة من البوابة الشرقية للمدينة. سأل ليانغ وهو على جواده: "فيم هذا البشر على وجوهكم؟".

سجد عدد من الرجال المسنين وأجابوا قائلين: "ولدنا ونشأنا في دامينغ. العاصمة الشمالية، ولكننا في حياتنا كلها لم نشاهد مثل هذه المباراة! كنا هنالك خارج الميدان، وكنا نراقب ذينك الشجاعين. من لا تغمر الفرحة قلبه لمثل هذه المهارة!".

ارتسمت آيات السرور على ملامح ليانغ، فرجع إلى داره. ومضى ضباطه إلى بيوتهم وأعمالهم. وأقام أصدقاء سو تشاو حفل شراب احتفالاً بترفيعه. لم يكن يانغ تشي، القادم الجديد، يعرف أحداً من الموجودين، فانعطف وحده إلى جناحه. منذ ذلك الحين أقام على خدمة لا نظير لها. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

نختصر الحديث ونأتي إلى خلاصته. صار ليانغ مغرماً بيانغ تشي بعيد المباراة في ميدان التدريب خارج البوابة الشرقية، فلا يفترقان على الإطلاق. وتلقى يانغ راتباً شهرياً إضافياً، وصار يتعرف على أصدقاء جدد تدريجياً. وأبدى سو تشاو احتراماً لبراعته وقوته.

وتوالت الأيام، واقترب الربيع من نهايته، وأطلت تباشير الصيف، وحلَّ اليوم الخامس من الشهر القمري الخامس، وهو يوم عيد. أقام ليانغ وزوجه، السيدة كاي، احتفالاً عائلياً بهذه المناسبة، وهو حفلة غداء في الردهة الخلفية. وبعد تبادل عدد من الأنخاب وجولتين من الشراب طرحت السيدة كاي سؤالاً: "غدوتم اليوم، يا صاحب السعادة، قائداً أعلى للقوات المسلحة، وشغلتم منصباً له أهميته في الحكومة. فمن أين أغدق عليكم هذا الشرف وهذه الرتبة؟".

أجاب ليانغ:

- أكببت على الدراسة منذ طفولتي. فدرست التاريخ والآثار الكلايسكية. ولكنني رجل له مشاعره. ومن البدهي أني رجل أدين كثيراً لوالدك النبيل في العاصمة الشرقية. ولا أستطيع أن أفيه حقه من الشكر.

- إذا كان الأمر كما تقول، فكيف يمكن أن تنسى ذكرى مولده؟

- هذا يوم لا أنساه. إنه يقع في الخامس عشر من الشهر القمري السادس. ولقد أرسلت خدماً يحملون مائة ألف ربطة نقدية لشراء حلى وحجارة كريمة أقدمها هدية له بهذه المناسبة. ذهبوا من قرابة شهر، وابتاعوا حوالى تسعة أعشار ما أوصيت عليه. وحين يتجهز كل شيء سأقوم بتسليم هذه الهدايا. ثمة شيء واحد يقضُّ مضجعي. في العام المنصرم، اختطف اللصوص على الطريق الحلي الصغيرة والحلي الذهبية والمجوهرات التي أرسلتها هدايا. وضاعت هذه الأشياء الثمينة كلها، ولم نستطع القبض على اللصوص حتى الآن! فمن أختار هذه المرة لتسليم هذه الأشياء؟

- ثمة عدد كبير من الضباط رهن خدمتك. فاختر رجلاً هو موضع ثقتك.

- هنالك ما يُقارب أربعين أو خمسين يوماً بعد. لدينا متسع من الوقت لأهيّئ فيه جميع هذه الهدايا. لا تقلقي يا سيدتي. أعرف ما ينبغي علي أن أفعل.

استمر الاحتفال من منتصف النهار وحتى ساعة الحراسة الثانية. ثم تفرَّق الجميع ولن نزيد هذا الموضوع حرفاً.

انتدب حاكم جديد في يونتشنغ، حاضرة ولاية جيتشو في مقاطعة شاندونغ. كان اسم عائلته شي، واسمه ون بين. جلس الضباط عن يمينه ويساره ذات يوم حين عقد مجلسه، واستدعى للمثول أمامه الشريف ومسؤولين عن الأمن، أحدهما معروف بلقب "شرطي المشاة" والآخر بلقب "شرطي الفرسان". كان الأول قائداً على عشرين من الرماحين وعشرين من المشاة، والثاني قائداً على عشرين من رماة السهام الفرسان وعشرين من المشاة.

وكان تشو تونغ، شرطي الفرسان، طويل القامة له لحية وافرة طويلة. وجهه أسمر بلون الكستناء، وعيناه براقتان كنجمتين، يشبه غوان غونغ في الأيام الغابرة. وكان معروفاً في الحاضرة بأسرها باللحية الجميلة، وينحدر من أسرة ثرية. وكان شهماً، سخي اليد، له أصدقاء عديدون في أخوية الشجعان. كما كان ماهراً في استخدام السلاح.

وكان شرطي المشاة يدعى لي هينغ. وهو رجل فارع الطول، له بشرة محمرة ولحية على شكل مروحة تهدب وجهه. وكان صلب العود رشيق الحركة؛ يثب في قفزة واحدة فوق هوة بعرض عشرين أو ثلاثين قدماً، ويعرف بالنمر المجنَّح. كان في الأصل حداداً، ثم افتتح طاحوناً، ومسلخاً للماشية، ووكرا للقمار. وكان شهماً، لكنه عصبي المزاج. وكان، هو الآخر، بارعاً في استخدام السلاح.

كان عملهما الرسمي هو القبض على اللصوص. حين استدعاهما الحاكم ألقيا عليه تحية محترمة ووقفا ينتظران أوامره.

قال:

- منذ توليت منصبي وأنا أسمع أن اللصوص في بحيرة ليانغشان - وهي منطقة مائية تحت إشرافنا باعتبارها جزءاً من ولاية جيتشو - يسرقون الأراضي ويقاتلون عسكرنا. وهم يثورون في كل ناحية وقرية، ويشكلون قوة ضخمة. وقد استدعيتكما لأني أريد، من دون خشية من العواقب، أن تجمعا قوة من الرجال وتنطلقوا جميعاً في جماعتين تخرج إحداهما من البوابة الشرقية والأخرى من البوابة الغربية مع زمرة من الكشافين. اعتقلوا جميع اللصوص وأحضروهم إلي، ولكن من دون أن تضايقوا الفلاحين. على هضبة وراء قرية الضفة الشرقية شجرة كبيرة أوراقها حمر.

هي الوحيدة في هذه المنطقة. وعلى كل فرد منكم أن يحضر بعضاً من هذه الأوراق دلالة عن وصولكم إلى هناك. إن لم تفعلوا ذلك فسأعرف أنكم تكذبون علي! وسيكون عقابكم وخيماً.

رجع الشرطيان إلى مركزيهما، واستدعيا رجالهما، وانطلقوا جميعاً.

سار لي هينغ عبر البوابة الشرقية مع حوالى عشرين جندياً من المشاة. فتشوا عدداً من القرى والضواحي المحدقة بالبلد، ووصلوا أخيراً إلى الهضبة وراء الضفة الشرقية. والتقطوا بعضاً من الأوراق الحمر ورجعوا إلى القرية. وقبل أن يجتازوا ليين أو ثلاثة ليات رأوا أن باب معبد لينغوان

الذي يمرون به مفتوح.

قال لي هينغ:

- ليس في المعبد مشرفون، ولكن الباب مفتوح. هل يمكن أن يكون بعض الأشرار قد دخلوه؟ يحسن أن نلقي نظرة.

أشعل هو ورجاله المشاعل ودخلوا. هنالك في الداخل، على منضدة المذبح، اضطجع رجل ضخم الجثة عاري الجسد في سبات عميق. كان الجو حاراً، فخلع ثيابه المهلهلة ولفها على هيئة وسادة أراح رأسه عليها. وكان يشخر بصوت عالٍ.

قال لي هينغ: "رائع! لا ريبة أن حاكمنا على صلة بالأرواح! هذا لص من الضفة الشرقية. لا مراء في ذلك!". وهتف صائحا، فتدفق الجنود العشرون دفعة واحدة. قاتل الرجل الضخم بشراسة، لكن سرعان ما شدوا وثاق يديه وراء ظهره، وجروه خارج المعبد واقتادوه إلى مزرعة قائد السجن.

عندما اقتادوه إلى هنالك التقى أربعة أو خمسة من الأبطال في قرية الضفة الشرقية، وعثر على ثروة تبلغ مائة ألف ربطة نقدية في حاضرة يونتشينغ. وتجمعت الأرواح السماوية من السماء والعفاريت الأرضية بين الرجال المحتشدين.

إلى أين اقتاد لي هينغ ذلك الفتى الذي اعتقله مخفورا؟

إن أحببت معرفة ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الرابع عشر

الشيطان أحمر الشعر يضطجع سكران في معبد لينغوان؛ وتشاو الملك السماوي يعترف "بابن أخ" في قرية الضفة الشرقية

حين دخل لي هينغ معبد لينغوان لمح فتى ضخم الجثة نائماً على المذبح. اندفع الجنود إليه، وشدوا وثاقه، وجروه خارجاً. كان الوقت قرابة فترة الحراسة الخامسة، والشمس لم تنهض من خدرها بعد.

قال لي هينغ: "لنأخذنَّ هذا الأخرق إلى مزرعة قائد السجن تشاو. هنالك نفطر، ومن بعد نعود به إلى حاكم الحاضرة ليستجوبه".

فأخذت الجماعة طريقها إلى المزرعة مسرعة.

كان قائد السجن في قرية الضفة الشرقية يدعى تشاو، واللقب الذي خلعوه عليه هو غاي، ولد في أسرة ميسورة عاشت في هذه الأصقاع على مدى أجيال متعاقبة، وناضل دائماً وأبداً في سبيل العدالة ونصرة الملهوف. لم يكن أحبّ على قلبه أكثر من مناصرة الرجال الشجعان، ودعوتهم إلى مزرعته حيثما التقاهم مهما تكن الظروف والأحوال. وحين يتأهبون للذهاب ينفحهم بالفضة للإنفاق على رحلتهم. وكان مولعاً باللعب بالسلاح، الأمر الذي أغدق عليه قوة عضلية عظيمة. كان يقوم بالتمرينات الرياضية من مطلع الشمس وحتى مهبط الليل.

وكانت هنالك في ما وراء البوابة الشرقية ليونتشنغ، حاضرة المنطقة، قريتان تديرهما المنطقة ذاتها، يفصل بينهما جدول وسيع، إحداهما تدعى الضفة الشرقية والأخرى الضفة الغربية. وكانت الأرواح الشريرة قد بسطت سيطرتها في السابق على الضفة الغربية، فهي تغري الناس بالاندفاع في قلب الجدول في وضوح النهار، والترصد تحت المياه. وما كان هنالك من يقوى على التغلب عليها. وذات يوم اجتاز من هنالك راهب، فروى له القرويون القِصة كلها. فأشار الراهب إلى أحد الأمكنة، وطلب إليهم أن يشيدوا باغودا من الحجارة السوداء، موضحاً أنها ستطرد الشر عن ضفة الجدول. ونتج عن ذلك أن الأرواح غادرت قرية الضفة الغربية وانتقلت إلى الضفة الشرقية.

حين وصل الخبر إلى تشاو غاي ثار وغضب. فخوَّض في الجدول، واقتلع الباغودا المصنوعة من حجارة سوداء، وحملها عبر الجدول بيد واحدة، وأقامها على الضفة الشرقية. ومنذ ذلك الوقت اشتهر بتشاو غاي، الملك السماوي الذي يبدل موضع الأبراج. وغدا الحاكم المطلق على القرية، وحفظ اسمه جميع الرجال الشجعان.

في ذلك الصباح صحب لي هينغ وجنوده الفتى ضخم الجثة إلى المزرعة وقرعوا على الباب. وحين عرف الخدم هوية الطارقين نقلوا الخبر إلى قائد السجن. كان تشاو غاي لا يبرح في فراشه،

وحينما سمع أن الشرطي لي جاء أمر أن تفتح البوابة على الفور. فصدع الخدم بالأمر. وعلّق الجنود الفتى الضخم على العارضة الخشبية للبوابة، ثم سار لي هينغ وعشرة من قادة الجنود إلى الردهة وجلسوا.

استوضح تشاو غاي بعدما غادر سريره لملاقاتهم: "ما الذي رمى بك ههنا، أيها الشرطي؟".

قال لي هينغ: "بناء على أمر من سعادة الحاكم قمت وتشو تونغ بقيادة فصيلين من الكشافين إلى مشارف المدينة بحثاً عن اللصوص. وقد أنهكنا التعب ورغبنا في قليل من الراحة، فقدمنا إلى مزرعتك. وأرجو ألا نزعجك".

أجاب تشاو غاي: "على الرحبِ والسعة". وأمر الخدم بتهيئة الطعام والشراب، وأن يحضروا الشاي على الفور. واستفسر: "هل قبضتم على أحد من اللصوص في قريتنا؟".

- عثرنا لتونا على فتى ضخم مستغرق في النوم في معبد لينغوان. واتضح لي أنه ليس من السادة المهذبين. لا شك أنه أسرف في الشراب فاستسلم إلى النوم هناك. وهكذا شددنا منه الوثاق. كنت عازماً على اصطحابه إلى الحاكم من فوري، ولكن الوقت لا يبرح باكراً قبل كل شيء، ومن ثم خطر لي أن أعلمك بالأمر، يا قائد السجن. فإذا تراءى للحاكم أن يسألك عن هذا الموضوع في المستقبل فستكون قادراً على الإجابة. وقد علقت السجين برافدة بوابتك.

رسَّخ تشاو غاي هذا الموضوع في ذهنه. وأجاب: "شكراً لإخبارك إياي، أيها الشرطي". وما لبث الخدم أن أحضروا الشراب وصحاف الطعام. فقال تشاو غاي: "الحديث هنا غير مستحب، فلندخل إذاً". أمر خادما أن يشعل المصباح. ورافق لي هينغ إلى رواق مبنى خلفي.

بعد أن اتخذ كل منهما مجلسه إلى المنضدة - تشاو غاي في مقعد المضيف ولي هينغ في مقعد الضيف - جاء عدد من الخدم بصحاف المشهيّات، فيما راح خادم آخر يصب الخمرة. أمر تشاو غاي أن تدار الكؤوس على الجنود أيضا. فصحب الخدم الجنود إلى ممشى مسقوف وعاملوهم معاملة الضيوف. فقدموا لهم صحافاً كبيرة من اللحم وطاسات ضخمة من الخمرة. وألحَّ المضيف عليهم أن يأكلوا ويشبعوا.

وبينا تشاو غاو يعزم الشرطي على الطعام والشراب في إلحاح، أخذ يتساءل نفسه: "من تراه اللص الذي قبض عليه في القرية؟ يجب أن ألقي نظرة". جرع ستة أو سبعة أكواب من الخمرة مع لي هينغ، واستدعى أحد مساعديه وقال: "ابق في رفقة الشرطي. سأذهب للتفريج عن نفسي وسأرجع على الفور".

وفيما المساعد ينادم لي هينغ على الشراب، حمل تشاو غاي مصباحاً ومضى إلى البوابة الرئيسة مباشرة. لم يكن هنالك أحد من الجند. فالجميع قد دخلوا يغتبقون الشراب. فسأل تشاو غاي أحد الخدم ممن يحرسون البوابة: "هذا اللص الذي اعتقله الشرطي، أين ربطوه؟".

أجاب الخادم: "ربطوه في محرس البوابة".

دفع تشاو غاي الباب وألقى نظرة. كان الفتى معلقاً فوق الأرض، وجسده كتلة من اللحم داكن اللون، وساقاه المتدليتان سوداوان مفروشتان بالشعر، وقدماه عاريتان. رفع تشاو غاي المصباح إلى

وجه الرجل. كان أحمر اللون عريضاً. وعلى جانب صدغه وحمة قرمزية نبت منها شعر أحمر وأسود.

سأله تشاو غاي: "من أين أنت، أيها الفتى؟ أنا لم أرك في قريتنا من قبل".

- خادمك غريب من مقاطعة بعيدة. جئت أعرض خدماتي على رجل، ولكنهم اعتقلوني مثل اللص. يجب أن تنصفوني.

- من ذلك الرجل الذي جئت إليه في هذه القرية؟

- إنه رجل شجاع.

- وما اسمه؟

- يدعونه قائد السجن تشاو.

- وفيم تطلب رؤيته؟

- تشاو غاي مشهور في جميع الأرجاء بصفته نصيراً للعدالة. ثمة فرصة نادرة للثراء أود أن أحدثه عن شأنها.

- لن تبحث طويلاً. أنا قائد السجن تشاو. إذا أردتني أن أنقذك تظاهر أنك تعرفني بصفتي شقيق والدتك. وخلال الفترة القصيرة التي أصحب فيها الشرطي لي ورفاقه مودعاً ناديني "خالي". وسأناديك "بابن شقيقتي". قل إنه كان لك من العمر أربع أو خمس سنوات حين غادرت هذا المكان. هذا هو السبب الذي جعلك تجهلني حين عدت إلى هنا من جديد مفتشاً عني.

قال الشاب: "إذا استطعت نجدتي فسأكون لك من الشاكرين. أرجوك أن تساعدني أيها النصير!".

حمل تشاو مصباحه وغادر محرس البوابة. أقفل الباب وهرول عائداً إلى المبنى الخلفي. وخاطب لي قائلا: "هلا غفرت لي ذهابي عنك!".

أجاب الشرطي: "أنا أجشمك المشاق. وهذا ليس من العدل في شيء".

جرعا عدة أكواب من الخمرة معاً. وسرعان ما شرع الضوء يتسرب من النافذة.

قال لي هينغ: "الضوء يتألق في المشرق. وينبغي على خادمك هذا أن يرحل. يجب أن أعود إلى مكتب المقاطعة".

- إن لديك مسؤولياتك الرسمية، أيها الشرطي. ولا أستطيع احتجازك طويلاً. إذا قذفت بك أعمالك إلى قريتنا المتواضعة مرة أخرى فأرجو أن تشرفني بزيارتك.

- مؤكد أني سأقدم احتراماتي لك، يا قائد السجن. وأرجو ألا تتعب نفسك بمرافقتي للوداع.

- ائذن لي أن أرافقك حتى بوابة المزرعة.

خرج تشاو غاي ولي هينغ من المبنى. فالتقط الجنود الذين أكلوا ملء بطونهم رماحهم وعصيهم وسبقوهما إلى محرس البوابة. وهنالك أنزلوا الشاب الذي علقوه وقادوه عبر الباب ويداه موثقتان وراء ظهره.

هتف تشاو غاي: "يا له من شاب ضخم!".

قال لي هينغ: "هذا الجلف هو اللص الذي أمسكنا به في معبد لينغوان".

وقبل أن ينهي كلامه صرخ الشاب قائلا: "خالي، أنقذني!".

تظاهر تشاو غاي أنه يحدّق النظر فيه، ولم يلبث أن أطلق صيحة: "كيف؟ أليس هذا الوغد هو وانغ الثالث؟".

- بلى، هو أنا، يا خالي. أنقذني!

انشده الجميع. استفسر لي هينغ من تشاو غاي: "من هذا؟ وكيف يعرفك يا قائد السجن؟".

- إنه ابن شقيقتي، وانغ الثالث! ماذا كان يفعل هذا النذل في المعبد؟ لقد عاش هنا حتى بلغ الرابعة أو الخامسة من العمر، ثم انتقلت شقيقتي وزوجها إلى العاصمة الجنوبية. ولم أره منذ أكثر من عشر سنوات. رجع إلى هنا وهو في الخامسة عشرة، برفقة تاجر من المدينة في رحلة لبيع البلح وتلك كانت آخر مرة أراه فيها. وقد سمعت من كثيرين أن هذا النذل لا خير فيه. فماذا تراه يفعل هنا؟ ما كنت لأعرفه لولا هذه الوحمة القرمزية على جانب صدغه!

وصاح بالشاب قائلا: "أيها الثالث الصغير! لمَ لم تجئ إليَّ مباشرة؟ لماذا ذهبت إلى القرية وسرقت؟". احتجَّ الشاب قائلا: "لكن، يا خالي، أنا لم أسرق شيئاً". سأل تشاو غاي: "إن لم تكن لصاً، ففيم أحضروك إلى هنا؟". واختطف عصاً من يد أحد الجنود وضرب الشاب قرب رأسه. احتجَّ لي هينغ والآخرون: "لا تضربه. ولنسمعنَّ ما يقول".

قال الشاب: "لا تغضب، يا خالي. دعني أتكلم. منذ آخر مرة جئت فيها وأنا في الخامسة عشرة من عمري مرت عشر سنوات، أليس كذلك؟ في الليلة الماضية، وأنا في الطريق، رشفت كأساً من الخمرة عدة مرات. ولم أجرؤ على الحضور إليك سكران فمضيت إلى المعبد أغفو فيه قليلاً أول الأمر. ومن أين لي أن أعرف أنهم سيقبضون علي من دون أن أنطق بكلمة واحدة؟ لست لصاً".

هاجمه تشاو غاي بالعصا مرة أخرى، وصاح: "حيوان. بدلاً من أن تحضر إلي مباشرة تروح تسرف في الشراب على الطريق. أما كان في مقدورك الحصول على ما تريد في منزلي؟ لقد جلبت العار عليَّ!".

قال لي هينغ مهدئاً: "خفف عنك، يا قائد السجن. فابن أختك ليس من اللصوص. ثارت في نفسي الشكوك عندما وجدت مثل هذا الشاب الضخم مستغرقاً في النوم في المعبد. وفوق هذا كله، فأنا لم أره من قبل قط. وهكذا قبضت عليه وجئت به إلى هنا. ما كنت لأرتكب مثل هذه الفعلة لو عرفت أنه ابن شقيقتك".

وأمر لي هينغ رجاله أن يحلوا وثاق الشاب ويسلموه إلى قائد السجن. فصدعوا بالأمر فوراً. وترجى الشرطي قائلا: "لو كنت أعرف أنه ابن شقيقتك لما حصل ما حصل. أرجو ألا تكون غاضباً. يجب أن نعود أدراجنا الآن".

قال تشاو غاي: "رويدك، أيها الشرطي. أرجو أن تعود إلى مزرعتي الصغيرة. فلديَّ ما أقول لك". رجع لي هينغ برفقة قائد السجن إلى الردهة. فناوله تشاو غاي عشر أوقيات من الفضة. وقال: "هذه هدية صغيرة. أيها الشرطي. أرجو ألا تستخف بها لصغرها".

- لكن، لا ضرورة لذلك.

- إن لم تقبلها، فسأعرف أنك غير راض عني.
- إذا كنت على مثل هذا الكرم، يا قائد السجن، فلا يطاوعني الرفض. سأظهر لك امتناني في يوم من الأيام.
أمر تشاو غاي الشاب أن يشكر لي هينغ. ثم وزَّع قطعاً فضية على الجنود ورافقهم حتى بوابة المزرعة. ألقى لي هينغ التحية على قائد السجن ورحل مع جنوده.
صحب تشاو غاي الشاب إلى المبنى الخلفي وأعطاه ثياباً وقبعة. استفسره عن اسمه وموطنه الأصلي.
- خادمك من أسرة ليو، واسمي تانغ. وموطن أجدادي في ولاية لوتشو الشرقية. وبسبب هذه الوحمة القرمزية على جانب صدغي عرفت من طفولتي بالشيطان أحمر الشعر. وقد قمت بهذه الرحلة خصيصاً كيما أنهي إليك فرصة نادرة للثراء، يا أخي قائد السجن. في الليلة الماضية غلبني النوم وأنا سكران في المعبد، فقبض علي أولئك الأوغاد وقيدوني. ومن حسن حظي أني التقيتك هذا اليوم أخيراً. أرجوك أن تجلس، يا أخي، وأن تقبل مني سجداتي الأربع.
بعدما أنهى الشاب تقديم آيات الاحترام، خاطبه تشاو غاي قائلا: "تقول إن لديك فرصة نادرة تريد إطلاعي عليها. فما هي؟".
- كان خادمك، منذ طفولته، دائم الترحال من مكان إلى مكان. فزرت أماكن عديدة وعقدت صداقات مع كثيرين من الشجعان. وعلى الرغم من كثرة سماعي لهم وهم يرددون اسمك ويتحدثون عنك، يا أخي، فما كنت أحلم أن يتاح لي الاجتماع بك. وقد التقيت رجالاً من شرقي الجبال وشمالي النهر خدموا تحت إمرتك، يا أخي. وهذا ما دعاني إلى التلهف على إخبارك بما يلي. إن لم يكن ههنا من متطفلين، ففي ودي أن أحدثك صراحة.
- تستطيع الحديث في حرية. فليس ههنا غير رجالي المخلصين.
- يقال إن الحاكم ليانغ في دامينغ، العاصمة الشمالية، اشترى جواهر وأشياء فنية تساوي مائة ألف ربطة نقدية لإرسالها إلى حميه تساي الوزير الأول في العاصمة الشرقية كهدية بمناسبة ذكرى مولده. وقد أرسل في السنة الماضية هدايا بالقيمة ذاتها، فاستولى عليها أشخاص مجهولون على الطريق. وحتى اليوم لم يتم القبض عليهم. وابتاع الحاكم ليانغ هذه السنة أيضاً ما يساوي مائة ألف من الجواهر والتحف الفنية. ووقع الاختيار على الطريق التي سيجتازونها. وينبغي تسليمها قبل موعد الذكرى المصادف في الخامس عشر من الشهر القمري السادس. وفي رأيي المتواضع، إنّ هذه الأشياء شريت بأموال غير نظيفة. وليس هنالك ما يؤاخذ المرء عليه إن تم الاستيلاء عليها. وكل ما ينبغي أن نفعله هو أن نرسم خطة لمصادرتها في الطريق. والسموات تدري أن هذا العمل لن يكون جريمة أبداً! ولطالما سمعت أنك رجل حقيقي، يا أخي، وأن لك مهارة لا تجارى في استخدام السلاح. وعلى الرغم من أني رجل غير موهوب، ولكنني أعرف شيئاً من هذه الأمور. فأنا لست قادراً على التعامل مع أربعة أو خمسة رجال في وقت واحد وحسب، بل إذا كنت أحمل رمحي بيدي فأنا لا أعرف الخوف ولو هاجمني ألف رجل على صهوات الجياد! فإذا كنت لا تحتقرني، يا أخي، فأنا

راغب في مدّ يد العون. ما رأيك في هذه الفكرة؟

- رائعة! ينبغي أن نخطط في حذر. ولكنك وصلت من توِّك، ولا ريبة أنك منهك القوى. فلم لا تأخذ قسطاً من راحة في غرفة الضيوف؟ سأفكر في الموضوع قليلاً. ونزيده بحثاً في ما بعد.

أمر تشاو غاي خادماً أن يقود ليو تانغ إلى غرفة الضيوف. رافقه إليها وانصرف.

تساءل ليو تانغ في سره:

- لا ريبة أني مررت بأوقات عصيبة. ومن حسن الحظ أن تشاو غاي كان قادراً على إنقاذي من هذا المأزق. لقد اعتقلني ذلك الوغد لي هينغ على أني لص مشتبه فيه وعلقني الليل بطوله في الرافدة الخشبية! ولا يعقل أن يكون ذلك النذل قد ابتعد كثيراً. فلم لا أحمل سلاحاً وألحق به؟ في مقدوري أن ألقي بأولئك الأنذال جميعاً أرضاً، وأسترد لتشاو غاي فضته، وأنفث من حدة غضبي في الوقت ذاته. إنها فكرة رائعة!

خرج ليو تانغ من المنزل، واختطف مطرداً عن صف الأسلحة وخرج من المزرعة. وبينا هو متجه جنوباً كانت السماء قد انغمرت بالضوء. وما أسرع أن لمح الشرطي وجنوده يسيرون في خطوات بطيئة. غذَّ من سيره وراءهم، وصاح:

- أيها الشرطي، قف حيث أنت!

أجفل لي هينغ، والتفت، فرأى ليو تانغ يقترب منه ممدود الخطى ومطرده في يده. فاختطف مطرداً من أحد الجنود، وصاح:

- ماذا تبغي، أيها الوغد؟

- إذا كنت تعرف ما يفيدك، فأعد إلي أوقيات الفضة العشر! ولعلي عندها أصفح عنك!

- لقد أهدى إليَّ خالك هذه النقود. فما علاقتك أنت؟ لولاه لكنت قد أنهيت حياتك اللئيمة! يا لوقاحتك في طلب فضتي؟

- أنا لست لصاً. ولكنك علقتني في الرافدة الخشبية الليل بطوله، وسلبت من خالي عشر أوقيات من الفضة! إن لم تفعل ذلك فسوف أهرق دمك على الفور!

أشار لي هينغ بإصبعه غاضباً إلى ليو تانغ، وشتم قائلا:

- أيها اللص الكذاب الحقير! أنت عار على أسرتك! أيها الكلب الوقح!

- يا مبتزّ أموال الناس! أتجرؤ على إهانتي؟

- أنت قاطع طريق حتى مخ عظامك! لا ريبة أنك توقع تشاو غاي في ورطة! أنت قاطع طريق قلباً وقالباً! لا تحسبنَّ أنك قادر على انتزاع الفضة مني!

- سأسوي أمري معك في الحال! ولوَّح بمطرده، وهجم على لي هينغ.

رفع الشرطي مطرده ضاحكاً وانطلق لملاقاته. واشتبكا في وسط الطريق، وتقاتلا أكثر من خمسين جولة من دون أن ينتصر أحدهما على الآخر.

حين أدرك الجنود أن لي هينغ عاجز عن هزم ليو تانغ راحوا يقتربون من الشاب. وعندها انفتحت بوابة سور منزل قريب، وبرز منها رجل يحمل سلسلة نحاسية طويلة في يده صائحا:

- أنتما، أيها الرجلان الشجاعان هنالك، كفى! كنت أراقبكما منذ فترة طويلة. رويدكما برهة! فلديَّ ما أخاطبكما به! لوَّح بالسلسلة بين المتخاصمين. فأخفض كل منهما مطرده، وقفز خارج دائرة القتال، ووقف منتظراً.

كانت للرجل طلعة العالم، وكان يرتدي قبعة أسطوانية الشكل تصل إلى حاجبيه، وعباءة من الكتان لها حاشية سوداء يربطها عند الخصر حزام بلون الشاي. وقد لبس في قدميه جوربين أبيضين وحذاء حريرياً. وكان وجهه الوسيم الصقيل مزيناً بلحية طويلة. إنه وو يونغ الحرباء، وكان معروفاً بالمعلم. وكان لقبه البوذي المعلم متفاقم الضوء. وكانت أسرته، منذ أيامها الأولى، تعيش في هذه الأرجاء.

كانت سلسلته في يده، فأشار إلى ليو تانغ، وقال:

- قف حيث أنت، أيها الشاب. فيم قتالك مع الشرطي؟

حملق ليو تانغ فيه:

- هذا ليس من شأنك، أيها المعلم!

قال لي هينغ:

- سأقول لك السبب، أيها المعلم. قبضنا الليلة المنصرمة على هذا الوغد نائماً عارياً في معبد لينغوان فاصطحبناه إلى مزرعة قائد السجن تشاو. وحين علمنا أنه ابن أخت قائد السجن حررناه كرمى لخاطر خاله. ودعانا قائد السجن إلى تناول قليل من الخمرة وقدم لنا شيئاً من الهدايا. فعمد هذا الوغد، من دون علم خاله، إلى اللحاق بنا وطلب أن أعيد إليه الهدية. فكيف ترى هذا القول؟

همس وو يونغ في سره:

- عرفت تشاو غاي منذ أن كنا صغيرين. وكان في أغلب الأوقات يناقش قضاياه الخاصة معي، أنا معروف من جميع أقربائه. ولكنني لم أسمع شيئاً عن ابن الأخت هذا. وفضلاً عن ذلك، فالعمر غير صحيح. ثمة شيء مغلوط هنا. يجب أن أوقف هذا القتال أولاً. ومن ثمة أستطيع أن أستوضح الأمر منه.

خاطب الشاب قائلا:

- لا تكن عنيداً على هذا الغرار، أيها الشاب الضخم. فأنا وخالك صديقان حميمان. وأعرف أنه على صلة طيبة مع هذا الشرطي. فإن استرددت الهدية الصغيرة التي قدمها له، فمعنى هذا أنك تهينه. هلا احترمته قليلاً! سأخاطب خالك حول هذا الموضوع في ما بعد.

قال ليو تانغ:

- أيها المعلم، أنت تجهل الوقائع. فخالي لم يقدمها له عن طواعية. فهذا النذل اغتصب الفضة منه اغتصاباً! إن لم يعدها إليَّ، فأقسم إني لن أعود!

قال لي هينغ: "سأعيدها إن طلبها قائد السجن بنفسه. ولن أعطيك إياها!".

- لقد قبضت عليَّ وادعيت أني لص! واغتصبت فضة خالي. كيف تجرؤ على رفض إعادتها إليَّ!

- الفضة ليست فضتك! ولن أعيدها! لن أفعل!

- ينبغي أن تسأل هذا المطرد في يدي إن كنت ستعيدها أم لا!

قال وو يونغ: "لقد تقاتلتما زمناً طويلاً من دون أن ينتصر أحدكما على الآخر. فإلى متى تودان الاستمرار في القتال؟". صاح ليو تانغ: "إن لم يرجع تلك الفضة فسأقاتله إلى أن يبقى واحد منا على قيد الحياة!".

وصاح لي هينغ في غضب: "لو كنت خائفاً منك لاستدعيت أحد رجالي يمدني بالعون. ولكنني رجل قادر على الصمود وحدي! سأقطعنَّ رأسك بنفسي!".

نفخ ليو تانغ صدره في اهتياج ثائر:

- لنر كيف تفعل ذلك!

وهجم عليه. خطا الشرطي متقدماً بدوره، ملوِّحاً بسلاحه، وضارباً الأرض بقدميه. وكاد الرجلان أن يشتبكا في قتال جديد. فدفع وو يونغ نفسه بينهما، لكن تحذيراته ضاعت هباء. لوح ليو تانغ بمطرده، مترقباً فرصة يهاجمه فيها. وحمل لي هينغ بدوره مطرده على أهبة الاستعداد، وهو يشتم الشاب شتائم لا حصر لها ولا عدّ.

في تلك اللحظة أعلن الجنود: "هذا قائد السجن قادم".

التفت ليو تانغ ومد بصره. فرأى تشاو غاي، وثوبه المحلول ملقى على كتفيه يركض على طول الطريق. صاح هاتفاً: "لا تهج أعصابك، أيها الجرو الصغير".

ضحك وو يونغ: "شكراً للسماوات لقدوم قائد السجن. وحده يستطيع أن يوقف الاثنين عند حدهما".

اندفع تشاو غاي لاهثاً: "فيم تقتتلان؟".

أجاب لي هينغ: "طاردني ابن شقيقتك، ومطرده في يده، وطلب مني فضتي. فقلت: لن أعطيك إياها! سأعيدها إلى قائد السجن نفسه. ولا علاقة لك بهذا الموضوع. فصاولني خمسين جولة، ثم جاء هذا المعلم وأوقفنا".

قال تشاو غاي: "ذلك الحيوان الصغير! لم أعرف شيئاً عن هذا الأمر. كرمى لخاطري، أيها المفوض، أرجو أن تتابع طريقك. سأمرُّ بك في يوم آخر وأقدم اعتذاري".

قال لي هينغ:

- عرفت أن هذا الوغد الصغير يخرِّف. ولم أحمل الأمر على محمل الجدِّ. يؤسفني أنك اضطررت للسير هذه المسافة الطويلة.

وألقى التحية على قائد السجن، وانصرف في سبيله. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

والتفت وو يونغ إلى تشاو غاي قائلا:

- من حسن الحظ أنك جئت، وإلا كان سيقع شيء على جانب من الخطورة. ابن أختك هذا مرموق مقاتل رائع! كنت أراقب الأمور من خلف السور. إن لاعب المطرد الشهير لي هينغ لم يستطع أن يلمسه مطلقاً. كان يدافع عن نفسه طوال الوقت. لو تقاتلا عدة جولات أخرى لقضى على

حياته من دون ريب. وهذا ما دفعني إلى الخروج وإيقافهما. من أين جاء ابن شقيقتك؟ أنا لم أره في مزرعتك.

- كنت على وشك أن أرسل إليك رسالة أدعوك فيها إلى منزلي المتواضع لنتسامر حين تحققت أن ليو تانغ رحل، وأن مطرداً فقد من منصته. وأخبرني أحد رعاة البقر أنه شاهد فتى ضخماً يحمل مطرداً ويندفع جنوباً. فلحقت به على الفور. رائع أنك أوقفت القتال. أرجوك أن تأتي إلى منزلي المتواضع. ثمة موضوع أريد نصيحتك بشأنه.

رجع وو يونغ أول الأمر إلى جناحه وعلّق السلسلة في غرفة المطالعة. وقال للمالك: "حين يجيء طلابي أخبرهم أن المعلم مشغول اليوم. قل لهم أن يعتبروا هذا النهار إجازة". وأغلق بابه وقفله، ثم سار وتشاو غاي وليو تانغ إلى مزرعة قائد السجن.

قادهما تشاو غاي مباشرة إلى الغرفة الداخلية في المبنى الخلفي حيث جلسوا على مقاعد المضيف والضيوف.

سأل وو يونغ: "من هذا الرجل، يا قائد السجن؟".

- إنه فتى شجاع في أخوية الرجال الشجعان، واسمه ليو تانغ، من أسرة تعيش في ولاية لوتشو الشرقية. جاء خصيصاً ليعلمني بفرصة نادرة للثراء. أغفى البارحة، وهو سكران، في معبد لينغوان، فاعتقله لي هينغ وأحضره إلى هنا. وادعيت أنه ابن شقيقتي، فتمكنت من إنقاذه. وقد قال لي إن الحاكم ليانغ من دامينغ، العاصمة الشمالية، اشترى جواهر وتحفاً فنية تساوي مائة ألف ربطة نقدية لإرسالها إلى حميه تساي الوزير الأول في العاصمة الشرقية كهدايا بمناسبة ذكرى مولده. وسرعان ما تمرُّ هذه الأشياء في هذه الطريق. وباعتبار أن هذه الهدايا شريت بنقود قذرة، فليس هنالك ما يمنع من الاستيلاء عليها. وتصادف أن اقتراحه تطابق مع حلم رأيته في الليلة الماضية. رأيت في ما يرى النائم أن سبعة نجوم من الدب الأكبر حطَّت على حافة سقفي. واستحالت نجمة أخرى صغيرة فوق المقبض إلى شعاع من النور. فقلت في نفسي: أن تكون هنالك نجوم تشعُّ فوق منزلك الخاص، فلا بدَّ أنها نذير سعد، وعزمت على دعوتك هذا الصباح، أيها المعلم، كيما استوضحك ماذا أفعل.

ابتسم وو يونغ: "ظننت أن هنالك شيئاً غير مألوف حول الظهور الفجائي للأخ ليو، واستطعت أن أخمِّن سبعة أو ثمانية أعشار الأمر. اقتراحه رائع، ولكن هنالك أمراً واحداً؛ لا يمكن أن نحظى بالنجاح إذا اشترك في العملية جمع غفير من الناس. وإذا كان العدد قليلاً فقد نفشل أيضاً. وعلى الرغم من أن لديك عدداً من الخدم ههنا، فليس بينهم من هو مناسب للعمل. وفي الوقت ذاته، هل نستطيع ثلاثتنا أن ننجز الهدف الذي إليه نسعى؟ وعلى الرغم من أنك، يا قائد السجن، وأنت، أيها الأخ ليو، شخصان مرموقان، فالجواب على ذلك هو النفي. إن ما نحتاج إليه هو سبعة أو ثمانية من الرجال الشجعان. وأكثر من هذا العدد لا فائدة ترجى منه".

سأل تشاو غاي: "هل هذا يعني عدد النجوم التي رأيتها في الحلم؟".

أجاب وو يونغ: "إن حلم الأخ ليس حلما عاديا. أيعني هذا أن هنالك في الشمال أناسا يمكن أن يمدونا بالعون؟". واستغرق في التفكير لحظات وقد عبس وجهه، واستوعب الأمر، فشرح قائلا:

"أجل هناك! أجل هناك!".

قال تشاو غاي: "إن كنت تعرف عددا من الشجعان تثق فيهم، أيها المعلم، فاستدعهم للانضمام إلينا لتنفيذ هذه المهمة".

ضم وو يونغ إصبعين إلى بعضهما بعضا وهمس بضع كلمات في هدوء. ونتيجة لذلك صار رجال صالحون في الضفة الشرقية قطاع طرق شجعاناً، وفي قرية اللوح الحجري أضحت قوارب الصيد سفنا حربية. ولا ريبة أن قوادهم يستطيعون أن يتحدثوا عن جميع الأشياء في المساء وعلى الأرض، وأن يحولوا الأنهار ويعكروا البحار. مِن هم الرجال الذين أوصى بهم وو يونغ الحرباء؟

إن أحببت معرفة ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الخامس عشر

وو يونغ يقنع الأشقاء الثلاثة يوان بالمشاركة؛
وغونغسون شنغ يغدو واحداً من الصالحين السبعة

قال وو يونغ: "في ذهني ثلاثة رجال، رجال شجعان ماهرون في استخدام السلاح، يندفعون في النار والماء، ويقفون صفاً واحداً في الحياة والممات. يجب أن نشركهم معنا إذا أردنا أن يكتب النجاح لمغامرتنا".

سأل تشاو غاي: "ماذا يفعل هؤلاء الثلاثة؟ ما هي أسماؤهم، وأين يعيشون؟".

- إنهم أشقّاء، ويعيشون في قرية اللوح الحجري قرب بحيرة ليانغتشان في ولاية جينشو. هم من الصيادين، رغم أنهم يقومون بين حين وحين بقليل من أعمال التهريب في البحيرة. اسم عائلتهم يوان. والأخ الثاني مشهور بلقب الشيطان العملاق الشرس. والأخ الخامس يدعى المتهور الطائش. والأخ السابع يلقب بالشيطان المجسَّد. وقد أقمت مرة في قريتهم على مدى سنوات فتعرفت إليهم. وعلى الرغم أنهم لم يتلقوا أية ثقافة فهم شديدو الإخلاص لرفاقهم، وفتيان طيبون شجعان، وهكذا غدونا أصدقاء حميمين. لم تقع عيناي عليهم منذ أكثر من سنتين. إذا استطعنا إشراكهم فسيكتب النجاح لمشروعنا الكبير.

- سمعت عن الأشقاء يوان، غير أننا لم نلتق. وقرية اللوح الحجري لا تبعد عن هنا أكثر من حوالى مائة لي. فلم لا نرسل من يستدعيهم للحديث؟

- لن يحضروا. يفضل أن أذهب بنفسي وأستخدم لساني الماكر في إغرائهم على الانضمام إلينا.

- فكرة رائعة! متى تذهب؟

- ليس لدينا وقت نهدره عبثاً. إذا انطلقت من هنا هذه الليلة عند الحراسة الثالثة فسأصل إلى هنالك قبيل الظهيرة.

- رائع.

أمر تشاو غاي أحد الخدم أن يحضر طعاماً وخمرة.

قال وو يونغ: "لقد تنقلت بين العاصمة الشمالية والعاصمة الشرقية، ولكني لا أعرف أي طريق ستتخذ قافلة الهدايا. هل يمكن أن نطلب إلى الأخ ليو أن يذهب إلى العاصمة الشمالية فوراً ويكتشف على وجه الدقة متى تخرج القافلة، والطرق التي ستمرُّ بها؟".

قال ليو تانغ: "سأرحل الليلة".

قال وو يونغ: "لا تعجّل. فذكرى يوم مولده تقع في الخامس عشر من الشهر القمري السادس.

واليوم هو مطلع الشهر الخامس. أمامنا قرابة أربعين أو خمسين يوماً بعد. انتظرا عودتي من عند الأشقاء يوان، وعندها يستطيع الأخ ليو الرحيل".

قال تشاو غاي: "حسن جداً. سيقيم الأخ ليو هنا في مزرعتي".

كفانا هذراً. فقد عاقروا الخمرة زمناً. وعند الحراسة الثالثة نهض وو يونغ، واغتسل، ومسح فمه، وأفطر باكراً، وأخفى كمية من الفضة في ثيابه، ولبس صندله المصنوع من القش. ورافقه تشاو غاي وليو تانغ إلى بوابة المزرعة. سافر وو يونغ الليل بطوله ووصل إلى قرية اللوح الحجري قبيل الظهيرة.

ولأنه كان يعرف المكان فهو لم يحتج للسؤال عنه، بل مشى مباشرة إلى بيت الأخ الثاني. كانت حبال مراسي عدد من قوارب الصيد الصغيرة مربوطة إلى عمود عند حافة المياه، وشبكة ممزقة يتمُّ تجفيفها فوق سور متداعٍ. وبين الهضبة وضفة النهر تقوم عشرة أكواخ من القش.

اقترب وو يونغ ونادى: "هل الأخ الثاني في البيت؟".

خرج الأخ الثاني يوان على الفور، تعصب رأسه قطعة من قماش منشفة ممزقة، ويرتدي ثياباً عتيقة. كان عاري القدمين. حين وقع بصره على وو يونغ أسرع فحياه في احترام قائلا: "يا معلم، أية ريح طيبة قذفت بك إلينا؟".

- ثمة قضية صغيرة جئت خصيصاً أبحثها مع الأخ الثاني.

- ما هي؟ أخبرني.

- مرت سنتان على مغادرتي هذه القرية. وأنا الآن مدرس في منزل رجل ثري. وهو راغب في إقامة وليمة ويريد حوالى دستة من سمك الشبوط الذهبي تزن كل واحدة منها حوالى أربعة عشر أو خمسة عشر كاتياً. وأحتاج إلى معونتك.

ضحك الأخ الثاني: "لنشربنَّ عدداً من أقداح الخمرة أولاً".

- هذا ما جئت من أجله.

- هنالك عدد من الحانات على الطرف الآخر من البحيرة. سأنقلك إلى هناك.

- حسن. يطيب لي أن أتحدث مع الأخ الخامس أيضاً. أتعرف ما إذا كان في منزله؟

- سنذهب إليه.

هبطا إلى ضفة النهر، وأرخيا رباط أحد القوارب الصغيرة عن عموده. وساعد الأخ الثاني وو يونغ في ذلك، ثم أخذ مجذافاً كان ملقى تحت شجرة وشرع يجذّف.

وفيما هما خارجان من البحيرة لوَّح الأخ الثاني بيده على حين فجأة ونادى: "هنالك، أنت أيها السابع، هل رأيت الخامس؟". عندها لمح وو يونغ القارب الصغير الذي يبرز من وسط القصب. كان الأخ السابع يستظل من وقدة الشمس بقبعة سوداء من القش لها حافة عريضة. كان يرتدي صداراً من القماش من صنع منزلي. أجاب الرجل الأصغر، وهو لا يبرح يجذف: "وفيم تريده؟".

صاح وو يونغ: "أيها الأخ السابع، جئت أتحدث إليك هنا".

- كيف؟ هذا أنت، يا معلم! اعذرني لأني لم أرك منذ زمن بعيد!

- تعال خذ شراباً معي ومع الأخ الثاني.

- كنت أتوق إلى ارتشاف الشراب معك، يا معلِّم، ولكن الظروف لم تسنح بذلك.

وانزلق القاربان، أحدهما يتبع الآخر عن قرب، على صفحة البحيرة. وسرعان ما وصلا إلى ضفة مرتفعة محاطة بالمياه فوقها سبعة أو ثمانية أكواخ من القش.

صاح الأخ الثاني: "أماه، هل الأخ الخامس في البيت؟".

أجابت المرأة:

- من يدري أين يكون. إنه لا يعمل في الصيد، بل هو يقامر كل يوم ويخسر كل درهم معه. جاء يترجى أن أعطيه دبابيس شعري ليراهن عليها في القمار.

ضحك الأخ الثاني وجذف مبتعداً. وصاح الأخ السابع من القارب وراءه: "لا أعرف لماذا يخسر على الدوام. حظه سيّئ في ما يخال لي. وليس هو الوحيد الذي لا يربح، فقد خسرت كل ما لديَّ، أنا الآخر".

همس وو يونغ في فكره: "هذا يتواءم وخططي تماماً".

اتجه القاربان ناحية مركز سوق قرية اللوح الحجري. وبعيد ساعة من الزمن بدا لأنظارهم جسر من لوح خشبي وحيد، إلى جانبه رجل يحمل ربطتين من العملة النحاسية ويحلُّ وثاق قارب.

أعلن الأخ الثاني: "إنه الأخ الخامس".

كان هنالك منديل ممزق يلتف حول رأسه بصورة خليعة، وقد دسَّ وراء أذنه زهرة رمان، وارتدى ثوباً قديماً مفتوحاً يكشف عن وشم نمر أزرق مرسوم على صدره. وكان بنطاله الأملس مربوطاً عند وسطه بمنشفة مربعة الرسوم.

حياه وو يونغ: "أيها الأخ الخامس، هل ربحت؟".

- حسن، هذا هو المعلِّم من دون ريب! مضت سنتان منذ رأينا بعضنا آخر مرة. كنت أراقب قاربيكما من فوق الجسر.

أوضح الأخ الثاني: "ذهبنا إلى بيتك أولاً، فقالت أمنا إنك ذهبت إلى القرية تلعب القمار. وهكذا جئنا إلى هنا. لنأخذنَّ المعلم إلى تلك الحانة المطلة على المياه".

فك الأخ الخامس قاربه ووثب إليه. واختطف المجذاف، وبدفعة واحدة أطلقه مرصوفاً وراء القاربين الآخرين.

لم يمرَّ زمن طويل حتى وصلوا إلى جوسق بجانب خليج صغير من أزهار اللوتس. فربطوا مراكبهم الصغيرة وساعدوا وو يونغ في الصعود إلى الضفة والوصول إلى الحانة. في الغرفة المقابلة للبحيرة اختاروا منضدة من خشب اللك الأحمر ودككاً من الخشب ذاته.

قال الأخ الثاني: "نرجو أن تصفح عن خشونتنا نحن الأشقاء الثلاثة، يا معلم، وتجلس إلى رأس المنضدة".

قال وو يونغ: "أوه، لن أفعل ذلك". صاح السابع: "إذاً، اجلس أنت هناك، يا أخي، ودع المعلم يجلس على مقعد الضيوف. وأنا والخامس نجلس أولاً".

قال وو يونغ: "الأخ السابع لا يبرح متهوراً". أخذ الأربعة مقاعدهم إلى المنضدة، وطلبوا جرة من الخمر. أحضر الخادم أربع طاسات كبيرة، وأربعة أزواج من عصي الطعام، وأربعة أطباق من الخضراوات بالإضافة إلى جرة الخمرة، ووضعها على المنضدة.

سأل السابع: "هل تريدون شيئاً من اللحم مع الخمرة؟".

قال الخادم: "لحم ثور مذبوح حديثاً. طري مثل الكعك المحلّى!".

قال الثاني: "سنأخذ عشرة كاتيات في شرحات كبيرة". قال الخامس: "لا تسخر من طعامنا البسيط، أيها المعلم. فنحن لا نقدم لك غداء جيداً".

- أنا من يطلب الصفح لأنني أزعجتكم.

قال الثاني: "نرجو ألا تقول مزيداً في هذا الموضوع". وطلب إلى الخادم أن يصب الخمر. وفي هذه الأثناء جيء بطبقين كبيرين من شرائح اللحم وضعا على المنضدة، فاستحث الأشقاء وو يونغ على تذوقه.

جرَّب عدة شرحات. وحين لم يعد في مقدوره أن يأكل مزيداً ارتمى مضيفوه على ما تبقى من الطعام مثل الذئاب والنمور، وابتلعوا كمية كبيرة.

سأل الخامس أخيراً: "ما الذي جاء بك إلى هنا، يا معلم؟".

قال الثاني: "المعلم يدرس الآونة لدى عائلة ثرية. وهو في حاجة إلى دستة من سمك الشبوط الذهبي تزن كل واحدة منها قرابة خمسة عشر كاتياً، وقد قام بهذه الرحلة خصيصاً يسألنا العون".

قال السابع: "في المألوف نستطيع أن نؤمن لك أربعين أو خمسين من ذلك الوزن من دون عناء، فكيف لا نؤمن دستة. ولكن، في هذه الأيام يصعب العثور على شبوط من زنة عشرة كاتيات".

قال الخامس: "لقد قمت برحلة طويلة، يا معلم، وقد نتدبر أمر الحصول على دستة من زنة خمسة أو ستة كاتيات".

- أحضرت بعض الفضة معي. ولا أبالي بمقدار الثمن. ولكني لا أستفيد من السمك الصغير. يجب أن تزن كل واحدة من أربعة عشر إلى خمسة عشر كاتياً.

قال السابع: "ليس هنالك مكان نتمكن من اصطيادها فيه. كما أننا لا نستطيع أن نضمن سمكاً من زنة خمسة أو ستة كاتيات مما وعد الخامس به، قد يتطلب منا ذلك عدة أيام. هنالك دلو فيه قليل من السمك الحي الصغير في قاربي. لنأكلن قليلاً منه ونحن هنا".

ذهب إلى القارب وعاد ببعض السمك. وكان يزن قرابة ستة أو سبعة كاتيات. أخذه السابع إلى المطهى وأعدَّه بنفسه. ثم عاد به في ثلاثة أطباق ووضعه على المنضدة.

- ذق قليلا من هذا السمك، يا معلم.

أكل أربعتهم فترة من زمن، وشرعت السماء تسودُّ شيئاً فشيئاً.

خاطب وو يونغ نفسه قائلا: "لا أستطيع الحديث بصراحة في هذه الحانة. عليَّ أن أقضي الليل مع واحد منهم. وسنرى ما يحدث عندئذ". قال الثاني: "الوقت يتأخر. اقض ليلتك عندي، أيها المعلم. وفي مقدورنا أن نناقش الموضوع غداً".

قال وو يونغ: "القدوم إلى هنا لم يكن هيناً بالنسبة إليَّ. أما الآن، من حسن السعد، أننا التقينا جميعاً. أرى أنكم لن تبيحوا لي أن أسدد ثمن هذه الوقعة من الطعام، ولكني سأقضي الليل في منزل الأخ الثاني، وقد جئت معي بقليل من الفضة. فهل أطلب منكم أن تبتاعوا جرة من الخمر وقليلاً من اللحم في هذه الحانة، ودجاجتين في القرية؟ الليلة نسكر معاً. فما رأيكم؟".

قال الثاني: "لا يمكن أن نسمح لك بدفع الحساب، يا معلم! سنتولى نحن الأمر. لا يخطرنَّ لك في بال أنا لن نتدبر الأمر". قال وو يونغ: "ينبغي أن أسدّد الحساب بنفسي. فإن لم تتركوني أدفع، فسوف أرحل".

قال السابع: "حسن، يا معلم، إن كنت تصرُّ فسنشاركك الطعام بسرور. ونتولى نحن الأمر في مرة أخرى". قال وو يونغ في شيء من المديح: "الأخ السابع مستقيم ويتحدث في صميم الموضوع". وأعطاه أوقية من الفضة وطلب إليه أن يستعير جرة من المشربي ويملأها خمرة، وأن يشتري بالإضافة إلى ذلك عشرين كاتياً من لحم البقر الطازج والمطبوخ ودجاجتين سمينتين.

قال الثاني: "خذ ما أنا مدين لك به من هذا المبلغ أيضاً".

فقال المشربي: "حسن، حسن".

غادر الرجال الأربعة الحانة، وهبطوا إلى قواربهم، وخزنوا اللحم والخمرة في القمرات، وحلوا حبال المراسي وجذفوا إلى منزل الأخ الثاني. أمام الباب وثبوا إلى الضفة وربطوا الحبال حول العمود، ثم حملوا اللحم والخمرة إلى مؤخر البيت وجلسوا. ونادى الثاني طالباً مصباحاً. وحده بين الأشقاء الثلاثة كانت له زوجة. فلم يكن الخامس أو السابع متزوجاً.

جلس المضيف والضيوف في الجوسق الخلفي المطل على المياه. وذبح السابع الدجاجتين وأخبر زوجة أخيه والصبي الصغير الذي تبنته والأخ الثاني أن يطبخوهما. وعند الحراسة الأولى كانت الخمرة والطعام على المائدة.

نزولاً عند إلحاح وو يونغ شرب الأخ السابع والشقيقان الآخران عدة جولات. ومرة أخرى عاود الحديث في موضوع شراء السمك: "كيف لا تملكون في هذه المنطقة الحجم الذي أبتغيه".

أجاب الأخ الثاني: "إذا أردت الحقيقة، يا معلم، فلن تجد مثل هذا السمك إلا في بحيرة ليانغشان. بحيرة اللوح الحجري صغيرة وضيقة، ولا يمكن أن تنتج مثل هذا النوع من السمك".

- ولكن المسافة ليست بعيدة من هنا إلى البحيرة.

سأل وو يونغ: "فيم تزفر، يا أخي؟".

وتدخل الأخ الخامس: "أنت لا تعرف ما حدث، يا معلِّم. معيشتنا كلها كانت تعتمد على بحيرة ليانغشان، ولا نجرؤ على الذهاب".

- بدهي أن الحاكم لا يمكن أن يمنعكم من الصيد في مكان على مثل هذه الضخامة؟

- الحاكم! لو كان ملك الجحيم نفسه لما استطاع إلى منعنا سبيلاً!

- إذاً، فيم خوفكم من الذهاب؟

- ألم تسمع بذلك؟ سنشرح لك الأمر.

- لم أسمع شيئاً.

وتدخل السابع: "إنها قصة مؤلمة. ولكن عصابة من اللصوص تسيطر على البحيرة، وأفرادها لا يسمحون لأحد بالصيد".

قال وو يونغ: "ليست لدي أية فكرة عن وجود لصوص هنالك. نحن لم نسمع شيئاً حول هذا الموضوع حيث نقيم". قال الثاني: "يرأس العصابة رجل فشل في امتحانات الخدمة المدنية يدعى وانغ لون، ويسمونه العازب المكتسي البياض. والذي يليه في القيادة يدعى دو كيان ناطحة السحاب. والثالث هو سونغ وان حارس السحب، ويأتي بعدهم تشو غوي تمساح الأرض الجافة الذي يدير حانة عند مدخل ليجيا كجاسوس ويجمع المعلومات. وليست له أية أهمية على الإطلاق، ولكنهم ضموا إليهم الآن ملازماً جديداً، وهو فتى شجاع كان مدرباً للسلاح في الحرس الإمبراطوري في العاصمة الشرقية؛ لين تشونغ رأس النمر. وهو من أبرع الرجال في السلاح. وهؤلاء الرجال يقودون عصابة من ستمائة أو سبعمائة لص ينهبون البيوت ويسلبون المسافرين. ونحن لم نذهب إلى البحيرة للصيد منذ أكثر من عام كامل. لقد أحاطوا بها إحاطة كاملة، وقطعوا مورد رزقنا. والحديث عن هذا يؤلمنا أشد الألم!".

قال وو يونغ: "هذه أخبار جديدة بالنسبة إليَّ. لم لا ترسل السلطات من يلقي القبض عليهم؟".

قال الخامس: "كل ما تعرف السلطات أن تفعله هو أن تضايق الناس وتؤذيهم. أول ما فعله رجالها حين وصلوا إلى الضواحي هو أنهم التهموا أغنام الفلاحين ودجاجهم وبطهم. وينبغي عليك أن ترشوهم كي يرحلوا عنك. وكيف يقاوم أولئك الأوغاد ضد اللصوص! أما رجال الشرطة فما استطاع أحد منهم الاقتراب. كانوا يبولون في سراويلهم عندما تأمرهم السلطات بالقبض على اللصوص. والتطلع إلى واحد منهم يهرق الخوف في أفئدتهم!".

وأعقب الثاني: "نحن لا نستطيع أن نصطاد سمكة كبيرة بهذه الوسيلة. ولكننا، على أقل تقدير، نتجنب دفع الضرائب والقيام بأعمال السخرة". قال وو يونغ: "وهكذا، فإن الحياة تغمرها السعادة بالنسبة إلى أولئك اللصوص!". أضاف الخامس: "إنهم لا يخافون السماء أو الأرض، ولا السلطات أيضاً. المال، والثياب الفاخرة، والخمرة، واللحم؛ هذه الأمور يتقاسمونها في ما بينهم. فلم لا تغمرهم السعادة إذاً؟ نحن الأشقاء الثلاثة نضيع مواهبنا. أواه، لو كنا نستطيع أن نكون مثلهم!".

غمرت الغبطة جوانح وو يونغ. فهمس في سره: "هذا يتفق وخطتي الاتفاق كله".

قال الأخ السابع: "لا يحيا الإنسان أكثر مما قُدر له، والعشب يجب أن يموت في الخريف. ونحن نقضي أيامنا نصطاد السمك. لو أتيح لنا أن نأخذ مكانهم يوماً واحداً لملأت الغبطة جوانحنا!".

سخر وو يونغ قائلا: "من يريد أن يكون مثلهم؟ فهم لا يفعلون أكثر من ارتكاب جرائم يعاقب عليها بخمسين أو سبعين جلدة من قضيب خيزراني. إنهم يضيعون شجاعتهم هباء. فإذا ألقي القبض عليهم وزجَّ بهم في السجن، فلن يلوموا غير أنفسهم".

قال الأخ الثاني: "السلطات تقف عاجزة حيالهم. فأفرادها أغبياء فرغت رؤوسهم من كل

شيء. وهنالك آلاف من الرجال ممن ارتكبوا جرائم رهيبة يتجولون هنا وهنالك أحراراً مثل الهواء! ونحن الأشقاء تعيسون بمصيرنا. يطيب لنا أن نغادر هذا المكان بكل سرور إن عثرنا على من يقودنا". قال الخامس: "لقد فكرنا كثيراً. فنحن لا نقلُّ عن الآخرين مهارة. لكن، من تراه على دراية بمهارتنا؟".

سأل وو يونغ: "إن كان هنالك مثل هذا الرجل، فهل توافقون حقاً على الذهاب؟".

أكد له السابع: "سنرمينَّ بأنفسنا في النار ونخوضنَّ في الأنهار. وإن توفرت لنا السعادة ولو يوماً واحداً، إذاً نموت والبسمة على ثغورنا!".

خاطب وو يونغ نفسه قائلا: "في ذهن هؤلاء الثلاثة شيء مرسوم. وسوف أكتشفه شيئاً بعد شيء".

ألحَّ على الأشقاء الثلاثة أن يعبوا مزيداً من الخمرة مستوضحاً: "أتؤاتيكم الشجاعة على الذهاب إلى البحيرة والقبض على أولئك اللصوص؟".

قال السابع: "إن كنا نستطيع ذلك فممن نطلب المكافأة؟ وفضلاً عن هذا فالرجال الشجعان في كل مكان سيوبخوننا".

قال وو يونغ: "لديَّ فكرة صغيرة: إن لم تكونوا قادرين على الصيد، فلم لا تنضمون إلى عصابة اللصوص؟".

قال الثاني: "تحدثنا في هذا الموضوع عدة مرات، يا معلِّم. ولكننا سمعنا أن الرجال تحت إمرة وانغ لون العازب المكتسي البياض، ويقولون جميعاً إنه شحيح قابض اليد، ولا يجيد استخدام الرجال. وقد ضايق لين تشونغ، مدرب السلاح من العاصمة الشرقية، مضايقة شديدة أول ما وصل إليه. ووانغ لون سريع الاهتياج بخصوص الذين ينضمون إليه. وباعتبار أن الأمور على هذا الغرار طرحنا الفكرة من أذهاننا".

عقَّب السابع: "كان الأمر سيختلف لو أنه كبير القلب ومغرم بنا مثلك، يا معلِم".

نبر الخامس: "لو كان الأمر على هذا الغرار لكنا قد ذهبنا إلى هناك من زمن بعيد. لو كان وانغ لون مثلك ما كنا ههنا اليوم. كنا سنموت في سبيله من دون أي خوف".

- أنا لا أستأهل مثل هذا المديح. في شاندونغ وخبي اليوم كثرة من الرجال الشجعان تستطيعون الانضمام إليهم.

قال الثاني: "لا ريبة في ذلك. ولكننا، نحن، لم نصادفهم".

- ما رأيكم في قائد السجن تشاو؟ هل تعرفونه؟ إنه يقيم في مقاطعة يونتشنغ على الضفة الشرقية.

قال الخامس: "أنت تقصد تشاو غاي، الملك السماوي الذي قام بنقل البرج؟".

- هذا هو!

قال السابع: "سمعنا عنه من دون ريب. ولكننا على الرغم من أننا لا نبعد عن حيث يقيم أكثر من مائة لي لم يسعفنا الحظ بالاجتماع به".

- كيف هذا؟ مثل ذلك الرجل المستقيم السخي!

أوضح الثاني: "لم تلجئنا الضرورة مرة للذهاب إلى الضفة الشرقية".

قال وو يونغ: "كنت خلال هذه السنوات القليلة الماضية أدرِّس في مدرسة قروية قريبة من المزرعة. وسمعت أنه يترقب شحنة ثمينة جداً. وجئت خصيصاً للسؤال إن كنتم ترغبون في الانضمام إليه لسلبها على الطريق".

قال الخامس: "لا. إذا كان رجلاً نبيلاً متصدقاً فلن نعكر له قضاياه. فإن أخوية الرجال الشجعان بأسرها ستسخر بنا".

- ما كنت أعرف أنكم ، أيها الإخوة، على مثل هذه المبادئ الصارمة. أرواحكم نبيلة! سأروي لكم القصة الحقيقية إن كنتم ترغبون في مدّ يد العون. أنا أعيش الآن في مزرعة تشاو. وقد وصلت إليه أخبار شهرتكم، فأرسلني إلى هنا للحديث معكم.

قال الثاني: "نحن الثلاثة شرفاء إلى أبعد حد، فإذا كان قائد السجن قد أرسلك في عمل خاص على جانب من الأهمية يمكن أن نؤدي فيه فائدة، فإننا نعرض مساعدتنا ولو كلفتنا حياتنا! نقسم بذلك على حثالة هذه الخمرة! لتضربنّا البلايا، ويقتلنّا المرض الخبيث إن كنا كاذبين!".

رفع الخامس والسابع يديهما إلى مؤخر رقبتيهما، قائلين: "نحن نبيع هذا العمود من الدم الحار إلى الرجل الذي يعرف ثمنه!".

قال وو يونغ: "أؤكد لكم أنني لا أحدثكم على فعل شيء خبيث. هذا عمل ضخم! فإن تساي، الوزير الأول في العاصمة الشرقية، سيحتفل بذكرى مولده في الخامس عشر من الشهر القمري السادس. وصهره ليانغ، حاكم دامينغ، في العاصمة الشمالية، أنفق مائة ألف ربطة نقدية لشراء هدايا من الذهب والجواهر. وقد حمل إلينا الخبر فتى شجاع يدعى ليو تانغ. طلب إليّ أن أقوم بدعوتكم إلى مؤتمر تخططون فيه، مع رجال شجعان، كيف نستطيع أن نكمن للقافلة في بعض تجاويف الجبل، وأن نحصل على ثروتها المريبة، وأن نمتع أنفسنا البقية الباقية من حياتنا. وكان عليَّ التظاهر بأنني أريد أن أشتري سمكاً كيما تتاح لي الفرصة للحديث. هل توافقون على هذه الفكرة؟".

أوضح الخامس: "رائعة!". والتفت إلى السابع: "ماذا قلت لك؟".

وثب السابع على قدميه: "هذا ما كنت أتوق إليه في حياتي بأسرها! إنها تدغدغ عواطفي! متى نبدأ؟".

- سوف ننطلق إلى مزرعة قائد السجن تشاو غداً وقت الحراسة الخامسة!

وبانت الفرحة في وجوه الأشقاء الثلاثة.

مرَّ الليل. في بكور اليوم التالي نهض الرجال وفطروا، وأعطوا بعض التعليمات الطفيفة إلى أسرهم، وانطلقوا من قرية اللوح الحجري برفقة وو يونغ ميممين شطر الضفة الشرقية. ساروا طوال النهار، ووصلوا أخيراً إلى مشارف مزرعة تشاو. كان قائد السجن وليو تانغ ينتظران خارجاً تحت شجرة خرنوب خضراء. وحين قاد وو يونغ الأشقاء الثلاثة قدماً حياهم تشاو وليو بحرارة.

صاح قائد السجن: "الإخوة يوان المتفوقون! أرى أنكم جديرون حقاً بهذه الشهرة التي عرفتم

بها! لنتكلم في الداخل!".

دخل الرجال الستة إلى المزرعة، وذهبوا إلى حجرة خلفية، وجلسوا كمضيف وضيوف. روى وو يونغ القصة. سرَّ تشاو كثيراً، فأمر خدمه أن يذبحوا خروفاً، وأن يهيئوا أوراقاً للتضحية.

كانت سيماء تشاو توحي بالنبالة، فتحدث في حرية، فافتتن الأشقاء الثلاثة به وقالوا: "سرورنا الأعظم في لقاء الرجال الشجعان، هؤلاء أنتم هنا، جميعاً! كان يمكن ألا تتاح لنا فرصة الاجتماع لو لم يُحضرنا وو يونغ إلى هنا!". كانوا مسرورين حقاً!

أكل الجميع وتحدثوا نصف الليل. ونهضوا في صبيحة اليوم التالي ودرجوا إلى الحجرة الخلفية، حيث وضعت أمامها نقود ورقية ذهبية وأحصنة ورقية وبخور وشموع، والخروف الذي طبخ الليلة الماضية. فاغتبط الآخرون للإخلاص الذي أظهره تشاو.

أقسم الجميع هذا القسم المهيب:

- الحاكم ليانغ في العاصمة الشمالية يؤذي الناس. وبالنقود التي استباها منهم ابتاع هدايا يرسلها إلى تساي، الوزير الأول في العاصمة الشرقية، بمناسبة ذكرى مولده. وهذه ثروة جمعت بصورة شريرة. إذا كان لأي واحد منا نحن الستة هدف أناني، فلتطمسه السموات والأرض طمساً! ولتكن الآلهة شهوداً علينا!

بعد الانتهاء من القسم أحرقوا النقود الورقية.

أنهوا الاحتفال وشربوا الخمرة. استأذن أحد الخدم وقال:

- هنالك كاهن تاوي عند البوابة يريد رؤية قائد السجن بخصوص توزيع الحبوب عليه".

عنَّفه تشاو قائلا:

- كيف تعوزك اللباقة على هذا الغرار؟ ألا تراني أشرب الخمرة مع ضيوفي هنا؟ أعطوه أربعة أو خمسة مكاييل من الأرز واصرفوه. فيم تزعجونني؟

- عرضت عليه الأرز فرفضه. إنه يلحُّ على رؤيتك.

- لعله يظن الكمية غير كافية. أعطه مكيالين أو ثلاثة أخرى. قل له إن قائد السجن يحتسي الخمرة مع ضيوفه ولا وقت لديه.

انصرف الخادم، ورجع بعد لحظات قصيرة.

- قدمت للكاهن ما أمرت به فرفض الرحيل. يقول إنه تاوي شريف، وإنه لم يحضر في طلب الحسنات، بل لرؤيتك.

- أنت لا تعرف كيف تخاطبه. قل له إني مشغول اليوم، وأخبره أن يأتي في وقت آخر فأدعوه على الشاي.

- قلت له ذلك، ولكنه أجاب:

"لم أحضر في طلب المال أو الحبوب، بل لأني سمعت أن قائد السجن رجل شهم. وأنا تواق إلى لقائه".

- يا لك من رجل مزعج! فيم لا تستطيع تدبير مثل هذا الموضوع! إن لم يكن راضياً بكمية

الحبوب زيدوها ثلاثة أو أربعة مكاييل أخرى. وكفوا عن مضايقتي بهذا الخصوص. كنت سأقابله لولا انشغالي. ولم لا؟ أما الآن فتخلصوا منه، ولا تزعجوني مرة أخرى".

لم يكد الخادم ينصرف حتى علت وراء بوابة المزرعة ضجة صاخبة. واندفع خادم آخر معلناً: "لقد ثارت ثائرة ذلك الكاهن، وصرع عشرة من رجالنا!".

هبَّ تشاو غاي على قدميه مربد السيماء، وقال: "عذراً للحظة، يا إخوتي. يحسن أن أنهي هذا الأمر". وغادر الحجرة، وذهب إلى البوابة.

هنالك، تحت شجرة الخرنوب الخضراء، كان ثمة كاهن وسيم الملامح، قوي العضل، غريب الطلعة يتصارع مع مهاجميه. كان يصيح: "أنتم لا تعرفون الرجل الطيب من مجرد رؤية وجهه!".

هتف تشاو: "هوِّن عليك، يا سيدي الكاهن. جئت تسأل عن قائد السجن تشاو، ولعلك في ذلك تطلب مساعدة. وقد أعطوك أرزاً. ففيم هذه الثورة الطاغية؟".

ضحك الكاهن: "أنا لا ألتفت إلى الحبوب أو المال. ومائة ألف ربطة نقدية لا تعني شيئاً بالنسبة إليَّ. إني أبحث عن قائد السجن لأن لديَّ ما أخبره به. وهؤلاء الأجلاف لا يصغون إلى حديث العقل، بل راحوا يشتمونني. وهذا ما دفعني إلى الغضب".

- هل تعرف قائد السجن؟

- سمعت عنه. ولم يشاهد أحدنا الآخر.

- أنا هو ذلك الرجل المتواضع. ماذا تريد أن تخبرني، يا سيدي الكاهن؟

- أستميحك عذراً، يا قائد السجن. أرجو أن تتفضل بقبول تحياتي.

- أنت كثير التهذيب. ألا تدخل المزرعة وتتناول قليلاً من الشاي؟

- لك جزيل شكري.

دخل الاثنان المزرعة، وحين رأى وو يونغ والآخرون الكاهن مقترباً انسرقوا من مسرح الرؤية في هدوء.

قاد تشاو غاي الكاهن إلى الحجرة الخلفية. وبعدما تناولا قليلاً من الشاي قال الكاهن: "هذا المكان غير صالح للحديث. هل هنالك مكان آخر ندلف إليه؟".

رافقه قائد السجن إلى غرفة صغيرة، وجلسا مرة أخرى على مقعدي المضيف والضيف. واستفسر تشاو قائلا:

- هل أسألك عن اسمك، يا سيدي، من أين أنت؟

- اسم عائلتي غونغسون، واسمي شنغ. وقد دعيت في سلك البوذية بالصفاء الوحيد. ولدت في ولاية جيتشو، وأحببت منذ طفولتي اللعب بالسلاح، وغدوت بارعا في العديد من أدواته، فأطلق علي الناس لقب الجنتالمان غونغسون شنغ. وقد درست أيضا التقاليد البوذية. ولقدرتي على استحضار الريح وإهطال المطر، وركوب الضباب، وتفريق الغيوم، خلعوا علي في أخوية الرجال الشجعان لقب التنين في الغيوم. ولطالما سمعت بشهرة قائد السجن تشاو من الضفة الشرقية في مقاطعة يونتشنغ، ولكن حسن الطالع لم يمتعني برؤيته. وفي سبيل شرف التعرف إليك، ومن أجل

تعريفك بنفسي، أحب أن أقدم إليك مائة ألف ربطة نقدية من ذهب ولآلئ. وأتساءل ما إذا كان قائد السجن يقبل بها؟".

ضحك تشاو: "أنت تقصد شحنة هدايا ذكرى المولد من العاصمة الشمالية؟".

انشده الكاهن: "وكيف عرفت ذلك؟".

- خمنت الأمر تخميناً. يخال لي أننا نتحدث حول الموضوع ذاته؟

- إنها ثروة حقيقية! وهي فرصة ثمينة حرام أن تضيع. وكما يقول المثل: "إن فشلت متى سنحت لك الفرصة، فلا تتحسر عليها في ما بعد". كيف خطرت في بالك هذه الفكرة، يا قائد السجن؟

في تلك اللحظة، اندفع رجل إلى الغرفة، وقبض على غونغسون شنغ من مقدمة ثوبه. وصاح: "عمل رائع! أنت تتحدى قوانين الإمبراطور والآلهة. كيف تجرؤ على تدبير مثل هذه الخطط؟ كنت أصغي إليك منذ زمن بعيد!".

استحال وجه غونغسون شنغ بلون الطين. ولا شك أنه قبل أن يرسم خطته كان ثمة شخص يقف وراء النافذة يسمع كل شيء، وكان في مقدوره أن يهلكه. من كان، في نهاية المطاف، ذلك الرجل الذي قبض على غونغسون شنغ؟

إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السادس عشر

يانغ تشي يخفر قافلة بضائع ثمينة؛
ووو يونغ يستولي بالخداع على هدايا ذكرى مولد

كان الرجل الذي قبض على غونغسون شنغ هو وو يونغ، وضحك تشاو غاي: "لا تثر نقمته، يا معلم. اسمح لي أن أعرِّفه بك". وتبادل الاثنان الانحناءات.

قال وو يونغ: "منذ زمن بعيد طارت لغونغسون شينغ شهرة بين الرجال الشجعان. لم أتوقع أن تتاح لي فرصة الاجتماع به هذا النهار".

أبان تشاو غاي: "هذا العالِم يدعى وو يونغ الحرباء".

قال غونغسون: "عدد كبير في أخوية الشجعان تحدثوا عن اسمك الشهير. من كان يظن أن الحظ السعيد يتيح لي أن ألتقيك هنا، في مزرعة قائد السجن! لا ننكر أنه بفضل شهامته ونخوته يتكاثر الشجعان من جميع الأرجاء على بابه".

قال تشاو غاي: "ثمة عدد آخر من الرجال في الداخل أريدك أن تلتقيهم. أرجو أن ترافقني إلى الحجرة الخلفية". دخل الرجال الثلاثة، وقدَّم قائد السجن ليو تانغ والأشقاء يوان إلى غونغسون شنغ. قالوا:

- هذه المناوشة لا يمكن أن تكون حادثا. أرجوك، أيها الأخ تشاو، أن تجلس إلى رأس المائدة. فاحتج تشاو غاي: "أنا مضيف فقير لا أملك مشهيات أقدمها لضيوف أعزاء. فكيف تؤاتيني جرأة على ذلك؟". قال وو يونغ: "أرجوك، يا أخي. أصغ إليَّ: أنت أكبرنا سناً. يجب أن تجلس في ذلك المقعد". عندها وافق تشاو غاي على الجلوس في المكان الأول، وجلس وو يونغ في المكان الثاني، وغونغسون في المكان الثالث، وليو تانغ في المكان الرابع، ويوان الثاني في المكان الخامس، ويوان الخامس في المكان السادس، ويوان السابع في المكان السابع. واحتسوا الخمرة معاً احتفاء بلقائهم، ثم مدت المائدة من جديد، ووضع عليها مزيد من الخمور والأطعمة الشهية. ومرة أخرى أقبلوا على الشراب.

قال وو يونغ: "لقد حلم قائد السجن أن سبعة نجوم من الدب الأكبر حطّت على حافة سقفه، وهؤلاء نحن سبعة، يدفعنا هدف مستقيم واحد في أذهاننا، نقابل بعضنا بعضاً ههنا في هذا النهار. مؤكد أن هذا الأمر نذير خير من السماء؛ في مقدورنا الاستيلاء على القافلة الثمينة في يسر. أقترح أن يكتشف الأخ ليو تانغ الطريق التي ستتبعها القافلة. لقد تأخر الوقت كثيراً هذا النهار، فهل يتفضل بالرحيل غداً صباحاً؟".

قال غونغسون: "ليس هذا ضرورياً. فأنا أعرف الطريق. القافلة ستأتي من ناحية الطريق الكبيرة

فوق سلسلة جبال الأرض الصفراء".

قال تشاو غاي: "على مسافة عشرة ليات إلى الشرق منها تقوم قرية آنلو. وفي هذه القرية يعيش متسكع يدعى باي شنغ معروف باسم فأر ضوء النهار. بحث عني مرة فأسعفته بقليل من المال".

أوضح وو يونغ: "الدب الأكبر يطلق ضوءاً أبيض. ولا بدّ أنه يقصد ذلك الرجل. في مقدورنا أن نستخدمه". سأل ليو تانغ: "ولكننا أبعد ما نكون عن سلسلة جبال الأرض الصفراء. فأين نكمن في الانتظار؟". قال وو يونغ: "عند باي شنغ. سنكون هنالك في مأمن. ولدينا أعمال أخرى نكلفه بها أيضاً". سأل تشاو غاي: "هل نلجأ إلى خطط لطيفة أم قاسية؟".

ضحك وو يونغ: "فكرت في وسيلة. والأمر كله متوقف على ردود فعل القافلة. سنقابل القوة بالقوة والمكر بالمكر. ولديَّ خطة لا أعرف إن كنتم توافقون عليها".

وشرح خطته.

ضرب تشاو غاي الأرض بقدمه مغتبطاً، وقال: "رائع! لا يدعونَّ إلى العجب أنهم أسموك الحرباء! أنت أفضل من تشوغه ليانغ. خطة رائعة!".

قال وو يونغ: "دعونا لا نتحدث عن ذلك بعد الآن. فللجدران آذان، والناس يمرون بالنوافذ، كما يقول المثل القديم. ينبغي أن نحفظ السرّ بيننا فقط".

التفت تشاو غاي إلى الأشقاء يوان قائلاً: "أرجو أن تعودوا أنتم الثلاثة. وارجعوا حين يحين الأوان. أيها المعلم وو يونغ، تابع تدريسك على مألوف العادة. وفي مقدور غونغسون وليو تانغ أن يقيما هنا في الوقت الراهن".

دارت كؤوس الخمرة بينهم حتى انسدل الظلام، ثم توزعوا للراحة في حجرات الضيوف.

في صباح اليوم التالي، عند فترة الحراسة الخامسة، هبوا من مراقدهم وتناولوا طعام الفطور. وقدم تشاو غاي للأشقاء يوان ثلاثين أوقية من الفضة الناصعة، قائلاً: "إنها تذكار بسيط مني. أرجو ألا ترفضوها".

رفض الأشقاء الثلاثة أول الأمر، ولكن وو يونغ ألحَّ:

- لا ينبغي أن نجابه التعاطف الصدوق بالرفض. قبلوا أخذ الفضة أخيراً، فرافقهم الجميع إلى خارج المزرعة. وهمس وو يونغ بتعليماته في آذانهم: "تأكدوا من العودة في الوقت المناسب".

غادر الأشقاء يوان ورجعوا إلى قرية اللوح الحجري. وأبقى تشاو غاي كلاً من غونغسون شنغ وليو تانغ في مزرعته. وصار وو يونغ يتردد إليها للتباحث في الأمور.

لنختصرنَّ الحديث، ونعودنَّ أدراجنا إلى الحاكم ليانغ في دامينغ، في العاصمة الشمالية. فبعدما اشترى الهدايا التي تساوي مائة ألف ربطة نقدية اختار تاريخاً لإرسالها إلى وجهتها.

في اليوم التالي، وبينا هو جالس في الحجرة الخلفية، سألته زوجته السيدة تساي: "متى سترحل الهدايا، يا صاحب السعادة؟".

- غداً أو بعد غد. فقد اشتريت كل ما فيه رغبت. ثمة شيء واحد يثير هواجسي.

- ما هو؟

- اشتريت في العام الماضي بما يساوي مائة ألف من الجواهر والتحف الفنية أرسلتها إلى العاصمة الشرقية، ونظراً لأني لم أحسن اختيار الرجال قبض عليها اللصوص على الطريق. وإلى هذا اليوم لم يعتقل اللصوص. في الوقت الراهن لا أعرف من هو كفؤ لهذا العمل بين رجال حاشيتي. هذا ما يبلبل خاطري.

أشارت السيدة تساي إلى رجل يقف في أسفل الدرج قائلة: "أما قلت مراراً إن هذا الرجل مرموق إلى أبعد الحدود؟ لم لا تأتمنه على هذه المهمة؟ في مقدوره أن يقوم بهذا العمل خير قيام".

كان الرجل الذي أشارت إليه يانغ تشي، الحيوان أزرق الوجه. ودبت الفرحة في حنايا ليانغ. فاستدعى يانغ تشي إلى الردهة. قال: "لقد نسيتك. إذا استطعت تسليم الهدايا سالمة نيابة عني أرقيك في منصبك".

ضم يانغ تشي يديه في احترام قائلاً: "إذا كانت هذه رغبات سعادتك، فما علي سوى أن أطيع. كيف ستكون القافلة، وممن تتألف، ومتى تنطلق؟".

- سآمر حكومة الولاية أن تزودني بعشر عربات واسعة، وأرسل عشرة رجال رسميين من حرس المدينة لخفارتها. وستحمل كل عربة علماً أصفر كتب عليه "قافلة هدايا ذكرى ميلاد الوزير الأول". وفضلاً عن ذلك سأجعل جندياً من الأقوياء يتبع كل واحدة من العربات. وفي مقدورك الانطلاق في غضون الأيام الثلاثة القادمة.

- الحقيقة أنني لست راغباً عن القيام بهذه المهمة. ولكنني لا أستطيع القيام بأعبائها. أرجو أن تعهد بها إلى شخص شجاع وماهر.

- أنا راغب في ترفيعك. وفي نيتي أن أبعث مع وثائق الهدية رسالة إلى الوزير الأول توصي بك توصية خاصة. وسوف تعود حاملاً كتاباً في منصب رسمي. ففيم ترفض الذهاب؟

- لقد سمع خادمك أن الهدايا سرقت في السنة الماضية، يا صاحب السعادة، وأن اللصوص لم يتم القبض عليهم بعد. هنالك أعداد غفيرة منهم على الطريق هذه الأيام. ومن هنا حتى العاصمة الشرقية ليس ثمة طرق مائية، بل ينبغي أن نذهب على طريق برية. وجبل الدراق المزهر، وجبل المظلة، وجبل التنينين، وجبل الذهب الأرجواني، وسلسلة جبال الأرض الصفراء، ووادي الرمال البيض، ومخاضة السحابة الوحشية، وغابة الصفصاف الأحمر؛ هذه جميعها ينبغي اجتيازها، وكلها تعجُّ بقطاع الطرق. وليس هنالك من تاجر يجسر على عبورها وحيداً. وإذا عرف اللصوص أننا نحمل حمولة ثمينة، فلا مندوحة من أن يستولوا عليها. ونكون كمن يضيع حياته سدىً. هذا هو السبب الذي يحملني على عدم الذهاب.

- في هذه الحال سأزودك بخفارة عسكرية ضخمة.

- حتى ولو أعطيتني ألف رجل لن تحل هذه المشكلة، يا صاحب السعادة. أولئك الأوغاد سيهربون حالما يسمعون بهجوم اللصوص.

- أتقصد أن هدايا ذكرى المولد لن يتم تسليمها؟

- إن كنت تتفضل فتجيبني إلى سؤالة واحدة أتولى المهمة.

- إذا كنتُ سأعهد بها إليك عن ثقة، فلم لا أفعل؟ أخبرني بأمنيتك.

- في رأيي، يا صاحب السعادة، لا ينبغي أن نستخدم أية عربة. لفَّ الهدايا في حاويات محمولة، على شكل بضائع، تحمل على الكتفين. ولنستخدم الجنود العشرة الأقوياء كحمالين. وأحتاج من بعد إلى رجل واحد إضافي، يرتدي ثياب التجار، ويرافقني بصفته مساعداً لي. سنسافر في هدوء آناء الليل وأطراف النهار حتى نصل إلى العاصمة الشرقية ونسلّم البضاعة. هذا هو السبيل الذي نستطيع بواسطته إيصالها سالمة.

- سأنفذ ما تطلبه. سأكتب رسالة توصي بك توصية خاصة كيما يعهد إليك منصب رسمي.

- لك عميق امتناني، يا صاحب السعادة، على لطفك النبيل.

في ذلك النهار عينه عبأ يانغ تشي الحمولة واختار جنوده، واستدعي في اليوم التالي إلى الحجرة الخلفية. جاءه الحاكم ليانغ وسأله: "متى تتأهب للرحيل، يا يانغ تشي؟".

- في ودِّنا أن ننطلق غداً صباحاً، يا صاحب السعادة. فأنا أنتظر بعض الوثائق الرسمية.

- لدى امرأتي بعض الهدايا لقريباتها من النساء. وأريدك أن تحملها معك أيضاً. أخشى ألا تكون عارفاً طريقك حول مقر الوزير الأول، ولذلك سأبعث برفقتك الوكيل الأول شيه ونقيبين من الحرس.

- إذاً، لا أستطيع الذهاب، يا صاحب السعادة.

- لماذا؟ فقد جرى وضع الهدايا جميعاً في حاويات.

- لقد عينت مسؤولاً عن عشرة أحمال من الهدايا، ووضع الجنود تحت إمرتي. فإذا أصدرت أمري بالسير باكراً فلسوف يستجيبون للأمر باكراً. وإذا قلت في ساعة متأخرة فسيسيرون في ساعة متأخرة، ويقضون الليل حيث آمرهم، ويستريحون حين آمر بالراحة. وستكون الأوامر مرتبطة بي. ولكنك تود الآونة أن تبعث الوكيل الأول والنقيبين. والوكيل واحد من رجال السيدة، فهو زوج مرضعتها العجوز حين كانت طفلة في دارة الوزير الأول. فإذا لم يعمل بأوامري على الطريق فماذا أفعل؟ ورغم هذا فإن اللوم ينصب عليَّ في حال فشل الرحلة.

- هذا أمر هين. سآمره مثلما آمر النقيبين أن ينصاعوا لأوامرك أنت.

- في هذه الحال يقبل خادمك هذه المهمة. ولتعاقبني أقسى عقاب إن فشلت.

سرَّ الحاكم وقال: "لم أتخذ قراري بترقيتك عبثاً. فأنت رجل شديد الحساسية". واستدعى الوكيل الأول شيه والنقيبين إلى الردهة وأعطاهم أوامره الرسمية: "لقد قبل الرائد يانغ تشي مهمة تسليم الهدايا - أحد عشر حملاً من المجوهرات والتحف الفنية - إلى دارة الوزير الأول في العاصمة الشرقية. وهو مسؤول عنها مسؤولية كاملة. وعليكم أنتم الثلاثة أن ترافقوه في هذه المهمة. وحده خلال الرحلة من يقرر ما إذا كنتم تنطلقون باكراً أم عشية، وأين تمضون الليل، ومتى تستريحون. فلا يغضبنَّه أحد منكم. فأنتم لا تجهلون رغبة السيدة. كونوا حذرين وحصفاء، وانطلقوا سريعاً وارجعوا سريعاً، ولا ترتكبوا أية أخطاء".

وعد الوكيل الأول الشيخ بإطاعة تعليمات الحاكم.

قبيل انبلاج فجر اليوم التالي صُفت الأحمال خارج الردهة الرئيسة. وحمل الوكيل الأول والنقيبان دفعة أخرى من التحف الثمينة، فصار المجموع أحد عشر حملاً. وانتدب أحد عشر جندياً من الأشداء وتنكروا في ثياب الحمالين. وارتدى يانغ تشي قبعة عريضة الحافة وثوباً من الحرير الأسود. وانتعل في قدميه صندلاً من خيوط القنب مشدوداً برباط من خيوط الحبال، وحمل عند وسطه سيفاً، وفي يده مطرداً.

وارتدى الوكيل الأول بدوره زي أحد التجار. وتنكر النقيبان في ثياب اثنين من الخدم. وحمل كل منهما في يده مطرداً وقضيباً من شجر الروطان. وقدم الحاكم الوثائق الرسمية، وتناول الجميع كفايتهم من الطعام، وخرجوا من أمام الردهة. راقب الحاكم ليانغ الجنود يرفعون حمالاتهم على أكتافهم وينطلقون قدما. وغادر يانغ تشي والوكيل الأول الشيخ والنقيبان والجنود، وعددهم الإجمالي خمسة عشر رجلاً، المبنى الحكومي. ودلفوا خارجين من بوابة العاصمة الشمالية واتجهوا إلى الطريق العامة ميممين شطر العاصمة الشرقية.

كان الوقت منتصف الشهر القمري الخامس، وكانت السموات صافية، ولكن السير شاق في تلك الحرارة اللافحة. ولما كان يانغ تشي عازماً على تسليم الهدايا في وقتها إلى الوزير الأول في الخامس عشر من الشهر القمري السادس، فقد طلب إلى رجاله أن يغذوا السير بسرعة. وخلال الأسبوع الأول من مغادرة القافلة للعاصمة الشمالية راحت تنطلق في كل يوم قبيل إشراقة الفجر للاستفادة من برودة الصباح، وتستريح عند انتصاف النهار.

في اليوم السادس أو السابع ضمرت أجساد المسافرين من جراء الاستراحات القصيرة على مسافات بعيدة، وبدأت الطريق تدرج صوب الجبال. فأخذ يانغ تشي يصدر أوامره بالسير بعيد شروق الشمس ولا يتوقف حتى ساعة متأخرة بعيد انتصاف النهار. وكان الحراس الأحد عشر يحملون أحمالاً ثقيلة، والطقس شديد الحرارة. فصار السير يتطلب جهداً ومشقة. وحيثما عثروا على غابة يتوقون إلى الراحة، ولكن يانغ تشي يحثهم على مواصلة السير. فإذا توقفوا، فهو لا يكف عن قذفهم بأبشع أنواع السباب، وما أكثر ما كان يجلدهم بسوطه لإرغامهم على مواصلة الطريق.

وراح النقيبان، على الرغم من حملهما الخفيف، يجهدان للتنفس ويتأخران وراء القافلة. فيروح يانغ تشي يوبخهما بقسوة: "كيف تكونان على مثل هذه الغباوة؟ أنا المسؤول عن هذه المهمة. وبدلاً من أن تساعداني على ضرب الحمالين تروحان تجران أقدامكما في الخلف. ليست هذه الطريق مكاناً للتباطؤ!".

قال النقيبان:

– ليس في نيتنا أن نسير متباطئين. ولكننا لا نستطيع التحرك بسرعة في هذه الحرارة. كنا ننطلق منذ أيام باكراً حين كان الجو بارداً، ولكننا نسير الآن في أشدّ ساعات القيظ في النهار. ألا تستطيع معرفة الفرق بين شروط السير الحسنة والوعرة.

– يا لسخافة حديثكما! كنا قبل عدة أيام في منطقة سهلة من البلاد، أما الآن فنحن نجتاز منطقة حساسة. يجب أن نسير فيها في وضح النهار. من تؤاتيه جرأة على السير في الظلمة؟

صمت النقيبان، وهمسا في سرهما: "هذا الوغد يشتم الناس حين يطيب له!".

حثَّ يانغ تشي القافلة على السير، ومطرده في يده، وسوطه في اليد الأخرى. وجلس النقيبان تحت شجرة ينتظران الوكيل الأول أن يلحق بهما.

شَكَوا للرجل الشيخ قائلين: "ذلك المجرم يانغ تشي ليس أكثر من رائد في حرس صاحب السعادة. فبأي حقّ يتصرَّف بمثل هذه السطوة؟".

- أمرنا الحاكم ألا نثير سخطه. وهذا ما دفعني إلى الصمت. لقد وجدته، أنا نفسي، أقسى من أن يحتمل خلال الأيام القليلة المنصرمة. لكن، يجب أن نتذرَّع بالصبر!

- كان سعادته راغباً في أن يشعره بالارتياح. وأنت هو الوكيل الأول. فلم لا تأخذ الأمور في يديك؟

فكرر الوكيل الأول القول: "يجب أن نتمسك بالصبر حياله". ساروا في ذلك النهار إلى ساعة متأخرة من العشية، ثم توقفوا في حانة. كان العرق يتصبب من الحمالين الأحد عشر. فخاطبوا الوكيل الأول، وهم يزمجرون ويتنهدون: "من سوء حظنا أن نكون جنوداً من الحرس، وأن نذهب حيثما تصدر الأوامر إلينا بالذهاب. لقد ظللنا خلال اليومين الماضيين نحمل هذه الأحمال الثقيلة في الشمس الحارقة بدلاً عن أن نسير حين يكون الجو رطباً. ونحن نتعرض للضرب بالسوط من دون سبب على الإطلاق! ونحن من لحم ودم أيضاً. ففيم نعامل بمثل هذه القسوة؟".

خاطبهم الوكيل الأول قائلاً: "كفوا عن الشكوى! حين نصل إلى العاصمة الشرقية سأكافئ كل فرد منكم شخصياً".

فأجابوا: "ما كان لنا أن نتفوه بحرف واحد، أيها الوكيل الأول، لو كان من يأمر علينا شخص من أمثالك".

مرت ليلة أخرى. ونهض الجميع في صباح اليوم التالي قبل انبلاج الفجر، وهم يأملون في مواصلة السير في البكور الندي. ولكن يانغ تشي وثب على قدميه مزمجراً: "أين تحسبون أنكم ذاهبون؟ عودوا إلى أسرتكم! سأنادي عليكم حين يحين موعد الرحيل!".

غمغم الضابطان: "لماذا لا ننطلق باكراً؟! وحين تشتد حرارة النهار ونعجز عن السير فهو ينهال علينا ضرباً!".

زمجر يانغ تشي شاتماً: "ماذا تراكم تعرفون، أيها الأغبياء!". وهددهم بقضيبه الروطاني. فازداد الجنود اشتكاء ورجعوا إلى أسرَّتهم.

أشرقت الشمس، وأنهى الجميع طعام الفطور على مهل، وتابعت القافلة طريقها. وانطلق يانغ تشي عجلان الخطوات، ولم يأذن لأفرادها بالتوقف في أي مكان ظليل. وراح الجنود الأحد عشر يزمجرون ويزمجرون، والنقيبان لا يكفان عن الشكوى إلى الوكيل الأول متذمرين. لم يعطهما الشيخ من جواب، ولكنه في سره شرع يتشكى من قائد البعثة.

لنختصرنَّ الحديث فنقول إنه بعد مسيرة خمسة عشر يوماً لم يبق في القافلة من لا يضمر الحقد ليانغ تشي. وفي اليوم الرابع من الشهر القمري السادس نهض أفراد القافلة في ساعة متأخرة وطبخوا

طعام الفطور في روية، من ثم تابعوا السير. وقبيل الظهيرة غدت الشمس كرة حمراء لاهبة في السماء، حيث لم تكن ثمة غيمة واحدة على مرمى البصر. كانت الحرارة قائظة والقافلة تدرج على طرقات جبلية متعرجة. وراحت الذرى السامقة ترمقهم من كل جانب. وبعيد مسيرة حوالى عشرين لياً تاق الحمالون إلى الاسترخاء في ظلال غابة من شجر الصفصاف. فانهال عليهم يانغ تشي بسوطه. صاح: "تحركوا! سأعلمكم كيف تستريحون قبل أن يحين الأوان!".

رفع الحمالون إليه أنظارهم. ولم يكن في السماء من أثر لأية غيوم. وكانت الحرارة لا تطاق. فاستحثَّ يانغ تشي رجال القافلة على متابعة الطريق في درب حول الجبال.

كان الوقت يقارب الظهيرة، والحجارة ملتهبة تحرق أقدام الحمالين. وكان السير عصيباً.

زمجر الحراس: "مثل هذا النهار الحارق، وأنت تقتلنا!".

جأر يانغ تشي: "أسرعوا. اجتازوا هذه السلسلة أمامنا، وعندها ننظر في الأمر".

أسرع صف من خمسة عشر رجلاً خطواتهم إلى أن اعتلوا السلسلة الشرقية. ثم أنزلوا أحمالهم وطرحوا أنفسهم على الأرض تحت أشجار الصنوبر.

صخب يانغ تشي: "مكان جميل اخترتموه لتستريحوا! انهضوا، عجلوا! يجب أن نتابع طريقنا!".

فأجاب الجنود: "لو قطعتنا إرباً إرباً فلن نتمكن من الحركة خطوة أخرى!".

قبض يانغ تشي على سوطه، وانهال على رؤوسهم وظهورهم. فإذا نهض واحد منهم هوى الآخر على الأرض من جديد. ضاعت جهوده سدىً. في هذا الوقت، تسلق الوكيل الأول والضابطان قمة السلسلة لاهثين وجلسوا تحت صنوبرة يستردون أنفاسهم. ولمح الشيخ يانغ تشي يضرب الحمالين. فقال: "الحرارة أشد من أن تسمح لهم بالسير، أيها الرائد. هلا صفحت عنهم!".

- أنت لا تدرك ماهية الأمور، أيها الوكيل الأول. هذه سلسلة جبال الأرض الصفراء، وهي مأوى أثير لقطاع الطرق. وهم، في أيام السلم، يمارسون السلب والنهب ههنا في وضح النهار، إن لم نتحدث عما يمكن أن يقترفوه من أعمال في مثل هذه الأوقات! والوقوف هنا خطر ما بعده خطر".

وأضاف الضابطان: "هذا ما تردده على الدوام. أنت تلجأ إلى هذه الأقاصيص لإلقاء الذعر في قلوب الناس!".

وألحّ الوكيل الأول: "فليسترح الحمالون قليلاً. سننطلق بعد انتصاف النهار مباشرة. ما رأيك في هذا؟".

فأجاب يانغ تشي: "مستحيل. أين حكمتكم؟ ليس ثمة منزل واحد على مسافة سبعة أو ثمانية ليات من هذه السلسلة. فمن يستريح في ظلال مثل هذا المكان؟".

قال الوكيل الأول: "اذهب مع الحمالين أنت أولاً. سأجلس وأسترد أنفاسي قليلاً هنا".

حمل يانغ تشي قضيبه الروطاني وزمجر في وجه الجنود: "كل من لا يتحرك على الفور فسينال عشرين جلدة من هذا القضيب!".

فاحتجوا صاخبين، وصاح أحدهم: "أيها الرائد. أنت تسير خاوي اليدين، أما نحن فيحمل

كل منا ما يزيد ثقله عن مائة كاتي! وأنت تتصرف وكأننا لسنا كائنات بشرية! لو كان الحاكم نفسه مسؤولاً عن هذه القافلة فقد كان سيأذن لنا على الأقل في التفوه بكلمة أو كلمتين. أما أنت فما فيك ذرة واحدة من الشعور! والأمر الوحيد الذي تجيده هو الثورة والغضب!".

- أيها الحيوان اللئيم! أنت لا تفهم غير لغة الجلد!

وانهال يانغ تشي ضرباً على الرجل بقضيبه الروطاني.

صاح الوكيل الأول: "كفى، أيها الرائد! أصغ إليَّ. التقيت خلال وجودي في دارة الوزير الأول آلافاً من الضباط والموظفين، عاملني كل منهم معاملة مختلفة! لا أرمي من هذا الكلام إلى أن أكون فظاً، ولكنني أرى أن الحاكم يعامل رجلاً صدر بحقه الحكم بالإعدام بشفقة، وجعله رائداً في قوات الحرس؛ وهو منصب أكبر من حبة الخردل. لذا، لا ينبغي أن تكون على مثل هذا الغرور! وإذا كنت أنا مجرد قروي عجوز، إن لم نقل إني الوكيل الأول لدى الحاكم، فإن من واجبك أن تصغي إلى نصيحتي! أن تضرب الحمالين على الدوام؛ ما الاسم الذي تخلعه على مثل هذا التصرف؟".

- أنت من سكان المدن، أيها الوكيل، وقد نشأت في مساكن الموظفين. فما هو مدى معرفتك بصعوبات الطرق ومشاقها!

- لقد وصلت فيما وصلت إلى سيتشوان وغواندونغ وغوانتشي، ولكنني لم أر من يأتي مثل تصرفاتك!

- لا تستطيعنّ أن تقارن هذه الأيام بأيام السلام الخوالي!

- أنت جدير بأن يجزَّ لسانك على مثل هذه الأقوال! ما شأن هذه الأيام؟ وهل لا يخيم السلام فيها؟

فتح يانغ تشي فمه للجواب حين لمح خيالاً يمدُّ رأسه من الغابة المقابلة ويعدو إليهم. صاح: "أما قلت لك؟ أفليس هذا من الأشرار، ذلك الذي تراه هناك!". طوَّح قضيبه من يده. والتقط مطرده ووثب ناحية الغابة صائحا: "أيها الخسيس الوقح! كيف تطاوعك نفسك أن تتجسس على القافلة؟".

وجد في الغابة صفاً من سبع عربات يدوية وستة رجال، شبه عراة، يستظلون. كان أحدهم يحمل على طرف صدغه وحمة قرمزية اللون، واختطف مطرداً حين وقع بصره على يانغ تشي متجهاً ناحيتهم. وصاح الرجال السبعة في ذعر: "أواه!". وهبوا على أقدامهم.

صرخ يانغ تشي: "من أنتم؟". فأجاب السبعة: "ومن أنت؟".

- ألستم لصوصاً؟

- هذا ما ينبغي أن نسألك إياه! نحن تجار صغار. ولسنا نملك نقوداً نعطيك إيّاها!

- وهكذا فأنتم من التجار. وأفترض أنني، أنا الآخر، رجل ثري!

- إذاً، من أنت؟

- أخبرني من أين أنتم أولاً؟

- نحن السبعة من هاوتشو. نحمل بلحاً نبيعه في العاصمة الشرقية. ترددنا بادئ الأمر في عبور هذه الطريق لأن كثيرين يقولون إن قطاع الطرق يسرقون التجار في سلسلة جبال الأرض الصفراء.

وعندها خاطبنا أنفسنا قائلين: "كل ما نحمله لا يعدو عن كونه قليلاً من البلح، من دون أي شيء ثمين". وهكذا عزمنا على اتباع هذه الطريق. ولما كان الجو حاراً فقد خطر لنا أن نستريح في هذه الغابة الصغيرة حتى تهبط العشية بنداوتها. وحين سمعنا أنكم تصعدون هذه التلة خشينا أن تكونوا من اللصوص، فأرسلنا هذا الأخ ليلقي نظرة.

- إذاً، هذا هو الأمر! تجار عاديون! حسبته لصاً حين لمحته يراقبنا، فأسرعت إلى هنا أستطلع ماهية الأمر.

قال السبعة: "نرجو أن تتناول شيئاً من البلح، يا سيدي". أجاب يانغ تشي: "لا. شكراً". ورجع إلى القافلة ومطرده لا يفارق يده.

قال الوكيل الأول من حيث جلس تحت شجرة: "إذا كان ههنا قطاع طريق. فيحسن بنا أن نتابع السير". أوضح يانغ تشي: "حسبتهم لصوصاً، واتضح لي أنهم من تجار البلح".

قال الوكيل الأول العجوز: "عطفاً على حديثك، فإن هؤلاء جميعاً من المتهورين!".

قال يانغ تشي: "ليس هناك ما يدعونا إلى الخصام. أردت أن تسير الأمور بصورة جيدة. تستطيعون أيها الرجال أن تغنموا شيئاً من الراحة. وسنتابع السير بعد أن يلطف الجو".

ابتسم الجنود. غرز يانغ تشي طرف مطرده في الأرض، وجلس تحت شجرة يستريح.

بعد لحظات قليلة برز رجل آخر عن بعد. كان يحمل دلوين يتدليان من حمالة للكتف، ويغني وهو يصعد الهضبة:

الشمس حمراء كأنها جحيمْ
والقمح مشوي هنالك، وهنا..
ونحن في الوادي يهدُّنا الضنى
والأغنياء يرفلون في نعيمْ

مشى وهو لا يبرح يطلق عقيرته بالغناء إلى طرف غابة الصنوبر، ووضع الدلوين، وجلس في ظلال شجرة.

التفت الجنود إليه مستفسرين: "ماذا لديك في هذين الدلوين؟".

- خمرة بيضاء.
- وإلى أين أنت ذاهب؟
- إلى القرية لأبيعها.
- ما ثمن الدلو؟
- خمس ربطات من النقد بالتمام والكمال.

تهامس الجنود في ما بينهم: "يقتلنا الحرُّ والظمأ. فلم لا نشتري منها شيئا؟ لسوف تدفئ قلوبنا في أجسادنا". وشرعوا يخرجون المال.

صاح يانغ تشي حينما رأى ما يفعلون: "ماذا تنوون أن تفعلوا؟".

- سنشتري قليلاً من الخمرة.

فانهال عليهم ضرباً بطرف مطرده: "يا للوقاحة! كيف تبيحون لأنفسكم شراء الخمرة قبل سؤالي؟".

- على الدوام تثير ضجة من دون سبب! إنها نقودنا! فما شأنك إن اشترينا بها خمرة؟ وتضربنا من أجل ذلك أيضاً؟

- ماذا تراكم تعرفون، أيها الحمقى الأغبياء؟ كل ما تفكرون فيه هو الإسراف في الشراب! ولكنكم لا تفكرون البتة في الخدع التي نتعرض لها على الطريق! أتعرفون عدد الرجال الطيبين الذين سقطوا صرعى نتيجة المخدر؟

شخص بائع الخمرة إلى يانغ تشي وضحك في برودة: "أنت لا تفقه أموراً كثيرة أنت نفسك، أيها المعلم التاجر. لن أبيعك شيئاً من خمرتي في المحل الأول. يا لهذا الكلام القذر في حق خمرتي!".

وفيما هما يتخاصمان، برز تجار البلح من الغابة ومطاردهم في أيديهم. وسألوا: "ما الأمر؟".

قال البائع: "كنت أحمل خموري إلى الجبال أبيعها في القرية، ووقفت أسترد أنفاسي في الظلال حين جاءني هؤلاء الشبان وسألوني ما إذا كانوا يستطيعون شراء قليل منها. فما وافقت على ذلك. ثم اعترض هذا السيد المهذّب مدعيا أني وضعت في خمرتي مخدراً. أتراه يسخر، أم ماذا؟".

قال السبعة: "أف! حسبنا أن اللصوص أقبلوا! هذا هو سبب الضجيج إذاً. لنفرضنَّ أنه قال ما قال، فأي ضير في هذا؟ كنا نفكر في شراء قليل منها لأنفسنا. إن كانوا يشكّون في أمرها، فبع لنا أحد هذين الدلوين. وسوف نشرب ما فيه".

قال البائع: "لا! أبداً لن أفعل!".

صاح السبعة: "نحن لم نتحدث عنك بالسوء، أيها الجلف الأخرق! سننقدك الثمن ذاته الذي ينقدك إياه القرويون. فإذا بعتنا منها، فأي سوء في ذلك؟ تفعلنَّ طيباً كمن يقدم الشاي في يوم حار، وتطفئ ظمأنا في الوقت ذاته!

- ما كنت أبالي أن أبيعكم دلواً لولا قولهم عن خمرتي إنها سيئة. وفضلاً عن هذا، فأنا لا أحمل مغرفة.

- أنت تنظر إلى الأمور من وجهة جدية. فيم يضايقك ما يقولون؟ إن لدينا مغارفنا الخاصة.

أحضر اثنان من تجار البلح مغرفتين مصنوعتين من جوز الهند من إحدى العربات، في حين غرف الثالث غرفة كبيرة من البلح. وتجمهر من بعد التجار السبعة حول الدلو ورفعوا عنه الغطاء. وراحوا يغرفون الخمرة واحداً بعد الآخر، ويشربون، ويمضغون البلح في أصوات طاحنة. وما هي إلا لحظات حتى فرغ الدلو مما فيه.

أكّد السبعة: "نحن لم نسألك عن الثمن بعد".

أكد البائع: "أنا لا أساوم. خمس ربطات نقدية للدلو الواحد، وعشر للدلوين".

- تقول خمساً، فلتكن خمساً إذاً. لكن، لنغرفنَّ مغرفة واحدة من الدلو الآخر!

- هذا غير ممكن. فالسعر محدود.

في الوقت الذي أخذ فيه أحد التجار يعد له النقود رفع تاجر آخر غطاء الدلو الآخر، واغترف منه قليلاً من الخمرة، وشرع يحتسيها. أسرع البائع إليه، فركض الرجل إلى غابة الصنوبر ومغرفته نصف مملوءة. وفيما البائع يطارده، برز تاجر آخر من الغابة يحمل مغرفة أخرى. دفع بها في الدلو ورفعها إلى شفتيه. ركض التاجر إليه، وقبض على المغرفة، وأعاد محتواها إلى الدلو. وضع الغطاء فوقها، وقذف المغرفة على الأرض.

زمجر غاضباً: "أنت أشبه برجل لا عيب فيه، فلم لا تتصرف على هذا الغرار؟ أهكذا يفعل المهذبون؟".

حين رأى الجنود ذلك طقطقت حناجرهم ظمأ. كانوا يتوقون إلى الشراب. فترجى أحدهم الوكيل الأول قائلاً: "قل كلمة في صالحنا، أيها الجد العجوز! لقد نهل تجار البلح دلواً من الخمرة. فلم لا نشتري نحن الدلو الثاني نرطب به حناجرنا؟ نحن نحس الحرارة والظمأ، وليس لدينا ما نشربه. وليس هنالك من مكان نعثر فيه على الماء في هذه الجبال. رجاء، يا جدنا العجوز!".

أصغى الوكيل الأول إليهم. وشعر برغبة في الشراب هو الآخر. فخاطب يانغ تشي قائلاً: "لقد أتى تجار البلح على دلو كامل من دلوي بائع الخمور. ولم يبق غير دلو واحد. فلم لا نأذن لهم أن يبتاعوا قليلاً من الخمرة يرطبون بها حناجرهم؟ صحيح أنه ليس هنالك من مكان يعثرون فيه على الماء في هذه الجبال".

قال يانغ تشي: "لقد شاهدت هؤلاء الرجال يفرغون الدلو الأول، ويغترفون نصف مغرفة من الدلو الثاني. لا ريبة أن الخمرة على أحسن ما يرام. وقد ظللت أنهال بالضرب على الحمالين طوال ساعات. لعلي أسمح لهم بشرب بضع جرعات".

وصاح قائلاً: "إذا كان الوكيل الأول يقترح ذلك، ففي مستطاعكم أيها الحمقى شراء القليل من الخمرة. وبعدها نتابع طريقنا".

دخل الجنود في مساومة مع البائع ورفعوا سعر الدلو، ولكنه رفض أن يبيع. وقال غاضباً: "لن أبيع! هذه الخمرة مدسوس فيها مادة مخدرة!".

قال الجنود وقد ارتسمت على ملامحهم بسمات مسترضية: "كفّ عن هذا أيها الأخ، فهل يستأهل ذلك مثل هذا الضجيج؟".

قال البائع: "لن أبيع! فلا تتحلقوني!". وتدخل تجار البلح في الحديث، فترجوه قائلين: "أيها الأخرق الغبي! ماذا يضيرك إن قال هذا الرجل ما قال من كلام عار عن الصحة؟ أنت تأخذ الأمور مأخذ الجد! لقد كدت أن تأخذنا بجريرتنا أيضاً. ومهما يكن من أمر، فلا علاقة لهؤلاء الحمالين بالموضوع. بعْ لهم قليلاً من الخمرة!".

سأل البائع: "وأهبه فرصة الارتياب بي من دون سبب على الإطلاق؟".

دفعه تجار البلح جانباً، وقدموا الدلو للحمالين الذين رفعوا عنه الغطاء. لم تكن لديهم مغرفة، فترجوا التجار أن يعيروهم مغارفهم.

قال التجار: "إليكم شيئاً من البلح أيضاً تأكلونه مع الخمرة!".

- شكراً على هذا اللطف العميم.
- هونوا عليكم. جميعنا مسافرون على الدرب ذاتها، وأية قيمة لمائة من البلح؟

شكرهم الجنود. وقدموا أول مغرفتين من الخمرة ليانغ تشي والوكيل الأول. رفض يانغ تشي أن يشرب، أما الرجل العجوز فعبّها عباً. وقدمت المغرفتان الثانيتان للضابطين. وتحلق الجنود من بعد حول الدلو واغترفوا ما فيه راضين مسرورين.

لوّح يانغ تشي بيديه. فالجنود لم يحدث لهم أي شيء. يضاف إلى هذا أن الجو كان قائظاً وحنجرته تلتهب ناراً. فغرف مغرفة من الخمرة، وشربها، وهو يمضغ بضع بلحات.

قال البائع يخاطب الجنود: "لقد شرب تجار البلح مغرفتين من هذا الدلو. وهكذا كان نصيبكم أقل من نصيبهم. وفي مقدوركم أن تدفعوا لي أقل مما دفعوا بنصف ربطة".

نقده الجنود الثمن. فقبضه البائع، ثم حمل حمالته والدلوين الفارغين، ومشى مترنحاً على طول الجبال، منشداً أغنية شعبية.

وقف تجار البلح السبعة عند طرف غابة الصنوبر يشيرون إلى الخمسة عشر رجلاً من أفراد القافلة ويقولون: "تهالكوا! تهالكوا!". حدَّق كل فرد من هؤلاء في الآخرين، وقد تخاذلت ركبهم وثقلت رؤوسهم، وراحوا يتساقطون واحداً بعد الآخر على الأرض. وعندها، دفع تجار البلح السبعة عرباتهم اليدوية خارج الغابة وأفرغوا محتواها من البلح. ووضعوا الأحد عشر حملاً من المجوهرات والتحف الفنية في العربات وغطوها.

نادوا صائحين: "يؤسفنا إزعاجنا لكم". وهبطوا عن السلسلة الجبلية.

زمجر يانغ تشي بينه وبين نفسه وقد أعجزته الحركة، كما عجز الخمسة عشر جندياً عن النهوض على أقدامهم. جعلوا يحملقون بأنظارهم فيما التجار السبعة يملأون العربات بالحمولة الثمينة. وانفغرت أفواههم عاجزين عن الكلام..

أسألكم الآونة: من كان أولئك التجار السبعة؟ ومن يكونون غير تشاو غاي، ووو يونغ، وغونغسون شنغ، وليو تانغ، والأشقاء الثلاثة يوان! كما أن بائع الخمرة لم يكن غير باي شنغ، الملقب بفأر وضح النهار. وكيف وضع المخدر في الخمرة؟ حين حمل الدلوين إلى السلسلة الجبلية لم يكن فيهما غير خمرة صافية. وبعدما أتى السبعة على ما في الدلو الأول رفع ليو تانغ الغطاء عن الدلو الثاني وشرب نصف مغرفة كيلا يرتاب الآخرون في الأمر. وعندها صب وو يونغ المخدر في المغرفة الأخرى في قلب الغابة، وخرج منها وأسقط المغرفة في الخمرة الباقية وهو يغترف "غرفة مجانية". وبينا هو يتظاهر باحتسائها اختطف باي شنغ المغرفة من يده وأعاد محتواها إلى الدلو.

وهكذا انطلت الخدعة التي رسمها وو يونغ، والتي يمكن أن نطلق عليها اسم "الاستيلاء على الهدايا عن طريق الخداع".

لم يشرب يانغ تشي كثيراً، وهكذا كان أول من استردَّ وعيه. زحف على قدميه، واستطاع أن يقف مترنحاً. وأجال النظر حواليه إلى الأربعة عشر جندياً. كان اللعاب يتسرب من زوايا أفواههم. وكانوا جميعاً عاجزين عن الحركة.

همهم يانغ تشي في يأس يفعمه الغضب: "جعلتموني أفقد الهدايا. كيف أستطيع أن أقابل الحاكم ليانغ مرة أخرى؟ وهذه وثائق الرحلة لم تبق لها قيمة الآن!". مزقهَا وقال: "لقد غدوت رجلاً من دون بيت أو وطن. فأين أذهب؟ يحسن أن أضع لحياتي حداً ههنا، على هذه السلسلة الجبلية!". رفع ثوبه، وجرَّ نفسه متثاقلاً إلى حافة السلسلة وتأهب للقفز.

لا ريبة أن الأمطار في الشهر تجرف البراعم الساقطة، وآخر محاليق الصفصاف التي دمرها صقيع الخريف. وقد رغب يانغ تشي أن يضع لحياته حداً إلى سلسلة جبال الأرض الصفراء. فماذا أصاب حياته؟ إذا أحببت أن تعرف ما حدث هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السابع عشر

الراهب الموشوم يهاجم جبل التنينين وحيداً؛
والحيوان أزرق الوجه يستولي على دير اللؤلؤة الثمينة

كيف يتأتى ليانغ تشي أن يعود ويواجه الحاكم ليانغ بعدما فقد الهدايا على سلسلة جبال الأرض الصفراء؟ أراد أن يقفز عن حافة السلسلة ويموت. ولكنه استرد وعيه وجر نفسه في الوقت المناسب. همس في سره: "والداي اللذان أنجباني وهباني هذه الطلعة الجميلة والمظهر الوسيم. وقد درست منذ طفولتي فنون المثاقفة بالسلاح الثمانية عشر. وليست هذه وسيلة للموت. في مقدوري الانتظار ريثما يتم إلقاء القبض عليَّ، وعندها أتخذ قراري بهذا الخصوص".

حملق في رفاقه الأربعة عشر. ما كانوا يستطيعون غير التحديق فيه، وقد شُلَّت حركتهم. أطلق يانغ تشي شتيمة: "حصل ما حصل لأنكم، أيها الأغبياء، رفضتم الإصغاء إلى كلامي. وقد ورطتموني في هذه القضية!". والتقط مطرده المرمي إلى جانب جذع شجرة، وربط سيفه إلى وسطه، وأجال النظر حواليه. ليس هنالك شيء من متاع خاص به. أرسل زفرة، وهبط عن الجبل.

لم يسترد الأربعة عشر وعيهم حتى موعد الحراسة الثانية. وجعلوا ينهضون على أقدامهم واحداً واحداً، وهم يطلقون سيلاً من التفجعات.

قال الوكيل الأول العجوز: "أنتم لم تعملوا بنصيحة يانغ تشي الطيبة. لقد خربتموني!".

أجاب الآخرون: "لقد وقع ما وقع، يا سيدي الشيخ. يحسن أن نتفاهم".

- هل لديكم أية اقتراحات؟

- الذنب ذنبنا. ولكن المثل القديم يقول: "عندما تلعق النار ثوبك أطفئها، وعندما ينسرق الزنبور في داخله افتحه سريعاً". لو بقي يانغ تشي هنا لما استطعنا أن نقول شيئاً. وإذا كان قد ذهب، ولا يعرف أحد منا إلى أين، فلِمَ لا نلقي باللائمة على رأسه؟ في مقدورنا أن نعود ونقول للحاكم ليانغ ما يلي: "ظلّ يشتمنا ويضربنا ويلعننا طوال الطريق ويسوقنا على الدرب إلى أن هدنا الضنى فعجزنا عن الحركة خطوة واحدة. وكان على صلة وثيقة باللصوص، فقبضوا علينا، وشدوا وثاقنا من أيدينا وأقدامنا، وهربوا بالمجوهرات.

- يا لها من فكرة! سنبلّغ عن السرقة في مكتب السلطات المحلية غداً. ونترك الضابطين هنالك للمساعدة في القبض على اللصوص، ويسافر بقيتنا في الليل والنهار إلى أن نصل إلى العاصمة الشمالية. وسنخبر الحاكم بما اتفقنا عليه، فيعلم الوزير الأول خطياً، ويطلب إلى والي جيتشو أن يقبضوا على اللصوص. وهذا كل شيء.

في بكور اليوم التالي أعلم الوكيل الأول ومرافقوه سلطات جيتشو المسؤولة عن السرقة.

ونكف عن الحديث في هذا الموضوع.

ستتحدثنَّ بالأحرى عن يانغ تشي الذي حمل مطرده في يده وابتعد عن سلسلة جبال الأرض الصفراء عابسة ملامحه، مربدة طلعته. سار متجهاً جنوباً قرابة نصف الليل، وحطَّ رحاله في غابة يرتاح، وانثال يهمس في سره: "لست أملك دانقاً، وليس ههنا من أعرفه. فماذا أفعل؟".

كانت السماء في هذه الأثناء تتشح بالضوء، فهب يسير من جديد مستغلاً فرصة البرودة. واجتاز حوالى عشرين ليا، وتوقف أمام حانة. وقال في نفسه: "إن لم أرتشف جرعة من الخمرة فلن أقوى على السير خطوة أخرى".

دخل وجلس. كانت المناضد والمقاعد مصنوعة من خشب التوت. فأسند مطرده إلى الجدار. واقتربت منه امرأة تجلس قريباً من الموقد وخاطبته قائلة: "هل أطبخ لك شيئاً، يا سيدي؟".

- زوديني بمكيالين من الخمرة أولاً. ثم اطبخي لي قليلاً من الأرز. وإذا كان لديك لحم فسآخذ شيئاً منه أيضاً. أضيفي ثمنه في ما بعد فأدفع ذلك الحساب كاملاً.

ندهت المرأة صبياً يهرق له الخمرة. وطبخت الأرز، وقلت شيئاً من اللحم، ووضعت ذلك كله أمام يانغ تشي. وبعدما انتهى من تناول الطعام نهض وحمل مطرده واتجه ناحية الباب.

قالت المرأة: "أنت لم تنقدني الثمن بعد".

- أدفع لك حينما أعود إلى هنا. سجليه الآن دينا عليَّ.

اندفع الشاب الذي صب له الخمرة وراءه، وأمسك به من ذراعه. فطرحه يانغ تشي على الأرض بضربة واحدة من يده. فشرعت المرأة تنوح. ولكن يانغ تشي أكمل طريقه. فسمع صوتاً آخر يهتف به من ورائه: "أين تحسب نفسك ذاهباً، يا وغد!".

التفت فرأى فتىً ضخماً عاري الصدر يركض خلفه وفي يده عصا.

قال يانغ في نفسه: "إنه يسعى ورائي. حسن، إن حظه لتعيس!".

توقف عن السير. كان هنالك أيضاً خادم شاب مسلح بمذراة، واثنان أو ثلاثة من الخدم يحملون هراوات يركضون ناحيته. فهمس في نفسه: "إذا أنهيت عملي مع أول واحد منهم، فلن يطيب للآخرين الاقتراب مني". رفع مطرده في يده، وهجم متأهباً للقتال.

التقاه الرجل الأول ملوحاً بعصاه. فتجاولا عشرين أو ثلاثين جولة. وبدهي أن ذلك الرجل لم تكن له قدرة يانغ تشي، فجعل يراوغ ويناور. وأوشك الشاب والخدم الآخرون أن يشاركوا في الصراع حين وثب حامل العصا خارج دائرة القتال وصاح: "لا يتحركنَّ أحد. أنت، أيها الرجل الكبير الذي يحمل مطرداً، ما اسمك بين الأناسي؟".

ضرب يانغ تشي على صدره بقوة قائلاً:

- كان اسمي وسيكون دائماً يانغ تشي، الحيوان أزرق الوجه! ولم أبدِّله حتى الآن!

- أنت يانغ تشي، معاون القصر العسكري في العاصمة الشرقية؟

- كيف تعرف أني المعاون العسكري يانغ؟

ألقى الرجل عصاه وخرَّ على ركبتيه:

- إن لي عينين ولكنني لم أتعرف على جبل تايشان!
- أنا من ولاية كايفينغ أصـلاً، وكنت تلميذاً لمدرب السلاح لين تشونغ في الحرس الإمبراطوري. وأدعى تساو تشنغ. كانت أسرتي من اللحامين طوال أجيال وأجيال. أعرف كيف أذبح، وأستخلص الأوتار، وأقطع العظام، وأزيل الأحشاء، وأسلخ الجسد. ولهذا السبب أسموني النحات الشيطاني. وقد وهب لي رجل في منطقتي خمسة آلاف ربطة نقدية وأرسلني إلى هنا، إلى شاندونغ، لتأدية عمل من أعماله. وفقدت هذا المبلغ بكامله. وصعبت عليَّ العودة، فاقترنت بفتاة قروية هنا وعشت مع أسرتها. إنها تلك المرأة التي اجتمعت بها عند الموقد. والصبي الذي يحمل المذراة شقيقها الصغير. وعندما تقاتلنا تعرفت على خطواتك وحركاتك. إنها على غرار خطوات أستاذي مدرب السلاح لين وحركاته. لذا، تيقنت أنني عاجز عن قهرك.
- إذاً، كنت من تلاميذ لين. لقد حطّم له الماريشال غاو حياته. فهرب إلى التلال. وهو يقيم عند بحيرة ليانغشان في الوقت الراهن.
- سمعت بهذا. ولم أتبيّن ما إذا كان الخبر صحيحاً أو لا. أرجو أن تقبل دعوتي إلى منزلي، أيها المعاون العسكري، وتأخذ قسطاً من الراحة.
رجع يانغ تشي وتساو تشنغ إلى الحانة. وطلب المضيف من ضيفه أن يتخذ مقعداً. وأنبأ زوجته والفتى الصغير أن ينحنيا أمام الضيف، وأن يحملا إليه طعاماً وشراباً.
وخلال تناول الطعام استوضح تساو تشنغ قائلاً:
- ماذا جاء بك إلى هنا، أيها المعاون العسكري؟
روى له يانغ قصته حرفيا، وكيف فقد الهدايا التي كان يخفرها للحاكم ليانغ.
اعترض تساو تشنغ قائلاً:
- في هذه الحال، لم لا تقيم معي في الوقت الراهن؟ وبعدها نناقش خطوتك التالية.
قال يانغ:
- هذا لطف منك عظيم من دون شك. ولكن الشرطة قد تعتقلني هنا. ويستحسن ألا أقيم فترة طويلة.
- إلى أين تستطيع الذهاب؟
- كنت أفكر في الذهاب إلى بحيرة ليانغشان والانضمام إلى أستاذك مدرب السلاح لين. مررت من هنا مرة، والتقيته خلال هبوطه عن الجبل. وتصارعنا معاً. ورأى وانغ لون أننا ندّان، فدعانا معاً إلى القلعة على الجبل. وهكذا أتيح لي أن أتعرف إلى أستاذك لين تشونغ. وترجاني وانغ لون أن أبقى، فرفضت أن أغدو قاطع طريق. لن أكون على شيء من الشجاعة إذا رغبت في الانضمام إليه الآن، بعد أن وسموني بوشم المجرمين في وجهي. هذا ما دعاني إلى التردد. وأعجز عن أن أقطع في الأمر برأي.
- قد تحصل على شيء هنالك. تناهى إلى علمي مقدار ما عليه وانغ لون من ضيق الصدر. وهو لا يعرف كيف يعامل الموهوبين. ويقولون إنه حين ذهب لين تشونغ أول مرة إلى الجبل تعرَّض

لسبابه وشتائمه. وإذا كان بيتي لا يناسبك، فهنالك، على مسافة قريبة من هنا، على جبل التنينين في ولاية تشينغتشو، ثمة دير معروف باسم اللؤلؤة الثمينة يربض بين الجبال وتؤدي إليه طريق وحيدة، ابتعد الراهب المسؤول عنه عن الحياة الدينية وأطال شعره. فحذا حذوه الرهبان جميعاً. ويقولون إنه جمع عصابة من أربعمائة أو خمسمائة قاطع طريق. ويدعى دنغ لونغ، وهو معروف بلقب النمر ذهبي العين. إذا عزمت أن تصير قاطع طريق ففي وسعك الانضمام إليه.

- إذا وجد مثل هذا العرين، فلمَ لا أذهب إليه وأتخذ منه مأوى؟

أمضى يانغ تشي ليلته في منزل تساو تشنغ. وفي صباح اليوم التالي اقترض مبلغاً من المال يعينه على السفر، وتنكّب مطرده، وألقى تحية الوداع على مضيفه، وانطلق ناحية دير التنينين.

مشى النهار بطوله. وحوالى المساء وصل إلى مشارف الجبل. فخاطب نفسه قائلاً: "سأقضينَّ ليلتي في هذه الغابة، وأتسلق الجبل غداً".

حين دلف إلى الغابة تلقى صدمةً. كان ثمة راهب بدين يتفيأ ظلال شجرة صنوبر عارياً حتى وسطه. وكان ظهره موشوماً بصورة متقنة. لم تكد أنظاره تقع على يانغ تشي حتى اختطف عصاه الملقاة إلى جانب الشجرة وهبَّ على قدميه، صائحاً: "أنت، أيها النغل، من أين أنت قادم؟".

هجس يانغ تشي في صدره: "إن له لكنة أهل الممرّ. فنحن من منطقة واحدة في هذه البلاد. سأطرحنَّ عليه سؤالي". وصاح في نبرة عالية: "أخبرني من أين أنت، أيها الراهب؟".

أسرع الراهب مهاجماً بدلاً من أن يعطيه جواباً، مهدداً بعصاه.

شتم يانغ في خبايا نفسه: "يا للرأس الأجرد الفظ! سأنفسنَّ عليه غضبتي الفوارة!".

وانطلق لملاقاة خصمه ومطرده في يده. تقارعا في أرجاء الغابة هنا وهنالك، رجلاً ضد رجل، إلى أن بلغت جولاتهما أربعين أو خمسين جولة، من دون أن يكتب النصر لأحد منهما. وراوغ الراهب ووثب خارج دائرة الصراع.

زمجر قائلاً: "استرح!". فتوقف الاثنان عن الحركة.

همس يانغ في سره منشدها: "أين كان هنالك مثل هذا الراهب؟ فهو رائع حقيقة. ومهارته ممتازة! فأنا عاجز عن إلحاق الهزيمة به!".

هتف الراهب: "أيها الشاب أزرق الوجه، من تكون؟".

- أنا يانغ تشي، المعاون العسكري من العاصمة الشرقية.

- الرجل الذي كان يبيع سيفه وقتل ذلك الأخرق نيو آر؟

- أفلم تر الوشم على وجهي؟

ضحك الراهب: "من كان يخطر له أنّنا سنلتقي هنا؟".

- هل لي أن أسأل عن اسمك، يا سيدي الراهب؟ وكيف عرفت بقصة بيعي للسيف؟

- كنت رائداً في حامية يانآن تحت قيادة الجنرال تشونغ العجوز. ثم قتلت سيد الغرب بثلاث ضربات من قبضتي واضطررت أن أحلق رأسي وأغدو راهباً على جبل ووتاي. وبسبب هذه الزخارف على ظهري يدعوني الجميع بالراهب الحصيف لو الموشوم.

ابتسم يانغ تشي: "وهكذا فنحن الاثنان مواطنان من مكان واحد. وقد سمعت الكثير عنك في أخوية الرجال الشجعان. ولكنني حسبتك في دير شيانغقو الكبير. ماذا تفعل هنا؟".

- إنها حكاية طويلة. حين كنت مسؤولاً عن حديقة خضراوات الدير رغب الماريشال غاو أن يقتل لين تشونغ. فما احتملت مثل هذا الظلم. فلحقت بلين على طول الطريق إلى تسانغتشو، وأنقذت حياته. ورجع الخفيران وقدما تقريرهما إلى اللئيم غاو قائلين إن الحصيف لو من دير شيانغقو الكبير أنقذ لين وهما يهمان بقتله في غابة الدب المتوحش، وإنه ذهب برفقتهما إلى تسانغتشو، وهذا هو السبب الذي حال بينهما وبين تنفيذ ما عقدا عليه العزم. ثارت ثائرة ذلك المغتصب، فعجل رئيس الدير يفصلني وأراد أن يرسل رجالاً يعتقلونني. ولكن بعض الأشرار نقلوا الأمر إليَّ فاستطعت خداع ذلك الزنيم. أحرقت أبنية حديقة الخضراوات وانطلقت على الطريق، ولكنني لم أجد لنفسي من مأوى. في ولاية منغتشو توقفت في حانة عند هضبة مفترق الطرق وكدت أفقد حياتي بسبب امرأة المشربي. فقد دست المخدر في شرابي فرحت في غيبوبة. ومن حسن الحظ أن زوجها رجع إلى البيت مبكراً. وانشده من مظهري وعصاي وسيفي فأسرع وسقاني شراباً ردني إلى وعيي. وبعد أن أعلنته عن اسمي أبقاني في بيته عدة أيام، وجعلني شقيقه المتبنى. كان وزوجته معروفين في أخوية الرجال الشجعان. وكان معروفاً باسم تشانغ تشينغ جنائني الخضراوات، وزوجته معروفة باسم سون الساحرة. وكلاهما حذر جسور. وبعيد أربعة أو خمسة أيام قضيتها لديهما سمعت أني أكون في مأمن إذا ذهبت إلى دير اللؤلؤة الثمينة على جبل التنينين، فمضيت إلى هناك عازماً على الانخراط في جماعة دنغ لونغ. ولكن ذلك الحقير رفض ذلك. فقاتلته، فعرف أنه لن يكون لي نداً، فهرب إلى الجبل، وأغلق البوابات الكبيرة وأترسها. ولم تكن هنالك من طريق أخرى. فظللت أشتم ذلك الزنيم وألعنه، ولكنه رفض أن ينزل ويقارعني. ثرت وغضبت، ومن بعدها جئت أنت، يا أخي".

سرَّ يانغ تشي كثيراً. فانحنى أحدهما للآخر في الغابة وأمضيا الليل ساهرين. وقصّ يانغ بالتفصيل كيف حاول أن يبيع سيفه وقتل نيو آر، وكيف أضاع هدايا ذكرى مولد الوزير الأول. وروى من بعد ما قاله تساو تشنغ.

استغرق يانغ في التفكير: "هذا ونحن هنا، ولكن دنغ لونغ أغلق البوابات. فكيف نغريه بالنزول؟ لنذهبنَّ إلى منزل تساو تشنغ ونناقش الأمر".

غادر الاثنان الغابة معاً ورجعا إلى الحانة. قدم يانغ تشي الحصيف لو. فأسرع تساو تشنغ يصب الخمرة، وتناقشوا كيف يستولون على جبل التنينين.

قال المشربي:

- إن كان قد أغلق الأبواب حقاً، فإن جيشاً من عشرة آلاف رجل لن يتمكنوا من الوصول إليه، إن لم نقل أنتما وحسب. فالقلعة يمكن أن تسقط بالمكر والخديعة، وليس بالقوة.

قال الحصيف:

- ذلك النغل! حين ذهبت للانضمام إليه قابلني خارج البوابات. ولأنه رفض قبولي عنده

تقاتلنا، فطرحته أرضاً برفسة على فخذه. وقبل أن أتمكن من الفتك به حمله أفراد عصابته إلى الجبل وأقفلوا البوابات. شتمته طويلاً، ولكنه رفض أن ينزل ويثاقفني!

أبان يانغ تشي: "إذا كان ذلك المكان جيداً، فلمَ لا نذهب معاً للاستيلاء عليه؟".

قال لو:

- ينبغي أن نرسم خطة للوصول إلى هنالك أولاً، وإلا لن نكون قادرين على الإمساك به.

نبر تساو تشنغ:

- خطرت لي فكرة، ولا أعرف إذا كنتما توافقان عليها.

فجهر يانغ: "أسمعنا إياها".

- أنت، أيها المعاون العسكري، ينبغي أن تبدل ثيابك وترتدي لبوس فلاح محلي. وسآخذ عصا هذا المحترم هنا وسيفه، وسيرافقني شقيق زوجتي الأصغر وبعض الخدم إلى سفح الجبل، وهنالك نعصب عيني المحترم. سأفعل هذا بنفسي فأستخدم أنشوطة منزلقة. وعندها أصيح قائلاً: "نحن من حانة مجاورة. وقد أكثر هذا الراهب من الشراب فسكر، ولكنه يرفض أن يدفع الثمن. وقد ظل يردد أنه سيحشد رجاله ويهاجم القلعة. فاغتنمنا فرصة سكره وقيدناه وأحضرناه إلى زعيمكم هنا". وسيأذن لنا أولئك الحمقى بالمرور. وحين نصل إلى القلعة ويأخذوننا إلى دنغ لونغ يستطيع المحترم أن يحلّ وثاق يديه فأناوله العصا. وعندما تهبان أيها الشابان الطيبان إلى العمل ينتهي أمر دنغ لونغ. وحين نتخلص منه لن يجرؤ أتباعه على المقاومة. ما رأيكما في هذه الفكرة؟".

هتف لو ويانغ: "رائعة، رائعة!".

أكل الجميع في تلك الليلة وشربوا وجهزوا أطعمة مجففة لرحلتهم المقبلة. وهبوا من نومهم في فترة الحراسة الخامسة في صباح اليوم التالي، وأكلوا ملء بطونهم. وخزن لو صرته وأمتعته في منزل تساو، وبعدها خرج الرجال الثلاثة وبرفقتهم الأخ الأصغر للزوجة وستة أو سبعة فلاحين ووجهتهم جبل التنينين. وصلوا إلى الغابة بعيد الظهيرة وبدلوا ثيابهم. وشدَّ اثنان من الفلاحين وثاق الحصيف لو في أنشوطة منزلقة. ووضع يانغ على رأسه قبعة من القش واقية من الشمس، وقميصاً مهلهلاً. وأبقى مطرده في يده، ولكنه حمله في وضعية الاستعداد للقتال. وحمل تساو تشنغ عصا الراهب. أما الآخرون فكانت أسلحتهم من الهراوات وساروا في المقدمة والنهاية.

وقفوا عند البوابة الأولى. كانت مثقلة بالأقواس وأحجار المنجنيق وأباريق الكلس. وحين رأى الحراس على البوابة ذلك الراهب المربوط أرسلوا رسالة إلى القيادة تذيع النبأ.

لم يمض وقت طويل حتى وصل ضابطان صغيران إلى البوابة واستفسرا قائلين: "من أنتم؟ وماذا تبغون ههنا؟ ومن أين جئتم بهذا الراهب؟".

أجاب تساو تشنغ: "نحن من تلك القرية في السفح. وأنا أدير حانة صغيرة. جاءني هذا الراهب السمين وشرب حتى امتلأ، ومن بعد رفض أن يسددني الثمن. وظل يردد قائلاً: "سأجمع ألفاً من الرجال من بحيرة ليانغشان وأنسف جبل التنينين هذا، وأدمر قريتكم أيضاً!" فقدمت له خمرة مشعشعة حتى أفقدته الوعي، ومن بعد شددت وثاقه وجئت به إلى هنا لأقدّمه إلى زعيمكم عربوناً

لولائي العميق. فقد تنقذ قريتنا من الخراب".

اغتبط الضابطان الصغيران، وقالا: "هذا رائع. رويدكم قليلاً ههنا". ورجعا إلى القلعة وأعلنا أن الراهب اعتقل.

أفعمت الفرحة حنايا دنغ، فصاح: "أحضروه إليَّ. سألتهم قلب ذلك الزنيم وكبده مع شرابي فأطفئ غلة حقدي!".

صدر الأمر إلى قطاع الطرق بفتح البوابات وإرسال السجين. فصعد يانغ تشي وتساو تشنغ يخفران الحصيف لو على الممر. كانت القلعة ببواباتها الثلاث القائمة على ثلاثة ممرات محفوفة بالمخاطر حصناً لا نظير له. وكان الدير محاطاً بذرى شاهقة. وليس هنالك غير ممر بين هذه الارتفاعات المهيبة. وكانت البوابات الثلاث مخفورة بحجارة ضخمة وجذوع أشجار جبارة، وأقواس قوية وسهام حادة، ومجموعة لا حصر لها من الرماح المصنوعة من خشب البامبو.

بعد أن مروا من البوابات الثلاث وصلوا إلى دير اللؤلؤة الثمينة. كان المعبد مثلث الأبواب ينهض على أرض مقطوعة الشجر في غابة أشبه بصفحة مرآة، يحدق به سياج من أوتاد خشبية قوية مستدقة، وقد وقف عند قوس المدخل سبعة من قطاع الطرق أطلقوا شتيمة مقذعة عند مرور الحصيف لو: "لقد آذيت زعيمنا، أيها الحمار الأجرب الحقير! لقد وقعت الآن، وسوف يمزقك إرباً صغيرة في روية وبطء!".

لم ينطق لو بحرف وهم يقتادونه إلى المعبد. كان التمثال قد نقل عن قاعدته ووضع بجانب مقعد عريض غطي بجلد نمر، واصطف عن جانبيه حرس مسلحون بالرماح.

بعيد لحظات، دخل دنغ لونغ يحرسه خفيران، وجلس على عرشه. دفع تساو تشنغ ويانغ تشي أسيرهما الحصيف لو إلى الأمام فوقف عند درج العرش.

صاح دنغ لونغ: "أيها الحقير! لقد ألقيتني ذلك النهار على الأرض! وفخذي لا تبرح منتفخة سوداء مزرقة. وقد حان اليوم دوري!".

شخص إليه لو ببصره: "زنيم! لا تحاولنَّ الهرب!".

شدَّ الفلاحون الحبل فانحلت الأنشوطة. اختطف لو عصاه من تساو تشنغ ولوَّح بها مثل عصفة من السحب، ورمى يانغ تشي قبعته المصنوعة من القش، وأدار رأس مطرده إلى الأمام وقبض عليه من قصبته. ولوَّح تساو تشنغ بهراوته مهدداً. وهجم الجميع معاً.

ناضل دنغ لونغ للهرب، ولكن عصا لو سقطت من فورها على جمجمته وسحقت عرشه. وأسقط يانغ تشي بمطرده أربعة أو خمسة من اللصوص.

صاح تساو تشنغ: "استسلموا جميعاً! وإن لم تفعلوا فسنقتلكم واحداً واحداً!".

ارتعب الخمسمائة أو الستمائة جنديّ المتواجدون أمام المعبد ووراءه وجماعة الضباط الصغار وانشلت حركتهم. واستسلموا جميعاً. وصدر الأمر إليهم بحمل جثة دنغ لونغ إلى ما وراء الجبل وحرقها. وتم جرد للمواد الغذائية، وساد النظام في الأبنية، وجرت معاينة للبضائع المخزونة في مؤخر الدير، وجيء بطعام وشراب. وغدا لو ويانغ قائدين للقلعة، فأقاما وليمة احتفالية. وبقي الجنود، وقد

أقسموا يمين الولاء، تحت إمرة الضباط الصغار ومراقبتهم.

ألقى تساو تشنغ تحية الوداع على رفيقيه الشجاعين ورجع إلى منزله مع الفلاحين وسنكفّ هنا عن الحديث عنهم.

ستتحدث الآونة عن الوكيل الأول الشيخ والجنود الذين أنيط بهم إرسال الهدايا. مشوا منذ بكور الصباح حتى انسدال الظلام إلى أن وصلوا إلى العاصمة الشمالية. ورفعوا تقريرهم إلى الحاكم ليانغ مباشرة. ركعوا أمامه، واعترفوا بجريمتهم الكبرى.

قال ليانغ:

- لقد عانيتم الصعوبات على الطريق. وأنا شاكر لكم.

واستتلى مستوضحاً: "أين الرائد يانغ تشي؟".

صاحوا جميعاً: "الأمر في غاية الخطورة ولا يمكن أن نصفه! يا له من لص وقح بغيض! بعيد خمسة أو ستة أيام من ذهابنا وصلنا إلى سلسلة جبل الأرض الصفراء. كان الجو قائظاً، فجلسنا نستريح في ظلال غابة. من كان يظن أن يانغ تشي كان على علاقة طيبة بسبعة من اللصوص استخفوا في ثياب التجار! هيأ الأمور كي نلتقيهم على الدرب، وكانوا يترقبون وصولنا في الغابة مع سبع عربات موسوقة. وكان له رجل يحمل خمرة جاء يستريح على الجبال. فابتعنا منه جرعات من الخمرة، ولكنها كانت مخدَّرة، فغبنا عن الوعي. فقاموا بتصفيدنا، وعمد يانغ واللصوص السبعة إلى تحميل الهدايا في العربات، بالإضافة إلى الأمتعة، وهربوا بها! وقد قدمنا الشكوى إلى والي جيتشو وتركنا الضابطين هنالك لمساعدة السلطات في القبض على اللصوص. وأسرع بقيتنا ليلاً ونهاراً لنقدّم لسعادتكم تقريراً بالحادث".

ارتعشت أوصال ليانغ وصاح:

- ذلك المنفي اللص! مجرم محكوم مدين لجهودي بجعله محترماً! كيف يمكن أن يكون على مثل هذا العقوق!؟ إن قبضت عليه فسأمزقنّه إرباً إربا!

وأمر كاتبه بتدوين وثيقة أرسلها من فوره إلى جيتشو. كما بعث رسالة عاجلة إلى حميه، الوزير الأول في العاصمة الشرقية، يسرد عليه فيها الأحداث التي وقعت.

لن نتحدث عن الرسول إلى جيتشو، ولكننا سنقول شيئاً عن المبعوث إلى العاصمة الشرقية. استقبله الوزير الأول فقدم له الرسالة. قرأها تساي ففغر فمه دهشة: "يا لوقاحة أولئك اللصوص الشياطين! لقد سرقوا السنة الماضية الهدايا التي أرسلها زوج ابنتي ولم يتم اعتقالهم حتى هذا النهار. وهؤلاء سرقوني مرة أخرى. ينبغي أن نفعل شيئاً، وإلا عجزنا عن وضع الأمور في نصابها!".

أصدر مرسوماً، وانتدب أحد ضباط القصر لتسليمه بأقصى سرعة مستطاعة إلى والي جيتشو يطالبه فيه بالقبض فوراً على اللصوص، ويطلب جواباً رسمياً.

بقي الوالي طوال عدة أيام ينتابه الجزع وهو مستغرق في التفكير في الأمر الذي تلقاه من الحاكم ليانغ من دامينغ، العاصمة الشمالية. وقد جاءه الآن حارس البوابة وأعلن قائلاً:

- ضابط من قبل الوزير الأول تساي من العاصمة الشرقية جاء يحمل مرسوماً عاجلاً إلى

سعادتكم.

أجفل الوالي وهمس في سره: "لا ريبة أنه بخصوص هدايا ذكرى مولده". وما أسرع أن نادى على مجلسه فانعقد واستقبل الضابط. قال: "لقد أعلمني وكلاء الحاكم ليانغ بالأمر، فأرسلت رجال شرطتي للقبض على المجرمين. غير أننا لم نعثر لهم على أثر. قبيل عدة أيام أرسل الحاكم مذكرة استفسار أخرى، فقمت بإرسال رجال شرطتي من جديد، ولكنهم لم يقبضوا على أحد منهم. سأرد شخصياً على الوزير الأول حالما تصلني أية أنباء".

قال الضابط: "أنا وثيق الصلة بالوزير الأول، أرسلني إلى هنا خصيصاً لأتيقن من القبض عليهم. وقبيل انطلاقي بلحظات أمرني بالبقاء هنا حتى يتم إلقاء القبض على كل لص من عصابة تجار البلح السبعة، وبائع الخمرة، والضابط الهارب يانغ تشي. وقد ضرب مهلة حدها الأقصى عشرة أيام ينبغي خلالها القبض عليهم وتسليمهم إلى العاصمة الشرقية. إذا فشلتم في تنفيذ هذا الأمر أخشى أن يصدر قرار بنفيكم إلى جزيرة شامين النائية! ويغدو من الصعب عليَّ أن أعود إلى الوزير الأول، وتضيع حياتي سدى. إذا كنتم سعادتكم لا تثقون بكلامي فأرجو أن تتفضلوا بقراءة مضمون هذا الأمر".

ارتعب الوالي كثيراً بعيد قراءة الأمر، واستدعى ضباط شرطته في الحال. اقترب منه رجل وحيّاه باحترام.

سأل الوالي: "من أنت؟".

- أنا خه تاو، مفتش الشرطة في المقاطعة الثالثة.

- هل أنت مسؤول عن ملاحقة سارقي الهدايا في سلسلة جبل الأرض الصفراء؟

- أجل، يا صاحب السعادة. وأنا مكبٌّ على هذا العمل ليل نهار. وقد أرسلت أسرع رجالنا وأحدّهم نظراً إلى سلسلة الجبال للتفتيش عن اللصوص. ورغم أنني ضربتهم مراراً وتكراراً فهم لم يعثروا على أي أثر، نحن نبذل قصارى جهدنا، يا صاحب السعادة، لكن الأمر لا جدوى منه في ما يبدو.

- هراء! إذا غاب القط لعب الفأر! لقد بدأت خدمتي باجتياز امتحانات القصر. أن يصير المرء والياً ليست عملاً يسيراً! وهذا الوزير الأول في العاصمة الشرقية أرسل ضابطاً يحمل أمراً بمنحي مهلة حدها عشرة أيام للقبض على اللصوص تحت طائلة فصلي من عملي ونفيي إلى جزيرة شامين. أنت مفتش للشرطة، ولكنك في منأى عن المحاكمة، والمصيبة تقع على رأسي وحدي! سوف آمر بنفيك إلى حامية تعيسة على الحدود لا تستطيع أية إوزة برية الوصول إليها!

واستحضر الوالي عامل الوشم وأمره أن يكتب على وجنة تاو: "منفي إلى ولاية...."، تاركاً اسم الولاية فارغاً.

حذّر الوالي قائلاً: "إن لم تقبض على أولئك الأنذال فلا تتوقع مني شفقة أو رحمة!".

غادر خه تاو مجلس الوالي ورجع إلى مركزه. واستدعى من فوره أغلبية ضباط الشرطة إلى غرفة خاصة للتشاور. جلس الجميع يتبادلون النظر في صمت مثل طيور إوز ربطت مناقيرها، أو

سمك علق في خطاف.

قال خه تاو: "هذه هي الغرفة التي نتشاور فيها عادة. وأنتم، في العادة، ثرثارون لا تنغلق لكم أفواه. أهذا بسبب الأوقات العصيبة التي تمرُّ بنا بخصوص حل هذه القضية؟ أنا الوحيد الذي ينبغي أن يكون موضع الشفقة. أفلا ترون ما هو مكتوب على وجنتي؟".

قال رجال الشرطة: "لسنا جذوعاً من الخشب. نحن نعرف أنهم يثقلون عليك. القضية أن تجار البلح أولئك، من دون ريب، لصوص من قلعة محصنة في أعماق الجبال في ولاية أخرى. وحين يختطفون غنيمة فهم، ولا ريب، يعتصمون في مأواهم للاحتفال والعربدة. كيف نستطيع القبض عليهم؟ حتى لو كنا نعرف أين يختبئون فنحن نعجز إلا عن الشخوص إليهم عن بعد".

كانت أعصاب خه تاو على وشك الانفجار حزناً وغماً، فأضافت هذه الكلمات الزيت إلى النار، فغادر المركز، واعتلى صهوة جواده، وقفل إلى بيته، وربط الحصان إلى معلفه في مؤخر البيت. ثم جلس واستغرق في التفكير.

سألته زوجته: "فيم هذا الاكتئاب والحزن؟".

أجاب قائلاً: "أنت لا تعرفين ما حدث. أصدر صاحب السعادة قبل أيام أمراً باعتقال اللصوص الذين سلبوا أحد عشر حملاً من هدايا الحاكم ليانغ التي أرسلها إلى حميه الوزير الأول تساي. ووقعت الحادثة على سلسلة جبال الأرض الصفراء. ونحن نجهل هوية اللصوص، وأنا لم أعتقل أحداً منهم بعد. وقد ذهبت اليوم أطلب مهلة أخرى، فوجدت أن الوزير الأول أرسل ضابطاً يقيم هنا ريثما يتم اعتقال اللصوص ونقلهم إلى العاصمة الشرقية. استوضحني الوالي عن الموضوع فقلت: ليست لديَّ أنباء جديدة، ونحن لم نعتقلهم بعد. فرسم وشماً على وجنتي، تاركاً المكان الذي سأنفى إليه فارغاً. لست أعرف إلى متى تطول حياتي بعد الآن!".

صاحت زوجه: "ماذا سنفعل؟ هذا شيء مرعب!".

وفيما هما يتشاوران جاء شقيقه الأصغر خه تشينغ لزيارته. فسأله خه تاو: "ماذا تريد؟ فيم لا تقامر؟ وماذا تفعل هنا؟".

أشارت الزوجة، وكانت ذكية، إلى الشاب ألا يعطيه جواباً، وقالت: "ألا تدخل إلى المطهى؟ ثمة موضوع أود مخاطبتك فيه".

سار خه تشينغ برفقتها إلى المطهى وجلس. قدمت له طعاماً وخضراوات، وأدفأت بعض أكواب من الخمرة.

قال: "شقيقي شديد الغطرسة. قد أكون أخطأت، ولكنني لا أبرح شقيقه! فيم يتعالى عليَّ ويتجبر؟ إنه شقيقي، أليس كذلك؟ أيشينه أن يحتسي معي قليلاً من الشراب؟".

- أنت لا تعرف مقدار اضطرابه.

- كان على الدوام يملك وفرة من المال والبضائع. فماذا أصابه؟ وأنا لم أقلق راحته في شيء، ففيم اضطرابه؟

- أنت تجهل القصة. قبل أيام، على سلسلة جبال الأرض الصفراء، سرقت عصابة من تجار

البلح هدايا الحاكم ليانغ من العاصمة الشمالية، كان بعث بها إلى الوزير الأول تساي. وقد تلقى والي جيتشو قبل قليل أمراً من تساي باعتقال اللصوص خلال عشرة أيام ونقلهم إلى العاصمة. وإذا هو لم يقم بهذه المهمة فسيتم نفيه إلى حامية بعيدة. أفلم تر الوشم الذي صنعه الحاكم على وجه أخيك؟ "منفي إلى ولاية...؟" لقد ترك اسم المنفى فارغاً. فإن لم يعتقل اللصوص سريعاً، فسوف يعاني شقاء لا حدود له. فكيف يخطر له أن يتناول معك شراباً؟ ولهذا هيأت بعض الطعام والشراب لك هنا. إنه يائس إلى أبعد حدود اليأس. فلا تلمه.

- سمعت بعض الإشاعات تردد أن اللصوص سرقوا هدايا ذكرى مولد الوزير الأول. فأين وقع الحدث؟

- يقولون إنه وقع على سلسلة جبال الأرض الصفراء.

- وأي صنف من الناس كان أولئك اللصوص؟

- يا أخي، أنت لست سكران. أخبرتك قبل قليل؛ سبعة من تجار البلح.

ضحك خه تشينغ: "هذه هي القضية إذاً. إذا كان معروفاً أن تجار البلح قاموا بهذا العمل، ففيم الإغراق في التفكير؟ لمَ لا يرسل عدداً من الرجال المقتدرين لاعتقالهم؟".

- هذا كلام سهل. هم لا يعثرون لهم على أثر.

ابتسم خه تشينغ: "ليس هنالك ما يثير الخوف، يا زوجة أخي. ما أكثر ما كان شقيقي يستقبل عدداً من أصدقائه العابثين، ولكنه لا يلقي بالاً إلى أقربائه. إنه يفتش عن لصوص، وأصدقاؤه الخلص يقولون إنهم لم يعثروا لهم على أثر. لو كان يحتسي برفقتي بعض أكواب الخمرة من فترة إلى أخرى، فقد أكون قادراً على إخباره كيف يسوس الأمور".

- ألديك ما يفتح مغاليق هذا السر حقاً؟

ضحك خه تشينغ: "سأنتظر حتى ينهدم شقيقي من اليأس، وعندها قد أعرض عليه خطة تنقذه مما هو فيه".

ونهض متأهباً للرحيل. فألحت عليه زوجة شقيقه أن يرتشف بضعة أكواب أخرى من الخمرة.

هرعت في هذه الأثناء إلى الغرفة المجاورة وأخبرتْ زوجها بالأمر. فعجَّل خه تاو يدعو شقيقه إليه.

قال وابتسامة اعتذار تتخايل عن صفحة وجهه: "إن كنتَ تعرف أين يقيم اللصوص، ففيم لا تهب إلى نجدتي؟".

- لست أعرف شيئاً. كنت أمزح مع زوجتك. فكيف أهبُّ إلى نجدتك؟

- يا أخي الطيب، لا تغتظ من معاملتي إياك. فكِّر كيف كنت طيباً معك على وجه العموم، ولا تفكر في شروري بين حين وحين. أنقذ حياتي!

- ولكن لديك عدداً من الرقباء أقوياء النظر سريعي الحركة. وهنالك قرابة ثلاثمائة من أفراد الشرطة يأتمرون بأمرك. أفلم يبذلوا طاقة جهودهم؟ ماذا في مقدور أخ صغير أن يفعل؟

- لا تلق إليهم بالاً. لديك ما تخفيه. فلا تترقب من الآخرين أن يكونوا أبطالاً. أخبرني أين

ذهب اللصوص فأجزيك المكافأة. أرح أعصابي.

- وكيف لي أن أعرف أين ذهبوا؟

- لا تعذبني. تذكر أن أماً واحدة ولدتنا!

- لا تخش شيئاً. حين تتعقد الأمور كثيراً سأخرج وأعتقل بنفسي أولئك اللصوص الحقيرين الذين لا قيمة لهم.

قالت زوجة الأخ: "خه تشينغ. يجب أن تنجده مهما كانت الأمور، إنه واجبك بصفتك أخاً. لقد أصدر الوزير الأول أمراً باعتقال اللصوص، والأمر خطير. فكيف تتحدث عن لصوص حقيرين لا قيمة لهم!".

قال خه تشينغ ساخراً: "تعرفين أنني جئت أطلب نقوداً أقامر بها، يا زوجة أخي. ما أكثر ما انهال عليَّ أخي تقريعاً ولوماً! وحين كان يضربني أو يشتمني كنت أعتصم بالصمت: وحين يقيم الولائم فأنا لا أحضرها. أما اليوم فيبدو أني على شيء من الأهمية في آخر المطاف!".

تحقق خه تاو أن هنالك شيئاً من المنطق في ما قاله خه تشينغ، فأخرج على الفور سبيكة فضية تزن عشر أوقيات وضعها على المنضدة، قائلاً: "خذها، يا أخي. وبعد قبضنا على اللصوص أضمن أنك لن تفتقد الذهب أو الفضة، والحرير أو الساتان".

ضحك خه تشينغ: "هذه من دون ريب قضية، وعدم إحراق البخور في الأوقات المناسبة، بل عناق قدمي التمثال في هياج. سيكون الأمر مجرد ابتزاز إن قبلت فضتك الآن. ردها إليك. لا تحاول رشوتي. إن رحت تتصرف على هذا الغرار فلن أنطق بكلمة واحدة. سأخبركما بالأمور لمجرد أنكما قدمتما اعتذاريكما. ولست أبالي بدراهمكما".

أوضح خه تاو: "فضتي هي المكافآت الوحيدة للقضايا التي أقوم بحلها. وطبيعي أني أملك على الدوام أربعمائة أو خمسمائة ربطة من النقد بين يديَّ. لا ترفض الفضة يا أخي، وأخبرني أين ذهب أولئك اللصوص؟".

ضرب خه تشينغ على فخذه: "إني أضعهم هنا، في جيبي!".

انشده خه تاو: "ماذا تقصد؟".

- لا تبال. ثق بكلامي. لست أريد فضتك، ولست في حاجة إلى رشوتي. كل ما أطلبه منك هو أن تعاملني باحترام.

وعندها روى خه تشينغ ما يعرفه في هدوء.

ونتيجة لذلك، برز بطل شجاع في إقليم يونتشنغ، وتجمهرت في بحيرة ليانغشان حشود من الرجال الشجعان يهزون أديم السماء. من هم أولئك الرجال الذين تحدث خه تشينغ عنهم؟ إذا أحببت أن تعرف ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثامن عشر

سونغ جيانغ يساعد قائد السجن تشاو على الهرب سراً؛ وصاحب اللحية الجميلة يخدع النمر المجنح ببراعة

ظل المفتش خه يلحُّ على شقيقه الأصغر أن ينفض له جلية الخبر، فأخرج خه تشينغ محفظة للوثائق في وسطها دفتر ملحوظات.

- جميع اللصوص حُفظت أسماؤهم ههنا!

- كيف يمكن أن يحدث هذا؟

- أصدقك القول فأعلن أني خسرت قبل أيام قليلة في القمار مرة أخرى، وفرغت جيوبي وخوى وفاضي. فصحبني أحد رفاقي المقامرين إلى قرية تدعى آنله، على مبعدة خمسة عشر لياً وراء البوابة الشمالية، فحططت رحالي في حانة عائلة وانغ، حيث استطعت أن أدخر مبلغاً أنفقه على موائد القمار. وأصدرت السلطات أمراً أن تحتفظ جميع الحانات بسجل مختوم بخاتم خاص، وأن يسدد رسم عن كل ضيف وافد، فيدوِّن اسمه، ومكان ولادته، ووجهته، وماهية عمله، وأن يقدم هذا السجل إلى قائد السجن المحلي لدى كل طلب منه مرة في كل شهر. وكان الخادم في حانة عائلة وانغ أمياً، فتوسَّل إليَّ أن أحفظ له السجل لفترة أسبوعين. وفي اليوم الثالث من الشهر القمري السادس وصل سبعة من تجار البلح يدفعون سبع عربات يدوية عرفت واحداً منهم. كان قائد السجن تشاو عند الضفة الشرقية في إقليم يونتشنغ. فقد نزلت مرة في مزرعته مع أحد رفاق القمار. حملت ريشة الكتابة، وسألت: "ما اسمك، من فضلك؟". وقبل أن يتمكن من الكلام أجاب عنه على الفور رجل أشقر الوجه له شاربان وعثنون: "كلنا من عائلة لي. ونحن من ولاية هاوتشو، وفي طريقنا مع البلح إلى العاصمة الشرقية". ثارت في قلبي الشكوك، ولكنني دوَّنت ما قاله لي. وفي اليوم التالي غادروا الحانة. وعرض مضيفي عليّ أن يرافقني للعب القمار في مكان ما من القرية. وعلى الطريق، عند منعطف على الدرب، التقينا شاباً يحمل دلوين على حمالة للكتف. لم أعرفه، ولكن المشربي حيّاه قائلاً: "إلى أين أنت ذاهب، أيها المعلم باي؟" فأجاب الرجل: "إلى دارة رجل ثري في هذه القرية. فأنا أحمل إليه هذا الحمل من الخل".

فقال لي المشربي: "إنه باي شنغ المعروف باسم فأر وضح النهار. وهو مغرم بالمقامرة أيضاً". فدوّنت هذا الحديث في ذاكرتي. وفي ما بعد، حين سمعت ثرثرة تقول إن تجار البلح وضعوا مخدراً لبعض المسافرين على سلسلة جبال الأرض الصفراء وسرقوا هدايا يحملونها، خطر لي على الفور أن لقائد السجن تشاو ضِلعاً في الموضوع. اعتقل باي واستجوبه، وستعرف القصة بكاملها. واليك النسخة التي دونتها في السجل.

ابتهج خه تاو، ورافق شقيقه لرؤية الوالي.
سأل الوالي: "هل من تطورات في تلك القضية؟".
أجاب خه تاو: "قليلاً". استدعاهما الوالي إلى الغرف الخلفية واستجوبهما بدقة. فأجابه خه تشينغ بالتفصيل. فأرسل الوالي ثمانية من رجال الشرطة لمرافقة الشقيقين في تلك الليلة ذاتها إلى قرية آنله. وأرغموا المشربي على مرافقتهم إلى باي شنغ، فبلغوا منزل بائع الخمور في فترة الحراسة الثالثة. وإزاء إصرارهم نادى المشربي على باي شنغ أن يفتح له الباب ويشعل المصباح. فأدخلتهم زوجته. وسمعوا باي شنغ يزمجر في فراشه. قالت الزوجة إنه مصاب بالحمى ولكنه لم يعرق. أنهضوه عن فراشه وشدوا وثاقه. وكان وجهه ملطخاً ببقع حمراء وبيضاء.
صاحوا به: "إنه لأمر طريف هذا الذي قمت به على سلسلة جبال الأرض الصفراء!".
أنكر باي شنغ كل شيء. فقيدوا زوجته، ولكنها رفضت الكلام بدورها. وفتش رجال الشرطة البيت، فلحظوا أن الأرض الترابية تحت الفراش لم تكن مستوية، فشرعوا يحفرون. وعلى عمق ثلاث أقدام أطلق أحدهم صرخة. وصار وجه باي شنغ بلون الطين. من قلب الحفرة في الأرض أخرج المنقبون حقيبة من الذهب والفضة.
أخفى رجال الشرطة رأس باي شنغ ووجهه بغطاء، واقتادوه وزوجته والمال المسلوب عائدين إلى جيتشو. كانت فترة الحراسة الخامسة، والسماء قد انغمرت بالنور حين وصلوا إلى مكتب الولاية. أوصلوه إلى الوالي، وشدوا الحبال حوله بمزيد من الضمان، واستجوبوه غن الأدمغة التي كانت وراء السرقة. أنكر باي شنغ كل علاقة له بالسرقة، ورفض الإفضاء بأسماء شركائه في المؤامرة. ضربوه ثلاث أو أربع مرات إلى أن تشقق جلده وتدفقت الدماء من جروحه.
صاح الوالي: "نعرف حق المعرفة أن زعيم العصابة هو قائد السجن تشاو من الضفة الشرقية في إقليم يونتشنغ. فلا فائدة من الإنكار. اذكر لنا أسماء الستة الآخرين وسأحول دون ضربك".
حاول باي شنغ أن يتماسك، ولكنه ما أسرع أن تخاذل، فاعترف قائلاً: "القائد كان قائد السجن تشاو. جاء بصحبة ستة رجال وأغراني على حمل الخمرة! ولكنني في الحقيقة لا أعرف من يكون الستة الآخرون!".
قال الوالي: "ليست هذه معضلة. كل ما علينا أن نفعله هو أن نقبض على قائد السجن تشاو، وسرعان ما نعثر على الستة الآخرين".
وضعت حول عنق باي شنغ مخلعة تزن عشرين كاتياً مما يستعمل للمجرمين المحكومين. كما أن زوجته قُيدت بالأغلال وأرسلت إلى سجن النساء. وأصدر الوالي عندها أمراً يلزم فيه خه تاو بالانطلاق من فوره مع عشرين من أفراد الشرطة إلى إقليم يونتشنغ ويطلب إلى الحاكم أن يسعفه بالمعونة للقبض على قائد السجن تشاو ورفاقه المتآمرين الستة مجهولي الهوية. وطلب إلى خه أيضاً أن يصطحب النقيبين اللذين رافقا قافلة الهدايا للتعرف على هوية المجرمين. وحذَّره الوالي قائلاً إنه يجب أن ينطلق في هدوء وألا يسمح لأية أنباء عن الحملة أن تتسرب إلى أي كان.
سافر المفتش ورجاله طوال الليل إلى يونتشنغ، فأوقف هو أول الأمر جماعته في إحدى

الحانات سراً، ومن بعد، قدَّم نفسه برفقة اثنين من رجاله والأمر الذي أصدره الوالي لدى بوابة مبنى الحاكم.

كانت تباشير الفجر قد انتشرت، ومجلس الحاكم لم ينعقد بعد. وكان السكون مخيماً على كل شيء. دلف خه تاو إلى مشرب للشاي عبر الطريق وجلس منتظراً. وبينما هو يرتشف الشاي الذي طلبه توجه إلى النادل مستوضحاً: "فيم هذا الهدوء المخيّم على مبنى الحاكم؟".

- لقد انتهت دورة الصباح. وذهب المشاهدون والمتخاصمون جميعاً يشربون الشاي. لم يرجع أحد منهم بعد.

- أتراك تعرف الكاتب القائم على الخدمة هذا النهار؟

قال النادل، وهو يشير بيده: "ها هو قادم، هنالك".

شخص خه تاو ببصره. كان رجل من عائلة تدعى سونغ يخرج من مبنى الحاكم. كان اسمه جيانغ، والاسم الشعبي الذي عرف به قونغ مينغ. وكان الابن الثالث، أبصر النور في إقليم قرية عائلة سونغ. ونظراً لقصره ودكنة بشرته خلع الجميع عليه لقب سونغ جيانغ الداكن. وباعتبار أنه كان براً بوالديه، وشجاعاً لا يعرف الخوف، وعطوفاً على رفاقه، اشتهر أيضاً بالمعلم الثالث الداكن الشجاع والمخلص. وكان والده لا يبرح في قيد الحياة، ولكن والدته انتقلت إلى الدار الآخرة منذ زمن بعيد. وكان له أخ يصغره سناً يدعى سونغ تشينغ معروف بلقب المروحة الحديدية يدير مع والده سونغ المحترم مزرعة في القرية ويعتاشان من بيع الفواكه في حقولهما.

كان سونغ جيانغ كاتباً في محكمة الإقليم في يونتشنغ. وكان يكتب بخط مقروء حسن. وكان ملماً بجميع الإجراءات والأصول الإدارية، ومولعاً باللعب بالسلاح، وماهراً في فنون القتال بمختلف أشكالها. ولم يكن يصاحب غير أعضاء في أخوية الشجعان، ولكنه لا يعفو عن مساعدة الجميع، علت مقاماتهم أم سفلت، إذا استجاروا به، ويقدم لضيوفه الطعام والمأوى في مزرعة العائلة، ويرافقهم على الدوام، ويزودهم بنفقات السفر قبل رحيلهم. وكان يوزع الذهب كمن ينثر التراب! ولا يرفض إغداق المال على من يطلبه. وكان على الدوام يهوّن الأمور على الناس، ويحل قضاياهم المستعصية، ويسوي الخلافات، وينقذ البؤساء، ويزود الفقراء بما يحتاجون من أثمان النعوش والأدوية، ويسخو عليهم في العطاء، ولا يتوانى عن إغاثة الملهوفين.

وهكذا اشتهر في جميع مقاطعات شاندونغ وخبي، وغدا معروفاً من الجميع باسم المطر في أوانه لأنه أشبه بمطر السماء ينعش الأحياء وينجدهم عند الحاجة.

وبينا سونغ جيانغ يجتاز مبنى الحاكم مع المرافق اعترض المفتش طريقهما، قائلاً: "هلا شاركتماني تناول الشاي، يا سيدي الكاتب؟".

استطاع سونغ جيانغ أن يتعرف من ملامح المفتش أنه من رجال الشرطة. فاستوضح في أدب: "من أين أنت يا أخي".

- إذا شرفتني برفقتك في مشرب الشاي، ففي مقدورنا الحديث هنالك.

- كما تشاء، يا سيدي.

دخل الرجلان مشرب الشاي وجلسا. أمر سونغ جيانغ المرافق أن ينتظره خارجاً. ثم التفت إلى المفتش مستفسراً:

- هل أستطيع أن أسألك عن اسمك، يا أخي؟

- أنا خه تاو، مفتش شرطة في ولاية جيتشو. أيمكن أن أسألك عن اسمك، يا سيدي الكاتب؟

- اعذرني لأني لم أعرفك أيها المفتش. أنا موظف صغير يدعى سونغ جيانغ.

ارتمى خه تاو على ركبتيه ساجداً:

- سمعت بك منذ زمن بعيد، ولم أتشرف بلقائك.

- أنت تربكني. أرجوك أن تجلس في رأس المنضدة.

- رجل مغمور، ما كان ليحلم بهذا!

- باعتبارك فرداً من منظمتنا العاليا وضيفاً من بلد بعيد، ينبغي أن تفعل ذلك أيها المفتش.

تحاورا في أدب فترة من زمن. وبعدها جلس سونغ جيانغ في مقعد المضيف وخه تاو في مقعد الضيف.

نادى الكاتب: "أيها النادل، جئنا بقدحين من الشاي". وسرعان ما أحضرت المرطبات، وشرب الرجلان.

سأل سونغ جيانغ: "ما هي التعليمات التي جئت بها من السلطات العليا إلى إقليمنا المتواضع، أيها المفتش؟".

- سأتحدث بمنتهى الصراحة. إن لها صلة بعدد من الناس ذوي الأهمية هنا.

- هل يمكن أن تكون لها علاقة بالسرقة؟

- حملت معي أمراً مختوماً. وأؤمن أنك ستساعدني في تنفيذه.

- كيف لا أفعل ذلك مع مبعوث من سلطاتنا العليا؟

- أنت هو القيم على السجلات الرسمية، يا سيدي الكاتب. وليس هنالك ضير من إطلاعك على كل شيء. ففي سلسلة جبال الأرض الصفراء الخاضعة لولاية الوالي قامت عصابة من ثمانية لصوص بوضع المخدر لخمسة عشر جندياً يحملون هدايا من الحاكم ليانغ في دامينغ، العاصمة الشمالية، إلى الوزير الأول تساي، وهربوا بأحد عشر حملاً من الذهب والمجوهرات الثمينة تقدر بمائة ألف ربطة نقدية. وقد قبضنا على باي شنغ، الشريك في الجريمة. وهو يقول إن السبعة الآخرين، اللصوص الحقيقيين، يقيمون جميعاً في هذا الإقليم. وقد أرسل الوزير الأول معاوناً إلى ولايتنا يحمل أوامر بالبقاء فيها حتى القبض عليهم. ونرجو أن تمدونا بكل معونة ممكنة.

- بدهي أنا سنلقي القبض على المجرمين ونقدمهم إلى المحاكمة. وسنفعل ذلك بناء على طلبك، أيها المفتش، إن لم نقل شيئاً عن أوامر الوزير الأول نفسه بهذا الخصوص. من هم أولئك السبعة الذين أسماهم باي شنغ؟

- زعيمهم هو قائد السجن تشاو من الضفة الشرقية. وأصدقك القول أننا لا نعرف أسماء الستة الآخرين. ونترجى معونتك في هذا الموضوع.

شُده سونغ جيانغ. فهمس في سره قائلاً: "إن تشاو غاي واحد من أفضل أصدقائي! وهذه الجريمة التي اقترفها جريمة كبرى! يجب أن أنقذه. إذا اعتقلوه فمصيره الموت!".

أخفى سونغ جيانغ قلقه، وقال: "ذلك الحقير القذر! الجميع في هذا الإقليم يمقتونه. وقد بلغت به النذالة هذه الحدود! سنجعله يدفع الثمن!".

- أرجو أن تساعدنا في القبض عليه.

- لن تكون هنالك صعوبة في ذلك. فالأمر يسير مثل القبض على سلحفاة في جرة. يكفي أن تمد يديك وحسب، كما يقول المثل القديم. ولكن، ينبغي أن تقدم الأمر إلى القاضي حين يجلس مجلس الحكم. وسوف يقرأه ويرسل رجالاً يلقون القبض عليه. أنا مجرد كاتب. ولا أستطيع أن أحمل على كتفي عبء مسؤولية على هذا الغرار. ماذا يحدث لو تسرب مثل هذا الخبر؟

- أنت على حق. أرجو أن ترشدني.

- لقد أمضى القاضي يومه منهمكاً في العمل، وهو يأخذ قسطاً من الراحة الآن. إذا انتظرت فترة فسرعان ما تنعقد المحكمة مرة أخرى. وسأنادي عليك.

- آمل أن تساعدني في إنجاز مهمتنا، كائنة ما كانت الأمور.

- من دون ريب. هذا أمر لا خلاف عليه. يجب أن أعود إلى منزلي للقيام ببعض الأعباء، وسأرجع على الفور. أرجو أن تجلس وتستريح لحظات.

- ليكن ما تقول، يا سيدي الكاتب. وسأقيم على انتظارك هنا.

نهض سونغ جيانغ وخرج من الحانة، وقال للنادل: "إذا طلب ذلك السيد مزيداً من الشاي سجله على حسابي". وأسرع خطواته وأمر مرافقه أن ينتظر خارج الباب: "حين تنعقد المحكمة اذهب إلى مشرب الشاي، وأخبر ذلك الضابط أني سأعود إليه من فوري. واطلب إليه انتظاري فترة من زمن".

أسرج سونغ جيانغ جواده في البيت، وخرج به من الباب الخلفي. حمل سوطه في يده، وامتطى الجواد وسار به على مهل خارج البلدة. وحين دلف خارج البوابة الشرقية انهال بضربتين من سوطه على الجواد فطار به بسرعة الأرنب صوب الضفة الشرقية. ولم يمض زمن طويل حتى وصل إلى مزرعة تشاو غاي. وحين عرفه الخادم أسرع فأخبر صاحبَ الدار.

كان تشاو غاي يرتشف الشراب برفقة وو يونغ، وغونغسون شنغ، وليو تانغ تحت دالية العنب في الحديقة الخلفية. وكان الأشقاء يوان الثلاثة قد استلموا حصتهم من الغنيمة ورجعوا إلى قرية اللوح الحجري. وأعلن الخادم أن الكاتب سونغ بالبوابة الأمامية.

سأل تشاي غاو: "من يرافقه؟".

فأجاب الخادم: "جاء وحده، وجواده مكسو بالزبد. ويريد رؤيتك حالاً".

هبَّ تشاو غاي على قدميه: "لا بد أن شيئاً ما قد حدث".

حيا سونغ جيانغ قائد السجن تحية ودية، وأمسك به من يده ومشى برفقته إلى مبنى صغير قريب.

- فيم مجيئتك على مثل هذه العجلة، يا سيدي الكاتب؟

- أنت لا تجهل مدى إخلاصي لك، يا أخي. فأنا أفديك بحياتي. لقد كشفوا قضية سلسلة جبال الأرض الصفراء! ونقلوا باي شنغ إلى سجن جيتشو. وقد اعترف ودل عليكم، أنتم السبعة. وأرسل الوالي مفتش الشرطة خه وعدداً من الرجال يحملون أوامر منه ومن الوزير الأول تساي بوجوب اعتقال السبعة، وأسماك بصفتك زعيماً لهم. شكرا للسموات أن القضية وقعت بين يديَّ! واستمهلت المفتش قائلاً إن القاضي يغطُّ في النوم؛ وطلبت إليه أن ينتظرني في مشرب الشاي المواجه للمحكمة. ثم أسرعت إلى هنا لأحذرك. "أفضل وسيلة بين الوسائل الست والثلاثين، هي أن.. تهرب". هيا، أسرع! لا تتهاون! سأعود الآن لأصحب المفتش والوثائق التي يحملها إلى المحكمة. وسوف يبعث القاضي رجاله هذه الليلة بالذات. ينبغي ألا تتأخر. إذا وقع مكروه فسأقف مكتوف اليدين لا طاقة لي على العون. لا تلمني إن فشلت في إنقاذك.

قال تشاو غاي وقد هدَّه الخوف: "يا أخي، لن أقوى على شكرك بما فيه الكفاية".

- أنقذ روحك. ركزّ جهودك على الهرب. لا تتوانَ. يجب أن أعود.

- هنالك سبعة منا. الأشقاء الثلاثة يوان - الثاني والخامس والسابع - رجعوا إلى قرية اللوح الحجري حاملين نصيبهم من الغنيمة. والثلاثة الآخرون موجودون هنا. يجب أن تقابلهم.

قاده إلى الحديقة وقدمه لأصدقائه: "وو يونغ، وغونغسون شنغ من جيتشو، وليو تانغ من دونغلو". تبادل سونغ جيانغ تحية مقتضبة معهم وتأهب للرحيل. ألحَّ على قائد السجن قائلاً: "انتبه لنفسك، يا أخي. عجل بالهرب. سأذهب الآن". وركب حصانه عند البوابة الأمامية، ولوَّح بسوطه، ورجع إلى البلدة.

سأل تشاو غاي أصدقاءه الثلاثة: "أتعرفون من كان هذا الرجل؟".

قال وو يونغ: "فيم هو على مثل هذه العجلة؟ من يكون؟".

- سوف يدهشك ما أقول. ولكنه لو لم يأت إلينا لغدونا الآن من الموتى!

صاح الثلاثة: "هل تقصد أن الأنباء تسربت وقصتنا انفضحت؟".

- هذا الأخ جاء يحذّرنا معرضاً حياته للخطر. لقد اعتقل باي شنغ. وهو الآن في سجن جيتشو، وأعلن عن أسمائنا، فأرسل الوالي المفتش خه وعدداً من الرجال يحملون أمراً خاصاً من الوزير الأول بوجوب القبض علينا في إقليم يونتشنغ. ومن حسن الحظ أن صديقي جعل المفتش ينتظره في مشرب الشاي وأسرع هو إلى هنا. وحين يعود أدراجه، سيصدر القاضي أمراً، ويرسل رجالاً هذه الليلة بالذات لاعتقالنا. فماذا نفعل؟

قال وو يونغ:

- لو لم ينذرنا لوقعنا جميعاً في الشرك. من يكون هذا المحسن إلينا؟

- إنه كاتب في محكمة القاضي يدعى سونغ جيانغ، حامي الشهامة.

- سمعت عنه، ولكننا لم نلتق رغم أننا نعيش قريبين.

استوضح الآخرون:

- أليس هو المعروف بين الرجال الشجعان باسم سونغ جيانغ المطر في أوانه؟

أومأ تشاو غاي برأسه: "هذا هو. ونحن صديقان حميمان، أخوان بالتبني. المعلم وو لم يلتقه، ولكنني أستطيع أن أؤكد لك أنه جدير بالاسم الذي اقترن به. وباعتبار أني غدوت شقيقه بالدم، فأنا أشعر أني لم أعش حياتي سدى!".

وخاطب وو يونغ قائلاً:

- وضعنا حرج. فكيف نجد مخرجاً؟

- ليس هنالك ما نناقش فيه. أفضل وسيلة بين الوسائل الست والثلاثين هي أن... تهرب.

- هذا ما قاله الكاتب سونغ. ولكن، أين نذهب؟

- إني أدرس هذا الأمر. يخطر لي أن نجمع ستة أو سبعة أحمال من ممتلكاتنا وننضم إلى الأشقاء الثلاثة يوان في اللوح الحجري. نرسل أول الأمر رجلاً في سرية يخبرهم بقدومنا.

- لكنهم من الصيادين. فكيف يمكن أن يأوونا؟

- أنت تخطئ في التفكير، يا أخي، فقرية اللوح الحجري لا تبعد عن بحيرة ليانغشان أكثر من عدة خطوات. والقلعة على الجبل في ذروة ازدهارها. حين يخرج الضباط ورجال الشرطة للبحث عن اللصوص فهم لا يجرؤون حتى على التطلع ناحيتها. وإذا اشتد وطيس التفتيش عنا، ففي مقدورنا أن ننضم إلى العصابة.

- فكرة جيدة. لكن، لنفرضنَّ أنهم رفضوا قبولنا؟

- إن لدينا وفرة من الذهب والفضة. فإذا قدمنا لهم شيئاً منها فسيقبلوننا على الفور.

- إذا كنا متفقين معاً فيحسن بنا أن نباشر الرحيل. أيها المعلم وو، أنت وليو تانغ تأخذان عدداً من الخدم وبعض الأحمال وتذهبون أولاً إلى عائلة يوان وتهيئون كل شيء. أخبروهم أن يلاقونا. سنجيء على طريق البرّ. وسأنضم وغونغسون إليكما حالما نتدبر الأمور هنا.

كوّم وو يونغ وليو تانغ الهدايا المسروقة من الذهب والمجوهرات في نصف دستة من الأحمال، وأمرا الخدم أن يتناولوا وجبة كافية من الطعام. وبعدها دسَّ المعلم سلسلته البرونزية في كمه، وحمل ليو تانغ مطرده، وانطلقت الجماعة ميممة شطر قرية اللوح الحجري حاملة تلك الأحمال.

وشرع قائد السجن وغونغسون الكاهن التاوي يغلقان أبواب المزرعة، وقدما للخدم الذين رفضوا الرحيل الأموال، ونصحاهم بالبحث عن سادة آخرين. وجمع أولئك الذين رغبوا في الرحيل معهما ممتلكاتهم وجهزوا أمتعتهم. ولن نتابع الحديث في هذا الموضوع.

ستتحدثنَّ بالأحرى عن سونغ جيانغ الذي رجع بحصانه إلى البلدة وهرول إلى مشرب الشاي. كان المفتش هو واقفاً عند الباب ينتظر قدومه.

قال الكاتب: "يؤسفني أني جعلتك تنتظر طويلاً. فقد أبقاني أحد ذوي القربى من قريتي أحادثه في شؤون عائلية".

- هل أزعجك بمرافقتي إلى المحكمة؟

- أرجو أن تسير معي من هنا.

دخل الرجلان مبنى الحاكم حيث كان شي وين بين يعقد محكمته. وقاد سونغ جيانغ وقد حمل الأوراق في يده المفتش خه تاو إلى منصة القاضي، وأمر الحجاب أن يعلقوا على الباب اللوحة التي كتب عليها "ممنوع الدخول".

خاطب القاضي قائلاً: "وثائق من لدن والي جيتشو حملها المفتش خه بطلب التعجيل بقضية اللصوص".

فتح شي المظروف وقرأ الوثائق، فارتعش مذهولاً. التفت إلى سونغ جيانغ قائلاً: "أرسل الوزير الأول معاوناً ينتظر في الولاية! ينبغي أن نرسل رجالاً للقبض على اللصوص!".

- إن أرسلناهم نهاراً فقد يتسرب النبأ. والليل هو أفضل الأوقات لذلك. وحين نقبض على تشاو غاي فستتاح لنا الفرصة لاعتقال الستة الآخرين.

- تشاو غاي هو قائد السجن في الضفة الشرقية وله سمعة طيبة. ولست أفهم كيف يمكن أن يشترك في مثل هذه القضية!

استدعى القاضي الشريف ومفوضَي شرطة، أحدهما يدعى تشو تونغ، والآخر لي هنغ. وكل منهما رجل نسيج وحده.

بعد أن تلقى الثلاثة تعليمات القاضي في الحجرات الخلفية ركبوا خيولهم واتجهوا إلى الحامية حيث اختاروا مائة من الرجال من جنود عاديين ورماة نبال مشاة وفرسان. وحين انسدل حجاب الليل انطلقوا جميعاً برفقة المفتش خه والضابطين اللذين رافقا قافلة الهدايا. كان كل رجل يحمل حبالاً وأسلحة. ركب الشريف حصانه، وركب المفوضان حصانيهما، وقد تسلحوا بالسيوف والأقواس والسهام والمطارد. وكانت في المقدمة والنهاية فصائل من رماة السهام المشاة والفرسان. وغادروا البلدة عبر البوابة الشرقية واتجهوا سريعاً صوب الضفة الشرقية ومنزل قائد السجن تشاو.

كانت فترة الحراسة الأولى قد حلّت حين بلغوا القرية، واحتشدوا في باحة معبد غوانيين.

قال تشو تونغ:

- مزرعة تشاو غاي إلى الأمام منا. وهنالك دروب تؤدي إليها من بوابتيها الأمامية والخلفية. إن هاجمنا من الأمام فسيهرب من الخلف. وإذا هاجمنا من الخلف فسيهرب من الأمام. ينبغي أن نأخذ بعين الاعتبار أن تشاو غاي رجل مشهور. ولا نعرف من يكون الستة الآخرون، ولكنهم ليسوا من السادة المهذبين، وجميعهم يعصف بهم اليأس. فإذا قرروا القتال في سبيل الفرار، بمعونة من الخدم، فلن نقوى على الوقوف في وجوههم. وأملنا الوحيد أن نصيح لهم من جهة ونهاجمهم من الأخرى، ونجعلهم يتراكضون وقد دبت الفوضى في صفوفهم، وبعدها نقوم بحركتنا. وأقترح أن نقسم قوانا إلى شطرين، أقود شطراً ويقود المفوض لي الشطر الآخر. وسأسير مسرعاً برجالي راجلين إلى البوابة الخلفية، ونقيم كمينا. وحين تسمعوننا نطلق الصفير، فإن المفوض لي وأنت وجماعتك تسحقون البوابة الأمامية. اعتقلوا كل رجل تقع عليه أيديكم.

قال لي: "هذا يبدو رائعاً. لكن، ألا يحسن لو أن الشريف يهاجم من البوابة الأمامية في حين

أقطع أنا الطريق الخلفية؟".

- أنت لا تفهم، يا أخي. ثمة ثلاث دروب ممكنة للفرار من المزرعة. ولطالما لمحتها... فأنا أعرف كل ممر. حتى من دون أية مشاعل أستطيع اجتيازها في الظلمة. وأنت لا تعرف جميع الأمكنة التي يتمكن تشاو غاي من الانفلات منها. فإذا استطاع الفرار فسيكون الأمر مصيبة.

قال الشريف: "أنت على حق، أيها المفوض تشو. خذ نصف الرجال".

قال تشو تونغ: "أحتاج إلى حوالى ثلاثين رجلاً". واختار عشرة من رماة السهام وعشرين جندياً وانصرفوا.

ركب الشريف جواده مرة أخرى، وأقام لي هنغ نطاقاً واقياً من حملة السهام الفرسان حواليه. واصطف الجنود في المقدمة، وعلى ضوء قرابة ثلاثين مشعلاً، مزودين برماح ومطارد وكلابات، راحوا يقتربون مسرعين في كتلة واحدة في اتجاه المزرعة.

حين غدوا على مسافة نصف لي من المزرعة لمحوا على حين فجأة ناراً تشبّ من قلب المبنى المركزي، وتنتشر مثل حجاب كثيف من الدخان الأسود وتنفث لهيباً أحمر صوب السماء. اقتربوا عشر خطوات أخرى فرأوا ثلاثين أو أربعين ناراً أخرى تشبّ من كل ناحية حوالى البوابتين الأمامية والخلفية.

هزَّ لي هنغ مطرده، فصاح الجنود الواقفون وراءه، واندفعوا عبر البوابة الأمامية كتلة واحدة. وفي الداخل كانت النيران قد أحالت المزرعة إلى ضياء يشبه ضوء النهار، ولكن المهاجمين لم يشاهدوا إنساناً. ثم صدرت من مؤخر المزرعة صيحات وهتافات ونداءات تقول: "اقبضوا عليهم!".

الحقيقة أنها كانت رغبة تشو تونغ من البداية أن يأذن لتشاو غاي بالفرار من مؤخر المزرعة، وهكذا قاد لي هنغ للهجوم من الأمام. وكانت للي هنغ الفكرة ذاتها. فقد كان يرغب بدوره في تغطية البوابة الخلفية ليأذن لتشاو غاي بالفرار. ولم يكن لديه خيار حين أصرَّ تشو تونغ على القيام بهجوم مباشر، ولكنه راوغ وأحدث ضجة وتراكضاً هنا وهنالك هادفاً من ذلك أن يسهل سبيل الفرار أمام قائد السجن.

في الوقت الذي وصل به تشو تونغ إلى البوابة الخلفية لم يكن تشاو غاي قد انتهى بعد من ترتيب حاجياته. وأسرع الخدم يعلنون: "جاء الجنود! يجب أن نسرع!". فأمرهم تشاو غاي أن يشعلوا النار في المزرعة. وأسرع هو وغونغسون الكاهن التاوي على رأس دستة من الخدم، ملوّحين بمطاردهم، واجتازوا البوابة الخلفية.

صاحوا: "من يحاول أن يوقفنا فسيموت، فابتعدوا عن سبيلنا!".

نادى تشو تونغ من خلال الظلال: "قف، يا قائد السجن. فقد أقمت أنتظرك هنا منذ زمن بعيد!".

لم يلتفت تشاو غاي إليه، بل استمر وغونغسون يلوّحان بطرديهما في وحشية. تظاهر تشو تونغ أنه يراوغ وفتح ثغرة في صف التطويق. فأرسل قائد السجن غونغسون والخدم ينسلون عبرها، ثم لحق بهم يحميهم من الخلف.

أبعد تشو تونغ رماة السهام المشاة عن بوابة المزرعة الخلفية، وصاح: "هنالك لصوص في المقدمة، فاقبضوا عليهم!". حين سمع لي هنغ صيحاته ابتعد عن البوابة الأمامية، وأمر رماة السهام الراجلين والفرسان بالتفرُّق هنا وهنالك لمطاردة اللصوص. واندفع تشو هنغ بنفسه على ضوء النيران متظاهراً أنه يفتش عن الهاربين.

ابتعد تشو تونغ عن رجالة وركض وراء تشاو غاي ومطرده في يده.

نادى قائد السجن من فوق كتفه: "فيم تطاردني، أيها المفوض تشو؟ لم أرتكب إثماً".

رأى تشو تونغ أنه ليس هنالك من أحد وراءه، فاستطاع أن يتحدث في حرية، فقال: "أنت لا تعرف ماذا فعلت في سبيلك، يا قائد السجن. خشيت أن يرتبك لي هنغ فلا يحسن معاملتك، فخدعته بالمطاردة أمام البوابة الأمامية في حين انتظرت أمام البوابة الخلفية لتسهيل هروبك. أفلم تلحظ هذه الثغرة الكبيرة التي أحدثتها من أجلك؟ بحيرة ليانغشان هي الملجأ الأمين بالنسبة إليك. لا تهرب إلى مكان آخر أبداً".

- جزيل امتناني لنجدتك إياي. سأردّ لك هذا الجميل يوماً.

وجاء من ورائهما صوت لي هنغ يصيح: "لا تدعهم يهربون!".

قال تشو تونغ مخاطباً قائد السجن: "ليس هنالك ما تخشاه. تابع طريقك. سأبعدهم من دربك". وصرخ مجيباً: "ثلاثة من اللصوص يتجهون إلى الممر الشرقي! أدركهم. أيها المفوض لي!".

اتجه لي هنغ ورجاله ناحية الشرق يتبعهم الجنود. وتابع تشو تونغ حديثه مع تشاو غاي، وهو يتظاهر بمطاردته. والحقيقة أنه كان يحمي قائد السجن وهو ينطلق في سبيله. واختفى تشاو غاي أخيراً في قلب الظلمة. وتظاهر تشو تونغ أنه يطارده، وسقط على الأرض سقطة ثقيلة. فأدركه الجنود وأنهضوه على قدميه.

قال تشو تونغ: "لم أتبين الطريق في الظلمة الدامسة. فاتجهت إلى الحقول خطأ. وانزلقت ووقعت. والتوى كاحلي الأيسر".

قال الشريف: "لقد هرب اللص الرئيس! يا للورطة!".

قال تشو تونغ: "ليست القضية أني لم أبذل وسعي، ولكن القضية أني لم أستطع أن أفعل شيئاً في عتمة القمر. أكثر هؤلاء الجنود لا جدوى منهم. فهم خائفون من مطاردة اللصوص".

أمر الشريف الجنود بالاستمرار في المطاردة. ولكن هؤلاء تهامسوا في سرهم مرددين: "هذان المفوضان لا فائدة ترجى منهما. إن لم يستطيعا الاقتراب من اللصوص فماذا في طوقنا نحن أن نفعل؟". وتظاهروا أنهم يقومون بالمطاردة، ثم رجعوا أدراجهم وأعلنوا: "في هذا الظلام لم نتمكن من العثور على الطريق التي اتبعها اللصوص".

وآب لي هنغ نفسه بعد فترة قصيرة، وهمس في سره: "تشو تونغ وتشاو غاي صديقان حميمان. وقد مكّنه من الهرب من دون ريب. وليس هنالك ما يدعوني إلى إلحاق الأذى به. فأنا بدوري وددته أن يهرب. حسناً. لقد هرب قبل أن أعبّر له عن تمنياتي الطيبة".

وخاطب الشريف قائلاً:

- لم تتح لنا فرصة القبض عليه. أولئك اللصوص رائعون!

كانت فترة الحراسة الرابعة قد أزفت حين عاد الشريف والمفوضان إلى بوابة المزرعة الأمامية. وشاهد المفتش خه الجنود يشردون هنا وهنالك. لقد طالت المطاردة الليل بطوله من دون أن يقبضوا على لص واحد. زمجر غاضباً: "ماذا أقول لوالي جيتشو؟".

قصارى ما أتاه الشريف من عمل هو أنه ألقى القبض على عدد من جيران قائد السجن واصطحبهم إلى إقليم يونتشنغ.

لم ينم القاضي تلك الليلة، وقبع ينتظر التقرير الذي سيرفع إليه. وإليه ما يسمع: "هرب اللصوص. وأحضرنا عدداً من الجيران". فاستدعاهم واستجوبهم. فقالوا:

- رغم أننا من جيران قائد السجن تشاو، فإن أقربنا إليه يبعد عن مزرعته مسافة طويلة، وأبعدنا يقيم على مسافة لبين أو ثلاثة ليات عبر الحقول. وهو يستقبل على الدوام زواراً يحملون رماحاً وعصياً، ولكننا لم نتصوَّر أنه يقترف مثل هذه الفعلة القذرة!

أثقل القاضي عليهم مهدداً، وقد عصف به الغضب.

قال أحد الجيران القريبين من المزرعة: "إذا أردت الحقيقة، فلم لا تستجوب خدمه؟".

- ألم يهربوا معه؟

- رفض بعضهم الذهاب. وهم لا يزالون مقيمين.

فأرسل القاضي على الفور عدداً من الرجال إلى الضفة الشرقية لإحضار الخدم. وأرسل ذلك الجار للتعرف عليهم. وفي أقل من فترتي حراسة رجع الرجال وهم يقتادون اثنين من الخدم أنكرا أول الأمر كل شيء، وما لبثا أن اعترفا بعد أن تعرضا للضرب قائلين:

- هنالك ستة هربوا مع قائد السجن. الشخص الوحيد الذي نعرفه هو معلم في منطقتنا يدعى وو يونغ. وهنالك شخص آخر يدعى غونغسون شنغ. وهو كاهن تاوي. كما أن هنالك شخصاً آخر سمين البنية داكن البشرة يدعى ليو. وهنالك ثلاثة آخرون لا نعرفهم. وأحضرهم وو. وسمعناه يقول إنهم ثلاثة أشقاء من الصيادين يدعون يوان من قرية اللوح الحجري. هذه هي القصة بأسرها.

دونت هذه الإفادة، وأحال القاضي الخادمين إلى المفتش خه الذي كتب تقريراً مفصلاً للحاكم. وجعل سونغ جيانغ من نفسه كفيلاً للجيران، فسمح لهم بالعودة إلى دورهم في انتظار تعليمات أخرى.

سافر خه تاو ورجاله طوال الليل آيبين إلى جيتشو برفقة الخادمين. كان الوالي في مجلس الحكم. فقدَّم خه تاو نفسه إليه مع رجاله وروى كيف أحرق تشاو غاي مزرعته وهرب. وكرر مآل اعتراف الخادمين.

قال الحاكم:

- هكذا هو الأمر إذاً! استدعوا باي شنغ مرة أخرى.

سأله: "هل يقيم الأشقاء يوان حقاً حيث يقول هؤلاء الرجال؟". وجد باي شنغ أن الإنكار لا

جدوى فيه، فقال: "أجل. إنهم يعيشون جميعاً في قرية اللوح الحجري. والأخ الثاني يدعى العملاق الشرس، والأخ الخامس يدعى المتهور الطائش، والأخ السابع يدعى الشيطان المجسد".

- وما هي أسماء الثلاثة الآخرين؟

- وو يونغ الحرباء، وغونغسون شنغ في السحب، وليو تانغ الشيطان أحمر الشعر.

- لقد حصلنا الآن على شيء! أعيدوا باي شنغ إلى سجنه واحبسوه.

وأمر الحاكم المفتش خه أن يذهب إلى قرية اللوح الحجري قائلاً: "إذا قبضنا على الأشقاء الثلاثة يوان فإن نصف القضية ستكون قد حُلّت".

ونتيجة لذلك، تجمعت الأرواح السماوية والشياطين الأرضية في قلب سحب عاصفة. واحتشد في القلعة المطوقة بالماء جيش قوي علىَ أهبة القتال.

ماذا نجم عن حملة المفتش على قرية اللوح الحجري؟ إذا أحببت أن تعرف هذا، هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل التاسع عشر

لين تشونغ يحرض على الكفاح الداخلي في القلعة المطوقة بالماء؛ وتشاو غاي ينتصر في معركة في بحيرة ليانغشان

بعد أن تلقى المفتش خه أمر القاضي دلف خارج قاعة المحكمة ومضى ورجاله إلى غرفة لتدارس الأمر. قال مفوض الشرطة: "إن قرية اللوح الحجري تقوم على حدود بحيرة ليانغشان. وهذه البحيرة تحيط بها المياه والقصب والخلجان الصغيرة من جميع جوانبها. من دون جمع غفير من الرجال والقوارب يحسن أن ننسى إمكانية الذهاب إلى هناك للقيام بأي اعتقال".

قال خه تاو متفكراً: "صحيح". ورجع إلى المحكمة وتشاور مع القاضي: "قرية اللوح الحجري تعجُّ بالطرق المائية. وهي تجاور بحيرة ليانغشان. وتحيط بها كهوف وقنوات عميقة، وقصب وأعشاب. كانت ملاذاً للصوص على الدوام. وقد أضيفت إليهم هذه العصابة من الأشرار الآن. نحتاج إلى قوة كبيرة إذا أردنا الذهاب لاعتقالهم".

قال الوالي: "حسن. سأعطيك مساعداً وخمسمائة جندي".

رجع خه تاو إلى غرفة المشاورة ونادى على خفراء الشرطة، وأمرهم أن يعدوا قائمة بأسماء خمسمائة من الرجال ويهيئوا ما يحتاجون إليه من سلاح وعتاد.

في اليوم التالي، جاء المساعد إلى خه تاو يحمل أمراً خطياً من الوالي. وحشدوا خمسمائة جندي وانطلقوا جميعاً، برفقة رجال الشرطة، إلى قرية اللوح الحجري.

في هذه الأثناء، وصل تشاو غاي وغونغسون شنغ بعد إحراقهما المزرعة إلى قرية اللوح الحجري مع دستة من الخدم. فاستقبلهم الأشقاء الثلاثة وقد تنكبوا السلاح ورافقوهم إلى بيت الأخ الخامس. كان يوان الثاني قد أرسل والدته وزوجته وطفله إلى مخبأ في البحيرة. وتدارس الرجال السبعة الانضمام إلى الخارجين على القانون في جبل ليانغشان.

قال وو يونغ: "في مدخل ليجيا ثمة رجل يدعى تشو غوي يدير حانة. وهو معروف باسم تمساح الأرض الجافة، ومضياف للفتيان الشجعان من كل مكان. وكل من يرغب في الانضمام إلى قطاع الطرق ينبغي أن يتحدث إليه أولاً. يجب أن نحصل على قوارب نكدّس فيها حاجياتنا، ونبعث إليه الهدايا، ونسأله أن يوصي بنا".

في هذه الأثناء، جاء بعض الصيادين وأعلنوا قائلين: "جنود، من راكبين وراجلين، يقتربون ويطوّقون قريتنا على عجل".

هبَّ تشاو غاي على قدميه مسرعاً: "إذا استطاع أولئك الأوغاد اللحاق بنا، فلن يتاح لنا الهروب!". قال الأخ الثاني: "هوِّن عليك. سأتدبر أمرهم! سأغرق العدد الأكبر منهم، وأقتل

الآخرين!". قال غونغسون شنغ: "الزم الهدوء. ودعني أطلعك على ما يستطيع هذا الكاهن المتواضع أن يأتي من أعمال". قال تشاو مخاطبا ليو تانغ: "يا أخي، خذ والمعلم عائلاتنا وممتلكاتنا إلى القوارب على الجانب الأيسر من مدخل ليجيا وانتظرنا هناك. سنستطلع الأمر ونلحق بك في ما بعد".

اختار الأخ الثاني قاربين، وأركب أمه وزوجته وولده وممتلكاته في أحدهما. وركب وو يونغ وليو تانغ في القارب الآخر. وجعل سبعة أو ثمانية من الصيادين يجذفون بالقاربين للانتظار عند مدخل ليجيا. وأخبر الأخ الثاني عندها الأخوين الخامس والسابع كيف يتصرفان مع العدو. على كل منهما أن يذهب في قارب صغير... وافترق الأخوان.

اقترب خه تاو والمساعد والجنود من القرية تدريجياً. وصادروا كل قارب وجدوه على الضفة وملأوه جنودا يجيدون السباحة. وبقي الفرسان على الشاطئ، وتحركت القوات البرية والمائية قدماً. أطلقوا صيحة حينما وصلوا إلى منزل الأخ الثاني واندفعوا إلى الساحة. لم يكن في الدار شيء باستثناء بعض قطع الأثاث الثقيلة.

قال خه تاو: "أحضروا لي عدداً من جيرانه الصيادين". أحضر الصيادون. قالوا: "إن شقيقه الخامس والسابع يعيشان معاً في البحيرة. ولا نستطيع الوصول إلى هنالك إلا في أحد القوارب". تشاور خه والمساعد، وقال: "البحيرة تعجُّ بالخلجان الصغيرة والمنعطفات الملتوية، والبرك الموحلة التي لا يعرف أحد مقدار عمقها. فإن توغلنا في مجموعات صغيرة فقد يوقعنا أولئك الأوغاد في مصيدة. وأرى أن نترك الخيول في القرية مع بعض الحراس، ونتابع مسيرتنا جميعاً في القوارب".

وهذا ما فعلوه. صودر قرابة مائة من القوارب، بعضها طويل ضيق مسطح القعر، وبعضها بمجذافين. واتجهت قوات خه نحو قرية الصيادين الصغيرة حيث يقيم يوان الخامس. وبعد أن قطعت خمسة أو ستة ليات سمع أفرادها صوت رجل ينشد أغنية بصوته الأجش المنطلق من غابة من القصب. فتوقف المطاردون عن التجذيف وأرهفوا آذانهم. كانت كلمات الأغنية تسبح بوضوح على منبسط المياه:

صياداً عشتُ على القصب
لم أزرع أرزاً أو عنبا
أغتال عدوّي بلا تعب
والتاج أكنُّ له الأدبا

أجفل خه تاو ورجاله. ومن بعد لمحوا المغني من بعيد. كان يجذف في قارب صغير وعرفه واحد من الرجال: "إنه يوان الخامس!".

لوَّح المفتش خه مشيراً بيده، فانطلق الأسطول الصغير بكامل أسلحته قدماً يلحق بتلك الطريدة.

ضحك الأخ الخامس في ازدراء:

– ما أشجعكم، أيها الضباط العفنون، حين يتاح لكم اضطهاد عامة الشعب! ماذا تبغون مني؟

حذار! لا تشدوا سالفي النمر!

شدَّ رماة السهام وراءه سهامهم في أقواسها إلى حدها الأقصى، وأطلقوها. حمل الأخ الخامس مجذافه، وغطس في الماء. وحين وصل الجنود إلى قاربه لم يعثروا له على أثر.

وقبيل أن تجتاز قوات خه خليجين آخرين صغيرين سمع جنودها صفيراً ثاقباً ينطلق من بين القصب. فانتشرت القوارب على الفور. ورأوا إلى الأمام منهم قارباً صغيراً يقترب وفيه رجلان. كان أحدهما يقف في مقدمته مرتدياً قبعة سوداء من القش ورداء أخضر من ليف جوز الهند ويمسك في يده رمحاً على شكل فرشاة الكتابة. وينشد هذه الأغنية:

في القرية عشتُ أنا طربا
ألهو بالقتل وبالسَّلْب
وعدوّي سأقطعه إربا
كيما أهديه إلى الربِّ

أجفل خه تاو ورجاله مرة أخرى. وعرف بعضهم هوية المغني: "هذا يوان السابع!".

صاح خه تاو: "جميعكم، بكامل قواكم، اقبضوا على هذا الرجل. لا تدعوه يهرب!".

ضحك الأخ السابع: "حقيرون مقرفون!". أشار برمحه، وسبح قاربه في الخليج الصغير.

أطلق الجنود عقائرهم بالصياح وطاردوه. وبدا أن قارب الأخ السابع والرجل الذي يمسك بالمجذاف السريع طار عبر المياه. أطلقا صفيراً من فميهما، وانعطفا بقاربهما في خليج صغير. رأى المطاردون أن مجرى الماء يضيق ويضيق.

أمر خه تاو: "قفوا! واربطوا القوارب إلى الضفة".

نزل إلى الشاطئ، ورنا حواليه. كانت تحيط به من كل جانب أرض بور وغابات من القصب النابت في المياه. ولم يجد لأي ممر أثراً، فتردَّد. لم يستطع أن يقطع برأي. استوضح عن هاتيك الأرجاء من جندي يعيش فيها. أجابه: "ولدت هنا، ولكن هنالك أمكنة عديدة لا أعرف عنها شيئاً".

أرسل المفتش خه قاربين صغيرين في كل منهما ثلاثة من رجال الشرطة لاستكشاف المنطقة في خضم القصب. فذهب مراقبان وعجزا عن العودة.

زمجر خه: "أولئك الأغبياء لا يفعلون شيئاً مثلما ينبغي أن يُفعل".

وأرسل خمسة آخرين من رجال الشرطة في قاربين جديدين. ومرت فترة حراسة كاملة، ولكن أحداً منهم لم يرجع أدراجه أيضاً. تساءل خه: "جميعهم من المهرة الممَّرسين. فكيف تراهم يتصرفون على مثل هذا الغباء؟ لم لا يبعثون قارباً واحداً يطلعني على ما جرى. وهؤلاء الجنود الذين جئت بهم لا نفع فيهم أيضاً. هم لا يفقهون رؤوسهم من أرجلهم!".

كان النهار قد أشرف على نهايته. فخاطب خه نفسه قائلاً: "لن أحلَّ شيئاً من هذه القضية وأنا قابع هنا. ويحسن أن أذهب وألقي نظرة بنفسي". اختار قارباً سريعاً ركبه مع عدد من أفضل رجال شرطته الممرسين الذين تسلحوا بمختلف أنواع السلاح. وانطلق القارب الذي يعمل فيه نصف دستة من المجاذيف، وقد جلس خه تاو في مقدمته يحملق في غابة القصب المترامية.

كانت الشمس تدلف إلى خدرها في الغرب. وبعد أن قطع القارب مسافة خمسة أو ستة ليات في ذلك الخليج الصغير لمح خه تاو رجلاً يقترب على إحدى الضفتين وفي يده معزقة.

ناداه خه: "أنت، أيها الشاب. من أين أنت؟ وما هذا المكان؟".

- أنا فلاح من القرية. وهذا المكان يدعى الخليج مقطوع الرأس. وهو لا يؤدي إلى أي مكان.

- هل رأيت قاربين يمران في هذه الناحية؟

- أتقصد القاربين اللذين يطاردان يوان الخامس؟

- كيف تعرف أنهما يطاردانه؟

- إنهما في تلك الغيضة السوداء هنالك يتصارعان.

- كم تبعد هذه الغيضة عن هذا المكان؟

- خطوات قليلة ويغدو في مقدورك رؤيتها.

صاح خه تاو برجاله أن يدفعوا القارب ويسرعوا إلى مكان الصراع. وأرسل رجلين إلى الضفة يحملان رمحين مدببين. وفجأة، رفع الفلاح المعزقة، وبضربتين اثنتين أسقط الشرطين عن القارب في الخليج. حاول خه المشدوه أن يزحف إلى الضفة.

أخذ القارب يتأرجح، وبرز رجل من قلب المياه، وأمسك بساقي خه وأوقعه في الماء الذي تناثر عالياً. وحين همَّ رجلا الشرطة الآخران بالفرار وثب "الفلاح" إلى متن القارب وحطم رأسيهما بمعزقته، فتناثرت شظايا دماغيهما هنا وهنالك.

جرَّ السابح خه تاو من ساقيه إلى الضفة وأوثقه بحزامه، كان يوان السابع. وكان يوان الثاني الرجل الذي يحمل المعزقة. وشتما معاً المفتش خه.

- نحن الأشقاء الثلاثة يوان نتعشق القتل والحرق! وأنت بالنسبة إلينا مجرد هباء بهباء! كان ينبغي أن تفيق إلى رشدك قبل أن تأتي بعصبة من الجنود للقبض علينا!

- ليس الأمر بيدي، أيها الأشقاء. فأنا عبد مأمور. لو كان الأمر بيدي ما طردت مثل هؤلاء الشجعان. أشفقوا على أمي البالغة من العمر ثمانين سنة واتركوني أعيش. فأنا عضدها الوحيد.

- أوثقاه مثل حيوان صغير وألقيا به في القمرة.

ألقى الأشقاء الثلاثة يوان بالأجساد في الماء، ثم أطلقوا صفيراً، فبرز من بين القصب في المياه أربعة أو خمسة من الصيادين في قوارب وتسلقوا إلى المركب. وركب كل من الأخوين السابع والثاني في قارب صغير.

في هذه الأثناء، شرع الجنود والمساعد على القارب يتذمرون: "ضابط شرطة مثل المفتش خه ينبغي أن يكون ذا خبرة أكثر حين يذهب ويقوم بالاستطلاع بنفسه! لقد مرَّ هذا الوقت كله ولم يرجع إلينا بعدا!". كانت فترة الحراسة الأولى قد أزفت، والنجوم غمرت السماء. وكان الرجال في القوارب يستمتعون برطوبة الجوِّ. وعلى غير انتظار، هبت ريح غريبة من ورائهم، ريح صرصر اقتلعت حبال المراسي. وغطى الجنود وجوههم وصاحوا في رعب.

بلغت مسامعهم وهم على تلك الحال من اليأس صفرة حادة انطلقت من الخلف. حملقوا

في الريح فرأوا وميضاً نارياً ينبثق بين القصب على طول الشاطئ المقابل. فصاحوا في ذعر: "لقد هلكنا!".

كان هنالك قرابة مائة مركب حكومي بين كبير وصغير راحت الريح الهوجاء تدفعها فاصطدم بعضها ببعض ودبَّت فيها الفوضى. وهذا الوميض الناري يسبح فوقها. وأسطول من القوارب الصغيرة، ربطت اثنان اثنان، وكدست بالقصب والقش الذي تتآكله النيران يسبح في خفة تدفع به الريح. واشتبك الأسطول الحكومي ببعضه بعضاً، وكان المجرى المائي ضيقاً، فما استطاع ركابه الفرار من الطريق.

مرق القارب الناري الأول بين دستة من القوارب الكبيرة فاشتعلت فيها النيران. وكان هنالك رجال يسبحون تحت الماء يدفعون القوارب النارية قدماً. وثب الجنود وضباطهم ناحية الضفة فوجدوا أنفسهم محاطين بالقصب والمستنقعات وقد غارت الأرض تحت أقدامهم فما عثروا لها على أثر. وامتدت النار إلى عيدان القصب على الشاطئ وأحدقت بهم من كل ناحية وصوب.

كانت الريح عاتية، والنيران متضرمة متوحشة. غمر الجنود والضباط أنفسهم بالطين الطري. برز قارب صغير سريع من وسط الوميض، وفيه رجل وحيد يجذف وهو كاهن تاوي جلس في مقدمته يحمل سيفاً براقاً. هتف صائحاً: "لن يهرب أحد منكم!".

احتشد الرجال في الطين وقد عصف بهم الذعر. في تلك اللحظة، خرج من بين القصب على الضفة الشرقية رجلان يقودان أربعة أو خمسة من الصيادين مسلحين بسيوف براقة ورماح لماعة. وجاء رجلان آخران يتبعهما أربعة أو خمسة من الصيادين يحملون خطافات براقة للسمك. وهاجم الرجال الشجعان الأربعة وأتباعهم أعداءهم منكودي الحظ من كل جانب. ولم تمض لحظات حتى كان عشرات من الجنود والضباط قد سقطوا صرعى في المستنقع المشبع بالماء.

كان تشاو غاي ويوان الخامس قد جاءا من الضفة الشرقية، والثاني والسابع من الضفة الغربية. وكان الكاهن التاوي الذي أثار الريح هو غونغسون شنغ. وقد سلخ هؤلاء الشبان الخمسة الأشداء، بمعونة قرابة دستة أو أكثر من الصيادين، مجموعة كبيرة من الضباط والرجال بين القصب. ولم يبق غير المفتش خه الذي قيدوه وألقوه في القمرة. حمله الأخ الثاني إلى الضفة وأشار إليه غاضباً: "أيها الحيوان التعيس! أنت تنهب وتبتز شعب جيتشو! كنت أود أن أفرمك فرماً، لكنني أريدك الآن أن تعود وتخبر ذلك الوالي الأحمق أن الأبطال الثلاثة في قرية اللوح الحجري - الأشقاء يوان وتشاو غاي ليسوا ممن يستهان بهم! نحن لا نذهب إلى مدينتكم نطلب قمحاً، فلا تأتوا إلى قريتنا لتفتشوا عن الموت! إذا كانت له عينان في رأسه فلسوف يبصر أنه حتى لو أرسل الوزير الأول تساي - من دون أن نأخذ في الاعتبار والياً حقيراً مثله - رجالاً للقبض علينا، وحتي لو جاء الوزير الأول بنفسه، فلسوف نصب ضوء النهار في عينيه بعشرين أو ثلاثين طعنة! سنأذن لك في الرحيل. فلا ترجع إلينا. وأخبر رئيسك الأحمق أن يبقى بعيداً عنا إذا شاء أن يبقي على حياته! ليس ههنا شوارع كبيرة. سوف يرشدك أخي إلى الطريق!".

نقل الأخ السابع المفتش خه في قارب صغير سريع إلى فوهة الطريق. وقال: "امض مباشرة من

هنا وستعثر على شارع عريض. لقد قُتِل رجالك جميعاً. إذا أطلقناك سليماً معافى، فلسوف يهزأ بنا واليك الأحمق. سأطلب إليك أن تترك أذنيك هنا برهاناً على ما يخالف ذلك!". واستلَّ سكيناً وقطع أذني خه. فانبجس الدم غزيراً. ومسح الأخ السابع سكينه، وحلَّ الحزام الذي يشدُّ وثاق السجين، وطوَّح به على الضفة. وبحث خه، وقد سره بقاؤه على قيد الحياة، عن الطريق التي توصله إلى جيتشو.

غادر تشاو غاي وغونغسون شنغ والأشقاء الثلاثة يوان ودستة أو أكثر من الصيادين مستنقعات قرية اللوح الحجري في ستة أو سبعة قوارب، واتجهوا مباشرة إلى مدخل ليجيا حيث عثروا على قارب وو يونغ وليو تانغ، فانضموا إليهما. وأراد المعلم أن يعرف كل شيء عن كيفية صدهم هجوم الجنود، فأخبره تشاو غاي القصة بالتفصيل. وغمرت البهجة جوانح وو يونغ والآخرين.

صفوا قواربهم في انتظام، ومضوا جميعاً إلى حانة تشو غوي تمساح الأرض الجافة. حين وصل الجميع أعلنوا أنهم يريدون الانضمام إلى قلعة الجبل. رحب تشو غوي بهم على الفور. وروى له وو يونغ قصتهم. سرَّ المشربي أيما سرور، وحيّاهم، واحداً واحداً. ودعاهم إلى الدخول، ورجاهم أن يتخذوا مقاعدهم، وأمر النادل أن يحضر خمرة.

تناول من بعد قوساً ملفوفة بالجلد، وشد إليها سهماً صافراً، وأطلقه إلى غابة من القصب قبالته. وسرعان ما خرج قارب صغير يقوده واحد من قطاع الطرق. كتب تشو غوي في الحال رسالة توصية ذكر فيها عدد الرجال الذين يريدون الانضمام، وأسماءهم، وأعطاها إلى قاطع الطريق وأمره أن يسلمها في القلعة. وذبح بعد ذلك خروفاً احتفاء بضيوفه.

في الصباح التالي أمر تشو غوي بإعداد قارب كبير، ودعا الشجعان للصعود إليه. انطلق القارب برفقة القوارب التي جاء بها تشاو غاي والآخرون إلى قلعة الجبل. وبعد الإبحار زمناً طويلاً وصلوا إلى خليج صغير. كانوا يسمعون أصداء طبول تقرع وأجراس تطنّ على طول الشاطئ. وبرزت أربعة قوارب حراسة يقودها سبعة أو ثمانية من قطاع الطرق، تعرفوا على تشو غوي، وحيوه باحترام، ورجعوا إلى مخابئهم.

وصلت الجماعة إلى شاطئ الرمال الذهبية، فترك أفرادها أسرهم والصيادين ينتظرون في القوارب. وهبطت عن الجبل جماعة كبيرة من قطاع الطرق وقادتهم إلى البوابة. وخرج وانغ لون والقادة الآخرون لتحيتهم. وانحنى تشاو غاي وجماعته في أدب. فردَّ لهم زعماء اللصوص تحيتهم.

– اسمي وانغ لون. وشهرة تشاو غاي الملك السماوي رعدت في أذني منذ زمن طويل. من دواعي سروري أن أستقبلكم في قلعتي المتواضعة.

– أنا رجل فظ قليل قراءة الكتب أفتش عن ملجأ، وآمل أن أكون جندياً عادياً تحت قيادتك، فأرجو ألا ترفضني.

– لا يجب أن تتحدث على هذا الغرار. أرجو أن تحضر إلى قلعتنا الصغيرة، فنتشاور في الأمر.

صعد الجميع إلى الجبل ودلفوا إلى ردهة الأخوية الصالحة حيث أصرَّ وانغ لون على أن يجلس ضيوفه على المنصة العالية. واصطف تشاو غاي ورفاقه الستة صفاً واحداً عن يمين، بينا اصطف

وانغ لون وقادة قطاع الطرق الآخرون في صف عن يسار. وبعد تبادل التحيات جلسوا على مقاعدهم كمضيفين وضيوف. وأمر وانغ لون ضباطه الصغار، المصطفين قرب المنصة، بتحية الزوّار. وحين تم ذلك أسرع الموسيقيون يعزفون الألحان في غرفة داخلية. وأمر الزعيم ملازماً أن يهبط عن الجبل ويرعى شؤون حاشية ضيوفه. فاستضافوهم في نُزُل صغير أسفل البوابة.

ذبح في القلعة ثوران وعشرة خراف، واحتفل الجميع على أصوات الطبول والأبواق. وفيما هم يحتسون الشراب أخبر تشاو غاي قادة اللصوص القصة بأسرها.

أصغى وانغ لون مضطرباً، غارقاً في التفكير، وأعطاه أجوبة قصيرة مبهمة. وظلوا يطعمون حتى العشية، ثم رافق قادة اللصوص ضيوفهم إلى النزل أسفل بوابة القلعة وتركوهم في رعاية الخدم الذين قدموا معهم.

كانت فرحة تشاو غاي بغير حدود. خاطب الستة الآخرين قائلاً:

- لقد ارتكبنا جريمة خطيرة جداً. فأين يمكن أن نجد ملجأ غير هنا؟ لولا كياسة الزعيم وانغ لون لكنا قد وقعنا في ورطة حقيقية. يجب أن نبدي له امتناننا دائماً.

ضحك وو يونغ في برودة.

سأل تشاو غاي:

- فيم أنت متشكك على هذا المنوال، يا معلم؟ أخبرنا بما تعرف.

- أنت شجاع. ولكنك مخلص جداً، يا أخي. لا يخطرنَّ لك في بال أن وانغ لون سيأذن لنا بالإقامة. أنت لم ترَ ما كان يعتمل في قلبه. لقد وجهت نظرك إلى تعابير وجهه وأسلوبه في الحديث وحسب.

- وما الخطأ في هذا؟

- حين باشرنا الطعام كان يتصرف بصورة ودية. ولكنك ما إن ذكرت له كيف قتلنا جميع أولئك الضباط والجنود والمساعد، وأطلقنا سبيل خه تاو، ومقدار ما كان عليه الأشقاء الثلاثة يوان من إقدام، حتى تبدلت سحنته. ولقد ردَّ عليك في أدب، ولكنه لم يكن مخلصاً. إن كان حقاً يريد الاحتفاظ بنا، فقد كان سيعرض علينا مقاعد نظامية. إن دو كيان وسونغ وان مجرد جلفين. ماذا تراهما يعرفان عن معاملة أحد الضيوف؟ ولين تشونغ، من جهة أخرى، كان مدرباً للسلاح في الحرس الإمبراطوري، ورجلاً مدينياً كبيراً صقلته الحياة. ولكنه الآونة عاجز عن أن يساعد نفسه. وهو يشغل المنصب الرابع هنا. ولحظت أنه كان يبدو متضايقاً حين رأى كيف يرد وانغ لون على أسئلتك. فهو لم يرفع عينيه عنه. لا ريبة أن هنالك ما يشغل فكره. أحسبه يودُّ مساعدتنا، ولكنه في موقف حرج. سأعرض بعض الاقتراحات، وانظروا ما إذا قدرت على أن يتقاتلوا.

قال تشو غاي:

- نحن نعتمد كلياً على دهائك، يا معلم.

وتفرَّق الرجال السبعة لقضاء الليل.

في صباح اليوم التالي أعلن أن مدرب السلاح لين سيقوم بزيارتهم. خاطب وو يونغ تشاو غاي

قائلاً:

- لقد جاء يزورنا. وهذا ما كنا نرغب فيه!

أسرع الرجال السبعة لتحية ضيفهم، ودعوه إلى الرواق.

قال وو يونغ: "لقد اتكلنا كثيراً على شهامتك الليلة الماضية. يجب أن نقدم اعتذارنا".

- أنا من يجب أن يقدّم اعتذاره. ورغم أني وددت أن أبدي مزيداً من الاحترام، لكنني لم أكن في حال تأذن لي بذلك. أرجو أن تغفروا لي.

- نحن عاطلون عن المواهب، ولكننا لسنا جذوع أشجار. وقد أسرتنا نواياك الطيبة. نحن شاكرون حقاً.

ترجى تشاو غاي أن يجلس لين تشونغ في المقعد الأسمى مرتبة. فما أصغى لين إلى كلامه. دفع تشاو إلى المقعد وجلس قبالته. وجلس وو يونغ والخمسة الآخرون في صف إلى جانب واحد.

قال تشاو غاي: "لطالما سمعنا عن شهرة مدرب السلاح ولم يمرّ في بالنا أن الظروف تتيح لنا فرصة اللقاء".

قال لين تشونغ: "حين كنت في العاصمة الشرقية لم أبخس رفاقي حقهم من اللطف والكياسة. وقد أتيح لي شرف التعرف بكم، ولكنني عجزت عن التصرف على الوجه الذي كنت أبغيه. وجئت خصيصاً للتعبير عن أسفي".

قال تشاو غاي: "منذ فترة من الزمن سمعت عن شهامة مدرب السلاح في العاصمة الشرقية. كيف تشاجرت وغاو كيو، وفيم عمل على خرابك؟ حين احترق مخزن العلف العسكري في تسانغتشو كان ذلك من صنع يديه، أليس كذلك؟ ومن أوصى بك في قلعة الجبل هذه؟".

- إن أردت أن أخبركم عن وضاعة ذلك النذل غاو كيو، فإن حديثي قد يقفُّ شعوركم. ولا أستطيع أن أثأر لنفسي. لقد وجدت ملاذاً هنا بناء على توصية من اللورد تشاي!

- أهو تشاي جين، المعروف في أخوية الشجعان بالإعصار الصغير؟

- هو نفسه.

قال تشاو غاي: "سمعت كثيراً عن استقامته وأريحيته، وكيف يقابل الشجعان بحرارة. يقولون إنه من سلالة أسرة تشو الملكية. ما أروع أن يلتقيه المرء!".

قال وو يونغ: "اللورد تشاي مشهور في البلاد بأسرها. لا ريب أن مهارتك الفائقة في استخدام السلاح، يا مدرب السلاح، هي التي أوصت بك هنا. وأنا لا أبالغ أبداً حين أقول إن وانغ لون ينبغي أن يتخلى لك عن القيادة العليا. هذا هو الشعور العام، وهو يتفق ورسالة اللورد تشاي".

- المعلم يقدّرني أكثر مما أستحق. لقد ارتكبت جريمة عقوبتها الموت ووجدت ملجأ لنفسي لدى اللورد تشاي. ورغب في بقائي لديه، ولكنني رفضت أن أشركه في الأمر. وجئت إلى هذا الجبل من تلقاء نفسي. لم أكن أعرف أنها نهاية قاتلة! لم أكن لأبالي في الحصول على مركز وضيع، ولكن وانغ لون يصعب التعامل معه. وهو غير واثق من نفسه، وغير مخلص في كثير من الأحوال.

قال وو يونغ: "يبدو ودوداً بما فيه الكفاية. فما الذي يجعله ضيق الأفق؟".

- إن انضمام الأبطال الشجعان من أمثالكم إلينا يعود علينا بفائدة مشتركة، كمن يطرز أزهاراً على القماش المقصَّب، أو كالمطر على الأرض الموات. ولكن وانغ لون جد غيور من الموهوبين المقتدرين، هو يخشى أن يسيطروا عليه. وبعد ما رويتم، ليلة البارحة، كيف ذبحتم الجنود والضباط تفاقم اضطرابه، لا ريبة أنه راغب عن بقائكم هنا. وهذا ما دعاه إلى ذهابكم إلى هذا النزل البعيد!

قال وو يونغ:

- إذا كان هذا شعوره، فليس هناك ما يدعو إلى انتظار أن نسمع منه ذلك. سنلجأ إلى مكان آخر.

قال لين تشونغ: "أرجو ألا تستاءوا مني، ولكن لديَّ فكرة. أخشى أن يخطر لكم، أيها الفتيان الشجعان، التفكير في الرحيل، فجئت مبكراً للتشاور. لم لا تنتظرون لنرى كيف يتصرف وانغ لون اليوم؟ إذا راح ذلك الوغد يتحدث بصورة منطقية، وليس كما فعل البارحة، فعندها يمكن أن نناقش كل شيء. أما إذا تنفس بصورة ملتوية، فاتركوا الأمور لي".

قال تشاو غاي: "هذا الرأي الذي تبديه أكثر مما نستحقّ".

سأل وو يونغ: "فيم تختصم مع إخوتك القدامى في سبيل الجدد؟ إذا قبل بنا فسنبقى. وإذا رفض فسنذهب".

صاح لين تشونغ: "لا، يا معلم! الأولون قالوا: الماكر والشجاع يدلل كل منهما أبناء جنسه. يا للوغد الحقير! ماذا ترى يفيد منه الآخرون؟ أيها الفتيان الشجعان، في مقدوركم الاعتماد عليَّ". ونهض وتأهب للرحيل قائلاً: "سنلتقي سريعاً".

رافقوه إلى البوابة، ورجع لين تشونغ إلى الجبل.

لم يمرّ وقت طويل حتى وصل أحد قطاع الطرق إلى القلعة وقال:

- اليوم يدعوكم زعماؤنا إلى الغداء في الرواق المطل على الماء في حصن الجانب الجنوبي.

قال تشاو غاي: "أخبرهم أننا سنصل إلى هناك سريعاً". ورحل قاطع الطريق. فالتفت تشاو غاي إلى وو يونغ مستفسراً: "ماذا نفعل يا معلم؟". ابتسم المعلم: "لا تقلق، يا أخي. سوف يتبدل قادة الحصن. يبدو أن لين تشونغ عازم على طرد وانغ لون. فإذا أبدى شيئاً من التردُّد، فإن لساني على ما يكفي من الحدة كيما ينخزه ويجره إلى صراع مكشوف. احملوا جميعاً أسلحة مخبأة تحت ثيابكم. فإذا شرعت أمسح على ذقني هبوا وأنجدوه".

وافق تشاو غاي والآخرون في صمت وقد غمرت الفرحة قلوبهم.

عند انتصاف النهار، كان أربعة أو خمسة من المراسلين قد جاءوا مراراً لتكرار الدعوة. وانطلق الرجال السبعة أخيراً إلى الوليمة مرتدين ثياباً نظيفة أخفوا تحتها شتى أنواع الأسلحة. وجاء سونغ وان شخصيا، على صهوة جواد، ومعه سبع محفات مخصصة للضيوف. واتجه الجميع مباشرة إلى الجوسق المطل على المياه في المنحدر الجنوبي من الجبل، وترجل الرجال السبعة من محفاتهم. وكان وانغ لون، ودو كيان، ولين تشونغ، وتشو غوي ينتظرونهم، فدعوهم إلى الجوسق. واتخذ المضيفون والضيوف مقاعدهم يمنة ويسرة على منصة عالية.

وشرع عدد من قطاع الطرق الأقل رتبة يملأون الأكـواب. وبعد عدة دورات من الخمرة ودورتين من الأطعمة اقترح تشاو غاي على وانغ لون أن ينضم الرجال السبعة إلى الأخوية. ولكن زعيم اللصوص دأب على تبديل مسار الحديث. وراقب وو يونغ لين تشونغ. كان مدرب السلاح يحملق في وو يونغ وقد برقت عيناه.

احتسوا الخمور إلى ما بعد الظهيرة. وقال وانغ لون: "أحضروها". فخرج ثلاثة من اللصوص ورجعوا بعد لحظات. كان أحدهم يحمل خمس سبائك كبيرة من الفضة على طبق. ونهض وانغ لون، وكأسه في يده، وقدم نفسه إلى تشاو غاي قائلاً:

- يشرفنا أنكم، أيها الأبطال، قد انضممتم إلينا هنا. ومن سوء الحظ، إن قلعتنا هذه ما هي إلا عبارة عن مستنقع سبخي وليست معدة لشجعان من أمثالكم. نقدّم لكم هذه الهدايا الرمزية ونرجو ألا تسخروا منا. وحين تستقرون في قلعة كبيرة مناسبة سأبعث شخصياً عدداً من الرجال يخدمون تحت إمرتكم.

أجاب تشاو غاي: "عرفنا منذ فترة مغرقة في القدم أن هذه القلعة العظيمة كانت ترحب بالمقاتلين الشجعان، وهكذا جئنا للانضمام إلى أفرادها. إذا كنتم ترفضوننا فسوف نرحل. أما بخصوص هذه الفضة التي تعرضونها علينا فلا نستطيع قبولها. ليس لأننا أثرياء، ولكننا نملك نفقات للسفر. نرجو أن تسترد هديتك الثمينة. وسننصرف نحن في سبيلنا".

- لماذا ترفضون ذلك؟ يسرنا أن تتفضلوا بقبولها. القضية بمجملها أننا لا نملك هنا ما يكفي من الحبوب والطعام. والمكوث في مثل هذا المكان سيسيء إليكم، أيها الأبطال. وهذا لا يتفق ووقارنا وسمعتنا، وهذا هو السبب في عدم الموافقة على بقائكم لدينا.

قبل أن ينتهي وانغ لون من حديثه قطب لين تشونغ وجهه، وصاح: "حينما جئت أنا إلى هنا أول مرة حاولت صرفي متذرعاً بنقصان الحبوب والطعام! وهذا أنت الآن تخبر الأخ تشاو غاي وهؤلاء الشجعان القصة ذاتها! فما هي فكرتك في هذا؟".

ترجى وو يونغ:

- هوِّن عليك، يا سيدي القائد. ما كان ينبغي أن نأتي إلى هنا. لقد أثرنا بينكم شيئاً من النفور. فالزعيم وانغ لون لا يطردنا، بل هو يصرفنا ويغدق علينا نفقات السفر. نرجو ألا يغضبنَّ أحد منكم. سنذهب، وسنضع بذهابنا حداً لهذا الموضوع.

نبح وانغ لون: "حيوان! أنت لست سكران! كيف تتحدث عني على هذا الغرار؟ ألا تحترم رؤساءك؟".

فجأر لين تشونغ: "أنت راسب في امتحاناتك الحكومية ليس أكثر، أنت رجل محدود الثقافة. فبأي حق تجعل من نفسك قائداً للقلعة؟".

قال وو يونغ مخاطباً تشاو غاي:

- قدومنا إلى هنا أثار هذا الخصام. يجب أن نحصل على بعض القوارب ونرحل هذا النهار بالذات.

ونهض الرجال السبعة يهمون بمغادرة السرادق.

احتجَّ وانغ لون قائلاً: "رويدكم ريثما تنتهي الوليمة على أقل تقدير".

رفس لين تشونغ المنضدة جانباً. ووثب على قدميه، واستلَّ سكيناً براقة من تحت ثوبه. ولمس وو يونغ لحيته، فأسرع تشاو غاي وليو تانغ كمن يحاول إيقاف وانغ لون صائحاً: "يجب ألا تختصما!". وتظاهر وو يونغ أنه يهدئ من ثائرة لين تشونغ: "أرجو ألا تثور".

وهتف غونغسون شنغ بالطرفين قائلاً: "لا تثيرا الخلافات بينكما بسبب منا!".

لفَّ يوان الثاني ذراعيه حول دو كيان، في حين قبض يوان الخامس على سونغ وان، وحذا السابع حذوه فأمسك بتشو غوي.

راقب قطاع الطرق الآخرون المشهد في رعب. وشتم لين تشونغ وانغ لون:

- أنت قروي حقير جلف! لولا دو كيان لما كنت هنا! دعمك اللورد تشاي، ونفحك بنفقات السفر، وساعدك، ولكنه ما إن أرسلني أحمل رسالة توصية حتى بذلت جهدك لطردي! وهؤلاء الشجعان جاءوا الآن، وأنت تريد أن تطردهم عن الجبل! هل جبل ليانغشان ملك خاص لك؟ أنت لص، وتغار من الموهوبين! فما جدوى بقائك في قيد الحياة؟ أنت بريء من أية قدرة خاصة. ومن أنت حتى تغدو قائداً على هذه القلعة؟

حاول دو كيان، وسونغ وان، وتشو غوي الانطلاق قدماً لمساعدة وانغ لون، فردعهم الأشقاء يوان ومنعوهم عن الحركة. واستدار زعيم قطاع الطرق وفي نيته الانصراف، فسدَّ له تشاو غاي وليو تانغ الطريق. وأدرك وانغ لون الخطر المحدق به. صاح:

- أين رفاقي المخلصون؟

رغب عدد من أصدقائه اللصوص الحميمين أن يهبوا لنجدته، فأرعبهم لين تشونغ بمنظره الوحشي الرهيب.

مرة أخرى، شتم لين زعيم قطاع الطرق، ولم يلبث أن طعنه في قلبه. فتراكم وانغ لون على الأرض. واستل تشاو غاي والآخرون مداهم. واجتزَّ لين تشونغ رأس وانغ لون ورفعه بيده عالياً. فخَّر دو كيان وسونغ وان وتشو غوي على ركبهم يعصف بهم الخوف. وتوسلوا قائلين:

- اجعلونا سائسين نحمل أسواطكم.

أنهضهم تشاو غاي على أقدامهم في أدب. وشدَّ وو يونغ مقعد الزعيم الأول من بركة الدماء ودفع لين تشونغ للجلوس عليه، وصاح:

- إن لم يوافق أحد منكم فسوف يلقى مصير وانغ لون. من الآن فصاعداً صار مدرب السلاح لين قائداً لجبل ليانغشان.

أوضح لين تشونغ:

- لا، يا معلم. قتلت هذا النذل من باب الولاء لكم، أيها الأبطال الشجعان! أنا لا أبحث عن منصب لنفسي. سأجعل من نفسي أضحوكة حمقاء في أخوية الشجعان إن قبلت المنصب هذا النهار. أفضل أن أموت أولاً! ولكن، لديّ اقتراح آخر، وأتساءل إن كنتم ستصغون إليَّ أم لا؟

قال الآخرون: "قل. من يجرؤ على الرفض؟ فلنسمع إليك!". كانت كلمات لين تشونغ مقتضبة. ونتيجة لذلك، احتشد في الجوسق الموحد رجال من قلب واحد، وتجمهر في ردهة أخوية الشجعان عشرات من المقاتلين الشجعان. والرجل الذي نفذ إرادة السماء، ذلك الشجاع السخيّ المخلص، ما أسرع أن يحضر.

ماذا قال لين تشونغ لوو يونغ؟

إن أحببت أن تكون على بينة من ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل العشرون

رجال بحيرة ليانغشان يجعلون من تشاو غاي قائداً؛ وليو تانغ يغادر مدينة يونتشنغ في ليلة مقمرة

كان لين تشونغ لا يبرح يقبض بيده على الخنجر الذي قتل به وانغ لون، فأشار إلى الحشد قائلاً: "على الرغم من أنني منفي من الحرس الإمبراطوري، فلا أزال قادراً على الانضمام إلى هؤلاء الأبطال هنا هذا النهار. لقد انقلبت ضد وانغ لون لأن له قلباً هزيلاً، ولأنه غيور من مواهبهم ويرفض أن يقبل بهم، وليس لأني أريد الاستيلاء على مركزه. ما كنت لأحمل دماغاً وشجاعة تكفيانني لتدمير الوزراء الأشرار المحيطين بالإمبراطور وإيقاف جيوشهم. والأخ تشاو رجل شجاع وخير، شجاع وأريب، وهو مشهور في كل مكان ومحبوب. وباسم الفروسية أقترح أن يصير قائداً على هذه القلعة. ما رأيكم؟".

صاح الرجال: "موافقون".

قال تشاو غاي: "لا! فمنذ غابر الزمان "الضيف القوي يجب ألا يتفوق على مضيفه". قد أكون صنديداً لي بأسي وصولتي، ولكنني جئت مؤخراً من مناطق بعيدة ولا أستطيع أن أقبل قيادة عليا".

دفعه لين تشونغ إلى كرسي القيادة قائلاً: "آن الأوان. لا ترفض". وصاح بقطاع الطرق الآخرين قائلاً: "إذا رفض أحد منكم فليتذكر ما حدث لوانغ لون!".

ألحَّ في أدب على أن يتخذ تشاو غاي مجلسه. ونادى على الرجال أن يأتوا إلى الجوسق للتعبير عن ولائهم. وأمر بنقل جثة وانغ لون، وأن تقام وليمة في داخل القلعة. كما أمر أن يستدعى الضباط الصغار في مقدمة القلعة ومؤخرها للاجتماع.

ساعد لين تشونغ والآخرون تشاو غاي على الركوب في محفة، وامتطى الجميع خيولهم واتجهوا صوب ردهة الأخوية الصالحة حيث ترجلوا ودخلوا إليها. وجلس تشاو غاي على مقعد الدرجة الأولى في وسط الردهة. وأشعلت مبخرة في الوسط. وخطا لين تشونغ متقدماً.

قال: "لست أكثر من فتى جلف لا يعرف في شؤون السلاح كثيراً. لم أتعلم أو أكتسب موهبة أو حكمة أو تقنية. وقد حالفنا السعد اليوم كثيراً أن نلتقي هنا وإياكم أيها الشجعان، وإن مبادئنا العادلة واضحة نيّرة. ولا يمكن أن نكون متطفلين على السلطة كما كنا في سابق العهد وغابر الوقت. سيغدو المعلم وو يونغ مستشارنا العسكري ومسؤولاً عن قواتنا المسلحة. ويجب أن يكون له المقعد الثاني".

أجاب وو يونغ: "لست غير معلم مدرسة قروية بسيط، ولا أحوز معرفة أو قدرة على تصريف الأمور. ورغم أني قرأت شيئاً عن الكلاسيكيات العسكرية من تأليف سون ووو، ولكنني لا أملك

نصف حبة من موهبة. فكيف يمكن أن أقبل بذلك؟".

قال لين تشونغ: "لدينا ما يكفي من الوقت. فلا حاجة للاتضاع".

اتخذ وو يونغ المقعد الثاني، في حين قال لين تشونغ: "أيها المعلم غونغسون، أرجو أن تأخذ المقعد الثالث".

احتجَّ تشاو غاي قائلاً: "هذا لا يمكن أن يكون. إذا شرعت تتخاذل على هذا المنوال فسوف أنسحب نهائياً".

- لا ينبغي أن تقول مثل هذا الكلام، يا أخي. فالمعلم غونغسون معروف في أخوية الشجعان بأسرها. وهو قائد ممتاز، حتى إن الأرواح نفسها تعجز عن سبر خططه. وهو قادر على استحضار الريح والمطر. وليس هنالك من يشابهه!

قال الكاهن التاوي: "صحيح أني أجيد ضرباً من السحر، ولكنني خاوي الوفاض من ثقافة يستفيد منها العالم. فكيف أجرؤ على أن أصير قائداً؟ هذا المكان مكانك".

قال لين تشونغ: "رأينا اليوم جميعاً مدى ذكائك في هزيمة العدو. إن إناء ثلاثي القوائم يجب أن تكون له ثلاث قوائم. ولا يمكن أن يقف بقائمتين. فلا ضرورة للتأدب".

جلس غونغسون على المقعد الثالث. أراد لين تشونغ أن يذعن أكثر، ولكن تشاو غاي ووو يونغ وغونغسون رفضوا الإصغاء إليه. أوضحوا قائلين: "إذا كنت قد تحدثت عن أن ثلاثي القوائم يحتاج إلى ثلاث قوائم، فليس أمامنا من خيار سوى أن نقبل بالمراكز الرئيسة الثلاثة. ولكننا ننسحب ثلاثتنا إذا أذعنت أكثر من ذلك". أجلسوه على المقعد الرابع.

قال تشاو غاي: "يجب أن يجلس الآن كل من سونغ ودو". ولكن دو كيان وسونغ وان رفضا بشدة. ورجَوا ليو تانغ، ويوان الثاني، ويوان الخامس، ويوان السابع أن يجلسوا على كل من المقعد الخامس والسادس والسابع والثامن بالتتابع. وقبل دو كيان عندها أن يتخذ المقعد التاسع، وسونغ وان المقعد العاشر، وتشو غوي المقعد الحادي عشر.

ومنذ ذلك التاريخ تثبتت هذه المراكز الأحد عشر للأبطال في بحيرة ليانغشان. وجاء ما يقارب ثلاثمائة من الرجال يحرسون الجبل من مقدمته ومؤخره لتقديم آيات الاحترام، واصطفوا عن جانبين. وخاطبهم تشاو غاي قائلاً: "في هذا النهار، جعلني مدرب السلاح لين تشونغ قائداً على هذه القلعة، وجعل المعلم وو مستشاراً عسكرياً. كما أن المعلم غونغسون يملك صلاحيات عسكرية أيضاً. ومدرب السلاح لين والآخرون في أيديهم سلطة مطلقة على القلعة. وسيحتفظ الملازمون منكم بمناصبهم القيادية القديمة. انصرفوا إلى واجباتكم اليومية واحرسوا الأسيجة الوتدية والشواطئ جيداً. ولا تسمحوا بوقوع ما يعكر الصفو ويخلّ بالأمن. ينبغي أن نتحد جميعاً في الفكر والقوة".

أمر أن توضع البيوت عن جانبي الردهة بتصرف العائلتين اللتين جاءتا برفقتهم، وأمر أن يجيئوه بالهدايا المسروقة - الذهب والفضة والمجوهرات - فضلاً عن الأشياء الثمينة الأخرى التي حملها معه من المزرعة. ووزَّع منها هبات على الملازمين والأفراد من قطاع الطرق بمختلف رتبهم.

وذبحت ثيران وخيول قرباناً لآلهة السماء والأرض، واحتفاء بجمع الشمل من جديد. وأكل

القادة وارتووا حتى ساعة متأخرة من الليل. وأقاموا على هذه الاحتفالات عدة أيام. وبعدها عمد تشاو غاي ووو يونغ والقادة الآخرون إلى تفقد الأهراءات، وأعادوا إصلاح التحصينات، واستصنعوا أسلحة جديدة؛ رماحاً، ومطارد، وأقواساً، وسهاماً، ودروعاً، وخوذاً، وأصلحوا القوارب كبيرها وصغيرها، ودربوا جنودهم وملاحيهم على ركوب السفن والقتال، وتأهبوا لملاقاة أي هجوم من العدو.

ولن نطيل الحديث في هذه الأمور.

وذات يوم، وقد رأى لين تشونغ كيف أغدق تشاو غاي العطايا على العائلتين والرجال الذين يعيشون في القلعة، خطرت في باله زوجته في العاصمة الشرقية. أتراها في عداد الأحياء؟ أسرَّ بهذه الخاطرة إلى تشاو غاي: "كنت أنوي أن أرسل في طلبها منذ مجيئي إلى هنا. ولكن وانغ لون كان داهية ومن غير اليسير التعامل معه، فظللت أؤجل الموضوع مرة بعد مرة. أود لو أعرف ماذا جرى لها".

- أرسل من يحضرها يا أخي. اكتب رسالة. وسنجد شخصاً يوصلها ويرافقها إلى هنا في أقرب فرصة ممكنة. وعندها تطرد عن روحك هواجسها.

كتب لين تشونغ رسالة سلمها إلى قاطعي طريق موثوقين رجعا بعيد أقل من شهرين إلى القلعة وأعلنا قائلين: "ذهبنا مباشرة إلى جوار دارة الماريشال غاو في العاصمة الشرقية، وعثرنا عن منزل حميك. فأخبرونا أن الماريشال غاو ظلَّ يثقل على زوجتك لتزويجها من ولده. ولكنها فضلت أن تشنق نفسها. قتلت نفسها منذ أكثر من نصف عام. وهجم الحزن الشديد على والدها فسقط مريضاً منذ حوالى نصف شهر وقضى نحبه. ولم يبق غير الخادمة جين آر. لقد تزوجت وانتقل زوجها للإقامة معها. واستفسرنا من الجيران فأخبرونا القصة ذاتها. وما إن اتضحت لنا هذه الحقائق حتى قفلنا عائدين".

بكى لين تشونغ. ومنذ ذلك اليوم استلَّ من فؤاده جميع الأفكار عن البيت والأحباب. وصعَّد تشاو غاي زفرة عميقة وقد رأى مبلغ ما سيطر عليه من اكتئاب. وخضعت القلعة لرتابة الحياة اليومية، ألا وهي تدريب الرجال والاستعداد لصدّ هجمات القوات الحكومية.

خلال مؤتمر عقده القادة ذات يوم في ردهة الأخوية الصالحة أسرع أحد الرجال يدرج في الجبل، وأعلن قائلاً: "ثمة قوات من ولاية جيتشو تعدُّ قرابة ألفين من الرجال يبحرون ناحيتنا في حوالى أربعمائة أو خمسمائة قارب بين كبير وصغير! وقد توقفوا مؤقتاً في البحيرة عند قرية اللوح الحجري".

توجه تشاو غاي إلى وو يونغ قائلاً في شيء من الذعر: "سرعان ما يصيرون هنا. فكيف نجابههم؟".

ضحك المعلم وقال: "ليس هنالك ما يثير القلق. فلديَّ خطة، وهي: الأرض توقف فيضان المياه، والجنرالات يتغلبون على قوات الأعداء. هذا ما يقوله المثل القديم".

وأخبر الأشقاء الثلاثة يوان في هدوء ماذا ينبغي أن يفعلوا، ثم أصدر تعليماته إلى لين تشونغ وليو تانغ ودو كيان وسونغ وان.

كان هنالك أكثر من ألف جندي احتشدوا في القوارب التي غصبوها محلياً في بحيرة اللوح الحجري وقد بعث بهم والي جيتشو، وكان يقودهم قائد حامية المنطقة هوانغ آن وضابط شرطة من أصحاب الرتب العالية. وكان الأسطول قد توزع إلى شطرين راحا يقتربان على طول البحيرة.

اقترب أسطول هوانغ الصغير بسرعة وأعلامه ترفرف وجنوده يصيحون من شاطئ الرمال الذهبية. وفي هذه الأثناء سبحت على المياه ألحان حزينة.

استفسر هوانغ آن: "أما كان هذا صوت نفير؟".

أشار إلى أسطوله بالتوقف، ومدَّ أنظاره إلى المنتأى. كانت هنالك ثلاثة قوارب تتجه صوبهم يجذف في كل منها أربعة من الرجال ارتدوا ثياباً متشابهة. وكان هنالك رجل يقف في مقدمة كل قارب عاصباً رأسه بمنديل أحمر، ومرتدياً ثوباً من الحرير الأحمر، وممسكاً في يده رمحاً مدبباً.

عرفه واحد من الجنود، فخاطب هوانغ آن قائلاً: "هؤلاء هم الأشقاء يوان، الثاني والخامس والسابع". صاح هوانغ آن: "وراءهم! سنقبض عليهم جميعاً!".

انطلقت القوارب عن الجانبين، حوالى أربعين أو خمسين دفعة واحدة، تطارد الأشقاء الثلاثة وجنودها يصيحون صيحات وحشية. وصدر عن القوارب الثلاثة صفير ثاقب، واستدارت وانسحبت هاربة. وهزَّ هوانغ آن رمحه. زمجر: "اقتلوا أولئك اللصوص وسأجزل لكم المكافأة!". أرسل الجنود السهام وراء القوارب الهاربة. فأخرج الأشقاء الثلاثة جلود ثعالب من القمرات، واتقوا بها وقع السهام. ولحقت بهم المراكب الحكومية في مطاردة حامية. واجتازوا قرابة ثلاثة ليات ودلفوا إلى خليج صغير حين برز قارب صغير من الخلف.

صاح رجل من القارب الصغير: "كفوا عن مطاردتهم. لقد قتل اللصوص جميع جنودنا في الفصيل الثاني وألقوا بهم في المياه وأسروا قواربنا!".

سأل هوانغ آن: "كيف وقعتم في أيديهم؟".

- فيما كنا نبحر وراءهم شاهدنا قاربين من بعيد في كل منهما خمسة أشخاص. فطاردناهما. ولم نكد نبتعد في حدود أربعة ليات حتى برزت لنا سبعة أو ثمانية مراكب صغيرة من بين القصب المحدق بنا. وانهالت سهامها علينا مثل أسراب من الجراد. فاستدرنا على الفور. ولكننا لم نكد نصل إلى مخرج حتى وجدنا عشرين أو ثلاثين رجلاً على كل من الضفتين مدوا حبلاً عبر المياه. وبينا نحن نتجه إليه أمطرونا بأكداس من الحجارة والكلس الذي يعمي العيون. وثبنا إلى الماء هرباً للنجاة بجلودنا. تمكن عدد منا من الهرب. وحين وصلنا إلى حيث كانت خيولنا لم نعثر عليها، فقد سرقها اللصوص. وكان الحراس يستلقون في الماء وقد فارقوا الحياة. ومن حسن حظنا أننا عثرنا على هذا القارب بين القصب، فأسرعنا نبلغ الأمر إليك.

زمجر هوانغ آن، ولوَّح بعلم أبيض مشيراً إلى القارب الآخر أن يكفَّ عن المطاردة ويعود.

وفيما هما يتأرجحان برزت ثلاثة قوارب، تتبعها دستة أخرى، وشوهدت تقترب في اتجاههم من الوراء، وفي كل منها أربعة أو خمسة من الرجال. لوَّحت هذه المراكب بأعلام حمراء وأطلقت صفيراً ثاقباً، وأبحرت مسرعة صوب القوارب الحكومية. وقبل أن يتمكن هوانغ آن من نشر أسطوله

الصغير على شكل قتالي رعد مدفع من بين القصب استجابة لنداء الأعلام الحمراء. ودبت الفوضى والرعب في صفوف هوانغ آن.

وسُمِع صوت من قلب القوارب المقتربة بسرعة: "في مقدور هوانغ آن أن يذهب؛ إلاّ إذا أراد أن يترك رأسه هنا!". أمر هوانغ رجاله أن يجذفوا بأقصى جهودهم مندفعين إلى ما وراء القصب. وانطلق من الخلجان الصغيرة عن جانبي البحيرة أربعون أو خمسون من القوارب الصغيرة اندفعت وأمطرت الجنود الحكوميين بالسهام. حاول هوانغ آن يائساً أن يمرق من بين هذه الغابة من القوارب السريعة. ولم يكن قد بقي لديه غير ثلاثة أو أربعة قوارب صغيرة.

وثب إلى مركب شراعي صغير سريع. كان يشاهد رجاله يتواثبون إلى الماء. كان عدد منهم قد فرَّ بقواربه. أما الأكثرية فذبحوا ذبح النعاج. وفيما هوانغ آن يطلق مركبه الشراعي الصغير وصل ليو تانغ إليه على متن قارب صغير بين القصب، وأمسك به بخطاف كلابي، ووثب إلى المركب وأمسك بهوانغ آن من وسطه.

هتف ليو تانغ: "لا فائدة من النضال".

قتل الجنود الذين حاولوا السباحة بالسهام. وقبض على الذين حاولوا القيام بعمل حاسم في الصراع.

جرَّ ليو تانغ هوانغ آن إلى الضفة، واقترب من الجبل عن بعد تشاو غاي وغونغسون شنغ على ظهري جواديهما يحملان سيفيهما، ويقودان جماعة من خمسين أو ستين رجلاً نصفهم على صهوات الخيول. وأسر حوالى مائتين من جنود العدو، ونقلت أعداد كبيرة من القوارب إلى التحصينات المائية في السفح الجنوبي للجبل.

آب قادة قطاع الطرق وملازموهم إلى القلعة. ترجل تشاو غاي عن جواده، ودلف إلى ردهة الأخوية الصالحة واتخذ مجلسه. ونزع الآخرون دروعهم وأسلحتهم وجلسوا حواليه. وربط هوانغ آن إلى عمود. ووُزِّع على الجنود من مختلف الرتب ذهب وفضة وحرير. أجري حساب لغنائم المعركة. وتبين أنه تم أسر أكثر من ستمائة حصان. وكان هذا العمل من أعمال لين تشونغ. وانتصر دو كيان وسونغ وان على البحيرة الشرقية مثلما انتصر الأشقاء يوان على البحيرة الغربية. وأسر ليو تانغ قائد العدو هوانغ آن.

سرَّ الزعماء أيما سرور. فذبحت الثيران والخيول، وأقيمت وليمة كبرى. وقدمت خمور رائعة من صنع منزلي، وجذور لوتس طري، وأسماك من البحيرة، إن لم نقل شيئاً من الدراق، والمشمش، والبرقوق، والبشلمة، والبلح، والبرسيمون، والكستناء من حدائق الجبل، بالإضافة إلى الدجاج، والإوز، وطيور البط التي تربى في القلعة.

تبادل الجميع التهاني، وقالوا إن انتصار رجال جاءوا حديثاً إلى القلعة مثل هذا النصر الكبير ليس بالأمر اليسير! وبينا الجميع يحتسون الخمور دخل رجل، وقال: "رسول من لدن القائد تشو غوي عند سفح الجبل يستأذن بالحضور".

أمر تشاو غاي بإحضاره، واستوضحه الأمر.

قال الرسول: "سمع تشو غوي أن جماعة من التجار سيمرون من هذه الطريق البرية هذه الليلة؟".

قال تشاو غاي: "تماماً في الوقت الذي ينفد فيه الذهب والفضة والحرير من عندنا. من يقود هذه الحملة؟".

قال الأشقاء يوان: "ما رأيكم بنا؟".

- حسن، أيها الأشقاء الطيبون. احترسوا، وعجلوا في الذهاب والإياب.

غادر الأشقاء يوان الردهة. بدلوا ثيابهم، وربطوا سيوفهم، وحملوا مطاردهم ومعازقهم ورماحهم المسنونة، واختاروا مائة من الرجال. ألقوا تحية الوداع على القادة في قاعة الاجتماع، وهبطوا عن الجبل. وعند شاطئ الرمال الذهبية ركبوا القوارب واجتازوا حانة تشو غوي.

خشي تشاو غاي ألا يتمكن الأشقاء يوان من معالجة الحملة وحدهم، فأرسل ليو تانغ مع مائة رجل آخر للانضمام إليهم. خاطب ليو تانغ، وهو يتأهب للذهاب: "خذوا أموال التجار وممتلكاتهم الثمينة وحسب، ولا تقتلوا أحداً منهم".

رحل ليو تانغ. حين لم يرجع الرجال عند الحراسة الثالثة أرسل تشاو غاي القائدين دو كيان وسونغ وان برفقة خمسين رجلاً آخر.

عكف تشاو غاي ووو يونغ وغونغسون على الشراب حتى الصباح. ودخل رسول وقال:

- بفضل تشو غوي أسرنا عشرين عربة من النقود والأشياء الثمينة وقرابة خمسين بغلاً وحماراً وحصاناً!

سأل تشاو غاي: "هل قتل أحد؟".

- حين رآنا التجار قادمين بقوة تركوا عرباتهم وحيواناتهم وأحمالهم وهربوا. ولم يجرح أحد منهم.

اغتبط تشاو غاي: "لقد وصلنا إلى القلعة من توِّنا. ولا ينبغي أن نؤذي الناس". وأعطى الرسول سبيكة فضية ونزل عن الجبل إلى شاطئ الرمال الذهبية مع جمع يحملون الخمرة والفواكه. كان قادة الحملة يفرغون العربات ويرسلون القوارب لإحضار الخيول والحمير والبغال المستولى عليها.

كانت الفرحة غامرة. وبعيد تبادل أنخاب الاحتفال دعي تشو غوي إلى وليمة في القلعة. ورجع تشاو غاي والآخرون إلى ردهة الأخوية الصالحة وجلسوا في حلقة. وهبَّ قطاع الطرق يفتحون حزمة من الغنيمة المستولى عليها، ويكدسون الأقمشة الحريرية في جانب، والأشياء العادية في جانب آخر، والذهب والفضة والأشياء الثمينة في الوسط.

لا نستطيع أن نصف لكم فرحة الزعماء بتلك الغنيمة الضخمة. أمروا الضباط الصغار المسؤولين عن المستودعات بخزن نصف تلك الأكوام لاستخدامها مستقبلاً. ووزع النصف الثاني إلى قسمين، توزَّع الزعماء الأحد عشر قسماً منه، وأخذ الجنود الآخرون بالتساوي القسم الآخر.

وشمت سمةٌ مميزة على وجه جميع الجنود المأسورين. واستخدم الجنود الأقوياء سائسين وجمّاعين للمحروقات، والجنود الضعفاء للعناية بالعربات وجمع العلف. وحبس هوانغ آن في مبنى

يقع في مؤخر القلعة.

قال تشاو غاي: "حين جئنا إلى هنا أول ما جئنا نفتش عن ملجأ، رجونا أن نصير ضباطاً صغاراً تحت إمرة وانغ لون. وعندها تخلى لي مدرب السلاح لين تشونغ بأنفة عن القيادة. وقد حدث عندنا الآن حادثان سعيدان غير منتظرين دفعة واحدة. هزمنا أولاً الجنود الحكوميين، وأسرنا عدداً كبيراً من الرجال والخيول والقوارب، وقبضنا على هوانغ آن. وغنمنا ثانياً كمية ضخمة من الذهب والفضة والأشياء الثمينة الأخرى. ونحن ندين بهذا كله لمواهبكم، أيها الإخوة".

احتج القادة الآخرون في لطف: "لولا حسن طالع الأخ الأكبر لما حصلنا على شيء".

قال تشاو غاي يذكّر وو يونغ: "نحن القادمون السبعة الجدد يجب أن نشكر الكاتب سونغ جيانغ والمفوض تشو تونغ لبقائنا في قيد الحياة حتى الآن. والمرء الذي لا يسدد ثمن اللطف لا يكون رجلاً؛ كما يقول أسلافنا. لمن نحن ندين الآن بسعادتنا ورخائنا؟ يجب أن نرسل كمية من الذهب والفضة إلى مدينة يونتشنغ. هذا موضوع له الدرجة الأولى من الأهمية. ولا يبرح باي شنغ في سجن جيتشو. ويجب أن ننقذه".

قال وو يونغ: "لا يشغلنَّك هذا الأمر. لدي خطة. على الرغم من أن الكاتب سونغ رجل نبيل وليس في حاجة إلى شكرنا، فإن من واجبنا أن نقوم بدورنا في هذا الموضوع. وحالما تسوّى الأمور ههنا فسنرسل إليه واحداً من إخوتنا. أما بالنسبة إلى باي شنغ فسنبعث رجلاً مجهولاً إلى جيتشو ونجعله يوزع بعض الرّشى بين حراس السجن، كباراً وصغاراً، للتخفيف من مصاعبه. هذا أسهل بالنسبة إلينا من أن نطلقه من سجنه. ماذا نفعل الآن في موضوع خزن الحبوب، وبناء القوارب، واستصناع أدوات الحرب، وتحصين حصوننا، وبناء المزيد من الأحياء السكنية، وتنظيم شؤون ثيابنا ودروعنا، وصنع الحراب والسيوف والأقواس والسهام، والتهيئة استعداداً لمجابهة القوات الحكومية؟".

قال تشاو غاي: "هذا كلام سديد، سنعمل بنصيحتك".

وزع وو يونغ عدداً من المهمات على القادة. والحديث في هذا الموضوع يتوقف هنا.

لا حاجة تدعونا إلى الإسهاب كيف ازدهرت بحيرة ليانغشان منذ الزمن الذي جاء فيه تشاو غاي إلى القلعة. سنتحدث بالأحرى عن الجنود الذين هربوا وقفلوا إلى جيتشو. فقد أخبروا الوالي أن قطاع الطرق قبضوا على هوانغ آن وأبادوا قواته؛ وأن الرجال الموجودين في القلعة لا تنقصهم الشجاعة أبداً؛ وأن أحداً لا يجرؤ على الاقتراب منهم للقبض عليهم؛ وأن تلك المنطقة ليست أكثر من متاهة من الطرق والممرات المائية؛ وأن الانتصار في معركة هنالك ضرب من المستحيل.

لم يستطع الوالي إلا أن يتفجع على بعثة الوزير الأول الخاصة: "لقد ذهب خه تاو إلى هنالك أولاً مع قوة ضخمة وكان الوحيد الذي رجع حياً؛ لكن من دون أذنين! وهو يستريح في بيته منذ ذلك التاريخ ولم يسترد عافيته بعد. لقد قتل رجاله الخمسمائة جميعاً. وبعدها أرسلت هوانغ آن قائد حامية المنطقة مع ضابط شرطة محلي رفيع الرتبة ترافقهما مجموعات كبيرة للقبض على اللصوص، فأبيدوا عن آخرهم. وهوانغ آن سجين في القلعة الآن، ولست أدري عدد الضباط والرجال الذين

ذبحوا. عاجزون نحن عن سحق أولئك اللصوص! فماذا أنا فاعل؟". كانت الأفكار المتناوشة تمزق حناياه، ولم تكن بيده حيلة.

في هذه الأثناء دخل ملازم وأعلن: "والٍ جديد يقترب من سرادق الاستقبال للبوابة الشرقية. وقد أسرعت إلى هنا للإعلان عن قدومه".

ركب الوالي حصانه على الفور، وطار إلى سرادق الاستقبال خارج البوابة الشرقية. كان يبدو من سحابة الغبار المتطايرة هناك أن الموظف الجديد وصل ونزل عن حصانه. فدخل الوالي السرادق واستقبل خلفه. فأعطاه هذا الأخير وثائق رسمية أصدرها المجلس الإداري تأمره بأن يحلّ الوالي الجديد محله. قرأها الوالي وذهب برفقة خلفه إلى دار الولاية حيث قدم له الأختام الرسمية والأموال والحبوب التي كانت في عهدته. وأقام من بعد مأدبة ترحيبية للموظف الجديد، وأعلمه بالمصاعب التي يعانيها مع اللصوص في بحيرة ليانغشان، وكيف عمدوا مؤخراً إلى تحطيم بعثة حكومية ضخمة.

استحال وجه الوالي الجديد بلون الطين، وهمس في سره: "هذا هو السبب إذاً في أن أغدق عليَّ الوزير الأول رتبة أعلى. يا للمنصب الذي عهد به إليَّ! ويا للوظيفة! فلا جنود أقوياء، ولا قادة قادرون! كيف يُفترض بي القبض على هؤلاء اللصوص؟ لنفرضنَّ أنهم جاءوا إلى هنا يطلبون الحصول على حبوب؟ فماذا أفعل؟".

في اليوم التالي، حزم الوالي السابق أمتعته وغادر العاصمة الشرقية في انتظار العقوبة التي ستفرض بحقه. ولن نتابع الحديث عنه هنا.

أما الوالي الجديد، فما إن باشر مهام منصبه حتى بعث بطلب قائد الحامية الجديد فتناقشا في أمر حملة ضد قلعة الجبل. سوف يجددان قواتهما، ويشتريان مزيداً من الخيول، ويخزنان العلف والحبوب، ويطوعان رجالاً أذكياء شجعاناً. وكتب الوالي إلى المجلس الإداري يطلب أن تعمل الولايات المجاورة على تقديم كل معونة ممكنة. وأصدر في الوقت ذاته أمراً إلى المناطق الخاضعة لولايته أن تشارك في العملية، وأن تراقب حدودها مراقبة فعالة. ونكتفي بما قلنا في هذا المجال.

حين وصل أمر الوالي إلى يونتشنغ أمر القاضي كاتبه سونغ جيانغ أن يعمم تلك التعليمات على النواحي الثانوية في المقاطعة. قرأ سونغ الأمر فارتعش، وخاطب نفسه قائلاً: "لم يخطر لي مطلقاً أن يتهادى تشاو غاي ورجاله إلى هذه الحدود. لقد سرقوا هدايا ذكرى ميلاد الوزير الأول، وقتلوا رجال الشرطة، وجرحوا المفتش خه تاو، وأبادوا عدداً كبيراً من الجنود والخيول، وهم يسجنون هوانغ آن في قلعتهم! عقاباً على مثل هذه الجرائم ينفذ حكم الإعدام في عائلات وأقرباء حتى الدرجة التاسعة من القرابة. ربما أرغموا على هذه الفعلة، ولكن الوقائع غير ذلك. قانونياً ليس لديهم عذر. فإن حدث شيء مغلوط فسوف يقعون في مأزق عصيب".

استسلم إلى التفكير فترة، ثم أخبر مساعده تشانغ وين يوان أن يعمم التعليمات ويجعل الأمر الصادر عن الوالي معروفاً من شتى النواحي والقرى.

غادر سونغ جيانغ المكتب. ولم يكد يجتاز ثلاثين خطوة حتى أوقفه صوت ناداه من ورائه: "أيها الكاتب سونغ!".

التفت. فرأى السيدة وانغ، صانعة الزيجات، برفقة امرأة أخرى. خاطبت مرافقتها قائلة: "يا لحظك السعيد! هذا هو كاتبنا المحسن".

سأل سونغ: "فيم تودان رؤيتي؟".

سدت السيدة وانغ طريقه، وأشارت إلى المرأة الأخرى: "عائلتها من العاصمة الشرقية، وهي ليست من السكان المحليين. هنالك ثلاثة لا غير: زوجها العجوز يان، وابنتها بوه سي، وهي نفسها. كان العجوز يان مغنياً، فعلَّم ابنته بوه سي كثيراً من الأغاني. وهي في الثامنة عشرة من عمرها، ورائعة الجمال أيضاً. جاءوا إلى هنا، إلى شاندونغ، للانضمام إلى أسرة موظف يعرفونه، ولكنهم لم يعثروا عليه. فهاموا على وجوههم ووصلوا أخيراً إلى يونتشنغ. غير أن الناس هنا لا يلقون بالاً إلى الموسيقى والتسلية، فما استطاعوا أن يجمعوا لقمة العيش. وهم يقيمون في شقة في زقاق هادئ وراء دار القضاء. والبارحة، سقط العجوز مريضاً بوباء خطير وقضى نحبه، ولكن زوجته لا تملك مالاً لتأمين دفنه. وهي لا تعرف ماذا تفعل، فسألتني أن أجد لها رجلاً يأوي بوه سي. فقلت: من أين لي أن أعثر على رجل يكون صالحاً في مثل هذه الأوقات؟ ولم أعرف ممن أقترض لها مالاً أيضاً. وبدا الأمر ميؤوساً منه. وعندها رأيتك، فأسرعت وراءك مع السيدة يان. ارحمها. وساعدها في شراء نعش لزوجها".

قال سونغ جيانغ:

- هذا هو الأمر إذاً. تعاليا معي. سأستعير قلماً وحبراً من تلك الحانة في نهاية الزقاق وأكتب ورقة لتاجر النعوش في الجزء الشرقي من المدينة.

واستفسر قائلاً: "أتملكين ما يقيم أودك؟".

قالت السيدة يان: "لم نستطع الحصول على نعش، فمن أين نؤمن ما يقيم أودنا؟".

- سأعطيك إذاً عشر أوقيات من الفضة.

- أنت أشبه بأبويَّ عاشا من جديد! سأخدمك بسرور مثل حمار أو حصان لأرد لك جميلك!

- ليس هنالك ما يدعو إلى مثل هذا الحديث.

أعطى سونغ جيانغ الأرملة سبيكة فضية، وانطلق في سبيله.

حملت المرأة الورقة إلى تاجر النعوش، واختارت نعشاً، ورجعت إلى البيت وأعدَّت كل ما تحتاجه الجنازة. وعندما تمَّ لها كل شيء كانت لا تبرح تملك خمس أو ست أوقيات من الفضة احتفظت وابنتها بها لمعيشتهما. ولن نزيد في هذا الموضوع حديثاً.

ذات يوم، جاءت السيدة يان تعرب عن شكرها لسونغ جيانغ، ولحظت أنه يعيش وحيداً من دون امرأة في البيت. فاستفسرت بعد فترة من جارتها السيدة وانغ عن ذلك الأمر.

- أليس لديه امرأة؟

- أعرف أن بيته في قرية أسرة سونغ، ولكنني لم أسمع أي ذكر لأي امرأة. وهو يعمل هنا موظفاً، ولديه منزل مؤقت. وهو على الدوام يمنح نقوداً لشراء نعوش أو أدوية، ويساعد الناس في محنهم. أشك أنه غير متزوج.

- ابنتي جميلة الطلعة، وفي مقدورها الغناء، وتجيد مختلف ضروب الألعاب المسلية. يوم كانت صغيرة، وكنا نعيش في العاصمة الشرقية، اعتادت التطواف حول المواخير. وكان أصحابها جميعاً يشهدون بجمالها. وقد عرضت محظية أو محظيتان أن تشترياها عدة مرات. ولكنني رفضت، فلم يكن في البيت غيري وغير زوجي، ولم يكن لدينا ولد يعيننا في شيخوختنا. ولم يخطر لي أن بوه سي ستعاني من المصاعب في يوم من الأيام. حين ذهبت أقدم الشكر للكاتب سونغ ذلك النهار وجدت أنه يعيش من دون امرأة. أتمنى أن تخبريه عن لساني: إذا كان يريد امرأة فيسرني أن أقدم له بوه سي. لقد أحسن إليَّ كثيراً عن طريقك. وليس لدي من سبيل آخر أشكره به سوى هذا السبيل.

في اليوم التالي، ذهبت السيدة وانغ إلى سونغ جيانغ وفاتحته في الموضوع. رفض في بادئ الأمر. ولكنه أعجز عن أن يقاوم فصاحة صانعة الزيجات، فرضخ أخيراً. واستأجر منزلاً في الحي الغربي من المدينة، واشترى بعض الأثاث، وأسكن فيه بوه سي وأمها. ولم يمر نصف شهر حتى كانت بوه سي ترفل في الحرير وتعقص شعرها بالحلي والجواهر. وبعد فترة قصيرة ملكت السيدة يان مجموعة من الأشياء الثمينة. وصارت بوه سي تعيش في رفاهة ورخاء.

وفي البدء صار سونغ جيانغ ينام في فراشها كل ليلة. وما لبث أن قلَّ تردده على البيت. لماذا؟ حسن، كان سونغ جيانغ رجلاً شهماً هوايته المفضلة التدرب على السلاح. وكان الجنس بالنسبة إليه شيئاً ثانوياً. وكانت بوه سي فتاة عابثة في حدود الثامنة عشرة في إبان تفتحها، ولم تكن راضية عن سونغ جيانغ.

أحضر ذات يوم مساعده تشانغ وين يوان لاحتساء قليل من الخمرة. وكان تشانغ شاباً وسيماً، له حاجبان أسودان، وعينان جميلتان، وأسنان ناصعة البياض، وشفتان ياقوتيتان، وكان مغرماً بأوكار التسلية، ومتسكعاً، وحفظ مختلف أساليب المداعبات الغرامية. يضاف إلى هذا أنه كان موسيقياً يجيد العزف على الآلات الوترية وآلات النفخ.

وسرعان ما عشقت بوه سي، المغنية المغرمة بالخمرة والسحر، تشانغ من أول نظرة. فاستمرت تبادله نظرات الهيام. فأدرك تشانغ، الشاب الغيور للنساء، معنى إيماءات الفتاة ودعواتها. ولم يلبث أن زارها في غياب سونغ جيانغ مدعياً البحث عنه. فرجته بوه سي أن يشرب الشاي معها. وتشعبت أطراف الحديث بينهما، وسرعان ما صارا عاشقين.

من كان يخطر له أن ذينك الشخصين، منذ ذلك الحين فصاعداً، سيلتهبان في أتون الغرام، وأن بوه سي ستطرد من قلبها سونغ. فجعلت تخاطبه في جفوة حين يزورها، ولا تحاول أن تغازله من قريب أو بعيد. كان سونغ رجلاً باسلاً لا يبالي كثيراً بالنساء. وهكذا تقلصت زياراته إلى يوم واحد في كل عشرة أيام أو نصف شهر.

قال في نفسه: "على أية حال، فهي ليست زوجة رسمية اختارها لي أبواي. إن أهملتني ففيم أبالي؟ سأكفنَّ عن الذهاب". ومر شهر كامل من دون أن يقوم بأية زيارة. فأرسلت السيدة يان تدعوه، ولكنه رفض الذهاب مدعياً أن أعماله الكثيرة تمنعه.

توجه سونغ جيانغ إلى المخزن القائم عبر الطريق، وجلس يرتشف الشاي ويتحدث عن

موضوعات أخرى بعد مغادرته دارة القضاء ذات عشية. وإن هنالك رجلاً ضخماً يرشح عرقاً ويتنفس بصعوبة يسير محملقاً في دارة القضاء. كان يرتدي قبعة لبادية بيضاء عريضة الحافة ورداء من الحرير الأخضر الداكن، وصندلاً من القنب، وقد حمل في وسطه سيفاً وعلى ظهره صرة ضخمة.

كان ذلك الرجل بادي التردد في حركاته. نهض سونغ جيانغ ولحق به. مشى الرجل حوالى ثلاثين خطوة حين استدار وشخص إلى سونغ جيانغ بعينين جاحظتين. لم تبد في ملامحه آثار تنم عن معرفته، ولكنه بدا في عينيه معروفاً.

فكر قائلاً: "أين تراني التقيت هذا الشاب من قبل؟". لم يستطع أن يتذكر.

أضاءت في عيني ذلك الشاب ومضة من التمييز. فوقف ونظر إلى الكاتب، ولكن الشجاعة لم تؤاته أن يخاطبه.

هامس سونغ جيانغ نفسه قائلاً: "ما بال هذا الشاب؟ فيم يحدق فيّ على هذا الغرار؟". ولم يستطع أن يرغم نفسه على طرح أي سؤال.

دلف الشاب إلى دكان حلاق، واستوضح: "هل يمكن أن تخبرني باسم ذلك الموظف هنالك؟".

أجاب الحلاق: "إنه الكاتب سونغ جيانغ".

اقترب الشاب من سونغِ جيانغ ومطرده في يده، وألقى تحية مؤدبة: "ألا تذكرني، يا سيدي الكاتب؟".

- وجهك مألوف بالنسبة إليّ.

- لنمشِ قليلاً نتجاذب أطراف الحديث.

مشى سونغ جيانغ برفقته إلى زقاق هادئ. فاقترح الشاب: "قد تكون تلك الحانة مكاناً مناسباً".

ولج الاثنان إلى الحانة، وصعدا الدرج، وجلسا في حجرة منعزلة. وضع الشاب مطرده، وأنزل صرته ووضعها تحت المنضدة، ثم خرَّ على ركبتيه ساجداً.

ردّ له سونغ جيانغ تحيته، وقال: "هل أسألك عن اسمك، يا سيدي؟".

أجاب الشاب: "أيها المحسن إليَّ، كيف يمكن أن تنسى أخاك الصغير؟".

- من أنت؟ أنت لا تبدو غريباً إليَّ، ولكنني لا أتذكر.

- أنا ليو تانغ، المعروف باسم الشيطان أحمر الشعر. وكان لي شرف لقائك في مزرعة قائد السجن تشاو. لقد أنقذت حياتنا.

أجفل سونغ جيانغ. وصاح: "يا أخي، لكم أنت متهور! من حسن الحظ أنه ليس ههنا رجل شرطة وقعت عيناه عليك، وإلا تعرضت لخطر كبير!".

- ينبغي أن أقدم لك خالص شكري. ولو فقدت حياتي!

- كيف حال قائد السجن تشاو والآخرين؟ من أرسلك إلى هنا؟

- الأخ تشاو ممتن لك لإنقاذك حياته. وهو يشعر بواجب الإعراب لك عن شكره. وهو الآونة القائد الأعلى في قلعتنا على جبل ليانغشان. ووو يونغ المستشار العسكري في جيشنا. وغونغسون

شنغ مسؤول عن شؤون الرقابة العسكرية أيضاً. وقد منحنا لين تشونغ كامل تأييده، وقتل وانغ لون. وهو، والأشخاص الثلاثة المتواجدون هنالك أصلاً دو كيان، وسونغ وان، وتشو غوي، بالإضافة إلينا يصل عددنا إلى أحد عشر قائداً. ونسيطر على قوة مؤلفة من ثمانيمائة من الرجال، ولدينا حبوب لا حصر لها. وليس هنالك سبيل إلى رد جميلك على إحسانك العظيم، ولكنهم أرسلوني أحمل رسالة ومائة أوقية من الذهب عربوناً عن شكرنا.

فتح ليو تانغ صرته، وأخرج الرسالة، وناولها إلى سونغ جيانغ. قرأها الكاتب، وأخرج كيساً صغيراً من عباءته. وتناول ليو تانغ أيضاً صرة من الذهب ووضعها على المنضدة. اختار سونغ سبيكة منها، ولفها في الرسالة ووضعها في كيسه، وأخفاه تحت عباءته.

قال: "خبئ الذهب، يا أخي".

ونادى على النادل أن يحضر خمرة، وطبقاً من لحم البقر، وبعض أطباق الفواكه والخضراوات، وأن يسكب الخمر لضيفه.

كان النهار قد أشرف على نهايته حين انتهى ليو تانغ من الشراب وخرج النادل. فتح ليو تانغ من جديد صرة الذهب على المنضدة. فمنعه سونغ جيانغ قائلاً:

- أصغ إليَّ، يا أخي. لقد ذهب سبعتكم إلى قلعة الجبل. وهذا أوان تستخدمون فيه المال. وأنا أملك دخلاً عائلياً يكفيني، احفظ ما بقي من الذهب في القلعة. سأحضر أطلبه حين تدعو الحاجة إليه. أنت ترى أني لا أرفضه، فقد أخذت منه سبيكة. وتشو تونغ يملك مورداً عائلياً كافياً. وليست هنالك ضرورة لإعطائه شيئاً. سأخبره بحسن نواياكم، وهذا يكفي. لن أطلب إليك قضاء الليل هنا، يا أخي. إذا عرفوك وقعت الطامة الكبرى. سيكون القمر بدراً هذه الليلة، وفي طوقك أن تعود إلى القلعة. لا تتوان في هذه الأرجاء. انقل أطيب تحياتي إلى القادة، وقل إني آمل أن يصفحوا عني لعدم مجيئي شخصياً لتقديم آيات التهنئة.

- لن يكون في مستطاعنا أن نفيك حقك من الشكر، يا أخي، على لطفك الجم. ولكنهم أرسلوني خصيصاً مع هذه الهدية الصغيرة عربوناً للوفاء. إن قائد السجن تشاو زعيمنا، ووو يونغ مستشارنا العسكري. وقد أمراني بتسليم هذا الذهب. فكيف أعود به؟ سوف يؤنبانني.

- إذا كان نظامكم على هذه الشدة فسأكتب رسالة أشرح فيها الأمر، وتحملها إليهم.

توسل ليو تانغ كثيراً، ولكن سونغ جيانغ لم يرضخ. طلب إلى النادل أن يحضر قلماً وورقة، وكتب رسالة مفصلة جعل ليو تانغ يسدها في صرته. كان ليو تانغ شاباً مستقيماً. وحين تبين له أن سونغ جيانغ عازم على رفض قبول الذهب لفه ودسه في ثيابه.

تأخر الوقت. فقال ليو تانغ: "إذا كنت قد كتبت جواباً، يا أخي، فسأفعل على تسليمه هذه الليلة".

- أنت تعرف السبب في عدم تأخيري لك هنا.

انحنى ليو تانغ أربع مرات. واستدعى سونغ جيانغ النادل، وقال له: "هذا السيد المهذب سيترك أوقية من الفضة. سأمرُّ غداً لتسوية الحساب".

تنكب ليو تانغ صرته، وحمل مطرده، وتبع سونغ جيانغ على الدرج. سارا معاً من الحانة حتى نهاية الزقاق. كانت العتمة قد انتشرت، وبرز القمر في كبد السماء. أمسك سونغ بيد ليو تانغ، وقال: "حذار، يا أخي. لا تأت إلى هنا مرة أخرى. فثمة عدد كبير من رجال الشرطة. والأمر على كثير من الخطورة. لن أسير معك مسافة أخرى. سنلقي تحية الوداع هنا".

مشى ليو تانغ في ضياء القمر متجهاً غرباً. ورجع في تلك الليلة ذاتها إلى بحيرة ليانغشان.

وبينا سونغ جيانغ يتمشى على مهلته في طريق العودة إلى جناحه جعل يفكر: "ما أسعدني لأن أحداً من رجال الشرطة لم يلق القبض عليه! وإلا وقعت المصيبة الكبرى!". وأغرق في التفكير: "وهكذا غدا تشاو غاي قاطع طريق مرة أخرى. ويقوم بالأعمال بصورة واسعة!".

دار في الشوارع دورتين حين سمع صوتاً يناديه من ورائه: "أين كنت، يا سيدي الكاتب؟ كنت أبحث عنك".

تطلع حواليه، وانشده.

نتيجة لذلك استحالت وداعة سونغ جيانغ إلى شجاعة، وتوحشت طبيعته الأنيسة.

من كان ذلك الإنسان الذي ناداه؟

إن أحببت أن نروي لك ما حدث هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الحادي والعشرون

صاحب الماخور السكران يضرب الثور تانغ؛
وسونغ جيانغ يذبح بوه سي في ثورة من الغضب

فيما راح سونغ جيانغ يتماهل في طريقه إلى جناحه على طول الشارع المقمر بعد وداع ليو تانغ، نادت عليه السيدة يان من ورائه، وأسرعت تلحق به، قالت: "أرسلت من يدعوك منذ زمن بعيد، ولكن أشغالك صعَّبت العثور عليك. إذا كانت البغي ابنتي قد تفوهت بما أثار غضبك، فأرجو أن تصفح عنها كرمى لي. لقد انهلت عليها تأنيباً، وأخبرتها أن تعتذر إليك. أنجدني الحظ بلقائك الليلة. وفي مقدورنا أن نذهب إليها معاً".

- لديَّ أعمال في دارة القضاء. لا أستطيع الذهاب. سأجيء في وقت آخر.

- أبداً. فالفتاة في المنزل يقتلها الحنين إليك. واسها قليلاً. فيم تعاملها على هذا الغرار؟

- أنا مشغول حقاً. سأجيء غداً من دون ريب.

شدته من كمه: "بل الليلة. من يحرضك ضدها؟ نحن نعتمد على كرمك البقية الباقية من عمرنا. وكل من يسرد عليك قصصاً لا تعره أذناً صاغية. اتخذ قرارك بنفسك. وإذا كانت ابنتي قد أخطأت فاللوم يقع على كاهلي أنا. أرجوك أن ترافقني".

- كفى لجاجة. أنا مشغول ولا أستطيع الذهاب.

- القاضي لن يعاقبك إذا تناسيت عملك فترة قصيرة من زمن. وقد لا ألتقيك مرة أخرى. يجب أن تأتي. لديَّ ما أطلعك عليه حين نصل إلى البيت.

كان سونغ جيانغ رجلاً مستقيماً، والمرأة تشبثت به في عناد. فقال: "اتركي يدي، سأذهب".

- لا تهرب، فامرأة عجوز لا تستطيع اللحاق بك.

- وفيم أهرب؟

تابعا طريقهما جنباً إلى جنب. توقف سونغ جيانغ عند الباب. فشدته السيدة يان من يده.

ولج الباب واقتعد دكة. وجلست المرأة العجوز الحكيمة إلى جانبه، وقد خشيت أن يلجأ إلى الفرار.

نادت: "يا ابنتي. محبوبك هنا".

كانت بوه سي مستلقية في فراشها تحدق في المصباح، وتشغل ذهنها في شيء محدد. كانت ترجو أن يحضر تشانغ لرؤيتها. وحين سمعت أمها تقول: "محبوبك هنا". ظناً منها أنها تقصد الشاب الفاجر نهضت مسرعة وصففت شعرها مغمغمة: "ذلك الوغد. جعلني أنتظره مدة طويلة. سوف أصفعه!".

هبطت على السلَّم ومدت بصرها من خلال الجدار المطرّز. كان المصباح الزجاجي في الرواق يضيء وجه سونغ جيانغ. وسرعان ما استدارت وصعدت من جديد وألقت بنفسها على فراشها.

سمعت السيدة يان صدى خطوات ابنتها تهبط السلم وتصعده من جديد، فصاحت: "محبوبك هنا، يا ابنتي. ففيم ذهبت؟".

أجابت بوه سي من حيث استلقت على فراشها: "هذه الغرفة لا تبعد عنه كثيراً، وفي مقدوره المجيء إليها! هو ليس أعمى! لِمَ لم يحضر إلى هنا بدلاً من انتظاره ذهابي إليه لتحيته؟ لا تهرفي على هذا المنوال!".

قالت السيدة يان توضح الأمر لسونغ جيانغ: "تضايقت لإهمالك إياها زمناً. وهذا ما يحدوها على مثل هذا الكلام". وضحكت، واسترسلت: "سأذهب برفقتك".

أحسَّ سونغ جيانغ بالضيق والقرف. ولكن السيدة يان ألحّت عليه، فصعد برفقتها إلى الطابق العلوي.

كانت غرفة الفتاة رحبة، في نصفها الخارجي منضدة للزينة ودكة للجلوس. وفي نصفها الداخلي، عن جانب، فراش مزين بدرابزون عند رأسه وأسفله، فوقه ظلة من حرير أحمر اللون. وثمة حامل للثياب ومنشفة عند طرفه، وفي الطرف الآخر حوض للاغتسال. وهنالك مصباح معدني على منضدة ذهبية اللون، عن جانبيه مقعدان مماثلان من دون يدين. وفي وسط الجدار الأوسط لوحة لفتاة بارعة الحسن. وثمة أربعة مقاعد وسيعة خشبية موضوعة في صف واحد على طول الجدار المقابل للفراش.

جرَّت السيدة يان سونغ جيانغ إلى الغرفة، فجلس على أحد المقعدين القريبين من الفراش. وخطت السيدة يان وأنهضت ابنتها عن السرير.

– السيد الكاتب هنا. وامتنع عن المجيء لأنك أثرت غضبه. مزاجك حاد، ولكنك تفكرين فيه دائماً. ولم يكن من اليسير عليَّ إرغامه على المجيء. هيا انهضي واعتذري له، أيتها العبوس!

رفعت بوه سي يديها جانباً: "فيم تثيرين هذه الضجة؟ أنا لم أرتكب خطأ. إذا كان قد امتنع عن المجيء فكيف أعتذر له؟".

أصغى سونغ جيانغ إلى الحديث من دون أن ينطق بكلمة واحدة. جرَّت السيدة يان مقعداً إلى جانبه ودفعت الفتاة فأجلستها عليه: "اجلسي هنا واعتذري له. إن لم تفعلي فأحسني التصرف على أقل تقدير".

رفضت بوه سي الجلوس إلى جانب سونغ جيانغ. وجلست على كرسي قبالته. ظل الكاتب مرخياً بصره إلى الأرض معتصماً بالصمت. وحولت بوه سي بصرها ناحيته.

قالت السيدة يان: "كيف نولم مأدبة من دون خمرة ومرق الصويا، على ما يقول المثل. سأحضر قليلاً من الصهباء. وما نحتاج إليه الآن لا يعدو شيئاً من طعام. وعندها نتمكن من تقديم اعتذارنا. يا ابنتي، أقيمي ههنا برفقة السيد الكاتب. لا ترتبكي. سأعود على الفور".

همس سونغ جيانغ في سره: "لقد سمَّرتني تلك الحيزبون هنا. وما إن تهبط الدرج حتى

أرحل!".

ولكن السيدة يان خمَّنت ما كان يجول في ذهنه، فأقفلت باب حجرة النوم بالمفتاح.

خاطب سونغ جيانغ نفسه قائلاً: "لقد سمَّرتني هذه القوادة الحيزبون هنا".

هبطت السيدة يان السلَّم، وأشعلت مصباحاً قريباً من الفرن، وسخنت المياه، وأضافت إلى الفرن حزمة من الحطب، وأخرجت بعض النقود، وأسرعت فابتاعت من نهاية الزقاق الفواكه، وسمكاً طازجاً، ودجاجة طرية، وسمكاً بالمخلل. وحملت هذه الأشياء إلى البيت، ووضعتها في عدة أطباق. وبعد أن صبت الخمر في جرة صغيرة، أهرقت قليلاً منها في طاس أدفأتها على الفرن. وصبَّت الخمرة الدافئة في طاس أخرى، ثم طهت بعض الأطباق وحملتها مع ثلاثة أكواب وثلاثة أزواج من عصي الطعام على صينية وصعدت السلَّم.

وضعت الصينية على منصدة الزينة، وفتحت باب حجرة النوم، ووضعت الطعام والشراب على منضدة من اللك المذهّب.

كان سونغ جيانغ لا يبرح جالساً محني الرأس، وبوه سي مديرة وجهها ناحيته.

- يا ابنتي صبي له الخمر.

- اشربا أنتما، فلست أرغب في الشراب.

- لقد أسدناك، أبوك وأنا، منذ طفولتك، ولكن لا ينبغي أن تتصرفي على هذه الشاكلة أمام الآخرين.

- ماذا يحدث إن لم أصب الخمر؟ هل يطير سيفه ويجتز لي عنقي؟

ضحكت المرأة العجوز: "إنها خطيئتي أنا. سيدي الكاتب هنا سيد مهذب، لن يستاء من تصرفات أمثالك. إن لم ترغبي في صب الخمرة فأديري على الأقل وجهك إليه وشاركينا الشراب".

بيد أن الفتاة لم تنظر إليه، فاضطرت السيدة يان أن تصبَّ له الخمرة، فشرب قدحاً على مضض.

ألحت عليه السيدة العجوز مبتسمة: "لا تلمها. أعرف أن هنالك شائعات كثيرة حولها. سأشرح لك كل شيء غداً. فهنالك عدد من الأشخاص يغارون منك. تتقد في صدورهم النيران لمرآك ههنا. فيثرثرون بما يخطر في أذهانهم من هراء. إنها سخافات فارغة! لا تعرهم سمعك! والآن، لنشرب!".

ملأت الأكواب الثلاثة، والتفتت إلى ابنتها قائلة: "كفي عن التصرف مثل الأطفال. واشربي قليلاً من الخمرة".

- دعيني وشأني! لقد ضجرت. ولا أستطيع أن ألمس شيئاً.

- هيا، يا ابنتي. اشربي مع محبوبك.

همست بوه سي في سرها: "لقد وهبت فؤادي لتشانغ. فكيف أقعد مع مثل هذا النذل؟ لكنني إن لم أسكره بالشراب فقد يرغب في أشياء أخرى". وأرغمت نفسها على احتساء نصف كوب.

ضحكت السيدة يان: "ابنتي مضطربة. استرخي، واشربي قليلاً، وهيا إلى الفراش. سيدي الكاتب، اشرب حتى الثمالة".

لم يستطع سونغ جيانغ رداً على إلحاحها. فاحتسى أربعة أو خمسة أكواب واحتست العجوز قليلاً. وهبطت إلى الطابق الأرضي تدفئ مزيداً من الشراب. ضايقها رفض ابنتها احتساء الخمرة. ولكنها شعرت بشيء من الارتياح عندما أبدلت الفتاة رأيها. خاطبت نفسها بقولها: "إذا استطعنا إغواءه على البقاء هنا هذه الليلة فسيتغلب على غضبته. يحسن أن نتشبث به قليلاً، وعندها نرى ما يكون".

شربت عند الفرن ثلاثة أكواب أخرى، ففاقم الشراب من رغبتها، فأطفحت طاساً أخرى احتستها عن آخرها. ثم صبت نصف طاس من الخمرة الدافئة في إبريق وزحفت تعرج في السلَّم. فوجدت سونغ جيانغ جالساً في صمت خافضاً عينيه. وكانت بوه سي تلهو بقميصها وقد أدارت رأسها جانباً.

ضحكت المرأة العجوز: "أنتما لم تصنعا من الطين، ففيم لا تنطقان بحرف؟ كن رجلاً، يا سيدي الكاتب. كل ما ينبغي أن تفعله هو أن تبدي شيئاً من الرقة ببضع كلمات حلوة".

لم يعرف سونغ جيانغ ماذا يفعل فبقي على صمته. وبدا له البقاء أو الذهاب أمراً على كثير من الخطأ.

وقالت بوه سي في حنايا نفسها: "أنت لم تأت لرؤيتي. وتريدني الآن أن أتحدث وألهو معك على مألوف العادة. أبداً لن أفعل!".

احتست السيدة يان كثيراً من الخمرة وجعلت تهرف بالأقوال، فتثرثر في هذا الموضوع، وتكذب في ذاك، وتتابع هذيانها في كلمات سريعة.

في هذه الأثناء، كان الثور تانغ يفتش عن سونغ. كان تانغ يبيع اللحوم والخضراوات المخللة، كما كان يؤدي بعض الألاعيب في شوارع المدينة. وما أكثر ما أمده سونغ جيانغ بالمال، وكلما التقط تانغ بعض الأنباء عن قضايا المحكمة أو المتنازعين ينقلها إلى سونغ جيانغ الذي يهب له شيئاً من المال. وحيثما احتاج سونغ جيانغ إليه فهو طوع أمره على الدوام.

في هاتيك الأمسية بالذات كان تانغ قد خسر على مائدة القمار، فاتخذ سبيله إلى مكتب المقاطعة لرؤية سونغ جيانغ، فلم يجده.

سأله بعض الجيران: "عمن تبحث وأنت في عجلة من أمرك، يا أخي؟".

– أنا شديد الظمأ. أفتش عن نصيري، ولكنني لم أجده.

– ومن هو نصيرك؟

– كاتب محكمة المقاطعة سونغ جيانغ.

– رأيته برفقة السيدة يان منذ فترة قصيرة.

– إن ابنتها مومس قذرة. وهي وتشانغ غارقان في الهيام. والفتاة تخادع سونغ جيانغ. ولا ريبة أنه علم بالأمر فانقطع عن الذهاب إليها. أما في هذا النهار فيبدو أن القوادة العجوز احتالت عليه فأخذته لزيارتها. أنا لا أملك شيئاً من المال، وحنجرتي يقتلها الظمأ. سأمرّ به وأقترض ما يكفي لتناول عدة أكواب من الخمر.

اتجه تانغ إلى السيدة يان. كان هنالك مصباح يشتعل فتيله والباب غير مغلق. وما إن وصل إلى أسفل السلم حتى سمع العجوز تضحك بصوت عال في الغرفة العليا.

صعد السلم على أطراف أصابعه، واختلس النظر من شق في الجدار. كان سونغ جيانغ وبوه سي يطيلان النظر إلى الأرض، والسيدة العجوز جالسة في رأس المنضدة تثرثر ما طاب لها. فدلف تانغ وألقى تحية مؤدبة. وانتصب واقفاً عند المدخل.

حدث سونغ جيانغ نفسه قائلاً:

- جئت في الوقت المناسب!

وأومأ إليه بشفتين مطبقتين.

- هل حدث شيء له أهمية في مكتب المقاطعة؟

- لقد نسيت، يا سيدي الكاتب، موضوع القضية التي عرضت عليكم هذا الصباح، وقد استطار لبّ القاضي في غرفته. فأرسل أربعة أو خمسة من المساعدين يفتشون عنك. سعادته يرشح ناراً. يحسن أن تذهب إليه!

وقف سونغ جيانغ، واتجه ناحية السلم:

- إذا كان الأمر على جانب من الأهمية، فيفترض فيَّ المثول بين يديه.

ولكن السيدة يان وقفت في سبيله:

- كف عن التمثيل. يا سيدي الكاتب، أعرف أنه يمثل دوراً.

واستدارت تواجه الثور تانغ:

- أيها القذر الملعون! تحسب أنك تخدعني! تحسب أنك تختطف القدوم من يدي لو بان النجار العظيم، أليس كذلك؟ في هذه الساعة يحتسي القاضي الخمرة في بيته ويداعب زوجته. فأي موضوع قضائي يمكن أن يشغله في مثل هذه الليلة؟ أنت لا تستطيع خداعي بمثل هذه الأقاصيص الزائفة!

- القاضي ينتظره حقاً. والأمر في غاية العجلة. وأنا لا أكذب!

- هراء! هاتان العينان العجوزان صافيتان حقاً. فلقد رأيت الكاتب يومئ بفمه فاختلقت هذه القصة. وبدلاً من أن تحثه على البقاء هنا تحاول إغراءه على الذهاب! "القتل يمكن الصفح عنه، أما الخداع فلا" كما يقول المثل القديم.

وثبت السيدة يان، وأمسكت تانغ من رقبته بكلتا يديها، ودفعته يتدحرج على السلَّم.

صرخ تانغ قائلاً: "ارفعي يديك عن عنقي!".

- أنت تفسد عملنا، وتقطع رزقنا! وهذا شيء سيئ يشبه قتل أبوي المرء أو زوجته! أي ضجيج يصدر عنك فأنهال عليك ضرباً، أيها المستعطي اللص!

فتطاول تانغ أمامها: "لنرينَّ كيف تضربينني!".

أمدت الخمرة السيدة يان بالشجاعة، فصفعته بقوة ألقته على الأرض، فأسقط الباب المصنوع من خشب البامبو. لفت العجوز، وفمها لا يكفُّ عن السباب، الستارة ووضعتها جانباً، وأغلقت

الأبواب المزدوجة وأقفلتها بقوة.

جأر الثور تانغ من الباحة: "يا تاجرة البغاء القذرة! لولا الكاتب سونغ لكنت قد حطمت منزلك تحطيماً!". وضرب على صدره شاتماً: "إن لم أقتلك فلن يكون اسمي تانغ!".

صعدت السيدة يان على السلَّم، وتوجهت إلى سونغ جيانغ قائلة: "لا ينبغي أن تلقي بالاً إلى ذلك المستعطي. جاء يستندي ثمن قدحين من الشراب. هو لا يجيد غير إثارة القلاقل. هذا النذل الزنيم الذي سيموت في الشوارع يجرؤ على المجيء إلى بيتي بأكاذيبه!".

كان سونغ جيانغ رجلاً صادقاً، فعجز عن الرحيل بعد أن اكتشفت السيدة العجوز محاولته الفرار.

- لا تحقد عليَّ يا سيدي الكاتب. نحن نعرف مقدار طيبتك بالنسبة إلينا. يا ابنتي، اشربي هذه الكأس مع السيد الكاتب. فأنتما لم تريا بعضكما بعضاً منذ زمن بعيد. وفي مقدوري أن أتصور مقدار توقكما للذهاب إلى الفراش. سأرتب هذه الأمور هنا وأذهب.

شربت قدحين برفقة سونغ جيانغ، وجمعت الأكواب والأطباق، وهبطت إلى المطهى.

همس الكاتب في نفسه: "سمعت أن هذه الفتاة وتشانغ على أتم وفاق من الهوى. ولكنني لست واثقاً. فلم أشاهد شيئاً بأمِّ عينيَّ. إن ذهبت الآن فسيخطر لها أني ريفي أخرق. وفضلاً عن ذلك، فقد تأخر الوقت وأود أن أنام. وقد أكتشف ماهية شعور هذه الفتاة نحوي".

صعدت السيدة العجوز الدرج مرة أخرى، وهتفت: "تأخر الوقت. اذهبا إلى الفراش أنتما الاثنان".

جأرت بوه سي: "تدبرني أمور نفسك. واذهبي أنت إلى الفراش!".

ضحكت السيدة يان وهبطت الدرج قائلة: "استرح جيداً يا سيدي الكاتب، ومتّع نفسك ما طاب لك. استرخ في الفراش حتى ساعة متأخرة غداً".

نظفت المطهى، وغسلت قدميها، وأطفأت المصباح، ولجأت إلى سريرها.

رنا سونغ جيانغ من حيث جلس على المقعد الصغير المدوَّر إلى الفتاة وزفر. كانت فترة الحراسة الثانية. اضطجعت بوه سي في فراشها بكامل لبوسها. وأراحت رأسها على الوسادة المطرزة. واستدارت تواجه الجدار.

فكَّر سونغ جيانغ وقد استبدَّ به القلق: "هذه المومسَ تلجأ إلى النوم من دون أن تنظر إليَّ. أغوتني أمها على القدوم إلى هنا وملأتني خمرة. وأنا عاجز عن فتح عينيَّ. والوقت تأخر. يحسن أن أغتنم قليلاً من الراحة".

رفع المنديل عن رأسه ووضعه على المنضدة، وخلع عباءته وعلقها على حامل الثياب، وأسقط حزامه الملتف حول وسطه بالخنجر والكيس المعلقين به على حافة السرير. ثم خلع حذاءه الحريري وجوربيه، واستلقى ورأسه إلى جانب قدمي الفتاة.

بعيد فترة من الزمن سمعها تضحك. فشمله غضب. كيف السبيل إلى النوم؟ قال في فكره: "السرور يأسى على استباق الليل، والشقاء يكره الخطى المتباطئة".

وما إن انتهت الحراسة الثالثة وبدأت الحراسة الرابعة حتى نفض عن جفنيه النعاس. وحين أزفت الحراسة الخامسة نهض وغسل وجهه في الحوض بالماء البارد، وارتدى ثوبه، وعقد منديله على رأسه. وغمغم: "يا للفاجرة البغي!". سمعت بوه سي. لم يغتمض لها جفن هي الأخرى. فالتفتت، وقالت: "ينبغي أن تخجل من نفسك!".

ابتلع غضبته، وهبط عن السلم.

سمعت السيدة يان صدى خطواته، فنادت عليه من فراشها: "نم فترة أخرى، يا سيدي الكاتب. رويدك حتى يشرق النهار قبل أن ترحل. ليس هنالك ما يدعو إلى يقظتك في فترة الحراسة الخامسة".

لم يعطها سونغ جيانغ من جواب. فتح الباب.

قالت العجوز: "إذا كان لا بدَّ من ذهابك، يا سيدي الكاتب، فأغلق الباب وراءك".

أغلق سونغ جيانغ الباب. واتجه إلى جناحه عجلان الخطى، وهو لا يبرح يتمايل. وبينا هو يجتاز دارة القضاء لمح في الشارع وهج مصباح صغير. إن الجد وانغ، بائع المرق الطبي، في طريقه إلى الباحة أمام مكتب المقاطعة للحاق بسوق الصباح.

ألقى عليه العجوز التحية: "ماذا تفعل في بكور الصباح، يا سيدي الكاتب؟".

- لقد أكثرت من الشراب البارحة. وحين استيقظت الآن أحصيت ضربات الساعة بصورة مغلوطة.

- لا ريبة أن الخمرة أفسدت معدتك. ولديَّ دواء لك. سأعطيك جرعة منه.

قال سونغ جيانغ: "حسن". واقتعد دكة. فملأ له العجوز جرعة من مرق كثيف ناوله إياها.

همس سونغ جيانغ في فكره، وهو يشربها: "ما أكثر ما نهلت أشربته، ولم يطلب إليَّ مرة واحدة أن أدفع له شيئاً. وعلى الرغم من أنني وعدت أن أبتاع له نعشاً لكنني لم أنفذ وعدي حتى الآن".

وتذكر الذهب الذي أرسله تشاو غاي والسبيكة التي اختارها ووضعها في الكيس. فخاطب نفسه: "سأنقده المال الآن. وهذا يفعم قلبه فرحة". وقال: "جداه. أنا لم أعطك حتى الآن المال الذي وعدتك به لشراء نعش. ولديَّ الآن شيء من الذهب يمكن أن تحصل عليه. اشتر لنفسك نعشاً واحفظه في بيتك. وحين تبلغ المائة وتذهب إلى مكان الراحة الأبدية سأتكفل بنفقات دفنك".

- على الدوام كنت كريماً معي، أيها المحسن، وها أنت الآن تعطيني مالاً لشراء نعش. ليس هنالك من سبيل أتمكن فيه من إيفائك حقك من الشكر طوال حياتي ولكنني في تجسدي المقبل سأقوم على خدمتك مثل حمار أو حصان.

- لا تقل هذا الكلام.

شد سونغ جيانغ حافة صدارته، وتحسس كيسه الصغير، وأطلق زمجرة وهو يقول في نفسه: "لا ريبة أني تركت الكيس على حافة سرير تلك البغي في الليلة الماضية. بلغ بي الغضب أني لم أكن أفكر سوى في الرحيل، فنسيت أن ألبس حزامي، لا يهمني الذهب، ولكن فيه رسالة تشاو غاي! كنت قد عزمت على حرقها عندما كنت برفقة ليو تانغ في الحانة، ولكنني خشيت أن يعود ويقول

إنني استخففت به كرسول. وقررت أن أحرقها حين أعود إلى جناحي، ولكن السيدة يان قبضت عليَّ قبل أن أستطيع الوصول إلى هناك. وخطر لي الليلة الماضية أن أحرقها على نار المصباح. ولكنني خشيت أن ترى الفتاة ذلك فامتنعت. وهذا الصباح خرجت مسرعاً ونسيتها! لطالما رأيت بوه سي تطيل النظر إلى صحائف الأغاني، وهذا يعني أنها قادرة على القراءة قليلاً. إذا التقطت تلك الرسالة فما أتعسني!".

نهض وقال: "اعذرني، يا جداه. لقد عنيت ما قلته. ولكن الذهب في كيسي الصغير، وقد غادرت البيت مسرعاً هذا الصباح فنسيته. سأحضره فوراً".

قال العجوز: "لا ترهق نفسك، سآخذه في وقت آخر".

- أنت لا تفقه شيئاً. تركت في الكيس شيئاً له خطورته. وأريدهما معاً.

وانطلق سونغ جيانغ على الفور قاصداً منزل السيدة يان.

في هذه الأثناء، وبعد أن عرفت بوه سي بذهاب سونغ، هبت من فراشها، قائلة: "ذلك الأبله أرّقني الليل بطوله. يا للوجه الصفيق، أرادني أن أعتذر له وألاطفه. أنا لا أريده! أنا وتشانغ على أتم وفاق. فمن تراه يرهق نفسه مع سونغ جيانغ! إن كفَّ عن المجيء إلى هنا أكون ممتنة له شاكرة!".

بسطت اللحاف، وخلعت رداءها وتنورتها، وفتحت قميصها، وانزلقت من ثيابها. ولمحت على ضوء القنديل الحزام يتدلى عن حاجز الفراش، فضحكت: "ذلك النذل أسود اللون ثمل فنسي حزامه. سأعطيه إلى حبيبي تشانغ يلبسه".

وبينا هي ترفعه من مكانه وقد علق به الخنجر والكيس الصغير شعرت بثقل الكيس بصورة غير مألوفة. فتحته وأسقطت محتوياته على المنضدة. فبدت سبيكة الذهب والرسالة. فالتقطت السبيكة الذهبية تتضوأ صفراء تحت ضوء القنديل.

ضحكت: "هذه عطية من السماء. لقد بدأ عزيزي تشانغ ينحل في الآونة الأخيرة. أستطيع الآن أن أشتري له أطايب الطعام".

وضعت السبيكة جانباً وفتحت الرسالة. وقرأت توقيع تشاو غاي وما حوته الرسالة من كلام. هتفت: "آه! أعرف أن الدلو يسقط في البئر، أما هنا فإن البئر ترتفع حتى الدلو. سونغ جيانغ هو الذي يحول بيني وبين تشانغ في أن نصير زوجاً وامرأة. واليوم أمسك به في راحة يدي. وهكذا فهو يتعاون مع قطاع الطريق في بحيرة ليانغشان، وقد أرسلوا إليه مائة أوقية من الذهب. لسوف أنتقم منه!".

ومن جديد لفت السبيكة الذهبية بالرسالة ووضعتهما في الكيس وغمغمت في سرها: "لو جاء بخمسة من شياطين الأرض فلن ينال هذه الرسالة مني!".

تناهى إليها صدى الباب يفتح في الطابق السفلي، وأمها العجوز تنادي من فراشها: "من الطارق؟".

أجاب سونغ جيانغ: "هذا أنا".

- أخبرتك أن الوقت باكر جداً يا سيدي الكاتب، ولكنك لم تصغ إليَّ. وهذا أنت رجعت. اصعد ونم في فراش بوه سي. وانتظر طلوع النهار، ومن بعد اذهب إذا شئت الذهاب.

لم يرد الكاتب عليها، بل رقي في السلَّم. وإذ شعرت الفتاة أن القادم هو سونغ جيانغ أسرعت فلفت الكيس والخنجر بالحزام، وانزلقت تحت اللحاف بهما، واستدارت ناحية الجدار وتظاهرت بالنوم.

اندفع سونغ داخل الحجرة وقصد إلى جانب السرير مباشرة فلم يعثر على أشيائه. عصف به الغضب. سيطر على نفسه معتبراً ذلك الغضب نتيجة للمعاملة الوقحة التي عاملته الفتاة بها طوال الليل. واقترب منها وهزها من كتفها: "كرمى للمعاملة الطيبة التي خصصتك بها من قبل ردي لي كيسي".

استرسلت بوه سي في ادعائها النوم. فهزَّها سونغ جيانغ مرة أخرى: "لا تغضبيني. سأعتذر لك في ما بعد".

- لقد كنت مستغرقة في لفائف النوم. فمن أيقظني بخشونة؟

- كفاك تناوماً. تعرفين جيداً من أكون.

استدارت إليه: "أوه، أيها الأسود الوجه. ماذا كنت تقول؟".

- أريد كيسي.

- هل أعطيتني الكيس؟ فيم تسألني عنه؟

- تركته على حافة السرير. ولم يكن يوجد هنا أحد سوانا. لا بدَّ أنك أخذته.

- لتخطفنَّ الشياطين حصافتك!

- لقد تصرفت البارحة بصورة غير لائقة. سأعتذر إليك في ما بعد. ولكن، ينبغي أن تعيدي إليَّ كيسي. كفاك لفاً ودوراناً!

- من يلفّ ويدور؟ أنا لم آخذه!

- أنت لم تخلعي ثيابك من قبل، كما لم تغطي نفسك باللحاف. لا بدَّ أنك أخذته حينما نهضت ورتبت السرير.

وارتفع حاجبا بوه سي الجميلان واتسعت عيناها المتلألئتان: "بلى، أخذته، ولن أعيده إليك. اقبض عليَّ مثلما تقبض على اللصوص!".

- لم أقل إنك سرقته.

- أنا لست لصة. ويجب أن تعرف هذا!

تفاقمت غضبة سونغ جيانغ: "لقد أحسنت معاملتك وأمك. أعيديه إليَّ! فلديَّ أعمال أقوم بها!".

- تظل تثرثر أنني على وفاق مع تشانغ. وهو لا يماثلك في بعض الأمور، ولكنه على أقل تقدير ليس مجرماً قذراً! وهو لا يتعاون مع قطاع الطرق واللصوص!

- يا أختي العزيزة، لا ترفعي صوتك! إن سمع الجيران فلن يكون الأمر مزاحاً!

- إن كنت تخاف أن يسمع الجيران، فما كان يجب أن ترتكب مثل هذه الأمور. سأحتفظ بتلك الرسالة! قد أعيدها إليك، ولكن بعد أن تؤدي ثلاثة أمور أولاً.

- سأؤدي ثلاثين بكل سرور، إن لم نقل ثلاثة!
- قد لا توافق عليها.
- سأفعل ما في طوقي. ماذا تبغين مني؟
- أولاً، ردَّ إليَّ عقد شرائك لي، واكتب عقداً تزوجني فيه من تشانغ، مع ضمانة تؤكد أنك لن تستردّه.
- موافق.
- ثانياً، إن جميع الحليّ في شعري، وجميع الثياب على جسدي، وجميع الأثاث في هذا البيت ملك لك. فاكتب أنك لن تطالب بشيء منها. الأمر الثالث هو ما أخشى أن ترفضه.
- لقد وافقت على مطلبين. فلِمَ لا أوافق على الثالث؟
- أريد الأوقيات المائة من الذهب التي أرسلها إليك تشاو غاي من بحيرة ليانغشان ومقابل ذلك سأعطيك جريمتك الخطيرة، وأرد إليك كيسك وما يحويه.
- لقد وافقت على المطلبين الأولين. صحيح أنهم أرسلوا إليَّ مائة أوقية من الذهب ولكنني رفضتها، وأخبرت الرسول الذي جاء بها أن يعيدها. لو كنت أملك الذهب الآن لقدمته إليك على راحة يديَّ.
- كلمات عذبة! "المال بالنسبة إلى الموظف أشبه بالدم بالنسبة إلى ذبابة!" أرسلوا إليك ذهباً ورفضته؟ هذه كذبة وقحة! "أي قط بين الموظفين لا يأكل اللحم؟" أيقاضي شيطان الجحيم النفوس ويحررها؟ مع من تحسب نفسك تلهو؟ أعطني هذا الذهب. فما هو بالنسبة إليك؟ إن كنت تخشى أن تعتبره بضاعة مسروقة فذوّبه إذاً!
- أنا رجل شريف، وأنت تعرفين هذا. ولن أكذب. إن لم تصدقيني فأمهليني ثلاثة أيام. سأبيع ممتلكات أسرتي وأجمع لك نقوداً. ردي لي كيسي.
ضحكت الفتاة في برود: "تخدعني، يا أسود الوجه، أليس كذلك؟ أتحسبني طفلة غريرة؟ سأعطيك الكيس والرسالة هذا النهار، وتعطيني أنت الذهب خلال ثلاثة أيام؟ يا لها من سانحة! أتناول المال بيد، وأسلمك الأشياء بالأخرى. أعطني إياه في الحال، ولننهينَّ هذا الموضوع!
- قلت لك إني لا أحمل ذهباً!
- أهذا هو دفاعك حين أشكوك إلى المحكمة هذا الصباح؟
عندما لفظت شفتاها كلمة "المحكمة" تفاقمت نيران الغضبِ في جوانح سونغ جيانغ. فحملق في الفتاة.
- هل ستردين إليَّ الكيس أم لا؟
- وهل أجرؤ على الرفض، وأنت على هذه الوحشية؟
قالت هذه الكلمات بنبرة تموج سخرية.
- أترفضين حقاً إعادته إليَّ؟
- لا، وألف مرة لا! سأعيده إليك في قاعة المحكمة!

شدَّ سونغ اللحاف الذي يغطي بوه سي وقذفه جانباً. لم يقلقها عريها، فظلت مستلقية تشدُّ الكيس إلى صدرها. فتعرف سونغ جيانغ على أهداب نطاقه: "هنا تخفينه إذاً!".

قبض على الحزمة بكلتا يديه. فلم تتخلَّ الفتاة عنها، فتشبثت به بوه سي. شدَّه الكاتب بقوة، فسقط الخنجر على الحصيرة. فأمسك به بصورة غريزية. تطلعت الفتاة إلى الخنجر في يده وصرخت: "قاتل! أسود الوجه يريد قتلي!".

لم تخطر له هذه الفكرة حتى نطقت بها. وانطلقت غضبته في موجة عاتية. وقبل أن يتاح للفتاة أن تطلق صرخة أخرى دفعها بيده اليسرى واجتز عنقها بيده الأخرى. فانبجس الدم غزيراً. وشهقت بوه سي. خشي ألا تكون قد لفظت أنفاسها الأخيرة، فغرز خنجره مرة أخرى. فهوى رأسها على الوسادة.

فتح سونغ جيانغ الكيس على الفور، وأخذ الرسالة وأحرقها على لهيب المصباح. ولف النطاق حول وسطه وهبط عن السلَّم.

كانت المرأة العجوز، من حيث استلقت في فراشها قد سمعت أصداء الخصام، ولكنها لم تهتم بالأمر إلى أن دوّى صراخ ابنتها: "أسود الوجه يريد قتلي!". وثبت عن السرير والقلق ينهشها، ولبست ثوبها، وأسرعت تنطُّ على الدرج. واصطدمت بسونغ على درجات السلَّم.

سألت: "فيم تثيران هذا الضجيج؟".

- ابنتك لا تطاق! وقد قتلتها!

ابتسمت السيدة يان: "رويدك، رويدك! قد تغضب سريعاً، وتفحش في القول حين تكون سكران، ولكنك لا تقتل أحداً، فكفَّ عن هرائك".

- إن لم تصدقيني، فاصعدي وانظري! قتلتها حقاً!

قالت السيدة يان: "لا أصدق كلامك". فتحت الباب وألقت نظرة. كان جسد ابنتها غارقاً في بحيرة من الدماء.

لهثت: "يا للوحشية! كيف ترتكب مثل هذه الفعلة؟".

- أنا رجل له مبادؤه. لن أهرب. فافعلي بي ما يطيب لك.

- لم تكن الفتاة طيبة السمعة. وأخطأت أنت في قتلها. ولكن، لم يبق لي الآن من يعيلني.

- هذه ليست مشكلة. فلا تقلقي، إن كان هذا ما تخشين منه. إن لديَّ بعض الممتلكات. وسأعمل على ألا ينقصك شيء من طعام أو كساء طوال حياتك.

- هذا رائع. شكراً لك، يا سيدي الكاتب. وماذا سنفعل بخصوص دفن ابنتي؟

- ذلك أمر يسير. سأذهب وأشتري نعشاً. وحين نضعها فيه سأتدبر الأمر مع الحانوتي. وسأعطيك عشر أوقيات من الفضة لنفقات الدفن.

- يحسن أن تحضر النعش الآن، قبل طلوع النهار. فلسنا نحب أن يشاهد الجيران شيئاً.

- حسن، أحضري لي قلماً وورقة وسأكتب مذكرة بذلك تأخذينها لجلب النعش.

- مجرد مذكرة لا تحلّ المشكلة. ما لم تذهب شخصياً فلن يسلمني إيّاه بسرعة.

قال سونغ جيانغ: "أنت على حق".

هبطا في السلّم. أخذت العجوز قفلاً ومفتاحاً من المطهى، وأقفلت باب الدار وراءهما ووضعت المفتاح في جيبها. ثم اتجهت برفقته إلى مكتب المقاطعة.

لم تكن تباشير الفجر قد أضاءت السماء بعد، ولكن باب دارة القضاء فتح على مصراعيه. بينا هما يقتربان من الناحية اليسرى للمدخل تشبثت العجوز بذراعه على غير انتظار، وصرخت: "لقد قبضت على قاتل هنا!".

كاد سونغ جيانغ أن يذوب، فوضع يده على فمها: "اخرسي!".

واسترسلت السيدة يان في صراخها. فركض عدد من رجال الشرطة. فشاهدوها تقبض على الكاتب سونغ جيانغ.

قالوا: "اهدئي يا امرأة، فليس كاتبنا ممن تقولين. تحدثي في لطف إن كان لديك ما تقولين!".

- إنه قاتل! قبضت عليه وأقوده إلى القاضي!

كان سونغ جيانغ لطيفاً مع جميع الناس، والجميع يحبونه، كباراً وصغاراً، وليس هنالك في دارة القضاء من لا يدين له، فما رغب أحد من رجال الشرطة في القبض عليه. وفضلاً عن ذلك، فإن أحداً منهم لم يصدق ادعاء السيدة يان.

في هذه اللحظة، برز الثور تانغ. كان يحمل صينية من الزنجبيل المغسول حديثاً نزل بها إلى السوق حيث يقف بها أمام مكتب المقاطعة كل صباح. فوقعت أنظاره على السيدة يان تمسك بسونغ جيانغ، وسمع صراخها. وتذكر تانغ الإهانة التي ألحقتها به في الليلة الماضية. فوضع صينيته جانباً على إحدى الدكك الخشبية للجد وانغ، بائع المرق، واندفع قدماً. وهو يصيح: "أيتها القوادة العجوز! فيم تمسكين بكاتبنا؟".

صرخت السيدة يان: "لا تتركوه يهرب، وإلا دفعتم حيواتكم ثمن جريمته!".

انفعل تانغ غضباً. فأرخى يديها عنه وصفعها صفعة رنانة أفقدتها الوعي. فترنحت وأطلقت سبيله. فمشى سونغ جيانغ مباشرة إلى الحشد المتجمهر في السوق. في حين ألقت السيدة العجوز بنفسها على تانغ: "لقد قتل الكاتب سونغ ابنتي، وأنت ساعدته على الفرار!".

صاح تانغ في عصبية: "ومن أين لي أن أعرف؟".

- أيها الشرطة، اقبضوا على القاتل! وإلا ورطتكم في القضية!

لم يستطع أحد من رجال الشرطة أن يمدَّ إليه يداً، فهو رجل له مكانته. أما الثور تانغ فهو من طينة أخرى. أطبق رجال الشرطة على الاثنين معاً، فقبض أحدهم على السيدة العجوز، وقبض ثلاثة أو أربعة على تانغ وجروهما إلى دارة القضاء.

صحيح أن الطمأنينة والسعادة لا تعرفان حدوداً، والمرء يغدقهما على نفسه. اذهب لإطفاء النيران من الكتان فيلتهمك اللهب بنيرانه.

هل استطاع الثور تانغ أن يفلت من قبضة السيدة يان؟ إذا أحببت معرفة ذلك، هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثاني والعشرون

السيدة يان تثير ضجة في مكتب المقاطعة؛
والمفوض تشو تونغ يسهّل سبيل فرار سونغ جيانغ بشهامة

حين تناهى إلى القاضي أن الرجل الذي قبضت الشرطة عليه متهم بجريمة قتل، أسرع بالخروج وعقد محكمته. أدخل إليه رجال الشرطة تانغ الثور. تفحص القاضي الجموع المحتشدة أمامه. كانت امرأة عجوز تركع عن يساره، وعن يمينه رجل أشبه بمهرج.

سأل مستوضحاً: "ما هذا الحديث عن جريمة قتل؟".

قالت المرأة: "اسمي يان. كانت لي ابنة تدعى بوه سي. بعتها إلى الكاتب سونغ جيانغ محظيةً. في الليلة الماضية، جلس ثلاثتنا نحتسي الشراب معاً. فدخل هذا الثور تانغ وبدأ يثير المتاعب. شتمته وطردته، وعرف بذلك الجيران جميعاً. وفي هذا الصباح أبكر سونغ في الخروج، ولكنه ما لبث أن عاد أدراجه وقتل ابنتي. كنت أقوده إلى دارة القضاء حين جاء الثور تانغ وأطلق سراحه. أطلب العدالة!".

التفت القاضي إلى تانغ مستوضحاً: "أتجرؤ على تسهيل فرار قاتل؟".

- لم أكن أعرف شيئاً عن هذا الموضوع. ذهبت إلى بيتها أقترض قليلاً من المال من سونغ جيانغ أشتري به خمرة فطردتني. وفي هذا الصباح، كنت في طريقي إلى السوق أحمل شيئاً من الزنجبيل المخلل، فشاهدتها تمسك بسونغ جيانغ أمام مكتب المقاطعة. اقتربت أهدئ من ثورتها، فرحل سونغ. من أين لي أعرف أنه قتل ابنتها؟

صاح القاضي: "هراء ما تقول! سونغ جيانغ سيد مهذب مستقيم لا يمكن أن يقتل أحداً. لا ريبة أنك القاتل! أين ضباطي؟".

استُدعِيَ مساعدو القاضي على الفور. وحين عرف تشانغ وين يوان أن السيدة يان تتهم سونغ جيانغ بقتل ابنتها - عشيقته - وقد تقدمت بشكواها بصورة رسمية فاندرجت في أعمال المحكمة استدعى رجالاً من دكان الحانوتي، وقائد السجن المحلي، وعدداً من الجيران، وذهبوا معاً إلى منزل السيدة يان.

جرت معاينة الجثة. كان خنجر القاتل مرمياً في جوارها. وكشف التحقيق أن الوفاة نجمت عن جزِّ عنق الضحية. فوضع الجثمان في نعش ونقل إلى الدير في انتظار مراسم الدفن. وذهب الجميع إلى مكتب المقاطعة.

كان القاضي صديقاً لسونغ جيانغ فراودته رغبة في تبرئته. استجوب تانغ الثور مراراً وتكراراً. ودأب هذا على الجواب: "لا أعرف عن الموضوع شيئاً".

- فيم ذهبت إلى المنزل في الليلة الماضية وأثرت ضجة؟ لا شكَّ أن لك في الموضوع ضلعاً.
- كنت أريد قليلاً من المال أشتري به خمرة...
- هراء! اضربوا هذا الوغد.

تهالك المساعدون على تانغ مثل حيوانات مفترسة، شدوا وثاقه وجلدوه أربعين أو خمسين جلدة. لكنه لم يعدل عن روايته. وعرف القاضي أن تانغ لا علاقة له بالقتل. ولكنه كان راغباً في مساعدة سونغ جيانغ فأصدر أمراً بجلد تانغ. وأخيراً أمر أن توضع مخلعة حول عنقه ويلقى به في غياهب السجن.

اقترب تشانغ وين يوان من القاضي في أدب، وقال: "السكين التي عثرنا عليها هي الخنجر الخاص بسونغ جيانغ. وينبغي إحضاره للاستجواب. وعندها نعرف ماهية الأرض التي نقف عليها".

كان تشانغ لجوجاً، فما استطاع القاضي رفض طلبه. فأرسل رجالاً إلى منزل سونغ لاستدعائه. كان الكاتب قد هرب. فرجع رجال الشرطة برفقة بعض جيرانه، وأعلنوا قائلين: "هرب القاتل. وليس هنالك من يعرف إلى أين ذهب".

قال تشانغ: "والده المحترم سونغ وشقيقه الأصغر سونغ تشينغ يعيشان في قرية عائلة سونغ. يمكن اعتقالهما وأخذهما رهينة إلى أن يلقى القبض على سونغ ويتم استجوابه".

كانت رغبة القاضي تتلخص في إثبات التهمة على تانغ، وإطلاق سراحه بعد أن تهدأ الأمور. ولكن تشانغ هيأ الوثائق الرسمية وحرَّض السيدة يان على متابعة دعواها. ولم يبق أمام القاضي خيار إلا أن يرسل ثلاثة رجال لاعتقال المحترم سونغ وولده سونغ تشينغ.

وصل الرجال الثلاثة إلى مزرعة عائلة سونغ فخرج الشيخ يرحِّب بهم. وبعد أن جلس الجميع في الردهة قدموا له الإخطار فقرأ مضمونه وقال: "أرجو أن تسمعوني، يا سادة. كانت عائلتنا من المزارعين طوال أجيال وأجيال. ونحن نكتسب معيشتنا من هذه الحقول والبساتين. ولكن سونغ جيانغ كان ولداً عاقاً، تمرَّد منذ طفولته. لم يرض بمنصبه من الحياة، وأصرَّ على أن يغدو موظفاً في المحكمة على الرغم من معارضتي. وهكذا حرمته من الإرث قبل عدة سنوات، وبصورة رسمية، أمام قاضي المقاطعة السابق، وشطبت اسمه من سجل العائلة. وهو لم يعد الآن فرداً من الأسرة. إن له جناحه الخاص في المدينة، وأنا وولدي سونغ تشينغ نعمل في الحقول في هذه القرية الصغيرة. وسونغ جيانغ لا يشاركنا طعامنا. وليست له بنا علاقة. وكنت أخشى على الدوام أن يرتكب معصية ويشركنا فيها. وهكذا جعلت القاضي يدوِّن لي شهادة بحرمانه. وسوف أطلعكم عليها".

عرف رجال الشرطة أن ذلك لم يكن أكثر من مكيدة هيئت سلفاً، ولكنهم على صلة طيبة بسونغ جيانغ ولا يريدون الإساءة إليه. قالوا: "سندوِّن صورة عنها ونحملها إلى القاضي".

أكرم المحترم وفادتهم فقدم لهم صحاف الدجاج والإوز، وصبَّ لهم الخمرة، وأهدى لهم دستة أوقيات من الفضة. وعرض عليهم الشهادة فأخذوا صورة عنها. ثم رحلوا عن الدار، وعطفوا إلى مكتب المقاطعة وقدموا للقاضي تقريرهم، قائلين: "لقد حرم المحترم سونغ ولده سونغ جيانغ قبل ثلاث سنوات. وهذه صورة عن الشهادة. ولهذا لم نتمكن من إحضار الشيخ إلى هنا".

كان القاضي يفتش عن عذر يسمح له بعدم اتهام سونغ جيانغ، فقال: "إن المحترم سونغ يملك شهادة، وسونغ لا يملك أقرباء آخرين. ولسنا نستطيع أكثر من أن نعلن عن مكافأة مقدارها ألف ربطة نقدية لمن يلقي القبض عليه. علقوا إعلاناً بهذا الخصوص في كل مكان".

بناء على تحريض من تشانغ مثلت السيدة يان من جديد أمام القاضي وقد حلت عقدة شعرها ورسمت ملامح الحزن في سيماها. وقالت: "لا بدَّ أن سونغ جيانغ اختبأ لدى شقيقه سونغ تشينغ تهرباً من الحضور في هذه القضية! لم لا تصدر سعادتك أمراً باعتقاله وتحقق لي العدل؟".

– لقد اشتكى والده من عقوقه قبل ثلاث سنوات وطرده من الأسرة بوثيقة رسمية. ولديه شهادة بذلك. وليس لدينا دليل يمكننا من إحضار الشيخ وولده رهينة للقبض على سونغ جيانغ.

– يا صاحب السعادة، الجميع يعلمون أن سونغ جيانغ يسمى "المعلم الثالث الأسود الشجاع والبارّ بوالديه". وتلك الشهادة مزورة! العدالة، يا صاحب السعادة. أرجوك!

– هراء! تلك الشهادة تحمل خاتم سلفي الرسمي. فكيف تكون مزورة؟

أرغفت السيدة يان في نواحها وشكواها:

– يا صاحب السعادة، جدوى الحياة البشرية واسعة كالسماء! إن لم تحقق العدالة فسأرفع شكواي إلى الوالي! ابنتي قتلت بصورة شنيعة!

قال تشانغ نيابة عن السيدة يان محذراً:

– إن لم تعتقل سونغ جيانغ، فلسوف تلجأ إلى الوالي، وهذا أمر على غاية من السوء. لنفرضنَّ أن الوالي فتح تحقيقاً في القضية؟ لست أعرف ما أقول.

كان من الواضح أن تشانغ على حق في حديثه. فأصدر القاضي الأوراق الضرورية واستدعى المفوضين تشو تونغ ولي هينغ، وأعلن:

– خذا بعض الرجال إلى مزرعة سونغ في قرية عائلة سونغ، واعتقلا المجرم سونغ جيانغ.

بعيد استلام المفوضين للوثائق الخطية اختارا حوالى أربعين جندياً وأسرعا خطواتهما إلى مزرعة عائلة سونغ، فخرج الشيخ على عجل للترحيب بهم.

قال المفوض:

– نرجو ألا تلقي اللوم علينا، يا محترم. فنحن ننفذ الأوامر، ولا خيار لنا. أين ولدك الكاتب؟

– سونغ جيانغ ولد عاق. ولم تَبْقَ لي به صلة. وقد فصله القاضي السابق عن الأسرة كما تشهد بذلك وثيقة لديَّ. وشطب اسم سونغ جيانغ من سجل أسرتنا منذ ثلاث سنوات. وهو لا يقيم معنا ولم يحضر إلى هنا.

قال تشو تونغ:

– صدر الأمر إلينا باعتقاله. وأخشى أنني لا أستطيع أن أثق بما تقول. علينا أن نفتش المزرعة. ولا يرضى رؤساؤنا بأقل من هذا.

وأمر الجنود أن يحدقوا بالمزرعة، وخاطب لي هينغ قائلاً:

– سأخفر البوابة الأمامية. وأنت، أيها المفوض لي، قم بعملية التفتيش.

دخل لي هينغ المزرعة وفتشها من طرفها إلى طرفها الآخر. ورجع أخيراً إلى البوابة الأمامية. وقال لتشو تونغ: "صحيح ما قال. فهو ليس هنا".

قال تشو تونغ:

- ينبغي أن أستوثق من ذلك. أيها المفوض لي، أخفر وأخوتنا البوابة. سأفتش المكان بدقة أنا نفسي.

قال المحترم سونغ:

- أنا مواطن أنفذ القانون. ولا يمكن أن أخفي أحداً عندي.

نبر تشو تونغ:

- إنها قضية قتل. يجب أن تصفح عنا.

- افعل ما يطيب لك، أيها المفوض. فتش كما تهوى.

- أيها المفوض لي، راقب المحترم. ولا تدعه يذهب.

دخل تشو تونغ المزرعة، وأسند مطرده إلى جدار، وأقفل البوابة، ودلف إلى مصلى العائلة. وأبعد منضدة المذبح، ورفع باباً مخفياً، وهزَّ حبلاً رفيعاً يتدلى إلى أسفل. فرنَّ جرس في آخر الحبل. وسرعان ما برز رأس سونغ جيانغ. ونظر إلى تشو تونغ في انشداه.

قال المفوض:

- لا تلمني، يا أخي، أنا جئت لاعتقالك. فلطالما كنت طيباً معي، ولم يخف أحدنا عن الآخر شيئاً. لقد أخبرتني ذات يوم وكنا نغتبق الشراب معاً: "أمام تمثال بوذا في مصلى عائلتي منضدة للمذبح. تحت هذه المنضدة باب مخفي يوصل إلى مخبأ في الأسفل. في مقدورك استعماله إذا احتجت إلى مأوى". لقد تذكرت هذا، وفي هذا النهار، حين أرسلني القاضي إلى هنا برفقة لي هينغ، رغماً عني، عرفت أني سأجد وسيلة للعثور عليك. إن سعادة القاضي نفسه يريد أن يساعدك، غير أن تشانغ والسيدة يان يهددان باللجوء إلى الوالي إن لم يتابع النظر في القضية، وهكذا اضطر أن يرسلني ولي هينغ لتفتيش المزرعة. وخشيت أن يقوم لي هينغ بتنفيذ الأمر في صرامة إذا عثر عليك، وأن يتشدد كثيراً. فأوقفته عند البوابة الأمامية وجئت إلى هنا مباشرة. هذا المخبأ جيد، ولكنه ليس مأموناً. لنفرضنَّ أن أحداً عرف به وقام بالتفتيش فيه؟ فماذا في مقدورك أن تفعل؟

قال سونغ جيانغ: "كنت أفكر في الموضوع ذاته. لولا كياستك، يا أخي، لكنت مطروحاً في السجن الآن!".

- كفَّ عن مثل هذا الكلام. المشكلة هي أين يمكن أن تجد مكاناً أميناً؟

- هنالك ثلاثة احتمالات. أحدها في مقاطعة هينغهاي في ولاية تسانغتشو؛ مزرعة تشاي جين الإعصار الصغير. والثاني في قلعة الرياح الصافية في ولاية تشينغتشو؛ دارة هوا رونغ المعروف بلي غوانغ الأصغر. والثالث في مزرعة المحترم كونغ في جبل النمر الأبيض. له ولدان. كونغ مينغ، الأكبر، يدعى المذنَّب. وكونغ ليانغ، الأصغر، يدعى النجم الملتهب. وقد التقيتهما عدة مرات في حاضرة مقاطعتنا. لكنني لا أستطيع أن أقرر أياً من هذه الأماكن أفضل من سواه.

- اتخذ قرارك بسرعة، يا أخي، ونفذه. ينبغي أن ترحل هذه الليلة. ليس هنالك وقت تضيعه!

- سأدع بين يديك أمور التصرف مع الموظفين كباراً وصغاراً، يا أخي. تعال إلى المزرعة كلما احتجت إلى شيء من المال.

- لا تقلق، سأتدبر كل شيء، فكّر في الرحيل فوراً.

شكر سونغ جيانغ ورجع إلى مخبئه. أرجع المفوض الباب المخفي وأعاد منضدة المذبح إلى مكانها. وفتح الباب، وحمل مطرده، وخرج.

أعلن: "هو ليس في المزرعة حقاً". ونادى على رفيقه: "أيها المفوض لي، سنأخذ المحترم سونغ معنا، أليس كذلك؟".

همس لي في حنايا نفسه: "إن تشو تونغ على صلة وثيقة بسونغ جيانغ. ففيم يريد أن يعتقل والده؟ لا يبدونَّ لي هذا التصرف معقولاً على الإطلاق. إن كرر هذا القول فسأبدي قدراً من التعاطف".

جمع المفوضان جنودهما وعادوا إلى الردهة. قدَّم المحترم سونغ الخمرة للجميع. فقال تشو تونغ: "لا تنشغل بتقديم الشراب. يجب أن نطلب إليك وإلى ولدك الرابع سونغ تشينغ أن ترافقانا إلى المقاطعة".

سأل لي هينغ: "لماذا لم نر ولدك؟".

- أرسلت سونغ تشينغ إلى القرية لإحضار بعض أدوات الفلاحة. وهو ليس في المزرعة. أما بالنسبة إلى الولد العاق سونغ جيانغ فقد حرمته منذ ثلاث سنوات، ولديَّ وثيقة رسمية تثبت ذلك.

قال تشو تونغ: "لا فائدة ترجى من هذا الكلام. لدينا أوامر من القاضي تقضي باعتقالك وابنك الرابع".

قال لي هينغ: "أيها المفوض تشو. أرجو أن تصغي إليَّ. إذا كان الكاتب سونغ جيانغ قد ارتكب جريمة فلا بدَّ أن لديه سبباً لذلك. وقد لا تكون جريمة عقوبتها الموت. والمحترم سونغ يملك وثيقة تحمل خاتماً رسمياً ولا يمكن أن تكون مزورة. وينبغي أن نذكر كيف كان الكاتب سونغ جيانغ صديقاً لنا في الماضي، فلا نتشدد الآن. إذا أخذنا نسخة عن الوثيقة فإن ذلك يكفينا".

قال تشو تونغ في سره: "لقد قلت ذلك عن عمد كيما أطفئ شكوك لي". ونبر في صوت عال: "إذا كان هذا ما يخطر لك، يا أخي، فلست أريد أن أتشدد".

قال الشيخ متلهفاً: "أشكركما عميق الشكر". وقدم الخمور، ونفح المفوضين بعشرين أوقية من الفضة. فوزَّع المفوضان المال على الرجال الأربعين.

وبعد أن أخذا نسخة عن الوثيقة ألقيا تحية الوداع على المحترم سونغ، وغادرا القرية، ورجعا مع رجالهما إلى المقاطعة.

توجها إلى القاضي مباشرة في محكمته. فطلب منهما تقريراً وافياً.

أعلنا قائلين: "فتشنا المزرعة بأسرها وكل ما يحيط بها مرتين. ولكننا لم نعثر على سونغ جيانغ، والمحترم سونغ مريض في فراشه ولا يستطيع الحركة. وهو في حالة سيئة. وقد رحل سونغ

تشينغ قبل شهر ولم يرجع حتى الآن. ولهذا السبب لم نستطع أكثر من أن نحضر هذه الصورة عن الشهادة".

قال القاضي: "في هذه الحال...". وكتب تقريراً إلى رئيسه الوالي، وهيأ إعلاناً بالقبض على سونغ جيانغ. ولن نطيل الحديث حول هذا الموضوع.

جعلت جماعة كثيرة في مكتب المقاطعة من أصدقاء سونغ جيانغ تخاطب تشانغ وين يوان في صالحه. ولم يشأ تشانغ أن يثير حفيظتهم. وفضلاً عن ذلك، فالفتاة لا يمكن أن تعود إلى الحياة من جديد. وما أكثر ما تلقى تشانغ نفسه عوناً من سونغ في الماضي، وهكذا أهمل القضية.

أعطى تشو تونغ السيدة يان مبلغاً من المال. وألحَّ عليها ألا تشكو الأمر إلى الوالي. ولم يبق أمامها غير الرضوخ بعدما قبضت تعويضاً. كما أرسل رجلاً يحمل فضة إلى دار الولاية للتثبت من أن تقرير القاضي لم يلق أذناً صاغية.

أصدر القاضي إعلاناً في رأسه كلمة "مطلوب"، ووعداً بمكافأة قدرها ألف ربطة من النقد لمن يلقي القبض على سونغ جيانغ. وباعتبار أن الثور تانغ "ساعد مجرماً على الفرار" صدر الأمر بجلده عشرين جلدة، ووشم بوجنته ونفي إلى مكان يبعد مائة لي. وأخلي سبيل الذين ألقي القبض عليهم بصفة شهود وأرسلوا إلى بيوتهم.

كانت عائلة سونغ جيانغ من المزارعين. ففيم يحتاج أفرادها إلى مخبأ سري؟ ذلك أنه في عهد أسرة سونغ كان من السهل على الضباط أن يعيشوا حياة طيبة، أما الموظفون الصغار فكانت حياتهم تعيسة. فيم نقول هذا القول؟ كان الوزراء الأشرار يسيطرون على البلاط الإمبراطوري، فلا يستخدمون سوى أصدقائهم وأقربائهم، ويستولون على كل قرش يقع تحت أيديهم. وما هي الصعوبة في أن يكون المرء موظفاً؟ حينما كان أي كاتب يرتكب حماقة في تلك الأيام، فقد كان لأتفه الأسباب يوشم وينفى إلى مركز عسكري بعيد مقفر. وإذا فرضت عليه عقوبة كاملة بقوة القانون فهو يعدم وتصادر أملاكه. وكان من الحكمة أن يهيئ المرء مخبئاً لنفسه سلفاً.

وكان المرء، كيما يحول بين اتهام أبويه في قضيته يجعلهما يعلنان عقوقه، ويشطبان اسمه من سجل الأسرة. وكانا يستحصلان على شهادة رسمية بهذا الخصوص يهيئانها دليلاً. وكان يعيش بعيداً عن منزل العائلة، ولا يتصل بأحد من أفرادها، ويؤدي جميع الأمور العائلية سراً في بيته الخاص. وما أكثر الرجال الذين لجأوا إلى مثل هذا التدبير في عهد أسرة سونغ!

لنرجعنَّ إلى سونغ جيانغ. خرج من المخبأ السري وتشاور في الأمر مع والده وشقيقه. قال: "لولا تشو تونغ كان يمكن أن يُلقى القبض عليّ وأقدم إلى المحاكمة. وينبغي ألا ننسى أن نردّ له هذا الجميل في أعناقنا. والآن، ينبغي أن أهرب وشقيقي. فإذا عطفت علينا السماء وصدر عفو عام فسنعود أدراجنا ونجتمع بك من جديد، يا أبانا. ابعث سراً بنقود إلى تشو تونغ، واطلب إليه أن يستخدمها بتحفظ توزيعاً على الكبار والصغار. وأخبره أن يعطي شيئاً منها إلى السيدة يان كي لا تستأنف الحكم وتثير المصاعب".

قال الوالد: "اطمئن بهذا الخصوص. حذار على الطريق. وانتبها لنفسيكما. وحين تصلان إلى

حيث تذهبان أرسلا إليّ رسالة، إذا وجدتما رسولاً يؤتمن".

حزم الشقيقان حوائجهما في صرتين خلال الليل. وفي فترة الحراسة الرابعة نهضا، واغتسلا، وتناولا فطوراً، وتأهبا للرحيل. كان سونغ جيانغ يرتدي قبعة لبادية بيضاء لها حافة عريضة، وثوباً من الحرير الأبيض، ونطاقاً ورديا، وصندلاً من القش. وارتدى سونغ تشينغ لبوس خادم وحمل الصرتين. سجدا أمام أبيهما وودَّعاه أمام الردهة. ولم يستطع أحد أن يحبس عبراته.

قال المحترم سونغ: "ثمة طريق طويلة أمامكما. فابتعدا عن إثارة القلاقل".

أصدر الشقيقان تعليماتهما إلى الخدم برعاية المزرعة والعناية بالشيخ العجوز، وتأكدا من أن لديه وفرة من الطعام، ثم حملا سيفيهما ومطرديهما وغادرا قرية عائلة سونغ.

كان الوقت في أواخر الخريف وبدايات الشتاء، فسارا مسرعين. تساءلا: "إلى من نلقي بمصيرنا؟". وكان ذلك بعد أن قطعا عدة مراحل على الطريق.

قال سونغ تشينغ: "ما أكثر ما سمعت في أخوية الشجعان باسم اللورد تشاي، من مقاطعة هينغهاي في ولاية تسانغتشو. يقولون إنه منحدر مباشرة من سلالة الأباطرة في عهد تشو الأخير. بدهي أني لم أجتمع به، فلم لا نضع نفسينا رهن حمايته؟ يقولون إنه شهم وكريم. وإنه يرحب بالشجعان ويمدهم بالعون في المنفى. وهو تجسيد حي للسخي مينغ تشانغ جون. ينبغي أن نذهب إليه".

فأجاب سونغ جيانغ: "هذا ما كنت أفكّر فيه. نحن لم نلتق، ولكننا كنا نتراسل دائماً".

يمما شطر تسانغتشو، مجتازين الجبال والأنهار، ومدن المقاطعات والولايات. كان على المسافرين الذين يتوقفون في الخانات أن يصرفوا اهتمامهم إلى شيئين اثنين: تناول الطعام من القصع الملوثة، والنوم في أسرة رجال طواهم الموت.

لكن، لنرجعنَّ إلى قصتنا. بعيد عدة أيام وصل الشقيقان إلى حدود تسانغتشو. واستفسرا عن الطريق المؤدية إلى مزرعة اللورد تشاي، وحين وصلاها خاطبا أحد الخدم قائلين: "هل اللورد تشاي موجود؟".

- لا. ذهب إلى المزرعة الشرقية يجمع ريوع الغلال.

سأل سونغ جيانغ: "وكم تبعد من هنا؟".

- أكثر من أربعين لياً.

- وكيف نصل إلى هناك؟

- هل أستطيع أن أستفسر عن اسميكما؟

- أنا سونغ جيانغ من مقاطعة يونتشنغ.

- ألست الكاتب سونغ المعروف بالمطر في أوانه؟

- أنا هو.

- ما أكثر ما تحدث اللورد تشاي عنك، وهو يأسف لأنكما لم تلتقيا مرة واحدة. يسرني أن أرشدكما إلى الطريق.

وقاد الخادم سونغ جيانغ وشقيقه إلى المزرعة الشرقية، فوصلاها في أقل من ثلاث فترات حراسة.

قال الخادم: "أيها السيدان المهذبان انتظرا في هذا الجوسق! سأستأذن لكما بالدخول إليه".
قال سونغ جيانغ: "حسن".
دخل وسونغ تشينغ إلى الجوسق بجانب الجبل، ووضعا مطرديهما، وخلعا سيفيهما، وأنزلا صرتيهما وجلسا.
لم يمض زمن قصير على ذهاب الخادم حتى فتحت بوابة المزرعة الوسطى وخرج منها اللورد تشاي راكضاً يتبعه أربعة أو خمسة من مساعديه. أسرع إلى الجوسق وخرَّ على ركبتيه أمام سونغ جيانغ: "لو كنت تدري كيف كنت أفكر فيك! أية ريح سماوية حملتك إلى هنا؟ لم أطلب في حياتي أكثر من اللقاء بك. يا للحظ السعيد!".
خرَّ سونغ جيانغ بدوره على ركبتيه ساجداً: "أنا موظف صغير من مكان ناء، جئت خصيصاً للاجتماع بك!".
أنهضه اللورد تشاي قائلاً: "لقد التمع فتيل المصباح الليلة الماضية، وهذا المصباح غرَّد عقعق. لم أعرف أن ذلك نذير بزيارتك، يا أخي!". وارتسمت البسمة على محياه.
اغتبط سونغ جيانغ من حرارة اللقاء، فقدّم له شقيقه.
أمر اللورد تشاي خدمه قائلاً: "خذوا أمتعة الكاتب سونغ. سيقيمان في الحجرة الغربية في الصالة الخلفية". وقاد سونغ جيانغ من يده إلى الردهة الرئيسة، حيث جلسوا كمضيف وضيفين.
قال اللورد تشاي: "إن لم يضايقك أن أسأل، يا أخي، فكيف تجد فرصة رغم مشاغلك الجمة في مقاطعة يونتشنغ وتأتي إلى قريتنا المتواضعة؟".
- منذ زمن بعيد هدرت شهرتك في أذنيَّ، يا سيدي اللورد. ورغم أني كنت أتلقى رسائل عديدة منك، فإن الوقت لم يأذن لي أن أقدم إليك احترامي شخصياً لأن مكتبي المتواضع يشغلني على الدوام. أنا رجل من دون موهبة، وقد ارتكبت حماقة، وها أنا وشقيقي الآن نبحث عن ملجأ. تذكرنا نخوتك وكرمك، فجئنا إلى هنا على أمل الانضمام إليك.
ابتسم اللورد تشاي: "لا تقلق، يا أخي. لو ارتكبت جريمة كبرى فسوف تكون هنا في أمان. أنا لا أتباهى، ولكن أحداً من ضباط الشرطة أو الجنود لا يجرؤ على مدّ نظره إلى مزرعتنا الصغيرة".
وروى سونغ جيانغ كيف أقدم على قتل يان بوه سي. فابتسم اللورد تشاي مرة أخرى.
- انس هذا الموضوع. لو أنك قتلت ضابطاً في البلاط الإمبراطوري أو سرقت ثروات الحكومة، فلن يخزني ضميري لإخفائك لديَّ هنا.

دعا الشقيقين إلى الاغتسال في الحمام، وقدم لهما ثياباً جديدة، ومنديلين، وحذائين من الحرير، وجوربين نظيفين، فارتديا ثيابهما الجديدة، وحمل إليهما خادم ثيابهما القديمة إلى غرفتهما.

ودعاهما اللورد تشاي إلى الردهة الخلفية حيث أعدت منضدة حافلة بالخمرة وأطايب الأطعمة.

سأل المضيف سونغ جيانغ أن يجلس في رأس المائدة، وجلس هو قبالته. وجلس سونغ تشينغ جانباً. وكان هنالك عدد من الخدم من مختلف الرتب وعدد من الناظرين في الردهة. فشربوا بالتتالي نخب الضيفين، وقاموا على خدمتهما، وشاركوا في الأحاديث المسلية. واستحث اللورد تشاي الشقيقين مراراً تكراراً على احتساء الخمرة من دون حساب.

شكره سونغ جيانغ مرات ومرات. وحين لعبت الخمرة بالرؤوس كان الثلاثة قد أفصحوا عن عميق احترامهم وإعجابهم.

كان النهار يقترب من نهايته، فأشعلت القناديل. وترجى سونغ جيانغ:

- كفانا خمرة.

ولكن اللورد تشاي لم يصغ إليه. استمروا يشربون حتى فترة الحراسة الأولى. ونهض سونغ جيانغ كيما يريح نفسه. فأمر مضيفه أحد الخدم أن ينير له الطريق بمصباحه حتى نهاية الشرفة الشرقية.

قال الكاتب:

- ستفوتني الدورة التالية.

وقام بدورة واسعة وخرج إلى العتبة الأمامية، واجتاز الباحة بصورة منحرفة وصعد إلى الشرفة مجتازاً الجناح الشرقي.

كانت نشوة السكر تلعب برأس سونغ جيانغ، فتمايل مترنحاً من دون أن ينتبه إلى موطئ قدميه. وكان هنالك، على الشرفة، فتى ضخم الجثة أثقلت عليه البرداء متجمعاً على بعضه قرب القليل من الجمرات الملتهبة في مجرفة. فداس سونغ جيانغ، وهو يسير برأس مرفوع، على عصا المجرفة فطارت الجمرات إلى وجه الرجل. أفزعته كثيراً. هبَّ غاضباً، وأمسك بسونغ جيانغ من مقدمة عباءته:

- من أنت، يا ابن الكلبة، حتى تظن أنك قادر على اللعب بي؟

انشده سونغ جيانغ فأعجزه الكلام. ولكن الخادم الذي يحمل المصباح صاح:

- لا تكن جلفاً! فهو ضيف سعادتنا المكرَّم!

همهم الرجل: "ضيف، ضيف. كنت ضيفاً أنا الآخر، أول الأمر، و"ضيفاً مكرماً" أيضاً. ولكن اللورد تشاي يصغي إلى أكاذيب خدمه، فأبعدني عنه! ما أصدق هذا القول: "لا تدوم صداقة إلى الأبد!".

رفع يده وفي نيته ضرب سونغ جيانغ. فألقى الخادم المصباح من يده، وأسرع يحول دون ذلك. ولكنه لم يستطع أن يفصل بين الرجلين. وسرعان ما شوهدت ثلاثة مصابيح أخرى تتجه نحوهم.

تردد صوت اللورد تشاي قائلاً، وهو يعجل بالاقتراب: "لم أستطع العثور عليك، يا سيدي الكاتب. فيم هذا الصخب؟".

شرح الخادم قصة المجرفة. فابتسم اللورد تشاي، وتوجه إلى الرجل الضخم مستوضحا: "هل

تعرف هذا الكاتب الشهير؟".

- الشهير، أواه! بمقارنته مع كاتبنا سونغ من يونتشنغ يكون إمَّعة!

ضحك اللورد تشاي: "هل التقيت الكاتب سونغ مرة؟".

- أبداً، ولكن جميع أفراد أخوية الشجعان سمعوا بسونغ المطر في أوانه! فهو مشهور في البلاد بأسرها!

- وفيم شهرته؟

- هذا حديث يطول إن أردت أن أخبرك به، ولكنه بطل حقيقي. وما يبدأ به ينهِه! ما إن أتغلب على مرضي حتى أبادر إلى لقائه.

- هل تحب أن تجتمع به؟

- ومن لا يحب ذلك؟!

فأشار اللورد تشاي إلى سونغ جيانغ: "أيها الفتى الضخم، إنه يبعد قرابة مائة وثمانين لياً، ولكنه قريب حتى إنه يقف أمامك! هذا هو سونغ المطر في أوانه!".

- أنت لا تمزح؟

قال الكاتب: "اسمي سونغ جيانغ".

حملق فيه الرجل الضخم، وخرَّ على ركبتيه ساجداً: "لم أحلم قط أني سألتقيك اليوم، يا أخي!".

- أنا غير جدير بهذا الاحترام.

- ولكنني كنت قليل الاحترام جداً. أستميحك العذر، فأنا "أملك عينين ولكنني لا أرى جبل تايشان!". وظلّ الرجل ساجداً.

أنهضه سونغ جيانغ على الفور: "ما اسمك المبجل، يا سيدي؟".

أخبره اللورد تشاي باسم الرجل ومن أين جاء. صحيح أن لقاء النمر في الجبال أو قطاع الطرق في الغابة يريق الذعر في قلب المسافر. ولكن الرعب الذي أثاره اسم ذلك الرجل جعل النجوم تشحب والأنهار تجري عكس تيارها.

من هو، إذاً، هذا الرجل الذي نطق اللورد تشاي باسِمه؟ إذا أحببت أن تعرف ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثالث والعشرون

اللورد تشاي يأوي ضيوفاً في مقاطعة هينغهاي؛
ووو سونغ يقتل النمر على سلسلة جبال جينغيانغ

أجاب اللورد تشاي: "إنه يدعى وو سونغ. وهو من مقاطعة تشينغخه. إنّه الابن الثاني في أسرته، ويقيم هنا منذ سنة".

- سمعت باسمه عدة مرات في أخوية الشجعان. ولم يخطر لي أن ألتقيه هنا اليوم. يا لحظي السعيد!

قال اللورد: "صحيح أن لقاء الشجعان مناسبة سعيدة. لندخلنَّ إذاً، ونتجاذبنَّ أطراف الحديث".

مشى سونغ جيانغ تغمره الفرحة ممسكاً بيد وو سونغ إلى الردهة الخلفية، حيث عرَّفه الكاتب على شقيقه. وطلب تشاي جين إلى وو سونغ أن يتخذ لنفسه مقعداً. وسأله سونغ جيانغ أن يجلس إلى رأس المائدة، ولكنه رفض. وبعيد لحظات من المجالمة جلس وو سونغ على المقعد الثالث. طلب تشاي جين خمرة وألحَّ على ضيوفه الثلاثة أن ينهلوها من دون حساب.

ترنّى سونغ جيانغ على ضوء القنديل إلى وجه وو سونغ الجميل في سرور، ومن ثمة استفسر قائلاً: "كيف تأتي إلى هنا؟".

- كان يتعتعني السكر ذات يوم في مقاطعة تشينغخه، فتشاجرت والمرشبي حول بعض المستندات السرية في مكتب الحكومة المحلية. وبضربة واحدة من قبضتي ألقيته أرضاً وقد غاب عن الوعي. طاف في ذهني أني أوديت بحياته، فهربت ولجأت إلى مزرعة اللورد تشاي هنا. حدث ذلك منذ أكثر من سنة. وعلمت في ما بعد أن ذلك الرجل لم يمت، وأنه استرد وعيه. انتويت الرجوع إلى بيتي لرؤية أخي الأكبر، ولكن هذه البرداء صبَّت نفسها علي فعجزتُ عن الرحيل. كنت أعاني من البرد وأدفئ نفسي قرب النار حين دست على عصا تلك المجرفة. فأرعبتني حتى بللني العرق. ويبدو أنه شفاني من علتي!

استفاض السرور في جوانح سونغ جيانغ، وشرب الرجال الأربعة حتى موعد الحراسة الثالثة. وسأل الكاتب وو سونغ أن يقيم معه وشقيقه في الجناح الغربي.

وحين هبَّ الجميع من ضجعتهم في صباح اليوم التالي أمر اللورد تشاي بذبح نعجة، وأقام وليمة على شرف سونغ جيانغ. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً واحداً.

بعيد عدة أيام نفح سونغ جيانغ الرجل الضخم وو سونغ بمبلغ من المال ليشتري به قليلاً من الثياب. وتناهى الخبر إلى اللورد تشاي، فرفض أن يأذن للكاتب بإنفاق شيء من دراهمه. وأخذ بعض

الثياب الحريرية الفاخرة من خزانته الخاصة، وأمر خياطه أن يصنع عدة أثواب لكل واحد من ضيوفه الثلاثة.

فيم ترى بردت المودة بين تشاي جين ووو سونغ؟ أول ما وصل عومل معاملة طيبة مثل جميع الضيوف الآخرين. ولكنه أكثر من الشراب، وكان له مزاج شرير. فهو يعمد إلى ضرب الخدم حين لا تروق خدمتهم في عينيه. فلم يتحدث أحد منهم بأي كلمة طيبة، وصاروا يتشكون منه بين الفينة والفينة إلى اللورد تشاي. لم يطلب إليه اللورد الرحيل، ولكنه نبذه. وبعد أن أمسك به سونغ جيانغ من يده، وشربا الخمرة معاً كل يوم، كفَّ وو سونغ عن الانغماس في مشاعره القديمة.

أقام الاثنان على المودة والرفقة طوال أكثر من اثني عشر يوماً، ولكن وو سونغ عاوده الحنين إلى البيت، فرغب في العودة إلى مقاطعة تشينغخه ورؤية شقيقه الأكبر. ألحَّ تشاي جين وسونغ جيانغ عليه بالبقاء وعدم تعجل الانصراف. ولكنه قال: "فكري مشغول بشقيقي. فأنا لم أسمع عنه منذ زمن بعيد".

قال سونغ جيانغ: "إذا عزمت على الرحيل فلن نرغمك على البقاء. تعال لرؤيتنا مرة أخرى إذا سنحت لك فرصة".

شكره وو سونغ، وقدم تشاي جين للشاب قليلاً من المال.

قال وو سونغ: "سببت كثيراً من المشاكل، يا سيدي اللورد".

جمع أمتعته في صرة، وربطها بعصاه، وتأهب للرحيل. أقام له تشاي جين مأدبة وداع. كان وو سونغ يرتدي ثوباً جديداً من الحرير الأحمر، وقبعة من اللباد الأبيض عريضة الحافة. تنكب صرته، وأخذ عصاه، وألقى تحية الوداع.

قال سونغ جيانغ: "رويدك برهة، يا أخي". رجع إلى جناحه، وحمل بعض الفضة، وذهب بها إلى البوابة الأمامية. قال: "سنرافقك مسافة من الطريق".

غادر وشقيقه سونغ تشينغ اللورد تشاي جين. قال سونغ جيانغ: "سأعود سريعاً، يا سيدي اللورد". وفصل الرجال الثلاثة عن المزرعة الشرقية.

أعلن وو سونغ بعد أن اجتازوا ستة أو سبعة ليات: "هذا يكفي، يا أخي. أرجو أن تعود. فاللورد تشاي ينتظرك".

قال سونغ جيانغ: "سنسير مسافة أخرى".

جعلوا يثرثرون خلال الطريق، فاجتازوا ثلاثة ليات أخرى من دون انتباه. وأخذ وو سونغ يد سونغ جيانغ في يده:

– يكفي، يا أخي. لو مشيت مع صديقك ألف لي يجب الفراق أخيراً، أليس هذا ما يقوله المثل القديم؟

– خطوات أخرى وحسب. هنالك على الطريق العامة حانة صغيرة. سنشرب قدحين ومن ثم نفترق.

دخل الثلاثة الحانة. جلس سونغ جيانغ في رأس المنضدة. ووضع وو سونغ عصاه وجلس

قبالته. وجلس سونغ تشينغ عند طرفها. وأمر الكاتب بالخمرة فأحضرت مع شيء من الطعام. ولم يرتشفوا عدة أقداح حتى درجت الشمس إلى السماء الغربية.

قال وو سونغ:

- تأخر الوقت. أرجو ألا تعتب عليّ، وأن تتقبل سجداتي الأربع وتقبلني أخاً لك بالدم.

غمرت الفرحة أعطاف سونغ جيانغ. انحنى وو سونغ أربع مرات، فأمر الكاتب شقيقه أن يقدم له عشر أوقيات من الفضة. حاول وو سونغ أن يرفض:

- أنت في حاجة إلى هذا المال.

- لا تفكر في هذا الأمر. إن لم تأخذها فلن أعترف بك أخاً لي.

لم يكن أمام وو سونغ خيار، فقبل الفضة شاكراً، ووضعها في كيسه. وسدَّد سونغ جيانغ الحساب، وتناول وو سونغ عصاه، وغادر الثلاثة الحانة. كانت هنالك عبرات في عيني وو سونغ حين حان وقت الفراق. راقبه سونغ جيانغ وسونغ تشينغ من باب الحانة إلى أن غاب عن النظر، وعندها اتخذا طريق العودة.

لاقاهما تشاي جين وقد امتطى جواده وصحب جوادين آخرين، قبل أن يجتازا خمسة ليات. ركبا الجوادين شاكرين، ورجعوا معاً. دعاهما تشاي جين إلى الردهة الخلفية لتناول الشراب. وأقاما في المزرعة بعد ذلك.

سنقسم روايتنا إلى قسمين ونتحدث الآن عن وو سونغ بعد مغادرته سونغ جيانغ. في تلك الليلة، حطَّ رحاله في خان. وفي الصباح التالي نهض من غفوته، وتناول طعام الفطور، وسدّد الحساب، وحزم صرته، وتناول عصاه، وانطلق في سبيله.

همس في سره: "سونغ جيانغ مشهور في أخوية الشجعان بالمطر في أوانه. وهو جدير بهذا الاسم! ولن أندم على صيرورتي صديقاً لمثل هذا الأخ!".

سافر عدة أيام حتى وصل إلى مقاطعة يانغقو. كان الوقت ظهراً، وهو يبعد مسافة كافية عن قلب المدينة. وكان السير قد أجاعه وأظمأه، ولمح على الطريق حانة علِّق على بابها علم كتب عليه: "ثلاث كؤوس ولن تستطيع اجتياز الجبل".

ولج وو سونغ الباب. جلس. أراح عصاه، ونادى:

- خمرة، أيها الساقي. عجل!

جاءه الساقي بثلاث كؤوس، وعصوين للطعام، وطبق من المشهيات، وضعها على المنضدة، وملأ كأساً حتى حافتها بالخمرة. رفع وو سونغ الكأس وشربها.

- هذه الخمرة فيها شيء عنيف! إذا كان لديك ما يؤكل، أيها المضيف، فسأشتري ما يتماشى مع هذا الشراب.

- ليس لدينا غير لحم بقري مطبوخ.

- اقطع لي كاتيين أو ثلاثة من أفضل جزء.

دخل الساقي ورجع يحمل كاتيين من لحم البقر في طبق كبير وضعه أمام وو سونغ ثم ملأ له

كأساً فشربها وو، وقال: "خمرة رائعة!". وجرع كأساً أخرى. إنها الكأس الثالثة. لم يصب له الساقي مزيداً. ضرب وو سونغ على المنضدة بقبضته:

- أيها المضيف، أين الخمر؟

- أتريد مزيداً من اللحم، يا سيدي؟ أتريد لحماً طازجاً؟

- أريد اللحم والخمرة معاً.

- سأقطع لك شيئاً من اللحم، ولكنني لا أستطيع أن أصبَّ لك مزيداً من الخمرة.

- هذا سخف! لماذا؟

- ألم تشاهد العلم المعلَّق على الباب والذي يقول: "ثلاث كؤوس ولن تستطيع اجتياز الجبل"؟

- ما معنى هذا؟

- رغم أن خمرتنا إنتاج قروي، ولكن لها مذاقاً لا يقلُّ عن معتق الخمور. وأي مسافر يحتسي ثلاث كؤوس منها تشمله فيعجز عن اجتياز الجبل هنا. ومن هنا جاء الاسم. وكل من يتوقف هنا لا يطلب أكثر من ثلاث كؤوس.

أضاء وجه وو سونغ بابتسامة:

- هكذا الأمر إذاً. لقد شربت ثلاث كؤوس. فلم لم أثمل؟

- خمرتي تدعى "ينبوع صغير عبر أريج الزجاجة". وتسمى أيضاً "الانهيار خارج الباب". أنت لا تشعر بشيء بادئ الأمر. ولن تلبث أن تنهار بعد وقت قصير.

- هراء! أنا أدفع الثمن، أليس كذلك؟ صبَّ لي ثلاث كؤوس أخرى!

حين لمح الساقي أن الخمرة لم تؤثر في وو سونغ أي تأثير صبَّ له ثلاث كؤوس أخرى. فشربها وو جميعاً، وصاح:

- رائعة! أيها المضيف، سأدفع لك ثمن كأس بعد الأخرى. صبَّ لي المزيد.

- يا سيدي، الخمرة تطوِّح برؤوس أعتى الرجال! وليس هنالك علاج يردُّ إليهم الوعي!

- هراء! حتى لو صببت فيها مخدراً، فإن لي أنفاً يشمُّ، أليس كذلك؟

لم يستطع الساقي أن يقنعه. فصبَّ له ثلاث كؤوس أخرى.

قال وو سونغ: "أحضر لي كاتيين آخرين من اللحم".

قدَّم له الساقي اللحم وصبّ ثلاث كؤوس من الخمرة. وبدا أن شهية وو سونغ انتعشت. فوضع بعض الفضة على المائدة، وصاح: "انظر هنا. أهذا يكفي لقاء الخمرة واللحم؟".

قال الساقي: "هذا كثير. والحقيقة أني أدين لك ببعض النقود الصغيرة".

- لا أريد شيئاً منها. هات مزيداً من الخمرة.

- لم يبق غير خمس أو ست كؤوس. وأشكُّ في أن تتمكن من احتسائها.

- خمس، أو ست، أو أكثر. سأشرب كل ما تجيئني به.

- أنت فتى بدين ضخم. فإذا سقطت على الأرض كيف يتاح لي أن أنهضك؟

- إذا احتجت إلى إنهاضي عن الأرض فلن أكون رجلاً حقيقياً!

استمرَّ الساقي يخدعه. فثارت ثائرة وو سونغ، وزمجر: "أنا أدفع لك ثمن ما أشرب، فلا تثر جنوني، وإلا حطمت لك هذا المكان وقلبته رأساً على عقب".

خاطب الساقي نفسه قائلاً: "هذا الوغد سكران، فيحسن ألا أستفزه". قدّم له ست كؤوس أخرى من الخمرة، فأصبح المجموع ثماني عشرة.

أمسك وو سونغ عصاه ونهض على قدميه. وضحك وهو يجتاز الباب: "أنا لست سكران البتة! من يقول: ثلاث كؤوس ولن تستطيع اجتياز الجبال؟". وسار مبتعداً.

ركض الساقي وراءه، صائحاً: "إلى أين أنت ذاهب، يا سيدي؟".

توقف وو سونغ:

- وما علاقتك بالأمر؟ أنا لا أدين لك بشيء، أليس كذلك؟ ففيم هذا الصياح؟

- لا أقصد سوءاً. عد إلى هنا، أريد أن أريك إعلاناً حكومياً.

- ماذا يقول؟

- هنالك نمر مفترس له جبهة بيضاء وعينان بارزتان في سلسلة جبال جينغيانغ. وهو يخرج ليلاً، وقد قتل قرابة ثلاثين من الرجال الأشداء. فأمرت السلطات الصيادين باعتقاله، وألصق هذا الإنذار عند كل ممر يؤدي إلى السلسلة. وهو يقول إنه على المسافرين أن يذهبوا جماعات ويجتازوها في ساعة متأخرة من الصباح وقبل الظهيرة. أما في بقية الأوقات فالسلسلة مغلقة. ولا يسمح لأحد بالسفر وحيداً. وقد تأخر الوقت، ورأيتك تخرج من دون أن تتفوه بكلمة واحدة. ولست أريدك أن تقتل نفسك! لم لا تمضي الليلة في حانتي، وغداً تنضم إلى عشرين أو ثلاثين مسافراً وتجتاز السلسلة في سلام؟

ضحك وو سونغ: "أنا رجل من مقاطعة تشينغخه. اجتزت هذه السلسلة عشرين مرة على أقل تقدير. ولم أر فيها نمراً. لا تحاول إرعابي بهذا الكلام. حتى ولو كان هنالك نمر فلن أخافه".

- أنا أحاول أن أنقذك. وإن لم تصدقني فتعال. ألق نظرة عن الإعلان.

- هراء! لا يخيفني أي نمر. أنت تعمل على إبقائي هنا كيما تتمكن عندما ينتصف الليل من سرقتي وقتلي! ولهذا السبب تخيفني بقصة نمرك!

- حسنا! أنت تعتبر طيبتي إساءة وتحدثني على هذا المنول! لا تصدقني إذاً! وامض في سبيلك! وهزَّ الساقي رأسه، ودلف إلى حانته.

حمل وو سونغ عصاه في يده، واتجه صوب سلسلة جبال جينغيانغ. وبعدما سار أربعة أو خمسة ليات وصل إلى السفح. كانت هنالك قطعة لحاء منتزعة من شجرة ضخمة، وقد دوِّنت على جانبها الأبيض بعض الكلمات. كان وو سونغ ملماً بالقراءة، فعرف أنها عبارة عن ملحوظة تقول: "في الفترة الأخيرة قتل نمر على سلسلة جبال جينغيانغ عدداً من الناس. وعلى المسافرين أن يشكلوا جماعات ويجتازوها في ساعة متأخرة من الصباح وحتى بكور الظهيرة. لا تجازفوا عبثاً!".

كشَّر وو سونغ: "ذلك المضيف مكَّار حصيف. يخيف زبائنه ويستحثهم على قضاء الليل.

حسن، إنه لا يستطيع إخافتي!".

اقترب من طرف الجبل حاملاً عصاه بصورة أفقية. بدأت العشية تنشر ظلالها، والشمس الحمراء تسير العجيلى فوق الجبال ناحية الغرب، فاسترسل وو سونغ، متخماً بما احتساه من شراب، يرقى في الجبل. ولم يكد يقطع نصف لي حتى وصل إلى معبد روح الجبل المتهدِّم. كانت هنالك لوحة معلقة على الباب قرأ فيها:

"ملحوظة من مقاطعة يانغقو: في الفترة الأخيرة دأب نمر كبير على قتل الناس في سلسلة جبال جينغيانغ. وعلى الرغم من صدور الأوامر إلى جميع قادة المدن ورؤساء القرى والصيادين بالقبض على الحيوان تحت طائلة الضرب فشلوا جميعاً. يؤذن للمسافرين باجتياز الجبل في ساعة متأخرة من النهار وبكور الظهيرة فقط، وفي جماعات. أما في الأوقات الأخرى، وفي وجوه مسافرين فرادى في غير هذه الأوقات، فالطريق ممنوعة كيلا يختطف النمر حياتهم. فليعرف الجميع هذا".

إذاً، هنالك نمر من دون ريب! واللوحة التي تحمل خاتماً رسمياً تثبت هذا! فكَّر وو سونغ في العودة إلى الحانة، ثم خاطب نفسه قائلاً: "إن فعلت هذا جعلت المشربي يسخر مني ويعتبرني جباناً. لا أستطيع العودة!". واستغرق في التفكير برهة، وجأر: "ممَّ أخاف!؟ فلأتابعنَّ سبيلي وأرينَّ ما يكون".

استرسل في سيره. ونشط دفء الخمرة في جوانحه، فدفع إلى الوراء قبعته اللبَّادية بصورة لم يبق يمسكها غير شرابتها على كتفيه. ودس عصاه تحت ذراعه، وتهادى على طول المرتقى. وحين شخص إلى الشمس ببصره كانت قد غربت. فالأيام قصيرة في أواخر الخريف، والليالي طويلة. وسرعان ما خيَّم الليل.

قال في نفسه: "ليس هنالك أي نمر. الناس يتخاوفون ولا يجرؤون على الصعود في الجبل".

وراحت الخمرة تلتهب في عروقه وهو يتقلقل في سيره. كانت العصا في إحدى يديه، فحلَّ بالأخرى عباءته من أمام. وراحت مشيته تتمايل. ودلف إلى أيكة. فرأى أمامه صخرة ضخمة ملساء. أراح عصاه إلى جانبها، وتسلق سطحها الأملس، وتهيأ للنوم.

على حين فجأة هبت عاصفة هوجاء، وما إن هدأت حتى انبعثت بعدها زمجرة من وراء الأيكة وبرز منها نمر ضخم. كانت عيناه المتوهجتان الوحشيتان تلمعان تحت جبهته العريضة البيضاء.

هتف وو سونغ: "أواه!". ووثب عن الصخرة، وقبض على عصاه. ثم انزلق وراء الصخرة.

كان الحيوان الضخم جائعاً ظمآن يبرثن الأرض بمخالبه الأمامية مرات عديدة. وثب عالياً وانقضَّ إلى الأمام، فتسربت الخمرة من حنايا وو سونغ على صورة عرق بارد. راوغ الحيوان في مثل لمح البصر، فسقط النمر الضخم وراءه، والنمور لا تستطيع رؤية ما وراءها، فما إن لمست مخالبه الأمامية الأرض حتى حاول أن يصدم وو سونغ بجماع جسده. فراوغ من جديد.

وأخطأه النمر الذي انقضَّ مرة أخرى مرسلاً زمجرة راعدة هزت الجبل مندفعاً صوب وو سونغ بذيله الحديدي. ومرة أخرى أفلت من وثبته.

للنمر ثلاث وسائل في الانقضاض على ضحيته: الوثوب، والضرب بعنف، والجرح بذيله. ولكن أياً من هذه الوسائل لم تجده نفعاً، فضاعت نصف معنوياته هباء. زمجر من جديد، واستدار.

رفع وو سونغ عصاه عالياً وقد أمسك بها بيديه، ولوَّح بها بجماع قوته. وانطلق صدى قعقعة صاخبة، وأهوى غصن كبير بأوراقه أمام وجهه. كان في تسرّعه قد ضرب شجرة قديمة بدلاً من النمر، فانقصفت العصا إلى نصفين بقي أحدهما في يده.

ثارت ثائرة النمر فزمجر وانقضَّ. فوثب وو سونغ إلى الوراء عشر خطوات، وحطَّ النمر على الأرض أمامه. فألقى من يده نصف العصا، وقبض على النمر من رقبته وضرب بها الأرض.

جاهد الحيوان في ذعر، ولكن وو سونغ شدَّ من عزيمته ولم يفلته. وجعل يضرب له وجهه وعينيه مراراً وتكراراً. وزمجر النمر هادراً، ومخالبه الوحشية تحفر الأرض الصفراء وتنثر التراب إلى الوراء محدثة حفرة صغيرة. فدفع وو سونغ خطم النمر في الحفرة مضعضعاً من عنفوانه. وأطلق سبيل يده اليمنى وهو يدفع بصورة لا تهين رأس الحيوان في الحفرة باليد اليسرى؛ اليد التي تشبه مطرقة حديدية، وجعل ينهال بها عليه بما أوتي من قوة.

بعيد ستين أو سبعين ضربة تهاوى النمر على الأرض يلهث في ضعف، وتدفق الدم من عينيه وفمه وأنفه وأذنيه.

ونهض وو سونغ وفتش حواليه تحت شجرة الصنوبر فعثر على جذع العصا المكسورة. فانهال بها عليه حتى نفق، ومن ثم طرح العصا جانباً.

قال في سره: "يحسن أن أجر هذا النمر عن الجبل". حاول أن يرفعه من وسط بركة الدماء، ولكنه لم يتمكن من تحريكه. كان الضنى قد هدَّ قواه فانسربت من يديه وقدميه.

اقتعد وو سونغ الصخرة وأخذ قسطاً من راحة. همس في نفسه: "لقد خيم الليل، فإن جاءني نمر آخر فلن أقوى على مقاومته. يحسن أن أهبط عن الجبل أولاً. ومن ثم، في الغد، أقرر خطوتي التالية".

التقط قبعته اللبادية العريضة من جانب الصخرة، وطاف حول الأيكة، وهبط عن الجبل متماهلاً. مشى قرابة نصف لي حين وثب نمران من بين الأعشاب الطويلة الجافة.

صرخ: "أواه! لقد انتهيت!".

وما أسرع أن نهض النمران هنالك في الأخيلة على غير انتظار. ومدّ بصره فرأى أنهما رجلان يتدثران بجلد النمر الملفوف على جسديهما. كان كل منهما يحمل معزقة ذات خمسة رؤوس. وأطالا النظر إلى وو سونغ في انشداه.

هتفا صائحين: "هل التهمت قلب تمساح أو صفراء نمر أو ساقي ليث فجمَّعت مثل هذه الشجاعة الخارقة؟ كيف تجرؤ على اجتياز الجبل في غسق النهار وحيداً ومن دون سلاح؟ أنت شيطان أو إنسان؟".

سأل وو سونغ: "ومن تكونان؟".

- نحن صيادان من هذه المنطقة.

- وماذا تفعلان على هذا الجبل؟

استعلم الصيادان في دهشة: "ألا تعرف؟ ثمة نمر كبير هنالك! يخرج في الليل ويلتهم الناس. لقد قتل سبعة أو ثمانية من الصيادين، وعدداً من المسافرين لا نستطيع تحديده! فأمر قاضي المقاطعة قادة المدينة والقرية والصيادين باعتقاله. ولكنه قوي حتى إن أحداً لا يجسر على الاقتراب منه! انهالوا علينا ضرباً مراراً وتكراراً من أجل ذلك، ولكننا لا نبرح عاجزين عن اعتقال ذلك الحيوان. والليلة دورنا في المحاولة. جمعنا دستة من الفلاحين جاءوا برفقتنا، وغرزنا أقواساً مسمومة في المنطقة بأسرها. وكمنّا هنا ننتظره حين رأينا جسدك الضخم يهبط عن الجبل. أفزعتنا حتى الموت! من أنت على أية حال؟ هل رأيت النمر؟".

- أنا رجل من مقاطعة تشينغخه. واسمي وو، الابن الثاني. وقد التقيت النمر من توّي هنالك إلى جانب الأيكة. فقبضت عليه وقتلته! لهث الصيادان: "أنت تمزح!".

- انظرا إلى الدماء على ثيابي إن كنتما لا تصدقان.

- كيف حدث ذلك؟

روى لهما وو سونغ قصته. أصغى الصيادان إليه في فرحة وانشداه، ثم صاحا على بقية الفلاحين. وتجمهر الرجال حوله يحملون المعازق والأقواس والسكاكين والرماح.

سأل وو سونغ الصيادين: "لماذا لم يكن هؤلاء معكما هنا؟".

- النمر متوحش، فخافوا من الاقتراب!

وروى الصيادان قصة وو سونغ للفلاحين. فما صدقها أحد منهم.

أشعلوا ناراً، وحملوا ستة أو سبعة مشاعل. ورافقوه إلى الجبل حيث كان النمر متكوماً على الأرض. سُرَّ الجميع. وأرسل رجل على الفور ينقل النبأ إلى رئيس القرية والأسرة المسؤولة عنها. وربط خمسة أو ستة من الفلاحين النمر إلى قضيب خشبي طويل وحملوه هابطين به عن الجبل.

حين وصلت الجماعة إلى السفح كان حشد من سبعين أو ثمانين رجلاً ينتظر هنالك وقد انتشر بينهم الضجيج والحركة. وشكلوا موكباً سار في مقدمته حملة النمر يتبعهم وو سونغ في محفة مكشوفة متجهين إلى منزل الأسرة المسؤولة عن القرية. كان رب الأسرة ورئيس القرية ينتظران للترحيب به عند مدخل القرية. وضع النمر أمام ردهة، وجاء عشرون أو ثلاثون شخصاً - صيادون وأفراد من أسر لها شهرتها - وحيوا وو سونغ.

سألوه: "ما اسمك، أيها الشجاع الفتي؟ ومن أين أنت؟".

- أنا من مقاطعة تشينغخه المجاورة. واسمي وو سونغ، وأنا الابن الثاني في أسرتي. في طريقي إلى البيت من تسانغتشو نهار البارحة سكرت عشية في حانة على الطرف الآخر من الجبل، وتسلقت والتقيت النمر.

وروى مفصلاً كيف قاتل النمر بقبضتيه وقدميه.

صاح المستمعون: "حقاً، يا له من بطل!".

قدَّم له الصيادون طريدة وشربوا نخب صحته. كان وو سونغ مهدود القوى من جراء صراعه

مع النمر، ويرغب في النوم. وأمر رب الأسرة المسؤولة عن القرية خدمه أن يجهزوا لوو سونغ حجرة الضيوف. وأرسل كلمة إلى حاضرة المقاطعة في الصباح التالي، وأمر بصنع محفة خاصة يسلم النمر عليها في الحاضرة.

نهض وو سونغ مع الفجر، فاغتسل ومسح فمه، وأحضر مضيفه والآخرون نعجة مطبوخة ودلوين من الخمرة إلى الردهة الأمامية للاحتفاء به. وارتدى وو سونغ ثيابه، ولفَّ منديل رأسه، وخرج ينضمُّ إليهم. رفعوا أقداحهم، وشربوا نخبه.

قالوا:

- ذلك النمر قتل عدداً لا يحصى من الناس، وبسبب هذا الأمر عوقب الصيادون بالضرب مراراً عديدة. ولكنك جئت، أيها الشجاع، وأنقذتنا من هذه البلية، وجلبت لنا الحظ وجعلت الطرق آمنة للسفر! ونحن مدينون لك!

- أنا عديم الموهبة، وكنت أريد أن أستدين من سعدكم المقدور.

هنأه الجميع، وشربوا طوال الصباح. وضع النمر أمام المحفة. ولف أفراد من الأسر الشهيرة وو سونغ بالحرير والأزهار. ووضعت أمتعته في مكان أمين، ثم خرج الجميع من بوابة القرية.

وكان هنالك رسل من لدن القاضي ينتظرون منذ فترة طويلة لمرافقة وو سونغ إلى مكتب مقاطعة يانغقو. حيوه، وأمروا أربعة من الخدم أن يحملوه في محفة مكشوفة. فانطلق وراء النمر مكللاً بالحرير والأزهار فيما الموكب يتقدم صوب مقاطعة يانغقو.

حين سمع السكان أن فتى شجاعاً قتل النمر الكبير على سلسلة جبال جينغيانغ خرجوا جميعاً، هاتفين مهللين، وأحاطوا بمكتب المقاطعة. وشخص وو سونغ من محفته إلى الجمهور الصاخب المحتشد في كل شارع وزقاق.

كان الجميع يرغبون في رؤية النمر. وكان القاضي ينتظر في القاعة داخل مكتب المقاطعة.

نزل وو سونغ عن المحفة، وأبقى الحيوان الكبير على كتفيه، ومشى إلى القاعة، ووضع النمر أمام المدخل.

تطلع القاضي إلى الفتى، وبعد ذلك إلى النمر مخطّط الجلد، وقال في نفسه: "ليس سواه بمستطيع أن يقتل هذا النمر!".

استدعى وو سونغ إلى القاعة. فحياه تحية تبجيل.

استوضح القاضي: "كيف استطعت أن تقتل هذا الوحش؟".

روى له وو سونغ قصته. أصغى الجميع في انشداه مخبول. قدم له القاضي عدة أكواب من الخمر، وكافأه بألف ربطة نقدية تمَّ جمعها من الأسر الشهيرة.

قال وو سونغ: "استطعت أن أقتل هذا النمر لأني أنعم بعبير سعادتك. ولم تكن لي قدرة خاصة. كيف لي أن أقبل أية مكافأة؟ لقد سمعت أنه بسبب هذا النمر، يا صاحب السعادة، عاقبت الصيادين عدة مرات. وأريد أن يوزع هذا المال عليهم".

- إذا كان هذا ما تريده، فالأمر متروك إليك.

وزَّع وو سونغ المال على الصيادين. وعزم القاضي، وقد تأثر من أريحيته وإخلاصه، أن يخلع عليه منصباً أعلى. قال: "على الرغم من أنك من تشينغخه، وهي جد قريبة من مقاطعتنا يانغقو، فأنا أفكّر في تعيينك مفوضاً هنا. ما رأيك؟".

خرَّ وو سونغ على قدميه: "إن أكرمتني، يا صاحب السعادة فسأحفظ لك هذا الجميل في حياتي بأسرها!".

أمر القاضي كاتبه أن يسجل الوثائق الضرورية في ذلك النهار بالذات بتعيين وو سونغ مفوضاً في قوة الشرطة، وزحف جميع رؤوس العائلات الشهيرة لتقديم التهنئة، وأقاموا يشربون معه طوال أربعة أو خمسة أيام متعاقبة.

همس وو سونغ في نفسه: "أردت أن أذهب إلى تشينغخه لرؤية شقيقي. من كان يخطر في باله أني سأعين مفوضاً في يانغقو!".

وتلقى من بعد عطف رؤسائه وطارت له شهرة في البلاد بأسرها.

بعيد يومين أو ثلاثة أيام غادر مكتب المقاطعة سعياً وراء شيء من المسرات حينما سمع صوتاً يناديه من ورائه: "لقد أصبت حظاً، أيها المفوض وو! أهذا ما منعك من معرفتي؟".

التفت وو سونغ، وهتف: "أواه! ماذا تفعل هنا؟". لو لم يلتق وو سونغ بذلك الرجل فهل كانت الجثث الدموية ستتساقط في يانغقو؟ ونتيجة لذلك هوت رؤوس بضربات السيوف المرهفة، وتدفق الدم الحار من جراء لمعان شفراتها.

من كان ذلك الرجل الذي نادى وو سونغ؟ إذا أحببت أن تعرف هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الرابع والعشرون

المال يحرض السيدة وانغ على ترتيب موعد غرامي؛
ويون قه يثير شغباً في مشرب الشاي في ثورة من الغضب

خرّ المفوض وو على ركبتيه ساجداً. فلم يكن ذلك الرجل غير شقيقه الأكبر.
قال وو سونغ: "لم أرك منذ أكثر من سنة كاملة. ماذا تفعل هنا؟".
- رحلت منذ زمن طويل. فلِمَ لم تكتب إليَّ؟ أحياناً كنت أؤنبك في سري، ومع هذا أشتاق إليك.
- كيف هذا؟
- حين تذكرت كيف اعتدت على الشراب في بلدة تشينغخه، فتهدر وتزمجر في المحكمة، وكيف اعتدت أن أقاسي من جراء ذلك، منتظراً قرار القاضي، لا أعرف للراحة طعماً، خطرت في ذهني وهبت أؤنبك. لقد تزوجت مؤخراً، ولكن للرجال في تشينغخه صفاقة وجرأة، فداوموا على محاولة إغوائها. ولم يكن لي من يحميني، لو عدت إلى البيت فمن كانت تتناوشه الجرأة على محاولة ذلك؟ وجاءت الرياح على غير ما اشتهيت، فانتقلت إلى يانغفو واستأجرت بيتاً. حدث ذلك عندما أشتاق إليك.

نرجوك، أيها القارئ، أن تأخذ بعين الاعتبار أن هذين الرجلين ولدتهما أم واحدة. ولكن وو سونغ مديد القامة، وسيم السيماء، قوي الشكيمة. وإلا كيف تأتى له أن يقتل النمر؟ أما وو الأكبر فقمئ العود، دميم السحنة، له رأس يثير السخرية. وكان معروفاً في تشينغخه باسم ثلاثة إنشات من لحاء التوت.

وحدث أنه كان لدى أسرة ثرية خادمة تدعى بان جين ليان تغازل العشرين من العمر، فتانة الطلعة، فشرع رب الدار يغويها. وكانت جين ليان، اللوتسة الذهبية، تنفر منه فأخبرت زوجته. فصبَّ عليها جام حقده، وزودها شخصياً ببائنة وزوَّجها من وو الأكبر من دون مقابل.

وشرع عدد من فجار تشينغخه المتسكعين يداومون على زيارة منزل وو، ويتصرفون بصورة تستفز مشاعره. ولما لم تكن الفتاة مسرورة من زوجها - فهو قصير وقبيح، ولا يجيد ضرباً من ضروب اللهو - فقد تأهبت لاتخاذ عشيق لها. وسارت الأمور على هذا المنوال حتى إن بعض المتغندرين الطوافين حول باب الدار أخذوا يعلنون صراحة في حضرة وو الخجول المخلص: "تصوروا قطعة شهية من اللحم تتدلى من شدق كلب!".

عجز الزوجان عن البقاء في تشينغخه. فانتقل وو واللوتسة الذهبية إلى بلدة يانغقو واستأجرا منزلاً في شارع الحجر الأرجواني. وفي كل يوم يخرج وو ويتجول لبيع الكعك المحلّى. كان يقف

بضاعته قبالة مكتب المقاطعة حين لمح وو سونغ.

قال له: "سمعت ذلك النهار الناس يتحدثون في الشارع، وقد أثارهم الهياج، عن كيف أن رجلاً شجاعاً يدعى وو قتل نمراً في سلسلة جبال جينغيانغ، وكيف عينه قاضي المقاطعة مفوضاً للشرطة. فتأكد لي أنه أنت. واليوم، أخيراً، تم لقاؤنا. لن أبالي ببيع شيء من الكعك المحلّى. سأصحبك إلى البيت".

- أين بيتك، يا أخي؟

أشار وو الأكبر قائلاً: "في شارع الحجر الأرجواني، هنالك أمامنا".

حمل وو سونغ حمالة كتف شقيقه والسلتين الكبيرتين، وأرشده وو الأكبر على الطريق. اجتازا عدداً من الأزقة حتى وصلا إلى شارع الحجر الأرجواني. كان البيت إلى جانب مشرب للشاي.

صاح وو الأكبر: "افتحي الباب، أيتها الزوجة!".

فارتفعت ستارة من خشب البامبو برزت من ورائها امرأة، وسألت: "لماذا رجعت إلى البيت باكراً؟".

- هذا شقيق زوجك هنا. وأريدك أن ترحبي به.

أخذ وو الأكبر حمالة كتفه والسلتين إلى الداخل، ورجع وقال: "ادخل، يا أخي. وتعرف على زوج شقيقك".

رفع وو سونغ الستارة ودخل.

قال وو الأكبر: "هذا أخي الأصغر، ما رأيك؟ هو الذي قتل النمر على سلسلة جبال جينغيانغ، وصار مفوضاً للشرطة".

ضمَّت اللوتسة الذهبية يديها دلالة على الترحيب به، ونبرت: "أتمنى لك كل حظ طيب".

- أرجوك أن تجلسي، يا امرأة أخي.

وتهاوى وو سونغ على ركبتيه مثل جبل من الذهب ينهار، مثل عمود من اليشم يتداعى. وسجد.

أنهضته اللوتسة الذهبية، وتأدبت في مخاطبته: "أنت تربكني".

- احتراماتي، يا امرأة أخي.

- سمعت من السيدة وانغ، جارتي، أن بطلاً قتل النمر جرى الترحيب به في مكتب المقاطعة. أردت أن أذهب وألقي نظرة، ولكنني تهاونت ووصلت إلى هنالك متأخرة. وكانت النتيجة أن ذلك البطل هو أنت، يا شقيق بعلي! أرجوك أن تصعد إلى الطابق الثاني وتجلس فترة.

صعد الثلاثة الدرج وجلسوا. وشخصت اللوتسة الذهبية إلى زوجها: "سأبقى برفقة شقيقك. جهز شيئاً من الطعام والشراب لنحتفل معاً".

قال وو الأكبر: "رائع. اجلس قليلاً، يا أخي. لن تطول غيبتي". وهبط الدرج.

رنت اللوتسة الذهبية إلى وجه وو سونغ فرأته جميل المحيا. وحدثت نفسها: "إنه كبير كبير، حتى إن أحداً لن يقول إن بطناً واحداً حملهما. لو كنت قد تزوجت رجلاً مثله لما قضيت حياتي

عبثاً! أما زوجي الذي أعيش معه فلا خير فيه! ثلاثة إنشات من لحاء شجر التوت؛ ثلاثة أعشاره رجل وسبعة أعشاره وحش. يا لحظي النكد! وو سونغ يقتل النمر، لا ريبة أنه قوي... وقد سمعت أنه لم يتخذ زوجة. لِمَ لا أجعله ينتقل ويعيش معنا؟ من كان يظن أن القدر يجمعني بمحبوبي هنا!".

أضاءت وجهها بسمة، واستوضحت: "منذ متى وأنت في البلدة؟".

- عشرة أيام أو أكثر.

- وأين تقيم؟

- حالياً في مبنى مكتب المقاطعة.

- ليس هذا من العدل في شيء.

- أعيش وحيداً. وحاجاتي قليلة. ولديَّ خادم من الجنود.

- مثل هذا الرجل لا يقوم بالأشياء بصورة مرتبة. لم لا تنتقل إلى هنا؟ أكون سعيدة إن قدَّمت لك ما تريد من طعام وشراب. هذا أفضل من أن يقوم على خدمتك خادم قذر. حتى ولو شربت هنا ماء صافياً فلن يقلقك شيء وأنت تنهله في هذا البيت.

- هذا لطف منك كثير.

- هل اتخذت لنفسك زوجاً؟ أحب أن أجتمع بها.

- أنا لم أتزوج.

- كم لك من العمر؟

- أنا في الخامسة والعشرين.

- تكبرني بثلاث سنوات. أين كنت قبل قدومك إلى هذه البلدة؟

- أقمت في تسانغتشو أكثر من سنة. وظننت أن شقيقي لا يبرح في تشينغخه. لم أعرف أنه انتقل إلى هنا.

- لا أستطيع أن أصارحك بشيء! ولكنه رجل شريف جداً. وقد تبين لي ذلك منذ زواجي به. وترجى الناس انتهاز فرصة ذلك، فلم نستطع البقاء في تشينغخه، فانتقلنا إلى هنا. لو كان يقيم معنا شخص قوي مثلك لما واتت الجرأة أحداً على إقلاق راحتنا.

- كان شقيقي على الدوام حسن التصرف والسلوك. وهو ليس فظاً على غراري.

ابتسمت الفتاة: "فيم تقلب الأمور عاليها أسفلها؟ يقول المثل القديم: ليس هنالك من أمان إلا في العزيمة القوية. فاتخذت قراري بسرعة ونفذته. أنا أكره الأشخاص المتوانين الذين لا يعطونك جواباً فورياً".

- على أية حال، فهو لم يقع في شيء من المتاعب ويثير قلقك.

خلال حديثهما رجع وو الأكبر يحمل طعاماً وشراباً ابتاعهما ووضعهما في المطهى واقترب من أسفل السلَّم ونادى: "أيتها الزوجة، تعالي جهزي الطعام".

أجابت اللوتسة الذهبية: "كيف تنسى آداب السلوك؟ أنا لا أستطيع أن أترك شقيقك وحيداً هنا".

قال وو سونغ: "لا تشغلي بالك بي".

فقالت الفتاة مخاطبة زوجها: "ناد السيدة وانغ جارتنا لكي تجهز الطعام. هل تعجز عن تدبير مثل هذا الأمر البسيط!".

نادى وو الأكبر على السيدة وانغ، وحين تجهز الطعام حمله ووضعه على المائدة. كانت هنالك خمرة دافئة بالإضافة إلى السمك، واللحم، والفواكه، والخضراوات.

أجلس وو الأكبر زوجته في رأس المائدة ووو الأصغر قبالتها. وجلس هو جانباً وصبَّ الخمرة. رفعت اللوتسة الذهبية قدحها، وتوجهت إلى وو سونغ قائلة: "اغفر لنا هذه المائدة البسيطة. وأرجو أن تشرب هذه الخمرة معي".

- شكراً لك يا امرأة أخي. واطرحي هذه الكياسة بيننا.

انشغل وو الأكبر بتدفئة الخمرة وملء الأقداح دون سواهما. وكانت اللوتسة الذهبية لا تكفُّ عن الابتسام.

هتفت: "أنت لم تأكل شيئاً من السمك أو اللحم". واختارت شيئاً منهما وضعته في طبق وو سونغ.

كان وو سونغ فتى مستقيم الخلق، ولم ينظر إليها أكثر من نظرته إلى امرأة أخ. أما هي فتدربت منذ أيام عملها كخادمة على كيفية إدخال البهجة إلى القلوب بوسيلة أو أخرى. وكان وو الأكبر، وهو شخص مخلوع الفؤاد، لا يفقه شيئاً عن تسليه الضيوف.

بعد أن شرب الثلاثة عدة أقداح من الخمرة جعلت اللوتسة الذهبية تديم النظر في وقاحة إلى جسد الرجل الفتي. ارتبك وو سونغ، فخفض رأسه وتهرب من نظراتها. أتوا على دستة من الأقداح، ونهض للانصراف.

ترجاه وو الأكبر: "اشرب بعض الأقداح الأخرى أولاً".

قال وو سونغ: "شربت ما يكفيني. سآتي لرؤيتك مرة أخرى". رافقه المضيفان على السلم. وقالت اللوتسة الذهبية: "يجب أن تنتقل إلى هنا وإلا سخر الناس منا. وفوق هذا كله، فأنت شقيقنا". والتفتت إلى زوجها: "سننظف له غرفة يسكنها.لا نريد أن يتحدث عنا الجيران منتقدين".

قال وو الأكبر:

- أنت على حق. انتقل إلى هنا يا أخي، وبذلك أستطيع أن أبقي رأسي مرفوعاً".

- إذا كان هذا ما تريدانه فسأنقل حاجياتي هذه الليلة.

قالت اللوتسة الذهبية: "لا تنس. سأنتظرك". ودعهما وو سونغ، وغادر شارع الحجر الأرجواني ورجع إلى مكتب المقاطعة. كان القاضي يرأس المحكمة، قدَّم له وو سونغ التماساً: "لديَّ أخ في شارع الحجر الأرجواني. وفي مقدوري البقاء طول الوقت منتظراً أوامرك. ولكنني لا أرغب في الانتقال من دون إذن سعادتك".

- بدهي أني لن أفرق بين صلات ذوي القربى. كنْ هنا كل صباح.

شكر وو سونغ القاضي وذهب يجمع أمتعته: ثيابه ومبلغ المكافأة. وأمر جندياً أن يحمل ذلك

إلى دارة أخيه. حيته اللوتسة الذهبية في ابتسامة فرحة تشبه ابتسامة من عثر على كنز في منتصف الليل!

أقام وو الأكبر حاجزاً خشبياً في إحدى غرف الطابق الأرضي، ووضع فيها سريراً، ومنضدة، ومقعدين من دون ذراعين، ومدفأة للفحم. رتب وو سونغ أمتعته وصرف الجندي. نام ليلته، وأبكر في النهوض صباح اليوم التالي. هبت اللوتسة الذهبية من فراشها سريعاً وحملت له ماء للاغتسال. أنهى وو سونغ اغتساله، وربط منديل رأسه، وخرج يثبت وجوده في دارة القضاء.

قالت زوجة شقيقه: "ارجع باكراً لتناول الغداء. لا تأكل في أي مكان آخر".

قال وو سونغ: "سأعود سريعاً". وصرف صباحه كله إلى العمل، وآب إلى البيت.

كانت اللوتسة الذهبية قد غسلت يديها ودهنت أظافرها. فبدت نظيفة مكتملة الأناقة. قدمت الطعام، فأكل الثلاثة على منضدة واحدة. وبعيد الانتهاء من ذلك ناولته اللوتسة الذهبية قدحاً من الشاي بصورة رسمية.

قال: "لكم أزعجك! هذا شيء يخجلني. سأحضر جندياً من المقاطعة يعاونك".

فاحتجت الفتاة قائلة: "كيف تعاملنا وكأننا غريبان عنك؟ أنت لست شخصاً عادياً، أنت من لحمنا ودمنا! إذا جئت بجندي فلن يكون المطهى نظيفاً. ولا أطيق وجود مثل هذا النذل بيننا!".

- في هذه الحال سأستغلّ كياستك ولطفك.

كفانا من مثل هذا الحديث الغث. بعيد انتقال وو سونغ إلى البيت وهب لشقيقه فضة يبتاع بها شاياً ومشهيات ويدعو الجيران الذين أحضروا لوو سونغ هدايا.

شعر وو سونغ عندها بالارتباك لدعوتهم إلى الطعام، ودعاهم إلى حضور المأدبة التي أقامها تعبيرا عن شكره لهم. وبعيد عدة أيام، قدّم وو سونغ لامرأة أخيه قطعة من الحرير جميلة الرسوم تصنع منها ثوباً. فابتسمت في سرور.

- ما كان ينبغي أن تفعل ذلك! ولأنك فعلت فلن أرفض، يجب أن أقبل.

منذ ذلك التاريخ أقام وو سونغ في دارة شقيقه، واستمر وو الأكبر في التجول وبيع الكعك المحلى في الشارع. وفي كل صباح، يذهب وو سونغ إلى دارة القضاء ويؤدي المهام الملقاة على عاتقه. وحين يؤوب إلى البيت، أبكر أم تأخر، تكون اللوتسة الذهبية قد جهزت الطعام. فتقدمه في سرور غير خفي. وكان ذلك يربكه. ولم تكن تعبر عن الغمز واللمز بإشارات خفية ماكرة. ولكن وو سونغ رجل صلب العقيدة، فما أعارها انتباهاً.

لنختصرن الحديث، فلم يمر شهر حتى أقبل الشتاء، فهبت الرياح طوال أيام. وتراكمت سحب ثقيلة. ومن ثم في ذات صباح تساقطت ندف كبيرة من الثلج. كانت السماء لا تبرح تثلج في فترة الحراسة الأولى تلك الليلة.

انصرف وو سونغ مبكراً في صباح اليوم التالي للمثول في دارة القضاء. ولم يرجع إلى البيت ظهراً.

أرسلت اللوتسة الذهبية زوجها يبيع الكعك المحلّى، وطلبت من جارتها السيدة وانغ أن تشتري

لها قليلاً من الخمر واللحم وأشعلت الفتاة المدفأة الفحمية في غرفة وو سونغ.

همست في حنايا نفسها: "سأعمل على إغوائه هذا اليوم بالذات. لا أصدق أنه لا يمكن أن يستثار...".

وقفت وحيدة عند ستارة الباب تراقب الثلج إلى أن لمحته قادماً بين الندف المتساقطة. رفعت الستارة وحيته بابتسامة.

- هل تشعر بالبرد؟

- شكراً على رعايتك بشؤوني.

دخل ونزع قبعته عريضة الحافة. أخذتها منه بكلتا يديها.

قال: "لا ترهقي نفسك". استرد القبعة، ونفض الثلج عنها، وعلقها على الجدار. وحلَّ نطاقه عن وسطه. وخلع عباءته المصنوعة من حرير أخضر اللون، ودلف إلى غرفته وعلقها كي تجفّ.

قالت الفتاة: "كنت أترقب عودتك طوال الصباح. لمَ لم تحضر لتناول الغداء؟".

- دعاني شخص في مكتب المقاطعة. واقترح آخر قبل قليل أن نتناول شراباً. ولكنني لم أكن صافي المزاج، فرجعت إلى البيت مباشرة.

- أوه. أدفئ نفسك قرب النار.

- حسن.

خلع حذاءه المبلل، وارتدى جوربين وحذاء دافئاً، وجرَّ مقعداً من دون ذراعين إلى قرب النار، وجلس.

أقفلت اللوتسة الذهبية الباب الأمامي، وأغلقت الباب الخلفي، وجاءت بخمرة وطعام ومشهيات وضعتها أمامه على المائدة.

سأل وو سونغ: "إلى أين ذهب شقيقي ولم يرجع حتى الآن؟".

- ذهب يبيع الكعك على مألوف العادة كل يوم. في مقدورنا أن نحتسي قليلاً من الخمرة معاً.

- ألا يفضل أن ننتظر عودته؟

- وفيم هذا؟

حملت الفتاة الوعاء الأسطواني الذي كانت الخمرة تدفأ فيه.

قال وو سونغ: "لا تتعبي نفسك يا امرأة أخي. سأفعل أنا ذلك".

قالت اللوتسة الذهبية: "شكراً لك". وجذبت هي الأخرى مقعداً من دون ذراعين إلى قرب المدفأة وجلست إلى المائدة القريبة من النار، كانت صينية فوقها أقداح الشراب، ورفعت الفتاة أحدها وكان مليئاً، وشخصت إلى وو سونغ: "اشربه".

تناول القدح منها وأفرغ محتواه في جوفه، فملأته ثانية: "الجو بارد هذا النهار. يحسن أن تجرع قدحاً مزدوجاً".

- كما تشائين.

- جرع وو سونغ القدح الثاني. وصبَّ قدحاً ناوله إلى الفتاة. شربته، وصبت مزيداً من الخمرة

من الوعاء الدافئ وضعته أمامه.

كان نهداها المدوران بارزين، وشعرها يتهدل في سحابة ناعمة، فابتسمت ابتسامة فاتنة: "أخبرني أحدهم أن لديك فتاة مغنية في القسم الشرقي من البلدة. أهذا صحيح؟".

- لا ينبغي أن تعيري سمعك إلى مثل هذا الهراء. فلست من ذلك الطراز.

- لا أصدقك. أخشى أن تقول شيئاً وتفعل شيئاً آخر.

- اسألي شقيقي إن كنت لا تصدقينني.

- وماذا تراه يدري؟ لو كان يلمُّ بمثل هذه الأمور لما غدا بائعاً للكعك. اشرب قدحاً آخر.

صبت له الفتاة ثلاثة أقداح من الخمرة على التوالي، وصبت لنفسها مثلها. أدفأها هوى جامح لا حدود له، فجعلت تهرف بالكلام من دون انقطاع. واستوعب وو سونغ أكثر كلماتها، وأبقى عينيه منخفضتين.

خرجت اللوتسة الذهبية تجلب مزيداً من الخمور. وما إن رجعت حتى رأت وو سونغ يحرك النار في المدفأة. حملت وعاء الخمرة في يد، ووضعت اليد الأخرى على كتفه وضغطت: "أهذه هي الثياب الوحيدة التي ترتديها في هذا الجو القارس؟".

لم يقل شيئا، ولكنه تضايق. أخذت المحراك من يده: "أنت لا تجيد تحريك النار، سأريك كيف تفعل ذلك. يحسن أن تضرمها وتجعلها تنفث الحرارة".

ارتعب وو سونغ من ركبته، فما أعطاها جواباً. كانت الفتاة قد عميت عن حاله الذهنية من شدة الرغبة المتلاطمة في صدرها. وضعت محراك النار، وصبت قدحاً من الخمرة جرعت منه جرعة، وقدمت ما تبقى له: "اشرب هذه البقية إن كنت تشعر نحوي بشيء من الدفء".

اختطف القدح وأهرق محتواه على الأرض صائحاً: "ألا تخجلين؟". دفعها فكادت أن تسقط أرضاً. وحملق فيها: "أنا رجل مستقيم الخلق، ولست حيواناً شريراً خليعاً! كفي عن هذه التصرفات غير المحتشمة! إن ترامى إليَّ شيء من الهمسات عنك، فاحذري لنفسك! عيناي تعرفان أنك امرأة أخي. أما قبضتاي فتجهلان ذلك! فكفي عن هذه الأمور!".

أبعدت الفتاة مقعدها وقد تقرمز وجهها: "كنت أمزح وحسب! ففيم تثير مثل هذه الضجة؟ ألا تحترمني؟".

نقلت الأقداح والأطباق إلى المطهى، وتركت وو سونغ يرغي في غرفته ويزبد.

في بكور العشية رجع وو الأكبر إلى البيت حاملاً حمالته وسلتيه. دفع الباب المقفل عدة مرات، فأسرعت اللوتسة الذهبية تفتحه. وضع حمله وتبعها إلى المطهى. كانت عيناها حمراوين من البكاء.

استفسر: "مع من تشاجرت؟".

- إنها خطيئتك في أن تكون على مثل هذه الغفلة وتترك الناس يضايقونني!

- من كانت له الجرأة على مضايقتك؟

- أنت تعرف ذلك حق المعرفة! إنه شقيقك المقرف! رجع في هذا الثلج الكثيف فقدمت له

خمرة. وحين لم يجد في البيت سوانا حاول معابثتي!

- ليس أخي من هذا الطراز. كان على الدوام طيب الخلق والسمعة والسلوك. وأخفضي صوتك! إن سمع الجيران هذا، فسيضحكون ملء أشداقهم!

استدار وو الأكبر عن زوجته واتجه إلى غرفة شقيقه. قال: "يا أخي، أنت لم تأكل بعد. سنأكل معاً".

لم يرد وو سونغ عليه. أغرق في التفكير لحظات، ثم خلع حذاءه وجوربيه، وانتعل الحذاء المبلل، وعباءته، وقبعته اللبادية، وشد نطاقها على وسطه، وخطا إلى الباب.

ناداه وو الأكبر: "إلى أين أنت ذاهب؟".

تابع وو سونغ طريقه في صمت.

رجع وو الأكبر إلى المطهى، وقال لزوجته: "إنه يرفض مخاطبتي. وقد انصرف على الدرب إلى دارة القضاء. ماذا أصابه؟".

صرخت اللوتسة الذهبية: "أيها الغبي! أيصعب عليك معرفة ذلك؟ إنه خجلان، ولا يستطيع مقابلتك وجهاً لوجه، فانصرف! أمنعك من أن تترك هذا الوغد يقيم في هذا البيت مرة أخرى!".

- سنغدونَّ هزأة إذا انتقل!

- أحمق! أعتقد أننا سنكون هزأة إذا راح يطارحني الهوى! أقم معه إن رغبت! فأنا لست من هذا النوع من النساء! أعطني ورقة تحررني بها، وخذه إليك كله!

لم يجرؤ وو الأكبر على فتح فمه.

في تلك اللحظات، وصل وو سونغ برفقة جندي وحمالته. دخل غرفته، وجمع حاجياته، وانصرف من جديد. فركض وو الأكبر وراءه: "يا أخي فيم تنتقل؟".

- لا تسألني. إذا تكلمت فسيكون كلامي أشبه بمن يعلق لوحة تعلن عن البضاعة التي تأويها في بيتك! دعني أرحل!

خرس وو الأكبر. وانصرف وو سونغ واللوتسة الذهبية تشتمه:

- حسن أننا تخلصنا منه. طاف في رأس الجميع أننا ننعم بالرخاء لأن لنا مفوضاً يرعى شؤون شقيقه وامرأة شقيقه. وقلة منهم يعرفون مقدار خيانته! "أفضل أشجار البابايا فارغة في جوفها!" ليس هنالك أصدق من هذه العبارة. لقد انتقل، فشكراً للسموات والأرض! لم يبق لدينا الآونة عدو يعيش تحت سقفنا، على أقل تقدير!

لم يفهم زوجها لثورتها سبباً. وشرعت التعاسة تقرض قلبه في إصرار نكد.

شغل وو سونغ بعيد ذلك جناحاً في مبنى مكتب المقاطعة. وراح وو الأكبر يبيع كعكه المحلى في الشارع مثله قبلاً. أراد أن يذهب لرؤية وو سونغ، ولكن زوجته أصدرت إليه وصايا صارمة بخصوص "إقلاق راحته"، فأطرح من رأسه تلك الفكرة.

وتوالت الأيام، وسرعان ما ذابت الثلوج. ومرت عشرة أيام أو أكثر. كان قاضي المقاطعة في خلال السنتين والنصف من ولايته القضاء قد جمع ذخيرة كبيرة من الذهب والفضة. وخطر له أن

يرسلها إلى أحد أفراد أسرته في العاصمة الشرقية يحفظها له وينفق جزءاً منها في تأمين منصب أعلى له. وكان في حاجة إلى شخص قوي وموثوق يسلّم هذه الأموال كيلا يستولي عليها اللصوص في الطريق. فجأة، ومض اسم وو سونغ في ذهن القاضي: "إنه الرجل المناسب. بطل مثله لا بدَّ أن يكون مثالياً".

واستدعى وو سونغ إليه، وقال: "لديَّ حمل من الهدايا، ورسالة أريد تسليمها إلى أحد أقربائي في العاصمة الشرقية. وأخشى أن تكون هنالك متاعب على الطريق وأحتاج إلى بطل مثلك ينقلها. أنجز لي هذه المهمة، ولا ترهبنَّك الصعوبات. سأكافئك حين عودتك".

- سعادتك خلعت عليّ منصباً رفيعاً. ولا أستطيع لطلبتك رفضاً. إن عهدت إليَّ بالمهمة فلسوف أؤديها. وفضلاً عن ذلك، فأنا لم أذهب من قبل إلى العاصمة الشرقية. وأحبُّ أن أزورها. جهز الأشياء، يا صاحب السعادة، فأرحل غداً.

غمرت الفرحة حنايا القاضي، فقدَّم له ثلاثة أكواب من الخمرة. ونكتفي بالحديث عن هذا الموضوع.

رجع وو سونغ إلى جناحه، وأخذ قليلاً من الفضة، وانتدب جندياً، واشترى زجاجة من الخمرة وطعاماً ومشهيات، واتخذ سمته إلى منزل وو الأكبر في شارع الحجر الأرجواني. وحين رجع الأخ الأكبر من جولته وجد وو سونغ جالساً خارج البيت. فأمر الجندي أن يدخل المطهى ويجهز الطعام.

كانت الرغبة لا تبرح عارمة في صدر اللوتسة الذهبية في إغواء وو سونغ. رأته قادماً بالطعام والخمرة، فحدثت نفسها: "هذا الوغد لا بدَّ أني أطوف في ذهنه. ولهذا عاد! أنا أكثر منه موهبة! سأحصلنَّ على القصة منه شيئاً بعد شيء".

صعدت إلى الطابق الثاني، وتجمَّلت، وضفرت شعرها، وخلعت على جسدها ثياباً غاوية. وألقت التحية عليه عند الباب: "هل أثرنا نقمتك؟ أنت لم تزرنا منذ أيام عديدة! ولا أفهم لذلك سبباً. قلت لشقيقك أن يذهب إليك في مكتب المقاطعة ويعتذر. ولكن، لم يجد لك أثراً. وهذا أنت اليوم جئت، فيا للفرحة! لكن، لا ضرورة لإنفاق المال على هذا الغرار!".

أجاب وو سونغ: "لديّ ما أقوله. جئت خصيصاً للتحدث إليكما معا".

- حسن إذاً، تعال إلى الطابق الثاني واسترح.

صعد الثلاثة السلم ودلفوا إلى الرواق. واستجابة لالحاح وو سونغ جلس شقيقه وامرأته في رأس المائدة، في حين جذب مقعداً دائرياً من دون ذراعين وجلس جانباً. وأحضر الجندي اللحم والخمرة ووضعهما أمامهم. وأصرَّ وو سونغ على وو الأكبر واللوتسة الذهبية أن يشربا. وراحت هي تختلس إليه نظرات خجولة. ولكنه التفت إلى الشراب ولم يعرها انتباهاً.

بعيد خمس جولات من الشراب أمر وو سونغ الجندي أن يملأ قدحاً. رفعه في يده والتفت إلى شقيقه قائلاً: "عهدت إليَّ مهمة بالسفر إلى العاصمة الشرقية من قبل قاضينا. سأرحل غداً، وسأغيب أربعين أو خمسين يوماً، وربما أغيب شهرين كاملين. وهنالك ما أودُّ أن أقوله قبل كل شيء. لقد كنت على الدوام ضعيفاً هيّاباً، وقد يعمد الناس إلى محاولة استغلال غيابي. إن كنت تبيع عشر

صينيات من الكعك المحلّى يومياً، فاجعلها من الغداة خمساً لا غير. غادر البيت في ساعة متأخرة وارجع مبكراً. ولا تعاقر الخمرة مع إنسان. وحين تؤوب إلى البيت أسدل الستائر واترس الباب. وهكذا تتفادى الجدل والقيل والقال. وإذا أهانك أحد فلا تخاصمه. سأعنى بالأمر بعيد عودتي. عدني بذلك، يا أخي، واشرب معي هذه الكأس".

صبّ وو سونغ قدحاً آخر، والتفت إلى اللوتسة الذهبية: "امرأة أخي حصيفة أريبة. ولا ضرورة أن أستفيض في الحديث. شقيقي رجل شريف بسيط. وهو في حاجة إلى رعايتك له. فالقوة الداخلية أكثر أهمية من أي قوى خارجية، على ما يقول المثل. فإذا تدبرت أمور البيت بصورة حسنة فلن يقلقه شيء. وقد قال الأقدمون: حين يكون السياج قوياً لا يدخل منه الكلب.

زحفت ومضة من التورُّد من أذني الفتاة وخضبت وجهها بأسره. فهزَّت إصبعها في وجه وو الأكبر: "أيها الحشرة التافهة! ما هي الشائعات التي تروِّجها عني وتشوه بها سمعتي؟ أنا عفيفة مستقيمة مثل أي من الرجال! والرجل يقف على قبضة يدي مثلما يمكن أن يدوس حصان على ذراعي! وفي مقدوري أن أتجول في كل مكان مرفوعة الهامة. ولست واحدة من النساء اللواتي يخجل المرء منهنَّ! منذ اقترنت بك لم تجرؤ نملة واحدة على دخول بيتك! فما هي القصة عن السياج القوي ودخول الكلاب؟ قبل أن تتفوه بهذه الأباطيل يحسن بك أن تثبت صحة أقوالك! فكل قرميدة أو بلاطة يقذفها المرء مصيرها الوصول إلى الأرض!".

ابتسم وو سونغ: "إذا كان هذا شعورك، يا امرأة الأخ، فهو شعور رائع! لتكن أفعالك متفقة مع أقوالك! وسأذكر ما تفوهت به من كلمات. وأريدك أن تشربي نخب ذلك!".

وضعت اللوتسة الذهبية الكأس وركضت خارجة من الغرفة. صاحت من حيث وصلت إلى منتصف السلم: "أنت حاذق جداً! ألم تسمع أن "زوجة الأخ الأكبر جديرة بالاحترام الذي تكنّه لأمك"؟ يوم تزوجت أخاك لم أسمع كلمة واحدة عنك. وقد جئت إلى هنا، ولم أعرفك إلا منذ فترة وجيزة، وهذا أنت تحاول أن تتصرف تصرف من كان حماً لي! وحده حظي من رماني في مثل هذه الترهات!".

هبطت السلم منتحبة، وخلعت على سيماها ملامح بريء اتهم باطلاً.

شرب الأخوان عدة أقداح من الخمرة، وهبَّ وو سونغ للانصراف.

قال وو الأكبر: "لا تطل غيبتك. أريد أن أراك مرة أخرى". وانهطلت العبرات من عينيه، فرآها وو سونغ.

ألحَّ قائلاً:

- لا تخرج إلى بيع الكعك يا أخي. ابق في البيت. سأرسل إليك مالاً تنفق منه.

رافقه وو الأكبر على السلم، وأوصله إلى الباب.

قال وو سونغ: "لا تنس ما قلته لك، يا أخي".

رجع إلى مبنى المقاطعة برفقة الجندي، وتأهب للرحلة. وفي بكور اليوم التالي جمع صرته وذهب يقابل القاضي. كانت الصناديق قد وضعت في عربة. واختار القاضي جنديين قويين بارعين

بالإضافة إلى خادمين موثوقين لمرافقة وو سونغ. وأصدر إليهما تعليمات خاصة. وألقى الجميع التحية على القاضي. وتنكب وو سونغ درعه وحمل مطرده. وخرج الرجال الخمسة، يخفرون العربة، من بلدة يانغقو قاصدين العاصمة الشرقية.

تنشعب روايتنا الآن إلى قسمين. فنتحدث عن وو الأكبر الذي شتمته زوجته طوال أربعة أيام متوالية بعد رحيل وو سونغ، فتلقى سبابها في صمت، وتذكر كلمات شقيقه. وصار يبيع نصف الحصة التي كان ينزلها إلى السوق من الكعك ويرجع إلى البيت مبكراً. وما إن يضع حمالته حتى يخفض الستارة المصنوعة من خشب البامبو، ويقفل الباب الأمامي، ويجلس وحيداً. وازدحمت جوانح اللوتسة الذهبية غيظاً. فهزت إصبعها في وجهه: "أيها الأحمق التعيس! لم أر في حياتي بيتاً يقفلون بابه والشمس لا تبرح في وسط السماء. سيسخر الناس منا حاسبين أننا نتعامل مع الشياطين! لقد أصغيت إلى نصيحة أخيك القذرة، ولا تبالي بسخرية الجيران والناس!".

- فليسخروا ما طاب لهم. نصيحة أخي طيبة. تجنبنا المشاكل على مختلف أشكالها.

- هراء! أنت رجل، ففيم لا تقطع برأي من غير أن تصغي إلى آراء الآخرين؟

لوَّح وو الأكبر بيده في عزم:

- سأفعل ما نطق به وو سونغ. فكلماته من ذهب خالص!

ظلَّت طوال الأسبوعين التاليين توبخه بشأن أسلوب عمله الذي لا يتبدل. ومن ثم ألفت ذلك، وعندما يحين موعد عودته إلى البيت فهي تسدل ستارة البامبو وتقفل الباب بنفسها. واستراح وو الأكبر. وخاطب نفسه قائلاً: "هذا أسلوب لا غبار عليه في الحياة".

مرَّ يومان أو ثلاثة أيام أخرى، واقترب الشتاء من نهايته، وازدادت الشمس إشراقاً، وصار الجو أكثر دفئاً. وكانت اللوتسة الذهبية، وهي تترقب عودة زوجها إلى البيت، تمضي إلى الباب وفي يدها قضيب منشعب في ذروته لتسد الستارة فوق المدخل.

وعندها وقع حادث. كان هنالك رجل يعبر الطريق. وكما يقول المثل القديم: "من دون تزامن لا يمكن أن تكون هنالك قصة". فقد انزلق القضيب الذي تحمله وهوى على رأس الرجل. وقف غاضباً، وتلفت حواليه، على أهبة الانفجار. ولكنه ما إن لمح تلك المرأة اللدنة واقفة هنالك حتى هدأت ثورته. وتبخَّر غضبه، فابتسم.

ضمت الفتاة يديها واعتذرت في لطف: "كنت طائشة فأذيتك".

أصلح الرجل من وضع منديله على رأسه، وانحنى: "هوني عليك، لا تفكري في الأمر".

لمحت السيدة وانغ، جارة الفتاة، ما حدث من خلال ستارة باب مشرب الشاي. فضحكت. نادت: "من طلب إليك أن تسير قريباً من أفاريز البيوت! أنت ستستأهل ما وقع!".

ابتسم الرجل: "إنها غلطتي. التقيت السيدة مصادفة. وأرجو أن تصفح عني".

ابتسمت اللوتسة الذهبية بدورها: "إذاً، أنت لم تغضب؟".

ضحك الرجل من جديد. فانحنى تحية مودة: "لست أجرؤ على الغضب". طافت عيناه فوق جسدها بجرأة، وتابع طريقه بخطوات موزونة.

أسدلت اللوتسة الذهبية الستارة، وحملت القضيب إلى الداخل، وأقفلت الباب، وانتظرت عودة وو الأكبر.

أتعرفون من كان ذلك الرجل؟ وأين يعيش؟ هو في الأصل من سراة الأسر في يانغقو، أطل على هذا الوجود وافتتح مخزناً للأدوية والأعشاب الطبية قبالة مكتب المقاطعة. كان دمثاً أريباً، ماهراً في استخدام قبضتيه والعصا. وقد زادت ثروته أضعافاً في الفترة الأخيرة حين عمل وسيطاً لدى القضاء، وفي عقد الصفقات، وتهريب العملة، ورشوة الموظفين. فصارت البلدة بأسرها تعامله معاملة خاصة. وكانت أسرته تدعى شيمن، وهو يدعى تشينغ. وباعتبار أنه كان الابن الأول في عائلته فقد عُرف بشيمن الأكبر. ولكن، ما إن تضاعفت ثروته حتى جعل الناس يلقبونه شيمن الأكثر احتراماً.

بعيد فترة قصيرة من قصته مع اللوتسة الذهبية رجع شيمن أدراجه، ودلف إلى مشرب شاي السيدة وانغ وجلس بجانب الستارة.

تبسمت السيدة وانغ قائلة: "أيها السيد الأكثر احتراماً، ما أجمل تلك الانحناءة التي قمت بها هنالك!".

أهنف شيمن ضاحكاً: "أخبريني، يا عرابتي، من تلك الفرخة التي تقيم في جوارك؟".

- إنها الأخت الصغيرة لملك الجحيم، وابنة جنراله القائد. فيم تطرح هذا السؤال؟

- لست أمزح. أعطيني جواباً شافياً.

- أتقصد أنك لا تعرف زوجها؟ إنه يبيع الطعام خارج مكتب المقاطعة كل يوم.

- ليس هو سيوي سان الذي يبيع حلوى البلح؟

لوّحت السيدة وانغ بذراعها نفياً: "لا. رغم أنهما يتشابهان. خمِّن".

- إنه لي آر حمال الفضة؟

- لا. رغم أنهما قد يتشابهان.

- ولا يمكن أن يكون لو شياو يي موشوم الذراع؟

ابتسمت السيدة وانغ: "لا. قد يشكلان فريقاً رائعاً. خمنّ مرة أخرى، أيها السيد الأكثر احتراماً".

قال شيمن: "يا عرابتي، لا أستطيع أن أخمّن".

ضحكت السيدة وانغ: "الجواب قد يقتلك. زوجها هو وو الأكبر الذي يبيع الكعك الساخن!".

انفجر شيمن ضاحكاً وضرب الأرض بقدميه: "أليس هو ثلاثة إنشات من لحاء شجر التوت؟".

- هو عينه.

زمجر شيمن: "هذه اللقمة اللذيذة تسقط في فم كلب!".

وافقت السيدة وانغ: "هذا أمر يرثى له. ولكن للحياة عجائبها. وكما يقول المثل: جواد أصيل يمتطيه أحمق، وامرأة فاتنة تنام مع زوج أخرق. إن إله الزواج يعقد زيجات جنونية أحياناً".

- بماذا أدين لك من أجل الشاي؟

- ليس كثيراً. لا تبالِ بذلك. سأضيفه على الحساب مرة أخرى.

- ماذا يعمل ولدك هذه الأيام؟
- أكره أن أخبرك. لقد ذهب إلى نهر هوايخه برفقة أحد التجار ولم يرجع بعد. ومن يدري ما إذا كان لا يبرح على قيد الحياة أم طواه الموت!؟
- هل توافقين على أن يعمل لحسابي؟
ابتسمت السيدة وانغ: "إن كنت سعادتك ترغب في ترقيته أكن لك من الشاكرين".
- رويدك ريثما يعود. سوف نتدبر الأمر.
استرسلا في الحديث فترة أخرى، وشكر شيمن السيدة وانغ وانصرف.
مرت نصف فترة حراسة فإذا هو جالس من جديد قرب ستارة بابها، لا يرفع أنظاره عن منزل وو الأكبر. وجاءت السيدة وانغ خارجة من مؤخر مشربها.
- أتريد شراب البرقوق، يا سيدي الأكثر احتراماً؟
- رائع. وليكن طيباً على شيء من الحموضة.
سرعان ما وضعت الشراب أمامه في احترام بكلتا يديها. فارتشف منه على مهلة، ووضع القدح على المنضدة: "أنت تصنعين من البرقوق شراباً لذيذاً، يا عرابتي. هل لديك كمية منه مخزونة؟".
ضحكت السيدة وانغ: "كنت أصنع مثل هذا الشراب مثلما أصنع الزيجات طوال حياتي. ولكنني لا أحتفظ بشيء هنا الآن!".
- أنا أتحدث عن شراب البرقوق، وأنت تتحدثين على الزيجات! وهنالك فارق كبير بينهما.
- أوه. ظننتك تريد أن تعرف إن كنت ماهرة في عقد الزيجات.
- إذا كانت هذه مهنتك، يا عرابتي، فأريدك أن تبحثي لي عن زوجة من طراز أمثل. وسأكافئك مكافأة سخية.
- إذا سمعت زوجتك هذا الكلام فسوف تنهال على أذنيَّ صفعاً!
- زوجتي كثيرة السماح. ولدي عدة محظيات في البيت، ولكن واحدة منهن لا تدخل السرور إلى قلبي. رغم أن امرأة سبق لها أن كانت زوجاً ترضيني، إن هي راقت في عينيَّ.
- عثرت على واحدة قبل عدة أيام وأخشى أن ترفضها.
- إن كانت جيدة، فتدبري الأمر بمعرفتك، وسأكون لك من الشاكرين.
- امرأة جميلة، ولكن عمرها كبير بعض الشيء.
- إذا كان الفارق سنة أو سنتين بين عمرينا فهذا شيء مقبول. كم لها من العمر؟
- ولدت في عام النمر. في مطلع السنة الجديدة تبلغ الثالثة والتسعين!
ضحك شيمن: "أنت مجنونة! تمزحين على الدوام!".
نهض، وهو لا يبرح يضحك، وانصرف. كان النهار يقترب من نهايته. وراحت السيدة وانغ تشعل المصباح وتتأهب لإغلاق المشرب قبل هبوط الليل حين برز شيمن من جديد وجلس بجانب ستارة الباب، قبالة منزل وو الأكبر.
اقترحت السيدة وانغ: "ما رأيك في شراب لذيذ "مزدوج"، أيها السيد الأكثر احتراماً؟".

- رائع. ولكنني أريده أكثر حلاوة قليلاً.

أحضرت الشراب وناولته إياه. جلس فترة، ثم نهض مرة أخرى.

- أضيفيه إلى حسابي، يا عرابتي. سأدفع لك غداً.

- ليس هناك ما يدعو إلى العجلة. استرح، ومرَّ بي غداً.

ضحك شيمن. ولم يحدث شيء آخر في تلك الليلة.

في بكور اليوم التالي، حين فتحت السيدة وانغ الباب وألقت نظرة إلى الخارج وقعت عيناها على شيمن يتمشى روحة رجعة أمام المشرب.

خاطبت نفسها قائلة: "هذا الجواد يسارع من خطواته. سأنثر قليلاً من السكر على أرنبة أنفه من دون أن يصل منها شيء إلى لسانه. إنه بارع في انتهاز المناسبات في مكتب المقاطعة، ولكنني سأجعله يرى أنه غير قادر على تحصيل شيء مني من دون دفع الثمن".

فتحت الباب على مصراعيه، وأشعلت النار، ووضعت الغلاية فوقها. دخل شيمن على الفور، وجلس بجانب ستارة الباب، وعيناه على ستارة البامبو المسدلة على منزل وو الأكبر. تظاهرت السيدة وانغ بالغفلة عنه، وبقيت في مؤخر دكانها تروّح النار.

نادى شيمن: "يا عرابتي. قدحان من الشاي، من فضلك".

كشرت السيدة وانغ ضاحكة: "هذا أنت إذاً، يا سيدي الأكثر احتراماً. لم نرك منذ أيام. اجلس".

وضعت أمامه على المنضدة قدحين من شاي الزنجبيل القوي.

دعاها شيمن: "اشربي معي قدحاً".

فقوقأت السيدة العجوز: "أنا لست الغالية على فؤادك".

وضحك بدوره، واستفسر: "يا عرابتي، ماذا يبيعون في البيت المجاور لك؟".

- طعاماً لذيذاً مبهراً حاراً مقطراً يتصاعد منه بخاره.

ابتسم: "أنت امرأة مجنونة. لا ذرارة من شك في هذا".

ضحكت السيدة وانغ: "أبداً. ولكنّ لها زوجاً".

- أنا لا أمزح. يقولون إنه يصنع كعكاً شهياً طيباً. وأريد أن أشتري أربعين أو خمسين منه. أتعرفين ما إذا كان في البيت أم لا؟

- إذا كنت تطلب الكعك فانتظر عودته. ولا حاجة لك للذهاب إلى منزله.

- أنت على حق.

جلس برهة يرتشف الشاي. ولم يلبث أن قال بعدما نهض: "سجليهما في الحساب، يا عرابتي".

- لا تقلق. سأفعل هذا.

ابتسم وانصرف.

بعد قليل كانت السيدة وانغ تنظف مشربها، فألقت نظرة إلى الخارج. كان شيمن لا يبرح يراوح

ويغادي أمام الباب. اتجه شرقاً وألقى نظرة. واتجه غرباً، وألقى نظرة أخرى. كرَّر ذلك عدة مرات، وما عتَّم أن دلف إلى مشرب الشاي.

رحبت به السيدة وانغ: "زيارة نادرة، يا سيدي الأكثر احتراماً! لم نرك منذ زمن طويل!".

ابتسم شيمن، وأخرج قطعة فضية ناولها إياها، وقال: "هذا ثمن الشاي، يا عرابتي".

- هذا كثير. فثمنه لم يبلغ هذا المقدار.

- خذيها.

هامست العجوز نفسها قائلة: "عليك به! فقد ربطنا الجواد تماماً". وضعت المال جانباً، وقالت: "تبدونَّ ظمآن. قدح من الشاي الثقيل عريض الأوراق؛ هذا ما أنت في حاجة إليه الآن".

- كيف خطر لك ذلك؟

- إنه أمر سهل. ألمحه في سيمائك. وكما يقول المثل: "نظرة واحدة إلى وجه الرجل تنبئك ما إذا كان سعيداً أو شقياً". وأنا لا تفوتني الأمور مهما تكن غريبة.

- يطوف في ذهني أمر في هذه اللحظة. أعطيك خمس قطع من الفضة إن خمنت مضمونه.

ابتسمت السيدة وانغ: "لست في حاجة إلى ثلاثة أو أربعة افتراضات. واحد يكفيني. أيها السيد الأكثر احتراماً، قرِّب أذنك من فمي. جميع روحاتك وغدواتك خلال الأيام القليلة الماضية سببها شخص واحد يقيم في جوارنا. صحيح؟".

ابتسم شيمن: "يا عرابتي، أنت امرأة ماكرة. ولأصدقك القول، فمنذ أن ضربتني بالقضيب وتفحصتها بنظري ملياً في ذلك النهار وأنا مفتون! ولكنني لا أعرف كيف أصل إليها. هل لديك فكرة؟".

ضحكت السيدة وانغ ضحكة مجلجلة: "أيها السيد الأكثر احتراماً، سأقدمها لك من فوري. ومشرب الشاي هذا مجرد واجهة: فالشيطان يلعب دور الحراسة الليلي. منذ ذلك الصباح الثلجي في اليوم الثالث من الشهر السادس قبيل ثلاث سنوات يوم بعت أول قدح من أقداح الشاي المنقوع لم أقم بأعمال كثيرة هنا. تجارتي الحقيقية تقوم على العمل في سوق مختلطة".

- وما معنى "السوق المختلطة"؟

- في الدرجة الأولى أنا صانعة زيجات. ولكنني سمسارة أيضاً، ومولدة، ووسيطة بين العشاق، وقوادة.

- يا عرابتي، إذا استطعت إحضارها إليَّ أنفحك بخمس قطع من الفضة ثمناً لنعشك.

- أصغ إلي، يا سيدي الأكثر احتراماً. قضايا الإغواء هذه من أصعب القضايا على الإطلاق. هنالك خَمسة شروط ينبغي تحقيقها قبل إصابة النجاح فيها. أولاً، ينبغي أن تكون وسيماً مثل بان آن. ثانياً، ينبغي أن يكون لك ذكر طويل مثل الحمار. ثالثاً، ينبغي أن تكون ثرياً مثل دنغ تونغ. رابعاً، ينبغي أن تكون صبوراً مثل الإبرة التي تعمل في الصوف. خامساً، ينبغي أن تنتظر طويلاً. يتحقق لك النجاح إذا أمنت هذه المتطلبات الخمسة.

- أقول صراحة إني قادر على ذلك. أولاً، ورغم أني لا أشابه بان آن في شيء، ولكنني مقبول.

ثانياً، إن لي ذكراً كبيراً منذ طفولتي. ثالثاً، أسرتي تملك ثروة لا بأس بها. قد لا تكون بمقدار ثروة دنغ تونغ، ولكنها وافرة. رابعاً، أنا صبور بما فيه الكفاية، حتى ولو ضربتني أربعمائة مرة فلن أرد عليها مرة واحدة. خامساً، إن لديَّ ما يكفي من الوقت. لولا هذا، كيف يتاح لي أن أطوف بهذا المكان؟ يا عرابتي، يجب أن تساعديني وإذا نجحنا فسأدفع لك فضة أكثر.

- أيها السيد الأكثر احتراماً، على الرغم من أنك تزعم أن المتطلبات الخمسة متوفرة فيك، فلا تزال هنالك عقبة أخرى.

- ما هي؟

- اعذرني إن كنت فظة، ولكن محاولات الإغواء هذه تتطلب حذراً. ويجب تأمين كل قطعة من المال بخصوصها، ولا ينبغي أن تبخل بإنفاق قرش من مائة قرش. فقد كنت على الدوام قابض اليد، تبغض أن تنثر النقود حواليك. وهذا أمر قد يعترض سبيلنا.

- في مقدورنا أن نعالج هذا الموضوع بسهولة. سأنفذ كل ما تطلبين.

- إن شئت أن تنفق المال عن رغبة، أيها السيد الأكثر احتراماً، ففي مقدوري أن أؤمن موعداً بينك وبين فرختك. لكن، يجب أن تعطيني وعداً.

- كل ما تريدين. ما هو مشروعك؟

- لقد تأخر الوقت هذا النهار. تعال بعيد ثلاثة شهور أو نصف عام فنناقش الموضوع من جديد.

ركع شيمن على ركبتيه: "كفي عن المزاح، يا عرابتي. يجب أن تكرميني بهذا المعروف!".

ضحكت السيدة وانغ: "أنت عديم الصبر. أليس كذلك؟ لديّ خطة، وخطة جيدة، قد لا تكون مضمونة، ولكنها مؤكدة في حدود تسعين بالمائة. وسأشرحها لك: هذه الفتاة ابنة لأسرة ثرية في تشينغخه، وهي خياطة ماهرة. امض واشتر لي قطعة من القماش المقصب أبيض اللون، وقطعة من الحرير الأزرق، وقطعة من الشاش الأبيض، وعشر أوقيات من خيطان الحرير الجديدة، وأحضر هذه الأشياء إلى هنا. وسأذهب إلى منزل الفتاة وأشرب قدحاً من الشاي معها. وسأقول لها: "ثمة سيد لطيف أعطاني هذه الأشياء لأصنع منها ثياباً لدفني. هل تتكرمين بإرشادي إلى خياطة وأنت تعرفين يوم السعد الذي أستأجر فيه خياطة لصنعها؟ إن لم تعطني من جواب، فقد فشلنا. أما إذا أجابت: "سأصنع لك هذه الأثواب"، وطلبت إليَّ ألا أفتش عن خياطة، فعندها سنكون قد حققنا لأنفسنا نقطة من عشر نقاط. وسأدعوها إلى منزلي. فإن رفضت الحضور قائلة: "أحضري القماش إلى هنا". فقد فشلنا. أما إذا غمرتها الفرحة وأبدت موافقةً، فقد حققنا نقطة ثانية.

وحين تجيء في اليوم الأول، سأقدم لها قليلاً من الخمرة والمشهيات. وتبقى أنت بعيداً. وفي اليوم التالي، إذا لم تبد موافقتها على الرجوع إلى هنا، وطلبت أن تأخذ القماش إلى بيتها، فسنكون قد فشلنا. أما إذا أبدت رغبة في العودة من جديد، فقد ربحنا النقطة الثالثة. وتظلّ أنت بعيداً ذلك النهار أيضاً.

في حدود ظهيرة اليوم الثالث، أريدك أن تأتي، نظيفاً ووسيماً، وتقف خارج الباب وتسعل دلالة

على وصولك. وبعدها تنادي: "يا عرابتي، لماذا لم أرك طوال هذه الأيام؟" فأخرج إليك وأدعوك إلى الغرفة الخلفية. فإذا هربت إلى بيتها حين تراك، فلن يكون في طوقي منعها عن ذلك، ونكون قد فشلنا. أما إذا بقيت، فقد ربحنا النقطة الرابعة.

وتجلس أنت، وأخاطب أنا الفرخة قائلة: هذا هو المحسن الذي أهداني القماش. وأنا شاكرة له! وسأغدقنَّ عليك المديح، وتغدق أنت المديح على مهارتها في أعمال إبرتها. فإذا لم تعطك من جواب انتهى كل شيء، وإذا أجابت، فتلك دلالة على فوزنا في النقطة الخامسة.

وعندها أقول أنا: ما أسعدني بقبول هذهِ السيدة القيام بأعمال الخياطة من أجلي! وأنا شاكرة لكما معاً على إحسانكما إليَّ. أحدكما أعطى المال، والثاني قدّم مهارته. ما كان لهذه السيدة أن تحضر إلى بيتي لولا توسلي إليها. هلا ساعدتني، يا سيدي الأكثر احتراماً، فشكرتها نيابة عني؟ فتخرج أنت بعض القطع الفضية وتطلب إليَّ أن أبتاع شيئاً لها. إذا نفرت وذهبت فلن أقوى على الحيلولة دون ذلك، ونكون قد فشلنا. وإذا بقيت، فقد ربحنا النقطة السادسة.

أتوجه إلى الباب بالنقود، وأقول لها: أرجو أن تبقي برفقة هذا السيد المهذب فترة. فإذا نهضت وانصرفت، فليس هنالك ما نفعل إذاً، ونكون قد فشلنا. أما إذا بقيت، فهذا من دواعي انتصارنا. وستكون من نصيبنا النقطة السابعة.

حين أعود حاملة الأشياء التي اشتريتها، وأضعها على المنضدة، سأتوجه إليها قائلة: أقيمي فترة واشربي قدحاً من الخمرة. فليس في طوقنا أن نرفض ضيافة هذا السيد المهذب. فإن رفضت الشراب معك على منضدة واحدة وانصرفت، نكون قد فشلنا. أما إذا قالت إنها راغبة في الانصراف، ولم تنصرف، فتلك دلالة طيبة. والنقطة الثامنة في صالحنا.

وبعد أن تكثر من الشراب. وتشرع أنت في تبادل الحديث معها، سأقول إن الخمرة نفدت، وأطلب إليك أن تشتري قليلاً منها. فتطلب إليّ أن أفعل ذلك، وأتظاهر أنا بالذهاب، فأغلق الباب، وأترككما وحيدين. فإذا نهضت وهربت إلى بيتها نكون قد فشلنا. أما إذا لم تنقّ بعد إغلاقي الباب، فقد ربحنا النقطة التاسعة. وتبقى أمامنا نقطة واحدة لا غير.

هذهِ النقطة هي الأكثر صعوبة، يا سيدي الأكثر احتراماً. ينبغي أن تتوجه إليها بالحديث في عذوبة. إن أنت أتيت بحركة متهورة وتعجلت الأمور فلن يبقى في وسعي أن أعمل لصالحك. أسقط إحدى عصوي الطعام بمرفقك عن المنضدة. وانحن متظاهراً بالتقاطك لها، واقرص الفتاة في قدمها. إذا صرخت فسأهبُّ إلى نجدتك، وتكون قد فشلت، وربما إلى الأبد، أما إذا اعتصمت بالصمت، فستكون تلك النقطة العاشرة. وعندها، عندها، تكون قد خلصت إليك! كيف ترى خطتي هذه؟".

فاضت الفرحة في حنايا شيمن: "قد لا تبلغ هذه الخطة غرفة نجاحات الإمبراطور، ولكنها رائعة!".

- حذار أن تنسى عشر أوقياتي من الفضة!
- وهل ينسى المرء بحيرة دونغتينغ وهو يلتهم قشر يوسفنا المعطر؟ متى نبدأ؟
- سأحمل إليك الأنباء هذه الليلة. سأنده عليها اليوم قبل عودة وو الأكبر من جولته. اشتر

الحرير وأرسله إليَّ.

- أدي لي هذه الخدمة، يا عرابتي، ولن أخيِّب أملك!

ودعها شيمن إلى السوق، فاشترى القماش المقصب، والحرير، والشاش، وعشر أوقيات من خيوط الحرير الصافي، ونادى على أحد خدم منزله وأمره بتسليم هذه الأشياء إلى مشرب الشاي مع خمس قطع من الفضة.

تسلمت السيدة وانغ الحرير والنقود وصرفت الخادم. وغادرت منزلها من الباب الخلفي قاصدة منزل وو. ودعتها اللوتسة الذهبية إلى الصعود إلى الطابق الثاني وجلستا معاً.

سألت المرأة العجوز: "لم لا تحضرين إلى منزلي لاحتساء قدح من الشاي؟".

- كنت منحرفة الصحة هذه الأيام القليلة الماضية. ولم تكن لديَّ طاقة على الحركة.

- هل لديك تقويم ههنا؟ أريد اختيار يوم مناسب لاستئجار خياطة.

- ما هي الثياب التي تريدين حياكتها؟

- الأوجاع والأمراض تكالبت عليَّ في شيخوختي. فإذا أصابني مكروه، فأنا أود أن تكون ثياب دفني جاهزة. ومن حسن الحظ أن سيداً مهذباً أغدق عليَّ - وقد رأى ما أنا عليه - بعض الحرير الرائع والقماش المقصب الجميل. وقد احتفظت بها في منزلي منذ أكثر من سنة ولم أستطع خياطتها. وبدأت أشعر في الآونة الأخيرة أن أيامي صارت معدودة. وباعتبار أن هذه السنة كبيسة أردت أن أفيد من هذا الشهر الإضافي وأعمل على خياطتها. ولكن خياطي يستمهلني على الدوام مدعياً أن أعماله كثيرة، ولا يستطيع الحضور إلى منزلي. وهذا أمر رهيب!

ضحكت اللوتسة الذهبية: "قد لا تحبين عملي، ولكن يسرني أن أخيطها لك إذا شئت".

انتشرت البسمة في محيا المرأة العجوز: "إن أعملت يديك الماهرتين في قماشي فسأكون رابحة، ولو بعد موتي! لقد سمعت عن مهارتك في استعمال الإبرة، ولكن الجرأة لم تؤاتني لأتوجّه إليك بهذا الطلب".

- لم لا؟ قلت إني سأخيطها لك، سوف أقوم بذلك. يجب أن نجد من يختار لنا يوماً ميموناً من التقويم، وسأشرع في العمل من فوري.

- أنت نجمتي السعيدة! إذا كنت ستفعلين ذلك، فلسنا في حاجة إلى يوم خاص. أذكر الآن أني سألت أحد الأشخاص ذات يوم، فأخبرني أن نهار الغد سيكون يوماً ميموناً. وقد نسيت ذلك لأنك لست في حاجة إلى يوم ميمون لتفصيل القماش.

- كيف تقولين هذا؟ فأنت تخيطين الثياب للدفن.

- هذا رائع إذاً. والغداة موعدنا. سأتعبك بالحضور إلى منزلي المتواضع.

- لا ضرورة لذلك يا عرابتي، أحضري القماش إلى هنا.

- ولكنني أحب أن أنظر إليك وأنت تعملين. وفضلاً عن هذا، ليس هنالك من يرعى شؤون مشربي.

- حسن إذاً. سأحضر إليك بعد تناول طعام الفطور.

شكرت السيدة وانغ اللوتسة الذهبية بحرارة، وانصرفت. في تلك العشية أخبرت شيمن بما حدث، ونبّهت عليه بوجوب الحضور بعد الغداة.

لم يحدث شيء في تلك الليلة. في بكور اليوم التالي نظفت السيدة وانغ منزلها واشترت شيئاً من الخيوط، ووضعت غلاية الشاي، وقعدت تنتظر.

أنهى وو الأكبر فطوره، وأخذ حمالته وسلتي الكعك، وخرج إلى الشارع. شدت اللوتسة الذهبية ستارة الباب الأمامي، وانسرقت من الباب الخلفي إلى دار السيدة وانغ. حيتها العجوز في فرحة لا توصف، وقادتها إلى الحجرة الخلفية، وصبت لها قدحاً من الشاي الثقيل، ووضعت أمامها ثمر الصنوبر والجوز غير المقشور، ورجتها أن تأكل. ثم مسحت العجوز المنضدة، ووضعت الحرير فوقها. فقاست الفتاة الحرير، وقصت الأطوال المطلوبة، وشرعت بأعمال الخياطة.

صاحت المرأة العجوز منشدهة: "يا للبراعة! طوال الأعوام السبعين التي قضيتها في هذه الحياة لم تقع عيناي على مثل هذه البراعة في استخدام الإبرة".

استمرت اللوتسة الذهبية في عملها إلى وقت الظهيرة حين قدمت لها السيدة وانغ الخمر وبعض الأطعمة. وتابعت الفتاة بعد ذلك عملها إلى ما قبل حلول الظلام، وجمعت أدواتها ورجعت إلى البيت. كان وو الأكبر يهم بدخول البيت بحمالته وسلتيه الفارغتين. فتحت له الفتاة الباب وأرخت الستارة. ولحظت عيناه حين دخولها الغرفة ما أصاب وجه زوجته من تورُّد، فسأل: "أين كنت تتعاطين الشراب؟".

- سألتني السيدة وانغ، جارتنا، أن أخيط لها ثياباً للدفن. وقدمت لي بعض الأطعمة الخفيفة على الغداء.

- آه! ما كان ينبغي أن تتناولي شيئاً من طعامها. قد نحتاج إلى شيء منها ذات يوم. ارجعي إلى البيت في أوان الغداء. ولا تزعجيها. خذي شيئاً من النقود معك إن ذهبت إليها غداً من جديد، وقدمي لها قليلاً من الخمرة بالمقابل: "فالجار أولى بالمعروف، وهو مطلوب قبل الدار" كما يقول المثل. لا تتهاوني، فإذا رفضت دعوتك على الشراب اجمعي أدواتك وتابعي عملك في بيتنا.

أصغت الفتاة إليه. ولم يتحدثا في هذا الموضوع تلك الليلة.

أثمرت خطة السيدة وانغ في استدعاء اللوتسة الذهبية إلى منزلها. وفي الصباح التالي، بعيد الفطور، رحل وو الأكبر، فنادت المرأة العجوز على الفتاة، وهيأت لها أدوات الخياطة، فانصرفت الفتاة إلى العمل، وفي هذا الأثناء قدمت لها الشاي. ولن نطيل الحديث في هذا الموضوع.

حين اقترب أوان الظهيرة أعطت اللوتسة الذهبية المرأة العجوز مجموعة من النقود النحاسية قائلة: "لنشربنّ قليلاً من الخمرة معاً، يا عرابتي".

- أواه! من ترى سمع بمثل هذا الكلام؟ دعوتك إلى هنا لتأدية عمل لي. ولا أستطيع أن أسمح لك بإنفاق شيء من النقود!

- قال زوجي إنك إذا أصررت على الرفض، فينبغي أن أحمل أدواتي إلى البيت وأكمل لك عملك فيه.

عجلت المرأة العجوز قائلة: "وو الأكبر رجل كثير التهذيب. فإذا كان يريد هذا، فأعتقد أن من واجبي أن أقبل بما يريد".

لم تكن ترغب في أن يتخلخل ما هيأت له من أمور.

أضافت إلى المبلغ الذي قدمته لها الفتاة مبلغاً آخر من جيبها، واشترت شيئاً من أفضل أصناف الخمرة والطعام والفواكه، وقدمته إلى الفتاة، والقلق ينهشها. أعرنا انتباهك، أيها القارئ العزيز: فتسع نساء من كل عشر، مهما بلغن من الذكاء والحصافة، يمكن أن تخدعهن على الدوام المداهنات التافهة.

أكلت الفتاة وشربت، ودأبت على خياطتها فترة أطول. وحين شرعت الظلمة تنتشر رجعت إلى البيت بعد أن أمطرتها العجوز بشكرها.

لنختصرنَّ الحديث إذاً. ما إن لمحت السيدة وانغ وو الأكبر ينتهي من تناول الفطور في اليوم التالي حتى أسرعت إلى الباب الخلفي، ونادت: "أنا هنا أنده عليك من جديد...". فهبطت اللوتسة الذهبية عن السلم قائلة: "كنت في طريقي إليك الآن من فوري".

ذهبتا إلى غرفة العجوز الخلفية، وجلستا، وأخرجتا أدوات الخياطة، وبدأت الفتاة عملها. صبت السيدة وانغ الشاي، وشربتا معاً.

اقتربت الظهيرة، وكان شيمن قد ملَّ من الانتظار، فدنا من باب مشرب الشاي في شارع الحجر الأرجواني. وكان يضع على رأسه منديلاً جديداً، وارتدى ثياباً أنيقة، وحمل معه أربع أوقيات من الفضة أو خمساً.

سعل، وقال: "يا عرابتي، أين غبت عني طوال هذه الأيام؟".

رمت العجوز نظرة إلى الخارج: "من هذا الذي ينادي على عرابته؟".

- هذا أنا.

أسرعت السيدة وانغ إلى الخارج، وافترت شفتاها عن ابتسامة: "لم يخطر ذلك في بال. هذا أنت، أيها السيد الأكثر احتراماً. لقد وصلت في الوقت المناسب. أرجوك أن تدخل. أريد أن أريك شيئاً". وأمسكت به من كمه وشدته إلى الغرفة الخلفية، وخاطبت الفتاة قائلة: "هذا هو السيد المحترم الذي حدثتك عنه، وهو الذي أهدى إليَّ القماش".

حيا شيمن اللوتسة الذهبية في احترام. وسرعان ما وضعت عملها من يدها، وانحنت له.

قالت السيدة وانغ موجهة حديثها إلى شيمن: "خبأت الحرير الذي أعطيتني إياه طوال عام كامل ولكني لم أتمكن من خياطته. ومن حسن سعدي أن هذه السيدة تخيطه لي الآن. وهي تعمل أفضل من أي آلة للحياكة، كما أنها ماهرة وتتقن عملها! يا لبراعتها الرائعة! انظر بنفسك، يا سيدي الأكثر احتراماً!".

حمل شيمن الثوب الذي لم ينته بعد، وحدَّق فيه مشدوهاً: "رائع! عمل جميل!".

ابتسمت الفتاة: "السيد يسخر مني".

قال شيمن: "يا عرابتي، هل أستطيع أن أستفسر عن شيء؟ زوجة من تكون هذه السيدة؟".

- خمِّن.
- كيف أستطيع هذا؟
ضحكت السيدة وانغ: "إنها متزوجة من وو الأكبر، جارنا. هل آذى القضيب رأسك ذلك النهار؟ لقد نسيت".
توردت وجنتا اللوتسة الذهبية: "لقد أفلت من يدي! أرجو ألا يحقد عليَّ السيد المهذب".
أوضح شيمن: "أبداً من دون ريب".
واسترسلت السيدة وانغ: "السيد الأكثر احتراماً أنيس ودود. وهو لا يحمل في قلبه ضغينة ضد أحد. إنه رجل ودود حقاً".
قال شيمن: "نحن لم نلتق قبل ذلكِ النهار. إذاً، هي زوجة وو الأكبر. أنا أعرفه. إنه رجل كفؤ. وهو يقوم بعمله في الشارع ولا يغضب أحداً، كبيراً كان أم صغيراً. وهو يتكسب المال وطيّع الخلق. إنه رجل لا نظير له".
صاحت السيدة وانغ: "هذا وو الأكبر. وهذه السيدة من أخلص الزوجات وأكثرهن طاعة".
قالت اللوتسة الذهبية: "إنه شخص لا رجاء فيه. وأنت تضحك عليَّ يا سيدي".
احتجَّ شيمن قائلاً: "أبداً، يا سيدتي. قال الأقدمون: الشخص المرن يعلو في هذه الحياة، أما الشخص القاسي فتركبه الكوارث. ورجل مثل وو الأكبر لا يضيع قطرة من ماء بين عشرة آلاف طن منه".
هتفت المرأة العجوز، غامزة لامزة: "هذا صحيح".
جلس شيمن قبالة الفتاة، وهو لا يبرح يغمغم متملقاً.
سألت السيدة وانغ: "أتعرفين من يكون هذا السيد المهذب؟".
- لا!
- إنه واحد من أثرى الرجال في المقاطعة، وصديق للقاضي. يسمونه شيمن الأكثر احتراماً. إنه فاحش الثراء. يملك مخزناً لبيع الأدوية قبالة مكتب المقاطعة. وأمواله تغرق الدب الأكبر. والأرز يتعفن في أهرائه. وكل ما لديه من أصفر فهو ذهب، وما لديه من أبيض هو فضة، وما هو مدور لآلئ، وما يلتمع جواهر. وله قرنا وحيد قرن وخرطوم فيل...
واستفاضت السيدة وانغ في إسباغ المديح على شيمن. أصغت الفتاة، وقد حنت رأسها فوق عملها وأطال شيمن النظر إليها منفعلاً رغبة. فما عاد يستطيع انتظاراً. صبت العجوز الشاي، ووضعت قدحاً أمام كل منهما.
التفتت العجوز إلى اللوتسة الذهبية: "اشربي قليلاً من الشاي مع السيد المهذب".
استبانت في نظرات الفتاة لمسة من استفزاز. وتطلعت السيدة وانغ إلى شيمن بنظرة لها مغزاها، ولمست وجهها بأصابعها الخمس. استوعب ما قصدت إليه. لقد ربحا نصف المعركة.
قالت السيدة وانغ تخاطبه: "لو لم تجئ لما جرؤت على الذهاب إليك ودعوتك. ولكن القدر شاء أن يجمعكما معاً في مصادفة سعيدة. ورغم أن شخصاً واحداً لا يمكن أن يستغل نصيرين معاً

كما يقول المثل، فأنت أنفقت نقوداً، يا سيدي الأكثر احتراماً، وهذه السيدة تساعدني بمهارة يديها. أكره أن أزعجك أكثر مما فعلت حتى الآن. لكن، ألا يطوف في بالك أنه يمكن أن نقدم لهذه السيدة شيئاً، طالما أنها كانت على ما يكفي من الدماثة فحضرت إلى منزلي تعمل فيه لصالحي؟".

- وهل أستطيع أن أتباطأ في هذا الأمر! إليك بعض النقود!

أخرج من جيبه بعض القطع النقدية وأعطاها إلى العجوز وهي ملفوفة في منديل.

قالت الفتاة: "لا يمكن أن أسمح بهذا". ولكنها لم تتحرك من مقعدها.

أخذت العجوز النقود واتجهت إلى الباب قائلة: "هلا بقيت برفقة هذا السيد المهذب ريثما أعود".

قالت الفتاة من دون أن تتحرك عن مقعدها: "لا ينبغي أن تتعبي نفسك، يا عرابتي".

انجذب شيمن واللوتسة الذهبية إلى بعضهما. فجعل يحملق فيها علانية. وراحت هي تنظر إليه من تحت أهدابها، فخطر لها أنه رجل وسيم، وأن شوقه إليها يعصف في فؤاده. ولكنها أبقت رأسها منحنياً على عملها.

رجعت السيدة وانغ بعد برهة وجيزة تحمل إوزة مطبوخة، ولحماً مقلياً، ومشهيات لذيذة. وضعت هذه الأشياء في أطباق على منضدة. وقالت للفتاة: "ضعي عملك جانباً، واشربي كأساً من الخمرة".

قالت اللوتسة الذهبية: "اشربي أنت، يا عرابتي. لا يليق بي أن أشاركه الشراب". ولكنها لم تنهض عن كرسيها.

- نحن نفعل ذلك عربوناً لشكري، وخاصة شكرك أنت. فكيف تقولين هذا الكلام؟

مدت الأطباق على المنضدة. فجلس الثلاثة إليها، وصبت العجوز خمرة. ورفع شيمن كأسه، ووجه كلامه إلى اللوتسة الذهبية: "اشربي من فضلك، يا سيدتي".

فابتسمت: "شكراً لك، يا سيدي".

قالت العجوز تخاطبها: "أعرف أن لك قدرة حقيقية في شرب الخمر، فاشربي كما تشائين".

والتقط شيمن عصوي الطعام: "يا عرابتي، أرجو أن تخدمي هذه السيدة نيابة عني".

انتقت العجوز بعض القطع ووضعتها في طبق اللوتسة الذهبية. وصبت ثلاث كؤوس من الخمرة على التوالي، وخرجت تدفئ مزيداً من الشراب.

قال شيمن للفتاة: "أيمكن أن أسأل عن عمرك؟".

- عمري ثلاث وعشرون.

- أنت تصغرينني بخمس سنوات.

قالت الفتاة في أدب: "أنت تقارن الأرض بالسموات، يا سيدي".

رجعت السيدة وانغ إلى الغرفة، وهتفت: "هذه الفتاة لا حدود لذكائها. فهي، فضلاً عن أنها خياطة ماهرة، قرأت جميع الأعمال الكلاسيكية".

قال شيمن: "أين يمكن العثور على مثل هذه الفتاة في هذه الأيام؟ لا ريبة أن وو الأكبر رجل

محظوظ".

قالت السيدة وانغ: "لا ينبغي أن تظن أني أحرض على شيء، لكنك لن تجد بين جميع النسوة في بيتك من يمكن مقارنتها بها".

- هذا صحيح حقاً. لا أستطيع الاعتراف بما ألاقيه في ذلك من عنت. ويخال لي أنني ولدت تعيسا. فأنا لم أتمكن من العثور على امرأة طيبة حقا.

- ليس هنالك ما تشكو منه من امرأتك الأولى.

- في مقدورك أن تقولي هذا مرة أخرى. لو كانت في قيد الحياة، لكان بيتي الآن في أحسن حال. والنساء اللواتي عندي لسن أكثر من أفواه تنتظر الطعام. ولا يهتممن بشيء آخر.

سألت الفتاة: "منذ متى توفيت زوجتك، يا سيدي؟".

- إنها قصة حزينة. وعلى الرغم من انحدارها من أسرة فقيرة، فقد كانت ماهرة ماهرة. كانت تقوم بجميع الأعمال، وتوفيت منذ ثلاث سنوات. ومنزلي الآن في فوضى عارمة. وهذا ما يجعلني أقضي جل أوقاتي خارجاً. أشعر بالغضب يتأكلني حين يضمني البيت بين جدرانه.

قالت السيدة وانغ: "أعتذر أن أكون صريحة معك؟ لم تكن زوجتك الأولى على شيء من المهارة في عمل الإبرة مثل هذه السيدة هنا".

- ولم يكن لها جمالها أيضاً.

ضحكت السيدة وانغ: "لماذا لم تدعني لتناول الشاي في البيت الذي تملكه في الشارع الشرقي؟".

- أتقصدين حيث تقيم تشانغ شي شي، المغنية؟ إنها مجرد مطربة. ولا أبالي بها كثيراً.

- وقد أقامت لديك لي جياو فترة من زمن.

- أجل. وأنا أسكنها في بيتي. لو كانت مثل هذه السيدة هنا، لجعلت منها زوجة لي منذ زمن بعيد.

- إذا عثرت على مثل هذه الفتاة فهل يضايقك أن تضمها إلى الأسرة؟

- لقد توفي ولداي، وأنا الآمر الناهي. فمن يجرؤ على الاعتراض؟

- كنت أمزح. القضية أنه ليست هنالك فتاة تروق في عينيك.

- من يقول هذا؟ القضية أن زواجي لم يكن مجدوداً، وأنني لم ألتق الفتاة المناسبة.

استرسل شيمن والعجوز في مثل هذا الحديث إلى أن قالت السيدة وانغ: "أخشى أن تكون الخمرة قد نفدت. فهل أطلب إليك شراء زجاجة أخرى؟".

- ثمة خمس قطع من الفضة في محفظتي. في مقدورك أخذها جميعاً. أنفقي منها ما تشائين واحتفظي بالبقية.

شكرته السيدة وانغ ونهضت، وهي ترمق اللوتسة الذهبية بطرف عينها. كان ما نهلته الفتاة من شراب قد حرَّك عواطفها. فشرعت تخاطب الشاب في انطلاق، وانفعلت عواطفها. وأبقت اللوتسة الذهبية رأسها خفيضاً، ولكنها لم تنصرف. فخاطبتها السيدة وانغ باسمة: "سأذهب لابتياع زجاجة

أخرى. أرجو أن تجالسي هذا السيد الأكثر احتراماً. ثمة قليل من الخمرة في وعاء التدفئة. في مقدور كل منكما احتساء قدح. سأذهب إلى ذلك المخزن المقابل لمكتب المقاطعة للحصول على خمرة جيدة، ولن أعود قبل فترة من الزمن".

همهمت الفتاة: "ليس هناك ما يدعو إلى الذهاب إلى هنالك". ولكنها بقيت في مقعدها.

خرجت السيدة وانغ، وأغلقت باب الغرفة الخلفية وقفلته، وقعدت تخفره.

صب شيمن الخمرة للوتسة الذهبية. ودفع بكمه العريض عصوي الطعام عن المنضدة إلى الأرض. وكان القدر في جانب نزوته العاشقة، فسقطتا بجانب قدمي الفتاة. انحنى كمن يود التقاطهما وقرص حذاءها المصنوع من الساتان المطرز.

فضحكت اللوتسة الذهبية: "يا سيدي، لا يجب أن تفعل ما فعلت! أتحاول إغوائي؟".

ركع شيمن أمامها: "يقتلني الشوق إليك".

أنهضته وألقت بنفسها بين ذراعيه. وسرعان ما خلع الاثنان ثيابهما في غرفة السيدة وانغ. واستلقيا في فراش واحد واغتبقا المتعة.

بعدما ارتويا من اللذة، وشرعا في ارتداء ثيابهما، دفعت السيدة وانغ الباب ودخلت. ورسمت على ملامحها سيماء الغضب، وصاحت ملقية الذعر في فؤادي العاشقين: "يا للخدعة الحلوة التي خدعتماني بها! يا للأمر الرائع!".

وخاطبت الفتاة بقولها: "رجوتك أن تخيطي لي أثوابي، لا أن تقومي بألعاب الهيام! إذا اكتشف وو الأكبر ما حصل فسوف ينهال عليَّ تقريعاً! يحسن بي أن أسرع أولاً فأنفض له جلية الخبر!".

ويممت شطر الباب. فأمسكت بها الفتاة من ثوبها: "يا عرابتي، أنقذيني!".

وترجى شيمن: "لا ترفعي صوتك، يا عرابتي".

ضحكت السيدة وانغ:

- سأنقذكما معاً بشرط واحد.

قالت اللوتسة الذهبية:

- شرط أو دستة شروط. أعدك بكل شيء!

- من الآن فصاعداً تخادعين وو الأكبر وتمتعين السيد الأكثر احتراماً كل يوم من دون تأخير، هذا شرطي. وإذا قصرت يوماً واحداً أخبر زوجك بالأمر!

- لك ما تشائين، يا عرابتي.

- وأنت، أيها السيد الأكثر احتراماً، أنت تعرف ما أريد. لقد نجحت القضية نجاحاً كاملاً. فلا تنس وعدك. إذا نسيت فسأخبر وو الأكبر!

- لا تخشي شيئاً، يا عرابتي، لن أنسى!

شرب الثلاثة الخمرة إلى ما بعد الظهيرة. ونهضت اللوتسة الذهبية: "سيرجع زوجي بعد قليل. يجب أن أنصرف".

رجعت من الباب الخلفي، وشرعت تنزل الستارة على الباب الأمامي حين رجع وو.

في هذه البرهة كانت السيدة وانغ تخاطب شيمن بقولها: "حسن، ما رأيك في خطتي؟".
- رائعة! سأرسل إليك سبيكة فضية حالما أصل إلى البيت. ستنالين كل ما وعدتك به!
- عيناي تترقبان المكافأة الملوكية، وأذناي تتنصتان إلى أصداء المد الزاخر، فلا تخيّب ظنوني! لست أريد أن أكون نواحة تطلب أجرها بعد الدفن!
ضحك شيمن وانصرف. ونتوقف عن الحديث هنا.
منذ ذلك الحين واللوتسة الذهبية تنسرق إلى دارة السيدة وانغ يومياً للقائه. فاض غرامهما فغدَوَا "قريبين مثل اللك، كثيفين مثل الغراء". أو كما يقول المثل: "الأخبار الطيبة لا تتجاوز عتبة الباب، أما الأخبار السيئة فتصل إلى مسافة ألف لي". وفي أقل من نصف شهر كان الجيران جميعاً قد عرفوا بالقصة. وحده الزوج بقي جاهلاً كل شيء.
كان هنالك صبي في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره في البلدة عائلته تدعى تشياو. ولما كان مخدوماً لرجل عسكري في ولاية يونتشو فقد خلعوا عليه لقب يون قه. ولم يكن قد بقي من أسرته كلها سوى والده العجوز. ولما كان فتى أريباً فقد كان يتعيّش من بيع الفواكه الناضجة في مختلف الحانات القريبة من مكتب المقاطعة. وكان شيمن ينفحه بقليل من المال بين وقت وآخر.
وذات يوم، حمل سلته، وفيها إجاص ناصع، وراح يطوف في الشوارع بحثاً عن شيمن.
قال له شخص مهذار: "أعرف مكاناً تجده فيه".
- أرجو أن تخبرني، يا عماه. ففي مقدوري الحصول على أربعين أو خمسين قطعة نحاسية منه. أريدها من أجل والدي العجوز.
- إنه يتسلى وزوجة وو الأكبر، بائع الكعك المحلّي. وهو يلتقيها كل يوم في مشرب شاي السيدة وانغ في شارع الحجر الأرجواني. قد تعثر عليه هنالك. أنت صغير بعد، فاذهب إليه هناك.
شكر يون قه الرجل، وذهب بسلته إلى شارع الحجر الأرجواني، ودخل مشرب الشاي. كانت السيدة وانغ تجلس على مقعد صغير مدور تفتل خيطاً من القش. وضع الصبي سلته وألقى التحية عليها: "احتراماتي، يا عرابتي".
- ماذا تبغي، يا يون قه؟
- أفتش عن السيد الأكثر احتراماً. في مقدوري أن أحصل منه على أربعين أو خمسين قطعة فضية من أجل والدي العجوز.
- أي سيد أكثر احتراماً؟
- أنت تعرفين من أقصد، يا عرابتي. وحده أعني.
- على الرغم من أنه أكثر احتراماً، فلا بد أن له اسماً.
- اسم عائلته مؤلف من مقطعين.
- ما هما المقطعان؟
- هل تمزحين؟ شيمن الأكثر احتراماً. يجب أن أتحدث إليه.
واتجه الصبي إلى مؤخر المخزن، فقبضت السيدة وانغ عليه: "إلى أين أنت ذاهب، أيها

المغرور الصغير؟ هنالك أماكن خصوصية جداً في بيت المرء".

- أريد أن أناديه لبرهة وجيزة.

- أيها المزّاح الخبيث! من يقول إن السيد الأكثر احتراماً شيمن موجود هناك؟

- لا تأخذي أكثر من نصيبك منه. دعيني ألعق قطرة من العصير أنا الآخر، أتحسبين أني لا أعرف؟

- أيها السعدان الصغير! ماذا تعرف؟

- تبخلين كمن يقطع الخضار بسكين مثلومة الحد في ملعقة خشبية، أليس كذلك؟ لا تريدين أن تخسري قطرة واحدة. حسن، يكفي أن أفتح فمي وحسب، وعندها قد يفقد بائع الكعك صبره!

أدركت العجوز أنها لن تجاريه، فغضبت: "أيها الوغد الصغير! كيف تجرؤ على المجيء إلى هنا بأخاديعك وهريرك!؟".

- وغد صغير أفضل من قوادة عجوز في كل حين!

أمسكت السيدة وانغ به، وضربته على رأسه ضربتين.

صرخ الصبي: "فيم تضربينني؟".

- أيها السعدان اللص! إن لم تخفض صوتك فسأطوّحن بك من هنا!

أمسكت السيدة وانغ بالصبي من مؤخر عنقه بيدها، وضربت رأسه بالأخرى، وهي تدفعه عبر الباب. وألقت بالسلة وراءه، فتناثر الإجاص في أرجاء الشارع.

لم يكن الصبي نداً لها. فلعنها باكياً، والتقط الإجاص عن الأرض. وأشار إلى مشربها غاضباً: "رويدك قليلاً، أيتها القوادة العجوز، لسوف أخبره! سترين أنني أفعل ذلك! وأسرع يفتش عنه، وسلته في يده.

بسبب ما حدث أعلاه انصبت الويلات من دون حساب. ونتيجة لذلك، تبعثر العشب في عرين الثعالب والأرانب، وأجفل البط الغافي على الرمل من نومه.

عمن كان يفتش ذلك الصبي؟

إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الخامس والعشرون

السيدة وانغ تحرِّض شيمن تشينغ؛
والمرأة الزانية تدسُّ السمَّ لوو الأكبر

انطلق الصبيُّ الحزين، وسلته في يده، يفتش عن وو الأكبر. طاف عدة شوارع، والتقى الرجل القصير الذي كان يتجه ناحيته حاملاً سلتي الكعك. فوقف وقال: "لم أرك منذ أيام عديدة! ما الذي كنت تأكله فجعلك سميناً على هذا الغرار!".

وضع وو حمله على الأرض: "أنا ما أنا عليه. ما الذي يجعلني أبدو سميناً؟".

- حاولت أن أشتري قليلاً من النخالة ذلك اليوم، فما وجدت في أي مكان، والجميع يقولون إن لديك شيئاً منها في البيت.

- أنا لا أربي الإوز أو البط. فماذا أفعل بالنخالة؟

- ما الذي جعلك محشواً إذاً على هذا الغرار؟ حتى إنك لا تطلق بخاراً ولو قيدوك من عقبيك وطبخوك في قدر؟

- تسخر مني، أليس كذلك، أيها الوغد الصغير! امرأتي لا تنام مع رجال آخرين. وأنت تسميني ديوثاً؟

- هي لا تنام مع رجال آخرين، ولكنها تنام مع رجل آخر!

فأمسك وو الأكبر بالصبي: "من هو؟".

ضحك يون قه: "لا تفعل أكثر من الإمساك بي. لكن، هل لك الجرأة على عضه من أنفه؟".

- أخبرني من هو، يا أخي الصغير، أعطك عشر كعكات ساخنة!

- لست أريد كعكك. لكن، إذا دعوتني إلى ثلاث كؤوس من الخمرة أطلقت عقال لساني.

- إذا كنت تريد شراباً، فهيا بنا.

التقط وو حمالة كتفه وقاد الصبي إلى حانة. وضع حمله، وتناول بعض الكعك. وطلب كمية من اللحم ومقداراً قليلاً من الخمرة وضعها جميعاً أمام يون قه.

قال الصبي: "هذه الخمرة تكفي. ولكنني سآكل بعض الشرائح الأخرى من اللحم".

- أخبرني عن تلك القصة، يا أخي الصغير!

- حافظ على هدوء أعصابك. سأخبرك حالما أنتهي من تناول الطعام. لا تستعجل الأمور. سأساعدك في القبض عليه.

راقب وو الصبي يلتهم اللحم ويحتسي الخمرة. وألحَّ قائلاً: "هل ستخبرني الآن؟".

- تحسس هذه الكدمات في رأسي، إن كنت تريد أن تعرف!

- من أين جاءتك هذه الكدمات؟

- ذهبت هذا النهار أفتش عن شيمن تشينغ ومعي سلة من الإجاص الناصع، وفي مرامي الحصول على بعض النقود منه، فما وجدت له أثراً في مكان. وعندها قال لي أحد الفتيان في الشارع: "إنه يستمتع مع زوجة وو في مشرب شاي السيدة وانغ. فهو يذهب إلى هنالك كل نهار". كنت أترجّى أن أحصل على أربعين أو خمسين قطعة نحاسية، ولكن تلك الكلبة وانغ لم تسمح لي بالدخول إليه ورؤيته! وانهالت على رأسي ضرباً وألقت بي خارجاً. وهذا ما دفعني إلى الحضور باحثاً عنك. وما قلته لدى لقائنا كان لمجرد إثارة جنونك. ولو لم أفعل ذلك ما سألتني عنه.

- أيمكن أن يكون ذلك صحيحاً؟

- هذا أنت تبدأ من جديد! يا للفطيرة الحقيقية! ذانك الاثنان يلهوان معاً. فما إن تبرح الدار حتى يتم اللقاء بينهما في دارة السيدة وانغ. وأنت تسأل إن كان ذلك صحيحاً أم لا!

- أصارحك، يا أخي الصغير، فأقول إنني بدأت أرتاب مؤخراً، فهي تذهب إلى منزل السيدة وانغ للخياطة كل يوم، وحين تؤوب يكون وجهها مورداً. هذا هو الأمر إذاً! سأضع حمالتي وسلتي جانباً وأذهب وأقبض عليها بالجرم المشهود. ما رأيك؟

- أين دماغك؟ أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك وحدك. فالسيدة وانغ فظة وكلبة عجوز. ولا تستطيع خداعها. لا بدَّ أن هنالك إشارة خاصة بينهم. فسيخبئان زوجتك في مكان ما حالما يلمحانك قادماً. شيمن تشينغ ذاك شيطان مريد، وفي مقدوره التغلب على عشرين من أمثالك. لن تستطيع القبض على زوجتك، وسوف ينهال عليك ضرباً. وهو غني وذو نفوذ. وقد يقدّم شكوى بحقك، ويقاضيك في المحكمة. وأنت من دون سند قوي يدعمك. وسوف يقضي عليك!

- صحيح كل ما تقول، يا أخي الصغير. كيف أستطيع التغلب عليهم؟

- تلك الكلبة العجوز لطمتني. وأريد أن أرد لها اللطمة أيضاً. إليك ما ينبغي أن تعمل. حين تذهب إلى بيتك هذه الليلة، لا ينفجرنَّ غيظك، بل تصرف كمن يجهل الأمر تماماً، مثلك في أي يوم آخر. وغداً جهّز كمية أقل من الكعك. وسأنتظرك في نهاية شارع الحجر الأرجواني. فإذا دلف شيمن إلى هناك أنادي عليك، فتتبعني حاملاً سلتيك، وتنتظر في الجوار. سأذهب وأثير حنق الكلبة العجوز، ولا بدَّ أنها ستنقضُّ عليَّ، فأدفع سلتي عبر الشارع. وهي إشارة لك لاقتحام المكان. سأضرب الكلبة العجوز برأسي وأمنعها عن الحركة. وتنقض أنت على الغرفة الخلفية وتبدأ بالصياح معلناً أنهم خدعوك... ما رأيك في هذه الفكرة؟

- حسناً! سننفذها! ولكن الأمر سيصعب عليك، يا أخي الصغير. إليك هذه النقود اشتر لنفسك بها أرزاً. انتظرني صباح غد في مدخل شارع الحجر الأرجواني.

قبض الصبي النقود، وبعض الكعك المحلّى، وانصرف. ودفع وو الحساب، وتنكب حمالة كتفه وخرج ينادي على بضاعته.

كانت اللوتسة الذهبية عادة تنهال على زوجها قرعاً وتوبيخاً بألف أسلوب. وكانت تدرك أنها غير محقة في ذلك، فجعلت في الفترة الأخيرة تعامله على صورة أفضل. وحين رجع إلى البيت تلك

العشية كان تصرفه على مألوف العادة وحديثه مثله دائماً.
سألته: "هل كنت تتعاطى الشراب؟".
- شربت عدداً من الكؤوس مع بائع آخر.
وضعت اللوتسة الذهبية الطعام على المائدة، فأكلا. ولم يقع في تلك الليلة شيء خاص.
في صباح اليوم التالي بغيد الفطور جهز وو صينيتين أو ثلاثاً من الكعك وضعها في سلتيه. كانت أفكار الفتاة منشغلة بشيمن فلم تلتفت إلى تصرفات زوجها. ألقى وو حمالته على كتفه وخرج. ولم يكد يغادر الباب حتى أعجلت اللوتسة الذهبية خطواتها إلى منزل السيدة وانغ في انتظار قدوم شيمن.
حين وصل وو إلى مدخل شارع الحجر الأرجواني وجد يون قه ينتظره حاملاً سلته.
سأل وو: "ماذا يحدث؟".
قال الصبي: "ما زال الوقت باكراً. بع شيئاً من الكعك فترة من زمن. لا ريبة أنه سيأتي. فلا تبتعد كثيراً".
ذهب وو ورجع سريعاً مثل سحابة مزوبعة.
ذكَّره الصبي: "راقب سلتي! حين أطوِّح بها أنا تهاجم أنت".
وضع وو حمالته وسلتيه في مكان أمين. ولن نطيل الحديث في هذا الموضوع.
سنتحدث بالأحرى عن يون قه، وكيف دخل بسلته مشرب الشاي.
صاح: "أيتها الكلبة العجوز. بأي حق ضربتني البارحة؟".
كانت السيدة وانغ تغلي غضباً. وثبت على قدميها، وصرخت: "ليس هنالك شيء بيننا، أيها السعدان الصغير! فكيف تأتي وتشتمني من جديد؟".
- أنت قوادة، وكلبة عجوز تدير ماخوراً!
انفعلت السيدة وانغ غضبا، فقبضت على يون قه ولكمته.
صرخ ناعباً: "تضربينني!". قذف سلته إلى الشارع، ولفَّ ذراعيه حول وسطها ونطحها في بطنها. تراجعت إلى الوراء في جهد إلى أن اقتربت من الجدار، والوغد الصغير يضربها برأسه في بطنها.
رفع وو مقدمة عباءته وأسرع يخطو ناحية مشرب الشاي. حاولت السيدة وانغ جهدها أن تمنعه من الدخول، ولكن الصبي يمسك بها مثبتة إلى الجدار بقوة.
صرخت في صوت عال: "وو الأكبر هنا!".
فقدت اللوتسة الذهبية في الغرفة الخلفية صوابها، فركضت واستندت بقوة إلى الجدار. وغطس شيمن تحت السرير. وحاول وو أن يدفع الباب ويفتحه، ولكنه فشل.
صاح: "أعمال رائعة!".
وقفت الفتاة، مخبولة ذاهلة، تضغط الباب بجسدها. نفثت في وجه شيمن: "كنت على الدوام تطلق فمك قائلاً إنك مقاتل شجاع، وفي حين الضرورة تغدو من دون جدوى! نمر من ورق يريق

الرعب في قلبك!".

تلك كانت لمزة تومئ من خلالها إلى شيمن أن يضرب وو ويهرب. فزحف ذلك السيد المهذب الساكن من تحت السرير وقد استحثته هذه الكلمات، وفتح الباب، وصاح: "لا تقاتل!".

حاول وو أن يقبض عليه، ولكن شيمن رفس بقدمه اليمنى وأمسك بالرجل القصير من منتصف صدره، وألقى به على ظهره. وأطلق ساقيه للريح. ولما رأى يون قه أن الأمور جرت خطأ دفع المرأة العجوز جانباً وهرب هو الآخر. كان الرجال يعرفون فظاظة شيمن، فلم يتدخل أحد منهم في الموضوع.

أنهضت السيدة وانغ وو الأكبر على الأرض. كان الدم يتدفق من فمه، وقد اصفرَّ جلده فصار أشبه بلون الشمع. نادت على اللوتسة الذهبية. فخرجت الزوجة من الغرفة الخلفية وملأت قصعة بالماء حملتها إليها. وساعدت المرأتان وو من تحت ذراعيه، ودلفتا به من الباب الخلفي، وصعدتا سلم داره حيث أضجعتاه في سريره. ولم يحدث في تلك الليلة شيء آخر.

استفسر شيمن في صباح اليوم التالي فعرف أن الموضوع لم يثر أي صدىً، فالتقى اللوتسة الذهبية من جديد. كانا يأملان أن يموت الزوج. وبقي وو مريضاً خسمة أيام لم يغادر خلالها فراشه. وحين يطلب ماء أو حساء ترفض حملهما إليه. وحين ينادي عليها ترفض أن ترد على النداء. ودأبت على التغندر يومياً والخروج من البيت، فلا تعود إليه إلا وقد تورَّدت وجنتاها. وكان زوجها يغيب عن الوعي من حموَّة غضبه عدة مرات، من دون أن تعيره التفاتا.

ناداها إليه وقال: "أعرف ما يدور في خلدك. فقد قبضت عليكما معاً. وقد حثثت عشيقك على أن يرفسني في صدري، وغدوت ميتاً أكثر مني حياً، ومع هذا فما برحتما مستمرين في لعبتكما! قد أموت، ولست نداً لكما. لكن، لا تنسيا شقيقي وو سونغ! أنت تعرفينه حق المعرفة! وسوف يعود عاجلاً أم آجلاً. فهل تحسبينه يتركك تفلتين من العقاب؟ ارحميني. سادعيني على الشفاء بسرعة، وحين يؤوب إلى البيت لن أقول له شيئاً. وإن لم تعامليني بصورة حسنة فلسوف يكون لديه ما يخبركما به، أنتما الاثنان".

لم تعطه اللوتسة الذهبية جواباً، بل ذهبت إلى بيت الجارة وأخبرت السيدة وانغ كما أخبرت شيمن بما قال زوجها. شعر شيمن بالبرودة تسري في دمه. فزمجر: "المفوض وو هو الرجل الذي قتل النمر على سلسلة جبال جينغيانغ. وهو المقاتل الأعظم جرأة في مقاطعة تشينغخه! دأبنا على القيام بهذا العمل فترة من الوقت، وكنا عظيمين بالجسد وبالروح. وقد نسيت كل شيء عن شقيق زوجك! ماذا سنفعل؟ إننا في ورطة رهيبة!".

ضحكت السيدة وانغ في برودة: "أبداً لم أر لك مثيلاً. أنت قائد الدفة، وأنا مجرد راكبة عابرة، ولكنني لا أعرف شيئاً من القلق في حين ترتعش خوفاً!".

- رغم أن حديثي في هذا الأمر يلحق بي العار، ولكنني لا أعرف كيف أتعامل مع مثل هذا النوع من الرجال. ألديك فكرة ننقذ بها نفسينا؟

- أتريدان أن يطول زمن غرامكما أم يقصر؟

- ماذا تقصدين؟

- إن قنعتما بأن يكون زمن غرامكما قصيراً، فانفصلا من اليوم. وحين يسترد وو عافيته اعتذرا منه. ولن يقال شيء بعد عودة وو سونغ. وحين يرسلونه مرة أخرى في مهمة جديدة تستطيعان اللقاء من جديد. أما إذا رغبتما أن يكون زمن غرامكما طويلاً، ولا تخشيان شيئاً أو تخافان أحداً كل يوم، فإن لديَّ خطة ناجحة. وطبيعي أنكما لن تكونا قادرين على تنفيذها.

- أنقذينا، يا عرابتنا! نريد أن يطول زمن غرامنا!

- الشيء الذي نحتاجه في هذه الخطة لا يتوفر في البيوت الأخرى. أما بيتك، وشكراً لله، فيتوفر فيه حقاً.

- إن طلبت عينيَّ فسأنتزعهما لك! ما هو هذا الشيء؟

- ذلك النذل اشتدَّ المرض عليه. لننتهزنّ هذه الفرصة ونقضينَّ عليه. جئ بقليل من السم من مخزنك، وابعث هذه السيدة تشتري دواء لمرض القلب، واخلط الاثنين معاً، وأنهِ حياة القزم. وفي مقدورها أن تطلب إحراق الجثة، وهكذا لن يبقى هنالك من أثر. وحين يعود وو سونغ، فماذا في طوقه أن يفعل؟ أنت تعرف المثل القديم القائل: "على شقيق الزوج وشقيقة الزوجة أن يبقيا بعيدين عن بعضهما"، و"الأبوان يختاران الزوج الأول، والأرامل ينتقين الزوج الثاني". وشقيق الزوج لا يستطيع أن يتدخل في الأمر. وتستمران على اللقاء سراً طوال نصف عام أو أكثر إلى أن تنتهي فترة الحداد، وعندها تتزوج منها. وهكذا يطول زمن غرامكما، وتسعدان حتى نهاية عمريكما. ما رأيكما بخطتي هذه؟".

- هذه جريمة مرعبة، يا عرابتي! لا تبالي، سننفذها! إما أن أحصل على كل شيء أو لا شيء على الإطلاق!

- حسن. اقلع الزهرة من جذورها ولن تنمو مرة أخرى. اترك شيئاً من جذورها فتبرعم من جديد متى أطلَّ الربيع. أحضر السم فوراً، أيها السيد الأكثر احتراماً، وسأخبر السيدة كيف تستخدمه. وعندما ينتهي كل شيء يجب أن تكافئني جيداً.

- من دون ريب! هذا أمر لا ريبة فيه!

لم يطل الزمن. عاد شيمن يحمل السم وأعطاه إلى السيدة وانغ. ونظرت المرأة العجوز إلى اللوتسة الذهبية: "سأعلمك كيف تخلطينه بالدواء. أفلم يسألك وو أن تعامليه بصورة أفضل؟ عامليه في شيء من الرقة. سيطلب إليك أن تشتري له دواء لقلبه. فضعي هذا السمَّ فيه. وحين يستيقظ في الليل صبي هذا الخليط في حنجرته، ثم اخرجي. وحين يبدأ السم يفعل فعله فيه فسوف يهرئ أحشاءه فيصيح ويصرخ. فاخنقي صرخاته باللحاف. ولا تتركي أحداً يسمع. ضعي قدراً من الماء المغلي وبللي خرقة. سوف ينزف الدم من كل ثغرات جسده، ويعض شفتيه. وحين يموت، انزعي اللحاف عنه ونظفي الدم بالخرقة. ثم إلى النعش، والمحرقة، ولن يحدث بعدها شيء!".

قالت اللوتسة الذهبية: "هذا يبدو رائعاً. ولكنني أخشى أن أخطئ! ولا أستطيع أن أمسك الجثة!".

- هذا شيء بسيط. اقرعي على الجدار، فأحضر لمساعدتك.

قال شيمن: "اصرفا عنايتكما على هذا العمل، أنتما الاثنتان. سأعود عند الفجر وأصغي إلى تقريركما".

نهض وانصرف.

سحقت السيدة وانغ حبوب السمّ بأصابعها فأحالتها مسحوقاً، وأعطتها إلى اللوتسة الذهبية تخفيها.

عادت الفتاة إلى بيتها وصعدت إلى الطابق الثاني. كان وو يتنفس في صعوبة.

سأل وو: "فيم تبكين؟".

مسحت الفتاة عينيها: "ارتكبت خطيئة وتركت ذلك الرجل يخدعني! لم أتصوّر أنه يرفسك! لقد سمعت عن دواء شاف، وأود أن أشتريه لك، ولكنني أخشى ألا تثق بي، فلم أفعل!".

- أنقذي حياتي وسننسى كل شيء عن هذا الموضوع. لن أحقد عليك، ولن أخبر وو سونغ شيئاً. اذهبي واشتري الدواء سريعاً! أنقذيني!

أخذت الفتاة بعض القطع النحاسية، وأسرعت إلى السيدة وانغ، وأرسلتها تستحضر المسحوق الطبي. ثم أحضرت الرزمة الصغيرة وصعدت بها إلى الطابق الثاني وعرضتها على وو. قالت: "هذا دواء للقلب. يقول الطبيب في مخزن الأدوية إنه ينبغي أن تأخذه في منتصف الليل وتغطي رأسك بلحافين كيما تعرق. وغداً، يكون في مقدورك أن تنهض".

- هذا رائع! أعرف أن في هذا كثيراً من المتاعب، لكن يجب أن تبقي مستيقظة حتى منتصف الليل وتعطيني الدواء.

- لا يشغلنك شيء. سأعتني بك.

اقترب النهار من نهايته واحتشدت الظلمة. أشعلت اللوتسة الذهبية قنديلاً، ثم هبطت إلى المطهى ووضعت قدراً من الماء على الموقد، ووضعت فيه خرقة من القماش. ولما سمعت الحارس يضرب على طبله ثلاث مرات صبت مسحوق السم في قدح، وملأت القدح ماء، وحملته إلى الأعلى. ونادت على زوجها: "أين وضعت الدواء؟".

- هنا، تحت حصيرة النوم، إلى جانب الوسادة. اخلِطيه سريعاً وأعطيني إيّاه.

أخذت اللوتسة الذهبية رزمة المسحوق الطبي وصبته في القدح فغطى السم، وأضافت الماء الحار وحركت الخليط بمشبك فضي سحبته من شعرها. وأنهضت وو بيدها اليسرى. ورفعت القدح إلى شفتيه بيدها اليمنى.

قال، بعد أن غبَّ الجرعة الأولى:

- إنه شديد المرارة.

- إذا كان يشفيك فلا تلتفت إلى مرارته.

فتح فمه ليجرع جرعة أخرى، فقلبت الفتاة القدح ودفعت محتوياته في حنجرته. وأسقطته على الوسادة ونهضت عن السرير سريعاً.

لهث وو: "معدتي تلتهب! الألم، الألم! لا أحتمله!".
شدت الفتاة لحافين من أسفل السرير وألقت بهما فوق وجهه. صاح:
- لا أستطيع أن أتنفس!
- يقول الطبيب إنه ينبغي عليك أن تعرق! لسوف تتحسن حالك سريعاً!
وقبل أن يتمكن وو من الجواب وثبت الفتاة، وقد خشيت من مقاومته، فوق السرير وركعت إلى جانب جسده، وضغطت طرفي اللحاف بكلتا يديها. لهث، وناضل، إلى أن تمزقت أمعاؤه إرباً. ولفظ نفسه الأخير واستلقى من دون حراك.
رفعت اللوتسة الذهبية اللحافين. كان وو قد عضَّ على شفتيه بأسنانه، ونزف الدم من مختلف فوهات جسده. خافت الفتاة، ونطت عن السرير، وقرعت على الجدار. سمعت السيدة وانغ الإشارة. اقتربت من الباب الخلفي وسعلت. هبطت اللوتسة الذهبية عن السلَّم وفتحت الباب.
سألت العجوز:
- هل انتهى كل شيء؟
- انتهى كل شيء، ولكني ضعيفة إلى أبعد حد. ولا أستطيع الوقوف!
- هوني عليك. سأساعدك.
شمرت السيدة وانغ كميها، وملأت دلواً بالماء الساخن، ووضعت الخرقة فيه، وحملته إلى الطابق العلوي. لفت اللحافين، ومسحت ما حول فم وو، ونظفت الدم الذي انبثق من الفتحات السبع، وغطت ثيابه، ثم أنزلته المرأتان على مهلتهما عن السلم. وعثرتا على باب قديم أضجعتاه عليه، وسرحتا له شعره، وعقدتا منديله حول رأسه، وألبستاه ثيابه وحذاءه وجوربيه، ونشرتا قطعة من الحرير الأبيض الناعم فوق وجهه، وغطتا الجسد بلحاف نظيف. وصعدتا من بعد إلى الطابق العلوي ورتبتا غرفة النوم، ورجعت السيدة وانغ إلى بيتها.

شرعت اللوتسة الذهبية تعول وتنوح على فراق معيل أسرتها. نرجو أن تلحظ أيها القارئ أن عويل النساء من ثلاثة أنواع في العالم بأسره: بالعبرات والعويل يدعى نواحاً، بالعبرات من دون عويل يدعى بكاء، من دون عبرات ومع العويل يدعى ندباً. ندبت اللوتسة الذهبية. وكان الوقت يقارب فترة الحراسة الخامسة.
لم تكن السماء قد أضاءت بعد حين جاء شيمن يتسقَّط الأنباء. فروت له السيدة وانغ كل شيء بالتفصيل. فأعطاها نقوداً تشتري بها نعشاً وأدوات الدفن. وطلب إليها المناداة على الفتاة. فمرقت اللوتسة الذهبية إلى دارة السيدة وانغ. قالت: "لقد مات وو الأكبر. وأنت معيني الوحيد من الآن فصاعداً".
- هذا شيء مؤكد.
قالت السيدة وانغ: "هنالك صعوبة أخرى بعد. إن خو، الحانوني المحلي، رجل ذكي. وأخشى أن ينتبه إلى شيء ولا يوافق على إجراءات الدفن".

قال شيمن: "لا تشغلي بالك بهذا. سأتحدث إليه قليلاً. ولن يخالفني".
قالت المرأة العجوز: "قم بهذا العمل إذاً، ولا تتأخر".
فانصرف سريعاً.

حين أشرقت الشمس في السماء اشترت السيدة وانغ نعشاً وشموعاً ورموزاً ورقية ورجعت إلى بيتها وطهت قليلاً من الحساء والأرز للوتسة الذهبية. وأشعلتا قنديل حزن وضعتاه إلى جانب الجثمان. وجاء الجيران يعزّون، وغطت الفتاة وجهها المرشوش بالذرور وتظاهرت بالبكاء.

سأل الجيران: "بأي مرض مات وو الأكبر؟".

- كان يشكو من ألم في قلبه! وكان المرض يشتد يوماً بعد يوم! ولم يكن فيه رجاء! وفي الليلة الماضية، عند الحراسة الخامسة، فارقني!

ونشجت اللوتسة الذهبية في صوت عال.

عرف الجيران أن في قضية الموت شيئاً غريباً، وخشوا أن يستفسروا عن الموضوع بتعمق. وقدموا النصيحة المألوفة قائلين: "لقد رحل الميت، وعلى الحيّ أن يعيش. لا تأخذي الأمور بصعوبة!".

شكرتهم الفتاة منافقة. ورحل الجيران.

حين جيء بالنعش أرسلت السيدة وانغ تستدعي الحانوتي خو. واشترت جميع الأدوات التي تتطلبها الجنازة، كما تم شراء كل ما هو ضروري في البيت. واستؤجر كاهنان لتلاوة صلوات المساء. وكلّف الحانوتي خو عدداً من مساعديه لتهيئة الأمور.

عند انتصاف الصباح انطلق الحانوتي خو على مهلته إلى بيت الميت. وحين وصل إلى مدخل شارع الحجر الأرجواني حيّاه شيمن تشينغ قائلاً: "إلى أين أنت ذاهب؟".

- أنا في طريقي إلى تفحّص جسد وو الأكبر، بائع الكعك المحلي.

- أتعطيني دقيقة نتحدث فيها؟

ذهب خو برفقة شيمن إلى حانة صغيرة في شارع جانبي، وولجا الباب.

قال شيمن: "أرجو أن تجلس إلى رأس المائدة".

- كيف يتاح لرجل مثلي أن يجلس مع أمثال سعادتكِ؟

- لا يجب أن تعاملني معاملة الغرباء. أرجو أن تجلس.

جلس الاثنان، وطلب شيمن زجاجة من الخمرة الجيدة. ووضع الخادم على المائدة الفواكه والخضراوات التي تناسب الخمرة، وصبَّ الشراب. كان خو فضولياً، فقال في سره: "إنه لم يشرب برفقتي مرة واحدة. في الأمر شيء ملغز من دون ريب...".

شربا على مدى ساعة، وأخذ شيمن عشر أوقيات من الفضة من كمِّ عباءته ووضعها على المائدة: "أرجو ألا تعتبر هذا المبلغ تافهاً. سيكون هنالك مبلغ آخر في ما بعد".

احتجَّ خو قائلاً، وهو يضمُّ يديه في تأدب:

- لم أفعل شيئاً على الإطلاق، فكيف أقبل فضة السيد الأكثر احتراماً؟ لو كانت هنالك خدمة

يمكن أن أؤديها، فلن أقبل بالفضة أيضاً.

- لا ضرورة للرسميات. أرجو أن تأخذها، وسوف أخبرك.

- أخبرني من فضلك، أريد أن أسمع.

- حسن. إليك الفضة. ستسرع إلى منزل المتوفى، وهنالك سيعطونك مالاً أيضاً. حين تفحص جثمان وو الأكبر أريدك أن تقوم بكل شيء على وجهه الصحيح، واجعل اللحاف المطرز يغطي كل شيء. هذا كل ما لديَّ من قول.

- من دون ريب. لِمَ لا؟ كيف أقبض مالاً على أمر صغير مثل هذا؟

- إذا لم تأخذ الفضة فمعنى هذا أنك تبغضني.

كان خو يعرف أن شيمن له نفوذ على الموظفين، وكان يخشاه. ولم يكن أمامه سوى أن يقبل. شربا عدة أقداح. وطلب شيمن من الخادم أن يسجل المبلغ في حسابه، وأن يمرَّ بالمخزن غداً فيقبض الثمن. وهبط الاثنان عن السلم وغادرا الحانة.

قال شيمن: "لا تنس. واحفظ الأمر سراً. سأكافئك أكثر". وابتعد منصرفاً.

استثيرت شكوك خو: "هذا أمر غريب جداً. فيم يعطيني هذا المال قبل أن أتفحص جسد وو الأكبر؟ ثمة شيء ملغز في الأمر إذاً!".

وجد رجاله ينتظرونه عند باب البيت، فسأل: "ماذا كان سبب الموت؟".

أجاب الرجال: "آلام في القلب، على ما تقول زوجته".

رفع خو ستارة الباب ودخل. فحيته السيدة وانغ: "كنا ننتظر قدومك".

- أخرتني قضية صغيرة.

خرجت اللوتسة الذهبية من الغرفة الداخلية وقد ألقت على جسدها ثياباً قاتمة وفي عينيها عبرات زائفة.

قال خو: "هدئي روعك. إنها لرحمة أن يعود وو الأكبر إلى رحاب السماء".

مسحت الفتاة عينيها: "أنت لا تعرف نصف القضية! من كان يدري أنه سيموت بعد أن بدأ قلبه يؤلمه بعدة أيام! يا لشقائي!".

أطال خو النظر إليها، وهمس في نفسه: "لقد سمعت عن امرأة وو، ولكنني لم أرها. هي من هذا الطراز من النساء إذاً! ثمة شيء وراء الأوقيات العشر من الفضة التي قدمها شيمن!".

مشى إلى جانب الجثمان وفتح غطاء النعش، ورفع الحرير الذي يغطي وجه وو. كانت للحانوتي عينا صقر، وما وقعتا عليه جعله يرتد مفزوعاً، والدم يتطاير من فمه. ازرقت أظافره، وتقرمزت شفتاه، واصفرَّ جلده، وبهتت عيناه.

في الحقيقة، كان جسده أشبه بقمر منمحق التهمته الجبال في فترة الحراسة الخامسة، وحياته تتراقص مثل قنديل يموت عند انتصاف الليل.

هل بقي الحانوتي خو في الحياة أم طواه الردى؟

إذا أحببت معرفة هذا هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السادس والعشرون

الحانوتي خو يسرق عظمتين من محرقة الدفن؛
ووو سونغ يقدم رؤوساً بشرية على سبيل الأضاحي التذكارية

حين هوى الحانوتي خو على الأرض تراكض مساعدوه وأنهضوه عنها.

قالت السيدة وانغ مؤكدة: "لقد مسته روح شريرة. أحضروا ماء بسرعة!". ورشت قطرات من الماء على وجهه. فتحرك، واسترد وعيه تدريجياً. فأمرت: "خذوه إلى البيت. ففي مقدورهم أن يقرروا ماذا يفعلون".

استخدم اثنان من المساعدين باباً قديماً كنقالة، وحملا الحانوتي خو إلى منزله. فاستقبلته أسرته ومددته في فراشه. وانفجرت زوجته باكية.

جلست إلى جانب فراشه تنتحب: "ذهب والبسمة في سيماه! وعاد إلى البيت على هذه الصورة! من كان يدري أن روحاً شريرة تقبض عليه!".

رأى خو أن مساعديه جميعاً ذهبوا، وأنه لم يبق أحد سوى زوجته. فلكزها بقدمه، وهمس في لطيف نغمة: "أنا في أحسن حال. لا تجزعي. في طريقي إلى تفحص جثمان وو قبل الدفن، وعند مدخل شارع منزله، التقيت شيمن تشينغ الذي يملك مخزناً للأدوية قبالة مكتب المقاطعة. دعاني إلى الشراب وأعطاني عشر أوقيات من الفضة قائلاً: ضع غطاء فوق كل شيء حينما تتفحص الجثمان. وذهبت إلى بيت وو. واستطعت أن أميز أن زوجته ليست امرأة صالحة، فساورتني الشكوك. رفعت غطاء النعش. كان وجه وو أرجوانياً. وكانت هنالك دماء في أذنيه وعينيه وفمه. وقد عضَّ على شفتيه. لا ريبة أنه أُشرب سماً. كدت أن أصرِّح بذلك - ولكنني فكرت في ما بعد - ليس هنالك من يقف في جانبه. فإذا أنا أغضبت شيمن تشينغ أكون كمن أثار عشاً للزنابير. كدت أن أوافق على الدفن. وعندها تذكرت أن لوو شقيقاً، وهو المفوض وو الذي قتل النمر في سلسلة جبال جينغيانغ. إنه من ذلك الصنف الذي يقتل رجلاً من دون أن يطرف له جفن. وسوف يؤوب عاجلاً أم آجلاً إلى بيته، وعندها سينفجر هذا الموضوع برمته!".

قالت زوجته: "منذ يومين سمعت أحدهم يقول إن يون قه، ابن الشيخ تشياو في الزقاق الخلفي، ذهب برفقة وو الأكبر إلى شارع الحجر الأرجواني للقبض على المتزانيين. وحدثت ضجة صاخبة في مشرب الشاي! وهذا ما حصل! فاسترسل في تقصياتك. أي صعوبة في هذا؟ اجعل مساعديك يستمرون في إجراءات التجهيز، واعرف متى سيكون الدفن، فإذا أبقوا الجثمان في البيت إلى حين عودة وو سونغ، ومن ثم دفنوه، فلن يكون في الأمر ما يريب. أما إذا دفنوه الآن فليفعلوا ذلك في الوقت الراهن. أما إذا أرادوا حرقه، فلا بد أن في الأمر لغزاً. احضر مراسم الدفن، وخذ

عظمتين من المحرقة في غفلة عن العيون. بهاتين العظمتين، بالإضافة إلى الأوقيات العشر من الفضة، يكون لديك دليل على جانب من الأهمية. إن لم يطرح وو سونغ أية أسئلة حين يعود إلى البيت، فاعتصم أنت بالصمت، فلن تكون ممن يكشطون الجلد عن أنف شيمن تشينغ، وسنقيم بنقوده مأدبة حافلة!".

- أنت زوجة وفية وذكية أيضاً!

نهض الحانوتي خو وأصدر تعليماته إلى مساعديه:

- لقد مرضت ولن أستطيع الذهاب إلى منزل وو. قوموا بتجهيز كل شيء. واعرفوا ساعة الدفن وأعلموني فوراً. وما أعطوكم إيّاه من نقود وزّعوه بينكم بالتساوي. وإذا عرضوا عليكم شيئاً بالنسبة إليّ فلا تقبلوه.

عمل المساعدون على توسيد وو في نعشه. حين وضع النعش والمنضدة التذكارية في مكانيهما رجع المساعدون وأخبروا خو قائلين: "تقول الزوجة إنهم سيحرقون الجثمان بعد ثلاثة أيام خارج المدينة". واقتسموا النقود في ما بينهم وانصرفوا.

تنبأ خو مخاطباً زوجته:

- الأمر كما توقعت. يجب أن أذهب وأحصل على العظمتين.

نزولاً عند إلحاح السيدة وانغ أقامت اللوتسة الذهبية إلى جانب النعش الليل بطوله. وفي اليوم التالي، جاء أربعة من الكهنة لترتيل الأناشيد. وفي الصباح الثالث، وصل مساعدو الحانوتي للقيام بدور حملة النعش. ورافق عدد من الجيران موكب الجنازة. وبكت الزوجة - وقد ارتدت لبوس الحزن - فقدان معيل أسرتها طوال الطريق إلى أرض المحرقة في ضواحي المدينة. وأمرت الخدم أن يشعلوا نيران المحرقة. وظهر الحانوتي خو يحمل رزمةً من الأوراق الذهبية. حيته السيدة وانغ واللوتسة الذهبية: "ما أسعدنا باسترداد عافيتك!".

- أنا مدين لوو الأكبر بصينية من الكعك باعني إياها قبل عدة أيام. وخطر لي أن أقدم له هذه الرزمة ترافقه في رحلته.

قالت السيدة وانغ: "يا لك من رجل مخلص!".

أحرق الورق المعدّ للتضحية، وساعد في إحراق الجثمان.

قالت المرأتان: "أنت كثير اللطف. حين نعود إلى البيت سنقدم لك الشكر كما ينبغي".

قال خو: "أحاول أن أقدم العون وحسب. فلا تقلقا، يا سيدتي. لم لا تنصرفان إلى الجيران الذين ينتظرون في ردهة الجلوس؟ سأتدبر الأمور هنا".

غادرت المرأتان المحرقة عند إلحاحه. نقَّب بين الرماد، والتقط عظمتين دسهما في بركة تستخدم خصيصاً لهذه الغرض. كانتا رقيقتين سوداوين. أخفاهما في ثيابه، ثم شارك المحتشدين في ردهة الجلوس. وسرعان ما احترق النعش بأسره، وانطفأ اللهب، ونقلت العظام ووضعت في البركة لتبرد، وانصرف الجيران، ورجع خو إلى منزله وهو يحمل العظمتين اللتين التقطهما.

كتب على رقعة من الورق تاريخ الدفن وأسماء الأشخاص الذين شاركوا فيه. ولفَّ الورقة

حول السبيكة الفضية وحفظهما في كيس من القماش خبأه في منزله.

حين وصلت اللوتسة الذهبية إلى البيت، وضعت المائدة التذكارية أمام الجدار الفاصل في الطابق الأرضي. كانت قد كتبت عليها: "في ذكرى وو الأكبر، زوجي الراحل". وأشعلت أمام المائدة قنديلاً زجاجياً. وعلقت في داخل الغرفة أعلاماً موشحة بكلمات مقدسة، وأوراقاً من نقود التضحية، وشرائط جنائزية.

وكانت في الطابق الأعلى تمارس الحب مع شيمن في كل نهار. ههنا المكان أفضل من لقائهما الخاطف في منزل السيدة وانغ، وليس هنالك من يستطيع رؤيتهما، وفي مقدورهما قضاء الليل بطوله حين يحلو لهما.

لم يكن هنالك جار وحيد في شارع الحجر الأرجواني يجهل هذا الأمر. ولكن الجيران يخشون من ذلك المقتدر اللئيم شيمن، فما انتوى أحد منهم أن تكون له في الموضوع صلة.

"النشوة تنجب المأساة، ومن التعاسة ينبجس الحظ الطيب". ما أسرع أن مرت الأيام. وانقضى أكثر من أربعين يوماً. أوصل وو سونغ الوثائق المسلمة إليه من قبل القاضي المحلي، وأودع العربة في منزل أقربائه في العاصمة الشرقية، وسلَّم الرسالة والأقفاص، وأمضى عدة أيام يتجول في الشوارع المكتظة في انتظار الجواب الخطي، وبعد ذلك رجع إلى يانغقو مع رجاله. واستغرقت المهمة بأسرها شهرين كاملين.

كان الشتاء في أخرياته حين اتخذ وو سونغ طريق العودة. وكان ذلك في مطلع الشهر القمري الثالث. شعر بالضيق في ذهنه طوال فترة غيابه، ونازعه الشوق لرؤية شقيقه. ولكنه قام أولاً بتسليم الرسالة إلى القاضي.

سرَّ القاضي كثيراً. وبعدما انتهى من قراءة الرسالة التي تقول إن جميع المجوهرات وصلت سليمة، أجزل المكافأة لوو سونغ سبيكة كبيرة من الفضة، وتناول معه الشراب والطعام. وهذا شيء مألوف.

رجع وو سونغ إلى بيته، وأبدل ثيابه وحذاءه وجوربيه، ووضع على رأسه منديلاً جديداً، وأقفل الباب، وأسرع إلى شارع الحجر الأرجواني. فعرق جميع الجيران المذعورين عن جانبي الشارع. وتهامسوا في ما بينهم: "جاءت المتاعب! هذا الشجاع الضخم لن يترك الأمر يمرّ في سهولة! لا بدَّ أن شيئاً سيئاً سيحدث!".

رفع وو سونغ ستارة الباب، ودخل. فوقع بصره، أول ما وقع، على المائدة وقد كتب عليها: "في ذكرى وو الأكبر، زوجي الراحل". حملق بعينيه، وقد هزّه الرعب. قال في نفسه: "هل أصدق عينيَّ؟". ونادى: "يا امرأة أخي، لقد رجعت. هذا أنا، وو سونغ".

كان شيمن يلهو مع اللوتسة الذهبية في الطابق العلوي. وما إن سمع صوت وو سونغ حتى دبَّ فيه الذعر فبال في سرواله، وخرج مسرعاً من الباب الخلفي، وانصرف عن طريق مشرب السيدة وانغ.

صرخت الفتاة: "أرجوك أن تجلس، سأكون معك خلال لحظات". لم تكن ترتدي لبوس الحزن بعد تسميم زوجها، بل أخذت تزيِّن وتجمل نفسها كل يوم وتتقابل وعشيقها.

غسلت على الفور زينتها، ورفعت حليَّ شعرها، وجمعت خصلات شعرها الداعرة في كعكة في مؤخر رأسها، وأبدلت بسرعة تنورتها الحمراء وثوبها المزين بالرسوم بثياب قاتمة. وبعدها هبطت عن السلّم ناشجة.

قال وو سونغ: "يا امرأة أخي، كفي عن البكاء. متى مات شقيقي؟ وماذا أصابه؟ وما هو الدواء الذي تعاطاه؟".

أجابت اللوتسة الذهبية باكية: "منذ حوالى عشرين يوماً بعد مغادرتك أصابته أوجاع في قلبه. وانطرح مريضاً ثمانية أو تسعة أيام. فصليت، وأعطيته مختلف أصناف الأدوية، فلم يشفه شيء منها، وفاضت روحه! وأنا الآن شقية ووحيدة!".

كانت السيدة وانغ تسمع حديثهما من خلال الجدار، وكانت خائفة من أن ترتكب اللوتسة الذهبية هفوة، فأسرعت إلى نجدتها.

قال وو سونغ: "شقيقي لم يصب بهذا المرض قبلاً. فكيف يمكن أن يقتله قلبه؟".

اعترضت السيدة وانغ: "والآن، أيها المفوض، ألا تعرف القول المأثور: السحب والرياح في السماء لا يبرح غورها. وحياة المرء تتبدل في لحظة خاطفة!؟ من يمكن أن يضمن الوقوف في وجه المصائب؟".

وأضافت الفتاة:

- لولا عرابتي هذه لكنت قد فقدت كل أمل وعون. هي الوحيدة بين الجيران من هبّت إلى نجدتي.

سأل وو سونغ:

- وأين جرى دفنه؟

- لقد كنت وحيدة، فكيف أستطيع الخروج والبحث عن مكان مناسب للدفن؟ لم تكن هنالك وسيلة أخرى. فقمت بإحراق الجثمان بعد ثلاثة أيام.

- وما هو تاريخ الوفاة؟

- بعيد يومين يكون قد انقضى سبعة أزمنة على سبع مراحل.

جنح وو إلى الصمت لحظات، وانصرف ورجع إلى جناحه. فتح الباب، ودخل. وأبدل ثيابه بثياب نظيفة. وأمر أحد الجنود أن يصنع له حبلاً من القنب لفه حول وسطه، وأخفى تحت ثيابه سكيناً مرهفة الحدّ.

أخذ قليلاً من الفضة وخرج، وأمر الجندي أن يقفل الباب وراءه. اشترى من المخازن القائمة قبالة مكتب المقاطعة أرزاً وطحيناً وبهارات، وشموعاً ونسخاً من أوراق شعائر ذهبية وفضية، وذهب عشية إلى منزل شقيقه وقرع الباب.

فتحت له اللوتسة الذهبية. أمر وو سونغ الجندي أن يهيء أطباق الأضاحي. وأشعل قنديلاً أمام مائدة الذكرى ووضع عليها الخمرة والمشهيات. وحين أزفت فترة الحراسة الثانية كان كل شيء قد أُعدّ.

سقط وو سونغ على ركبتيه وسجد.

- يا أخي، روحك قريبة مني! كنت في الحياة ضعيفاً هيّاباً، وبقي سبب موتك مجهولاً. إن كنت قد تعرضت للظلم وقتلت فزرني في الحلم، وسأنتقم لك!

أراق الخمرة على الأرض، وأحرق أوراق الشعائر النقدية، وصرخ وبكى من أعماق قلب كسير فأثار عطف الجيران جميعاً. وتظاهرت الفتاة بالبكاء هي الأخرى. وأخيراً، قدم وو سونغ خمرة الأضاحي والطعام إلى الجندي ليشرب ويأكل. ونشر حصيرين وأمر الجندي أن ينام قريباً من الباب بين الغرفتين الداخلية والخارجية واستلقى هو إلى جانب مائدة الذكرى. وصعدت اللوتسة الذهبية إلى الطابق العلوي، وأقفلت الباب في رأس السلَّم، وهجعت.

قلق وو سونغ فجعل يتقلب عاجزاً عن النوم. وحان أوان فترة الحراسة الثالثة. رأى الجندي. كان يشخر من دون حراك فكأنه ميت. جلس وحدَّق في القنديل الزجاجي العاتم الموضوع على المائدة. وسمع ثلاث ضربات تدفُّ من طبلة الحارس، فزفر.

خاطب نفسه قائلاً: "كان شقيقي لطيفاً طوال عمره. ولا أعرف حتى الآن كيف مات".

وقبل أن يتم جملته تصاعد بخار جليدي من أسفل مائدة المذبح، وتطاير في قلب العتمة، فانطفأ القنديل على المذبح على غير انتظار، وتراقصت الأوراق النقدية على الجدار في وحشية ظاهرة.

وقف شعر وو سونغ عن آخره. فحملق، وبرز شبح من تحت مائدة المذبح. قال: "يا أخي، لقد قتلوني أبشع قتلة!".

لم يسمع وو سونغ جيداً. فخطا مقترباً. ولكن البخار الجليدي تبخَّر، واختفى الشبح. وتهاوى وو سونغ على الحصير جالساً. أكان ذلك حلماً؟ التفت ونظر إلى الجندي. كان غارقاً في النوم. فقال في نفسه: "هنالك شيء مغلوط في وفاة شقيقي من دون ريب! وقد جاء يخبرني بذلك، ولكن نفسي الحي بعثر شبحه...".

عزم وو سونغ على الصمت في الوقت الراهن، وانتظار طلوع النهار.

راحت السماء تشرق بالنور تدريجياً. نهض الجندي وسخن قليلا من الماء، فغسل وو سونغ فمه واغتسل. وهبطت اللوتسة الذهبية عن السلَّم.

- يا شقيق زوجي، لقد كنت قلقاً الليلة الماضية.

- يا امرأة أخي، ممَّ مات شقيقي على وجه التحديد؟

- كيف يمكن أن تكون نسيت؟ أخبرتك عشية البارحة. أوجاع قلبه هي التي قتلته.

- من وصف له الدواء؟

- وصفة العلاج معي هنا.

- من اشترى النعش؟

- سألت جارتنا السيدة وانغ أن تفعل ذلك.

- من كان حملة النعش؟

- رجال من لدن الحانوتي خو. فقد أخذ على عاتقه كل شيء.
- حسن. يجب أن أذهب إلى مكتب المقاطعة لأسجل اسمي.

انصرف وو سونغ مع وصيفه الجندي، وحين وصلا إلى نهاية شارع الحجر الأرجواني سأله: "هل تعرف الحانوتي خو؟".

- ألا تذكر، أيها المفوض؟ لقد جاء يهنتك حين استلمت منصبك. وهو يقطن في شارع الليث.
- خذني إليه.

رافقه الجندي إلى باب الحانوتي خو. فقال وو: "تستطيع الذهاب الآن". فانصرف الوصيف. ورفع وو سونغ ستارة الباب. ونادى: "هل الحانوتي خو موجود؟".

كان خو قد هبَّ من نومه لتوِّه. حين عرف أن الطارق وو سونغ ارتعش من قمة رأسه إلى جوف أخمصيه. فما استطاع وضع منديله على رأسه. أخذ الفضة والعظمتين وأخفاهما في ثيابه. وخرج مرحباً بضيفه.

- متى رجعت، أيها المفوض؟
- رجعت البارحة، أود أن أتحدث معك قليلاً. أرجو أن ترافقني.
- من دون ريب. لكن، ائذن لي أولاً أن أقدم لك قليلاً من الشاي.
- ليس هذا ضرورياً. لست أريد شاياً.

ذهب الاثنان إلى حانة في نهاية الشارع وجلسا. طلب وو سونغ قدحين من الخمرة. ونهض خو في أدب على قدميه: "لم أحتفل بك في منزلي بعد، فلا يتوجب عليك أن تكون على مثل هذه الكياسة تجاهي".

قال وو سونغ في اختصار: "اجلس". خمَّن خو ما كان يطوف في ذهنه. وصبَّ الخادم الخمرة. فشربها وو سونغ في صمت، وتعرَّق جسد خو. حاول الكلام، ولكن وو سونغ لم يعطه من جواب.

رشف عدة أقداح. وعلى حين فجاءة، من داخل ثيابه، استل وو سونغ السكين الحادة وغرزها في قمة المنضدة الخشبية. راقب الخادم ذلك فجحظت عيناه. ولم يستطع أحد أن يقترب منهما. واستحال وجه خو أصفر مخضراً. أرعشه الخوف فهرب منه الكلام.

لفَّ وو سونغ كميه، وقبض على السكين، وقال: "أنا رجل فظ. وأعرف أن المجرم يجب أن يدفع ثمن جريمته، والمدين يجب أن يسدِّد دينه. ليس هناك ما يدعوك إلى الخوف. أفضِ إليّ بالحقيقة لا غير. أريد أن أعرف كيف مات شقيقي. وأنت لا علاقة لك بهذا الأمر في كل حال. إن أنا آذيتك فلن أكون رجلا حقيقياً! لكن، قل لي نصف أكذوبة وهذه السكين ينغرز نصلها فيك في مائة مكان! هيا، تكلم. كيف كان جثمان شقيقي حين ألقيت عليه نظرة؟".

وضع وو سونغ يديه على ركبتيه، وثبَّت على خو نظرة ملتهبة.

أخرج الحانوتي حقيبة من كمه وضعها على المنضدة: "هدئ نفسك، أيها المفوض. فالدليل

الدامغ هنا في هذه الحقيبة".

فتحها وو سونغ وألقى نظرة على العظمتين الفاحمتين وسبيكة الفضة التي تزن عشر أوقيات: "وكيف يكون هذا الدليل دامغاً؟".

- لم أعرف ماذا حصل من قبل أو بعد. ولكن، في الثاني والعشرين من الشهر القمري الأول جاءتني السيدة وانغ التي تملك مشرباً للشاي وسألتني أن أتفحص جثمان وو الأكبر وتجهيزه للدفن. وفي طريقي إلى هنالك التقيت عند مدخل شارع الحجر الأرجواني شيمن تشينغ الذي يملك مخزناً لبيع الأدوية قبالة مكتب المقاطعة. وأصرَّ على أن أذهب معه إلى الحانة أشاركه احتساء زجاجة من الخمرة. وهنالك نفحني بسبيكة من الفضة قائلاً: "ألق غطاء على كل شيء حين تتفحص الجثمان!" كنت أعرف أن ذلك الرجل وغد، ولكنه أرغمني على القبول. شربت الخمرة، وأخذت الفضة، وذهبت إلى منزل وو الأكبر. وحين رفعت غطاء النعش لمحت دماء متجلدة في أنف شقيقك وفي أذنيه. ورأيت أن شفتيه معضوضتان بقسوة؛ وهذه دلائل على التسمم. أردت أن أبوح بالأمر، ولكن لم يكن هنا من يقف في صفه بعد أن أعلنت زوجته أنه قضى من أوجاع قلبه. وهكذا أطبقت شفتيَّ، وعضضت على لساني حتى أنزفته دماً، وتظاهرت أن مساً أصابني، فحملوني إلى البيت.

" أخبرت مساعديّ أن يجهزوا عملية الدفن، وألا يقبلوا قرشاً واحداً أجراً لي. وفي اليوم الثالث، حمل الجثمان إلى المحرقة. فابتعت بعض الأوراق المالية الشعائرية ولحقت بالموكب لتقديم احترامي. وتدبرت الأمر فأرسلت السيدة وانغ وامرأة أخيك بعيداً عن المحرقة، وأخذت عظمتين نقلتهما إلى منزلي كانتا مسودتين متشققتين؛ وهذا دليل على الموت بالسمّ. فكتبت على رقعة الورق هذه تاريخ الإحراق وأسماء الذين حضروا مراسم الدفن. هذه هي قصتي. وفي مقدورك تفحصها".

- من كان الزاني؟

- لست أدري. ولكنني سمعت أن الصبي المدعو يون قه، يبيع الإجاص، ذهب إلى مشرب الشاي برفقة وو الأكبر للقبض عليه. والجميع في هذا الشارع سمعوا بالقصة. إذا أردت شيئاً من التفاصيل، فاسأل يون قه.

- حسن. إذا كان هنالك مثل هذا الشخص، فلنمضينَّ إليه معاً.

أخذ وو سونغ سكينه، ودفع الحساب، وخرج برفقة خو إلى منزل يون قه. رأيا عند الباب صبياً يحمل سلة من أغصان الصفصاف في ذراعه. كان قد خرج يشتري الأرز.

سأل خو: "أتعرف من يكون هذا المفوض؟".

- منذ اليوم الذي صرع فيه النمر! ماذا تريدان مني؟

لا ريبة أن الصبي خمن مطلبهما، فاسترسل قائلاً: "هنالك أمر وحيد. والدي في الستين من عمره. وليس لديه سواي. ولا أستطيع أن أنخرط معكما في قضية تنظرها المحكمة".

ناوله وو سونغ خمس أوقيات من الفضة: "إليك، أيها الأخ الصغير. أعط هذه الفضة إلى والدك، وتعال معي نثرثر قليلاً".

هجس في خاطر يون قه: "هذه الفضة تغطي نفقات والدي العجوز أربعة أو خمسة شهور. وبعدها لن أبالي إذا تورَّطت مع المحكمة".

قبض المال ونقله والأرز إلى والده، ورافق الرجلين إلى مطعم في شارع آخر. صعدوا إلى الطابق العلوي. وطلب وو سونغ طعاماً، والتفت إلى يون قه: "على الرغم من أنك لا تزال يافعاً، يا أخي الصغير، فأنت ولد بار بوالدك معين لأسرتك. والفضة التي أعطيتك إيّاها للنفقات ليس غير. أريد أن تساعدني. وحين تنتهي هذه القضية سأنفحك بأربع عشرة أو خمس عشرة أوقية أخرى تساعدك في تجارتك. والآن، أخبرني بالتفصيل: كيف ذهبت وشقيقي للقبض على المتزانيين في مشرب الشاي؟".

- سأخبرك، لكن أرجو ألا تغضب. في الثالث من الشهر القمري الأول ذهبت أفتش عن شيمن تشينغ حاملاً سلة من الإجاص الثلجي للحصول على قليل من المال. فلم ألتقه في مكان. وحين استفسرت قيل لي: "إنه في مشرب شاي السيدة وانغ في شارع الحجر الأرجواني مع زوجة وو الأكبر، بائع الكعك. وهما يتسليان معاً. وهو يتردد إلى هناك كل يوم". فمضيت مباشرة إلى مشرب الشاي، ولكن تلك الكلبة العجوز لم تسمح لي بدخول الغرفة الخلفية! وحين قلت إني أعرف السر ضربتني على رأسي، وطردتني، وألقت بسلتي والإجاص إلى الشارع! استفزني الغضب! فذهبت إلى شقيقك وأخبرته بالأمر. فأراد أن يسرع ويقبض عليهما من فوره. فقلت: أنت تخطئ في هذا. فشيمن تشينغ رجل شرس قوي القبضتين والقدمين. فإن لم تقبض عليهما بالجرم المشهود، فسوف يتحداك ويوقعك في متاعب. سأنتظرك عند فوهة الشارع غداً. فلا تكثر من صنع الكعك. وحين ألمح شيمن يدلف إلى مشرب الشاي ألحق به أولاً. وتضع أنت حاجياتك جانباً وتنتظر. وحالما ألقي سلتي تعجل من خطواتك وتقبض على الزانيين معاً!

في اليوم التالي، ذهبت إلى مشرب الشاي حاملاً سلتي والإجاص، وشتمت الكلبة العجوز. فهجمت عليَّ. فألقيت سلتي وجعلت أنطحها برأسي وحبستها عند الجدار. ولم تستطع منع شقيقك من الدخول لأنني أمسكت بها، ولكنها صرخت: وو الأكبر هنا! فأغلق الاثنان الباب في الداخل. وحين راح وو يصرخ فتح شيمن الباب فجأة واندفع خارجا ورفسه فأوقعه أرضا. ورأيت الزوجة تخرج. حاولت أن تنهضه عن الأرض، ولكنها لم تتمكن من ذلك. فهربت من هنالك سريعاً! وبعيد حوالى أسبوع سمعت أنه مات؟ ولا أعرف كيف قضى نحبه.

- أنت تقول الحقيقة؟ يحسن ألا تكذب عليَّ!

- سأقول هذا الكلام في المحكمة!

- هذا هو الأمر إذاً، يا أخي الصغير!

أكل الثلاثة، وسدّد وو سونغ الحساب، وخرجوا إلى الشارع.

قال خو: "يجب أن أذهب".

فقال وو سونغ: "ابق معي. أحتاج إليكما كشاهدين".

رافقاه إلى مكتب المقاطعة حين كان القاضي في محكمته.

سأل القاضي حين لمح وو سونغ داخلا: "ألديك شكوى، أيها المفوض؟".

- لقد وضع السم لشقيقي وو الأكبر، وقتلته زوجته وشيمن تشينغ اللذان كانا يمارسان الزنى. وهذان الرجلان شاهدان. وأطلب أن تتحقق العدالة.

استجوب القاضي خو ويون قه، ثم تشاور في القضية مع عدد من الموظفين سراً. كان أولئك السادة، فضلاً عن القاضي نفسه، على علاقة مع شيمن. وهكذا انتهوا إلى قرار مشترك؛ عدم البحث في الموضوع.

رجعوا إلى قاعة المحكمة، وخاطب القاضي وو سونغ قائلاً: "أنت مفوض شرطة في هذه المقاطعة. وينبغي أن تعرف القوانين. لقد كانت بنية الإثبات منذ قديم الزمن هي التالي: "في التزاني يجب القبض على المتزانيين، وفي السرقة يجب العثور على اللص، وفي القتل يجب العثور على الجثة". وجثة شقيقك لا وجود لها الآن، وأنت لم تقبض على الزانيين متلبسين بالجرم. وشهادة هذين الشاهدين لا تكفي لإثبات الجريمة. فليس لديك دعوى إذاً، فلا تتهور في عملك، فكر في الأمر. فما في طوقنا أن نعمل إلا وفق الأصول".

أخرج وو سونغ من داخل ثوبه العظمتين المتفحمتين والسبيكة الفضية ورقعة الورق: "لا ريبة أن سعادتك تقر أن هذه الأشياء ليست تلفيقاً".

نظر القاضي إليها: "قد تكون على حق. يجب أن أبحث في الأمر. وسأخبرك بما يتفق عليه الرأي. إذا وجدنا الأمر جديراً فسنستدعي الشاهدين".

ذهب خو ويون قه برفقة وو سونغ إلى جناحه. وتم إبلاغ شيمن في ذلك النهار بما يحاك ضده. فأرسل على الفور أحد أصدقائه الخلص لتوزيع الفضة على مختلف الضباط والموظفين في المقاطعة.

في صباح اليوم التالي، مثل وو سونغ مرة أخرى أمام القاضي واستحث على المباشرة بالدعوى. كان القاضي نهماً طماعاً يتقبل الرشوة، فرد العظمتين والفضة إليه وقال: "يا وو سونغ، لا يجب أن تدع الناس يستفزونك ضد شيمن تشينغ. القضية مبهمة وغير واضحة. يصعب النظر فيها. قال الحكماء: قد يكون ما تشاهده بعينيك غير صحيح. فكيف تصدّق ما يقول الناس في غياب أشخاص آخرين؟ لا يجب أن تكون طائشاً".

كان قائد السجن حاضراً، فقال: "أيها المفوض، في قضايا القتل تحتاج إلى خمسة عوامل: "الجثة، والجرح، والعلاج، والأداة، والشاهد على وجود المتهم. عندها فقط تستطيع أن تقوم بالبحث".

توجّه وو سونغ إلى القاضي قائلاً: "إن لم تقبل سعادتك شكواي، فينبغي أن أفكر في وسيلة أخرى".

أعطى الفضة والعظمتين إلى خو ورجاه أن يحفظها له مرة أخرى. ورجع إلى جناحه برفقة الحانوتي والصبي، وأمر وصيفه أن يقدم لهما طعاماً.

خاطبهما بقوله: "انتظراني هنا. لن أغيب طويلاً".

حمل قليلاً من الحبر وريشة، وغادر مكتب المقاطعة برفقة ثلاثة جنود، واشترى أربع ورقات أو خمساً أخفاها في طيات ثيابه. وأمر اثنين من الجنود أن يشتريا إوزة، ودجاجة، وزجاجتين من الخمرة، وشيئاً من الفواكه وحملها إلى دارة شقيقه.

رجع في منتصف الصباح برفقة الجندي الثالث. كانت اللوتسة الذهبية قد عرفت في حينه أنه فشل في شكواه، فنفضت خوفها منه، وانتظرت في وقاحة أن ترى ماذا سيفعل.

ناداها: "تعالي، يا امرأة أخي. فلديَّ ما أقول لك".

هبطت الفتاة السلم متأنية الخطى. قالت: "ماذا لديك؟".

- غداً آخر يوم من الأزمنة السبعة لفترة الحداد على شقيقي. وقد أزعجت الجيران كثيراً، فاشتريت قليلاً من الخمور وأود أن أشكرهم نيابة عنك.

سألت اللوتسة الذهبية في قرف: "علام تريد أن تشكرهم؟".

قال وو سونغ: "مراعاة الأصول واجبة".

بناء على تعليماته أشعل الجنود شموعاً كبيرة وضعوها متألقة أمام مائدة المذبح. وأحرقوا بخوراً في مبخرة، وعلقوا شرائط من الورق، وكدسوا أطباق الأضاحي أمام المائدة، وأخرجوا الخمور والمشهيات للضيوف. وأمر وو سونغ جندياً أن يدفئ الخمور، وطلب إلى اثنين آخرين أن يعدا مائدة ومقاعد في الغرفة الخارجية، وأن يقفا بعد ذلك للحراسة أمام بابي الدار الأمامي والخلفي.

قال: "يا امرأة أخي. نادي على الضيوف. سأدعوهم جميعاً". وذهب أولاً إلى دارة الجارة السيدة وانغ.

قالت: "لا تزعج نفسك. فلم أفعل ما تشكرني عليه".

- لدينا ما يبرر الدعوة. فقد تسببنا في إزعاجك. ليس هنالك أكثر من طعام خفيف وقليل من الخمرة. فلا ينبغي أن ترفضي.

أنزلت السيدة وانغ لوحة مشرب الشاي، وأقفلت الباب الأمامي، وخرجت من الباب الخلفي.

قال وو سونغ: "اجلسي إلى رأس المائدة، يا امرأة أخي. واجلسي قبالتها، يا عرابتي".

كان شيمن قد أرسل إلى المرأتين خبراً. فشربتا الخمرة في لا مبالاة. وقالتا في نفسيهما: "ماذا في طوقه أن يفعل، يا ترى؟".

كان وو سونغ قد دعا جاراً يعمل في صياغة الفضة يدعى ياو وين كينغ، مخزنه في الطرف الآخر من الشارع.

قال ياو: "أنا مشغول. لن أضايقك. أيها المفوض".

شده وو سونغ قائلاً: "مجرد قدح واحد من الخمرة. لن يطول الأمر كثيراً. هنا في بيتنا".

لم يستطع ياو فراراً من ذلك. أجلسه وو سونغ إلى جانب السيدة وانغ، وذهب من جديد إلى المخازن عبر الشارع. كان المخزن الذي يبيع الخيول الورقية لمستلزمات الدفن يدار من قبل تشاو تشونغ مينغ. قال تشاو: "لا أستطيع ترك مخزني. ولا أستطيع الانضمام إليكم".

- لا تكن على هذه الشاكلة. لقد جاء جميع الجيران الآخرين.

لم يقبل وو سونغ منه اعتذاراً. شدَّه إلى البيت وقال: "أنت من جيل والدي". وأجلسه إلى جانب اللوتسة الذهبية.

ثم دعا هو تشنغ كينغ الذي يبيع المبرَّدة عبر الشارع. كان هو موظفاً صغيراً من قبل. استشعر أن في الموضوع شيئاً على غير ما يرام، فرفض الذهاب. فلم يبال وو سونغ باعتذاراته. وأجلسه إلى جانب تشاو.

استفهم وو سونغ: "من يعيش في الطرف الآخر من مشربك، يا عرابتي؟".

- الجد تشانغ. بائع العصائبية.

حدث أن كان تشانغ في بيته. أجفلته رؤية وو سونغ فسأل: "أيدور في خلدك شيء خاص، أيها المفوض؟".

- لقد أقلقت أسرتنا جيرانها قليلاً. ونودك أن ترشف قدحاً من الخمرة اللطيفة معنا.

احتجَّ الرجل العجوز: "أواه! لم أقدم لأسرتك أي عمل خاص. ففيم تدعوني؟".

- أرجو أن تهون عليك، وأن تحضر.

شده وو سونغ وطلب إليه أن يجلس إلى جانب ياو صائغ الفضة.

قد تسألون لماذا لا يقدم أحد من أولئك الذين حضروا باكراً على الذهاب؟ ذلك أنه كان هنالك جنود على البابين، الأمامي والخلفي، يحرسانهم!

دعا وو سونغ أربعة من الجيران، فغدا المجموع - بالإضافة إلى اللوتسة الذهبية والسيدة وانغ - ستة مدعوين. شد مقعداً مدوراً، وجلس في نهاية المائدة، وأمر الجنود أن يغلقوا البابين الأمامي والخلفي. وجاء الجندي الذي بقي في الغرفة الخلفية وصبَّ الخمرة. حيا وو سونغ المحتشدين في أدب: "أيها الجيران، صفحاً عن فظاظتي، وشاركوني في احتساء قليل من الخمرة".

أجاب الجيران في دماثة: "نحن لم ندعك إلى أية وليمة حينما عدت إلى البيت من رحلتك. وهذا أنت تجشم نفسك الصعاب من أجلنا!".

ابتسم وو سونغ: "هونوا عليكم الأمر. وأرجو ألا تسخروا من مائدتنا المتواضعة".

وبينا الجندي يصبُّ الخمرة استشعر الجيران في الدعوة ما وراءها. ولكنهم لم يعرفوا كيف يتصرفون. وبعيد احتساء ثلاث كؤوس نهض هو بائع الخمرة المبردة، وشرع يقول: "أنا مشغول...".

نبر وو سونغ في صوت عال: "لا تستطيع الذهاب الآن بعد أن حضرت. مهما يكن لديك من أشغال فينبغي أن تظل جالساً".

قرقع فؤاد هو مثل خمسة عشر دلواً في بئر فارغة. وخاطب نفسه قائلاً: "إذا كان على مثل هذه اللطافة لدعوتنا إلى تناول الخمرة هنا، فكيف يعاملني مثل هذه المعاملة؟ وفيم يرفض أن يتركني أذهب؟". ولكنه بقي جالساً في مقعده.

أمر وو سونغ: "جولة أخرى من الشراب".

أترع الجندي الأكواب للجولة الرابعة. وحين دارت الأكواب دورتها السابعة ارتسم الهلع على وجوه الضيوف.

صاح وو سونغ بالجندي: "ارفع هذه الأقـداح. سنشرب في ما بعد". ومسح وو سونغ المنضدة، فنهض المدعوون للانصراف، فنشر ذراعيه وأوقفهم.

- سنشرع الآونة في الحديث. هل بينكم أحد، أيها الضيوف الكرام، يجيد الكتابة؟

قال ياو، صائغ الفضة:

- هو تشنغ كينغ يكتب بصورة جيدة.

فخاطبه وو سونغ في كياسة: "اسمح لي أن أزعجك قليلاً".

وشمر عن كميه وأخرج من داخل ثيابه السكين. أمسك بها بأصابعه الأربع، وأشار بسبابته إلى صدره، وعيناه تحملقان في وحشية: "في حضوركم، أيها الضيوف الكرام، ينبغي على المجرم أن يدفع ثمن جريمته، والمدين أن يدفع دينه. ولا أطلب منكم سوى أن تكونوا شهوداً".

جذب بيده اليسرى امرأة أخيه، وأشار بيده اليمنى إلى السيدة وانغ. حملق الضيوف بعيونهم، وفغروا أفواههم، وراحوا يتبادلون النظر وقد هزت رعدة أوصالهم. ولم يتفوَّه أحدهم بأية كلمة.

قال وو سونغ: "أرجو ألا تنهالوا علي تقريعاً. ليس هناك ما يدعو إلى الخوف. أنا فظ ولكنني لا أبعث على الهبة. وشعاري هو العين بالعين والسن بالسن. لن يصيب أحدكم سوء. ولكنني أرجوكم أن تشهدوا هذا. إذا حاول أحدكم الذهاب، فلا يشدهكم أن أبدل نبرة صوتي وأطعنها ست طعنات، أو ربما أوردها حتفها، رغم أني قد أدفع حياتي ثمناً لذلك!".

جلس الضيوف في رعب، وقد جحظت عيونهم.

حملق وو سونغ في السيدة وانغ: "والآن أعيريني سمعك، أيتها الكلبة العجوز! أنت مسؤولة عن وفاة شقيقي! وأريدك أن تجيبي عن أسئلتي!".

استدار ونظر إلى اللوتسة الذهبية: "أيتها المومس! كيف رسمت خطتك وقتلت شقيقي؟ أخبريني الحقيقة فأوفر حياتك!".

- يا شقيق زوجي، أنت تتصرف بصورة حمقاء! شقيقك مات بمرض القلب، ولا علاقة لي بهذا الأمر!

قبل أن تنهي كلماتها غرز وو سونغ السكين في المنضدة، وقبض عليها من شعرها بيده اليسرى، وشق صدارتها بيده اليمنى، ورفس المنضدة، ورفعها عن الأرض في خفة، ورماها على ظهرها أمام مائدة المذبح، وانتصب فوقها. أمسك بالسكين مرة أخرى بيده اليمنى، وأشار إلى السيدة وانغ: "انطقي، أيتها الكلبة العجوز! وتأكدي من أن الحقيقة ما تقولين!".

عرفت العجوز أن السبيل قد سُدّ في وجهها. فقالت: "لا تفقدنَّ أعصابك، أيها المفوض. سأنطق!".

أمر وو سونغ الجندي أن يحضر الريشة والورق والحبر ويضعها على المنضدة. وأشار بسكينه إلى هو، الموظف السابق: "اكتب ذلك، أرجوك، كلمة بكلمة!".

أبدى هو موافقته. طحن الحبر، وأضاف إليه قليلاً من الماء، وتناول الريشة، وهيأ الورقة، وقال: "أيتها السيدة وانغ، أخبرينا الحقيقة!".

- لم تكن لي بالأمر حيلة، فماذا أقول؟

زمجر وو سونغ: "أيتها الكلبة العجوز! أنا أعرف كل شيء! وليس في مقدورك النجاة عن طريق الكذب! فإن لم تنطقي أنهيت حياة هذه البغي، ثم أضع لحياتك حداً، أيتها الكلبة العجوز!".

- وفر حياتي، يا شقيق زوجي! اتركني! سأتكلم!

أنهضها وو سونغ عن الأرض وجعلها تركع أمام مائدة المذبح: "تكلمي، أيتها الداعرة، وعجلي!".

أطاش الرعب صواب اللوتسة الذهبية. لم يكن أمامها خيار سوى أن تروي القصة بأكملها، ومبتدئة منذ اليوم الذي أصابت فيه شيمن تشينغ بقضيب الستارة. وكيف استغلتا موضوع خياطة ثياب الدفن حجة لمضاجعة شيمن، وكيف رفس هذا وو الأكبر بقدمه، وكيف هيأوا لتسميمه، وكيف علمتهما السيدة وانغ الأمر وحثتهما عليه. روت كل شيء من البداية إلى النهاية. وكان وو سونغ يسكتها بعد كل جملة كيما يتمكن هو من تدوينها.

صرخت السيدة وانغ: "أيتها الأفعى الخائنة! لقد أفسدت كل شيء! فكيف أنكر ما حدث؟ لقد أوقعت بي!".

واعترفت العجوز بدورها، فدوّن هو كل كلمة من كلماتها. ثم أرغمت المرأتان على وضع بصمتيهما على الورقة. ووقع الجيران الأربعة بأسمائهم وعلاماتهم.

أمر وو سونغ الجندي أن يقيد يدي السيدة وانغ وراء ظهرها بحزامه. ولفَّ الورقة التي حوت الاعترافين ووضعها في ثيابه. وأمر الجندي من بعد أن يدفئ خمرة الأضاحي أمام مائدة المذبح، ثم دفع المرأتين فأسقطهما على ركبتيهما أمام مائدة الذكرى. وصاح: "يا أخي، روحك قريبة. وفي هذا اليوم أنتقم لك".

أمر الجندي أن يشعل نسخ الأوراق النقدية. وخمنت اللوتسة الذهبية ما سيتلو ذلك. ففتحت فمها تود أن تطلق عقيرتها بالصراخ. جذبها من رأسها فقلبها على ظهرها، ووضع إحدى قدميه على كل من ذراعيها، ومزق لها الثوب عن صدرها. وفي مثل لمح البصر أغرز السكين في الصدر وقتلها. ثم أمسك بالسكين بين أسنانه، ومزق صدرها بيده وسحب قلبها وكبدها وأحشاءها ووضعها على مائدة الذكرى. وبحركة أخرى من السكين جزَّ عنقها وقطع رأسها. فتدفقت الدماء على الأرض.

غطى الجيران المحملقون وجوههم. أرهبتهم وحشية وو سونغ فما استطاعوا أن يعصوا له أمراً. وأرسل وو سونغ جندياً إلى الطابق العلوي يحضر لحافاً لفَّ به رأس اللوتسة الذهبية. ومسح سكينه، ودسها في جزمته، وغسل يده، وخاطب الضيوف الأربعة في نبرة توقير قائلاً: "أرجو أن تهونوا الأمور، ولكنني أرجو أن تنتظروني في الأعلى. سأرجع بعد قليل".

تبادل الجيران النظرات، ولم يجرؤوا على الرفض. فصعدوا إلى الطابق العلوي وجلسوا. أمر وو سونغ الجندي أن يرافق السيدة وانغ إلى الأعلى أيضاً، ويبقيها قيد الحراسة. وأقفل الباب المؤدي إلى الطابق العلوي وأمر الجنديين الآخرين أن يخفراه.

حمل رأس اللوتسة الذهبية ملفوفاً باللحاف واتجه إلى مخزن شيمن الطبي. حيا القائم على

العمل بقوله: "هل السيد الأكثر احتراماً موجود؟".

- انصرف لتوه.

- أرجو أن تسير برفقتي عدة خطوات. فلديَّ ما أهامسك به.

عرف الرجل وو سونغ، فما استطاع أن يرفض. قاده وو سونغ إلى زقاق جانبي، وما أسرع أن قست ملامح وجهه: "أتريد أن تحيا أو تموت؟".

- أيها المفوَّض، أنا لم أسبب لك أذية...

- إذا شئت أن تموت فلا تخبرني أين ذهب شيمن. وإذا أردت أن تحيا، فأخبرني أين أجده من دون لف أو دوران.

- لقد انصرف لتوِّه... مع أحد معارفه... إلى تلك الحانة الكبيرة في سفح جسر الليث...

استدار وو سونغ وتابع طريقه. شلَّ الرعب أطراف الرجل. ومرت عدة دقائق قبل أن يتمكن من العودة إلى المخزن الطبي.

في الحانة الواقعة عند جسر الليث استفسر وو سونغ من النادل: "مع من يشرب السيد الأكثر احتراماً شيمن؟".

- مع صديق. هما في الطابق العلوي المطلّ على الشارع.

صعد المفوض وو إلى الطابق العلوي. واسترق النظر من خلال نافذة في الجدار المطرز. كان شيمن جالساً في مقعد المضيف. وضيفه قبالته. وجلست المغنيتان إلى جانبيهما.

فتح وو سونغ اللحاف، والتقط الرأس الدامي بيده اليسرى، وأمسك بيده اليمنى السكين، ورفع ستارة الباب، ودلف إلى الغرفة، وألقى الرأس الملطخ بالدماء في وجه شيمن.

رأى شيمن وو سونغ، فصاح: "أواه!". ووثب على دكة، ووضع إحدى قدميه على حافة النافذة عازماً على الفرار. كان في طبقة عالية فخشي أن يقفز إلى الشارع واستبد به الهلع.

في مثل لمح البصر وثب وو سونغ إلى المنضدة ورفس الأقداح والأطباق عنها. وارتعبت المغنيتان. وتعثر الضيف الثري في هلع محاولاً الهرب، ولكنه سقط على الأرض.

ولأن وو سونغ اندفع ناحيته في وثبة وحشية، رفع شيمن يديه يصدّه عنه، وجعل يرفس بقدمه اليمنى. راوغه وو سونغ، ولكن الرفسة حطت على يده اليمنى فأطارت السكين منها. فوقعت على الأرض. واسترد شيمن جرأته، فضرب بيده اليمنى، ورفس بقدمه اليسرى صدر وو سونغ. تجنب وو سونغ الضربة. وقبض بيده اليسرى على شيمن بين رأسه وكتفه، ثم أمسك باليمنى به من قدمه اليمنى، ورفعه عالياً، وصاح: "ستهوينَّ إلى الأسفل!".

كان شيمن، أولاً، منهكاً من سماعه خبر شبح وو الأكبر. وكان، ثانياً، قد أغضب قوانين السماء. وثالثاً، من أين له أن يصد قوة وو سونغ الجبارة؟ كان رأسه إلى الأسفل، وقدماه إلى الأعلى، فهوى في وسط الشارع وحطَّ عليه على رأسه بضربة أفقدته نصف وعيه، وأجفلت السابلة.

نزل وو سونغ من على المقعد المدور، والتقط رأس اللوتسة الذهبية، ووثب من النافذة إلى الشارع. التقط السكين الساقطة واقترب من خصمه. كان شيمن مستلقياً على الأرض نصف ميت، لا

يتحرك فيه شيء غير عينيه. ضغط وو سونغ عليه، وقطع له رأسه بضربة واحدة من سكينه.

ربط الرأسين معاً من شعرهما، ورفعهما بيد واحدة، وحمل السكين باليد الأخرى، وقفل مسرعاً إلى شارع الحجر الأرجواني، وصاح بالجنديين أن يفتحا الباب. وضع الرأسين قرباناً على مائدة الذكرى وأراق قدحاً من الخمرة على الأرض احتفالاً.

قال منتحباً:

- يا أخي، روحك قريبة، فلتصعد إلى السماء! لقد انتقمت لك! وقتلت الزانيين! وسأحرق الآونة مائدة الذكرى!

أمر الجندي أن يصعد ويطلب إلى الجيران أن يهبطوا، كما أمره أن ينزل السيدة وانغ. واستلَّ سكينه مرة أخرى وأخرج الرأسين، وخاطب الجيران قائلاً:

- أرجو أن تصغوا إليَّ. فلديَّ ما أقوله بعد.

ضم الجيران الأربعة أيديهم، ووقفوا في أدب:

- تكلم، أيها المفوض! فنحن نصغي إليك!

قال وو سونغ بضع كلمات، ونتيجة لذلك ألقي بطل سلسلة جبال جينغيانغ أسيراً في السجن، ومفوض مقاطعة يانغقو انقلب إلى راهب جوّال.

ماذا قال وو سونغ؟

إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السابع والعشرون

ساحرة درب منغتشو تبيع خمرة مخدرة؛
والمفوض وو يلتقي تشانغ تشينغ عند ملتقى الطرق

خاطب وو سونغ الجيران الأربعة قائلاً: "الجريمة التي اقترفتُها للانتقام لشقيقي مناسبة ومعقولة. وعلى الرغم من أنها قد تعني الموت، فأنا لست بنادم. يؤسفني أني أثرت هلعكم. سوف أسلم نفسي الآن. ولا أعرف إذا كنت سأعيش أم أموت. سأحرق قبل كل شيء مائدة شقيقي التذكارية. فهل أزعجكم بالعمل على بيع ممتلكاتي لتسديد نفقات محاكمتي؟ سأسلّم نفسي اليوم إلى القاضي. وكل ما أطلبه منكم أن تشهدوا بالحقيقة، صارفين النظر عن أي اعتبارات أخرى".

أحرق مائدة الذكرى ونسخ الأوراق النقدية، ثم أحضر صندوقين من الطابق العلوي فتحهما ووزع محتوياتهما على الجيران، واتجه إلى دارة القضاء وهو يحرس السيدة وانغ ويحمل الرأسين معاً. وثارت البلدة صخباً. واصطف المشاهدون على جانبي الشوارع.

حين عرف القاضي اسم ذلك الذي يتجه إليه والسبب في ذلك أخذته رعدة. فاستدعى محكمته للانعقاد فوراً، وأحضر وو سونغ السيدة وانغ أمامه وركع. ووضع سكين الجريمة والرأسين أمام المنصة. ركع وو سونغ عن يسار، وركعت السيدة وانغ في الوسط، وركع الجيران عن يمين. وأخرج المفوض وو الاعترافات التي دونها هو وقرأها من بدايتها إلى نهايتها.

أمر القاضي مسجل المحكمة أن يستجوب السيدة وانغ. وكان جوابها متفقاً مع مضمون اعترافها. وشهد الجيران شهادة متوافقة. واستدعي الحانوتي خو ويون قه. فقدّم الاثنان بدورهما دليلاً واضحاً.

رجع جميع الذين لهم علاقة بالقضية إلى شارع الحجر الأرجواني يخفرهم ضابط المحكمة ومساعدو الحانوتي حيث جرى فحص جثمان اللوتسة الذهبية. ثم ذهبوا إلى الشارع خارج الحانة على جسر الليث لفحص جثمان شيمن. ودونت شهادتان، ورجع الجميع إلى مكتب المقاطعة وجرى تسليم الشهادتين. أمر القاضي أن توضع مخلعتان طويلتان حول عنقي وو سونغ والسيدة وانغ، وأن يلقى بهما في السجن. وحشر الشهود في محرس البوابة.

أعلن القاضي أن وو سونغ رجل شجاع ومستقيم. وتذكر المهمة التي عهد بها إليه فنفَّذها له في العاصمة، كما تذكر صفاته الطيبة الأخرى. ورغب من صميم فؤاده أن يسعفه بالعون. فاستدعى هيئة المحكمة، وخاطب أفرادها قائلاً: "وو سونغ هذا فتى مخلص ووفيّ. سنستبدل قرار إدانته على الوجه التالي: "كان وو سونغ راغباً في تقديم الأضاحي في ذكرى شقيقه، فعارضته زوجة أخيه، وهكذا دبَّ الخصام بينهما، ورغبت هي في تحطيم مائدة الذكرى، وحاول وو سونغ ردعها على

ذلك، فتعاركا، وفي هذه الأثناء أقدم على قتلها. أما شيمن تشينغ، وكان عشيقها والزاني بها، فتدخل في الأمر. وتعارك الرجلان، وهما ندان، على طول الطريق إلى جسر الليث، وهنالك قُتل العشيق".

قرئ نص الإدانة على وو سونغ والآخرين. وكتب القاضي قراراً يأمر فيه جميع من لهم بالقضية علاقة بالذهاب تحت الحراسة إلى ولاية دونغبينغ كيما يحسم الوالي القضية.

وعلى الرغم من أن يانغقو مقاطعة صغيرة فقد كان فيها رجال يتعشقون الشهامة. قدمت أسرها الشهيرة هبات من الفضة إلى وو سونغ. وأرسل له آخرون طعاماً وخمرة وأرزاً. ورجع وو سونغ إلى جناحه، وحزم أمتعته وعهد بها إلى واحد من جنوده. وأرسل إلى يون قه عشرين أو ثلاثين أوقية من الفضة ينفق منها على والده العجوز. وقدم أكثر من نصف عدد مرؤوسي وو سونغ إليه لحماً وخمرة.

قام المسؤولون في المقاطعة، مسلحين بأمر القاضي، بلفٍّ سجل الإحراق الذي أعده الحانوتي خو، والفضة التي أهداها شيمن له، والعظمتين المتفحمتين، والاعترافات وسلاح الجريمة، وأرسلوها مع الاتهام إلى ولاية دونغبينغ. وحين وصلوا إلى مكتب الوالي كان حشد صاخب قد تجمهر عند البوابات.

حين سمع الوالي تشين وين تشاو قدومهم استدعى مجلسه على الفور للانعقاد. كان تشين موظفاً ذكياً عارفاً بالأمر، فطلب أن يمثلوا في حضرته، وقرأ التقرير المرسل من ولاية يانغقو. ومن بعد أطال النظر في سجل الشهادات واستجوب كلاً من الشهود على حدة. وأمر أمين المحفوظات أن يحفظ هذه الوثائق وسلاح الجريمة، وأمر أن تستبدل المخلعة الثقيلة بأخرى خفيفة عن رقبة وو سونغ، وأن يلقى به في السجن. ووضعت مخلعة ثقيلة حول عنق السيدة وانغ وسمّرت على الفور، وزجَّ بها في زنزانة.

وسمح لموظفي المقاطعة بالعودة. أما الحانوتي خو ويون قه والجيران الأربعة فقد خاطبهم الوالي قائلاً:

- هؤلاء الستة يمكن أن يعودوا إلى بيوتهم. وليقيموا هنالك إلى أن نخطرهم. أما زوجة المسؤول الأول عن الجريمة شيمن تشينغ فيجب أن تبقى هنا في الولاية. وحين أتلقى تعليمات من السلطات الإمبراطورية أصدر حكماً في القضية.

رجع موظفو الولاية والأشخاص الستة إلى يانغقو. وبقي وو سنغ في السجن وأحضر له عدد من الجنود طعاماً.

كان الوالي تشين متعاطفاً مع وو سونغ، ويعتبره شخصاً شجاعاً نبيل المشاعر. وجعل يرسل بين الفينة والفينة من يسأل عنه. ونتيجة لذلك لم يطلب منه أي من السجانين درهماً، بل جعلوا يحضرون له طعاماً وشراباً. وخفف تشين التهم الموجهة إلى وو سونغ أكثر فأكثر، وأرسل القضية إلى المكتب المحلي للحكومة الإمبراطورية للتدقيق وإصدار الحكم. وأرسل في الوقت ذاته مبعوثاً أميناً إلى العاصمة يحمل رسائل سرية إلى بعض الأصدقاء في وزارة الإجراءات الجزائية.

تشاور هؤلاء الأصدقاء في القضية مع المكتب المحلي، ومن ثم اتخذوا القرار التالي:

- لما كانت السيدة وانغ تعمل على إثارة العلاقات الجنسية والرغبات الشهوانية، وكانت

قد حرَّضت المرأة على دسّ السم لزوجها، وكانت قد استفزَّت المرأة على الحيلولة بين وو سونغ وتقديم الأضاحي في ذكرى شقيقه، ونتيجة لذلك أقدم على قتلها؛ وكانت قد دفعت الرجل والمرأة إلى سلوك شائن، نتيجة لهذا كله أجمعت الآراء على إنزال عقوبة الموت بها. وعلى الرغم من أن وو سونغ كان يثأر لشقيقه حينما تشاجر مع الزاني شيمن تشينغ وقتله، وعلى الرغم من أنه سلّم نفسه طواعية، فلا يمكن أن يعفى من العقاب نهائيا، بل يجلد أربعين جلدة على ظهره، ويوشم بعلامة المجرمين، وينفى إلى مكان يبعد ألفي لي. وقد اقترف المتزانيان جريمة كبرى، ولكن موتهما يسدل الستار على جريمتهما. أما الأشخاص الآخرونِ الذين لهم علاقة بالقضية فهم أحرار في العودة إلى بيوتهم. وهذا القرار معجّل التنفيذ حالما يتم استلامه.

حين قرأ الوالي هذا القرار استدعى للمثول أمام محكمته كلاً من الحانوتي خو، ويون قه، والجيران الأربعة، وزوجة شيمن تشينغ. واستحضر وو سونغ من السجن. وتلي القرار الصادر عن المحكمة الإمبراطورية على الجميع. ونزعت المخلعة عن عنق وو سونغ وجلد أربعين جلدة. وعمل السجانون على ألا تجرح جسده أكثر من ست أو سبع جلدات. ثم وُضعت حول عنقه من جديد مخلعة من زنة سبعة كاتيات ونصف، ووشم وجهه بعلامة المجرمين على صفين. ونفاه الوالي إلى سجن في بلد منطقة منغتشو. وأذن للباقين بالعودة إلى دورهم عطفاً على منطوق الحكم.

واستحضرت السيدة وانغ من الزنزانة لتلاوة قرار الحكومة الإمبراطورية عليها. ودوّن قرار الإدانة في إعلان، ووقعت السجينة بما يفيد اطلاعها عليه. وأجلسوها مقيدة على "حمار" خشبي بثلاثة حبال، وسمّرت عليه بأربعة مسامير طويلة اخترقت أوصال جسدها.

وأصدر والي دونغبينغ أمره: "شرِّحوها!".

حمل أربعة من الرجال الأشداء السيدة وانغ و"الحمار" الخشبي، وساروا بها في الشوارع. وزمجرت طبول رهيبة، ونفخت أبواق مرعبة. سار الإعلان في المقدمة والحمالون من بعد، فيما كانت سكينان حادتان مرفوعتين عالياً، وباقات من الأزهار الورقية تهتزّ ملوِّحة، إلى أن وصل الموكب إلى وسط المدينة. وهنالك شرِّحت السيدة وانغ حتى الموت.

شاهد وو سونغ، بالمخلعة الخفيفة حول عنقه، مراسم الإعدام. وأعطاه جاره ياو النقود التي جمعها من بيع حاجيات المفوض، وألقى عليه تحية الوداع، وانصرف إلى منزله. وانتدب خفيران من المحكمة يقتادان وو سونغ إلى منغتشو. وهكذا نفذ قرار الوالي.

انطلق وو سونغ وحارساه. أعطاه وصيفه الأمتعة التي كانت يحرسها ورجع إلى يانغقو. وغادر الرجال الثلاثة ولاية دونغبينغ متمهلين على طول الطريق الملتوية إلى منغتشو. كان الحارسان يعرفان أن وو سونغ رجل شهم، فعاملاه في كثير من الاحترام. وحين أدرك منهما ذلك سخى عليهما بالنقود التي حملها في كيسه، واشترى لهما لحماً وخمرة في حانات القرى.

سنختصر الحديث في هذا الموضوع. فقد أقدم وو سونغ على القتل في مطلع الشهر الثالث، وأمضى شهرين في السجن، وهذا هو الآونة على الطريق. وهذا يجعلنا في منتصف العام. كانت الشمس المحرقة في السماء تشوي الحجارة وتذيب الحديد. ولم يكن في مقدورهم السير إلا في

برودة بكور الصباح.

بعيد حوالى ثلاثة أسابيع من الرحلة وصل الثلاثة إلى شارع عريض. فتوقفوا قرب ذروة إحدى التلال. وكان الوقت منتصف النهار.

قال وو سونغ: "دعانا من الاستراحة في هذا المكان. حين نصل إلى السفح من جديد سنعثر على مكان نأكل فيه ونشرب".

قال الحارسان: "فكرة رائعة". وفيما هم يلتفون حول قمة التلة رموا بأبصارهم إلى السفح. كان هنالك في الأسفل منزل من القش. وكان ثمة علم مثلث الشكل يشير إلى أن المكان يبيع الخمور يتدلى عن صفصافة ملاصقة لجدول مائي.

أشار وو سونغ بيده: "حانة".

أسرع الثلاثة ينحدرون عن التلة. والتقوا إلى جانب جرف عال بائعاً للوقود يشيل حملاً من الحطب. فحياه وو سونغ: "أيمكن أن تخبرنا باسم هذا المكان؟".

- هذه التلة هي هضبة طريق منغتشو، وهنالك في الأمام، إلى جانب تلك الأيكة من الأشجار الضخمة، تقوم هضبة مفترق الطرق.

استمر وو سونغ والحارسان في طريقهم. عند هضبة مفترق الطرق وقعت أبصارهم على شجرة ضخمة لا يستطيع أربعة أو خمسة أشخاص أن يطوقوها. وكانت كرمة كثيفة ذاوية تلتف حول جذعها، والحانة تقوم في ما وراءها.

كانت هنالك امرأة جالسة بالقرب من نافذة الحانة، ترتدي عباءة من حرير أخضر، وقد رصعت شعرها بدبابيس ذهبية متضوئة وزهور برية. حين وقع بصرها على وو سونغ والخفيرين يقتربون هبّت على قدميها واتجهت تبادرهم التحية. وكانت تنورة قرمزية اللون من حرير ممتاز تكسو النصف الأسفل من جسدها. وكان وجهها مرشوشاً بالذرور. تكشف عباءتها المفتوحة عن قميص حريري بلون الدراق فيه أزرار ذهبية.

قالت: "استريحوا قليلاً، أيها المسافرون. فلدينا لحم جيد وخمرة رائعة هنا. وإذا رغبتم في طعام شهي تستطيعون تذوّق زلابيتنا الكبيرة".

دلف الرجال الثلاثة إلى الحانة. وضع الحارسان عِصويهما إلى جانب منضدة ومقاعد مدورة مصنوعة من شجر السرو، وخلعا ترسيهما، وجلسا. وأنزل وو سونغ صرته عن ظهره ووضعها على المنضدة. وحلّ نطاقه وخلع قميصه.

قال الحارسان: "ليس ههنا من يرانا. سنخلع عن رقبتك المخلعة على مسؤوليتنا الشخصية. ويصبح في مقدورك أن تجرع جرعات الخمرة في يسر".

نزعا الأختام، وفتحا المخلعة، ووضعاها على الأرض تحت المنضدة. وتعرى الثلاثة حتى وسطهم وعلقوا ثيابهم على حافة النافذة. واقتربت المرأة منهم وقد رسمت على وجهها ابتسامة.

- كم تريدون من الخمرة؟

قال وو سونغ: "هوني عليك هذا الأمر. أدفئي الخمرة وداومي على إحضارها. واقطعي لي

أربعة أو خمسة كاتيات من اللحم. واجمعي الحساب فأدفعه لك".

- زلابيتنا الكبيرة طيبة المذاق أيضاً.

- أحضري لنا عشرين أو ثلاثين منها في طبق ثانوي.

ذهبت المرأة إلى مؤخر الحانة وأحضرت دلواً كبيراً من الخمرة. وضعت ثلاثة أكواب كبيرة على المنضدة وثلاثة أزواج من العصي، ثم شرحت ما يملأ طبقين من اللحم. وبعد أن دارت الخمرة على الثلاثة أربع مرات أو خمس مرات أحضرت سلة من الزلابية الساخنة من فوق الموقد ووضعتها أمام الرجال. فشرع الحارسان في الأكل على الفور.

سأل وو سونغ: "لماذا لا تقع عيوننا على زوجك هنا، يا سيدتي؟".

- إنه في رحلة تجارية.

- لا ريبة أنك تشعرين بالوحدة حيث تقيمين هنا بمفردك.

همست المرأة في سرها ضاحكة: "هذا المنفي المجرم يجرؤ على معابثتي! لا ريبة أنه تواق إلى الموت! الذبابة تبحث عن اللهيب. حسن، لقد جنت براقش على نفسها. سوف أذيقه الويل، هذا الأبله!". ورفعت صوتها قائلة: "كفَّ عن المزاح. واشرب بضعة أكواب أخرى من الخمرة ثم استروح الرطوبة تحت الشجرة. كما أن في مقدورك اللجوء إلى الراحة هنا في البيت إن طاب لك".

وهمس وو سونغ في سره: "إنها تدبر أمرا. سوف أسخر منها".

قال: "هذه الخمرة رديئة. إذا كان لديك أفضل منها فقد نحتسي قدحاً أو قدحين".

- لديَّ خمرة طيبة عابقة الشذا، ولكنها موحلة قليلاً.

- رائع. كلما أوحلت طابت.

كشرت المرأة مبتسمة، وانصرفت. وما لبثت أن عادت بوعاء من الخمرة العكرة.

نظر وو سونغ إليها، وقال: "هذه الخمرة رائعة حقاً. يطيب مذاقها حين تدفأ".

- أنت تعرف حقاً ماهية الخمور. سوف أدفئها لك حالاً.

ضحكت المرأة وخاطبت نفسها: "هذا المجرم المنفي يستأهل الموت حقاً. ويريدها دافئة! هذا يجعل المخدر يعمل بسرعة أكثر. لقد صار هذا الوغد طوع يدي!".

أدفأت الخمرة، وصبت ثلاثة أقداح وابتسمت: "جرب هذه، أيها السيد المحترم".

لم يستطع الحارسان انتظاراً، ورفعا قدحيهما وشربا.

قال وو سونغ: "لم أكن في يوم قادراً على اغتباق الخمرة من دون طعام. اشرحي لي قليلاً من اللحم".

ما إن ذهبت المرأة إلى مؤخر الحانة حتى أهرق وو سونغ الخمرة في ركن معتم. وتلمظ بشفتيه، وقال مستطيباً: "رائعة! هذه الخمرة تحمل في مذاقها نكهة طيبة!".

تظاهرت المرأة أنها تسعى في إحضار اللحم. وسرعان ما رجعت أدراجها، وضمت يديها، وصرخت: "فلتسقط! فلتسقط أرضاً!".

كان يبدو للحارسين أن السموات تدور بهما، فسقطا على ظهريهما وقد خرس لساناهما.

وتظاهر وو سونغ أن عينيه انغلقتا، وسقط إلى جانب مقعده المدوّر.

سمع المرأة تضحك وتقول: "لقد أمسكت بكم! أيها الحقيرون الأوغاد، لقد سقيتكم الماء الذي أغسل به قدميَّ!". ونادت: "حسن، أيها الفتيان! تعالوا، عجلوا!".

أسرع شخصان جلفان ضخمان إلى الغرفة، فأمرتهما أن ينقلا الحارسين خارجاً. نفذا الأمر ورجعا ينقلان وو سونغ. ولكنهما عجزا عن حمله. كان يستلقي هامد الحركة. بدا وكأنه يزن ألف كاتيا.

شخرت المرأة: "أحمقان. لا تجيدان غير التهام الطعام! ولا تجيدان شيئاً آخر! سأتدبر الأمر بنفسي!".

خلعت عباءتها الخضراء وقميصها القرمزي، وحملت وو سونغ بيديها العاريتين من دون جهد. فاحتضنها على الفور وضمها إلى صدره، ولف ساقيه حول فخذيها في لفة محكمة. فأطلقت المرأة صرخة حادة مثل حمار جريح، فرجع ذانك الجلفان مندفعين. زمجر وو سونغ في صوت راعد فجمدا في مكانيهما عاجزين عن الحركة وقد شلهما الرعب. وألقى وو سونغ المرأة على الأرض في قوة.

ترجت قائلة: "لا تقتلني، أيها الشاب الطيب". وهمدت حركتها.

في تلك اللحظة، وضع رجل حملاً من الوقود عند مدخل الحانة. وما إن أبصر وو سونغ يسحق المرأة على الأرض حتى أسرع من خطواته الوسيعة، وصاح: "دعها، أيها الشاب الطيب. وفِّر حياتها! فلديَّ ما أعالنك به".

وثب وو سونغ، ووضع قدمه اليسرى على المرأة المستلقية أرضاً، وواجه الرجل بقبضتين منضمتين. كان الرجل يلف رأسه بمنديل من الحرير الأسود، ويرتدي عباءة من قماش أبيض، ويلف ساقيه بلفافتين، وينتعل صندلاً من القش، وقد لفَّ وسطه بنطاق. وكانت له جبهة بارزة وخدان ناتئان. وتؤطر ذقنه لحية خفيفة. وكان في حدود الخامسة أو السادسة والثلاثين من العمر.

ضم يديه على صدره في احترام، وحملق في وو سونغ، واستوضح: "هل أسأل عن اسمك، يا سيدي؟".

- اسمي لا يتبدل سواء أسرت أو استرحتُ. أنا وو سونغ؛ المفوض!

- المفوض وو الذي قتل النمر على جبال جينغيانغ؟

- أنا هو.

سقط الرجل عن ركبتيه ساجداً: "تناهت إلى سمعي شهرتك منذ زمن طويل، وشاء حظي السعيد أن ألتقيك هذا النهار!".

- أأنت زوج هذه المرأة؟

- أجل، هي زوجتي. وهي"تملك عينين ولكنها لا تشاهد جبل تايشان". فيم تراها أثارت غضبتك، أيها المفوض؟ أرجو أن تصفح عنها، كرمى لخاطري.

فأنهض وو سونغ المرأة على قدميها وقال: "أرى أنكما لستما إنسانين عاديين، وأحب أن

أعرف اسميكما".

طلب الرجل من زوجته أن تلبس الثوب وسجد هو مع زوجته أمام المفوض.

قال وو سونغ: "أخشى أن أكون قد أسأت إليك قليلاً، يا أختاه. أرجو أن تصفحي عني".

- لم أستطع أن أتعرف على الرجل الطيب حين وقعت عليه عيناي، فارتكبت خطأ. أرجو أن تغفر لي. رجائي أن تدخل الرواق وتجلس.

- من تكونان؟ وكيف عرفتما اسمي؟

قال الرجل: "أنا من أسرة تشانغ. وأدعى تشينغ. وكنت أعنى بحديقة الخضار في دير غوانغمينغ. تحاورت في موضوع تافه فنفد صبري، وقتلت الرهبان وأحرقت الدير، وجعلته يباباً. ولكن لم يحدث شيء. لم تستفسر الشرطة عن الأمر، وغدوت قاطع طريق أعيش على هضبة بالقرب من تلك الشجرة الضخمة هناك. ورأيت ذات يوم رجلاً على الطريق يحمل شيئاً على حمالة. خطر لي أني أستطيع أن أتغلب عليه بسهولة نظراً لشيخوخته. وحين أسرعت لاختطاف ما يحمل بادرني بالعراك. فتصاولنا عشرين جولة، وتمكن هو بالعصا التي يحملها من طرحي أرضاً.

وتبين لي أنه كان قاطع طريق هو الآخر في يفاعته. ولما رأى مقدار ما أنا عليه من رشاقة صحبني معه إلى المدينة، وعلمني كثيراً من الحيل، وزوّجني من ابنته. ولكنني كرهت المدينة، فرجعت إلى هنا، وبنيت هذا البيت من القش، وافتتحت حانة.

والحقيقة أننا انتظرنا أن يمرَّ بنا مسافرون، فنقوم على خدمتهم. كنت أعرف عدداً من الرجال من أخوية الشجعان، وكانوا ينادونني تشانغ تشينغ جنائني الخضار. وكان اسم أسرة زوجتي سون. وقد تعلمت مهارات والدها جميعا، فعرفت باسم سون الساحرة.

وفيما أنا الآن في طريقي إلى البيت سمعت زوجتي تطلق عقيرتها بالصراخ، ولم أعرف أن السبب في صراخها هو لقاؤها إياك، أيها المفوض! وما أكثر ما كررت على مسمعيها هذا القول: هنالك ثلاثة أصناف من الرجال لا ينبغي أن تقدمي على إيذائهم. الصنف الأول هو الرهبان الجوالون. فهم يعيشون حياة قاسية وقد تخلوا عن العالم الأرضي. ورغماً عن هذا، فقد أقدمت على إيذاء فتى محترم، رائد سابق في حامية الجنرال العجوز تشونغ في ولاية يانآن، وهو رجل يدعى لو دا. وقد قتل شاباً يدعى سيد الغرب بثلاث ضربات من قبضته، وهرب إلى جبل ووتاي، وحلق شعره، وصار راهباً. ولأن ظهره كان موشوماً عرف في أخوية الشجعان باسم الحصيف لو الراهب الموشوم. كان يحمل عصا حديدية تزن حوالى ستين كاتيا. جاء إلى هنا وشرب من خمرتنا المخدرة. ولكنني حين رجعت ووقع بصري على عصاه، اعتبرنا نفسينا أخوين بالتبني. وسمعت أنه ذهب مؤخراً إلى دير اللؤلؤة الثمينة على جبل التنينين، وأنه غدا مع شاب آخر يدعى يانغ تشي الحيوان أزرق الوجه قاطعي طرق، وأنهما جعلا من الدير معقلاً لهما. وقد دأب على مراسلتي يحثني على الانضمام إليهما؛ ولكنني لا أستطيع الذهاب".

- هما مشهوران جداً في أخوية الشجعان.

- من سوء الحظ، كان هنالك راهب آخر، فتى مديد العود ضخم البنية، عمدت زوجتي إلى

تخديره. كنت قد رجعت متأخراً يومها. كانت أطرافه الأربعة قد قطعت. ولم يبق منه اليوم غير قضيب حديدي، وثوبه الأسود، وشهادة رهبنته. ليس هنالك شيء آخر له أهميته، في ما عدا شيئين آخرين، أحدهما سبحة مصنوعة من مائة وثمانين عظمة من رأس إنسان. والآخر سكينان من أنقى أصناف الفولاذ الناصع. لا ريبة أن ذلك الراهب قتل عدداً كبيراً من الرجال. وإلى هذا النهار لا تبرح السكينان تئنان في الليل. أشعر بالرعب لأنني عجزت عن إنقاذه. ولا أبرح أفكّر فيه في أغلب الأحيان.

وقلت لزوجتي: والصنف الثاني هو الفتيات المغنيات الجوالات. إنهن ينتقلن من مدينة إلى مدينة ولا يتعففن عن ارتكاب جميع أشكال النزوات ويتقبلن في صغار جميع أنواع الشتائم للحصول على المال. فإذا قتلنا إحداهنَّ انتشرت القصة فيغنين حول هذه القصة على المسرح. وتقول أخوية الشجعان إننا لا نعرف للشهامة معنىً.

وقلت لها: والصنف الثالث هو الرجال الذين صدرت بحقهم أحكام بالنفي. فثمة في صفوفهم فتيان على قدر كبير من الشجاعة، ولا ينبغي أن تلحقي بهم أذية. ولم يخطر لي في بال أنها لن تطيعني. وقد أساءت اليوم إليك، أيها المفوض. ومن حسن الحظ أني رجعت إلى البيت باكراً. كيف يمكن أن تقدمي على مثل هذا العمل، يا امرأة؟".

قالت الساحرة: "لم أقصد سوءاً أول الأمر. كانت صرته ملأى ثقيلة، وحسبت أنه يود اللهو بي. وهذا ما صبَّ في رأسي تلك الفكرة".

قال وو سونغ: "أنا رجل مستقيم. ولا أعبث بالنساء الطيبات. ولكنني لمحت هذه الأخت تراقب صرتي، فساورتني الشكوك. فتظاهرت بالبله عن عمد أحرِّضك على الكشف عن نياتك. فأهرقت الخمرة التي قدمتها لي وتظاهرت أني تخدّرت. وحين رفعتني عن الأرض طوّقتك وألقيت بك عليها. اصفحي عني، يا أختاه".

ضحك تشانغ تشينغ ملء شدقيه، ودعا وو سونغ إلى الرواق في مؤخر الحانة. قال بعد أن اتخذ كل منهما مقعداً: "ما هي جريمتك، أيها المفوض؟ هل تأذن لي في طرح مثل هذا السؤال؟ وإلى أين صدر الأمر بنفيك؟".

روى وو سونغ بالتفصيل كيف ولماذا قتل شيمن تشينغ وزوجة أخيه. أصغى المشربي وزوجته في سرور وانشداه.

قال تشانغ تشينغ: "لديَّ ما أقول. فهل يصغي إليَّ المفوض؟".

أجاب وو سونغ: "قل، يا أخي. تكلم كما تهوى".

قال تشانغ تشينغ جملاً قصيرة في هدوء وروية. ونتيجة لذلك أثار وو سونغ ضجة صاخبة في مدينة منغتشو، وثورة في معقل آنبينغ، وهوى رجل في مقدوره أن يجرَّ ثوراً أو فيلاً، وصُرع شجاع في مقدوره أن يصرع تنيناً أو يقبض على نمر.

فماذا قال تشانغ تشينغ لوو سونغ؟ إذا أحببت معرفة ذلك، فهلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثامن والعشرون

هيئة وو سونغ تهزُّ معقل آنبينغ؛
وشي ين يستردُّ الأيكة السعيدة

قال تشانغ تشينغ: "ليست القضية أني رجل شرير. لكن، ألا يفضل، بدلاً من أن نتعرَّض لمرارة السجن أن نقتل هذين الخفيرين، وأن تقيم أنت هنا فترة من الزمن؟ إذا رغبت في التوجه إلى التلال أرافقك إلى دير اللؤلؤة الثمينة على جبل التنينين، وتنضم هناك إلى الحصيف لو، ما رأيك في هذا؟".

- هذا لطف منك كثير، يا أخي. ثمة شيء واحد: قضيت عمري كله أصارع اللئام الأفظاظ. وهذان الخفيران عاملاني في كثير من اللطف طوال الطريق. فإذا قتلتهما فلن تغفر لي السماء. أنقذهما إن كنت تكنُّ لي شيئاً من الاحترام. ولا تؤذهما.

- إذا كنت على هذا القدر من الشهامة، أيها المفوض، فسوف أعمل على أن يستردا وعيهما.

أمر تشانغ تشينغ رجليه أن ينقلا الخفيرين من حيث ألقيا بهما، وأعدت زوجته شراباً. شدّ تشانغ أذني الخفيرين وصبَّ الشراب في حلقيهما. وبعد زمن قصير استردا وعيهما كمن صحا من حلم، ونهضا على أقدامهما. وتطلعا إلى وو سونغ.

- كيف سكرنا على هذا الغرار؟ لا ريبة أنها كانت خمرة مخدرة! نحن لم نكثر من الشراب، ولكننا غبنا عن الوعي. ينبغي أن نذكر هذا المكان، ونتوقف هنا فترة من الوقت في طريق عودتنا.

ضحك وو سونغ، وأهنف تشانغ وزوجته، وارتبك الخفيران.

ذبح المساعدان دجاجاً وإوزاً، وطبخا طعاماً، وجهزا منضدة بالأكواب والأطباق. أمرهما تشانغ أن يضعاها في الحديقة الخلفية تحت شجرة الكرمة، حيث دعا وو سونغ والخفيرين إلى الجلوس. وجعل وو سونغ الحارسين يجلسان إلى رأس المنضدة. وجلس وتشانغ قبالتهما. وجلست الزوجة جانباً. ودأب المساعدان على صب الخمرة وإحضار أطباق الطعام.

شرب تشانغ برفقة وو سونغ إلى أن خيمت الظلمة. وأطلع المفوض على السكينين. كانتا حقاً من أنقى الفولاذ، لم يتم صنعهما في يوم واحد. تحدث الاثنان عن ولائم الفتيان الطيبين في أخوية الشجعان، وعن أعمال القتل والحرق العمد.

قال وو سونغ: "إن سونغ جيانغ من شاندونغ، أو المطر في أوانه كما يسمونه، رجل مخلص كريم خارق الشجاعة، ولأن حادثاً وقع له اضطر، هو الآخر، أن يلجأ إلى مزرعة اللورد تشاي".

حين سمع الخفيران أسماء أصدقاء سجينهما تلبَّسهما الرعب، وخرا على ركبهما وسجدا.

قال وو سونغ: "لقد أثقلت عليكما بإحضاري إلى هذا المكان البعيد. فهل كنت أدعكما تفعلان ذلك لو أني انتويت قتلكما؟ لا تخافا حين أتحدث عن أخوية الشجعان. فأنا لم أؤذ في حياتي

رجلاً طيباً. استرخيا واحتسيا خمرتكما. وفي الغداة، حين نصل إلى منغتشو، سأعبّر لكما عن عميق امتناني".

في تلك الليلة، نام الجميع في منزل تشانغ.

في اليوم التالي، رغب وو سونغ في الرحيل، ولكن تشانغ تشينغ رفض أن يصغي إليه. أقام الولائم على شرفه ثلاثة أيام متوالية. وشكره وو سونغ كثيراً. وجعل الرجلان من نفسيهما أخوين بالدم، وكان وو سونغ الأخ الأصغر لأن تشانغ يكبره بتسع سنوات.

أخيراً رحل وو سونغ. أقام له تشانغ حفل شراب وداعيّاً، وأعاد له أمتعته وكيسه، وأهدى له عشر أوقيات من الفضة، ونفح الحارسين بقطعتين أو ثلاث قطع من الفضة. وأعطاهما وو سونغ الأوقيات العشر من الفضة أيضاً. ووضع مخلعته، وجرى ختمها من جديد. ورافقه تشانغ وزوجته إلى البوابة. قال وو سونغ وداعاً والعبرات في عينيه، ورحل في اتجاه منغتشو.

وصل الخفيران إلى المدينة قبيل الظهيرة. ومضوا جميعاً إلى محكمة الولاية وقدموا الوثائق المرسلة من ولاية دونغبينغ. قرأها الوالي، وقبل التهمة بحق وو سونغ، وكتب إيصالاً باستلام السجين أعطاه إلى الخفيرين وأمرهما بالعودة. ولن نتحدث عنهما بعد الآن.

جاء دستة أو أكثر من المساجين، وقالون: "إن كنت تحمل رسالة توصية أو شيئاً من الفضة في كيسك أيها الفتى الطيب، فأخرجها، وحين يحضر رئيس السجانين أعطه إياها. وعندها يسهّلون الأمور عليك حين يعرضونك للضرب الهادم للمعنويات. الأمور صعبة إن لم تكن تحمل له هدية. نحن مسجونون عاديون من أمثالك. وهذا ما يحدونا إلى تحذيرك. "حين تموت الأرنب يحزن الثعلب. وهما من مملكة حيوانية واحدة". أنت جديد هنا. وخشينا أن لا تكون قد سمعت بهذا".

- شكراً على ما تحذرونني به. إني أحمل شيئاً قليلاً معي من قبيل المصادفة. فإن توجه إليَّ بالسؤال بصورة لطيفة أعطيته منه شيئاً. وإن لجأ إلى القسوة في تصرفه فلن أعطيه فلساً!

صاح المساجين: "لا تتكلم على هذا الغرار، أنت تعرف المثل القديم: لا تخش شيئا من الموظفين إلا إذا كنت مرؤوساً لهم!، وتحت السقف الواطئ هل من يجرؤ على رفع رأسه؟ يحسن أن تكون صاحياً!".

قبل أن ينتهي المساجين من كلامهم هتف أحدهم: "جاء رئيس السجانين!". فتفرَّق الجميع.

فتح وو سونغ كيسه وجلس في غرفته منتظراً. دخل الرجل، وسأل: "من منكم السجين الجديد؟".

قال وو سونغ: "أنا هو، يا سيدي".

- أنت تملك عينين، أليس كذلك؟ فيم تنتظر مني أن أطرح أنا السؤال؟ سمعت أنك الرجل الذي قتل النمر في جبال جينغيانغ، وكنت مفوضاً للشرطة في مقاطعة يانغقو. فحسبت أنك تعرف شيئاً أو شيئين. كيف يمكن أن تكون على مثل هذا الغباء؟ إن كنت في مثل مكاني، هنا، يحسن بك أن تعرف مكانك!

- هذا الحديث كله لأنك تريدني أن أنفحك بهدية، فيما تخال لي؟ لن أدفع ولا نصف فلس!

لعلك تحب أن تتذوق طعم قبضتي الرائعتين! لديّ مال، ولكنني أحتفظ به لنفسي لشراء خمرة. فماذا ستفعل في هذا الخصوص؟ إن لم يرق ذلك في عينيك فبإمكانك إعادتي إلى مقاطعة يانغقو!

ضرب رئيس السجانين الأرض بقدمه وقد ثار غضباً، وتجمهر المسجونون الآخرون من جديد. قالوا موضحين: "ما كان ينبغي أن تردَّ عليه بالكلام. سوف تقاسي الويلات الآن. سوف يخبر قائد السجن، وموتاً تموت من دون ريب!".

- لست خائفاً. فليفعل ما يحلو له! سأكون مهذباً إن رغب في ذلك. وإذا كان يريدها معركة، فمعركة تكون!

في هذه البرهة جاء ثلاثة أو أربعة من الحراس ونادوا على السجين الجديد.

قال وو سونغ: "هذا سيدكم هنا. لم أبرح مكاني. ففيم تزعقون؟".

خفره الحراس إلى غرفة الاستجواب حيث كان قائد السجن قاعداً. ودفعه حوالى دستة من الجنود، وأمر قائد السجن أن ترفع المخلعة عن عنقه قائلاً: "أيها السجين، خذ علماً بما أقول: أمر إمبراطور الفضيلة العسكرية، إمبراطور سونغ الأول، أن من واجب المنفيين جميعاً، أول ما يصلون، أن يجلدوا مائة جلدة لتحطيم معنوياتهم. أيها الحراس، ابطحوه أرضاً!".

- لا يتحركنّ أحد منكم! إذا أردتم جلدي فاجلدوني! ولا ضرورة لأن يمسك بي أحد. إن تهربت من جلدة فلن أكون رجلا حقيقياً! وتستطيعون عندها إعادة الجلد من جديد! لن أكون الرجل الشجاع القادم من مقاطعة يانغقو إن أفلتت مني صرخة واحدة!

ضحك المحتشدون: "هذا الأحمق راغب في الموت. سنرى كم جلدة يقوي على احتمالها!".

- اضربوا بقسوة. فالضربات اللينة تضايقني!

أثارت هذه الملحوظة مزيداً من ضحكات المحتشدين في أطراف الغرفة. وفي هذه اللحظة، همس شخص يقف إلى جانب قائد السجن ببعض كلمات في أذنه. كان معتدل القامة في حدود الخامسة والعشرين من العمر، أشقر البشرة، له شاربان وعثنون. وكان منديل أبيض اللون يعصب رأسه، ويرتدي عباءة من حرير أسود. وكانت إحدى يديه مربوطة بضماد من حرير أبيض.

خاطب قائد السجن قائلاً: "يا وو سونغ، هل أصابك مرض خلال رحلتك إلى هنا؟".

- لا. شربت الخمرة، وأكلت الأرز واللحم. ومشيت دون إبطاء.

أعلن قائد السجن: "هذا الوغد أصابه مرض على الطريق. وأرى من ملامحه أنه تعافى منذ فترة وجيزة. سنؤجل الجلد في الوقت الراهن".

همس الجلادون المتحلقون حول وو سونغ: "قل إنك كنت مريضاً. عجِّل، فقائد السجن يعطيك فرصة! قل إنك كنت مريضاً ولننته من هذا الأمر!".

- لم أكن مريضاً. أبداً! اجلدوني، وانتهوا من هذا الأمر. لنعجلنَّ من دون تأخير. لا أريد أن تؤجلوا ديناً يمكن أن تحصّلوه في أي وقت آخر!

ضحك المحتشدون مرة أخرى، وشاركهم قائد السجن.

- أنت لم تكن مريضاً وحسب، ولكنك لا تبرح محموماً، حتى إنك تهذي! لا تلقوا إليه بالاً.

أيها الحراس، أعيدوه إلى غرفة منفردة.

أعاد ثلاثة من الجنود وو سونغ إلى غرفته. وأسرع المساجين يستجوبونه: "هل أحضرت رسالة من أحد أصدقاء قائد السجن؟".

- أبداً.

- إذاً، إن تأجيل الجلد دلالة سيئة. لسوف يقضون على حياتك هذه الليلة بالذات!

- كيف؟

- سيحضرون لك عشية قصعتين من أرز أسمر جاف. وحين تشبع من الطعام يأخذونك إلى قبو تحت الأرض، ويشدون وثاقك، ويلفونك في حصير من القش، ويسدون منافذك السبعة، ويسندونك إلى الجدار ورأسك إلى الأرض وقدماك عالياً. وفي أقل من نصف فترة حراسة تنزهق روحك. ويسمون هذه الطريقة "الانقلاب رأساً على عقب".

- أهذا أسلوبهم الوحيد؟

- هنالك أسلوب آخر هو أن يربطوك ويضعوا كيساً كبيراً من الرمل فوق جسدك. وتنزهق روحك في أقل من نصف فترة حراسة. وهذه الطريقة يسمونها "كيس الرمل".

- وماذا يفعلون أيضاً؟

- هاتان هما الطريقتان الرهيبتان. والوسائل الأخرى تكون ملطفة قليلاً.

في تلك البرهة دخل رجل يحمل سلة كبيرة. وسأل: "من هو السجين الجديد المفوض وو؟".

قال وو سونغ: "أنا. ماذا تريد؟".

- أمرني قائد السجن أن أحضر إليك هذه الوجبة الخفيفة من الطعام.

نظر وو سونغ في السلة. كان هنالك قليل من الخمرة، وطبق من اللحم، وطبق من العصائبية، وقصعة كبيرة من المرق. فتساءل: "هل هذا يعني أنهم سيجهزون عليَّ حالما أنتهي من الطعام؟ سآكل أولاً وأفكّر في الموضوع بعد ذلك!".

جرع الخمرة في جرعة واحدة، ومن بعد أتى على اللحم والعصائبية. وجمع الرجل الأطباق وانصرف. وجلس وو سونغ مستغرقاً في التفكير في غرفته. ضحك في برودة قائلاً: "لنرينَّ ماذا سيفعلون!".

عندما هبط الغسق جاءه الرجل من جديد بسلة أخرى.

سأله وو سونغ: "ماذا تريد مرة أخرى؟".

أجاب الرجل: "أمروني أن أحضر لك عشاءك!".

وضع أمامه عدة أطباق من الخضار، وزجاجة أخرى كبيرة من الخمرة، وطبقاً كبيراً من اللحم المقلي، وقصعة من الحساء، وقصعة ضخمة من الأرز.

خاطب وو سونغ قائلاً: "لا ريبة أنهم عازمون على قتلي بعد انتهائي من هذا الطعام. فليفعلوا ذلك! على أقل تقدير سأكون شبحاً شبعان! آكل أولاً، وأفكّر في ما أفعله ثانياً!".

التهم وو سونغ الطعام، وجمع الرجل الأطباق وانصرف. بعد برهة قصيرة، رجع برفقة شخص

آخر. كان أحدهما يحمل مغطساً للغسيل، والآخر دلواً من ماء ساخن. قالا: "حمامك جاهز، أيها المفوض!".

تساءل وو سونغ: "هل سيضربونني بعد أن أستحم؟ لا أبالي؟ سأستحم أولاً!".

صب الرجلان الماء في المغطس، فوثب وو سونغ فيه وجعل يفرك جلده. حين انتهى من ذلك أعطياه منشفة ضخمة. جفف نفسه وارتدى ثيابه. أهرق أحدهما الماء وحمل المغطس وانصرف. وعلق الآخر ظلة لطرد الذباب والناموس، ووضع على الأرض حصيراً ومخدة منسوجة من البامبو على السرير تجلب الرطوبة. وتمنى له ليلة سعيدة، وانصرف.

أغلق وو سونغ الباب وأقفله. وقال في نفسه: "فيم هذه الأمور كلها، على أية حال؟ ليفعلوا ما طاب لهم. وسوف نرى ما ينبغي أن نراه!".

استلقى وأغفى. ولم يحدث شيء في تلك الليلة.

نهض عند انبلاج الفجر وفتح الباب. جاءه الرجل الذي زاره الليلة الماضية بدلو من ماء ساخن. فغسل وو سونغ وجهه وجفف فمه، فجاءه رجل آخر ورجّل له شعره بمشط أنيق، وجمره في عقدة لطيفة في قمة رأسه، وربطه بمنديل. وجاء رجل ثالث يحمل سلة أخرج منها طبقاً من الخضار، وقصعة كبيرة من مرق اللحم، وقصعة أخرى من الأرز.

همس وو سونغ في سره: "مهما كان الموضوع الذي يطوف في أذهانهم فلن أتوانى عن الطعام!".

انتهى من الطعام فقدموا له قدحا من الشاي. وحين انتهى من الشاي تكلم الرجل الذي أحضر اللحم فقال: "هذا المكان غير مريح. إذا رغب المفوض في الانتقال إلى الغرفة هناك فسوف نساعده في ذلك".

قال وو سونغ في فكره: "ها قد آن الأوان! سأذهب برفقتك وأرى ما يحدث!".

جمع أحد الرجال أمتعة وو سونغ وفراشه. وقاده الآخر إلى غرفة أقرب إلى المدخل وفتح الباب. كانت الغرفة تضمّ سريراً نظيفاً، ومنضدة جديدة، ومقاعد مدورة. فدلف وو سونغ، وخاطب نفسه قائلاً: "ظننت أنهما يقودانني إلى القبو الأرضي، ولكنهما أوصلاني إلى هنا. هذه الغرفة أفضل من الغرفة الأخرى".

جلس وحيداً واستراح حتى أوان الظهيرة. وجاءه الرجل من جديد يحمل السلة وزجاجة من الخمرة. أخرج أربعة أصناف من الفواكه، ودجاجة مطبوخة، وكثيراً من الخبز المطبوخ بالبخار. قطع الدجاجة الطرية، وصب الخمرة، ودعا المفوض إلى الطعام.

تساءل وو سونغ: "ماذا يجري ههنا؟".

عند العشية قدموا له وجبة ضخمة أخرى، وأعقبها حمام واستراحة في الهواء الرطب. فحدّث نفسه قائلاً: "أصدق ما قاله المساجين لي. ففيم يعاملونني هذه المعاملة الطيبة؟".

في صباح اليوم التالي، قدم له الطعام والخمرة على مألوف العادة. وبعد الفطور طاف وو سونغ في أرجاء المعقل. كان المساجين يحملون الماء، ويقطعون الحطب، ويقومون بمختلف الأعمال

تحت السماء الفسيحة. كان الوقت منتصف الصيف، ولم يكن هنالك مكان يستظلون فيه من حرارة الشمس.

ضم وو سونغ يديه وراء ظهره، وسأل: "فيم تعملون تحت هذه الشمس اللاهبة؟".

كشَّر المساجين ضاحكين: "بالنسبة إلينا إنها متعة كبرى. من يجرؤ على الظفز بمكان ظليل وفرصة للراحة! هنالك أشخاص آخرون عاجزون عن دفع أية رشوة، وحبسوا في قبو كبير هم فيه موتى أكثر منهم أحياء، يمضون أيامهم مقيدين بسلاسل ثقيلة!".

وقام بزيارة لمعبد السجن. إلى جانب وعاء معدني لإحراق الصلوات المكتوبة كان ثمة حجر ضخم في وسطه حفرة تستخدم في المناسبات قاعدة لسارية العلم. جلس وو سونغ على الحجر فترة يستريح، ثم رجع إلى غرفته. كان جالساً في الغرفة مستغرقاً في التفكير حين جاءه رجل يحمل اللحم والخمرة.

لنعدلنَّ عن هذه الثرثرة. بقي وو سونغ في غرفته الجديدة عدة أيام يحتسي الخمرة ويلتهم الطعام من دون أن تبدو من السجانين دلالة على إيقاع الأذى به. أدهشه الأمر. وحين جاءه الرجل بالطعام عند الظهيرة ووضع السلة أرضاً لم يتمكن وو سونغ من السكوت أكثر مما فعل. وضع يده على السلة، وسأل: "من أية عائلة أنت؟ وفيم تداوم على تزويدني بالطعام والخمرة؟".

- أخبرتك ذلك النهار، أيها المفوض، إنني خادم أمين في منزل قائد السجن.

- من أصدر إليك الأمر تماماً بإحضار هذا الطعام؟ وماذا يريدون مني أن أفعل؟

- أنا أنفذ تعليمات ابن قائد السجن.

- أنا سجين، مجرم. ولم أؤد له أية خدمة. ففيم يبعث إليَّ ابن قائد السجن بالطعام؟

- لا أعرف ذلك يا سيدي. التعليمات الصادرة إليّ تأمرني بتقديم وجبات الطعام وأن أمتنع عن الكلام بين ثلاثة وستة شهور.

قال وو سونغ: "إنه لأمر غريب. أتحاولون تطريتي وتسميني وبعدها تجهزون عليَّ؟ لا أفهم لهذا اللغز حلاً. إن لم أعرف ما يعقب هذا الطعام والشراب، فلن أستطيع التهامهما في طمأنينة. أي صنف من الرجال هو ابن قائد السجن هذا؟ وأين تراه التقاني؟ إن لم تخبرني فلن أذوق هذا الطعام".

- أتذكر الرجل الذي كان في غرفة الاستجواب يضع على رأسه منديلاً أبيض ويضمد يده اليمنى أول يوم من وصولك إلى هنا؟ ذلك ابن قائد السجن.

- كان يرتدي عباءة سوداء ويقف إلى جانب قائد السجن؟

- هذا هو.

- أهو الذي أنقذني من الجلد المحطم للمعنويات إذاً؟

- هذا صحيح.

- أمر غريب! أنا من مقاطعة تشينغخه، وهو من منغتشو. ونحن لم نلتق من قبل. ففيم يكرمني على هذا الغرار؟ لا بدّ أن لذلك سبباً. يجب أن أستوضحك الأمر. ما اسمه؟

- شي ين. وهو ماهر في استخدام القبضتين والعصي، والجميع ينادونه شبل النمر ذهبي

العينين.

- يبدو أنه رجل طيب. أطلب إليه أن يزوروني. إن رضي أن يلتقيني التهمت طعامك. وإذا رفض فلن أذوق لقمة واحدة!

- أمرني ألا أعطيك شيئاً من التفاصيل، وألا أتحدث عن لقاء قبل مرور ثلاثة شهور أو نصف عام.

- هراء! أطلب إليه أن يحضر لزيارتي.

خاف الخادم، وأبدى معارضة شديدة. فغضب وو سونغ. فلم يبق أمامه غير أن يبدي موافقته.

جاء شي ين، وتهاوى عند قدمي وو سونغ ساجداً. فردّ له المفوض التحية.

قال وو سونغ: "لست أكثر من سجين تحت رحمتك. ولم أتشرَّف بمعرفتك من قبل. ومع هذا أنقذتني من الضرب في ذلك النهار، وهذا أنت تبعث إليَّ طعاماً وشراباً. وهذا ليس من العدل في شيء. وأنت لم تسألني أن أؤدي لك أية خدمة. مثل هذا اللطف الذي لا أستحقُّ يقلق نومي ويفسد شهيتي".

- لقد رعدت شهرتك، أخي الأكبر، في أذني منذ زمن بعيد. فكرهت المسافة الطويلة التي تفصل بيننا. وقد التقينا اليوم أخيراً. وأردت أن أقدم احتراماتي قبل زمن طويل. ولكنني لا أملك هدايا مناسبة، فساورني الخجل. ولم أجرؤ على زيارتك.

- قال خادمك إنك رفضت الحديث معي إلى ما بعد انقضاء ثلاثة أشهر أو نصف عام فماذا تبغي مني؟

- ذلك الجلف أخرق. ما كان ينبغي أن يقول ما قال.

- أكان ينبغي أن تحاورني على هذا الغرار الاحتفالي؟ لقد ألهبتني فضولاً. ماذا تريد مني على وجه الدقة؟

- إذا كان خادمي قد تكلَّم، ففي مقدوري إذاً أن أقول لك كل شيء. لأنك بطل كبير، ورجل حقيقي، فثمة ما أترجاه منك، وأنت قادر على إنقاذه. لن أسألك ذلك الآن باعتبار أنك سافرت مسافة طويلة للوصول إلى هنا. وقد خطر لي أن أمنحك فرصة عدة أشهر تستردّ خلالها قوتك.

ضحك وو سونغ ملء شدقيه: "السنة الماضية، بعيد ثلاثة شهور من هجمة البرداء، ثملت وقارعت نمراً على جبل جينغيانغ. وبثلاث ضربات ورفستين قضيت على حياته. فماذا لا أستطيع أن أفعل الآن؟".

- لا أظن أنه يحسن لي الحديث الآن. استرد قوتك فترة أخرى من زمن. وحين تتعافى تماماً، سأروي لك القصة بمجملها.

- أتقصد أني لم أسترد عافيتي بعد؟ حسن. لكم تقدِّر ثقل هذا الحجر الموضوع أمام المعبد؟

- قد يزن أربعمائة أو خمسمائة كاتيا.

- لنلقينّ نظرة. أتساءل ما إذا كان في طوقي أن أحركه من مكانه.

- أرجو أن تتناول قليلاً من الشراب أولاً.

- سيكون لدينا متسع من الوقت حين نعود.

سار الرجلان إلى المعبد. انحنى السجناء وحيوهما باحترام. هزَّ وو سونغ الحجر في سهولة، وضحك.

- هذه الحياة الرخية تفسدني. ولن أقوى على رفعه.

قال شي ين: "لا ينبغي أن تسخر. فهذا الحجر يزن أربعمائة أو خمسمائة كاتيا".

ضحك وو سونغ: "أتظن حقاً أني عاجز عن رفعه؟ تراجعوا، أيها الرجال، وانظروا إلى هذا".

خلع عباءته وربط كميه حول وسطه. عانق الحجر، ورفعه في يسر، ثم ألقى به بعيداً بيديه الاثنتين، فهوى على الأرض مرسلاً ضجة، وغرق في الأرض قرابة قدم وانشده السجناء المحتشدون.

قبض وو سونغ على الحجر بيده اليمنى ورفعه، وبخطفة واحدة طوَّحه إلى الأعلى. فارتفع قرابة عشر أقدام في الفضاء. والتقطه بيديه الاثنتين عندما سقط، ووضعه في رقة في مكانه الأصلي. والتفت ونظر إلى شي ين والمساجين. لم يتورد له وجه، ولم يتنفس في صعوبة، ولم يخفق قلبه بشدة.

لفَّه شي ين بذراعيه، ثم سجد له: "مذهل، يا أخي! يا لك من قوي حقاًا!".

خر المساجين جميعاً على ركبهم: "أنت شجاع حقيقي!".

رافق شي ين وو سونغ إلى منزله الخاص ورجاه أن يجلس.

قال المفوض: "أخبرني الآن، ما الذي تريدني أن أفعل؟".

- أرجو أن تجلس فترة. سرعان ما يصل والدي لرؤيتك. وعندها أخبرك.

- أنت تريد رجلاً ينفذ لك مأربة، فلا يهن عزمك في الحديث! ليس هذا أسلوباً في الحصول على ما تبغي. لو كان الأمر يتطلب طعناً أو تمزيقاً، فلسوف أنجزه لك! لن أكون رجلاً إن كنت أتزلف إليك!

ضم شي ين يديه في احترام، وتكلم في آخر المطاف. ونتيجة لذلك اكتشف وو سونغ مهارة ذلك الرجل المدمرة، وأبدى من جديد شجاعته بإزهاق روح النمر. والحقيقة أن قبضتيه انهالتا مثل الرعد، ورفساته الطائرة زوبعت كالريح والمطر.

ترى، ماذا قال شي ين لوو سونغ؟ إذا أحببت معرفةَ ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل التاسع والعشرون

وو سونغ السكران يضرب جيانغ حارس البوابة العملاق؛ وشي ين يسيطر مرة أخرى على منشأته في منغتشو

قال شي ين: "أرجوك أن تجلس، يا أخي. وسأروي لك قصتي حرفاً حرفاً".

قال وو سونغ: "لا تتحفظ في حديثك أعطني النقاط الرئيسة".

قال شي ين: "تعلمت منذ طفولتي المثاقفة بالرمح والعصا عن أساتذة في أخوية الشجعان. وطارت لي شهرة في أرجاء منغتشو باسم النمر ذهبي العينين. وخارج البوابة الشرقية من هذه البلدة سوق قروية تدعى الأيكة السعيدة، يلتقي فيها تجار من شتى أنحاء خبي وشاندونغ لممارسة التجارة. وفي القرية ما ينوف على مائة حانة كبيرة، وعشرين أو ثلاثين من بيوت القمار، ومخزن لصرف العملات. وباعتباري مقاتلاً موهوباً ذهبت إلى الأيكة السعيدة مع ثمانين أو تسعين من السجناء الأشداء وافتتحنا حانة. وفرضت على كل مشروع أن يؤديني إتاوة منتظمة. حتى المغنيات اللواتي يمررن بالقرية كان عليهن أن يزرنني قبل عرض تجارتهنَّ. وراح المال يتدفق عليَّ، فخلال شهر واحد أجمع فيه بين مائتي وثلاثمائة أوقية من الفضة. وعندها قدم تشانغ، قائد حامية المعقل، من شرقي لوتشو. وأحضر معه رجلاً يدعى جيانغ تشونغ المعروف بين أخوية الشجعان بجيانغ حارس البوابة العملاق لأنه ضخم البنية مفتول العضل. وفضلاً عن ذلك، فقد كان بارعاً في استخدام السلاح، وأعجوبة في الصراع ورهيباً في المثاقفة والمصارعة. وهو يتباهى قائلاً: "قضيت ثلاث سنوات أتنافس مع الآخرين في جبل تايشان فلم أجد من يضارعني قوة. لا يوجد ندٌّ لي تحت السماء!" وانتقل ببساطة وسيطر على المنطقة التي بسطت عليها نفوذي. وحين حاولت أن أوقفه عند حدّه ضربني علقة طوحتني في الفراش طوال شهرين. لقد رأيتني ذلك النهار وقد عصبت رأسي وضمدت يدي. ولم تبرأ جراحي بعد".

وأضاف شي ين قائلاً: "وقد انتويت أن أرافق رجالي وأحسم النزاع معه. ولكنه كان يحظى بمعونة قائد حامية القائد تشانغ. فإذا أثرت شجاراً فلسوف أدخل نزاعاً مع الحامية. وهكذا قعدت أغلي من الغضب ولا أستطيع الانتقام لنفسي. وقد عرفت منذ زمن بعيد أنك محارب عظيم ورجل عدل، يا أخي. فإذا استطعت مساعدتي في الاقتصاص من ذلك الوغد، فسيكون في وسعي أن أغمض عينيَّ في سلام حين أموت. ولكنني كنت خائفاً لأنك قمت برحلة طويلة شاقة ولم تسترد قواك بعد. فأردت أن أنتظر عدة شهور إلى أن تسترد عافيتك تماماً، وعندها أنفض إليك جملة الخبر. ولم أتوقع أن يعمد ذلك الخادم الأبله إلى الثرثرة. هذه هي القصة بأكملها".

ضحك وو سونغ: "ما هو عدد الرؤوس التي يملكها حارس البوابة العملاق، وما عدد

سواعده؟".
- إنه يملك رأساً واحداً وذراعين. كيف يمكن أن يكون له أكثر من ذلك؟
- لو كان يملك ثلاثة رؤوس وست أذرع مثل الطفل ني تشا، فقد كان يمكن أن يهرق ذلك شيئاً من القلق في صدري. ولما كان لا يملك أكثر من رأس واحد وذراعين، ففيم يثير فيَّ الخوف؟
- المشكلة أني لست قوياً وماهراً بما يكفي لصرعه.
- أنا لا أتباهى، ولكنني قضيت حياتي أصرع الأفظاظ والأوغاد والأدنياء. وإذا كانت الحال على ما تقول، فماذا ترانا نفعل هنا؟ أحضر قليلاً من الخمرة نشربها على الطريق. سأذهب برفقتك. وستشاهدني أصرعه مثلما فعلت بالنمر! إذا ضربته بقسوة وأزهقت روحه فسأرضى طواعية أن أقدم حياتي ثمناً لذلك!
- اجلس وانتظر قليلاً، يا أخي. فوالدي يرغب في رؤيتك. وحين يحين موعد الذهاب نذهب. لا ينبغي أن نندفع بسرعة. غداً سأبعث رجلاً يتقصى الأمر. إذا كان الوغد في منزله فسنذهب بعد غد. وإن لم يكن في بيته، فسنبحث الأمر في ما بعد. التهور يثير العشب ويوقظ الأفعى. ولن نفعل حسناً إن احتال علينا.
- لا أعجب أنه أخافك! فأنت لا تتصرف تصرُّف الرجال أبداً. إن كنا سنذهب، فلنذهب الآن! لا تبال بالوغد، أو اليوم الذي يعقبه. هيا بنا! من يبالي إن كان يترقب قدومنا!
في هذه اللحظة، استدار قائد السجن العجوز حول الستارة ودخل، والتفت إلى وو سونغ قائلاً: "كنت أصغي إلى حديثكما منذ فترة من الزمن. تسرني رؤيتك. أنت بالنسبة إلى ولدي مثل الشمس التي تطل من وراء السحب! أرجو أن ترافقني إلى الغرفة الخلفية فترة من الزمن".
تبعه وو سونغ، ودعاه العجوز إلى الجلوس.
احتجَّ وو سونغ قائلاً: "أنا سجين. وأتهيَّبُ الجلوس في حضرتك".
- لا تقل مثل هذا الكلام، أيها الشجاع. فقد كان ولدي سعيد الحظ بالعثور عليك. ولا حاجة إلى الرسميات.
ترجى وو سونغ: "اعذرني إذاً". وجلس قبالة قائد السجن، ووقف شي ين إلى جانبه.
استفسر وو سونغ: "فيم تظل واقفاً؟".
- والدي يجالسك، يا أخي. أرجو أن تعتبر نفسك في بيتك.
- أشعر بالضيق حين تعاملني بصورة رسمية.
- إذا كان الشجاع يصرُّ، ولم يكن هنالك من دخلاء...
وأشار قائد السجن بعد هذا القول إلى ولده للجلوس.
جلب خادم الخمرة والمشهيات، وقدّم قائد السجن بنفسه قدحاً مترعاً لوو سونغ، قائلاً: "الجميع يكنون أسمى الاحترام لشجاعتك، أيها المحارب. كان ولدي يقوم بعمله في الأيكة السعيدة لا من أجل الطمع في الكسب، بل كيما يدخل تحسينات على مظهر مقاطعتنا وأرضها. وعندها جاء جيانغ حارس البوابة العملاق عنوة واحتل مكانه بدعم من الحامية. وحده محارب صنديد من أمثالك

يستطيع أن يثأر لهذه الإهانة. فلا ترفض رجاء ولدي. اشرب هذه الكأس، واقبل سجداته الأربع، واسمح له أن يناديك بأخيه الأكبر دلالة على احترامه".

- كيف أستطيع، أنا الرجل الذي لا يملك موهبة أو معرفة، أن أفعل هذا؟ إذاً، أنا أدفع حظي قدماً إلى أبعد الحدود.

شرب وو سونغ الخمرة، وسجد شي ين له أربع مرات. فردَّ التحية بمثلها، واعتبرا نفسيهما أخوين بالدم، ونهل وو سونغ الخمرة في سخاء. وما أسرع أن سكر، فساعداه في الوصول إلى غرفته. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

في اليوم التالي، تشاور شي ين ووالده. قال قائد السجن: "لا ريبة أنه يعاني من آثار تلك الخمور التي احتساها في الليلة الماضية. ولا نستطيعنَّ سؤاله أن يذهب هذا النهار. سنقول له إن الرجل الذي أرسلناه يتقصى الأمور يقول إن جيانغ ليس في منزله، ونؤجل الموضوع يوماً آخر".

وهذا ما فعله شي ين حين التقى وو سونغ، وأضاف: "سنباشر العمل غداً صباحاً بعيد طعام الفطور".

قال وو سونغ: "حسن. سيتوجب عليَّ أن أكتم غضبي يوماً آخر!".

أنهيا طعام الفطور، وارتشفا قليلاً من الشاي، وخرجا يطوفان في أرض السجن. وحينما رجعا جلسا يتحدثان في قاعة الضيوف في موضوع تقنية المثاقفة بالرمح، ويقومان بجولات تدريبية بالقبضات والعصي.

عند الظهيرة، دعا شي ين وو سونغ إلى منزله، فأكلا وشربا عدداً من الأكواب. كان في نية وو سونغ الاستمرار في اغتباق الشراب، ولكنه لمح شي ين يعزمه على مزيد من الطعام. نفر من هذا الأمر، وحين آب أخيراً إلى غرفته سأل الخادمين اللذين حملا له الماء الساخن حول ذلك الأمر: "فيم كان السيد الصغير يقدم لي اللحم فقط بدلاً من أن يتركني أحتسي مزيداً من الخمرة؟".

- نصارحك القول، أيها المفوض، فنقول إن قائد السجن والسيد الصغير تشاورا في الأمر. كانا عازمين بادئ الأمر على إرسالك إلى الأيكة السعيدة هذا النهار، ولكنهما خافا إهمال الأمر لأنك كنت سكران الليلة الماضية. فأخفيا الخمرة كيما تتمكن غداً من الذهاب وأنت في أحسن حال.

- حسبا أني سكران ولن أكون كفؤاً للعمل؟

- أجل.

انتظر وو سونغ طلوع النهار على أحرّ من الجمر. نهض باكراً، وغسل وجهه ونظف أسنانه، وعصب رأسه بمنديل، وارتدى عباءة بلون التراب، ونطاقاً حريرياً أحمر اللون، ولفائف حول ساقيه حتى ركبتيه، وصندلاً من قش له ثمانية سيور جلدية. وغطى الوشم المرسوم على وجنته باللصوق. وجاءه شي ين ودعاه إلى منزله لتناول طعام الفطور.

حين انتهى وو سونغ من الطعام قال شي ين: "لدينا خيول مسرجة في الإسطبل، جاهزة للانطلاق".

- وما حاجتي إلى الحصان؟ قدماي كبيرتان. هنالك شيء وحيد أحتاجه.

- أرجو أن نتحدث بحرية، يا أخي. وهل هنالك ما أرفض تقديمه لك؟
- بعد أن نغادر المدينة فلنتصرف على أساس "لا تمرّ واحدة قبل حصولك على ثلاث".
- ماذا تقصد من هذا الكلام؟ أنا لا أفهم.

ضحك وو سونغ: "إذ أردتني أن أضرب جيانغ حارس البوابة العملاق، فينبغي أن تدعوني إلى ثلاث طاسات من الخمرة في كل حانة نمرّ بها".

قال شي ين في نفسه: "المسافة بين البوابة الشرقية للمدينة والأيكة السعيدة لا تزيد عن أربعة عشر أو خمسة عشر لياً. وهنالك حوالى دستة من الحانات على الطريق. فإذا شرب في كل منها ثلاث طاسات من الخمرة فهذا يعني ستاً وثلاثين طاسة قبل وصوله إلى هناك. وسوف يتعتعه السكر. هذا لن يكون".

ضحك وو سونغ مرة أخرى: "أنت تخشى ألا أكون قادراً على القتال؟ الحقيقة أني لا أحسن التصرف من دون الخمرة. فكلما شربت منها تحسنت حالي. لا أستجمع كامل قواي إلا حين أكون سكران. لو لم تمدني الخمرة بالقوة في جبال جينغيانغ، فهل كنت أستطيع أن أقتل ذلك النمر الضخم؟ أحتاج إلى وفرة من الشراب قبل أن أباشر العمل. وعندها أملك القدرة والروح معاً".

- لم أعرف ذلك يا أخي. لدينا خمرة جيدة كثيرة في البيت. وقد خشيت أن تضعف الخمرة قواك، وهذا ما جعلني أحجم عن تقديمها لك البارحة. إذا كان الشراب هو الذي يمدك بالقوة، فسأرسل خادمين يسبقاننا مع قليل من أجود أصناف الخمرة وشيء من الطعام، وينتظراننا على الطريق. وعندها نستطيع أن نتباطأ في السير خلال رحلتنا.

- هذا رائع. سأكون متخماً حين أصارع جيانغ حارس البوابة العملاق، من دون خمرة تخذلني مهارتي. سأجلده كرمى لك وأجعل المشاهدين جميعاً يضحكون ملء أشداقهم!

أتمّ شي ين الاستعدادات الضرورية، وأمر خادمين أن يسبقاهما حاملين سلالاً من الخمرة والطعام، وأن يحملا كمية من النقود النحاسية. وأمر قائد السجن سراً عشرين خادماً أن يلحقوا بوو سونغ تأهباً لأي طارئ.

غادر شي ين ووو سونغ معقل آنبينغ، وخرجا من مدينة منغتشو عبر البوابة الشرقية. وقبل أن يمشيا خمسمائة خطوة رأيا إلى جانب الطريق بناء يتدلى من طنفه علم يدل على أنه حانة للشراب. كان الخادمان اللذان حملا الطعام والشراب ينتظران هنالك. جلس شي ين ووو سونغ في الحانة. وضع الخادمان المشهيات أمامهما وصبا الشراب.

قال وو سونغ: "أريد طاسة كبيرة، لا صغيرة. وثلاث طاسات".

وضع الخادم طاسةً كبيرة أمامه وملأها. واغتبق وو سونغ ثلاث جرعات متوالية. وجمع الخادمان الأواني الفخارية وأسرعا بالرحيل. فضحك وو سونغ.

- هذا يثير جوانب شهيتي. هيا بنا.

غادرا الحانة. وعلى الرغم من أن نسائم الخريف الذهبية بدأت، لكن حرارة الصيف ظلت لاهبة، ففك الاثنان عباءتيهما، وبعد مسيرة لي آخر وصلا إلى مكان لا يعتبر قرية أو قرية صغيرة.

ولكنهما لمحا علم الحانة يتدلى عن شجرة. وعثرا في أيكة إلى جانب الطريق على مخزن صغير يبيع شراباً بسيطاً من صنع محلي، فتوقف شي ين.

- ليس لديهم ههنا غير شراب ريفي بسيط. فهل يعتبر هذا المكان حانة أم لا؟

- إنه يضع علماً للحانات، وهذا يقع تحت قاعدة "لا تمرر واحدة قبل حصولك على ثلاث".

دخل الرجلان وجلسا. وضع الخادمان طاسات الشراب والمشهيات وصبا الخمرة. احتسى وو سونغ ثلاث طاسات ونهض. وجمع الخادمان الأواني الفخارية وأسرعا أمامهما. وغادر شي ين ووو سونغ الحانة. ولم يقطعا ليين حتى عثرا على حانة أخرى. فنهل وو سونغ ثلاث طاسات وانطلق في رحلته.

كيما نختصر الحديث نقول إنه شرب ثلاث طاسات من الخمرة في كل حانة مرا بها. وتراءى لشي ين، بعد عشر أو خمس عشرة وقفة على الطريق، أن وو سونغ بقي صاحياً لم تؤثر الخمرة فيه.

سأل المفوض: "كم المسافة للوصول إلى الأيكة السعيدة؟".

- ليست بعيدة. قاربنا على الوصول. هنالك في البعيد. حيث تلك الأشجار.

- حين نصل إلى هنالك جد لنفسك مكاناً وانتظرني. سأعثر عليه بنفسي.

- عظيم. أنا أعرف المكان جيداً. حذار. لا تستهن بقوة عدوك.

- لا تقلق. فليذهب الخادمان برفقتي. إذا كانت هنالك حانة على الطريق، فأنا لن أتوانى عن الشرب.

أمر شي ين الخادمين بمرافقة وو سونغ، وانصرف.

خلال ثلاثة أو أربعة ليات من الطريق احتسى وو سونغ أكثر من عشر طاسات من الخمرة.

كان قد حان أوان الظهيرة، والحرارة على أشدها رغم النسيم اللطيف، وتفاقمت حرارة الشراب في جوف وو سونغ وماجت، فنشر عباءته. كان نصف سكران، ولكنه تظاهر بالسكر تماماً وجعل يتمايل ويتأرجح. وفيما هم يقتربون من الأيكة أشار أحد الخدم بيده قائلاً: "هذه حانة جيانغ عند مفترق الطريق ثلاثي الشعب".

- حسن. ابتعدا وتواريا عن النظر. تستطيعان الحضور بعد أن أطرحه أرضاً.

دار وو سونغ حول مؤخر الأيكة، فرأى شاباً ضخماً فظ الملامح يرتدي عباءة بيضاء ويحمل مذبة للذباب يجلس في مقعد عريض تحت ظلال شجرة خرنوب. أطال وو سونغ النظر إليه متظاهراً بالسكر.

- لا بدَّ أنك جيانغ حارس البوابة العملاق.

استرسل في سيره. وبعدما اجتاز أربعين أو خمسين خطوة قرأ ما كتب على العلم المثلث الذي يتدلى عن عمود تحت إفريز الحانة الكبيرة: "إطلالة على النهر". وكانت هنالك رايتان مثلثتان أخريان مرصعتان بالذهب معلقتان إلى عمود مدهون باللون الأخضر المشرق كتب عليهما: "العالم ينفسح بعد السكر" و"الأيام تطول إلى جانب جرة الخمرة".

وكانت هنالك ظلة إلى جانب الساحة تضمّ منضدة جزار، وكتلة خشبية ضخمة، وسكاكين

وأسياخاً. أما الظلة على الجانب الآخر فتضم موقدة وسلة للكعك المحلّي.

في الداخل، ثمة ثلاث جرار عريضة للخمور على صف واحد نصف مغروسة في الأرض الترابية وكل منها نصف مملوءة بالشراب. وكانت امرأة فتية تجلس وراء مكتب مغلق في وسط الغرفة. إنها المحظية التي حصل جيانغ عليها في منغتشو حيث تعمل مغنية موهوبة في أوبرا البلاط تنشد مختلف الألحان في بيوت اللهو في الجانب الغربي من المدينة.

شاهد وو سونغ هذه الأمور كلها بعينيه الثملتين، ثم دخل الحانة وجلس قبالة المكتب. وضع يديه على المنضدة، وجعل يطيل النظر إلى المرأة الفتية. وما إن انتبهت إلى نظراته حتى أدارت رأسها وتطلعت ناحية أخرى.

كان هنالك ستة أو سبعة من الخدم. ضرب وو سونغ على المنضدة بقبضته صائحا: "أين المضيف؟".

جاء رئيس الخدم، وقال: "كم تريد من الخمرة، يا سيدي؟".

- مكيالين. لكن، فلنذق عينة منها أولاً.

طلب الخادم من المرأة وراء المكتب أن تصب مكيالين من الخمرة. أخذ من الدلو الذي ملأته جرعة صغيرة أدفأها، ووضعها أمام وو سونغ: "إليك هذه الجرعة، يا سيدي، ذقها".

شمها وو سونغ، وهزَّ رأسه: "ليست جيدة. هات غيرها".

أدرك الخادم أنه سكران. فذهب إلى المكتب: "لنسخرنّ منه، يا سيدتي، ولنعطه شيئاً آخر".

أعادت المرأة الشابة الخمرة إلى مكانها واغترفت له من شراب من الصنف الأول. ومرة أخرى أدفأ الخادم قليلاً من الشراب ووضعه أمام وو سونغ، فذاقه. قال: "هذه الخمرة ليست جيدة أيضاً. أبدلها، عجل، فأصفح عنك".

ابتلع الخادم غضبه، ورجع إلى المكتب. قال: "أبدلي هذه الخمرة مرة أخرى بشيء أفضل، يا سيدتي. لا فائدة من الجدال مع أمثاله فهو سكران يبحث عن المشاكل. فلنقدم له أجود الأصناف".

اغترفت الشابة مكيالاً من أفضل الأصناف. فحمله الخادم إلى المنضدة، وأدفأ قليلاً منه تذوقه وو سونغ.

- الآن، هذه الخمرة لا بأس بها! أخبرني، ما اسم صاحب المكان؟

- يدعى جيانغ.

- ولِمَ لا يدعى لي؟

سمعت المرأة ذلك، فغمغمت: "أين شرب هذا الوغد فسكر؟ من طلب إليه أن يحضر إلى هنا لتناول الشراب؟".

قال الخادم: "هو ريفي أخرق من الغابات، يثرثر ويلغو بما طاب له!".

سأل وو سونغ: "ماذا قلت؟".

- كنا نتبادل حديثاً خاصاً. اشرب خمرتك، يا سيدي، وانصرف إلى شؤونك.

- أيها الخادم، قل لتلك الفتاة وراء المكتب أن تأتي وتشرب معي قليلاً من الخمرة.

- حذار لما يثرثر به فمك! فهي زوجة صاحب المكان!
- وماذا في هذا؟ الشراب معي لن يؤذيها.
غضبت المرأة الشابة، فصرخت: "يا جثة التابوت! أنت تريد أن تموت!". وفتحت باب المكتب وتأهبت للانقضاض عليه.

خلع وو سونغ عباءته ترابية اللون ودسها تحت نطاقه، ورفع الدلو وأهرق الخمر على الأرض. وأسرع إلى المكتب، وتضارب مع الفتاة التي كانت تحاول الخروج. وبدهي أنها لم تكن له نداً. شدّها من وسطها بقبضة واحدة، وقبض على شعرها بالأخرى، وبعثره رغم أنه مضفور جيداً، ثم رفعها فوق المكتب وألقى بها في إحدى جرار الخمرة العريضة، فسقطت فيها محدثة صوتاً.

وبرز من فوره من وراء المكتب وتأهب لاستقبال عدد من الخدم المضطربين الذين اندفعوا صوبه. قبض على أحدهم وطوَّح به في جرة أخرى من جرار الخمر، فسقط رأسه فيها أولاً.

ورمى خادماً آخر في الجرة الثالثة بحركة رشيقة. وصرع خادمين آخرين بضربتين؛ واحدة من قبضة يده والأخرى من قدمه.

كان ثلاثة في جرار الخمرة عاجزين عن الخروج منها، واثنان صريعين على الأرض عاجزين عن النهوض. والجميع أيبس الخوف أطرافهم. خادم واحد استطاع أن يتدبر الأمر ويهرب.

قال وو سونغ في سره: "ذلك النذل سيخبر جيانغ حارس البوابة العملاق. سأسرع وألتقيه في منتصف الطريق! إن ضربته على الطريق أتحت للجميع أن يروا ذلك، فأجعلهم يغرقون في فجاج من الضحكات!".

خطا في رشاقة. كان الخادم قد نقل الخبر إلى حارس البوابة العملاق، فانذهل جيانغ. رفس المقعد بقدمه، وأطاح مذبة الذباب، واندفع قدماً. فالتقى وو سونغ على الطريق المكشوفة. وعلى الرغم من أن جيانغ كان ضخم الجثة، ولكن مداومته على اغتباق الخمور وممارسة الجنس أضعفت جسده، فضلاً عن أنّ الأنباء التي وصلته عن عجل هزت على أوتار قلبه. كيف تراه يستطيع أن يصارع وو سونغ القوي كالنمر والعازم على تأديبه؟

واحتقر جيانغ خصمه حاسباً أنه سكران، فانقض عليه بسرعة. وفي مثل لمح البصر أنزل وو سونغ قبضتيه على وجه جيانغ، واستدار وخطا مبتعداً. عصف الغضب بجيانغ، فركض وراءه، تراجع وو سونغ إلى الوراء وضربه بقدمه اليسرى على فخذه، فانحنى جيانغ متألماً وقد أمسك مكان الإصابة بيده، فالتف وو سونغ وأهوى بقدمه اليمنى في رفسة طائرة على جبهة جيانغ فتداعى الرجل الكبير وهوى على ظهره. وضع وو سونغ إحدى قدميه على صدره، وشرع يلكم بقبضتيه الشبيهتين ببرميلين كبيرين رأس جيانغ.

هذه المناورة التي أقدمنا على سردها - الضرب بالقبضتين والالتفاف، والرفسة اليسارية المرتدة، والاستدارة والرفسة اليمينية الأماميّة - هي ما يدعى"الخطوات الدائرية لليشم بقدمي البط الماندرين". وهي واحدة من أكثر الحركات القتالية التي أبدعها وو سونغ مهارة. إنها خدعة رائعة!

ترجى جيانغ الرحمة وهو على الأرض.

- إذا أردتني أن أوفِّر حياتك، فينبغي أن توافق على ثلاثة أمور.

- ليس ثلاثة، بل ثلاثمائة، إن أبقيت على حياتي.

أشار وو سونغ إليه وأعلن مطالبه. ونتيجة لذلك، تبدلت المظاهر، وجرى البحث عن نصير، وقص الشعر في خصل طويلة، وذهب رجل إلى القتل قدماً.

ماذا كانت الأمور الثلاثة التي طلبها وو سونغ؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلم معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثلاثون

شي ين يدخل زنزانة المحكومين ثلاث مرات؛
ووو سونغ يتهوّر عند برك السحابة الطائرة

قال وو سونغ: "أولاً، يجب أن تغادر الأيكة السعيدة وترجع جميع الأدوات إلى مالكها الأصلي شي ين، شبل النمر ذهبي العينين. من طلب إليك أن تأخذ هذه الأشياء؟".

قال جيانغ في عجلة: "أعدك، أعدك!".

- ثانياً، سأوفِّر حياتك هذا النهار، ولكني أريدك أن تجمع كل القادة في الأيكة السعيدة وتجعلهم يعتذرون لشي ين.

- أعدك بهذا أيضاً!

- بعد أن ترجع كل شيء إلى صاحبه أريدك أن تغادر الأيكة السعيدة وتعود مباشرة إلى قريتك الأصلية. غير مسموح لك أن تعيش في ولاية منغتشو. إن لم تذهب، فسوف أقدم على ضربك كلما اجتمعت بك. إن رأيتك عشر مرات، فسأنهال عليك ضرباً عشر مرات! سأضربك ضرباً بسيطاً يجعلك نصف ميت، وضرباً شديداً يأخذ منك حياتك! هل تعدني؟

كان جيانغ راغباً في الحياة فصاح: "أوه، أجل. أعدك، أوافق تماماً!".

أنهضه وو سونغ على قدميه. كان وجه جيانغ أسود أزرق، وفمه منتفخاً، ورقبته ملتوية، والدم يتدفق من جرح في جبهته. فأشار إليه وو سونغ بإصبعه.

- من يكون وغد حقير من أمثالك بالنسبة إلى رجل قتل نمراً ضخماً على جبال جينغيانغ بثلاث ضربات ورفستين؟ أعد كل شيء إلى شي ين وعجِّل في هذا؟ سأضربك مرة أخرى إن تماهلت، وأقضي على حياتك!

وإذ عرف جيانغ أن خصمه هو وو سونغ فقد شرع يترجى الرحمة.

في هذه الأثناء، وصل شي ين وعشرون أو ثلاثون جندياً يعززون الموقف. فرأوا جيانغ مهزوماً، فأحاطوا بوو سونغ مسرورين.

أمر وو سونغ: "هذا هو المالك الحقيقي. هيا تحرك مباشرة، وأحضر أولئك الملاكين للاعتذار. عجّل!".

قال جيانغ: "أرجو أن تدخل وتجلس في الحانة، يا سيدي".

دخل وو سونغ وأتباعه. كانت الخمرة مهرقة على الأرض. وليس ثمة مكان يستطيع أن يضع فيه قدمه. وكان الخادمان لا يبرحان يحاولان الخروج من الجرتين، والفتاة خرجت زاحفة. كان وجهها مضروباً، وقميصها المبلول يعصر خمرة. أما بقية الخدم فهربوا منذ زمن طويل.

جلس وو سونغ وجماعته، وصاح: "نظفوا هذا المكان".

أحضر جيانغ للفتاة عربة، وكدَّس فيها أمتعتها وصرفها، ثم عثر على عدد من الخدم الذين لم تلحق بهم أذية وأرغمهم أن يحضروا الشخصيات الكبيرة الذين بلغ عددهم دستة. جاءوا جميعاً واعتذروا من شي ين. وأحضر جيانغ أفضل ما لديه من خمور، وجهز مائدة، ودعا الجميع إلى الجلوس. وطلب وو سونغ إلى شي ين أن يقعد في رأس المائدة، ووضعت طاس كبيرة من الخمرة أمام كل ضيف، وصبت الخمور، وشرب الجميع عدة دورات. وخاطب وو سونغ عندها الحضور قائلاً: "أيها الجيران المحترمون، حينما نفوني إلى هنا بعدما قتلت شخصاً في مقاطعة يانغقو سمعت أن هذه الحانة اغتصبها جيانغ حارس البوابة العملاق من شي ين، فحرمه من وسائل معيشته. لا ينبغي أن يخطر لكم في بال أن شي ين صاحبي. ليس بيننا شيء البتة. القضية أنني كنت على الدوام أصارع الأشرار. وإذا وجدت جريمة على الطريق أستلّ سيفي وأباشر العمل، ولو كلفني ذلك حياتي! قصدت أن أدمِّر جيانغ هذا النهار، وأخلّص هذا المكان من طاعون، لكنني كرمى لكم، أيها الجيران المحترمون، قررت أن أوفِّر حياة هذا الوغد. لقد أمرته أن يغادر هذه المقاطعة الليلة. وإن لم يفعل، فلن أتوانى حين ألتقيه المرة القادمة أن أفعل به ما فعلته بالنمر على جبال جينغيانغ!".

حين عرف الضيوف أن الشخص الذي يخاطبهم هو المفوض وو الذي طارت له شهرة بعد صرعه النمر، هبوا جميعاً واعتذروا نيابة عن جيانغ. قالوا: "أطفئ غضبتك، أيها المفوض الشجاع. فليرجع الممتلكات إلى أصحابها ويرحل".

كان جيانغ خائفاً من الكلام، تفحص شي ين الأدوات، واسترد حانته. وشكر جيانغ منكسر الخاطر جميع الحاضرين. وحمَّل أمتعته على عربة، ورحل. وقدّم وو سونغ الخمرة إلى جميع الجيران حتى سكروا. وكان الوقت قد تأخر ليلا حين انصرف الجميع إلى بيوتهم. فاستلم وو إلى النوم حتى صباح اليوم التالي.

حين سمع قائد السجن العجوز أن ولده استرد ممتلكاته في الأيكة السعيدة امتطى جواده وجاء يشكر وو سونغ. أقام عدة أيام يغتبق الخمرة احتفالاً. وجاء جميع سكان القرى المجاورة حين تناهت إليهم أخبار بسالة وو سونغ، وقدموا احترامهم له. وأعيد إصلاح الحانة، وباشرت العمل من جديد. ورجع قائد السجن إلى معقل آنبينغ، ولم يعرف أحد إلى أين رحل جيانغ وزوجته، على الرغم من أن شي ين أرسل رجالاً يستعلمون عن هذا الأمر. وانصرف بجهده إلى العمل، ونسي كل شيء عن خصمه السابق. وأقام وو سونغ لديه. وزادت الأرباح بين ثلاثين وخمسين بالمائة عنها قبلاً. وأرسل ملاك مشاريع استثمارية أخرى - حانات، وبيوت قمار، ومخازن صرف عملات - إلى شي ين إتاوات منتظمة ضعف ما كانت عليه من قبل، وقدم لوو سونغ احترامه وعامله معاملته لأبيه. وعادت سيطرة شي ين الكاملة على الأيكة السعيدة. ونكتفي بالحديث عن هذا.

مرَّ الوقت سريعاً، وانقضى شهر كامل. وتناقصت الحرارة تدريجياً، وراح الندى الشبيه باليشم يحمل الرطوبة. ودلت الرياح الذهبية على نهاية الصيف وبداية الخريف. ونختصر الحديث فنقول إن شي ين كان يتحادث ذات يوم في الحانة مع وو سونغ عن الصراع بالأيدي والعصي والرماح حين

وصل ثلاثة من العسكريين إلى البوابة يقودون حصاناً.

دخلوا وسألوا المضيف: "من هو قاتل النمر المفوض وو؟".

عرفهم شي ين. كانوا من الضباط المعاونين للجنرال تشانغ منغ فانغ الذي يقود حامية ولاية ينغتشو. اقترب شي ين منهم، وقال: "فيم تريدون المفوض وو؟".

- سمع الجنرال عن شجاعة المفوض وو وأرسلنا مع هذا الحصان لمرافقته. وهذه دعوة سعادته.

قرأها شي ين، وخاطب نفسه قائلاً: "تشانغ رئيس والدي، وفي مقدوره إصدار الأوامر إليه. وهذا وو سونغ منفي سجين، ولا ريبة أنه تحت سلطانه. يحسن به أن يذهب".

وخاطب وو سونغ قائلاً: "هؤلاء السادة أرسلهم الجنرال تشانغ لمرافقتك. وقد أحضروا حصاناً لك. ما رأيك، يا أخي؟".

كان وو سونغ رجلاً مستقيماً لا يراوغ أو يداور، فأجاب: "إذا كان قد أرسل في طلبي، فسأذهب إليه. وأسمع ماذا سيقول".

أبدل ثيابه ومنديل رأسه، وأمر خادماً أن يرافقه، وركب الحصان وذهب برفقة الحراس إلى مدينة منغتشو. ترجل عند باب الجنرال ولحق بالمعاونين إلى الردهة حيث كان تشانغ ينتظره.

كان الجنرال لطيفاً، وصاح: "أحضروه إلى هنا ودعوني ألتقيه".

دخل وو سونغ، وسجد، ثم وقف ناحية وقد ضمّ يديه في احترام.

- سمعت أنك رجل نسيج وحده، بطل لا نظير له، مقاتل صنديد يعضد أصدقاءه حتى الموت. وأنا في حاجة إلى رجل مثلك. أتريد أن تخدم تحت إمرتي معاوناً؟

هوى وو سونغ على ركبتيه: "أنا منفي في السجن. فإذا كنت سعادتك على غاية من اللطف وخلعت عليّ منصباً فسأكون لك سائساً بكل سرور، وأحمل سوطك وأركض في أعقابك!".

غمرت الفرحة أعطاف تشانغ، وأمر بإحضار مشهيات وخمرة، ودعا وو سونغ إلى الشراب حتى ثمل. ثم أرسله مخفوراً ليأخذ قسطاً من راحة في غرفة جهزت له في جناح في المبنى الرئيس.

وأرسل شخص في اليوم التالي إلى حانة شي ين يحضر أمتعته. وبعدها بقي وو سونغ في المنزل. وكان الجنرال يدعوه إلى الغرف الخلفية للطعام والشراب. وسمح له بالمرور من أية غرفة، وعاملوه كأنه واحد من أفراد الأسرة. واستدعي خياط يصنع له ثياباً خريفية جديدة.

كان وو سونغ سعيداً. فحدَّث نفسه: "يبدو الجنرال حصيفاً في الإفادة مني. منذ يوم وصولي وهو يبقيني إلى جانبه على الدوام. ولم تتح لي فرصة للذهاب إلى الأيكة السعيدة ومقابلة شي ين. وعلى الرغم من أن شي ين أرسل من يستفسر عن أحوالي، فيبدو أنه لم يؤذن لهم بدخول المنزل".

كان الجنرال مولعاً بوو سونغ. فإذا ما ترجى أحدهم معونته في قضية من القضايا، فقد كان يكفيه أن يطلبها، فينفذ تشانغ ما يريد. وصار الناس يرسلون إليه الهدايا من النقود والحرير والساتان. واضطر أن يشتري صندوقاً مصنوعاً من خشب الصفصاف ليحفظها فيه تحت القفل والمفتاح. ليس هناك ما يدعونا إلى الخوض في هذا الحديث.

سرعان ما حلَّ الشهر القمري الثامن، وأقام الجنرال تشانغ مأدبة في تعريشة بط الماندرين في أعماق مؤخر الباحة للاحتفال بعيد انتصاف الخريف، ودعا وو سونغ. وحين رأى وو سونغ أن زوجة الجنرال ونساء أخريات من أعضاء العائلة حضرن الاحتفال شرب قدحاً واحداً واستدار للانصراف.

ناداه الجنرال: "إلى أين تذهب؟".

- إذا كانت النساء هنا فيحسن أن أنصرف.

ضحك تشانغ: "هراء. أحترمك بصفتك رجلاً مستقيماً، ودعوتك خاصة لتشرب معنا بصفتك فرداً من العائلة. ففيم تنصرف؟". وطلب إليه أن يجلس.

- أنا مجرد سجين. فكيف أجلس إلى مائدة تضم سعادتك؟

- هل يجب أن تتصرف مثل رجل غريب؟ ليس هنا غير أفراد عائلتنا. فهوّن عليك.

بذل وو سونغ عدة محاولات للانصراف، ولكن الجنرال رفض أن يصغي إليها، وأصرَّ على أن يشاركهم وو سونغ. وأخيراً اعتذر الشاب عن جرأته، وجلس على مسافة بعيدة من مضيفه، واستدار قليلاً في مقعده كيلا يواجهه مباشرة. أمر الجنرال الخادمات أن يصببن الخمرة لوو سونغ. وبعد أن احتسى المفوض ستة أو سبعة أكواب أصدر الجنرال أمره بإحضار مزيد من المشهيات لتناولها مع الخمرة. ثم طاف الخدم على الجميع بدورتين من الطعام. وتحادث تشانغ مع وو سونغ، وطرح عليه عدة أسئلة عن المثاقفة بالعصي.

قال: "رجل حقيقي مثلك لا ينبغي أن يشرب من مثل هذا القدح الصغير". وصاح: "أحضروا إبريقاً كبيراً من الفضة لهذا المحارب الشجاع!".

انهالت إلحاحات تشانغ على وو سونغ لاغتباق الشراب مثل زخة من السهام. أتى على عدة أباريق، وفي الوقت الذي راح القمر يرسل فيه أشعته على النوافذ الشرقية كان نصف سكران. وتناسى كل آداب المجاملة، واسترسل يحتسي الشراب بصورة متواصلة.

أمر الجنرال خادمةً تدعى اليشمة الأرجوانية، وكان مغرماً بها، أن تنشد أغنية. قال: "ليس هنا غرباء. ليس هنا غير المفوض وو الموثوق. غني لنا أغنية عن قمر منتصف الخريف؛ هذا ما نحب أن نصغي إليه".

أخذت اليشمة الأرجوانية مصفقين من العاج، وخطت تحيي كل واحد من الذين يتناولون الطعام، ثم أنشدت أغنية عن منتصف الخريف كتبها الشاعر سو دونغ بو. وهي على هذا الغرار:

متى يسطع القمر؟
اسأل السماء والكأس في يدك.
من يعرف ماهية السنة
في قصور السماوات.
أتوق للذهاب إلى هناك، ممتطياً متن الرياح،
ولكنني لا أطيقِ البرد
في تلك القبة السماوية اليشمية العالية

أنا أرقص وحيداً مع ظلي
كما لو كان ذلك في عالم آخر
الستائر المطرزة رفعت عالياً،
وضوء القمر، المنسوب عبر النافذة المفتوحة،
يطرد هواجس النوم
لا ينبغي أن أتضايق، لكن فيم يكون
القمر على الدوام مدوراً عند الفراق؟
وكما تكون للناس أفراحهم وأتراحهم،
وفراقهم والتئام شملهم،
يكون للقمر سطوع وظلمة
وبريق وشحوب.
منذ الأزمان الغابرة كانت الأمور هكذا!
إن لم تكن قلباً على قلبٍ على الأيام،
فلنستمتع بقمر واحد يطلُّ علينا من البعيد!

انتهت أغنيتها، فوضعت اليشمة الأرجوانية مصفقيها العاجيين، وانحنت من جديد أمام كل ضيف على حدة، وانتحت زاوية.

أمر تشانغ: "اخدمينا دورة أخرى، أنت أيضاً".

فحملت اليشمة الأرجوانية صينية من الكؤوس، وجاءت خادمة أخرى صبت الشراب. قدمت اليشمة الأرجوانية كأساً إلى الجنرال، وأخرى إلى زوجته، وثالثة إلى وو سونغ. وأمر تشانغ أن تملأ الكؤوس إلى حوافها. قبل وو سونغ الكأس خجلان من رفع رأسه، وتراجع مبتعداً عن اليشمة الأرجوانية قدر طاقته. حيا الجنرال وزوجته، ورفع كأسه، وشرب محتواها، وأعادها إلى الصينية.

أشار الجنرال إلى اليشمة الأرجوانية، وخاطب وو سونغ قائلاً: "هي قمة في ذكائها. لا تجيد الغناء وحسب، بل إنها ماهرة في أعمال الإبرة. إن لم تكن تأنف من منبتها الوضيع، فسنختار يوماً ميموناً ونقدمها لك زوجة".

نهض وو سونغ وانحنى: "كيف يتاح لرجل في مثل مركزي أن يقبل امرأة من بيت عائلتكم؟ إنه يوم السعد بالنسبة إليّ".

ضحك الجنرال: "قلت ما قلت، ويجب أن ينفذ. لا تحاول التهرب مني. لن أرجع في وعد قطعتُه على نفسي".

احتسى وو سونغ دستة أخرى من أكواب الشراب واحداً بعد الآخر. وإذ خشي أن يرتكب هفوة بتأثير الخمرة، فقد نهض وشكر الجنرال وزوجته، ثم اجتاز الردهة الأمامية عائداً إلى غرفته في الجناح. وفيما هو يفتح الباب أحسَّ الخمرة تؤتي ثمارها في جوفه، فعرف أنه لن يغتمض له جفن. بدل ثيابه، ورفع منديل رأسه، وأخذ عصاه، ومضى إلى الحديقة، وقام بعدة تمرينات ملوّحاً بالعصا

فوق هامته. وكان يتبين من النظر إلى السماء أن الوقت يقارب فترة الحراسة الثالثة.

رجع إلى غرفته وشرع في خلع ملابسه حين سمع أصواتاً في الباحة الخلفية تصيح: "اللص! اللص!". فقال في نفسه: "الجنرال طيب معي. فإذا كان هنالك لص في الباحة الخلفية فينبغي أساعد في القبض عليه!".

قبض على عصاه، وأسرع الخطى إلى الباحة الخلفية. اقتربت اليشمة الأرجوانية منه وقالت في شيء من العصبية: "دلف لص إلى الحديقة". فأسرع وو سونغ يفتش بين الورد. ولكنه لم يجد أحداً. وفيما هو عائد ألقى أحد من بين الظلال مقعداً صغيراً مدوراً بين قدميه، فتعثر وسقط. وهتف ستة أو سبعة من الجنود صارخين: "اقبضوا على اللص!". وأسقطوه وشدوا وثاقه.

صاح وو سونغ في ارتباك: "هذا أنا!". لكن الجنود لم يعيروه أذناً صاغية. وأضيئت القناديل في الردهة الوسيعة فظهر تشانغ جالساً فيها.

نادى الجنرال: "أحضروا اللص إلى هنا".

جرَّ الجنود وو سونغ، وهم يضربونه بالهراوات، إلى الردهة الوسيعة.

صاح: "أنا لست لصاً. أنا وو سونغ!".

غضب الجنرال وأربد وجهه: "أيها المنفي، قلبك الخداع لا يتبدل! لقد جعلت منك محترماً مرة أخرى، ولم أفعل ما يؤذيك. ودعوتك إلى احتساء خمرتي، والجلوس إلى مائدتي! وكدت أجعل منك ضابطا! فكيف تقدم على ما فعلت؟".

- يا صاحب السعادة، لست أنا اللص! لقد أسرعت للقبض عليه. ففيم يعتقلونني مثل المجرمين؟ لم أسرق شيئاً. أنا رجل شريف!

- أتجرؤ على الإنكار!؟ خذوه إلى غرفته وفتشوه. سنرى ما إذا كان قد سرق شيئاً!

اقتاده الجنود إلى غرفته مخفوراً، وفتحوا الصندوق المصنوع من شجر الصفصاف. كانت هنالك، تحت بعض الثياب، أوانٍ فضية للشراب وقرابة مائتي أوقية من الذهب والفضة.

حدَّق وو سونغ فاغراً فمه، وصاح أن في الأمر خطأ. حمل الجنود الصندوق إلى الردهة وتفحص تشانغ محتوياته.

- أيها المنفي الذي لا يعرف الخجل! إليك الدليل. فكيف تنكره؟ "الحيوان يمكن أن يتبدل، ولكن نفوس الرجال لا يمكن أن تتبدل!". أنت تبدو مثل رجل شريف، ولكنك مجرم فطري! جريمتك واضحة، مهما أوردت من أقوال!

أمر تشانغ أن يقفل على الغنائم، وقال: "أبقوه في غرفة مقفلة هذه الليلة. وسوف نتدبر أمرنا مع هذا النذل في الصباح!".

زمجر وو سونغ قائلاً إن في القضية خطأ، لكن أحداً لم يصغ إليه! نقل الجنود الأشياء الثمينة وحبسوه في غرفة من دون نوافذ. في تلك الليلة ذاتها، أعلم تشانغ مكتب الوالي بالأمر، ووزع نقوداً على الموظفين والكتبة.

في الصباح التالي، بعد انعقاد محكمة الوالي، أحضرت الشرطة والمفتشون وو سونغ، وقدموا

الغنيمة. وأعطى أحد أتباع تشانغ المؤتمنين الوالي رسالة من الجنرال تشرح كيف حدثت السرقة في داره. فأمر الوالي مساعديه أن يقيدوا وو سونغ ويركعوه على الأرض. ووضع الحاجب والسجانون أدوات الاستجواب أمام السجين. ونبر الوالي قبل أن يتمكن وو سونغ من الكلام: "نذل محكوم بالنفي البعيد لا بدّ أن ينقلب لصاً! وجدت الفرصة مؤاتية فلم تفلتها من يدك! إذا كان الدليل أمامنا هنا، فلا ضرورة للإصغاء إلى أكاذيبه. اضربوه بقسوة".

حمل السجانون قضبان البامبو وأمطروا السجين الراكع بالضربات. عرف وو سونغ أن أمله ضائع. وأن ليس أمامه خيار سوى الاعتراف، فقال: "في الخامس عشر من هذا الشهر رأيت عدداً من الأباريق الفضية في منزل الجنرال، فثارت أطماعي. وفي تلك الليلة سرقتها غيلة وأخذتها لنفسي".

قال الوالي: "هذا الوغد أغراه الطمع فأقدم على السرقة. أمر ثابت لا مرية فيه. ألبسوه المخلعة وارموه في السجن!".

وضع السجانون مخلعة طويلة حول عنق وو سونغ، واقتادوه إلى جناح المحكومين، وأقفلوا الباب عليه.

قال في نفسه: "رسم تشانغ هذه المكيدة لدماري. إذا بقيت حياً وخرجت من هنا لأحاسبنه الحساب العسير!".

قُيِّدت قدماه ليل نهار، وحبس معصماه في الأصفاد الخشبية. ولم يؤذن له بالحركة على الإطلاق.

تناهى الخبر إلى شي ين بما كان يحدث، فأسرع إلى المدينة يناقش الأمر مع والده. قال قائد السجن العجوز: "لا ريبة أن القائد تشانغ وراء هذه العملية للانتقام لجيانغ حارس البوابة العملاق. ولا بدَّ أنه أغرى الجنرال تشانغ بنصب فخ لوو سونغ، وقدم الرّشى للكبار والصغار تسهيلاً للأمر. أنا واثق أنه يريد أن يقتل وو سونغ. ولكنني كنت أفكر في أن جريمة وو سونغ لا تستدعي عقوبة الموت. ويكفينا أن نشتري ضمائر بعض الحجّاب والموظفين فنسبغ عليه حماية خلال وجوده في السجن. وعندها ننظر في ما نستطيع أن نفعل بعد ذلك".

قال شي ين: "الحاجب الحالي شخص يدعى كانغ ونحن صديقان حميمان. فلم لا أسأله العون؟".

– لقد اضطهد وو سونغ بسببك. وليس هنالك أفضل من هذا الوقت لمدّ يد العون إليه.

ذهب شي ين إلى دارة كانغ حاملاً مائة أوقية من الفضة، ولكن الحاجب لم يكن قد رجع من السجن بعد. وذهب أحد أفراد أسرته لإخباره بحضور شي ين. وما أسرع أن حضر كانغ إلى البيت والتقى الصديقان. وروى له شي ين القصة بأكملها.

قال كانغ: "سأصدقك القول يا أخي. هذا العمل كله من فعلة ذينك الأخوين بالدم اللذين يحملان اسم العائلة ذاته: القائد تشانغ والجنرال تشانغ. وقد دفعه جيانغ حارس البوابة العملاق، وهو يختبئ في منزل القائد، أن يبتاع الجنرال لحسابه، فطبخا هذه المكيدة معاً. أما الآخرون، كباراً وصغاراً، فتمت رشوتهم من قبل جيانغ. وتلقى كل منا مبلغاً من النقود. وانقلب الوالي رأساً على

عقب لمساعدته. ولا ريبة أنهما يهدفان إلى القضاء على وو سونغ".

"إنهما عاجزان عن إنهاء ذلك قضائياً لأن الكاتب يي رفض النطق بعقوبة الموت. ويي رجل مستقيم فاضل عارض بشدة أن تلحق الأذية بالناس العاديين. وهكذا، فإن وو سونغ لم يحكم بعد بأي حكم. وبما أنني سمعت القصة منك يا أخي، فسوف أرعاه في السجن. سأعمل على أن يُعامَل بصورة جيدة، وألا ينزل به شيء من الأذى. أرسل شخصاً إلى الكاتب يي على الفور يترجاه أن يكتب الحكم في أقرب وقت. وهذه هي الوسيلة الوحيدة لإنقاذ حياة وو سونغ".

قدم شي ين لكانغ مائة أوقية من الفضة. رفض الحاجب المبلغ في لباقة عدة مرات ثم قبله أخيراً.

افترق الصديقان، ورجع شي ين إلى المنزل، فعثر على صديق للحاجب يي، وأرسل بوساطته مائة قطعة من الفضة إلى الكاتب مع رجاء بأن يصدر الحكم ضد وو سونغ في أقرب فرصة مستطاعة. وكان يي يعرف أن وو سونغ رجل شهم فأراد أن يساعده، وقرر أن تبقى القضية مفتوحة الاستجواب. أما الوالي، وقد قبض الرشوة من الجنرال تشانغ، فراح يعارض الرأفة به.

لم تكن السرقة ليلاً جريمة عقوبتها الموت، وهكذا عرضت القضية، وقرر المتآمرون أن يقتلوا وو سونغ في السجن. ولما كان الكاتب يي قد تلقى مائة أوقية من الفضة وعرف أن وو سونغ موقوف، فقد خفّف العقوبة، ووعد أن يحصل على قرار أخير حالما تنتهي المهلة الأولية للاحتجاز.

في اليوم التالي، هيأ شي ين كمية من الطعام والشراب، وطلب إلى كانغ أن يأخذها إلى وو سونغ. فذهبا معاً مباشرة إلى السجن الكبير حيث أوقف وو سونغ. كان كانغ يرعاه، ورفع عنه القيود والأغلال. وبعدما وزع شي ين عشرين أو ثلاثين قطعة من الفضة بين الحجاب الصغار، أعطى وو سونغ الطعام والشراب اللذين حملهما إليه.

همس في أذن وو سونغ: "قبض الجنرال تشانغ عليك ليثأر لجيانغ حارس البوابة العملاق. لكن، دع عنك القلق. لقد اتفقت والكاتب يي على إنقاذك. سيخرجك من هنا حالما تنتهي فترة الاحتجاز الأولية ويدون الحكم. وعندها سنرى ما يكون".

كان وو سونغ يفكّر في الهرب من السجن بعدما رفعت عنه القيود والأغلال. ولكن المعلومات التي أخبره بها شي ين جعلته يطرح الفكرة من ذهنه. ورجع شي ين إلى المعقل بعدما طمأن وو سونغ.

بعيد يومين، جاء من جديد يحمل كمية أخرى من الطعام والشراب والنقود، فأدخله كانغ من جديد. أعطى الطعام إلى وو سونغ، ووزع الفضة بين السجانين، ورجع إلى البيت، وأرسل مبالغ أخرى إلى الكبار والصغار واستحثهم على الإسراع في إصدار الحكم. وفي زيارته التالية، بمعونة من الحاجب كانغ، حمل ثياباً جديدة، ولحماً وخمرة، ودعا جميع السجانين إلى الشراب لمعاملة السجين معاملة طيبة. وطلب إلى وو سونغ أن يبدل ثيابه وأن يشارك في الطعام والشراب.

بعدما ألف شي ين الإجراءات تكررت زياراته ثلاث مرات في غضون عدة أيام. ورآه أحد أتباع القائد تشانغ فنقل الخبر إلى رئيسه، وأخبر القائد الجنرال الذي أرسل رسولاً يحمل الهدايا وينقل

الخبر إلى الوالي. ورغب هذا الموظف النهم في أن يستأهل الرشوة التي قبضها عن جدارة، فعين شخصاً يحوم حول السجن ويستجوب كل إنسان غريب يدلف إليه.

حين علم شي ين بذلك قرر عدم المجازفة بالذهاب إلى السجن. واستمر الحاجب والسجانون في رعاية وو سونغ، وراح شي ين يتردد إلى منزل كانغ لاستقاء الأخبار. ونكتفي بهذا القدر من الحديث حول هذا الموضوع.

في غضون الشهرين التاليين بذل الكاتب يي كل جهد مستطاع لإقناع الوالي، وهكذا اكتشف ذاك الموظف أن الجنرال تشانغ قبض مبلغاً كبيراً من الفضة من جيانغ حارس البوابة العملاق، وأنه بالتآمر مع القائد تشانغ دبَّر المكيدة لوو سونغ.

خاطب الوالي نفسه قائلاً:

- حصلت على مبلغ كبير من المال، وتريدني أن أنفذ لك هذا العمل القذر! وماتت رغبته في ملاحقة القضية.

في نهاية فترة الاحتجاز التي دامت ستين يوماً، استُحضر وو سونغ أمامه، ورفعت القيود عنه. وقرأ الكاتب يي الحكم الذي يعاقب على الجريمة. أمر الوالي بعقوبة من عشرين جلدة، وبالنفي إلى السجن في إينتشو. أما الأشياء المسروقة فأعيدت إلى مالكها الأصلي. ولم يكن أمام الجنرال تشانغ من خيار سوى أن يبعث أحد أفراد أسرته لاستردادها.

جلد وو سونغ عشرين جلدة ووشم بالعلامة الذهبية للمجرمين. ووضعت حول عنقه مخلعة من زنة سبعة كاتيات ونصف، وسجلت الوثائق الرسمية، وانتدب شرطيان قويان لخفارته، وحدد موعد ترحيله. وانطلق السجين وخفيراه على الفور.

ولأن قائد السجن العجوز أنفق المال في سخاء، والكاتب يي أبدى اهتماماً بالموضوع، والوالي عرف أنه كان ضحية مؤامرة، جُلد وو سونغ بصورة مخففة. كتم وو أمواج غضبه، وغادر المدينة والمخلعة في عنقه، يخفره حارسان يسيران وراءه. قطعا مسافة لي واحد حين ظهر شي ين من حانة على الطريق العامة. قال: "كنت أنتظرك، يا أخي". كان رأسه ويده ملفوفين بضمادين.

- نحن لم نلتق منذ زمن طويل. فماذا أصابك؟

- عرف الوالي أني زرت السجن ثلاث مرات، فوضع رجلاً فيه يقوم بالحراسة. وأرسل الجنرال تشانغ رجاله يراقبون البوابة الرئيسة. وهكذا لم أستطع زيارتك. وكنت أستقي الأخبار من منزل الحاجب كانغ. وقد رجع جيانغ حارس البوابة العملاق إلى الأيكة السعيدة قبل خمسة عشر يوماً مع عصبة من الجنود. واستعادوا الحانة وكثيراً من الأدوات. وأنا طريح الفراش منذ ذلك اليوم. وسمعت اليوم أنه صدر الأمر بنفيك إلى إينتشو، فأحضرت هاتين العباءتين كي ترتديهما على الطريق. وهاتان إوزتان مطبوختان لتأكلهما حين تجوع.

دعا شي ين الحارسين على الشراب فرفضا وقالا: "هذا النذل وو سونغ محتال. إذا شربنا خمرتك فستصل الإشاعات غداً إلى الولاية! ابتعد من طريقنا إن لم تكن تريد أن تتعرض للضرب!".

كان واضحاً أن الوقت غير مناسب للنقاش. عرض شي ين على الحارسين عشر أوقيات

من الفضة، فرفضاها، وأصرا في غضب على أن يتابع وو سونغ طريقه. فقدم له شي ين طاسين من الشراب، وربط صرة حول وسطه. وعلق الإوزتين على المخلعة.

همس شي ين في أذن وو سونغ: "هنالك عباءتان مبطنتان في الصرة، وكيس صغير من الفضة. ستحتاج إلى النقود على الطريق. وهنالك أيضاً صندلان من القش. انتبه وكن حذراً. فهذان الوغدان لا يرجى منهما خير".

أومأ وو سونغ برأسه: "هذا أمر معروف. أعرف كل شيء عنه. أنا لا أخاف من هذين الاثنين، أو من آخرين على شاكلتهما! اذهب إلى بيتك واسترح، وأرجو ألا ينتابك القلق. فلديَّ ما أفكر فيه!".

سجد شي ين، وانصرف باكياً. ولن نطيل الكلام في هذا الموضوع.

استرسل السجين وحارساه في السير على طول الطريق العامة. وقبل أن يجتازوا مسافة همس أحد الحارسين في أذن رفيقه: "هل لمحت أية إشارة للشخصين الآخرين؟".

سمع وو سونغ الحديث، فضحك في سره في برود: "إذاً، هنالك المزيد أيها الأوغاد ينتظرونكما على الطريق! لا تحتفلا بالمكيدة سريعاً!".

كانت يده اليمنى مربوطة بالمخلعة، أما اليسرى فلا قيد فيها، فشرع يلتهم إوزة أمسكها بها. لم يلتفت إلى الحارسين، وأنهى التهام الإوزة الأولى في الوقت الذي ساروا فيه قرابة أربعة أو خمسة ليات، ومن ثم شرع يلتهم الثانية، فقبض عليها بيده اليمنى وطفق يعضها باليسرى. وما إن اجتازوا خمسة ليات أخرى حتى أتى عليها بأكملها.

كان لا يبرح أمامهم ثمانية أو تسعة ليات للوصول إلى وجهتهم حين برز رجلان على الطريق إلى الأمام منهم ينتظرانهم ومطرداهما وسيفاهما في أيديهما. وانضما إلى السجين وحارسيه وسارا معهم. ولحظ وو سونغ أن حارسيه يتبادلان نظرات خاصة مع القادمين الجديدين. كان عارفاً حق المعرفة بما ينتوون، ولكنه تابع طريقه متظاهراً أنه لم يفقه شيئاً.

بعد مسافة قصيرة وصلوا إلى منطقة ملأى ببرك تعيش فيها أسماك كثيرة تتصل في ما بينها بجداول وأنهار. وفيما الرجال الخمسة يعبرون الجسر الخشبي العريض اجتازوا قوساً كتبت عليها لوحة تقول: "برك السحابة الطائرة".

سأل وو سونغ متأنياً: "ما اسم هذا المكان؟".

قال الحارسان: "أنت لست أعمى، ألا تستطيع قراءة اللوحة؟".

توقف وو سونغ: "أريد أن أبول". وشرع اللذان يحملان المطردين يقتربان منه. صاحا: "اسقط هنا". رفس بإحدى ساقيه ورمى أحدهما فهوى في المياه. وراح الثاني يهمّ بالالتفات حين حطت رفسة القدم اليمنى لوو سونغ فرمته في المياه مع رفيقه. فهرب الحارسان على الجسر وقد انخلع قلباهما خوفاً.

زمجر وو سونغ: "أين تحسبان أنكما تهربان!". حطم المخلعة إلى شطرين، وركض وراءهما. سقط أحدهما من الذعر. وأدرك وو سونغ الثاني ورماه أرضاً بضربة من يده انهالت على ظهره.

واختطف مطرداً من الماء، وطعن به عدة طعنات، فقضى على الحارس. ثم أجهز على الحارس الثاني المرعوب بالطريقة ذاتها.

كان الاثنان الأولان اللذان رماهما في المياه قد خرجا منها وحاولا الهرب فطاردهما، وأسقط أحدهما أرضاً وقتله، وقبض على الثاني.

- أخبرني الحقيقة واربح حياتك!

- نحن متمرنان عند جيانغ حارس البوابة العملاق. وطلب إلينا هو والقائد تشانغ أن ننضم إلى حارسيك ونقتلك!

- أين معلمكما الآن؟

- حين جئت كان في تعريشة بطِ الماندرين في الباحة الخلفية يحتسي الشراب مع القائد والجنرال. وهو مقيم على انتظار لنزف إليه البشرى!

- هذه هي القضية إذاً. في هذه الحال لن أستطيع أن أوفر حياتك!

ارتفعت يد وو سونغ بالشفرة التي يحملها، وقتل الرجل، وجرده من سيفه، واختار أفضل السيفين لنفسه، وألقى بالجثتين في البركة. وكيما يتأكد من موت الحارسين طعنهما من جديد عدة طعنات بالمطرد. ثم وقف على الجسر وجعل يراقب الأشلاء.

همس في سره: "على الرغم من أنني قضيت على هؤلاء الأوغاد الأربعة، فإن حقدي لن يهمد له أوار حتى أقتل الجنرال تشانغ والقائد تشانغ وجيانغ حارس البوابة العملاق!".

استغرق في التفكير وقد شمله الصمت، والمطرد في يده، واتخذ قراراً. سوف يعود إلى مدينة منغتشو.

ونتيجة لذلك، دمر وو سونغ رجالاً طماعين، واستردّ أنفاسه مرة أخرى. والحقيقة أن الردهة المزخرفة فرشت بالجثث، والشموع الاحتفالية الحمراء أضاءت الأرض الملطخة بالدماء.

ماذا، إذاً، أعقب عودة وو سونغ إلى منغتشو؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الحادي والثلاثون

دماء الجنرال تشانغ تلطّخ تعريشة بط الماندرين؛
والراهب الجوّال وو سونغ يجتاز جبل أربعة وأربعين ليلاً

كان الغسق قد شمل المدينة حين وصوله إليها. سار مباشرة إلى باحة إصطبل متاخمة لجدار الحديقة الخلفية للجنرال تشانغ واختبأ هنالك. كان السائس لا يبرح في البيت ولم يرجع بعد.

وسرعان ما فتح باب قريب من زاوية الجدار فصدر عنه صرير. وبرز السائس يحمل مصباحاً. وأغلق شخص من داخل المنزل الباب. من حيث اختبأ وو سونغ في الظلال سمع طبلة الحارس، إنها الفترة الزمنية الرابعة من فترة الحراسة الأولى. أطعم السائس الخيول، وعلّق المصباح، وفرش فراشه، وخلع ثيابه، واستلقى، وأحدث وو سونغ ضجة خارج باب الإصطبل.

صاح السائس: "لقد استلقيت في فراشي منذ لحظات، وأبكرت في الحضور إن كنت قد عزمت على سرقة ثيابي!".

أسند وو سونغ مطرده إلى جانب الباب، وحمل السيف في يده، وقعقع على الباب. لم يحتمل السائس ذلك، فوثب - وهو عريان - من فراشه واختطف قضيباً، وشدَّ القفل وشرع يفتح الباب. فانقضَّ وو سونغ داخلاً وقبض عليه. فتح السائس فمه يريد أن يصيح، ولكن منظر السيف الملتمع على ضوء المصباح أخرس لسانه.

ترجى في صوت واهن:

- لا تقتلني.

سأله وو سونغ:

- أتعرفني؟

عرف السائس صوته. فقال:

- يا أخي. لا علاقة لي بالموضوع! وفِّر حياتي!

- أخبرني الحقيقة! أين الجنرال تشانغ؟

- إنه برفقة القائد تشانغ وجيانغ حارس البوابة العملاق. والثلاثة قضوا النهار يشربون في تعريشة بط الماندرين.

- أهذه هي الحقيقة؟

- فليقتلني الماء المغلي إن كنت أكذب!

- في هذه الحال لن أستطيع توفير حياتك!

قتله بضربة واحدة، وألقى جثته جانباً، وأعاد السيف إلى غمده.

أخرج من الصرة المعلقة بوسطه الثياب التي أعطاه شي ين إياها، وبدَّل ثيابه، وشدَّها جيداً، وغرز السيف المغمور في نطاقه، ولفَّ الفضة في غطاء أخذه عن سرير النائس، ودفع صرته في كيسه، وعلَّق الكيس قريباً من باب الإصطبل، وانتزع واحداً من بابي الإصطبل من مكانه، وأسنده إلى جدار الحديقة، ورجع فأطفأ المصباح، ثم خرج من جديد. حمل مطرده، وتسلَّق الباب جاهداً فوصل إلى أعلى الجدار.

كان هنالك قمر باهت. وثب وو سونغ إلى الحديقة، وفتح الباب الصغير في الجدار، وخرج وأعاد الباب إلى مكانه، ثم دلف إلى الحديقة مرة أخرى وأغلق الباب. لكنه لم يقفله.

كان هنالك مصباح يرسل ضوءه في مبنى قريب. إنه المطبخ. وكانت خادمتان تتذمران وهما تسخنان غلاية من الماء.

كانت إحداهما تقول: "كنا ننتظرهم طوال النهار، ولكنهم يرفضون اللجوء إلى أسرَّتهم. وهم لا يكفون عن طلب الشاي! وقد سكر هذان الضيفان بصورة تبعث على الخجل! وبدلاً من أن ينزلا ويستريحا لا يفتآن يتحدثان ويتحدثان ويتحدثان!".

أسند وو سونغ مطرده إلى المبنى، واستلَّ سيفه الملطخ بالدم، وفتح الباب المصرصر، واندفع داخلاً. قبض على إحدى الفتاتين من شعرها وأزهق روحها بضربة واحدة. أرادت الأخرى أن تهرب، ولكن قدميها تسمرتا في الأرض. فتحت فمها لتصرخ فلم تنطق بحرف واحد، فقد شلَّ الرعب أطرافها. (وأنا، من يروي لكم هذه الرواية - إن لم نقل شيئاً عن الفتاة - يشلني الرعب فلا أستطيع أن أنبس بحرف!). وغرز وو سونغ سيفه في جسدها فقتلها.

جرَّ الجثتين إلى جانب الموقد وأطفأ المصباح. وفي ضوء القمر الباهت عبر الطريق جاء خلسة إلى الردهة الرئيسة. إنه يعرف طريقه باعتباره رجلاً كانت له حرية التنقل في جميع أرجاء الدار، وسرعان ما وصل إلى تعريشة بط الماندرين، وصعد السلم على رؤوس أصابعه.

كان الخدم منهكي القوى وقد أرهقهم الضجر فغادروا أماكنهم. وكان وو سونغ يسمع أصوات الجنرال تشانغ والقائد تشانغ وجيانغ حارس البوابة العملاق. أرهف سمعه عند قمة السلم. كان جيانغ يمتدح الجنرال قائلاً: "لكم أنا شاكر لك، يا صاحب السعادة، لمعاونتي في الثأر لنفسي! ينبغي أن أقدم مزيداً من الشكر فأسخو في العطاء".

- ما كنت لأقدم على ما فعلت لولا كرامة صديقي الأثير القائد تشانغ. وعلى الرغم من أن ذلك كلفك مبلغاً من المال، ولكن جميع الترتيبات أعدت على أفضل سبيل. ولا بدَّ أن القضية قد انتهت الآن. ولا بد أن ذلك اللئيم فارق الحياة. أمرت الحارسين أن يجهزا عليه في برك السحابة الطائرة. وسنعرف الأمر تماماً حين يعود الحراس الأربعة في الصباح.

قال القائد: "أربعة ضد واحد، يا لها من ضربة محكمة! لو كانت له عدة أرواح مثل القطط فلا ريبة أنه فقدها كلها!".

قال جيانغ: "أمرت متمرنيّ أن يضربا ضربتهما عند تلك البرك أيضاً. وأن يرفعا إليَّ تقريرهما حالما يعودان عن كيف تمَّ ذلك الأمر".

فاض الغضب في قلب وو سونغ، وطغى في جنون حتى وصل إلى السماء. فاشتدّت قبضة يده اليمنى على السيف، وتصلبت أصابع يده اليسرى في قسوة، فاندفع في الغرفة. كانت خمس شمعات كبيرة وردية اللون، وأشعة القمر المنسربة عبر النوافذ، تنشر الضوء فيغمر الغرفة بأسرها. وكانت أباريق الخمر والكؤوس في أماكنها لم ترفع بعد.

استبد الرعب بجيانغ، وقد جلس في مقعد عريض، من الظهور الفجائي لوو سونغ فاعتصر قلبه وكفَّ عن الخفقان. وفي مثل لمح البصر، وبينا جيانغ يتعثر للوقوف على قدميه، بتر السيف وجهه في قوة، فانقلب المقعد به على الأرض وقد انشطر شطرين. واستدار وو سونغ، وسيفه في يده، فيما شرع الجنرال تشانغ في الحركة. تأرجح وو سونغ، وجزَّ عنقه تحت الأذن مباشرة. فهوى الجنرال على الأرض متثاقلاً. وناضلت الضحيتان في سبيل الحياة.

كان القائد تشانغ رجلاً عسكرياً لم تنهك قوته على الرغم من سكره. وما إن رأى الرجلين الآخرين يهويان حتى عرف أنه لا سبيل إلى الفرار. حمل مقعداً ورفعه فوق رأسه. وخطا وو سونغ متقدماً لصد الهجوم. لم يكن تشانغ، حتى في حالات الصحو، نداً لقوة وو سونغ الرهيبة. فسقط على ظهره، وانقض وو سونغ هاجماً عليه، وقطع له عنقه بضربة واحدة من سيفه.

كان جيانغ القوي يحاول النهوض على قدميه، فتحركت قدم وو سونغ اليسرى ورفسته. طرحه أرضاً وقطع له رأسه، وفعل الشيء ذاته بالجنرال تشانغ. كان على المائدة شيء من اللحم وقليل من الخمرة، فرفع وو سونغ إبريقاً واحتسى محتواه. وأعقبه بثلاثة أباريق أخرى. وقطع قطعة من ثياب أحد القتلى، وغطسها في الدم، وكتب بأحرف كبيرة على الجدار الأبيض: القاتل هو وو سونغ صارع النمر!

داس الأباريق الفضية بقدمه، ووضعها في عباءته. وفيما هو يهم بالانصراف سمع صوت زوجة الجنرال في الطابق الأرضي تخاطب بعض خدمها: "أولئك السادة أثملهم السكر. فليصعد اثنان منكم لمساعدتهم في الهبوط إلى هنا".

شرع اثنان يصعدان السلم، فاختبأ وو سونغ وقبع منتظرا. كانا خادمين للجنرال، شاركا معا في القبض على وو سونغ في اليوم السابع. تركهما يصعدان، ثم تسلل وراءهما وقطع عليهما طريق الفرار. حين دخلا الغرفة وشاهدا الجثث الثلاث في بحيرات من الدماء خرس لساناهما، وحملقا في بعضهما بعضا في رعب. بدا وكأن قبب جمجمتيهما انفتحت في ثمانية أمكنة، وصب فيها دلو من الماء المتجلد.

استدارا يبغيان الهرب، فطعن وو سونغ أحدهما في ظهره، وخر الآخر على ركبتيه طالبا الرحمة. فقال وو سونغ: "لا أستطيع الحفاظ على حياتك!". قبض على الرجل وقتله، فلطخت الدماء الغرفة المزخرفة. وتراقصت أضواء القنديل فوق الأجساد المذبوحة.

قال وو سونغ يخاطب نفسه: "في مقدوري الاستمرار في هذا العمل حتى نهايته. فإذا قتلت مائة من الأشخاص فلن أموت غير ميتة واحدة!". وحمل سيفه، وهبط عن السلم.

صاحت زوجة الجنرال قائلة: "فيم هذه الضجة كلها فوق؟".

أسرع وو سونغ إلى مقدمة المبنى. فتساءلت وقد شاهدت الفتى الضخم يمرق أمامها: "من هذا؟". جرح سيفه جبهتها، فسقطت وهي تصرخ. حملها إلى الأسفل، وحاول أن يجز عنقها، ولكن السيف المفلول لم يعد يقطع. نظر إليه وو سونغ في ضوء القمر.

- لا عجب في هذا!

ذهب إلى المطهى، وأخذ مطرده، ورمى السيف جانبا، ورجع إلى المبنى، وهنالك رأى اليشمة الأرجوانية؛ الخادمة التي غنت له، وهي تقود طفلين. ولمحت سيدتها ميتة، فصرخت في ذعر. وغرز وو سونغ مطرده في قلبها، وقتل الطفلين أيضاً. كانت طعنة واحدة منه كافية.

ومن هنالك اجتاز الردهة الوسطى، وأقفل بوابة المبنى الرئيسة. ورجع أدراجه، فعثر على امرأتين أو ثلاث نساء فقتلهنَّ جميعاً، فسقطن على الأرض.

همس في نفسه: "لقد اكتفيت أخيراً. وفي مقدوري الذهاب الآن!".

رمى غمد السيف وخرج من الباب في الجدار الخلفي حاملاً مطرده. وفي الإصطبل أخذ كيسه، ووضع الأباريق الفضية التي داسها بقدميه فيه، وربط الكيس حول وسطه. ثم خرج والمطرد في يده.

قال في نفسه عند سور المدينة: "إذا انتظرت هنا ريثما يفتحون البوابات فلا بدَّ أن يلقوا القبض عليَّ. يجب أن أصعد على السور وأرحل والظلمة منتشرة". تسلق الجدار. ولما كانت منغتشو مدينة صغيرة، لم يكن سورها البسيط عالياً. سبر وو سونغ ارتفاع الأرض من حيث وقف على السور بقضيب مطرده إلى أن لمست نهايته الأرض، واستند إليه ووصل إليها.

حط على الأرض إلى جانب خندق مائي. كان يستطيع أن يرى تحت ضوء القمر أن الماء عمقه قدم واحدة. وإذ كنا في منتصف الشهر القمري العاشر، فإن أكثر الينابيع تكون جافة. خلع وو سونغ حذاءه وجوربيه ورباطات ساقيه، ورفع ثيابه وخوّض في الماء. وتذكر الصندل المصنوع من القش الذي أعطاه إياه شي ين، فأخرجه من كيسه، ولبسه.

سمع طبلة الحارس تضرب في المدينة. إنها الفترة الثالثة من الحراسة الرابعة. قال في نفسه: "في هذا النهار طردت ذلك الغيظ الشديد من جسدي. وليس هذا بالمكان الذي أطوف فيه!". سار يحمل مطرده متجهاً شرقاً على طول الممر. وحين أزفت فترة الحراسة الخامسة كانت الظلمة تنقشع، ولكن النور لم ينتشر بعد.

كانت ليلة قاسية، وكان مهدود القوى، والجراح التي أحدثها جلده تؤلمه. ولم يستطع متابعة السير. ولمح في أيكة معبداً قديماً صغيراً. دلف إليه، وأسند مطرده، وفك كيسه. واستخدم حزمته وسادة، وتمدد.

لم تكد تغمض عيناه حتى دلف رجلان طويلان خلسة وأطبقا عليه. ودلف رجلان آخران، وأمسكا به وقيداه.

قال اللصوص الأربعة: "هذا الوغد لطيف وسمين. وتغمر الفرحة حنايا الأخ الكبير".

جاهد وو سونغ عبثاً. أخذوا منه صرته ومطرده وجروه مثل الخروف في سرعة لم تسمح لقدميه أن تمسا الأرض إلا بصعوبة. متجهين إلى قرية.

وفي الطريق جعلوا يتبادلون الرأي: "من أين جاء بهذا الدم الغزير الذي يلطخه؟ أكان يسرق أحد الناس؟". أطبق وو سونغ شفتيه فما نطق بحرف، وتركهم يتحدثون ما طاب لهم. وبعد أن اجتازوا أربعة أو خمسة ليات وصلوا إلى بناء من القش دفعوه إليه. كان ثمة مصباح يرسل ضوءه عبر مدخل صغير لغرفة جانبية. ربطه الرجال الأربعة وشدوه إلى أحد الأعمدة.

رأى وو سونغ قدمين بشريتين تتدليان من عارضة خشبية قرب الموقد. فقال في نفسه: "لقد سقطت بين أيدي قتلة شريرين. سأموت هنا من دون أن يعرف أحد بذلك! لو خطر لي أن هذا سيحدث لكنت قد سلمت نفسي في منغتشو! هنالك أموت من جراء ضربة واحدة من سيف، ولكنني أترك اسماً نظيفاً للأجيال القادمة!".

أخذ الأربعة صرته، وصاحوا: "أيها الأخ، يا امرأة الأخ، عجلا إلينا، لقد عثرنا على بضاعة رائعة هنا".

أجاب صوت: "سأحضر حالاً. لا يفعلنَّ أحد شيئاً من دوني... سأقوم بالنقش بنفسي".

وبعد فترة وجيزة لا تزيد عن ارتشاف قدح من الشاي ظهرت امرأة يتبعها رجل ضخم البنية ودلفا إلى الغرفة، وشخصا إلى وو سونغ.

هتفت المرأة: "أليس هذا شقيق زوجي؟".

وصاح الرجل: "من دون أي ريب هذا أخي!".

حدَّق وو سونغ. لم يكن الرجل غير تشانغ تشينغ جنائني الخضار، والمرأة سون الساحرة. فك الخدم الأربعة وقد ارتسمت الدهشة في وجوههم قيود وو سونغ وأعادوا إليه ثيابه. كان منديل رأسه قد تمزق فأعطوه قبعة لبادية عريضة الحافة بدلاً منه. واتضح أن لتشانغ تشينغ عدة أمكنة يمارس فيها العمل بالإضافة إلى المكان القائم عند هضبة مفترق الطرق. وكان وو سونغ يجهل ذلك.

دعاه تشانغ تشينغ إلى الرواق الأمامي، وتبادلا التحيات الودية. لقد فوجئ المضيف حقاً بحضوره: "ماذا أصابك، يا أخي؟".

روى له وو سونغ القصة: "منذ افتراقنا تعرفت على شي ين ذهبي العينين، وعاملني شي ين معاملة طيبة للغاية، وطلب إلي أن أستعيد مخزنه في الأيكة السعيدة الذي سلبه جيانغ حارس البوابة العملاق بالقوة، وضربت جيانغ وأنا سكران، وأبعدته عن الأيكة السعيدة. ولكن جيانغ رشى القائد تشانغ والجنرال تشانغ لنسج فخ ضدي. في اليوم الخامس عشر من أغسطس (عيد منتصف الخريف) أوقعوني في ورطة بأنني سرقت الفضة علما بأنهم وضعوا الأدوات الفضية خلسة في صندوقي بغرفتي. وسلموني إلى السجن كمجرم. وبفضل مساعدة شي ين ذهبي العينين والكاتب كانغ تم نفيي إلى اينتشو. كان الخفيران من رجال جيانغ ويريدان قتلي في الطريق المؤدي إلى اينتشو، ولكنهما ليسا ندين لي فقتلتهما بالإضافة إلى رجلين آخرين، ورميتهم إلى بركة السحابة الطائرة. ثم عدت إلى منغتشو وذهبت إلى دار الجنرال تشانغ حيث شرب هو مع جيانغ حارس البوابة العملاق والقائد تشانغ وقتلت السائس والخادمتين والقائد تشانغ والجنرال تشانغ وجيانغ حارس البوابة العملاق وزوجة تشانغ وخدمها وطفليها. لقد تم الانتقام منهم، ثم خرجت من المدينة، وبعد أن قطعت خمسة

عشر ليا وجدت معبدا صغيرا. كنت متعبا وآلمني جرح جسمي فخلدت للراحة في المعبد إلى أن قبض عليّ الأشخاص الأربعة في المعبد".

خرَّ اللصوص الأربعة على ركبهم، وسجدوا، وقالوا:

- نحن رجال الأخ تشانغ تشينغ. خسرنا في القمار في الأيام القليلة الماضية، وذهبنا إلى الأيكة عسى أن يتاح لنا عمل صغير فيها، فرأيناك قادماً على طول الممر، وقد تلطخت بالدماء، ودلفت إلى المعبد تستريح. لم نعرف لك هوية. وكان الأخ تشانغ تشينغ قد أمرنا في الفترة الأخيرة قائلاً: "جيئوني بهم أحياء". وهكذا قبضنا عليك. ولولا هذه التعليمات لكنا قد قتلناك. والحقيقة أننا نملك عيونا ولكننا لا نرى جبل تايشان! وفي بلبلتنا رميناك أرضاً. فاصفح عنا، أيها الأخ!

ضحك تشانغ وزوجته:

- أمرناهم ألا يحضروا لنا غير بضاعة حية لأن القلق ينهشنا. وبدهي أنه لم تكن لديهم أية فكرة عما يجول في خاطرينا. لو لم تكن متعباً، يا أخي، فإن أربعين رجلاً لا يمكن أن يلقوا القبض عليك، فكيف هؤلاء الأربعة الحمقى!

سجد الأربعة بحرارة، فطلب إليهم وو سونغ النهوض وقال:

- إذا لم يكن لديكم مال تقامرون به، فسأعطيكم قليلاً منه.

وأخرج عشر قطع من الفضة، فأغدقوا عليه الشكر. وأضاف تشانغ تشينغ قطعتين أو ثلاث قطع أخرى من ماله الخاص، فانصرف الرجال الأربعة يقتسمون الثروة.

قال تشانغ تشينغ: "أنت لا تعرف مقدار انشغالي عليك، يا أخي. فبعد انصرافك خشيت أن تصادفك المشاكل، وأن تعود إليّ عاجلاً أو آجلاً. وهكذا أمرت هؤلاء الأغبياء: لا أريد غير بضاعة حية. كانوا يقبضون على المتماهلين أحياء، أما الذين يرفضون الاستسلام فيقتلونهم. وأنا لا أسمح لهم بحمل المدى حينما يخرجون، بل باستخدام الخطافات والحبال. وحين نادوا عليَّ قبل قليل شعرت بإحساس غريب، فأمرتهم أن ينتظروني. من كان يظن أنك ستكون أنت، يا أخي!".

قالت سون الساحرة: "حين شاع الخبر أنك ضربت جيانغ حارس البوابة العملاق، وأنك كنت سكران حينما فعلت ذلك، لم يبق مسافر واحد لم تأخذه الدهشة. سمعنا بالقصة من التجار الذين يمرون بالأيكة السعيدة. ولم نعرف ماذا حصل بعد ذلك. أنت مهدود القوى، يا أخي. أرجو أن تذهب إلى غرفة الضيوف وتأخذ قسطا من الراحة. سنتحدث في هذا الموضوع في ما بعد".

قاد تشانغ وو سونغ إلى غرفة الضيوف حيث اضطجع واستسلم للنوم، ودلف الزوج والزوجة إلى المطهى وجهزا مشهيات كثيرة وخمرة فاخرة ليقدّماها لوو سونغ حين يهب من غفوته. وسرعان ما تجهز كل شيء.

لم يجرؤ أولئك الذين لجأوا إلى الاختباء في دارة الجنرال تشانغ في مدينة منغتشو على الظهور حتى فترة الحراسة الخامسة. أهبت صيحاتهم ونواحهم الخدم والمعاونين، واستدعوا الحرس العسكري من المركز المجاور. وأرسل الجميع صيحات الرعب حين وقعت عيونهم على ما حدث. ولزم الجيران منازلهم من الرعب.

وما إن انتشر الضوء حتى نقل الخبر إلى سلطات مدينة منغتشو، فأرسل الوالي المشدوه على الفور رجالا يستقصون الأمر، ويحصون عدد القتلى، ويستخلصون كيف دخل القاتل الدار، وكيف هرب، ويرسمون مخططا لمسرح الجريمة ومواصفاتها.

حين رجعوا قدموا تقريرهم على الوجه التالي: "دخل القاتل عن طريق الإصطبل، حيث قتل السائس وترك قطعتين من الثياب القديمة. وقتل خادمتين في المطهى إلى جانب الموقد. وعند باب المطهى وجدنا قطعة من سلاح المجرم؛ سيفه المفلول. وفي الطابق العلوي قتل الجنرال تشانغ واثنين من معاونيه. بالإضافة إلى ذلك، إن الضيفين - القائد تشانغ وجيانغ حارس البوابة العملاق - وجدا قتيلين. وقد كتب بالدم على الجدار الأبيض ما يلي: القاتل هو وو سونغ صارع النمر! في الطابق الأرضي قتل زوجة الجنرال، واليشمة الأرجوانية، وثلاثة أطفال. مجموع عدد القتلى خمسة عشر. وقد سرق أيضاً ستة من أباريق الشراب الفضية".

أمر الوالي أن تغلق بوابات سور المدينة الأربع، وأن يقوم الجنود ورجال الشرطة وقادة السجون بالتفتيش عن المجرم وو سونغ بيتاً بيتاً. وفي اليوم التالي، حضر ضباط من ناحية برك السحابة الطائرة.

أعلن قادة السجن المحلي قائلين: "عثرنا على أربع جثث في المياه. وهنالك لطخ من دم المجرم إلى جانب الجسر". وقدموا بذلك تقريرا خطيا.

وبناء على أمر من الوالي أرسل شريف المقاطعة المحلي لإجراء الاستجواب وفحص الجثث. كان اثنان من القتلى من رجال الشرطة في مركز المقاطعة. فطلبت أسرتاهما الموافقة على دفنهما، وقدمتا شكوى للوالي تطالب بالقبض على المجرم وإعدامه.

ظلت بوابات المدينة مغلقة ثلاثة أيام، وجرى تفتيش كل بيت على حدة، لكن من دون جدوى. وأصدر الوالي تعليمات تأمر الأجزاء الواقعة تحت سلطة المقاطعة بالمشاركة في التفتيش. ووزعت نشرات تتضمن تفاصيل عن مكان ولادة وو سونغ وعمره وأوصافه، ورسما تقريبيا لملامحه. وخصصت جائزة قدرها ثلاثة آلاف ربطة من النقد للقبض عليه، وأعلن عن مكافأة أخرى لمن يدلي بمعلومات عن مكان تواجده. كما أن كل من يخبئه أو يأويه لديه يعتبر مذنباً ويعاقب عقاب المجرمين. وأرسلت هذه النشرات إلى المقاطعات والولايات المجاورة.

وستتحدث الآونة عن وو سونغ الذي أقام في منزل تشانغ تشينغ طوال أربعة أو خمسة أيام. كان التفتيش عنه يشبه مشطا رائع الأسنان. أثار احتجاجا شعبيا عارما. فتشت الشرطة كل قرية وكل بيت. وحين تناهى الخبر إلى تشانغ تشينغ خاطب وو سونغ قائلاً: "أنا لست خائفا على نفسي من إقامتك لديّ، ولكن الشرطة تتنقل من بيت إلى بيت وبصورة محمومة. فإذا وقع خطأ، فسينصبّ اللوم عليّ وعلى زوجتي. أعرف مأوى جيدا يمكن أن تذهب اليه. وسبق أن ذكرته لك. والسؤال الآن يتعلق بما إذا كنت تنوي اللجوء اليه!".

- كنت أفكر في هذا الأمر أيضاً. لا بد أن تصل المشاكل إلى هنا. والمكان هنا ليس بآمن. كان لديّ أخ أكبر، ولكن زوجته غدرت به وقتلته، وقد جئت إلى منغتشو مؤخرا، ولكنهم أرغموني

على ارتكاب جريمة. وليس لديّ منزل أو أقرباء، وإذا كنت تعرف مكاناً آمناً، فلِمَ لا أذهب إليه؟ أين هو هذا المكان؟

- إنه في ولاية تشينتشو؛ دير اللؤلؤة الثمينة على جبل التنينين. وقد غدا الأخ الحصيف لو الراهب الموشوم، وفتى شجاع آخر يدعى يانغ تشي الحيوان أزرق الوجه قاطعي طريق هنالك. وهما يسيطران على تلك المنطقة. جيش تشينغتشو ورجال شرطتها لا يجرؤون حتى على النظر في ذلك الاتجاه. وهي أفضل ملجأ بالنسبة إليك. فإذا ذهبت إلى مكان آخر فلا ريبة أنهم سيقبضون عليك فيه عاجلاً أم آجلاً. والحصيف لو دؤوب على الكتابة إليّ يستحثني على الانضمام إليه. ولكنني مغرم بهذا المكان، فامتنعت عن الذهاب. سأكتب رسالة أخبره فيها عنك. ومؤكد أنه سيرحب بك من أجلي.

- أنت على حق، يا أخي. كنت أفكر في الانضمام إليه بنفسي. ولكن الوقت لم يبد موائما أو الفرصة مؤاتية. أما الآن، بعد أن قتلت من قتلت، والأنشوطة تضيق وتضيق، وليس لديّ مكان آخر ألوذ به، فالفكرة تبدو رائعة. أعطني رسالة إليه فأرحل هذا النهار.

جاء تشانغ تشينغ بورقة وكتب رسالة توصية مفصلة سلمها إلى وو سونغ، وشرع يجهز مأدبة وداعية. وهزت زوجته إصبعها في وجهه مستنكرة: "كيف تترك أخاك يذهب إلى هنالك على هذا الغرار؟ قد يعتقلونه!".

سأل وو سونغ: "ماذا تقصدين، يا امرأة أخي؟".

- هنالك نشرات في كل مكان تعد بمكافأة قدرها ثلاثة آلاف ربطة من النقد، وفيها صورتك وكل المعلومات عنك. وهنالك "علامتان ذهبيتان" واضحتان على وجهك. فإذا توقفت في الطريق فلن تستطيع إلى الإنكار سبيلاً!

اقترح تشانغ: "غط هاتين العلامتين باللصوق".

فابتسمت زوجته موبخة: "أنت ذكي وتهرف بمثل هذا الكلام! هل يخدع ذلك أيا من رجال الشرطة؟ لديّ اقتراح. لكن أخاك قد لا يوافق عليه".

- لِمَ لا أوافق؟ إنني أهرب من المصيبة.

ضحكت سون الساحرة، وقالت: "آمل ألا تظنّ أن ما أقوله جنون".

- سأنفذ ما تقترحين، كائناً ما كان الاقتراح.

- قبل مضي سنتين صرعت راهبا جاء إلى هذا المكان. وترك هنا خاتما معدنيا كان يربط به شعره الطويل، كما ترك مجموعة من الثياب، وثوبا أسود، ونطاقا قصيرا متعدد الألوان، وشهادة رهبنة، وسبحة من مائة وثمانين حبة، وغمدا من جلد القرش فيه سكينان فولاذيتان رائعتان مزخرفتان برسوم زهرة الثلج. وما أكثر ما تئن هاتان السكينان ليلا. لقد رأيتهما يا أخ زوجي، واليوم أنت رهن المطاردة. سنقص لك شعرك على صورة جدائل طويلة تشبه جدائل ذلك الراهب الجوّال، ونغطي الوشم على وجهك. وستحمل شهادته هوية لك. وعمره ومظهره الخارجي لا يختلفان عن عمرك ومظهرك. لقد كان القدر رحوما. استخدم اسمه على الطريق، فلا يجرؤنّ أحد على استجوابك بشدة. ما رأيك في هذا؟

ضم زوجها يديه إلى بعضهما بعضاً، وقال: "إنها على حق! لقد نسيت هذا الموضع كله. ما رأيك، يا أخي؟".

- يبدو رائعاً في نظري. لكنني أخاف ألا أشبه رجلا تخلى عن الأمور الدنيوية في هذا العالم.

قال تشانغ: "ستتدبر كل شيء".

ذهبت زوجته إلى غرفة أخرى، ورجعت تحمل صرة. فتحتها وأخذت منها بعض الثياب، وطلبت إلى وو سونغ أن يبدل ثيابه الداخلية والخارجية. فتفحص ثياب ذلك الراهب: "يبدو أنها مفصلة خصيصا لي". لبس الثوب، وشدّ النطاق، وخلع القبعة اللبادية، وأرسل شعره، وجمع أطرافه، وعلق السبحة.

حدقت سون الساحرة وتشانغ تشينغ فيه في انشداه: "هذا كان ينبغي أن يكون مقدرا قبل زمن بعيد!".

تطلع وو سونغ إلى المرآة وانفجر ضاحكا.

سأل تشانغ: "ما الذي يثير ضحكك؟".

- لم أستطع كتم ضحكي. أن أكون، أنا، راهباً جوالاً! حسن، يا أخي، قصّ لي شعري.

شذب له تشانغ شعره بمقص من أمام ومن خلف. واذ كان الوقت لا يسمح بالانتظار، فقد حزم وو سونغ صرته وتأهب للرحيل.

قال تشانغ: "أصغ لي، يا أخي. لا يخطرنّ لك في بال أني أريد أن أتكسب شيئا من هذا، ولكن يحسن أن تترك أباريق شراب الجنرال تشانغ هنا. سأعطيك فضة لقاءها تستطيع حملها معك على الطريق. سيكون ذلك أكثر سلامة".

- أنت بعيد النظر، يا أخي.

أعطاه تلك الأباريق التي داسها بقدميه، وأخذ بدلا منها كيسا من القطع الفضية. وضعه في الكيس الذي ربطه داخل نطاقه.

تناولا الغداء والشراب معا، ثم ألقى وو سونغ التحية على تشانغ وزوجته، وعلق السكينين في وسطه.

كان الوقت مساء وقد تجهز كل شيء. وكانت سون الساحرة قد خاطت له كيسا مطرزا يحفظ فيه شهادة الرهبنة وطلبت إليه أن يحمله داخلا، قريبا من صدره. وقدّم له تشانغ بعض النصائح الأخيرة: "حذار على الطريق. لا توقع نفسك في أي مأزق. ولا تكثر من الشراب. ولا تخاصم أحداً. وبكلمات أخرى، ليكن تصرفك مثل الرهبان. ليس هنالك ما يستأهل أن يثير حفيظتك. أنت لا تريد الناس أن يدركوا حقيقة أمرك. وحينما تصل إلى جبل التنينين ابعث إليّ رسالة تخبرني فيها كل شيء. لن أطيل الإقامة أنا وزوجتي هنا. في أحد الأيام المقبلة سنحزم متاعنا وننضم إليكم على الجبل. انتبه لنفسك، يا أخي. وقدم تحياتنا إلى لو ويانغ".

وفيما وو سونغ يدلف خارج البوابة شمّر عن ساعديه وانطلق في خطوات مهيبة. وراقبه تشانغ وزوجته وقد ارتسم الرضا على وجهيهما: "إنه صورة كاملة للراهب الجوّال!".

اجتاز وو سونغ الشجرة الكبيرة عند هضبة مفترق الطرق وسار قدما. كان الشهر القمري العاشر، والأيام قصيرة. فاسودت الدنيا قبل أن ينتبه إليها. وبعدما اجتاز أقل من خمسين ليا لمح هضبة عالية أمامه. فتسلق إلى الذروة على ضوء القمر الذي أنار له الطريق. وقدّر أن الزمن يقارب فترة الحراسة الأولى.

توقف عند ذروة الهضبة وأجال النظر حواليه. كان القمر، الناهض ناحية الشرق، يلقي نوره على كل نبتة من العشب. وسمع صدى ضحك في الأيكة القائمة إلى الأمام منه.

قال في سره: "أمر غريب. من يمكن أن يضحك في هذه الذروة الساكنة؟".

دلف إلى الأيكة. كان ثمة معبد ومقبرة بين شجر الصنوبر؛ بناء من القش مؤلف من حوالى عشر غرف. فتح نافذتين صغيرتين ومدّ بصره من خلالهما. كان هنالك كاهن تاوي يعانق فتاة إلى جانب النافذة في الطرف الآخر، وهما يضحكان ويتسليان وينظران إلى القمر.

عصف الغضب في قلب وو سونغ، وثارت ثائرته: "هذا كاهن انتبذ هذه التلال المشجرة ويأتي مثل هذه الأفعال!". استلّ السكينين من وسطه، ونظر إليهما تتألقان بلون فضي تحت ضوء القمر. وقال في كنايا نفسه: "إنهما سكينان رائعتان، ولكنهما لم تؤديا لي أية خدمة حتى الآن. سأجرب معدنهما في هذا الوغد الزنيم!".

دلى إحدى السكينين من معصمه، وأعاد الأخرى إلى غمدها، وأخرج ذراعيه من ثوبه، ولفّ الكمين حول وسطه وربطهما من الخلف، ثم مشى إلى مقدمة المعبد وقرع على الباب. فأسرع الكاهن وأغلق النافذة الخلفية وأوصدها. التقط وو سونغ حجراً ودق على الباب الصغير بشدة. وانفتح باب جانبي وأطلّ منه فتى.

صاح الفتى: "من أنت؟ وكيف تسمح لنفسك بالمجيء في منتصف الليل وتثير مثل هذه الضجة! فيم تنهال على الباب قرعاً؟".

حملق فيه وو سونغ. وصاح: "سوف أكرّس هذه السكين لهذا الفتى أولاً!". وضرب ضربته، فتردد صدى رأس ينفصل عن عنقه ويهوي على الأرض.

زمجر الكاهن من داخل المعبد قائلاً: "من يجسر على نحر الفتى لي!". وخرج والسيف في يده، واندفع ناحية وو سونغ.

ضحك وو سونغ: "من حسن حظي أني لم أحفظ مهارتي في صندوق. وهذه تخدشني حين أثور!". وأخرج السكين الأخرى من غمدها، ولوّح بالسكينين معا، وخطا لملاقاة الكاهن.

أماما ووراء، يمنة ويسرة تصارع الاثنان في ضوء القمر وقد كستهما دوامات من بخار جليدي. تقاتلا أكثر من عشر جولات، وارتفع صدى أسلحتهما إلى قمة الذرى.

كان القدر قد كتب على أحدهما أن يموت. وسوف يتدحرج رأس عن كتفين في الوميض البارد والظلال القاتمة. وفي الصدام الدموي ستمطر الدماء غزيرة.

من منهما هوى في المعركة وقضى نحبه؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثاني والثلاثون

وو الراهب الجوال، سكران، يلكم كونغ ليانغ؛
والنمر الأنيق يحرر سونغ جيانغ في شهامة

تظاهر وو الراهب الجوال أنه يترك ثغرة في القتال، فاندفع الكاهن منها بسيفيه الاثنين. التف وو سونغ على نفسه، وصوَّب، وضرب. فتدحرج رأس الكاهن عن جانب، وسقط جسده على الرصيف الحجري.

صاح وو سونغ: "أيتها الفتاة في المعبد، اخرجي إليَّ، لن أقتلك! أريد أن أستجوبك ليس غير!".

خرجت الفتاة، وجثت أمامه ساجدة.

- لا ضرورة للسجود، أخبريني وحسب: ما اسم هذا المكان؟ ومن يكون الكاهن بالنسبة إليك؟

- أنا ابنة المحترم تشانغ ونقطن في سفح التلة. وهذا المعبد مقبرة أسلافنا. جاء الكاهن يوماً وأمضى الليل في منزلنا. ولم يعرف أحد من أين جاء، ولكنه ادعى أنه قادر على قراءة الحظ وممارسة الضرب بالرمل. لم يشأ أبواي بقاءه في منزلنا، فطلبا إليه أن يمارس الضرب بالرمل في المقبرة، فجعل يخاطبهما بكلام معسول مترجياً البقاء عدة أيام. ثم وقع بصره عليَّ، ورغب عن الانصراف. وأقام في منزلنا شهرين أو ثلاثة شهور. وقتل والدي ووالدتي وأخي وامرأته، وأرغمني على الصعود معه إلى هذا المعبد. وكان قد اختطف الفتى من قرية أخرى. وهذا المكان معروف باسم جبل الأربعة والأربعين. وهذا الكاهن، واسمه وانغ، فأطلق على نفسه اسم "الأربع وأربعون الطائرة".

- أليس لك أقرباء؟

- هنالك عدة عائلات. وجميعهم من المزارعين. ولم يجسر أحد منهم على الوقوف في وجهه.

- هل يملك ذلك الوغد أية أملاك؟

- لقد جمع قرابة مائتي أوقية من الفضة والذهب.

- قومي وهاتها بسرعة. سوف أحرق هذا المعبد.

- ألا ترغب في شيء من الطعام والشراب، يا سيدي؟

- بلى، إذا كان لديك شيء منهما.

- أرجو أن تدخل المعبد إذاً.

- أليس هنالك من يختبئ فيه للانقضاض عليَّ؟

- كم رأساً لديَّ يمكن أن أخسره إن جرؤت على خداعك؟

لحق وو سونغ بالفتاة إلى المعبد. كانت هنالك منضدة إلى جانب النافذة الصغيرة مزودة بالخمرة واللحم. ملأ طاساً كبيرة وشربها. وجمعت الفتاة فضة الكاهن وذهبه، وأضرم وو سونغ النار في المعبد. وناولته النقود.

قال: "إنها لك. أنا لا أريدها. ستحتاجين إليها في حياتك. اذهبي الآن من هنا، أسرعي! هيا، انطلقي!".

سجدت الفتاة وشكرته، وهبطت عن التلة. وألقى وو سونغ الجثتين في اللهيب وأعاد سكينيه إلى غمديهما. وفي تلك الليلة، اجتاز التلة وسار على طريق متلوية إلى ولاية تشينغتشو.

بقي يسير طوال اثني عشر يوماً. ومن البدهي أنه كانت هنالك، في كل مدينة وقرية وقرية صغيرة، نشرات تدعو إلى القبض على وو سونغ. ولكن، لم يخطر في بال إنسان أن يستجوبه وهو في زي الراهب الجوال.

صرنا في الشهر القمري الحادي عشر، وبرد الجو. وسرت البرودة في أطراف وو سونغ رغم أنه كان يتوقف بين الفينة والفينة يأكل ويشرب. وفيما الطريق تصعد إلى قمة إحدى التلال رأى إلى الأمام منه جبلاً سامقاً شديد الانحدار. فهبط عن التلة وتابع طريقه حوالى أربعة أو خمسة ليات أخرى. فرأى حانة إلى جانب جدول مائي برزت من ورائها تلة من الجلاميد المتساقطة. كانت الحانة مخزناً للخمور في بلدة صغيرة. فدخلها واتخذ لنفسه مقعداً.

نادى: "أيها الساقي. جئني بمكيالين من الخمرة. وفي مقدورك أن تحضر شيئاً من اللحم أيضاً".

قال صاحب الحانة: "خمرتنا من صنع منزلي، أيها المحترم. وأخشى ألا يكون لدينا شيء من اللحم".

- هات الخمرة إذاً. فهي تردُّ غائلة البرد.

أحضر صاحب الحانة مكيالين من الخمرة وقدمهما لوو سونغ في طاس كبيرة. وأحضر من بعد طبقاً من الخضار. فاغتبق وو سونغ الخمرة وطلب مكيالين آخرين. فجاء صاحب الحانة بهما في طاس كبيرة، واسترسل وو سونغ في الشراب. كان نصف سكران في ارتشاف الخمرة على الطريق، فشعر بعدما احتسى أربعة مكاييل أخرى على عجل والريح تلفحه أن الشراب يفعل فعله في رأسه.

صرخ في صاحب الحانة قائلاً: "أليس لديك حقاً ما يمكن أن يؤكل في هذا المكان؟ بعني إذاً شيئاً من اللحم الذي تدخره لنفسك! سأدفع لك ثمنه. فلديَّ فضة!".

ضحك المضيف: "أنا لم أشاهد راهباً مثلك. يشرب الخمرة ويأكل اللحم من دون أن يؤنبه ضميره. انس هذا الأمر، يا محترم!".

- أنا أدفع ثمن ما أحصل عليه. فلم لا تبيعني شيئاً؟

- قلت لك. ليس لدينا غير هذه الخمرة البيضاء. ولا نملك سواها.

بينما هما يتجادلان دلف إلى الحانة فتى ضخم العود برفقة ثلاثة أو أربعة من رفاقه. حياهم

صاحب الحانة مبتسماً ومنحنياً.

قال: "أرجو أن تجلس، أيها المعلم الفتى الثاني".

سأل الفتى الضخم: "هل جهزت كل شيء مثلما أمرتك؟".

- طهوت الدجاج واللحم وجهزتهما، وأنا رهن إشارتك.

- وأين جرة الخمرة المعطرة؟

- إنها هنا.

سار الفتى ورفاقه إلى منضدة مقابلة لوو سونغ وجلسوا. وأحضر المضيف الخمرة في جرة معطرة، وفتح سدادتها الطينية، وصب الشراب في حوض كبير أبيض اللون. ورأى وو سونغ أنها من عصير العنب وطازجة من مخزنها في القبو. وتطاير عبيرها إلى منخريه. كان الشذا أقوى من أن يحتمله. فطقطق حلقه. ولم يعد يقوى على منع نفسه من الاندفاع واختطافها.

ذهب المضيف إلى المطهى ورجع يحمل صينية عليها دجاجتان مطهوتان وطبق من اللحم المسلوق. وضعها أمام الرجل الذي ناداه بلقب المعلم الفتى الثاني، بالإضافة إلى أطباق من الخضار، ثم تقدم يغرف الخمرة لتدفئتها.

نظر الراهب الجوال وو إلى طبقه الوحيد من الخضار، فاشتمله غضب عاصف. إنها قضية "عينان متخمتان ومعدة خاوية". كانت الخمرة تسري في عروقه. فأراد أن يحطم المائدة الأخرى وينثرها شظايا متناثرة!

زمجر صارخاً: "تعال، أيها المضيف. ما الذي ترمي إليه من خداع زبائنك؟".

أسرع صاحب الحانة إليه قائلاً: "هدئ من روعك، يا محترم. إذا رغبت في المزيد من الخمرة أحضرتها لك".

انفجر وو سونغ مزمجراً: "أيها الوغد اللئيم! لم لا تبيعني خمرة معطرة ودجاجاً ولحماً؟ أنا أدفع الثمن فضة".

- الخمرة والدجاج واللحم من منزل هذا السيد المهذب. وهو يستخدم حانتي للطبخ والأكل وحسب.

أعمت الرغبة في الطعام عيني وو سونغ فرعد: "أكاذيب! أنت كاذب شرير!".

- أنا لم أر راهباً يتصرف بمثل هذه الوحشية!

- أية وحشية في هذا؟ هذا الرجل دفع لك ثمن كل ما أحضرت!

- وأنا لم أشاهد راهباً يدعو نفسه "هذا الرجل".

وثب وو سونغ وهوى بصفعة رنانة على وجه صاحب الحانة جعلته يتدحرج إلى الطرف الآخر من الغرفة. وانتفخ نصف وجه صاحب الحانة، واحتاج إلى فترة من الزمن للنهوض على قدميه. هبَّ المعلم الفتى الثاني بسرعة غاضباً، ورعَّص إصبعه في وجه وو سونغ.

- أين إحساسك بالوقار أيها الراهب الأحمق؟ تلكم وترفس! أفلم تسمع يوماً أن "من يتخلى عن الحياة الدنيوية ينسى أهواءه كلها!".

- هذا ما دعاني إلى صفعه! وأي شأن لك في هذا؟
- أنا أعرض عليك نصيحة أخوية، وأنت تلجأ إلى الفظاظة؟
دفع وو سونغ منضدته جانباً وخطا متقدماً: "أعني حديثك هذا؟".
ضحك الفتى الضخم: "أتريد القتال معي، أيها الأحمق؟". سخر قائلاً: "هذا معناه أنك تضع رأسك في شدق النمر! اخرج أيها الجوال القذر! وسوف أخاطبك هناك!".
صاح وو سونغ: "تحسبني خائفاً؟ وأني لا أجرؤ على القتال؟". واستبق إلى الباب. وخطا الفتى الضخم خارجاً، فلحق به.
لجأ المعلم الفتى الثاني إلى الحذر بعدما رأى ضخامة وو سونغ، واتخذ وقفة الدفاع وجعل ينتظر.
خطا الراهب الجوّال وصالب يديه. فحاول الرجل إلقاءه على الأرض. لكن، أنّى له ذلك مع مثل ذلك الجبار الصنديد؟ شده وو سونغ من صدره شدة واحدة، ثم دفعه دفعة واحدة طوَّحت به على الأرض كمن يلهو مع صبي صغير. ولم يستطع الفتى الضخم أن يرفع قبضةً للدفاع عن نفسه.
وقف القرويون الثلاثة أو الأربعة الذين رافقوه يراقبون ذلك، وهم يرتجفون، خائفين من العمل على نجدته. وضع وو سونغ إحدى قدميه على خصمه المطروح أرضاً وانهال عليه بعشرين أو ثلاثين ضربة من قبضته في كل مكان يوجعه، ومن بعد رفعه عن الأرض وألقى به في الجدول المائي. صرخ رفاقه في ذعر، وانقضوا في بلبلة وأخرجوه من الماء، وحملوه وهربوا متجهين جنوبياً. وعجز المضيف، وقد انتفخ وجهه من الضرب، عن السير على قدميه. مضى واختبأ في غرفة خلفية.
قال وو سونغ: "وهكذا هربتم جميعاً! في مقدوري الآن أن أتناول شيئاً من الطعام وقليلاً من الشراب!".
صب طاساً كبيرة من الخمرة من الحوض الأبيض الكبير. كانت الدجاجتان وطبق اللحم على المائدة فانهال عليها بكلتا يديه، وما أسرع أن التهم ثمانية أعشار ما وُضع على المائدة.
غادر الحانة شبعان من طعام وشراب، وقد عقد كمي ثوبه وراء ظهره، وسار على ممر إلى جانب الجدول. تمايل وتخبّط، والريح الشمالية تصفعه صفعاً. وعلى مسافة خمسة ليات من الحانة خرج كلب أصفر اللون من وراء جدار ترابي وهبَّ ينبحه. كان وو سونغ ثملاً مشاكساً. فكيف يجرؤ ذلك الكلب الأصفر أن يتعقبه نابحاً؟
استل إحدى السكينين بيده اليسرى وانقض على الكلب. فنبحه هذا عن الضفة. وثب وو سونغ وطعن فأخطأ. كانت هجمته قوية ألقت به في الجدول، فما استطاع النهوض من جراء سكره. ووقف الكلب وتابع نباحه.
كان الوقت أواسط الشتاء، والماء جليدياً بارداً رغم أن عمقه لا يجاوز قدمين أو ثلاث أقدام. وتدبر وو سونغ أمره أخيراً فنهض والماء يقطر منه. ورأى السكين تتضوأ في الماء حيث سقطت. فتقرفص يلتقطها، فوقع مرة أخرى، وعجز عن النهوض هذه المرة. فاستلقى في الماء يتدحرج يائساً.
خرجت من وراء جدار على ضفة الجدول عصبة من الرجال بقيادة فتى طويل البنية. كان

يرتدي قبعة لبادية الحافة وعباءة مبطنة صفراء اللون. وكان يحمل في يده عصاً. وكانت دستة الرجال وراءه مسلحة بمخالع خشبية وهراوات. سمعوا الكلب ينبح، فأشار أحدهم إلى وو سونغ قائلاً: "ذلك الوغد الجوّال في الجدول هو الذي ضرب المعلم الفتى الثاني! لم يستطع العثور عليك، أيها الأخ الأكبر، فرجع إلى الحانة مع عشرين أو ثلاثين خادماً للقبض عليه! ولكن اللئيم مطروح هنا!".

قبل أن ينهي الرجل كلامه شوهد الأخ الأصغر الذي ضربه وو سونغ يقترب من بعيد. كان قد أبدل ثيابه وحمل مطرداً. وكان عشرون أو ثلاثون خادماً مسلحاً بالرماح والعصي يسيرون وراءه، ويطلقون صفيراً حاداً على الطريق. وحين اقتربوا من الجدار عثروا على وو سونغ.

قال الفتى الشاب يخاطب الرجل في العباءة الصفراء: "هذا هو الوغد الذي ضربني، يا أخي".

فأمر الأخ الأكبر: "قودوه إلى المزرعة وأذيقوه الويل والعذاب!".

فصاح الرجل الأصغر: "اقبضوا عليه!".

انقض ثلاثون أو أربعون شخصاً على المياه. لم يكن وو سونغ، وقد تعتعه السكر، قادراً على المقاومة. حاول الهرب. أحدقوا به وجروه من عقبيه فأخرجوه من الجدول. داروا به حول الجدار عند الضفة. كانت هنالك مزرعة كبيرة تحدق بها جدران شامخة بيضاء اللون. وكانت تسوّر الأرض أشجار صفصاف وصنوبر سامق.

دفعه الرجال إلى المزرعة. وقيدوه، وأخذوا منه السكينين والصرة، وربطوه إلى صفصافة ضخمة صائحين: "أحضروا بعض الأغصان واسلخوا جلد هذا اللعين!".

انهالوا عليه ضرباً أربع أو خمس مرات حين خرج من بيت المزرعة أحد الأشخاص. سأل: "من تضربون هناك، أيها الإخوة؟".

ضم الشابان الضخمان أيديهما في احترام. وقال الأكبر: "في هذا النهار، أيها المعلم، ذهب الأخ الأصغر مع ثلاثة أو أربعة من رفاقه الجيران إلى تلك الحانة على الممر لاحتساء قليل من الخمرة. فأثار هذا الوغد الجوال شجاراً، وضرب الأخ الأصغر ورمى به في الجدول، فجرح له وجهه ورأسه. ولو لم ينتشله رفاقه من الماء فقد كان سيتجمّد حتى الموت. رجع إلى البيت، وبدل ثيابه، وجمع بعض الرجال وخرجوا يفتشون عن هذا الزنيم. وقد التهم هذا الجوال القذر اللحم وأتى على الخمرة كلها، فشبع حتى أذنيه. وسقط في الجدول الواقع خارج البوابة الأمامية. وأحضرناه إلى هنا وضربناه. يبدو أنه ليس راهباً حقيقياً. فثمة وشمان من علامة المجرمين على وجهه الذي يغطيه بشعره. لا ريبة أنه سجين هارب من مطاردة. سنستخلص الحقيقة من هذا الوغد ونسلمه إلى السلطات!".

أوضح الأخ الأصغر الذي تعرض للضرب: "ما فائدة استجوابه؟ لقد أنهكني هذا الوغد أذًى. أكون سعيداً لو استطعت مغادرة فراشي في غضون شهرين كاملين. اضربوا هذا اللئيم حتى الموت واسلخوا جلده حياً!". ورفع القضيب.

قال الرجل الذي نادوه بلقب المعلم: "رويدك لحظة، أيها الأخ الأصغر. لألقينَّ عليه نظرة. يبدو أنه رجل شجاع".

كان وو سونغ قد بدأ يسترد وعيه. عرف ما كان يبيّت له، ولكنه أبقى عينيه مغلقتين. تركهم يضربونه من دون أن يفتح فمه بكلمة، وتفحص الرجل ظهره.

همهم: "أمر غريب. يبدو من هذه الآثار وكأن السجين قد تعرَّض للضرب مؤخراً". واقترب من الأسير، وقبض على شعره ورفع له رأسه. صاح: "ولكن هذا أخي، وو سونغ الثاني!".

فتح وو سونغ عينيه وحدق إليه، وصاح: "أخي!".

صرخ الرجل: "حلوا وثاقه، عجلوا! فهو أخي!".

أجفل الرجل المرتدي العباءة الصفراء والأخ الأصغر الذي تعرض للضرب. واستفسرا قائلين: "هذا الراهب الجوال شقيق المعلم؟".

- إنه الرجل الذي كنت أحدثكم عنه غالباً؛ وو سونغ الذي قتل النمر على جبل جينغيانغ. فكيف صار راهباً جوالاً؟

حلَّ الشقيقان وثاق وو سونغ على الفور، وأعطياه ثياباً جافة ودعواه إلى ردهة المزرعة. وهمَّ وو سونغ أن يركع على ركبتيه ساجداً، ولكن الرجل منعه وقد غمرته السعادة والدهشة معاً.

- أنت لم تصح بعد جيداً، يا أخي. فاجلس قليلاً وحدثنا.

كان وو سونغ سعيداً بلقائه. وسرعان ما تبخرت نصف آثار الخمرة. وجيء بماء ساخن كيما يغسل وجهه ويمسح فمه، ثم أعطي جرعة تنفض من رأسه بقايا الخمرة. وبعدها ركع ساجداً.

لم يكن الرجل الذي حياه سوى سونغ جيانغ المعروف باسم المطر في أوانه من مدينة يونتشنغ.

قال وو سونغ: "حسبتك في مزرعة اللورد تشاي، ماذا تفعل هنا؟ أأنا أراك في الحلم؟".

- بعد رحيلك أقمت هنالك نصف عام. وخشيت أن يقلق والدي فأرسلت شقيقي سونغ تشينغ إلى البيت. وتلقيت مؤخراً رسالة منهما تقول إنه بفضل جهود المفوضين تشو ولي كفَّ الضغط عن العائلة، ولكنني لا أبرح مطلوباً، وهنالك نشرات تعلن عن القبض عليَّ. ولم يكن التفتيش، على أية حال، قوياً. وكان المحترم كونغ، صاحب هذه المزرعة، قد بعث رسولاً إلى بيتي مرات عديدة يستفسر عني. والتقى سونغ تشينغ الذي أخبره أني في مزرعة اللورد تشاي. وهكذا بعث المحترم كونغ رجلاً يحضرني إلى هنا. وهذه المنطقة تدعى جبل النمر الأبيض، والمزرعة تخص المحترم كونغ. والفتى الذي ضربته هو ولده الأصغر. إنه عصبي المزاج ومحارب فقد أسموه كونغ ليانغ النجم الملتهب. والرجل المرتدي العباءة الصفراء هو الابن الأكبر للمحترم. واسمه كونغ مينغ، ويدعى المذنَّب. وكلا الولدين مولع بالرماح والعصي، ودربتهما قليلاً فجعلا يلقبانني "بالمعلم". وقد أقمت هنا نصف عام حتى الآن. وكنت في هذه الأيام الأخيرة أفكر في الذهاب إلى قلعة الرياح الصافية. وكنت على أهبة الرحيل. وحين كنت عند اللورد تشاي ترامى إليَّ الخبر عن كيف قتلت النمر في جبال جينغيانغ، وأنك غدوت مفوضاً في مقاطعة يانغقو، وأنك قتلت مؤخراً شيمن تشينغ في معركة ونُفيت. ولكنني لم أعرف أين أنت. فكيف أصبحت راهباً جوالاً، يا أخي؟

- بعيد رحيلي من مزرعة اللورد تشاي قتلت النمر في جبال جينغيانغ، وسلمته في حاضرة

مقاطعة يانغقو فجعلني القاضي مفوضاً. وفي ما بعد، اتخذت زوجة شقيقي العاهرة من شيمن تشينغ عشيقاً ودست السم لأخي. فقتلتهما معاً وسلمت نفسي إلى القاضي. فأرسلني إلى ولاية دونغبينغ، وتساهل الوالي معي ونفاني إلى منغتشو.

واسترسل وو سونغ في قصته فتحدث عن لقائه تشانغ تشينغ وزوجته في هضبة مفترق الطرق، وعن كيف التقى شي ين وصارع جيانغ حارس البوابة العملاق، وعن كيف قتل الجنرال تشانغ والأربعة عشر شخصاً الآخرين، وعن كيف رجع إلى منزل تشانغ تشينغ، وعن كيف جعلته سون الساحرة يتنكر في ثياب راهب جوّال، وعن كيف استخدم في جبل الأربعة وأربعين سكينيه فقتل الكاهن وانغ، وعن كيف سكر في حانة القرية وضرب كونغ الأصغر... روى القصة بحذافيرها.

أصغى الشقيقان كونغ في انشداه، وخرا على الأرض ساجدين. فردَّ لهما وو سونغ التحية بمثلها على الفور.

اعتذر قائلاً: "أخشى أن أكون قد قسوت عليك قليلاً. فاصفح عني".

- "نحن نملك عينين ولكننا لا نرى جبل تايشان"! نحن من يطلب الصفح منك!

- إذا كنتما على مثل هذا اللطف، فأرجو أن تأمرا بتجفيف شهادتي ورسالتي ومتاعي. ولا تفقداني سكينيَّ وهذه السبحة.

أجاب كونغ مينغ: "لا يشغلنك القلق، يا سيدي. فقد أمرت الخدم بذلك. وحالما تجهز الأمور سوف نحفظ لك أشياءك".

شكره وو سونغ. وحضر المحترم كونغ، بناء على طلب سونغ جيانغ، وقابل وو سونغ. وأقام الشيخ وليمة على شرفه. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

في تلك الليلة، طلب سونغ جيانغ إلى وو سونغ أن يشاركه غرفته، وتحدثا طويلاً عن جميع الأمور التي وقعت خلال السنة المنصرمة. كان سونغ جيانغ مسروراً. وفي صباح اليوم التالي نهض وو سونغ مع طلة الفجر، فغسل وجهه ومسح فمه، وذهب إلى الردهة الوسطى وتناول طعام الفطور. وبقي كونغ مينغ برفقته. كما رافقه كونغ ليانغ على الرغم من أوجاعه وآلامه. وأمر الشيخ المحترم أن يذبح خروف، وأن تقام مأدبة أخرى.

وقدم عدد من الجيران والأقرباء من القرية يقدمون آيات الاحترام في ذلك النهار، وفعل عدد من أفراد أسرة كونغ الشيء ذاته. وسرَّ سونغ جيانغ وهو يرى هذا الشرف يغدق على صديقه. وبعدما انتهت المأدبة ورحل الضيوف خاطب وو سونغ قائلاً: "أين تنوي أن تقيم".

- كما أخبرتك الليلة الماضية، يا أخي، فإن تشانغ تشينغ جنائني الخضار زوّدني برسالة توصية تخولني الانضمام إلى الحصيف لو الراهب الموشوم في دير اللؤلؤة الثمينة على جبل التنينين. وسوف يلحق بي إلى هناك بعد فترة.

- حسن. تلقيت مؤخراً رسالة من البيت تعلن أن هوا رونغ، قائد قلعة الرياح الصافية، سمع أني قتلت السيدة يان، فأرسل رسالة يستحثني فيها على قضاء فترة من الزمن لديه. والقلعة غير بعيدة من هنا، وقد عزمت على الذهاب إليه، ولكن الجو السيئ حال دون ذلك. فلم لا نذهب معاً؟

- أخشى ألا تكون هذه الفكرة جيدة، يا أخي. فقد ارتكبت بعض الجرائم الخطيرة التي لا يحلني منها أي عفو عام. وهذا ما دعاني إلى أن أصبح قاطع طريق على جبل التنينين. وفضلاً عن ذلك، فقد تنكرت في ثياب راهب الآن. وسفرنا معا يكون خراقة. قد تثار الشكوك في رؤوس الناس. قد تكون هنالك مصاعب، وتورط نفسك فيها. أعرف أننا أخوان حتى يفرق بيننا الموت، ولكن هذا قد يورِّط القائد هوا رونغ أيضاً، وهذا في غاية السوء. يحسن أن أذهب إلى جبل التنينين وأنتهي من هذا الأمر. فإذا رحمتني السماء، ولم يطوني الموت، وصفح عني، فسوف يكون هنالك ما يكفي من الوقت كيما أفتّش عنك مرة أخرى.

- إذا كنت قد فقدت الرغبة في خدمة الإمبراطور، فلا بدَّ أن تحميك السماء! وإذا كنت قد اتخذت قرارك، فلن أحاول الاعتراض عليه. لكن، أقم معي هنا فترة من الزمن أولاً.

أقام الاثنان في مزرعة المحترم كونغ عشرة أيام أو أكثر، وأعلنا بعدها عن عزمهما على الرحيل. فرفض الرجل الشيخ الإصغاء إليهما، وأمسكهما أربعة أو خمسة أيام أخرى، غير أن سونغ جيانغ اتخذ قراره، فلم يبق أمامه سوى أن يقيم لهما مأدبة وداعية.

في الصباح التالي قدمت لوو سونغ هدية هي عبارة عن ثوب راهب جوَّال جديد. وأعيدت إليه شهادته، ورسالته، وطوق شعره، وسكيناه، وذهبه وفضته، وأعطي كل من وو سونغ وسونغ جيانغ أوقية من الفضة للإنفاق منها على الطريق. حاول سونغ جيانغ أن يرفض، غير أن الشيخ المحترم وولديه وضعوا المال في صرتيه عنوة.

وثياب سونغ جيانغ وأسلحته جاهزة. ارتدى وو سونغ عباءته الرهبانية، ووضع الطوق في شعره، والسبحة حول عنقه، والسكينين في غمديهما، وحمل صرته وربطها حول وسطه.

حمل سونغ جيانغ مطرده، وتنكب سيفه، ولبس قبعته اللبادية عريضة الحافة، وألقى التحية على المحترم كونغ. وأمر الولدان الخدم أن يحملا المتاع. ورافقا ضيفيهما مسافة عشرين لياً على الطريق قبل الرحيل.

قال سونغ جيانغ، وقد ألقى صرته على كتفه: "لا حاجة أن يرافقنا الخدم أبعد من هذا المكان. سأمضي والأخ وو سونغ من هنا".

ألقى الشقيقان كونغ تحية الوداع عليهما، ورجعا إلى المزرعة برفقة الخدم. ونكتفي بهذا الحديث عنهما.

تحادث سونغ جيانغ ووو سونغ في أثناء الطريق، واستراحا عند حلول العشية لقضاء الليل. وأبكرا في النهوض في صباح اليوم التالي، وأفطرا، ثم سارا مسافة أربعين أو خمسين لياً إلى أن وصلا إلى سوق قرية تدعى التنين المحظوظ. هنا كانت الطريق تنشعب، فسأل سونغ جيانغ أحد السكان قائلاً: "أية طريق توصل إلى جبل التنينين، وأية طريق تؤدي إلى قلعة الرياح الصافية؟".

الطريقان تختلفان، فالطريق الغربية توصلك إلى جبل التنينين. أما إذا أردت الذهاب إلى القلعة، فينبغي أن تأخذ الطريق الشرقية وتجتاز جبل الرياح الصافية.

التفت سونغ جيانغ إلى وو سونغ قائلاً: "يا أخي، لنفترق هنا، ولنشرب ثلاث كؤوس نخب

الوداع أولاً".

- سأرافقك على الطريق مسافة.

- لا. لا تفعل. فأنت، وإن كنت ترافق صديقك ألف لي، فلا بدَّ أن يحين الفراق عاجلاً أم آجلاً. التفت إلى رحلتك، وابلغ وجهتك في أسرع وقت مستطاع، وبعد أن تنضم إلى العصبة لا تكثر من الشراب. وإذا صفح عنك البلاط الإمبراطوري فاستحث الحصيف لو ويانغ تشي على الاستسلام أيضاً. فقد يرسلونك دائماً لتشارك في القتال على الحدود. وسوف تنال شرفاً عظيماً تسبغه على زوجتك وأولادك في المستقبل، وتترك وراءك اسماً طيباً حين تموت فلا تكون حياتك قد انقضت سدى. أنا، نفسي، رجل من دون أية موهبة. ورغم أني مخلص للإمبراطور فأنا لا أحرز تقدماً. أما أنت، يا أخي، فأنت شجاع، وستفعل أشياء كبيرة من دون ريب. لا تنس كلمات أخيك الغبية. وأرجو أن نلتقي مرة أخرى.

أصغى وو سونغ في اهتمام. واحتسيا بضعة أقداح في الحانة، ودفعا الحساب، وغادراها وسارا صوب منشعب الطريق في نهاية المدينة. سجد وو سونغ أربع مرات. وتغرغرت العبرات في عيني سونغ جيانغ.

كرَّر قائلاً: "تذكر ما قلته لك، يا أخي. لا تسرف في الشراب. وانتبه إلى نفسك!".

اتجه وو سونغ على الطريق الغربية. يا قارئي، نرجو أن تذكر: "لقد كان قاصداً إلى لقاء الحصيف لو ويانغ تشي للانضمام إلى عصبتهما في جبل التنينين. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً".

اتجه سونغ جيانغ نحو الطريق الشرقية إلى جبل الرياح الصافية. وكان وو سونغ لا يفارق أفكاره. وبعدما سار عدة أيام رأى جبلاً شامخاً في البعيد. كان شكله غريباً، والأشجار تغطيه بكثرة. حدَّق سونغ جيانغ إليه في إعجاب فترة طويلة. وما لبث أن اندفع قدماً وفي نيته طي الأرض طياً من دون أن يهتم بالعثور على مكان يأخذ فيه قسطاً من راحة.

راحت الظلمة تطبق عليه قبل أن ينتبه إلى ذلك، فتلفت حواليه في فزع. وهمس في نفسه: "لو كان الوقت صيفاً لاستسلمت إلى النوم في أيكة. ولكنه منتصف الشتاء، والرياح قارسة والجليد رهيب. سوف تكون الليلة باردة. فإن لم أتدبر أمري فقد أخسر حياتي!".

استرسل في طريقه شرقاً على طول الدرب قرابةِ فترة حراسة كاملة، والقلق ينمو في صدره ويتزايد. لم يكن يرى شيئاً، فتعثر بقطعة من الحبل. وعلى الفور رنَّ جرس بين الأشجار، فانقضّ عليه قرابة أربعة عشر أو خمسة عشر قاطع طريق كانوا مختبئين في كمين وأصواتهم صارخة نابحة. قبضوا عليه وشدوا وثاقه. أخذوا منه مطرده وصرته. وأشعلوا المشاعل وخفروه إلى الجبل. فجعل يتحسر على مصيره، ولم يمض زمن طويل حتى وصلوا إلى حصن.

استطاع سونغ جيانغ أن يرى على ضوء النيران منطقة مسوَّرة بأوتاد خشبية في وسطها قاعة رئيسة. وفي هذه القاعة ثلاثة مقاعد عريضة مغطاة بجلود نمور. وفيما وراء هذا البناء ثمة قرابة مائة من الأكواخ المصنوعة من القش. دفع اللصوص سونغ جيانغ مثل زلابية وربطوه إلى عمود.

قال واحد من قطاع الطرق القائمين على الخدمة في القاعة: "لقد لجأ الزعيم الكبير إلى الراحة

منذ لحظات. فلا تخبروه الآونة شيئاً. وحين يصحو من السكر سنطلب إليه أن يحضر إلى هنا".

قال سونغ جيانغ مخاطباً نفسه: "يا للحظ التعيس! أقاسي مثل هذا المصير لمجرد إقدامي على قتل امرأة فاجرة! لم أحلم أن أترك عظامي في مثل هذا المكان!".

أشعل قطاع الطرق المصابيح والشموع فأضاءت الغرفة. وتجمّد سونغ جيانغ من البرد، ولكنه لم يكن يقوى على الحركة. أجال النظر حواليه، ثم خفض رأسه وزفر.

في حدود الحراسة الثالثة خرج ثلاثة أو أربعة من قطاع الطرق من مؤخر القاعة. أعلنوا قائلين: "أفاق الزعيم الكبير". وأضاءوا المصباح بقوة أكثر. اختلس سونغ جيانغ نظرة إلى الرجل الذي اقترب منه. كانت على رأسه عمامة تحكم وثاقها شريطة حريرية حمراء. وكان يرتدي عباءة مبطنة بلون البلح. وجلس على المقعد الأوسط.

كان هذا الفتى الشجاع من ولاية لايتشو بمقاطعة شاندونغ. وكان يدعى يان شون ويعرف باسم النمر الأنيق. وكان في الأصل من تجار الأغنام والخيول، وقد أفلس فذهب إلى الغابات وصار قاطع طريق.

وبعد أن جلس في المقعد الأوسط استردّ وعيه كاملاً. وسأل: "من أين جئتم بهذا الثور، أيها الأولاد".

فأجابوا: "كمنا وراء الجبل وسمعنا الجرس يرنُّ في الأيكة. وكان هذا الثور يسافر وحيداً وصرته على ظهره، فتعثر بالحبل المشدود. فأتينا به إلى هنا".

- رائع. ادعوا الزعيمين الآخرين للانضمام إليَّ.

ذهب قطاع الطرق ورجعوا بعد لحظات من جانب القاعة برفقة رجلين مغامرين. كان الذي عن يسار قصير القامة ملتهب العينين. جاء من وادي نهر هوايخه ويدعي وانغ يينغ، ويعرف في أخوية الشجعان باسم النمر القصير البدين. وكان يعمل في الأصل سائق عربة عجز عن مقاومة الإغراء الذي دفعه إلى سرقة أحد التجار، فهرب من السجن بعد توقيفه وفرّ إلى جبل الرياح الصافية. ويسيطر برفقة يان شون على الجبل بعدما انقلبا إلى قاطعي طريق.

وكان الذي عن يمين أبيض البشرة يزخرف وجهه شارب وعثنون. كان مديد العود، نحيل القامة، عريض المنكبين، وسيم الطلعة. وكان يلف رأسه بحرير أحمر اللون. وقد انحدر من سوتشو، ويدعى تشنغ تيان شو. ولأنه وسيم الطلعة اشتهر بلقب السيد المهذب جميل الوجه. وكان في الأصل صائغ فضة أغرم منذ طفولته بالرماح والعصيِّ. وانتهى آخر الأمر إلى أخوية الشجعان. وفيما هو يجتاز جبل الرياح الصافية التقى النمر القصير البدين وتصارع معه خمسين أو ستين جولة. وسرَّ يان من مهارته، فدعاه إلى الانضمام إليه كقائد ثالث.

اتخذ الزعماء الثلاثة مجالسهم، وتنهد الأسير: "وا أسفاه لأن سونغ جيانغ سيموت هنا!".

سمعه يان شون، فسأل: "هل قال هذا الفتى شيئاً عن سونغ جيانغ؟".

- لقد قال: "وا أسفاه لأن سونغ جيانغ سيموت هنا".

هب يان عن مقعده قائلاً: "أنت، أيها الفتى. هل تعرف سونغ جيانغ؟".

- أنا سونغ جيانغ.

فاقترب يان منه: "أي سونغ جيانغ أنت؟".

- أنا من ولاية جيتشو. وكنت كاتباً في محكمة مقاطعة يونتشنغ.

- ألست سونغ جيانغ المطر في أوانه من منطقة شاندونغ؟ ذلك الذي قتل السيدة يان وهرب، سونغ جيانغ من أخوية الشجعان؟

- أجل. ولكن، كيف عرفت هذا؟

اختطف يان المشدوه السكين من يد الرجل وقطع وثاق سونغ جيانغ، وألقى على كتفيه عباءته المبطنة بلون البلح، وحمله إلى المقعد الأوسط وأجلسه عليه في لطف. ونادى على وانغ وتشنغ، فركع الثلاثة وسجدوا. وردَّ سونغ جيانغ على التحية بمثلها.

- أنت لم تقدم على قتلي، كما أنك عاملتني في احترام! فما معنى هذا؟

بقي الثلاثة راكعين. وصاح يان: "كان يجب أن أقتلع عينيَّ بهذه السكين. تصور أني لا أعرف رجلاً طيباً؟ لو لم أرك، ولو اكتفيت بالأسئلة القليلة التي طرحت، لكنت قد قضيت على محارب نبيل! كانت السماء طيبة، ومن حسن الحظ أنك نطقت باسمك الكبير، ولو لم تفعل ذلك لما عرفت شيئاً! لقد أقمت في الغابات طوال عشر سنوات أو أكثر، وسمعت الرجال الشجعان يتحدثون عن مقدار كرمك ومساعدتك أولئك الذين يقعون في الضيق، وإنقاذك لهم من الأخطار. وقد لعنت حظي لأن الفرصة لم تؤاتني لتقديم احترامي. واليوم منَّت السماء علينا باللقاء. لكم أنا سعيد في أعماق قلبي!".

- ماذا لديَّ من فضيلة أو مهارة أستحق عليهما هذا اللطف؟

- أنت عطوف على الرجال الموهوبين لطيف معهم، وصديق للرجال الشجعان، وشهرتك منتشرة في كل مكان! فمن لا يعجب بك؟ إن القلعة في بحيرة ليانغشان تنمو وتزدهر. وقد سمع الجميع بهذا. والناس يقولون إن الفضل عائد إليك. فيم جئت إلى هنا، ولماذا أنت وحيد؟

روى سونغ جيانغ كيف أنقذ تشاو غاي، وقتل السيدة يان، وكيف أقام مع اللورد تشاي والمحترم كونغ زمناً طويلاً، وكيف أنه، في هذا النهار، راح يفتش عن هوا رونغ في قلعة الرياح الصافية. وأصغى إليه الزعماء الثلاثة في سرور، وقدموا له ثياباً، وأمروا بنحر الخرفان والخيول، وأقاموا له مأدبة في تلك الليلة. فأكلوا حتى فترة الحراسة الخامسة حين رافق بعض اللصوص سونغ جيانغ إلى فراشه.

في صبيحة اليوم التالي أبكر في النهوض، وروى قصص مغامراته على الطريق. وروى أيضاً عن مقدار شجاعة وو سونغ. فضرب الزعماء الثلاثة على أفخاذهم آسفين، وقالوا: "لم يكن لنا شيء من الحظ! ما أروع لو أنه جاء إلى هنا! من سوء الحظ أنه ذهب إلى ذلك المكان الآخر!".

كفانا ثرثرة جوفاء. أقام سونغ جيانغ ستة أو سبعة أيام على الجبل، وكانوا يتناولون الطعام والشراب يومياً. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

كان الزمن يقارب نهاية الشهر القمري الأخير، وهو الوقت الذي يزور فيه سكان شاندونغ

أضرحة عائلاتهم. وجاء كشاف إلى الجبل وأعلن قائلاً: "ثمة محفة على الطريق يرافقها سبعة أو ثمانية رجال يحملون صناديق. هم في طريقهم إلى المقبرة لإحراق نسخ الأوراق النقدية".

كان النمر القصير البدين فتًى نهماً. المحفة تعني وجود امرأة فيها. حشد أربعين أو خمسين رجلاً يرافقونه في الهبوط عن الجبل. ولم يستطع يان شون أو سونغ جيانغ ردعه عن ذلك. حملوا رماحاً وسيوفاً، وهبطت العصبة ورجالها ينفخون في الأبواق النحاسية. وبقي سونغ جيانغ والزعيمان الآخران يحتسون الشراب في الحصن.

غاب النمر القصير البدين فترتين أو ثلاث فترات حراسة. ورجع كشاف وقال: "لقد لحق الزعيم وانغ بالرجال على الطريق. أما الحراس السبعة أو الثمانية ففروا هاربين. وأسر المرأة التي كانت في المحفة. ولم يعثر على شيء ثمين غير محرقة فضية للبخور".

سأل يان: "وإلى أين أخذ المرأة؟".

- إلى منزله في مؤخر الجبل.

ضحك يان.

قال سونغ جيانغ: "وهكذا فإن الأخ وانغ يتوق إلى النساء. وليس هذا بتصرف رجل شجاع!".

قال يان: "إنه بعيد النظر في كل شيء، ولكنه ضعيف في هذا الميدان".

- تعاليا معي كيما أتحدث إليه.

تبع يان وتشنغ سونغ جيانغ إلى محل إقامة وانغ في المنحدر الخلفي للجبل. وفتحوا الباب. كان النمر القصير البدين يلفّ ذراعيه حول امرأة يغازلها، دفعها جانباً حين رأى الرجال الثلاثة يدخلون، ودعاهم إلى الجلوس.

التفت سونغ جيانغ إلى المرأة قائلاً: "من أية أسرة أنت، يا سيدتي؟ وما الذي دفعك إلى التجوال متأنية في هذه الأرجاء في مثل هذه الأوقات؟ هل هناك شيء له أهميته؟".

اقتربت المرأة في خجل وقدمت احترامها للرجال الثلاثة: "أنا زوجة قائد قلعة الرياح الصافية. وهذه هي الذكرى الأولى لوفاة أمي. كنت في طريقي لإحراق بعض النسخ النقدية على ضريحها. وما كنت لأجرؤ على التجوال في وناء هنا. أرجوك، أيها الزعيم الكبير أن تنقذ حياتي!".

انشده سونغ جيانغ. فقال في سره: "وأنا في طريقي للانضمام إلى القائد في القلعة! أيمكن أن تكون زوجة هوا رونغ؟ وكيف أنقذها؟".

سأل: "لماذا لم يرافقك زوجك القائد هوا رونغ إلى المقبرة؟".

- ليس القائد هوا رونغ زوجاً لي.

- ألم تقولي إنك زوجة قائد قلعة الرياح الصافية؟

- هناك قائدان في القلعة قائد مدني وآخر عسكري. وهوا رونغ هو القائد العسكري. وزوجي، ليو غاو، هو القائد المدني.

قال سونغ جيانغ في فكره: "زوجها هو زميل هوا رونغ. إن لم أنقذها فسيكون الأمر سيئاً لدى وصولي إلى هناك".

والتفت إلى النمر القصير البدين قائلاً: "لدي اقتراح. وأتساءل ما إذا كنت راغباً في القبول به؟".

- أنا على استعداد للإصغاء إلى ما تقوله يا أخي.

- في أخوية الشجعان كل من "يبدد مخ عظمه" يكون نكتة، وهذه المرأة دعيت سيدة بموجب مرسوم من البلاط الإمبراطوري. فمن أجلي وكرمى للشجعان اسمح لها أن تعود إلى زوجها. ما رأيك؟

- أصغ إليّ يا أخي، أنا لم أحضر امرأتي إلى هذا الحصن هنا. وهؤلاء الضباط أصحاب القبعات الكبيرة هم السبب في جميع المشاكل في هذا العالم. فيم يشغلك موضوع زوجها؟ أطلق لي العنان في هذا، يا أخي.

هوى سونغ جيانغ على قدميه: "إذا كنت تريد زوجة، فسأحضر لك واحدة، وسأدفع نفقات الزواج، وأقدم لك فتاة تخدمك أفضل خدمة، ولكن هذه المرأة زوجة موظف هو زميل صديق لي. ينبغي أن تطلق سراحها تعبيراً عن حسن نيتك".

ساعد تشنغ ويان على إنهاض سونغ جيانغ على قدميه مؤكدين له: "نرجو أن تنهض، يا أخي. ليست هنالك مشكلة".

- في هذه الحال أقدم جزيل شكري.

أدرك يان شون أن سونغ جيانغ عزم على إنقاذ المرأة. فهتف بحملة المحفة من دون أن يعبأوا برغبات النمر القصير البدين. وسجدت المرأة أمام سونغ جيانغ في احترام. صاحت: "شكراً لك، أيها الزعيم الكبير".

فأجاب: "لا تشكريني يا سيدتي، فأنا لست زعيماً هنا. أنا مجرد رجل جوال من مقاطعة يونتشنغ".

غادرت المرأة الحصن محمولة في المحفة. هبط الرجال عن المنحدر بسرعة وقد عرفوا أن حيواتهم لم تعد في خطر، آسفين على أنهم لم يولدون ولهم أربع أقدام!

اعتصم وانغ النمر القصير البدين بصمت مطبق مرتبك. شدّه سونغ جيانغ إلى الردهة الأمامية، وقال: "لا تغضب، يا أخي. مهما يكن الأمر فلسوف أحضر لك عروساً تسعدك. وأنا رجل أنفذ وعدي".

ضحك يان وتشنغ. وتضايق وانغ، ولكنه لم يظهر هذا الضيق. لقد قيده سونغ جيانغ بقانون الشهامة. تبسم في لطف ورافق سونغ جيانغ إلى داخل الحصن حيث أقيمت وليمة. ونكتفي بالحديث عن هذا.

حين رأى الجنود الذين يخفرون المحفة أن المرأة التي كانت فيها اختطفت منهم رجعوا إلى قلعة الرياح الصافية وأعلموا القائد ليو: "لقد اختطفت زوجتك من قبل قطاع الطرق على جبل الرياح الصافية!".

فانهال ليو عليهم ضرباً بهراوة كبيرة: "حمقى! وتركتموها!".

- لم يكن هنالك أكثر من ستة منا، وكانوا يعدون ثلاثين أو أربعين شخصاً! فأي حظ لنا في هذا!؟

- أغبياء! إن لم ترجعوها سألقين بكم جميعا في السجن.

لم يكن ثمة سبيل. ترجى الحراس تزويدهم بسبعين أو ثمانين جندياً، وسلحوهم بالرماح والعصي، وانطلقوا جميعاً. وما إن اجتازوا نصف المسافة حتى رأوا المحفة في طريقها إليهم.

سألوا زوجة القائد ليو: "كيف استطعت الهرب؟".

- حين أخبرتهم بهويتي دبَّ فيهم الذعر! سجدوا وطلبوا إلى الحمالين أن يعيداني إلى هنا.

- سيدتي ارحمينا! قولي إننا قاتلنا وأنقذناك. إن لم تفعلي فسوف نتعرض للضرب!

- أعرف ماذا سأقول، فلا تخافوا.

شكرها الجنود وأحاطوا بالمحفة لحراستها. وفي طريق العودة أرغمهم حمالا المحفة على الإسراع. فصاحوا: "حين تحملان مقعداً في المدينة تروحان تتباطآن مثل بطتين. ما الذي يعجلكما اليوم؟".

- لقد أنهكنا التعب، ولكن الضرب على مؤخر جمجمتينا يستحثنا على الإسراع.

ضحك الجنود: "لا ريبة أنكما تريان أشباحاً. ليس هنالك أحد وراءكما".

عندها التفت الحمالان إلى الوراء، وهتفا: "أواه! لقد كنا نطارد الريح حتى صارت أعقابنا تضرب مؤخر رأسينا!".

زمجر الجنود ضاحكين، ورافقوا المحفة إلى القلعة. وسُرَّ القائد ليو. فسأل زوجته قائلاً: "من هو المسؤول عن إنقاذك؟".

- بعدما قبض أولئك الأنذال عليَّ رفضت الاستسلام لنزواتهم فعزموا على قتلي. وحينما أعلنت أني امرأة القائد خافوا من أن يلمسوني وسجدوا على الفور. ثم جاء رجالنا وقاتلوا وأعادوني إلى البيت.

كافأ ليو السبعين أو الثمانين جندياً بعشر زجاجات من الخمرة. ونكتفي بالحديث عن هذا الموضوع.

أقام سونغ جيانغ في حصن الجبل ستة أو سبعة أيام أخرى. وكان القلق ينهشه للانضمام إلى هوا رونغ القائد العسكري. ولم يستطع الزعماء الثلاثة إقناعه بالبقاء. فأقاموا له مأدبة وداعية وقدموا له ذهباً وأشياء ثمينة أخرى وضعها في صرته.

في صباح رحيله نهض مبكراً، فغسل وجهه ومسح فمه وأفطر وحزم أمتعته وودَّع الزعماء الثلاثة. حمل هؤلاء خمرة ومشهيات، وأصروا على مرافقته ليا أو أكثر على طول المنحدر. وحين وصلوا إلى الطريق العامة ملأوا الأقداح لاحتساء نخب أخير. وكره الزعماء الثلاثة أن يتركوه يذهب: "يجب أن تأتي وتقيم معنا في طريق عودتك من القلعة".

حمل سونغ جيانغ صرته ومطرده. وأكد قائلاً: "سنلتقي مرة أخرى". وودع الزعماء الثلاثة وداعاً لبقاً.

لو كنت، أنا راوي هذه القصة، حياً في هاتيك الأيام، لقبضت عليه من وسطه، وأرغمته على العودة إلى الحصن غصبا عنه! كنت سأفعل أي شيء كي أمنعه من الانضمام إلى هوا رونغ! فقد أشرف على الموت من دون أن يكون ثمة مكان يدفن فيه!

الحقيقة أن الطرقات الوعرة التي يسافر عليها جزء من خطة السموات. فهل يمكن أن تكون الرياح والعواصف التي تغلفنا مجرد مصادفة عابرة إذاً؟

بمن التقى سونغ جيانغ بعد انضمامه إلى القائد هوا رونغ؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثالث والثلاثون

سونغ جيانغ يشاهد في الليل تلة المصابيح؛
وهوا رونغ يقلب قلعة الرياح الصافية رأساً على عقب

لم يكن جبل الرياح الصافية يبعد عن تشينغتشو كثيراً، بل قرابة مائة لي. وكانت القلعة قائمة في مدينة الرياح الصافية لأن الطريق هنا تنشعب إلى ثلاث شعب تقود إلى ثلاثة معاقل لقطاع الطرق في الجبال. وكانت المدينة التي يقطنها قرابة أربعة أو خمسة آلاف من السكان تنفصل عن جبل الرياح الصافية بمسافة قصيرة.

في ذلك النهار، رجع زعماء قطاع الطرق الثلاثة إلى معقلهم في الجبل، في حين سافر سونغ جيانغ وحيداً، وكيسه على ظهره، متبعاً الطريق الملتوية إلى مدينة الرياح الصافية. وهنالك استفسر عن منزل هوا رونغ.

قال أحد أبناء المدينة: "مركز قيادة القلعة موجود في وسط المدينة. والقائد المدني ليو يعيش في دارة صغيرة إلى الجنوب، أما القائد العسكري هوا فيقطن في دارة صغيرة إلى الشمال".

شكر سونغ جيانغ الرجل واتجه صوب الدارة الشمالية. سأله حراس يقفون عند البوابة عن اسمه، ثم دخلوا ينقلون الخبر. وسرعان ما خرج ضابط شاب. أدخل سونغ جيانغ في حماسة صائحاً بالحرس أن يحملوا كيسه ومطرده وسيفه، وقاده إلى الردهة الرئيسة حيث دعاه إلى الجلوس على منبذة رطبة من خشب البامبو. وسقط على ركبتيه، وسجد أربع مرات، ونهض. وقال: "ما أكثر ما استغرقني التفكير فيك طوال السنوات الخمس أو الست التي مرت على فراقنا، يا أخي. سمعت أنك قتلت السيدة يان الفاجرة. وهنالك نشرات في كل مكان تطلب إلقاء القبض عليك. وكنت أعيش على نار الجمر. وكتبت دستة من الرسائل إلى مزرعتك أستفسر عنك. هل تسلمت هذه الرسائل؟ لقد أسبغت السماء رحمتها اليوم، وأتيح لنا أن نلتقي مرة أخرى. لم أشعر يوماً بمثل هذا الارتياح في حياتي كلها!".

سجد هوا رونغ مرة أخرى، فأنهضه سونغ جيانغ على قدميه: "لا تكثر من هذه الاحترامات، يا أخي. أرجو أن تجلس، وسأروي لك بقية قصتي".

جلس هوا رونغ في احترام على منصة، وروى له سونغ جيانغ بالتفصيل كيف قتل السيدة يان، ولجأ إلى مزرعة اللورد تشاي، والتقى وو سونغ في مزرعة المحترم كونغ، وكيف قبضوا عليه في جبل الرياح الصافية، وما جرى له مع يان شون.

قال هوا رونغ: "لقد نلت نصيبك من المصاعب، يا أخي. ما أسعدك بالوصول إلى هنا! أقم عدة سنوات، وسننظر بعدها في الأمر".

- لو لم يكتب أخي سونغ تشينغ يستحثني على الذهاب إلى مزرعة المحترم كونغ فقد كنت

سأزورك منذ فترة طويلة.

دعا هوا رونغ سونغ جيانغ إلى الردهة الخلفية، واستدعى امرأته لتقديم احتراماتها، كما استدعى شقيقته الصغرى. وزوّد ضيفه بثياب جديدة وحذاء جديد وجوربين جديدين، وهيأ له حماماً من ماء ساخن، وأقام له من بعد مأدبة ترحيبية.

خلال الطعام، روى سونغ جيانغ كيف أنقذ زوجة القائد ليو. فعبس هوا رونغ: "فيم فعلت هذا؟ كانت الفرصة مؤاتية لإخراس لسانها إلى الأبد!".

- أنت تدهشني! حسبت أني أؤدي ذلك كرمى لزميلك. وقد أغضبت وانغ النمر القصير البدين، بل أرغمته تقريباً على إطلاق سراحها. لا أفهم مقصدك.

- لست أريد أن أنشر إشاعات، يا أخي، ولكن قلعة الرياح الصافية تدافع عن منطقة حيوية في ولاية تشينغتشو. ولو كنت القائد الوحيد هنا لما استطاع اللصوص أن يشنوا غاراتهم كيفما يحلو لهم! ولكن هذا الجشع الخسيس ليو جعل من نفسه قائداً لي. وهو مجرد موظف مدني، كما أنه لا يملك أية قدرة. وهو يضيق الخناق على الفلاحين منذ اليوم الذي استلم فيه السلطة. كما أنه لا يحترم القانون. وليس هنالك ما يعفُّ عنه. وأنا القائد العسكري، ولكنني تحت سلطته. وهو يثير غضبي. ولكم أود أن أقتل هذا الحيوان القذر! ففيم أقدمت على إنقاذ زوجة ذلك الوغد! إنها امرأة حقيرة، تنقُّ على الدوام عليه وترغمه على ارتكاب الموبقات، وتشجعه على إيذاء الناس، وتحرضه على التهام الرّشى. فماذا يضيرها إن تعرضت للإهانة والتحقير؟ يا أخي، لقد أنقذت امرأة شريرة!

- لا. هذا خطأ. أنت تعرف المثل القديم: "ينبغي أن تحل أنشوطة الكراهية لا أن تحكم وثاقها". فهو زميلك. وعلى الرغم من مواهبه القليلة، فإن من واجبك أن تصلح أخطاءه وتمتدح فضائله. لا ينبغي أن تكون ضيق الأفق.

- أنت ترى الأشياء بوضوح تام، يا أخي. حين ألتقيه في المكتب غداً سأخبره كيف أنقذت زوجته.

- هذا التصرف من جانبك دلالة على فضيلتك.

أمضى هوا رونغ وزوجته وأسرته النهار بطوله يقدمون الطعام والشراب لسونغ جيانغ. وفي المساء، هيأوا له فراشاً وكنبة في إحدى غرف الردهة الخلفية لقضاء الليل. وفي اليوم التالي قدموا له طعاماً سخياً. ونختصر الحديث فنقول إن هذا استمرّ أربعة أو خمسة أيام. وأمر هوا رونغ عددا من رجاله المخلصين- تمّ تبديلهم في كل يوم - بالتجوال برفقة سونغ جيانغ في ضاحية السوق من المدينة، والمعابد، والأديرة. وأعطاهم نقودا ينفقونها.

كانت هنالك في ضاحية السوق مجموعة من المواخير الصغيرة ومشارب الشاي ودكاكين الخمرة من دون ريب. وكان سونغ جيانغ ومرافقه يطوفان متوانيين في المواخير، ثم يذهبان إلى الضواحي الأخرى لمشاهدة المعبد التاوي، ومن بعدها يغدوان إلى دكان الخمرة في المدينة ويحتسيان الشراب. حاول المرافق أن يسدد الحساب، ولكن سونغ جيانغ أصرّ على أن يسدده من ماله، ولم يخبر هوا رونغ بشيء من ذلك. فاغتبط مرافقه، واحتفظ بالمال لنفسه، وأتيحت له فرصة

اللهو. واتبع سونغ جيانغ هذه الخطة مع جميع المرافقين.
مرّ شهر كامل. كان الشتاء يقترب من نهايته، والعام الجديد يطلّ على الوجود. وما أسرع أن أزف زمن احتفال المصابيح. وراح السكان يتحدثون عن كيف سيحتفلون بهذه المناسبة. فاحتشدوا، وذهبوا إلى معبد ملك الأرض، وأقاموا أمامه تلة على شكل ظهر السلحفاة علقوا فوقها ستمائة أو سبعمائة مصباح ملون، وزينوها بالرايات والأعلام. في ساحة المعبد أقيمت مجموعة من الألعاب. رفع الناس تعريشات عديدة وعلقوا المصابيح أمام دورهم. وفي ضاحية السوق في المدينة أقام كل مخزن التسليات والمهرجانات. لم تكن هذه الأشياء تماثل وفرتها في العاصمة، غير أن السكان المحليين رأوا في الاحتفال أن السماء كانت على الأرض.
في الخامس عشر من الشهر القمري الأول - يوم احتفال المصابيح - كان سونغ جيانغ يجرع الشراب برفقة هوا رونغ في القلعة، وكان الجو صافياً جميلاً. وفي حدود منتصف الصباح ركب هوا رونغ حصانه وذهب إلى مركز القيادة وجمع قرابة مائة من الجنود أمرهم بالذهاب إلى المدينة في تلك العشية للحفاظ على النظام. كما انتقى جماعة منهم لحراسة بوابات القلعة.
في الساعات الأولى من بعد الظهيرة رجع ودعا سونغ جيانغ على الغداء.
قال سونغ جيانغ: "سمعت أنه سيكون هنالك عرض للمصابيح في المدينة هذه الليلة. وأحب أن أشاهده".
- أتمنى لو أستطيع مرافقتك. ولكنني مشغول ولا أستطيع الذهاب. سيرافقك اثنان أو ثلاثة من المساعدين. ارجع باكراً. سأنتظرك للاحتفال بالعيد معا على عدد من كؤوس الشراب.
وفيما النهار يقترب من نهايته سبح في السماء قمر مشرق من ناحية الشرق. فخرج سونغ جيانغ برفقة ثلاثة من المساعدين. ورأى في المدينة مصابيح ملوّنة تتدلى من شعريات مقامة أمام كل بيت. وأكثرها يمثل رسوما لأقاصيص. وبعضها مصنوع من زهور جميلة: ورود بيضاء، وخبازى، ولوتس.
أمسك سونغ جينغ بيد مرافقه كيلا يفرق الحشد بينهما، وذهب إلى معبد ملك الأرض واستمتعا بمشاهدة تلة المصابيح. ثم اتجها جنوبا على طول طريق متعرجة. وبعدما اجتازا ستمائة أو سبعمائة خطوة شاهدا أمامهما حشدا من مصابيح متوهجة ومجموعة من المهرجين أمام أبواب بناء عالي الجدران. ونفخت الأبواق، وصدحت الموسيقى، وتعالى صراخ المحتشدين، ووقفا يتفرجان على جماعة الراقصين الذين خلعوا على وجوههم أقنعة ساخرة.
كان سونغ جيانغ قصير القامة فلم يستطع متابعة المشهد من فوق رؤوس المحتشدين. كان المرافقون يعرفون عددا من الممثلين، فشقوا لأنفسهم طريقا بين المشاهدين كيما يتيحوا لسونغ جيانغ فرصة المشاهدة. وقام الممثل الرئيس بمحاكاة ريفي أخرق فأغرق سونغ جيانغ في الضحك. كان القائد المدني ليو وزوجته وعدد من النساء يشاهدون الحفل من داخل بوابة مفتوحة. وحين سمعت زوجة ليو ضحكة سونغ جيانغ أسامت بصرها إليه وعرفته على ضوء المصابيح. فأشارت إليه مخاطبة زوجها: "هذا القصير الأخرق الذي يضحك هنالك واحد من زعماء اللصوص على جبل الرياح الصافية الذين اختطفوني!".

أجفل ليو، وصاح بستة أو سبعة من الحراس أن يقبضوا على الرجل القصير الأسمر الذي يضحك. سمعه سونغ جيانغ فغادر المكان مسرعاً. ولكنه لم يجتز عدداً من البيوت حتى ألقى الجنود القبض عليه، وشدوا يديه، وجروه إلى المبنى وربطوه فيه، واقتادوه إلى الردهة. وحين رأى الرجال الثلاثة الذين يحرسونه ما حدث ركضوا عائدين لإعلام هوا رونغ.

جلس القائد ليو في الردهة، وأمر بإحضار الأسير. فاحتشد الجنود حول سونغ جيانغ وأرغموه على الركوع.

نبح ليو: "أنت لص سارق من جبل الرياح الصافية! فكيف تجرؤ على المجيء إلى هنا لمشاهدة المصابيح؟ لقد اعتقلت الآن، فبماذا تدافع عن نفسك؟".

- أنا أدعى تشانغ سان. وأنا تاجر من مقاطعة يونتشنغ، وصديق قديم للقائد هوا رونغ. وقد أتيت إلى هنا قبل عدة أيام. ولم أكن لصاً على جبل الرياح الصافية.

خرجت زوجة ليو من وراء ستارة، وصرخت: "أنت كاذب. ألا تذكر أنك أصررت على دعوتك باسم الزعيم؟".

- أنت مخطئة يا سيدتي. أخبرتك أني تاجر من يونتشنغ، وأن اللصوص قبضوا عليَّ فلم أستطع مغادرة الجبل.

سأل ليو: "في هذه الحالة، ماذا تفعل هنا وأنت تشاهد المصابيح؟".

أصرّت المرأة قائلة: "هنالك جلست على المقعد الأوسط. وحين ناديتك بالزعيم الكبير لم تلتفت إلى توسلاتي!".

- كيف يمكن أن تكوني قد نسيت، يا سيدتي؟ لقد أنقذتك، وجعلتهم يطلقون سبيلك! وهذه أنت تصرين على أنني قاطع طريق!

أشارت المرأة إلى سونغ جيانغ في غضب قائلة: "إن لم تنزل بأمثاله من المخادعين علقة فلن يعترفوا بشيء!".

قال ليو: "هذا حق صراح". وصاح: "أحضروا قضباناً من البامبو واضربوا هذا الوغد!".

انهالوا على سونغ جيانغ ضرباً في عاصفتين متواليتين. فانبجس الدم من لحمه الممزق.

أمر ليو:

- قيدوه، وضعوه غداً في عربة مقفصة! وسنرسل هذا النمر اليونتشنغي تشانغ سان إلى الوالي لحسم هذا الموضوع!

ارتعب هوا رونغ حينما شاهد حرس سونغ جيانغ وأعلموه بما جرى. فأسرع وكتب رسالة بعث بها إلى ليو من ضابطين مؤتمنين. انتظرا عند بوابة مبنى ليو حتى ذهب الخفير إليه وأعلن قائلاً:

- رجلان من قبل القائد هوا يحملان رسالة.

فأمر ليو بإحضارهما إليه. وأعطاه الرسولان الرسالة، ففضها وقرأ:

"هوا رونغ يبعث تحياته المحترمة إلى زميله وأخيه. إن أحد أقاربي المساكين، ويدعى ليو تشانغ، جاء مؤخراً من جيتشو. وفيما هو يتفرج على المصابيح أثار بصورة غير مقصودة غضب

سعادتكم. أرجو أن تنفثوا عن غضبكم وتطلقوا سراحه فأكون شاكراً لكم. أرجو أن تصفحوا عن كتابتي السقيمة".

مزق ليو غاو الرسالة غاضباً، وصاح: "هوا رونغ هذا كثير الفظاظة! لقد عيَّنه البلاط الإمبراطوري. فكيف يتعاون مع اللصوص ويحاول أن يسدل على عينيَّ ستاراً!؟ ذلك الوغد الأسير يقول إنه يدعى تشانغ سان من مقاطعة يونتشنغ. وهوا رونغ يقول إنه ليو تشانغ من جيتشو. لا حاجة للاعتقاد أنه قادر على خداعي! ولأنه يقول إن هذا الرجل يدعى ليو- على اسمه - يخيَّل إليه أني سأطلق سراحه؟".

أمر القائد أن يطرح الرسولان خارجاً. فاقتيدا إلى بوابة المبنى، ورجعا على الفور إلى هوا رونغ وأخبراه بما جرى.

أوضح هوا رونغ:

- يا أخي المسكين سونغ جيانغ! جهزوا فرسي على الفور!

ولبس درعه، وربط قوسه وجعبة سهامه، واختطف رمحه، وركب الفرس. وانطلق يرافقه أربعون أو خمسون رجلاً مسلحين بالرماح والعصي، واتجهوا إلى مبنى ليو غاو مباشرة.

لم يجرؤ الحراس على البوابة أن يمنعوه من الدخول. فقد أخافتهم سحنة هوا رونغ المربدة فأطلقوا سيقانهم للريح. وسار هوا رونغ إلى الردهة الرئيسة، وترجل، وانتصب واقفاً ورمحه في يده، وجنوده يقفون وراءه. صاح:

- أيها القائد ليو أرجو أن تخرج إليَّ. فلديَّ ما أعالنك به!

خاف ليو، فهوا رونغ رجل عسكري، ولم يجسر على مواجهته. ولما لم يخرج ليو بعد دقائق عديدة أغرق هوا رونغ في التفكير برهة، ثم أمر رجاله بتفتيش أجنحة المبنى.

تبعثروا في المبنى وعثروا على سونغ جيانغ في غرفة جانبية. كان مكبلاً بالحديد وقد تدلى من حبل في عارضة خشبية. وكانت قدماه ممزقتين تنزفان دماً من جراء الضرب. فقطع الجنود الحبل، وحطموا السلاسل، وحملوه خارجاً. فأمرهم هوا رونغ بنقله إلى البيت.

ركب حصانه ورمحه في يده، وصاح: "أيها القائد ليو، على الرغم من أنك القائد الأعلى هنا، فلست تملك الحق في التصرف على هذا الغرار! من تراه لا يملك أقرباء هنا؟ كيف تجرؤ على القبض على ابن عمي، وتجره إلى منزلك، وتعتبره لصا؟ بعيدا ذهبت! سأسوينَّ الأمر معك في ما بعد!".

قاد جنوده، ورجع إلى دارته لرعاية سونغ جيانغ. حشد ليو على الفور مائتين من رجاله وأمرهم بالذهاب إلى دارة هوا رونغ وإعادة سونغ جيانغ. وكان بين الرجال ضابطان على الرغم من مهارتهما في فنون السلاح غير أنهما لا يستطيعان مقارعة هوا رونغ، ولكنهما لم يستطيعا مخالفة أمر ليو غاو. وهكذا سارا مع رجالهما إلى دارة هوا رونغ. وأعلن الجنود عند البوابة عن قدومهما. كان الوقت بكور الصباح، وانتصب المائتان من الجنود يحدقون بالبوابة من الخارج، ولا تطاوعهم شجاعتهم على الدخول. فقد كانوا يخشون هوا رونغ.

وحين أشرق النهار، فتحت البوابتان المزدوجتان العريضتان فكشفتا عن هوا رونغ جالساً داخل

الردهة، وقوسه في يده اليسرى وسهم في يده اليمنى. وتجمهر رجال ليو أمام البوابة. رفع هوا رونغ قوسه وصاح: "أيها الرجال، ألا تعرفون أن المجرم يجب أن يدفع ثمن خطيئته، والمدين يجب أن يسدد دينه؟ لقد أرسلكم ليو غاو إلى هنا. فلا تخاطروا برقابكم من أجله! وأنتما، أيها الضابطان، جديدان هنا. لا تعرفان عن مهارتي شيئاً. سوف أقدم لكما عرضاً عن كيفية استخدام القوس والسهم. وإذا شاء أحدكما أن يظهر حماسته لليو غاو فليتقدم إذا كانت له جرأة! سوف تكون طلقتي الأولى على تلك العجرة الموجودة في الباب المدهون إلى اليسار".

وضع السهم في مكانه، وشدَّ القوس، وأطلقه صارخاً. فانغرز السهم في عجرة هراوة الباب. وانشده الرجال. واختار هوا رونغ سهماً آخر.

- راقبوا هذا، أيها الرجال! هذا السهم سيصيب شرابة خوذة الباب إلى اليمين.

صفر السهم منطلقاً صوب الشرابة وأصابها في وسطها. وانغرز السهمان في البابين المزدوجين المفتوحين. وانتقى هوا رونغ سهماً ثالثاً من جعبته.

- وهذا السهم سينغرز في قلب النقيب المرتدي بياضاً!

صرخ الرجل: "أواه!". واستدار وهرب. وصرخ الباقون، وركضوا وراءه.

أمر هوا رونغ أن تغلق بوابتا المبنى. وذهب إلى الردهة الخلفية لرؤية سونغ جيانغ واعتذر قائلاً: "لقد تأخرت، يا أخي. وقد عذبوك!".

- لا تبال بهذا الأمر. ولكن ما يقلقني هو أن ليو غاو قد يحاول العودة للاقتصاص منك. يجب أن نرسم لنفسينا خطة.

- لا أبالي ولو اضطرني الأمر إلى التنازل عن منصب! سأسوي حسابي معه.

- لم أحلم قط أن تلك المرأة سترد على الجميل بالشر، وتخبر زوجها أن ينزل بي الضرب! كنت عازماً على الإعلان عن اسمي الحقيقي ولكنني فكرت في أن قضية السيدة يان ستثير المصاعب. وهكذا ادعيت أني تشانغ سان، وأني تاجر من يونتشنغ. وقد رغب ذلك الحمار ليو غاو أن يرسلني باسم تشانغ سان إلى الوالي في عربة عليها قفص، فيعدمني بصفتي زعيماً للصوص على جبل الرياح الصافية! لو لم تنقذني لما استطعت أن أوضح الأمر ولو كانت شفتاي من برونز ولساني من حديد!

- اعتقدت أنه بصفته مثقفاً لا بدَّ أن يتعاطف مع شخص يحمل اسمه ذاته. ولهذا السبب كتبت له أن اسمك هو ليو تشانغ. من كان يظنّ أنه سيكون رجلاً عديم الشعور؟ حسن، لقد تم إنقاذك وإحضارك إلى البيت. وفي مقدورنا الآن أن ننتظر ما سيحدث.

- أنت مخطئ، يا أخي. فعلى الرغم من أنك أنقذتني بمهارتك العسكرية، فينبغي أن تفكر في هذا الموضوع بصورة أعمق. يقول القدامى: "حذار من الفواق في أثناء تناولك الطعام، والتعثر في أثناء مسيرك". لقد اختطفت منه أحد أسراه علانية. وحين أرسل رجاله لاستردادي أهرقت الرعب في أفئدتهم. هل تظن أنه سيترك الأمر يسير على هذا الغرار؟ لسوف يرسل من كل ريب تقريراً خطياً. ويحسن بي أن ألجأ إلى جبل الرياح الصافية هذه الليلة بالذات. وغداً، تنكر أنت كل معرفة لك بهذا الموضوع. ويبدو الأمر عندها وكأنه شجار بين مدني وعسكري. وإن قبض عليّ مجدداً فأنت تقاتل

لو غاو أخيراً.

- أنا رجل شجاع لا أفقه شيئاً من أمور حكمتك وبعد نظرك، يا أخي..ولكن، هل تقوى على السفر وأنت جريح على هذه الصورة؟

- لا تقلق. يجب ألا نضيع الوقت عبثاً، فما إن أصل إلى سفح الجبل حتى يكون كل شيء على ما يرام.

وضعت المراهم والضمادات على جروح سونغ جيانغ، وأكل وشرب. وترك كيسه في عهدة هوا رونغ. وما إن بسط الغسق رداءه حتى أصدر هوا رونغ أوامره فذهب رجلان برفقته إلى ما وراء بوابات القلعة، ومن هنالك اتخذ سونغ جيانغ سمته في حلك الظلمة وحيداً. ونكتفي حديثاً حول هذا الموضوع.

رجع رجال ليو غاو في فوضى عارمة، وأعلنوا: "هوا رونغ رجل خارق الشجاعة خيالي البراعة! لم يجرؤ أحد منا على مقارعة قوسه!". وأضاف الضابطان: "إذا أصابك سهم من سهامه فهو يختطف النور من عينيك! ولهذا خشينا الدنو منه!".

كان ذلك النذل ليو غاو، في آخر المطاف، موظفاً مدنياً شديد المكر. فهمس في سره: "بسبب هذه المحاولة للقبض على سونغ جيانغ سيعمد هوا رونغ إلى ترحيله إلى جبل الرياح الصافية هنالك في هذه الليلة بالذات. وغداً سينكر معرفته بأي شيء عن هذا الموضوع. وإذا عرضت الأمر على السلطات العليا فسيعتبر الأمر مجرد مشاحنة بين قائدين مدني وعسكري. كيف أستطيع التغلب عليه إذاً؟ سأرسل قرابة عشرين أو ثلاثين جندياً إلى مسافة خمسة ليات من الطريق يكمنون في انتظار مرور سونغ جيانغ. فإذا رحمتني السماء وألقيت القبض عليه سأحتجزه سراً ههنا، وأبعث رجلاً إلى الولاية مباشرة يرجو إرسال قائد عسكري للحضور والقبض عليه. وسوف يعتقلون هوا رونغ في الوقت ذاته ويعدمونهما معاً! وعندها أسيطر على قلعة الرياح الصافية وحدي، ولا أضطر إلى احتمال وجود مزيد من هؤلاء الحمقى معي!".

اختار عشرين رجلاً، أو أكثر، وسلحهم بالرماح والعصي، وأرسلهم في تلك الليلة ذاتها. وفي حدود فترة الحراسة الثانية، رجعوا بسونغ جيانغ مصفدين يديه وراء ظهره. فما عرفت غبطة ليو غاو حدوداً.

- هذا ما توقعته تماماً! احبسوه في الباحة الخلفية. ولا ينبغي أن يعرف أحد بهذا الأمر.

كتب ليو تهمة رسمية وأرسلها إلى ولاية تشينغتشو مع رسولين مؤتمنين يسافران الليل بأقصى سرعة.

وفي اليوم التالي، جلس هوا رونغ في منزله مستغرقاً في التفكير وقد حسب أن سونغ جيانغ وصل إلى جبل الرياح الصافية. خاطب نفسه قائلاً، وهو يفكر في ليو غاو: "لن يكون في مستطاعه أن يفعل شيئاً". ولم يقم بأية استفسارات، كما أن ليو غاو تظاهر أنه جاهل بكل شيء، ولم يأت أحدهما على ذكر الموضوع مطلقاً.

كان الوالي في تشينغتشو عاقداً محكمته. وكانت أسرته تدعى مورونغ، وهو يدعى يان دا،

وكانت شقيقته الصغرى محظية للإمبراطور. وهذا ما خلع عليه سلطة عالية في تشينغتشو، فجعل يؤذي الناس، ويحتقر زملاءه، ويفعل ما يطيب له. كان يهمُّ بتناول طعام الفطور حين ناوله ضباط شرطته الشكوى المرسلة من القائد ليو في خصوص نشاطات قطاع الطرق. فأجفل الوالي.

- هوا رونغ قائد عسكري قدم للأمة مآثر عظيمة. فكيف يمكن أن يتآمر مع قطاع الطرق على جبل الرياح الصافية؟ هذه جريمة خطيرة. أيمكن أن تكون صحيحة؟

استدعى آمر جيش الولاية وأصدر أمره إليه بالانطلاق وتقصي الحقائق. كان هوانغ شين، الآمر، ماهراً في فنون استخدام السلاح ويحترمه سكان تشينغتشو عميق الاحترام. وكان معروفاً باسم "قاهر الجبال الثلاثة". فقد كانت هنالك جبال تخضع لسلطة الولاية هي: الرياح الصافية، والتنينان، والدراق المزهر. وكانت كلها عامرة بقطاع الطرق. وكان هوانغ شين يفاخر أنه قادر على السيطرة على أي من هذا الجبال، ومن هنا جاءه ذلك الاسم.

حينما تلقى الأمر من الوالي حشد خمسين رجلا، ولبس درعه، ووثب إلى حصانه، وحمل في يده سيفاً بتاراً. وصلت الجماعة إلى قلعة الرياح الصافية في تلك الليلة ذاتها، واتجهت مباشرة إلى دارة ليو غاو. ترجل هوانغ شين وقاده ليو إلى الردهة الخلفية. وتم تبادل التحيات الودية، وقدم الطعام والشراب للآمر. وصرفت عناية خاصة على رجاله، ومن بعد استحضر سونغ جيانغ أمامه.

قال هوانغ شين:

- ليس هناك ما يدعو إلى استجوابه. اصنعوا عربة عليها قفص وألقوا هذا اللئيم فيها!

لفت عصابة حمراء حول رأس سونغ جيانغ ووضع علم مثلث من الورق كتب عليه:

- تشانغ سان من يونتشنغ، زعيم عصابة جبل الرياح الصافية، ولم يلتفت أحد إلى كلام سونغ جيانغ وإنكاره التهمة. فرضخ لمشيئتهم.

سأل هوانغ شين:

- هل يعرف القائد هوا رونغ أنك قبضت على تشانغ سان؟

- قبضنا عليه خلال فترة الحراسة الثانية وأخفيناه هنا. وهوا رونغ يظن أنه رحل. وهو في بيته هانئ البال.

- في هذه الحالة سيكون الأمر على أيسر ما يرام. غداً صباحاً أولم مأدبة من لحوم الخراف والخمرة في الردهة الخلفية للقلعة، وخبئ أربعين أو خمسين رجلاً، وسوف أدعو شخصياً هوا رونغ للحضور. وسأدعي أن الوالي مورونغ سمع أن القائدين المدني والعسكري ليسا على وفاق فأرسلني أجمعهما معاً إلى مائدة من الخمر لعقد الوئام والصلح". وفي هذه الحال أقبض عليه في الردهة. حين تراني أطرح قدحي أرضاً فتلك إشارة للقبض عليه! وسوف آخذهما معاً إلى الولاية. ما رأيك في هذا؟

قال ليو في إعجاب: "خطة رائعة تسمى: سهلة كمن يقبض على السلاحف في جرة".

رسمت خيوط تلك الخطة في هاتيك الليلة. وفي الصباح التالي اختبأ الجنود في خيام عن يمين الردهة ويسارها، وجرت الاستعدادات على شكل وليمة. وبعيد الإفطار ركب هوانغ شين حصانه

وذهب برفقة مساعدين أو ثلاثة لاستدعاء هوا رونغ، وأعلن الحارس عند البوابة عن قدومه.

- ماذا يريد؟

- أمرني أن أقول إن القائد هوانغ هنا.

خرج هوا رونغ للترحيب به، ترجل الآمر عن حصانه. فدعاه هوا رونغ إلى الدخول وتبادلا التحيات.

- أية ريح حملتك إلينا، أيها الآمر؟

- إنها أوامر الوالي. فقد سمع أنك تخاصمت والقائد المدني، ولكنه يجهل السبب في ذلك الخصام. وخشي أن تحدث مثل هذه النزاعات تأثيراً في القضايا العامة، فأرسلني أدعوكما إلى وليمة تعقد الصلح بينكما. وقد أقيم كل شيء في الردهة الخلفية في القلعة. وجئت أدعوك.

ابتسم هوا رونغ، وقال: "أأجرؤ على مخاصمة ليو غاو؟ إنه رئيسي. القضية كلها أنه دائم العثور على الأخطاء. ولم يخطر لي في بال أن ذلك يضايق الوالي. وقد تجشمت مشاق السفر طوال الطريق إلى منزلي المتواضع! لا أعرف كيف أقدم اعتذاري!".

مال هوانغ شين وقال في صوت خفيف: "الوالي في صفك. إذا كانت هنالك ضرورة لقيادة القوات في معركة فما الفائدة المرجوة من ليو غاو عندها؟ إنه مجرد قائد مدني. أنت تمزح معي".

- أنا شاكر لك، أيها الآمر، هذا الاهتمام من جانبك.

طلب هوانغ شين إليه أن يمتطي جواده ويرافقه إلى القلعة. فألح هوا رونغ على الآمر في أدب أن يحتسي معه عدة أقداح من الخمرة أولاً.

قال هوانغ شين: "بعد أن نسوّي هذا الموضوع يمكن أن نحتسي ما طاب لنا".

أمر هوا رونغ بإحضار جواده، وركب الاثنان جنباً إلى جنب. وترجلا عند القلعة. أمسك به الآمر من يده ودخلا الردهة معاً. كان ليو غاو ينتظر وصولهما. والتقى الرجال الثلاثة وطلب هوانغ شين أن يحضروا خمرة. وقاد المعاونون جواد هوا رونغ بعيداً وأغلقوا بوابات القلعة.

لم يعرف هوا رونغ أنها كانت مؤامرة. كان ينظر إلى هوانغ شين نظرته إلى ضابط عسكري نظامي، ولا يرتاب في أنه يريد أذى. رفع هوانغ كأسه والتفت إلى ليو غاو: "لقد سمع الوالي أن هنالك خصاماً بينكما. وقد أقلقه هذا الأمر فأرسلني إلى هنا لتسوية الموضوع. وهو يأمل أن يضع كل منكما مسؤوليته تجاه القصر الإمبراطوري فوق كل اعتبار. وإذا كانت لدى أي منكما أية خلافات في المستقبل فستعمدان إلى تسويتها في هدوء".

قال ليو غاو: "أنا رجل من دون موهبة، ولا أفهم غير القليل من الإجراءات الإدارية. ويؤسفني حقاً أن يتضايق الوالي. ليس هنالك أي نزاع بيننا هنا. وما سمعتموه لا يعدو كونه شائعة مدسوسة".

ضحك هوانغ شين: "هذا رائع!".

شرب ليو غاو، وملأ هوانغ شين كأسا أخرى وخاطب هوا رونغ قائلاً: "من وجهة نظر ما يقول القائد ليو، فأنا واثق أن الموضوع لا يستحق النقاش. أرجو أن تشاركني في هذه الجولة".

شرب هوا رونغ كأسه. وعندها صب ليو غاو الخمرة لهوانغ شين: "هذه نخبك، أيها الآمر، تعبيراً عن الشكر لقدومك إلى منزلنا المتواضع. فاشربها".

قبل هوانغ شين الكأس. رفعها في يده وتلفت حواليه. فدلف إلى الردهة قرابة دستة من الجنود. وأسقط الكأس على الأرض، فثارت ضجة صاخبة. وخرج من الخيام قرابة أربعين أو خمسين جنديا من جانبي الردهة، وقبضوا على هوا رونغ وقيدوه.

صاح هوانغ شين: "اربطوه".

احتجّ هوا رونغ: "ما هي الجريمة التي اقترفت؟".

ضحك هوانغ شين: "أتجرؤ على الشكوى!؟ أنت على صلة وثيقة مع قطاع الطريق على جبل الرياح الصافية ضد القصر الإمبراطوري! هذه هي جريمتك! وقد أخذت بعين الاعتبار ماضيك المشرف، الأمر الذي منعني من القبض على زوجتك وأسرتك أيضاً!".

- وأين دليلك؟

- سأريك هذا الدليل! سأطلعك على أعمالك وعلى واحد من أصدقاء عصابتك. ليس من يحتال عليك. أيها الحراس! أحضروه إلى هنا!

جرّت عربة حبس أقيم عليها قفص فيه رجل عصب رأسه بعصابة حمراء وعلق بالقرب منه علم ورقي مثلث الشكل. إنه سونغ جيانغ. فغر هوا رونغ فمه. وحدّق كل منهما في الآخر وقد خرس لسانه.

قال هوانغ شين: "هذا ليس له أية علاقة بي، فأنا أقوم بالعمل نيابة عن ليو غاو الشاكي".

قال هوا رونغ: "لست أبالي بمن يتهمه. هذا الرجل هنا قريبي من مدينة يونتشنغ فإذا أصررت على أنه قاطع طريق، فسوف نناقش الأمر في المحكمة!".

- في هذه الحال ينبغي عليّ أن أصحبك إلى الوالي. وتستطيع مناقشة الأمر بنفسك.

وأمر الآمر ليو غاو أن يجهز مائة جندي للقيام بأعمال الحراسة.

قال هوا رونغ: "لقد احتلت عليّ بالحضور إلى هنا، أيها الآمر. وعلى الرغم من أنك قبضت عليّ، فما إن نصل إلى المحكمة حتى يجري بحث القضية برمتها. كلانا من الضباط العسكريين. لا تجردني من ثيابي، لكن أركبني عربة عليها قفص أيضاً".

- هذا أمر سهل. سأجيبك إلى طلبك، وسأطلب إلى القائد ليو أن يحضر معنا إلى الولاية كيما نستطيع تسوية الأمر كله. لا نريد أن ينفذ حكم الإعدام بأي إنسان عن طريق الخطأ.

ركب هوانغ شين وليو غاو حصانيهما، وانطلقا برفقة خمسين جندياً من جنود الولاية، ومائة جندي من جنود القلعة يخفرون العربتين المقفصتين في طريقهم إلى تشينغتشو.

ونتيجة لذلك، التهمت النيران المتواثبة مئات البيوت، والسكاكين والفؤوس أودت بحياة قرابة ألفين من السكان. والحقيقة، إن الاستفزاز يغرق المستفز بالمتاعب، والظلم يرتد على الظالم.

كيف استطاع سونغ جيانغ النجاة؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الرابع والثلاثون

قاهر الجبال الثلاثة يشوّش تشينغتشو؛
وفي الليل تجتاز الصاعقة حقلاً من الحصى

حمل الراكب هوانغ شين سيفه البتار. وحمل ليو غاو، وقد ركب حصانه بدوره ولبس درعه، مذراة في يده. كان جنودهما يحملون الهراوات والعصي والرماح المسنونة، وعلى خصورهم السيوف والمدى. وكان هنالك صفان من الطبول ومجموعة من الأبواق، فانطلقت القافلة التي تحرس سونغ جيانغ وهوا رونغ من قلعة الرياح الصافية متجهة إلى ولاية تشينغتشو.

وقبل أن تجتاز القافلة أربعين ليا لمح أفرادها غابة كبيرة إلى الأمام منهم. وفيما هم يقتربون من فجوة في الجبال أومأ أحد الحراس المتقدمين - وهو من جنود القلعة - بيده وأوضح قائلاً: "ثمة رجال يراقبوننا من بين هاتيك الأشجار!".

وتوقفت القافلة بأسرها عن السير.

سأل هوانغ شين من فوق جواده: "فيم توقفتم؟".

- أناس في تلك الغابة يراقبوننا.

- ليكن! تابعوا طريقكم!

اقتربوا من الغابة. وعلى غير انتظار، شرع عشرون أو ثلاثون بوقاً ترسل أصواتها في نغمة رتيبة. فاستدار جنود القلعة، وقد عصف بهم الخوف، وتأهبوا للفرار.

نبح هوانغ شين: "قفوا حيث أنتم! انتشروا". وخاطب ليو غاو قائلاً: "احرس العربتين وقفصيهما!".

لم يستطع ليو النطق من جراء الخوف الذي تلبّسه. فراح يهمهم بين نفسه: "لتحمني السماء من البلايا. أواه! آه! أنذر على نفسي مائة ألف مقطع من الكتب المقدسة، وثلاثين قداساً من الصلوات! أنقذيني وحسب!". كان وجهه أشبه ببطيخة ناضجة؛ يتناوبه الاخضرار والاصفرار معاً.

كان هوانغ شين ضابطاً عسكرياً لا تنقصه الشجاعة. ضرب حصانه فانطلق به قدماً، وهو يجيل النظر حواليه. على أطراف الغابة الأربعة كان ثمة قرابة خمسمائة من قطاع الطرق ينتظمون في صفوف. وجميعهم قساة الملامح. رؤوسهم معصوبة بعصائب حمراء، ويرتدون عباءات مبطنة، وقد علقوا في خصورهم سيوفاً حادة، وحملوا في أيديهم رماحاً طويلة، وأحاطوا بالقافلة إحاطة تامة.

خرج من الغابة ثلاثة فتيان شجعان، أحدهم أسود اللون، والثاني أخضره، والثالث أحمره. وعلى رأس كل منهم منديل بصليب معقوف من الذهب، وفي وسطه سيف مرهف. انتصبوا واقفين، والمطارد في أيديهم، يسدون الطريق. كان الرجل في الوسط يان شون النمر الأنيق. وعن يمينه وانغ

ينغ النمر القصير البدين، وعن يساره تشنغ تيان شو السيد المهذب أشقر الوجه. وصاحوا بهوانغ شين قائلين: "على جميع المسافرين التوقف هنا ودفع ثلاثة آلاف أوقية من الذهب، وإلا استحال عليهم المرورا".

صاح هوانغ شين من فوق حصانه يردّ عليهم: "أين عيونكم، أيها الأوغاد؟ أنتم تخاطبون قاهر الجبال الثلاثة!".

حدَّق الثلاثة فيه، وأجابوا: "لا نبالي كائنا من تكون! ما لم تدفع ثلاثة آلاف أوقية من الذهب فلن تستطيع مروراً!".

- أنا قائد الوالي وفي مهمة رسمية! ولست مجبراً أن أدفع ما تطلبون للمرور!

ضحك الثلاثة الشجعان: "الإمبراطور نفسه لا يستطيع المرور من هنا من دون أن يدفع ثلاثة آلاف أوقية من الذهب! إن لم تكن تحملها، فاترك أسيريك ضمانة، وسنعيدهما إليك بعد أن تسدد النقود!".

غضب هوانغ شين: "كيف تجرؤون، أيها الأوغاد، أن تتصرفوا على هذه الصورة المتعالية المتكبرة!". وأمر طباليه وزماريه أن يضربوا الطبول وينفخوا في الأبواق، ونخز حصانه واتجه مباشرة ناحية يان شون ملوحاً بسيفه.

رفع قادة قطاع الطرق الثلاثة مطاردهم وحاصروا هوانغ شين. فصارعهم هوانغ، وهو على حصانه، اثنتي عشرة جولة شجاعة، ولكنهم ثلاثة ضد واحد. عجز ليو غاو، وهو يرتجف رعباً، عن الإتيان بأية حركة. وحين رأى الورطة التي رمى هوانغ شين نفسه فيها تأهب للفرار. وخشي هوانغ شين أن يقع أسير الثلاثة فتتدمر شهرته، لذا أدار حصانه ورجع يخبُّ به يتبعه الزعماء الثلاثة بمطاردهم. ولم يكن لدى هوانغ شين ما يكفي من الوقت لإحصاء القوة التي تأتمر بأمره، فهرب وحيداً على جواده إلى مدينة الرياح الصافية.

حين رأى جنوده ما حصل تصايحوا في رعب، وتخلوا عن العربتين وقفصيهما وتبعثروا هاربين. شدَّ ليو غاو في يأس لجام حصانه، وانهال عليه بالسوط ثلاث مرات. فانطلق الحصان راكضاً، غير أن حبلاً على صورة فخ على الطريق أدى بالحصان وراكبه إلى التعثر والسقوط. وقبضت جماعة من قطاع الطرق على ليو غاو وأسرت العربتين والقفصين.

وثب هوا رونغ من قفصه بعدما فتحه وفك قيده. وفتح العربة الثانية وأنقذ سونغ جيانغ منها. وقبض عدد من قطاع الطرق على ليو غاو وربطوا يديه وراء ظهره، كما أمسكوا بحصانه وثلاثة أو أربعة خيول أخرى. وجردوا ليو من ثيابه وأعطوها إلى سونغ جيانغ الذي كان عارياً. اقتيدت الخيول المأسورة أول الأمر إلى الجبل، ثم اتجه الزعماء الثلاثة وهوا رونغ وعدد من قطاع الطرق الذين يخفرون ليو غاو إلى القلعة.

حين لم يتلق الزعماء الثلاثة أية أخبار من سونغ جيانغ لفترة من الوقت أرسلوا عدداً من الكشافة الأكفاء إلى مدينة الرياح الصافية لاستقاء الأخبار. فقيل لهم: "لقد ألقى الآمر هوانغ شين كأسه دلالة فتم القبض على هوا رونغ وسونغ جيانغ، ووُضِع الاثنان في قفصين على عربتين، وسوف

يقادان إلى تشينغتشو".

رفع هذا التقرير إلى الزعماء الثلاثة الذين هبطوا عن الجبل برفقة رجالهم. فقاموا بتفتيش كامل وجعلوا ينتظرون على الطريق حتى وصل الكشاف. وغطيت الممرات الصغيرة كلها. ونتيجة لذلك تم إنقاذ هوا رونغ وسونغ جيانغ وأسر ليو غاو، ورجع الجميع إلى الحصن في الجبل.

نادى يان شون على رجاله: "أيها الأولاد، اشربوا وامرحوا!".

شكر هوا رونغ الشجعان الثلاثة: "لقد أنقذتم حياة أخي وانتقمتم لأخطائنا! لن نستطيع أن نجازيكم عن هذا! قلقي الوحيد على زوجتي وشقيقتي الصغرى. فهما لا تزالان في قلعة الرياح الصافية. ولا ريبة في أن هوانغ شين سيقبض عليهما. فكيف يمكننا إنقاذهما؟".

قال يان شون: "لا تقلق أيها القائد. أشك في أن هوانغ شين يجسر على القبض على زوجتك. وإذا فعل ذلك، فينبغي أن يمرَّ من هنا في طريق عودته إلى الولاية. غداً أهبط مع أخويّ عن الجبل ونحضر زوجتك وشقيقتك إلى هنا". وأمر أحد الكشافين أن ينسرق إلى المدينة ويتقصى الأمر.

أعلن هوا رونغ: "أنا شاكر جداً".

قال سونغ جيانغ: "أحضروا لي الآن هذا الوغد ليو غاو".

ونبر يان شون:

- لقد شددنا وثاقه إلى العمود الرئيس. سنقطع له قلبه ونقدمه لك هدية!

قال هوا رونغ: "أودّ أن أشق له صدره بنفسي!".

صاح سونغ جيانغ: "أيها الوغد! لم يكن بيننا يوماً شيء من العداء! فكيف أصغيت إلى زوجتك الشريرة وآذيتني؟ لقد قبضنا عليك الآن! فماذا لديك من قول؟".

أبان هوا رونغ: "ما فائدة الحديث؟". غرز سكيناً في صدر ليو وقتله، ووضع قلبه أمام سونغ جيانغ، وجرَّ قطاع الطرق الجثة جانباً.

قال سونغ جيانغ: "لقد قتلنا هذا الحيوان القذر، ولكن زوجته العاهرة لا تزال على قيد الحياة. ولم يكتمل ثأرنا بعد!".

قال وانغ النمر القصير البدين: "أرح أفكارك يا أخي. حينما أهبط غداً فسأعتقل تلك المرأة، وهذه المرة سأحتفظ بها لنفسي".

ضحك الجميع. احتفلوا تلك الليلة، ومن بعد هجعوا. وفي اليوم التالي، هبوا من مراقدهم وناقشوا موضوع الهجوم على قلعة الرياح الصافية.

قال يان شون: "لقد قاسى الفتيان من يوم عصيب نهار البارحة. سندعهم يرتاحون هذا النهار. وغداً صباحاً نهبط عن الجبل. ويكون الوقت قد حان".

قال سونغ جيانغ: "أنت على حق. ينبغي أن يسترد الرجال والخيول قواهم ولا يجب أن نستعجل الأمور".

حين وصل هوانغ شين إلى مدينة الرياح الصافية أسرع إلى القلعة، وحشد جنوداً وخيولاً،

ووضع حراسة مشددة على كل من البوابات الأربع. ثم كتب بياناً وانتدب اثنين من الضباط أمرهما بالإسراع وتسليمه إلى الوالي مورونغ.

وما إن تلقى الوالي التقارير من الرياح الصافية واستوعب حالة الطوارئ حتى جمع مستشاريه في تلك الليلة ذاتها. وعصف به رعب شديد بعدما قرأ بيان هوانغ شين. كان البيان يقول: "لقد ثار هوا رونغ وانضم إلى قطاع الطرق على جبل الرياح الصافية. وليس هناك ما يضمن صمود القلعة، والحال خطيرة. ينبغي إرسال جنرالات من المرتبة الأولى على الفور لحماية الحدود!".

استدعى الجنرال تشين، القائد العام لجميع القوات المسلحة في الولاية للمثول أمامه على الفور لعقد مجلس عسكري طارئ. وكان تشين، واسمه الشخصي مينغ، من كايتشو في الجانب الآخر من الجبال. وبسبب مزاجه الغضوب وصوته المرعد لقبوه بالعاصفة. وهو ينحدر من أسرة ضابط قضت حياتها الطويلة في الخدمة العسكرية. وكان سلاحه عبارة عن قضيب شائك من أسنان الذئب، وحين يروح يصارع لا يستطيع عشرة آلاف رجل الوقوف في وجهه.

قدم تشين نفسه أمام الوالي، وتبادل الاثنان التحية. وأطلعه مورونغ على رسالة هوانغ شين.

زمجر تشين مينغ: "أولئك اللصوص يسيطرون على أعصابهم. لا تخف، يا صاحب السعادة. سأهيئ قواتي. إن لم أعتقل أولئك اللصوص فأقسم إنك لن ترى لي وجهاً بعد اليوم!".

- تحرك بسرعة. فقد يهاجمون قلعة الرياح الصافية.

- لن يكون هنالك شيء من التأخير. سأجمع رجالي هذه الليلة، ونرحل في بكور الصباح.

اغتبط الوالي، فأمر بتجهيز الخمور واللحوم وتموينات خفيفة توضع خارج المدينة لتحملها القوات في أثناء رحيلها. واستبدَّ الغضب بتشين مينغ حين عرف أن هوا رونغ انضمّ إلى اللصوص. ركب حصانه وقفل إلى مركز قيادته. وجمع هنالك مائة من الفرسان وأربعمائة من المشاة. وأصدر أمره إليهم بالاحتشاد خارج المدينة والاستعداد للرحيل.

في باحة للدير في ضاحية المدينة جهز الوالي في اليوم التالي الفطائر، وأخرج الطاسات الكبيرة وأدفأ الخمور. سوف يعطي كل جندي ثلاث طاسات من الخمر، وفطيرتين، وكاتيا من اللحم المطبوخ. أعدّ كل شيء حين برزت الكتيبة من المدينة وكتب على علم قرمزي هذه الكلمات: "الجنرال تشين، قائد الفرسان والمشاة".

كان منظر تشين مينغ، وهو يرتدي درعه، رائعاً. وحين رأى الوالي مورونغ ينتظر ليبث الشجاعة في قلب القوات أمر أحد الجنود أن يحمل له أسلحته، وترجل وخطا كيما يستقبله الوالي. تم تبادل التحيات، وواجه مورونغ الجنرال، وقدح الشراب في يده. "أرجو أن تسير الأمور على خير ما يرام وأن تعود مكللاً بالظفر!".

وُزِّع الطعام والشراب بين القوات، وأطلق مدفع قذيفة إيذاناً بالسير. غادر تشين مينغ الوالي، وركب جواده، ونشر قواته في تشكيلة للسير. كانت القوات تحمل المطارد والمذاري فاتجهت إلى قلعة الرياح الصافية. كانت مدينة الرياح الصافية تقع في الجنوب الشرقي من تشينغتشو، وكان من

الأسرع أن تذهب إلى هنالك من الجنوب مباشرة والالتفاف حول جبل الرياح الصافية. وما أسرع أن وصلت القوات إلى الشمال من الجبل على طريق صغيرة.

أعلن كشافو قطاع الطرق عن تقدم تلك القوات. كان زعماؤهم يتأهبون للهجوم على قلعة الرياح الصافية حين تناهت إليهم الأخبار: "تشين مينغ يقود قوة من الرجال والخيول في اتجاهنا!". فتبادلوا نظرات مرعوبة.

قال هوا رونغ: "لا تخش شيئاً. فكما يقول المثل القديم: حين يقترب العدو مسرعاً فلا بدَّ أن يرتد على أعقابه. قدموا للرجال طعاماً وشراباً، وافعلوا ما أقول. سنستخدم القوات أولاً، والخديعة ثانياً". وسرعان ما أعلن عن فكرته: "ما رأيكم في هذه الفكرة؟".

قال سونغ جيانغ: "رائعة! إنها بالضبطِ ما ينبغي أن يُفعل!".

انكبّ سونغ جيانغ وهوا رونغ على التفاصيل، ثم ذهب كل رجل للتهيئة للمهمة الملقاة على عاتقه. واختار هوا رونغ جواداً ممتازاً ودرعاً، وحمل قوسه وسهامه ورمحاً حديدياً.

نصب تشين مينغ ورجاله معسكراً لقضاء الليل على مبعدة عشرة ليات من سفح الجبل. نهضوا عند فجر اليوم التالي وأفطروا، وأطلقت قذيفة مدفع على سبيل الإشارة، وبدأت المسيرة على الفور. واختار الجنرال مساحة مكشوفة عريضة نشر فيها قواته في وضع قتالي، ثم قرع طبوله.

ردت عليه من الجبل عاصفة من الأبواق، وانحدرت قوات قطاع الطرق عن المنحدر بسرعة. شدَّ تشين مينغ لجام حصانه وجال ببصره، وعصاه الشائكة من أسنان الذئب على جسده. كان هوا رونغ محاطاً بحشد من قطاع الطرق. ونفخت الأبواق مرة أخرى حين بلغوا سفح الجبل ونشروا أنفسهم في وضع قتالي. حيّا هوا رونغ عن صهوة حصانه، ورمحه الحديدي في يده، الجنرال تحية احترام.

صاح تشين مينغ: "هوا رونغ. كانت أسرتك أسرة قادة عسكريين على مدى أجيال وأجيال، وموظفين معينين في القصر الإمبراطوري. وقد جُعلت قائداً للقلعة، وأنيطت بك منطقة واسعة، ودعمتك الحكومة وصارت تدفع لك مرتباتك. متى أعطوك أقل مما تستحق؟ وهذا أنت تعاشر قطاع الطرق وتثور ضد القصر! لقد أرسلوني للقبض عليك! إن كنت حكيماً، فانزل عن جوادك واستسلم! لا تجعلني ألطخ يديَّ بالدم وقدميَّ بالتراب!".

قال هوا رونغ، وهو يخلع على شفتيه ابتسامة اعتذار: "اسمعني، يا جنرال. لم يخطر لي يوماً أن أثور ضد البلاط الإمبراطوري. والسبب في ذلك كله هو الوغد ليو غاو؛ فقد بنى قبة من حبة، واستخدم منصبه الرسمي لانتقام شخصي، وأرغمني أن أدير ظهري لبيتي ووطني وألجأ إلى هذا المكان! آمل أن تتقصى الحقيقة، يا جنرال، وتسوي هذا الموضوع!".

- ترجل واستسلم! ماذا تنتظر؟ كلماتك المذوقة ليست أكثر من ستار تخدع به جنودي!

صاح تشين مينغ بالطبول عن يمين ويسار أن تقرع راعدة، ولوَّح بقضيبه الشائك وانقض هاجماً.

ضحك هوا رونغ: "رجل طيب يلتمس لك عذراً وأنت لا تفقه ذلك. لأنني خاطبتك في أدب

باعتبارك ضابطاً أعلى تحسبني خائفاً منك!". دفع حصانه قدماً ورفع رمحه بيده.

تصارع الرجلان قرابة خمسين جولة من دون أن يكتب لأحدهما الفوز. تظاهر هوا رونغ بالخداع، ودار بجواده واتجه إلى رجاله عند سفح الجبل. لحق به تشين مينغ غاضباً. ترك هوا رونغ رمحه في حلقات سرجه، وكبح جماح حصانه، ووضع سهماً في قوسه، وشدّ الوتر شداً محكماً، واستدار وأطلق السهم، فجزّ السهم الشرابة الكبيرة الحمراء في ذروة خوذة الجنرال، وذلك على سبيل الإنذار.

أجفل تشين مينغ فأوقف جواده فجأة. وحين استردّ وعيه بما يكفي للاستمرار في المطاردة، كان قطاع الطرق جميعاً يعودون أدراجهم إلى الجبل في صخب وضجيج. ورجع هوا رونغ، على درب أخرى إلى الحصن بدوره.

غضب تشين مينغ وخاطب نفسه: "ذلك اللص القذر شديد الفظاظة!". وصاح يأمر الطبول والأبواق أن تصدح، ولحق بقطاع الطرق على المنحدر. تصايحت القوات وتبعته، والمشاة في النهاية. واجتازت ذروتين أو ثلاث ذرى حين - على غير انتظار، ومن فوق الصخور التي تعلوها - انهارت فوقها جذوع الأخشاب والصخور وزجاجات الكلس والحديد المصهور. وخسر الحرس المتقدم في عجزه عن التقهقر أربعين أو خمسين قتيلاً، واضطرت بقية القوات إلى التراجع.

قاد تشين مينغ حصانه والغضب يعصف به هابطاً عن المنحدر، واختار ممراً آخر يوصل إلى القمة. كان لا يبرح يقوم بالتفتيش عند الظهيرة حين صدحت الأبواق في الطرف الغربي من الجبل وتساقطت عصابة من الرجال الذين حملوا أعلاماً حمراء وبرزوا من وراء الأشجار. فقاد تشين مينغ على الفور قواته في هجوم. لكن الأبواق صمتت والأعلام الحمراء اختفت. وبدت الطريق التي سار بها أعداؤهم وكأنها ليست طريقاً على الإطلاق، بل هي ممرات ضيقة. كما أن هذه الممرات مغلقة بأشجار متعارضة ساقطة.

أوشك الجنرال أن يأمر قواته بالتراجع حين أعلن أحد الجنود: "ثمة أبواق على الطرف الشرقي من الجبل وقوات تهاجم بأعلام حمراء!".

انطلق تشين مينغ على رأس رجاله إلى المنحدر الشرقي، فصمتت الأبواق واختفت الأعلام. تطلع الجنرال في كل مكان يبحث عن ممر إلى الجبل. ولكن جميع الآثار سدت بالأشجار والأجمات.

جاء كشاف آخر وأعلن: "الأبواق على المنحدر الغربي! ورجال بأعلام حمراء مرة أخرى!".

نخز تشين مينغ حصانه وأسرع منطلقاً، فاختفى الرجال، واختفت الأعلام.

طحن الجنرال أسنانه غيظاً. كان يمور غضباً. مرة أخرى هزت أصوات الأبواق الأرض في الناحية الشرقية. ومرة أخرى هاجم تشين مينغ الناحية الشرقية بقواته. ومرة أخرى لم يعثروا على أحد من قطاع الطرق أو علم من الأعلام.

ماج صدره غضباً، وقرر أن يرسل كشافين يفتشون عن الممر. وهاجت ضجة صاخبة في الغرب من جديد. فتفجرت براكين غضب تشين مينغ وبلغت عنان السماء. اندفع بكامل قواته غرباً.

ولكنهم لم يعثروا على رجل واحد على الجبل، عاليه وسافله، فصاح تشين مينغ برجاله أن يعثروا على ممرات عن الجانبين.

أوضح أحد الجنود قائلاً: "ليست هذه الممرات حقيقية كلها. لكن في الناحية الجنوبية الشرقية طريقاً جيدة توصل إلى القمة. ستلحق بنا إصابات خطيرة إن حاولنا تسلق هذه الطريق".

- إذا كانت هنالك طريق فينبغي الوصول إليها هذه الليلة.

وسار تشين مينغ مسرعاً ناحية الجنوب الشرقي مع فرسانه ومشاته.

شرع الضوء يتضاءل، والرجال هدهم الضنى، وكذلك الخيول. وكان كل واحد يتمنى الوصول إلى وجهته حيث يستطيع أن يبلغ معسكره ويلتهم طعامه. ولكنهم شاهدوا على الجبل مشاعل متراقصة، ونفخت الأبواق من جديد. استدار تشين مينغ غاضباً وصعد مع حوالى خمسين فارساً. فتلقوا زخة من السهام انهالت من بين الأشجار، وجرح عدد من الجنود. ولم يكن أمام الجنرال خيار سوى أن يهبط بقواته عن المنحدر من جديد.

أمر رجاله أن يتناولوا وقعة من الطعام، وألا يقلقوا من شيء. وفيما هم يشعلون نيرانهم نزل عن الجبل ثمانون أو تسعون من قطاع الطرق يحملون المشاعل ويصفرون في أصوات حادة. فأسرع تشين مينغ وراءهم على الفور، وانطفأت المشاعل. كان هنالك قمر تحجبه الغيوم. وكان ضوؤه عاتماً.

فقد تشين مينغ سيطرته على نفسه فأمر رجاله أن يشعلوا المشاعل ويضرموا النيران بالغابات. وانهمرت من فجوة الجبل ألحان مزمار وقرع على طبل. ركض تشين مينغ بفرسه على المنحدر ونظر حواليه. رأى على ضوء دستة من المشاعل هوا رونغ وسونغ جيانغ على الذروة ويشربان الخمرة. ولم يكن في طوق الجنرال، العاجز عن الوصول إليهما، سوى أن يلجم جماح حصانه ويشتم.

ضحك هوا رونغ: "هدئ من روعك، يا جنرال. عد واسترح. وفي الغداة أصارعك حتى الموت!".

- أيها اللص الثائر، انزل إليّ! سأصارعك ثلاثمائة جولة الآن!

- أنت متعب، يا جنرال. وهزيمتك اليوم لن تكون صعبة. عد إلينا غداً.

جن جنون تشين مينغ من الغضب. أراد أن يعثر على طريق، ولكنه يخشى مهارة هوا رونغ في رمي السهام. فجعل يشتم في عجزه. وسمع فجأة ضجة صاخبة بين القوات في الأسفل، فركب حصانه مسرعاً. كانت قذائف مدفعية وسهام ملتهبة تتساقط عليهم من المنحدر المقابل. وهنالك عشرون أو ثلاثون قاطع طريق يضربونهم بالسهام من بين الظلال المترامية وراءهم. صاح الجنود، وصهلت الخيول، واحتشد الجميع في واد ضيق يلوذون به.

الليل نشر رداءه الأسود، والقوات تزمجر بمرارة. وفجأة، غمرهم طوفان من المياه انصبَّ عليهم من عل، فناضلوا للنجاة بأرواحهم. وفيما هم يزحفون خارجين اصطادتهم قضبان شائكة وشدتهم إلى الجبل. أما الذين عجزوا عن الفرار من المياه فقد غرقوا في ذلك الجدول المتدفق.

انفجر دماغ تشين مينغ من الغضب. لمح ممراً جانبياً فاندفع بجواده إليه. وقبل أن يجتاز

خمسين خطوة سقط الحصان وفارسه في حفرة. واصطاده خمسون قاطع طريق ترصدوه في كمين بقضبانهم الشائكة، وشدوه إليهم. انتزعوا منه سلاحه وثيابه وخوذته، وربطوه بالحبال، وصادروا حصانه، وصعدوا بغنيمتهم على المنحدر.

كانت الخطة بأكملها من تصميم هوا رونغ وسونغ جيانغ. فقد جعلا قطاع الطرق يرغمون تشين مينغ أولاً على التراكض إلى الأمام والوراء، شرقاً وغرباً، إلى أن أنهكوا قوى الرجال والخيول فما عادوا يعرفون ماذا يفعلون. ومن بعد اجتازوا مجريين من الماء بأكياس من التراب، وفي ساعة متأخرة من الليل، حين اعتصم الجنود والخيول بالوادي مرغمين، أطلقوا عقال المياه فأغرقتهم. مات قرابة نصف رجال تشين مينغ البالغ عددهم خمسمائة. ووقع مائة وستون أو سبعون آخرون ممن بقوا على قيد الحياة في الأسر، بالإضافة إلى سبعين أو ثمانين حصاناً. لم يهرب جندي واحد. وأخيراً، ضيقوا الخناق على تشين مينغ واصطادوه وحصانه في حفرة.

حين وصل قطاع الطرق بتشين مينغ إلى الحصن كان النور قد انتشر. ورأى تشين مينغ خمسة من الرجال الشجعان المحاربين جالسين في ردهة الولاء. والرجال يقودون الأسير المربوط ويمرون به عبر المدخل. نزل هوا رونغ عن مقعده، وأسرع إليه، وحلَّ وثاقه، وساعده في الوصول إلى الردهة، وخرَّ على ركبتيه ساجداً، فردَّ له الجنرال التحية بمثلها على الفور.

قال: "أنا أسيرك، وفي مقدورك أن تقتلني. ففيم تحييني بمثل هذا الاحترام؟".

أجاب هوا رونغ، وهو لا يبرح جاثياً على الأرض: "رجالنا لم يعرفوك فقبضوا عليك خطأ! أرجو أن تغفر لنا!". وقدم لتشين مينغ ثياباً من الحرير والساتان فارتداها.

سأل تشين مينغ: "من هؤلاء القادة الشجعان؟".

- هذا أخي بالدم سونغ جيانغ، وكان في السابق كاتباً في مقاطعة يونتشنغ. وهؤلاء الثلاثة هم الزعماء هنا: يان شون، ووانغ ينغ، وتشنغ تيان شو.

- سمعت بأسمائهم من دون ريب. أولا يعرف كاتب المقاطعة سونغ في منطقة شاندونغ باسم سونغ جيانغ المطر في أوانه؟

قال سونغ جيانغ: "هذا اسمي المتواضع".

فسجد تشين مينغ على الفور: "سمعت بشهرتك مِنذ زمن بعيد. ولم أتوقع أن أتشرف بلقائك اليوم!".

ردَّ له سونغ جيانغ التحية من فوره. ورأى تشين مينغ أنه يحرك ساقيه بخراقة.

سأل الجنرال: "هل أصاب ساقيك سوء؟".

روى له سونغ جيانغ مغامراته منذ رحيله عن يونتشنغ إلى أن عرضه ليو غاو للضرب. فهزَّ تشين مينغ رأسه: "سمعنا جانباً واحداً من القصة ليس غير، وارتكبنا العديد من الأخطاء. اسمحوا لي أن أعود وأخبر الوالي مورونغ بهذا كله".

ترجى يان شون الجنرال أن يقيم لديهم عدة أيام، وأمر بنحر الخرفان والخيول وتهيئة مأدبة، وحشد الجنود الأسرى في أبنية في مؤخر الجبل، ولكن الطعام والشراب قدما لهم. وبعدما احتسى

الجنرال عدة أقداح هبَّ على قدميه، وقال: "إذا كنتم على هذا القدر من الطيبة فلم تقتلوني، يا سادة، فأعيدوا إلي درعي وحصاني وسلاحي، وائذنوا لي في العودة إلى الوالي".

قال يان شون: "أنت تخطئ في الإقدام على هذه الخطوة، يا جنرال. لقد خسرت رجالك الذين يعدون خمسمائة جندي. فكيف تعود؟ سوف يعدمك الوالي مورونغ حتماً بصفتك مجرماً. يحسن أن تبقى في قلعتنا الجبلية فترة من الوقت. وعلى الرغم من أن هذا أقل من مواهبك، ففيم لا تقيم معنا بصورة دائمة؟ سنتقاسم الذهب والفضة بالتساوي. أفلا يكون هذا أفضل من أن تتعرض للاضطهاد تحت رحمة موظفين قبعاتهم كبيرة؟".

مشى تشين مينغ إلى مدخل الردهة: "لقد ولدت رجلاً في إمبراطورية أسرة سونغ العظيم، وسوف أخدمه ولو صرت شبحاً بعد الموت. وقد عينني البلاط جنرالاً وخلع عليَّ لقب قائد الفرسان والمشاة. وعاملوني معاملة طيبة. فكيف أثور وأغدو قاطع طريق؟ اقتلوني ولننته من هذا الأمر!".

لحق به هوا رونغ وأمسكه من ذراعه: "لا تغضب، يا أخي. أرجو أن تصغي إليَّ. أنا ابن ضابط رفيع المرتبة في البلاط أيضاً. ولكن، ليس أمامي خيار. فقد أرغمت على هذا. أرجو أن تجلس، وحين ينتهي الطعام سأحضر درعك وخوذتك وحصانك وأسلحتك وأعيدها إليك".

تماسك تشين مينغ، فاستمر هوا رونغ يجذبه: "لقد ضيَّعت قواك وأنفاسك نهاراً بطوله وليلاً بطوله، يا جنرال. لا ريبة أنك منهك القوى. كيف يستطيع الحصان أن يسافر بك إن لم نعلفه؟".

خاطب تشين مينغ نفسه قائلاً: "هذا صحيح". رجع إلى الردهة وجلس على مقعده. اعتذر الشجعان الخمسة منه، وشربوا نخبه بالتوالي.

كان الجنرال متعباً حقاً. ولطفت اهتمامات مضيفه من معارضته. فاسترخى وشرب حتى انهدت قواه. ثم حملوه إلى فراشه فاستغرق في النوم. وانصرف الآخرون إلى شؤونهم. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

استغرق تشين مينغ في النوم فوراً حتى انتصف الصباح في اليوم التالي. وثب من الفراش، وغسل وجهه، ومسح فمه، وأعلن عن عزمه على الرحيل. فألحَّ مضيفوه: "رويدك ريثما تتناول فطورك. سنرافقك في هبوطك عن الجبل".

غير أن تشين مينغ المتهور أصرَّ على الرحيل في الحال. فقدم له الطعام والشراب على عجل. وجيء بجواده وأحضر قضيبه الشائك. وارتدى الجنرال درعه وخوذته. وأُرسِل عدد من الرجال يرافقونه على الطريق.

رافقه الشجعان الخمسة قبل هبوطه عن الجبل، وألقوا عليه تحية الوداع. أعيد إليه حصانه وأسلحته. فركب الحصان وحمل قضيبه الشائك وغادر جبل الرياح الصافية واتجه مباشرة إلى تشينغتشو في ضوء النهار.

حين كان على مسافة عشرة ليات من المدينة - وكان الصباح قد تأخر - رأى دخاناً كثيفاً من بعيد، ولكنه لم يلمح أحداً من المسافرين. فثارت في صدره الشكوك. وسرعان ما وصل إلى ضاحية المدينة، فرأى ما كان مجموعة من بيوت مئات من الأسر تحترق. وفي كل مكان أكوام مبعثرة من

الآجر وقطع الحجارة. وعلى الأرض تناثرت جثث محروقة لرجال ونساء لا حصر لهم.

ارتعب تشين مينغ، فأسرع من خبب حصانه بين تلك الأطلال حتى جدار المدينة وصاح بالحراس أن يفتحوا البوابات. كان الجسر القائم فوق الخندق المائي مرفوعاً، وأعلى الجدار يعج بصف من الجنود، والأعلام، وشرائح من الخشب، وقطع من الحجارة. أوقف الجنرال حصانه.

صاح: "أنزلوا الجسر. دعوني أدخل!".

شهده الرجال على السور قادما من بعيد. فقرعوا الطبول وراحوا يصيحون.

- أنا القائد تشين مينغ! لِمَ لا تدخلونني؟

ظهر الوالي مورونغ على السور وصاح: "أيها اللص الثائر. ألا تخجل! لقد جئت ليلة البارحة مع عصبة من الرجال وهاجمت المدينة! وذبحت عددا من الناس الأبرياء وأحرقت عشرات المنازل! وهذا أنت اليوم تحاول أن تحتال علينا لفتح البوابات! لقد عاملك البلاط الإمبراطوري معاملة طيبة، ولكنك تصرفت بصورة فاضحة، أيها النذل! وقد شكوتك إلى البلاط. وعاجلا أم آجلا سنقبض عليك ونطحنك طحناً!".

- لقد أخطأتم، يا صاحب السعادة! لقد هزمت قواتي وأسرني قطاع الطرق الأنذال واقتادوني إلى الجبل. وقد غادرتهم قبل قليل وحسب. فكيف يمكن أن أهاجم المدينة في الليلة الماضية!

- أفلا أعرف حصانك، ودرعك، وأسلحتك، وخوذتك؟ وقد شاهدك الجميع على السور بوضوح وأنت تأمر قطاع الطرق المعممين للقيام بأعمال القتل والحرق! لن تستطيع إنكار ذلك! لو كنت قد هزمت وأسرت، فلماذا لم يحضر أحد من جنودك الخمسمائة ويعلن عن ذلك؟ أنت تريد أن تحتال علينا كيما نفتح البوابات وتعمل أنت على إخراج أسرتك؟ لقد أعدمنا زوجتك هذا الصباح! وإذا لم تكن تصدقني، فانظر إلى هذا!

مدّ جندي رمحا. كان يتدلى من نهايته رأس زوجة تشين مينغ. كان الجنرال رجلاً عاطفياً، فتفجّر الغضب في صدره، واسترسل ينوح في مرارة من دون أن ينطق بحرف. وتهاطلت السهام عليه من فوق الجدار، فاضطر أن ينسحب. رمى نظره ناحية المنازل المحترقة. كانت النيران لا تبرح مشتعلة في بعض الأخشاب.

أراد تشين مينغ أن يقتل نفسه وهو يجتاز قطع الحجارة. ولكنه أغرق في التفكير فترة من الوقت، فترك حصانه يطوف به على الطريق التي جاء منها. وقبل أن يقطع عشرة ليات رأى عصبة من الرجال الراكبين تتجه إليه من الأيكة. كان الشجعان الخمسة على رأس الرجال هم سونغ جيانغ، ويان شون، ووانغ ينغ، وتشنغ تيان شو وهوا رونغ. وكان يلحق بهم حوالى مائتين من قطاع الطرق. وانحنى سونغ جيانغ عن سرجه.

- ألم ترجع إلى تشينغتشو، أيها القائد؟ إلى أين أنت ذاهب من هنا وحيداً؟

- أحد الأوغاد المرذولين من السماء والأرض - ويستأهل أن يفرم فرماً - تنكر في ثيابي، وهاجم المدينة، وأحرق البيوت، وذبح الناس! ونتيجة لذلك قتلت أسرتي، ولم يبق لي مكان أذهب إليه! إذا استطعت العثور على ذلك الوغد فسأنهال عليه ضرباً بقضيبي الشائك إلى أن يتكسر القضيب

قطعاً متناثرة!

- هدئ روعك، يا جنرال! لدي اقتراح، ولكن هذا المكان لا يصلح للحديث. أرجو أن تحضر إلى معقلنا فنتشاور هناك. إذا سمحت لنا فسنذهب الآن.

لم يكن أمام تشين مينغ غير الإذعان، فانطلق الجميع إلى جبل الرياح الصافية.

لم يفتح أحد فمه بكلمة خلال الرحلة. ترجلوا عن خيولهم عند السرادق خارج بوابات الحصن ودلفوا إليه على أقدامهم. كان اللصوص قد هيأوا الخمرة والمشهيات في ردهة الولاء. ودعا الشجعان الخمسة تشين مينغ، وطلبوا إليه أن يجلس في الوسط. ثم ركعوا أمامه. فردّ الجنرال تحيتهم على الفور. وكان سونغ جيانغ أول المتكلمين، فقال: "نرجو ألا تصب لومك علينا، يا جنرال. فالبارحة حاولنا عبثاً أن نقنعك بالبقاء معنا، ولكنك أصررت على الرحيل، وهكذا طرأت لي فكرة. فأمرت أحد رجالنا أن يتدرع بدرعك وخوذتك، وأن يحمل قضيبك الشائك ويمتطي حصانك ويذهب إلى مدينة تشينغتشو مع عصبة من الرجال الذين يعتمرون بعمائم حمراء وأن يقتلوا عدداً من الرجال. وذهب يان شون والنمر القصير البدين مع خمسين رجلاً آخرين، وتظاهروا أنك تريد جلب أسرتك. وقد ارتكبنا جريمتي القتل والحرق كيما نرغمك على طرح كل أمل لك بالعودة! واليوم نتقدم منك لفرض عقابك علينا!".

غضب تشين مينغ، وتمنى أن يطوّح نفسه على سونغ جيانغ. ولكنه فكر، أولاً، إن ما جرى كان مقدراً. وثانياً، لقد آذوه بتحياتهم الخسيسة. وثالثاً، إنه عاجز عن التغلب عليهم بمفرده مهما كانت الظروف. فاضطر إلى ابتلاع ثورة غضبته.

استسلم قائلاً:

- ولكنكم آذيتموني كثيراً! وعرضتم أسرتي بكاملها للموت!

قال سونغ جيانغ:

- لو لم نتصرف كما تصرفنا، فهل كنت ستتخلى عن فكرتك في العودة؟ إن شقيقة هوا رونغ الصغرى يمكن أن تكون زوجة ممتازة لك. فهي فاضلة وذكية. ويسعدني أن أكون شاهدا على الزواج وأن أجهز لكما جميع الأثاث المنزلي. ما رأيك؟

مسّ هذا الحب والاحترام شغاف قلب الجنرال، فأبدى موافقته. وأصرّ الجميع على أن يجلس سونغ جيانغ في الوسط مع تشين مينغ وهوا رونغ والشجعان الثلاثة الآخرين الذين يشغلون مقاعد أقل رتبة. وأكلوا وشربوا هنيئاً، وتشاوروا في الهجوم المقبل على قلعة الرياح الصافية.

قال تشين مينغ:

- هذا الأمر ليست فيه أية صعوبة. ولا يجب أن تقلقوا، أيها الإخوان. إن هوانغ شين تحت إمرتي. وكل ما يعرفه بخصوص السلاح فقد علمته إياه أنا. وفضلاً عن ذلك فنحن صديقان حميمان. سأذهب إلى القلعة غداً، وأطلب إليهم فتح الباب، وأتحادث سراً مع هوانغ شين، وألحّ عليه للانضمام إلينا. وسأعمل على إخراج أسرة هوا رونغ، وأقبض على امرأة ليو غاو السليطة، وأنتقم للأذية التي لحقت بكم. وسيكون هذا عربوناً انضمامي إليكم. فما رأيكم؟

أوضح سونغ جيانغ:

- ما أسعدنا أن ينضم إلينا زميل كريم من أمثالك! عندما انتهت الوليمة انصرف كل منهم إلى مخدعه. ونهضوا مبكرين في الصباح التالي، وأفطروا، وتهيأوا. ركب تشين مينغ حصانه وهبطوا على المنحدر. حمل قضيبه الشائك المصنوع من أسنان الذئب في يده، واتجه إلى مدينة الرياح الصافية.

كان هوانغ شين قد شرع، منذ وصوله إلى المدينة، بتعبئة الجنود والناس، فأقام قوات في القلعة على أهبة الحذر، وخفر البوابات بشدة. ولكنه لم يجسر على الخروج والاشتباك في معركة علنية. وما أكثر ما بعث رسلاً إلى تشينغتشو للتقصي، ولكن الوالي لم يبد دلالة على نيته في إرسال أية تعزيزات إليه.

وجاءه رجل وأعلن قائلاً: "القائد تشين مينغ هنا، وحيداً، على صهوة جواده. ويريدنا أن نفتح الباب ونأذن له بالدخول".

ركب هوانغ شين حصانه ومضى إلى البوابة. رأى فارساً وحيداً، فأمر رجاله أن يفتحوا البوابة وينزلوا الجسر المتحرك. رحب بالجنرال، وركب برفقته إلى الردهة الرئيسة ودعاه إلى الدخول. وترجل الاثنان، ودلفا إلى الردهة، وتبادلا التحية.

سأل هوانغ شين: "ما الذي أتى بك إلى هنا، يا جنرال؟".

روى له تشين مينغ كيف فقد رجاله وخيوله، ثم قال: "إن سونغ جيانغ، المطر في أوانه، رجل كريم وشهم. وهو يساعد جميع الفتيان الطيبين تحت هذه الشمس، ويحترمه الجميع. واليوم يقيم في جبل الرياح الصافية، حيث انضممت إلى عصابته. وأنت من دون زوجة أو أسرة. فإذا قبلت نصيحتي، فانضم إلينا أيضاً. هذا أفضل من أن تتلقى الإهانة من الموظفين المدنيين!".

- إذا جئتني إلى هنا، يا صاحب السعادة، فكيف أستطيع أن أرفض؟ لم أسمع قطّ أن المطر في أوانه على الجبل. كيف وصل إلى هناك؟

ضحك تشين مينغ: "إنه تشانغ سان من يونتشنغ الذي كنت تخفره إلى الولاية ذلك النهار. وقد خشي أن يصرّح باسمه الحقيقي بسبب قضية أخرى تورط فيها. وهكذا خلع على نفسه اسم تشانغ سان".

ضرب هوانغ شين الأرض بقدمه: "لو عرفت أنه سونغ جيانغ لسمحت له بمتابعة طريقه. لم أعرفه، وسمعت ما رواه لي ليو غاو بهذا الخصوص. لقد كنت سبباً في تعرضه للموت!".

وفيما الاثنان يتشاوران في الردهة جاء جندي وأعلن قائلاً: "ثمة رتلان من الجنود المشاة والفرسان يضربون الطبول وينفخون الأبواق، ويتقدمان سريعاً باتجاه المدينة!".

ركب هوانغ شين وتشين مينغ حصانيهما وذهبا يستطلعان أمر العدو. وعند البوابة، رأيا تحت سحابة ضخمة من الغبار حجبت الشمس حشداً يقترب، وهالته الوحشية تصل إلى عنان السماء.

كان ثمة رتلان من القوات يقتربان من المدينة. وقد هبط عن الجبل أربعة من الرجال الشجعان.

كيف قابل تشين مينغ وهوانغ شين العدو؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الخامس والثلاثون

شي يونغ سلم رسالة في حانة القرية؛
وهوا رونغ يقتل بطة وحشية على جبل ليانغشان

حين خرج هوانغ شين وتشين مينغ من البوابة وألقيا نظرة متفحصة رأيا أحد الرتلين بقيادة سونغ جيانغ وهوا رونغ، والثاني بقيادة يان شون ووانغ النمر القصير البدين، وفي كل من الرتلين قرابة مائة وخمسين من الرجال. أمر هوانغ شين جنود القلعة بإنزال الجسر المتحرك وفتح البوابات. وذهب بنفسه لتحية القادمين ومرافقتهم إلى المدينة.

أمر سونغ جيانغ رجاله ألا يؤذوا أحداً من سكان القلعة وجنودها. فشقوا طريقهم إلى الناحية الجنوبية، وقتلوا جميع أفراد عائلة ليو غاو عدا زوجته التي أسرها وانغ النمر القصير البدين، وجمع الجنود ذهب ليو غاو وفضته وأشياءه الثمينة في عربات. كان لديه عدد من الخيول والأبقار والخرفان. فقادوها جميعاً.

جمع هوا رونغ أشياءه الثمينة على عربات. وقاد امرأته وأطفاله وشقيقته الصغرى، وأمر الناس الذين يخدمون في بيته بالعودة إلى بيوتهم.

حين تجهز كل شيء غادر الرجال الشجعان مدينة الرياح الصافية ورجعوا جميعاً إلى القلعة على الجبل.

رحب تشنغ تيان شو بالقادمين الجدد في ردهة الولاء، وحيا هوانغ شين الشجعان المحتشدين وجلس في مقعد أقل رتبة من هوا رونغ. وأمر سونغ جيانغ أن تخصص أمكنة لاستراحة زوجة هوا رونغ وأولاده، وأن توزع ممتلكات ليو غاو بين الجنود. وبعث وانغ النمر القصير البدين بالمرأة التي أسرها إلى جناحه الخاص.

سأل يان شون: "أين امرأة غاو؟".

قال وانغ: "في هذه المرة يجب أن تدعوني أحتفظ بها زوجة لي".

قال يان شون: "تستطيع ذلك. لكن، ناد عليها. فلديَّ ما أقوله".

قال سونغ جيانغ: "وأنا أريد استجوابها".

استدعى وانغ المرأة إلى الردهة. طلبت الرحمة وهي تذرف الدموع.

صاح سونغ جيانغ: "لقد أنقذتك وسمحت لك بالذهاب، أيتها الساقطة! وعاملتك معاملة زوجة موظف. ففيم أقدمت على طعني في الظهر؟ قبضنا عليك الآن! فماذا تدافعين عن نفسك؟".

وثب يان شون عن مقعده: "فيم تضيع وقتك مع مثل هذه الفاجرة؟". واستلَّ سيفه وشطرها نصفين.

غضب النمر القصير البدين، فاختطف مطرده وتقدم ناحية يان شون. فنهض سونغ جيانغ مسرعاً ووقف بينهما وقال: "كان يان شون على حق في قتلها، يا أخي. لقد رأيت كيف أنها بفضل جهودي سمح لها بالرحيل عن الجبل والعودة إلى زوجها. ورغم هذا انقلبت عليّ وصبّت عليّ الأذية. يا أخي، لو أنك احتفظت بها إلى جانبك فلا ريبة أنها ستثير المصاعب عاجلاً أو آجلاً. أعد أن أعثر لك على زوجة صالحة، زوجة ترضيك رضاء كاملاً".

قال يان شون: "خطرت لي هذه الفكرة ذاتها، يا أخي. ولو لم أقتلها فقد كانت ستعرّضنا للأذية في يوم من الأيام".

شارك الآخرون ببعض الكلمات يسترضون بها وانغ. فأصغى إليهم في صمت. وأمر يان شون أن تُنقل جثتها وأن ينظف الدم عن الأرض، وأن تقام وليمة احتفالية في الردهة.

في اليوم التالي، زفت شقيقة هوا رونغ إلى تشين مينغ، وكان سونغ جيانغ وهوانغ شين عرابين، ووانغ النمر القصير البدين وتشنغ تيان شو شاهدين. وتوزيع الهدايا والأثاث كان على عاتق سونغ جيانغ ويان شون. واستمرت احتفالات الزواج أربعة أو خمسة أيام.

بعيد أسبوع من الزفاف، جاء كشاف إلى الجبل وأعلن قائلاً: "أعلم موررونغ والي تشينغتشو مجلس المديرين خطياً أن هوا رونغ وتشين مينغ وهوانغ شين قد ثاروا، وطلب إرسال جيش كبير للعمل على اعتقالهم".

فاتفق القادة قائلين: "لن نستطيع الصمود طويلاً في هذا الحصن الصغير. كيف نتصرف إذا طوّقنا جيش كبير؟".

قال سونغ جيانغ: "لدي فكرة. ولا أعرف إذا كنتم، أيها السادة، ستوافقونني عليها".

- هات أخبرنا بها.

- إلى الجنوب من هنا منطقة تدعى بحيرة ليانغشان. وهي بحيرة قطرها في حدود ثمانمائة ليا تحدق بالقلعة المطوقة بالماء وأراضي لياو آر المنخفضة. هنالك حشد تشاو غاي الملك السماوي قوة قوامها خمسة آلاف من الرجال. وهم يسيطرون على المنطقة بأسرها. وحين تخرج القوات الحكومية لاعتقال اللصوص فهي تتهيب مجرد النظر في اتجاهها. فلم لا نجمع رجالنا وخيولنا وننضم إلى تلك العصابة؟

قال تشين مينغ: "إذا كان هنالك مثل هذا المكان فالأمر مقبول بالنسبة إليَّ. لكن، ليس هنالك من يقودنا إليهم. فهل تراهم يقبلون بنا؟".

ضحك سونغ جيانغ، وحدثهم عن السطو الذي وقع على هدايا ذكرى المولد، وكيف عمل ليو تانغ على تسليم تشاو غاي رسالة وأرسل إليه الذهب تعبيراً عن شكره، وكيف كانت النتيجة اضطراره إلى قتل السيدة يان والهرب إلى أخوية الشجعان.

قال تشين مينغ، وقد أفعمه السرور: "إذاً، أنت أحسنت إليهم، يا أخي. ليس هنالك من وقت نضيّعه. لنجمع حاجياتنا بسرعة".

رسمت الخطط الأخيرة في ذلك النهار. جيء بدستة من العربات حُمِّلت بالنساء والأطفال

والذهب والفضة والأشياء الثمينة والأمتعة، وربط بها حوالى ثلاثمائة حصان. أما قطاع الطريق الذين رفضوا الذهاب فقد أعطي كل منهم كمية من الفضة، ونزلوا عن الجبل للبحث عن قادة آخرين. أما البقية، وفي عدادهم الجنود الذين جاء تشين مينغ بهم، فبلغ عددهم قرابة خمسمائة رجل. أمر سونغ جيانغ أن ينقسموا إلى ثلاثة أقسام ويرحلوا. كان ينبغي أن يتظاهروا بأنهم من القوات الحكومية المنطلقة إلى بحيرة ليانغشان للقيام بأعمال الاعتقالات.

حين حمِّلت الأشياء التي ينبغي أخذها على العربات تم إحراق الحصن بأكلمه، وهبطت الحملة عن الجبل في ثلاث وحدات. كانت الوحدة التي يقودها سونغ جيانغ وهوا رونغ تضمُّ قرابة خمسين جندياً من المشاة وخمسين من الفرسان. وكانت تحرس النساء والأطفال في ست أو سبع عربات، وانطلقت أولاً. وكانت الوحدة الثانية التي يقودها تشين مينغ وهوانغ شين تضم قرابة تسعين حصاناً وعربات المؤونة. أما الوحدة الثالثة التي يقودها يان شون ووانغ النمر القصير البدين وتشنغ تيان شو فتضم خمسين حصاناً ومائتين من الرجال، وسارت في النهاية. واتجهت الوحدات إلى بحيرة ليانغشان. كان الناس الذين يشاهدون هذه الحملة الكبيرة من الجنود والخيول على الطريق، بأعلامها التي كتب عليها "القوات الرسمية للقبض على اللصوص"، لا يجسرون على الوقوف في سبيلها. وبعيد أسبوع كامل ابتعدوا عن ولاية تشينغتشو مسافة طويلة.

كانت الوحدة الأولى، بقيادة سونغ جيانغ وهوا رونغ، تبعد عن الثانية حوالى عشرين ليا. ووصلت إلى جبل يدعى جبل التوأمين. وهو جبل له ذروتان متشابهتان شكلاً، ودربٌ عريضة تمر بينهما. فسُمعت على الذروتين الممتدتين إلى الأمام أصداء طبول تقرع وأبواق ينفخ فيها.

قال هوا رونغ: "اللصوص!".

ثبت رمحه في سرجه، وأخذ قوسه وسهامه، وتفحصها، ثم أعاد القوس إلى جعبته المسماة "السمكة الطائرة". وبعدما صاح بفرسانه أن يستحثوا الوحدتين الأخريين على الإسراع. جمع عرباته كلها والناس والخيول. وانطلق هوا رونغ وسونغ جيانغ عندها برفقة عشرين فارساً لاستكشاف الطريق.

قبل أن يجتازوا نصف لي رأوا جماعة من حوالى مائة من الفرسان أو أكثر، في ثياب حمراء ودروع حمر، متجمهرين حول محارب شاب يرتدي ثياباً حمراء بدوره. كان سلاحه مستوياً، وقد لجم حصانه عند سفح منحدر، وهو يصيح: "أنتم وأنا سنتصارع اليوم إلى أن ينتصر أحدنا وينهزم الآخرون!".

حول عطفة في الجبل المقابل برز قرابة مائة من الفرسان أيضاً. كانوا جميعاً يرتدون ثياباً بيضاء، ويحدقون بمحارب آخر يرتدي ثياباً بيضاء. كان يحمل رمحاً على شكل هلال. وكانت هذه الجماعة الأخيرة تحمل أعلاماً بيضاء، أما الجماعة الأخرى فأعلامها حمراء.

لوحت الرايات، وهزت الطبول العاصفة وجه الأرض. لم يكن ثمة مجال للتفاوض بين الشابين. انقضا على بعضهما والرماح في أيديهما وتصاولا أكثر من ثلاثين جولة على الطريق العريضة من دون أن تكتب لأحدهما الغلبة على الآخر. راقب هوا رونغ وسونغ جيانغ المعركة مشدوهين عن

ظهر فرسيهما، وراح هوا رونغ يحث حصانه على الاقتراب خطوة خطوة. كان يتدلى من أحد الرماح ذيل نمر أرقش. ومن الآخر تتدلى راية مثلثة مطبوعة بنقود ذهبية. وفي احتدام المعركة تشابكت الشرابات الصوفية التي تزخرف السلاحين، فما انفصلا عن بعضهما.

أخرج هوا رونغ على الفور قوسه من "السمكة الطائرة" بيده اليسرى، واختطف سهماً من جعبته بيده اليمنى، وركَّب السهم على القوس، شدّه حتى نهاية طاقته، وأطلق السهم على ذيل النمر والشرابات الصوفية. فجز السهم الصوف وتحرر الرمحان. فانطلقت هتافات قوية من حناجر الفرسان المائتين.

أوقف المتحاربان صراعهما واقتربا من سونغ جيانغ وهوا رونغ. وانحنيا عن سرجيهما.

- أيمكن أن نسأل عن اسم الضابط الذي أطلق هذا السهم العجيب؟

- هذا الأخ بالدم يدعى سونغ جيانغ، كاتب في محكمة يونتشيغ في شاندونغ، ويعرف باسم المطر في أوانه. وأنا هوا رونغ، قائد قلعة الرياح الصافية.

رمى الشابان رمحيهما على الأرض، وترجلا، وسجدا مثل جبلين ذهبيين يهويان أو عمودين ضخمين من اليشم.

- كنا نسمع بشهرتيكما منذ زمن طويل!

ترجل سونغ جيانغ وهوا رونغ على الفور عن حصانيهما، وأنهضا الشابين.

- نرجو أن تخبرانا باسميكما، أيها المحاربان الشابان.

قال الشاب المرتدي ثياباً حمراء: "أنا لو فانغ، وأسرتي من أهالي تانتشو. ولأنني اتبعت مثال الدوق لو بو من أبناء العصور القديمة، وتعلمت مثله كيف أستخدم الرمح الهلالي، دعاني الناس الدوق الصغير. وكنت أتاجر بالأعشاب الطبية في شاندونغ، ولكنني خسرت أموالي كلها وعجزت عن العودة إلى منزلي. وهكذا غدوت لصاً على جبل التوأمين. وقد جاء هذا المحارب في الآونة الأخيرة وحاول الحصول على مكاني، فاقترحت أن يسيطر على جبل وأسيطر على الآخر، ولكنه رفض. وفي كل يوم أنزل عن الجبل وأصارعه. ولم أتصور أنني في هذا النهار سيسعدني القدر بلقائكما".

سأل سونغ جيانغ عندها الشاب في الثياب البيضاء، فأجاب: "أنا أدعى غوا شنغ من جيالينغ في سيتشوان. كنت أتاجر بالزئبق، ولكن العاصفة قلبت مركبي فيما كنت أجتاز النهر الأصفر، فما استطعت العودة إلى منزلي. وتعلمت المبارزة بالرمح الهلالي على يد الرائد تشانغ في جيالينغ، وصرت ماهراً في استخدامه. والجميع يدعونني رينجوي الثاني. وسمعت أن في أخوية الشجعان رجلاً آخر يجيد استعمال الرمح يسيطر على جبل التوأمين ويقوم بأعمال السرقة، فجئت إلى هنا أصارعه. وعلى الرغم من أننا تصارعنا أكثر من عشرة أيام متوالية، فإن أحدنا لم يستطع التغلب على الآخر. لكن السماء منّت علينا بلقائكما، يا سيديَّ، في هذا النهار!".

روى لهما سونغ جيانغ جميع الأحداث التي وقعت، وأضاف: "إذا كان القدر قد كتب علينا اللقاء، فلنفرضنَّ أنّنا عقدنا بينكما مواثيق الصلح، فماذا تقولان؟".

اغتبط المحاربان وأبديا موافقتهما. في هذه الأثناء، وصلت الوحدتان الأخريان، فتقدم كل واحد من الشجعان وعرَّف بنفسه. ودعاهم لو فانغ إلى حصنه على الجبل حيث ذبحت الأبقار والخيول، وأقيمت مأدبة. ودعاهم غوا شنغ على الخمرة والطعام في اليوم التالي. اقترح سونغ جيانغ أن يضموا قواتهم ويذهبوا جميعاً إلى جبل ليانغشان للانضمام إلى تشاو غاي.

قبل الشابان الاقتراح بمنتهى السرور. فجمعا رجالهما وخيولهما وممتلكاتهما الثمينة وتأهبا للانطلاق قدماً.

حذَّرهما سونغ جيانغ قائلاً: "لا تستعجلا هكذا. فلا نستطيع القيام بذلك على هذا الغرار. إذا تقدمنا من بحيرة ليانغشان بخمسمائة من الرجال والخيول فسيرفع كشافوهم تقريراً بذلك ويحسبون أننا نسعى إلى القبض عليهم. ولن يكونَ هذا الأمر مزاحاً! دَعاني ويان شون نتحدث إليهم أولاً، ومن ثم تحضرون أنتم في ما بعد. تابعوا السير في ثلاث وحدات، كما فعلنا سابقاً".

قال هوا رونغ وتشين مينغ: "أخونا هذا بعيد النظر. سنتقدم وفق الخطة التي رسمت. انطلق قبلنا بمسافة نصف يوم. ومن ثم نلحق بك نحن برجالنا وخيولنا".

اتجه سونغ جيانغ على صهوة جواده ناحية بحيرة ليانغشان برفقة يان شون على صهوة جواده أيضاً، ودستة من الرجال على أقدامهم. وعند ظهيرة اليوم التالي كانوا يسيرون على الطريق العامة. فرأوا إلى الأمام منهم حانة كبيرة.

قال سونغ جيانغ مخاطباً رجاله: "لقد أضناكم التعب. سنتوقف هنا ونحتسي قليلاً من الخمرة".

ترجل ويان شون، وأمرا الرجال بحل أعنَّة الجياد، ودخل الجميع الحانة. كان فيها ثلاث مناضد كبيرة وعدة مناضد صغيرة. وكان ثمة رجل يجلس وحيداً إلى إحدى المناضد الكبيرة عصب رأسه بعقدة على شكل فنطيسة الخنزير، ولها حلقات ثمينة من خيوط البرونز الملتوية المصنوعة في تاييوان تتدلى وراءها. وكان يرتدي عباءة حريرية سوداء، وثمة نطاق أبيض يلف خصره. وكانت ساقاه ملفوفتين في جوربين طويلين. وكان في قدميه صندلان من القش. وثمة عصا قصيرة وراءه، وصرة موضوعة على طرف المنضدة البعيد. كان طويل القامة، نحيل العود، حليق الوجه، وله في وجنتيه عظام بارزة وعيناه بارقتان. واستدعى سونغ جيانغ الخادم.

- نحن جماعة كبيرة. سنجلس، أنا وصديقي، في الداخل. فاطلب إلى ذلك السيد أن يستبدل منضدته بواحدة أصغر، وأن يترك الكبيرة لرجالي.

- سأتدبر الأمر.

جلس سونغ جيانغ ويان شون في الداخل وأمرا الساقي قائلين: "أعط جماعتنا ثلاث طاسات كبيرة من الخمرة وقليلاً من اللحم إن كان لديك شيء منه. ثم قم على خدمتنا هنا".

ملأ الرجال المطهى، واقترب الساقي من الفتى الجالس وحيداً. كان يلوح من منظره أنه حارس في الشرطة.

- أيمكن أن أضايقك، أيها العريف؟ هلاّ أعطيتني هذه المنضدة الكبيرة لهذه الجماعة التابعة

لهذين السيدين في الداخل؟

شمخ الرجل بأنفه من هذا الأسلوب الوضيع في مخاطبته. وقال في ثورة: "حضرت إلى هنا أولاً. ولن أتحرك في سبيل أي جماعة ولأي سيدين!".

قال يان شون مخاطباً سونغ جيانغ: "إنه يتصرف بفظاظة".

- ليفعل ما يشاء. لا ينبغي أن تنزل إلى مستواه حين تعامل أمثاله.

ودفع سونغ جيانغ صديقه يان شون فأقعده على كرسيه.

استدار الرجل ونظر إلى سونغ جيانغ، وضحك يان شون في برودة. وتابع الساقي حديثه: "أرجو أن تساعدني. ماذا يضيرك إن بدلت منضدتك؟".

ضرب الرجل على المنضدة غاضباً: "أيها النذل، مع من تحسب نفسك تتحدث؟ لا تحاول إرغامي لأنني وحيد. لن أبدل منضدتي ولو جاء الإمبراطور نفسه! وإذا استرسلت في ثرثرتك فسأذيقك طعم قبضتي!".

- لم أقل شيئاً خاطئاً.

- لن يجرؤ على ذلك حقير مثلك!

لم يحتمل يان شون ذلك فصاح: "أنت، أيها الفتى، لا تجنح إلى الفظاظة! إن لم تشأ تبديل المنضدة فانس الأمر كله! كفَّ وحسب عن وعوعتك!".

وثب الرجل على قدميه واختطف عصاه الصغيرة: "ليس من شأنك ما أخاطب به! هنالك رجلان ليس غير تحت السماء أكنُّ لهما الاحترام! ومن تبقوا عبارة عن حشرات تحت قدمي!".

اختطف يان شون في غضبه مقعداً وانقضَّ هاجماً. تضايق سونغ جيانغ مما قاله الرجل، فوقف بينهما.

- لا يتحركنَّ أحد منكما! دعني أسألك: من هما الرجلان اللذان تكنّ لهما الاحترام تحت السماء؟

- إن أخبرتك فستصعق.

- ما اسماهما؟

- أحدهما من مقاطعة هنغهاي في تسانغتشو، ينحدِر من الأسرة الإمبراطورية تشاي.

- اللورد تشاي، الإعصار الصغير.

أومأ سونغ جيانغ برأسه في صمت: "والثاني؟".

- رجل عجائبي آخر! كاتب في محكمة يونتشنغ في شاندونغ، يدعى سونغ جيانغ المطر في أوانه، المدافع عن الشهامة!

نظر سونغ جيانغ إلى يان شون وابتسم. كان يان شون قد وضع الكرسي على الأرض منذ فترة.

- ذانك الاثنان هما الوحيدان اللذان أحترمهما. حتى إن إمبراطور أسرة سونغ العظيم نفسه لا يمكن أن يخيفني!

قال سونغ جيانغ: "لا تعجل. فأنا أعرف هذين الاثنين اللذين ذكرتهما. ودعني أسألك: أين

التقيتهما؟".

- إذا كنت تعرفهما فلن ألجأ إلى الكذب. قبل ثلاث سنوات أمضيت أربعة أشهر في مزرعة اللورد تشاي. ولكنني لم ألتق سونغ جيانغ.

- هل تحب ذلك؟

- إنني أفتش عنه الآن.

- من طلب إليك هذا؟

- شقيقه سونغ تشينغ المروحة الحديدية أعطاني رسالة له من البيت.

أمسك سونغ جيانغ بذراع الرجل مبتسماً: "إن شاءت الأقدار التقى الرجلان ولو فصلت بينهما مسافة ألف لي. وإن لم تشأ، فلن يعرف أحدهما الآخر ولو التقيا وجهاً لوجه. أنا سونغ جيانغ، الرجل الذي تفتش عنه!".

حملق الرجل فيه، وخرَّ على ركبتيه وسجد: "قدرت السموات أن التقيك، يا أخي! كنت قد ذهبت للتفتيش عنك في دارة المحترم كونغ، ولكن دون جدوى!".

شدَّه سونغ جيانغ إلى الداخل، وسأل: "هل ثمة ما يسوء في البيت؟".

- أصغ، يا أخي. اسمي شي يونغ، وأنا من ولاية دامينغ، اعتدت أن أدير بيتاً للقمار هناك. وأسماني السكان المحليون الجنرال شي. وقد تشاجرت مع فتى في أثناء المقامرة وقتلته بضربة واحدة من قبضتي، وهربت ولجأت إلى اللورد تشاي. وكان عدد من أخوية الشجعان هنالك يتحدثون عنك، يا أخي، وهكذا ذهبت إلى يونتشنغ للانضمام إليك، ولكنك كنت قد رحلت. والتقيت شقيقك الأصغر، وحين سمع أنني جئت من مزرعة اللورد تشاي قال إنك كنت لدى المحترم كونغ على جبل النمر الأبيض. قلت له إني أود الذهاب إليك هناك، فكتب رسالة وسألني أن أسلمها إليك، وقال: حين تعثر على شقيقي قل له أن يحضر إلى البيت في الحال".

استفسر سونغ جيانغ وقد داهمه القلق: "كم يوماً أمضيت في مزرعتنا؟ هل رأيت والدي؟".

- قضيت ليلة واحدة، ثم رحلت. ولم أر السيد الشيخ.

أخبره سونغ جيانغ عن خطة الذهاب إلى بحيرة ليانغشان. فقال شي يونغ: "بعد أن تركت مزرعة اللورد تشاي سمعت عنك الكثير من الرجال في أخوية الشجعان؛ عن مقدار ما أنت عليه من كرم واستقامة، وكيف تساعد أولئك الذين يعانون المصاعب والأخطار. إذا انضممت إلى العصبة على جبل ليانغشان فيجب أن تأخذني معك".

- هذا لا خلاف فيه. فما يضيرنا رجل آخر. تعال قابل يان شون.

طلب سونغ جيانغ من الساقي أن يصبَّ الخمرة. وبعد أن شرب الثلاثة أخرج شي يونغ الرسالة من صرته وناولها إلى سونغ جيانغ. نظر الكاتب إليها. كان الغلاف مختوماً من الطرف الآخر، ولم تدون عليها الجملة المألوفة "الجميع في خير". تفاقم قلق سونغ جيانغ. فتح المغلف وقرأ الرسالة. كانت محتوياتها كما يلي:

... في بكور الشهر القمري الأول توفي والدنا من المرض. وهو لا يبرح مسجى في نعشه في

البيت. ونحن ننتظر عودتك كيما ندفنه. أرجو أن تعود مسرعاً. لا تتأخر!

بكل حزن، شقيقك الأصغر تشينغ

صرخ سونغ جيانغ في كرب وضرب صدره: "أنا ولد عاق! لكم أسأت التصرف! هو ميت وأنا غير موجود هناك للقيام بواجباتي نحوه كابن! لست أفضل من حيوان!". ضرب رأسه بالجدار وناح. لفه يان شون وشي يونغ بذراعيهما، فجعل ينوح حتى أغمي عليه. ومضى وقت طويل قبل أن يستردَّ وعيه.

حثَّه الآخران قائلين: "لا تقسُ على نفسك كثيراً، أيها الأخ".

قال أخيراً: "عندي شعور كاف تجاه رجالي. ولكن والدي كان الرجل الوحيد الذي أحببت. وقد رحل الآن. ينبغي أن أعود إلى البيت هذه الليلة. قل لإخوتي أن يصعدوا الجبل وحدهم".

قال يان شون: "يا أخي، لقد توفي الرجل الشيخ. حتى لو ذهبت إلى البيت فلن تجده على قيد الحياة. جميع الأقرباء يموتون. كن بعيد النظر. قدنا إلى الحصن، وبعدها أرافقك للقيام بمراسم الدفن. لن يتأخر الوقت. يقول المثل القديم: من دون رأس لا تسافر الأفعى. لن يقبلوا بنا إن لم تكن معنا".

– هذا يؤخرني عدة أيام. لا أستطيع ذلك. سأكتب رسالة مفصلة أروي فيها القصة كلها. خذ شي يونغ معك. وحين يلحق بكما الآخرون اصعدوا جميعاً إلى الجبل. اختلف الأمر بعد أن سمعت نبأ وفاة والدي. بما أن السماء أمرت أن أعرف ذلك فسيبدو لي كل يوم بمثابة عام كامل. أنا أحترق حنيناً إلى العودة! لست أريد حصاني، ولا أريد أن يرافقني أحد. سأسافر وحيداً خلال الليل وأصل إلى البيت غداً.

لم يتمكن يان شون وشي يونغ من إقناع سونغ جيانغ بالعدول عن رأيه.

طلب إلى الساقي أن يحضر له ريشة وورقاً، وكتب وهو يذرف الدموع رسالة ينصح فيها قادة الحصن بالرضوخ لتمنياته. وسلَّم الرسالة من دون أن يغلفها إلى يان شون. واستعار صندلي شي يونغ المصنوعين من القش، وخبأ بعض الفضة في ثيابه، وعلق سيفاً في نطاقه، وأخذ هراوة شي يونغ القصيرة. ولم ينتظر سونغ جيانغ أن يمس الطعام أو الشراب شفتيه، بل ذهب مباشرة إلى الباب.

استحثه يان شون: "يا أخي، انتظر قليلاً ريثما ترى تِشين مينغ وهوا رونغ. سيكون هنالك قليل من الوقت".

– لن أنتظر. خذ رسالتي وسيسير كل شيء على ما يرام. أيها الأخ شي يونغ، أرجو أن تشرح لإخوتي قصة وفاة والدي، وأن تطلب إليهم أن يصفحوا عني لأني رحلت عنهم بمثل هذه السرعة.

أسف سونغ جيانغ لأنه لن يستطيع الوصول إلى البيت بقفزة واحدة. وانطلق يقطع الطريق وحيداً.

شرب يان شون وشي يونغ قليلاً من الخمرة، والتهما بعض المشهيات وسددا الحساب. أخذ شي يونغ حصان سونغ جيانغ، وسارا مع بقية الرجال حوالى أربعة أو خمسة ليات أخرى إلى أن وصلوا إلى خان كبير. وهنالك نزلوا لقضاء الليل.

في اليوم التالي، عند انتصاف الصباح، وصلت بقية الحملة. وأخبر يان شون وشي يونغ الآخرين بقصة رحيل سونغ جيانغ إلى بيته لدفن والده. فوبخ القادة الآخرون يان شون قائلين: "فيم لم تحتجزه هنا فترة من الوقت؟".

أوضح شي يونغ: "أراد أن يقتل نفسه حينما سمع بوفاة أبيه. لم يستطع أحد منعه من الذهاب. كان في عجلة قاتلة. وقد كتب رسالة توصية مفصلة. ويريدنا أن نتابع طريقنا. وهو يقول إنهم حين يرون الرسالة فلن تكون هنالك معضلة".

قرأ هوا رونغ وتشين مينغ الرسالة، وقالا: "لقد حدث هذا في أثناء مسيرنا، وسواء أتابعنا السير أم تراجعنا فستواجهنا المصاعب. لا نستطيع العودة، ولا نستطيع التفرق. الشيء الوحيد الذي نستطيعه هو الانطلاق قدماً. لنختم الرسالةِ وننقلها إلى القادة على الجبل. إن لم يقبلوا بنا، عندها يحين الأوان للتناقش في خطوتنا المقبلة".

استحث الشجعان التسعة، السائرون معاً، رجالهم الخمسمائة وخيولهم على الإسراع في اتجاه بحيرة ليانغشان. وفيما هم سائرون على طريق عريضة في منطقة ملأى بالقصب قرعت طبول ونفخت أبواق عبر المياه. وعلى حين فجأة عمرت المنحدرات والمستنقعات برايات وأعلام ملونة. وانطلق قاربان سريعان إلى وسط البحيرة. كان في الأول قرابة أربعين أو خمسين من قطاع الطرق. وقد جلس في مقدمته لين تشونغ رأس النمر، الزعيم. وفي الثاني ركب عدد مماثل من قطاع الطرق، كما جلس في مقدمته قائد آخر هو ليو تانغ الشيطان أحمر الشعر.

أوقف لين تشونغ السائرين: "من أنتم، أيها الحمقى؟ أي جيش رسمي تشكلون؟ أتحسبون أنكم تستطيعون القبض علينا؟ سنقتل كل واحد منكم! لن يفلت رجل على قيد الحياة! ينبغي أن تعرفوا سمعة بحيرة ليانغشان!".

ترجل هوا رونغ وتشين مينغ عن جواديهما ووقفا على الشاطئ. صاحا مناديين: "لسنا من القوات الحكومية. ونحمل رسالة من أخينا سونغ جيانغ المطر في أوانه من شاندونغ. وقد جئنا ننضم إليكم!".

- إذا كانت الرسالة من الأخ سونغ جيانغ، فنرجو أن تذهبا إلى حانة تشو غوي. أطلعاه على الرسالة وعندها يمكن أن نلتقي.

لوَّح علم أسود على قارب لين تشونغ، فبرز قارب صغير فوقه ثلاثة من الصيادين من وسط القصب. بقي أحدهما في القارب وخرج الاثنان إلى الشاطئ. قالا: "تعاليا معنا، أيها الضابطان!".

لوَّح علم أبيض على أحد القاربين الكبيرين، وأبحرت القوارب على صدى الأبواق. حملق القادمون الجدد في انشداه: "لا عجب أن القوات الحكومية لا تستطيع التدخل هنا. إن حصننا الجبلي الصغير لا يقارن بهذا المكان!".

تبعا الصيادين، وقاما بانعطافة واسعة، ووصلا إلى حانة تشو غوي تمساح الأرض الجافة. حياهما تشو غوي، وأمر بنحر ثورين صغيرين، وأطعم ضيوفه جميعاً وسقاهم شراباً. قرأ الرسالة، وقادهم من بعد إلى جوسق يطلُّ على المياه، وأطلق سهماً صافراً فوق القصب على الضفة المقابلة.

فانطلق قارب صغير على الفور. أعطى تشو غوي الرسالة إلى المراكبي، وأمره أن يسلمها إلى القلعة. وفي الخان، قدم الطعام للزعماء التسعة من لحم الخرفان. وهيئت أمكنة لاستراحة الرجال والخيول، فلجأوا إليها.

عند انتصاف صباح اليوم التالي جاء المستشار العسكري لقطاع الطرق وو يونغ إلى الخان. وجرى التعارف بين الجميع وتم تبادل التحيات. واستجوب وو الزعماء في عناية. وبعدها جاء قرابة ثلاثين قارباً كبيراً. فركب فيها الجميع من النساء والأطفال والعربات والرجال والخيول والأمتعة.

أبحروا إلى شاطئ الرمال الذهبية ونزلوا إلى الضفة. وخرجت من بين شجر الصنوبر جماعة من الرجال الشجعان، يقودهم تشاو غوي وترافقهم الطبول والآلات الموسيقية، واقتربت لتحيتهم. وزُوِّد الزعماء التسعة بالخيول والمحفات، واقتيدوا إلى القلعة؛ إلى ردهة الأخوية الصالحة. وهنالك جلسوا قبالة مضيفيهم في صفين متقابلين.

على مقاعد في الصف الأيسر جلس تشاو غاي، ووو يونغ، وغونغسون شنغ، ولين تشونغ، وليو تانغ، ويوان الثاني، ويوان الخامس، ويوان السابع، ودو كيان، وسونغ وان، وتشو غوي، وباي شنغ جرذ ضوء النهار (كان قد فرَّ قبل عدة شهور من السجن في جيتشو، وهرب إلى جبل ليانغشان، وانضمَّ إلى العصبة. وقد أرسل وو يونغ شخصاً لرشوة السجانين).

وعلى مقاعد في الصف الأيمن جلس هوا رونغ، وتشين مينغ، وهوانغ شين، ويان شون، وتشنغ تيان شو، ولو فانغ، وغو شنغ، وشي يونغ.

أشعل بخور معطر في مبخرة بين الصفين، وأقسم الصفان على الإخلاص. واحتفلوا في ذلك النهار احتفالا مرحا. ونحرت الثيران المخصية والخيول، وأقيمت مأدبة. وحيا القادمون الجدد قادة الحصن خارج الردهة، ثم شاركوا الضباط الأقل رتبة في الوليمة. وأعدت أجنحة خاصة في مؤخر الجبل للزوجات والأطفال.

امتدح تشين مينغ وهوا رونغ، على مائدة الطعام، فضائل سونغ جيانغ المتعددة، ورويا كيف انتقم على جبل الرياح الصافية. وأصغى القادة إلى ذلك مسرورين. وتحدثوا كيف تصارع لو فانغ وغو شنغ بالرماح، وكيف قطع هوا رونغ، بسهم وحيد، الشرابات الصوفية وحرر سلاحيهما.

لم يصدق تشاو غاي ما سمعته أذناه، فسأل: "أيستطيع حقاً أن يصوب سهمه بمثل هذه الدقة؟ أحبّ أن أشاهد ذلك في أحد هذه الأيام".

احتسى الجميع الخمور حتى قاربوا على السكر، وقدمت عدة أصناف من الطعام عدة مرات. واقترح المضيفون: "دعونا نتمشى قليلاً أمام الجبل ثم نعود لنأكل مزيداً".

راح كل من الحضور يرجو الآخرين أن يتقدموه، ثم هبط المضيفون والضيوف على السلالم وتجولوا لمشاهدة المناظر. وحين وصلوا إلى المدخل الثالث الذي يخفر القلعة مرت فوق رؤوسهم صفوف من الإوز البري.

قال هوا رونغ في نفسه: "لقد ارتاب تشاو غاي في موضوع قطع الشرابتين الصوفيتين. فإن لم أستطع إظهار مهارتي فلن يحترمني مستقبلا".

تطلع حواليه. كان أحد المساعدين الذين يرافقونهم يحمل قوسا وسهاما. سأل هوا رونغ ذلك الرجل أن يعيره قوسه. كانت سلاحا ممتازا، منقوشة برسوم ذهبية تصور طير العقعق، وراقت في عينيه. وما أسرع أن اختار سهما جيدا.

خاطب تشاو غاي قائلاً: "يبدو أن بعض الحاضرين هنا لم يصدقوا قصة مهارتي في قطع الشرابتين. وهذا سرب من الإوز في طريقه إلينا. لا أريد التفاخر، ولكني سأطلق هذا السهم فيخترق رأس إوزة الثالثة في الصف. لا تسخروا مني إن أخطأت".

ركب السهم على القوس، وشدها إلى طاقتها، وصوّب، وأطلق السهم صوب السماء، فسقطت الإوزة الثالثة من الصف وتدحرجت على المنحدر. وأرسل عددا من الجنود في طلبها. رجعوا بها، فإذا السهم غارز في الرأس.

شده تشاو غاي والآخرون، فأطلقوا على هوا رونغ لقب الجنرال عجائبي السلاح.

قال وو يونغ: "إن أحداً من رماة السهام القدامى لا يصارعه في براعته. ومن حسن حظنا أن يكون معنا!".

منذ ذلك اليوم، غدا هوا رونغ محترماً من جميع المقيمين في بحيرة ليانغشان. وعاد الجميع إلى الردهة وأكلوا وشربوا حتى ساعة متأخرة، وأوى كل منهم بعدها إلى فراشه.

في اليوم التالي أقيمت مأدبة أخرى، ووزعت الأسبقية بين القادة. كان تشين مينغ في الأصل أسبق من هوا رونغ. ولأنه تزوج من شقيقة هوا رونغ الصغرى غدت درجته أقل منه، في المرتبة السادسة، في حين احتل هوا رونغ المقعد الخامس بعد لين تشونغ مباشرة. وجاء ليو تانغ السابع، وهوانغ شين الثامن، يتبعهما الأشقاء الثلاثة يوان، ثم يان شون، والنمر القصير البدين، ولو فانغ، وغو شنغ، وتشنغ تيان شو، وشي يونغ، ودو كيان، وسونغ وان، وتشو غوي، وباي شنغ، وكانوا واحداً وعشرين قائداً.

حين انتهت الاحتفالات والولائم استصنعت قوارب وعربات كبيرة في الحصن. وطرقت رؤوس رماح وأسلحة أخرى، ودروع وخوذات، ووضعت أعلام وثياب وأقواس وسهام بصورة مرتبة. كان رجال بحيرة ليانغشان يهيئون للثورة على القوات الحكومية. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

سافر سونغ جيانغ طوال الليل بعد مغادرته الحانة، ووصل إلى قريته في ساعة متأخرة من عصر اليوم التالي. توقف يستريح في مخزن للخمور قرب دارة قائد للسجن يدعى تشانغ على صلة حميمة مع أسرة سونغ جيانغ. ورأى تشانغ طلعته الحزينة وعينيه المتغرغرتين بالعبرات.

– غبت قرابة نصف عام كامل، أما اليوم فعدت إلى البيت من حسن الحظ. فيم تبدو يائساً؟ ينبغي أن تكون سعيداً. لقد أعلن عفو عام. وجريمتك لا بد أن يكون العفو قد شملها.

– قد يكون هذا صحيحاً، يا عماه، ولكنه ثانوي الأهمية. كيف لا أتحسر إذا كان والدي الشيخ قد توفي؟

ضحك تشانغ: "أنت تمزح. كان هنا يحتسي الخمرة قبل فترة قصيرة من الزمن وذهب قبل قليل. فيم تتحدث على هذا الغرار؟".

فأطلعه سونغ جيانغ على الرسالة: "لا تسخر مني، يا عماه. كتب شقيقي سونغ تشينغ ذلك هنا صراحة. توفي والدنا في مطلع الشهر القمري الأول. وهو يستحثني للعودة إلى البيت لحضور مراسم الدفن".

- هراء. لم يحصل شيء من هذا القبيل. كان يحتسي الخمرة هنا ظهراً مع المحترم وانغ من القرية الشرقية. ما كنت لأكذب!

لم يعرف سونغ جيانغ ماذا يقول. كانت أفكاره مغمورة بالشكوك. أغرق في التفكير زمناً طويلاً. وحين شرع الظلام ينتشر ودّع قائد السجن وأسرع إلى منزله. دلف من بوابة المزرعة.

كان الهدوء يخيم على كل شيء. وحياه الخدم في احترام.

سأل: "هل والدي وشقيقي هنا؟".

فأجابوا: "كان المحترم يضني عينيه في انتظار عودتك. ما أسعد حظنا برؤيتك! لقد عاد قبل زمن قصير. كان يحتسي الخمرة مع المحترم وانغ في حانة تشانغ في القرية وهو يغفو قليلاً في الداخل".

انشده سونغ جيانغ. رمى الهراوة القصيرة جانباً، وركض إلى المنزل المصنوع من القش. وحين رآه شقيقه الأصغر تشينغ خرّ على قدميه وسجد. ولم يكن يرتدي ثياب الحداد. فعصف الغضب في قلب سونغ جيانغ: "كيف تجرؤ على ذلك، أيها الوحش! والدنا حي وفي صحة جيدة. فكيف تكتب مثل تلك الرسالة الكاذبة؟ كدت أقتل نفسي. وبكيت حتى فقدت وعيي. يا لك من ابن عاق!".

وقبل أن يتمكن سونغ تشينغ من الجواب رفع المحترم سونغ ستارة ودخل، وقال: "هدئ نفسك، يا بنيّ إنها ليست غلطة أخيك. كنت أفكر فيك كل يوم، وطلبت إليه أن يكتب لك قائلاً إنني توفيت، عارفاً أن هذا القول سيجعلك تعود إلى البيت بسرعة. سمعت أن هنالك عدداً كبيراً من اللصوص على جبل النمر الأبيض. وخشيت أن تورط نفسك بالانضمام إليهم فتصير شخصاً عاقاً وغير مخلص. وهكذا أرسلت الرسالة أدعوك للعودة إلى البيت. وحين جاء شي يونغ من مزرعة اللورد تشاي كلفته بإيصالها. كانت الفكرة فكرتي تماماً. لا علاقة لشقيقك بها. فلا تلمه. لقد عدت لتوي من خمارة تشانغ، واستلقيت في الداخل أستريح حين سمعت بعودتك".

سجد سونغ جيانغ أمام أبيه وقد توزعه الغضب والغبطة. وسأل: "هل سمعت مؤخراً شيئاً عن مصير قضيتي؟ صدر عفو عام. والتهم الموجهة إليَّ لا بدَّ أن تخفف. وقال لي قائد السجن تشانغ الشيء ذاته".

- قبل أن يعود شقيقك إلى المنزل قام المفوضان تشو تونغ ولي هنغ بأعمال مجيدة في سبيلك. وعلقت لوحة كتب عليها "مطلوب"، لكن أحداً لم يأت إليَّ ويضايقني. فلماذا استدعيتك إلى البيت؟ لقد نصب الإمبراطور ولي عهده، وفي غمرة الاحتفالات أصدر عفواً عاماً، وخففت جميع العقوبات المفروضة على الجرائم الكبرى درجة واحدة. والعفو العام موضع التنفيذ الآن. فإذا مثلت أمام القاضي الآن فإن النفي هو أسوأ الأحكام بالنسبة إليك، ولا يمكن أن تطالك عقوبة الموت. فليفعلوا ما طاب لهم. سنتدبر أمرنا.

- هل جاء المفوضان تشو تونغ ولي هنغ إلى المزرعة هنا؟

قال سونغ تشينغ: "سمعت ذات يوم أنهما أرسلا في مهمة. فذهب تشو تونغ إلى العاصمة الشرقية، ولا أعرف إلى أين أرسل لي هنغ. ولكن شرطيين جديدين برتبة ضابط أضيفا إلى المقاطعة، وكل منهما يدعى تشاو.

قال المحترم الشيخ: "لقد قطعت رحلة طويلة شاقة، يا ولدي. فلِمَ لا تذهب إلى غرفتك وتأخذ قسطاً من الراحة!".

التأم شمل الأسرة السعيدة ولن نتابع الحديث في هذا الموضوع.

عند الغسق، أطلَّ قمر وردي في صفحة السماء ناحية الشرق. وبعد فترة قصيرة استسلم الجميع للنوم في المزرعة. وعلى حين فجأة ثارت ضجة صاخبة أمام البوابتين الأمامية والخلفية. وحاصرت المشاعل المزرعة من كل جانب، وراحت الأصوات تصيح: "لا تتركوا سونغ جيانغ يهرب!".

انتحب المحترم الشيخ وقد سمع هذه الأصوات في مرارة.

ونتيجة لذلك، احتشد أبطال شجعان على ضفة النهر، وقدمت في منطقة السوق ضروب من الشجاعة والإخلاص لا نهاية لها.

كيف استطاع سونغ جيانغ الفرار من المزرعة؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السادس والثلاثون

وو يونغ يكتب إلى داي زونغ على جبل ليانغشان؛
وسونغ جيانغ يلتقي لي جون على سلسلة جبال جييانغ

أسند المحترم سونغ سلماً إلى الجدار، وتسلقه إلى قمته، وأشخص بصره. كان هناك أكثر من مائة رجل في الخارج يحملون المشاعل. وعلى رأسهم مفوضان معينان حديثاً من مقاطعة يونتشنغ: الأخوان تشاو ننغ وتشاو دي.

كان الأخوان يصيحان: "إن كنت تعرف صالحك، أيها المحترم سونغ، فابعث ولدك سونغ جيانغ إلينا واتركنا نتعامل معه. إن لم تنصح له بتسليم نفسه إلى السلطات فسنقبض على كليكما!".

قال الرجل الشيخ: "سونغ جيانغ ليس في البيت".

أجاب تشاو ننغ: "لا تكذب. فقد شوهد وهو يحتسي الشراب في القرية عند قائد السجن تشانغ. ولاحقناه إلى البيت من هناك. ولن تستطيع أن تنكر ذلك".

ألحَّ سونغ جيانغ من حيث وقف على السلَّم: "لا تجادله، يا أبي. سأخرج وأسلم نفسي. أنا أعرف الجميع في مكتب المقاطعة. وأكثر من هذا، لقد أعلن عن عفو عام. وأنا واثق من أني سأحصل على حكم مخفف. ولا فائدة من التوسل إلى هذين الصعلوكين. الأخوان تشاو رجلان حقيران. وعلى الرغم من أنهما حصلا على مركز مفوضين في الشرطة مؤخراً، فهما لا يفقهان شيئاً في أمور البسالة. وهما ليسا صديقيَّ. والتوسل إليهما مضيع للوقت".

بكى الرجل الشيخ: "لقد آذيتك، يا ولدي".

قال سونغ جيانغ: "هدئ من روعك، يا أبي. المثول أمام المحكمة أمر غير سيئ. وإلا كان يمكن أن يأخذوني إلى الجبال للانضمام إلى المجرمين ومسببي الحرائق. إذا اعتقلوني فسأخجل من رؤيتك مرة ثانية. إذا سلمت نفسي فقد يرسلونني إلى ولاية أخرى، والنفي مدته محددة. وعاجلاً أم آجلاً سأعود إلى البيت وأرعاك في شيخوختك".

- حسن إذاً. سأوزع شيئاً من المال بين الكبار والصغار، وأبتاع لك مكاناً حسناً في منفاك.

صعد سونغ جيانغ السلَّم، وصاح: "هدوءاً، أنتم هناك. لقد جرى الإعلان عن التخفيف عن جريمتي. ولم تبق جريمة عقوبتها الموت. فإذا دخلتما أيها المفوضان إلى مزرعتنا المتواضعة، وشربتما عدة أكواب من الخمرة معنا فسأرافقكما إلى المحكمة غداً".

أعلن تشاو ننغ: "أنت لن تدخلنا لتوقعنا في شيء من الخداع".

- أيمكن أن أورط والدي وشقيقي؟ تعاليا. ولا تقلقا.

نزل سونغ جيانغ عن السلَّم، وفتح بوابة المزرعة، ودعا المفوضين إلى ردهة الضيوف. تناولوا

في تلك الليلة الشراب، والطعام المؤلف من الدجاج والإوز. كما قدم الطعام والشراب للجنود المائة، وأعطي كل منهم مبلغاً من المال. وقدمت للمفوضين قضبان من الفضة تساوي عشرين أوقية كشكر على رقتهما.

أمضى المفوضان الليل في المزرعة، وفي صباح اليوم التالي اصطحبا سونغ جيانغ إلى المقاطعة. وحين انتشر الضوء أحضراه أمام القاضي شي وين بين الذي بدأ محاكماته لتوه. اغتبط القاضي، وأمر السجين أن يدلي باعترافه. فأخذ سونغ جيانغ فرشاة وكتب:

وقعت الجريمة لأني ابتعت في الخريف الماضي يان بوه سي محظيةً. لم تكن صالحة، فقتلتها عن غير قصد في أثناء شجار كنت فيه سكران. وهربت فراراً من العقوبة. أما اليوم، وقد ألقي القبض عليَّ، ومثلت أمام المحكمة، فأنا أشرح هذه التفاصيل وأقرُّ أني أقبل طواعيةً أي عقوبة تفرضها المحكمة عليّ.

قرأ القاضي الاعتراف، وأمر أن يطرح سونغ جيانغ في السجن.

سمع جميع سكان المقاطعة باعتقال سونغ جيانغ، وأشفقوا عليه وتعاطفوا معه وتوسلوا إلى القاضي لكي يعفو عنه، وأخبروه أنه رجل طيب على وجه العموم. وكان القاضي يجنح إلى التخفيف عنه فقبل الاعتراف رسمياً، وأمر أن يبقى سونغ جيانغ في السجن من دون أغلال تقيّده.

قدم المحترم سونغ الرّشى للكبار والصغار، وأنفق المال في سخاء. كانت السيدة يان قد ماتت قبل نصف عام، وهكذا لم يكن في القضية أقرباء محزونون. ولم يكن تشانغ وين يوان، وهو يشعر أنه فقد عشيقته على أية حال، راغباً عن عداوة سونغ جيانغ. استجمع القاضي حيثيات حكمه، وحين انتهت فترة السجن المحددة بستين يوماً، أرسل السجين إلى ولاية جيتشو للنطق بالحكم.

أعاد الوالي النظر في القضية، وأخذ علماً بالعفو العام الصادر الذي خفف شدة العقوبة. فأمر أن يجلد سونغ جيانغ عشرين جلدة، وينفى إلى السجن في جيانغتشو. وكان عدد كبير من الضباط والموظفين في الولاية يعرفون سونغ جيانغ. وفضلاً عن هذا، فهو قد وزَّع مبلغاً محترماً من المال. إذاً، تقرر أن يجلد عشرين جلدة ويوشم بوشم منفاه. وباعتبار أنه لم يكن في القضية أقرباء محزونون ليشاهدوا ذلك، وكان ثمة عدد من الناس يعاضدونه، كانت العقوبة خفيفة جداً. وفي حضور المحكمة، وضعت حول عنقه مخلعة للسفر، وختمت وثائق نقله. وانتدب خفيران لحراسته تشانغ ولي هذا الشيء أو ذاك.

بعدما تلقى الخفيران الوثائق انطلقا برفقة سجينهما. كان المحترم سونغ، والد سونغ جيانغ، وشقيقه سونغ كينغ، ينتظران خارج مبنى الولاية. فدعَوَا الخفيرين على الشراب، وأعطياهما فضة، وأحضرا لسونغ جيانغ ثياباً جديدة، وصرة يحملها على كتفيه، وصندلاً من القش اللين ليساعده على السير. وانتحى المحترم سونغ بابنه في ناحية، وخاطبه في همس: "جيانغتشو مكان جيد، فيه الكثير من السمك والأرز. وقد اشتريت لك منفى هناك. اقض مدة عقوبتك في صبر. وسأجعل شقيقك تشينغ يزورك. وكلما كان هناك شخص مؤتمن يسافر إلى حيث تقيم سأبعث لك معه نقوداً تنفقها. سوف تجتاز جبل ليانغشان في طريقك. فإذا هبط قطاع الطرق عنه وأنقذوك وألحوا عليك للانضمام

إلى عصابتهم فلا تطاوعهم، وإلا انتقدك الناس ونعتوك بالخائن والعاق. لا تنس ما أخبرتك به! لتكن رحلتك ميمونة، يا ولدي. أرجو أن تكون السماء رحومة وأن تعود إلينا سريعاً مرة أخرى فيلتئم شملك مع أبيك وأخيك".

انحنى سونغ جيانغ والدموع في عينيه، وألقى تحية الوداع على الشيخ. وسار شقيقه تشينغ برفقته مسافة من الطريق. وحين أزفت لحظة الفراق، قال سونغ جيانغ: "لا يقلق أحدكما عليَّ البتة. لا يشغل بالي غير أن والدنا يشيخ، وأني انحشرت في هذه القضية واضطررت إلى مغادرة البيت. اسهر عليه جيداً، ولا تتركه وحيداً لتحضر لرؤيتي في جيانغتشو. فلدي عدد من الأصدقاء في أخوية الشجعان. وكل منهم يمكن أن يمدني بالمال إذا احتجت إليه. إذا كانت السماء رحومة فلسوف أعود إليكما في أحد الأيام المقبلة".

انحنى سونغ تشينغ باكياً، وانصرف. رجع إلى البيت للعناية بأبيه المحترم سونغ. ونكتفي بما قلناه في هذا الموضوع.

سار سونغ جيانغ على الطريق برفقة الخفيرين. ولأنهما تلقيا فضته وعرفا أنه فتى شجاع سهرا على راحته طوال الرحلة. سار الثلاثة اليوم بطوله. وفي الليل، أقاموا في خان، وأضرموا ناراً، وطبخوا أرزاً، وابتاع سونغ جيانغ خمرة وقدمها لخفيريه.

قال: "سأكون صريحاً معكما. من الآن وصاعداً سنجتاز جبل ليانغشان. وفي ذروته عدد من الرجال الشجعان الذين لا يجهلون من أكون. وقد يهبون لنجدتي ويدبون الرعب في فؤاديكما. أقترح أن نبكر في النهوض غداً ونتخذ ممرات صغيرة تنعطف حول الجبل. وإذا كنا سنضطر إلى السير مسافة أطول قليلاً فإن ذلك أفضل".

أجاب الخفيران: "ما كنا لنعرف ذلك لو لم تخبرنا به، أيها السيد الكاتب. نحن نعرف عدة ممرات. وأكيد أننا لا نحب لقاء رجال الجبل على أية حال". ورسموا في تلك الليلة خطة للسير.

نهض الثلاثة في فترة الحراسة الخامسة من صباح اليوم التالي، وأضرموا ناراً لطهو طعام الفطور. وسرعان ما غادروا الخان، وساروا على طول دروب ضيقة قرابة ثلاثين ليا. وعلى حين فجأة برزت أمامهم عصبة من الرجال من وراء انعطافة في الجبل، واتجهت صوبهم.

زمجر سونغ جيانغ. لم يكن يقود تلك العصبة من أربعين أو خمسين قاطع طريق سوى ليو تانغ الشيطان أحمر الشعر. أرادوا القضاء على الخفيرين، وتهاوى تشانغ ولي المرعوبان راكعين جنباً إلى جنب.

هتف سونغ جيانغ: "أيها الإخوة، على من تريدون القضاء؟".

أجاب ليو تانغ: "على هذين الوغدين من دون ريب. ومن غيرهما؟".

– لا تلوث يديك. أعطني سكينك. وسأفعل أنا ذلك.

أنَّ الخفيران. وأعطى ليو تانغ سكينه إلى سونغ جيانغ. فسأل هذا الأخير: "لِمَ تود قتلهما؟".

– أرسل إخوتنا على الجبل رجلاً إلى يونتشنغ يستفسر عن قضيتك. عزمت أول الأمر على اختطافك من السجن، لكننا سمعنا أن القضية لم تعد سيئة على الإطلاق. ثم عرفنا أنك ستنفى إلى

جيانغتشو. وكي نتأكد من أننا لن نضيعك وزعنا القادة كباراً وصغاراً على كل طريق وممر. ونحن هنا للترحيب بك ولدعوتك إلى الجبل. وبديهي أننا سنقتل هذين الخفيرين.

– هذا لن يشرفني، بل سيلحق بي العار. وعندها سأغدو خائناً عاقاً. إذا أصررت على ذلك فلن يكون أمامي حل آخر سوى أن أقتل نفسي.

رفع سونغ جيانغ السكين إلى رقبته، فقبض ليو تانغ على ذراعه: "رويدك، يا أخي. فلنتباحث في هذا الأمر". واختطف السكين من يده.

توسل سونغ جيانغ: "أشفقوا عليَّ، يا إخوتي. دعوني أذهب إلى سجن جيانغتشو. وحين تنتهي فترة عقوبتي سأعود وسنلتقي من جديد".

قال ليو تانغ: "الأمر ليس بيدي لأتخذ فيه قراراً. على الدرب أمامنا ينتظر وو يونغ مستشارنا العسكري والقائد هوا رونغ للترحيب بك. فإذا سمحت لي سأطلب إليهما المجيء للتشاور في هذا الموضوع".

– لك أن تشاور من تشاء. فليس لي مزيد قول.

أُرسل أحد قطاع الطرق لنقل النبأ. ولم يمض زمن طويل حتى شوهد وو يونغ وهوا رونغ يخبان على صهوتي فرسيهما في اتجاههما، تتبعهما دستة من الرجال على صهوات الجياد. ترجل الاثنان وانحنيا. واستفسر هوا رونغ: "لماذا لم تنزعا هذه المخلعة؟".

احتجَّ سونغ جيانغ: "ما هذا الذي تقوله؟! لقد وضعت المخلعة بناء على قوانين الحكومة. فمن يجرؤ على نزعها؟".

ضحك وو يونغ: "أفهم ما ترمي إليه. ليس في الأمر مشكلة. لن نطلب إليك البقاء في حصننا الجبلي إذاً. ولكن الزعيم تشاو غاي لم يرك منذ زمن طويل. وهو يأمل في إجراء حديث خاص معك. أقم لديه فترة، ومن ثم سندعك تتابع سبيلك".

– وحدك، أيها المعلم، تستوعب الأمور.

أنهض الخفيرين على أقدامهما قائلاً: "لا تقلقا. أفضل الموت على أن أسمح لهم بإلحاق الأذى بكما".

فصاحا: "نحن مدينان لك بحياتينا، يا سيدي الكاتب".

غادر رتل الرجال الطريق الرئيس ووصل إلى غابة من القصب على امتداد الضفة. كانت القوارب تنتظر، فعبروا إلى الطريق على الضفة الأخرى، وركبوا المحفات، واستراحوا في جوسق الانسجام، وأُرسل رسل يطلبون إلى مختلف الضباط التجمع. ثم تابع الجميع صعودهم على الجبل إلى ردهة الأخوية. وهناك قدم تشاو غاي شكره إلى سونغ جيانغ قائلاً: "منذ اليوم الذي أنقذتنا فيه في يونتشنغ وقدومنا إلى هنا لم تمر لحظة لم نذكر فيها لطفك الجمّ. وفضلاً عن هذا فقد جئتنا بعدد من الأبطال يسبغون الشرف على عريننا. ولا نعرف كيف نعبر لك عن شكرنا".

– بعد رحيلي عن هذا المكان قتلت بغياً فاجرة وهمت على وجهي قرابة عام ونصف العام. قررت أن أعود لرؤيتك، يا أخي، ولكنني التقيت شي يونغ في أحد الخانات في قرية، وكان يحمل

رسالة من أهلي تقول إن والدي قضى نحبه. والحقيقة أن والدي كان يخشى انضمامي إلى عصبتكم من الرجال الشجعان، فاستخدم أسلوباً خاصاً لإعادتي إلى البيت. ورغم اضطراري للمثول أمام المحكمة فقد حماني الموظفون كباراً وصغاراً، فكانت عقوبتي خفيفة. أصدروا أمراً بنفيي إلى جيانغتشو، وهي مكان جيد. ولما كنت قد استدعيتني فقد وجب عليّ الحضور، والتقينا الآن. ولكن لرحلتي زمناً مرسوما لا أجسر على الإخلال به. وينبغي أن أودعكم.

- فيم العجلة؟ أرجو أن تجلس فترة على الأقل.

جلس الاثنان في وسط الردهة، وطلب سونغ جيانغ من الخفيرين أن يجلسا وراء مقعده وألا يفترقا عنه قيد شعرة.

أمر تشاو غاي قادته بتقديم احترامهم لسونغ جيانغ وبالجلوس في صفين متقابلين. وصب الملازمون الخمرة، فشرب تشاو غاي أولا نخب سونغ جيانغ، وتبعه وو يونغ، وغونغسون شنغ، وباي شنغ. وبعد عدة دورات من الشراب هبَّ سونغ جيانغ على قدميه قائلاً: "عواطفكم مست شغاف قلبي، أيها الإخوة. أنا مجرم، وسجين. ولا أجرؤ على البقاء. ينبغي أن أغادركم الآن".

قال تشاو غاي: "ينبغي ألا تغضب منا، يا أخي. إذا لم تشأ أن نثير المتاعب في وجه هذين الخفيرين، فلِمَ لا تعطيهما قليلاً من المال وتجعلهما يعودان من حيث قدما؟ في مقدورهما أن يزعما أن رجال بحيرة ليانغشان قد اختطفوك عنوة. وقد لا يؤاخذان على هذه الخطيئة".

- لا أريد أن أسمع هذا. فأنتم لا تشرفونني، بل تؤذونني. لم أكن ولداً باراً بوالدي في البيت يوماً واحداً. فكيف أخالف أوامره وألقي به في خضم المصاعب؟ كنت أرغب قبلاً في الانضمام إليكم، ولكن السماء أمرت أن يلتقيني شي يونغ في خانة تلك القرية ويرغمني على العودة إلى البيت. وأخبرني والدي في ما يرتئي أن أواجه المحاكمة. حين حكم عليَّ بالنفي نصح لي أن أبتعد عن السعادة الشخصية إن كانت ستسبب للأسرة أذية، وتحمل إليه الشقاء في سنوات شيخوخته. وعالنني بمنتهى الصراحة: "لا تستهن بالأمور. فذلك يغاير مبادئ السماء وتعاليم أبيك". ما فائدة حياتي إذا غدوت ولداً عاقاً وخائناً؟ إن لم تأذن لي بالهبوط عن الجبل فأنا أفضل أن أموت بين يديك!

وتهاطلت عبراته مرارة، وسقط على ركبتيه. فأنهضه تشاو غاي وغونغسون شنغ ووو يونغ قائلين: "إن كنت قد عزمت على الذهاب إلى جيانغتشو، يا أخي، فاسترخ واقض النهار معنا. وسنرافقك في هبوطك عن الجبل غداً صباحاً".

رضي بعد إلحاح أن يحتسي الخمرة معهم، ولكنه رفض أن ينزع مخلعته، وأصرَّ على أن يبقى الخفيران برفقته طوال الوقت.

أمضى الليلة، وأبكر في النهوض صباح اليوم التالي، وأعلن عن عزمه على الرحيل.

قال وو يونغ: "اسمعني يا أخي. إن مدير السجنين في جيانغتشو صديق حميم لي. ويدعى داي زونغ، ويعرف بالمدير داي. ولأنه يجيد شيئاً من السحر الطاوي ويستطيع السير مسافة مائة لي في اليوم، فقد لقَّبه الجميع باسم المسافر الأعجوبي. وهو شهم سخي اليدين. كتبت له الليلة الماضية رسالة توصية بك. وفي مقدوركما أن تغدُوَا صديقين. وإذا احتجت إلى معونة فابعث إلينا هنا بكلمة

واحدة".

عجز القادة عن إقناع سونغ جيانغ بالبقاء، فأقاموا له مأدبة وداعية وقدموا له هدايا من الفضة والذهب، ونفحوا الخفيرين بعشرين أوقية من الفضة. ورافقه الجميع في هبوطه عن الجبل بعدما حمل رجلٌ أمتعته. وهنالك افترق كل في طريق. فرافقه وو يونغ وهوا رونغ عبر البحيرة، ومسافة عشرين ليا على الطريق، ومن ثم رجعا إلى القلعة على الجبل.

اتجه سونغ جيانغ والخفيران إلى جيانغتشو. ومن حسن حظ الخفيرين، كان القادة على الجبل يحترمون سونغ جيانغ. وفضلاً عن هذا فقد قبضا فضة قادة قطاع الطرق، الأمر الذي جعلهما يعاملان سونغ جيانغ معاملة طيبة طوال الطريق.

ظلوا يسيرون أكثر من نصف شهر، ووصلوا إلى مكان يطلُّ عليهم فيه جبل شامخ الارتفاع. فقال الخفيران: "حسن، هذه سلسلة جبال جييانغ. وحين نجتازها سنصل إلى نهر شيونيانغ، ومن هنالك سنذهب عبر الماء إلى جيانغتشو. والمسافة غير بعيدة".

قال سونغ جيانغ: "سيكون النهار قائظاً. لنقطعنَّ الجبل والوقت باكر، ونعثرنّ على مكان نستريح فيه".

قال الخفيران: "فكرة رائعة".

أسرع الثلاثة في خطواتهم. تسلقوا لفترة من الوقت واجتازوا القمة، واستطاعوا أن يشاهدوا على المنحدر حانة على طرف صخرة وأمام بابها شجرة لها شكل غريب. وأمام المبنى ومن ورائه عدد من الأكواخ المصنوعة من القش. وكان علم يدلُّ عليها ويتدلى في ظل شجرة قد غمر قلب سونغ جيانغ بالفرحة.

قال: "الجوع والظمأ يقتلاننا، وهذا خان يبيع الخمور. لنشربنَّ بعض الطاسات قبل أن نتابع طريقنا".

دخلوا الخان سريعاً. وحرَّر الخفيران نفسيهما من متاعهما، وأسندا عصويهما الرسميتين إلى الجدار. وأجلسهما سونغ جيانغ إلى رأس المنضدة وجلس إلى طرفها الآخر. ومرت ساعة من الزمن لم يحضر خلالها أحد إليهما. فصاح سونغ جيانغ: "أيها الساقي أين أنت؟".

- أنا قادم، قادم.

وظهر من غرفة مجاورة رجل ضخم البنية. كان له سالفان أحمران براقان، وعينا نمر مخضبتان دماً، وتعصب رأسه عمامة ممزقة، وذراعاه العاريتان تبرزان من صدرية من دون كمين، وقد لف على وسطه مئزراً من قماش. وحيا الثلاثة باحترام.

- كم تريدون من الخمرة، يا سادتي؟

قال سونغ جيانغ: "كنا نسير على أقدامنا، ويعصف بنا الجوع. ماذا لديك من لحم؟".

- ليس لديّ غير لحم بقر مطبوخ وخمرة بيضاء غير صافية.

- عظيم. أحضر لنا كاتيين من لحم البقر المشروح ومكيالاً من الخمرة.

- عذراً يا سيدي، ولكننا هنا على الجبل نقبض الثمن مقدماً.

- أنت تريد الثمن مقدماً. لست أبالي. رويدك لحظة لأخرج لك قليلاً من الفضة.

راقب الساقي سونغ جيانغ خلسة وهو يفتح صرته ويخرج بعض النقود الفضية، ورأى الصرة ثقيلة ويحتمل أن يكون فيها ما هو جدير بالسرقة. ارتسم السرور على محياه، وقبض النقود الفضية، ودلف داخلاً، وأخذ دلواً من الخمرة وطبقاً من شرائح اللحم، وخرج. وضع ثلاث طاسات كبيرة وثلاثة أزواج من عصي الطعام على المنضدة، وصبَّ الشراب. وجعل المسافرون يثرثرون وهم يأكلون.

قال أحدهم: "ثمة عدد كبير من الرجال الأشرار في هذه الأرجاء هذه الأيام ويقال إنهم قضوا على عدد لا يحصى من الفتيان الطيبين. فهم يدسون المخدر في الشراب واللحم، وحين يفقد ضحاياهم الوعي يسرقون ممتلكاتهم الثمينة ويطبخون لحمهم مع الزلابية. وهذا شيء لا يصدقه العقل. فكيف يمكن أن تحدث مثل هذه الأمور؟".

ضحك الساقي وقال: "وحدكم من تقولون ذلك. إذاً، لا تأكلوا. فلحومي وخموري تعج بمادة مخدرة".

ابتسم سونغ جيانغ: "أخونا الكبير سمعنا نتحدث عن المخدرات فأحب أن يغيظنا".

قال الخفيران: "أيها الأخ، نحب أن نشرب طاساً من الخمرة الدافئة".

قال الساقي: "حسن. سأدفئها لك". وأدفأ الخمرة وصب ثلاث طاسات.

كان المسافرون جائعين وعطشين، واللحم والخمرة أمامهم. فكيف لا يأكلون ولا يشربون؟ شرب كل منهم طاساً. وبدأت عينا الخفيرين تجحظان، وسال اللعاب من طرفي فميهما. وحدَّق كل منهما في الآخر، وسقطا على الأرض.

وثب سونغ جيانغ ناهضا: "كيف يمكن أن تسكرا من مجرد طاس واحدة من الخمرة؟". وتقدم لينهضهما على أقدامهما، وسرعان ما أحس فجأة بالدوار، وغامت عيناه، فهوى على الأرض.

حدق الثلاثة في بعضهم بعضاً مشدوهين وعجزوا عن الحركة.

قال الساقي: "يا لحظي السعيد! لم أعمل شيئاً خلال هذه الأيام المنصرمة، وها هي السماء قد بعثت إليَّ هذه القطع الثلاث من البضاعة".

حمل صرة سونغ جيانغ وصرة أمتعته إلى غرفة خلفية وفتحهما. كانتا تعجان بالفضة والذهب.

- ظللت أدير هذا الخان طوال ثلاث سنوات لم أر خلالها مثل هذا السجين. من أين جاء بمثل هذه الثروة. إنه عطية من السماء!

أعاد ربط الصرتين وخرج ينتظر عودة مساعديه.

وقف إلى جانب الباب فترة، ولكنه لم يشاهد أحداً منهم. لمح في البعيد، على المنحدر، ثلاثة رجال يتسلقون مسرعين ناحيته. عرف أحدهم، فأسرع إليه.

حياه قائلاً: "إلى أين، يا أخي؟".

أجاب فتى ضخم العود: "نحن نبحث عن رجل. لا ريبة أنه سيمرُّ بهذه الطريق الآن. ظللت أنتظره يومياً عند سفح الجبل. ولكنه لم يأت. لا أفهم لتأخره سبباً".

- من تراه يكون؟
- إنه رجل مشهور وشهم.
- ومن يكون هذا؟
- كاتب مقاطعة يونتشنغ في ولاية جيتشو المدعو سونغ جيانغ. لا ريبة أنك سمعت باسمه؟
- وفيم يمرُّ بهذه الطريق؟
- لست أدري. التقيت البارحة صديقاً من جيتشو عالنني قائلاً: "إن سونغ جيانغ، الكاتب في مقاطعة يونتشنغ، وقع في بعض المتاعب في جيتشو فنفوه إلى السجن في جيانغتشو". ولا بدَّ أن يجتاز هذه الطريق. فليست هنالك طريق غيرها. وما أكثر ما خطر لي أن أذهب إلى يونتشنغ للقائه. وها هو الآن سيمرُّ من هنا. فلِمَ لا أغنم هذه الفرصة وأصبح صديقاً له؟ ظللت أنتظر عند سفح الجبل أربعة أو خمسة أيام، ولكنني لم أر أي سجين. وجئت اليوم برفقة هذين الصديقين لنقوم بجولة على الجبل. وقلت في نفسي إنه يحسن بنا أن نشرب طاساً في هذا المكان ونعرف كيف تسير الأمور لديك. كيف هي الأعمال هذه الأيام؟
- إذا شئت الصراحة، كانت الأعمال سيئة جداً خلال الأشهر القليلة الماضية. أما اليوم، وشكراً للسموات والأرض، فقد عثرت على ثلاث قطع من البضاعة يحملون معهم شيئاً من المتاع.

سأل الفتى الضخم معجلاً: "من يكونون؟".

- اثنان من الخفراء والثالث سجين.

استفهم الفتى الضخم في فزع: "هل السجين أسمر اللون، قصير القامة، مكتنز الجسم؟".

- صحيح. إنه ليس طويلاً، وبشرته داكنة قليلاً.

استفسر الفتى الضخم في سرعة: "وأنت لم تباشر العمل به بعد؟".

- جررته إلى الظلة منذ فترة قصيرة. ولا أستطيع المباشرة بالعمل قبل عودة مساعديَّ.
- لنلق نظرة عليه أولاً.

دخل الرجال الأربعة إلى الظلة. كان سونغ جيانغ والخفيران فيها ورؤوسهم تلامس الأرض. لم يعرف الفتى الضخم سونغ جيانغ.

تفحص الوشم على وجنته، ولكنه لم يكن واضحاً. فلم يعرف ماذا يفعل. وفجأة، خطرت له فكرة فقال: "أعطني صرة الخفيرين وسنستطيع قراءة الوثائق الخاصة به".

قال الساقي: "أصبت".

دخلوا البيت، وجاءوا بصرة الخفيرين وفتحوها. كانت تضم قضيباً من الفضة، وبعض النقود الفضية وحقيبة وثائق. وفحص الرجال الأربعة الحقيبة بدقة، وهتفوا: "يا للحظ!".

صاح الفتى الضخم: "أرسلتني السماء إلى هذا الجبل هذا النهار. لو باشرت عملك قبل وصولنا لكنت قد أوديت بحياة أخي. أعطه على الفور شيئاً يرد إليه وعيه".

جهز الساقي على الفور خليطاً من الأعشاب، ورجع برفقة الفتى الضخم إلى الظلة، ونزعا مخلعة سونغ جيانغ، وأنهضاه، وصبا الشراب في حنجرته.

حمل الرجال الأربعة سونغ جيانغ إلى القسم الأمامي من الخان المخصص للضيوف. أسنده الفتى الضخم، فانتعش قليلاً وفتح عينيه. ولم يتعرف على أحد من الواقفين أمامه. طلب الفتى الضخم إلى رفيقيه أن يسندا سونغ جيانغ، وسقط على ركبتيه، وسجد.

سأل سونغ جيانغ: "من أنت؟ لا بدَّ أني أحلم".

وسجد الساقي بدوره. فاستفهم سونغ جيانغ: "ما هذا المكان؟ هل أستطيع أن أسأل عن أسمائكم، أيها السادة؟".

قال الفتى الضخم: "أنا لي جون من لوتشو. وأكسب رزقي من عملي كموجّه للدفة على سفن نهر اليانغتسي. ولأنني سباح ماهر اشتهرت باسم تنين النهر الهائج، ومضيفنا هنا مواطن من جبل جيانغ. وهو يعمل مهرباً. ويدعى لي لي، ولكن الجميع ينادونه مستجمع الجحيم. وهذان الاثنان من ضفاف نهر خونيانغ. وهما هنا ليقوما ببيع الملح المهرَّب. هذه مهنتهما. والآن يعيشان معي. وهما أخوان، يسبحان ويعنيان بالقوارب جيداً على نهر اليانغتسي الكبير. وتونغ وي يدعى التنين من الكهف. وتونغ مينغ يدعى بطلينوس مخاضة النهر".

وسجد كل من الأخوين أربع سجدات.

قال سونغ جيانغ: "لقد سقطت بتأثير المخدِّر. كيف عرفت اسمي؟".

أجاب لي جون: "أحد أصدقائي، وكان في جيتشو يقوم بعمل، أخبرني عنك. قال إنهم أرسلوك إلى السجن في جيانغتشو. وما أكثر ما راودتني فكرة الذهاب إلى مقاطعتك لتقديم احترامي، ولكن القدر لم يتح لي هذه الفرصة. وحين سمعت أنك ذاهب إلى جيانغتشو عرفت أنك ستمرُّ من هنا. فجعلت أنتظرك عند سفح الجبل طوال ستة أو سبعة أيام، ولكنك لم تأت. واليوم أسعدتني السماء فبعثت بي مع هذين الأخوين إلى الجبل. وتوقفنا لنحتسي قليلاً من بنت العنب ولنثرثر مع لي لي. أجفلتني قصته فركضت إلى الظلة. نحن لم نلتق من قبل، ولكنني فكرت فجأة في وثائقك، وهكذا عرفت اسمك، يا أخي. هل أتهوَّر وأسأل لِمَ يبعثون كاتب مقاطعة يونتشنغ إلى سجن جيانغتشو؟".

روى سونغ جيانغ ما حدث له منذ أن قتل يان بوه سي إلى حين استلم الرسالة من شي يونغ في خان القرية، وتحدث عن عودته إلى البيت، ومثولهِ أمام المحكمة، والحكم عليه بالنفي إلى جيانغتشو. فزفر السامعون الأربعة.

سأل المضيف لي لي: "لِمَ لا تبقى هنا؟ لِمَ تذهب إلى السجن وتعاني العذاب؟".

أوضح سونغ جيانغ: "رجاني الرجال على جبل ليانغشان أن أبقى لديهم، فرفضت لأني أخشى أن أورط والدي. فكيف أستطيع البقاء لديكم؟".

قال لي جون مخاطباً المضيف: "أخونا رجل له مبادؤه، ولا يريد أن يرتكب الأخطاء. يحسن الآن أن تنعش هذين الخفيرين".

رجع مساعدو لي لي في تلك الآونة، وأمرهم أن يحملوا الخفيرين إلى جناح الضيوف. وقدم لهما ترياقاً أنعشهما من تأثير المخدر. فتبادلا النظر في وناء.

- لا ريبة أن الضنى قد أنهكنا من جراء الرحلة الطويلة فسكرنا من دون عناء.

ضحك الآخرون.

أقام لي لي في تلك العشية مأدبة، وأمضوا الليلة في الخان. في اليوم التالي، قدم لهم الشراب والطعام مرة أخرى، وأعاد الأمتعة إلى سونغ جيانغ والخفيرين، ورافق لي جون والأخوان تونغ المسافرين في هبوطهم عن الجبل. وتوقفوا يستريحون في منزل لي جون حيث قدم لهم طعاماً وشراباً. وأكرم وفادة سونغ جيانغ، واعتبرا نفسيهما أخوين بالدم.

بعيد عدة أيام عزم سونغ جيانغ على متابعة رحلته على الرغم من إلحاح لي جون عليه بالبقاء. وأعطى لي جون الخفيرين شيئاً من الفضة، وحمل سونغ جيانغ من جديد مخلعته، وجمع حاجياته وودع لي جون وتونغ وي وتونغ مينغ. وغادروا جبل جيانغ متجهين إلى جيانغتشو.

ساروا فترة من الوقت. ووصلوا بعيد الظهيرة إلى سوق عامرة بالضجيج. خلب الحشد لبه، فشق طريقه، ورأى أن أفراد الحشد يراقبون بائع أدوية جوالاً يقدم عرضاً بالأسلحة. توقف سونغ جيانغ والخفيران وشاركوا الحشد. أظهر الرجل أولاً مهارته في استخدام الرمح، ثم وضعه جانباً وقدم عرضاً لمعركة من دون سلاح.

هتف سونغ جيانغ: "رائع".

حمل الرجل صينية وخاطب الحشد قائلاً: "جئت إلى مدينتكم الكريمة من بعيد أبيع تجارتي. وليس هنالك ما يروِّع في موهبتي. وأنا أعتمد على نيتكم الطيبة كلياً. لقد امتد مدحي كثيراً في أماكن بعيدة، ولكنكم تستطيعون أن تروا أني مجرد مشعوذ. أنا أبيع اللصوق للعضلات والعظام المجروحة. فإذا لم تكونوا في حاجة إليها ألقوا بعض النقود الفضية أو النحاسية كي لا تبقى رحلتي إلى هنا من دون جدوى".

دار بالصينية فما أعطاه أحد قرشاً. توسل قائلاً: "أيها السادة، كونوا كرماء". ومرر الصينية مرة أخرى. فما كان من الحشد إلا أن أطال أفراده النظر إليه، من دون أن يعطوه شيئاً.

رأى سونغ جيانغ أن الرجل انفعل اضطراباً. فطلب إلى الخفيرين أن يعطياه خمس أوقيات من الفضة، وقال:

- يا مدرب السلاح، أنا مجرم ولا أستطيع أن أقدم شيئاً قيماً. خذ هذه القطع الخمس من الفضة عربوناً لاحترامي. وأرجو أن لا تسخر من قلتها.

قال الرجل في سرّه وقد حمل القطع في يده: في أطراف مدينة جييانغ الشهيرة، ثمة أكثر من رجل شجاع يستطيع تقدير مواهبي. وحده هذا السيد المهذب، المحكوم بموجب القانون، عابر السبيل، يقدم لي خمس قطع من الفضة. ما أصدق هذا الشعر:

إن يضحك الناسُ فلا تحسبنْ
أن السرور في اغتباق الكؤوسْ
لا المال يجعلك نبيلاً، ولا
شهماً تصيرُ في لبوس العروسْ

"هذه القطع الخمس من الفضة أثمن عندي من خمسين. أنحني أمامك أيها السيد. أرجو أن تخبرني باسمك فأنشره على الملأ".

- بعض قطع من النقود لا تساوي شيئاً يا مدرب السلاح. ولا ضرورة تدعو إلى شكري.

وفيما هما يتحادثان شقَّ فتى ضخم لنفسه طريقاً بين الحشد واندفع صوبهما. صاح: "أنت، أيها الوغد. من هذا السجين اللئيم الذي يجرؤ على تلطيخ سمعتي في مدينة جيبانغ!". ورفع قبضتيه معاً، وانقضَّ على سونغ جيانغ.

نتيجة لذلك جرت معركة جعلت التنانين تزبد الأمواج في نهر خونيانغ، والنمور الشرسة تتسلق الذرى في بحيرة ليانغشان.

من كان ذلك الفتى الذي انقضَّ على سونغ جيانغ؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السابع والثلاثون

مو الطليق يطارد المطر في أوانه؛
وبحارة نهر خونيانغ يثورون في الليل

صاح الفتى الضخم غاضباً: "لمجرد أنه قادر على إجادة بعض الألاعيب بالرمح يحسب أنه قادر على التباهي هنا وهناك. لقد أصدرت أمري إلى الجميع أن يتجاهلوه، فإذا بك، أيها النذل، تود التدليل على أنك تملك نفوذاً فتنفحه بفضة. أنت تحاول إضعاف سطوتي في هذه المدينة!".

- لنفرضنَّ أني نفحته قليلاً من الفضة. فما علاقتك بالأمر؟

قبض الفتى الضخم على سونغ جيانغ: "أيها اللص في المنفى. تجرؤ أن تردَّ عليَّ!".

- ولِمَ لا؟

أهوى الفتى الضخم بقبضتيه على وجه سونغ جيانغ، فتفادى الضربة. وانقضَّ عليه الفتى الضخم مرة أخرى، فتفاداه من جديد. وفي تلك اللحظة، اندفع مدرب السلاح من وراء الحشد، وقبض عليه من منديل رأسه ووسطه، وضربه على أضلاعه، ولواه بين يديه وألقى به على الأرض. ناضل الفتى للوقوف على قدميه، فألقاه مدرب السلاح مرة أخرى برفسة سريعة من قدمه. وتدخل الخفيران للحيلولة بين الصراع. وتدبر الفتى الضخم أمره فزحف واقفاً. نظر إلى سونغ جيانغ ومدرب السلاح ونبر، وهو يتخذ سبيله جنوباً: "إن كنتما تحسبان أنكما تفلتان مني، فانتظراني!".

سأل سونغ جيانغ مدرب السلاح في لطيف نغمة: "أبإمكاني أن أسألك عن اسمك ومكان ولادتك؟".

- منزل أجدادي في لويانغ في مقاطعة خنان، واسمي شيوي يونغ. كان جدي لأبي ضابطاً في مركز قيادة الجنرال العجوز تشونغ. أثار حفيظة بعض البيروقراطيين الذين يعلونه في الرتبة فبقيت رتبته على حالها. واضطر أولاده وأحفاده أن يكتسبوا رزقهم بتقديم عروض في فنون السلاح وبيع الأعشاب الطبية. وأنا مشهور في أخوية الشجعان باسم النمر السقيم. أأجرؤ على الاستفسار عمن تكون، يا سيدي؟

- اسمي سونغ جيانغ. ومنزل أجدادي في مقاطعة يونتشنغ.

- ألست سونغ جيانغ المطر في أوانه من منطقة شاندونغ؟

- أنا هو!

هوى شيوي يونغ على ركبتيه، وسجد. فأسرع سونغ جيانغ ينهضه على قدميه.

- لنحتسينّ بعض كؤوس الشراب معاً، ماذا تقول؟

- رائع. كنت أتوق إلى لقائك من دون أن تتاح لي الفرصة.

جمع مدرب السلاح أسلحته وأدويته، ورافق سونغ جيانغ إلى حانة قريبة.
قال صاحب الحانة: "لدينا لحم وخمرة. ولكنني لا أجسر على بيعكما شيئاً منها".
استفسر سونغ جيانغ: "لماذا؟".
- ذلك الفتى الضخم الذي صارعتماه قبل قليل أرسل من يهددني إن بعتكما شيئاً بتحطيم دكاني إلى أنقاض. ولا أستطيع مخالفة رغباته. فهو الرئيس في هذه المدينة. فمن يجرؤ على معارضته؟
- إذاً سنرحل. فلا ريبة أن ذلك النذل يبحث عن سبب لإثارة العراك من جديد.
- دعني أرجع إلى خاني وأسدد ديوني. سألتقيك في جيانغتشو في غضون يوم أو يومين. اسبقني، يا أخي.
أعطاه سونغ جيانغ عشرين قطعة من الفضة، وافترقا. سار الكاتب والخفيران إلى أن وصلوا إلى حانة أخرى. قال الساقي: "لقد أصدر إليَّ المعلم الفتى أوامره. لا نستطيع بيعكم شيئاً. فلا جدوى من السؤال".
لم يقل سونغ جيانغ أو الخفيران شيئاً. زاروا عدة حانات أخرى فتلقوا في كل منها الجواب عينه. وكانت في طرف القرية عدة خانات صغيرة حاولوا النزول في أحدها لقضاء الليل، فرفض الجميع إيواءهم. وحين استفسر سونغ جيانغ عن السبب أجابوا إن المعلم الفتى أصدر أوامر قطعية بهذا الخصوص: "لا تدخلوا أحداً من هؤلاء الثلاثة".
بدا أن الحديث عقيم في هذا الموضوع، فتابعوا سبيلهم إلى الطريق العامة الرئيسة. كانت كرة الشمس الحمراء قد انخفضت في صفحة السماء، والغسق ينشر ظلاله. وراح القلق يساور المسافرين الثلاثة. قالوا: "لمجرد مشاهدتنا عرضاً في فنون السلاح أثرنا غضب ذلك الحيوان. وليس هنالك على مسرح الرؤية أي خان أو قرية. فأين ننام؟".
لمحوا أضواء تبرق في أيكة من الأشجار في المنتأى على طرف ممر صغير. فقال سونغ جيانغ: "لا ريبة أن هنالك من يقيم في ذلك المكان. سنستميحهم عذراً ونسألهم قضاء الليل لديهم. وفي الصباح نتابع طريقنا".
- هذه الأضواء بعيدة عن الطريق الرئيسة.
- ماذا في طوقنا أن نفعل؟ قد ينبغي علينا أن نسير ثلاثة أو أربعة ليات إضافية غداً، فهل يضايقنا ذلك؟
ساروا مسافة ثلاثة أو أربعة ليات، فعثروا هنالك بين الأشجار على مزرعة كبيرة. قرعوا البوابة ففتحها خادم: "من أنتم يا من تقرعون الباب في مثل هذه الساعة المتأخرة؟".
قال سونغ جيانغ معتذراً: "أنا سجين في طريقي إلى جيانغتشو. ذهبنا أولاً إلى حيث انتوينا قضاء الليل فما وجدنا مكاناً. ونرجو أن تقبلونا في مزرعتكم وسندفع في الصباح ما يطلب منا".
- انتظروا هنا. سأسأل صاحب المزرعة المحترم.
دلف الخادم داخلاً، وسرعان ما رجع وقال: "يقول المحترم أن تتفضلوا بالدخول". وقاد الثلاثة

إلى مبنى من القش.

أمر المحترم خادمه أن ينزل الضيوف في محرس البوابة ويقدم لهم الطعام. وكان لهذا المحرس سقف من القش. أشعل الخادم مصباحاً وسأل الضيوف الثلاثة أن يأخذوا قسطاً من الراحة. وجاء بثلاث حصص من الأرز والحساء والخضار، وطلب إليهم أن يأكلوا. وحين انتهوا من تناول الطعام نظف المائدة وانصرف.

قال الخفيران: "نحن وحيدون هنا، يا سيدي الكاتب. سننزع المخلعة عن عنقك ونقضي ثلاثتنا ليلة هنيئة ونرحل في بكور الصباح".

أجاب سونغ جيانغ: "حسن".

نُزِعت المخلعة، وخرج برفقة الخفيرين للتبول. حدق سونغ جيانغ في السماء العامرة بالنجوم، وفي زقاق ضيق يلتف وراء المنازل المنتشرة على حافة ساحة مدروسة، ورسم ذلك كله في ذاكرته. رجعوا إلى محرس البوابة، وأقفلوا الباب، واستلقوا استعداداً للنوم. أعلنوا أن صاحب المزرعة شرَّفهم بقبوله لجوئهم إلى مزرعته.

على حين فجأة، تناهت إليهم أصوات تدفُّ من الساحة المدروسة، فاختلس سونغ جيانغ النظر من شق في الباب. كان المحترم وثلاثة من خدمه يتفقدون المزرعة على أضواء مشاعلهم.

التفت سونغ جيانغ إلى الخفيرين قائلاً: "ما أشبه هذا الرجل بوالدي! فهو لا يلجأ إلى النوم قبل أن يتفحص كل شيء بنفسه".

في تلك اللحظة، صاح شخص من خارج المزرعة: "افتحوا البوابة". فاستجاب الخدم للنداء. دخل ستة أو سبعة رجال. كان الرجل الذي يسير في المقدمة يمسك بيده مطرداً، أما الآخرون فيحمل كل منهم مذراة أو هراوة. واستطاع سونغ جيانغ رؤية وجوههم على ضوء المشاعل. قال: "الرجل الذي يحمل المطرد هو الذي هاجمنا في المدينة".

وسمع المحترم يستوضح قائلاً: "أين كنت يا ولدي؟ مع من كنت تتصارع حتى تحضر إلى البيت في مثل هذه الساعة المتأخرة مدججاً بالسلاح؟".

أجاب الفتى الضخم: "أنت لا تعرف الأحداث التي كانت تجري، يا أبي. هل شقيقي الأكبر في البيت؟".

– إنه سكران.. وهو يغطُّ في النوم في مؤخر الدار.

– سأهبُّه من غفوته. أريد أن يساعدني في مطاردة أحد الرجال.

– أنت تصارع من جديد إذاً. إذا أيقظت شقيقك فلن يرضى أن تسير الأمور على هذا الغرار، ما الأمر؟ أخبرني.

– جاء إلى المدينة هذا النهار رجل يبيع الأدوية ويمارس عروض السلاح، فقدَّم عرضاً قبل الاستحصال على إذن مني ومن شقيقي، فأمرت ألا يعطيه أحد قرشاً. ولكن أحد السجناء أراد التفاخر فنفحه بخمس قطع فضية. وهذا يسيء إلى سمعتنا! فذهبت لألقن السجين درساً، ولكن بائع الأدوية طرحني أرضاً ورفسني. وما برح خصري يؤلمني. وأرسلت رجالنا ينذرون أصحاب المتاجر والخمور

والخانات ألا يقدموا لأولئك الأنذال أية خدمة أو ينزلوهم لديهم. ولن يكون ثمة مكان يبيتون فيه هذه الليلة. وأرسلت من بعد عصبة من الرجال من بيت القمار إلى الخان الذي ينزل فيه بائع الأدوية لتلقينه درساً فشدوا وثاقه في دارة معلم السلاح الآن. وغداً سأصطحبه إلى النهر، وأربط يديه وقدميه، وأغرقه فيه. وهكذا سيدفع ثمن وقاحته! ولكنني لا أستطيع العثور على ذلك السجين الذي يرافقه الخفيران. وليس هنالك خان يجرؤون على الإقامة فيه. ولا أعرف إلى أين يمكن أن يلجأ. أريد أن يرافقني شقيقي، لنتوزع في عصبتين ونتعقب آثار ذلك الوغد!

- لا تكن فظاً، يا بني. لنفرضنَّ أنه أعطى بائع الأدوية فضة. فما شأنك في هذا؟ ولِمَ هاجمته؟ لقد انتهت القضية بضربك. ولكنك لم تؤذ نفسك بصورة سيئة. أصغ إليَّ وانس الأمر. إذا سمع شقيقك أنك تعرضت للضرب فلن يهدأ له بال حتى يقتل شخصاً آخر. اعمل بنصيحتي وادخل المنزل ونم. ليس منتصف الليل بالوقت الذي تقرع فيه أبواب الناس وتقلق القرويين. حاول أن تخزن أعمالاً صالحة ليوم تجسيدك المقبل.

لم يلق الفتى الضخم إلى نصيحة والده أذناً صاغية، بل قبض على مطرده، ودلف إلى المزرعة، فلحق به الرجل الشيخ.

قال سونغ جيانغ مخاطباً الخفيرين: "يا للظروف التعيسة! هذا أمر سيء أن نلجأ إلى هذه المزرعة! يحسن بنا أن نرحل. لسوف يقتلنا إن عثر علينا هنا. إن صمت الشيخ ولم يقل شيئاً، فإن الخدم لن يستطيعوا كتمان الأمر عنه".

- أنت على حق. يجب أن نرحل على الفور.

- لا فائدة من محاولة الخروج من البوابة الرئيسة. سنشق لأنفسنا طريقاً عبر جدار المزرعة القائم وراء هذا البيت.

جمع الخفيران متاعهما، وحمل سونغ جيانغ مخلعته، وانسلوا إلى ما وراء البيت، وفتحوا ثغرة في الجدار. وأطلقوا للريح سيقانهم على الممر الذي ينيره ضوء القمر إلى أعماق الأيكة.

ظلوا يهيمون على وجوههم قرابة فترة كاملة من فترات الحراسة. ورأوا إلى الأمام منهم غابة من القصب يجتازها نهر كبير. لقد وصلوا إلى ضفة نهر خونيانغ. وسمعوا إلى الوراء منهم صفيراً ثاقباً، ولمحوا أضواء عدة مشاعل.

صاح سونغ جيانغ: "فلتنقذني السماء!".

اختبأ الرجال الثلاثة بين القصب، وراقبوا المشاعل تمرُّ غير بعيدة عنهم. اندفعوا في رعب متعثرين هنا وهنالك. لم يكن أمامهم مفر. فإلى الأمام منهم النهر العريض، ومن الجانبين خلجان واسعة.

رفع سونغ جيانغ رأسه إلى السماء وانتحب: "لو عرفت أن الأمور ستؤول إلى هذه الشاكلة لكنت قد بقيت في جبل ليانغشان. من كان يظن أني سألاقي منيتي في هذا المكان!".

على غير انتظار، برز من بين القصب قارب صغير فنادى سونغ جيانغ: "إلينا هنا، أيها النوتي. أنقذنا. سأدفع لك فضة".

سأل النوتي: "من تكونون ثلاثتكم؟ وماذا تفعلون هنا؟".

- طاردنا اللصوص، فوثبنا بين هذا القصب. عجل إلينا وانقلنا عبر النهر. سأدفع لك مضاعفاً.

عندما سمع النوتي هذا الوعد اتجه بقاربه إليهم فصعدوا إليه. ألقى أحد الخفيرين المتاع إلى القارب، وثبّته الآخر بعصاه الرسمية. ووضع النوتي المجذاف في مؤخر القارب.

أثار الرنين الذي سمعه الصادر من الكيس الذي ألقي في وسط القارب ارتياحاً خاصاً في فؤاده، وسرعان ما انسرق القارب في وسط النهر.

وصل المطاردون في تلك الآونة إلى ضفة النهر. كانوا يحملون دستة من المشاعل. وكان الرجلان الضخمان في المقدمة يحملان مطردين، والعشرون الذين يسيرون وراءهما مسلحين بالرماح.

هتفا صائحين: "أيها النوتي، عد إلى هنا".

قال سونغ جيانغ والخفيران وهم يجلسون قرب بعضهم في القارب: "لا تفعل ذلك. سنعطيك مزيداً من الفضة".

هزَّ النوتي رأسه، وتجاهل نداء العصبة على ضفة النهر، وجذف بقاربه.

هدده الرجال على الضفة: "إن لم ترجع بقاربك إلى هنا فسنقتلكم جميعاً".

ضحك النوتي في برودة، ولكنه لم يعط جواباً.

جأرت العصابة على الضفة: "أتجرؤ على الرفض؟".

أجاب المجذف ضاحكاً: "أنا النوتي تشانغ. كفوا عن صياحكم السخيف!".

أبدل الرجل الضخم بين الرجال نبرة صوته: "آه، أهذا أنت، أيها الأخ تشانغ؟ أرأيتنا نحن الأخوين هنا؟".

- من دون ريب. فلست أعمى.

- إذاً عد إلينا. نريد الحديث معك.

- سنتحدث غداً. فالمسافرون معي في عجلة من أمرهم.

- هؤلاء الثلاثة في قاربك أطاردهم مع شقيقي!

- إنهم من أقربائي. وهم طعامي وكسوتي. وقد دعوتهم على قصعة من "عصائبية سكين القارب".

- ارجع إلى هنا لنناقش الأمر.

- وأقدم طعامي وكسائي لقمة سائغة لكم!؟ يا للحظ السمين!

- لا تقل مثل هذا الكلام، أيها الأخ تشانغ. نحن نريد السجين وحده. فاحمله إلينا هنا.

استرسل النوتي في التجذيف: "لم أعثر على مسافر واحد طوال أيام. لن أعود به وأسلمه إليك. اعذرني. سأراك مرة أخرى في يوم من الأيام".

لم يفهم سونغ جيانغ شيئاً من ألغاز هذا الكلام، فهمس في أذني الخفيرين: "ما أسعدنا حظاً بالعثور على هذا النوتي! فلقد أنقذ حياتنا ورفض تسليمنا. ولن ننسى لطفه هذا. أين كنا سنذهب لو لم يأت هذا القارب لنقلنا عبر النهر؟".

استرسل النوتي في التجذيف. وما أسرع أن ابتعدوا عن الشاطئ. كان الرجال الثلاثة، من حيث يجلسون في القارب، يشاهدون أضواء المشاعل بين القصب.

قال سونغ جيانغ: "يا للحظ السعيد! ما أصدق من قال: حين يلتقي الطيبون يبقى الأشرار بعيدين. لقد تدبرنا الأمر وهربنا من مصيبة".

جعل النوتي وهو يجذف يغني لحناً من هوتشو بكلمات من نظمه:

على ضفة النهر أمضيت دهري
شجاعاً قوياً بوجه الحقبْ
وحين انتوى الشرُّ إخماد عمري
سرقتُ له كتلةً من ذهبْ

أبرد الخوف عظام سونغ جيانغ والخفيرين. وسرعان ما همس سونغ جيانغ في سره: "إنه يمزح". وفيما الرجال الثلاثة يناقشون الأحداث، وضع النوتي المجذاف جانباً.

- أنت، يا أحمق، وأنتما، أيها الخفيران من رجال الشرطة، أمثالكم ألقي القبض عليهم وأسرقهم. وقد وقعتهم الآن بين يديَّ. فماذا تأكلون: "عصائبية سكين القارب" أم "زلابين في المرق"؟

قال سونغ جيانغ: "لا تمزح، يا سيدي. ماذا تقصد من هذا الكلام؟".

حملق النوتي بعينيه: "من تراه يمزح؟ إن كنتم تريدون "عصائبية سكين القارب"، فلديّ في القارب سكين تسلخ الرياح. لست في حاجة إلاّ إلى ثلاث أو أربع ضربات. ضربة واحدة لكل منكم تسقطه في الماء ميتاً. وإذا فضلتم "الزلابية"، فاخلعوا ثيابكم واقفزوا إلى الماء عراة كالزلابية وأغرقوا أنفسكم!".

أمسك سونغ جيانغ بالخفيرين صائحاً: "وا أسفاه! ما أصدق من قال الحظ لا يأتي إلا مرة واحدة، أما المتاعب فتأتي مجموعة!".

نبح النوتي: "ناقشوا الأمر وأعطوني جواباً. عجلوا".

ترجى سونغ جيانغ: "نحن لم نأت إلى هنا بمحض اختيارنا. لقد اقترفت جريمة ونفيت إلى جيانغتشو. ارحمنا. لا تقتلنا".

- أنتم تضيعون الوقت سدًى. أأوفر حياة ثلاثتكم؟ لن أوفر حياة نصف واحد منكم! أنا المعلم تشانغ وجه الكلب. وأبي وأمي لا يعنيان شيئاً بالنسبة إليَّ. فأغلقوا أفواهكم الكريمة، واقفزوا إلى الماء!

- ذهبنا وفضتنا وممتلكاتنا الثمينة - تستطيع أخذها كلها. لكن، دعنا أحياء!

تناول النوتي عن ألواح القارب الخشبية سيفاً قصيراً براقاً. وصاح: "ماذا اخترتم؟".

رفع سونغ جيانغ رأسه إلى السماء وزفر: "لأني أخفقت في احترام السموات والأرض، وكنت عاقاً بأقربائي واقترفت جريمة، فقد ورطتكما معي في هذا الموضوع".

أمسك الخفيران بذراعيه قائلين: "كفَّ عن الكلام يا سيدي الكاتب. سنموت معاً وينتهي

الموضوع".

زمجر النوتي: "اخلعوا ثيابكم واقفزوا إلى الماء. اقفزوا، وإلا قتلتكم!". تعانق الرجال الثلاثة ونظروا إلى الماء. سمعوا قعقعة مجذافين، فالتفت النوتي سريعاً. كان ثمة قارب سريع يتجه ناحيتهم، وقد وقف في مقدمته رجل ضخم يحمل رمحاً ثلاثياً. وكان ثمة شابان آخران يجذفان ببراعة في مؤخره. كان القارب يقترب سريعاً في ضوء النجوم.

صاح الرجل الضخم الذي يحمل الرمح الثلاثي: "أنتم هناك. من يجرؤ على العمل في مياهنا؟ أية بضاعة لديك يجب أن تتقاسمها معنا".

أعلن النوتي في نبرة سريعة: "هذا أنت إذاً، أيها الأخ لي؟ لم أتصور من تكون. هل خرجت في عمل، يا أخي؟ لِمَ لم تصحبني معك؟".

- هذا أنت من جديد إذاً، أيها الأخ تشانغ. ماذا لديك هنا؟ هل لديك شيء ذو قيمة؟

- ستضحك إن أخبرتك. لم يتوفر لي أي عمل طوال أيام. خسرت في القمار من جديد وبقيت من دون دانق، فجلست مكتئباً على ثنية الشراع حين راحت عصبة من الرجال تطارد ثلاث قطع من البضاعة لجأت إلى قاربي. وهي مؤلفة من خفيرين وسجين قصير أسمر البشرة. لست أعرف من يكون. قال إنه منفي إلى جيانغتشو، لكنْ ليست هنالك مخلعة حول عنقه. والعصابة التي تطارده يقودها الأخوان مو من مدينتنا. إنهما يطلبانه في إصرار. ولكنني حين رأيت أني أستطيع أن أحصل منه على شيء ما رفضت تسليمه.

- أواه! أيمكن أن يكون هذا أخي سونغ جيانغ؟

رنّ صوت الرجل مألوفاً. فنادى سونغ جيانغ من حيث قبع في القارب: "من أنت أيها الفتى الشجاع؟ أنقذني! أنا سونغ جيانغ!".

هتف الرجل الضخم مفزوعاً: "إنه أخي من دون ريب. لِمَ لم تقل ذلك؟".

خرج سونغ جيانغ إلى سطح القارب. كان ضوء النجوم براقاً، فرأى أن الرجل في القارب السريع هو لي جون تنين النهر الهائج، وأن الشخصين اللذين يجذفان هما تونغ وي التنين من الكهف وتونغ مينغ بطلينوس مخاضة النهر.

وثب لي جون إلى القارب قائلاً: "لقد هدك الرعب، يا أخي! لو جئت بعد فترة قصيرة من الزمن لكنتَ من الهالكين. الشكر للسماء. ضجرت وأرقت في البيت فخرجت بقاربي لتهريب كمية من الملح. لم أحلم قط أني سأعثر عليك في مثل هذا المأزق".

خرس النوتي وأعجزه النطق، وسأل أخيراً: "أيها الأخ لي، أتقصد أن هذا الفتى الأسمر هو سونغ جيانغ المطر في أوانه من شاندونغ؟".

- من دون ريب.

سقط النوتي على ركبتيه وسجد: "وحده اسمك، يا سيدي، يوقفني عن الإتيان بعمل شرير! كدت أن أختطف منك حياتك!".

التفت سونغ جيانغ إلى لي جون قائلاً: "من هذا الفتى الطيب؟ وما اسمه؟".

- هو أخ لي بالدم من الجبل الصغير المنعزل. واسمه تشانغ هينغ. ويعرف بلقب لهيب القارب. واختصاصه إدارة هذا العمل "الهادئ المحترم" على نهر خونيانغ!

ضحك سونغ جيانغ والخفيران، وسار القاربان جنباً إلى جنب إلى الشاطئ حيث جرى ربطهما إليه، وهبط سونغ جيانغ وخفيراه إلى الضفة.

خاطب لي جون تشانغ هينغ قائلاً: "ما أكثر ما أخبرتك، يا أخي، عن جميع الرجال الشجعان تحت السماء، وأنه ليس هنالك من يقارن بالكاتب سونغ المطر في أوانه من مدينة يونتشنغ. وفي مقدورك أن تتفحصه عن قرب".

قدح تشانغ هينغ حجر الصوان، وأشعل مصباحاً وحملق في سونغ جيانغ. ثم سقط على الرمال وسجد من جديد: "يا أخي، أرجو أن تصفح عني!". ولم يلبث أن استوضح: "أيها الأخ الشجاع، فيم نفوك إلى هنا؟".

روى لي جون قصة جريمة سونغ جيانغ، وأضاف: "لقد بعثوا به إلى جيانغتشو".

خاطب تشانغ هينغ الكاتب قائلاً: "هنالك شيء يجب أن أفضي به إليك. لقد أنجبت أمي ولدين؛ أنا وأخي الأصغر تشانغ شون. إنه فتى مرموق، جلده أبيض بلون الثلج. وهو لا يستطيع أن يسبح أربعين أو خمسين ليا على سطح الماء وحسب، بل إنه يستطيع أن يبقى تحت هذا الماء سبعة أيام وسبع ليال. ولأنه أشبه بشعاعة ضوئية بيضاء في الماء، ولأنه ماهر في استخدام السلاح، فقد لقبوه بالشعاعة البيضاء في الأمواج. وكنا نقوم في الوقت ذاته بتجارة طيبة على نهر اليانغتسي".

- أحب أن أسمع شيئاً عنها.

- كلما خسرنا في القمار فأنا آخذ قاربي إلى شاطئ هادئ وأنقل الناس عبر النهر. كان المسافرون الذين يرغبون في توفير المال والوصول إلى الضفة الأخرى بسرعة يستأجرون قاربي. وحين يمتلئ القارب ركاباً يجيء شقيقي تشانغ شون متنكراً في ثياب مسافر وقد حمل صرة كبيرة على ظهره. فأجذف بالقارب إلى وسط النهر، وأتوقف، وألقي المرساة، وأتناول سيفاً كبيراً وأطلب من المسافرين المال. الأجر المتفق عليه هو خمسمائة نحاسة، ولكنني أطلب ثلاثة آلاف. أطلب من شقيقي أولاً، فيتظاهر بالرفض، فأقبض عليه من عنقه ووسطه، وأطوِّح به في الماء. ثم أذهب إلى كل واحد من المسافرين مطالباً بالآلاف الثلاثة، فيهدهم الخوف، ويدفع كل منهم المبلغ. وبعدما أجمع النقود أسلمها في مكان منعزل على الشاطئ الآخر. ويكون شقيقي قد سبح تحت الماء ووصل إلى الضفة. وما إن يتفرق المسافرون حتى يأتي إليّ، فنقتسم المال، ونذهب ونقامر. وهكذا نحن نكتسب رزقنا.

قال سونغ جيانغ: "لا بدَّ أن هنالك وفرة من المسافرين على النهر يبحثون عنك لاجتياز النهر بهم".

ضحك لي جون والآخرون.

واسترسل تشانغ هينغ قائلاً: "وأنا وشقيقي نمارس الآن مهنة مختلفة. نحن نعمل في التهريب على نهر خونيانغ. وقد ذهب تشانغ شون إلى مدينة جيانغتشو اليوم لبيع بعض السمك المقلي. ابحث

عنه حين تصل إلى هناك. سأعطيك رسالة إليه، ولكنني لا أعرف الكتابة".

قال لي جون: "سنجد كاتباً في القرية". وأمر الأخوين تونغ أن يبقيا ويراقبا القاربين.

قاد لي جون وتشانغ هينغ الذي حمل مصباحاً سونغ جيانغ والخفيرين في اتجاه القرية. وقبل أن يجتازوا نصف لي لمحوا المشاعل لا تبرح تتوهج براقة على الضفة الأخرى من النهر.

قال تشانغ هينغ: "الأخوان هنالك لم يرجعا بعد".

سأل لي جون: "من تقصد بالأخوين؟".

- أقصد الأخوين من أسرة مو في مدينتنا.

- ناد عليهما لتقديم احترامهما لأخينا هنا.

فعجَّل سونغ جيانغ قائلاً: "لا ينبغي أن تفعل هذا. فهما اللذان يطاردانني".

قال لي جون: "لا تقلق. فهما لا يعرفان أنك من يطاردانه. فهما من جماعتنا". ولوَّح بيده، وأطلق صفرةً واحدة.

أسرع حملة المشاعل راكضين في اتجاههم. وحين رأى الأخوان مو لي جون وتشانغ هينغ يتحادثان في لطف مع سونغ جيانغ وقفا مشدوهين، وسألا: "أتعرفان، أيها الأخوان، هؤلاء الثلاثة؟".

ضحك لي جون: "أتعرف من يكون هذا الشخص؟".

- لا. لقد خالف أوامرنا في القرية ودفع مالاً لبائع الأدوية. وأساء بذلك إلى سمعتنا، فطاردناه.

- إنه الشخص الذي حدثتكما عنه مراراً؛ الأخ سونغ جيانغ، الكاتب في مقاطعة يونتشنغ من شاندونغ، المعروف باسم المطر في أوانه. أسرعا وقدما له التحية.

ألقى الأخوان مو مطرديهما جانباً وسجدا: "ما أكثر ما سمعنا بشهرتك. فمن كان يظن أننا اليوم سنلتقي؟ لقد آذيناك، أيها الأخ. ونرجو أن تصفح عنا".

أنهضهما سونغ جيانغ على أقدامهما: "ما اسماكما، أيها المحاربان الشجاعان؟".

قال لي جون: "إنهما من أسرة ثرية من السكان المحليين. مو هونغ، الشقيق الأكبر، يدعى المسرف. ومو تشون، الأصغر، يدعى المكبوح قليلاً. وهما يديران مدينة جييانغ. قد لا تعرف هذا يا أخي، ولكن لدينا ثلاث قوى ههنا، وسأشرح لك الأمر. على جبل جييانغ وما دون أدير ولي لي الأعمال. في المدينة يسيطر الأخوان مو. وتشانغ هينغ وتشانغ شون يشرفان على جميع أعمال التهريب على طول نهر خونيانغ. وهذا ما قصدته بالقوى الثلاث.

قال سونغ جيانغ: "لم تكن لدينا فكرة عن هذا. وباعتبارنا إخوة، فلا بدَّ أن أرجو إطلاق سراح شيوي يونغ".

ابتسم مو هونغ: "اللاعب بالرمح؟ ليست هذه مشكلة". وخاطب مو تشون قائلاً: "أحضره وسلمه إلى أخينا هنا". والتفت إلى سونغ جيانغ مرة أخرى: "أرجو أن ترافقنا إلى مزرعتنا المتواضعة وتتقبل احترامنا وتصفح عن أخطائنا".

قال لي جون: "هذا رائع! هذا رائع! سنذهب جميعاً".

أرسل مو هونغ الخادمين لمراقبة القاربين، ودعا الأخوين تونغ للانضمام إليهم. وأمر رجلاً

آخر أن يسبقهم على الطريق ويُعلِمَ الخدم في المزرعة بإعداد الطعام والشراب، ونحر خروف، وإقامة وليمة. وحين وصل تونغ وي وتونغ مينغ ساروا جميعاً. ووصلوا إلى المزرعة في حدود فترة الحراسة الخامسة. واستدعي المحترم مو لتحية الضيوف، ثم جلسوا في الردهة على مقاعد المضيفين والضيوف المصنوعة من القش. وجلس سونغ جيانغ قبالة المحترم مو.

لم يطل بهم الحديث حين جعلت السماء تسبح في النور. وجاء مو تشون برفقة شيوي يونغ النمر السقيم، وقُدِّم للحاضرين. أقام مو هونغ وليمة على شرف سونغ جيانغ حتى المساء حين أوى كل منهم إلى مضجعه.

أراد سونغ جيانغ الرحيل في اليوم التالي، ولكن مو هونغ لم يصغ إليه، وأصرَّ على ضيوفه بالبقاء. وصحب سونغ جيانغ في جولة عبر المدينة وأطلعه على مشاهد القرى المجاورة.

بعيد اليوم الثالث عزم سونغ جيانغ على الرحيل، وقد خشي أن يتخطى الزمن المحدد لوصوله إلى السجن. وحين بقيت توسلات مو هونغ والآخرين من دون جدوى أقاموا له مأدبة وداعية. وفي الصباح التالي، ألقى سونغ جيانغ تحية الوداع على المحترم والشجعان المحتشدين.

واستحث شيوي يونغ قائلاً: "أقم هنا فترة برفقة مو هونغ. ثم اذهب إلى جيانغتشو وسنلتقي مرة أخرى".

قال مو هونغ: "لا يستبدنَّ بك القلق يا أخي. سأعنى به عناية خاصة". وقدم لسونغ جيانغ ذهباً وفضة، ونفح كلاً من الخفيرين بمبلغ من النقود.

كتب أحد الكتاب في المزرعة رسالة لتشانغ هينغ الذي طلب إلى سونغ جيانغ أن يسلمها إلى شقيقه تشانغ شون. فوضعها سونغ جيانغ في صرته. ورافقه الجميع إلى ضفة نهر خونيانغ حيث استدعى مو هونغ قارباً وضع فيه أمتعة سونغ جيانغ والمخلعة. وشربوا نخب الوداع، وتهاطلت العبرات من العيون وهم يودعون بعضهم بعضاً. ورجع لي جون، وتشانغ هينغ، ومو هونغ، ومو تشون، وشيوي يونغ، وتونغ وي، وتونغ مينغ إلى منازلهم. ونكتفي بهذا الحديث عنهم.

انطلق سونغ جيانغ والخفيران إلى جيانغتشو. كان النوتي مختلفاً عن سابقه. رفع شراعاً وأوصلهم سريعاً إلى غايتهم. وضع سونغ جيانغ المخلعة حول عنقه من جديد، وحمل الخفيران وثائقه وأمتعته، وساروا برفقته إلى مكتب حكومة ولاية جيانغتشو.

كان الوالي جالساً في المحكمة، وكان يدعى تساي ده تشانغ، وهو الابن التاسع لتساي جينغ رئيس الوزراء؛ الأمر الذي جعله يعرف في جيانغتشو بالوالي تساي التاسع. وكان موظفاً جشعاً ومغروراً، وقاسي القلب. وقد عمل رئيس الوزراء على تعيينه في هذا المنصب لأن جيانغتشو مدينة ثرية مكتظة بالسكان.

أعطاه الخفيران الوثائق وقدما سونغ جيانغ، فرأى أن السجين رجل غير عادي. فاستوضح: "لم لا يوجد خاتم الولاية على مخلعتك؟".

فأوضح الخفيران: "داهمتنا الأمطار على الطريق فغسلت الخاتم".

- اكتبا تقريراً بهذا الخصوص على الفور، وخذاه إلى السجن خارج المدينة. سأرسل معكما

خفراء من الولاية.

انتدب الوالي خفيرين أخذا الوثيقة من الخفيرين الآخرين، وغادر الجميع المحكمة وتوقفوا ليتناولوا المرطبات في حانة خارج الولاية. قدم سونغ جيانغ لخفيري جيانغتشو ثلاث أوقيات من الفضة. وسلماه إلى المخفر، واستحصلا على إيصال بذلك، ووضعاه في زنزانة منفردة. وأوصيا السجان والمدير به، ورجعا بالإيصال إلى مكتب ولاية جيانغتشو.

أعطى الخفيران الآخران سونغ جيانغ أمتعته، وشكراه ألف مرة، ورجعا إلى مدينتهما وقالا: "على الرغم من أن الرعب شلَّ قوانا، فقد حصلنا على كمية من الفضة". وقدما تقريراً إلى مكتب ولاية جيانغتشو حيث أعطيا جواباً رسمياً، وانطلقا في طريق العودة إلى جيتشو.

دعا سونغ جيانغ مدير السجن إلى زنزانته وأعطاه عشر أوقيات من الفضة. كما أرسل مبلغاً مماثلاً إلى السجان بالإضافة إلى بعض الهدايا. ولم يغفل عن رشوة العاملين الآخرين في السجن، والجنود القائمين على الحراسة. وقبض الجميع فضة يشترون بها شاياً، ونتيجة لذلك أحسن الجميع معاملته.

بعد فترة قصيرة أحضروه إلى غرفة الاستجواب، ونزعوا مخلعته عن عنقه. وقال السجان الذي قبض الرشوة: "يا سونغ جيانغ، لقد جئت حديثاً، وينبغي أن أعالنك بما يلي. إن وو دي، الإمبراطور المؤسس، أصدر أمراً بأن يضرب كل منفي جديد مائة جلدة لتحطيم غطرسته. أيها الحراس، اقلبوه على وجهه".

قال سونغ جيانغ: "لقد أصبت ببرد شديد خلال الطريق، ولم أبرأ منه حتى الآن".

فأشار السجان: "تبدو علائم المرض على وجه السجين حقاً. انظروا كيف يبدو شاحب اللون ونحيل العود. سجلوا أمام اسمه في السجل أنه لم يضرب بعد. وهذا الرجل من موظفي ولايته. فليعمل ناسخاً".

دوِّن على الفور كتاب بهذا الخصوص. فعبَّر سونغ جيانغ عن شكره، وجمع أمتعته من زنزانته، وانتقل إلى قسم النسخ. وحين رأى المساجين الآخرون كيف عامله السجان معاملة خاصة اشتروا خمرة وأقاموا مأدبة صغيرة للاحتفال به. وفي اليوم التالي، أقام سونغ جيانغ مأدبة مماثلة، وجعل يدعو بين الفينة والفينة مدير السجن والحراس على الشراب، ويرسل الهدايا إلى السجان. كانت لديه وفرة من المال والممتلكات الثمينة؛ الأمر الذي جعله يتقرب من الناس. ولم يمض نصف شهر حتى صار جميع الناس في السجن يعاملونه باحترام.

قال مدير السجن: "يا أخي، أذكرك أنه في الآونة الأخيرة جرت العادة هنا على إرسال الهدايا إلى ناظر السجن. ففيم تأخرت في تنفيذ ذلك؟ لقد مرت عشرة أيام تقريباً. وسوف يحضر في غضون فترة قريبة، وستكون قد ارتكبت خطأ".

- لا تقلق. إنه يريد المال، وأنا لن أعطيه شيئاً. أما أنت، يا أخي، ففي وسعك أن تطلب مني ما تشاء وحين تشاء. غير أنني لن أعطي الناظر نحاسة. ولديَّ ما أعالنه به حين يجيء.

- إنه شديد القسوة يا سيدي الكاتب، وشيطان حينما يستخدم يديه وقدميه. إذا أثرت غضبه

وثارت ثائرته فلا تقل إنني لم أحذرك.

- يستطيع أن يفعل ما يطيب له. لكن، هدئ من روعك. ففي مقدوري تسوية الأمور. قد أعطيه شيئاً، وقد لا أعطيه أي شيء. قد يخشى أن يطلب مني عطاءً. هذا أمر يصعب التكهن به.

وفيما هما يتسامران جاء حارس وأعلن قائلاً: "الناظر هنا. وهو في الردهة ثائر الأعصاب ويصرخ: "لماذا لم يبعث إليَّ السجين الجديد الهدية النقدية المألوفة؟". إنه يزمجر.

قال مدير السجن: "ماذا قلت لك؟ كنا نخشى قدومه".

ابتسم سونغ جيانغ: "اعذرني، يا أخي. لا أستطيع البقاء برفقتك بعد الآن. سنحتسي الشراب معاً في يوم آخر. يجب أن أذهب وأتحدث إليه".

نهض مدير السجن قائلاً: "لا نريد رؤيته!".

ودعه سونغ جيانغ وخرج من قسم النسخ إلى قاعة التسجيل حيث ينتظر الناظر.

ولأن الاثنين التقيا، فقد انقلبت مدينة جيانغتشو إلى عرين للنمور ووجار للذئاب. وغدت زوايا الشارع جبالاً من الجثث وبحاراً من الدماء. وحطم الرجال شبكة السماء وشراك الأرض، ورجعوا إلى بحيرة ليانغشان.

ماذا تراه قد حدث حين التقى سونغ جيانغ الناظر؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثامن والثلاثون

المطر في أوانه يلتقي المسافر الأعجوبي؛
والإعصار الأسود يصارع الشعاعة البيضاء في الأمواج

كان الناظر جالساً على دكة في قاعة التسجيل، وهو يصيح: "أين السجين المنفي الجديد؟".

أشار الحارس إلى سونغ جيانغ قائلاً: "هذا هو".

زمجر الناظر: "أيها المحكوم الحشرة السمراء، ما الذي يؤخرك عن دفع المال لي حتى الآن؟".

أجاب سونغ جيانغ: "الهدايا تعطى عن طواعية ولا تفرض فرضاً. أنت حقير جداً".

تفصد العرق البارد من مسام الرجال الحاضرين لدى سماعهم هذا الكلام.

رعد الناظر: "أيها اللص المنفي! يدفعك الطيش فتناديني بالحقير! أيها الحراس، اقلبوا هذا النذل واجلدوه مائة جلدة تصب العقل في رأسه!".

كان الجميع في السجن على صلة طيبة بسونغ جيانغ. وما إن صدر الأمر بجلده حتى تفرقوا على الفور وتركوه مع الناظر وحيدين. طاش صواب الناظر غضباً، فاختطف عصا الجلاد واندفع ناحية سونغ جيانغ.

سأل سونغ جيانغ: "ما هي جريمتي كي تجلدني؟".

- أيها اللص المنفي، أنت الآن رهن يديَّ. وفي مقدوري أن أعتبر سعالك الخفيف جريمة أعاقبك عليها!

- أنت تجنح إلى ارتكاب الخطأ. فالأمر ليس بهذه الخطورة. وأنا لم أرتكب جريمة كبرى.

انفجر الناظر: "أنت لم تفعل، أليس كذلك؟ أستطيع اختطاف روحك مثلما أقتل ذبابة إن راقني ذلك".

ضحك سونغ جيانغ في برودة: "لأني لم أنفحك بالمال فأنا أستحق الموت! في هذه الحالة، ما هو مصير رجل وثيق الصلة بوو يونغ من جبال ليانغشان؟".

رمى الناظر العصا من يده: "ماذا تقول؟".

- أنا أتحدث عن صديق المستشار العسكري وو يونغ. فيم تسأل؟

شدَّ الناظر على الفور سونغ جيانغ جانباً: "من أنت؟ وكيف عرفت هذا؟".

ابتسم سونغ جيانغ: "أنا من مقاطعة يونتشنغ، في منطقة شاندونغ. وأدعى سونغ جيانغ".

ضمَّ الناظر يديه مجفلاً في احترام: "سونغ جيانغ المطر في أوانه؟".

- يبدو أن هذا الاسم غير جدير بالذكر.

- يا أخي، إن هذا المكان لا يصلح للحديث، ولا أستطيع السجود فيه. في المدينة يمكننا

التحدث في حرية. أرجو أن ترافقني.

- عظيم. سألحق بك في غضون لحظات. أريد أن أغلق بابي.

رجع سونغ جيانغ إلى غرفته، وأخذ رسالة وو يونغ وقليلاً من الفضة، وخرج وأقفل الباب، وطلب إلى الحارس أن يراقب الأشياء. ثم غادر والناظر السجن، وذهبا إلى جيانغتشو. صعدا إلى الطابق العلوي من حانة على الطريق، وجلسا.

استفهم الناظر: "أين رأيت وو يونغ يا أخي؟".

أخرج سونغ جيانغ الرسالة من طيات ثوبه وناوله إياها. مزق الناظر الغلاف، وقرأ سطورها، وأخفاها في كمه، وجثا على ركبتيه وسجد.

رد له سونغ جيانغ التحية بمثلها على الفور. وتوسل قائلاً: "أخشى أن أكون قد تماديت في الكلام معك. فأرجو أن تصفح عني".

أوضح الناظر: "تناهى إليَّ أن سجيناً يدعى سونغ وصل إلى السجن. ومن عادتنا، بالنسبة إلى كل المنفيين الجدد، أن نقبض من كل منهم خمس أوقيات من الفضة. وقد مرَّ أكثر من عشرة أيام ولم تصلني الهدية. لم تكن أعمالي اليوم كثيرة، فذهبت لأجمع النقود في السجن ولم أعرف هويتك. أرجو أن لا أكون قد أغضبتك في السجن، يا أخي. وأستسمحك العذر".

- حدثني مدير السجن عنك مراراً. وانتويت زيارتك وتقديم احترامي، ولكنني لم أكن أعرف أين تقيم، ولم تتح لي فرصة الذهاب إلى المدينة. فجعلت أنتظر قدومك. وهذا ما أرجأ لقاءنا. لست أبالي بخمس أوقيات من الفضة. فقلت في نفسي: إذا حجزت هذا المال فلا بدَّ أن يأتي أخي إليَّ. وقد التقينا اليوم وتحققت جميع أمانيَّ".

من كان ذلك الناظر؟ لم يكن سوى داي زونغ الذي كتب له وو يونغ رسالة توصية، والناظر الرئيس للسجنين في جيانغتشو. وكان رؤساء السجون في عهد أسرة سونغ في إقليم جينلينغ يعرفون باسم "المعلم" وفي إقليم هونان باسم "الناظر". وكان داي يتمتع بموهبة خارقة. فما إن يرسل في مهمة عاجلة حتى يلف كلاً من ساقيه بصورة إله، فيخلع ذلك عليه قدرات عجائبية في الترحال. وكان في مقدوره أن يجتاز مائة ليا في يوم واحد. أما إذا لف كلاً من ساقيه بصورتين فيجتاز ثمانمائة ليا. وهذا هو السبب في أن الجميع خلعوا عليه لقب داي زونغ المسافر الأعجوبي.

وبعدما كشف الاثنان عن مشاعرهما وعواطفهما أحسَّ كل منهما بسرور طاغٍ. جلسا في غرفة منعزلة، واستدعيا الساقي، وطلبا خمرة ومشهيات وأطباقاً من الخضار. وفيما هما يشربان روى سونغ جيانغ قصصاً عن العديد من الأبطال والرجال الشجعان الذين التقاهم على الدرب. وبادله داي زونغ الحديث بصراحة، فسرد عليه قصة علاقاته مع وو يونغ.

تحدثا في إسهاب وعلى سجيتهما. وقبل أن ينتهيا من احتساء قدحين أو ثلاثة أقداح من الخمرة وصلت إلى مسمعيهما أصداء مجموعة من الأصوات في الطابق الأرضي. وهرع الساقي إلى غرفتهما، وخاطب داي قائلاً: "أيها الناظر، وحدك من يستطيع أن يسوي القضية. ليس هنالك من سبيل آخر. أرجو أن تسرع وتسوي الموضوع".

- من الذي يثير مثل هذه الضوضاء هناك في الأسفل؟

- إنه الأخ لي الذي نشاهده كثيراً برفقتك؛ الرجل المعروف باسم الثور الحديدي. إنه يحاول اقتراض النقود من صاحب الحانة.

ضحك داي: "هذا الوغد يثير القلاقل مرة أخرى. لا أستطيع أن أتخيَّل ما قلته". والتفت إلى سونغ جيانغ قائلاً: "اعذرني لحظة، يا أخي. سأصعد به إلى هنا".

هبط داي إلى الطابق الأرضي، وسرعان ما رجع أدراجه برفقة شاب كبير داكن البشرة. وفوجئ سونغ جيانغ برؤيته، فتوجه إلى الناظر مستفسراً: "من يكون هذا الأخ؟".

- إنه أحد حراس السجن، واسمه لي كوي، من قرية بايتشانغ، في مقاطعة ييشوي في ولاية يتشو. ويلقب بالإعصار الأسود. وهو يعرف في مسقط رأسه باسم الثور الحديدي. هرب من بيته لأنه ضرب رجلاً وقتله. فهام على وجهه ووصل إلى جيانغتشو وأقام هنا؛ على الرغم من صدور عفو عام في الآونة الأخيرة. ولأنه يغدو مقرفاً حين يسكر صار الناس يخشون شره. ففي مقدوره استخدام فأسين معاً، كما أنه ماهر في استخدام قبضتيه وهراوته. وهو واحد من ملاك السجن.

أطال لي كوي النظر إلى سونغ جيانغ، وسأل داي زونغ: "من هذا الفتى الأسمر؟".

ابتسم الناظر: "أنت ترى مقدار ما هو عليه من فظاظة يا سيدي الكاتب. إنه يجهل آداب السلوك كلها".

قال لي كوي: "لقد سألت ليس غير. فما وجه الفظاظة في هذا؟".

- بدلاً من أن تقول: "من يكون هذا السيد المهذب؟" قلت: "من هذا الفتى الأسمر؟" إن لم يكن هذا القول فظاظة، فماذا تسميه إذاً؟ حسن، سأقول لك من يكون. إنه الأخ النبيل الذي تمنيت أن تنضم إليه منذ زمن بعيد".

- ليس هو سونغ جيانغ، المطر في أوانه من شاندونغ؟

هتف داي: "أينبغي أن تكون من السوقة فتتحدث عنه على هذه الصورة!؟ ألا تملك أي شعور بالمقامات؟ اسجد له، عجِّل. ماذا تنتظر؟".

- أسجد إن كان سونغ جيانغ حقاً، أما إذا كان شخصاً تافهاً، فلسوف أنفجر إن سجدت. أنت لا تسخر مني. أليس كذلك، يا أخي؟

أكَّد له سونغ جيانغ قائلاً: "أنا سونغ جيانغ الأسود من شاندونغ".

ضم لي كوي يديه هاتفاً: "يا جدي المبجل! لماذا لم تقل ذلك في وقت مبكر؟ الثور الحديدي في قمة السعادة!". وسقط على الأرض ساجداً.

ردَّ له سونغ جيانغ التحية على الفور. وتوسل قائلاً: "أيها الأخ الباسل، أرجو أن تجلس".

قال داي: "تعال اجلس إلى جانبي واشرب قليلاً من بنت الحان".

- حسن، ولكنني لا أريد شيئاً من هذه الأقداح التافهة. أريد طاساً كبيرة.

وسأل سونغ جيانغ: "ما الذي أغضبك في الطابق الأرضي؟".

قال لي كوي: "كنت أملك سبيكة كبيرة من الفضة رهنتها لقاء عشر أوقيات من العملة الفضية.

وأردت اقتراض عشر أوقيات من صاحب الحانة هنا لأسترد سبيكتي، بالإضافة إلى بعض النقود لأنفقها. ولكن النذل يرفض إقراضي شيئاً. كنت في سبيل تلقينه درساً وتحطيم أنفه حين ناداني الأخ داي للصعود إلى هنا".

- أنت في حاجة إلى عشر أوقيات فقط لاسترداد سبيكتك؟ ألا تترتب على ذلك أية فائدة؟

- لقد حصلت على مبلغ الفائدة، وما أحتاج إليه عشر أوقيات ليس غير.

أخرج سونغ جيانغ عشر قطع نقدية أعطاها إلى لي كوي قائلاً: "اذهب واسترجع سبيكتك".

أراد داي زونغ أن يتدخل في الموضوع، ولكن سونغ جيانغ كان قد أعطى النقود إلى لي كوي.

قال لي كوي: "عظيم. انتظراني، أيها الأخوان، هنا. سأرجع حالما أسترد سبيكتي. وسأدعو الأخ سونغ جيانغ إلى خارج المدينة لتناول الطعام والشراب".

قال سونغ جيانغ: "ابق معنا واشرب عدة طاسات هنا أولاً".

- سأرجع من فوري.

ودفع لي كوي ستارة الباب جانباً، وهبط عن السلَّم.

قال داي زونغ: "ما كان ينبغي أن تقرضه مالاً. حاولت الحيلولة دون ذلك، ولكنك نقدته المبلغ فورا".

- لِمَ لا؟

- لي كوي رجل مستقيم الخلق، غير أنه مغرم بالشرب والقمار. من أين له أن يحصل على سبيكة كبيرة من الفضة! إنها خدعة منه، لا شك أنه ذهب ليقامر. وهذا ما دعاه إلى مغادرة المكان مسرعاً. إن ربح فسيعيد إليك المال. وإن خسر فلن تقبض درهماً من هذه الأوقيات العشر من الفضة. ويخجلني أن أكون سبباً في ذلك".

ضحك سونغ جيانغ: "لا تعاملني مثل رجل غريب يا أخي. فالفضة لا تستأهل الحديث عنها. ليخسرنَّ هذا المبلغ. فهو يبدو فتى مخلصاً مستقيم الخلق".

- إن له حسناته. غير أنه فظ متهور. حين يسكر في سجن جيانغتشو فهو لا يضايق المساكين، ولكنه ينهال ضرباً على الحراس الأشرار. وهو يثير المتاعب في وجهي على الدوام. أقل إهانة تصيِّره وحشاً، وعندها يتنمَّر على الجميع. والجميع في جيانغتشو يرهبون جانبه.

- لنحتسينَّ قدحاً أو قدحين آخرين، وبعدها نقوم بجولة في أطراف المدينة.

- كدت أنسى. أودُّ أن أطلعك على المشاهد المترامية على طول النهر.

- هذا شيء رائع. فأنا أحب أن أرى الأماكن الجميلة في جيانغتشو.

في هذه الأثناء، طاف في ذهن لي كوي بعدما حصل على مقدار من النقود: "يا للحظ! الأخ سونغ جيانغ لم يلتق بي من قبل، ولكنه أقرضني عشر أوقيات من الفضة. إنه جدير بالسمعة التي طارت له بخصوص استقامته وكرمه. يا للعار الذي لحق بي من جراء خسارتي المتوالية في القمار خلال الأيام القليلة الماضية! لست أملك دانقاً لأدعوه على الشراب. سأقامر بهذه الأوقيات العشر من الفضة التي أعطاني إيّاها، فإن ربحت شيئاً من المال فسأكون قادراً على دعوته إلى الطعام والشراب،

وهذا سيجعلني محترماً في نظره".
أسرع لي كوي خطواته إلى وكر للقمار خارج المدينة يديره رجل يدعى تشانغ يي الصغير. ألقى الأوقيات العشر من الفضة على أرض المقامرة، وقال: "أعطوني قطعة النقد لأقذفها!".
كان تشانغ يي الصغير يعرف أنه يلعب بشرف من دون غش، فاستحثه قائلاً: "رويدك برهة، يا أخي. ستلعب أنت في الدور التالي".
- أريد هذا الدور.
- راهن خارج اللعب على الوجه الذي ستسقط عليه قطعة النقد.
- لا أريد أن أفعل هذا، أريد قذف القطعة النقدية بنفسي. أراهن بخمس أوقيات من الفضة.
واختطف لي كوي القطعة النقدية من يد رجل وتأهب لقذفها: "من يراهن على هذا المبلغ؟".
قال تشانغ يي الصغير: "أنا".
صاح لي كوي: "الذيل"، وقذف القطعة النقدية. فحطت على الأرض "رأساً".
مدَّ تشانغ يي الصغير يده ناحية النقود، فقال لي كوي: "جئت إلى هنا وأنا أحمل عشر أوقيات".
فقال تشانغ يي الصغير: "إذاً، أراهنك على خمس أخرى. إذا سقطت القطعة ذيلاً فسأعيد إليك الأوقيات الخمس التي خسرتها لتوِّك".
أخذ لي كوي قطعة النقد وقذفها، وصاح "الذيل". فسقطت القطعة "رأساً".
كشَّر تشانغ يي الصغير ضاحكاً: "طلبت منك أن تنتظر إلى الدور التالي، وألا تختطف القطعة النقدية، ولكنك لم تعرني أذناً صاغية. وقد أسقطت "الرأس" مرتين متعاقبتين.
- الفضة ليست ملكي.
- لست أبالي فضة من تكون. لقد خسرت، وهذا كل شيء.
- أقرضني إياها إذاً، وسأدفعها لك غداً.
- حديث تافه! فالمثل القديم يقول: "لا مجال للشفقة في ميدان القمار". وأنت خسرت. ففيم تثير ضجة؟
ربط لي كوي مقدمة ثوبه بإحكام، وقال: "هل ستعيد إليَّ هذا المال أم لا؟".
- أيها الأخ لي، أنت عادة تقامر بصورة شريفة. ففيم تسيء التصرف هذا النهار؟
لم يعطه لي كوي جواباً، بل التقط نقوده عن الأرض، واختطف عشر أوقيات أخرى من الفضة تخص المقامرين الآخرين، ووضعها جميعاً في جيب عباءته. وقال، وقد حملق بعينيه: "عادة ألعب باستقامة، واليوم استثناء".
وثب تشانغ يي الصغير لانتزاع المال، فراوغ لي كوي وألقى به على الأرض. انقضت دستة من المقامرين على الفتى الضخم، فراح لي يراوغ شرقاً ويضرب غرباً، ويتهرب جنوباً وينقض شمالاً. ففرق شملهم حتى لم يعثروا على مكان يلوذون به، واتجه بعد ذلك صوب البوابة.
سأله حارس البوابة: "إلى أين أنت ذاهب، أيها الشاب؟".

دفعه لي كوي جانباً، ورفس البوابة، ودلف خارجاً. فلحق به المقامرون الآخرون، وصاحوا به من عند البوابة: "كيف تتصرف على هذه الشاكلة، أيها الأخ لي؟ أتأخذ فضتنا؟". غير أن أحداً منهم لم يجرؤ على الاقتراب منه.

وفيما هو يسير مبتعداً ركض رجل وراءه، وقبض عليه من ذراعه، وصاح: "كيف تجسر على اختطاف أموال الآخرين، أيها النذل؟".

- وما علاقتك أنت بهذه القضية؟

التفت لي كوي فوجد أنه داي زونغ الذي وقف سونغ جيانغ وراءه. بدا الارتباك على ملامح لي.

- لا تلمني يا أخي. فالثور الحديدي يقامر عادة بصورة شريفة. ولكنني خسرت فضتك، ولم يعد لديَّ مال لأدعوك إلى الشراب. فاضطربت وأسأت التصرف.

ضحك سونغ جيانغ: "عندما تحتاج إلى فضة فاطلبها مني. يبدو أنك خسرت، أعد أموالهم إليهم".

لم يكن ثمة خيار أمام لي كوي سوى إخراج الفضة من جيبه ووضعها في يد سونغ جيانغ الذي نادى على تشانغ يي الصغير ورد إليه المال.

قال المقامر: "سنأخذ ما يخصنا وحسب. لست أريد القطع العشر التي خسرها الأخ لي معي. فقد يحمل الضغينة ضدي".

ألحَّ سونغ جيانغ: "خذها كلها، ولا تقلق". ولكن المقامر أصرَّ على الرفض. فاستوضح سونغ جيانغ: "هل آذى أحداً منكم؟".

- مدير اللعبة وجامع المال والبواب. لقد ألقاهم أرضاً.

- فلتكن هذه تعويضاً لهم. إن لم تأخذها نيابة عنهم فسأذهب إليهم بنفسي.

أخذ المقامر الفضة، وشكر سونغ جيانغ وانصرف.

قال سونغ جيانغ: "والآن، دعونا نشرب عدداً من الأقداح برفقة الأخ لي".

قال داي: "إلى الأمام منا، بجانب النهر، يقوم جوسق بيبا الذي كان باي جو يي شاعر أسرة تانغ يتردد إليه. وهو الآن حانة. في مقدورنا احتساء القليل من بنت العنب هنالك والتمتع برؤية مشاهد النهر".

- ألا يحسن بنا أن نبتاع قليلاً من المشهيات من المدينة أولاً ونأخذها معنا؟

- لا حاجة بنا إليها. فهم يقدمون وجبات الطعام هناك.

- في هذه الحال فلنذهب.

ذهب الرجال الثلاثة إلى جوسق بيبا. كان جزء منه يطلُّ على نهر خونيانغ، والآخر يستخدمه صاحبه جناحاً لمعيشته. وفي الطابق العلوي منه ثمة عشر مناضد أو أكثر. اختار داي زونغ منضدة نظيفة ودعا سونغ جيانغ إلى الجلوس. وجلس الناظر قبالته، وأجلس لي كوي إلى جانبه. طلبوا خضاراً وفاكهة ومشهيات من طعام البحر مع الخمرة. فجاءهم الساقي بجرتين من "الربيع في

زجاجات اليشم" - وهو شراب مشهور في جيانغتشو - وانتزع عنهما السدادتين الطينيتين.

قال لي كوي: "جئني بطاس كبيرة. فأنا لا أستطيع أن أشرب في هذه الأقداح الصغيرة".

نبح داي: "أيها الأخرق! أريدك أن تشرب خمرتك وتحتفظ بفمك مغلقاً".

خاطب سونغ جيانغ الساقي قائلاً: "هذا السيد وأنا سنشرب في هذه الأقداح. وأحضر لأخينا الكبير طاساً كبيرة".

امتثل الساقي للأمر وخرج، وسرعان ما رجع وهو يحمل طاساً كبيرة وضعها أمام لي كوي. وصبَّ الخمرة وقدم المشهيات. فضحك لي كوي: "أنت حقاً رجل رائع أيها الأخ سونغ، على ما يقول الجميع. أنت تفهمني. حصولي على صداقتك حدث من أفضل الأحداث التي وقعت معي".

دارت الخمرة ست أو سبع مرات. وسرَّ سونغ جيانغ من رفيقيه. وبعدما احتسى عدة أقداح من بنت العنب تاقت نفسه إلى طبق من حساء السمك المفلفل، فسأل داي زونغ: "هل يقدمون هنا حساء السمك؟".

أجاب داي زونغ مبتسماً: "ألا تشاهد هذه القوارب جميعاً التي تصيد السمك على صفحة النهر؟ الإقليم بأسره يعج بالسمك والأرز".

- إن قليلاً من حساء السمك المفلفل الحار أفضل ما يعيد الوعي إلى المرء.

نادى داي على الساقي، وطلب ثلاثة أطباق من السمك في مرق مفلفل. وسرعان ما أحضرت هذه الأطباق.

قال سونغ جيانغ: "الآنية الفخارية الجميلة تسرُّ النفس أكثر من الطعام الشهي. وعلى الرغم من أن هذا المكان لا يعدو عن كونه حانة صغيرة، فلا ريبة أنهم يملكون طاسات جميلة". والتقط عصوي الطعام. وبعدما استحثَّ داي زونغ ولي كوي على تناول الطعام تذوق السمك وشرب الحساء.

لم يلتفت لي كوي إلى العصوين، بل أخرج السمك من الطاس بيده والتهمه بعظامه. فما تماسك سونغ جيانغ عن الضحك، واحتسى جرعتين أخريين من الحساء، ووضع عصويه، وكفَّ عن تناول الطعام.

قال داي زونغ: "هذا سمك مملح يا أخي. أنا واثق أنه لم يعجبك".

- حسبت أن شيئاً من حساء السمك الطازج يفيدنا بعد الشراب. لكن هذا السمك ليس جيداً فعلا.

- وأنا لا أستطيع التهام نصيبي أيضاً. فأنا لا أحب السمك المملح.

قال لي كوي بعد أن أتى على ما في طاسه: "إذا كنتما لا تريدان حصتيكما، فسألتهمهما أنا". وغرف السمك من طاس سونغ جيانغ بأصابعه والتهمه، وفعل الشيء ذاته بطاس داي زونغ. فلوَّث المنضدة بأسرها بالحساء.

راقب سونغ جيانغ لي كوي وهو يأتي على ثلاث طاسات من حساء السمك بما فيها العظام، فاستدعى الساقي وقال له: "أظن أن هذا الأخ لا يزال جائعاً، فأحضر له كاتيين من شرائح لحم البقر.

وسأدفع لك الثمن بعد أن تضيفه إلى الحساب".

- ليس لدينا شيء من لحم البقر، بل من لحم الضأن. وفي مقدورك أن تطلب منه ما تشاء.

قذف لي كوي ببقايا حسائه في وجه الرجل فلطخ له ثيابه.

صاح داي زونغ: "ماذا تفعل؟".

- عمل هذا الخادم الوقح على أن آكل لحم البقر من دون أن يجيئني بشيء من لحم الضأن.

احتجَّ الساقي قائلاً: "كنت أسأل وحسب. ولم أقل شيئاً".

قال سونغ جيانغ: "اذهب وجئه باللحم. وسأدفع الحساب".

ابتلع الرجل غضبه، وقطع كاتيين من لحم الضأن قدمهما في طبق. لم يأبه لي كوي للرسميات، وما لبث أن أتى على اللحم في لحظات معدودة.

قال سونغ جيانغ معجباً: "أنت رجل طيب".

- الأخ سونغ قادر على قراءة أفكاري اللعينة. فاللحم أفضل من السمك بكثير.

نادى داي على الساقي وقال: "الطاسات التي قدمت فيها حساء السمك رائعة، ولكن السمك شديد الملوحة. أليس لديك شيء من السمك الطازج لتصنع منه حساء مفلفلاً لهذا السيد هنا فيطرد به تأثير الخمرة في رأسه؟".

- أصدقك القول يا سيدي، وأعترف أن السمك من بقايا ليلة البارحة. وما اصطدناه من سمك اليوم لا يبرح في القوارب. ولا نستطيع أن نبيع منه شيئا قبل مجيء صاحبه. ولذلك فنحن لا نملك سمكاً طازجاً بعد.

وثب لي كوي ناهضاً: "سأحضر سمكتين لأخي".

قال داي زونغ: "لا تذهب. سنطلب إلى الساقي أن يشتري لنا شيئاً".

- الصيادون لا يجسرون على رفض طلبي. فلا يهمنك الأمر.

لم يستطع الناظر منع لي كوي من الذهاب، فخرج. التفت داي زونغ إلى سونغ جيانغ قائلاً: "أرجو أن تعذرني يا أخي لأنني عرفتك على مثل هذا الرجل. فهو لا يفقه شيئا من آداب السلوك. وأنا مرتبك حقاً".

- هذه طبيعته. وليس هناك من يستطيع تبديلها. ولكنني أحترم إخلاصه.

واسترسل الاثنان في الحديث والمزاح في جوسق بيبا.

مضى لي كوي إلى النهر. كان ثمة ثمانون أو تسعون قارباً مربوطة في صف واحد إلى أشجار صفصاف على طول الضفة. وكان عدد من الصيادين قد اضطجعوا على مقدماتها مستغرقين في النوم، وآخرون يصلحون الشباك في مؤخرها. وكان بعضهم يسبحون في النهر. وكان الوقت منتصف الشهر القمري الخامس، والشمس الحمراء تغرق في الغرب. ولم يعثر لرئيس الصيادين على أثر؛ الأمر الذي يحول دون بيع الأسماك.

نادى لي كوي: "لديكم سمك طازج على القارب، أعطوني سمكتين".

- لا نستطيع فتح السلال قبل حضور رئيس الصيادين. ألا ترى جميع أولئك الباعة ينتظرون

على الضفة؟

- من يبالي برئيس صياديكم الأحمق. أعطوني سمكتين وحسب.

- لم نحرق بعد نسخ الأوراق النقدية وفاء للآلهة. فكيف يمكن أن نفتح السلال ونعطيك سمكاً؟

وثب لي كوي إلى أحد تلك القوارب قبل أن يتمكن الصيادون من منعه. لم يكن يفقه شيئاً في أمور تلك القوارب السريعة، فأسقط حاجزاً من خشب البامبو.

صاح الصيادون من حيث يقفون على الضفة: "لا تفعل ذلك".

بحث لي كوي تحت غطاء السلة فلم يعثر على شيء من السمك. كانت للقوارب النهرية فتحات واسعة في مؤخرها تسمح بدخول الماء وتبقي الأسماك حية. وكانت مهمة حاجز خشب البامبو منعها من السباحة خارجاً. وكانت جيانغتشو تموّن بالسمك الطازج بهذا الأسلوب. وحين جذب لي كوي الحاجز هربت جميع الأسماك من القارب.

وثب إلى القارب التالي وشدَّ حاجز خشب البامبو. فركض سبعون أو ثمانون صياداً إلى القارب وانهالوا على لي كوي ضرباً بعصي البامبو. ثار غضبه، فخلع ثيابه ووقف عارياً إلا من منديل ملون يغطي حقويه، وقبض على نصف دستة من عصي القارب بكلتا يديه وانتزعها مثلما ينتزع الكراث. فتراكض الصيادون المذعورون، هاربين من القارب، وحلوا أوثقة قواربهم وهربوا بها.

قبض لي كوي العريان مثل بومة على قضيب مكسور في غضب، وركض إلى الضفة عازماً على متابعة القتال. وحمل الباعة حمالات أكتافهم، وتفرقوا متبعثرين.

في أثناء هذه الضجة اقترب رجل وحده على طول الممر، فناداه عدد من الأشخاص: "لقد وصلت أخيراً، أيها الرئيس. ذلك الفتى الكبير الأسود كان يلتقط السمك. وكاد يغرق قواربنا جميعاً".

- أي فتى ضخم أسود، وكيف يجرؤ على التصرف هكذا؟

- هنالك، على الضفة. إنه يطارد الناس ويضربهم.

أسرع الرجل في خطواته وراء لي كوي صارخاً: "هل أكلت قلب ليث أو صفراء نمر حتى تعمل على تشويش تجارتي؟".

نظر لي كوي إليه. كان طوله يزيد عن ست أقدام، وعمره في حدود الثانية أو الثالثة والثلاثين، وله شارب وعثنون. وكان رأسه معصوباً بحرير أزرق على شكل صليب معقوف، وبرزت منه خصلة من الشعر شدت بحبل أحمر قان. وقد ارتدى عباءة من قماش أبيض اللون شدها على وسطه بنطاق أحمر. وفي قدميه صندل من القش المجدول مزخرف برسومات أقدام طيور سوداء وبيضاء. وكان يحمل ميزاناً ثقيلاً في إحدى يديه.

جاء يبيع السمك، وما إن شاهد لي كوي يضرب الناس حتى أعطى الميزان إلى أحد الباعة واندفع قدماً. صاح: "من تريد أن تضرب أيضاً، أيها الوغد؟".

استدار لي كوي وهو يمسك بعصاه وضرب من دون أن ينطق بحرف. تهرَّب الرجل من الضربة وقبض على العصا، فأمسك به لي كوي من شعره. حاول الرجل ثلاث مرات أن يمسك بخصمه من

قدميه ويوقعه على الأرض. ولكن، كانت قوة لي كوي كقوّة ثور. لذا أمسك به جيداً. وحين شرع يرفس بقدميه دفع لي كوي رأسه ناحية الأرض، وجعل ينهال على ظهره ضرباً كمن يقرع على طبلة بقبضة من حديد. ولم يستطع الرجل تملصاً.

ركض أحدهم وراء لي كوي، ولفَّ ذراعيه حول وسطه يساعده رجل آخر قائلاً: "لا يمكن أن تفعل هذا".

أدار لي كوي رأسه ورأى داي زونغ وسونغ جيانغ، فأرخى قبضته، فهوى الرجل على الأرض مثل هبة من دخان.

وبخه داي قائلاً: "قلت لك ألا تسعى وراء السمك. وها أنت هنا تقاتل. لنفرضنَّ أنك قتلته، كنت ستقضي بقية حياتك في السجن".

- أتخشى أن أورطك في الأمر؟ إن قتلت أحداً فسأحمل المسؤولية كلها على عاتقي.

قال سونغ جيانغ: "لا تتحدث على هذا الغرار، يا أخي. ارتد عباءتك، ودعنا نشرب قليلاً من الخمرة".

أخذ لي كوي العباءة من أسفل شجرة صفصاف، ورماها على ذراعه، وسار برفقة داي وسونغ. وقبل أن يجتازوا اثنتي عشرة خطوة سمعوا صوتاً وراءهم يصيح: "أيها الوغد الأسود، سأسوينَّ الأمر معك".

التفت لي كوي. كان رئيس الصيادين، وقد تعرّى إلا من إزار حول حقويه، ويبدو أبيض الجلد مثل الثلج. كان قد أزال المنديل عن رأسه كاشفاً عن قنزعة من الشعر شدت بخيط أحمر اللون. وكان يقود قارباً إلى الضفة. صرخ: "أيها اللئيم الجدير بألف ضربة، لن أكون رجلا إذا خفت منك. من يهرب من القتال يكن جباناً رعديداً".

زمجر لي كوي غاضباً، وألقى عباءته جانباً، وأسرع يلاقي خصمه. اقترب الرجل بقاربه قليلاً من الضفة وهو لا يكفُّ عن إطلاق السباب.

دعاه لي كوي قائلاً: "انزل إلى الشاطئ إن كنت كما تدعي".

دفع رئيس الصيادين قدمي لي كوي بقضيبه، فغضب الفتى الضخم ووثب إلى القارب. وفي مثل لمح البصر وازن الرجل نفسه وابتعد بالقارب عن الضفة بعدة حركات من قضيبه وانطلق به كالسهم إلى وسط النهر.

كان لي كوي ملماً بالسباحة، ولكنه غير بارع في فنونها فارتبك وخاف. وكفَّ الرجل عن السباب ووضع القضيب من يده قائلاً: "تعال. ولنر من سيكون المنتصر". وقبض على ذراع لي كوي: "أنا لن أصارعك الآن. أريدك أن تشرب قليلاً من الماء أولاً". وداس بقدمه على جانب القارب فانقلب عاليه سافله مسقطاً الرجلين في النهر.

زمجر سونغ جيانغ وداي زونغ اللذان أسرعا إلى الضفة. كان قرابة خمسمائة رجل يراقبون الرجلين من بين أشجار الصفصاف قائلين: "لقد خدع الفتى الضخم الأسمر. لو استطاع النجاة بحياته فلن يفلت من اغتراف كمية من الماء".

انشق النهر فبرز منه رأس لي كوي، ثم غطس من جديد. وتصارع الرجلان في المياه اللازوردية؛ أحدهما قاتم اللون إلى درجة السواد، والآخر شاحبه يتضوأ كالجليد. اشتبكا في المعركة، وراح المشاهدون على الضفة يطلقون هتافات الاستحسان.

غطس لي كوي عدة مرات فابيضت عيناه. وارتفع من جديد، وغطس من جديد. كان يقاسي الأمرَّين. وقال سونغ جيانغ لداي زونغ أن يطلب إلى المشاهدين العمل على إنقاذه.

سأل داي زونغ: "من يكون هذا الفتى الضخم الأبيض؟".

أجاب أحدهم: "إنه رئيس الصيادين المحلي تشانغ شون".

حين سمع سونغ جيانغ الاسم أوضح قائلاً: "أليس هو الذي يعدونه الشعاعة البيضاء في الأمواج؟".

- أجل، هذا هو.

قال سونغ جيانغ مخاطباً الناظر: "أحمل له رسالة من شقيقه تشانغ هينغ، وهي لديَّ في السجن".

سار داي حتى طرف الضفة، ونادى: "أيها الأخ تشانغ، كفَّ عن القتال. ثمة رسالة لك من شقيقك الأكبر الأخ تشانغ هينغ. وهذا الفتى الضخم صديقنا. فاتركه. تعال إلى الشاطئ لنتحدث".

عرف تشانغ شون الناظر. فأعتق لي كوي، وأسرع إلى الضفة وتسلقها وحيا داي باحترام. قال: "صفحاً عن سوء سلوكي، أيها الناظر".

رجاه داي: "كرمى لخاطري اعمل على إنقاذ أخي هذا واحمله إلى هنا. هنالك من أريدك أن تلتقيه".

غطس تشانغ شون في النهر وسبح بمهارة إلى حيث كان لي كوي يتخبط وقد غمرت المياه رأسه، وأمسك به من يده. كان يضرب الماء بساقيه بقسوة وكأنه يمشي على الأرض، فترتفع المياه حتى سرَّته. أمسك بلي كوي بإحدى يديه وشده إلى الشاطئ. فهتف المشاهدون على الضفة مهللين. وانشده سونغ جيانغ، وعجز عن الكلام. وما أسرع أن بلغ الرجلان الضفة. كان لي كوي يلهث، وتقيأ كمية كبيرة من الماء.

قال داي: "أرجو أن ترافقني إلى جوسق بيبا حيث يمكننا الحديث".

أخذ تشانغ شون عباءته ولبسها. وحذا لي كوي حذوه، ورجع الرجال الأربعة إلى الجوسق. قال داي لتشانغ شون: "أتعرفني، يا أخي؟".

- من دون ريب، أيها الناظر. لكن الحظ لم يسعفني بلقائك.

أشار داي إلى لي كوي: "هل عرفت هذا الشخص من قبل؟ لقد تعاركتما هذا النهار".

- من دون ريب أنا أعرف الأخ لي. وهذه هي المرة الأولى التي نختبر فيها قوانا.

قال لي كوي: "لقد أغرقتني كثيراً".

فأجاب تشانغ شون: "وأنت ضربتني أيضاً".

قال داي: "وأنتما الآن أخوان، وقد اكتفيتما بما فعلتماه. لست تعرف الرجل حقاً إن لم تقاتله،

كما يقول المثل القديم".

حذره لي كوي قائلاً: "لا تحاول في المستقبل أن تبدأ معي قتالاً على البر".

- سأنتظرك في المياه.

ضحك الرجال الأربعة، واعتذروا عن فظاظتهم. أشار داي إلى سونغ جيانغ وقدَّمه إلى تشانغ شون: "هل تعرف هذا الأخ؟".

- لا. لم أره من قبل.

وثب لي كوي على قدميه: "هذا سونغ جيانغ الأسود".

- أهو الكاتب سونغ من يونتشنغ، المطر في أوانه من شاندونغ؟

أكَّد له داي: "أجل، إنه الأخ سونغ جيانغ".

سجد تشانغ شون على الفور قائلاً: "سمعت بشهرتك منذ زمن بعيد، ولكنني لم أحلم بلقائك هذا النهار. ما أكثر ما سمعت الإخوة في أخوية الشجعان يتحدثون عن فضائلك، وكيف أنك تنقذ الملهوفين وتساعد المحتاجين، ومقدار ما أنت عليه من شهامة وسخاء".

- لا ينبغي أن تبالغ في هذا. منذ فترة قريبة أمضيت عدة أيام في منزل لي جون تنين النهر الهائج عند جبال جييانغ. ومن بعد، وبسبب مناوشة مع مو هونغ عند نهر خونيانغ، التقيت الأخ تشانغ هينغ، فكتب رسالة طلب إليَّ تسليمها إليك. وهي موجودة عندي في السجن. وجئت اليوم إلى جوسق بيبا هنا برفقة الناظر داي والأخ لي لاحتساء القليل من الصهباء والتفرج على مشاهد النهر. وتقت على حين غرة إلى تناول شيء من حساء السمك الذي ينعشني، فتطوع الأخ لي بالحصول على السمك ولم نستطع منعه. وحين سمعنا ضجة صاخبة على ضفة النهر أرسلنا الخادم لمعرفة ما يجري، فقال إن الفتى الضخم الأسمر يضرب الناس، فأسرعنا لنحول دون ذلك. ولم يخطر لنا أننا سنلتقيك. أيها المحارب. حقاً لقد باركتني السماء هذا النهار. فقد تعرَّفت إلى ثلاثة من الشجعان. أرجو أن تجلس وتشرب عدة أقداح معنا.

استدعوا الساقي لتجهيز المائدة وإحضار الخمرة والمشهيات.

خاطب تشانغ شون سونغ جيانغ قائلاً: "إن كنت تريد سمكاً يا أخي، فسأحضر لك قليلاً منه".

- عظيم.

قال لي كوي: "سأرافقك".

قال داي: "مرة أخرى؟ ألم تشرب كفايتك من الماء؟".

ضحك تشانغ شون، وأمسك يد لي كوي: "سنذهب لإحضار السمك معاً، ولنرَ الصدى الذي سينجم عن ذلك".

غادرا الجوسق وذهبا إلى النهر، صفر تشانغ شون صفرة واحدة، فاتجهت جميع قوارب الصيد إليه.

سأل تشانغ شون: "من لديه شبوط ذهبي؟".

صاح أحد أصحاب القوارب: "أنا".

وصاح آخر: "وأنا لديَّ شيء منه".

سرعان ما جمعت دستة من سمك الشبوط الذهبي. انتقى تشانغ شون أربع سمكات كبيرة من بينها، وربطها جميعاً بمحلاق من شجر الصفصاف. وطلب إلى لي كوي نقلها إلى الجوسق لإعدادها في المطهى، وسدد ثمنها، ثم أمر أحد المساعدين أن يباشر عمليات وزن السمك وبيعه. ورجع من بعد إلى جوسق بيبا للانضمام إلى سونغ جيانغ.

سأل الكاتب: "فيم أحضرت هذه الكمية الكبيرة؟ سمكة واحدة تكفي".

- مثل هذه الهدايا الصغيرة لا تستأهل الذكر. ما يتبقى منها تستطيع حمله إلى بيتك لتتناوله لاحقاً كوجبة خفيفة.

جلسوا تبعاً لأعمارهم. كان لي كوي أكبرهم سناً فجلس على المقعد الثالث. وجلس تشانغ شون على المقعد الرابع. وأمر الساقي أن يحضر جرتين من أفضل أنواع "الربيع في الزجاجات اليشمية"، بالإضافة إلى أصناف بحرية ومشهيات تناسب الخمرة. وأمر تشانغ شون الساقي بإحضار حساء مفلفل مصنوع من إحدى أسماك الشبوط الذهبي. أما الأخرى فتدفأ مع الخمرة بعد أن تشرح وتقطع جيداً.

وانهمك الرجال الأربعة في حديث ودي وهم يجرعون الخمرة. وفي هذه الأثناء دخلت فتاة في السادسة عشرة من العمر مرتدية ثياباً من الحرير. أدت التحية، وحيت كلاً منهم في احترام، وشرعت تغني فبترت بذلك حديث لي كوي الذي شرع يفاخر بشجاعته البطولية. وانصرف الرجال الثلاثة الآخرون إلى الإصغاء للفتاة.

وثب لي كوي ودفعها من جبينها بإصبعيه، فسقطت على ظهرها صارخة. واحتشد الناس لمعرفة ما حدث. استحال لون الفتاة الوردي إلى لون التراب، وعجزت شفتاها عن الكلام، واستلقت من دون حراك. وأراد صاحب الحانة أن يحتجز الرجال الأربعة تمهيداً لتسليمهم إلى السلطات.

الحقيقة أن ذلك الفتى الأمي الأشعث الذي لم يهز جوارحه جمال الفتاة أثار مشكلة عسيرة. فكيف استطاع سونغ جيانغ والثلاثة الآخرون الخروج من الحانة؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل التاسع والثلاثون

سونغ جيانغ يتلو شعراً ثورياً في سرادق خونيانغ؛
وداي زونغ يبعث رسالة زائفة من بحيرة ليانغشان

احتجز صاحب الحانة الرجال الأربعة صائحاً: "أيها السادة، ماذا فعلتم؟". وأمر خدمه وقد هزه الاضطراب أن يعملوا على إنعاش الفتاة.

رشوا وجهها بالماء، ففتحت عينيها. وأنهضوها على قدميها. كانت جبهتها قد خدشت قليلاً؛ ممّا تسبب في إغمائها. وشعر الجميع بالارتياح.

صعق أبواها حين سمعا أن من اعتدى عليها هو الإعصار الأسود، ولم يجرُؤَا على الاحتجاج. استردت الفتاة قدرتها على النطق، فعصبت لها أمها رأسها بمنديل، وجمعت دبابيس شعرها وحليها.

سأل سونغ جيانغ المرأة:

- أين تقطنون؟

- عائلتنا تدعى سونغ. ونحن من العاصمة، يا سيدي. وهذه الفتاة، اللوتسة اليشمية، ابنتنا الوحيدة. علمها والدها بعض القصائد الغنائية. ونزولاً عند أوامره جعلت تغني هنا في جوسق بيبا. ولكنها فتاة نافدة الصبر جاهلة، تصرُّ على الغناء حتى لو رأت السادة منهمكين في الحديث. وهكذا حرَّك هذا الأخ يده فجرحها قليلاً. ليس هنالك ما يدعو إلى الذهاب للسلطات وتوريطكم في الموضوع، أيها السادة.

سرَّ سونغ جيانغ لأن المرأة تحدثت عن معرفة بمكانتها الاجتماعية، وقال:

- إن أرسلت من يرافقني إلى السجن فسأنفحك بعشرين أوقية من الفضة تعطينها لفتاتك. جدي لها رجلا طيباً وزوجيها. هذا أفضل من أن تغني في الحانة لكسب معيشتها.

سجد أبوا الفتاة قائلين:

-عشرون أوقية مبلغ كبير كبير.

- كلمتي تقيدني، وأنا لا أكذب. فليرافقني بعلك لأعطيه النقود.

شكراه مرة أخرى:

- طوّقت عنقنا بمعونتك هذه يا سيدي.

انهال داي زونغ على لي كوي تقريعاً: "ينبغي أن تحسن معاملة الناس. انظر إلى مقدار الفضة التي جعلت أخانا ينفقها".

- لمستها بإصبعي فسقطت على الأرض. لم أر مثل هذه الأنثى الهشة في حياتي مطلقاً. ومن قال لها أن تكون على هذه الرقة؟ تستطيع أن تنهال على وجهي بمائة ضربة ولن أبالي.

ضحك سونغ جيانغ والآخرون. واستدعى تشانغ شون الساقي: "سجّل الحساب عليَّ".
قال الساقي في أدب: "كما تشاء. لا تبال. اذهبوا وحسب".
رفض سونغ جيانغ أن يسدد تشانغ شون الحساب، واحتجَّ قائلاً: "أنا من دعوتكم، ففيم تدفع أنت الحساب؟".
بقي تشانغ شون مصراً على موقفه: "على شرف التعرف إليك يا أخي. وقد طاف في ذهني وذهن تشانغ هينغ أن ننضم إليك حين كنت في شاندونغ. وأسعفني الحظ اليوم فالتقيتك أخيراً. يجب أن تسمح لي بهذه المنة الصغيرة. وهي عربون تافه لا يستأهل الحديث".
اقترح داي زونغ: "إن كان الأخ تشانغ يحترمك بهذا المقدار فلم لا تتركه يتصرف كما يشاء؟".
قال سونغ جيانغ: "حسن، شريطةَ أنِ أرد له الجميل فأدعوه على الشراب ذات يوم".
غمرت الفرحة جوانح تشانغ شون. حمل سمكتي الشبوط الباقيتين، وغادر وداي زونغ ولي كوي ووالد الفتاة جوسق بيبا برفقة سونغ جيانغ عائدين إلى السجن. جلس الجميع فترة في قسم النسخ، وأعطى سونغ جيانغ والد الفتاة قضيبين فضّيين صغيرين يزن كل منهما عشر أوقيات، فشكره الرجل وانصرف. ويكفي الحديث في هذا الموضوع.
كانت الظلمة ترخي سدولها. وقدم تشانغ شون السمك هدية، فأعطاه سونغ جيانغ رسالة شقيقه، وودعا بعضهما بعضاً. وأعطى سونغ جيانغ لي كوي سبيكة كبيرة تزن خمسين أوقية من الفضة قائلاً: "قد تحتاج إليها، يا أخي".
انصرف داي زونغ بدوره. وأعجل ولي كوي من خطواتهما عائدين إلى المدينة.
أرسل سونغ جيانغ إحدى السمكتين إلى السجان، وطبخ الأخرى لنفسه. كانت طازجة وشهية، فأكل أكثر مما ينبغي، وأصابه المغص في منتصف الليل. ومع طلة الفجر أنهكه الإسهال، فاستلقى في غرفته مهدود القوى وعاجزاً عن الحركة. كان على الدوام طيباً مع الناس، وصار الجميع في السجن يجهزون له الحساء والعصيدة ويعنون به أطيب عناية.
في اليوم التالي جاءه تشانغ شون بسمكتين أخريين كبيرتين من سمك الشبّوط الذهبي لمعرفته بحبه للسمك، ولشكره على رسالة شقيقه، فألفاه مريضاً في فراشه يعتني به المساجين الآخرون. فأراد أن يستدعي له طبيباً.
قال سونغ جيانغ: "لقد التهمت تلك السمكة الطازجة اللذيذة كلها. فإذا اشتريت لي دواء ضد الإسهال فسأغدو في حالة جيدة".
قدم تشانغ شون سمكة للسجان وانغ وأخرى لمدير السجن تشاو، واشترى الدواء لسونغ جيانغ، وانصرف. ولا حاجة بنا إلى مزيد من القول في هذا الخصوص. جهز المساجين الدواء واستمروا على العناية بالمريض.
في اليوم التالي جاء داي زونغ ولي كوي إلى قسم النسخ لزيارة سونغ جيانغ وهما يحملان اللحم والخمرة. كانت صحته قد تحسنت، ولكنه لا يستسيغ اللحم والخمرة. فاضطرا إلى الإجهاز عليهما بنفسيهما خارج غرفته. وبقيا في رفقته حتى ساعة متأخرة من ذلك النهار، ثم ودعاه وانصرفا.

ولا حاجة إلى مزيد من الكلام في هذا الموضوع. بعدما استراح سونغ جيانغ ستة أيام أو سبعة شعر باسترداد عافيته، فعزم على الذهاب إلى المدينة لرؤية داي زونغ. ومرَّ يوم آخر من دون أن يقوم الناظر بزيارته. وفي بكور اليوم التالي، بعدما تناول طعام الفطور، أخذ سونغ جيانغ قليلاً من الفضة، وأقفل الباب، وغادر السجن متجهاً نحو شطر المدينة. وعند مكتب الولاية استفسر من أحد الأشخاص عن مكان إقامة الناظر داي.

قال الرجل: "هو من دون زوج أو أولاد. ويقيم في دير غوانين المجاور لمعبد المدينة".

ذهب سونغ جيانغ إلى هناك، ولكن باب داي كان مغلقاً. لقد خرج.

فتش من بعد عن لي كوي الإعصار الأسود، فأجابه عدد من الناس: "إن هذا الرجل شبح من دون رأس. ليس له بيت ما عدا السجن. كما أنه لا يتقيد بأي نظام؛ فهو يقضي عدة أيام هنا، وعدة أيام هناك. وأنت لا يمكن أن تعرف أين يكون".

ذهب سونغ جيانغ بعدها ليفتش عن رئيس الصيادين تشانغ شون فقالوا له: "إنه يعيش في قرية في الضواحي. وحين يبيع السمك فهو يقوم بذلك على ضفة النهر خارج المدينة. وهو يحضر إلى المدينة لمجرد جمع النقود".

غادر الكاتب المدينة من جديد وهو يترجى العثور على تشانغ شون. غير أنه لم يعثر على من يسأله عنه. تابع طريقه وحيداً يائساً، وسرعان ما وصل إلى ناحية حلوة من النهر، فأغبطه المشهد. رأى إلى الأمام منه حانة من عدة طبقات. وإلى جانبها عمود طويل ترفرف في قمته راية زرقاء مزخرفة بهذه الكلمات: "القبو الفاخر بجانب نهر خونيانغ". وكان اسم الحانة، سرادق خونيانغ، مكتوباً بحروف كبيرة بخط الشاعر سو دونغ بوه على لوحة تحت الطنف.

قال سونغ جيانغ في نفسه: سمعت في يونتشنغ عن سرادق خونيانغ في جيانغتشو. وها هو أمامي. وعلى الرغم من أني وحيد فلا ينبغي أن أضيع هذه الفرصة. سأصعد إلى إحدى هذه الطبقات وأستريح قليلاً.

كانت هنالك على العمودين القرمزيين المنحوتين على جانبي الباب لوحتان بيضاوان كتب عليهما سطران: "خمرة لا تضاهى" و"مطعم ذائع الشهرة".

دخل سونغ جيانغ، وصعد الدرج، وجلس في غرفة تطلُّ على النهر. استند إلى الدرابزون وأجال النظر حواليه مستمتعاً.

جاء الساقي، وسأل: "أتنتظر أحداً، يا سيدي، أم إنك بمفردك؟".

- كنت أترقب ضيفين، ولكنهما لم يحضرا. جئني بجرة من الخمر الجيد أولاً، ومن بعد ببعض الفواكه واللحم. لست أريد سمكاً.

نزل الساقي إلى الطابق الأرضي ورجع سريعاً وهو يحمل جرة من "نسيم ضوء القمر على جسر العشاق" - وهو شراب رائع - وصينية من أطباق الخضار والمشهيات. وجاء من بعد بلحم ضأن ودجاج هش وإوز لطيف وشريحة من لحم البقر في أطباق قرمزية اللون.

فاضت الفرحة في أعطاف سونغ جيانغ، وهمس في نفسه: "طعام لذيذ في آنية فخارية رائعة.

إن جيانغتشو جديرة بشهرتها. وعلى الرغم من أني منفي هنا فأنا أستمتع بهذه المشاهد الجميلة. إن لدينا عدداً من المراكز الجميلة والآثار القديمة، ولكنها لا تقارن بهذه المناظر".

جعل يشرب وقد جلس إلى جانب الدرابزون. وسرى السكر في أعطافه تدريجياً من دون أن ينتبه إلى ذلك. وقال في نفسه، وقد طغت عليه كآبة مفاجئة: "لقد أبصرت النور في إقليم شاندونغ، ونشأت في مدينة يونتشنغ. وامتهنت عمل الكاتب، فتعرفت إلى عدد من الفتيان الطيبين في أخوية الشجعان، وطارت لي سمعة طيبة. وعلى الرغم من أني تجاوزت الثلاثين فأنا لم أجعل لاسمي شهرة كافية أو أقم بعمل بارز. وبدلاً من ذلك وشمت على وجنتي كمجرم وأعيش في المنفى. من يدري متى أرى والدي العجوز وشقيقي مرة أخرى!".

انسربت الخمرة إلى رأسه، فبكى وقد طغى عليه اليأس. وعلى حين فجأة عزم على كتابة الشعر. فأمر الساقي أن يحضر له ريشة وحبراً، ونهض وأنعم النظر في الأشعار التي كتبها الآخرون على الجدران المطلية باللون الأبيض.

قال في نفسه: "لم لا أكتب شعري على الجدار أيضاً؟ ذات يوم، حين أحقق لنفسي مركزاً في هذا العالم، سأحضر إلى هنا وأقرأه مرة أخرى، وأعيد التفكير في شقائي الراهن".

أثارته الخمرة، فطحن قليلاً من الحبر، وغطَّ فيه ريشته، وكتب على الجدار الأبيض:

قوياً شببتُ وكنتُ صغيرا
درستُ الحضارات درس الدؤوبْ
أنا اليوم غرٌّ أعيش أميرا
أعضُّ وأخدش ملءَ الدروب
وُشِمْتُ على الوجه وشمَ السجينْ
نُفيت إلى بلدٍ في البعيدْ
سأثأر يوماً لقلبي الحزين
وبالدم أصبغُ وجه الجليدْ

ضحك سونغ جيانغ ضحكة مجلجلة، وقد أغبطه الجهد الذي بذله. وعبَّ عدة أكواب من الخمرة. وجعل يرقص سروراً. وتناول ريشته مرة أخرى وأضاف أربعة أبيات جديدة:

تركتُ فؤاديَ في قريتي
ورحتُ أطوفُ وراء الحدودْ
غداً إن حصلتُ على بغيتي
أكون الفريدَ بهذا الوجودْ

وكتب في نهاية الأبيات بحروف كبيرة: "بقلم سونغ جيانغ من يونتشنغ"، وألقى الريشة على المنضدة، وترنَّم بالأبيات بينه وبين نفسه، ثم جرع عدة أكواب أخرى من الخمرة. أفقدته الصهباء صوابه، فطلب الفاتورة، وسدد قيمتها، وطلب إلى الساقي أن يحتفظ لنفسه بما تبقى من مال، وسوّى كميه الطويلين، وترنَّح متمايلاً وهابطاً عن الدرج، وآب إلى السجن، وفتح الباب وارتمى على

الفراش.

غفا على الفور إلى صباح اليوم التالي. وحين استيقظ لم يعد يذكر شيئا عن كتابة الشعر في سرادق خونيانغ. كانت آثار الخمرة قد فعلت فيه فعلها، فبقي مضطجعاً في فراشه النهار بطوله. ولن نضيف حول هذا الموضوع حرفاً.

قبالة جيانغتشو، على الضفة الثانية من النهر، مدينة تدعى وويجون، وهي مدينة منعزلة، كان يقيم فيها نائب والٍ سابق يدعى وين بينغ واسم عائلته هوانغ. وعلى الرغم من أنه قرأ مجموعة كبيرة من الآداب الكلاسيكية فقد كان متملقاً ضيق الصدر يغار من الرجال الشجعان. وكان يتقصد إنزال الأذى بمن يعلوه رتبة، والسخرية ممن هم دونه فيها. وكان له ولع في إيذاء الناس في المدينة بأسرها.

كان على علم بأن الوالي تساي هو ابن رئيس الوزراء، وما أكثر ما كان يعبر النهر لزيارته للفوز بالحظوة لديه. وكان يأمل أن يحظى من جراء ذلك بوظيفة جديدة. كان مقدراً على سونغ جيانغ أن يثير سخط هذا الرجل؛ الأمر الذي جعله يعتبره خصماً له.

في ذلك النهار، كان هوانغ وين بينغ يجلس في بيته متضجراً، فنادى على خادمين، وابتاع بعض الهدايا القيمة، وعبر النهر في قاربه السريع، ومضى يزور الوالي. وكان تساي في وليمة عامرة فخشي هوانغ من مضايقته، ورجع إلى القارب الذي ربطه الخادمان مصادفة، تحت سرادق خونيانغ.

كان النهار قائظاً، فتمشى هوانغ إلى الحانة. وبعدما تفقد قبو الخمور صعد إلى الطابق العلوي ودلف إلى الغرف المطلة على الشرفة. وأطال النظر إلى الأشعار المدونة على الجدار، وكان بعضها مكتوباً بخط مقروء جيداً، وبعضها هراء متنافر الكلمات. فابتسم متشامخاً.

وقرأ من بعد الشعر الذي كتبه سونغ جيانغ، وهتف قائلاً: "هذا شعر ثوري. من يمكن أن يكون قد خطَّه؟". وحملق في التوقيع: "سونغ جيانغ من يونتشنغ".

وقرأ الشعر مرة أخرى: "قوياً شببتُ وكنت صغيرا، درستُ الحضارات درس الدؤوب".

وضحك في برودة: "إنه يقدِّر نفسه كثيراً!".

واسترسل في القراءة: "أنا اليوم غرٌّ أعيش أميراً، أعضُّ وأخدش ملء الدروب".

ورمى رأسه إلى الجانب قائلاً: "هذا الجلف لا يملك شيئاً من اللياقة".

وتابع القراءة: "وشمتُ على الوجه وشم السجين، نُفيت إلى بلد في البعيد".

وضحك مرة أخرى: "هذا شخص حقير الذهن. وليس أكثر من سجين منفيّ".

وعاود القراءة:

- سأثأر يوماً لقلبي الحزين، وبالدم أصبغ وجه الجليد".

وهزَّ رأسه:

- ممن يريد هذا الحقير أن يثأر؟ وفيم يثار هنا؟ إنه مجرد رجل منفي. فماذا في طوقه أن يفعل؟".

"تركتُ فؤادي في قريتي، ورحت أطوف وراء الحدود".

وهزَّ هوانغ رأسه: "هذه الأبيات تعني شيئا على أقل تقدير".

"غداً إن حصلتُ على بغيتي، أكون الفريد بهذا الوجود!".

مدَّ هوانغ لسانه، وهزَّ رأسه: "يا للوقاحة! يا للقائد الثائر! إن لم يكن هذا إعلاناً بالعصيان والثورة فلست أعرف ماذا يكون!".

قرأ هوانغ التوقيع مرة أخرى: "سونغ جيانغ من يونتشنغ". وتساءل: "أين سمعت بهذا الاسم من قبل؟ لعله أحد الموظفين الصغار".

واستدعى الساقي:

- من كتب هذا الشعر؟

- رجل كان هنا ليلة البارحة. وشرب جرة كاملة وحده.

- وكيف هو شكله؟

- كان هناك خطان من الوشم على وجنته. ويبدو أنه أحد نزلاء سجن المدينة. وهو فتى قصير البنية، سمين، داكن البشرة.

قال هوانغ:

- حسن.

وطلب ريشة وحبراً، ونسخ الشعر على صحيفة من الورق.

وفي اليوم التالي، بعيد الفطور، ذهب لزيارة الوالي برفقة خادمين يحملان الهدايا. كان تساي قد انتهى من أعماله الرسمية ورجع إلى مسكنه. فذهب ضابط ليعلن عن قدوم هوانغ. وأسرع الضابط خارجاً ورافق هوانغ إلى الردهة الخلفية. وهنالك انضم تساي إليه. وبعد حديث ودي وتقديم الهدايا جلس كل منهما على مقعد.

وقال هوانغ:

- عبرت النهر في الليلة الماضية لتقديم وافر احترامي، ولكنك كنت تقيم وليمة فما أردت الدخول. وهكذا حضرت اليوم.

- كان يمكن أن تشاركنا الحفل باعتبارك صديقاً وفياً. ويؤسفني أنك لم تفعل.

وأمر تساي بإحضار الشاي.

استفسر هوانغ بعد ارتشاف قليل من الشاي: "أأجرؤ على الاستيضاح عمّا إذا كنتم قد تلقيتم من والدكم المحترم الوزير الأول أية أنباء مؤخراً؟".

- تلقيت منه رسالة قبل يومين اثنين.

- ما هي أخبار العاصمة؟

- يقول إن المنجم الملكي أعلن في تقرير رفعه إلى العرش أن ثمة نجماً شريراً يشعُّ نوره على أرضنا في وو وتشو، وأن هنالك احتمالاً بوقوع شغب في الخارج يحسن أن نتداركه. وفضلا عن هذا، كما يقول والدي، إن الأولاد في الشوارع ينشدون هذا اللحن: مدمر بلادنا بيت وشجرة؛ والماء والعمل هما الجند المسلَّح؛ وسينبسط ستة وثلاثون في صف واحد؛ وستوقعنا شاندونغ في ورطة عصيبة".

أغرق هوانغ في التفكير لبرهة، ومن بعد افترَّ ثغره عن ابتسامة: "لا يدهشني هذا يا صاحب السعادة". وأخرج من كمه الشعر الذي نسخه وأعطاه إلى تساي: "وهذا هو السبب".

قرأ تساي الأبيات. وقال: "هذا شعر ثوري. من أين حصلت عليه؟".

- لم أجسر على الدخول البارحة، فتمشيت إلى ضفة النهر. وأردت أن أتسلّى فعرَّجت على سرادق خونيانغ هرباً من القيظ. وهناك رأيت بعض الأشعار الهوجاء مكتوبة على الجدار أبيض اللون ومن ضمنها هذه الأبيات المكتوبة حديثاً.

- ومن يكون ناظمها؟

- لقد كتب اسمه تحتها. سونغ جيانغ من يونتشنغ.

- ومن يكون؟

- يخبرنا في شعره قائلاً: "وشمت على الوجه وشم السجين، نفيت إلى بلد في البعيد". هو منفي، ومجرم في سجن المدينة.

- وماذا في مقدور مثل هذا الرجل أن يفعل؟

- لا تستهن به يا صاحب السعادة. هذا يتفق بالضبط مع أنشودة الفتيان التي أشار إليها والدكم المحترم في رسالته.

- ماذا تقصد؟

- مدمر بلادنا بيت وشجرة. ضع حرف كلمة "بيت" فوق كلمة "شجرة" فينتج عن ذلك كلمة "سونغ". وهذا هو الشخص الذي سينهب ثروة بلادنا وحبوبها. ومن بعد: الماء والعمل هما الجند المسلح؛ وهذا هو الشطر الثاني. ضع جذر كلمة "ماء" إلى جانب كلمة "عمل" فتحصل على كلمة "جيانغ"، وهو الرجل الذي سيثير الجند المسلح. ويكون الناتج سونغ جيانغ الذي خط الشعر الثوري. هذا نذير من السماء. ما أسعد حظ الجماهير!

- وماذا عن "سينبسط ستة وثلاثون في صف واحد؛ وتوقعنا شاندونغ في ورطة عصيبة؟".

- ستة وثلاثون تشير إلى سنة حكم إمبراطورنا، أو ربما تكون عدد شيء ما. أما توقعنا شاندونغ في ورطة عصيبة، فإن مقاطعة يونتشنغ تقع في شاندونغ. هنالك شيء من التطابق مع كل سطر في هذه القصيدة.

- ألا يبرح هذا الرجل هنا؟

- حين استفهمت من الساقي في الليلة الماضية أفاد أن الرجل كتب الشعر قبل البارحة. ولكن، من اليسير اكتشاف ذلك. لنراجعنَّ سجل السجن.

- هذه فكرة صائبة حقاً.

أمر تساي أحد المساعدين بإحضار سجل سجن المدينة من غرفة السجلات. وتفحصه شخصياً. وقد دوِّن فيه حقاً تاريخ الدخول: "الشهر الخامس، سجين منفي جديد، سونغ جيانغ من مقاطعة يونتشنغ".

قال هوانغ: "هذا هو الرجل المذكور في القصيدة. إن تماهلنا فقد يتسرب نبأ أننا نتعقبه. يحسن

أن نقبض عليه مباشرة ونحبسه. وبعدها نناقش خطوتنا التالية".

قال الوالي: "على الفور".

واستدعى حاشيته، وطلب ناظر السجنين في المدينة، فحضر داي زونغ وحيا الوالي في احترام.

- خذ عدداً من رجال الشرطة، واذهب إلى سجن المدينة وأحضر سونغ جيانغ من يونتشنغ إلى هنا. لقد كتب شعراً ثورياً في سرادق خونيانغ. لا أريد لحظة واحدة من التأخير.

ارتعب داي زونغ، وزمجر في سره، وغادر مكتب الوالي. جمع عدداً من حراس السجن، وأصدر أمره إليهم قائلاً: "اذهبوا إلى منازلكم وأحضروا أسلحتكم واجتمعوا في جناحي المجاور لمعبد المدينة".

وتفرق الرجال. واستخدم داي زونغ وسيلته السحرية في التنقُّل، وطار إلى قسم النسخ في السجن، وفتح باب سونغ جيانغ. كان صديقه في غرفته. وما إن وقع بصر الكاتب عليه حتى أسرع يحييه. قال: "ذهبت إلى المدينة قبل البارحة، فلم أعثر عليك في أي مكان. قتلني السأم فتمشيت إلى سرادق خونيانغ وأتيت على زجاجة من الخمر وحدي. ولم أشف من آثارها حتى الآن".

استوضح داي: "يا أخي، ما هو نوع الشعر الذي كتبته على الجدار؟".

- من يدري؟ كنت سكران.

- لقد استدعاني الوالي قبل لحظات وأمرني أن أحشد عدداً من الرجال للقبض عليك لأنك كتبت شعراً ثورياً في سرادق خونيانغ. وقد هزني الرعب، فأمرت رجالي بانتظاري في معبد المدينة لكي تتاح لي الفرصة لإخطارك بالأمر أولا. يا أخي، ماذا ستفعل؟ وكيف سنخرجك من هذا المأزق؟

حك سونغ جيانغ رأسه في ارتباك، وأنَّ قائلاً: "لقد قضي عليَّ".

قال داي: "ثمة وسيلة للخلاص، على الرغم من أنها قد لا تفيد في شيء. لا أستطيع التأخر أكثر مما فعلت. يجب أن أحضر رجالي وأعتقلك. انفش شعرك، وانشر برازك على الأرض، وعفر نفسك به، وتظاهر بالجنون. وحين أحضر مع رجالي ليكن كلامك حديث مجنون، وتظاهر بأنك فقدت عقلك. وسأرجع إلى الوالي وأقول إنك جننت".

- شكرا لك، يا أخي. أنقذني، أتوسَّل إليك!

ودعه داي على الفور، وانقلب راجعاً إلى المدينة، وانضم إلى رجاله في معبدها، وقفل برفقتهم إلى السجن في خطوات سريعة. صاح في ضراوة مفتعلة: "أين المنفي الجديد سونغ جيانغ؟". وقاد رجاله إلى غرفة سونغ جيانغ في قسم النسخ.

هنالك عثروا على الكاتب منفوش الشعر ويتدحرج على برازه على الأرض.

سأل سونغ جيانغ: "من تكونون أيها الحمقى؟".

زمجر داي: "اقبضوا على اللعين".

شرع سونغ جيانغ، وقد جحظت عيناه، يصارع في جنون: "أنا صهر إمبراطور السماء اليشمي. أرسلني إلى هنا مع مائة ألف من القوات الإلهية لذبح جميع سكان جيانغتشو. وملك الجحيم يقود حرسي المتقدّم، والجنرال الشيطاني يأمر الجنود في مؤخر الجيش. وقد أعطاني إمبراطور السماء

خاتماً ذهبيا يزن ثمانمائة كاتي. وسوف أقتل كل زنيم بينكم!".

قال رجال الشرطة: "إنه مجنون، فما الفائدة المرجوة من اعتقاله؟".

قال داي: "أنتم على حق. لنرجعنَّ أدراجنا ونقدم تقريرنا. فإذا أمرنا بالقبض عليه عدنا إليه ثانية".

رجعوا إلى الوالي حيث كان تساي ينتظر في قاعته. وقدموا تقريرهم قائلين: "فقد سونغ جيانغ عقله. وهو يتدحرج في القاذورات ويتحدث في جنون. كان يضرب بوحشية فلم نجرؤ على إحضاره إلى هنا".

أراد تساي أن يستفسر أكثر حين برز هوانغ من وراء ستارة، ونصح الوالي قائلاً: "لا تصدق ما يقولونه. هذا الشعر الذي كتب ليس من نظم رجل مجنون. هنالك ما يبعث على الريبة في هذا الأمر. أحضروه إلى هنا. وإن لم يستطع السير فاحملوه".

قال تساي: "أنت على حق". والتفت إلى الناظر: "لا أريد أعذاراً. أريده هنا".

الأوامر هي الأوامر. زمجر داي في سره، وقاد رجاله إلى السجن مرة أخرى. وهمس قائلاً: "لم تسر الأمور على ما يرام يا أخي. عليَّ أن آخذك معي". وُضع سونغ جيانغ في قفص كبير من خشب البامبو، ونقلوه إلى الوالي.

أمر الوالي: "أحضروا هذا الوغد إليَّ".

أحضر الحراس سونغ جيانغ أمام منصة الوالي، فرفض أن يركع، وصاح، وقد تفجر غضباً: "كيف تجرؤ على استجوابي! أنا صهر الإمبراطور اليشمي. أرسلني إلى هنا مع مائة ألف من القوات الإلهية لذبح جميع سكان جيانغتشو. وملك الجحيم يقود حرسي المتقدم والجنرال الشيطاني يأمر الجنود في مؤخر جيشي. وقد أعطاني إمبراطور السماء خاتماً ذهبياً يزن ثمانمائة كاتي. اختبئوا قبل أن أقتل كل زنيم بينكم!".

ارتبك الوالي، فخاطبه هوانغ من جديد: "استدع السجان وقائد السجن. واسألهما إن كان مجنوناً وقت قدومه، أم إن هذا الجنون قد حدث مؤخراً. إن كان مجنوناً بتاريخ قدومه فالجنون حقيقي إذاً. أما إذا كانت هذه الحال قد نجمت الآونة فقط، فهي مزيفة".

قال الوالي: "قول لا غبار عليه". وأرسل في طلبِ السجان وقائد السجن واستجوبهما. وكان من العسير عليهما أن يكذبا، فاعترفا قائلين: "لم تبد عليه أي آثار للجنون يوم جاء. ولكنها بدت عليه في الفترة الأخيرة".

غضب تساي، وأمر الحراس أن يطرحوا السجين أرضاً ويجلدوه خمسين جلدة. وجلد سونغ جيانغ إلى أن صار ميتاً أكثر منه حياً، وتشقق جلده وسال الدم منه. راقب داي زونغ ذلك وهو عاجزٌ عن مساعدته.

أول الأمر استرسل سونغ جيانغ في هذيانه مثل المجانين، ولكنه لم يلبث أن فقد القدرة على السمع فصاح: "كتبت شِعرا ثورياً لأني كنت سكران، ولم أقصد من ورائه شراً".

حين سمع الوالي هذا الاعتراف أمر بأن توضع حول عنقه مخلعة تزن خمسة وعشرين كاتيا

من مخالع المجرمين الخطيرين، وأن يلقى به في السجن الكبير. كان سونغ جيانغ قد ضرب حتى عجز عن السير. وضعت المخلعة حول عنقه على الفور، وألقي به في زنزانة المحكومين. وأمر داي الحراس سراً أن يحسنوا معاملته، وأن يرسل إليه الطعام. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

صرف الوالي مستشاري محكمته ودعا هوانغ إلى الردهة الخلفية. وقال: "لولا بعد نظرك لكان ذلك اللئيم قد استحمقني تماماً".

- القضية عاجلة، يا صاحب السعادة. يحسن أن ترسل رجلاً على الفور إلى العاصمة مزوداً برسالة إلى والدكم المحترم تنبئه فيها كيف عالجت هذه القضية ذات الأهمية الوطنية. اقترح عليه إذا رغب في مثول الرجل بين يديه حياً أن ترسله إليه في إحدى عربات السجن. وإذا لم يرغب في ذلك، أو إذا خشي أن يفرَّ على الطريق، أعدمه هنا وتخلص من خطر عظيم. ولسوف تسرّ هذه الأنباء الإمبراطور أعظم السرور.

- كلامك معقول. كنت أنوي أن أرسل شخصاً إلى العاصمة يحمل الهدايا إلى والدي على أية حال. وسوف أذكر مآثرك هذه في رسالتي، وأسأله أن يطلب إلى الإمبراطور أن يعينك مسؤولاً في مدينة ثرية، وهكذا تحصل سريعاً على الشهرة والثروة معاً.

- في حياتي بطولها سأعوِّل على إحسانك يا صاحب السعادة، وأخدمك في إخلاص وكأنني أحد السائسين لديك.

كتب الوالي الرسالة وختمها بخاتمه، فاستوضح هوانغ: "من الرسول الأمين الذي ستبعثه إلى والدك؟".

- ناظر سجنَي مدينتنا رجل يدعى داي زونغ. وهو يجيد تعويذة تجعله يجتاز ثمانمائة ليا في يوم واحد. سأنتدبه لهذه المهمة. وسيقطع المسافة خلال عشرة أيام.

- إذا كانت له هذه القدرة على السفر سريعاً، فهذا أمر مدهش.

قدم الوالي لهوانغ الخمرة في الردهة الخلفية. وفي اليوم التالي، انصرف هوانغ من دارة الوالي وقفل إلى وويجون.

ملأ الوالي سلتين ذهباً وجواهر وحلياً ثمينة، وأغلقهما وختمهما. وفي اليوم التالي، استدعى داي زونغ إلى الردهة الخلفية.

- عندي هنا بعض الهدايا، ورسالة أريد تسليمها إلى والدي الوزير الأول في العاصمة الشرقية قبل ذكرى ميلاده التي تصادف في الخامس عشر من الشهر القمري السادس. وهذا التاريخ يقترب سريعاً، ولا يستطيعنَّ سواك الوصول إلى هناك في الوقت المحدد. لا تحدثني عن صعوبات. سافر ليل نهار، وارجع إليَّ بجواب فأكافئك بسخاء. لقد رسمت مخطط الرحلة، وحدّدت الزمن الذي تتطلبه، فاستخدم طريقتك العجائبية، وسأنتظر تقريرك هنا. لا تتوان على الطريق. فهذا أمر لا ينبغي التواني فيه.

لم يستطع الناظر رفض هذا الأمر. أخذ السلتين والرسالة، وألقى تحية الوداع، وانصرف ليهيئ نفسه للسفر. وذهب من بعد لرؤية سونغ جيانغ في زنزانته.

قال داي: "في مقدورك أن تسترخي يا أخي. فالوالي يرسلني في مهمة إلى العاصمة الشرقية خلال فترة زمنية لا تزيد عن عشرة أيام. وخلال وجودي في دارة الوزير الأول سأعمد إلى إجراء الاتصالات وسأخرجك من هذا المأزق. سيكون لي كوي مسؤولا عن تأمين طعامك يومياً. تدرع بالصبر فترة من زمن".

- أرجو أن تنقذ حياتي يا أخي.

استدعى الناظر لي كوي، وقال له: "كتب أخونا شعراً ثورياً فحكم عليه بالسجن، ولا نعرف بعد المصير الذي ينتظره. سأرحل اليوم في مهمة إلى العاصمة الشرقية، وسأرجع سريعاً. ومن واجبك أن تؤمن له الطعام يومياً".

- إذاً، لقد كتب شعراً ثورياً. وأية أهمية لهذا الأمر؟ لقد غدا آلاف المتآمرين موظفين كباراً. ارحل إلى العاصمة ولا يشغلنَّك القلق أبداً. لن يجرؤ أحد في هذا السجن على إزعاجه. سأرد الجميل بجميل مثله. أما إذا خطر لأحد أن يلجأ إلى الخشونة فسأحمل فأسي وأقطع له عنقه!

- حذار، أرجوك. إذا سكرت فقد لا يحصل أخونا على وجبات طعامه.

- إذا كان هذا ما يقلقك فلن أقرب جرعة واحدة طوال فترة غيابك. سأرعى الأخ سونغ جيانغ كل لحظة. ولم لا أفعل ذلك؟

غمرت الفرحة فؤاد داي فقال: "هذا عظيم؛ إن كنت صادقاً في قولك".

رحل داي في ذلك النهار. وامتنع لي كوي عن احتساء الشراب، وأقام في السجن على رعاية سونغ جيانغ لا يفارقه لحظة أو يبتعد عنه خطوة.

رجع داي زونغ إلى جناحه، ولبس جوربين عاليين، وصندلاً من القش في قدميه، وارتدى ثوباً أصفر اللون شده حول وسطه بنطاق علق فيه صفيحة تعريف. وأبدل منديل رأسه ووضع الرسالة في حقيبته مع قليل من المال للإنفاق منه في الطريق، وحمل السلتين بعد أن علقهما على طرفي حمالة على كتفيه.

وحين خرج من المدينة ألصق تعويذتين على كل من ساقيه، وتمتم ببعض كلمات السحر، وانطلق في سبيله. سار النهار بطوله، وتوقف في خان ليمضي الليل فيه. نزع التعويذات، وأحرق بعض النسخ الورقية الزائفة من السبائك الذهبية هدية لإمبراطور السموات، ثم لجأ إلى فراشه.

أبكر في النهوض صبيحة اليوم التالي، وتناول شيئا من الطعام والشراب، وغادر الخان. وألصق التعويذات الأربع، وحمل السلتين، وسافر. كانت خطواته سريعة، وجعلت المطر والرياح يصفران في أذنيه وقدميه لا تمسان الأرض. توقف مرة أو مرتين لتناول وجبة خفيفة على الطريق.

في آخر النهار، أمضى ليلته في خان. وفي صبيحة اليوم التالي نهض في فترة الحراسة الخامسة للاستفادة من رطوبة الصباح. ألصق التعويذات، وانطلق بالسلتين على حمالة كتفيه. وفي منتصف الصباح، كان قد اجتاز قرابة ثلاثمائة ليا قبل أن يصادف أية حانة نظيفة.

كان النهار شديد الرطوبة في بداية الصيف. فتبللت ثياب داي بالعرق، وأضنته الحرارة. ولمح على الطريق حانة بعدما أنهكه الجوع والظمأ. كانت الحانة إلى جانب بحيرة عند طرف أيكة. فدلف إليها كي لا يضيع الوقت سدًى. كانت نظيفة، وفيها دستة من المناضد المدهونة باللك الأحمر، ودكك من اللون ذاته موضوعة في صف واحد إلى جانب النوافذ.

دلف، واختار منضدة منعزلة، وأنزل سلتيه، وحل نطاقه، وخلع عباءته، وبللها بالماء، ونشرها على حافة النافذة لتجف. وفيما هو يتخذ مجلسه جاءه الساقي: "كم تريد من الخمرة يا سيدي؟ هل تريد لحماً معها؟ لدينا لحم ضأن، وبقر".

- هات خمرة. وجئني بقليل من الأرز.

- فضلا عن الخمرة والأرز نحن نبيع خبزاً مبخراً وحساء بالشعيرية.

- لست أريد لحماً. هل لديكم شيء من الخضار؟

- ما رأيك في القليل من خثارة الفاصولياء المطهوة بالفلفل؟

- رائع.

رجع الساقي سريعاً وهو يحمل خثارة الفاصولياء وطبقين من الخضار، وصبَّ ثلاث طاسات كبيرة من الخمرة. كان داي جائعاً. فأتى على الخمرة وخثارة الفاصولياء. وجعل ينتظر الأرز حين شرعت الأرض والسماء تدوران به. وغشي بصره، فتهاوى على الدكة.

صاح الساقي: "لقد سقط".

خرج من الحانة رجل. كان تشو غوي، تمساح الأرض الجافة، والعضو في قلعة جبل ليانغشان.

أمر تشو غوي: "خذوا السلتين إلى الداخل وابحثوا في محتوياتهما".

قام مساعدان بتفتيش داي فعثرا على محفظته الورقية. ناولاها إلى تشو غوي، فنزع الغلاف، ووجد ملفاً دونت عليه الكلمات التالية: "رسالة عائلية سلمية، مع جزيل الاحترام إلى الوالد من ولده تساي ده تشانغ". مزق تشو غوي المغلف وقرأ الرسالة من مطلعها وحتى نهايتها. وقد ورد فيها ما يلي:

اليوم اعتقلنا رجلا له علاقة بالأنشودة التي أخبرتني عنها، وقد كتب شعراً ثورياً. إنه سونغ جيانغ من شاندونغ، وألقينا به في السجن... في انتظار أوامركم بشأنه.

صُدم تشو غوي بصورة نعجز عن وصفها. وأمر مساعديه بحمل داي إلى المظلة حين لمح شيئاً أحمر اللون أخضره معلقا بالنطاق ومكوماً على الدكة. فالتقطه. كانت صحيفة تعريف رسمية. وكانت هذه الكلمات محفورة عليها بالفضة: "داي زونغ، ناظر السجين في جيانغتشو".

أمر تشو غوي مساعديه صارخاً:

- مهلاً. لطالما سمعت مستشارنا العسكري يتحدث عن صديق له اسمه داي زونغ المسافر الأعجوبي من جيانغتشو. أيمكن أن يكون هذا الرجل؟ لكن، لِمَ تراه يحمل رسالة تؤذي سونغ جيانغ؟ لقد أرسلته السموات ليقع بين يديَّ.

وأمر مساعديه من جديد:

- أعطوه ترياقاً وأنعشوه. أريد أن أستجوبه.

صب المساعدون خليطاً في قليل من الماء، وأنهضوا داي وسقوه إياه. وسرعان ما فتح عينيه ونهض على قدميه، فرأى تشو غوي والرسالة في يده. فصرخ:

- من تكون؟ وكيف تجرؤ على تخديري؟ كما أنك فتحت رسالة الوزير الأول! ألا تعرف عقوبة هذه الجريمة؟

ضحك تشو غوي: "وماذا ينجم عن ذلك؟ ما أهمية فتح رسالة الوزير الأول في عيني رجل يعارض إمبراطور سونغ؟".

شده داي زونغ فسأله: "من أنت أيها الفتى الشجاع؟ وما اسمك؟".

- أنا تشو غوي، تمساح الأرض الجافة، من عصبة الشجعان في بحيرة ليانغشان.

- إذا كنت واحداً من القادة، فلا تريُّب عندي أنك تعرف وو يونغ.

- هو مستشارنا العسكري المسؤول عن جميع العمليات العسكرية. وكيف تعرفه؟

- إنّه صديقي الحميم.

- أنت الناظر داي إذاً، المسافر الأعجوبي من جيانغتشو الذي يتحدث عنه كثيراً؟

- أنا هو.

- حين كان سونغ جيانغ في طريقه إلى منفاه في جيانغتشو أقام في قلعتنا، وأعطاه وو يونغ رسالة إليك. فلِمَ تساعد في القضاء على حياته؟

- سونغ جيانغ بمثابة أخ لي. كتب شعراً ثورياً وأرغمت على اعتقاله. وأنا في طريقي إلى العاصمة الآن للعثور على وسيلة أنقذه بها. ما كنت لأؤذي سونغ جيانغ على الإطلاق.

قال تشو غوي: "ألا تصدقني؟ ألقِ نظرة على هذه".

قرأ داي الرسالة التي كتبها الوالي فأجفل. وروى لتشو غوي كيف التقى سونغ جيانغ حين وصل حاملاً رسالة من وو يونغ، وكيف سكر سونغ جيانغ وكتب شعرا ثوريا في سرادق خونيانغ.

قال تشو غوي: "في هذه الحال، أرجو أن ترافقني إلى القلعة وتروي الحديث للقادة. يجب أن نسرع لإنقاذ سونغ جيانغ".

قدم الخمرة والطعام لداي أولاً، ثم ذهب إلى الجوسق المطل على البحيرة وأطلق سهماً صافراً إلى الخليج المقابل. وسرعان ما خرج أحد الرجال يقود قارباً. ساعد تشو غوي داي في نقل السلتين إلى القارب. وحين رسا القارب عند شاطئ الرمال الذهبية صعدا إلى القلعة. وعندما وصل الخبر إلى وو يونغ أنهما عند البوابة أسرع يحييهما.

خاطب داي قائلاً: "مرَّ زمن طويل. فأية ريح طيبة حملتك إلينا؟ أرجو أن تصعد معي. سنتحدث في القلعة".

قدمه وو يونغ إلى القادة الآخرين، وروى تشو غوي سبب زيارة داي: "إن سونغ جيانغ في السجن".

دعا تشاو غاي على الفور داي إلى الجلوس، وسأله عن القصة. فسرد داي بالتفصيل قصة

سونغ جيانغ والشعر الثوري الذي كتبه، فارتعب تشاو غاي، واقترح على القادة الآخرين حشد الرجال والخيول فوراً، والإغارة على جيانغتشو وإعادة سونغ جيانغ إلى القلعة.

قال وو يونغ: "ليست هذه طريقة مثلى يا أخي. فجيانغتشو بعيدة جداً عن هذا المكان. وجماعة كبيرة من الرجال والخيول لن ينجم عنها غير المصائب. إن تحريك العشب ينبه الأفعى. وهذا معناه القضاء على سونغ جيانغ. ما نحتاج إليه في هذه القضية هو الحيلة وليس القوة. لست بارع الذكاء، ولكن لديّ خطة صغيرة نستطيع بواسطتها إنقاذ سونغ جيانغ. وتطبيقها يقع على عاتق الناظر داي".

- أسمعنا إياها أيها المستشار العسكري.

- على داي أن يعود برسالة جوابية عن رسالة الوالي تساي إلى العاصمة الشرقية. سنكتب رسالة زائفة، ونجعل الدائرة تدور حولهم. وسيقول الجواب الذي سيحمله داي ما يلي: "لا تتخذ أي إجراء بحق السجين سونغ جيانغ. أرسله إليَّ تحت حراسة مشددة. وبعد استجواب مرير سنقطع رأسه ونعرضه على أنظار المشاهدين، ونكذب الأنشودة الشائعة". وحين يمرُّ سونغ جيانغ مخفوراً في هذه الأرجاء سيختطفه رجالنا. ما رأيكم في خطتي؟

قال تشاو غاي: "لنفرضنَّ أنه لم يمرّ من هنا؟ بذلك سنخسر فرصتنا!".

قال غونغسون شنغ: "ليست هذه مشكلة. سنرسل كشافينا إلى كل مكان قريب أو بعيد، وسنكون في انتظاره حيثما يمرُّ، وسنعثر عليه بهذه الوسيلة أو تلك. قلقنا الوحيد هو أن لا يبعثوا به إلى العاصمة".

قال تشاو غاي: "تبدو الخطة حسنة. لكن، من سيكتب الرسالة الجوابية من تساي جينغ الوزير الأول؟".

قال وو يونغ: "فكرت في هذا. الأساليب الأكثر شهرة في الكتابة هذه الأيام هي أساليب سو دونغ بوه، وهوانغ لو تشي، ومي يوان تشانغ، وتساي جينغ. وهي في عهد أسرة سونغ تعتبر قمة في نموذجها. ولديّ صديق مثقف في مدينة جيتشو يدعى شياو رانغ لأنه يجيد كتابة الخط بصورة رائعة وشهر باسم اليد الصناع. كما أنه ماهر في استخدام الرمح، والعصا، والسيف، والسكين. وأعرف حق المعرفة أنه قادر على الكتابة بأسلوب تساي جينغ. سنرسل الناظر داي إلى منزله ليقول له إن معبد يويه في ولاية تايآن يحتاج إلى كتابة تدون على نصب تذكاري. هذه خمسون أوقية من الفضة لتأمين نفقات أسرتك خلال قيامك بالعمل، وسيحضره داي إلى هنا. وفي ما بعد، سنحتال على زوجته وأسرته للقدوم إلى الجبل أيضا، ونجعل شياو ينضم إلى عصبتنا. ما رأيكم في هذا؟

قال تشاو غاي: "إن كنا نستطيع كتابة الجواب فهذا عمل رائع. ولكننا نحتاج إلى خاتم أيضا".

- ثمة صديق آخر يطوف اسمه في ذهني. وهو الأفضل في السهل المركزي كله، كما أنه يعيش في جيتشو، واسمه جين دا جيان. وهو يحفر الكتابة بصورة جميلة على الحجر، ويصنع أختاماً رائعة من اليشم. وأكثر من هذا، إنه شيطان في استخدام الرمح والعصا. ومعروف باسم الحرفي المسلح باليشم لأنه يحفر اليشم جيداً. سيعطيه داي خمسين أوقية من الفضة ويخبره أنه في حاجة إلى نحت نصب تذكاري. وسوف نعتقله على الطريق أيضاً. وفي مقدورنا استخدام رجال على شاكلة

جين وشياو هنا في قلعتنا.

قال تشاو غاي: "هذا غاية في الدهاء".

أقيمت في ذلك النهار مأدبة على شرف داي زونغ، وأوى الجميع إلى مضاجعهم.

في اليوم التالي، بعيد الفطور، تنكر داي في ثياب شماس وأُعطِي مائتي أوقية من الفضة. ربط تعويذاته على ساقيه، وهبط عن الجبل، فنقلوه عبر النهر من شاطئ الرمال الذهبية إلى الضفة المقابلة، حيث انطلق في اتجاه جيتشو. وصلها في أقل من فترتي حراسة. واستعلم عن شياو رانغ اليد الصناع. أجابوه: "إنه يقيم قبالة معبد كونفوشيوس شرقي مكتب الوالي".

ذهب الناظر إلى باب شياو وسعل ثم قال: "هل المعلم شياو في البيت؟".

برز له رجل مثقف وحملق فيه. هو لم يره من قبل. فسأل: "من أين أنت، أيها الشماس؟ وماذا في طوقي أن أفعل لك؟".

حياه داي في احترام قائلاً: "أنا شماس من معبد يويه في تايآن. ونقوم بإصلاح بناء الجبال الخمسة المبجلة، وسادتنا المحليون يرغبون في نحت نصب تذكاري، فأمروني بأن أعطيك خمسين أوقية من الفضة لنفقات عائلتك خلال فترة غيابك، وأن أسألك الذهاب برفقتي إلى معبدنا لكتابة النقوش. وقد عين موعد الافتتاح ولا نستطيع تأجيله على الإطلاق".

- أنا لا أستطيع أن أقوم بأكثر من كتابة الكلمات على الحجر وحسب. إن كنتم في عجلة من أمركم من أجل النصب فأنتم تحتاجون إلى نحات.

- أحمل معي خمسين أوقية أخرى من الفضة، وفي نيتي دعوة جين دا جيان، الحرفي المسلح باليشم. ولقد اختير للعمل يوم حسن الطالع. نرجو أن تنفحنا بالنصح، سنستدعي جين ونذهب معاً.

قبل شياو رانغ الفضة ورافق داي إلى بيت جين. مرا بمعبد كونفوشيوس، فأشار شياو قائلاً: "هذا جين في طريقه إلينا".

حياه شياو وقدمه إلى داي، وشرح له ما يبتغيه، وأضاف: "هذا الشماس يدفع لكل واحد منا خمسين أوقية من الفضة للذهاب برفقته".

اغتبط جين لدى ذكر المبلغ. فدعَوا داي إلى حانة لاغتباق عدة أكواب من الخمرة والتهام بعض الأطباق من الخضار، وأعطاه داي الفضة لعائلته.

قال الناظر: "لقد اختار المنجّم يوماً ميموناً. وأريدكما أن ترحلا معي على الفور".

قال شياو: "اليوم قائظ. وإذا رحلنا اليوم فلن نبتعد كثيراً أو نصل إلى مكان نقضي فيه الليل. لم لا ننطلق غداً عند الحراسة الخامسة؟".

واتفق جين معه في الرأي، فعقب قائلاً: "إنه على حق، كما تعلم".

تهيّأوا للسفر في الصباح، ورجعوا إلى بيوتهم للتأهب. وأقام داي برفقة شياو رانغ نزولا عند رغبته.

في صباح اليوم التالي، مرَّ جين حاملاً صرة من الثياب وأدوات العمل بشياو وداي، وغادر ثلاثتهم جيتشو. وخاطبهما داي قائلاً قبل أن يجتازوا عشرة ليات: "أيها المعلمان، أكملا طريقكما

على مهلة. أما أنا فسأسبقكما وأخبر السادة كي يخرجوا لتحيتكما". وأسرع من خطواته، وانطلق قدماً.

سار الحرفيان - وصرة كل منهما مدلاة على ظهره - في خطوات متأنية، فاجتازا بعيد الظهيرة بقليل مسافة ثمانين ليا. وعلى حين فجأة، شقت حجاب السكون صفرة ثاقبة إلى الأمام منهما. ووثب من عدة مخابئ على المنحدر أربعون أو خمسون من الرجال الشجعان، في مقدمتهم وانغ النمر القصير البدين من جبل الرياح الصافية. ونادى صائحاً: "من تكونان؟ وإلى أين تذهبان؟ اقبضوا عليهما، أيها الفتيان. سنأكل قلبيهما مع خمرتنا!".

قال شياو: "نحن في طريقنا إلى تايآن لنحت نصب تذكاري من الحجر. ولا نحمل شيئا ثمينا معنا غير هذه الثياب".

صاح وانغ: "لست أريد ثيابكما أو أشياءكما الثمينة. أريد قلبيكما وكبديكما فقط!".

لجأ شياو وجين المذعوران إلى ممارسة مهارتهما في استخدام السلاح، فرفعا عصويهما وانقضا على النمر القصير البدين. وهاجم وانغ بمطرده. وتقاتل الثلاثة ست جولات اضطر بعدها وانغ إلى الهرب. وهمَّ الحرفيان أن يلحقا به على المرتفعات، لكنهما سمعا نفخاً في أبواق. وهبط عن يسارهما سونغ وان حارس السحب، وعن يمينهما دو كيان ناطحة السحاب. وجاء من ورائهما تشنغ تيان شو السيد جميل الوجه مع ثلاثين من رجاله. وقبضوا على شياو وجين ونقلوهما إلى الغابة.

قال الشجعان: "لا تخافا. فقد أمرنا زعيمنا تشاو غاي أن ندعوكما إلى الجبل للانضمام إلى عصبتنا".

قال شياو: "أية فائدة لنا في حصنكم؟ لا نملك قدرة على خنق دجاجة. كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نأكل".

قال دو كيان: "إن مستشارنا العسكري وو صديقكما في المحل الأول، وفي المحل الثاني نحن نعرف أنكما ماهران في فنون السلاح. وهذا ما دعانا إلى إرسال داي زونغ إلى منزليكما لدعوتكما".

تبادل شياو وجين النظر في صمت. وذهب الجميع إلى حانة تشو غوي تمساح الأرض الجافة حيث قدم الطعام والشراب. وفي الليلة ذاتها، حضر قارب وعبرت الجماعة إلى جبل ليانغشان.

حين بلغوا القلعة حياهم تشاو غاي ووو يونغ والزعماء الآخرون. وأقيمت مأدبة حافلة على شرف الحرفيين، وجرى الحديث معهما بخصوص تزوير الرسالة من تساي جينغ.

وختم القادة قولهم: "وهكذا، نحن ندعوكما معاً للانضمام إلينا كي تصبحا عضوين في أخويتنا المستقيمة".

أمسك الحرفيان بذراعي وو يونغ في قلق: "نحن لا نعارض البقاء هنا. لكن، ماذا بشأن زوجتينا وأطفالنا؟ حين تسمع السلطات بهذا، فلا بدَّ أن تلحق بهم الأذى".

قال وو يونغ: "هدئا من روعكما، أيها الأخوان. وستفهمان صباح غد كل شيء".

شرب الجميع في تلك الليلة إلى حين موعد النوم.

في الصباح، جاء أحد الرجال وأعلن قائلاً: "لقد وصلوا".

فخاطب وو يونغ كلاً من جين وشياو قائلاً: "أرجو أن تخرجا لاستقبال أسرتيكما".

لم يصدق الحرفيان ما سمعته آذانهما. رأيا في منتصف منحدر الجبل بعض المحفات التي تحمل زوجتيهما وأولادهما، فاستفسرا في انشداه.

أجابت الزوجتان: "بعيد رحيلكما البارحة، جاء حملة هذه المحفات وقالوا: زوجاكما في خان خارج المدينة يعانيان من ضربة شمس، ويريدان أن تسرعا مع الأولاد على الفور لرعايتهما. وحين غادرنا المدينة لم يسمحوا لنا بالخروج من المحفات، وجاءوا بنا إلى هنا".

اجتمع شمل الأسرتين. ولم يجد شياو وجين ما ينطقان به، فتخليا عن كل رجاء في العودة، ورجعا إلى الجبل للانضمام إلى العصبة.

حين استقر المقام بالأسرتين تشاور وو يونغ وشياو في موضوع كتابة جواب تساي جينغ. أما بالنسبة إلى الخاتم، فقد أعلن جين قائلاً: "كنت على الدوام من ينحت جميع أختام تساي جينغ، سواء أكانت باسمه الوظيفي أو اسمه الشخصي".

وشرعا في العمل، وسرعان ما انتهى تدبيج الرسالة. وأقيمت مأدبة على شرف داي زونغ الذي أُعطِي تعليمات مفصلة. ألقى الناظر تحية الوداع، وهبط عن الجبل إلى شاطئ الرمال الذهبية حيث نقله أحد الرجال إلى حانة تشو غوي، وانطلق على طريق العودة.

بعدما رافق وو يونغ والزعماء الآخرون داي زونغ إلى نقطة العبور، عادوا إلى قلعة الجبل واحتفلوا. وعلى غير انتظار، وفيما هم يحتسون الخمور أطلق وو يونغ عويلاً فارتبك الجميع. واستفسروا: "ما الأمر؟".

- تلك الرسالة التي هُيّئت هي نذير الموت الزؤام لداي زونغ وسونغ جيانغ!

فسأل الزعماء في رعب:

- ماذا كتبت فيها؟

- لقد فكرت في أمر ونسيت الآخر. ثمة خطأ رهيب في ذلك الجواب!

قال شياو: "لقد كتبت بأسلوب تساي جينغ حرفياً. ولم أخطئ في حرف واحد. أرجو أن تخبرنا، أيها المستشار العسكري، أين كان الخطأ؟".

قال جين: "وأنا حفرت الخاتم على غرار أختام تساي جينغ حرفياً. فكيف يمكن أن يدرك أي كان الفارق فيه؟".

رفع وو يونغ إصبعين وكشف عن الخطأ للمحاربين المحتشدين. ونتيجة لذلك أوقع الشجعان الدمار في مدينة جيانغتشو، وأثاروا الفوضى في معبد التنين الأبيض. وهرب الرجال تحت وابل من السهام للنجاة بأرواحهم، وجرى إنقاذ الأبطال في غاب من السلاح.

إذاً، ما هو الخطأ الذي كشف عنه وو يونغ؟ إذا أحببت معرفة ذلك هلمّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الأربعون

شجعان جبل ليانغشان يغيرون على ساحة الإعدام؛
والأبطال البواسل يلتقون في معبد التنين الأبيض

شرح وو يونغ الخطأ الذي ارتكب في الرسالة، فقال: "كنت مهملاً، فلم أنتبه إلى ذلك. حُفِرَ على الخاتم ما يلي: تساي جينغ، عضو أكاديمية هانلين. وهذا الخاتم سيعرِّض الناظر داي للمحاكمة!".

احتجَّ جين قائلاً: "هذا هو الخاتم الذي يستخدمه الوزير الأول في جميع كتاباته ورسائله. والخاتم الذي حفرته على هذا الغرار تماماً. فما الخطأ في ذلك؟".

– حين يكتب الأب إلى ولده لا يستخدم لقبه الرسمي أبداً. وقد نسيت هذا الأمر. حين يؤوب داي إلى جيانغتشو لا بدَّ أن يستجوبوه. وإذا اكتشفوا الحقيقة، فسنكون قد أوقعناه في المتاعب.

اقترح تشاو غاي: "لترسلنَّ وراءه رجلاً على الفور للعودة به، ولنعد كتابة الرسالة".

– لن يلحق به أو يدركه. فهو يستخدم وسيلة سحرية في التنقل. ولا ريبة أنه اجتاز الآن خمسمائة ليا. لا نستطيع التماهل أكثر. يجب أن ننقذ داي وسونغ جيانغ.

سأل تشاو غاي: "وكيف سننقذهما؟ ما هي خطتك؟".

همس وو يونغ في أذن تشاو غاي للحظات، وختم حديثه قائلاً: "انشر الأمر بين رجالنا في هدوء. وأخبرهم كيف يتصرفون. مرهم أن يتحركوا على الفور، ودونما تأخير".

حين تلقى الشجعان الأوامر أخذوا الأدوات التي يحتاجون إليها، وهبطوا عن الجبل في تلك الليلة ذاتها، واتجهوا إلى جيانغتشو. ونكتفي بهذا الحديث عنهم.

رجع داي إلى جيانغتشو وقدم تقريره إلى مكتب الوالي، كما سلَّم الرسالة في الوقت المضروب. وغمرت الفرحة جوانح تساي، فكافأ رسوله بثلاثة أكواب احتفالية من الخمرة، وأخذ الرسالة، واستفهم: "هل رأيت الوزير الأول؟".

قال داي: "كلا. أمضيت ليلة واحدة، ورجعت مباشرة".

فضَّ الوالي المغلف وقرأ:

تلقيت هداياك جميعاً... أما بخصوص ذلك الشيطان سونغ جيانغ فإن الإمبراطور يريد رؤيته شخصياً. فأرسله إلى العاصمة مباشرة في عربة مقفصة تحت حراسة كافية. وحذار أن يفلت على الطريق... وقد كلمت الإمبراطور بخصوص هوانغ وين بينغ... وسوف يخلع عليه من دون ريب منصباً جيداً.

سرَّ تساي كثيراً. وأعطى داي سبيكة فضية وردية تزن خمسة وعشرين كاتيا. وأمر من بعد أن

تصنع عربة مقفصة واختار الحراس الذين سيرافقونها. شكره الناظر ورجع إلى جناحه، واشترى لحماً وخمرة ومضى لرؤية سونغ جيانغ في السجن. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

استحث الوالي العمال على إنهاء العربة. وبعيد يوم أو يومين تم تجهيز كل شيء لنقل السجين إلى العاصمة الشرقية. ودخل حارس البوابة وأعلن عن قدوم هوانغ وين بينغ.

استقبله تساي في الردهة الخلفية. حمل هوانغ معه خمرة وفواكه طازجة. همهم الوالي:

- أنت تراعي شعور الآخرين كثيراً. ولا يجب أن تفعل ذلك أبداً.

أجاب هوانغ:

- هذه هدية متواضعة من قريتي الصغيرة. شيء لا يستأهل الذكر.

- تهانيَّ على الشرف الرفيع الذي سيغدق عليك في أقرب فرصة.

- ماذا يدعوك إلى هذا القول، أيها الوالي؟

- تلقيت جواباً نهار البارحة. يجب إرسال الشرير سونغ جيانغ إلى العاصمة. لقد أخذ الإمبراطور علماً بمآثرك. وسيخلع عليك منصباً رفيعاً. وهذا كله مكتوب في رسالة والدي.

- ما أعظم امتناني لتوصية سعادتكم! رسولكم مسافر أعجوبي حقاً.

- اقرأ الرسالة بنفسك إن لم تكن تصدقني.

- إنها رسالة عائلية خاصة... لا أجرؤ على ذلك. أما إذا أذنت لي...

- لِمَ لا؟ أنت صديق مخلص.

قرأ هوانغ الرسالة من بدايتها إلى نهايتها، ثم قلبها ونظر إلى الخاتم، فلمح أنه منحوت حديثاً. فهزَّ رأسه: "هذه رسالة مزيفة".

- لا بدَّ أنك مخطئ. إنه خط يد والدي. لا شك أنها صحيحة.

- في المستطاع تقليد خطه. هل استخدم هذا الخاتم في رسائله الماضية إليك؟

- لا. هو على الدوام يكتب بصورة غير رسمية. قد يكون الخاتم قريباً منه فاستخدمه بصورة آلية.

- أرجو ألا تتصور أني شخص فضولي، ولكن الرسالة مزيفة. إن الأسلوب الذي يستخدمه سو وهوانغ ومي وتساي في الكتابة أسلوب شائع هذه الأيام. وفي مستطاع أي كان أن ينسخ على غراره. أما هذا الخاتم فقد صنعه والدك حين غدا عضواً في أكاديمية هانلين. وهو يختم به جميع كتبه ورسائله. وشاهده أشخاص عديدون. ففيم يظل يستخدمه هذه الأيام بعد أن ارتقى إلى منصب الوزير الأول؟ ومهما يكن الأمر، فإن الأب الذي يكتب إلى ولده لا يستخدم أي خاتم رسمي. والوزير الأول حكيم وذكي إلى أبعد الحدود، ولن يرتكب مثل هذا الخطأ. إن كنت لا تصدقني، أيها الوالي، فاستجوب الرسول بدقة. واسأله بمن التقى في منزله. إن كان جوابه خاطئاً فستكون الرسالة مزيفة. اعذرني على استرسالي في الحديث كثيراً. ولكن الجرأة تؤاتيني لأنك رجل كثير اللطف والكياسة.

- الأمر على أيسر ما يكون. فهو لم يذهب إلى العاصمة الشرقية من قبل قط. يكفي أن أستجوبه لأعرف ما إذا كان كاذباً أم لا.

طلب الوالي إلى هوانغ أن يختبئ وراء ستارة، وعقد مجلسه. ثم بعث مساعدين يستدعون الناظر داي زونغ، وأُمروا أن يقولوا له إن الوالي في حاجة إليه، وإن من واجبه المثول في حضرته فوراً.

كان داي قد ذهب يوم وصوله لرؤية سونغ جيانغ في السجن، وهمس في أذنه يحدثه عما وقع له. وسرَّ سونغ جيانغ، ودعا داي على الخمرة في اليوم التالي، فجلس يشرب في الحانة حين حضر مساعد من أولئك الذين يفتشون عنه، وطلب إليه أن يمثل في حضرة الوالي.

قال الوالي لتساي: "أديت عملاً رائعاً بخصوص المهمة التي ألقيت على كاهلك قبل البارحة. ولم أكافئك بعد بما أنت جدير به".

- حين تُعهَد إليَّ مهمة من قبل سعادتكم فينبغي القيام بها على خير وجه.

- لقد شغلتني أمور كثيرة في الآونة الأخيرة، ولم تسنح لي الفرصة لأستوضحك فيها عن بعض الأمور مفصلا. من أي باب دخلت العاصمة؟

- كانت الظلمة شاملة حين وصلت إلى هناك، فلم أعر هذا الأمر انتباهاً.

- من استقبلك عند باب دارة العائلة؟ وأين أنزلوك؟

- أخذ بوابٌ الرسالة مني، وسرعان ما قفل عائداً وأخذ السلتين. وطلب إليَّ البحث عن خان أقضي فيه ليلتي. ورجعت إلى البيت صباح اليوم التالي فأعطاني البواب الجواب. كنت أريد الوصول إلى جيانغتشو في الوقت المحدد، فما ألقيت أسئلة، بل رجعت من توّي.

- هل لحظت عمر ذلك البواب؟ أكان داكن البشرة نحيل العود، أم أشقر البشرة سميناً؟ أكان فارع الطول أم قصير البنية؟ وهل كانت له لحية؟

- كان الظلام سائداً حين وصلت إلى البيت. وفي صباح اليوم التالي كان الضوء عاتماً، فلم أميّز الأمور بوضوح. لم يبد فارع الطول، بل كانت له قامة معتدلة. وأخال أن له لحية قصيرة.

صاح الوالي غاضباً: "خذوا هذا الرجل إلى المحكمة".

أسرع دستة من الحراس من أحد جوانب الردهة وجروا داي أمام المنصة.

صاح الناظر: "لم أرتكب إثماً".

- أيها النذل، أنت تستحق عقوبة الموت! لقد مات حارس بوابتنا وانغ قبل عدة سنوات. وابنه الذي يشغل مكانه الآن فتى من دون لحية، ولا يحق له دخول البيت. وكل رسالة تصل يسلمها إلى السكرتير تشانغ الذي يسلمها بدوره إلى القهرمان لي. وحده لي يستطيع دخول حرم البيت وتلقي الهدايا. وكيف يتاح لأي كان من غير المساعدين المؤتمنين، ومن دون أن يستفسر منك عن أي شيء أن يستلم هداياي بكل بساطة. كنت منشغل الفكر ذلك النهار فأجزت لك أن تخدعني. أريد الحقيقة الآن. من أين حصلت على هذه الرسالة؟

- لم أكن أعرف هذه الأمور كلها. كنت مرتبكاً وراغباً في العودة في أسرع وقت.

- أنت تكذب. هؤلاء اللصوص الأشقياء... لا يعترفون بالحقيقة ما لم تنهل عليهم ضرباً. أيها الحراس، اضربوا هذا الوغد بقسوة!

عرف حراس السجن أن الأمر ميؤوس منه، وأنه ليس في استطاعتهم المبالاة بجلال قدر ناظرهم، فربطوا داي زونغ، وأكبّوه على قفاه، وانهالوا عليه ضرباً إلى أن تشقق جلده وتدفق الدم منه. لم يحتمل داي الضرب، فأوضح: "الرسالة زائفة".

سأل الوالي: "من أين حصلت عليها؟".

- كنت أجتاز بحيرة ليانغشان حين اعتقلتني عصبة من قطاع الطرق وشدت وثاقي. وصعدوا بي الجبل لاستخراج قلبي من صدري. وحين فتشوني عثروا على الرسالة وقرأوها، فقرروا الاحتفاظ بالسلتين وإطلاق سراحي. ولكنني لم أستطع العودة إلى هنا، وأردت قتل نفسي، فكتبوا هذه الرسالة حاسبين أنها تحميني. وخشيت من العقاب، فلجأت إلى الكذب، يا صاحب السعادة.

- قد يكون في هذا شيء من الحقيقة. أما البقية فخداع وتضليل. أنت على صلة طيبة بلصوص ليانغشان. وتآمرت معهم لسرقة السلتين، ورحت الآن تختلق هذه القصة الخادعة. زيدوه ضرباً!

رفض داي، على الرغم من العذاب الذي يتعرض له، الاعتراف بأن له علاقة مع رجال ليانغشان. فأمر الوالي بضربه مجدداً. وأصرَّ داي على روايته.

قال الوالي: "كفى. غلوه بمخلعة كبيرة واطرحوه في السجن".

غادر المحكمة واستدعى هوانغ وقال شاكراً: "لولا دهاؤك لكنت قد ارتكبت خطيئة فاضحة".

قال هوانغ: "يبدو أن داي على صلة وثيقة بلصوص بحيرة ليانغشان. هم منظمون، ويتآمرون للقيام بثورة. ينبغي القضاء على هذه الثورة في المهد قبل أن تغدو كارثة".

- سآخذ اعترافات داي زونغ وسونغ جيانغ وأستصدر وثائق رسمية. وسوف يقطع عنقاهما في الساحة العامة، وأرسل من بعد تقريراً خطياً إلى السلطات العليا.

- هذا منتهى الحكمة يا صاحب السعادة. وسوف يسرُّ القصر الإمبراطوري وتتلقى أنت عليه المديح والثناء لتسويتك هذه القضية الخطيرة. وسوف تعمل على إحباط مؤامرة قطاع الطرق في ليانغشان من الإغارة على السجن.

- أنت بعيد النظر حقاً. سأكتب تقريراً بنفسي أضمنك بموجبه وأوصي بترقية رتبتك.

أغدق الوالي المديح على هوانغ، ورافقه إلى بوابة دارة الولاية، فرجع إلى وويجيون.

في اليوم التالي، عقد تساي محكمته واستدعى الكاتب، ويدعى هوانغ، وقال: "اجمع كل الوثائق عن سونغ جيانغ وداي زونغ وأضف إليها اعترافيهما. واكتب قرارين جزائيين بحقهما يعلقان في الساحة العامة يوم قطع رأسيهما. فقد كانا متآمرين ثائرين منذ الأزمنة القديمة، وستنفذ الأحكام فيهما سريعاً. وقطع عنقيهما يجنبنا فاجعة أليمة".

كان الكاتب هوانغ على صلة طيبة بالناظر داي. ولكنه لم يجد وسيلة لإنقاذه، فجعل يغلي من الغضب في جوانحه، وقال:

- غداً يوم وطني من أيام الحداد، واليوم الذي يليه يوم أشباح منتصف الصيف، ومن غير المستطاع قطع عنقيهما. واليوم الذي يعقب ذلك يوم عيد وطني. ولا يمكن اتخاذ أي إجراء قبل اليوم الخامس.

لم تكن لدى هوانغ أية خطة أفضل من إرجاء تنفيذ الحكم في داي قدر المستطاع. وافق الوالي على اقتراحه وحدد اليوم السادس موعداً للتنفيذ.

في صباح ذلك اليوم أخلي تقاطع الطرق في ساحة السوق لاستخدامه مكانا للإعدام. وحشد الجنود والمنفذون بعد الفطور - ويعدون قرابة خمسمائة رجل - وتجمهروا خارج بوابة السجن. وعند انتصاف الصباح ذهب السنجان إلى الوالي وطلب إليه رسميا الإشراف على التنفيذ.

ولم يستطع هوانغ التهرب من تقديم الحكمين، وكان قد دُوِّن على كل منهما كلمتا "قطع عنقه"، وألصق الحكمان على حصيرتين من القصب.

وعلى الرغم من كون قائد السجن والحراس في المدينة أصدقاء لداي زونغ وسونغ جيانغ، فما كان ثمة وسيلة لينقذوهما بها. فجعلوا يتحسرون على مصيرهما.

أُعِدَّ كل شيء، وربطت يدا السجينين، وشُرِّب شعرهما بمادة لاصقة بعد أن جمع في قمتي رأسيهما على شكل إجاصة، وثبّتت في كل منهما وردة صناعية حمراء. واقتيدا أمام تمثال أسود الطلعة، وأطعم كل منهما طاسة من "أرز الراحة الأبدية"، وكوباً من "خمرة الفراق الأبدي". ثم أخرجا من المعبد، ووضعت مخلعتان حول عنقيهما، وأحاط بهما ستون أو سبعون من الحراس، فمشى سونغ جيانغ، يتبعه داي زونغ، خارجين من بوابة السجن. وتبادل الرجلان النظر، بيد أن أحداً منهما لم يستطع النطق بحرف. كانت ملامح سونغ جيانغ تنطق بالعبث، في حين أرخى داي زونغ رأسه جانباً وزفر.

عجت ساحة السوق بحوالى ألفين من المشاهدين الذين تراكموا حول مفترق الطرق الذي يخفره جدار من الجنود برماحهم وعصيهم. وأوقف سونغ جيانغ قبالة الجنوب، وداي زونغ قبالة الشمال، وأرغما على الجلوس وهما مقيدان. كان الجميع ينتظرون حتى فترة بعد الظهيرة حين يحضر المشرف ويتم التنفيذ.

قرأ المشاهدون نص الحكم الجنائي على الوجه التالي:

ولاية جيانغتشو. المجرم سونغ جيانغ. كتب شعراً ثورياً، ونشر شائعات شريرة، وتواطأ مع اللصوص في بحيرة ليانغشان لإثارة العصيان والثورة. وحكم عليه بقطع عنقه.

المجرم داي زونغ. في محاولة منه لمساعدة سونغ جيانغ، قام سراً بتسليم رسالة خاصة، واتصل بقطاع الطرق في بحيرة ليانغشان وتآمر معهم لإثارة العصيان والثورة. وحكم عليه بقطع عنقه.

المشرف على التنفيذ: تساي والي جيانغتشو

شدَّ الوالي لجام حصانه فأوقفه، وجلس ينتظر. اندفعت من ناحية السوق الشرقية جماعة من الحواة الذين شقوا طريقاً لأنفسهم بين الحشد. حاول الجنود منعهم من ذلك وانهالوا عليهم ضرباً، غير أنهم لم يتحركوا من أمكنتهم. وفي ملء هذه الفوضى، شقت جماعة من باعة العقاقير الذين يقومون بعروض في فنون السلاح طريقها بين الحشد في الناحية الغربية.

صاح الجنود فيهم: "أيها الحقيرون الكلاب! أين تحسبون أنفسكم ذاهبين وأنتم تدفعون الناس هكذا!؟".

أجاب الرجال: "أيها الجهلة الحمقى! لقد طوَّفنا عبر البلاد، فما منعنا أحد في أي مكان من التطلع في وجوه الناس، وحتى حين يأمر الإمبراطور بإعدام المجرمين في العاصمة يسمحون لنا بالفرجة. ألأن مدينتكم الصغيرة مقدمة على إعدام رجلين تهزون أطراف المعمورة! نريد أن نتفرج. ففيم هذا الصخب التافه؟".

صاح الوالي: "تراجعوا هنالك. لا تسمحوا لهم بالاقتراب أكثر".

في هذه اللحظة، جاءت قافلة من الحمالين الذين يشيلون بضائع على حمالاتهم قادمة من ناحية الجنوب.

صرخ الجنود: "ستقطع رؤوس ههنا. فاذهبوا من طريق أخرى".

- نحن نحمل أشياء لواليكم. فكيف تمنعوننا من السير؟

- لو كنتم موظفين في مكتب الولاية فينبغي عليكم أن تبتعدوا!

وضع الحمالون أحمالهم، وأنزلوا حمالات أكتافهم، ووقفوا يمسكونها في أيديهم بين المتفرجين.

واقتربت من الشمال جماعة من التجار الذين يدفعون عربتين أمامهم، وأصروا على اجتياز ساحة الإعدام.

نبح الجنود: "أين تظنون أنكم تذهبون؟".

- نحن في عجلة من أمرنا. دعونا نمر.

- أبداً. سيقطع رأسان هنا. إن كنتم في عجلة من أمركم فاسلكوا طريقاً أخرى.

ضحك التجار: "هذا قول سهل. نحن من العاصمة، ولا نعرف دروبكم الخشنة. ولا نستطيع العبور إلا من الطريق الرئيسة".

منعهم الجنود من متابعة الطريق، فتجمع التجار في حلقة شموس ورفضوا التراجع. وتفاقم النقاش الغاضب في أطراف مفترق الطرق الأربعة. وما استطاع الوالي تساي صدهم. ورأى أن التجار تسلقوا العربتين وجعلوا يراقبون المشهد من فوقهما.

لم يمض زمن طويل حتى تفرقت جماعة من الضباط في ساحة الإعدام وبرز من وسطها رجل خطا متقدماً وأعلن: "حلّت فترة بعد الظهيرة".

أمر الوالي: "اقطعوا رأسيهما".

فك الجنود مخلعتي السجينين، ووقف جلادان يحملان سيفيهما على أهبة التنفيذ. وفي مثل لمح البصر انفجرت الثورة. فقد أخرج أحد التجار جرساً صغيراً من عباءته، وانتصب على العربة وقرعه ثلاث مرات. فاندفع الرجال إلى الحركة من أربعة جوانب.

ظهر فتى أشبه بنمر أسود الطلعة، عارياً حتى وسطه، في الطابق العلوي من مشرب الشاي القائم بجانب مفترق الطرق، ولوَّح بفأس حربية في كل من يديه، وأطلق زمجرة صاخبة، ووثب أرضاً، وقتل الجلادين، وجعل يشق طريقه صوب الوالي الممتطي صهوة جواده. اندفع الجنود ناحيته برماحهم فما استطاع أحد منهم الوقوف في وجهه، فتحلقوا حول تساي ودفعوه إلى مكان آمن.

وظهرت الخناجر على غير انتظار في أيدي الحواة في الطرف الشرقي وشرعوا يقتلون الجنود. أما باعة العقاقير في الطرف الغربي فحملوا رماحاً وعصياً وأطلقوا صرخة راعدة وانقضوا على الجنود والحراس يذبحون يميناً وشمالاً. وفي الجنوب، لوّح الحمالون بحمالاتهم وانهالوا على الجنود والمشاهدين على حدٍ سواء. وأما التجار في الشمال فوثبوا عن العربتين وقلبوهما فسدوا بهما الطريق. واندفع اثنان من التجار في ملء المعركة وحملا سونغ جيانغ وداي زونغ على ظهريهما. أخرج آخرون أقواساً وسهاماً، وألقى آخرون حجارة أخفوها تحت ثيابهم. وهزت فئة أخرى منهم رماحاً، في رؤوسها أعلام مثلثة الشكل.

كان التجار في الحقيقة تشاو غاي، وهوا رونغ، وهوانغ شين، ولوي فانغ، وغو شنغ. وكان باعة العقاقير يان شون، وليو تانغ، ودو كيان، وسونغ وان. وتنكر تشو غوي ووانغ النمر القصير البدين وتشنغ تيان شو وشي يونغ في ثياب الحمالين. وكان الحواة الإخوة الثلاثة يوان وباي شنغ. كان قادة بحيرة ليانغشان قد أحضروا معهم أكثر من مائة رجل أثاروا جميعاً معركة مزمجرة.

رأوا الفتى الضخم داكن البشرة وهو يضرب بفأسيه يمنة ويسرة. لم يعرفه تشاو غاي، ولكنه عرف أنه كان أول من باشر المعركة، وأنه يقتل من الأعداء أكثر من أي رجل آخر.

تذكر تشاو غاي: "لقد ذكر داي زونغ لي كوي الإعصار الأسود، الفتى المتهور المتوحش الذي كان صديقاً لسونغ جيانغ". وهتف صائحاً: "أنت. أيها المقاتل الصنديد، ألست الإعصار الأسود؟".

لم يلتفت لي كوي إليه، بل استرسل في اختطاف الأرواح بفأسيه الكبيرتين مثل جحيم ملتهب. وأمر تشاو غاي الرجلين الذين يحملان سونغ جيانغ وداي زونغ أن يقتفيا آثار الفتى الضخم الأسود.

انتشرت أجساد الجنود والمدنيين في جميع أطراف مفترق الطرق، وتدفقت الدماء أنهاراً. وسقط جرحى لا يحصرهم عدّ. هجر قادة ليانغشان العربتين والبضائع وساروا في أعقاب الفتى الضخم وهم يشقون طريقهم إلى خارج المدينة. وأطلق هوا رونغ وهوانغ شينغ ولوي فانغ وغو شنغ الذين يغطون المهاجمين زخة من السهام على المطاردين، فما تجاسر جنود جيانغتشو أو سكانها على الاقتراب.

وأقبل لي كوي على النحر والذبح عند حافة الجدول وقد تلطخ جسده بالدم. واسترسل في نشر الموت على الضفة.

صاح تشاو غاي، ومطرده في يده: "لا تؤذوا الناس العزّل. فلا علاقة لهم بهذا الأمر!".

لكن الفتى الضخم لم يصغ إلى هذا القول، فجعل ينحر الضحايا واحداً بعد الآخر.

ساروا مسافة ستة أو سبعة ليات على طول الجدول خارج المدينة إلى أن وصلوا إلى نهر عريض. ههنا كانت الطرقات جميعاً تصل إلى النهاية. فحزن تشاو غاي كثيراً. وفي هذا الوقت، تكلم الإعصار الأسود فقال: "لا تقلق. انقل أخوينا إلى ذلك المعبد".

إلى الأمام، قريباً من النهر، ثمة معبد ضخم أحكم إغلاق بوابتيه المزدوجتين. فتحهما لي كوي بعدما انهال عليهما بفأسيه، ودخل الجميع الباحة. كانت أشجار العرعر والصنوبر العتيقة تحجب ضياء الشمس، وكانت هناك صفيحة معدنية فوق المبنى تحمل هذه الحروف المذهبة: "معبد روح

التنين الأبيض".

حمل سونغ جيانغ وداي زونغ إلى الداخل، وأُجلسا. فتح سونغ جيانغ عينيه ورأى تشاو غاي والآخرين، فصاح وهو يبكي: "أيها الإخوة لا بدَّ أنني في حلم!".

فاعترض تشاو غاي قائلاً: "لقد رفضت البقاء معنا على الجبل، يا أخي. وهذا ما رماك في مثل مأزق هذا النهار. من يكون هذا الفتى الضخم داكن اللون الذي يقاتل بهذه القسوة؟".

- إنه لي كوي الإعصار الأسود. كان على أهبة إطلاقي من السجن بمفرده. لكنني لم أعتقد أن خطته ستنجح فلم أوافقه عليها.

- إنه رجل مرموق. وهو يقاتل أقوى من أي منا، لم يخش شيئا في وجه أي سلاح من أسلحة العدو.

نادى هوا رونغ: "هات ثياباً جديدة لأخوينا".

وفيما هما يبدلان ثيابهما مضى لي كوي إلى العتبة والفأسان في يديه، فناداه سونغ جيانغ: "إلى أين تذهب، يا أخي؟".

- لأفتش عن أولئك الرهبان. سأقتلهم عن بكرة أبيهم. فهؤلاء الأوغاد لم يخرجوا للترحيب بنا، بل وأقفلوا البوابتين أيضاً. إن عثرت عليهم فسأسلخ جلودهم أمام البوابتين قرباناً!

- تعال إلى هنا أولاً، أريد أن أقدمك إلى أخي الزعيم.

رمى لي كوي فأسيه جانباً، وسقط على ركبتيه أمام تشاو غاي، وتضرَّع قائلاً: "اصفح عن الثور الحديدي، يا أخي". قدمه تشاو غاي إلى الآخرين، فاكتشف أنه ينحدر وتشو غوي من مدينة واحدة. وعجت الفرحة في فؤاديهما.

التفت هوا رونغ إلى تشاو غاي قائلاً: "يا أخي، طلبت منا أن نقتفي آثار الأخ لي، ونحن هنا يفصلنا نهر عريض عن الضفة الأخرى، وليس لدينا قارب ينقلنا إلى الضفة الأخرى. حين يدركنا الجنود من المدينة فكيف ستكون لدينا القدرة على صدهم والنجاة بأنفسنا؟".

قال لي كوي: "هدئ من روعك. سأشق لنفسي طريقاً إلى المدينة وأفرم أجسادهم فرماً؛ ذاك الوالي اللعين وجماعته كلها!".

استرد داي زونغ وعيه، وصاح: "لا تعجِّل يا أخي. في المدينة قوات تعدادها ستة آلاف أو سبعة، فإن ذهبت إلى هناك هدرت حياتك سدًى".

قال يوان السابع: "أرى بعض القوارب على الضفة المقابلة. سأسبح وشقيقيَّ ونعود بها. ما رأيكم في هذا؟".

قال تشاو غاي: "إنها أفضل وسيلة ممكنة".

خلع الأشقاء الثلاثة يوان ثيابهم وحملوا خناجرهم وغطسوا في الماء. سبحوا قرابة نصف لي حين برزت على سطح المياه ثلاثة قوارب، منطلقة في سرعة الرياح، في كل منها دستة أو أكثر من الرجال يشرعون الأسلحة في أيديهم.

تفاقم الرعب في قلوب المراقبين على الشاطئ. وتفجع سونغ جيانغ قائلاً حين سمع عن

القوارب القادمة: "قدري مرير". وأسرع من المعبد خارجاً لإلقاء نظرة. كان يجلس في القارب الأول فتى ضخم يحمل مذراة من خمسة رؤوس. كان قد ضفر شعره في قمة رأسه وربطه بقطعة من حبل أحمر اللون، ويرتدي زوجاً من سراويل السباحة الحريرية البيضاء ويصفر صفرات ثاقبة.

لم يكن سوى تشانغ شون. لوَّح سونغ جيانغ بذراعيه، وصاح: "أنقذني، يا أخي!".

عرفه تشانغ شون والآخرون، فنادوا: "سمعاً وطاعة".

اتجهت القوارب إلى الشاطئ، واستدار الأشقاء يوان وسبحوا عائدين. وسار الجميع إلى الضفة أمام المعبد.

كان تشانغ شون يقود دستة من الرجال الأقوياء. وكان تشانغ هينغ، في القارب الثاني، يقود مو هونغ، ومو تشون، وشيوي يونغ وعشرة من الخدم الآخرين. وفي القارب الثالث كان لي جون يقود لي لي، وتونغ وي، وتونغ مينغ ودستة من مهربي الملح. كان الجميع مدججين بالسلاح، فأرسوا قواربهم على الضفة وتسلقوها.

كانت رؤية سونغ جيانغ بالنسبة إلى تشانغ شون عطية من السماء. سجد باكياً، وقال: "خرجت عن طوري حين علمت أنهم حاكموك. ولكنني لم أعرف كيف أسعى إلى إنقاذك. ثم سمعت أن الناظر داي اعتقل، وأن الأخ لي كوي اختفى. فذهبت إلى شقيقي تشانغ هينغ لاصطحابه إلى مزرعة المحترم مو وحشد عدد من أصدقائنا. واليوم كنا سنشقُّ طريقنا إلى جيانغتشو ونختطفك من السجن. لم أحلم قط أن الرجال الشجعان سيكونون قد أنقذوك وأحضروك إلى هنا. هل يمكن أن أستفسر مَنْ مِنْ هؤلاء الأبطال هو تشاو غاي زعيم بحيرة يانغشان؟".

أشار سونغ جيانغ إلى الرجل الواقف في المقدمة: "هذا هو الأخ تشاو غاي. فلنذهب جميعا إلى المعبد ونتعارف بصورة احتفالية".

دخل القادة التسعة لمجموعة تشانغ شون، والسبعة عشر لمجموعة تشاو غاي، بالإضافة إلى سونغ جيانغ وداي زونغ ولي كوي، أي تسعة وعشرون رجلاً معبد التنين الأبيض. وعُرِفت هذه الحادثة في ما بعد باسم "الاجتماع الصغير في معبد التنين الأبيض".

وبعدما تبادل القادة التسعة والعشرون التحيات الرسمية، أسرع أحد الرجال بالدخول، وأعلن: "في مدينة جيانغتشو، وعلى أصداء الطبول والأبواق، احتشدت جماعة كبيرة من الرجال والخيول وبدأت مسيرتها للقبض علينا. تستطيعون رؤيتهم من بعيد، فأعلامهم تغطي السماء، وسيوفهم كثيفة كالكتان. وفي المقدمة تسير خيول مدرَّعة، تتبعها حشود من حملة الرماح. وهم يجتازون الطريق بسيوفهم الضخمة وفؤوسهم العريضة متجهين إلى معبد التنين الأبيض!".

زمجر لي كوي: "أطلقوني في وجههم!". وحمل فأسيه التوأمين واندفع صوب بوابتي المعبد.

صاح تشاو غاي: "إذا قاتلنا فسنقاتل حتى النهاية. التفوا حولي أيها الشجعان! سنعود إلى بحيرة ليانغشان بعد أن نذبح كل رجل في جيش جيانغتشو!".

أجاب الأبطال المحتشدون: "نحن طوع أوامرك!".

وانقض مائة وخمسة وأربعون من الرجال وهم يصيحون على ضفة النهر. ونتيجة لذلك،

تقرمزت الأمواج، وتكدست الجثث بارتفاع الجبال. وأطلق تنانين الأمواج المتواثبة نيراناً سامة، وزمجرت النمور الصاعدة زمجرات عاصفة في وجه السماء.

كيف استطاع تشاو غاي وعصبة الشجعان الفرار؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الحادي والأربعون

سونغ جيانغ يستولي على ووويجيون بمهارة؛
وتشانغ شون يأسر هوانغ وين بينغ

خفر ليو تانغ وتشو غوي كلاً من سونغ جيانغ وداي زونغ في صعودهما إلى القارب. وهيأ لي جيون وتشانغ شون والأشقاء الثلاثة يوان القوارب. كانوا يستطيعون من حيث يقفون على ضفة النهر رؤية القوات الحكومية وهي تتقدم في اتجاه المدينة وقد تجاوز عدد أفرادها ستة أو سبعة آلاف من الرجال. وكان الفرسان في طليعة الجيش يلبسون خوذات ودروعا، مسلحين بالأقواس والسهام، وممسكين رماحاً طويلة. وجاءت وراءهم حشود من المشاة الذين أخذوا يطلقون الصيحات ويلوّحون بالأعلام مندفعين قدما في ضراوة.

هبَّ لي كوي صوبهم ملوحا بفأسيه. ولحق به عن قرب هوا رونغ، وهوانغ شين، وليوي فانغ، وقوه شنغ. خشي هوا رونغ على سلامة لي كوي وهو يرى الرماح المتضوئة للفرسان إلى الأمام منه، فتناول قوسه في هدوء، وركز فيها سهما، وشدَّ الوتر إلى أقصاه، وأطلق السهم على قائد الفرسان، فأسقطه السهم الصافر على الأرض. أجفل الفرسان، وشدوا ألجمة رواحلهم وهربوا للنجاة بأنفسهم، فداست سنابك الخيل أكثر من نصف المشاة في هذه الأثناء.

في تلك الهنيهة، انقض الشجعان البواسل مهاجمين. فذبحوا القوات الحكومية إلى أن ملأت الجثث السهل، وصبغت الدماء النهر بلون أحمر قان، وشقوا طريقهم إلى جدران مدينة جيانغتشو. وجعل المدافعون من وراء المتاريس يسقطون عليهم جذوع الأشجار ويقذفونهم بحجارة المجانيق، مغطين بذلك التراجع الجنوني لبقايا القوات الحكومية إلى المدينة. ومن بعد، أغلقت البوابات الكبيرة وأترست. ولم يجرؤ أحد على الخروج.

رجع المقاتلون الشجعان إلى ضفة النهر وهم يشدون الإعصار الأسود معهم إلى القوارب المتواجدة أمام معبد التنين الأبيض. أعاد تشاو غاي حشد قواته، وأصدر أمره إلى جميع الرجال بركوب القوارب. وانطلقت القوارب الثلاثة. رفعت الأشرعة لتلعب بها ريح مؤاتية، واتجهت وهي تعجُّ بالمقاتلين والقادة صوب مزرعة المحترم مو. أوصلتهم رحلة هادئة إلى رصيف المزرعة حيث نزل الجميع من القوارب.

دعاهم مو هونغ إلى الردهة الداخلية في المزرعة. وخرج المحترم مو وحيّا سونغ جيانغ ومرافقيه. قال الشيخ: "لقد أمضيتم، أيها الزعماء، ليلة قاسية. أرجو أن تجنحوا إلى دارة الضيوف عندنا وتستسلموا إلى الراحة".

توزع الضيوف على الغرف التي خصصت لهم، فاستراحوا وسووا ثيابهم ونظفوا أسلحتهم.

وأمر مو هونغ خدمه أن يذبحوا ثورا أصفر اللون، ودستة من الخرفان، بالإضافة إلى الدجاج، والإوز، والسمك، والبط، وإعداد أطباق لذيذة شهية للاحتفال على شرف ضيوفه.

استعيدت في أثناء احتساء الشراب ذكريات عديدة. وخاطب تشاو غاي الأخوين مو قائلاً: "لو لم تحضرا لنجدتنا في قواربكما لكان من الممكن أن نسقط في شباكهم".

استفسر المحترم مو: "ما الذي جعلكم تختارون هذه الطريق للخروج من المدينة في المقام الأول؟".

أوضح لي كوي: "ذهبت أقاتل حيث تكاثف الناس، فلحق بي هؤلاء الفتيان. لم أطلب إليهم ذلك".

ضحك الجميع.

نهض سونغ جيانغ وخاطب المحتشدين قائلاً: "كان يمكن أن ألقى منيتي وكذلك الناظر داي لو لم تهبوا إلى نجدتنا. شكرنا لكم عميق عمق البحر. ونحن لا نعرف كيف نغدقه عليكم. وأنا لا أحقد إلا على هوانغ وين بينغ. فذلك الوغد لا يفعل أكثر من الحديث عن الأخطاء ونشر الافتراءات. لقد حاول تدميرنا. ويجب أن أثأر لنفسي. وأرجوكم أيها الشجعان البواسل أن تسبغوا عليّ فضلاً كبيراً مرة أخرى بمعاودة الانقضاض على ووويجيون، وقتل هوانغ وين بينغ وإخماد ضرام غضب سونغ جيانغ. فما قولكم؟".

قال تشاو غاي: "لسنا قادرين على القيام بغارة أخرى مفاجئة. كيف نستطيع الانطلاق إليها؟ سيكون أولئك الأوغاد الملاعين على أهبة الاحتراس. لعله يفضل أن نرجع إلى قلعة الجبل لحشد قوة كبيرة. سنستدعي وو يونغ، وغونغسون، ولين تشونغ، وتشين مينغ للانضمام إلينا. ما زال لدينا متسع من الوقت".

وقال سونغ جيانغ: "إذا ذهبت فلن يكون في مقدورك أن تعود مرة أخرى. ففي المكان الأول المسافة بعيدة. وفي المكان الثاني ستعمد ولاية جيانغتشو إلى تحذير الولايات الأخرى لكي تأخذ حذرها. ينبغي أن نضرب الآن قبل أن تتاح لهم فرصة التأهب".

قال هوا رونغ: "أنت على حق تماما. المشكلة هي أنه ليس بيننا من يعرف الطرقات والمنطقة حق المعرفة. سنرسل رجلا إلى ووويجيون أولا للقيام بمهمة الاستطلاع. ينبغي أن نعرف كيف ندخل إلى هنالك وكيف نخرج، وأين يقيم هوانغ وين بينغ على وجه الدقة. وعندها سيغدو في مستطاعنا أن نتحرك".

نهض شيوي يونغ واقفا وقال: "لقد طوّفت في هذه الأرجاء مرارا. وأعرف ووويجيون أفضل من أي منكم. فلم لا تدعوني أنطلق إلى هنالك وأرى ما يمكن أن أستطلعه؟".

قال سونغ جيانغ: "إن شئت ذلك يا أخي، فليكن ما تريده".

رحل شيوي يونغ في ذلك النهار عينه.

بقي سونغ جيانغ وقادة قطاع الطرق في مزرعة مو هونغ، وتناقشوا في موضوع الهجوم على ووويجيون. هيأوا رماحهم وسيوفهم، وأعدوا أقواسهم وسهامهم، وحشدوا القوارب صغيرها

وكبيرها، وجهزوا كل شيء. وبعيد يومين رجع شيوي يونغ وفي رفقته رجل قدمه إلى سونغ جيانغ.

استفسر سونغ جيانغ: "من يكون هذا الفتى الشجاع؟".

- اسمه هو جيان، ومسقط رأسه في هونغدو. وهو خياط من الدرجة الأولى، تطير الإبرة والخيط بين يديه طيرانا. كما أنه بارع في استخدام الرمح والعصا براعة علّمته إياها بنفسي. ولأنه أسمر البشرة نحيل العود لين المكسر خلع الناس عليه اسم القرد طويل الذراع. وهو الآونة يقوم ببعض أعمال الخياطة في دارة هوانغ وين بينغ. وقد مررت به وأحضرته إلى هنا.

عمت الغبطة جوانح سونغ جيانغ. فدعا الرجل إلى الجلوس. كان هو جيان واحدا من نجوم "العفاريت الأرضية". وما أسرع أن تمَّ الولاء بينه وبين سونغ جيانغ بصورة طبيعية. واستفسر سونغ جيانغ عن أنباء جيانغتشو ومنطقة ووويجيون وضواحيها.

قال شيوي يونغ: "أحصى الوالي تساي خسائره من الجنود والمدنيين. كان هنالك أكثر من خمسمائة من القتلى وعدد لا حصر له من الجرحى بالسهام. فأرسل على عجل رسولاً يرفع تقريراً إلى العرش. وبوابات مدينة جيانغتشو تغلق يومياً بدءاً من ساعة الظهيرة. وكل من يدخل إليها أو يخرج منها يتم استجوابه بشدة. والأذية التي لحقت بكم، يا أخي، لم تكن بسبب الوالي تساي. وأي عمل يأتيه ضدكم وضد المراقب يتم بتحريض من هوانغ وين بينغ. وقد عمت الفوضى أرجاء جيانغتشو منذ غارتنا على أرض تنفيذ الإعدام. وهم يحرسونها ليل نهار. وحين جعلت أستفسر في ووويجيون التقيت أخاً كان خارجاً منها لتناول القليل من الطعام. وحصلت منه على هذه التفصيلات".

سأل سونغ جيانغ: "كيف عرفت هذه الأمور كلها، أيها الأخ هو؟".

أجاب هو جيان: "أحببت منذ نعومة أظفاري المثاقفة بالرمح والعصا. وأدين بالكثير لتعليمات المعلم خوي. وهذا شيء لا يمكن أن أنساه. كنت خلال الأيام القليلة المنصرمة أقوم ببعض أعمال الخياطة في منزل هوانغ وين بينغ. وفي أثناء خروجي منه التقيت المعلم مصادفة. فذكر لي اسمك العظيم وروى لي الأحداث التي تجري. ما أكثر ما رغبت في لقائك، فانتهزتها فرصة للقدوم وتقديم تقرير شامل. إن لهوانغ وين بينغ شقيقاً يكبره سناً يدعى هوانغ وين يه. انحدر كلاهما من أم واحدة. ووين يه رجل طيب. يقوم بإصلاح الجسور وشق الطرق، ويقيم الأنصاب ويساند الرهبان، وينجد الملهوفين ويعطي الفقراء. وهذا ما خلع عليه في ووويجيون اسم هوانغ البوذا. أما هوانغ وين بينغ، فعلى الرغم من أنه كان مرة نائباً للوالي، فهو شرير قاسي القلب. ويسمونه في ووويجيون هوانغ الزنبور. ويعيش الشقيقان في منزلين منفصلين قرب البوابة الشمالية للبلدة، ولكن مدخل الدارين يقع في الزقاق ذاته، وينهض منزل هوانغ وين بينغ فوق سور البلدة تماماً. أما منزل وين يه فإلى الجنوب، ويطلُّ على شارع فسيح. وحين كنت أعمل هنالك سمعت وين بينغ يحضر إلى منزله ويقول: لقد خُدع الوالي. وكشفت عن الخداع ونصحت له أن يقطع رأسي المخادعين أولاً، ومن بعد يرفع تقريراً إلى البلاط الإمبراطوري. فانتقده وين يه سراً. وقال: يا لهذا العمل الشائن! فلا علاقة له بهذه القضية. فيم تراه ينتوي إلحاق الأذية بهما؟ إذا كانت هنالك عدالة في السماء، فلا بدَّ أن تصبَّ جزاءها. وهو

يبتلي نفسه بالمصائب. وحين سمع الزنبور بالغارة التي وقعت على أرض تنفيذ الإعدام سرى الخوف في أوصاله. وفي الليلة الماضية ذهب إلى جيانغتشو لرؤية الوالي ورسم الخطط. ولم يرجع أدراجه بعد".

سأل سونغ جيانغ: "ما هي المسافة التي تفصل منزل الزنبور عن منزل شقيقه؟".

- كان البيتان في الأصل منزلاً واحداً قُسِّم الآن إلى دارين تفصل بينهما حديقة خضراوات.

- وما عدد سكان منزل هوانغ الزنبور؟ وما عدد العائلات فيه؟

- أربعون أو خمسون بين نساء ورجال.

صاح سونغ جيانغ: "شاءت السماء أن أحقق انتقامي فبعثت لي هذا الرجل". والتفت إلى جماعته مسترسلاً: "إني أعتمد كلية على معاونتكم، يا أخوتي".

- سوف نعضدك ولو كانت في ذلك منيتنا! لسوف ندمر ذلك النذل المخادع ونجعل صفحة انتقامك بيضاء ناصعة.

- أنا لا أكره غير ذلك الزنبور. ولا علاقة لهذا الأمر بأهالي ووويجيون. وإذا كان شقيقه فاضلاً فلا ينبغي أن تؤذوه، وإلا شتمنا الناس وقالوا إننا لا نعرف للخير معنى. كما أنه لا ينبغي أن يلحق أي ضرر بالمواطنين. ولديَّ خطة. وآمل أن تمدوني أيها الإخوة بالمساعدة.

- نحن في انتظار تعليماتك.

- إذا كنت أجرؤ على إزعاج المحترم مو، فأنا في حاجة إلى ثمانين أو تسعين كيساً من الخيش ومائة أو أكثر من حزم القصب والعصي، بالإضافة إلى خمسة قوارب كبيرة وقاربين صغيرين. وأحب أن يعنى تشانغ شون ولي جيون بالقاربين الصغيرين. ويكلَّف تشانغ هينغ والأشقاء يوان الثلاثة وتونغ وي بالقوارب الخمسة الكبيرة، ويجب أن يزوّدوها بسباحين ماهرين. هذا شيء له أهميته.

قال مو هونغ: "لدينا هنا قصب وعصي منقوعة بالزيت وأكياس في مقدورك استخدامها. وجميع الرجال في المزرعة قادرون على السباحة والعناية بالقوارب. فخذ ما أنت إليه في حاجة".

- سوف يقود الأخ هو أول الأمر كلاً من شيوي يونغ وباي شنغ إلى ووويجيون ويخبئهما فيها. وفي اليوم التالي، في الفاصل الثاني للحراسة الثالثة، وحين يسمعان أنغام رنين جرس نطلقه خارج بوابة المدينة سيتسلق باي شنغ السور ويعلق علماً مثلث الشكل على سارية في نقطة أقرب ما تكون إلى منزل الزنبور. وفي هذا المكان نتسلق نحن سور المدينة.

واسترسل سونغ جيانغ قائلاً: "أما شي يونغ ودو كيان، وبعد أن يتنكرا في ثياب مستعطيين، فسيختبئان بدورهما داخل المدينة، قريبا من البوابة. وسيخفر لي جيون وتشانغ شون النهر بقاربيهما الصغيرين ويتأهبان للعمل".

أنهى سونغ جيانغ ترتيباته، وانطلق شيوي يونغ وباي شنغ وهو جيان أولاً. وتنكَّر شي يونغ ودو كيان بثياب مستعطيين، وأخفيا خنجرين في ثيابهما، ولحقا بهم. وحُمِّلت القوارب الكبيرة بأكياس مُلئت بالرمل، وبالقصب والعصي المنقوعة بالزيت. وحين أزف الوقت شمَّر كل من القادة الشجعان عن ثيابه وهيأ أسلحته، واختبأ المقاتلون في عنابر القوارب.

صعد القادة بعدها إلى القوارب. ركب تشاو غاي وسونغ جيانغ وهوا رونغ في قارب تونغ وي. وركب يان شون ووانغ النمر القصير البدين وتشنغ تيان شو في قارب تشانغ هينغ. وانضمَّ داي زونغ وليو تانغ وهوانغ شين إلى يوان الثاني. وانضمَّ ليوي فانغ وقوه شنغ ولي لي إلى يوان الخامس. في حين انضمَّ مو هونغ ومو تشون ولي كوي إلى يوان السابع. وحدهما تشو غوي وسونغ وان بقيا في مزرعة المحترم مو. وقد أنيط بهما ملاحظة التطورات الممكنة في جيانغتشو. ورحل تونغ مينغ قبل الجميع في قارب صيد سريع لاستكشاف المدينة.

ربض قطاع الطرق والمقاتلون في القمرات، وأمسك الفلاحون والخدم والنوتيون بالمجاذيف، وسارت القوارب خلسة تحت جنح الظلام في طريقها إلى ووويجيون.

كانوا في الشهر القمري السابع، والليلة ساكنة لا ريح فيها، والقمر براق يرسل أشعته على المياه الصافية فتنعكس على صفحتها اليشمية من جراء ذلك الظلال الخضراء الداكنة للجبال. وحين أزف زمن الحراسة الأولى كانت القوارب، كبيرها وصغيرها، قد بلغت ضفتي نهر ووويي وربطت في صف واحد في أعماق القصب. ورجع تونغ مينغ في قاربه الصغير السريع. وأعلن قائلاً: "الهدوء يخيم على المدينة".

أمر سونغ جيانغ رجاله أن ينزلوا أكياس الرمل والقصب والعصي الجافة إلى الشاطئ. وتفحص سور المدينة. وحين ضرب الحارس على طبلته معلناً بدء فترة الحراسة الثانية أمر سونغ جيانغ قطاع الطرق بنقل الأكياس والقصب إلى جوار السور. كان المحاربون الشجعان يحملون أسلحتهم في أيديهم. وسار الجميع في اتجاه سور المدينة تاركين تشانغ هينغ والأشقاء الثلاثة يوان والأخوين تونغ لحراسة القوارب.

على مسافة نصف لي تقريباً من البوابة الشمالية أمر سونغ جيانغ أن تطلق حمامة معلق بها جرس صغير، فظهر فجأة فوق السور علم مثلث الشكل أبيض اللون معلق بسارية من خشب البامبو يتلاعب النسيم به. فأمر سونغ جيانغ رجاله أن يكدسوا أكياس الرمال في تلك الناحية قريباً من السور، وطلب إلى المقاتلين الصعود عليها وفي أيديهم القصب والعصي.

التقاهم باي شنغ على السور، وأشار بيده إلى داخل المدينة: "هوانغ الزنبور يعيش في ذلك الزقاق".

استفسر سونغ جيانغ: "أين شيوي يونغ وهو جيان؟".

- يختبئان في بناء الزنبور في انتظارك.

- هل رأيت شي يونغ ودو كيان؟

- إنهما يختبئان إلى جانب بوابة المدينة.

هبط سونغ جيانغ برجاله عن السور إلى المدينة، واتجهوا ناحية باب بناء الزنبور. كان هو جيان متوارياً تحت الطنف فناداه سونغ جيانغ في هدوء: "افتح باب حديقة الخضراوات، وسيكدس الرجال القصب والعصيّ هنالك. قل لشيوي يونغ أن يضرم فيها النار. ومن بعد اقرع باب الزنبور قائلاً: منزل جاركم يحترق! وقد حملنا إلى هنا أقفاصاً من ممتلكاته لإنقاذها! وحين يفتحون الباب سنقوم

بخطوتنا التالية".

أرسل سونغ جيانغ جماعتين من الرجال لحراسة طرفي الزقاق. وفتح هو جيان باب حديقة الخضراوات، فنقل المقاتلون القصب والعصي وكدسوها في كومة. وناول شيوي يونغ مادة ملتهبة أشعل بها القصب، واندفع هو جيان ودقَّ على باب هوانغ الزنبور صائحاً: "منزل جاركم يحترق! وقد نقلنا أقفاصاً تضم ممتلكاته لإنقاذها. افتحوا الباب، عجلوا!".

رأى المقيمون في البيت اللهب يتصاعد من البناء التالي، فعجلوا في فتح الباب. وانقض تشاو غاي وسونغ جيانغ والآخرون هاجمين، وهم يطلقون صيحات وحشية. وقتلوا كل من صادفهم؛ قرابة خمسين رجلاً، كباراً وصغاراً. لم يوفِّروا أحداً. ولكن الزنبور لم يكن في المنزل.

جمع المقاتلون الشجعان كل ما عثروا عليه من مال وأشياء ثمينة مما اغتصبه هوانغ من الأبرياء. وانطلقت صفرة ثاقبة، فحمل قطاع الطرق الأقفاص والسلال العامرة بالغنيمة على حمالات، وتسلقوا السلم المائل إلى قمة سور المدينة.

وحين لمح شي يونغ ودو كيان النار استلاّ خنجريهما وقتلا الجنود الذين يخفرون البوابة. وتراكض الجيران في الشارع وهم يحملون دلاء الماء والسلالم لمكافحة الحريق.

صاح شي يونغ ودو كيان: "لا تتحركوا من أمكنتكم. هنالك ألوف منا هنا من بحيرة ليانغشان. نحن نفني أسرة هوانغ الزنبور للثأر لسونغ جيانغ وداي زونغ. ولا علاقة لكم بهذه القضية. فارجعوا إلى بيوتكم واختبئوا. ولا تتدخلوا في أمور لا تعنيكم من قريب أو بعيد".

لم يقنع عدد من الجيران بهذا الكلام فلبثوا يراقبون الأحداث. وما إن وقعت أبصارهم على الإعصار الأسود لي كوي يتدحرج ناحيتهم ملوحاً بفأسيه حتى أطلقوا صيحات الرعب، والتقطوا سلالمهم ودلاءهم وأطلقوا سيقانهم للريح.

كانت هنالك في الزقاق الخلفي فرقة من الجنود تسهر على حراسة بوابة المدينة. فركض عدد من أفرادها وهم يحملون أكياساً فارغة وعصياً طويلة شائكة لإطفاء النيران. فشدَّ هوا رونغ سريعاً قوسه وأرسل سهماً إلى الرجل المنطلق في المقدمة، فسقط على الأرض.

صاح هوا رونغ:

"فليقترب كل من يريد أن يلقى حتفه في محاولة إخماد النار".

فتراجع الجنود ككتلة واحدة.

أضرم شيوي يونغ النار في كل زاوية من زوايا بناء هوانغ الزنبور، وسرعان ما هبت النيران تلتهمه.

كان لي كوي في هذه الأثناء قد حطَّم القفل، وفتح بوابة المدينة. فدلف نصف المغيرين عبر هذا المدخل، في حين تسلق نصفهم الآخر من فوق الجدار. فالتقاهم الأشقاء الثلاثة يوان وتشانغ هينغ والأخوان تونغ. ونقلت أقفاص الغنيمة وسلالها وحملت على القوارب. كان قد شاع في ووويجيون أن شجعان بحيرة ليانغشان اختطفوا المقرر إعدامهما من ساحة الإعدام في جيانغتشو وذبحوا أناساً كثيرين. فمن تراه يجرؤ الآونة على اللحاق بهم؟ لقد هرب الجميع من أمامهم.

صعد سونغ جيانغ ورفاقه الشجعان إلى القوارب وقد ساءهم أنهم لم يتمكنوا من القبض على هوانغ الزنبور، واتجهوا إلى مزرعة مو هونغ. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفاً.

أثارت النيران في ووويجيون، وقد قرمزت سماء الليل، أقوالاً صاخبة في جميع أرجاء جيانغتشو. ورفع تقرير بهذا الخصوص إلى الوالي، وتشوش هوانغ الزنبور الذي كان في تلك اللحظة برفقة الوالي، وهتف: "ثمة نيران تلتهم مدينتي. يحسن أن أعود إلى بيتي لتدبير أموري".

أمر الوالي أن تفتح بوابة المدينة لخروج هوانغ، وأن ينقله قارب حكومي عبر النهر. شكر هوانغ الوالي ورحل. ركب وخادمه القارب في عجلة فانطلق بهما. وحملق من فوق النهر في ووويجيون. كان اللهب يتضرَّم بوحشية ويعكس على صفحة المياه لوناً أحمر قانياً.

قال أحد النوتيين: "هذه النار قريبة مِن البوابة الشمالية".

فتفاقم اضطراب هوانغ. وفيما هم يقتربون من وسط النهر شوهد قارب صغير يمرُّ بهم بسرعة. ولم تمض لحظات حتى ظهر على مسرح الرؤية قارب آخر صغير. وبدلاً من أن يمرَّ بهم اتجه مباشرة ناحية القارب الحكومي.

هتف الخادم في غضب: "من أنت؟ ابتعد!".

وثب فتى ضخم الجثة من القارب الصغير. كان يحمل خطافاً من كلابات المراسي في يديه. قال: "لقد أمروني بالذهاب إلى جيانغتشو للإعلان عن النار".

مدَّ هوانغ رأسه من القمرة مستفسراً: "أين النار؟".

– عند البوابة الشمالية. لقد ذبحت أسرة هوانغ الزنبور عن آخرها من قبل فتيان شجعان من بحيرة ليانغشان. وقد أخذوا جميع ممتلكاته الثمينة وأضرموا النار في بيته.

زمجر هوانغ. لقد صعقته الصدمة حقاً. وشكم الرجل القارب بخطافه ووثب إليه. كان هوانغ رجلاً صارماً، فاستشعر على الفور أن هنالك شيئاً غير طبيعي. توجه إلى مؤخر القارب وغطس في مياه النهر.

كان هنالك رجل من القارب الآخر الصغير ينتظره تحت الماء. فقبض عليه من وسطه وأعاده إلى القارب الحكومي. وساعد الفتى الضخم في رفعه إلى ظهر القارب، ثم ربطه بحبل. كان تشانغ شون الشعاعة البيضاء في الأمواج مَنْ قبض عليه تحت الماء. أما الفتى الضخم الذي يحمل الخطاف فهو لي جيون تنين النهر الهائج. وانتصب كلاهما الآونة على سطح المركب الحكومي. وخرَّ النوتيون ساجدين على الفور.

طمأنهم لي جيون قائلاً:

"لن نقتل أحداً منكم. ولكننا نريد هذا النذل هوانغ الزنبور. ارجعوا وأخبروا ذلك الحمار اللص – أي الوالي – أن شجعان بحيرة ليانغشان سيأذنون له بالحفاظ على رأسه في الوقت الراهن. لكننا سنأتي لقطعه عاجلاً أم آجلاً".

همهم النوتيون المرتجفون رعباً:

"سنفعل ذلك".

نقل تشانغ شون السجين إلى قاربه، وأخلى سبيل المركب الحكومي، وجذف الفتيان الشجاعان بقاربهما الصغير السريع في اتجاه المزرعة، ورأيا أن القادة ينتظرونهما على الضفة حيث تراكمت الأقفاص والسلال. ووثب سونغ جيانغ فرحاً حين رأى هوانغ أسيراً.

أعلن الشجعان المجتمعون: "هذا هو الرجل الذي كنا نفتش عنه".

نقل لي جيون وتشانغ شون الأسير هوانغ إلى الشاطئ، واقتادوه إلى المزرعة بعد أن أحاطت به الجماعة كلها. وحيّا تشو غوي وسونغ وان العائدين. ودلف الجميع إلى الردهة المصنوع سقفها من القش وجلسوا.

خلع سونغ جيانغ عن هوانغ ثيابه المبللة، وربطه إلى شجرة صفصاف، وطلب إلى القادة أن يتحلقوه. وأمر بإحضار جرة من الخمر وأقداح للجميع. وكان عددهم من تشاو غاي الأعلى رتبة إلى باي شنغ الأدنى رتبة ثلاثين فرداً من الشجعان الجسورين. حين ملئت الأقداح التفت سونغ جيانغ إلى أسيره قائلاً:

"هوانغ وين بينغ، أيها الوغد! أنا لم أرتكب بحقك إثما! ففيم تبغي إنزال الأذى بي؟ أربع أو خمس مرات حاولت إغراء الوالي تساي بقتلي وقتل داي زونغ. رجل درس كتب الحكماء، كيف يمكن أن تكون على مثل هذه الدناءة؟ ليس هنالك من عداء دموي رهيب بيننا. ففيم تآمرت ضدي؟ لقد ولد شقيقك هوانغ وين يه من صلب أمك، ومع هذا فهو رجل لطيف. والناس في مدينتكم ينادونه هوانغ البوذا. وقد أمرتُ ليلة البارحة ألا يزعجه أحد. أما أنت، أيها السافل، فلا عمل لك إلا إيذاء الناس! أنت تشدُّ نفسك إلى أصحاب النفوذ، وتتملق الموظفين الكبار، وتضطهد الأبرياء. وأنت معروف في ووويجيون بهوانغ الزنبور. حسن، سأعملنَّ اليوم على قتلك!".

قال هوانغ: "أعترف بجرائمي، ولا أطلب غير ميتة سريعة".

صاح تشاو غاي: "أيها الحمار اللص، لسوف تموت، فلا يرهبنَّك الخوف. ما كنت لتتصرف على الغرار الذي لجأت إليه لو كنت تعرف أن يوم الحساب هذا في متناول اليد".

سأل سونغ جيانغ: "من منكم، أيها الإخوة، ينوب عني في تنفيذ هذا العمل؟".

وثب لي كوي الإعصار الأسود متقدماً: "سأسلخ لك جلد هذا الوغد يا أخي".

وانتضى سكيناً حادة، ونظر إلى هوانغ وضحك: "في ردهة الوالي الخلفية كذبت وافتريت وأثرت هواجسه، واختلقت قصصاً لا أساس لها، وأقدمت على خداعه. وهكذا فأنت تطلبها ميتة سريعة؟ سأعمل على أن تموت في بطء".

بدأ بتقطيع ساقي الأسير. ولم يمر وقت طويل حتى قطعه إلى شرائح رقيقة. وعندها عمد لي كوي إلى فتح صدر هوانغ، وأخرج قلبه ورفعه أمام الشجعان المحتشدين لإلقاء نظرة عليه.

رجع الجميع إلى الردهة المصنوع سقفها من القش وهنأوا سونغ جيانغ، فخرَّ على ركبتيه مثيراً دهشتهم. وما أسرع أن ركعوا مثله. صاحوا: "ما الأمر؟ أفصح على رسلك. فليس هنالك ما نرفض الإصغاء إليه".

- أنا رجل عديم الموهبة، مجرد كاتب. ولكنني حاولت دائماً أن أكون طيباً مع الناس وأنشئ

صداقات مع كل شجاع وجسور. ومن سوء الحظ أني، لنقصان في قوتي وقدرتي، لم أكن قادراً على معاملتهم بما يليق بهم وإشباع رغبة كثيراً ما رافقتني في حياتي. حين صدر الأمر بنفيي إلى جيانغتشو حثني تشاو غاي مثلما فعلتم أيها القادة على البقاء معكم. غير أني، نزولاً عند تعليمات والدي الصارمة، لم أتمكن من ذلك. وفي ما بعد هيأت لي السماء فرصة لقاء عصبة أخرى من الأبطال عند نهر خونيانغ. ومن كان يخطر له في بال أن جهلي سيدفعني إلى السكر وكتابة كلمات وحشية فأجعل حياة الناظر داي في خطر؟ وقد أقدمتم أيها الشجعان من دون خوف أو خشية على اختطافي من عرين النمر، من مأوى التنين، وأنقذتم حياتي التعيسة. وها أنتم قد ساعدتموني الآن مشكورين في الثأر لنفسي. ولكننا ارتكبنا جرائم كبرى، وأوقعنا الفوضى في مدينتين من مدن الولايات. وسوف يرفع تقرير بذلك إلى الإمبراطور من دون ريب. وليس أمامي خيار سوى أن أنضم إليكم أيها الإخوة في بحيرة ليانغشان. فماذا عن بقيتكم؟ إذا كنتم تشعرون بالشيء ذاته، فاجمعوا ممتلكاتكم ولنذهب معاً. وإذا كان هنالك من لا يريد الذهاب، فأنا أنتظر أوامركم. ما أخشاه هو أن يثير هذا الأمر ردة فعل مروِّعة...

قاطعه لي كوي قائلاً: "سنذهب جميعاً. ومن يرفض ذلك يتلقى ضربة من فأسي البتّارة فأشقه إلى نصفين".

- كيف يمكن أن تتحدث بمثل هذه القسوة؟ على كل أخ أن يقرر ذلك من تلقاء نفسه.

تشاور الرجال: "لقد ذبحنا عشرات من الضباط والجنود وأوقعنا الفوضى في مدينتين. ولا مناص من أن يرفع الوالي تقريراً بذلك إلى البلاط الإمبراطوري الذي سيرسل من دون شك جيشاً كاملاً للقبض علينا. فإن لم نرحل مع الأخ سونغ جيانغ، لنعيش معاً أو نموت معاً، فأين يمكن أن نذهب؟".

أجزى سونغ جيانغ الشكر لهم وقد انتفخت أوداجه فرحة. وأُرسل تشو غوي وسونغ وان في ذلك النهار ذاته لنقل الخبر إلى حصن الجبل.

وُزِّع السائرون إلى خمس وحدات. في الأولى تشاو غاي، وسونغ جيانغ، وهوا رونغ، وداي زونغ، ولي كوي. وفي الثانية ليو تانغ، ودو كيان، وشي يونغ، وشيوي يونغ، وهو جيان. وفي الثالثة لي جيون، ولي لي، وليوي فانغ، وقوه شنغ، وتونغ وي، وتونغ مينغ. وفي الرابعة هوانغ شين، وتشانغ شون، وتشانغ هينغ، والأشقاء الثلاثة يوان. وفي الخامسة مو هونغ، ومو تشون، ويان شون، ووانغ النمر القصير البدين، وتشنغ تيان شو، وباي شنغ. هؤلاء القادة الثمانية والعشرون وعدد من الرجال تقاسموا الغنيمة التي أخذت من منزل هوانغ الزنبور، ووزعوها على العربات.

وأركب مو هونغ المحترم مو وأسرته بأسرها في عربات، بالإضافة إلى ممتلكاتها الثمينة. أما الخدم الذين رغبوا عن الذهاب فقد أعطيت لهم الفضة، وطلب إليهم البحث عن سادة آخرين. وأما الذين رغبوا في الذهاب فقد انضموا إلى الجماعة. وانطلقت الوحدات الأربع الأولى. وجاء مو هونغ بدستة من المشاعل وأشعل النار في المزرعة، وغادر حقوله، واتجه إلى بحيرة ليانغشان.

سارت الوحدات قدماً، واحدة بعد الأخرى، يفصل كلاً منها عن الأخرى قرابة عشرين ليا.

وستتحدث الآونة عن الوحدة الأولى التي يقودها تشاو غاي وسونغ جيانغ وهوا رونغ وداي زونغ ولي كوي، وقد اعتلى كل منهم صهوة جواده، تلحق به جماعة من الرجال والعربات. في اليوم الثالث من بدء المسير وصلوا إلى مكان يسمى جبل البوابة الصفراء.

التفت سونغ جيانغ إلى تشاو غاي قائلاً: "إنه جبل كريه المنظر. لا ريبة أنه يعجُّ بالعصابات. يستحسن أن نبعث شخصاً يستحث الوحدات الأخرى على اللحاق بنا قبل أن نتابع سيرنا".

لم يكد ينطق بهذه الكلمات حتى ضربت الطبول ونفخت الأبواق في ثغرة من ثغرات الجبل. أوضح سونغ جيانغ: "ماذا قلت لك؟ سنتوقف ههنا بالضبط. وحين تنضم إلينا قواتنا سنتعامل مع هؤلاء الأوغاد".

ثبت هوا رونغ سهماً إلى قوسه، وأمسك كل من تشاو غاي وداي زونغ بمطرده. وحمل لي كوي فأسيه، وتجمهروا على شكل درع حول سونغ جيانغ، ودفعوا خيولهم قدماً. انحدر عن التلة حوالى أربعمائة أو خمسمائة من قطاع الطرق على صهوات جيادهم يتقدمهم أربعة فتيان شجعان يحمل كل واحد منهم سلاحاً.

هتف الأربعة صائحين: "لقد ثرتم في جيانغتشو، وأغرتم على ووويجيون، وذبحتم جنود الحكومة والسكان. وما زلتم تأملون في العودة إلى بحيرة ليانغشان؟ قبعنا في انتظاركم منذ زمن طويل. اتركوا سونغ جيانغ لدينا إن كنتم تملكون شيئاً من شعور، فنبقي على أرواحكم".

برز سونغ جيانغ، وركع على الأرض قائلاً: "كان هنالك من ألحق الأذية بي، أنا سونغ جيانغ، ولكنني لم أستطع أن أثأر لما لحق بي من ضيم. وعندها جاء رجال شجعان من كل ناحية وصوب وأنقذوني. هل أثرت غضبتكم، أيها الأبطال الأربعة، بتصرفاتي؟ اكبحوا جماح أيديكم النبيلة، واصفحوا عني وأنقذوا حياتي، أتوسل إليكم".

ترجل الأربعة عن سروجهم، وألقوا أسلحتهم جانباً، واندفعوا قدماً وخروا على ركبهم: "لقد سمعنا بالشهرة العظيمة لسونغ جيانغ المطر في أوانه من شاندونغ. وتقنا إلى لقائك فلم تأذن لنا الأقدار، ثم تناهى إلينا أنهم أدانوك في جيانغتشو، فعزمنا على الإغارة على السجن. غير أننا لم نتلق أية أنباء يمكن الوثوق بها. وأرسلنا قبل يومين واحداً من رجالنا إلى المدينة للاستعلام، فرجع وقال إن عصبة ضخمة من الرجال الشجعان ثارت في جيانغتشو واختطفته من ساحة الإعدام. وأخذته إلى مدينة جييانغ. وبعد ذلك أضرمت النار في ووويجيون وسرقت منزل هوانغ الزنبور. وتراءى لنا أنك ستجتاز هذه الطريق من دون ريب، فنشرنا عدداً من الكشافة هنا وهناك، والتقينا اليوم أخيراً. لقد أعددنا قليلاً من الطعام الزهيد في معقلنا الصغير للترحيب بك. أفلا تنضم وجماعتك من الشجعان إلينا فترة من وقت؟".

سرَّ سونغ جيانغ كثيراً، فأنهض الأربعة على أقدامهم واستفسر عن أسمائهم. كان القائد يدعى أو بنغ، وينحدر من هوانغتشو. وكان يعمل خفيراً عسكرياً على نهر اليانغتسي، ولأنه أغضب الضابط الذي يعلوه رتبة اضطر إلى الهرب والصيرورة قاطع طريق. وقد اكتسب لنفسه لقب "الجناحان الذهبيان اللذان ينظفان السحب".

وكان الثاني يدعى جيانغ جينغ من تانتشو في هونان الذي انكبَّ أصلاً على الدراسة استعداداً للامتحانات الإمبراطورية. وحين فشل في اجتيازها هجر الريشة وحمل سيفاً. كان شاباً ذكياً ماهراً في الرياضيات، لا يخطئ في عشرة آلاف عملية جمع أكثر من خطيئة تافهة. وكان بارعاً أيضاً في استخدام الرمح والعصا، ولا نظير له في الإعداد لمعركة. وهكذا فقد عرف باسم الحاسب السحري.

وكان الثالث ما لين من جيلينغ في جيانكانغ. كان متبطلاً يعزف على المزمار المزدوج. لكنه ما إن ينتضي سكينه السفودية الكبيرة حتى يتهيّب مائة من الرجال من الاقتراب منه. وأطلق عليه الناس اسم عازف المزمار الجني.

أما تاو تسونغ وانغ، الرجل الرابع، فكان من غوانغتشو. وكانت أسرته تتألف من مزارعين مستأجرين. وكان في مقدوره أن يطوي رفشاً حديدياً، كما كانت له قوة أسطورية. وكان ماهراً أيضاً في استخدام الرمح والسكين، ويعرف باسم السلحفاة تساعية الذيل.

رحَّب هؤلاء الشجعان الأربعة بسونغ جيانغ، وجاء أتباعهم بالمشهيات وبجرة كبيرة من الخمرة وطبقين من اللحوم وضعوها وصبوا الخمور. وقدمت الأقداح أولاً إلى تشاو غاي وسونغ جيانغ، ثم إلى هوا رونغ، وداي زونغ، ولي كوي. وتم التعرف على بقية أفراد الوحدة وقدمت الخمور لهم.

في أقل من فترتي حراسة وصلت الوحدة الثانية، وتم التعرف على قادتها. وبعد أن قدمت الخمور إلى الجميع تمت دعوتهم إلى الجبل، وسار القادة العشرة قدماً إلى الحصن على جبل البوابة الصفراء. وأمر القادة الأربعة بذبح العجول والخيول لإطعام ضيوفهم. وأرسل عدد من قطاع الطرق للهبوط عن الجبل ودعوة القادة الثمانية عشر الآخرين إلى الوليمة حتى وصول الوحدات الثلاث الأخرى. وقبل انقضاء نصف نهار وصلت هذه الوحدات، وقابل أفرادها المضيفين على المنضدة الاحتفالية في ردهة الاجتماعات في القلعة.

وفيما الجميع يغتبقون الخمرة التفت سونغ جيانغ إلى القادة الأربعة قائلاً: "أنا في طريقي للانضمام إلى قوات الأخ تشاو غاي على جبل ليانغشان. وأتساءل إن كنتم ترغبون في هجر هذا المكان والذهاب برفقتي؟".

- إن لم تعتبرانا، أيها المحاربان النبيلان، غير جديرين فيسرنا أن نخدمكما بصفتنا سائسي خيول.

اغتبط سونغ جيانغ وتشاو غاي، وقالا:

"في هذه الحال نرجو أن تستعدوا للرحيل".

عجت الفرحة في قلوب القادة الآخرين، وأمضوا الليلة في الحصن.

في اليوم التالي، هبط سونغ جيانغ وتشاو غاي عن الجبل وانطلقا في مكان القيادة من الوحدة الأولى مثلما فعلا. ولحقت بهما الوحدات الأخرى، يفصل كل واحدة عن الأخرى عشرون ليا. وجمع القادة الأربعة كل ثمين، وأحرق رجالهم الذين يعدون أربعمائة أو خمسمائة حصن البوابة الصفراء، ومشوا في النهاية كوحدة سادسة.

سرَّ سونغ جيانغ من انضمام القادة الأربعة. وفي أثناء الطريق خاطب تشاو غاي قائلاً: "على الرغم من أن الخوف اعتصرني عدة مرات منذ جنحت عن السبيل، إلا أنني تعرَّفت إلى عدد من الفتيان الطيبين. وها أنا اليوم ذاهب برفقتك، يا أخي، إلى حصن الجبل وقد هدأت ظنوني واستراح ذهني. سنحيا معاً ونموت معاً".

تباسطا في أمور كثيرة على الطريق، ووصلا إلى حانة تشو غوي من دون أن ينتبها إلى ذلك.

أبلغ وو يونغ وغونغسون شنغ ولين تشونغ وتشين مينغ الذين أقاموا على حراسة الحصن بالإضافة إلى قادمين آخرين هما شياو رانغ وجين دا جيان من قبل تشو غوي وسونغ وان بوصولهم الوشيك، فأرسلوا قائداً أدنى رتبة داوم على الذهاب في القارب إلى الحانة يومياً لاستقبالهم. وساروا الآونة برفقته إلى شاطئ الرمال الذهبية. وامتطى القادة العائدون صهوات الجياد، وركبوا المحفات على قرع الطبول ونفخ المزامير، وشرعوا في صعود الجبل.

حياهم عند الممر وو يونغ والخمسة الآخرون بالخمور. ثم تقدم الجميع إلى ردهة الأخوية حيث أُشعلت مبخرة تنفث بخورا طيب الرائحة. وطلب تشاو غاي من سونغ جيانغ أن يتخذ مقعد القيادة العليا. فما رغب في الإصغاء إليه، بل احتجَّ قائلاً: "لا ينبغي أن تفعل هذا يا أخي. فأنا مدين بحياتي للنجدة التي لا تهاب الموت التي أقدم عليها شجعانك. أنت، يا أخي، قائد هذا الحصن. فكيف يمكن أن تتخلى عن القيادة لرجل عديم الموهبة؟ أفضل أن أموت بدلاً من أن أقبل ذلك".

أجاب تشاو غاي: "أقلع عن هذا الكلام يا أخي، ما كان يمكن لنا، نحن السبعة، أن نكون هنا لو لم تخوِّض في بحر من الدماء لإنقاذنا، ولولا حملك إيانا على المجيء إلى الجبل. أنت القائد المنقذ الملائم. وليس هنالك من هو أهل للجلوس على هذا المقعد أكثر منك".

- ولكنك تكبرني سناً، فقد بلغتَ الستين من العمر. ويجب أن أخجل من نفسي.

ودفع سونغ جيانغ تشاو غاي إلى المقعد الأول، واتخذ لنفسه المقعد الثاني. وجلس وو يونغ على المقعد الثالث، وغونغسون شنغ على المقعد الرابع.

أمر سونغ جيانغ: "ليجلسن القادة الشيوخ عن اليسار مثل المضيفين، والقادة الجدد عن اليمين مثل الضيوف، من دون أي اعتبار للجدارة أو الرتبة. وسنرى كيف تبلون بلاء حسناً في المعارك المقبلة، وعندها سنتخذ قراراً بهذا الخصوص".

وافق الآخرون جميعاً: "هذا قرار حكيم".

واحتفل قرابة أربعين من القادة وسط أصداء الأبواق وقرع الطبول.

وتحدث سونغ جيانغ عن القصة التي اختلقها بحقه الوالي تساي في جيانغتشو، فقال: "والسبب في هذا كله هو ذلك النذل هوانغ الزنبور - مع أن لا علاقة له به - الذي فسَّر على مزاجه تلك الأغنية التي راح الأولاد يترنمون بها في شوارع العاصمة. فقد خاطب الوالي قائلاً: مدمر بلادنا بيت وشجرة. ضع حرف كلمة بيت فوق كلمة شجرة وستحصل على كلمة سونغ. وهو الشخص الذي سينهب ثروة بلادنا وحبوبها. الماء والعمل هما الجند المسلّح. ضع جذر كلمة ماء إلى جانب كلمة عمل فتحصل على كلمة جيانغ، وهو الرجل الذي سيحرض جنوداً مسلحين. وهذا ينطبق على

سونغ جيانغ تماماً. أما السطزان الأخيران سينبسط ستة وثلاثون في صف واحد؛ وتوقعنا شاندونغ في ورطة عصيبة، فهذا يشير إلى حقيقة أن زعيم الثورة سونغ جيانغ ينحدر من شاندونغ. هذا هو السبب الذي أدى إلى اعتقالي. ثم جاء الناظر داي بتلك الرسالة الزائفة، فحدَّث هوانغ الوالي عن قطع رأسينا أولاً، ومن بعد رُفع تقرير بذلك إلى البلاط الإمبراطوري. لو لم تنقذونا، أيها الشجعان البواسل، لما كنا ههنا هذا النهار".

هبَّ لي كوي على قدميه: "حسن. هذا الأخ يليق بالنبوءة السماوية تماماً. فعلى الرغم من أنه قاسى الأمرَّين بسبب هوانغ، إلا أنه استمتع بمراقبتي وأنا أقطعه قطعاً صغيرة. إن لدينا عدداً وافياً من الرجال والخيول. فلنجعلها ثورة! ممَّ نخاف؟ وسيغدونّ الأخ تشاو غاي إمبراطوراً على سونغ الكبرى، والأخ سونغ جيانغ إمبراطوراً على سونغ الصغرى. ويصير وو يونغ الوزير الأول، وغونغسون القائد العام، ونصير جميعاً جنرالات. وسنشقُّ طريقنا إلى العاصمة الشرقية، ونستولي على العرش الزنيم، ونبتهج ابتهاجاً عظيماً! ويكون ذلك رائعاً! أفضل من هذه البحيرة الزنيمة!".

صاح داي زونغ: "أيها الثور الحديدي، أنت تهرف بما لا تعرف. أنت لا تستطيع أن تتصرف هنا مثلما كنت تفعل في جيانغتشو. ينبغي أن تتلقى الأوامر من هذين الأخوين اللذين يعتبران قائدين علينا، لا أن تطلق لسانك في الحديث إلى الأبد كيفما يطيب لك. إذا داومت على مقاطعة الحديث على هذا الغرار، فلسوف نقطع لك عنقك لتكون عبرة للآخرين".

- أواه، إن فعلت ذلك فسأحتاج إلى وقت طويل كي ينبت لي عنق آخر. حسن، سأجرع خمرتي وبالصمت أعتصم.

ضحك الجميع. ورجع سونغ جيانغ بالحديث إلى زمن أول معركة خاضوها ضد جنود الحكومة.

خاطب تشاو غاي قائلاً: "ملأني الرعب حين سمعت أنهم يفتشون عنك. من كان يخطر له في بال يومها أن دوري سيعقب دورك مباشرة!".

ذكّره وو يونغ قائلاً: "كان يمكن أن تجنّب نفسك ويلات كثيرة لو بقيت معنا هنا على الجبل، وقد ألححنا عليك بذلك، بدلاً من الذهاب إلى جيانغتشو. ولكن الأمور مرهونة بمشيئة السماء".

- وأين ذلك النذل الكولونيل هوانغ آن هذه الأيام؟

- لقد سقط مريضاً ومات بعيد شهرين أو ثلاثة شهور.

أطلق سونغ جيانغ تنهيدة ارتياح. وأكل الجميع في ذلك النهار، وشربوا وفرحوا. وعمل تشاو غاي أولاً على أن يرتاح المحترم مو وأفراد أسرته أولاً، ومن بعد وزَّع ممتلكات عائلة هوانغ الزنبور بين قطاع الطرق الصغار الذين أبلوا بلاء حسناً، وأعطى داي زونغ سلال الهدايا التي كان يحملها إلى العاصمة من قبل الوالي فرفض داي قبولها، وأصرَّ على التبرع بها إلى الخزينة العامة.

وقدم تشاو غاي لي جيون والقادة الجدد الآخرين إلى ضباط الصف والجنود الذين حيّوهم باحترام. ونُحرت الثيران والخيول على مدى عدة أيام متعاقبة لإقامة المآدب والاحتفالات. ونكتفي بالحديث عن هذا الموضوع.

ونزولاً عند أوامر تشاو غاي أقيمت المنازل أمام الجبل وفي مؤخره، كما شيدت أبنية جديدة داخل الحصن، وعززت التحصينات كلها. وفي اليوم الثالث من الاحتفال نهض سونغ جيانغ وخاطب القادة الآخرين قائلاً:

- ثمة أمر على جانب من الأهمية أود الحديث بشأنه. أتساءل إن كنتم تأذنون لي بالرحيل لعدة أيام؟

استفسر تشاو غاي: "ما الأمر يا أخي؟ وإلى أين تنتوي الذهاب؟".

فأجابه سونغ جيانغ في هدوء. ونتيجة لذلك أفلت بشقِّ النفس، ونجا بحياته من غاب من السكاكين، وتلقى عند طرف الجبل نبوءة مهمة.

والحقيقة أنه لو لم تعطه الإلهة الكتب الثلاثة ما استطاع أن يبدع عدة صفحات رائعة من التاريخ.

إلى أين انتوى سونغ جيانغ أن يذهب؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثاني والأربعون

سونغ جيانغ يلتقي الملكة الخفية للسماء التاسعة؛ ويتلقى في قرية الطريق الدائرية الكتب السماوية الثلاثة

قال سونغ جيانغ: "لقد رافقتموني إلى هذا الحصن واحتفلتم بي أياما مديدة. وكنت سعيدا، ولكنني لا أكفّ عن التساؤل عن مصير والدي في البيت. حين ترسل جيانغتشو تقريرا إلى العاصمة، فلا ريبة أن البلاط الإمبراطوري سيبعث خبرا إلى جيتشو التي ستعلم بدورها مقاطعة يونتشينغ للتضييق على أسرتي كوسيلة لإرغامي على الاستسلام. وليس ثمة ما يضمن أن يقوى والدي على احتمال ذلك والبقاء على قيد الحياة. وكنت أقول في نفسي إنني إن تمكنت من نقله إلى هنا فسأنفض عن كاهلي الهمَّ والقلق، فهل تأذنون لي بالمغادرة، يا إخوتي؟".

قال تشاو غاي: "مثل هذه القضية على جانب من الخطورة بالنسبة إلى جميع الرجال. لا يمكن أن أحتجزك هنا ثائرا في الوقت الذي يتعرَّض فيه والدك للصعوبات في البيت. نأذن لك من دون ريب. ولكنَّ إخوتنا عانوا من عدة أيام متوالية صعبة، ونحن لم نسوِّ الأمور في الحصن بعد. فأمهلنا يوما أو يومين لنتفقّد فيهما قواتنا. وبعدها نذهب معا".

- في طوقي أن أمهلكم، ولكنني أخشى أن يشرعوا في التضييق على الأسرة سريعا، ويفضل ألا أتأخر. وعلى أية حال، فأنا لا أريد عددا كبيرا من الرجال. يحسن أن أنطلق وحدي، وفي سريّة تامة. وبمعونة من شقيقي سونغ تشينغ أستطيع نقل والدي إلى هنا خلال الليل. ولن يتناهى الأمر إلى أي كان على الإطلاق. وإذا ذهبت مع حشد كبير فلسوف أنبّه السلطات المحلية وأجعل المهمة عسيرة شاقة.

- إن سارت بعض الأمور بصورة مغلوطة فلن يكون هنالك من يهب إلى نجدتك.

- إذاً، سأموت بكل طيبة خاطر في سبيل والدي.

أصرَّ سونغ جيانغ على الرحيل فورا. فلبس قبعة لبادية عريضة الحافة، وحمل مطردا، وعلق خنجرا في وسطه. وهبط عن الجبل يرافقه حتى حدود شاطئ الرمال الذهبية عدد من القادة لم يلبثوا أن ودعوه عائدين.

تم نقله عبر النهر إلى حانة تشو غوي، ومن هنالك اتخذ سبيله على الطريق المؤدية إلى جيتشو. لم يكن يتوقف عن السير إلا لتناول شيء من الطعام وقليل من الشراب أو قضاء الليل، ومن بعد يسترسل في سبيله مع إطلالة الفجر.

حين اقترب من قريته كان المساء قد أرخى سدوله، وكان الوقت قد تأخر كثيرا للذهاب إلى المزرعة. فأمضى ليلته في خان، ثم تابع طريقه في الصباح التالي. ولكنه وصل إلى قرية أسرة سونغ

في وقت مبكر، فاختبأ في غيضة. وحين انتشر الظلام مشى إلى المزرعة، وقرع على البوابة الخلفية. فتح له سونغ تشينغ الباب، وأدهشته رؤية سونغ جيانغ، فهتف: "يا أخي، فيم عدت إلى البيت؟".

- لآخذك أنت وأبي.

- إنهم يعرفون هنا جميع ما قمت به من أعمال في جيانغتشو. والمقاطعة ترسل يوميا اثنين من مفوضي الشرطة ليتجولا هنا ويراقبانا. لن يُسمَح لنا بالذهاب. وحالما تصل الوثائق من جيانغتشو سيعمدون إلى اعتقال والدنا واعتقالي، وإلى إلقائنا في غياهب السجن إلى أن يتم القبض عليك. وهنالك قرابة مائتين من الجنود يخفرون المناطق المجاورة ليل نهار. لا تتماهل لحظة أخرى. عد سريعا إلى بحيرة ليانغشان وتوسل إلى القادة لكي ينقذونا.

سبح سونغ جيانغ في عرق بارد. لم تؤاته الجرأة على دخول المزرعة. فاستدار وأسرع خطواته في اتجاه قلعة الجبل.

كان الوقت ليلا، والقمر الغائم يلقي ضوءا باهتا، فاتخذ سونغ جيانغ الممرات الصغيرة المنعزلة. كان قد سار قرابة فترة حراسة حين سمع رجالا يصيحون من ورائه. نظر إلى الخلف، وعلى مبعدة لي أو أكثر لمح ضوء مشاعل. وصاح أحدهم: "قف حيث أنت، يا سونغ جيانغ".

فأعجل من خطواته هامسا في سره: "لم أصغ إلى كلام تشاو غاي، وهذه هي النتيجة. لترحمني السماء وتنجدني!".

كانت تقوم على البعد عدة مساكن متفرقة، فيمم شطره صوبها. وطردت الريح السحب، فتمكن سونغ جيانغ من أن يرى المكان بصورة جلية على ضوء القمر البراق. أطلق زمجرة. لقد كان في وضع يائس. فقد عرف في المكان قرية الطريق الدائرية. ولم تكن فيها غير هذه الطريق الوحيدة لأن الجبال تحدق بها من جميع الجوانب، ويجري عند سفوحها جدول مائي. وحيثما ذهبت في القرية يمنة أو يسرة فلا مناص من عودتك إلى النقطة التي انطلقت منها. فليست هنالك طريق أخرى.

استدار سونغ جيانغ كي ينقلب على عقبيه، ولكن الساعين وراءه سدوا طريقه، ومشاعلهم تتوهج مثل ضوء النهار.

غطس في القرية، وشرع يفتش عن مأوى. فاكتشف في غيضة من الأشجار معبدا قديما. دفع بوابتيه بيديه كلتيهما ودخل. وهنالك، في ضوء القمر، عثر على بناءين: أمامي وخلفي. نقَّب فيهما من دون أن يعثر على مكان يصلح للاختباء، فاستبدَّ به الرعب. وفي الخارج، هتف رجل قائلا: "لا ريبة أنه في المعبد".

عرف سونغ جيانغ الصوت. إنه تشاو نينغ. ينبغي أن يختبئ. ولكن، أين؟ في المذبح. أجل، في المذبح. رفع الستارة، وتسلق المكان، ووضع هراوته، وتجمع على بعضه وراء الوثن كاتما أنفاسه.

كان يستطيع رؤية المشاعل تدلف إلى المبنى، والرجال يبحثون هنا وهناك. كان تشاو نينغ وتشاو دي يقودان أربعين أو خمسين رجلا يمسكون المشاعل ويفتشون أرجاء المعبد.

همس سونغ جيانغ في سره: "أنا في طريق مسدودة. لتحمني أرواح العالم الأرضي!".

واستجابت الأرواح لصلاته. فقد مرَّ به الرجال جميعا من دون أن يبحثوا في المذبح.

قال سونغ جيانغ: "لتتمجَّد السماء".

وعندها اقترب تشاو دي من المذبح بمشعله. فقال سونغ جيانغ في سره: "لقد وقعوا عليَّ. ما في ذلك ذرارة من شك".

رفع مفوض الشرطة الستارة بطرف مطرده، وحرَّك مشعله إلى الأعلى وإلى الأسفل. أطلق المشعل على حين غرة هبة من دخان، ووقعت قطعة من السخام في عين تشاو دي فأعمته لحظة من زمن. أسقط المشعل على الأرض، وداسه بقدمه، وأطفأ النور، وخرج من المبنى، وخاطب الجنود في الساحة: "لم نعثر على الوغد في المعبد. ولكن، ليست هنالك ممرات أخرى. فأين يمكن أن يكون قد ذهب؟".

- لعله في تلك الغيضة في وسط القرية. لا يمكن أن يكون بعيدا، أيها المفوض. فهذه قرية الطريق الدائرية. وليس فيها غير طريق واحدة للدخول والخروج. أغلق مخرج القرية ولن يتمكن من النجاة ولو نبت له جناحان. ما إن ينبلج الفجر حتى نقوم بدورة تفتيشية كاملة ونقبض عليه.

قال المفوضان: "حسن جدا". وخرجا بجنودهما من المعبد.

خاطب سونغ جيانغ نفسه قائلا: "حقا إن الأرواح تدافع عني. إن نجوت بحياتي فأقسم إنني سأجدّد هذا المعبد وأعيد بناء مصلى أسرتنا. أواه، يا أرواح العالم الأرضي، مدّيني بحمايتك!".

لم يكد يتلفظ بهذه الكلمات حتى تناهى إليه صوت الجنود خارج المعبد يتصايحون: "أيها المفوضان، هذا هو". وتراكض تشاو نينغ وتشاو دي والرجال عائدين.

همس سونغ جيانغ في حنايا نفسه: "يا له من حظ عفن! لقد قبضوا عليَّ إذاً".

سأل تشاو نينغ عند مدخل المعبد: "أين؟".

قال الجنود: "انظر. هنالك آثار يدين قذرتين على البوابة. لا شك أنه دفع البوابة وفتحها ودلف داخلا".

- أنتم على حق. فتشوا من جديد... وبدقة متناهية.

انصبَّ الجنود في المعبد وشرعوا يفتشون.

ومن جديد همس سونغ جيانغ في سره: "حظي يقاومني. لقد انتهيت هذه المرة!".

انتشر الجنود في كل مكان من المبنيين. كان ثمة بناءان من القرميد لم يجر تفتيشهما بدقة، فأضاءتهما المشاعل مرة أخرى.

التفت تشاو نينغ إلى تشاو دي قائلا: "لعلَّه داخل المذبح. فأنت لم تبحث هنالك جيدا. سألقي أنا نظرة".

رفع تشاو نينغ الستارة بعد أن حمل أحد الجنود مشعله، فمدَّ ستة أو سبعة من الجنود رؤوسهم إلى الداخل. ولو لم يفعلوا ذلك لما وقع شيء. ولأنهم فعلوا، هبَّت على غير انتظار هبة من ريح شيطانية من داخل المذبح وأطفأت مشاعلهم، وأغرقت المعبد بأسره في الظلمة. فما عادت عيونهم تلمح شيئا.

قال تشاو نينغ: "هذا شيء يبعث على الضحك. كيف يمكن أن تهبَّ ريح شيطانية من لا

مكان؟ لا ريبة أن الروح موجودة في الداخل. وربما تكون مشاعلنا قد ضايقتها. فلنذهب. سنحرس مخرج القرية ونعاود التفتيش هنا بعد حلول النهار".

قال تشاو دي: "لا نستطيع إلقاء نظرة فاحصة الآونة، ولكننا نستطيع على أقل تقدير أن نفتش المكان برماحنا".

قال تشاو نينغ: "هذا صحيح".

لم يكد الرجلان يخطوان قدما حتى هبت عاصفة هوجاء من مؤخر المبنى، وتساقط الرمل والحصى مدرارا، واهتزَّ البناء بأسره من أسسه، وابتلعت سحابة سوداء كل شيء، وزحفت برودة قارسة في كل مكان. وأدرك تشاو نينغ الخطر المقبل، فصرخ بتشاو دي قائلا: "عجّل بالخروج يا أخي. فقد غضب الإله".

هرب الجميع وقد سادهم الهرج، وتعثر عدد منهم، ولوى بعضهم سيقانهم. ولكنهم هبوا ناهضين وتدفقوا خارج بوابة المعبد يعتصرهم الرعب.

هتف أحدهم في الداخل: "أنقذنا". فرجع تشاو نينغ إلى المبنى. كان جنديان أو ثلاثة جنود قد سقطوا عن الدرج وعلقت ثيابهم بجذوع بعض الأشجار الضخمة. وذهبت جهودهم في سبيل الإفلات منها عبثا. ألقوا مطاردهم جانبا، وأمسكوا بثيابهم، وجعلوا يلتمسون الرحمة. لم يتمالك سونغ جيانغ نفسه، وهو في المذبح، عن الضحك.

حرَّر تشاو نينغ الجنود وقادهم إلى الخارج، وقال الآخرون: "إنها ريح شديدة البأساء حقا. لقد كنتم تفسدون الأمور كثيرا هنالك، فأرسلت عفاريتها الصغيرة وراءنا. يحسن بنا أن ننزل إلى مدخل القرية ونتأكد أن سونغ جيانغ لن يفلت من بين أيدينا".

فوافق المفوضان: "صحيح. إن فعلنا هذا فسنقبض عليه".

وسارت الجماعة إلى مدخل القرية.

خاطب سونغ جيانغ نفسه وهو في المذبح: "على الرغم من أن أولئك الأوغاد لم يقبضوا عليَّ، فكيف سيتاح لي الإفلات من القرية؟". وفيما هو يقدح زناد فكره سمع صدى خطوات تقترب من الرواق الخلفي. فزمجر: "لماذا لم أغادر هذا المكان مبكرا؟".

وكان هناك صبيان يرتديان ثيابا خضراء يسيران صوب المذبح مباشرة. قالا: "إن ملكتنا تدعو السيد النجم للحديث معها".

أبكم سونغ جيانغ فما نطق بكلمة واحدة. خاطبه الصبيان من جديد قائلين: "تعال، أيها السيد النجم. فالملكة تدعوك".

لم يملك سونغ جيانغ الجرأة على الجواب، فألحَّ الصبيان قائلين: "أيها السيد النجم، لا تتوان. فالملكة تنتظر".

وسمعت أذناه أصواتا أشبه ما تكون بسقسقة الطيور. ولكنها لم تكن أصوات الصبيين هذه المرة. وبرزت من أسفل عرش الوثن فتاتان ترتديان ثيابا خضراء، وانتصبتا واقفتين أمام منصة المذبح.

انشده سونغ جيانغ. كانت الفتاتان من جنيات الأرض. وسمعهما تقولان: "أيها السيد النجم سونغ، الملكة تنتظر". فرفع الستارة وخرج. كان شعر الفتاتين مجدولا بشكل جلزوني فوق رأسيهما، فانتصبتا بثيابهما الخضراء، وانحنتا حتى وسطيهما، وقد شبكت كل منهما راحتي يديها ببعضهما.

استفسر سونغ جيانغ: "أيتها الجنيتان، من أين جئتما؟".

- أمرت ملكتنا أن ندعو السيد النجم إلى القصر.

- لقد أخطأتما. فأنا أدعى سونغ جيانغ. ولست بالسيد النجم.

- نحن لم نخطئ مطلقاً. نرجو أن ترافقنا، أيها السيد النجم فالملكة تنتظر.

- أي ملكة؟ أنا لم أجتمع بها. فكيف يطاوعني الذهاب؟

- ستفهم كل شيء حين تصل إلى هناك. ولا حاجة إلى السؤال.

- وأين الملكة؟

- في القصر، في مؤخره.

سارت الفتاتان المرتديتان ثيابا خضراء. ولحق سونغ جيانغ بهما خارجا من المبنى. ودلفتا من باب في زاوية جدار المبنى قائلتين: "من هنا، أيها السيد النجم".

خرج سونغ جيانغ إلى فلاة. كان في السماء قمر، وكانت مليئة بالنجوم. وكانت ريح رخية تخشخش أوراق الأشجار القريبة وأشجار البامبو.

همس في سره: "أبدا لم يخطر لي في بال أن هنالك مثل هذا المكان وراء المعبد. كان يمكن أن أختبئ هنا وأجنِّب نفسي هذا الرعب كله".

استرسل في السير، فلمح جدارين طويلين وأشجار صنوبر ضخمة سامقة على الجانبين لا تستطيع ذراعان أن تحيطا بأي منها. وكان الممر بينها عريضا مدورا وكأنه ظهر سلحفاة. فكَّر قائلا: "من كان يظنُّ أن هنالك مثل هذه الطريق الرائعة وراء المعبد القديم!".

وقبيل أن يجتازوا مسافة لي أخرى صافح سمعه خرير جدول صغير وقد تقوَّس فوقه جسر حجري أزرق اللون له درابزون قرمزي. وعلى طول ضفتيه ثمة زهور غريبة الأشكال والألوان، وأعشاب متباينة، وصنوبر عتيق، وبامبو كثيف، وصفصاف أخضر، وأشجار دراق فاتنة. وكان الجدول المنبجس من شق في الصخور يتدفق تحت الجسر أشبه بالفضة المترقرقة، وبالثلج المتدحرج.

اجتازوا الجسر إلى الطرف الآخر. وهنالك، بين صفين من الأشجار الضخمة، كان ثمة بوابة نجمية واسعة ذات عتبة قرمزية اللون. اجتازوا البوابة، فلمح سونغ جيانغ إلى الأمام منه قصرا. هجس في فكره، وقد توقف مشدوها: "لقد ولدت هنا في مقاطعة يونتشينغ، غير أنني لم أسمع بهذا المكان قط".

استحث الخفراء المتدثرون باللون الأخضر "السيد النجم" على متابعة السير، وقادوه عبر بوابات القصر. فقابلته باحة فاتنة تحيط بها من جانبيها أرض مستوية مخططة بلون قرمزي وموشحة بستائر مطرزة. وإلى الأمام منه مباشرة ردهة مترامية الأطراف مزدانة بشموع ومصابيح متلألئة.

- أيها السيد النجم، نرجو أن تدخل البناء بدعوة من ملكتنا.

وفيما كان سونغ جيانغ يرقى في سلَّم الردهة أصابته رعشة وقّفت شعر رأسه على الرغم منه. كانت الدرجات الحجرية منحوتة بصور التنانين والعنقاوات. وأزاح الفتيان المتدثرون باللون الأخضر ستارة منصة، ودلفوا منها، وأعلنوا قائلين: "السيد النجم سونغ ينتظر في الخارج".

سجد سونغ جيانغ وأكبَّ على نفسه أمام درجات المنصة قائلا: "أنا رجل عامي بسيط لم تقع عيناي على كائن سماوي. ألتمس عفوك السماوي وصفحك".

همس صوت من الداخل للسيد النجم سونغ أن يتخذ لنفسه مقعدا، فخشي أن يرفع رأسه. فرفعه أربعة من الفتيان المتدثرين باللون الأخضر وساعدوه في الجلوس على منبذة مطرَّزة، فجلس مرتبكا.

أمر الصوت: "ارفعوا الستارة".

فرفع أربعة من الفتيان الستارة المطرزة باللؤلؤ وعلقوها بخطاف ذهبي.

قالت الملكة: "أرجو أن تكون في حال حسنة منذ افتراقنا؟".

نهض سونغ جيانغ وسجد مرة أخرى: "رجل فانٍ مسكين من أمثالي لا قدرة له على التطلع إلى وجهك المبجّل".

- بما أنك ههنا أيها السيد النجم، فليس هنالك ما يدعو إلى الإفراط في المجاملات.

عندها جرؤ سونغ جيانغ على رفع رأسه والتحديق. كانت الردهة تتضوأ بالذهب واليشم، تنيرها مصابيح على شكل تنانين، وشموع على شكل عنقاء. وكان صبية وصبايا يلبسون ثيابا خضراء يقفون على الجانبين حاملين عصيا من اليشم وأعلاما مثلثة الشكل ويلوِّحون بمراوح ضخمة. وفي الوسط، على وسادة مطرزة بالجواهر جلست الملكة. كانت ترتدي الحرير الموشى بالذهب، وتحمل صولجانا من اليشم الأبيض. كانت لها عينان فاتنتان وملامح إلهية.

قالت: "أرجو أن تقترب مني، أيها السيد النجم". وأمرت بتقديم الخمور.

صبت فتاتان تكتسيان اللون الأخضر خمرة في كأس يشمية من إبريق ذهبي محفور بصورة معقدة. وناولت الفتاة الأولى الكأس إلى سونغ جيانغ. فهبَّ على قدميه عاجزا عن إبداء أي رفض، وتناول الكأس. نظر إلى الملكة، وركع على ركبتيه، ونهل الخمرة. فانسرب المشروب المعطر إلى دماغه مثل عطر الآلهة، وانسرق إلى قلبه مثل الندى.

قدمت له فتاة أخرى صحفة من البلح الأسطوري. وخشية من أن يرتكب عملا أخرق التقط بلحة برؤوس أصابعه، وأكلها، وأخفى النواة في يده. وصبت الفتاة المكتسية الخضار الخمرة من جديد، فجرعها جرعة واحدة مرة أخرى. وأشارت الملكة أن تملأ الكأس ثالثة. فتم ذلك. وشرب الكأس مرة ثالثة.

قدمت له فتاة جنية البلح، فأكل اثنتين. كان قد نهل ثلاث كؤوس من الخمرة الأسطورية والتهم ثلاث بلحات. وشرع يحسُّ بما يشبه السكر، وخشي أن يتصرف بصورة مخزية. قال: "ليست لي قدرة على جرع الخمور. وأرجو أن تعذرني الملكة إذا لم أشرب المزيد".

قالت الملكة: "كما تهوى، إذا كان السيد النجم غير ميّال إلى الشراب. أحضروا الكتب

السماوية الثلاثة وقدموها إلى السيد النجم".

دلف فتى وراء ستارة وأحضر صينية يشمية فوقها ثلاثة كتب سماوية ملفوفة بحرير ذهبي وقدمها إلى سونغ جيانغ. كانت الرزمة الصغيرة بطول خمسة إنشات، وعرض ثلاثة، وعمق ثلاثة. خشي سونغ جيانغ أن يفتحها. سجد، وقبل الرزمة الصغيرة بوقار، ووضعها في كم ثوبه.

قالت الملكة: "أيها السيد النجم، لقد أعطيناك ثلاثة كتب سماوية. وينبغي أن تتصرف وفق وصايا السماء وتبدي للإمبراطور إخلاصا كاملا. وحين تصير موظفا يجب أن تذود عن البلاد وتجعل السلام يخيِّم على الشعب. اطرح الشرور واتبع العدالة. حذار أن يغيب هذا عن ذهنك".

أعطى سونغ جيانغ بذلك وعدا، وسجد من جديد. واسترسلت الملكة قائلة: "بما أن فؤادك غير نقي بعد، ولم تقم بواجباتك، فإن الإمبراطور اليشمي، عقابا لك، نفاك إلى الأرض لفترة مؤقتة. ما أسرع أن تؤوب إلى قصر السماء الأرجواني، وهذا يقتضيك ألا تضيع جهودك عبثا. فإذا صدر عليك حكم بالإبعاد إلى الجحيم نتيجة خطايا جديدة، فلن يكون في وسعي أن أهبَّ إلى نجدتك. كيِّف نفسك مع وصايا هذه الكتب الثلاثة. في وسعك أن تطلع النجم المخسوف عليها دون أي نجم آخر. وبعد أن تنجز مهمتك أحرق هذه الكتب. لا ينبغي أن تبقى على الأرض. تذكر كلَّ ما قلته لك. أنا اليوم خالدة وأنت إنسان فان. وليس في مقدورنا البقاء معا. ينبغي الآونة أن ترجع أدراجك سريعا".

وأمرت الملكة جنياتها أن يرسلنه على طريقه. قالت: "سنلتقي مرة أخرى في أبراج أرض الجن الذهبية واليشمية".

شكرها سونغ جيانغ، وتبع بعض الفتيات المكتسيات بالثياب الخضراء خارجا من الردهة عبر البوابة النجمية. ورافقته الجنيات إلى حدود الجسر الحجري، وقلن: "أصابك الرعب قبل فترة قصيرة من الزمن، وكان يمكن أن يلقى القبض عليك لو لم تتدخل ملكتنا. وغدا، حينما يشرق الضوء، ستتمكن من النجاة. آه، ألق نظرة أيها السيد النجم. ثمة تنينان يلهوان في المياه".

استند سونغ جيانغ إلى الدرابزون وألقى نظرة، فدفعته فتاتان على حين غرة، فأطلق صيحة وسقط على المذبح. لقد كان يحلم.

زحف على قدميه ومدَّ نظره. القمر تكبَّد السماء. قدَّر سونغ جيانغ أن الزمن يقارب فترة الحراسة الثالثة، ووجد في راحة يده ثلاث حبات من النوى، وفي كمه تلك الرزمة الصغيرة الملفوفة بالحرير. فتحها. أواه! هذه هي الكتب السماوية الثلاثة! وكان لا يبرح منتشيا برائحة الخمرة المعطرة.

همس في سره: "حلم غريب ولكنه يبدو حقيقة واقعة. ومع هذا، لو كان مجرد حلم لا غير، فما الذي تفعله هذه الكتب السماوية في كمي؟ ولـمَ أستطيع الإحساس بطعم الخمرة؟ وماذا تفعل نوى البلح هذه في يدي؟ وكيف أستطيع أن أتذكر كلَّ كلمة؟ ولو لم يكن ذلك حلما، فلمَ سقطت على هذا المزار؟ الجواب واضح جليٌّ. الروح هنا قوية فعَّالة، وتكشف عن نفسها بقوة. فما هي هذه الروح، يا ترى؟".

رفع الستارة كي يتسرَّب إليه شيء من الضوء. كان ثمة ملامح أنثوية فتانة تجلس على عرش

محفور بتسعة من التنانين، تشبه الملكة في كل شيء. فقال في سره: "لقد خلعت عليَّ لقب "السيد النجم". يبدو أني لم أكن رجلا عاديا في حياتي الماضية. وهذه الكتب السماوية الثلاثة ستكون ذات فائدة لي، ولن أنسى أبدا التعليمات الإلهية. لقد قالت لي الجنيات المكتسيات ثيابا خضراء: غدا، حينما يشرق الضوء، ستتمكن من النجاة. والسماء تتوشح بالضوء. ولسوف أخرج من هنا".

بحث حواليه إلى أن عثر على مطرده، ونفض الغبار عن ثيابه وخرج من المبنى على حذر. سار عبر الأرض المستوية عن يسار، ودلف خارج المعبد. رفع بصره إلى اللوحة المعلقة على البوابة. فقرأ عليها الحروف المدونة بالذهب: "معبد الملكة الخفية".

وضع سونغ جيانغ أصابعه على جبهته، وانحنى شاكرا: "يا للحظ! لقد كانت إذاً الملكة الخفية من السماء التاسعة من أعطتني هذه الكتب السماوية! ولقد أنقذت حياتي أيضا. إذا تمكنت من رؤية ذلك الوجه الإلهي مرة أخرى فلسوف أجدد بناء هذا المعبد وأضيف إليه قاعات أخرى. أنكبُّ على وجهي، أيتها الملكة الحكيمة الخيِّرة، وألتمس حمايتك".

انطلق بخطوات منسرقة في اتجاه مدخل القرية. ولم يكد يخطو عدة خطوات حتى سمع صيحات وحشية عن بعد، فقال في نفسه: "هذه مصاعب جديدة". وتوقف. "لن أستطيع الخروج من القرية. إذا عثروا عليَّ فسيعتقلونني. يحسن أن أختبئ وراء هذه الأشجار على جانب الطريق".

لم يكد ينزلق إلى مخبئه حتى ركض عدد من الجنود، ومداهم ورماحهم في أيديهم، وقد طغى عليهم الرعب، متجهين ناحيته، وهم يلهثون ويتعثرون ويصرخون: "أنقذنا، أيها الروح الخفيّ".

خاطب سونغ جيانغ نفسه قائلا: "هذا أمر غريب حقا. كان من المفترض أن ينتظروني عند مدخل القرية للقبض عليَّ. فماذا تراهم يفعلون هنا؟".

مرت لحظة من الزمن وإذا بتشاو نينغ يجتاز الطريق معولا: "أيتها الروح. أيتها الروح اشملبني بحمايتك!".

تساءل سونغ جيانغ: "فيم يسيطر الهياج الشديد على هذا الأخرق؟".

عندها، لمحت عيناه من كان يطاردهم. كان فتى ضخم البنية، عاري الصدر حتى وسطه، منتفخ الجسد بعضلات رائعة. وكان يحمل في يديه فأسي قتال عظيمتين.

زمجر الرجل صارخا: "قفوا، أيها الحمقى المجانين!".

عرفه سونغ جيانغ فيما كان يقترب منه. لم يكن غير لي كوي الإعصار الأسود.

قال سونغ جيانغ: "لا ريبة أني أحلم". ولم يجرؤ على الخروج من مخبئه.

أمام المعبد تعثر تشاو نينغ بجذع ضخم لشجرة صنوبر وهوى على الأرض، فلحق به لي كوي، ووضع قدمه على ظهره ورفع فأسا ضخمة. وتبعهما شجاعان آخران وقد دفع كل منهما قبعته اللبادية عريضة الحواف فسقطت حتى كتفيه. وكان كل منهما يشيل مطردا في يده. كان الأول أو بنغ، والثاني تاو تسونغ وانغ. وخشي لي كوي أن يتنافسا على شرف القبض على ذلك الوغد للتعبير عن ولائهما الأخوي، فلوَّح بفأسه وفلق تشاو نينغ من رأسه حتى صدره. ثم ركض وراء الجنود الهاربين، موزِّعا الموت ذات اليمين وذات اليسار، فيما هم يتراكضون في جميع الاتجاهات.

راح سونغ جيانغ، وقد أرعبه الخروج من مخبئه، يراقب ظهور ثلاثة شجعان آخرين. كان الأول ليو تانغ الشيطان أحمر الشعر، والثاني شي يونغ الجنرال، والثالث لي لي مستدعي الجحيم. وجعل الرجال الستة يتشاورون. قالوا: "لقد قتلنا جميع أولئك الأوغاد. ولكننا لم نعثر على أخينا. يا لها من مشكلة!".

صاح شي يونغ: "هنالك رجل يقف خلف تلك الصنوبرة".

عندها وحسب خطا سونغ جيانغ خارجا. قال: "شكرا لكم أيها الإخوة على إنقاذي مرة أخرى. كيف تراني أستطيع أن أفيكم هذا الدين؟".

فرح الرجال الستة، وهتفوا صائحين: "أخونا هنا. ينبغي نقل الخبر سريعا إلى القائد تشاو غاي".

فأسرع شي يونغ ولي لي ينقلان الخبر.

التفت سونغ جيانغ إلى ليو تانغ مستوضحا: "كيف عرفتم مكاني؟".

- حين رحلت سيطر القلق على تشاو غاي وو يونغ. فطلبا إلى الناظر داي أن يهبط عن الجبل ويستعلم عما وقع لك. ولكن تشاو غاي بقي رهينة القلق، فانطلق معي ومع هؤلاء الرفاق لحمايتك. كان خائفا من أن تعترضك المصاعب. والتقينا داي على الطريق. فقال لنا: "ثمة حماران لصان يتعقبان أخانا للقبض عليه". فاستبدَّ الغضب بتشاو غاي، وأمر داي أن يعود أدراجه إلى القلعة ويخبرهم أن يبقى وو يونغ وغونغسون شنغ وعدد قليل من الآخرين لحراستها. وعلى الآخرين جميعا القدوم إلى هنا للتفتيش عنك. ثم سمعنا من يقول: "لقد هرب سونغ جيانغ إلى أرض قرية الطريق الدائرية". فذبحنا جميع الأنذال الذين يحرسون المدخل في ما عدا قلة هربوا إلى القرية. طاردهم الأخ لي كوي، ولحقنا نحن به. لم يخطر في ذهننا أن نقع عليك هنا.

وصل الآخرون قبل أن يختتم حديثه. وحين احتشدوا جميعا شكرهم سونغ جيانغ واحدا واحدا.

قال تشاو غاي: "ألححت عليك ألا تهبط عن الجبل وحيدا يا أخي، غير أنك لم تعرني أذنا صاغية. كدت أن تخسر حياتك".

- قلقي على والدي لم يترك لي فرصة للراحة. ينبغي أن أذهب وأحضره.

- إذاً هذا يفعمك سرورا. لقد أرسلت داي مع أشخاص آخرين لإحضار أبيك وشقيقك. ولقد وصلا إلى القلعة فعلا.

فرح سونغ جيانغ. وسجد أمام تشاو غاي قائلا: "أموت عن طيبة خاطر، يا أخي، نظير هذا الإحسان منك".

امتطى الجميع صهوات جيادهم وغادروا القرية. رفع سونغ جيانغ أصابعه إلى جبهته، وأطال النظر إلى السماء، وشكر الملكة الخفية على حمايتها له. وأقسم أن يعبر عن امتنانه في يوم من الأيام.

رجعت القافلة إلى بحيرة ليانغشان. وكان وو يونغ والضباط الآخرون الذين يحرسون القلعة ينتظرون على شاطئ الرمال الذهبية لاستقبالهم. ودخلوا جميعا ردهة الأخوية.

سأل سونغ جيانغ في حماسة: "وأين أبي؟".

أرسل تشاو غاي رجلا يستدعي المحترم سونغ. ولم يمرَّ وقت طويل حتى جاء الشيخ راكبا في محفة شارك ولده سونغ تشينغ المروحة الحديدية في حملها. وساعد الجميع في هبوطه من المحفة ورافقوه إلى الردهة.

اغتبط سونغ جيانغ وابتسم ابتسامة عريضة، وسجد: "صفحك عن ولدك العاق لأنه سبب لك رعبا".

- لقد أرسل ذانك المفوضان الشريران رجالا يراقبوننا يوميا. كانوا يترقبون وصول الوثائق إلى جيانغتشو كي يقودانا، أنا وشقيقك، إلى المحكمة. وحين تناهى إلى علمي أنك عند البوابة الخلفية كان هنالك ثمانية أو تسعة من الجنود في الغرفة المسقوفة بالقش، ثم اختفوا جميعا، ولكننا لم نفهم لاختفائهم سببا. وأخيرا، عند الحراسة الثالثة، فتح قرابة مائتين من الرجال بوابات المزرعة، ووضعوني في محفة، وطلبوا إلى شقيقك أن يحزم ممتلكاتنا الثمينة، وأضرموا النار. ولم تتح لي فرصة الاستفسار منهم عن شيء، وأحضروني إلى هنا".

- نحن مدينون إلى هؤلاء الإخوة على اجتماعنا مرة أخرى.

طلب سونغ جيانغ من سونغ تشينغ أن يسجد ويشكر الزعماء. وسجد تشاو غاي والقادة للمحترم سونغ. وذبحت الأبقار والخيول، وأقيمت مأدبة احتفالا باجتماع شمل المحترم سونغ وولديه. انقضى النهار بطوله في مرح وحبور. وفي اليوم التالي احتفلوا من جديد، وشارك الضباط، كبارا وصغارا، في التسليات.

في اليوم الثالث أقام تشاو غاي مرة أخرى مأدبة احتفالية. وتذكر غونغسون شنغ فجأة أمه العجوز في كيتشو. فقد مرَّ زمن طويل لم يرها خلاله، وتساءل عن حالها. وخلال اغتباق الشراب نهض وخاطب الزعماء قائلا: "ما أعمق امتناني للطف الذي غمرتموني به دائما. لو كنا من لحم ودم واحد لما لقيت معاملة أفضل. وقد أفعمني السرور منذ اللحظة التي تبعت فيها قائدنا تشاو غاي إلى الجبل هنا. غير أنني لم أذهب مرة واحدة إلى البيت لرؤية أمي. أرجو أن تأذنوا لي في الرحيل لفترة أربعة أو خمسة شهور لزيارتها. ذلك يفعمني سرورا، وبعدها لن يقلقني شيء على والدتي العجوز".

أجاب تشاو غاي: "أذكر أنك قلت إنه ليس هنالك من يرعى شؤون أمك في منزلك في الشمال. وإذا كنت تريد ذلك، فنحن لا نستطيع أن نجابهك بالرفض، على الرغم من أننا نكره أن نفترق. حين تأخذ أهبتك للرحيل سنرافقك مودّعين".

شكره غونغسون. وشرب الجميع وفرة ذلك النهار. وحين هبط المساء أووا إلى غرفهم للراحة. وفي الصباح التالي أقيمت مأدبة وداعية على شرف غونغسون شنغ.

خلع على جسده لباس راهب تاوي جوّال، وربط كيسا إلى جانبه، وآخر إلى خصره، وعلَّق سيفين على ظهره، ووضع قبعة من ليف جوز الهند على كتفيه، وحمل مروحة من عظم السلحفاة في يده. وهبط الزعماء برفقته عن الجبل. وعند الممر أقيمت مأدبة وشرب الجميع نخب الوداع.

قال تشاو غاي: "لا نستطيع حجزك عندنا، يا سيدي الراهب. لا تخيب رجاءنا. فعلى الرغم من

أننا راغبون عن السماح لك بالذهاب، غير أننا لا نستطيع أن نرفض لك ذلك طالما أن الأمر يرتبط بوالدتك. ولكننا نترجّى عودتك في غضون مائة يوم أو أكثر قليلا. فلا تحنث بوعدك".

- وكيف أفعل ذلك؟ لقد راعيتم، أيها القادة، شعوري فترة طويلة من زمن. سأذهب إلى البيت، وأزور معلمي التاوي، وأتيقّن من أن والدتي في أحسن حال، وأعود أدراجي.

سأل سونغ جيانغ: "لم لا تصحب عددا من الرجال؟ قد يعاونون في إحضار والدتك إلى هنا. وعندها تستطيع رعايتها طوال الوقت".

- أحبَّت أمي على الدوام الأمن والهدوء، وهي لا تطيق الأشياء المثيرة. وهذا ما يردعني عن إحضارها إلى هذا المكان. لدينا بعض الحقول وأرض منحدرة، وهذه الممتلكات بإمكانها أن تؤمن لها حياة كريمة. ولكنني راغب وحسْبِ في التأكد من أنها في أحسن حال، وبعدها أعود فأنضمُّ إليكم".

قال سونغ جيانغ: "في هذه الحال ليكن ما تريد. سنترقب عودتك الباكرة".

قدم تشاو غاي إلى غونغسون شنغ ذهبا وفضة على صحفة لينفق منهما خلال رحلته فقال: "أنا لا أحتاج إلى هذا كله. يكفيني القليل لكي أنفق منه".

أرغمه تشاو غاي على أخذ نصف ما عرض عليه، فوضع غونغسون المال في كيسه الجانبي، وضمَّ راحتيه معاً، وألقى على الزعماء تحية الوداع. وبعدما اجتاز شاطئ الرمال الذهبية اتخذ سمته صوب كيتشو.

وفيما الزعماء يتأهبون للعودة إلى الجبل أدهشتهم رؤية لي كوي ينفجر في عاصفة من الدموع. فاستفسر سونغ جيانغ في عجلة: "ما الأمر، يا أخي؟".

جأر الإعصار الأسود قائلا: "يا لها من حياة رائعة! هذا يذهب لاستدعاء أبيه، وذاك يرحل لرؤية أمه. والثور الحديدي لا يظهر من أية حفرة لعينة في هذه الأرض!".

- وما علاقتك بهذا الموضوع؟

- أمي العجوز وحيدة في البيت، وشقيقي الشيخ يعمل بالأجرة. فكيف يستطيع إعالتها؟ أريد إحضارها إلى هنا كي تتاح لها بضع سنوات من السعادة.

قال تشاو غاي: "أنت على حق تماما. سنبعث عددا من الرجال ليرافقوك ويحرسوك خلال رحلة العودة. إنها فكرة رائعة!".

تدخل سونغ جيانغ قائلا: "هذا لا يمكن أن يكون. فالأخ لي سريع الغضب. إن ذهب إلى بيته فلا ريبة أنه سيتعرض للمصاعب. ولو أرسلنا برفقته عددا من الرجال فإن ذلك لن ينفع كثيرا، فهو ناريّ الطبع. وسوف يختصم معهم على الطريق. وفضلا عن هذا، لقد قتل عددا كبيرا من الناس في جيانغتشو، والجميع هنالك يعرفون الإعصار الأسود. ولا ريبة أن ثمة نشرات تطالب بالقبض عليه جرى توزيعها. كما أن قرينته الأم أخذت أهبتها لذلك من دون ريب. وهو رهيب الطلعة، وأشبه ما يكون بإبهام صلب. وبيته بعيد. فإذا وقع شيء خاطئ فقد لا يصلنا نبأ عنه. يحسن انتظار الأمور إلى أن تميل إلى الهدوء، يا أخي لي. سيكون لدينا وقت وفير".

صاح لي كوي في نفاد صبر: "أنت لا تعدل، يا أخي. لقد جئت بأبيك إلى هنا، وها هو سعيد جذلان. فهل يجب أن تبقى أمي في القرية تعاني المصاعب؟ وهل تريد أن ينفجر صدر الثور الحديدي من الغضب؟".

- اجنح إلى الهدوء، يا أخي. سنتركك ترحل، لكن تحت ثلاثة شروط.

- ما هي هذه الشروط؟

أخبره سونغ جيانغ بها، وهو يعدها على أصابع يده.

ونتيجة لذلك، صارع لي كوي بيديه اللتين تهزان الأرض وترعدان السماء النمور التي تتسلق الجبال وتقفز فوق الوهاد.

ماذا كانت تلك الشروط الثلاثة التي أعلنها سونغ جيانغ للي كوي؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثالث والأربعون

لي كوي الزائف يسرق المسافرين الوحيدين على الطريق؛ والإعصار الأسود يقتل أربعة نمور على جبل يبلينغ

قال سونغ جيانغ: "أنت ذاهب إلى مقاطعة ييشوي في ولاية ييتشو لرؤية والدتك وإحضارها إلى هنا. الشرط الأول هو ألا تتناول الخمرة على الطريق. إن لك مزاجا رهيبا يرغِّب الآخرين عن مرافقتك. وهكذا فإن الشرط الثاني هو أن تذهب وحيدا وتفتش عنها في هدوء. والشرط الثالث هو أن تترك فأسيك هنا. توخَّ الحذر خلال رحلتك. وارحل سريعا وارجع سريعا".

- ليس في هذه الشروط ما يثقل عليَّ. على رسلك، يا أخي. سأرحل هذا النهار ولن أطيل المكثان في الدار!

حزم لي كوي بعض المتاع، وغرز خنجرا في وسطه، وحمل مطردا وسبيكة فضية كبيرة وأربع أو خمس سبائك صغيرة. واحتسى عدة كؤوس من الخمرة، وألقى تحية الوداع في احترام على القادة، ومن بعد هبط عن الجبل واجتاز شاطئ الرمال الذهبية.

رجع تشاو غاي وسونغ جيانغ، بعد وداعهما له، إلى ردهة الأخوية وجلسا. كان ذهن سونغ جيانغ عامرا بالقلق فقال: "لا ريبة أن الأخ لي كوي سيورط نفسه في مأزق. أبيننا من ينحدر من قريته الأم؟ أهناك من يستطيع الذهاب إلى هنالك ويكون عينا عليه عن كثب؟".

قال دو كيان: "تشو غوي من مواطني مقاطعة ييشوي. وهما من البلدة ذاتها".

غمغم سونغ جيانغ: "نسيت كل شيء عن هذا. فلقد حياه لي كوي تحية الجار حين التقيا في معبد التنين الأبيض".

أرسل سونغ جيانغ يستدعي تشو غوي. فطار أحد قطاع الطرق الفتيان عن الجبل إلى الحانة باحثا عنه.

قال سونغ جيانغ: "رحل الأخ لي كوي إلى بيته لإحضار والدته. ولأنه يغدو مقرفا حين يتعاطى بنت الحان لم نطلب إلى أحد أن يرافقه. ولكننا نخشى أن يوقع نفسه في مأزق. وقد سمعت أنك من مواطنيه. أحب أن ترحل وتراقبه عن كثب".

- بلى، أنا من ييشوي. وشقيقي تشو فو يدير حانة خارج البوابة الغربية من عاصمة المقاطعة. ولي كوي ينحدر من قرية صغيرة تدعى دونغديان الشرقية، وهي جزء من قرية بايتشانغ. وله شقيق يدعى لي دا يعمل بالأجرة. وقد كان لي كوي على الدوام شرسا. واضطر إلى الرحيل لأنه قتل رجلا. وراح يهيم على وجهه منذ ذلك الحين ولم يرجع إلى بيته. في مقدوري الذهاب وراءه، لكن ليس ثمة من يتدبر أمور حانتي. وأنا لم أذهب إلى هنالك منذ زمن طويل. ويسرني أن أرى شقيقي مرة أخرى.

- لا يقلقك أمر الحانة. سأطلب إلى هو جيان وشي يونغ تصريف الأمور فيها خلال غيبتك.

ودَّع تشو غوي القادة، وهبط عن الجبل، وحمل بعض المتاع، وسلَّم أمور الحانة إلى شي يونغ وهو جيان، وانطلق في سبيله إلى ييتشو.

وجعل سونغ جيانغ يتناول الطعام والشراب برفقة تشاو غاي يوميا في القلعة، ودرس الكتب السماوية مع وو يونغ النجم المخسوف. ونكتفي بهذا القدر من الحديث حول هذا الموضوع.

سافر لي كوي وحيدا. وبعد مغادرته بحيرة ليانغشان، ووصل إلى حدود مقاطعة ييشوي. ونفَّذ ما وعد به، فلم يقرب الخمرة، ونأى عن المتاعب، وليس هنالك ما نرويه في هذا الخصوص. وخارج البوابة الغربية لعاصمة المقاطعة رأى الناس محتشدين حول لوحة للإعلانات. فاندفع في وسطهم وأصغى إلى رجل يقرأ في صوت عال: "... الأول هو المتهم الرئيس سونغ جيانغ، من مقاطعة يونتشينغ. والثاني هو شريكه في الجريمة داي زونغ، الناظر السابق لسجني جيانغتشو. والثالث هو شريكهما لي كوي، من مقاطعة ييشوي في ولاية ييتشو...".

أرغى لي كوي وأزبد في حنايا صدره، وتلاشت قدرته على ضبط نفسه. وأسرع أحد الرجال من ورائه وطوَّقه في عناق مُحكم، صائحا: "الأخ تشانغ. ماذا تفعل هنا؟".

التفت الإعصار الأسود وألقى نظرة. إنه تشو غوي تمساح الأرض الجافة.

استفسر لي كوي: "وأنت؟".

- تعال معي فأنبئك.

سار الاثنان إلى حانة قريبة خارج البوابة الغربية للمدينة، وجلسا في غرفة هادئة في مؤخرها.

أومأ تشو غوي بإصبعه إلى الإعصار الأسود قائلا: "أنت سريع التهوُّر. ذلك الإعلان يعرض مكافأة من عشرة آلاف ربطة نقدية للقبض على سونغ جيانغ، وخمسة آلاف للقبض على داي زونغ، وثلاثة آلاف للقبض على لي كوي. وأنت تقف هنالك متفرجا! لو أن رجلا سريع الملاحظة خفيف اليدين قبض عليك وسلمك إلى السلطات فماذا تراك تفعل وقتئذ؟ لأن الأخ سونغ جيانغ كان خائفا من أن تشتبك في قتال لم يرسل معك أحدا. ولكنه خشي أن تورط نفسك في مأزق، فأمرني أن ألحق بك وأكون عينا عليك. وقد غادرت القلعة بعد رحيلك بيوم كامل ووصلت إلى هناك قبلك بيوم كامل. فأين كنت خلال هذه الفترة كلها؟".

- قال لي ألا أقرب شيئا من الخمرة. وهذا ما أعجزني عن السير بسرعة. كيف عرفت هذه الحانة؟ هل تعيش هنا في الجوار؟ أين منزلك؟

- الحانة ملك لشقيقي تشو فو. وقد سبق لي أن أقمت في هذه الأرجاء. فقد كنت تاجرا جوالا. ولكنني أفلست وغدوت قاطع طريق في بحيرة ليانغشان. وهذه أول مرة أعود فيها إلى منزلي.

قدم تشو غوي شقيقه إلى لي كوي، فعزمهما المشربي على الخمرة.

- أوصاني الأخ سونغ جيانغ ألا أقرب الخمرة. ولكنني وصلت إلى موطني. فإذا جرعت طاسة أو طاستين، فأي ضير ينجم عن هذا؟

لم يجرؤ تشو غوي على منعه، وجعلا يتناولان الشراب حتى فترة الحراسة الرابعة. وقدم لهما

الطعام من بعد، فأكل لي كوي. وفي حدود فترة الحراسة الخامسة، حينما راح القمر يشحب والنجوم تنطفئ وتباشير الفجر تتضوأ في السماء أخذ طريقه إلى قريته.

نصح له تشو غوي قائلا: "لا تذهب على الممرات الصغيرة، بل سر على الطريق الرئيسة إلى الشرق من شجرة البلوط الكبيرة فتصل إلى بايتشانغ مباشرة. وهذه الطريق تقودك إلى دونغديان الشرقية. ابحث عن والدتك وارجع سريعا إلى قلعة الجبل".

- سأختصر الطريق أكثر إن ذهبت على الممر. من يملك صبرا للذهاب على الطريق الرئيسة؟

- ثمة نمور على الممر، كما أن هنالك لصوصا قد يسرقون صرتك.

- هذه أمور لا تقلقني.

وضع لي كوي قبعته اللبادية عريضة الحواف على رأسه، وأمسك مطرده، وعلق خنجره، وودَّع تشو غوي وشقيقه، واتجه إلى قرية بايتشانغ.

لم يكد يقطع ما يقارب اثني عشر ليا حتى انتشر الضوء في السماء بصورة تدريجية. ومدَّ أرنب أبيض اللون رأسه من بين الأعشاب المتلألئة بالندى وأطلق للريح ساقيه من أمامه. طارده لي كوي، وهو يقول ضاحكا: "هذا الحيوان الصغير أرغمني على الانطلاق مرحلة لا بأس بها إلى الأمام".

كانت تقوم إلى الأمام منه أيكة عامرة بحوالى خمسين شجرة ضخمة. وكان الخريف قد أطلَّ على الوجود، وأوراقها حمراء متلألئة. وحين وصل إلى حافة الأيكة برز له رجل ضخم على حين غرة، وصاح به: "ادفع مالا نظير مرورك الآمن إن كنت تعرف صالحك من طالحك. وإن لم تفعل أخذت صرتك".

زنَّره لي كوي بعينيه. كان رأسه ملفوفا بمنديل حريري أحمر اللون، ويرتدي ثوبا مبطنا من قماش خشن. وكان يحمل فأسا في كل واحدة من يديه. وكانت هناك مادة سوداء تفرش وجهه كله.

زمجر لي كوي: "من تكون وحقِّ الجحيم، فتجرؤ على ممارسة السرقة في هذا المكان؟".

- حين تسمع باسمي فسترتعش أوصالك بأسرها. أنا الإعصار الأسود! دع نقودك وصرتك فأُوفر حياتك وأسمح لك بالمرور.

ضحك لي كوي: "لن أفعل هذه الفعلة السخيفة. من أنت أيها الوغد؟ ومن أين؟ وكيف تجرؤ على استخدام اسمي والاحتيال هنا؟".

هجم صوبه ومطرده في يده، فأيقن الرجل أنه التقى ندا له فاستدار وفي نيته أن يهرب. ضربه لي كوي على إليته، فأوقعه على الأرض، ووضع قدمه على صدره: "أتعرفني؟".

- أيها المعلم، وفِّر حياة خادمك!

- أنا لي كوي الإعصار الأسود، رجل بين الشجعان. لقد لطَّخت اسمي، أيها اللئيم!

- اسم عائلتي لي أيضا، ولكنني لست الإعصار الأسود حقا. أنت رجل له شهرته في أخوية الشجعان، ومجرد ذكر اسمك يبعث الرعشة في أطراف الشياطين. وهكذا استعرت هذا الاسم حين غدوت لصا ههنا. وأنا لا أتعرض إلا للأشخاص الذين يسافرون وحدهم. وحين يسمعون هاتين الكلمتين "الإعصار الأسود" يرمون أمتعتهم ويهربون. وقد حصلت على بعض الغنائم بهذا الأسلوب،

من دون أن أؤذي أحدا على الإطلاق. واسمي الحقيقي لي غوي، وأعيش في تلك القرية هنالك.
- لقد قمت بعمل لئيم، فجعلت تسرق وتسيء إلى سمعتي. حتى إنك صنعت نسختين شبيهتين بفأسيَّ. حسن، سأذيقنَّك طعم واحدة منهما.
ورفع لي كوي سلاحه بيده، فصاح لي غوي بصوت عجول: "إن قتلتني يا معلِّم، فلسوف تقتل شخصين".
فأوقف لي كوي يده: "ماذا تقصد بهذا الكلام؟".
- لم أشأ أن أصير لصا. ولكن لديَّ أما بلغت التسعين من عمرها في البيت، وليس هنالك من يعيلها. وهكذا عمدت إلى استخدام شهرتك لأخيف بها المسافرين وحدهم وأحصل على صررهم. فاستطعت العناية بها. وأنا لم أتسبب في إلحاق الأذى بأي كان. فإن قتلتني، فلسوف تقاسي أمي العجوز حتى الموت!
وعلى الرغم من أن لي كوي كان شيطانا يقترف جرائم القتل من دون أن يطرف له جفن، ولكن هذه الكلمات جعلته يتوقف متأملا: "لقد رجعت إلى موطني كي أعثر على أمي. وإذا قتلت هذا الرجل الذي يعيل والدته فلن تغفر لي السماء والأرض أبدا". وخاطب الرجل قائلا: "حسن، أيها الوغد، لقد صفحت عنك". وسمح له بالنهوض.
تهاوى لي غوي على قدميه ساجدا، وهو لا يبرح يحمل فأسيه في يديه. فحذَّره لي كوي قائلا: "تذكر وحسب أني أنا وحدي الإعصار الأسود، ولا ينبغي أن تلطخ سمعتي من الآن فصاعدا".
- لقد أنقذت حياتي اليوم. سأذهب إلى بيتي وأبدّل عملي. وأبدا لن أستخدم اسم معلمي هنا للسرقة.
- أنت ولد طيب. إليك هذه الأوقيات العشر من الفضة لتباشر بها عملا جديدا.
أعطاه لي كوي سبيكة فضية تزن عشر أوقيات فشكره الرجل وذهب. وضحك الإعصار الأسود: "لقد سقط بين يديَّ. وباعتباره ابنا بارا، فإن من واجبه أن يبدل مهنته. لو أزهقت روحه فقد تغضب مني السماء والأرض. كان من واجبي أن أطلق سبيله".
مشى مجهدا، ومطرده في يده، مصعدا في ممر الجبل. وحين انتصف الصباح عصف به الجوع والظمأ. وكانت حواليه آثار صغيرة، ولكنه لم يعثر على أي حانة أو مطعم على مرمى النظر.
بعيد ذلك، في الوهدة أمامه، لمح عددا من الأكواخ المصنوعة من القش. وفيما هو يغذُّ السير في اتجاه أحدها رأى امرأة تخرج منه. كانت وردة برية مغروزة في كعكة شعرها في مؤخر رأسها، وكان وجهها مرشوشا بالذرور والحمرة. فأراح لي كوي طرف مطرده على الأرض: "يا امرأة الأخ، أنا مسافر عابر سبيل. وأنا جائع، ولكنني لا أستطيع العثور على حانة. إن دفعت لك شيئا من المال، فهل بإمكانك أن تعطيني قليلا من الطعام والخمرة؟".
لمحت المرأة مقدار ما كان عليه من خشونة، فلم تستطع الرفض. قالت: "لا نملك شيئا من الخمرة. ولكن في مقدوري أن أعدَّ لك قليلا من الأرز".
- لا بأس. لا تتواني. فالجوع يقتلني.

- يكفيك مكيال واحد فيما أظنُّ؟

- يحسن أن تعدي ثلاثة مكاييل.

أشعلت المرأة النار في المطهى، وغسلت الأرز في الغدير، ووضعته على النار.

ذهب لي كوي إلى المنحدر القائم وراء البيت ليتبوَّل، فرأى رجلا يقترب بخطوات مختلسة من وراء عطفة الجبل، فرجع إلى مؤخر البيت. وودت المرأة أن تذهب إلى المنحدر لالتقاط بعض الخضار، ففتحت الباب الخلفي وشاهدت ذلك الرجل. نادته قائلة: "يا أخي، كيف آذيت ساقك؟".

- لقد نجوت بأعجوبة. لمحة واحدة وكان يمكن ألا تقع عيناك عليَّ مرة أخرى! يا للحظ التعيس النكد! كنت أنتظر مسافرا وحيدا طوال نصف شهر كامل، ولكن العمل كان سيئا. ثم جاءني اليوم رجل، ومن تحسبينه كان؟ الإعصار الأسود الحقيقي! ووجب عليَّ أن أعمد إلى الخداع! مؤكد أني لم أكن له ندا. فقد أوقعني أرضا بضربة واحدة على إليتي من مطرده، وأراد أن يزهق أنفاسي. فمثلت دورا وهتفت: إن قتلتني فستقتل شخصين معا. فاستفهمني ما الذي رميت إليه، فقلت إن لديَّ أما جاوزت التسعين من العمر، وليس هنالك من يقيم أودها، ولسوف تعاني حتى الموت من دون ريب". فصدقني ذلك الحمار. ولم يكتف بتوفير حياتي وحسب، بل نفحني بشيء من الفضة لأبدأ به عملا جديدا وأرعى شؤون أمي. وخشيت أن يردعه عقله ويتعقبني، فغادرت الأيكة، وعثرت على مكان غفوت فيه قليلا، وجئت من وراء الجبل.

قالت المرأة:

- أخفض صوتك. فقد وصل للتو فتى ضخم البنية وسألني أن أطبخ له قليلا من الأرز. أراهن أنه غريمك. وهو جالس خارج الباب الأمامي. ألق عليه نظرة. فإذا وجدت أنه هو فجئني بمخدر أدسه له في الخضار. وبعد أن يستغرق في النوم نتخلص منه معا، ونأخذ ذهبه وفضته ونرحل إلى عاصمة المقاطعة، ونبدأ عملا هنالك. سيكون هذا أفضل من سرقة المسافرين على الطريق.

همس لي كوي في سره، وقد سمع الحديث كله: "يا للنذل! أعطيته فضة ولم أقتله، وها هو الآن يتآمر على قتلي! هذا شيء لا غفران له!".

التف حتى وصل إلى الباب الخلفي فيما لي غوي يهمُّ بالخروج، وقبض عليه من شعره. فركضت المرأة إلى الباب الأمامي. طرح لي كوي أسيره على الأرض، واستلَّ خنجره وقطع له رأسه، ثم ركض إلى الباب الأمامي وخنجره في يده مفتشا عن المرأة. كانت قد اختفت. فرجع وفتش البيت. عثر تحت بعض الثياب القديمة الموضوعة في سلتين من خشب البامبو على بعض القطع الفضية وعدد من دبابيس الشعر المزخرفة وأقراط الأذنين. أخذها واستردَّ من جثة لي غوي السبيكة الفضية التي نفحه بها، ولفَّ الغنيمة في صرته.

كانت مكاييل الأرز علي الموقد تطلق البخار، ولكنه لم يعثر على شيء من الخضار يؤكل معها. فصب الأرز في قصعة والتهمه. وحين شبع جرَّ جثة لي غوي إلى البيت وأضرم النار فيه، وحمل مطرده في يده، واسترسل في طريقه على الممر الجبلي.

كانت الشمس قد انخفضت في الأفق الغربي حين وصل إلى قرية دونغديان الشرقية. وسار إلى

بيته مباشرة، ودفع الباب، ودخل.

نادت أمه: "من هنالك؟". أدرك لي كوي أنها فقدت بصرها. كانت جالسة على فراشها تتمتم باسم بوذا.

- أنا الثور الحديدي، يا أماه. لقد رجعت.

- طالت غيبتك كثيرا، يا ولدي! أين أمضيت هذه السنوات الطويلة؟ شقيقك يعمل بالأجرة، ولا يكاد يحصل على ما يقيم أوده. وليس في مقدوره أن يعنى بي. وما أكثر ما خطرت في بالي فبكيت حتى جفت مقلتاي، وهذا ما أفقدني البصر. ماذا كنت تفعل بنفسك؟

قال لي كوي في نفسه: "إن قلت لها إني قاطع طريق في بحيرة ليانغشان فلسوف ترفض الذهاب معي. يحسن أن أختلق قصة". وقال في صوت عال: "ولدك الثور الحديدي يعمل الآن ضابطا. وقد جئت لأصحبك معي".

- هذا رائع، يا بنيَّ. وكيف ستأخذني معك؟

- سأحملك على ظهري إلى الطريق، وهنالك سنعثر على عربة تنقلك.

- رويدك حتى يؤوب شقيقك الأكبر إلى البيت. وحدِّثه في الأمر أولا.

- وفيم ذلك؟ سنذهب على الفور.

كانا على أهبة الرحيل حين وصل لي دا، الشقيق الأكبر، حاملا قصعة من الأرز. وسجد لي كوي أمامه.

- يا أخي، لقد مرت سنون وسنون.

- لماذا رجعت، أيها الوغد؟ كي تورّطنا من جديد؟

قالت الأم: "صار الثور الحديدي ضابطا. وقد جاء ليأخذني معه".

- لا تصدقي أكاذيبه، يا أماه. حين قتل ذلك الرجل اضطررت أنا أن ألبس الأغلال والأصفاد وأعاني من مختلف ضروب العذابات. وسمعت مؤخرا أنه على صلة بقطاع الطرق في بحيرة ليانغشان، وأنه اختطف مجرمين من ساحة الإعدام، وأحدث ثورة في جيانغتشو، وأنه الآونة عضو في عصابة ليانغشان. وقبيل أيام أعلمت جيانغتشو سلطاتنا المحلية أن تأخذ حذرها وتلقي القبض عليه. أرادوا القبض عليَّ أولا على سبيل الضمانة، ولكن معلمي خاطب الضابط بشأني قائلا: لقد رحل لي كوي منذ أكثر من عشر سنوات، وليس هنالك من يعرف إلى أين ذهب. وهو لم يرجع منذ ذلك الحين. ويبدو أن شخصا آخر يحمل الاسم ذاته ادعى أنه ينحدر من هذه الأرجاء. وقدم معلمي بعض الرّشى. لولا ذلك لوجب عليَّ أن أقدم لهم المجرم خلال فترة محددة من الزمن أو أتعرض للضرب. وهنالك إعلان يعرض ثلاثة آلاف ربطة من النقد لمن يلقي القبض عليه.

والتفت لي دا إلى الثور الحديدي: "لم لم تمت بدلا من أن تحضر إلى البيت وتروي مجموعة من الأكاذيب!".

- لا تهتج، يا أخي. سنذهب معا إلى معقل الجبل ونكون سعداء. وليست الحياة هنالك سيئة أبدا.

ودَّ لي دا الغاضب أن ينهال عليه ضربا، ولكنه لم يكن يجهل أنه لا يجاري شقيقه الأصغر. ألقى الجرة على الأرض، ودلف خارجا.

قال لي كوي في نفسه: "لقد ذهب ليخبر عني ويحضر رجالا يعتقلونني. ينبغي أن أعجّل في الخروج من هنا. شقيقي لم ير في حياته سبيكة كبيرة من الفضة. سأترك له هذه السبيكة التي تزن خمسين أوقية على الفراش. وحين يعود ويراها لن يلاحقني".

أخرج السبيكة الكبيرة من الكيس المعلق في خصره ووضعها على الفراش. وقال: "أماه. سأحملك على ظهري وسنضع لهذا الأمر حدا".

- وإلى أين نذهب؟

- لا تسأليني. أعدك بأن نكون سعيدِين، وحملك على ظهري لن يكون صعبا.

رفع أمه على ظهره. وحمل مطرده، وغادر البيت ميمما شطر ممر منعزل.

أسرع لي دا إلى معلمه وأعلمه بالأمر، ثم رجع برفقة دستة من الخدم إلى البيت. كانت أمه قد ذهبت. ورأى على الفراش السبيكة الفضية الكبيرة فهمس في سره: "لقد ترك لي هذه السبيكة. لكن، أين تراه اختبأ مع أمنا؟ لا ريبة أن لديه رجالا آخرين من بحيرة ليانغشان. فإذا لحقت به فقد يقتلونني. أظنه حمل أمي إلى معقل الجبل للتمتع بحياة رخية".

لم يعرف الخدم ماذا يفعلون بعد أن لم يعثروا على أثر للي كوي.

قال لي دا:

"لقد حمل الثور الحديدي أمنا. لكن، من تراه يدري الممر الذي سار عليه؟ ثمة ممرات عديدة. ولن يكون في مستطاعنا العثور عليه".

كان من الجلي أن لي دا داهمته الحيرة وسيطر عليه الارتباك. طاف الخدم فترة هنا وهنالك، ثم رجعوا إلى بيت معلمهم. ونكتفي بالحديث عن هذا الموضوع.

أسرع لي كوي، وأمه على ظهره على طول الممر الصغير في اتجاه الجبال. كان الليل قد أرخى سدوله حين وصلا إلى سفح المنحدر. ولما كانت أمه عمياء فهي لم تستطع أن تميز ما إذا كان الوقت صباحا أم مساء. وكان لي كوي يعرف أن الذروة الشامخة إلى الأمام منه تدعى جبل ييلينغ. وليس ثمة مأوى بشري ههنا إلا على الطرف الآخر منه. فجعل يصعد في المنحدر، وهي على ظهره، على ضوء النجوم.

قالت: "يا ولدي. أيمكن أن تطلب من أحدهم قليلا من الماء؟".

- بعد أن نجتاز الجبل يا أماه، سنعثر على بيت نستطيع أن نستريح فيه ونأكل.

- لم آكل غير أرز جاف عند الظهيرة. والظمأ يرمضني.

- حلقي يلتهب أيضا. بعد أن أوصلك إلى القمة سأفتش عن الماء.

- أنقذني، يا ولدي. فأنا أموت من الظمأ.

- وأنا أكاد أهلك من الضنى.

تهادى لي كوي في طريقه إلى القمة. وضع العجوز على صخرة كبيرة قريبة من شجرة صنوبر،

وغرز شفرة مطرده في الأرض إلى جانبها.

- تجملي بالصبر يا أماه. سأعثر لك على قليل من الماء.

كان لي كوي يسمع صوت خرير جدول مائي، فاتخذ سبيله ناحية ذلك الصوت. عثر عليه أخيرا بعد أن اجتاز تلتين أو ثلاث تلال. وشرب عدة جرعات. وتساءل:

"كيف أحمل هذا الماء إلى أمي؟". انتصب واقفا وأجال النظر حواليه. وهمس في نفسه: "حسن". أمسك بالكرمة والشجيرات المتدلية وتسلق. سار إلى المعبد، وفتح بوابة الباحة ودخل. كان ذلك مصلى خاصّاً أهدي إلى حكيم سيتشو الكبير. وكانت تقوم أمامه محرقة حجرية ضخمة للبخور.

شدَّ لي كوي تلك المحرقة، ولكنها كانت منحوتة وقاعدتها من كتلة واحدة. فلم يتمكن من رفعها. وغلى الغضب في جوانحه. فرفعها هي وقاعدتها معا، وألقى بهما على الدرجة الحجرية، فحرّر الوعاء الصخري. حمله إلى الجدول، ومسحه بأكوام من العشب وغسله جيدا. ثم ملأه حتى النصف ماء، ورفعه بكلتا يديه، ورجع أدراجه إلى الذروة.

لم تكن أمه على الصخرة الكبيرة إلى جانب الصنوبرة، رغم أن مطرده لم يتحرك من مكانه. نادى عليها أن تأتي وتشرب. ولكنه لم يعثر للسيدة العجوز على أثر في أي مكان. نادى عدة مرات أخرى من دون أن يتلقى جوابا.

دبَّ الذعر في صدره، ورمى الوعاء وأطال النظر حواليه جيدا. لقد اختفت أمه.

ولم يلبث أن لمح على العشب على مسافة ثلاثين خطوة آثار الدماء، فشرع يرتجف. تبع آثار الدماء إلى كهف عريض. كان هنالك نمران صغيران خارج الكهف يلعقان ساقا بشرية. فأخذته رعشة رهيبة.

خاطب نفسه قائلا:

"جئت طوال الطريق من بحيرة ليانغشان لاصطحاب أمي العجوز. فهل حملتها إلى هنا على ظهري، على الرغم من الصعوبات والمحن، كي تأكلاها؟ هذه الساق التي لا بدَّ أن النمرين اللعينين قد جرّاها إلى هنا قد تكون ساق أمي!".

فار غضبا، وهدأت رعشته، ووقف شعر سالفيه الأحمرين. فنخز النمرين الصغيرين بمطرده فشخرا، وشمرا عن مخالبهما، وهاجماه. طعن أحدهما حتى الموت. في حين هرب الآخر إلى الكهف. فلحق به وقتله.

وربض في الكهف ونظر حواليه. كان ثمة نمرة متوحشة في طريق عودتها إلى عرينها. فقال في نفسه: "أنت الحيوان الذي التهم أمي!". وضع مطرده على الأرض واستلَّ خنجره.

جلست النمرة عند فتحة الكهف ومؤخرتها وذيلها المهسهس إلى الداخل. تفحصها لي كوي جيدا، ثم دفع خنجره بكل ما أوتي من قوة في مؤخرتها بصورة جعلت حده ومقبضه يصلان إلى معدتها، فوثبت النمرة وقد أطلقت زمجرة صماء فوق هوَّة والسكين عالقة فيها. واختطف لي كوي مطرده ولحق بها. ركضت النمرة في حموة الألم هابطة عن الصخرة.

كاد لي كوي أن يلحق بها حين ثارت هبة مفاجئة من الريح بين الأشجار فأسقطت زخة من

الأوراق والأغصان. إن المثل القديم يقول: "السحب تنذر بالتنانين والعواصف تنبئ بالنمور". فمن حيث هبت الريح وثب نمر مزمجر. كانت له عينان مشدودتان إلى الأعلى وجبهة بيضاء. واندفع قدما ناحية لي كوي.

غرز الإعصار الأسود في برودة مطرده في عنق الحيوان المندفع فتوقف فجأة. ذلك أن السكين قطعت رغاماه، وتراجع ست أو سبع خطوات، ثم هوى مثل جبل يتدهور ولفظ أنفاسه الأخيرة. وذهب لي كوي إلى العرين ليستوثق إن كانت هنالك نمور أخرى، ولكنه لم يعثر على شيء منها. كان التعب قد شلَّ قواه، فاتخذ سبيله إلى المصلى الخاص واستغرق في النوم حتى الصباح.

نهض باكرا، وجمع ساق والدته مع ما تبقى من عظامها، ولفه في ثوبه ودفنه في قبر احتفره وراء المصلى. بكى بمرارة، وأرغمه الجوع والظمأ أخيرا على لفّ صرته، وحمل مطرده، والتباطؤ في السير عبر الجبل.

التقى نصف دستة من الصيادين سلاحهم القوس والسهام. وما إن وقعت أبصارهم عليه منحدراً من التلة وملطخا بالدماء حتى أجفلهم الرعب فاستفسروا قائلين: "أأنت روح جبلية أم ماذا، أيها السيد المسافر؟ وكيف تجرؤ على اجتياز الجبل وحيدا؟".

خاطب لي كوي نفسه قائلا: "مقاطعة ييشوي تعرض ثلاثة آلاف ربطة من النقد ثمنا لي، ولا أستطيع أن أخبرهم بهويتي الحقيقية".

وقال في صوت جهير: "أنا مسافر. كنت أجتاز الجبل ليلة البارحة برفقة والدتي فأرمضها الظمأ. وفيما أنا أحضر لها الماء جرَّها نمر والتهمها. فتتبعت أثره إلى عرينه وقتلت أولا نمرين صغيرين، ومن بعد نمرين كبيرين. وغفوت في المصلى المخصص لحكيم سيتشو العظيم حتى الصباح. وقد جئت لتوي من هناك".

- أنت، رجل وحيد، قتلت نمورا أربعة؟ لا نصدقك. إن الأبطال القدامى أنفسهم، من أمثال لي تسون سياو وتسي لو، قد قتل كل منهم نمرا واحدا. قد تكون قتلت نمرين صغيرين، أما النمران الكبيران فذلك مستحيل! لقد كنا نقيس الزمن مرارا وتكرارا لفشلنا في التخلص من ذينك الحيوانين. ومنذ أن اتخذا عرينهما على جبل ييشان قبل ثلاثة أو أربعة شهور لم يتمكن أحدٌ من عبور ذلك الجبل. لا نصدِّق ذلك. لا ريبة أنك تمزح.

- أنا لست من هذه الأرجاء. ففيم أسخر منكم؟ تعالوا وانظروا بأنفسكم. وأحضروا بعض الرجال لحمل تلك النمور.

- سنكون لك من الشاكرين إن كان ما تقوله صحيحا. يا للعمل الرائع!

صفر الصيادون صفرة ثاقبة. ولم تمض لحظات حتى راح أربعون أو خمسون رجلا مسلحين برماح وهراوات شائكة يقتفون أثر لي كوي. كان الضوء قد انتشر حين وصلوا إلى الذروة. ليس في الأمر مزاح، فهذان نمران صغيران مقتولان عند الكهف، أحدهما خارجه والآخر داخله. وتلك جثة نمرة ملقاة عند سفح الصخرة. وهذه جثة نمر مرمية أمام مصلى حكيم سيتشو العظيم.

اغتبط الصيادون، وربطوا قوائم الحيوانات ببعضها وحملوها متأرجحة من عصي طويلة.

وسألوا لي كوي أن يطالب بالمكافأة، وأرسلوا رجلا يسبقهم لإعلام رئيس القرية وسادتها. فخرج الجميع لاستقبال الإعصار الأسود. ونقلت النمور إلى مزرعة المحترم تساو الذي كان موظفا صغيرا متقاعدا، ولكنه عقرب عديم الضمير استطاع - من خلال صفقات احتيالية عديدة - أن يثري ثراء فاحشا.

دعا تساو لي كوي إلى الجلوس في ردهة سقفها مصنوع من القش، واستفسره كيف قتل النمور. فكرَّر لي كوي قصته، وأصغى الجميع إليها فاغرين أفواههم.

سأل تساو: "ما اسمك، أيها المحارب؟".

- عائلتي تدعى تشانغ. وليس لي اسم خاص. فالناس ينادونني باسم تشانغ الشجاع.

- أنت جدير حقا بهذا اللقب، وإلا كيف تستطيع أن تقتل أربعة نمور؟

أمر تساو بإقامة مأدبة على شرف ضيفه. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفا.

حين شاع الخبر أن أربعة من النمور قتلت على جبل يلينغ ونقلت إلى مزرعة المحترم تساو عمَّ الهياج القرية بأسرها، وتجمهر الناس جميعا، رجالا ونساء، شيوخا وشباناً، للنظر إلى الحيوانات القتيلة، والتطلع إلى البطل الذي يحتفل به المحترم تساو في ردهة مزرعته.

كانت امرأة لي غوي بين المحتشدين. فقد هربت إلى هذه القرية حيث يقيم أبواها. وذهبت للتمتع برؤية النمور فتعرفت على لي كوي، وأسرعت عائدة إلى البيت وأخبرت والديها: "ذلك الفتى الضخم الذي قتل النمور هو الرجل الذي قتل زوجي وأحرق بيتنا. وهو معروف باسم الإعصار الأسود من بحيرة ليانغشان".

وما أسرع أن نقل الأبوان الخبر إلى رئيس القرية. فهمس في سره: "إذا كان هذا الإعصار الأسود فهو لي كوي إذاً، ذلك الذي قتل رجلا في قرية بايتشانغ على الجانب الآخر من الجبل، وأفلت هاربا إلى جيانغتشو. وقد أثار الاضطراب هنالك أيضا فأصدرت مقاطعتنا أمرا باعتقاله حين تقع العيون عليه. وقد عرضت مكافأة قدرها ثلاثة آلاف ربطة من النقد ثمنا لاعتقاله. وها هو الآن هنا!".

أرسل رئيس القرية في السرّ رجلا إلى المحترم تساو. ادعى تساو أنه يود تبديل ثيابه، وغادر الردهة وأعجل الخطى إلى منزل رئيس القرية.

- قاتل النمر ليس سوى لي كوي الإعصار الأسود من بايتشانغ على الجانب الآخر من الجبل. وثمة إعلان هنالك بوجوب اعتقاله.

قال تساو: "يحسن تفحص الأمور جيدا. إن لم يكن هو فقد ترتكب غلطة كبيرة. وإذا كان هو فليست هنالك مشكلة، ففي مقدورنا القبض عليه في سهولة. أما إن لم يكن هو الرجل المطلوب فقد تكون هنالك ورطة".

- لقد تعرّفت زوجة لي غوي عليه. فقد توقف في منزلهما يبغي طعاما، وقتل لي غوي.

- في هذه الحال سنزوده بالخمور ونسأله إن كان يعتزم الذهاب إلى عاصمة المقاطعة للمطالبة بالمكافأة عن قتله النمور، أم إن كان سيكتفي بقبض شيء من المال هنا في القرية. إن رفض الذهاب

إلى مكتب المقاطعة فلسوف نعرف أنه الإعصار الأسود، وسنداوم على تعاطي الأنخاب إلى أن يتعتعه السكر. وعندها سنقيّده، ونعلم سلطات المقاطعة ونطلب إليها إرسال مفوض لاعتقاله. لا يمكن أن نرتكب خطأ.

وافق الآخرون: "حسن جدا".

رجع المحترم تساو إلى بيته للعمل على خداع لي كوي. وبينا هو يصبُّ له مزيدا من خمرة أعلن قائلا: "اعذرني لأني تركتك وحيدا. أرجو أن تحلّ الكيسين عن وسطك وتضع مطردك وتعتبر نفسك في بيتك".

قال لي كوي: "حسن. خنجري لا يبرح في بطن النمرة. ولم يبق غير القراب هنا. حين تشقون بطنها يسعدني أن أستردَّ خنجري".

- لا يشغلنَّك التفكير في هذا. فلدي وفرة من السكاكين الجيدة. يجب أن تأذن لي في أن أهديك واحدة منها.

أعطى لي كوي قراب الخنجر والكيسين إلى الخدم ليحفظوها له، وأسند مطرده إلى الجدار. وأمر المحترم تساو بإحضار طبق كبير من اللحم وجرة ضخمة من الخمرة. وجعل السادة ورئيس القرية والصيادون يقدمون للي كوي طاسات وأباريق كبيرة من الخمرة.

سأل المحترم: "هل ستذهب إلى السلطات للمطالبة بالمكافأة عن النمور، أم إنك تفضل أن تحصل على شيء من المال هنا؟".

- أنا مسافر عابر سبيل، وليس لديَّ ما يكفي من الوقت. وشاءت المصادفة أن أقتل عددا من النمور. فلا ضرورة للمطالبة بمكافأة المقاطعة. إن كان لديكم القليل من المال هنا فهذا يكفيني. وإن لم يكن لديكم شيء منه، فسأتابع طريقي من دونه.

- لا يمكن أن نعاملك مثل هذه المعاملة غير المنصفة. ستجمع لك قريتنا ييلينغ مبلغا من المال. وسنرسل النمور إلى المقاطعة بأنفسنا.

- أريد ثوبا من القطن لأبدل به ثيابي هذه.

قال تساو: "سمعا وطاعة". وقدموا للي كوي ثوبا أسود يستبدل به ثيابه الملطخة بالدماء.

وضربت الطبول ونفخ في المزامير عند الباب حين جعل الجميع يهنئون لي كوي ويقدمون له خمرة باردة ودافئة. لم يخطر له في بال أنهم يخادعونه، فاغتبق الشراب بوفرة وقد نسي تماما وصية سونغ جيانغ له. ولم تمرّ فترة حراستين حتى أنهكه السكر فعجز عن النهوض.

نقلوه إلى غرفة في مؤخر الردهة، وأضجعوه على دكة، وربطوه إليها بحبلين اثنين. وطلب تساو إلى رئيس القرية أن يبعث رجالا يرفعون تقريرا بذلك إلى سلطات المقاطعة، وأن يصحبوا معهم زوجة لي غوي لتقدّم شكوى رسمية.

دبت الفوضى في أرجاء مكتب مقاطعة ييشوي بأسره لدى سماع النبأ. فعقد الحاكم المشدوه محكمته على الفور، وسأل: "أين احتُجز الإعصار الأسود؟ ذلك الرجل ثائر ويجب ألا يفلت هاربا".

أجاب الشاكي والصيادون: "إنه مقيد في مزرعة المحترم تساو. لكن، ليس هنالك من يستطيع

احتجازه طويلا. لم نحاول نقله إلى هنا خوفا من أن يهرب في الطريق".

استدعى الحاكم مفوض المقاطعة لي يون، وقال: "ألقي القبض على لي كوي الإعصار الأسود في مزرعة المحترم تساو في ييلينغ. خذ دورية قوية وأحضره إلى هنا بصورة سرية. فلست أريد أن أثير سكان الريف فقد يهرب".

جمع المفوض لي ثلاثين جنديا قويا. تسلحوا جميعا، وأسرعوا خطاهم إلى قرية ييلينغ. كانت ييشوي مقاطعة صغيرة، ولا يمكن أن تخفى فيها مثل هاتيك القصة التي صارت حديثا على كل لسان وفي كل سوق: "إن الإعصار الأسود، هذا الذي ثار في السجن، قد ألقي القبض عليه. فأرسلوا المفوض لي لنقله!". وتناهت هذه الأنباء إلى تشو غوي المقيم في منزل شقيقه في حاضرة المقاطعة، فأسرع إلى مؤخر البيت يتشاور مع أخيه.

- لقد فعلها ذلك الأحمق مرة أخرى! كيف لي أن أنجده؟ كان سونغ جيانغ يخشى أن يقع في المصاعب فأرسلني لأراقبه عن كثب. وها هو معتقل الآن! إن لم أستطع إنقاذه فكيف لي أن أواجه إخوتي بعدما أعود إلى الحصن؟ يا لها من بلية!

فأعلن تشو فو قائلا: "لا تضطرب. إن للمفوض لي مهارة رائعة في استخدام السلاح. ولا يستطيع أربعون أو خمسون مسلحا معا أن يتغلبوا عليه. فأية فرصة لنا، نحن الاثنين، في مقارعته مهما كانت أمنياتنا؟ وحده الدماغ، وليس القوة العضلية، قادر على ذلك. ولي يون معجب بي إلى أبعد الحدود. وما أكثر ما يدربني على اللعب بالسلاح! وأنا أعرف كيف أتصرف معه، رغم أني لن أتمكن من البقاء هنا بعد ذلك. سنطبخ الليلة عشرين أو ثلاثين كاتيا من اللحم بعد أن نقطعه إلى قطع كبيرة، ونهيئ دستة من زجاجات الخمرة، ونمزجها بشراب منوّم. وعند فترة الحراسة الخامسة سنحمل معا برفقة أحد الرجال هذه الأشياء إلى مكان منعزل على الطريق. وحين يمر لي يون وجماعته برفقة الأسير سنقدّم لهم الخمرة للاحتفال فيغيبون عن الوعي ونحرر لي كوي. ما رأيك في هذا؟".

- منتهى الذكاء. يجب أن لا نتوانى. لنهيئنّ الأمور في عناية وننطلق مبكرين.

- المشكلة هي أن لي يون لا يكثر من الشراب. ولو غاب عن وعيه فهو قادر على استرداده بسرعة. وثمة شيء آخر، إذا اكتشف الأمر في ما بعد فلن يعود في طوقي البقاء هنا.

- أعمال حانتك ليست جيدة على أية حال. فلم لا تأخذ امرأتك وأولادك وترافقني إلى الجبل وتنضمّ إلى عصبتنا؟ نحن نقتسم الذهب والفضة بالتساوي. وستكون لك مجموعات كاملة من الثياب. وستكون سعيدا هنالك. ابعث اثنين من مستخدميك ليعثرا على عربة هذه الليلة، وأرسل عائلتك وممتلكاتك ومتاعك أولا. واجعلهم ينتظروننا في القرية في شيليباي. وبعدها سنذهب جميعا إلى الحصن. أحمل شيئا من علاج صاعق في كيسي. فإذا لم يكن لي يون يجرع الشراب فذرَّ كمية منه على اللحم واجعله يلتهمه، ولسوف يغيب عن الوعي سريعا. وبعد أن ننقذ لي كوي سنمضي إلى الحصن معا. أيروقك هذا؟

- حسن، يا أخي. هذا ما سنفعله.

أرسل تشو فو رجالا يبحثون عن عربة، وحزم أربع أو خمس صرر وضعها عليها. وترك

الأشياء الكبيرة في أمكنتها. وطلب إلى زوجته وأولاده أن يركبوا العربة، وأمر اثنين من مساعديه أن يخفراهم وينتظروا في القرية الصغيرة.

في هاتيك الليلة عمد الشقيقان إلى اللحم فطبخاه، وقطعاه قطعا كبيرة، ومزجاه بالمخدِّر. وجاءا بالخمرة فشكل المجموع ما يحتاج إلى حمالتين. وحملا معهما عشرين أو ثلاثين طاسا فارغة وشيئا من الخضار المطبوخة رشا عليها المخدر أيضا لتقديمها إلى أولئك الذين لا يأكلون اللحم. وحمل مساعدان ذينك الحملين، وحمل الشقيقان بعض علب المشهيات. وما إن حانت فترة الحراسة الرابعة حتى كانا ينتظران قرب تقاطع طرق على درب جبلية منعزلة. وحين أشرق الفجر تناهت إلى أسماعهم عن بعد أصداء طبول وأبواق تقترب منهما، فانتقل تشو غوي إلى تقاطع الطريق.

في قرية ييلينغ هبَّ الجنود الثلاثون يغتبقون الشراب في نصف الليل. وفي حدود فترة الحراسة الرابعة انطلقوا يخفرون لي كوي وقد ربطوا يديه وراء ظهره. وسار المفوض لي يون في النهاية على صهوة جواده. كانوا قد ساروا فترة من زمن حين برز تشو فو لهم وسدَّ طريقهم قائلا: "تهانيَّ، أيها المعلم. ألن تستريح قليلا؟".

وغرف طاسا من الخمرة من دلو قريب وصبها في إبريق كبير قدمه إلى لي يون. وقدم تشو غوي طبقا من اللحم، في حين حمل المساعدون علب المشهيات. ترجَّل المفوض عن حصانه وأسرع إليه قائلا: "أيها الأخ الأصغر، ما كان ينبغي أن تتعب نفسك فتجيء إلى هنا مجتازا مسافات طويلة".

أجاب تشو فو: "لقد أردت أن أبدي لك احترامي".

أخذ لي يون الإبريق ورفعه إلى شفتيه، ولكنه لم يشرب. فجثا تشو فو أمامه: "أعرف أنك لا تشرب أيها المعلم. ولكنه شراب النصر. فاجرع نصف قدح على أقل تقدير".

لم يستطع لي يون أن يرفض. فجرع عدة جرعات صغيرة.

ألحَّ تشو فو: "إن لم تكن تريد خمرة، فلا بدَّ أن تأكل شيئا من اللحم".

- أكلت كفايتي هذه الليلة. وليس في مقدوري أن آكل المزيد.

- لقد اجتزت مسافة طويلة، أيها المعلم. ولا بدَّ أنك جائع من جديد. وليس لدينا هنا أشياء فاخرة، فذق شيئا منها، وإلا فقدت هيبتي واحترامي.

واختار تشو فو قطعتين من اللحم قدمهما له. لم يكن أمام لي يون خيار لقاء هذه الأريحية غير أن يأكلهما. وقدَّم تشو فو الخمرة إلى السادة أيضاً، وإلى رئيس القرية والصيادين، وملأ أكوابهم ثلاث مرات.

نادى تشو غوي على الجنود والخدم أن يأتوا ويشربوا. لم يكن إرضاؤهم على شيء من الصعوبة. فما كانوا يبالون أكانت الخمرة واللحم باردين أم ساخنين، طيبي المذاق أم غير طيبين؛ فأقبلوا على الطعام والشراب. وتلاشت المؤن سريعا مثلما تتلاشى السحب المتناثرة أمام الريح، ومثل الأزهار وهي تتساقط في جدول من الماء.

راقب لي كوي الأمور بعينين براقتين. وما إن لمح تشو غوي وشقيقه حتى عرف أن في الأمر

خدعة، وقال في نبرة متأنية: "لم لا تعطونني شيئا آكله أنا أيضا؟".

فنبح تشو غوي في وجهه: "لحم وخمرة لشيطان شرير من أمثالك؟ الجلاد في انتظارك! فاخرس!".

وهتف لي يون بجنوده: "فلننطلق. عجلوا!".

فراح الرجال يتبادلون النظرات عاجزين عن الحركة، وتساقطوا على الأرض واحدا بعد الآخر، وشفاههم ترتعش وسيقانهم تلتوي.

صاح لي يون في ثورة: "لقد خدعت". حاول الانطلاق قدما. ولكن رأسه ثقل وخفت ساقاه، فتهاوى متجمعا على بعضه فاقدا وعيه.

اختطف تشو غوي وشقيقه مطردين، وهتفا: "لا تحسبوا أنكم قادرون على الفرار". واندفعوا وراء الخدم والمشاهدين الذين لم يقربوا اللحم والخمر. هرب من كانت حركته في الركض سريعة، أما من ثقلت حركته فسقط مقتولا.

مزَّق لي كوي قيوده مزمجرا، واختطف مطردا وهاجم لي يون الساجد على الأرض. فانتصب تشو فو بقوة في سبيله: "حذارِ. فهو معلمي. وهو رجل طيب. فامضِ في سبيلك".

فأذعن لي كوي ولكنه هتف:

"ولكنني سأنفجر إن لم أقتل ذلك الحمار تساو".

لحق بالمحترم وطعنه، ومن ثم قتل امرأة لي غوي ورئيس القرية. ثارت ثائرة دمه، فذبح مجموعة من الصيادين والجنود الثلاثين جملة. وطار الخدم والمشاهدون هاربين في القفار وهم يلعنون آباءهم الذين لم يهبوا لكل منهم أكثر من قدمين اثنتين. وهمَّ لي كوي أن يلحق بهم.

أوقفه تشو غوي صائحا: "لا علاقة لهم بهذه القضية. فكفَّ عن إيذاء الناس العاديين!".

وعندها استكان لي كوي إلى الهدوء. خلع بعض الثياب عن جندي قتيل واشتمل بها، وسار الشقيقان، والمطارد في أيديهم، على طول الممر.

قال تشو فو: "هذا ليس عدلا. لقد حكمت على معلمي بالموت. ماذا يستطيع أن يقول للحاكم عندما يستردُّ وعيه؟ لا بدَّ أن يطاردنا. تابعا طريقكما، وسأنتظِره هنا. فلقد كان على الدوام طيبا معي، كما كان مخلصا لأصدقائه. سأطلب إليه أن يرافقنا إلى الحصن وينضمَّ إلى العصبة. فأنا مدين له بذلك. وإن لم أفعل هذا فسيقاسي كثيرا بعد عودته إلى مكتب المقاطعة".

قال تشو غوي: "أنت على حق، يا أخي. سأذهب مع العربة. وسيبقى لي كوي هنا لمساعدتك. إن لم يلحق لي يون بنا سريعا فلا ترتكبا حماقة ولا تنتظرا كثيرا".

قال تشو فو: "من دون ريب".

وتابع تشو غوي رحلته وحيدا.

جلس تشو فو ولي كوي على جانب الطريق. وفي أقل من فترة نصف حراسة جاء لي يون راكضا على طول الممر ومطرده في يده.

صاح: "أيها اللصان، لا تتحركا من مكانكما".

واندفع صوبهما بوحشية.

خشي لي كوي أن يؤذي تشو فو فوثب وخطا لملاقاته وقد شرَّع مطرده في يده.

ونتيجة لذلك، أضيف نمران جديدان إلى الجماعة على جبل ليانغشان، وجرى الترحيب بأربعة رجال في ردهة الأخوية. من كان المنتصر في المعركة بين الإعصار الأسود والنمر أسود العين؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الرابع والأربعون

النمر الأنيق يلتقي داي زونغ على ممر؛
ويانغ شيونغ يلتقي شي شيو في طريق مشجرة

تقاتل لي كوي ولي يون ست أو سبع جولات من دون أن يتغلب أحدهما على الآخر. فهتف تشو فو: "كفى". وباعد بينهما بمطرده قائلا: "أصغيا إليَّ". فتوقف المتباريان عن القتال.

خاطب لي يون قائلا: "أيها المعلم، أرجو أن تصغي إليَّ. ما أكثر ما شملتني بلطف يفيض عما أستحقُّ، وعلمتني المبارزة بالعصا والرمح. وأنا شاكر لك. والمشكلة هي أن شقيقي تشو غوي واحد من الزعماء على جبل ليانغشان. وقد صدر الأمر إليه من قبل قائده سونغ جيانغ المطر في أوانه أن يرعى شؤون الأخ لي كوي هنا. وكنت أنت تنقله إلى السلطات، فكيف يستطيع تشو غوي أن يعود أدراجه ويقابل سونغ جيانغ؟ كان علينا أن نحتال عليك. أراد الأخ لي كوي أن يجهز عليك، فلم أسمح له، فعمد إلى قتل الجنود. وكان في مقدورنا أن نسبقك بمسافة طويلة طويلة، وطاف في ذهني أنك لن تستطيع العودة إلى مكتب المقاطعة، بل ينبغي أن تقوم بمطاردتنا. وتذكرت ما كنت عليه من طيبة تجاهي، فعزمت على انتظارك. أيها المعلم، أنت متوقد الذكاء. وليس هنالك ما تجهله. وقد قتل اليوم عشرات وعشرات، وهرب الإعصار الأسود. فكيف سترفع تقريرك إلى الحاكم؟ لا بدَّ أن تقدم للمحاكمة، ولن يكون هنالك من ينجدك. أفلا ترافقنا إلى الجبل وتنضمَّ إلى عصبة سونغ جيانغ؟ ما قولك؟".

أغرق لي يون لحظات في التفكير، وقال أخيرا: "لنفترض أنهم رفضوني؟".

ضحك تشو فو: "لقد سمعت بالمطر في أوانه من شاندونغ بكل تأكيد؟ وهو يرحب بجميع الشجعان من أي طرف كان".

أرسل لي يون زفرة: "لقد غدوت رجلا من دون بيتٍ أو وطن. من حسن حظي أنه ليست لديَّ زوجة أو أولاد، الأمر الذي لا يجعلني أقلق إن ألقت السلطات القبض عليَّ. أفترض أنه يحسن بي أن أذهب برفقتكما".

أهنف لي كوي ضاحكا: "يا أخي، لـمَ لم تقل ذلك قبلا؟". وانحنى أمام لي يون انحناءة عميقة.

ولأن المفوض لم يكن يملك أسرة أو ممتلكات، فقد انطلق الرجال الثلاثة معا وراء العربة. وفي منتصف الطريق لحقوا بتشو غوي الذي غمرته الفرحة. وقاموا برحلة شائكة. ففيما هم يقتربون من جبل ليانغشان التقوا ما لين وتشنغ تيان شو اللذين قالا: "لقد أرسلونا لنستعلم عن مصيركما. ولما كنا قد رأيناكما الآن فلسوف نعود أدراجنا لتقديم تقريرنا". وأسرعا منطلقين.

في اليوم التالي وصل الشجعان الأربعة برفقة أسرة تشو فو إلى ردهة الأخوية في المعقل على جبل ليانغشان، وانطلق تشو غوي أولا وقدَّم لي يون إلى تشاو غاي وسونغ جيانغ والقادة الآخرين: "هذا لي يون، مفوض شرطة مقاطعة ييشوي. ويسمونه النمر أسود العين".

ومن بعد قدَّم شقيقه: "وهذا شقيقي الأصغر تشو فو. وهو معروف باسم النمر المبتسم".

سجد لي كوي أمام سونغ جيانغ وأُعيد فأساه إليه. وسرد عليهم كيف حمل أمه من ييلينغ، هذه الأم التي أفقدته إيّاها الحيوانات المتوحشة، وكيف أنه، بسبب ذلك، قتل نمورا أربعة. وتهاطلت العبرات على وجنتيه وهو يروي قصته. ولكنه ما إن استرسل يسرد كيف قتل ذلك اللص الذي تنكَّر باسمه حتى أغرق الجميع في الضحك.

قال تشاو غاي وسونغ جيانغ مبتسمين: "قتلت أربعة نمور، وها أنت تضيف اليوم نمرين حيين إلى معقلنا. وهذا يستوجب احتفالا".

غمرت الفرحة جوانح الفتيان الشجعان المحتشدين. وذبحت أبقار وخيول، وأقيمت مأدبة. وقدَّم تشاو غاي للزعيمين الجديدين القادمين مقعدين عن يساره قبل باي شنغ.

قال وو يونغ: "لقد غدت قلعتنا مزدهرة في الآونة الأخيرة. فالرجال الشجعان من كل مكان يتدفقون للانضمام إلينا. وهذا مرده فضيلة الأخوين تشاو غاي وسونغ جيانغ، وهو من حسن طالعكم جميعا. وتبعا لهذه الظروف فنحن نطلب إلى تشو غوي أن يعاود الإشراف على حانته في شرقي الجبل. ونأذن لشي يونغ وهو جيان بالعودة. وسيعطى تشو فو وأسرته منزلا ليعيشوا فيه. إن لدى قلعتنا عددا من المشاريع اليوم، ولم تعد مثلما كانت عليه قبلا. سوف نفتتح ثلاث حانات أخرى، وستكون مهمتها مراقبة كل ما يجري في الخارج مراقبة شديدة، ومساعدة المقاتلين في صعودهم إلى الجبل وهبوطهم عنه. وإذا أرسل البلاط الإمبراطوري قوة للقبض علينا فستعمل على إعلامنا فورا. وإذا اتجهت القوات في هذه الطريق فستتأهب لملاقاتها.

"إلى الغرب من الجبل ثمة سهل فسيح. فليذهب تونغ ويي وتونغ مينغ إلى هنالك برفقة دستة من الرجال وليفتتحوا حانة. ولينشئ لي لي مع دستة أخرى حانة إلى الجنوب، ولينطلق شي يونغ مع عدد مماثل إلى الشمال. ويجب على الجميع أن يقيموا جواسق تطل على المياه، ويهيئوا سهاما للإنذار وقوارب لنقل الرجال، ويرفعوا تقارير سريعة عن أي نشاط عسكري على قدم وساق أو خلافه.

أمام الجبل سنبني ثلاث بوابات ضخمة يكون دو كيان مسؤولا عنها. لقد أعفي من جميع واجباته الأخرى، ولا يجب أن يغادر مركزه الجديد. وسيشرف تاو تسونغ وانغ على العمل: حفر الخنادق، وشق الأقنية، وإصلاح الجدران والمتاريس، وإقامة طريق واسعة أمام الجبل. لقد كان في الأصل مزارعا ويعرف هذه الأمور جيدا. وسيكون جيانغ جينغ مسؤولا عن مخزن القمح فيراقب كل ما يدخل إليه وما يخرج منه، ويسجل حسابات ذلك كله. ويصدر شياو رانغ جميع المستندات والأذونات للتحرك داخل القلعة وخارجها، والصعود إلى الجبل والهبوط عنه، والدخول من البوابات الثلاث والخروج منها، والتثبت من هويات الزعماء كبارا وصغارا.

"وسنكلف جين دا جيان بأن ينحت جميع العصي الضرورية للقوات، وأختام الوثائق، والصفائح الحجرية. ويشرف هو جيان على أمور الثياب، والسلاح، والأعلام، والرايات. ويكون لي يون مسؤولا عن الأبنية والردهات. ويشرف ما لين على بناء سفن القتال كبيرها وصغيرها وإصلاحها. ويكلف سونغ وان وباي شنغ بتحصين شاطئ الرمال الذهبية والدفاع عنه. ويقوم النمر القصير البدين وانغ وتشنغ تيان شو بالمهمة ذاتها عند شاطئ منقار البطة. ويتلقى مو تشون وتشو فو جميع الأموال والحبوب التي ترد إلى القلعة. أما ليوي فانغ وقوه شنغ فسيعتبران مسؤولين عن غرف الراحة في كل من جناحي ردهة الأخوية. ويكلف سونغ جيانغ بإعداد جميع المآدب".

دأب الجميع على الاحتفال طوال الأيام الثلاثة التالية. ولا ضرورة للإفاضة في الحديث عن هذا. فقد كان الزمن فترة سلام بالنسبة إلى بحيرة ليانغشان.

وجعل الرجال يتدربون يوميا، ويمارسون الفنون العسكرية. وراح الزعماء يدربونهم على أمور الإبحار والسباحة في المياه، والقتال على متن السفن. ولن نزيد في هذا الموضوع كلاما.

ذات يوم كان سونغ جيانغ يتلهى بالحديث مع تشاو غاي ووو يونغ والقادة الآخرين، فقال: "نحن الإخوة مجتمعون هنا كلنا. غير أن غونغسون لم يرجع بعد. ظننت أن مائة يوم ستكون كافية بالنسبة إليه لرؤية والدته ومعلمه في كيتشو. لقد مرَّت فترة طويلة ولم نتلق أية أخبار عنه. أتراه نكث بوعده لنا؟ أتمنى لو أن الأخ داي زونغ يستعلم عما حدث له، ويعرف لماذا لم يرجع أدراجه بعد".

أعلن داي زونغ أنه ذاهب. ففرح سونغ جيانغ، وقال: "تستطيع أن ترحل مسرعا. وسنترقب أنباء منك في غضون عشرة أيام".

ودَّع داي زونغ الجميع، وفي بكور اليوم التالي تنكر في ثياب ملازم في الحرس الإمبراطوري، وغادر جبل ليانغشان ميمما شطر كيتشو. ربط التعويذات الأربع إلى ساقيه وقام بشعائره السحرية. لم يكن يأكل على الطريق غير الخضار وحساء الخضار. وفي غضون ثلاثة أيام وصل إلى مقاطعة ييشوي، وسمع رجلا يقول: "قبل عدة أيام هرب الإعصار الأسود وقُتِلَ رجال كثيرون. ويبدو أن للمفوض لي يون ضلعا في هذا الأمر. وليس هنالك من يعلم إلى أين قصدا. فلم يتم القبض عليهما بعد".

ابتسم داي زونغ في برودة.

وفيما هو مسافر ذلك النهار لمح على البعد رجلا يقترب منه، وفي يده رمح أجوف زائف من الحديد. توقف الرجل حين رأى السرعة العظيمة التي يتحرك بها داي زونغ هاتفا: "أيها المسافر الأعجوبي!".

حدق داي زونغ في الرجل الذي حيَّاه، كان ثمة فتى ضخم يقف على الممر فوق المنحدر له رأس مدوَّر، وأذنان كبيرتان، وأنف مستقيم، وفم مربَّع، وحاجبان جميلان، وعينان بجاوان، وخصر أهيف، وكتفان عريضتان.

قال داي زونغ: "لم يسبق أن التقينا، يا سيدي. فكيف تعرف اسمي؟".

– إذاً، أنت المسافر الأعجوبي حقا!

وألقى الرجل سلاحه جانبا، وخرَّ على ركبتيه ساجدا.

أسرع داي زونغ فأنهضه وردَّ له التحية بمثلها: "وما اسمك، يا سيدي؟".

- أدعى يانغ لين من ولاية تشانغدي. وأنا خارج على القانون في الدرجة الأولى، وأعرف في أخوية الشجعان بالنمر الأنيق. قبيل شهور عدة التقيت المعلم غونغسون شنغ في حانة على الطريق. شربنا معا، وأخبرني أن الزعيمين تشاو غاي وسونغ جيانغ على جبل ليانغشان يرحبان بالرجال الشجعان، وعن مقدار ما هما عليه من ولاء وروعة. وقد كتب لي رسالة توصية وحثني على حملها إلى القلعة. لم أحسب نفسي جديرا بذلك، ولكن المعلم غونغسون قال: عند مدخل ليجيا حانة يديرها تشو غوي. وهو ينقل الرجال الراغبين في الانضمام إلى العصبة. والضابط المتطوع الذي يعلن عن القادمين الجدد للقادة هو الناظر داي. وهو معروف باسم المسافر الأعجوبي. وفي مقدوره أن يجتاز ثمانمائة لي في اليوم الواحد. وأنت تسير في خطى رشيقة، فناديت عليك باسمك كي أرى ردة فعلك. ولم أحلم مطلقا أن تكون أنت حقا. لقد شاءت السماء أن تتيح لنا هذه الفرصة للقاء.

- بسبب المعلم غونغسون انطلقت في سبيلي إلى كيتشو. فأنا أسعى إلى الحصول على معلومات عنه. وأمرني تشاو وسونغ أن أكتشف ما حدث له وأعيده إلى القلعة. ولم أتوقع أن تتاح لي فرصة لقائك.

- على الرغم من أنني من تشانغدي، فأنا طوَّفت في شتى نواحي ولاية كيتشو. إن لم ترفض خدماتي فيسرني أن أرافقك في أرجائها.

- ينبغي أن أعتبر نفسي سعيد الحظ. فبعد أن نعثر على المعلم غونغسون سنرجع إلى جبل ليانغشان معا، وسيكون أمامنا متسع من الوقت.

عجت الفرحة في حنايا يانغ لين. فسجد لداي زونغ واعتبر نفسه شقيقه بالدم. فخلع الناظر تعويذاته السحرية وتابع الاثنان طريقهما على مهلة. وفي العشية لجآ إلى الراحة في خان قروي. ودعا يانغ لين داي زونغ على الطعام والشراب.

قال الناظر: "عندما أستخدم تعاويذي السحرية لا ينبغي أن أقرب اللحم".

تناولا الغداء من أطباق من الخضار. وفي الصباح التالي أبكرا في النهوض، وهيأا فطورهما، وتأهبا لمتابعة الرحيل.

قال يانغ لين: "لن أكون قادرا على اللحاق بك إن استخدمت وسيلتك السحرية في الترحال. وأخشى ألا نستطيع السير معا".

ابتسم داي زونغ: "لدي وسيلة لنقل الآخرين معي. سأضع تعويذتين على ساقيك، وأقرأ السحر، فيغدو في مقدورك الانطلاق سريعا. وتستطيع السفر أو الوقوف حينما تشاء. إن لم نفعل هذا فلن يتوفر لك مرافقتي على الطريق".

- أنا إنسان عادي ولا أملك صفاتك الروحية.

- هوِّن عليك. عندما أستخدم تميمتي السحرية فأنا أستطيع أن آخذ برفقتي أيا كان. يكفيني أن أتلو تعويذتي السحرية فنسافر معا. إن ثابرت على التهام الطعام المؤلف من الخضار فلن تكون

هنالك معضلة.

ربط تعويذتين على ساقي يانغ لين وتعويذتين على ساقيه. ثم تلا التعويذة السحرية وقام بطقوسها، فانطلق الاثنان خفيفين، يتحركان سريعا أو بطيئا، مثلما يراه داي زونغ مناسبا. وفي الطريق تحدثا عن أفعال أخوية الشجعان. وعلى الرغم من أنهما كانا يتقدمان في روية ومن دون عجلة، فقد اجتازا مسافة طويلة من الطريق من دون أن ينتبها إلى ذلك.

في أخريات الصباح وصلا إلى بقعة تحوطها جبال شامخة، وتقوم في وسطها محطة لتبديل الخيول.

قال يانغ لين: "هذا وادي منهل الحصان. وكانت عصبة كبيرة من الرجال تقيم على ذلك الجبل الطويل أمامنا. ولا أعرف عنها شيئا في الآونة الأخيرة. وقد أطلق على المكان اسم وادي منهل الحصان نظرا لروعته وجداوله المتعرجة بين التلال اليشمية الخضراء".

وفيما هما يقتربان من سفح الجبل ضجت أصداء قرع على الطبول ونفخ في الأبواق. وبرز قرابة مائة أو مائتين من قطاع الطرق وسدوا طريقهما. كان رجلان كبيران يحمل كل منهما مطردا يقفان في المقدّمة فهتفا بهما: "قفا مكانكما! من أنتما أيها الأحمقان، وإلى أين تذهبان؟ ادفعا جزية المرور إن كنتما على شيء من الصواب، فنوفّر عليكما حياتيكما".

كشر يانغ لين مبتسما: "يا أخي، انظرني كيف أخدع هذين الوغدين!".

ولوَّح برمحه، وانقضَّ قدما.

خطا الرجلان متقدمين لصدّ هجمته الشرسة. وفيما هو يقترب منهما هتف الأول بينهما: "لا تأت بحركة. ألست الأخ يانغ لين؟".

توقف يانغ لين، وعرف عندئذ عدوه. انحنى الرجل انحناءة احترام وسلاحه في يده، وأمر رفيقه الطويل أن يقتدي به. وصاح يانغ لين بداي زونغ ليقترب قائلا: "أريدك أن تلتقي أخويّ".

– من هما؟ وكيف يعرفانك؟

– هذا الفتى الشجاع، دنغ في، هو الذي يعرفني. وهو من ولاية خيانغيانغ في منطقة غايتيان. ولأن له حاجبين أحمرين فقد اشتهر في أخوية الشجعان باسم الليث ناري العينين. وهو بارع في استخدام سلاح السلسلة الحديدية. حين يروح يلوِّح بها يعجز الجميع عن لمسه. وقد تعاونا معا مرات عديدة، ولكنني لم أره منذ خمس سنوات. ولم يخطر ليَ أن ألتقيه هنا هذا النهار.

ودلَّ دنغ في على داي زونغ، واستفسر يانغ لين قائلا:

– من يكون هذا الأخ؟ واضح أنه ليس رجلا عاديا.

– إنه داي زونغ، المسافر الأعجوبي، واحد من الفتيان البواسل في بحيرة ليانغشان.

– أليس هو الناظر داي من جيانغتشو، هذا القادر على السير ثمانمائة لي في يوم واحد؟

فقال داي زونغ: "هو عينه".

انحنى قاطعا الطريق على الفور، وقالا: "ما أكثر ما سمعنا باسمك العظيم! من كان يخطر له في بال أن نستطيع اليوم أن نقدم لك احترامنا؟".

سأل داي مشيرا إلى القائد الثاني: "ما اسم هذا الفتى الشجاع؟".

أوضح دنغ في قائلا: "منغ كانغ، من ولاية تشيندينغ. كان يعمل بنَّاء للسفن. وكان يقوم ببناء سفينة كبيرة لنقل شحنة من الرخام. وجعل الضابط المسؤول يستعجله ويستحثه إلى قتله. وهجر أسرته وهرب إلى الغاب وصار لصا. حدث هذا منذ عدة سنوات. ولأنه طويل وأشقر اللون ومتين البنيان فقد خلعوا عليه لقب سارية العلم اليشمي".

ابتهج داي زونغ كثيرا.

تحادث الأربعة فترة من الوقت، واستوضح يانغ لين: "كم أقمتما معا، أنتما الاثنان؟".

أجاب دنغ في: "أكثر من سنة. وقبيل ستة شهور التقينا أخا آخر يدعى بي شيوان، وهو كاتب من ولاية جينغتشاو. هو بارع في تدبيج الشكاوى، ومخلص وأريب، ورجل لا يمكن أن يرتكب أية هفوة، وقد عرف محليا باسم الفضيلة المدرَّعة. كما أنه ماهر في استخدام الأسلحة ويفيض ذكاء وشجاعة. ولكن البلاط الإمبراطوري عين واليا شريرا في جينغتشاو لفَّق له تهمة وأمر بنفيه إلى جزيرة شامين. وفي أثناء مروره بنا قتلنا خفيره وأنقذناه، فاتخذ لدينا ملجأه. وشكلنا عصبة من حوالى ثلاثمائة من الرجال. وهو بارع في المبارزة بسيفين، ولما كان يكبرنا سنا فقد اخترناه قائدا علينا. ألن ترافقانا إلى معقلنا المتواضع للاجتماع به؟".

أمر دنغ في رجاله بإحضار الخيول. نزع داي زونغ ويانغ لين التعويذات عن سيقانهما، وامتطيا سرجي جوادين، ولحقت الجماعة بالأثر. ولم يمض زمن طويل حتى وصلوا إلى المعقل حيث ترجلوا. وأسرع بي شيوان الذي تناهى إليه الخبر هابطا السلَّم لاستقبالهما.

نظر داي زونغ ويانغ لين إليه. كان في الحقيقة رجلا وسيم الطلعة، أشقر الشعر، مديد العود، هادئ الحركات، رزين الخطوات. فاغتبطا كثيرا، ودعاهما بي شيوان إلى قاعة الاجتماعات. وبعد تبادل التحيات أجلس داي زونغ على مقعد الشرف، ثم جلس يانغ لين ودنغ في ومنغ كانغ بالتتالي. والتقى المضيفون الضيوف من بعد في وليمة، وجرعوا الخمور على أصوات الطبول والمزامير.

تحدث داي عن برنامج التطويع الذي وضعه تشاو وسونغ، وكيف أنهما يرحبان بالرجال الشجعان من كل مكان. وتحدث عن لطفهما وفضائلهما وغيرتهما، وعن صفاتهما الأخرى الحميدة، وعن الوئام القائم بين الزعماء، وعن مساحة الثمانمائة لي التي يسيطرون عليها على جبل ليانغشان، وعن مناعة جدران القلعة والمتاريس، وعن المياه الضبابية التي تحدق بها من كل ناحية وصوب. وأوضح كيف أنهم لا يخافون، بالعدد الوفير لديهم من الرجال والخيول، أي هجوم تشنه عليهم القوات الحكومية.

قال بي شيوان: "لدينا قلعة جبلية ههنا أيضا، وقرابة ثلاثمائة حصان. وثروتنا تملأ عشر عربات، إن لم نقل شيئا عن حبوبنا أو أعلافنا، كما أن لدينا قرابة خمسمائة من الرجال. فإن لم تعتبر أن عددنا قليل جدا، يا أخي، فأتمنى أن تأخذانا إلى قلعتكم الكبيرة وتأذنا لنا بالانضمام إلى عصبتكم. لعلنا نستطيع تقديم جهود قليلة تؤتي شيئا من النفع. ما رأيكما في هذه الفكرة؟".

كان داي زونغ مسرورا فقال: "إن تشاو وسونغ مستقيمان في تعاملهما مع الناس. فإن استطعت

الحصول على معونتكم أيها السادة، فسيكون ذلك أشبه بمن يضيف الزهور إلى التطريز. وحين أعود ويانغ لين من رؤية غونغسون في كيتشو، فلسوف نتنكر جميعا في زي القوات الحكومية ونسير خلال الليل".

ابتهج الجميع، وأكثروا من الشراب فثملوا، ومن بعد انتقلوا إلى السرادق عند المنحدر الخلفي المطل على وادي منهل الحصان حيث استرسلوا في الشراب والاستمتاع بالمشهد الخلاب.

قال داي زونغ: "يا للروعة! مكان فتان ومنعزل. كيف تصادف أن جاء اثناكما إلى هنا؟".

قال دنغ في: "كان هذا المكان في الأصل عرينا لعدد من الأوغاد التافهين. فاستولينا عليه ببساطة".

ضحك الجميع. وسرعان ما سكر خمستهم. وقدَّم بي شيوان عرضا راقصا بسيفيه، فأغدق عليه داي زونغ مديحا مقرفا. وأمضى الزوار ليلتهم في المعقل.

في صباح اليوم التالي أعلن داي زونغ ويانغ لين عن رغبتهما في الرحيل. ولم تفلح توسلات المضيفين الثلاثة في حثهما على البقاء. فرافقهما زعماء قطاع الطرق في الهبوط عن الجبل ثم رجعوا إلى معقلهم، وشرعوا يحزمون متاعهم ويتأهبون للرحيل. ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن هذا الموضوع.

هبّ داي زونغ ويانغ لين يسافران نهارا ويستريحان ليلا، وما أسرع أن وصلا إلى مدينة كيتشو. وهنالك نزلا في خان.

قال يانغ لين: "يا أخي، إن المعلم غونغسون تلميذ من تلاميذ التاوية. ولا ريبة أنه في أجمة على جبل. فهو لا يقبل أن يعيش في المدينة".

وافق داي زونغ: "أنت على حق".

وجعلا يطوفان في ضواحي كيتشو سائلين عن المعلم غونغسون. ولكن أحدا لم يسمع به، فرجعا أدراجهما إلى الخان. وفي صباح اليوم التالي طافا في عدد آخر من القرى والأسواق النائية من دون أن يتكلل عملهما بأي نجاح فرجعا إلى الخان من جديد.

وتساءل داي زونغ في اليوم الثالث: "أيمكن أن يكون في هذه المدينة شخص يعرفه؟".

وخرج ويانغ لين يفتشان في كيتشو. وكان يأتيهما الجواب من كل رجل يسألانه قائلا: "لا أعرفه. أأنتما واثقان أنه يعيش في المدينة؟ لعله في أحد الأديرة الجبلية المشهورة في مقاطعة نائية".

وصلا أخيرا إلى شارع عريض، فرأيا على مسافة منه موسيقيين يرحبون برجل يخطو مقتربا منهم. فتوقف داي ويانغ يراقبان. جاء أول الأمر خفيران من خفراء السجون، يحمل أحدهما هدايا ملفوفة بأشياء ملونة، ويحمل الثاني قطعا من الساتان والقماش المقصب. ووراءهما، تحت ظلة حريرية سوداء، يسير جلاد أحد السجون. كانت له طلة رائعة، وكان يلبس عباءة زرقاء غامقة مطرزة. وقد امتدَّ حاجباه الطويلان إلى صدغيه، وانسالت عيناه في زاويتيهما، وشحبت طلعته، ونبت له شاربان صغيران. كان من هينان، ويدعى يانغ شيونغ. جاء إلى كيتشو برفقة ابن عم له تمَّ تعيينه واليا. وأقام هناك منذ ذلك الحين. وكان الوالي الذي جاء بعد ابن عمه يعرفه أيضا، فعينه حارسا

على سجني المدينة، فضلا عن جعله الجلاد الرسمي. وكان يانغ شيونغ من أمهر مستخدمي السلاح، ولكن له طلعة شديدة الشحوب، فأطلقوا عليه اسم الشاحب.

وكان يسير وراء خفير سجون آخر يحمل سيفا له مقبض على شكل رأس شيطان. كانوا عائدين بعد تنفيذ إعدام، وكان أصدقاء يانغ شيونغ الذين خلعوا عليه أشرطة حمراء وقدموا له تهانيهم يرافقونه في طريق عودته إلى البيت.

في أثناء مرور الموكب أوقفه داي زونغ ويانغ لين وجماعة من الناس، وقد حملوا أكواب الشراب في أيديهم، عند نقطة تقاطع. وبرز سبعة أو ثمانية من الجنود من شارع جانبي بقيادة تشانغ باو المعروف باسم رافس الغنمة حتى الموت. كان عضوا في الحامية المكلفة بحراسة جدران المدينة. وكان أصدقاؤه الخلَّص من المتسكعين المعوزين من داخل المدينة وخارجها ممن يبتزون المال على الدوام. وقد تعرض تشانغ للتأنيب رسميا مرات عديدة من دون جدوى. وقد ضايقه أن يانغ شيونغ، وهو ليس من السكان المحليين، يرهب الناس جانبه ويقدمون له آيات الاحترام.

وإذ رأى الآونة أن ذلك الشخص من هينان يُمطر بالهدايا، في حين أنه محاط بعصابة من الأوغاد نصف السكارى، فقد عزم على أن ينفس عن غضبه. فشقَّ لنفسه طريقا وسط حشد أولئك الناس لدى نقطة التقاطع وصاح: "احتراماتي، يا آمر السجن".

قال يانغ شيونغ: "تعال وشاركنا الشراب، يا أخي".

- لست أطلب منك خمرة، بل مائة ربطة من النقد!

- على الرغم من معرفتي بك يا أخي، فليس بيننا أي صفقات نقدية. فكيف تطلب مني نقودا؟

- لقد اعتصرت ثروة من المال من الناس هذا النهار. فلم لا تقاسمني إيّاها؟

- الناس هم الذين يعطونني إيّاها، وأنا لم أعتصر شيئا. فماذا تحاول أن تستفزّ؟ أنت عسكري وأنا مدني. وليس بيننا أي رابطة.

لم يعطه تشانغ باو جوابا، بل استدعى رجاله الذين اندفعوا هاجمين واستولوا على الهدايا والقماش المقصَّب. فصاح يانغ شيونغ، وقد ثار سخطه، وتقدم للتدخل في الموضوع: "أيها الأوغاد الأفظاظ!". فقبض عليه تشانغ باو من مقدمة ثوبه، في حين قبض وغدان على ذراعيه من الخلف. وكانت هجمة الحشد قوية، فانفتل الحراس وهربوا. وحين بقي يانغ شيونغ من دون حول أو قوة، أرغى وأزبد، عاجزا عن الإفلات.

وفيما كانت هذه الفوضى تضرب أطنابها اقترب فتى ضخم البنية يحمل حزمة من الحطب على حمالة للكتفين، ورأى الأوغاد قابضين على يانغ شيونغ، فثارت حميته، ووضع حمل الحطب على الأرض واندفع وسط الحشد مستفهما: "فيم هاجمتم آمر السجن؟".

حملق تشانغ باو فيه: "أيها المتسول البائس الحقير، ما علاقتك بهذا الأمر؟".

ثارت غضبة الفتى الضخم، فرفع تشانغ من شعره ورماه على الأرض. وقبل أن يتمكن رجاله من الاقتراب للدفاع عنه انهالت ضربة منه على كل واحد منهم فجعلتهم يترنحون على الأرض. وما إن تحرر يانغ شيونغ من أسره حتى استخدم براعته. فجعلت قبضتاه تتحركان مثل الوشيعة وتلقيان

الأوغاد ذات اليمين وذات اليسار. وساءت الأمور بالنسبة إلى تشانغ باو، فزحف على قدميه وأطلق للريح ساقيه. فلحق يانغ شيونغ به بخطوات سريعة، ولحق تشانغ بالرجال الذين اختطفوا الصرر، واختفى الجميع في أحد الأزقة.

كان الفتى الضخم لا يبرح يتهادى على مهلته عند تقاطع الطرق. فراقبه داي زونغ ويانغ لين في انشداه قائلين: "يا له من رجل! حقا هو واحد من الذين يرون الظلم فيهبون إلى المعركة". واقتربا منه قائلين: "أيها المقاتل المقدام، نرجوك أن تقف". أوقفاه عند أحد الأزقة، والتقط يانغ لين ما كان يحمله من حطب، وأمسك داي زونغ بذراعه وقاده إلى حانة. ووضع يانغ لين حمل الحطب ولحق بهما إلى الداخل. فضمَّ الفتى الضخم يديه امتنانا: "شكرا لكما، يا أخوي، لإخراجكما إياي من تلك الورطة".

قال داي زونغ: "نحن غريبان هنا. وحين رحنا نبدي إعجابنا بشجاعتك خشينا أن تنهال ضربا على أحد الأشخاص فتورده حتفه، وهكذا عمدنا إلى إبعادك. نرجو أن تحتسي بضعة أكواب من الشراب معنا. وباعتبار أننا التقينا، فلنكن أصدقاء".

- أنتما لم تساعداني وحسب، بل لقد دعوتماني إلى الشراب. وهذا ليس من العدل في شيء.

وقال يانغ لين: "جميع الرجال إخوة ضمن حدود البحار الأربعة. فلا ينبغي أن تتحدث على هذا الغرار. أرجوك أن تجلس".

ألحَّ عليه داي زونغ أن يجلس في رأس المائدة، ولكن الفتى رفض ذلك. وأخيرا اتخذ داي زونغ ويانغ لي مجلسهما هنالك، وجلس ضيفهما قبالتهما. استدعيا النادل، وأعطاه يانغ لين قطعتين من الفضة.

- لا تسألنا ماذا نريد. أحضر أي طعام يناسب الشراب، وسجل ذلك في حسابنا.

قبض النادل على النقود وذهب، ورجع بعد قليل بأطباق من الخضراوات ومشهيات عديدة تتماشى مع الشراب. وجرع الرجال الثلاثة عدة أكواب.

استفسر داي زونغ: "ما اسمك، يا سيدي؟ ومن أين أنت؟".

- اسمي شي شيو. ومنزلي في ولاية جيانغكانغ في جيلين. ومنذ طفولتي أحببت السلاح. وحيثما وقع بصري على الظلم أشعر أن من واجبي مد يد العون، فأسموني نتيجة لذلك المتهوِّر. كنت مسافرا برفقة عمي الذي يبيع الخراف والخيول، ولكنه قضى نحبه على الطريق، وما أسرع أن خسرت رأس مالنا فما استطعت العودة إلى البيت، فأقمت هنا في كيتشو أبيع الحطب لأعيش. وباعتبار أنكما شرفتماني بالتعرف إليكما، فإن ما أقوله لكما هو الحقيقة الصراح بعينها.

قال داي زونغ: "جاءت بنا إلى هذه الأرجاء قضية خاصة، الأمر الذي أتاح لنا فرصة لقائك ورؤية شجاعتك. غير أنك لن تثرى من جراء بيع الحطب. فلم لا تنضم إلى أخوية الشجعان وتسعد البقية الباقية من حياتك؟".

- لدي شيء من الموهبة في استخدام السلاح، ولا أملك شيئا آخر. فكيف يمكن أن أطمح إلى السعادة؟

- في هذه الأيام لا يستحق إصلاح الأمور جهدا ومشقة، فالإمبراطور الفاسد يحبسه موظفوه الأشرار في الظلمة. وذكائي غير واضح بصورة جلية، ولكنني عمدت إثر نزوة عابرة إلى الانضمام إلى عصبة سونغ جيانغ في بحيرة ليانغشان. ونحن الآونة نتقاضى حصصا متساوية من الذهب والفضة، كما نتلقى مجموعات كاملة من الثياب. وعاجلا أم آجلا سيعلن البلاط الإمبراطوري عن عفو عام ونحصل على مناصب رسمية.

أرسل شي شيو زفرة: "أحب أن أذهب، ولكني لا أعرف كيف أنضم".

- إن كنت تود الانضمام حقا ففي مستطاعي أن أكتب لك رسالة توصية.

- هل أجرؤ، أيها السيدان، فأسأل عن اسميكما؟

- أنا أدعى داي زونغ، وأخي هذا يدعى يانغ لين.

- ألست المسافر الأعجوبي المشهور بين الرجال الشجعان؟

فأعلن داي زونغ: "أنا ذلك الإنسان المتواضع". وطلب إلى يانغ لين أن يخرج عشر أوقيات من الفضة من صرتهما ويعطيها إلى شي شيو ليمارس مهنته بوساطتها.

ألحا على شي شيو كثيرا قبل أن يقبل بعض النقود. ولما كان قد عرف هوية داي زونغ فقد استبدت به الحماسة للحديث عن الانضمام إلى العصبة. وفي هذه اللحظة بالذات سمعت أصداء فرقة تفتيشية خارج الحانة تطرح مختلف الأسئلة.

فألقى داي زونغ والآخران نظرة. كان يانغ شيونغ برفقة أكثر من عشرين شرطيا. وشرع هؤلاء بدخول إلى الحانة. وفزع داي زونغ ويانغ لين من ذلك العدد الكبير، فانتهزا فرصة الجلبة وانسرقا خارجين.

نهض شي شيو وألقى التحية على يانغ شيونغ: "من أين أنت آت، يا آمر السجن؟".

- لقد كنت أفتش عنك يا أخي، في حين جلست أنت هنا تشرب الخمرة. قبض أولئك الأوغاد على ذراعي فما استطعت الحركة إلى أن هببت إلى نجدتي. وركضت خلفهم لاسترداد صرري واضطررت أن أخلفك وحيدا. وحين رأى أولئك الإخوة أني انهلت عليهم لكما وضربا هربوا، واستعدت أنا هداياي وقماشي المقصَّب. وحين رجعت لم أعثر لك على أثر. وقال لي أحدهم: دعاه مسافران إلى تناول الشراب معهما، وهكذا جعلنا نفتش الحانات كلها.

- إنهما من خارج هذه المدينة، ودعواني لتناول قليل من الشراب. كنا نتبادل الحديث. ولم أعرف أنك تفتش عني.

كانت فرحة يانغ شيونغ عامرة بالعثور على شي شيو. فسأله: "ما اسمك، يا سيدي؟ وأين منزلك، وماذا تفعل في هذا المكان؟".

ذكر له شي شيو قصته التي رواها لداي زونغ ويانغ لين.

استوضح يانغ شيونغ: "وأين ذهب المسافران؟".

- شاهداك برفقة عدد كبير من الناس، فخشيا أن تحدث متاعب فذهبا.

فخاطب يانغ شيونغ رجال الشرطة قائلا: "قولوا للنادل أن يحضر جرتين من الخمرة، وليتناول

كل واحد منكم ثلاث طاسات كبيرة. وعندها اتركوني هنا. وسأراكم في الغداء".

شرب الرجال ورحلوا. والتفت يانغ شيونغ إلى شي شيو قائلا: "لا ينبغي أن تعاملني معاملة الغرباء. يخال لي أنه ليس لديك أقرباء هنا. فلنعتبر نفسينا أخوين بالدم. ما رأيك؟".

سرَّ شي شيو، واستفهم: "هل أسألك عن عمرك، يا آمر السجن؟".

- تسعة وعشرون.

- وأنا في الثامنة والعشرين. أرجوك أن تجلس وتتقبل سجودي لك كأخيك الأصغر.

وسجد شي شيو أربع مرات. فاغتبط يانغ شيونغ أيما اغتباط، وأمر النادل أن يحضر خمرة ومشهيات، وخاطب شي شيو قائلا: "ينبغي أن نواظب اليوم على الشراب إلى أن تنفرج همومنا ويضطرب ذهننا".

وفيما هما يتعاطيان الشراب دلف المعلم بان، والد زوجة يانغ شيونغ، برفقة ستة رجال. فنهض يانغ شيونغ: "ماذا تراك تفعل هنا، يا عمي؟".

- سمعت أنك اشتبكت في معركة، فجئت للمساعدة.

- شكرا لهذا الأخ الذي أنقذني. لقد لقَّن تشانغ باو درسا جعل أولئك الأوغاد يرتعشون من خياله. وقد اعتبرت وشي شيو نفسينا أخوين بالدم.

- رائع. عظيم. قدِّم لهؤلاء الذين رافقوني قليلا من الخمرة.

أمر يانغ شيونغ النادل أن يقدم لكل واحد منهم ثلاث طاسات من الخمرة. وشرب الرجال ورحلوا. وسأل يانغ عندها حماه أن يتخذ مقعدا إلى جانب المنضدة. وجلس هو في رأسها، وجلس شي شيو قبالته. وصبَّ النادل الخمرة. ورأى بان ما عليه شي شيو من نموذج بطولي ضخم، وأحب نظراته. فقال: "لن يخطئ صهري إذا تعاونتما معا. ولن يجرؤ أحد على معارضته خلال القيام بواجباته الرسمية". وما لبث أن استوضح: "ما هو عملك؟".

- كان والدي جزارا.

- هل تعرف كيف تسلخ الجلود؟

ضحك شي شيو: "من دون ريب. فقد نشأت في أسرة من الجزارين".

- كنت، أنا نفسي، جزارا. ولكنني شخت. وليس لديَّ غير صهري هذا، وهو ضابط. وهكذا اضطررت إلى ترك ذلك العمل.

شرب الثلاثة إلى أن سكروا، وكبر الحساب. فأعطى شي شيو النادل حمل الحطب لقاء فاتورة الخمرة. ومشى الجميع إلى منزل يانغ شيونغ.

نادى بعدما دلفوا إلى البيت: "أيتها الزوجة، تعالي وقابلي شقيق زوجك الأصغر".

أجاب صوت من وراء السجف: "منذ متى كان لك شقيق أصغر؟".

- لا تسألي. تعالي.

رُفِعت ستارة الباب وبرزت من ورائها امرأة صبية. كانت قد أبصرت النور في اليوم السابع من الشهر السابع، فأسموها السحابة الذكية. وكانت من قبل زوجة لموظف صغير في ولاية كيتشو يدعى

وانغ. وبعيد سنتين توفي فتزوجت من يانغ شيونغ. وقد مرَّ على زواجهما أقلُّ من سنة.

حياها شي شيو في احترام: "أرجو أن تجلسي، يا امرأة الأخ". وهوى على ركبتيه يهمُّ بالسجود.

احتجَّت السحابة الذكية قائلة: "أنا صغيرة، فكيف أتقبل تحيتك؟".

قال يانغ: "لقد جعلت منه اليوم أخا لي بالدم. وهذا يجعلك زوجة أخيه. ويمكن أن تتقبلي منه نصف الاحترام كله".

سجد شي شيو أربع مرات كمن يدفع جبلا ذهبيا، ومثل عمود من اليشم يهوي على الأرض. فردت له المرأة الصبية نصف التحية. ودعي إلى الرواق ريثما جهزت له حجرة، وطلب إليه بعد ذلك أن يلجأ إلى الراحة. ويكفينا هذا الحديث الرتيب.

في اليوم التالي، وفيما يانغ يغادر الدار إلى عمله، أصدر تعليماته إلى أهل بيته: "اصنعي ثيابا وغطاء للرأس لشي شيو". كما طلب إحضار أمتعة الضيف وصرره من الخان.

أما داي زونغ ويانغ لين فما إن غادرا الحانة حتى رجعا إلى خانهما خارج المدينة ولجآ إلى الراحة، وتابعا تفتيشهما عن غونغسون في اليوم التالي. ولكنهما لم يلتقيا طوال يومين متعاقبين أحدا يعرفه، كما أنهما لم يحصلا على أي نبأ حول المكان الذي ذهب إليه. وتشاورا في الأمر، وجمعا متاعهما وغادرا كيتشو في اليوم ذاته إلى وادي منهل الحصان. وهنالك انضما إلى بي شيوان ودنغ في ومنغ كانغ ورجالهم، وتنكر الجميع في ثياب ضباط حكوميين، وانطلقوا متجهين إلى بحيرة ليانغشان في تلك الليلة ذاتها.

لقد قام داي زونغ بمأثرة تثير الإعجاب حين جاء بمثل هذه القوة الكبيرة من الرجال والخيول إلى الجبل، وأقيمت مأدبة احتفالية. ونغلق الحديث حول هذا الموضوع.

عرض المعلم بان على شي شيو اقتراحا فقال: "في نهاية الزقاق المسدود وراء منزلنا ثمة بناء خاو وهنالك بئر ماء رائعة في متناول أيدينا، وفي المستطاع إقامة دكان لبيع اللحوم، وفي مقدورك الإقامة هنا ورعاية كل شيء".

تفحص شي شيو المكان. كان في الحقيقة مثاليا. وعثر بان على مساعد عجوز ماهر من مساعديه للقيام بالعمل الثقيل. وأعلن أن شي سيكتفي بمسك الحسابات فوافق الشاب على ذلك. وترك للمساعد أن يزخرف المناضد، والأحواض، ولوحات التهريم باللونين الأسود والأخضر، وسن جميع السكاكين وترتيب النضد. ونظم شي شيو حظائر البهائم وأحضر دستة منها. وافتتح الدكان رسميا في يوم ينذر بالسعد. وجاء الجيران والأقارب مهنئين وعلقوا أعلاما خفاقة حمراء. وتبع ذلك يومان من الاحتفالات العامرة بالشراب.

ابتهج يانغ شيونغ وأسرته بإدارة شي شيو للدكان. وليس لدينا ما نتحدث به كثيرا عن هذا الموضوع. فكان بان وشي يقومان بأعمال الشراء والبيع، ومرت الأيام مسرعة. وسرعان ما انقضى شهران كاملان. كان الزمن أخريات الخريف وبدايات الشتاء. فأبدل شي شيو ثيابه بثياب جديدة داخلية وخارجية.

وذات صباح، نهض في فترة الحراسة الخامسة وانطلق إلى مقاطعة أخرى لشراء البهائم. ورجع بعيد ثلاثة أيام فرأى الدكان مغلقا ولوحات التهريم والسكاكين مختفية. كان ثاقب الفكر، ويحتفظ بخططه في الكتمان. فهمس في سره: "كما يقول المثل القديم: الأيام الطيبة لا تدوم إلى الأبد، كما أن الزهور جميعا تذبل وتموت. وأخي منهمك على الدوام في عمله ولا يبالي بالقضايا العائلية. ولما كنت قد ابتعت ثيابا جديدة فلا ريبة أن زوجة أخي تتحدث عني بالسوء في غيابي. ولا بدَّ أن أشخاصا معينين ينشرون عني الأقاصيص لأنني تغيبت يومين. إنهم يشكّون فيَّ، ولهذا أغلقوا الدكان. ففيم أنتظرهم أن يقولوا ذلك صراحة؟ سأقدم استقالتي وأذهب إلى بيتي. وكما يقول المثل القديم: من يبغي أن يداوم على الشيء ذاته حياته بأسرها؟".

قاد البهائم إلى الحظيرة، وبدّل ثيابه، وحزم أمتعته، ودوَّن حسابا مفصلا، ودلف إلى المنزل العائلي عبر الباب الخلفي. كان المعلم بان قد أدَّب مأدبة بسيطة، فدعا شي إلى الجلوس والشراب.

قال بان: "لقد قمت برحلة طويلة قاسية لاستحضار هذه البهائم".

- أنا لم أفعل أكثر من واجبي، يا سيدي الشيخ. وإليك حساباتي. فلتصعقني السماء إن احتفظت بفلس واحد لنفسي.

- ما هذا الكلام الذي تتفوه به؟ ليس هنالك من يسألك عن شيء.

- لقد تغرَّبت عن بيتي ست أو سبع سنوات. وحان أوان عودتي إليه. وأنا أسلمك حساباتي. في هذه الليلة سأغادر أخي، وفي صباح الغداة أرحل.

ضحك الرجل الشيخ: "لقد أخطأت فهمي. ينبغي أن تبقى هنا. ولأشرحنَّ الأمر لك".

تكلم بان عدة كلمات. ونتيجة لذلك، عمد محارب إلى إرسال راهب شرير إلى أعماق الجحيم عرفانا بجميل المحسن إليه.

ماذا كانت تلك الكلمات التي نطق بها المعلم بان أمام شي شيو؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الخامس والأربعون

يانغ شيونغ السكران يوبخ السحابة الذكية بعنف؛
وشي شيو يقتل في مكر بي رو هاي

قال المعلم بان: "أعرف ما تفكِّر فيه. لقد رجعت إلى البيت بعد غياب يومين كاملين ووجدت أن جميع أدوات العمل رفعت من مكانها. وبديهي أنك تصوَّرت أننا قد أغلقنا الدكان، فعقدت العزم على الرحيل. حتى ولو لم يكن عملنا طيبا كما هو عليه الآن، وحتى لو أغلقنا الدكان حقا، فلسوف نبقيك ههنا في بيتنا. وحقيقة الأمر هي كما يلي: اليوم هو الذكرى الثانية لوفاة وانغ الكاتب، زوج ابنتي الأول. وسوف نقوم بتلاوة بعض الصلوات على روحه، وهذا هو السبب الذي دعانا إلى إغلاق الدكان لفترة يومين. طلبنا إلى بعض الرهبان أن يحضروا في الغداة من دير الثواب والعقاب لإقامة قداس، ونحبُّ أن تولي هذا الموضوع رعايتك. لقد أشاختني السنون بصورة لا تمكنني من السهر الليل بطوله. وخطر لي أن أخاطبك في هذا الموضوع أولا".

- على ضوء ما قلته لي، يا سيدي الشيخ، سأبقى فترة أخرى.

- لا تأذن لأوهامك أن تشتطَّ بك في المستقبل. ولا تفعل غير ما يتوافق ووضعك الراهن.

احتسيا عدة أقداح من الخمرة، وأكلا بعض أطباق الخضراوات، فوضعا بذلك حدا للقضية.

في صباح اليوم التالي جاء إخوة علمانيون يحملون الكتب المبجلة، وأعدوا المكان للاحتفال. فأقاموا أنصابا وأدوات للتضحية وطبولا وأبواقا وأجراسا وسواها؛ وبخورا، وزهورا، ومصابيح، وشموعا. وجهزت في المطهى أطباق خالية من اللحم.

رجع يانغ شيونغ في ساعة متأخرة من عصر ذلك النهار، وخاطب شي شيو قائلا: "يجب أن أناوب على عملي في السجن هذه الليلة. ولن أستطيع البقاء هنا. فهل أستطيع، يا أخي، أن أعهد إليك بالإشراف على الأمور؟".

- هوِّن عليك. سأشرف على الأمور بدلا عنك.

رحل يانغ شيونغ، ووضع شي شيو نفسه عند البوابة الأمامية. وفيما الفجر ينبلج في اليوم التالي دفع راهب شاب ستارة البوابة جانبا ودلف إلى الباحة. ضمَّ راحتي يديه إلى بعضهما في ورع على الطراز البوذي، وانحنى انحناءة عميقة أمام شي شيو، فردَّ له التحية.

- أرجو أن تجلس، أيها المحترم.

ولحق بالراهب أخ علماني يحمل صندوقين معلقين في طرفي حمالة للكتف.

نادى شي شيو: "أيها السيد الشيخ، ثمة راهب يودُّ رؤيتك".

خرج المعلم بان فحيّاه الراهب: "لِمَ لَمْ نرك في ديرنا، يا عرّابي؟".

- لم يتوفَّر لي الوقت منذ افتتاح هذا الدكان.

- جئت ببعض الهدايا التافهة للاحتفال بذكرى رحيل الكاتب. قليل من العصائبية وبعض رزم البلح.

فقال الشيخ: "آه، يا محترم، لم يكن ثمة ما يدعو إلى إنفاق شيء من المال".

وخاطب شي شيو قائلا: "أرجو أن تأخذها نيابة عني".

حمل شي شيو الرزم إلى الداخل. وأمر أحد الخدم أن يحضر الشاي ويقدمه للراهب.

في هذه الأثناء نزلت الفتاة من الطابق العلوي. كانت ترتدي لباسا مأتميا خفيفا مزخرفا، ورشت على وجهها شيئا من المساحيق بما يتناسب وامرأة تزوجت مرة أخرى. وتوجهت إلى شي شيو سائلة: "من أين هذه الهدايا؟".

- من راهب أسمى والدك "عرّابه".

ابتسمت الفتاة: "لا ريبة أنه بي رو هاي، المعروف بلقب المدرِّس. وهو راهب ورع إلى أبعد حدود الورع. كان يشرف على إدارة مخزن أسرته لبيع خيوط الحرير قبل أن ينضم إلى رهبنة دير الثواب والعقاب. ولأن رئيسه كان أسقفا دنيويا، فإن في مقدور رو هاي أن يسمي والدي عرّابه. وهو يكبرني بعامين. وأنا أدعوه بأخي المحترم. واسمه في الرهبنة المعلم هاي. رويدك حتى تسمعه يترنَّم هذه الليلة. إن له صوتا جميلا".

قال شي شيو في سره: "هكذا الأمر إذاً". لقد أدرك جزءا من عشرة أجزاء مما كان يعدُّ في الخفاء.

خرجت للقاء الراهب. شبك شي شيو يديه وراء ظهره، ولحق بها إلى الباب، وجعل يراقب من وراء ستارته. نهض الراهب عندما بدت الفتاة، وجمع راحتيه وانحنى.

قالت الفتاة: "لا يحقُّ لك أن تنفق نقودا على شراء الهدايا".

- إنها أشياء تافهة، يا أختاه، ولا تستحقّ الذكر.

- كيف يمكن أن تقول مثل هذا الكلام؟ لا ينبغي أن نتقبل الهدايا من رجل تخلّى عن هذا العالم.

- لقد أشدنا ردهة جديدة لأرواح الموتى في البر والبحر. ونتمنى أن تشرفينا بزيارة للاطلاع عليها. ولكنَّ ناظر السجن قد لا يوافق على ذلك.

- ليس على هذه الدرجة من ضيق التفكير. فعندما كانت أمي تحتضر وعدت بإقامة الصلوات على أرواح أولئك الذين انطوت أعمارهم في أثناء الولادة. كنت أنتوي الذهاب إلى معبدكم والطلب إليك القيام بذلك.

- مثل هذه الصلوات من صميم واجباتي، ولن يضايقني القيام بها. مريني وحسب.

- إذاً أرجو أن تترنّم بشيء من الصلوات عن روح أمي.

قدمت خادمة صغيرة الشاي. مسحت السحابة الذكية حافة القدح بمنديلها، ثم قدمته باحترام بكلتا يديها إلى الراهب الشاب، فتطلع بجرأة وجشع في عينيها، وردت له النظرات مبتسمة.

يقول المثل: "الشبق يولِّد تهورا من غير حدود". فقد لحظ شي شيو ذلك كله من وراء ستارة الباب. وخمَّن حتى الآن عُشْرَيْن من عشرة أعشار. وحدَّث نفسه قائلا: "لا يصدقنَّ المرء أنه ليس في الاستقامة غير الإخلاص. حذارِ. ليبدونَّ أن الإثم يترصَّدُ وراء مظهر الفضيلة. لقد لمزتني تلك الفتاة بتلميحات عديدة مرارا، ولكنني عاملتها بصرامة وكأنها زوجة أخي. إذاً، إنها بغي لا أخلاق لها! إن قبضت عليها فلا تحسبنَّ أني لن أتصرَّف في صالح يانغ شيونغ!".

فكَّر في الأمر مليا، فصحَّتْ لديه ثلاثة أعشار. رفع ستارة الباب ودلف خارجا. فوضع الراهب قدح الشاي في عجلة، وخاطبه قائلا: "يا سيدي، أرجو أن تجلس".

وأوضحت الفتاة: "إن أخا زوجي أخ جديد له بالدم".

سأل الراهب في شيء من الوقار المؤدب: "من أين أنت، يا سيدي؟ وما اسمك؟".

فجاءه الجواب المقتضب الجاف: "شي شيو، من جينلينغ. ولأنني أحارب الظلم، ولو لم تكن لي به أية علاقة، فقد لقبوني بالمتهوِّر. أنا امرؤ فظ لا أجيد شيئا من آداب السلوك، فاعذرني".

قال الشاب في نبرات مستعجلة: "أبدا، أبدا! ينبغي أن أحضر بعض الرهبان للاحتفال". واتجه ناحية البوابة.

صاحت الفتاة: "لا تطل غيبتك أيها الأخ المحترم".

أسرع خطواته منصرفا من دون أن يعطيها جوابا. رافقته الفتاة حتى البوابة، ثم رجعت إلى المنزل. وقف شي شيو خارج الباب وقد أحنى رأسه متفكرا. لقد وصلت ثقته إلى أربعة أعشار.

بعد فترة من الزمن جاء شمّاس وأشعل الشموع وأحرق البخور. ولم يمض زمن طويل حتى أطلَّ المدرِّس هاي برفقة عدد من الرهبان. طلب المعلم بان من شي شيو استقبالهم. وبعدما ترشفوا الشاي جعلوا يضربون الطبول وينفخون الأبواق وينشدون الأشعار في مديح الموتى الراحلين. وقام هاي وراهب آخر شاب بقيادة الإيقاع. فهما يقرعان الأجراس، ويحرقان الصلوات للآلهة، ويقدمان طعام القربان للمدافعين عن السماء والحارس الرئيس للمذبح السماوي، متوسلين لدخول روح وانغ الكاتب الراحل السماء سريعا.

دخلت السحابة الذكية الحديقة، وقد خلعت على نفسها زينة بسيطة. أشعلت عود بخور غرزته في مبخرة صغيرة حملتها في يديها، وتلت صلاة أمام الوثن. فأثار ذلك منها حماسة المدرِّس هاي إلى ذروتها. فقرع أجراسه وصبَّ في صوته نبرة كاملة. وجعلت رؤية السحابة الذكية الحلوة، وهي تتماوج في ورع، الرهبان الآخرين يترنحون ويشدهون.

عندما انتهت صلوات التضرع للموتى دعي الرهبان إلى الداخل لتناول الطعام. جلس هاي وراء الآخرين، وأدار رأسه، وتطلع إلى الفتاة، وابتسم. فوضعت يدها فوق فمها تكتم ابتسامة. وتبادلت عيونهما نظرات الوله والغرام.

لحظ شي شيو ذلك كله، فتأكَّد خمسة أعشار. قُدِّمت لكل من الرهبان عدة أقداح من الشاي مع الطعام المؤلف من الخضار، وقليل من المال. وأعلن المعلم بان أنه متعب، ولجأ إلى غرفته. وحين انتهى الرهبان من طعامهم خرجوا يقومون بجولة تساعدهم على الهضم، ورجعوا من بعد إلى

ساحة الاحتفال. وصلت شكوك شي شيو إلى ستة أعشار. ادعى أن معدته تؤلمه، واستلقى في غرفة تقع وراء جدار فاصل.

ثارت أهواء السحابة الذكية فما عادت تبالي إن كان أحد يراقبها أم لا.

أحضرت للرهبان شايا وفواكه وكعكا، وكانوا قد جعلوا من جديد يضربون الطبول وينفخون في الأبواق. واستحثهم هاي على الانصراف كلية إلى صلواتهم وابتهالاتهم، واستمرت الشعائر الدينية. وحين انتصف الليل كان التعب قد استولى على الرهبان الآخرين وأنهك أجسادهم، أما هاي فكان في ذروة نشاطه. رفع صوته بالدعاء عاليا بنبرة واضحة. واشتعلت السحابة الذكية، وقد وقفت إلى جانب ستارة الباب زمنا طويلا، رغبة وهوى، فأمرت خادمتها الصغيرة أن تخبر الأخ المحترم هاي أنها راغبة في الحديث إليه. فأسرع النذل إليها.

وضعت يدها على كمِّه قائلة: "حين تجيء غدا لقبض نقود القداس الاحتفالي تستطيع أن تخاطب والدي بشأن تلك الصلوات عن روح أمي. لا تنس".

فقال الراهب الشاب: "لن أنسى. سأقول: إذا كنا سنحقق لها رغبتها، فينبغي أن نفعل ذلك سريعا". ولم يلبث أن أضاف: "ذلك الأخ لزوجك يبدو جلفا".

أخفضت الفتاة رأسها: "لا تلقِ إليه بالا. فهو ليس بقريب حقيقي".

قال هاي: "إذاً لن أقلق". ودسّ أصابعه في كُمِّ الفتاة وقرص يدها.

فاتخذت من ذلك ذريعة لجذب ستارة الباب بينهما. فكشَّر ذلك الوغد حليق الرأس، ورجع يكمل صلواته على الميت.

لم يغفل شي شيو، وقد تظاهر بالنوم وراء الحاجز، عن شيء مما جرى. وصلت قناعته إلى سبعة أعشار. وانتهى الاحتفال في فترة الحراسة الخامسة. وبعدما نقل الوثن وأحرقت النقود الورقية، شكر الرهبان مضيفهم ورحلوا، وصعدت السحابة الذكية إلى فراشها في الطابق العلوي.

خاطب شي شيو نفسه ساخطا: "الأخ يانغ شيونغ شهم، ولكن امرأته شهوانية داعرة". كتم غيظه، ورجع ينام في دكان اللحوم.

في اليوم التالي رجع يانغ شيونغ إلى منزله، ولكن شي شيو لم يتفوّه بكلمة واحدة. وبعيد تناول الطعام خرج يانغ مرة أخرى، ورجع المدرِّس هاي من جديد وقد خلع على جسده عباءة جديدة. حين سمعت الفتاة بمقدمه نزلت السلّم مسرعة، وهرولت تستقبله، ثم دعته إلى البيت وأمرت له بالشاي. قالت: "لا ريبة أنك مضنى القوى من جميع تلك الاحتفالات في الليلة الماضية، أيها الأخ المحترم. كما أننا لم ندفع لك بعد".

- هذا أمر لا يستحق الذكر. لقد جئت بشأن تلك الصلوات التي رغبت والدتك في تلاوتها. اكتبي لي ما تريدين قوله، وسأقوله ضمن التراتيل التي نتلوها في الدير.

قالت السحابة الذكية: "رائع". وأمرت الخادمة الصغيرة أن تطلب إلى والدها الانضمام إليهما.

دخل المعلم بانِ وشكر الراهب، ثم اعتذر قائلا: "لم أستطع البقاء حتى ساعة متأخرة ليلة البارحة، فاضطررت إلى مغادرتكم. لم يخطر لي أن يصاب شي شيو بمرض في معدته. لقد بقيتم من

دون من يرعى شؤونكم، وأنا شديد الأسف".

- لا يشغلنّك التفكير في هذا يا عرّابي.

قالت الفتاة: "أريد تنفيذ رغبة أمي في إقامة الصلوات على أرواح النساء اللواتي انطوت أعمارهنَّ خلال الولادة. والأخ المحترم يقول إنه قادر على تضمين ذلك في الصلوات التي سيرتلها في معبد الدير غدا. أقترح أن يعود الآن، وفي الغداة، بعد الفطور، سأقوم بزيارة المعبد معك وحضور الصلاة. وسنقوم بواجبنا".

قال المعلم بان: "حسن. ولكنني أخشى أن نكون مشغولين بدكان اللحوم غدا، ولن يكون هنالك من يسلّم النقود".

- لديك شي شيو. فما الذي يقلقك؟

- أمنيتك هي رغبتي، يا ابنتي. سنذهب غدا.

أعطت السحابة الذكية هاي قليلا من الفضة وقالت: "أرجو ألا تعتبره مبلغا ضئيلا. لعلك تهيئ لنا عصائبية من دون لحم لدى زيارتنا للدير غدا".

نهض هاي واقفا: "سأترقب في احترام وصولكما لإحراق البخور. لكما جزيل الشكر. سأوزع هذه النقود بين الرهبان الآخرين وأنتظر زيارتكما بصبر نافد".

رافقته الفتاة إلى خارج البوابة.

نهض شي شيو في دكان اللحوم، ونحر البهائم، وأشرف على العمل. في ذلك المساء رجع يانغ شيونغ. وبعدما أنهى عشاءه وغسل قدميه ويديه طلبت الفتاة من أبيها أن يتحدث إليه. فقال المعلم بان: "حين كانت زوجتي تحتضر وعدتها ابنتي بأن تقيم الصلوات في دير الثواب والعقاب من أجل النساء اللواتي انطوت أعمارهن في أثناء الولادة. سأذهب إلى هنالك غدا برفقة السحابة الذكية للقيام بذلك. وخطر لي أن أنبئك بهذا".

قال يانغ مخاطبا الفتاة: "كان يمكن أن تخاطبيني بهذا الموضوع مباشرة".

- لم أجرؤ على ذلك. خشيت أن تغضب.

لم يتطرق الحديث إلى شيء آخر ذلك المساء، وأوى الجميع إلى مضاجعهم. وفي اليوم التالي، في فترة الحراسة الخامسة، نهض يانغ وذهب ليثبت وجوده في المكتب ويباشر أداء واجباته. ونهض شي شيو بدوره وبدأ أعمال دكان اللحوم.

حين نهضت الفتاة من فراشها تجملت بصورة مغوية، وخلعت على جسدها أبهى ثيابها. وحملت مبخرة، واشترت بعض النقود الورقية والشموع واستدعت محفة. كان شي شيو منهمكا في عمله في الدكان، فما أعطاها من اهتمامه شيئا.

بعيد الفطور ألبست السحابة الذكية خادمتها الصغيرة ينغ آر. وحين انتصف الصباح أبدل المعلم بان ثيابه. وذهب إلى شي شيو قائلاً: "هل يمكن أن أعهد إليك بمراقبة بابنا؟ أنا ذاهب برفقة ابنتي لإقامة الصلاة في المعبد. وسنعود بعد إنجاز ذلك".

تبسم شي شيو: "سأراقب المنزل، فاعتنِ أنت بامرأة أخي. أحرقا الكثير من البخور الطيب

وارجعا بسرعة". وبلغت ثقته ثمانية أعشار.

مشى المعلم بان وينغ آر إلى جانب المحفة في طريقهما إلى معبد الثواب والعقاب. من أجل السحابة الذكية وحدها تبنى المدرِّس هاي، ذلك الحليق الرأس كالأفعى، المعلم بان عرَّابا له. ولكن يقظة يانغ شيونغ أعجزته عن الوصول إليها. وعلى الرغم من أنه والفتاة يتبادلان نظرات ذابلة منذ أن غدت "أخته" المتبناة، فإن الأمور بينهما لم تذهب أبعد من ذلك. وفي ليلة القداس الاحتفالي وحدها شرع يشعر أنه بدأ يصل إلى مكان ما. فقد تمّ تحديد تاريخ لقائهما، فعمد ذلك الحليق الرأس الخداع، كما يقولون، إلى شحذ سلاحه والتشمير عن ساعديه.

حين وصل زواره كان ينتظر خارج بوابة الجبل. انفعل فرحة عندما وقعت عيناه على المحفة، فأسرع يلقي التحية.

قال المعلم بان: "أخشى أن نكون متطفلين عليك".

وقالت السحابة الذكية وهي تنزل من محفتها: "جزيل الشكر لك على التعب الذي سبّبناه لك".

أجاب هاي: "أبدا. كنت أتلو الصلوات مع الرهبان الآخرين في ردهة البر والبحر منذ فترة الحراسة الخامسة من دون انقطاع. كنا ننتظر مقدمك يا أختاه، كي نتمكن من إحراق الصلوات. سيكون ذلك عملا مهما".

رافق الفتاة ووالدها إلى الردهة. كان البخور والشموع والأدوات الأخرى جاهزة، وكان الرهبان منهمكين في تلاوة صلواتهم. انحنت السحابة الذكية في احترام أمامهم وقدَّمت ولاءها إلى الكنوز الثلاثة: بوذا، وتعاليمه، والقائمين على نشرها والدعاية لها. وقادها ذلك الحليق الرأس الفاسق أمام وثن إله العوالم السفلية حيث أحرقت الصلوات على روح بعلها الراحل. كما أحرقت النقود الورقية، وأقيمت بعد ذلك للرهبان مأدبة نباتية أحيتها لهم السحابة الذكية.

استدعى هاي اثنين من المترهبنين للقيام بالخدمة وترجى المعلم بان والسحابة الذكية مرافقته إلى جناحه لتناول الطعام. كان يعيش في مكان منعزل عن جناح الرهبان. وكان قد هيأ كل شيء.

نادى حينما دخلوا الغرف: "أحضروا الشاي، أيها الإخوة". فقدم اثنان من المترهبنين الشاي في أقداح ناصعة البياض على صينية قرمزية اللون. وكانت أوراقه هشة رائعة.

بعد الانتهاء من الشاي قال الراهب: "أرجو أن ترافقيني وتجلسي في الداخل، يا أختاه". وقاد الفتاة ووالدها إلى حجرة داخلية صغيرة تضم منضدة من اللك الأسود اللماع، فيما علقت على الجدران عدة لوحات لرسامين مشهورين. وعلى دكة صغيرة وضعت مبخرة فاحمة يحترق بخورها. جلس المعلم بان وابنته عند طرف المنضدة، وجلس هاي عند طرفها الآخر. ووقفت ينغ آر ناحية.

قالت الفتاة:

"جناح مثالي لرجل نبذ هذا العالم. إنه هادئ ومريح".

– أنت تسخرين مني، يا أختاه. كيف يمكن أن يقارن بمنزلكم الرائع؟

قال المعلم بان: "لقد أضنيناك النهار بطوله. ويحسن أن نرجع إلى مأوانا".

لم يلق الراهب إلى هذا الحديث أذنا صاغية فقال: "يا عرابي، لم يكن سهلا عليَّ مجيئكما إلى هنا، ونحن لسنا غرباء تماما. والمأدبة البسيطة التي أقمتها سددت أختي ثمنها. خذا شيئا من العصيدة قبل ذهابكما. أيها الإخوة، عجلوا بذلك الطعام!".

قبل أن يتلفظ بهذه الكلمات أُحضر طبقان عامران بفواكه نادرة، وخضراوات غير مألوفة، وأشتات من المشهيات، ووضعا على المنضدة.

هتفت الفتاة: "يا لها من مائدة! لقد أزعجناك كثيرا".

ابتسم الراهب: "هذا شيء لا حساب له. إنه مجرد تعبير عن ولائي".

صبَّ أحد الرهبان الخمرة، فقال هاي: "أنت لم تحضر إلى هنا منذ زمن بعيد، يا عرابي. يجب أن تذوق هذه".

شرب المعلم بان وقال: "رائعة. يا للعبير القوي!".

- علّمنا أحد أساتذتنا كيف نصنعه. لقد وضعنا للتخمير أربع بوشلات من الأرز أو خمسة. وعندما تغدو جاهزة سنرسل إلى صهرك عدة زجاجات.

- لا ينبغي أن تفعل ذلك.

- ليس لديَّ شيء مناسب أعرضه. أختاه، اشربي على أقل تقدير قدحا من هذه الخمرة.

واسترسل في ملء الأكواب. وألحَّ هاي على السحابة الذكية أن تشرب قليلا.

قالت السحابة الذكية أخيرا: "هذا يكفيني. لا أستطيع أن أشرب المزيد".

قال هاي: "زياراتك نادرة جدا. يجب أن تشربي قدحا آخر".

نادى المعلم بان على حاملي المحفة وقدم لكل منهما قدحا من الشراب.

قال الراهب: "لا تقلق عليهما. لقد أمرت أن توضع لهما في الخارج أطباقاً من الخمرة والعصيدة. استرخ واستمتع، يا عرَّابي. واشرب مزيدا من الخمرة".

لما كان جزء من خطته هو الحصول على الفتاة، فقد قدَّم ذلك الحليق الرأس الخليع خمرة قوية وفعَّالة أكثر من أن يحتملها المعلم بان. لذا، ما إن جرع عدة أكواب أخرى حتى أثمله السكر.

أمر هاي المترهبنين قائلا: "ضعاه في السرير واتركاه ينام ملء جفنيه". فحملاه إلى حجرة هادئة رطبة، وأضجعاه في فراش.

ألحَّ الراهب على السحابة الذكية: "لا تخشي شيئا يا أختاه. اجرعي كوبا آخر من الخمرة".

كانت الفتاة راغبة في ذلك، وكانت الخمرة تثير مشاعرها. فاستفهمت في صوت أجش: "لماذا تريدني أن أجرع المزيد؟".

أجاب الراهب في صوت خفيض: "لأنني أفكّر فيك كثيرا".

قالت الفتاة: "لقد شربت كفاية".

- إن زرت غرفتي أطلعك على سن لبوذا.

- لهذا السبب جئت إلى هنا، لرؤية سن بوذا.

صعد هاي بالسحابة الذكية إلى حجرة نومه. كانت نظيفة مرتبة. وكانت الفتاة قد انخبل لبها

تقريبا. قالت: "يا للروعة! تحافظ عليها جديدة وأنيقة".

ضحك الراهب: "ما ينقصها هو الزوجة وحسب".

ابتسمت السحابة الذكية: "لماذا لا تختار لنفسك زوجة؟".

- وأين أعثر على مثل هذه الحامية؟

- وعدتني أن تريني سن بوذا.

- أبعدي ينغ آر، لأخرجها لك.

قالت الفتاة للخادمة الصغيرة: "اذهبي وانظري إن كان والدي لا يزال سكران". نزلت ينغ آر إلى حيث كان المعلم بان، فأغلق هاي الباب عند رأس السلَّم وأقفله. فضحكت الفتاة: "فيم تحتجزني؟".

فاضت الشهوة في جوانح الحليق الرأس الشرير، فألقى ذراعيه حولها: "أنا أحبك. طوال سنتين قدحت زناد فكري متسائلا عن كيفية الوصول إليك، وها أنت اليوم أخيرا هنا. وهذه فرصة طيبة لا يمكن إفلاتها".

- زوجي رجل قاس. هل تريد أن تدمرني؟ إن عرف بالأمر فسيقضي عليك.

جثا الراهب عند قدميها: "لست أبالي، فارحميني".

رفعت الفتاة يدها: "أيها الراهب الداعر. أنت تجيد مضايقة الناس. سأصفع لك أذنيك".

أهنف هاي ضاحكا: "اضربيني إن طاب لك الضرب. ولكنني أخشى أن تؤذي يدك".

كانت الشهوة قد صهلت في صدر السحابة الذكية، فطوَّقته بذراعيها، وهمهمت: "أكنت تظن أني أقدم على ضربك؟".

حملها وذهب بها إلى الفراش، وخلع عنها ثيابها، وقضى منها وطرا. وبعيد فترة طويلة من الزمن أهطلت السحب أمطارها.

قال الراهب وقد حمل الفتاة بين ذراعيه: "طالما أنك تحبينني، فلن أبالي بالموت. العيب الوحيد في هذا هو أن سرورنا قد انتهى سريعا وأنت اليوم ملكي. لن نستطيع أن نعربد الليل بطوله معا. والانتظارات الطويلة بين اللقاءات ستقتلني".

قالت السحابة الذكية: "هوِّن عليك. لقد رسمت خطةِ. فزوجي يقوم بواجبه في السجن عشرين ليلة في الشهر. وفي مقدوري شراء معونة ينغ آر. سأقيمها ساهرة على البوابة الخلفية كل ليلة. فإن لم يكن زوجي في البيت فستضع دكة فوقها مبخرة خارج البوابة. وهذا يعني أنه في مقدورك الدخول. اعثر على راهب يضرب على سمكة خشبية في فترة الحراسة الخامسة خارج البوابة الخلفية كمن يدعو المؤمنين إلى الصلاة. وعندها لن تستغرق في النوم وسيكون في مقدورك الانسلال خارجا. وفي مقدور الراهب القيام بالمراقبة والتأكد من ذهابك قبل انبلاج الفجر في آن معا.

ابتهج الراهب غبطة: "يا للذكاء الوقاد! خذي حذرك. إن لديَّ الرجل المناسب. إنه راهب يعيش على الصدقات يدعى الراهب هو. وهو مستعد للقيام بكل ما أطلبه منه".

- يحسن أن لا أبقى طويلا عندك، وإلا ارتاب أولئك البلهاء. ينبغي أن أذهب إلى البيت فورا.

لا تنس موعدنا القادم.

نهضت الفتاة، وسوَّت شعرها، وأعادت غندرتها، وفتحت باب السلم وهبطت الدرج. وأمرت ينغ آر أن توقظ المعلم بان، وسرعان ما غادرت جناح سكن الراهب. كان حمالا المحفة قد أنهيا العصيدة والخمرة، وأقاما منتظرين عند مدخل الدير. رافقهما المدرِّس هاي إلى حدود بوابة الجبل، حيث ألقت عليه السحابة الذكية تحية الوداع وركبت المحفة، ورجعت برفقة المعلم بان ووينغ آر إلى البيت. ونكتفي بالحديث عن هذا الموضوع.

كان هو قد عمل سابقا في جناح الرهبان، ولكنه تقاعد وأقام الآونة في معبد صغير وراء الدير. وكان معروفا باسم الراهب هو لأنه ينهض في فترة الحراسة الخامسة كل يوم ويضرب على سمكة خشبية معلنا عن طلوع الفجر، وحاثا المؤمنين البوذيين على الصلاة. وبعد انبلاج الفجر يروح يستعطي الصدقات للطعام. استدعاه هاي إلى جناح الرهبان وقدم له ثلاثة أكواب من الخمرة الجيدة، ونفحه بقليل من الفضة.

انتصب واقفا، وقال: "لم أفعل شيئا أستحق عليه هذا فكيف أقبله؟ لقد كنت على الدوام كريما معي".

- أعرف ما أنت عليه من فتى مخلص. سوف أبتاع لك في أحد الأيام المقبلة شهادة دينية وأجعلهم يقبلونك في رهبنتنا. هذه الفضة لتشتري بها لنفسك ثيابا جديدة.

كان هاي يصدر أوامره إلى رهبانه بين حين وحين بإرسال الطعام إلى هو، أو اصطحابه معهم حين يذهبون للقيام بقداس ديني كي يحصل على شيء من النقود. وكان هو ممتنا لذلك.

خاطب نفسه قائلا: "إنه يعطيني مالا مرة أخرى. لا بدَّ أنه يحتاجني في شيء. فيم أنتظر أن يفاتحني بذلك؟". والتفت إلى الراهب قائلا: "إن كان ثمة ما تحتاجني فيه، فيغبطني أن أفعله لك".

- طالما أنك من الطيبة بمكان فتشير إلى الموضوع على هذا الغرار، فلسوف أنبئك بالحقيقة. ابنة المعلم بان راغبة في أن تنشئ ألفة حميمة بيني وبينها. ولسوف تضع منصبا للبخور خارج بوابة بيتها الخلفية حين يكون دخولي آمنا. لن تكون حكمة مني أن أستقصي الأمر، ولكنك تستطيع أن تذهب وتلقي نظرة. وبعدها سأجازف بالدخول. وأريد أن أعهد إليك بأمر آخر، فحين تدعو الناس إلى الصلاة قرب إطلالة الفجر، تعال إلى البوابة الخلفية. فإن لم تلق أحدا هنالك، فاضرب على سمكتك الخشبية واصرخ بالمؤمنين إلى الصلاة في صوت عال، فأعرف أنني أستطيع مغادرة البيت".

قال الراهب هو، وقد وافق على الفكرة: "لا يصعب عليَّ هذا الأمر".

وفي اليوم التالي خرج يستعطي الصدقات عند بوابة بيت المعلم بان الخلفية. فجاءته ينغ آر، وقالت له: "ماذا تفعل هنا؟ لم لا تذهب وتستعطي عند البوابة الأمامية؟".

فشرع يترنم بالصلوات. سمعته السحابة الذكية فجاءت إلى البوابة الخلفية واستوضحت: "ألست الراهب الذي يعلن عن الفجر عند فترة الحراسة الخامسة؟".

- أنا هو. أنا أحث الناس على عدم الاستغراق في النوم، وعلى إحراق البخور في الليل لإرضاء الآلهة.

سرَّت الفتاة، وأمرت ينغ آر أن تركض إلى الطابق العلوي وتحضر ربطة من النحاس للراهب. وحين ذهبت الخادمة قال الراهب هو: "أنا رجل موثوق لدى المعلم هاي. وقد أرسلني لأستطلع معالم المكان".

- أعرف ذلك. تعال الليلة، وإن وجدت منصبا للبخور في الخارج فأخبره.

أومأ هو برأسه. ورجعت ينغ آر وهي تحمل ربطة من العملة النحاسية أعطته إياها. وصعدت الفتاة إلى الطابق الأعلى وخاطبت ينغ آر في الأمر. فرأتها الخادمة فرصة سانحة للحصول على القليل من الربح، وأغبطها أن تقدِّم العون.

كان يانغ شيونغ على رأس عمله في هاتيك الليلة في السجن. فبرح البيت قبل العشية حاملا لحافه، ولم تستطع ينغ آر، وقد قبضت أجرا ضئيلا، الانتظار حتى هبوط الليل، لذا وضعت منصب البخور خارج البوابة والوقت لا يبرح غسقا. وأسرعت السحابة الذكية إلى البوابة الخلفية وأقامت تنتظر. في حدود فترة الحراسة الأولى برز رجل فجأة وقد لفَّ رأسه بمنديل.

هتفت ينغ آر مجفلة: "من هنالك؟".

لم يعطها الرجل جوابا. أسرعت السحابة الذكية إليه ورفعت المنديل فكشفت عن رأسه الحليق. فشتمته مداعبة: "أيها الأصلع الشرير. أنت حقا تعرف ما أنت فاعل".

لفَّ كل منهما ذراعا حول الآخر، وصعدا معا إلى الطابق العلوي. وأدخلت ينغ آر منصب البخور، وأقفلت البوابة، وذهبت إلى فراشها.

في تلك الليلة كان العاشقان أقرب ما يكون إلى السكر والعسل، والنقي ومخ العظم، والسمك والماء، وقد انغمسا مرحين في فجور رخيٍّ. وفيما هما يستغرقان في النوم سمعا ضربا على السمكة الخشبية راب- راب، وصوتا عاليا ينادي المؤمنين إلى الصلاة. فاستفاق الراهب والفتاة على الفور. وارتدى المدرس هاي ثيابه: "أنا ذاهب. سأراك هذه الليلة".

- تعال كلما رأيت المبخرة في الخارج، فإن لم تجدها فحذار من المجيء.

عصبت له الفتاة المنديل حول رأسه، وفتحت ينغ آر البوابة، وقادته خارجا.

ومنذ ذلك التاريخ ما إن ينطلق يانغ شيونغ لأداء واجبه في السجن حتى يأتي الراهب. كان المعلم بان في البيت، ولكنه يلجأ إلى سريره مبكرا. وكانت ينغ آر جزءا من المؤامرة. ولم يبق هنالك غير شي شيو ممن ينبغي خداعهم، ولكن الفتاة كانت نشوى بالممارسة الجنسية فلم تلق إليه بالا. أما الراهب فبدا أن روحه قد غابت عن هذه الدنيا منذ أن شرع يتذوق مفاتن السحابة الذكية. فحينما يعلن الراهب هو أن الشاطئ نظيف يغادر المدرس الدير. وتأذن له السحابة الذكية بالدخول بالتواطؤ مع ينغ آر. واستمرت مسرحية الغرام السعيدة على هذا الغرار طوال أكثر من شهر كامل.

كان شي شيو يلجأ كل مساء، بعد أن ينظف دكان اللحوم، إلى غرفة مجاورة. وكانت قضية زوجة يانغ شيونغ لا تبرح تثقل عليه، ولكنه لا يملك ضدها أي دليل. فهو لم يلمح للراهب وجها. وعندما يستيقظ في فترة الحراسة الخامسة كل صباح فهو يثب أحيانا ويسترق النظر إلى الداخل، فلا يلمح غير راهب في الزقاق يعلن عن اقتراب الصباح بالضرب على سمكة خشبية والمناداة

على الصلاة.

كان الشاب شي شيو ذكيا، وكانت قناعته قد بلغت تسعة أعشار، فجعل يحلل الأمور ببرودة تامة: "هذا الزقاق مسدود، وليس فيه عائلات أخرى. فلمَ يجيء الراهب إلى هنا، من بين الأمكنة كلها، لدعوة الناس إلى الصلاة؟ لا ريبة أنه يخفي أمرا".

كان الزمن في منتصف الشهر الحادي عشر. وذات صباح، بعدما صحا شي شيو على مألوف عادته في فترة الحراسة الخامسة، تناهى إليه صوت الراهب وهو يضرب على سمكته الخشبية في أثناء دخوله الزقاق. وهتف الراهب عند البوابة الخلفية للمنزل: "لتنقذ الآلهة جميع الأشياء الحية من الشقاء والمصائب".

وثب شي شيو من فراشه وألصق عينه بشقّ في الباب. وإذ برجل يعصب رأسه بمنديل ينزلق خارجا من الظلال ويذهب برفقة الراهب، وقامت ينغ آر بإغلاق البوابة. فرسم شي شيو وقتئذ اللوحة بكاملها.

همس في سره غاضبا: "الأخ يانغ شيونغ رجل شهم، ولكنه اتخذ لنفسه زوجة عاهرة. لقد خدعته تماما، وتقوم بلعبتها الصغيرة الخاصة وحدها".

عند انبلاج الفجر علّق اللحوم في الدكان، وشرع يخدم زبائن الصباح الباكر. وخرج بعد الفطور ليجمع بعض الحسابات، واتجه ناحية مكتب المقاطعة عند الظهيرة لرؤية يانغ شيونغ فالتقاه قادما على الجسر. سأله الناظر: "ما الذي رمى بك إلى هنا، يا أخي؟".

- كنت أجمع الحسابات في الجوار فخطر لي أن أمرَّ بك.

- أنا على الدوام منصرف إلى أعمالي الرسمية فلا أجد متسعا من الوقت لأشاركك الشراب وأسترخي قليلا. تعال بنا نجلس فترة من الوقت.

صحبه يانغ شيونغ إلى حانة، واختار غرفة منعزلة في الطابق العلوي وأمر النادل أن يحضر خمرة جيدة وقليلا من المشهيات الطازجة. جرعا ثلاثة أكواب. جلس شي شيو حاني الرأس، وغارقا في التفكير. وكان يانغ شيونغ رجلا متهورا فألحَّ قائلا: "أنت تعيس بخصوص شيء ما. هل قال أحد في البيت شيئا أثار نقمتك؟".

- لا، الأمر ليس على هذا المنوال. أنا شاكر لك يا أخي؛ فلقد عاملتني كما لو كنت من لحمك ودمك. ولديَّ شيء أرويه لك، ولا أعرف إن كنت أجرؤ على ذلك!

- كيف يمكن أن تتصرف كما لو كنت غريبا عنك؟ مهما يكن الأمر، فانفضه إليَّ.

- حين تغادر المنزل كل يوم ينصرف فكرك بأسره إلى واجباتك الرسمية فلا تعرف ما يحدث وراء ظهرك. إن زوجة أخي ليست زوجة طيبة. وقد لمحت دلائل على ذلك عدة مرات، ولكن الجرأة لم تؤاتني لأكاشفك بالأمر. ولقد كان الأمر جليا هذا النهار، فوجب عليَّ القدوم إليك ومصارحتك به.

- أنا لا أملك عينين في مؤخر رأسي. من يكون ذلك الرجل؟

- حين أقمت ذلك القداس الاحتفالي في البيت طُلب إلى المدرِّس هاي، ذلك الحليق الرأس

الخليع، أن يرأسه. وقد لمحته يتغامز وزوجة أخي. وبعيد يومين، ذهبت برفقة والدها إلى معبد الدير لسماع الصلوات التي رغبت والدتها في تلاوتها، ورجعا إلى البيت معا تفوح منهما رائحة الخمرة. وفي ما بعد، صرت أسمع راهبا يضرب على سمكة خشبية وينادي الناس على الصلاة في زقاقنا. خطر لي أنّ هنالك أمرا غريبا يخفيه ذلك الوغد، فنهضت هذا الصباح في فترة الحراسة الخامسة لألقي نظرة. وما لا أجادل فيه هو أني رأيت ذلك النذل الحليق الرأس، وقد عصب منديلا حول رأسه، يخرج من البيت. مثل هذه البغي، ما حاجتك إليها؟

غلت غضبة يانغ شيونغ: "ابنة الكلبة. كيف تجرؤ على ذلك!؟".

- اضبط أعصابك، يا أخي. لا تتفوّه بكلمة هذه الليلة. تصرَّف مثلما تفعل عادة. وغدا، قل إنك مدعو إلى الخدمة، وارجع عند فترة الحراسة الثالثة واقرع على البوابة الأمامية. ولا ريبة أن الوغد سينسلُّ من البوابة الخلفية. وسأكمن له هنالك للقبض عليه، وعندها تستطيع التخلص منه.

- فكرة رائعة.

- حذار مما تنطق به هذه الليلة.

- إذاً، سألتقيك هنالك غدا.

جرع الاثنان عدة أكواب أخرى، وسددا الحساب، وهبطا عن السلَّم، وغادرا الحانة وتأهبا للانطلاق كلٌّ في طريق.

حيّا أربعة أو خمسة من الضباط يانغ شيونغ قائلين: "لقد كنا نفتش عنك أيها الناظر. فالوالي ينتظر في حديقته. وهو يريدك أن تثاقفنا بالعصيِّ. تعال، أسرع".

- الوالي يطلبني. إذاً، ينبغي أن أذهب.

والتفت يانغ إلى شي شيو قائلا: "اذهب أنت أولا".

رجع شي شيو إلى البيت، ورتب دكان اللحوم، ولجأ إلى غرفته.

ذهب يانغ شيونغ إلى الحديقة الخلفية للوالي، وقام بعدة عروض من المبارزة بالعصي. اغتبط الوالي كثيرا، فكافأه بعشر كؤوس كبيرة من الخمرة. وحين انفضَّ الحشد دعا الآخرون يانغ على مزيد من الأنخاب. وعندما هبط المساء كان قد ثمل فاضطروا إلى نقله إلى البيت.

شكرت السحابة الذكية مرافقيه، وساعدته وينغ آر على صعود السلم، وأشعلت المصباح وجعلت نوره مشعشعا. جلس يانغ على الفراش فيما جعلت الخادمة الصغيرة تنزع حذاءه المبطن، وزوجته تنزع منديله وقبعته. أثار منظرها وهي تقترب من غطاء رأسه ثورة من الغضب في صدره فانطبق عليه المثل القديم القائل: "الأفكار الصاحية تغدو كلمات سكرى"، فأشار إليها وشتمها: "مومس! بغي! سأجهز عليك وليكن ما يكون!".

ارتعبت الفتاة وعجزت عن الجواب وأضجعت يانغ على سريره. فاستغرق في النوم حالما مسَّ رأسه الوسادة، ولكنه تابع غمغمته قائلا: "فاسقة! عاهرة قذرة. يجرؤ عشيقك على البصاق في فم النمر. أنت... أنت... ستدفعين ثمن ذلك!".

انبهرت أنفاس الفتاة، وأقامت لديه خلال نومه. أفاق عند فترة الحراسة الخامسة وطلب جرعة

ماء. غرفت السحابة الذكية طاسا قدمتها له. وكان المصباح لا يبرح يشتعل على المنضدة. شرب يانغ الماء.

- لم لم تخلعي ثيابك وتنامي في الفراش؟

- كنت سكران فخشيت أن تتقيأ. كيف أستطيع خلع ملابسي؟ استلقيت عند حافة السرير الليل بطوله.

- هل تفوّهتُ بشيء؟

- لست سيئا حين تكون سكران. استغرقت في النوم مباشرة. ولكنني لم أتمالك من القلق عليك خلال الليل.

- نحن لم نطلب إلى شي شيو أن يشاركنا الشراب منذ فترة من الزمن. جهزي بعض الأطباق المنزلية وسأقوم بدعوته.

لم تعطه السحابة الذكية جوابا، بل بقيت جالسة على حافة السرير وعيناها تسبحان بالعبرات، وأطلقت زفرة حرَّى.

- لقد كنت سكران ليلة البارحة، أيتها الزوجة، ولكنني لم أضايقك في شيء. ففيم اضطرابك؟

وضعت الفتاة يديها فوق عينيها المغرغرتين بالدموع. ألحَّ يانغ شيونغ عليها طالبا جوابا. غطت السحابة الذكية وجهها متظاهرة بالبكاء. فأنهضها يانغ عن حافة السرير، وأصرَّ عليها أن تتكلم. فنشجت: "حين زوَّجني أبواي من الكاتب وانغ رجوت أن يكون ذلك إلى الأبد. فمن كان يظن أنه سيموت سريعا؟ وأنا الآن زوجتك، أنت البطل الشهم الشجاع، ولكنك لا تحميني".

- هذا جنون. ماذا تقصدين بأني لا أحميك؟ من يضايقك؟

- في البدء لم أكن راغبة في أن أقول لك شيئا، ولكنني أخاف أن يخدعك هو. كنت أنتوي الإفضاء إليك بكل شيء، ولكنني خشيت أن تبتلع ذلك ولا تفعل شيئا.

- ماذا تمخرقين، وحق الشيطان؟

- سأخبرك. لكن، عدني ألا تكون قاسيا جدا. طوال فترة من الوقت، وبعد إحضارك شي شيو إلى البيت وجعلك إياه أخا لك بالدم، سارت الأمور على أفضل ما يرام. ولكنه في الآونة الأخيرة بدأ يغمز لي ملمحا. فهو يقول لي في الليالي التي تقوم خلالها بعملك: أخي لن يحضر إلى البيت من جديد. ألن تشعري بالوحدة وأنت تنامين وحدك؟ تجاهلت كلماته، على الرغم من أنه أبدى مثل هذه الملحوظات أكثر من مرة. لكن، لا تلق إلى هذا الموضوع بالا. البارحة صباحا كنت في المطهى أغسل عنقي حين جاء ذلك المخادع من ورائي. وحين وجد أنه ليس في الدار أحد دسَّ يده من الأسفل وداعب نهديَّ. وقال: يا زوجة أخي، أأنت حامل؟ دفعت يده بعيدا. وعزمت على الصراخ، ولكني خفت أن يضحك الجيران ويسخروا منك. ثم عدت أنت سكران لا تعي شيئا. فكيف أحدثك بالأمر؟ لقد كرهته حتى استعددت أن أمزقه بأسناني، وإذا أنت تسألني بنعومة عن الأخ شي شيو!

انفعل يانغ غامضا:

"صورة النمر تريك جلده من دون عظامه. وأنت قادر على رؤية وجه الرجل وليس قلبه! ذلك

النذل يجرؤ على المجيء إليَّ بمجموعة من الأقاصيص عن المدرِّس هاي، ولا علاقة له بالموضوع من قريب أو بعيد! إن النذل لخائف! كانت فكرته أن يفتري عليك قبل أن تتمكني من الكلام!".

وخاطب يانغ نفسه غاضبا:

"هو ليس أخي الحقيقي. سأطرده، وأضع بذلك حدا لكل شيء!".

عند انبلاجة الفجر هبط السلم وخاطب حماه: "ملّح الحيوانات التي تمَّ ذبحها. ومن الآن فصاعدا لن نقوم بمثل هذا العمل". وحطَّم المكتب والنضد في دكان اللحوم.

حين جاء شي شيو حاملا اللحم لتعليقه عند الباب الأمامي وفتح الدكان رأى الحطام، فاستوعب الأمر على الفور لأنه فتى ذكي. فابتسم.

- لا ريبة في ذلك. سكر يانغ وأفشى سرَّه من دون قصد. وقلبت زوجته الموضوع فاتهمتني بالسكر، وأرغمته على إغلاق الدكان. إن جادلت في الأمر فسأكون كمن ينشر غسيل يانغ شيونغ القذر أمام الملأ جميعا. يحسن أن أتراجع خطوة وأحاول التفكير في خطة أخرى.

دخل وجمع حاجياته. وذهب يانغ شيونغ مبكرا وفي نيته ألا يربكه. حمل شي شيو صرته، وغرز خنجره في وسطه، وأقرأ تحيته على المعلم بان: "لقد أثقلت على أسرتك زمنا طويلا. وقد أغلق أخي اليوم الدكان فحقَّ عليَّ الرحيل. لقد سجلت جميع الحسابات بصورة مفصلة. فإن أخطأت في قرش واحد فلتصعقني السماء".

كان المعلم بان قد تلقى الأوامر من صهره، فلم يستطع أن يسأل شي شيو البقاء، وتركه يرحل.

عثر شي شيو على خان في زقاق قريب، فاستأجر غرفة وانتقل إليها. وقال في سره: "يانغ شيونغ أخي بالدم. فإن لم أوضح هذه القضية فقد أكون سببا في موته. إنه يصدق امرأته ويلقي اللوم عليَّ. في هاتيك اللحظة لم أكن في مركز يسمح لي بالجدال. ينبغي أن أكون قادرا على أن أثبت له ذلك. سأعرف متى يكون في عمله في السجن، فأنهض في فترة الحراسة الرابعة، وأستخلص السبب في ذلك".

بعدما أمضى يومين في الخان جعل يطوف حول بوابة دار يانغ شيونغ الأمامية. وفي تلك العشية لمح خفيرا شابا من السجن يحمل لحاف الناظر فقال في نفسه: "هذا يعني أنه في عمله هذه الليلة. في مقدوري القيام بعمل صغير لأطلع على ما يجري".

رجع إلى الخان واستغرق في النوم حتى فترة الحراسة الرابعة. نهض، وعلَّق خنجره، وغادر الخان في هدوء، وخبأ نفسه في ظلال الزقاق قريبا من بوابة يانغ شيونغ الخلفية. وفي حدود فترة الحراسة الخامسة رأى راهبا يحمل سمكة خشبية تحت إبطه يقترب من مدخل الزقاق ويختلس النظر حواليه. لحق به شي شيو من ورائه وقبض عليه، وضغط خنجره على عنقه: "حذار من الحركة. إن أطلقت صرخة واحدة فستموت. ارو لي الحقيقة حالا. ما هي الأوامر التي تلقيتها من الراهب هاي؟".

- لا تقتلني، أيها الفتى الباسل. سأتكلم.

- إن أسرعت بالحقيقة فسأبقي على حياتك.

- المدرِّس هاي على علاقة بابنة المعلم بان. وهو يجيئها في كل ليلة. وحين أشاهد مبخرة عند البوابة الخلفية فتلك دلالة لي لأنقل إليه أن في مقدوره أن يتسلل داخلا. وفي فترة الحراسة الخامسة أضرب على السمكة الخشبية وأوقظ المصلين. وهذا معناه أن يتسلل خارجا.

- وأين هو الآن؟

- في البيت يغطُّ في النوم. وعندما أضرب على هذه السمكة فسيغادره.

- أعطني إيّاها، وأعطني ثيابك.

اختطف شي شيو السمكة. وفيما الراهب يخلع ثيابه غرز شي شيو خنجره في عنقه وأرداه قتيلا. وارتدى عباءته وجوربيه الطويلين، ودسَّ الخنجر في غمده، ودلف إلى الزقاق وهو يضرب على السمكة الخشبية.

تناهى الصوت إلى هاي فأسرع ينهض عن السرير، وارتدى ثيابه، وهبط السلم. فتحت له ينغ آر البوابة الخلفية، فانسلَّ الراهب إلى الزقاق. وكان شي شيو لا يبرح يضرب على السمكة ضربات قوية.

همس الراهب قائلا: "أيجب أن تحدث مثل هذه الضجة الصاخبة؟".

لم يرد شي شيو عليه، بل تركه يسير إلى مدخل الزقاق. وفي مثل لمح البصر أرداه أرضا فألصقه بالتراب: "إن رفعت صوتك فسأقتلك. سآخذ ثيابك أولا".

عرف المدرِّس هاي شي شيو فلم يجرؤ على النضال أو الصراخ. جرده شي شيو من ثيابه وتركه عاريا. واستل خنجره في صمت من جرابه وأنهى حياة الراهب بثلاث أو أربع طعنات، ووضع السكين إلى جانب جثة الراهب هو، ولف ثيابهما في حزمة ورجع بها إلى الخان. فتح الباب في لطف وأغلقه في هدوء، ومضى إلى سريره. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفا واحدا.

كان الرجل الشيخ الذي يدعى المعلم وانغ يبيع الثريد في المنطقة وهو يحمل جرَّتيه على حمالة في فترة الحراسة الخامسة وفي يده مصباح ويلحق به صبي صغير. وكانا قد خرجا ليبيعا تجارتهما في بكور الصباح. تعثر الشيخ بالجثتين وسقط فانهرق ثريده.

هتف الصبي الصغير: "أوه. ثمة راهب سكران يسترخي هنا".

تلمس الشيخ طريقه حواليه، فاستشعرت يده دماء. أطلق صرخة مدوية وأصيب بنوبة من الهستيريا. فتح الجيران أبوابهم ودلفوا خارجين وقد أشعلوا الأضواء. فشاهدوا الثريد الدموي منتشرا في المكان بأسره وجثتين مطروحتين على الأرض، فقبضوا على الشيخ وسلموه إلى المحكمة.

ونتيجة لذلك انصبَّ البلاء من السماء، وانطلق اللهيب من الأرض.

كيف استطاع الشيخ التخلص من ورطته؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السادس والأربعون

يانغ شيونغ يفقد عقله على جبل الحاجز اليشمي؛
وشي شيو يضرم النار في خان عائلة تشو

أحضر الجيران المعلم وانغ الشيخ أمام والي كيتشو الذي عقد محكمته على الفور. ركعوا أمامه قائلين: "هذا الشيخ أهرق ثريده على الأرض، وحين أرسل بصره رأى جثتين إحداهما لراهب والأخرى لراهب آخر. كانا عاريين تماما. وكانت أمام الراهب الآخر سكين".

قال الشيخ: "في كل يوم أنهض من نومي في فترة الحراسة الخامسة لأبيع الثريد والفطائر الرقيقة ولأكسب قوت يومي. وفي هذا الصباح خرجت أبكر من مألوف عادتي، مع قرد صغير حديدي الرأس يمدني بالعون. لم أكن أنظر أين كنت أسير فتعثرت ووقعت. كسرت جميع طاساتي وصحوني. فارحمني، يا صاحب السعادة. لقد أهرقت في جوانحي الرعب رؤية ذينك الجسدين الملطخين بالدماء. فأهببت الجيران، ولكنهم قبضوا عليَّ. أرجو أن تستخدم حكمتك العظيمة في التحقيق وإيضاح هذه القضية".

اتخذ الوالي قراره، وأمر أن تذهب السلطات المحلية برفقة الحانوتي والشيخ والجيران إلى مسرح الجريمة، وهنالك يتم فحص الجثتين ويرفعون إليه بذلك تقريرا. وهذا ما جرى.

قال ضباط المنطقة: "الراهب القتيل هو بي رو هاي من دير الثواب والعقاب. والجثة إلى جانبه هي جثة هو داو، راهب كان يعيش في مؤخر الدير. كان الراهب عاريا، وقد مات نتيجة طعنه ثلاث طعنات أو أربع. وعثر على سلاح الجريمة إلى جانب هو داو الذي جزَّ عنقه. ويبدو أن هو داو طعن الراهب حتى الموت ثم خاف من العقاب فانتحر بقطع عنقه".

استدعى الوالي رهبانا آخرين من الدير واستجوبهم، ولكن أحدا منهم لم يستطع إلقاء أي ضوء على القضية فعجز عن اتخاذ قرار. وعرض كاتب المحكمة اقتراحا: "باعتبار أن الراهب كان عاريا فلا ريبة أنه كان يزمع القيام بأعمال شائنة وحين رآه الراهب الآخر تقاتلا حتى الموت. ولا علاقة لبائع العصيدة الشيخ في الموضوع. يجب إخلاء سبيل الجيران في انتظار تعليمات أخرى بعد دفع كفالات مالية. ولنسلم الجثتين إلى الدير لدفنهما والتخلص منهما. أصدرْ حكما بأن القتيلين قد أجهز كل منهما على الآخر، وبذلك يوضع حدٌّ لهذه القضية".

وافق الوالي، وقال: "هذا ما سنفعله". وأصدر الأوامر الضرورية. ونكتفي بالحديث عن هذا الموضوع.

وسرعان ما صارت الحادثة حديث البلدة. وعمل بعض المتبطلين على تأليف هذه الأغنية

القصيرة البسيطة:

حليق الرأس والوحشيّ هبّ
مع الحسناء يلهو ثمّ يمرحْ
خزاياه أثارتْ منه ربا
فشوهد بالدم المهراق يسبحْ
رموه فوق صخرٍ في فلاةْ
طعاما للسباع والنمور
فقد نسيَ الشعائر والصلاةْ
فأغضبَ سيّد الديرِ الأمير
و"مولين"، وقد أنجى مرارا
له أما سمتْ صَوْبَ السماء،
كساها اللص بعد الموت عارا
ولطَّخ ثوبها بعد النقاء

وبعيد ذلك التقط القصة عدد من المثقفين الشبان، فحملوا أقلامهم وكتبوا هذه الأغنية:

أشرارا كانَ الرهبانُ
نقضوا للدين وصاياهُ
عبدوا الشهوات وما كانوا
إلا للشرّ بقاياهُ
وفتى قد عانقَ امرأة
في مخدع إثمٍ عراها
سرقا شهواتٍ مطفأة
في السرِّ.. تراهُ ينساها؟
قالوا كلمات أشتاتا
فيها فسقٌ، فيها عهرُ
فإذا بفتانا قد ماتا
وطواه الرمس أو القبرُ

راح جميع الناس في كيتشو يناقشون القضية، فارتعبت السحابة الذكية حتى الموت. ولكنها لم تجسر على التفوّه بأي كلمة، بل جعلت تتفجع على نفسها في نفسها.

كان يانغ شيونغ في مكتب المقاطعة حين وصل نبأ مقتل الراهبين، وكانت لديه فكرة وافية عن كيفية حصولها. همس في نفسه: "لا بدَّ أن هذا من فعلة شي شيو. لقد أخطأت حين صببت اللوم عليه. لدي فسحة من الوقت هذا النهار. سأعثر عليه وأفهم منه القصة الحقيقية".

وبينا هو يجتاز جسر الولاية حيَّاه صوت من ورائه قائلا:

"يا أخي، إلى أين أنت ذاهب؟".

التفت يانغ فرأى شي شيو، فقال: "يا أخي، كنت أبحث عنك".

- تعال إلى حيث أقيم فنستطيع الحديث.

قاده شي شيو إلى غرفة صغيرة في الخان الذي ينزل فيه: "حسن يا أخي، هل تراني كنت أكذب؟".

- لا تحقد عليَّ. لقد ارتكبت غلطة سخيفة. سكرتُ فأفلت لساني شيئا. فخدعتني هي، وروت لي أشياء كثيرة عنك. وكنت أبحث عنك اليوم لأقدم إليك اعتذاري.

- أنا شخص لا أهمية له ولا أملك موهبة، ولكنني نظيف وشريف إلى أبعد الحدود. ولا يمكن أن ارتكب عملا شائنا. وجئت إليك لأني أخاف أن تؤذيك. ولديَّ البرهان على ذلك.

وأخرج شي شيو ثياب الراهبين: "لقد نزعت هذه عن جسديهما".

نظر يانغ شيونغ، ففار الغضب في فؤاده: "اصفح عني يا أخي. إن لم أسحق تلك المومس هذه الليلة فسأنفجر انفجارا!".

ضحك شي شيو: "ها أنت تخطئ من جديد. أنت تعمل في مكتب حكومي، ألا تعرف القانون؟ لا تستطيع قتلها ما لم تقبض عليها بالجرم المشهود. وفضلا عن ذلك، قد أكون أختلق هذه القضية اختلاقا، فتقتل أنت إنسانا بريئا".

- ولكنني لا أستطيع أن أتركها تفلت بفعلتها!

- أصغ إليَّ يا أخي، وسأخبرك كيف تتصرف مثل رجل حقيقي.

- وكيف هذا؟

- إلى الشرق من البلدة ينهض جبل الحاجز اليشمي، وهو مكان منعزل. قل لها غدا: "أنا لم أحرق البخور للسماء منذ زمن بعيد فلنذهب معا". احتلْ عليها للذهاب معك إلى الجبل، وقل لها أن تصحب ينغ آر معها. وسأكون هنالك في انتظاركم. سنواجهها وجها لوجه ونستخلص منها الحقائق مباشرة. وعندها تكتب تصريحا بالطلاق وتطردها. أليست فكرة جيدة؟

- لا ضرورة لذلك. فأنا أعرف أنك نظيف. وقد روت لي حزمة من الأكاذيب.

- ليس هذا كل شيء. أريدك أن تسمع كيف تدبرت موضوع مواعيدهما الغرامية.

- باعتبار أنك حكيم إلى هذه الدرجة، يا أخي، فلا أستطيع تخطئة نصيحتك. غدا سأحضر تلك العاهرة حتما. فلا تتخلَّ عني.

- إن لم تجدني هنالك فستعرف أن كل ما قلته لك كان كاذبا.

رجع يانغ شيونغ إلى مكتبه. وحين وصل إلى منزله في هاتيك العشية تحدث، على مألوف العادة، عن القضايا اليومية الروتينية. وهبَّ من نومه في الصباح التالي مع إطلالة الفجر وقال للسحابة الذكية: "في الليلة الماضية رأيت فيما يرى النائم روحا جعلت تقرِّعني لأني لم أف بوعدي في إحراق البخور في معبد يوي القائم خارج البوابة الشرقية. لدي فرصة من الوقت هذا النهار، وفي طوقي أن أقوم بهذا العمل. وأريدك أن ترافقيني".

- في وسعك الذهاب بمفردك. ما حاجتك إليّ؟

- لقد نذرت حين كنا نغازل بعضنا، وهكذا يجب أن نذهب معا.

- حسن إذاً. سنتناول فطورا نباتيا، ونأخذ حماما دافئا، ونرحل.

- سأشتري البخور والأوراق النقدية وأستأجر محفة. خذي حماما وسرحي سعرك. سأرجع في غضون لحظات. وقولي لينغ آر أن تتأهب بدورها.

ذهب يانغ شيونغ إلى الخان وخاطب شي شيو: "سنغادر البيت بعد الفطور، لا تتأخر".

- مر حاملي المحفة أن ينتظرا في منتصف طريق المنحدر، وتعالوا أنتم الثلاثة وحدكم بقية الطريق، سأنتظركم في بقعة هادئة. لا تحضر معك أشخاصا غرباء.

ابتاع يانغ الأوراق النقدية والشموع، ورجع إلى البيت وتناول فطوره. لم ترتب الفتاة في شيء على الإطلاق، بل جمَّلت نفسها بصورة لافتة للنظر. وكان على ينغ آر أن ترافقها. وانتظر حاملا المحفة أمام البوابة الأمامية.

قال يانغ شيونغ مخاطبا حماه: "أرجو أن تعنى بالأشياء هنا. سأذهب والسحابة الذكية لإحراق البخور".

قال المعلم بان: "أحرقا كمية كبيرة وارجعا بسرعة".

ركبت الفتاة المحفة وانطلقت تتبعها خادمتها الصغيرة. ولحق الناظر بهما. وبعدما اجتازوا البوابة الشرقية همس يانغ في أذني الحمالين في صوت منخفض: "امضيا إلى جبل الحاجز اليشمي. وسأزيدكما الأجر".

في أقل من فترتي حراسة جعلوا يصعدون في التلة. كان جبل الحاجز اليشمي يبعد عشرين ليا عن البوابة الشرقية لكيتشو. وكانت عدة قبور تتبعثر فوقه. أما ناحية القمة فلا تقع عيناك على أكثر من العشب الأخضر والحور الأبيض، ولم يكن عليه أي دير للراهبات أو الرهبان.

في منتصف الطريق أمر يانغ حاملي المحفة بالوقوف. وفتح المزلاج، ورفع الستارة، وطلب إلى الفتاة الخروج.

قالت السحابة الذكية: "ماذا نفعل على هذا الجبل؟".

- هيا سيري معي. أيها الحمالان انتظرانا هنا. لا تصعدا وراءنا. بعد فترة وجيزة سأعطيكما نقودا للشراب.

- كما تشاء. سننتظر أوامرك.

قاد يانغ الفتاة وينغ آر مسافة من الطريق. كان في مقدوره أن يشاهد شي شيو جالسا هنالك فوق.

سألت السحابة الذكية: "لماذا لم تحضر البخور والأوراق النقدية؟".

- لقد أرسلتها مع إنسان سبقنا إلى فوق.

ساعد الفتاة على الوصول إلى موقع ضريح قديم، فاقترب شي شيو الذي وضع صرنه وخنجره وعصاه عند جذع شجرة ناحيتهم.

- احتراماتي، يا امرأة الأخ.

أجابت السحابة الذكية بسرعة، وقد جفلت: "ماذا تفعل هنا، يا أخا زوجي؟".

- إني أنتظرك.

قال يانغ مخاطبا الفتاة: "قلت لي إنه غمزك بالكلام عدة مرات، وتحسس نهديك، واستفسرك عما إذا كنت حاملا. ليس هنا من أحد سوانا. وفي مقدور اثنيكما استخلاص القصة مباشرة".

- أواه! لقد مرَّت الحادثة، ففيم هذا الإزعاج؟

حملق شي شيو فيها: "حسنا، يا امرأة أخي، ما قولك".

- أليس لديك شيء أفضل من إعادة هذه القصة المنسية الآن؟

فتح شي شيو الصرة، وأخرج منها ثياب المدرس هاي والراهب هو وقذف بها تحت قدميها: "يا امرأة الأخ انظري. أتعرفين هذه الأشياء؟".

احمرت الفتاة وعجزت عن النطق. أخرج شي شيو خنجره وناوله إلى يانغ شيونغ: "استجوب ينغ آر".

قبض يانغ على الخادمة وأركعها على ركبتيها وصاح: "الحقيقة، أيتها البغي الصغيرة. كيف بدأت انغماسها في الملذات في جناح الرهبان؟ وما هي إشارة منضدة البخور؟ وضرب الراهب على السمكة الخشبية؟ أخبريني، فأبقي على حياتك. اكذبي كذبة واحدة وسأفرمك إلى قطع صغيرة".

صاحت ينغ آر: "لا علاقة لي بالقضية، يا سيدي. لا تقتلني! سأروي لك كل شيء. لقد شربنا جميعا الخمرة في جناح الرهبان، ثم صعدنا إلى الطابق العلوي لإلقاء نظرة على سنّ بوذا، ولكنها أنزلتني لأستطلع ما إذا كان المعلم بان قد أفاق من سكره. وبعيد يومين جاء راهب يلتمس الصدقة عند البوابة الخلفية، فأمرتني أن أحضر له ربطة من العملة النحاسية. ولا بدَّ أنها تدبرت الأمر معه في هذه الأثناء. وكلما كنت تقوم بعملك في السجن كانت تجعلني أضع منضدة للبخور خارج البوابة الخلفية. وكانت تلك علامة للراهب لكي يخبر المدرس هاي أن الشاطئ نظيف. وكان الراهب هاي يتنكر في ثياب رجل عادي ويعصب رأسه بمنديل. اختطفته السيدة، فرأيت رأسه الحليق. وفي كل صباح، في فترة الحراسة الخامسة، حينما كنا نسمع صوت السمكة الخشبية، كان من واجبي أن أفتح البوابة الخلفية وأتركه يخرج. وقد وعدتني سيدتي بعقد وثياب جديدة وأُرغمت على الخضوع. وقد جاء مرات كثيرة قبل أن يُقتل. وأعطتني بعض الحلي للشعر وأمرتني أن أخبرك أن الأخ ألقى عدة ملحوظات بذيئة وشاكسها. أنا لم أر شيئا من ذلك بنفسي، فما جرؤت على إخبارك. هذه هي الحقيقة كلها، حرفا حرفا!".

قال شي شيو: "حسن، يا أخي. هذه القصة كلها. ولا يمكن أن تكون شيئا لقنتها كيف تقوله. أرجو أن تستجوب الآن امرأة الأخ".

أمسك الناظر بالسحابة الذكية: "أيتها الكلبة، لقد اعترفت الخادمة بكل شيء. فلا تحاولي الإنكار. أخبريني الحقيقة فأبقي على حياتك التعيسة".

- لقد أخطأت. وكرمى لما كنّاه كزوج وزوجة اصفح عني.

قال شي شيو: "يا أخي، لا تتركها تخدعنا بهذا المظهر الخداع. اجعلها تعترف بكل شيء تفصيلا".

نبح يانغ: "تكلمي، أيتها الكلبة. وعجلي في حديثك!".

لم يكن أمام السحابة الذكية من خيار سوى أن تسرد كيف صارت عشيقة الراهب، بادئة الحديث منذ تبادلهما الغزل ليلة القداس الاحتفالي، وما أعقب ذلك من أمور.

استوضح شي شيو: "ولم قلت لأخي إنني حاولت مشاكستك؟".

– حين عاد إلى البيت سكران في تلك الليلة وشتمني أبدى بعض التلميحات، فخمنت أنك تعرف الأمر، فرويت له ما رويت. قبيل ليلتين أو ثلاث ليال من ذلك أخبرني هاي بما ينبغي أن أقوله إذا وقع لي ما وقع. وهكذا كانت القصة جاهزة في صباح اليوم التالي. والحقيقة أنك لم ترتكب شيئا من ذلك.

قال شي شيو: "اليوم ثلاثتنا هنا معاً، وقد وضحت الحقائق". والتفت إلى يانغ مسترسلا: "أما ماذا ينبغي أن تفعل في هذا الخصوص فأمر موكول إليك".

– انزع الحلي من شعر هذه اللعوب يا أخي، واخلع ثيابها، وسأعنى بها.

صدع شي شيو للأمر. قطع يانغ شريطتين من تنورة الفتاة وربطها بهما إلى شجرة. وانتزع شي شيو الحليَّ من شعر ينغ آر، وحمل سكينه بيده: "لِـمَ نبقي على حياة هذه المومس الصغيرة؟ فلنتخلص من الأعشاب الضارة وجذورها ومن كل شيء".

– من دون ريب. أعطني، يا أخي، هذه السكين. سأفعل ذلك بنفسي.

فتحت ينغ آر فمها لتستغيث، فشطرها يانغ إلى شطرين بضربة واحدة.

ترجت الفتاة عند الشجرة: "يا أخا زوجي. أقنعه".

قال شي شيو: "يا امرأة أخي، سيتصرف أخي معك شخصيا".

تقدم يانغ شيونغ من السحابة الذكية، وشدَّ لسانها وقطعه كي لا تتمكن من الصراخ. وأشار إليها في غضب: "يا بنت الهوى، لقد شوَّشت أفكاري. وكدت أتهاوى من جراء أكاذيبك. لقد لطخت اسم أخي، وكان يمكن أن تقتليني لو أتيحت لك الفرصة. ورهاني الأفضل هو أن أضرب أنا أولا. ما نوع القلب الذي تملكه كلبة من أمثالك؟ أريد أن أرى ذلك بنفسي!".

شقَّ لها صدرها حتى بطنها، واستخرج أعضاءها وعلقها على شجرة، وقطعها سبعة أجزاء، ثم لفَّ دبابيس شعرها وحليها في حزمة والتفت إلى شي شيو قائلا: "تعال إلى هنا، يا أخي. نحتاج إلى خطة طويلة الأمد. الذكر الخائن والأنثى الداعرة تمَّ قتلهما من قبلنا. والسؤال: أين يمكن أن نجد لنفسينا ملاذا؟".

– لدي مثل هذا الملاذ. سنذهب إليه معا.

– أين هو؟

– لقد قتلت إنسانا وقتلت إنسانا. سننضم إلى العصبة في بحيرة ليانغشان. أين يمكن أن نذهب إذاً إلى غير ذلك المكان؟

- ولكننا لا نعرف أحدا هناك. فكيف سيقبلوننا؟

- كل فرد في أخوية الشجعان سمع أن سونغ جيانغ، المطر في أوانه من شاندونغ، يجنّد الفتيان الشجعان من كل مكان. من تراه يجهل هذا الأمر؟ وأنت وأنا ماهران في استخدام السلاح. وطبيعي أن يقبلوا بنا.

- من الأفضل دائما أن تتوقع الأمر الأكثر سوءا. وهكذا لا تلقي نفسك في التهلكة. أنا ضابط، وسيرتابون في أمري، فيرفضون قبولنا.

ضحك شي شيو: "ألم يكن سونغ جيانغ كاتب مقاطعة؟ أقول لك إنه ليس هنالك ما يقلقنا. أتذكر ذينك الرجلين اللذين مضيت أشرب معهما في تلك الحانة يوم* لقائنا؟ حسن، إن أحدهما يدعى داي زونغ المسافر الأعجوبي، والآخر يدعى يانغ لين النمر الأنيق. وهما من بحيرة ليانغشان. وقد أعطاني داي سبيكة تزن عشر أوقيات من الفضة. وما زلت أحتفظ بها في صرتي. وهذا يعني أن في وسعي الذهاب معه".

- سأذهب إلى البيت للحصول على القليل من المال، وبعدها سنرحل.

- لا يجب أن ترتعش على هذا الغرار، يا أخي. إذا عدت إلى المدينة واعتقلوك، فكيف تستطيع خلاصا؟ لديك دبابيس الشعر والحلي، ولدي القليل من الفضة. لو كنا ثلاثة فهي تكفينا. فلِمَ نحاول الحصول على المزيد؟ وكيف يتاح لي أن أنجدك إن وقع خطأ ما؟ سينتشر الخبر سريعا. وينبغي ألا نتماهل في الجوار. في رأيي أن نذهب إلى الطرف الآخر من الجبل.

ألقى شي شيو صرته على كتفه والتقط عصاه، ووضع يانغ شيونغ الخنجر في قرابه في وسطه وحمل مطرده. وفيما هما يغادران المعبد القديم برز لهما رجل من وراء شجرة صنوبر، وصاح: "وهكذا فأنتما تقتلان الناس تحت السماء الصافية الزرقاء وتذهبان للانضمام إلى عصبة بحيرة ليانغشان. كنت أصغي إليكما منذ زمن بعيد!". وتهاوى على ركبتيه ساجدا.

عرفه يانغ. كان يدعى شي كيان، وقد انحدر من ولاية غاوتانغ قبل أن يستقر به المقام في كيتشو. وكان في مقدوره أن يطير من سقف إلى سقف، وأن يتسلق الجدران، ويثب فوق الأسوار، ويسرق الجياد. وقد مثل أمام الحاكم في كيتشو، ولكن يانغ توسَّط في الأمر وأنقذه. وكان معروفا باسم البرغوث على الطبل.

سأله يانغ: "ماذا تفعل هنا؟".

- لم أحصل على أي عمل طوال عدة أيام، أيها الأخ الناظر، فجئت أطوِّف ببعض الأضرحة القديمة علني أتمكن من العثور على شيء له قيمة. وحين رأيتك تعالج قضاياك لم أجسر على إزعاجك. ثم سمعت أنك ذاهب للانضمام إلى عصبة بحيرة ليانغشان. في هذه الأرجاء لا عمل لي سوى سرقة الدجاج، ولن يكون في مستطاعي الوصول إلى أي شيء. فما أروع أن يتاح لي الذهاب معكما، يا أخويَّ، إلى الجبل! هلاّ أخذتماني معكما؟".

قال شي شيو: "باعتبار أنك من الفتيان الشجعان، وباعتبار أنهم يفتشون عن متطوعين في القلعة، فلن يعترضوا على قبول رجل آخر. هيا معنا".

قال البرغوث على الطبل: "أعرف طريقا جيدة".

مشى في المقدمة، واتبع ثلاثتهم طريقا إلى مؤخر الجبل منطلقين إلى بحيرة ليانغشان.

لنرجعنَّ إلى حاملي المحفة اللذين جعلا ينتظران في منتصف الطريق. كانت الشمس قد دلفت ناحية الغرب، ولكن يانغ والمرأتين لم يرجعوا أدراجهم. وقد صدرت الأوامر إليهما بالبقاء في مكانهما، غير أنهما تضجرا من ذلك، فراحا يتهاديان على الطريق. وشاهدا سرباً من الغربان يحوِّم فوق ضريح قديم، فدنوا منه. كانت الطيور الناعبة تتصارع على قطعة من أمعاء بشرية.

ارتعب الحمالان، وأسرعا عائدين إلى المدينة، وأخبرا المعلم بان الذي رافقهما إلى الوالي. فأرسل شريف المقاطعة والحانوتيين إلى مسرح الحادث، فعثروا على الجثتين وتفحصوهما، ثم قفلوا راجعين ورفعوا بهما تقريرا: "اكتشفنا إلى جانب شجرة حور جسد السحابة الذكية ابنة بان ممزّقاً. وكانت الخادمة ينغ آر تستلقي مقتولة قريبا من ضريح قديم. وغير بعيد عن ذلك تكدست ثياب امرأة وراهبين".

تذكر الوالي مقتل الراهبين هاي وهو قبل عدة أيام، فاستجوب المعلم بان بدقة. فأخبره الشيخ كيف سكر في جناح الرهبان، وسرد الأحداث التي أوصلت إلى رحيل شي شيو.

قال الوالي: "يبدو أن الفتاة والراهب هاي كانا يمارسان الجنس. وكانت الخادمة والراهب هو يتصرفان كشريكين في الجريمة. ولعل شي شيو ثار غضبا فقتل الراهبين. أما اليوم فقد أقدم يانغ على سلخ زوجته وخادمتها الصغيرة. هذا ما حدث من دون شك. سنلقينَّ القبض على يانغ شيونغ وشي شيو ونحصل على دليل إيجابي".

أصدر بيانا بوجوب إلقاء القبض على المتهمين، وعرض مكافأة لمن يقوم باعتقالهما. وأذن للحمالين بالذهاب إلى بيتيهما في انتظار دعوة جديدة من قبل المحكمة. وابتاع المعلم بان نعشين، وسمح له بدفن الجثتين. ولن نزيد في هذا الموضوع حرفا.

عند مغادرة كيتشو، انطلق يانغ شيونغ وشي شيو والبرغوث في خطوات راسخة. وكانوا يرتاحون ليلا ويتابعون السير في صباح اليوم التالي، وفي غضون أيام قليلة وصلوا إلى ولاية يونتشو. وبعدما اجتازوا وادي الغابات الفاغمة شاهدوا أمامهم جبلا شامخا. كانت الظلمة تنشر رداءها الفاحم، فاتجهوا إلى خان بجانب جدول مائي. كان الخادم على أهبة إغلاق الباب حين وصلوا إلى البوابة، فقال: "لا بدَّ أن طريقكم كانت بعيدة حتى وصلتم إلى هنا في مثل هذا الوقت المتأخر".

أجاب البرغوث على الطبل قائلا: "ما يزيد عن مائة لي".

أذن لهم الخادم بالدخول وخصَّهم بغرفة، وسأل: "أتريدون نارا؟".

قال البرغوث: "سنتدبر أمرنا بأنفسنا".

– ليس لدينا نزلاء آخرون. وهنالك قصعتان من الماء المغلي على الموقد. في مقدوركم استخدامهما إن طاب لكم ذلك.

– ألديكم شيء من اللحم والخمرة؟

– كان لدينا شيء من اللحم هذا الصباح، ولكن الناس في القرى المجاورة اشتروه كله. بقيت

جرة من الخمر، ولكن ليس لدينا ما يتماشى معها.

- هذا يكفي. وأحضر لنا خمسة مكاييل من الأرز. سنطبخها هنا.

أحضر الخادم الأرز إلى البرغوث فنظفه ووضعه على النار. وأخرج شي شيو أمتعته، وأعطى يانغ الخادم أحد دبابيس الشعر ثمنا للخمرة، ووعد أن يسوي الحساب في اليوم التالي. جاء الخادم بالجرة وفتحها، ووضع بعض أطباق الخضراوات الدافئة على المنضدة. وحمل البرغوث دلوا من الماء الحار إلى يانغ وشي ليغسلا أيديهما وأقدامهما.

صُبَّت الخمرة، وسأل الثلاثة الخادم أن يجلس ويشاركهم الشراب. وشربوا من أربع طاسات كبيرة.

لمح شي شيو دستة من المطارد الجيدة تحت الإفريز، فسأل: "فيم تحتاجون إلى السلاح في هذا الخان؟".

- إنه يخص المعلم.

- وما شكل هذا المعلم؟

- لقد كنت في الجوار يا سيدي. ألم تسمع عن هذا المكان؟ ذلك الجبل الضخم هنالك يدعى جبل التنين الوحيد. والصخرة السامقة وراءه تدعى صخرة التنين الوحيد. وفي قمتها يسكن معلمي. وجميع الأراضي المحدقة بنا على مسافة ثلاثين ليا ملك لمزرعة عائلة تشو. واللورد تشو، معلمي، لديه ثلاثة أبناء. وهم مشهورون باسم المحاربين تشو الثلاثة. وفي هذه المزرعة قرابة خمسمائة أو ستمائة عائلة، والجميع مستأجرون، وقد صنع لكل عائلة مطردين. وأنتم تقيمون الآن في خان عائلة تشو. والعادة أن يقضي عدة دستات من رجالنا الليل هنا. وهذا ما يجعلنا نبقي المطارد في متناول أيدينا.

- وما الفائدة من وجودها في الخان؟

- نحن لا نبعد كثيرا عن بحيرة ليانغشان. وقطاع الطرق أولئك قد يحضرون لسرقة حبوبنا، وينبغي أن نكون على أهبة.

- إن أعطيتك قليلا من الفضة فهل ستدعني آخذ واحدا من هذه المطارد؟

- أوه، أبدا. فكل مطرد موسوم بعلامة صاحبه. سيضربني معلمي. فهو صارم جدا.

ضحك شي شيو: "كنت أداعبك. فلا تضطرب. اشرب قليلا من الخمرة".

- لا أستطيع. ينبغي أن آوي إلى فراشي. خذوا راحتكم في الابتهاج أيها السادة الضيوف. واشربوا قدر ما تشاءون.

وخرج الخادم. شرب يانغ وشي شيو جولة أخرى، فسألهما البرغوث: "أتريدان شيئا من اللحم؟".

أجاب يانغ: "ألم يقل الخادم إنهم صفر اليدين منه؟ فمن أين ستحصل على اللحم؟".

ضحك البرغوث، ثم سار إلى الموقد وأخرج من القصعة ديكا مطبوخا.

استفسر يانغ: "من أين جاء هذا؟".

– خرجت إلى مؤخر البناء لأتبوَّل فعثرت على ديك في قفص. فخطر لي أنه يتماشى مع الخمرة التي تشربانها، فقتلته في هدوء إلى جانب الجدول المائي، وأحضرت دلوا من الماء المغلي، ونظفت الطير وطبخته. وها هو جاهز لتذوقا طعمه، يا أخوي.

قال يانغ: "لا تبرح خفيف اليد كسابق عهدك، أيها الوغد".

ضحك البرغوث: "لم أبدل مهنتي".

وضحك الثلاثة جميعا. قطعوا الطير بأيديهم والتهموه مثلما التهموا الأرز الذي طبخوه.

أغفى الخادم فترة قصيرة. تصارعت أفكاره، فهبَّ من مرقده وعاين الأشياء في مقدمة الخان ومؤخره. وجد على منضدة المطهى رِيشا وعظاما. وكان ثمة قدر على الموقد نصف مملوءة بماء فيه دهن، فركض خارجا إلى القفص في مؤخر الخان، فوجده فارغا. أسرع إلى الغرفة حيث كان الرجال الثلاثة يقيمون.

سأل: "أهذا أسلوب تتصرفون بموجبه؟ لِـمَ سرقتم ديكنا وأكلتموه؟".

فسخر البرغوث: "أنت تحلم أو تشاهد أشباحا. لقد اشتريت ذلك الديك على الطريق. من تراه رأى ديككم؟".

– إذاً، أين هو؟

– جره قط وحشي. التهمه ابن عرس. مزَّقه نسر. من يدري؟

– ذلك الطير كان في القفص قبل فترة قصيرة وحسب. إن لم تسرقوه، فمن سرقه؟

قال شي شيو: "لا تشاحن. سندفع لك الثمن الذي يساويه".

– إنه يبشر بطلوع الصباح، ولا يمكن أن يعمل خاننا من دونه. إن عشر أوقيات من الفضة لا تكفي ثمنا له. أعيدوا لي ديكي.

قال شي شيو غاضبا: "من تراك تحاول أن تبتز؟ بسبب هذا لن أدفع لك قرشا واحدا. فماذا أنت فاعل؟".

ضحك الخادم: "أنتم محبون للخصام، أليس كذلك؟ خاننا شيء مختلف. سنجركم إلى المزرعة ونضربكم علقة لأنكم قطاع طرق من بحيرة ليانغشان!".

سأل شي شيو: "لنفترض أننا كما تقول، أتحسب نفسك قادرا على القبض علينا والمطالبة بالمكافأة؟".

كان يانغ شيونغ سريع الغضب بدوره فقال: "مهما تكن الظروف، فقد كنا سندفع لك القليل من المال. أما الآونة فلن نفعل. لنر كيف ستقبض علينا!".

صرخ الخادم: "اللصوص! اللصوص!".

اندفع إلى الغرفة أربعة أو خمسة من الرجال الأفظاظ، وقد تعرَّت صدورهم، واتجهوا ناحية يانغ وشي شيو. ألقاهم شي شيو أرضا بضربة واحدة من قبضة يده انقض بها على رؤوسهم. وفتح الخادم فمه تمهيدا للصياح، فصفعه البرغوث صفعة رنانة انتفخ لها وجهه وأعجزته عن النطق. وهرب المهاجمون من البوابة الخلفية.

قال يانغ: "لا بدَّ أن أولئك الأوغاد ذهبوا ليطلبوا العون. لنخلصنَّ من الطعام في أسرع وقت، ونخرج من هنا".

أكل الثلاثة ملء بطونهم، وحملوا صررهم، وانتعلوا صنادل مريحة من القنب، وأمسكوا خناجرهم، وتناول كل منهم مطردا عن حامل الأسلحة.

قال شي شيو: "التابع يبقى تابعا. ولا يمكن أن تفلت أحدا منهم".

أشعل حزمة من القش أخذها عن الموقد، ثم أشعل النار في جميع جوانب الخان. روَّحت الريح النار، فتفجَّر اللهب في السقوف القشية، وتواثبت ألسنة ضخمة من النيران صوب السماء، وانطلق الرجال الثلاثة صوب الطريق العامة.

بعد أن ساروا مسافة فترتي حراسة رأوا أمامهم ووراءهم مشاعل لا حصر لها. كان قرابة مائتي رجل يصيحون ويزعقون وهم يقتربون منهم.

قال شي شيو: "هدئوا من روعكم. سنسلك الممرات الصغيرة".

قال يانغ شيونغ: "لا. فليحضروا. سنقتلهم واحدا واحدا أو اثنين اثنين. وعند انبلاج الفجر سنكمل طريقنا".

وقبل أن ينتهي من حديثه هوجموا من أربع جهات. كان يانغ في المقدمة، وشي شيو في النهاية، والبرغوث يدافع عن الوسط. قاتلوا بالمطارد الخدم المهاجمين، هؤلاء الذين ينقضون بالعصي والرماح. لم يكن المهاجمون يعرفون سبب هجومهم. لوَّح يانغ بمطرده فأسقط نصف دستة منهم، فهرب المهاجمون وقد تفرَّقوا شذر مذر. طاردهم شي شيو وأردى نصف دستة أخرى.

حين شاهد الخدم الباقون هذه المجزرة قرروا أنهم يريدون البقاء على قيد الحياة، وأن هذا الجو ليس جوا صحيا على الإطلاق، فاستداروا وهربوا وأولئك الثلاثة يطاردونهم. وهبَّت صيحات أخرى، وامتدَّ من بين العشب الجاف قضيبان خطافيان طويلان أطبقا على البرغوث وجراه أرضا. استدار شي شيو للانطلاق إلى نجدته، فامتدّ من الخلف قضيبان آخران لمحهما يانغ شيونغ ببصره الثاقب ورماهما أرضا بمطرده الذي جعل يغرزه في الدغل. وانطلقت الصرخات، وهرب المختبئون على الفور. ورآهم الاثنان وهم يجرّون البرغوث معهم، فخشيا من الاشتباك في صراع في أعماق الدغل، وما استطاعا الإسراع إلى نجدته.

عثرا أخيرا على ممر فخرجا. أمدتهما المشاعل البعيدة بالضوء، خاصة وأن الممر كان عاريا من الأشجار والشجيرات، فانطلقا عليه متجهين شرقا.

وبعدما قام الخدم بالتفتيش عنهما عبثا جمعوا جرحاهم، وأحضروا البرغوث مغلول اليدين وراء ظهره إلى مزرعة عائلة تشو.

كان يانغ وشي شيو لا يبرحان يسيران في ضوء النهار. وكانت حانة قروية تنهض أمامهما. فاقترح شي شيو: "لنشتر قليلا من الشراب والطعام، يا أخي، ونستفسر عن الطريق".

دخلا الحانة، وأسندا مطرديهما إلى الجدار، وجلسا، وطلبا طعاما وشرابا. قدم لهما الساقي بعض أطباق الخضراوات وأدفأ قليلا من بنت العنب. همّا بتناول الطعام حين دخل رجل ضخم، له

وجه عريض، وعينان براقتان، وأذنان كبيرتان، وطلعة خشنة بشعة. كان يلبس ثوبا بني اللون، ويعصب رأسه بمنديل مزخرف، ويلف وسطه بحزام حريري أبيض، وينتعل حذاء جلديا مدهونا بالزيت.

صاح: "صاحب السعادة يريد تسليم هذه الأحمال في المزرعة فورا".

قال صاحب الحانة في عجلة: "كل شيء جاهز. سنرسلها إليه حالا".

استدار الرجل للذهاب وقال: "عجِّلوا". كان يمرُّ بالقرب من منضدة يانغ شيونغ وشي شيو في طريقه إلى الباب. فعرفه يانغ، ونادى: "أيها الشاب، ماذا تفعل هنا؟ ألا تلقي عليَّ نظرة؟".

حملق الفتى الضخم فيه، واستبانت في عينيه معالم المعرفة فهتف: "ماذا تفعل هنا، أيها المفضال؟". وتهاوى على ركبتيه ساجدا. ولأن يانغ تعرَّف على ذلك الرجل انفرط عقد التحالف بين ثلاث قرى، وجاءت زمجرة نمور محتشدة بالبلايا والمصائب.

من كان ذلك الرجل الذي التقاه يانغ وشي شيو؟ إن أحببت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل السابع والأربعون

النسر المحلق إلى السماء يخط رسالتين ملتمسا إرجاء تنفيذ حكم بالإعدام؛ والهجوم الأول لسونغ جيانغ على مزرعة عائلة تشو

أنهض يانغ شيونغ الرجل على قدميه، ونده على شي شيو. فسأله هذا: "من يكون هذا الأخ؟".

- اسمه دو تشينغ. وهو من ولاية تشونغشان. ولأن طلعته فظة راح الجميع ينادونه باسم وجه الشيطان. جاء إلى كيتشو في العام الماضي بصفة تاجر. وقتل واحدا من التجار الآخرين في قافلته في معركة، فاقتادوه إلى الحاكم الذي أمر بوضعه في سجني. خاطبته ورأيت أنه ماهر في القتال باشتباك متلاحم والمثاقفة بالعصي. فاستخدمت نفوذي وأطلقت سراحه. ولم أتوقع رؤيته في هذا المكان.

استوضح دو تشينغ: "أأنت هنا في مهمة رسمية، أيها المحسن إليَّ؟".

مال يانغ إلى أذنه قائلا: "قتلت رجلا في كيتشو، ورغبت في الانضمام إلى العصبة في بحيرة ليانغشان. أمضينا الليلة الماضية في خان عائلة تشو، فسرق شي كيان، وكان يسافر برفقتنا، ديكهم والتهمناه؛ فأثار خادمهم ضجة صاخبة. استبدَّ بنا الغضب فأضرمنا النار في الخان وهربنا في الليل. لحق بنا المطاردون فأجهزنا على عدد منهم، ولكن قضيبي خطافين برزا من الدغل وجرّا شي كيان بعيدا. طوَّفنا في الأرض إلى أن وصلنا إلى هنا. وكنا نهمُّ بالاستفسار عن الطريق حين دلفت على حين فجأة، يا أخي".

- لا تترك الأمر يقلق تفكيرك أيها المفضال. سأجعلهم يعيدون شي كيان إليكما.

- اجلس وتناول الشراب معنا.

جلس الرجال الثلاثة وشربوا. وقال دو تشينغ: "منذ أن غادرت كيتشو استفدت إفادة جمة من إحسانك. فقد استلطفني موظف كبير هنا وعينني قهرمانا له. وفي كل يوم أصرِّف له شؤون أهل بيته البالغة ألف شيء وشيء. وهو يثق بي ثقة عمياء. وهذا ما يحول بيني وبين العودة إلى البيت".

- ومن يكون هذا الموظف الكبير؟

- أمام جبل التنين الوحيد تقوم ثلاث صخرات، وعلى كل منها قرية. وتقوم قرية تشو في الوسط، وقرية عائلة هو في الغرب، وقرية عائلة لي في الشرق. هذه القرى الثلاث ومزارعها تضم جميعا قرابة عشرين ألف رجل مقاتل. ومزرعة عائلة تشو هي الأقوى بينها. ويرأسها اللورد تشو، ولديه ثلاثة أبناء يعرفون باسم المحاربين الثلاثة. والكبير يدعى التنين، والأوسط يدعى النمر، والأصغر يدعى شبل النمر. ولديهم مدرب للسلاح يدعى لوان تينغ يوي المعروف باسم العصا الحديدية، إذ لا يضارعه في قوته عشرة آلاف رجل. وفي المزرعة حوالى ألفين من الخدم الذين لا يرهبهم شيء.

وعائلة هو إلى الغرب يرأسها المحترم هو. وله ولد يدعى هو تشنغ، النمر الطائر، وهو مقاتل مقدام. كما أن له ابنة أيضا، وهي فتاة صنديدة القوة، وتعرف باسم عشر أقدام من الصلب لأنها تحمل سيفين طويلين براقين. وهي ماهرة في ركوب الخيل.

ومعلمي يرأس المزرعة الشرقية. ويدعى لي ينغ. وهو ماهر في استخدام الرمح الحديدي المنقط. ويحمل على ظهره خمس سكاكين مخبأة. ولديه القدرة على إصابة رجل بها عن بعد مائة خطوة في أسرع من لمح البصر.

وبين هذه القرى الثلاث عهد وميثاق. إن هوجمت إحداهما من قبل مثيري الشغب هبت الأخريان إلى نجدتها. وهي تخشى أن يقوم الفتيان الشجعان في بحيرة ليانغشان بالإغارة عليها سعيا وراء الحبوب، فعمدت إلى وضع خطط للدفاع عن نفسها معاً. سأصطحبُك لمقابلة معلمي، وسنطلب إليه أن يخطَّ لنا رسالة تطالب بالإفراج عن شي كيان".

استفسر يانغ شيونغ: "معلمك لي ينغ، أليس هو المعروف في أخوية الشجعان باسم النسر المحلق إلى السماء؟".

- هو نفسه.

قال شي شيو: "سمعت أن لي ينغ من جبل التنين الوحيد فتى شهم. إذاً هو من هذه الأرجاء. ويقولون إنه مقاتل مرموق، ورجل حقيقي. سنذهب إليه".

طلب يانغ قائمة الحساب من الساقي، فأصرَّ دو تشينغ على دفعه. غادر الثلاثة الحانة، وقادهما دو إلى مزرعة عائلة لي التي كانت ضخمة. مقدمتها تقوم على خليج نهري، ومحاطة بجدران مطلية باللون الأبيض؛ تنمو إلى جانبها المئات من أشجار الصفصاف كل منها أثخن من أن يلفها رجلان بذراعيهما. اجتازوا جسرا متحركا يقود إلى بوابات المزرعة ودلفوا إليها. وكانت هناك عشرون حمالة للأسلحة عن كل من جانبي الحجرة الخارجية للردهة الرئيسة تعجُّ كلها بأسلحة براقة.

قال دو: "أرجو أن تنتظراني هنا قليلا، يا أخويَّ. سأُعلم المعلم بقدومكما".

دلف دو تشينغ إلى الداخل، وسرعان ما رجع أدراجه برفقة لي ينغ. اصطحب دو كلا من يانغ وشي إلى حجرة الاستقبال حيث سجدا. فردَّ لهما لي ينغ التحية ودعاهما إلى الجلوس. تحادث الزائران ومضيفهما في أدب حول من يجلس في هذا المكان أو ذاك، إلى أن أخذ كل منهم لنفسه مقعدا. وطلب لي خمرة.

سجد الزائران مرة أخرى وقالا: "نتوسل إليك، يا سيدي، أن تبعث رسالة إلى مزرعة عائلة تشو تطالب فيها بالإبقاء على حياة شي كيان. ولن ننسى أبداً إحسانك الآن أو في المستقبل".

استدعى لي ينغ كاتب العائلة، وأملى عليه رسالة وضع عليها خاتمه، ثم أمر مساعده الوكيل أن يوصلها حالا على الأسرع بين الجياد، وأن يعود برفقة الأسير. أخذ الرجل الرسالة، وامتطى حصانه، وغادر المزرعة. فعبَّر يانغ وشي عن شكرهما.

قال لي ينغ: "لا تقلقا. حين يستلمون رسالتي فسيطلقون سراحه".

شكره الزائران مرة أخرى، فقال المضيف: "أرجو أن ترافقاني إلى الغرفة الخلفية. سنجرع

بعض الأكواب خلال انتظارنا".

رافقاه إلى الغرفة فألفيا فطورا جاهزا. وحين انتهوا من تناول الطعام جيء بالشاي. سألهما لي بعض الأسئلة عن المثاقفة بالرماح. فدلت أجوبتهما على أنهما خبيران بما يقولانه، فأهرق ذلك الغبطة في جوانحه.

عند انتصاف الصباح رجع المساعد الوكيل، فسأل لي ينغ من الغرفة الخلفية: "أين الرجل الذي بعثنا بك لإحضاره؟".

قال المراسل: "دخلت بالرسالة وأنا واثق من أنهم سيخلون سبيله. وبدلا من ذلك خرج الأبناء الثلاثة وقد ارتسمت في ملامحهم علائم الغضب. ورفضوا الإجابة عن رسالتك مثلما رفضوا إطلاق سراح الرجل. وهم عازمون على تسليمه إلى سلطات الولاية".

انشده لي ينغ: "يربط بين قرانا تحالف حياة أو موت، وينبغي أن يحترموا رسالتي. فكيف يتصرفون على هذا الغرار؟ لا بدَّ أنك أغلظت لهم في الكلام كي يجابهوني بمثل هذا الجواب". والتفت إلى دو تشينغ: "أيها القهرمان، يحسن أن تذهب إليهم بنفسك. قابل اللورد تشو شخصيا، واشرح له الملابسات".

- سأفعل ذلك، يا سيدي، ولكنني أقترح أن تكتب رسالة بخط يدك. وعندها لا بد من أن يخلوا سبيله.

قال لي ينغ: "حسن". وكتب رسالة على صحيفة من الورق مزينة بالأزهار، وأضاف خاتمه الشخصي إلى غلافها، وناولها إلى دو تشينغ.

أخرجوا له حصانا سبوحا من الإسطبل، وجهزوه بالسرج والركاب. وحمل دو في يده سوطا، وخرج من بوابات المزرعة، واعتلى صهوة الجواد، وانهال عليه بضربة لاسعة، فانطلق يتواثب به ناحية مزرعة عائلة تشو.

قال لي ينغ مخاطبا ضيفيه: "هوِّنا عليكما. حين يستلمون هذه الرسالة الشخصية فسيطلقون سراحه على الفور".

أثنى يانغ شيونغ وشي شيو على المحترم شاكرين. واحتسى الخمرة معهما وهم ينتظرون في الحجرة الخلفية.

كان ضوء النهار قد بدأ يسودُّ، ولكن دو تشينغ لم يرجع بعد. قلق لي ينغ، فأرسل رجالا إلى الطريق ليستقبلوه في أثناء عودته. وسرعان ما رجع خادم وأعلن قائلا: "القهرمان دو يقترب من المزرعة".

- ومن يرافقه؟

- إنه عائد وحده.

هز لي ينغ رأسه مشدوها: "هذا أمر غريب حقا. لم يكن من عادته أن يبطئ. ففيم هذا التباطؤ منه اليوم؟".

غادر الردهة يتبعه يانغ وشي. ترجَّل دو وهمَّ بدخول بوابات المزرعة. كان وجهه عابسا

بالغضب وقد كشَّر عن أنيابه، وعجز عن الكلام طوال دقائق.

قال لي ينغ: "أخبرنا بالتفصيل ماذا حدث؟".

تمالك دو تشينغ أعصابه جاهدا، ثم قال: "حملت رسالتك إلى بوابتهم الكبيرة الثالثة، وعثرت على الأبناء الثلاثة جالسين هناك مصادفة. ألقيت عليهم التحية في أدب. فشخر شبل النمر: ماذا تريد؟ انحنيت وقلت: أرسلني معلمي بهذه الرسالة لأسلمها إليكم باحترام. فأظلم وجهه، وأجاب قائلا: كيف يمكن أن يكون معلمك جاهلا إلى هذا الحد؟ إن الغبي الذي أرسله هذا الصباح حمل إلينا رسالة بخصوص قاطع الطريق شي كيان من بحيرة ليانغشان. سوف نأخذه إلى الوالي. ففيم جئت من جديد؟ فقلت: شي كيان ليس عضوا في عصبة بحيرة ليانغشان، بل هو تاجر من كينشو جاء لرؤية معلمي. ووقع سوء تفاهم فأحرق خانكم. وقد تعهد معلمي بإعادة بنائه. مجاملة لنا أرجو أن تترفقوا وتصفحوا عنه. فصاح الأشقاء الثلاثة: لن نخلي سبيله. فقلت: رجاء، يا أسيادي، أن تقرأوا هذه الرسالة التي كتبها معلمي. فأخذها شبل النمر ومزقها إربا من دون أن يفتحها.

وصرخ برجاله أن يرموني خارج المزرعة. وقال لي هو والنمر: لا تجعل أسيادك يغضبون، وإلا... لم أكن أرغب في أن أخبركم بهذا، ولكن أولئك الحيوانات كانوا قساة حقا- اختطفنا لي ينغ وجررناه إلى المحكمة باعتباره قاطع طريق من بحيرة ليانغشان أيضا! وصرخوا بخدمهم أن يلقوا القبض عليَّ، ولكنني وثبت على صهوة حصاني وهربت. كنت أغلي من الغضب طوال الطريق إلى البيت. يا للأوغاد! بعيد هذه السنوات الطويلة من التحالف الطيب يتصرفون على هذه الصورة الفظة!".

حين سمع لي ينغ هذه الكلمات تفجر غضبه من عقاله وانطلق صوب السماء. زمجر قائلا: "أيها الخدم، جيئوني بجوادي!".

ترجاه يانغ وشي قائلين: "أفرخ غضبتك، يا سيدي. لا تحطم وفاقكم المحلي من أجلنا".

لم يعرهما لي أذنا صاغية. لبس درعا ذهبية محلاة بأقراص على شكل وجوه حيوانية في الصدر والظهر، وارتدى فوقها عباءة حمراء فضفاضة. وثبَّت وراءه خمس سكاكين من النوع الذي يستخدم في القذف. وتناول رمحه الفولاذي، ووضع على رأسه خوذته الشبيهة بعنقاء مجنَّحة، وخرج من بوابات المزرعة، واختار ثلاثمائة من خدمه الأشدّاء. وارتدى دو تشينغ بدوره درعا، وأخذ رمحا، وامتطى صهوة حصانه. ورافقه عشرون فارسا آخر. وشمَّر يانغ وشي عن ثوبيهما، وحمل كل منهما مطرده بيده ولحقا بحصان لي ينغ فيما راحت الجماعة تخطو مقتربة بسرعة من مزرعة عائلة تشو.

كانت الشمس تميل إلى الغروب فوق الهضاب الغربية حين وصلوا إلى صخرة التنين الوحيد، وانتشروا على شكل تشكيل قتالي. كانت القرية قائمة بصورة استراتيجية جيدة فوق صخرة يحيط بها جدول مائي عريض. وكانت مسورة بثلاث مجموعات من الجدران واحدة بعد الأخرى، وكل منها بارتفاع عشرين قدما، ومبنية من الصخر الصلد. وكانت البوابتان الأمامية والخلفية للمزرعة مجهزتين بجسرين متحركين. وبين الجدران أقيمت أكواخ مدججة بالأسلحة، وفوق محرس البوابة على السور طبول وأبواق.

شدَّ لي ينغ لجام جواده أمام المزرعة، وصاح: "يا أبناء عائلة تشو الثلاثة. كيف تجرؤون على تشويه سمعتي؟".

فتحت بوابات المزرعة وخرج منها خمسون أو ستون فارسا، يسير في مقدمتهم على صهوة حصان خصي كستنائي فاحم اللون شبل النمر، الابن الثالث للورد تشو.

رعَّص لي ينغ إصبعه في وجه الفتى: "رائحة الحليب لم تذهب عن شفتيك بعد. ولا يبرح رأسك مزدانا بشعر طفولي. وقد أقام والدك معي تحالفا في الحياة والموت، وتعاهدنا على الدفاع عن قرانا معاً. وحين تكون أسرتكم في أزمة وتحتاج إلى الرجال نقدم هؤلاء الرجال على الفور. وحين تكون في حاجة لا نبخل أو نقتِّر. وهذا النهار أرسلت إليكم رسالتين عن حسن نية. ففيم مزقتموهما؟ أتهينونني؟ لم ارتكبتم مثل هذه الفعلة الشنيعة؟".

أجاب شبل النمر: "أجل، عقدنا معك اتفاقا على الدفاع عن مصالحنا المشتركة، وعلى القبض على أي قاطع طريق من بحيرة ليانغشان وتدمير مأواهم الجبلي. فكيف تقدم على التعاون معهم؟ هل تنتوي أن تصير ثائرا أنت الآخر؟".

- لم تقول إن شي كيان من بحيرة ليانغشان؟ أنت تسيء إلى رجل بريء. وهذه جريمة.

- لقد اعترف بذلك. وأكاذيبك لا تجديك نفعا. فهي لا يمكن أن تخفي الحقائق. والآن، اخرج من هنا. وإن لم تمتثل فسنقبض عليك بصفتك قاطع طريق ونسلِّمك إلى السلطات أيضا.

احتدم غضب لي ينغ، فساط حصانه وانقضَّ على شبل النمر ممسكا برمحه. ودفع الفتى حصانه قدما، وتعارك الاثنان أمام صخرة التنين الوحيد. أماما ووراء، صعودا وهبوطا، راحت جولاتهما تتوالى فبلغت ثمانين جولة. وأدرك شبل النمر أنه لن يستطيع التغلب على خصمه فأدار جواده وهرب. طارده لي ينغ. أراح شبل النمر رمحه على عنق حصانه، وركَّب سهما في قوسه، وشد الوتر عن آخره. استدار على السرج، وصوب، وأطلق. راغ لي ينغ من طريقه، ولكن السهم أصابه في كتفه، فسقط على الأرض. أدار شبل النمر حصانه وشرع في العودة وفي نيته إلقاء القبض عليه.

أطلق يانغ شيونغ وشي شيو صرخة رنانة واندفعا على الممر في وجه حصان الفتى وقد أشرعا مطرديهما. وأدرك شبل النمر أنه لا يكافئهما قوة، فأدار حصانه من جديد على عجل. وطعن يانغ الحصان في حاركه، فشبَّ موجوعا، وكاد أن يقذف براكبه. وشرع حملة سهام عائلة تشو، الذين يلحقون بالفرسان، بإطلاق سهامهم على يانغ وشي. ولم يكن هذان مدرعين، فاضطرا إلى التراجع. وفي هذه الأثناء، أنهض دو تشينغ لي ينغ على حصانه وابتعد به، وتراجع يانغ وشي في أعقاب خدم أسرة لي المتقهقرين، فطاردتهم قوات عائلة تشو مسافة ثلاثة ليات تقريبا. وكان ضوء النهار ينحسر، فرجعوا عائدين إلى مزرعتهم.

قفل دو تشينغ إلى البيت حاملا لي ينغ. ترجَّل عند البوابة وساعد معلمه في دخول الغرفة الخلفية. وجاءت نسوة البيت للعناية به، فانتزعن السهم، وخلعن الدرع، ووضعن على الجرح كمادة.

في تلك الليلة تشاور الرجال. فقال يانغ وشي مخاطبين دو تشينغ: "ذلك النذل أهان لي ينغ. وجرحه بسهم ولم نستطع إنقاذ شي كيان. هذه غلطتنا لأننا ورطنا معلمك في القضية. سنذهب نحن

الاثنان إلى جبل ليانغشان ونطلب إلى تشاو وسونغ والقادة الآخرين أن يجيئوا ويثأروا له وينقذوا شي كيان". وشكرا لي ينغ واستأذنا في الرحيل.

قال لي ينغ:

"ليست القضية في أني لم أبذل مسعاي، ولكنهم يفوقوننا عددا بكثير. أرجو أن تصفحا عني". وأمر دو تشينغ أن يقدم ليانغ وشي فضة وذهبا. رفضا قبول ذلك، فقال لي: "جميعنا من أخوية الشجعان، فليس هناك ما يدعو إلى المجاملة".

عندها قبلا هداياه. وسجدا وألقيا تحية الوداع. رافقهما دو تشينغ إلى حدود القرية ودلهما على الطريق الرئيسة، ورجع أدراجه إلى مزرعة عائلة لي. ولن نزيد في هذا الموضوع حديثا.

اندفع يانغ وشي في طريقهما إلى بحيرة ليانغشان. ورأيا على الطريق أمامهما على البعد حانة مقامة حديثا، وشعارها تخفق به الريح. وصلا إليها، وأمرا بشراب، واستعلما عن معالم الطريق. كانت تلك الحانة في الحقيقة مكانا للمراقبة أقامه مؤخرا رجال جبل ليانغشان. وكان شي يونغ مسؤولا عنه. سمعهما يسألان الساقي عن كيفية الوصول إلى القلعة، ورأى أنهما لا يمكن أن يكونا من الأشخاص العاديين، فمشى صوب منضدتهما.

سأل: "من أين أنتما، أيها السيدان؟ وفيم ترغبان في الصعود إلى الجبل؟".

أجاب يانغ شيونغ: "نحن من كيتشو".

تذكر شي يونغ فجأة: "إذاً لا بدَّ أنك شي شيو".

– كلا، أنا يانغ شيونغ. وهذا شي شيو. كيف تعرف اسمه، يا أخي؟

– نحن لم نلتق. ولكن الأخ داي زونغ توقف هنا منذ فترة قصيرة وهو في طريق عودته من كيتشو وأخبرني عنه أشياء كثيرة. واليوم طلبتما الصعود إلى الجبل. وهذه أنباء طيبة.

تبادل الثلاثة التحيات، وروى يانغ وشي لشي يونغ قصتهما مع عائلة تشو. فأمر الخادم أن يقدم لهما أفضل أنواع الخمور. وفتح نافذة الجوسق المطلّ على المياه، وشدَّ قوسه، وأطلق سهما صافرا. وعلى الفور جاء قاطع طريق يجذف قاربا إلى مجمع القصب في الخليج المقابل. ورافق شي يونغ الرجلين في الصعود إليه، وأوصلهما إلى شاطئ منقار البطة. وأرسل رجلا ينبئ بمقدمهما، فهبط داي زونغ ويانغ لين عن الجبل لاستقبالهما. وبعد أن تبادلوا التحيات انطلقوا إلى القلعة جميعا.

حين تناهى الخبر إلى القادة أن هناك رجلين شجاعين قد وصلا، عقدوا اجتماعا في الردهة وجلسوا على المقاعد وفقا لتسلسل مراتبهم. وقاد داي زونغ ويانغ لين القادمين الجديدين يانغ شيونغ وشي شيو وقدماهما إلى تشاو وسونغ والقادة الآخرين. فاستجوبهما تشاو في دقة عن تجاربهما السابقة، فأخبراه عن مهارتهما في استخدام السلاح ورغبتهما في الانضمام إلى العصبة. واغتبط القادة بذلك، وقدموا لهما مقعدين.

قال يانغ شيونغ بعد فترة من الزمن: "هنالك شخص يدعى شي كيان أراد الانضمام إليكم أيضا. ومن سوء حظه أنه سرق ديكا يبشّر بقدوم الصباح في حانة عائلة تشو فتعرضنا للتوبيخ. فأحرق شي شيو الحانة وألقي القبض على شي كيان. وأرسل لي ينغ رسالتين يطلب فيهما إخلاء سبيله،

ولكن أبناء عائلة تشو الثلاثة رفضوا ذلك. وأقسموا يمينا على جرّ جميع الشجعان في هذه القلعة إلى السلطات، وأطلقوا الشتائم واللعنات عليكم يوميا. أولئك الأوغاد لا يملكون شيئا من الوجدان".

لو لم ينطق بهذه الكلمات لما حدث شيء. ولكنه فعل، فثارت غضبة تشاو غاي، وصاح في قطاع الطرق المحتشدين: "أيها الرجال، خذوا هذين خارجا واقطعوا رأسيهما وأعلموني".

فتدخل سونغ جيانغ على الفور قائلا: "هوِّن عليك، يا أخي. لقد جاء هذان المحاربان من مسافة بعيدة تحدوهما فكرة وحيدة؛ ألا وهي مدّنا بالمعاونة. ففيم تودُّ إعدامهما؟".

- منذ أن تولى فتياننا الشجعان الأمور بدلا من وانغ لون، وضعنا الشهامة والسلوك الحسن في المحل الأول بالنسبة إلى الناس. وقد نزل عن الجبل أخ بعد الآخر، ولكن أحدا منهم لم يسئ إلى سمعتنا. وجميع إخوتنا، القدامى والجدد، يحافظون على شرفهم وشهامتهم. وهذان الوغدان، باسم شجعان بحيرة ليانغشان، سرقا ديكا وأكلاه، فأساءا إلى سمعتنا. ينبغي ضرب عنقيهما، وعرض رأسيهما في الساحة عبرة للآخرين. وسأقود قواتي شخصيا وأنظف قرية عائلة تشو كي لا نخسر هيبة شجاعتنا وبسالتنا. أيها الرجال، اقطعوا رأسيهما!

قال سونغ جيانغ: "رويدا. ألم تسمع ما قاله هذان الأخوان لتوِّهما؟ لقد كان شي كيان، البرغوث على الطبل، خفيف اليدين على دوام. وما قام به هو السبب في استفزاز عائلة تشو. فكيف أساء هذان الأخوان إلى قلعتنا. لقد سمعت كثيرا من الناس يقولون إن مزرعة عائلة تشو تناصبنا العداء. أفرخ غضبتك، يا أخي. لدينا وفرة من الرجال والخيول، ولكن لدينا قلة من المال والحبوب. وعلى الرغم من أننا لا نتطلع إلى إثارة المصاعب مع عائلة تشو، غير أن أفرادها هم الذين باشروا بالاستفزاز، وها قد أتيحت لنا فرصة طيبة للهبوط عن الجبل وتأديبهم. حين نهزم المزرعة سنستولي على ما يكفي من الحبوب لتموييننا طوالَ أربع أو خمس سنوات. لم نكن نبحث عن سبب لإيقاع الأذى بهم، غير أن أولئك الأوغاد على ما يكفي من الفظاظة حقا. أنت القائد الأعلى هنا، يا أخي. ففيم ينفجر غضبك على شؤون تافهة؟ أنا لا أملك موهبة، لكنْ إن رافقتني فرقة من الرجال والخيول، وبمعونة عدد من إخوتنا، فلسوف أنقض على مزرعة عائلة تشو بكل طيبة خاطر. إن لم نمسحها عن وجه الأرض فلن نعود أدراجنا إلى هنا. فقبل كل شيء وحده الثأر هو الذي يحفظ لنا سمعتنا. ثانيا، من واجبنا أن نرد لأولئك الحقيرين التافهين الإهانة التي ألحقوها بنا. وثالثا، سنحصل على كمية كافية من الحبوب نستخدمها في قلعتنا. ورابعا، في مقدورنا أن نطلب إلى لي ينغ أن يحضر وينضمَّ إلينا".

قال وو يونغ: "فكرة رائعة. نحن سكان القلعة لا ينبغي أن نحطم رجالا من أمثالنا بأيدينا".

قال داي زونغ: "أتمنى أن تقطعوا رأسي بدلاً من أن أؤذي أحدا من رفاقنا".

نزل تشاو غاي أخيرا عند رجاء جميع القادة وصفح عن يانغ شيونغ وشي شيو. وأجزلا له الشكر وسجدا.

خاطبهما سونغ جيانغ قائلا في رفق: "لا تغضبا. تلك قاعدة في قلعتنا، وينبغي علينا أن نطيعها. أنا، نفسي، يمكن أن يدقَّ عنقي إن خالفتها. وليس لي أن أترقب أي صفح حينها. لقد صار

بي شيوان، الفضيلة المدرَّعة، قائدا للشرطة العسكرية مؤخرا، وأذيعت الأنظمة المتعلقة بالمكافآت والعقوبات. فلا تحقدا علينا رجاء".

طلب تشاو إلى يانغ شيونغ وشي شيو أن يجلسا بعد يانغ لين، ودعي جميع قطاع الطرق من مختلف الرتب للمشاركة في تهنئة القائدين الجديدين. ونُحرت أبقار وخيول وأقيمت مأدبة عامرة. وخصَّ يانغ وشي بجناحين للسكن، ثم انتدب بعض قطاع الطرق للعمل كأتباع لكل منهما.

انتهت المأدبة تلك الليلة، وفي اليوم التالي أقاموا مأدبة أخرى. ثم تشاور القادة. فأمر سونغ جيانغ الفضيلة المدرَّعة أن يضع قائمة بأسماء رجال يهبطون عن الجبل، ودعا القادة الآخرين إلى مرافقته في الغارة التي سيشنها على مزرعة عائلة تشو، فقد عزم على إبادتها ومحوها من الوجود. وتم الاتفاق على أن يبقى وو يونغ وليو تانغ والأشقاء الثلاثة يوان وليوي فانغ وقوه شنغ للدفاع عن القلعة بالإضافة إلى تشاو غاي. أما الذين يقومون على حراسة الشاطئ والبوابات والحانات فسيبقون في مراكزهم. أما القادم جديدا منغ كانغ الذي انتدب لبناء القوارب، فسوف يحلُّ محل ما لين كمشرف على السفن الحربية. وكتب إعلان خطي يشير إلى أن القادة المشتركين في الغارة على مزرعة عائلة تشو وزعوا في وحدتين. تضم الأولى سونغ جيانغ وترأس جماعة من ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان. وحين تتجهز هذه الوحدة وتحمل دروعها تنطلق أولا طليعة للحملة.

وتضم الوحدة الثانية لين تشونغ، وتتألف بدورها من ثلاثة آلاف من المشاة وثلاثمائة من الفرسان. وتتبع الوحدة الأولى كتعزيز لها.

وسيبقى سونغ وان وتشنغ تيان شو للدفاع عن القلاع الصغيرة على شاطئ الرمال الذهبية وشاطئ منقار البطة على التوالي، ويبقيان مسؤولين عن تزويد المهاجمين بالحبوب والأعلاف.

ودَّع تشاو غاي المغيرين ورجع إلى القلعة.

انطلقت وحدة سونغ جيانغ مباشرة إلى مزرعة عائلة تشو، ولم تقع لها على الطريق أية حوادث مشؤومة، وسرعان ما اقتربت من جبل التنين الوحيد. وحين لم يعد يفصلها عنه أكثر من لي واحد أقامت معسكرا، ونصبت خيمة سونغ جيانغ في الوسط فجلس فيها يتشاور وهوا رونغ. قال: "سمعت أن الطرق إلى المزرعة مملوءة بالخدع، وأن من الصعوبة بمكان على الجنود أن يسيروا عليها. سأرسل رجلين يستكشفان أفضل الممرات. وعندها نستطيع التقدم وقتال العدو".

قال لي كوي: "لقد بقيت فترة طويلة عاطلا عن أي عمل، يا أخي. ولم أقتل رجلا واحدا. دعني أذهب أولا".

قال سونغ جيانغ: "ليس أنت، يا أخي. إن احتجنا إلى انقضاض مفاجئ فسأبعث بك. أما هذا العمل فيتطلب الأناة والروية. ولا تصلح أنت له".

ضحك لي كوي وقال: "تلك المزرعة اللعينة. فيم تزعج نفسك؟ سأصحب مائتين أو ثلاثمائة من الشبان، ونشقُّ لأنفسنا طريقا ونقتل جميع أولئك الأوغاد. فما حاجتك إلى كشافين؟".

- أنت تهرف. اخرج من هنا، ولا تعد إلا إذا ناديت عليك.

خرج لي كوي وهو يهمهم بينه وبين نفسه: "كل هذا الضجيج من أجل سحق بعض الذباب".

استدعى سونغ جيانغ إليه شي شيو وقال: "لقد كنت هنا قبلا. أريدك أن تستكشف المكان برفقة يانغ لين".

- إذا كنت قد حضرت مع مثل هذه القوة الكبيرة، فلا ريب أنهم أخذوا أهبتهم في المزرعة. فكيف يمكن أن نتنكر؟

قال يانغ لين: "سأتنكر في لباس طارد للأرواح الشريرة وأخفي في طيات ثيابي سكينا. وسأحمل عجلة للصلاة خلال سيري. حين تسمع صوتها أسرع إليَّ وابق إلى جانبي".

قال شي شيو: "لقد بعت الزيوت في كيتشو. سأحمل قليلا منه وكأنني عاودت بيع هذا الصنف. وسأخفي بدوري سلاحا. وفي حال الضرورة أستطيع أن أستخدم قضيب الحمل أيضا".

- حسن. سنتفهم التفاصيل، ونهيئ كل شيء هذه الليلة، وننهض في فترة الحراسة الخامسة ونرحل.

في صبيحة اليوم التالي انطلق شي شيو أولا بحمله من الزيت. وقبل أن يجتاز عشرين ليا صادفته متاهة معقدة من الممرات بدت وكأنها تدور في حلقات عبر غابات كثيفة من الأشجار. وسمع إلى الوراء منه صدى عجلة للصلاة تقترب. كان يانغ لين، وقد وضع على رأسه قبعة مكسوة من القش، وخلع على جسده عباءة كاهن قديمة ودفع أمامه عجلة للصلاة يقترب منه في خطوات راسخة. ولم يكن ثمة إنسان آخر على مرمى البصر، فخاطبه شي شيو قائلا: "هذه الممرات جميعا تدور وتلف. ولا أستطيع أن أتذكر الممر الذي سلكته ولي ينغ ذلك النهار. كان الوقت ظلمة، وكانوا يعرفون الطريق ويسيرون في سرعة، فلم أتمكن من إلقاء نظرة جيدة".

- ابتعد عن هذه الممرات إذاً، واتخذ الطريق الرئيسة.

ألقى شي شيو حمله على كتفه من جديد وتابع سبيله. فلمح أمامه قرية وعدة حانات ودكاكين جزارين. فسار إلى بوابة إحدى الحانات فرأى أن مجموعة من حاملات الأسلحة تنتصب أمام كل دكان، وأن جميع الرجال في هذه الدكاكين يلبسون ثيابا ذهبية وقد زخرفت ظهورها بكلمة "تشو". وكان الناس في الشوارع يلبسون مثل هذه الثياب أيضا.

فألقى شي شيو على شيخ كان يمر إلى جانبه تحية محترمة وسأله: "أيمكن أن أسألك عن عادة محلية، أيها الجد؟ فيم هذه الأسلحة أمام كل باب؟".

- من أين أنت، أيها الغريب؟ إن كنت لا تدري فيحسن أن تغادر المكان حالا.

- أنا بائع للبلح من شاندونغ، أضعت رأسمالي ولا أستطيع العودة إلى بيتي. وأنا الآن أبيع زيت الوقود. ولا أعرف دروبكم المحلية.

- اذهب بسرعة. اختف عن الأنظار. ستقع ههنا معركة كبرى على الفور.

- كيف يمكن أن يحدث هذا في مثل هذا المكان اللطيف؟

- أتجهل ذلك حقا؟ حسن، سأخبرك. هذه القرية تدعى قرية عائلة تشو. ويحكمها اللورد تشو الذي تقوم مزرعته على هاتيك الصخرة. وقد أثار حفيظة الفتيان الشجعان في بحيرة ليانغشان، فجاءوا برجال وخيول ليقتلونا عن بكرة أبينا. ولكن الممرات المؤدية إلى قريتنا معقدة جدا، فأقاموا

معسكرهم خارجها. وقد أمرت المزرعة كل شاب مقتدر البنية أن يكون على أُهبة الاستعداد. وحين تصل الأوامر فسيندفعون لنصرة مقاتلينا.

- ما هو عدد سكان هذه القرية، يا جداه؟

- قرابة عشرين ألفا. وفي مقدورنا الاعتماد على معونة القريتين إلى الشرق والغرب منا. فالقرية الشرقية يحكمها لي ينغ النسر المحلق إلى السماء. والقرية الغربية يحكمها المحترم هو. وله ابنة تدعى عشر أقدام من الصلب تثير الرعب بأسلحتها.

- في هذه الحال ليس هنالك ما يثير رعبكم من ناحية بحيرة ليانغشان!

- هذا صحيح. لو أننا وصلنا لتوّنا فقد كان يمكن اعتقالنا بكل سهولة.

- ماذا تقصد، يا جداه؟

- إن لدينا أغنية تقول:

قريتنا مستوية
دروبها ملتوية
سهل دخولها
صعبٌ خروجها!

فشرع شي شيو يبكي، وتهاوى على الأرض، وخرَّ ساجدا وصاح: "أنا تاجر فقير أضعت رأسمالي على الطريق ولم أعد أستطيع العودة إلى البيت، فبدأت أبيع زيت الوقود. هذا شيء رهيب. فقد أرسيت في قلب معركة لا أستطيع منها فكاكا. هب لي من لدنك رحمة، يا جداه. سأعطيك هذا الحمل من الوقود، لكن دلني على سبيل إلى الخروج!".

- لست أريد وقودك مجانا. سأشتريه منك. تعال معي سأقدم لك قليلا من الطعام والشراب.

شكره شي شيو، وحمل حمله، ورافق الشيخ إلى منزله. صبّ له مضيفه طاسين من النبيذ الأبيض، وملأ طاسا أخرى بعصيدة الأرز، ووضعها أمامه. فعبَّر له شي شيو عن شكره من جديد. وتوسل ضارعا: "جداه، أخبرني كيف أخرج من هنا".

- ما عليك إلا أن تنعطف حيثما تعثر على شجرة حور بيضاء. اتبع أي ممر يبدأ من هنا، ضيقا كان أم عريضا. فأي ممر آخر يؤدي إلى طريق مسدودة. لا تلتفت إلى أية شجرة أخرى. إن اتبعت طريقا خاطئة فلن تخرج أبدا، سواء أذهبت يمنة أم يسرة. وآثار الطرقات المسدودة مكسوة بنتوءات من خشب البامبو المخفي والأشواك الحديدية. وقد تدوس عليها، ولا بدَّ عندئذ من القبض عليك. ولن تتاح لك فرصة الخروج من هنا.

سجد الشاب وأزجى له الشكر: "ما اسمك، يا جداه؟".

- غالبية الناس في هذه القرية يدعون تشو. وحدي وعائلتي ندعى تشونغلي. وقد أقمنا هنا دائما.

- لقد أخذت كفايتي من الطعام والشراب. وسأجزيك عن هذا جزاء حسنا في أحد هذه الأيام.

وفيما هما يتجاذبان أطراف الحديث تناهت إليهما ضجة صاخبة من الخارج. وصاح صوت:

"لقد قبضنا على جاسوس". أجفل شي شيو وأسرع الشيخ إلى الباحة. فرأيا سبعين أو ثمانين جنديا يخفرون رجلا أوثقوا يديه وراء ظهره، عرف شي شيو فيه يانغ لين. كانوا قد جردوه من ثيابه. فزمجر شي شيو في حنايا نفسه غضبا. التفت إلى الشيخ مستفسرا: "من يكون هذا؟ وفيم أوثقوا يديه؟".

- ألم تسمعهم يقولون إنه جاسوس أرسله سونغ جيانغ؟

- وكيف ألقوا القبض عليه؟

- إنه لنذل جسور. جاء وحيدا، بثياب راهب يطرد الأرواح الشريرة. وأقحم نفسه في القرية. وباعتبار أنه يجهل طريقه فهو لم يستطع غير أن يتبع الدروب الرئيسة. فالانعطاف يمينا ويسارا يقوده إلى طريق مسدودة. وهو لم يسمع شيئا عن شجر الحور الأبيض. ورآه أحدهم يطوف حول الانعطافات الخاطئة، فخطر له أن يتشكك فيه. فأرسل يخبر المزرعة، فأرسلوا منها رجالا يقبضون عليه. كان الرجال كثيرين، وكان هو قويا. وقد عرف الآن أنه لص. ويقولون إن اسمه يانغ لين النمر الأنيق.

وهتف صوت على الطريق: "لقد جاء الابن الثالث من المزرعة في دورية للمراقبة".

لمح شي شيو من خلال شق في جدار الباحة عشرين جنديا من المشاة يحملون رماحا لها شرابات حمراء يلحق بهم خمسة فرسان يحملون جميعا أقواسا وسهاما. ووراءهم ثمة أربعة أو خمسة من الفرسان على جياد بيضاء أحاطوا بمحارب شاب على خصي ناصع البياض. كان المحارب مدرعا، وقد انتضى قوسا وسهاما، وفي يده رمح. عرفه شي شيو ولكنه لم يظهر شيئا من ذلك.

- من هو هذا السيد المهذب الشاب الذي يمرُّ بنا؟

- إنه الابن الثالث للورد تشو، شبل النمر. وهو خطيب للعشر أقدام من الصلب من مزرعة عائلة هو القائمة إلى الغرب منا. إنه المقاتل الأشد إرهابا بين الأبناء الثلاثة.

شكر شي شيو الشيخ مرة أخرى، وقال: "أرجو أن تحدد لي أية طريق أسلك".

- لقد تأخر الوقت، وقد تنشب معركة الآن وتكون كمن يلقي بنفسه في التهلكة.

- أنقذني، يا جداه، أتوسل إليك.

- أقم ليلتك هنا. وغدا، إن هدأت الأمور، تستطيع أن ترحل.

شكره شي شيو، وأقام عنده. كان أربعة أو خمسة من الفرسان يتنقلون من باب إلى باب وينصحون للناس: "إذا شاهدتم إشارات من مصباح أحمر هذه الليلة، فاستخدموا القوة للقبض على قطاع الطرق من بحيرة ليانغشان وطالبوا بالمكافأة".

بعد انصرافهم استفسر شي شيو: "من كان ذلك الضابط الذي يرافقهم؟".

- إنه الشريف المحلي هنا. إنهم يعدون العدة الليلة للقبض على سونغ جيانغ.

أغرق شي شيو في التفكير بعد هذا النبأ. واستعار من بعد مشعلا، وألقى تحية المساء، وذهب

للنوم في كوخ من القش في مؤخر البيت.

كان سونغ جيانغ وقواته قد عسكروا خارج القرية. ولم يرجع شي شيو ويانغ لين. فأُرسل أو بنغ إلى مدخل القرية للاستكشاف، وسرعان ما رجع يقول: "يقول الناس إنهم قبضوا على جاسوس. وتلك الممرات بالغة التعقيد. فلم أجرؤ على الدخول إلى مسافة بعيدة".

غضب سونغ جيانغ غضبة مرة: "لا أستطيع انتظار أي تقرير بعد الآن. وهؤلاء يقولون إنهم ألقوا القبض على جاسوس. وهذا معناه أن أخوينا وقعا في كمين. سنهاجم هذه الليلة مهما تكن الظروف. وسنشق لأنفسنا طريقا إلى القرية وننقذهما".

والتفت إلى القادة الآخرين مستفسرا: "ما رأيكم في هذا؟".

قال لي كوي: "سأذهب أولا لمجرد إلقاء نظرة للتعرف على المكان".

أمر سونغ جيانغ جميع الرجال أن يسلحوا أنفسهم ويلبسوا دروعهم. وسينطلق لي كوي ويانغ شيونغ في الطليعة، وسيقود لي جيون القسم الأخير. ويتولى مو هونغ الجناح الأيسر، وهوانغ شين الجناح الأيمن. أما سونغ جيانغ وهوا رونغ وأو بنغ فيقودون الفرقة المركزية.

في وسط الأعلام الخفاقة، والقرع على الطبول والنفخ في الأبواق، هبَّ المهاجمون، وهم يصيحون ويلوحون بسيوفهم وفؤوسهم، ويسيرون مسرعين في اتجاه مزرعة عائلة تشو.

كان الغسق قد انتشر حين وصلوا إلى صخرة التنين الوحيد.

فاستحث سونغ جيانغ الفرقة المتقدمة على مهاجمة المزرعة. فاندفع لي كوي قدما مثل ومضة من النار، وقد تعرى حتى وسطه ولوَّح بفأسيه الفولاذيتين ولكنه ألفى جسر المزرعة المتحرك مرفوعا، وليس ثمة أضواء في أي مكان. وهمَّ لي كوي أن يلقي بنفسه في الخندق المائي ويقطعه سباحة، فأوقفه يانغ شيونغ قائلا: "لا. لا تفعل. إن كانوا قد أغلقوا بوابات المزرعة فلا بدَّ أنهم قد أعدوا لنا خدعة. رويدك ريثما يصل الأخ سونغ جيانغ، وعندها سنقرر خطوتنا المقبلة".

لم يكن لي كوي يحتمل مثل هذا الأمر. سدد ضربة بفأسيه، وصاح ناحية الصخرة: "يا لورد تشو، أيها المحتال الأحمق، اخرج إلينا! سيدك الإعصار الأسود هنا في انتظارك!".

فما جاءه من المزرعة جواب.

وصل سونغ جيانغ مع رجاله يتبعه يانغ. كانت المزرعة ساكنة. شدَّ لجام جواده وألقى نظرة. لم يكن ثمة سلاح أو جندي على مرمى البصر. فقال في نفسه وقد اتخذ جانب الحيطة: "لقد أخطأت. فالكتب السماوية تقول بكل وضوح: حذار من التهور في وجه العدو. أنا لم أدرك ذلك، بل فكرت في إنقاذ أخويَّ ليس غير، وتحركت بقواتي في قلب الليل. لم أتوقع قطّ أني حينما أصل إلى عمق العدو، إلى مزرعته بالذات، فلن أجد لجيشه أثرا. لا ريبة أنهم يضمرون لنا شيئا".

أمر فرقه الثلاث بالتراجع فورا. فاعترض لي كوي صائحا: "لقد قطعنا هذه المسافة الطويلة. ولا ينبغي أن نتراجع. سأشق وإياك لنفسينا طريقا. اتبعوني جميعا!".

قبل أن تخرج هذه الكلمات من بين شفتيه عرفت المزرعة بها. فقد شقت السماء إشارة طائرة.

والتهبت على الصخرة آلاف المشاعل على غير انتظار. وانهمرت السهام من محرس البوابة فوق السور. فقهقر سونغ جيانغ قواته على الفور على طول الطريق التي قدم منها. وأطلق الحرس تحت قيادة لي جيون صرخة: "لقد قطعوا الطريق علينا! لقد نصبوا لنا كمينا!".

أمر سونغ جيانغ رجاله أن يبحثوا عن طرقات أخرى. لوَّح لي كوي بفأسيه، وانقضَّ قدما، مفتشا عن خصومه من دون أن يعثر على جندي واحد منهم. وانطلقت من الصخرة إشارة أخرى. وقبل أن يتلاشى صوتها انفجرت أصداء راعدة من جميع الجوانب. وكاد سونغ جيانغ أن يفقد صوابه وقد نتأت عيناه وانفغر فمه. لقد وقع في المصيدة على الرغم من حنكته المدنية ومهارته العسكرية.

والحقيقة أن خطة للقبض على النمور والتنانين استخدمت لاعتقال رجل ترتعش له انفتاحات السماء وتهتز له جنبات الأرض.

كيف أتيح لسونغ جيانغ والقادة الآخرين النجاة؟ إن شئت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل الثامن والأربعون

وحدها عشر أقدام من الصلب تقبض على وانغ النمر القصير البدين؛ وسونغ جيانغ يهجم ثانية على مزرعة عائلة تشو

تطلع سونغ جيانغ حواليه من فوق ظهر جواده. كانت قوات العدو كامنة في انتظارهم في كل ناحية وصوب. فأمر رجاله بالقتال لشَقِّ طريق لأنفسهم باتجاه الطريق الرئيسة. وسرعان ما صافحت أذنيه من جديد صرخات الرعب والذعر. وحين استفسر عن السبب قال الرجال: "هذه الممرات كلها تنعطف دائريا. ومهما ذهبنا فيها فنحن نرجع إلى هذا المكان هنا".

قال: "تقدموا إلى حيث تجدون المشاعل، وحيث الناس يقطنون".

ولم تلبث طليعة القوات أن أطلقت صيحة من جديد: "لا نستطيع التوجه نحو المشاعل. فهذه الممرات مزروعة بنتوءات من خشب البامبو والأشواك الحديدية ومسدودة بأغصان حادة الرؤوس تشبه قرون الوعل".

زمجر سونغ جيانغ: "لقد تخلّت عني السماء".

في تلك الأثناء حدثت حركة في فرقة الجناح الأيسر بقيادة مو هونغ. وأعلن مراسل قائلا: "شي شيو هنا". ولم تمض برهة حتى اندفع شي شيو ملوحا بسيفه ناحية حصان سونغ جيانغ. وقال: "لا تذعر، يا أخي. أنا أعرف كيف أجتاز هذه الممرات. فمرّر كلمتي في هدوء: سيروا على أي ممر، أكان ضيقا أم عريضا، يبدأ من قرب شجرة حور بيضاء".

أصدر سونغ جيانغ الأمر الضروري. وما كادوا يقتربون خمسة أو ستة ليات أخرى حتى شاهدوا إلى الأمام منهم حشدا ضخما من رجال العدو وخيوله. فنادى على شي شيو وسأله: "فيم احتشد هذا الجمع من الرعاع هنا، يا أخي؟".

- إنهم يستخدمون مصباحا إشارة للتجمع.

أنعم هوا رونغ النظر من فوق جواده، وأشار بيده وخاطب سونغ جيانغ قائلا: "أترى هذا المصباح الذي يضم شمعة في وسطه بين الأشجار؟ حيثما تحركنا صوب الشرق أم صوب الغرب فهو يتحرك في اتجاهنا، وقواتهم تحتشد عند المصباح استعدادا للقائنا. إنه الإشارة التي يعتمدونها من دون ريب".

- وماذا يمكن أن نفعل بالمصباح؟

قال هوا رونغ: "الأمر سهل". رفع سهما إلى قوسه، وحث جواده على المضيّ قدما، وأطلق السهم. فأصاب المصباح الأحمر بضربة محكمة وأسقطه على الأرض.

حين لم يعد ثمة مصباح يهدي قوات العدو المحتشدة، وقع أفرادها في الفوضى، وأصدر سونغ

جيانغ أمره إلى شي شيو أن يدلَّ على الطريق، فشقوا لأنفسهم سبيلا خارجين من القرية.

انفجرت أصوات على الجبل إلى الأمام منهم، وراحت صفوف من المشاعل تتراقص رقصا وحشيا. فأمر سونغ جيانغ بالوقوف. وأرسل شي شيو يستقصي الأمر. فرجع بعد لحظات وأعلن قائلا: "إنها فرقة أخرى من قلعتنا جاءت لتعزيز قوانا ولبعثرة قوات العدو".

استحثَّ سونغ جيانغ رجاله على المضيّ قدما في القتال شاقين لأنفسهم سبيلا إلى الخروج من القرية. وتقهقر جنود مزرعة عائلة تشو وانسحبوا.

انضمت قوات لين تشونغ وتشين مينغ إلى رجال سونغ جيانغ، وتوقف الجميع خارج القرية. كان ضوء النهار قد انبلج. فأقاموا معسكرا على أرض عالية وأحصوا رجالهم وخيولهم. كان هوانغ شين قاهر الجبال الثلاثة مفقودا. أجفل سونغ جيانغ وجعل يسأل عنه. فأوضح الرجال الذين رافقوه في الليلة الماضية قائلين: "حين تلقى القائد هوانغ أمرك انطلق يفتش عن طريق. ولكن خطافين انطلقا من بين القصب وأسقطا حصانه. وقبضت نصف دستة من الرجال على القائد وجروه بعيدا. ولم نستطع إلى إنقاذه سبيلا".

ثارت ثورة سونغ جيانغ. أراد أن يقتل جنود هوانغ لعدم إبلاغهم الأمر باكرا. فهدأ لين تشونغ وهوا رونغ من ثائرته بعد جهد. واضطرب الآخرون. قالوا: "لم نستول على المزرعة، وخسرنا أخوين بالإضافة إلى ذلك. فماذا نحن فاعلون؟".

قال يانغ شيونغ: "ثمة تحالف بين القرى الثلاث. غير أن لي ينغ، وهو الذي يحكم القرية الشرقية، أصيب بجرح من قبل شبل النمر قبل أيام، وهو يرتاح في منزله. لم لا تذهب وتشاوره في الأمر، يا أخي؟".

قال سونغ جيانغ: "لقد نسيت هذا الأمر. فهو يعرف المنطقة وأحوالها معرفة جيدة". وأمر بإحضار ثوبين من الحرير وخروفين وجرتين من الخمر على سبيل الهدية، بالإضافة إلى جواد ركوب جيد مجهز بسرج ولجام. وانطلق يقدم هذه الهدية بنفسه، تاركا لين تشونغ وتشين مينغ يقومان على حراسة المعسكر.

صعد في الجبل برفقته هوا رونغ ويانغ شيونغ وشي شيو وثلاثمائة من الفرسان متجهين إلى مزرعة عائلة لي. وحين وصلوا إلى الأسوار وجدوا محرس البوابة مغلقا والجسر المتحرك مرفوعا. وكان الجنود مصطفين وراء المتاريس. وأرعد في محرس البوابة طبل معركة. فصاح سونغ جيانغ من فوق جواده: "أنا سونغ جيانغ، محارب من جبل ليانغشان، جئت لزيارة لوردكم. ليست لي غاية أخرى. ولا ضرورة للتأهب ضدي".

حين رأى دو تشينغ أن يانغ شيونغ وشي شيو بين الحشد فتح البوابة المزرعة، وعبر الخندق المائي في قارب صغير، وحيّا سونغ جيانغ في احترام. ترجل سونغ جيانغ وردّ له التحية. واقترب يانغ شيونغ وشي شيو، وتوجها إلى سونغ جيانغ قائلين: "هذا هو الأخ الذي قدَّمنا إلى اللورد لي. وهو معروف باسم دو تشينغ وجه الشيطان".

– آه، أيها القهرمان دو. أيمكن أن أزعجك بإعلام اللورد لي أن سونغ جيانغ من بحيرة

ليانغشان سمع باسمه منذ زمن طويل على الرغم من أن الظروف لم تأذن لنا بلقاء؟ ولأننا في خصام مع مزرعة عائلة تشو مررنا من هنا. أود أن أهدي له شيئا من الحرير الملون، وجوادا مطهما، وخروفين، وقليلا من الخمرة- وهي هدية تافهة لا قيمة لها- وألتمس فرحة الاجتماع به. ولا أريد شيئا آخر.

نقل دو تشينغ الرسالة إلى المزرعة. كان لي ينغ جالسا على سرير في ردهته وقد ألقى لحافا على كتفيه يبلّ من الجرح الذي أصيب به. وأخبره دو تشينغ بما قاله سونغ جيانغ. فأجاب لي:

"إنه متمرد من بحيرة ليانغشان فكيف أستقبله؟ ورغم أن الأمر لا أهمية له، فإن السلطات قد ترتاب فيَّ. قل إني مريض في السرير، وإني لا أستطيع النهوض واستقباله. وأرجو أن يتاح لي هذا الشرف في يوم آخر. أما الهدايا فلا طاقة لي بقبولها".

عبر دو تشينغ الخندق المائي مرة أخرى وتوجه إلى سونغ جيانغ قائلا:

"معلمي يرسل احتراماته. كان يرجو أن يستقبلك شخصيا، ولكن جرحه أقعده في سريره ولن يستطيع أن يحييك. وسوف يحدد موعدا آخر في يوم آخر. أما الهدايا التي تكرمت بتقديمها فلا طاقة له بقبولها".

- أنا أعرف ما يدور بخلد معلمك. أنا أطلب رؤيته لأني فشلت في هجومي على مزرعة عائلة تشو. وهو يرفض مقابلتي لأنه يخشى أن يمتعضوا من ذلك.

- لا. ليس هذا هو السبب. هو مريض حقا. ورغم أني جئت من تشونغشان فقد أمضيت فترة طويلة هنا، وأعرف شيئا عن الأوضاع المحلية. إن مزرعة عائلة تشو تقوم في الوسط، ومزرعة عائلة لي إلى الشرق، ومزرعة عائلة هو إلى الغرب. وهنالك تحالف مبجل بأن تساعد إحداها الأخرى أيام الخطر. ولأن ابن تشو جرح معلمي، فهو لم يهبَّ إلى نجدتهم. أما عائلة هو فقد تفعل ذلك. ينبغي ألا يثيروا القلق باستثناء تلك المرأة القائدة عندهم، وتدعى عشر أقدام من الصلب بسبب السيفين البراقين اللذين تحملهما. إنها مقاتلة لا يشقّ لها غبار. وهي وشبل النمر من عائلة تشو مخطوبان، وسوف يتزوجان في أحد هذه الأيام. حينما تهاجمون مزرعة عائلة تشو لا تلقوا بالا إلى الشرق، بل راقبوا الغرب جيدا.

للمزرعة بوابتان، تواجه إحداهما مقدمة صخرة التنين الوحيد، وتواجه الأخرى المؤخرة. ولا فائدة من الانقضاض على البوابة الأمامية. بل ينبغي الهجوم على البوابتين في وقت واحد. هذا هو السبيل الوحيد إلى دخول المزرعة. والممرات المؤدية إلى البوابة الأمامية ملتفة ومعقدة، فهي تلتفّ وتلتفّ ويختلف عرضها بين ممر وممر. وحدها الممرات التي تبدأ من قرب أشجار حور بيضاء هي التي توصل إلى المزرعة. أما الممرات الأخرى فتوصل إلى طرق مسدودة".

قال شي شيو: "ماذا سيحدث إن قطعوا أشجار الحور البيضاء؟ كيف نستطيع عندها أن نتبين سبيل المرور؟".

- ستبقى الجذور قائمة، أليس كذلك؟ وستكون هذه الجذور دلالة لكم. هاجموا في وضح النهار وحسب. ولا تحاولوا التقدم ليلا.

قدَّم سونغ جيانغ شكره لدو تشينغ ورجع إلى المعسكر مع جماعته. والتقى لين تشونغ والآخرين على الدرب، ثم اتجهوا جميعا إلى المعسكر وتشاوروا. وحدثهم سونغ جيانغ عن رفض لي ينغ استقباله، وعن النصيحة التي قدمها دو تشينغ.

انفجر لي كوي قائلا: "أرسلنا له هدايا مع أطيب التمنيات، وذلك الوغد لم يتنازل فيخرج لتحية أخينا! أعطني ثلاثمائة رجل وسأحطم بوابة مزرعته اللعينة وأجرُّ ذلك الوغد من رأسه، وأرغمه على أن يقدم لأخينا الاحترام اللائق به!".

قال سونغ جيانغ: "أنت لا تفهم، يا أخي. إنه رجل شريف ومطيع للقانون. وهو خائف من السلطات. فكيف يمكن أن يقابلنا؟".

فطحن لي كوي أسنانه قائلا: "جبان مثل طفل صغير".

ضحك الجميع.

قال سونغ جيانغ: "ومع ذلك فإن اثنين من إخوتنا ألقي القبض عليهما، ولا نعرف ما إذا كانا على قيد الحياة أم قتلا. أرجو، أيها الإخوة، أن تبذلوا جهدكم وتنضموا إليّ في هجمة جديدة على مزرعة عائلة تشو".

هبَّ القادة الآخرون على أقدامهم صارخين: "أصدر أوامرك. وسنطيعها. من تريد أن يذهب أولا؟".

صاح لي كوي: "إذا كنت تخاف من الأولاد، ففيم لا ترسلني أنا؟".

قال سونغ جيانغ: "أنت غير جدير بالذهاب في الطليعة هذه المرة".

وفيما راح لي كوي يستشيط غضبا وقد أحنى رأسه، اختار سونغ جيانغ كلا من ما لين، ودنغ في، وأو بنغ، والنمر القصير البدين. وقال: "أنا وأنتم الأربعة سنذهب أولا".

واختار للفرقة الثانية داي زونغ والسبعة الآخرين، وأخبرهم أن يهيئوا للإغارة عن طريق النهر. وكانت الفرقة الثالثة بقيادة لين تشونغ وهوا رونغ ومو هونغ ولي كوي، وتنقسم إلى رتلين يعملان كإمدادات عسكرية.

واتخذ القرار بالمعركة، فأكل القادة، ولبسوا دروعهم، وركبوا جيادهم.

وباعتبار أن سونغ جيانغ هو الذي يقود الطليعة التي ستقوم بالهجوم الأول، فقد راحت تتماوج راية حمراء كتبت عليها كلمة "الماريشال". وتحرك هو والقادة الأربعة الآخرون ومائة وخمسون فارسا وألف من الجنود المشاة سائرين في سرعة صوب مزرعة عائلة تشو.

قبل الوصول إلى صخرة التنين الوحيد شدَّ سونغ جيانغ لجام حصانه وحدَّق في الهدف الذي يسعون إليه. كانت هنالك رايتان بيضاوان تسبحان فوق المتاريس. وكان قد طُرِّز عليهما نداءان حماسيان: "املأوا البحيرة واخطفوا تشاو غاي. اهدموا الجبل واقبضوا على سونغ جيانغ".

أقسم سونغ جيانغ وقد جاش غضبا: "إن لم أدمر مزرعة عائلة تشو فلن أعود إلى جبل ليانغشان أبدا!".

وعمت الغضبة حنايا القادة الآخرين أيضا. وحين وصلت الفرقة الثانية أجاز لها سونغ جيانغ

أن تهاجم البوابة الأمامية، في حين التفَّ بوحدته حول مؤخر الصخرة. هنالك كانت المزرعة صامدة كجدار من البرونز، ومحصنة تحصينا قويا.

وفيما هو يتفحصها مليا هاجمته قوة عدوة من ناحية الغرب، وأفرادها لا يكفون عن الصياح. فترك سونغ جيانغ كلا من ما لين ودنغ في لتحطيم البوابة الخلفية، وأسرع برفقة أو بنغ والنمر القصير البدين ونصف الرجال لملاقاة العدو. كان هنالك قبالته على المنحدر قرابة ثلاثين فارسا، وفي وسطهم الفتاة المحاربة المدعوة عشر أقدام من الصلب، ممتطية صهوة خصي أسود اللون، وملوِّحة بسيفيها المتضوئين. وكان يتبعها أربعمائة أو خمسمائة من الخدم المسلحين، وكانت في طريقها إلى مساعدة مزرعة عائلة تشو.

قال سونغ جيانغ: "خصم جميلِ الطِلعة. لا ريبة أنها الابنة المشهورة لعائلة هو. من يقوى على مصارعتها؟".

كان وانغ النمر القصير البدين فتى شهواني الطباع. وحين سمع أن الخصم سيدة ترجى على الفور أن يأسرها لنفسه. أطلق صيحة، ودفع جواده قدما، وقد حمل رمحه بيده. وتصايح الجيشان. ضربت الفتاة حصانها واندفعت ناحية النمر القصير البدين ملوحة بسيفيها. فنانة عظيمة في استخدام سيفين ومحارب قديم يحمل رمحا وحيدا اشتبكا في صراع عنيف عشرين جولة.

أدرك سونغ جيانغ على الفور أن وانغ لا يمكن أن يكون للفتاة ندا. وتاق الرجل قصير الساقين إلى القبض عليها في أقصر وقت، ولكنِ يديه جعلتا ترتعشان في الجولة العاشرة، وتراقصت ساقاه تعبا، وتلاشت مهارته في استخدام الرمح. ولو لم تكن المعركة معركة حياة أو موت، فقد كان وانغ سيستسلم فيها بكل سرور.

كانت عشر أقدام من الصلب فتاة ذكية رقيقة الشعور. خاطبت نفسها قائلة: "هذا محارب عنيف". واقتربت منه مؤرجحة سيفيها. لم يحتمل النمر القصير البدين ذلك، فأدار حصانه ولحق بالفتاة مطاردا، فرفعت سيفها الأيمن، ومدت ذراعها الجميلة إلى الأمام، وسحبت وانغ عن سرج حصانه. وأسرع الخدم راكضين، وأمسكوا به من قدميه، وجروه أسيرا.

هبَّ أو بنغ إلى مساعدته وقد استعدَّ برمحه. فدفعت عشر أقدام من الصلب حصانها إلى الأمام لملاقاته وسيفاها في يديها وتقاتلا. كان أو بنغ ينحدر من سلالة من الرجال العسكريين، وكان بارعا ماهرا في استخدام الرمح الحديدي. راقب سونغ جيانغ مهارته في انشداه. ولكن أو بنغ، على الرغم من مهارته، لم يكن قادرا على أن يحقق أي نجاح ضد الفتاة.

شاهد دنغ في من بعيد كيف جرى القبض على وانغ النمر القصير البدين، وها هو الآن يشاهد فشل أو بنغ في الانتصار على الفتاة. فسار بجواده ناحية الخصمين، صائحا وملوحا بسلسلته الحديدية. وخشي محاربو مزرعة عائلة تشو الذين يراقبون القتال منذ فترة من الزمن أن تصاب الفتاة بأذى. فأسرعوا بإنزال الجسر المتحرك وفتحوا البوابة. فركض التنين الذي يقود ثلاثمائة رجل بسرعة كبيرة على حصانه، ورمحه في يده، للقبض على سونغ جيانغ.

تواثب ما لين، حاملا سيفيه، لإبعاد التنين. وقلق دنغ في على سونغ جيانغ فأقام إلى جواره،

وراح يراقب الاشتباكات الجارية عن الجانبين وسط الصيحات الوحشية. وتأكد سونغ جيانغ أن ما لين لن يتمكن من إلحاق الهزيمة بالتنين تشو، كما أن أو بنغ لم يكن يحرز أي نجاح ضد عشر أقدام من الصلب. وكان سونغ جيانغ يتفجر قلقا وهما حين اقتربت جماعة من الفرسان تتوثب خيولها في عجلة من إحدى الزوايا. أنعم النظر وفاضت فرحته حين عرف تشين مينغ. حين سمع الزوبعة السوداء صخب المعركة في المزرعة عزم على الاشتراك فيها.

نادى سونغ جيانغ: "أيها الجنرال تشين. أنجد ما لين!".

ومضت في ذهن تشين مينغ خاطرة مضيئة. لقد قبضت عائلة تشو على مريده هوانغ شين، فاغتاظ هما وكمدا، ونخز حصانه إلى الأمام وهيأ هراوته المزروعة بأسنان الذئب، وانطلق مباشرة صوب التنين. واقترب التنين وقد شهر رمحه لملاقاته. فأتاح ذلك الفرصة أمام ما لين لقيادة مجموعة من الرجال لمطاردة آسري وانغ القصير البدين. وتخلت عشر أقدام من الصلب لأو بنغ أن يهاجم ما لين. كان كل من الرجل والفتاة يستخدم سيفين. وكان قتالهما على صهوتي جواديهما أشبه ما يكون بندف ثلج يشمية تدوِّم بها الريح. وحدَّق سونغ جيانغ وقد استبدَّ به الذهول.

تصارع التنين وتشين مينغ عشر جولات أو أكثر، ولكن التنين لم يكن ندا للصاعقة. امتطى معلم السلاح في مزرعة تشو المدعو لوان تينغ يوي حصانه وانقض هاجما بمطرقته. فخبَّ أو بنغ بفرسه ناحيته. ولكن لوان انحرف بدلا من أن يتابع طريقه باستقامة، وفيما أو بنغ يختطف رمحه بيده، تظاهر لوان أنه يهرب، فطارده أو بنغ. فألقى لوان مطرقته، وأصاب أو بنغ إصابة محكمة ورماه عن حصانه.

زمجر دنغ في: "أيها الشجعان إلى النجدة". وهاجم لوان هازا سلسلته الحديدية.

هتف سونغ جيانغ برجاله أن يعيدوا أو بنغ إلى صهوة جواده. وأقدم التنين، وقد هزمه تشين مينغ، على ضرب جواده والفرار به. وترك لوان دنغ في يشغل تشين مينغ بالقتال. تصارعا قرابة عشرين جولة من دون طائل. وراوغ لوان، ثم خبَّ بحصانه إلى الفلاة، وهب تشين مينغ يطارده ملوحا بهراوته. دخل لوان بحصانه في قلب العشب الطويل. كان هنالك رجال من مزرعة عائلة تشو يترصدون في كمين. وحين برز تشين مينغ شدوا حبلا عبر الممر فأطاحوا بالحصان وراكبه اللذين تعثرا على الأرض، وألقوا القبض عليه صارخين. وأطلق دنغ في حصانه مباشرة لإنقاذ الصاعقة. رأى الحبل المخادع يرتفع أمامه، فشدَّ لجام حصانه في رعب كي يثنيه عن متابعة الطريق.

صاحت أصوات عن كل جانب: "أمسكوه". وانهالت على دنغ في حبال معقوفة تشبه كتلة متشابكة من القنب، وأمسكت به هو الآخر وهو قاعد على صهوة جواده.

زمجر سونغ جيانغ. وامتطى أو بنغ جواده مرة أخرى بعد أن تمت له النجدة.

ابتعد ما لين عن عشر أقدام من الصلب للعمل على حماية سونغ جيانغ. واتجه على حصانه جنوبا، تطارده الفتاة، ولوان، والتنين. كان يعرف أنه لن يستطيع الهرب بعيدا، وكان يروّض نفسه على القبول بالاستسلام حين لمح شابا جسورا على صهوة جواد يخب به ناحيته من الجنوب، ويلحق به حوالى خمسمائة من الرجال راكبين وراجلين.

عرف سونغ جيانغ الراكب: "إنه مو هونغ المسرف. وجاءت من ناحية الجنوب الشرقي جماعة من حوالى ثلاثمائة مقاتل، يتبعها فارسان شجاعان: يانغ شيونغ الشاحب، وشي شيو المتهوّر. وجاء من الشمال الشرقي فتى شجاع آخر هتف صائحا: "اتركوا ذلك الرجل وشأنه!". لقد كان رامي السهام المعلم هوا رونغ.

تجمع المغيثون من ثلاث جهات. وابتهج سونغ جيانغ وهم يتضافرون للقتال ضد لوان والتنين ورجاله. وخشية عليهما، أمر قائد المزرعة النمر أن يدافع عن البوابات، فيما السيد المهذب الشاب شبل النمر ينطلق قدما على فرس نارية حاملا رمحا طويلا وقائدا خمسمائة من المشاة والفرسان. وخوّض هؤلاء جميعا في معمعان المعركة.

واجتاز لي جيون وتشانغ هينغ وتشانغ شون الجدول المائي أمام المزرعة والمستخدم كخندق مائي، وحالت دون تقدمهم زخات من السهام انصبَّت عليهم. وراح داي زونغ وباي شنغ على الضفة المقابلة يصيحان وقد خابت آمالهما.

كان ضوء النهار يشحب. فأصدر سونغ جيانغ أمره إلى ما لين أن يخفر أو بنغ في خروجه سالما من القرية. ثم أمر أن ينفخ في الأبواق إشارة لرجاله الشجعان أن يتجمعوا ويشقوا لأنفسهم سبيلا إلى الخروج. وساط جواده وقام بجولة في ساحة المعركة خشية من أن يكون أحد من الإخوة قد فقد أو مات.

على حين فجأة شاهد عشر أقدام من الصلب تخبُّ ناحيته على جوادها. لم يكن لديه متسع من الوقت للدفاع عن نفسه. فضرب حصانه واتجه شرقا تطارده الفتاة عن قرب. وراحت ثمانية حوافر تضرب الأرض كمن يضرب طاسات مقلوبة فيما الحصانان يغرقان في القرية. كانت عشر أقدام من الصلب تقترب منه وتتهيأ لتضرب ضربتها حين انفجر صوت على المنحدر صارخا: "فيم هذه المرأة اللعينة تطارد أخي؟".

ألقى سونغ جيانغ نظرة. كان لي كوي الإعصار الأسود يلوّح بفأسيه وينطلق صوبهما على جواده على رأس سبعين أو ثمانين من قطاع الطرق. أوقفت الفتاة حصانها، واستدارت، واتجهت صوب الغابات. فبرز لها من فرجة في الغابة دستة من الفرسان يتجهون إليها مباشرة. وكان يتقدمهم لين تشونغ رأس النمر.

صاح بعشر أقدام من الصلب صارخا: "أين تظنين أنك تذهبين؟".

هجمت الفتاة صوبه بسيفيها المتطايرين. رفع رمحه والتقاها وتصاولا أكثر من عشر جولات. راوغ لين تشونغ وترك الفتاة تقترب منه وتفادى ضربات سيفيها برمحه ومدَّ ذراعا قوية تشبه ذراع القرد، وقبض عليها، وبحركة رشيقة وقوية مثل حركة الذئب نقلها إلى حصانه. عجَّ قلب سونغ جيانغ بالفرحة. وأمر لين رجاله بشد وثاق الفتاة واصطحابها إلى سونغ جيانغ.

- هل جرحت، يا أخي؟

أجاب سونغ: "أنا على خير ما يرام". وأمر لي كوي أن يذهب إلى القرية ويحضر بقية القادة: "قل لهم إننا سنعقد اجتماعا للتشاور عند حدود القرية. الوقت يتأخر. ينبغي أن يوقفوا القتال".

غادر لي كوي وفرقته. وتقدم لين تشونغ، وهو يحمي سونغ جيانغ، ناحية مدخل القرية، وعشر أقدام من الصلب على حصانها مخفورة. لم يحرز قادة ليانغشان أية انتصارات ذلك المساء. وأسرع الجميع إلى حدود القرية.

رجعت قوات مزرعة عائلة تشو إلى المزرعة مخلفة وراءها عددا كبيرا من القتلى. ووضعوا أسراهم في أقفاص على عربات. لو استطاعوا القبض على سونغ جيانغ فقد كانوا ينتوون تسليم الأسرى جميعا إلى السلطات في العاصمة الشرقية والمطالبة بالمكافأة. وكانت عائلة هو قد سلمت وانغ النمر القصير البدين إلى مزرعة عائلة تشو.

جمع سونغ جيانغ قواته، ومضى إلى المعسكر عند حدود القرية. وأمر أن يحضروا له عشر أقدام من الصلب، كما أمر عشرين من قطاع الطرق الشجعان وأربعة من الرؤساء الفرسان أن يجلسوا الفتاة المشدودة الوثاق على حصان.

- خذوها إلى جبل ليانغشان هذه الليلة، واعهدوا بالعناية بها إلى والدي، المحترم سونغ، ثم ارجعوا وارفعوا إليَّ تقريرا. وسنقرر ما الذي سنفعله بها عندما أرجع إلى القلعة.

حسب القادة أن سونغ جيانغ يريد الفتاة لنفسه، فخفروها في حرص وعناية بالغين. وأرسلوا الجريح أو بنغ قبلهم في عربة للمداواة في القلعة. وانطلقت فرقة الحراسة على الفور. واستغرق سونغ جيانغ في التفكير في خيمته. وما اغتمض له جفن الليل بطوله. وطلع الفجر وهو جالس لا يريم.

في ذلك الصباح جاء كشاف وأعلن: "المستشار العسكري وو يونغ قادم برفقة الأشقاء الثلاثة يوان، وليوي فانغ وقوه شنغ، وخمسة رجال آخرين".

رحب سونغ جيانغ بهم خارج المعسكر وقاد وو يونغ إلى خيمته. وبعدما اتخذ الجميع مقاعدهم قدَّم لوو الطعام والشراب، شرب وو نخب سونغ جيانغ وهنأ قادته. وقال: "سمع الزعيم تشاو غاي أنكم واجهتم صعوبات خلال الحملة الأولى، فأرسلني برفقة هؤلاء القادة الخمسة للمساعدة. كيف كانت الأمور تجري؟".

- صعب أن أوضح الأمور باختصار. فأولئك الأوغاد من عائلة تشو يرفعون رايتين بيضاوين فوق بوابة مزرعتهم كتب عليهما: "املأوا البحيرة واخطفوا تشاو غاي. واهدموا الجبل واقبضوا على سونغ جيانغ". يا للوقاحة! في هجومنا الأول، ولأننا لم نكن نعرف طبيعة المنطقة، خسرنا يانغ لين وهوانغ شين. فحاولنا مرة أخرى عند حلول الغسق، فقبضت عشر أقدام من الصلب على وانغ النمر القصير البدين، وجرح لوان تينغ يوي أو بنغ بمطرقته، وطرح حبل خدّاع تشين مينغ ودنغ في وتم القبض عليهما معا. هذا هو الجانب السيئ في الأمر. ولو لم يقبض لين تشونغ على عشر أقدام من الصلب فقد كان يمكن أن نندحر جميعا. لم نتصوَّر أننا قادرون على إحداث ثغرة في هذا المكان. سأنتصر على مزرعة عائلة تشو وأنقذ إخوتنا أو ألقى حتفي في هذه المحاولة. وإلا عجزت عن العودة ومواجهة الأخ تشاو غاي.

ابتسم وو يونغ: "أمرت السماء أن تهزم مزرعة عائلة تشو. وهذه فرصة طيبة لنا. في تصوري،

نستطيع إلحاق الهزيمة بها سريعا".

انشده سونغ جيانغ: "ماذا تقصد؟".

ابتسم وو يونغ في هدوء، ورفع إصبعين من أصابعه، وأوضح الأمر.

والحقيقة أن يدا امتدت من السحب واختطفت في أمان أولئك الذين وقعوا في الشباك.

ماذا كانت تلك الفرصة التي تحدث وو يونغ عنها؟ إن شئت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

الفصل التاسع والأربعون

الشقيقان سون يحطمان باب سجن؛
والشقيقان شيه يهربان

قال وو يونغ: "أحد أصدقاء شي يونغ ممن يودون الانضمام إلى عصبتنا صديق حميم للوان تينغ يوي. كما أنه على صلة وثيقة بليانغ لين ودنغ في. وهو يعرف أنكم تعانون الصعوبات بمهاجمة مزرعة عائلة تشو. ويعرض هذه الخطة كعربون للانضمام الذي سيحققه بعدها. في مقدورنا تنفيذ هذه الخطة في غضون خمسة أيام. أفلا يسرك هذا؟".

صاح سونغ جيانغ: "رائع!". واسترخى وجهه مبتسما.

في الوقت ذاته الذي كان فيه الهجوم الأول على مزرعة عائلة تشو محتدما حدثت أمور عديدة في ولاية شاندونغ الساحلية في دينغتشو. كان هنالك خارج حدود الولاية جبل مأهول بالحيوانات المتوحشة التي تسبب الأذى للحياة البشرية. فاستدعى الوالي الصيادين المحليين وأمرهم بقتل النمر الذي يسيطر على الجبل وتقديم جثته في غضون فترة محددة. وصدر الأمر إلى رؤساء القرى الواقعة أمام الجبل ووراءه للمساهمة في هذا العمل. فإن لم يحقق الصيادون أية نتائج في الأجل المضروب لهم فسيحيق بهم عقاب شديد وتوضع المخالع في أعناقهم.

وكان يعيش عند سفح الجبل شقيقان صيادان، كبيرهما يدعى شيه تشن، وصغيرهما يدعى شيه باو. وكان كل منهما يستخدم حربة لها شعبتان من الحديد المبرقش بالفولاذ، كما أنه مقاتل بارع طارت له شهرة. وكانا يعتبران أفضل صيادي الولاية بأسرها. وكان شيه تشن معروفا باسم الأفعى ذات الرأسين، وشيه باو معروفا باسم العقرب مزدوج الحمَّة. كان أبواهما قد ماتا، وكانا عازبين. وكان الأكبر مديد القامة، متورد الوجنتين، له خصر أهيف وكتفان عريضتان. أما الأصغر فهو فتى صلب العود، يفوق شقيقه طولا، له وجه مدور، وجلد داكن اللون، ووشمت ساقاه بصورتي شيطانين طائرين. إذا تملكته ثورة من ثورات الغضب فهو يحاول اقتلاع الأشجار، وهز الجبال، وقلب السماء والأرض عاليهما سافلهما.

بعدما سمع الشقيقان بالأمر الذي أصدره الوالي رجعا إلي البيت وجهزا أحبولتيهما وسهامهما المسمومة، والقوس والنشاب، والعوائق المتشعبة، وارتديا سرواليهما المصنوعين من جلد النمر وقبعتيهما المسلخوتين من الجلد ذاته، وحملا حربتيهما المتشعبتين، وصعَّدا في الجبل. وضعا قوسيهما وتسلقا شجرة وأقاما ينتظران النهار بطوله. لم يحدث شيء. ففكا الأحبولتين ورجعا إلى البيت.

في اليوم التالي أخذا طعاما جافا وصعَّدا في الجبل مرة أخرى. وأقاما ينتظران حتى هبوط

الغسق، ووضعا القوسين من جديد مع أحبولتيهما وتسلقا الشجرة. عند فترة الحراسة الخامسة لم يحدث ما يثير أي نشاط، فنقلا الأحبولة إلى الطرف الغربي من الجبل وجلسا ينتظران حتى طلوع الصباح حين عزما على الانصراف.

كان القلق يسيطر عليهما. فقالا: "منحونا ثلاثة أيام للقبض على النمر فإن لم نفعل ذلك حاق العقاب بنا. فماذا ترانا فاعلين؟".

في فترة الحراسة الخامسة من الليلة الثالثة من مراقبتهما سيطر السأم عليهما. جلسا ظهرا لظهر وشرع النعاس يرنِّق في عيونهما. وما إن انغلقت عيونهما حتى سمعا رنين القوس الأحبولة. وثبا على أقدامهما، واختطفا حربتيهما المتشعبتين وأنعما النظر في الظلمة. هنالك نمر أصيب بسهم مسموم يتلوى على الأرض. اقترب الصيادان منه، وحربتاهما في يديهما. حين رآهما النمر فرَّ هاربا والسهم منغرز فيه فطارده الصيادان. وفي منتصف طريق الهبوط عن الجبل فعل السم فعله فأطلق النمر زمجرة متألمة وتدحرج على المنحدر.

قال شيه باو: "حسن. هذه مزرعة المحترم ماو الخلفية في الأسفل. سنذهب إليها ونربط النمر".

هبط الشقيقان عن الجبل إلى المزرعة وقرعا على البوابة. كان الفجر قد انبثق. فتح خادم البوابة ودخل يعلم المحترم بقدومهما. بعيد لحظات قصيرة برز المحترم ماو. وضع الشقيقان حربتيهما واستقبلاه بتحية محترمة. قالا: "يا عماه، لم نرك منذ زمن طويل. ويؤسفنا أن نسبب لك إزعاجا".

- ماذا تفعلان هنا في هذا الوقت المبكر، يا ابنَي أخي؟ ماذا يدور في خلديكما؟

قال شيه تشن: "لو لم يكن الأمر على جانب من الأهمية لما تجرأنا على إيقاظك من ضجعتك. بناء على أمر الوالي خرجنا نسعى وراء النمر. وبقينا ننتظره ثلاثة أيام، وفي هذا النهار، عند فترة الحراسة الخامسة، أصبناه أخيرا. وقد تدحرج إلى حديقتك الخلفية. ونسألك الإذن في أخذه".

- من دون ريب. لكن، لم لا تستريحان قليلا أول الأمر. لا ريبة أن الجوع ينهش معدتيكما. فتناولا شيئا من الطعام.

أمر المحترم خادمه أن يحضر الطعام والشراب، واستحثَّ الشقيقين على تناولهما.

بعد الانتهاء من الطعام نهضا وشكراه: "نشكر لك ما أغدقته علينا من لطف. ونود أن نذهب للقبض على ذلك النمر".

- إذا كان النمر في الجزء الخلفي من مزرعتي فماذا يشغل بالكما؟ اشربا الشاي. فثمة متسع من الوقت.

لم يستطع الشقيقان شيه مجابهته بالرفض. فجلسا من جديد وقدم لهما الخادم الشاي. قال المحترم: "في مقدوركما الآن أن تأخذا النمر، يا ابني أخي".

قال الشقيقان: "شكرا، يا عماه".

قادهما المحترم ماو إلى الحديقة الخلفية، وأمر الخادم أن يفتح البوابة. ولكنه عجز عن ذلك رغم محاولاته المتكررة.

أوضح المحترم: "هذه البوابة لم تفتح منذ زمن طويل. لعل القفل تأكّله الصدأ. استخدم مطرقة".

فأخذ الخادم مطرقة وكسر القفل. ودخل الجميع الحديقة واتجهوا إلى الجزء القريب من الجبل. فما عثروا على أي نمر.

سأل المحترم: "أيمكن أن تكونا قد أخطأتما، يا ابني أخي؟ لعلكما لم تراقباه جيدا. لعله لم يسقط في مزرعتي".

قال شيه تشن: "كيف يمكن أن نخطئ؟ ولدنا في هذا المكان ونشأنا فيه. أفلا نعرف موطئ أقدامنا؟".

- فتشا بنفسيكما. فإذا عثرتما عليه خذاه.

صاح شيه باو: "يا أخي، انظر إلى هذا. فهذه البقعة من العشب غدت مستوية، وثمة آثار دماء. فمن يقول إنّا أخطأنا المكان؟ لا ريبة أن بعض خدم عمنا حملوا النمر بعيدا!".

قال المحترم: "لا تقل مثل هذا الكلام. كيف يتاح لخدم الدار أن يعرفوا أن هنالك نمرا في الحديقة الخلفية؟ ويحملوه بعيدا؟ لقد رأيتما أننا اضطررنا إلى كسر القفل. لقد رافقناكما إلى الحديقة وسمحنا لكما بتفتيشها. فكيف تقولان مثل هذا القول؟".

قال شيه تشن: "عماه، يحسن أن تعيد لنا نمرنا. يجب أن نسلمه إلى السلطات".

- أنتما تهرفان تماما. لقد دعوتكما على طعام الفطور فاختلقتما قصة تزعم أنّا سرقنا نمركما.

- اختلقنا؟ نحن لم نفعل هذا. لقد علمت أسرتك أيضا بالزمن الذي ضربته السلطات. لم تكن لك مهارة في القبض على النمر، فأخذت نمرنا. ولسوف تطالب الآن بالمكافأة في حين نتعرض نحن للضرب.

التهب الشابان غضبا: "أتسمح لنا بالقيام بتفتيش دقيق؟".

- أهذا منزلكما أم منزلي؟ كل عائلة لها سلطتها على أملاكها. وأنتما، أيها المتسولان، لا تعرفان شيئا من آداب السلوك أيضا.

شق شيه باو طريقه إلى الردهة. لم يكن فيها أثر للنمر. فالتهب الغضب في قلبه وشرع يقاتل. انتزع شيه تشن الدرابزون أمام الردهة وهجم به.

أطلق المحترم صيحة رعب: "شيه تشن وشيه باو يسرقاننا في وضح النهار!".

حطَّم الشقيقان الأثاث. ورأيا أن المزرعة بأسرها تتأهب للانقضاض عليهما، فدلفا خارجين من البوابة الأمامية في خطوات متسارعة.

أشارا بيديهما متَّهمين صارخين: "لقد سرقتم نمرنا! وسنترك القضاء يفصل بيننا!".

اقترب في هذه الأثناء من المزرعة فارسان أو ثلاثة فرسان يقودون عصبة من الرجال فعرف شيه تشن فيهم ماو تشونغ يي، ابن المحترم. فقال يخاطبه: "سرق خدمكم نمرنا، ورفض والدك إعادته إلينا! وكان ينتوي أن ينهال علينا ضربا!".

- أولئك الأوغاد حمقى بلهاء. لعلهم خدعوا والدي. لا تغضبا. تعاليا معي وسأعمل على

إعادته إليكما.

شكره الشقيقان، وصاح ماو تشونغ يي بالخدم أن يفتحوا البوابة، وطلب إلى شيه تشن وشيه باو الدخول. ثم أمر بإغلاق البوابة، ونبح صارخا: "اقبضوا عليهما!".

انقضَّ عن عتبات جميع جنبات الساحة عشرون أو ثلاثون خادما على الشقيقين، وانضمّ إليهما الرجال الذين قدموا برفقة الفرسان. كان هؤلاء من الشرطة. وانغلب الشقيقان على أمرهما قبل أن يتمكنا من الدفاع عن نفسيهما، وشُدَّ وثاقهما.

أكدَّ ماو تشونغ يي: "قتل أفراد جماعتنا نمرا ليلة البارحة. فكيف تدَّعون كذبا ضدنا؟ وتشقان لنفسيكما الطريق عنوة واقتدارا، وتسرقان ممتلكاتنا الثمينة، وتحطمان أثاثنا؟ هذه جريمة. سلموهما إلى السلطات. سوف ننقذ ولايتنا من كارثةٍ!".

الحقيقة أن ماو تشونغ يي كان قد سلَّم النمر في فترة الحراسة الخامسة إلى مكتب الولاية. وأحضر معه رجال الشرطة للقبض على الشقيقين شيه. وانخدع الاثنان بحيلته بسهولة لم يتوقعها، ولم يعد أحد يصغي إليهما. ووضع المحترم كيسا من "الغنائم" مع حربتيهما المتشعبتين، وأضاف مجموعة من الأثاث المحطم على سبيل "الدليل". ونقلت هذه الأشياء مع السجينين اللذين عريا من ثيابهما وربطت أيديهما وراء ظهريهما إلى حاضرة الولاية.

كان وانغ تشنغ الكاتب في المحكمة صهرا للمحترم. فخاطب الوالي أولا. واستحضر شيه تشن وشيه باو أمام المحكمة من بعد. ولم يسمح لهما بالتفوه بكلمة واحدة، بل ربطا وضربا. وأصرَّ الوالي على أنهما اعترفا أنه "بحجة تفتيشنا عن النمر دخلنا نحمل حربتين متشعبتين وارتكبنا بالقوة سرقة مسلحة". وحين لم يطق الشقيقان الضرب أكثر مما ضربا اعترفا بما طلب منهما. فأمر الوالي أن توضع حول عنق كل منهما مخلعة من زنة خمسة وعشرين كاتيا، وأن يلقى بهما في السجن.

رجع الأب وابنه إلى المزرعة وتشاورا: "لا يجب أن يطلق سراح ذينك الوغدين. أفضل ما نفعل هو أن نقتلهما فنتقي بذلك صعوبات قد تطرأ في المستقبل".

ذهبا إلى المدينة وأصدرا تعليمات خاصة إلى الكاتب وانغ تشنغ: "نريد أن نقتلع هذا العشب من جذوره كي لا ينمو مرة أخرى. وسنعمل على توزيع الرشوة على مختلف المستويات، من الوالي إلى أصغر موظف".

تم تسليم شيه تشن وشيه باو إلى جناح المحكومين بالإعدام في السجن، ومن بعد سيقا إلى سرادق لمقابلة آمر السجن. كان اسمه باو جي، وكان قد تلقى فضة المحترم ماو وتعليماته عن طريق الكاتب وانغ بوجوب وضع حد لحياة الشقيقين. وكان باو جالسا في وسط السرادق.

همس أحد السجانين في أذن الشقيقين: "أسرعا واسجدا أمامه".

شخر باو: "أنتما إذاً من يطلق عليكما الأفعى ذات الرأسين والعقرب مزدوج الحمّة، أليس كذلك؟".

قال شيه تشن: "هذان لقبان أطلقهما الناس علينا. ولكننا لم نؤذ رجلا طيبا قط".

نبح آمر السجن: "حيوانان. سأجعلكما أفعى برأس واحد وعقرب بحمة واحدة! خذوهما

واحبسوهما".
أعادهما السجان إلى زنزانتهما، وتأكد أن أحدا لا يسمعه أو يراه، وقال لهما: "أتعرفانني؟ أنا شقيق زوجة شقيقكما".
قال شيه تشن: "نحن الولدان الوحيدان في عائلتنا. وليس لنا أي شقيق آخر".
- ألستما شقيقي الرائد سون؟
- إنه شقيق زوج ابنة عمنا لأبينا. ولم يسبق لنا لقاؤك. أيمكن أن تكون أنت يويه خه؟
- أنا هو. واسمي يويه خه. ونحن في الأصل من ولاية ماوتشو قبل أن ينتقل أسلافي إلى هنا. وتزوجت شقيقتي الكبرى من الرائد سون. وأنا أعمل في هذا المكان سجانا. ولأنني أغني بصورة حسنة أسماني الناس الحنجرة الحديدية. وحين عرف شقيق زوجتي أني أحب اللعب بالسلاح علَّمني عدة أساليب للقتال بالرمح.
كان يويه خه هذا فتى رشيق الحركة ذكيا. وقد تعلَّم العزف على عدة آلات موسيقية، وكان محبا للنظام دؤوبا على العمل. أما الرماح والعصي فكانت أشبه بالسكر والعسل بالنسبة إليه. عرف أن الشقيقين جسوران فأراد أن ينقذهما. ولكنه يعجز عن جدل حبل بفتلة واحدة، ولا يستطيع أن يصفِّق بيد واحدة. ولم يكن في مقدوره سوى أن يزودهما بشيء من الأنباء. فقال: "سأخبركما شيئا. لقد تمت رشوة باو جي آمر السجن من قبل المحترم ماو. ومؤكد أنه سيحاول أن يقتلكما معا. فماذا ستفعلان؟".
قال شيه تشن: "لو لم تذكر الرائد سون لما فكرت في ذلك. ولما كنت قد ذكرته فأحبُّ أن تنوب عني في تسليم رسالة".
- إلى من؟
- إلى امرأة من أقارب والدي. لقد تزوجت من شقيق الرائد سون. وهما يعيشان خارج البوابة الشرقية في قرية صغيرة تدعى علاَّمة العشرة ليات. والحقيقة أنها ابنة عمي، وهي معروفة باسم السيدة غو النمرة، وتدير وزوجها حانة. ولديهما أيضا مسلخ ودار للمقامرة. حين تقاتل لا يجاريها في ذلك عشرون أو ثلاثون رجلا. حتى إن سون شين، زوجها، لا يستطيع التغلب عليها على الرغم من مهارته في استخدام السلاح. وهي مغرمة بشقيقي وبي. ووالدتي عِمة سون شين وسون لي. وهما أيضا من أبناء العمومة، لكن عن طريق والدتي. فإذا تكرمت بإخبارهما سرا، فأنا واثق أن ابنة عمنا النمرة ستهبُّ إلى نجدتي.
- سأفعل ذلك، يا قريبيَّ. ثقا أني سأفعل ذلك.
خرج يويه خه واستحصل على قليل من الفاصولياء وطبخ لحما أضافه إليها، ثم اعتذر لعمل شخصي طارئ وأقفل باب السجن، وسلَّم المفتاح إلى سجان دونه رتبة، وأسرع خارجا من البوابة الشرقية للمدينة إلى قرية علاَّمة العشرة ليات. وسرعان ما عثر على الحانة. كانت هنالك شرائح من لحم البقر والضأن معلقة خارج الباب. وكانت امرأة جالسة وراء مكتب. شعر يويه خه أن هذه المرأة لا بدَّ أن تكون السيدة غو، فاقترب منها وحيَّاها باحترام: "أهذا هو محل سون؟".

- أجل. أتريد قليلا من الشراب، أيها السيد؟ أم لعلّك تريد شراء اللحم؟ إذا أردت أن تجرب حظك في القمار، فإن لدينا غرفة مخصصة لذلك في مؤخر البناء.

- أنا أدعى يويه خه. وأنا الأخ الأصغر لامرأة الرائد سون.

ابتسمت السيدة غو: "إذاً هذا أنت، يا ابن العم يويه خه. أنت تشبهها تماما. ادخل واشرب قليلا من الشاي".

تبعها يويه خه إلى الداخل وجلس مجلس الضيف.

قالت السيدة غو: "سمعت أنك تعمل في المدينة. ولكننا فقراء ولا يتسع لنا وقت كثير، ولذلك لم تتح لنا فرصة لقائك. أية ريح حملتك إلينا هذا النهار؟".

- ما كنت أتجرأ على إزعاجكم لولا خطورة الأمر. لقد أحضروا اليوم مجرمين إلى سجننا. وعلى الرغم من أننا لم نلتق من قبل قط، فقد كان اسماهما غير مجهولين مني تماما: شيه تشن الأفعى ذات الرأسين، وشيه باو العقرب مزدوج الحمّة.

- هما ابنا عمي. وفيم ألقوا بهما في السجن؟

- لقد قتلا نمرا، فأقدم ملاّك ثري هو المحترم ماو على سرقته منهما. ثم تدبر الأمر فقبض عليهما كلصين وسارقين مسلحين، وجرهما إلى الوالي، وقدم الرشوة إلى الجميع، كباراً وصغاراً. ولسوف يقدم باو جي آمر السجن، عاجلا أم آجلا، على قتلهما. وهذا ظلم، وأنا لا أحبه، ولكنني لا أستطيع إنقاذهما وحدي. وباعتبار أننا أقرباء، وأن للشهامة المكان الأول، فقد أخبرتهما بما تناهى إليّ. فقالا إنه ليس هنالك من يتمكن من إنقاذهما سواك. وقد يتحقق ذلك إذا تصرفت بسرعة.

أطلقت السيدة غو صيحة ألم. ونادت على مساعديها للتفتيش عن زوجها. فركض عدد منهم خارجا، ورجعوا بعد قليل برفقة سون شين الذي قدمته إلى يويه خه. كانت أسرة سون أسرة عسكرية على مدى أجيال متعاقبة. وقد انحدر أفرادها من كيونغتشو. ولأن وحدتهما انتقلت إلى دينغتشو فقد اضطر الشقيقان سون إلى الانتقال معها.

كان سون شين كبيرا وقويا. تمرَّس على المهارة بالسلاح عن طريق شقيقه العسكري، وبرع في استخدام القضيب المضلَّع، وعُرف باسم الجنرال الأصغر. وروت له زوجته القصة كلها.

التفت إلى يويه خه قائلا: "يحسن أن تعود أدراجك، يا ابن العم. هما الآونة في السجن. ونريدك أن تعنى بهما. وما إن أتدبر وزوجتي خطة حتى ننضم إليكم على الفور".

- كيف أستطيع أن أقدم لكما خدمة، فأنا على استعداد لتقديمها جاهدا.

قدمت السيدة غو إلى يويه خه شرابا وأعطته كيسا من الفضة وقالت: "وزع هذه الفضة على السجانين الصغار كي يعاملوا ابني عمومتنا معاملة طيبة".

شكرها يويه خه، وأخذ الفضة، ورجع إلى السجن، ووزَّع النقود. ونكتفي بهذا القدر حول هذا الموضوع.

تشاورت السيدة غو مع سون شين، وسألت: "ألديك فكرة عن كيفيّة إنقاذهما؟".

- ذلك الوغد المحترم ماو يملك مالا وقوة. وهو راغب في منع ابني عمومتك من الخروج من

السجن. ولن يكفَّ عن ذلك حتى يكون له ما يريد. ومؤكد أنه سيعمل على قتلهما. ينبغي اختطافهما من ذلك السجن. وليس هنالك حل آخر.

قالت السيدة غو: "سأرافقك هذه الليلة".

ابتسم سون، وقال: "أنت على شيء كثير من التهوُّر. ينبغي أن نهيّئ خطة طويلة الأمد. يجب أن نسعى وراء خطة لهروبهما من السجن. ونحن لن نستطيع تنفيذها على أية حال من دون معونة شقيقي والرجال الآخرين الذين تطوف أسماؤهم في ذهني".

- ومن يكونون.

- عم وابن أخ يجن جنونهما بالقمار: تسو يوان وتسو رون. هما الآونة قاطعا طريق على الجبل في السحب. ونحن على صلة وثيقة. إن استطعت الوصول إليهما استطعنا تنفيذ الخطة.

- الجبل في السحب غير بعيد من هنا. امض على الفور وأحضرهما إلى هنا لنتشاور معهما.

- سأفعل هذا. جهزي قليلا من الشراب والأطباق اللذيذة. سيحضران إن سألتهما أنا الحضور.

أمرت السيدة غو مساعديها بسلخ خروف، وجهزت المائدة بالشراب وأطباق الفواكه والمشهيات.

مع حلول الغسق آب سون مع ذينك الشابين. كان الأول تسو يوان، وهو رجل من لايتشو، محب للمقامرة منذ طفولته، ويعيش على الدوام من دون أن يمارس عملا. ولكنه مخلص وكريم وماهر في استخدام عدة ضروب من الأسلحة. وكان في مقدوره أن يغدو نشيطا لا تهدأ له حركة عندما تستدعي الضرورة. وكان معروفا في أخوية الشجعان باسم التنين من الغاب.

وكان الشاب الثاني ابن شقيقه تسو رون. كان الاثنان متماثلين عمرا، ولا تستطيع أن تميز بينهما كثيرا. كان تسو رون مديد القامة، وضخم البنية، وله طلعة خاصة؛ فثمة ورم في مؤخر رأسه. وحيثما ينفد صبره في قتال فهو ينطح خصمه. وذات مرة نطح على حين فجأة شجرة صنوبر فشقها نصفين وأثار دهشة مشاهديه. ومنذ ذلك الحين جعل الجميع ينادونه التنين وحيد القرن.

دعتهما السيدة غو إلى الحجرة الداخلية ورجتهما أن يجلسا. وروت لهما القصة بأكملها وأثارت موضوع الإغارة على السجن.

قول تسو يوان: "ثمة ثمانون أو تسعون من الرجال تحت إمرتي، غير أنني لا أثق في أكثر من عشرين منهم. ولن يكون في طوقنا البقاء في هذه الأرجاء بعد قيامنا بهذا العمل. هنالك مكان كنت أفكِّر في الذهاب إليه منذ زمن طويل. وأتساءل إذا كنتما راغبين في الانضمام إلينا".

قالت السيدة غو: "سنذهب إلى أي مكان تريده إذا أنقذت ابني عمومتي".

- إن بحيرة ليانغشان تزداد ازدهارا، وسونغ جيانغ يرحِّب بالأعضاء الجدد. هنالك ثلاثة من رفاقي تحت إمرته: يانغ لين النمر الأنيق، ودنغ في الليث ملتهب العين، وشي يونغ الجنرال. ولقد انضموا إلى العصبة منذ زمن بعيد، وبعد أن يتم لنا إنقاذ ابني عمومتك سنرحل جميعا إلى جبل ليانغشان، وننضم إليهم بدورنا. ما رأيكما؟

صاحت السيدة غو: "ليس هنالك شيء أفضل من هذا. وكل من يحاول التراجع سأطوي حياته

برمحي!".

ذكرهما تسو رون: "هنالك أمر آخر أيضا. بعد أن ننقذ رجلينا ماذا سنفعل إن أرسلت دينغتشو قوات وفرسانا لتطاردنا؟".

قال سون شين: "شقيقي الأكبر ضابط برتبة رائد في سجن الولاية. وهو أفضل مقاتل لديهم. وكلما هاجم قطاع الطرق المدينة فهو الوحيد الذي يقتلهم ويبعثرهم. وسمعته ذائعة الصيت في كل مكان. سأدعوه إلى هنا غدا وأجعله يعدنا بالمساعدة".

قال تسو يوان: "أخشى أن يرفض أن ينقلب ضد القانون".

فأجاب سون شين: "لديَّ وسيلة رائعة تقنعه".

أقبلا على الشراب إلى أن مضى نصف الليل، وأوى كل منهم إلى مضجعه حتى صباح اليوم التالي. أبقى سون ضيوفه في منزله، وأرسل مساعدا ورجلين إلى المدينة مع عربة كبيرة يدفعونها أمامهم: "اذهبوا سريعا إلى السجن وقابلوا شقيقي الرائد سون وزوجته السيدة يويه. قولوا لهما: "سيدتنا تعاني من مرض خطير وترجوكما أن تحضرا إليها على الفور".

وأضافت السيدة غو قائلة: "قولوا لهما إني في حال يائسة، وإن لديَّ شيئا هاما أريد الإفضاء به إليهما. قولوا إنه ينبغي أن يحضرا، وإن حضورهما آخر فرصة تتاح لهما لرؤيتي والإصغاء إليَّ".

خرج المساعد بالعربة وانتظر سون شين لدى الباب. وحين أزف موعد الغداء رأى العربة عن بعد وفيها امرأة شقيقه، بينما امتطى شقيقه صهوة جواد، يتبعهما دستة من الجنود المشاة. وفيما المركب يقترب من علاَّمة العشرة ليات انحنى شين على زوجته قائلا: "ها هما قادمان".

قالت السيدة غو: "إليك الآن ما أريدك أن تقوم به". وأصدرت تعليماتها في صوت خفيض.

خرج سون شين وحيّا شقيقه وزوجته. وفيما السيدة يويه تهبط من العربة طلب إليها أن تدخل المنزل لرؤية المريضة. وترجل سون لي عن جواده ودلف إلى المنزل بدوره. كان في الحقيقة طلعة رائعة لرجل، مديد العود، له لحية كاملة، ومعروفا باسم الجنرال السقيم بسبب بشرته الصفراء. ولكنه قادر على شدّ قوس قوية، وامتطاء صهوة جواد يموج حيوية، واستخدام رمح طويل ببراعة فائقة. وكان يتدلى من معصمه قضيب فولاذي فيه عينا نمر وسلسلة تشبه البامبو. وكان الناس يصابون بالإغماء من مجرد رؤيته.

سأل سون لي، وهو يدلف من البوابة برفقة شقيقته: "ما بال امرأة أخي؟".

- إنها مصابة بمرض خاص. فلنتحدث في الأمر داخلا.

دخل سون لي. أمر سون شين مساعده أن يرافق الجنود إلى الحانة المقابلة لتقديم الشراب لهم، وأن يدخل الجواد الباحة. وألحَّ على سون لي بالجلوس.

بعد فترة وجيزة خاطب سون شين ضيفيه قائلا: "أرجو أن تدخلا لرؤية المريضة". وقادهما إلى الغرفة الداخلية، ولكنها كانت فارغة.

استفسر سون لي: "في أي غرفة تستريح؟".

في تلك البرهة دخلت السيدة غو يتبعها تسو يوان وتسو رون.

سأل سون لي: "ما هو مرضك، يا امرأة أخي؟".

- تحياتي، يا شقيق زوجي. أنا أقاسي من الحاجة إلى إنقاذ ابني عمومتي.

- هذا غريب جدا. إنقاذ ابني عمومتك؟

- أنت لست أصمَّ أو أخرس. وتعرف من دون ريب أن ذينك اللذين في المدينة هما ولدا عمومتي، وولدا عمومتك أيضا.

- لست أفهم. عن أي ابني عمومة تتحدثين؟

- القضية عاجلة. سأصل إلى الموضوع مباشرة. إن المحترم ماو في سفح الجبل في السحب والكاتب وانغ يتآمران ضد شيه تشن وشيه باو، وعاجلا أم آجلا سيعملان على قتلهما. وقد تحادثت في هذا الموضوع مع هذين الشابين الشجاعين. سوف نقوم بالإغارة على السجن، وإنقاذهما، وننضم جميعا إلى عصبة بحيرة ليانغشان. ولأنك قد تتورط في هذه القضية ادَّعيتُ المرض ودعوتك وزوجتك إلى هنا للإفضاء إليكما بخطتنا. إن لم تشاءا الذهاب معنا فسنذهب وحدنا. أية عدالة يمكن أن نترقب من البلاط الإمبراطوري؟ إن رحلنا فلن يصيبنا شيء. وإن بقينا فسنتعرض للمحاكمة. وكما يقول المثل: "الأقربون من اللهب هم الذين يحترقون أولا". سوف تكون كبش المحرقة وتذهب إلى السجن، ولن يكون هنالك من يبعث إليك طعاما أو يعمل على إنقاذك. ما رأيك في خطتنا؟

- أنا ضابط عسكري في ولاية دينغتشو. فكيف تؤاتيني الجرأة على القيام بمثل هذا العمل؟

- إذا كنت ترفض فلا مناص من منازلتي حتى الموت في هذه اللحظة بالذات!

وأخرجت السيدة غو سيفين، واستلَّ تسو يوان وتسو رون خنجريهما.

صاح سون لي: "رويدك يا امرأة أخي. لا تعجلي. أنا أفكر في المستقبل. فلنبحث هذا الموضوع".

كانت السيدة غو ترتعش رعبا فلم تستطع أن تنطق بحرف واحد.

قالت السيدة غو: "إن لم تكن راغبا في الذهاب، فأرسل امرأة الأخ أولا على أقل تقدير. سنقوم بالغارة من دونك".

- دعوني أذهب إلى منزلي أولا لأجمع بعض حاجاتي وأتعرف على طبيعة الأرض إن كنتم عازمين على تنفيذ ذلك. وبعدها نباشر العمل.

- هذه الأنباء وصلت إلينا عن طريق أخ زوجتك يويه خه. تستطيع إحضار حوائجك بينا نقوم نحن بغارتنا على السجن. سيكون أمامنا متسع من الوقت.

زفر سون لي: "إذا كان هذا ما تريدون فعله فلا أستطيع منعكم. لا ريبة أن السلطات ستحاكمني بعد ذهابكم. حسن إذاً، لنبحثنَّ هذا الموضوع ونباشرنَّ العمل فيه".

كانت الخطة أن يذهب تسو يوان إلى القلعة على الجبل في السحب، ويجمع حوائجه وخيوله، ويرجع أدراجه مع عشرين رجلا من أتباعه المخلصين. فرحل. وسيذهب سون شين إلى المدينة ويستطلع ما لدى يويه خه من أنباء، ويحدد موعدا للغارة، وينقل كلمة سرية إلى شيه تشن وشيه باو.

في اليوم التالي رجع تسو يوان بعدما جمع ذهبه وفضته على الجبل في السحب برفقة رجاله.

فشكَّل هؤلاء، بالإضافة إلى المساعدين السبعة أو الثمانية المخلصين لسون شين، ودستة الجنود الذين أحضرهم سون لي، قرابة أربعين شخصا. وذبح سون شين خروفا، وجعل الجميع يأكلون ملء بطونهم. وطلب إلى السيدة غو أن تخفي خناجر تحت ثيابها، وأن تدخل السجن متنكرة في ثياب امرأة تقوم بتسليم الطعام. وانقسمت القوة إلى مجموعتين واتجهت إلى البلدة. ومضى سون شين برفقة سون لي. وقاد تسو يوان تسو رون.

تلقى باو جي آمر سجن دينغتشو نقودا من المحترم ماو وراح يتحين فرصة لقتل الصيادين الشابين. وكان يويه خه، وقد حمل عصاه الرسمية، يقف في ممر بوابة السجن حين سمع باب المدخل يدق فصاح: "من هناك؟".

أجابت السيدة غو: "امرأة تحمل طعاما".

خمَّن يويه خه هويتها، وفتح البوابة وسمح لها بالدخول. ثم أقفل البوابة وقادها عبر الممشى. ورآها باو جي من السرادق، فصرخ: "من هذه المرأة؟ وكيف تجسر على تسليم الطعام هنا؟ تقول الأوامر من قديم الزمان: لا يسمح بأية اتصالات خارجية في السجن".

- إنها شقيقة الأخوين شيه، وقد أحضرت لهما بعض الطعام.

- لا تدخلها. أعطهما الطعام بنفسك.

أخذ يويه خه الطعام، وفتح باب الزنزانة، وناوله إلى الصيادين. فسألاه: "ما تحدثنا عنه ليلة البارحة هل يسير سيرا حسنا؟".

- لقد جاءت ابنة عمكما، ونحن ننتظر الآخرين لكي يقوموا بعملهم.

فك يويه خه أصفادهما، وسمعا صوب السجان يعلن قائلا: "الرائد سون يقرع على البوابة".

قال باو جي: "إنه ضابط الحامية. فماذا يطلب في هذا السجن؟ لا تدخلوه".

وانتقلت السيدة غو إلى السرادق في رشاقة.

نادى أحدهم من الخارج صائحا: "الرائد سون يضرب على البوابة".

هبط باو جي من السرادق غاضبا. فصاحت به السيدة غو: "أين شقيقي؟". وأخرجت خنجرين براقين.

أدرك باو جي أنه في مأزق خطر، فأسرع يبتعد عن الباحة. فالتقى الشقيقين شيه مباشرة، وكانا قد اندفعا خارجين من زنزانتهما، ومخلعتاهما في أيديهما. وقبل أن يتمكن باو جي من الدفاع عن نفسه ضربه شيه تشن بقوة بطرف مخلعة فحطم له جمجمته.

كانت السيدة غو قد طعنت أربعة أو خمسة من السجانين، وشقت برفقة السجينين، وهي تصرخ وتصيح، طريقا للخروج. كان سون لي وسون شين يقفان أمام البوابة. وحين شاهدا الأشكال الأربعة تبرز اتجهوا جميعا بسرعة ناحية مقدمة مكتب الولاية. كان تسو يوان وتسو رون يخرجان لتوِّهم حاملين رأس الكاتب وانغ.

سارت الجماعة قدما وأفرادها يصرخون بوحشية. انطلق المشاة في المقدمة، والرائد سون يمتطي صهوة جواده، وقد ركب في قوسه سهما، ويحرس الجميع. وأغلق الناس في الشوارع

أبوابهم. ولم يخرج منهم أحد. وعرف رجال شرطة الولاية الرائد سون فخافوا أن يورطوا أنفسهم.

تجمهرت الجماعة حول سون لي وأسرعت خطواتها عبر بوابة المدينة، واتجهت مباشرة إلى علاَّمة العشرة ليات. هنالك صعدت السيدة يويه إلى عربة. وركبت السيدة غو حصانا، وتابع الموكب مسيرته.

احتجَّ شيه تشن وشيه باو: "لم لا نثأر لنفسينا من ذلك النذل المحترم ماو".

قال سون لي: "فكرة جيدة". وخاطب سون شين ويويه خه قائلا: "رافقا العربة وتابعا طريقكما. سنلحق بكما".

صدع الاثنان بما أمرا به. وسار سون لي برفقة الشقيقين شيه، وتسون يوان، وتسو رون، وبقية الأتباع إلى مزرعة المحترم ماو مباشرة.

كان ماو تشونغ يي يقيم مأدبة للاحتفال بذكرى ميلاد والده. وكانوا غافلين تماما حين انقضت عليهم جماعة من الشبان الشجعان، صارخين يزرعون الموت. وذُبح المحترم ماو وابنه وأسرته بأسرها، شيوخا وشبانا. وجمع المغيرون من غرف النوم الذهب والفضة والأشياء الثمينة الأخرى ولفوها في دستة من الصرر. وأخرجوا من الإسطبل في مؤخر المزرعة سبعة أو ثمانية من الخيول الرائعة وألقوا على أربعة منها غنائمهم. وانتقى شيه تشن وشيه باو بعض الثياب الجميلة وارتدياها. وأضرموا النار في المزرعة، وركبوا جيادهم.

على بعد ثلاثين ليا أدركوا العربة. وتابعت الجماعة طريقها معاً. وأخذوا أربعة أو خمسة من الجياد الأصلية من منزل مزرعة على الطريق، وغذوا السير خلال الليل ميممين شطر بحيرة ليانغشان.

خلال يوم أو يومين وصلوا إلى حانة شي يونغ. فاستوضحه تسو يوان عن يانغ لين ودنغ في.

– ذهبا برفقة سونغ جيانغ لمهاجمة مزرعة عائلة تشو، ولكن الغارتين فشلتا. سمعت أن يانغ ودنغ أخذا أسيرين. ولا أعرف ما حلَّ بهما. ويقال إن أبناء المزرعة الثلاثة محاربون شجعان، وإن المساعدة جاءتهم من قبل مدربهم في السلاح لوان تينغ يوي العصا الحديدية، وهذا ما جعل هجومينا يفشلان.

ضحك سون لي: "هدفنا الانضمام لقلعتكم، غير أننا لم نظهر أية جدارة على الإطلاق. لنفرضنَّ أنّا عرضنا خطة تدمر لكم المزرعة؟ ما رأيكم في أنِ تكون هذه الخطة جواز مرور لنا؟".

ابتهج شي يونغ، وقال: "يسرني الإصغاء إليها".

– أنا ولوان تعلمنا فنون استخدام السلاح من المعلم نفسه. وكل منا يستخدم الأسلحة بالطريقة ذاتها، ويجيد الفنون العسكرية ذاتها. فإذا أعلنت أني نقلت من دينغتشو إلى حامية يونتشو العسكرية، وأردت المرور به لرؤيته خلال رحلتي فلا مناص من أن يدعوني إلى الدخول. فإذا ضربتُ أنا وفرقتي من الداخل، وهاجمت قواتكم من الخارج، فلا بدَّ لنا من إحراز النصر. ما رأيك في هذا؟".

وفيما سون لي يتابع حديثه دخل ضابط صغير وأعلن: "نزل مستشارنا العسكري وو يونغ عن الجبل وهو يقصد الآونة مزرعة عائلة تشو".

أمر شي يونغ الرسول أن يطلب إلى المستشار العسكري المجيء لرؤية القادمين الجديدين.

وقبل أن تتلاشى الكلمات عن شفتيه خبّت مجموعة من الخيول بفرسانها ناحية الحانة. كان أفرادها ليوي فانغ، وقوه شنغ، والأشقاء الثلاثة يوان. وجاء وراءهم وو يونغ على رأس خمسمائة من القوات. فرافق شي يونغ القادة إلى الحانة، ثم أحضر سون لي والآخرين وقدمهم لهم. وتحدث عن نيتهما في الانضمام إلى العصبة، وعن خطة سون لي. اغتبط وو يونغ أي اغتباط. وقال: "إذا كنتما أيها الشجاعان راغبين في الانضمام إلينا، فأقترح عليكما ألا تصعدا إلى الجبل بعد، بل تعاليا معنا إلى مزرعة عائلة تشو ونفذا هذه الخطة الجديرة بالمكافأة والتقدير كي تنتهي نهاية ناجحة. أيناسبكما ذلك؟".

وافق سون لي والآخرون وقد غمرتهم الفرحة.

قال وو يونغ: "سأنطلق أولا مع رجالي، وستتبعونني أنتم الشجعان".

ذهب وو يونغ أولا إلى معسكر سونغ جيانغ حيث ألفاه مكفهر الأسارير بادي اليأس. فشرب برفقته لإثارة حميته ونفض له جملة الأنباء.

- شي يونغ ويانغ لين ودنغ في يعرفون الرائد في حامية دينغتشو المدعو سون لي الجنرال السقيم. وقد تدرَّب هو ولوان تينغ يوي، مدرب السلاح في مزرعة عائلة تشو، على يد المدرب نفسه. وسون لي هنا مع سبعة من رجاله للانضمام إلى عصبتنا. وهو يعرض، كهدية للانضمام، خطة سيشارك فيها بنفسه للهجوم على المزرعة من الداخل ومن الخارج. وهو في طريقه إلى هنا للقائك.

انفرجت أسارير سونغ جيانغ من مزاج عكر إلى فرحة عامرة. وأمر بتهيئة الشراب وإعداد وليمة، وجعل ينتظر ضيوفه.

أخبر سون لي حاشيته أن يعثر أفرادها على مكان يستريحون فيه. وأحضر الشقيقين شيه، والشقيقين تسو، وسون شين، والسيدة غو، ويويه خه لزيارة سونغ جيانغ. وبعد تبادل التحيات قدم لهم سونغ جيانغ الطعام والشراب. ونكتفي بهذا القدر من الحديث عن هذا الموضوع.

أعلم وو يونغ في هدوء قواته بإشارات سرية. في اليوم الثالث سينفذون هذا... وفي اليوم الخامس ينفذون ذاك... وانتهت الخطط، فتقدم سون لي وجماعته، مع عربتهم ورجالهم ركوبا ومشاة، متجهين إلى مزرعة عائلة تشو.

قال وو يونغ مخاطبا داي زونغ: "أرجو أن تذهب إلى القلعة وتحضر أربعة من القادة. فأنا في حاجة إليهم".

رحل داي زونغ لإنجاز مهمته في الليلة ذاتها.

ونتيجة لذلك، أضيفت أجنحة جديدة إلى أرض البحيرة، وبدلت قلعة الجبل إلى الأبد ملامحها الأصلية.

من كان أولئك القادة الأربعة الذين أرسل وو يونغ في طلبهم؟ إذا أردت معرفة ذلك هلمَّ معنا إلى الفصل التالي.

أبطال على شاطئ البحيرة

الجزء الأول

«أبطال على شاطئ البحيرة» تصف أفعال 108 أبطال، بقيادة سونغ جيانغ، في جبل ليانغشان. كان سونغ جيانغ، في الحقيقة، شخصية تاريخية قاد ثورة فلاحية في المنطقة التي هي حالياً مقاطعات شاندونغ، وخبي، وخنان، وجيانغسو في السنوات الأخيرة لأسرة سونغ الشمالية (960–1127م). وتوجد أوصاف بعض مآثره البطولية في سجلات تاريخية مثل «تاريخ أسرة سونغ»، وكتب تاريخ كاملة مثل «تتمة للتاريخ كمرآة»، ومنها انتفاضة ليانغشان، والهجوم على مقر الحاكم، وقبول العفو، وحملة مقاومة فانغ لا.





وعلى الرغم من أن سونغ جيانغ ترك أثراً قليلاً في كتب التاريخ، بوسعنا أن نتخيل من خلال تلك المرجعيات القليلة كم أزعجت الانتفاضة تحت قيادته البلاط الإمبراطوري بشدة.

ISBN 978-614-01-0560-7

9 786140 105607

جميع كتبنا متوفرة في
www.nwf.com

经典中国国际出版工程
China Classics International

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف